



# النوبة رواق إفريقيا

للعلامة  
ويليام ي. آدمز

ترجمة وتقديم  
محبوب التجاني محمود



# النوبة رواق إفريقيا

(المؤلف الحائز على جائزة ملفيل ج. هيرسكوفتش من جمعية الدراسات الإفريقية في ١٩٧٨)

ناشر الأصل بالانجليزية ألن لين - مطبعة جامعة برنستون (١٩٧٧)

هذه الترجمة للطبعة الثانية (١٩٨٤)

رقم الإيداع  
٨١٨٨ / ٢٠٠٤م

الترقيم الدولي  
I. S. B. N.  
977 - 17 - 1403 - 1

الطبعة الأولى  
القاهرة - ٢٠٠٤

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

تصميم الغلاف + التصميم الداخلي  
جميل مدبولي

مكتب : THREE APPLE - Tel : (202) 7834376

شركة مطبعة الفاطيما إخوان  
تليفون ٧٧٥٠٠٢٤١ القاهرة - مصر





الپروفیسور ولیم آدامز و زوجته فتی آدامز





## عن المؤلف

البروفيسور وليم آدمز\*

Prof. William Y Adams

- من مواليد ١٩٢٧ لوس انجلوس- كاليفورنيا / الولايات المتحدة الأمريكية .
- تحصل على شهادته الجامعية عام ١٩٤٨ - علم الإنسان Anthropology من جامعة كاليفورنيا وقطع دراسته فوق الجامعية عام ١٩٥٠ من جامعة كاليفورنيا لضيق ذات اليد ، والتحق بوظيفة بائع في متجر يقع في محمية نافاهو للهنود الحمر في أريزونا ، وعاد وتحصل على الدكتوراه في علم الإنسان من جامعة أريزونا عام ١٩٥٧ .
- رغم أن تخصصه الأصلي يتعلق بالإنسان الحى Ethnology إلا أنه شارك في حملات تنقيب آثار قبائل الهنود الحمر في جنوب غرب الولايات المتحدة ، وفي الفترة من ١٩٥٧ الى ١٩٥٩ قاد حملات إنقاذ الآثار في المناطق التي كانت ستغمرها إقامة سد جلين كانيون Glen Canion على امتداد نهري كلورادو وسان جوان في أريزونا .
- عام ١٩٥٩ عرضت عليه اليونسكو مهمة مساعدة حكومة السودان لإنقاذ الآثار في المنطقة السودانية المغمورة نتيجة قيام السد العالى بأسوان ، وهي المهمة التي امتدت لسبعة أعوام قام خلالها والفريق الذى يقوده باكتشاف وتسجيل ما يزيد عن ألف (١٠٠٠) موقع أثرى، وقام بعمليات التنقيب فى أكثر من مائة وخمسين (١٥٠) موقعاً منها . وقد عمل خلالها مستشاراً علمياً لمصلحة الآثار السودانية ومديرها المرحوم ثابت حسن، ومن بعده المرحوم نجم الدين محمد شريف .
- عام ١٩٦٦ إلحق بجامعة كنتاكي كأستاذ كرسى علم الإنسان Anthropology حتى تقاعده عام ١٩٩٢ ؛ ترأس خلالها قسم علم الإنسان على مدى فترتين .
- عاد إلى السودان عام ١٩٦٩ يقود فريقاً من جامعة كنتاكي لإجراء حفريات أثرية في كلوبنارتي (جزيرة كُلبُ) "Kulub' n 'arti" عند حدود بحيرة النوبة إلى الجنوب ، ثم عاد مرة أخرى بعد عشرة أعوام ليجرى الحفريات فى مقابر كلوبنارتي.

■ أثناءها ارتبط وانغمس في مشروع تنقيبي بريطاني كبير في "قصر إبريم" في النوبة المصرية شرق بلدة عنيبة النوبية المصرية . وفيما بين الأعوام ١٩٧٢ و ١٩٨٤ نشط في العمل بمشروع قصر إبريم حيث عمل رئيساً ومديراً لموقع التنقيب للأعوام ١٩٧٨ و ١٩٨٠ على التوالي .

■ ومنذ تقاعده عام ١٩٩٢ إنشغل بروفيسور أدامز وزوجته "نتي" Netti Kessler Adams بإعداد ونشر تقارير حفرياتها النوبية . وكتب مؤخراً كتابين حول عمليات التنقيب في كل من "كلوينارتى" وقصر إبريم في طريقها الى النشر قريباً .

■ ألف بروفيسور أدامز (٨) ثمانية كتب أثرية ، ونشر أكثر من مائتين وخمسين (٢٥٠) بحثاً ومقالة ومذكرات تناول ما يزيد عن نصفها التاريخ والحضارة النوبية، إلا أن كتابه " النوبة : رواق إفريقيا" يعد من أهم كتبه علي الإطلاق.

■ البروفيسور أدامز عضو مؤسس في " الجمعية العالمية للدراسات النوبية " وشارك في جميع مؤتمراتها العامة ، كما شارك في جميع مؤتمرات جمعية الدراسات المروية. وهو الآن عضو شرف مدى الحياة في جمعية البحوث الأثرية السودانية في المملكة المتحدة ، كما أنه حاصل على عضوية مدى الحياة في جمعية الدراسات السودانية في الولايات المتحدة الأمريكية .

■ وكما تعلم لغة نافاهو للهنود الحمر في مطلع شبابه وكانت وسيلة تخاطبه مع أفراد القبيلة في تعامله معهم ، فإن البروفيسور أدامز يتحدث النوبية بطلاقة يحسده عليها كثير من شباب النوبيين في الداخل ومناطق الاغتراب، رغما عن نوبيتهم أبا وأما ثم أبا عن جد .

■ وقد تفضل البروفيسور أدامز - الذي كان يتابع عن قرب واهتمام قيام مركز الدراسات النوبية والتوثيق في القاهرة وبداية أعماله - بقبول ليس فقط للعضوية الشرفية مدى الحياة في المركز ، بل في عضوية لجنة العلماء والإستشاريين بالمجلس ( اللجنة الإستشارية العليا ) . وقد تشرف المركز بإستجابة البروفيسور أدامز في أريحية وتواضع العلماء بأن يكون أحد أوائل رعاة المركز Patron ثم تنازله عن حقوقه المادية كمؤلف يُعتبر بمثابة الأب الروحي ، إن استعَرنا التعبير أو الإسم "Godfather" ، لمركز الدراسات النوبية والتوثيق .

---

(\*) تعريف مركز الدراسات النوبية والتوثيق للمؤلف ، بتصرف - المترجم .

## عن النوبة : رواق إفريقيا

\*NUBIA : CORRIDOR TO AFRICA

بعد كتاب " النوبة : رواق إفريقيا " *Nubia : Corridor to Africa* تأليف البروفسور وليام ي . آدامز Prof. William Y. Adams أستاذ علم الإنسان Anthropology بجامعة كنتاكي - ولاية كنتاكي بالولايات المتحدة أهم وأشمل كتاب عن تاريخ النوبة والسودان منذ نشأة الحضارة الإنسانية حتى بداية العهد الوطنى . والكتاب يقرب من الألف صفحة من القطع المتوسط ويحمل بين دفتيه عدداً كبيراً من الخرائط والرسومات البيانية والتوضيحية ، كما يحتوى على صور عديدة لمواقع الآثار والحفريات فى السودان منذ بدايتها الأولى إنتهاء بحملة اليونسكو العالمية لإنقاذ آثار النوبة من عام ١٩٥٩ إلى ١٩٦٩ ، وهى الحملة التى ترأسها فى السودان مؤلف الكتاب البروفسور آدامز.

ومنذ صدور طبعته الأولى عام ١٩٧٢ إحتل الكتاب مكانته العلمية والأكاديمية المنفردة إذ صار المصدر الأول لتاريخ النوبة والسودان ، وتخطفت طبعته الأولى الجامعات والمعاهد والمراكز الأكاديمية ذات الصلة إذ جاء نتاج تلكم الأعوام المتصلة من البحث والتنقيب التى تم فيها تسجيل ورصد ما يزيد عن الألف موقع للآثار فى النوبة السودانية . وتم التنقيب الفعلى فيما يزيد عن المائة وخمسين موقعاً منها أصدر عنها البروفسور آدامز فضلاً من الكتابات والأبحاث تلخصت كلها فى كتابه " النوبة : رواق إفريقيا " الصادر عام ١٩٧٢ وقد ضربت شهرة الكتاب الآفاق إذ حمل نظريات حديثة فى علم الآثار الميدانية وعلم تداخل الحضارات وجدت قبولاً وانتشاراً علمياً منقطع النظير بحسبانه يجمع كل تخصصات مؤلفة ومجالات بحثه ومنها دراسات مشابهة عن حضارة وثقافة الهنود الحمر فى جنوب غرب الولايات المتحدة حيث عاش فى إحدى المحميات لما يزيد عن العشرة أعوام .

بصدور الكتاب إحتل البروفسور آدامز مكانته العلمية المرموقة كأحد علماء علم الإنسان والآثار وصار أكثرهم شهرة لعلمه الغزير وعطائه الشر . ونال الكتاب جائزة هيرسكوفيتش من "جمعية الدراسات الإفريقية" *Herskovits Prize* للعام ١٩٧٨ بوصفه أحسن كتاب صدر عن إفريقيا للعام ١٩٧٨ رغباً عن أن للمؤلف ثمانية كتب وما يزيد عن المائتين وخمسين (٢٥٠) بحثاً ومقالة ومذكرات يتناول ما يزيد عن نصفها التاريخ والحضارة النوبية ، إلا أن كتاب "النوبة : رواق إفريقيا" يعتبر أهم كتبه على الإطلاق وذلك بشهادة كل المشتغلين والمهتمين بالتاريخ والثقافة النوبيين بما ينقل من تطور نظرى فى غاية من الأهمية بأسلوب

(\*) إركى ، ١٩٩٦ ، الطبعة الأولى

إصدارية مركز الدراسات النوبية والتوثيق ، القاهرة ، ص ٣٠ - ٣٢

ومنهج علمي دقيق ، كما أن المؤلف نفسه يفتخر بهذا الكتاب الذي يقول عنه أنه إنجاز عمره ومولوده الذي لا يحب سواه بمقداره .

وقد صدرت الطبعة الثانية المنقحة عام ١٩٨٤ وهي تضم ما استجد من معلومات من واقع الحفريات النوبية قام هو ببعض منها في كلوبنارتى ( جزيرة كُلبُ *Kulub' n' arti* ) في النوبة السودانية ، ثم " قصر إبريم " في النوبة المصرية ، والمعلومات التاريخية الصادرة عن حفريات مماثلة في مصر والسودان . والبروفسور آدامز ظل وما يزال شديد الحماس لترجمة الكتاب إلى العربية لإحساسه - حسب قوله - بضرورة أن يعرف النوبيون خاصة والسودانيون عامة عظمة تاريخهم وحضارتهم ، وأهمية دورهم المتميز في التطور الإنساني والثقافي والمعرفي ككل .

23 June 1991

Dr. Mahgoub El-Tigani Mahgoub  
c/o Mohammed A. Mahgoub  
P.O. Box 5706  
Makkah  
Kingdom of Saudi Arabia

Dear Dr. Mahgoub,

As-Salam Aleikum!

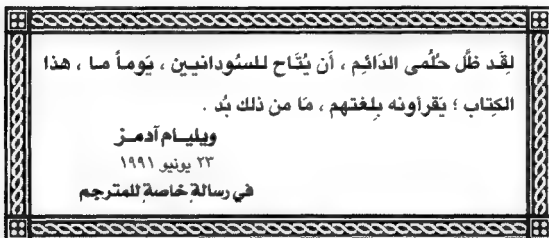
I am indeed delighted to here that you want to go on and finish the translation of "Nubia" which Dr. Gamal started. It has always been a dream of mine that the book should someday be available to the Sudanese people in their own language. And of course I would be most pleased to have the work dedicated to Dr. Gamal himself; I can't think of anything more fitting.

I look forward to hearing from you about the matter of publication, and I will be looking into matters from this end.

With heartiest good wishes,

*Bill Adams*

An Equal Opportunity University



UNIVERSITY OF KENTUCKY  
DEPARTMENT OF ANTHROPOLOGY

211 Lafferty Hall  
Lexington, KY 40504-0024

Tel: (606) 257-2710  
Fax: (606) 323-1959

16 August 2003

To whom it may concern:

I am both the author and also the copyright holder for the book, *Nubia, Corridor to*

*William Y. Adams*

William Y. Adams





# إهداء الترجمة العربية

إلى روح المعلم  
جمال محمد أحمد

إلى سرّ شرق ،

سفير السوراه :

الكتيب العربي ، والفكر الإفريقي الإنساني

بسم الله الرحمن الرحيم

## تصدير المترجم

### النوبة : رواق إفريقيا

- ١ -

كتب البروفيسور ويليام ي . ادامز : " هذا الكتاب في وضعه السليم تاريخاً للنوبة أكثر منه تاريخاً للسودان " ...

وحقاً ، مع ذلك ، أن الكتاب - بسلامته وضعه - يعد تاريخاً للسودان أوسع منه تاريخاً للنوبة ، فالنوبة بحق هي مدخل البلاد وصدرها الوحيد المنفتح على العالم المعروف إلى عهد كان ولا يزال قريباً ... والرواق المؤدى بإفريقيا إلى مرافئ البحر الأبيض المتوسط ، بحيرة الحضارات الماثورة يقترح المؤلف في هذا المجلد الجامع أن يحكى " القصة القديمة للنوبة في طريقة جديدة : حكاية متواصلة للتطور الثقافى لشعب بمفرده ، وليس المهم فيها ، جينة ممثلين بأعينهم أو ذهابهم " ، تقطع هذه الصفة من عمر الزمان مائة ألف عام أفصحت بعض أثارها عن عمر سكانها ، ولعلها تزيد عن ذلك دهرأ .

ولأن النوبة أضحت مولجاً لتاريخ حضارى عريق ، استنّ المؤلف منهجاً فارق به علماء الآثار والتاريخ القديم لمنطقة النوبة . ذلك أنه يقدم وجهة نظر " متمركزة حول النوبة " في محل النظر الواحدة " المتمركزة حول مصر الفرعونية خاصة " ، والتي رآها منعكسة على معظم رفقاء العلماء ذوى الاختصاص في هذا المضمار . إنه يوقن أن " الرؤية المتمركزة حول النوبة ، وإن لم تكن أفضل دقة ، فإنها على الأقل أحسن ملاسة للنوبيين " الذين يعتزم قص قصتهم إنه بقول صريح ، يريد أن يوفيههم حقهم .

فمن بعد كرمه " حضارة العصر الفضى " - إذا جازت تسميتها إلى «العصر الذهبى للحضارة الأسرية في النوبة» كما دعاها الأستاذ ادامز ، يستقرئ المؤلف أحداث التاريخ سياقاً ومعنى ومضموناً ، ليؤكد أن أجداد الأمة السودانية - على ما كان بينهم وبين المصريين القدماء من توائم سكانى وحضارى يصعب فصله - كانت لهم حضارتهم الخاصة بهم قطعاً « إنبعاثاً ناهضاً ذا قيمة ثقافية وأهمية سياسية » ويتحليله العلمى الأخاذ ، يستدل البروفيسور من المادة الأثرية ، نصاً وصرحاً ، معالم ساحرة لتطور الحياة فى النوبة القديمة ، ممتدة من جنوب مصر وشمال السودان وأواسطه إلى منطقة سنار الحالية ، شاطراً فى منطق ودليل هيئة الحكم فى هيكل الدولة ومسيرة ملوكها وتطور أيدولوجيتها ، ومثبتاً بما لا جدال فيه شخصية النوبة المستقلة ، والقوانين الإجتماعية التى خضع لها تطورها ، لا سيما علاقة «التحضر والتوسع الإقتصادى والنهوض البرجوازى للطبقة الوسطى» بمركزية الحكم الملكى واستبداده ، ثم البروز الساطع فى قصة الحضارة السودانية العتيقة لتصاعد حرية المعتقد والعبادة منذ آلاف السنين - جنباً إلى جنب - مع نهوض الحرية الإقتصادية وتداعى الهيمنة الإدارية والسياسية للصفوة الحاكمة وكهنوتها الدينى ؛ وبالتالى عمق التمييز بين الدين والدولة فى الحضارة السودانية منذ أقدم العصور ، وارتباطه الوثيق بالتقدم الحضارى والثقافى للسودانيين .

يطرح ادامز منهجاً تحليلياً فكرياً مبيناً على اسس من " دائرية الثقافة " ، وإيمان يقوم على البيئة

والموضوعية ؛ فيرى من خلال ذلك تفرد الشعوب ، وعالمية الحضارات ، إلى « النعمة المستحدثة » التى تمرغت فى ديباجها حضارات قديمة وأخرى حديثة ، ويقول : " إن مسلك المصريين القدماء من العنجهية المبالغة يعود إلى حد ما إلى النعمة المستحدثة ، إذ أن نهوضهم نفسه من الحياة الوحشية إلى الحضارة كان خاطفاً " . ثم يخلص من ذلك بتوثيق علمى إلى تقارب ثقافات العصر الحجري الحديث فى مصر والنوبة وأجزاء أخرى فى إفريقيا . ويذكر أدامز فى تحديد عوامل نمو وارتقاء مصر الفرعونية ، ويحسم ، أن " الحروب الأوروبية لغيليب الثاني كانت مموله بفضة المكسيك ، كما كانت قوة مصر فى آسيا مموله بالذهب النوبى " يشد من عضدها فى إفريقيا العنصر النوبى بنفس القدر أو يزيد قليلاً ؛ وما زال دأبه إلى أن تولى بنفسه حكم مصر والنوبة قرونًا عديدة ... إن مؤلف أدامز يمزج عنجهية الحضارات القديمة فى تربة التاريخ العفراء ، مبيناً بجلاء سجالها ، وكاشفاً فى جرائم وعلم تحيزاتها الجوفاء .

" لم يكن مركز النوبة الفريد أرضية لتلاقى العالمين ليتحدى حتى انفتاح تجارة القوافل ، فى الألف الأخيرة قبل الميلاد ؛ ولم يطاول إلا حين افتتح عصر الكشف العظيم سواحل إفريقيا فى القرن السابع عشر . فى البداية ، ولقرنين طويلة فيما بعد ، كانت النوبة إفريقيا إلى الحد الذى كان فيه العالم الخارجى معنياً . على طول التخوم الصحراوية ، المكان الوحيد الذى يمكن للمقيمين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أن يروا فيه بارقةً من عالم آخر ، وراء الأفق الجنوبي " .

لقد رأى علماء أمثال بدج إن آثار السودان " لم تكن فى الحقيقة سوى عمل يقوم به الأجانب " . البروفيسور ويليام بي . أدامز يريد عليهم بقوله " من السخيرة أن العام الذى شهد وجهة نظر بدج المتشائمة شهد كذلك استهلال البحث الأثرى فى النوبة الذى كان سيثبت أنها خطأ فادح " ، والاستعمار الفاشم هو من مفسر حضارتها العريقة وأطال غفلة العلماء عنها وتحيزها الأعمى بشأنها رديحاً طويلاً . فالحضارة الكوشية استمرت ما يزيد على الألف عام ، وتعتبر بحساب الزمن أطول فترة من الحضارة المصرية والقوى الآشورية والفارسية والمقدونية ؛ وظل فراعنتها يتجوجون قرناً من بعد قرن بعد الميلاد . ومثلما برعت فى القتال واشتهرت بالنبال ، إنتقلت منها زراعة القطن وربما صناعة الحديد ، وازدهرت خارج الحدود المحلية ملامسةً البحر الأبيض المتوسط وأعماق القارة .

بالرغم من كل هذا التكريس للنوبة لا يتبنى أدامز أياً من التيارات الفكرية والأيدولوجية المحدثه التى عمت الساحة منذ خمسينيات هذا القرن ، والتى تؤسس على العنصر الإفريقى بمحض اللون وحده دعوةً شاملة لمراجعة العلاقات القارية والدولية ، وتهدف لإعادة تدوين التاريخ بما يقيم ميزاناً جديداً للحياة الإفريقية والعالمية . لم يكن ليرفض بقوة " إستعلاء " إغلبية علماء الآثار المصرية الفرعونية على حضارة النوبة القديمة ، فيما أصلاوا به سلوك الفراعنة أنفسهم بشكل أو بآخر ، ليستبدله قبولاً " بإستعلاء " جديد للعنصر الإفريقى على غيره من الشعوب والأجناس . إن رأيه الأجلى هو التعايش السلمى والحقوق المتبادلة على قدم المساواة بين الأفراد والجماعات ، وبين الثقافات والحضارات ، والإختيار بين ذلك دونما إكراه . وهو رأى يدرك إدراكاً عميقاً أهمية النظر والتمعن فيما يحوى المؤلف من تحليل ، وتفسير ، ونقد ، وتقويم . ليس طرْحاً نظرياً مسبقاً . لذلك أكد هوية النوبة الثقافية وملامحها ، والتى عبر مؤلفه السائح فى غياهب القرون يلقى الضوء على " حضارتها وروحانها " فى العصور ، عهداً عهداً .

## ٢-

يستمد السودان اكبر الأقطار العربية والإفريقية مساحةً وأقدمها تاريخاً وحضارة . تراثه وشواهد آثاره من اثار النوبة وتاريخها . فلنمر على بعض ذلك بإيجازٍ نامل أن يكون ثاقباً ، قطوف من الكتاب ...

«مصر الفرعونية وكوش النبتية كانتا حضارات محدودة النطاق ؛ وكانت مصر البطلمية (البطليموس)\* وكوش المَروِيَّة تعبيرين إقليميين لحضارة عالمية ... مروى ، الأسطورة التي قدمها للتاريخ « هيرودوتس واسترابو » وصانقها « جيمس بوس » عام ١٧٧١م ، لغتها المنسوبة لطلاسم لم تُفك رموزها بعد . إنها عقدة التاريخ القديم ؛ أهراماتها تَواصلُ من التطور العنيد ؛ تقدم أكبر مجموعة من الأهرامات في أى مكان من الوجود ؛ أجبر مندوبيها على السفر إلى ساموس البعيدة ، على ساحل تركيا ، ليلتقسوا السلام فى البلاط الإمبراطورى بشرط أن يحقق السودانىون السلام ، فالتفوا جزية الرومان ؛ وذلك مما حققه أدامز . جاس أجداد السودان العالم القديم ، سفارة وسلاما . وقد عاشروا حروب ، وخبروا عدوانته ، قوة وقياماً . عاشوا عصرهم وما أنكرهم ، ولا ينكرهم إلا طامع أو ناقد ... دولة لآلف عام بلا انقطاع . تواصل منها « بلانة » و « قسطل » ، وإن تعلقا فى فراغ تاريخى " ثقافة فريدة بتيجانٍ مرصعة ، وزينة فضيَّة لا تُضاهى رقيقاً .

تهارقا ، التالى لأخر فرعون « إثيوبى » [ فيما يعتبر المؤرخون القدامى أعضاء الأسرة النوبية الحاكمة فى النيل « أثيوبين » هـ ] هو « النوبى الوحيد الذى ذكر اسمه فى الأنجيل ؛ الأول ، والوحيد فى الأسرة المالكة النوبية الذى اتجه بجديّة من مهمة الفتح إلى مهام ترسيخ الحكم . وعندما مات تهارقا " كان لا يزال مستحوذاً على الأقاليم المصرية فى مصر العليا التى كان حكمها أبوه وجده أنفاً " .

بعضى الذى أنجبه ، ظلت مآثره أخذة بإعجاب الكتاب والمؤرخين لتلك الأزمان السحيقة ... ومن ذلك فروسيته ، وحلمه ، وابتهاجه بالخيل ، وترفعه عن البطش بالأسرى ، وتسامحه ضمن صفات رفيعة أخرى . أما فتحه لمصر " فهو وثيقة إنسانية ... بمستوى غير عادى " .

ويذكر أدامز مشدداً أن صناع الحضارة من النوبة كانوا رجالاً أقوياء ، إحتاج إليهم الكهنوت فى الكرتك وجبل البركل ، عقب إتهيار إمبراطورية مصر التوسعية وما خلفته من فراغ فى السلطة بكل من النوبة ومصر العليا ، ولا ينتمون إلى « العنصر الممتصر » من سكان وادى النيل . ثم يُعدهُ خصائص تفردهم ، ومنها أن صروح النوبة المعمارية تتميز بتفرد و غرابة أحيانا " والدفوفة واحدة من أكثر الهياكل غرابة فى النوبة ، وهى الوحيدة من نوعها فى الوجود " و " لإستكمال صورة الأبهة الهمجية يمكن القول : إن عدد القرايين البشرية فى المدفن التلى المجهول فى كريمة يبلغ ٢٢٢ قرباناً ، بلغت ٤٠٠ قبل النهب . أى أكبر عدداً مما وجد فى أى مدفن لأية حضارة " .

لقد كان على مثل تلك النزعات والممارسات أن تمضى فى الزمان عصوراً قبل أن تجد العناصر الخيرة ، فى المسيحية ثم فى الإسلام ، مرافد سامية أزالَت فى كنفها مبالغات الطاغوت ، وأنشأت اشكالا من صروح الثقافة والحضارة ، إلا أن الدائرة تعود فى العصر الإقطاعى بطغيان جديد ومواجهة مستحدثة . ومافتى الثلاث النوبى متعلقاً بشئ من بقاياها ، يورد المؤلف من سجاياها الأمثلة والنماذج .

أما أمهاتنا نساء النوبة ، كما كتب بورخارت فى السنوات الأخيرة للعصر الإقطاعى ، فجميعهن على خلق حسن ... والأعظم فضيلة " : وما جاء عنهن قبل ذلك العصر بفضلهن غير مُخل .

- ٣ -

" حوى تحضرُ مروى درجة من التمايز الإجتماعى والتخصص الإقتصادى يصعب تكراره قبل القرن العشرين " ، ولقد عُرف النوبيون بتلاقح ثقافتهم مع ثقافات الحضارات العالمية ... وسيمر القارئ على حضامات رومانية ، ومعاصر ، ومواد بنائية جبيرة ومسحوقة محجرة اللون ، جنباً إلى جنب مع الكتابة الإغريقية وطرائق الدفن المصرية والأساليب السودانية ؛ وسيجد وصفاً طويلاً لمنتوج الفخار النوبى " بمكانة المشرف فى متاحف العالم ، وبتأواقه المحلية المحافظة " . ولا

(\*) بدلاً عن البطليموس والبطلمسة ، أخذنا بالبطلمى والبطلمة لتطبيقها مع نطقها الاصلى Ptolemy - المترجم.

يستبعد البروفسور أدامز صناعة زجاج محلى ، وإن لم يعثر على أجهزة صنعه بعد فى النوبة . فحين دخلت المسيحية ، تناثرت أضواؤها على المبانى والفنون والآداب . ولما دخل الإسلام ، إنتشرت أنواره قاطية ، وبلغ مكتشف الفن منها خزفاً مصقولاً وخطاً عربياً ممسوقاً بالآى الحكيم ، منزهاً عن الشرك ، مطهراً من التضليل .

إنثقلت خصال " أرض النبال " ، كما كان يسميها المصريون القدماء وفق ما أنبأت به نقوش الرموز الهيروغليفية ، اخذة " رماة الحق " إلى المسيحية بما حملت من نسق روحى ومعانى جديدة فى التسامح والفضائل المكتسبة ، تفتت إستعلاء الفراعنة وإزدياء الأباطرة للشعوب والأفراد إرتقاء بالدين وتطور مراحلها .

قادت الزعامات الدينية والملكية فى النوبة شعائر الإيمان ، وتعهدتها بالرعاية صروحاً تذكارية لعبادة الآلهة ومدافن " كرمة " فى العصور الوثنية ؛ ثم الكنائس والأديرة وصوامع النسك والزهاد المسيحيين ؛ إنتهاء بالشهادتين وقيام الممالك والمشيخات الإسلامية ومنشأتها التعليمية . وكانت الثقافة السودانية تتخلل هذه الممارسات والعقائد ... بناء للأهرامات وصياغة للمنصب والمسلمات والنحوت ، وعماراً للصروح بعد الأضرحة ، وتعلقاً بالطرق الصوفية قديمها وحديثها ، بين خصائص عديدة أخرى . فى كل هذا النسيج الدهرى العتيق للنوبة مغزل وخيوط ...

#### ٤ -

عاشت الأديان السماوية متآخية على مدى القرون فى بلاد السودان القديم ، جاذبةً بذلك السمو لمن لا دين له . " فليس ثمة بيئة على عدواة صريحة للمسيحية من ناحية الحكام النوبيين المتأخرين أو رعاياهم . فالكنائس لا تظهر علامات على سلب أو إحتقار ... كثير منها محفوظ فى جودة ؛ بعكس ذلك ... إن المسيحية إستكانت ، بعد إنتشار الإسلام ، ليس إلى الضغط الخارجى للإسلام ... وإنما نتيجةً لضعفها التنظيمى والروحى الخاص بها " . إلى هذا خلص البروفسور أدامز بعد فصول دقيقة أودعها تاريخ المسيحية فى السودان إلى خلاصة ذات شأن ومعنى - ويثبت فى مؤلفه القيم كيف ظلت النوبة ملاذاً للمسلمين ، والأقباط المسيحيين من قبلهم ، وحيث استقبلت قبل ذلك جمعاً من الملكانيين والوجوديين مذاهب مسيحية متصارعة أما الفن النوبى المسيحي فشهد عليه " أرقى فن حائطى لإفريقيا المسيحية " الموجود فى كاتدرائية فرس .

وملمحاً إلى وفرة المدون التاريخى للنوبة فى العصور الوسطى ، مقارنةً بأى فترة سابقة ، يؤكد أدامز فى رصانة بليغة " أن هذا الظرف يرجع غالباً إلى الإستقصاء الفكرى والطلة العريضة التى ميّزت زمناً مجتمعت الإسلام العليم ، جاءت معرفتنا بالشخصيات والأحداث معظمها من تقارير المؤرخين والجغرافيين العرب . كانوا أفضل علماً وأقل تحيزاً من معظم رواة الأزمان السابقة ... كانوا أقل ميلاً من سابقهم لنظرة الإستعلاء على الإفريقيين ، وفى سردهم غير العاطفى إستقامة ، وقد اكتسى النوبيون - يبدو لأول مرة فى التاريخ - شخصية لأخوة فى الإنسانية ، عاديين لا تتخلفهم العيون " وضرب أدامز الأمثال على سعة أفق المعاملات الإسلامية فى النوبة المسيحية . وكتب فيما يبدو ثناء عن إتفاق القبط التجارى ، وفتوى قاضى المسلمين بحرية النوبة فى أراضيهم ، إذ لا يصح شرعاً إعتبارهم عبيداً لملكهم ، وكتب أيضاً صوراً عديدة أخرى تبرز الإحترام العميق الذى تبادلته المسلمون مع النوبيين المسيحيين قبل إنتشار الإسلام فى بلادهم .

#### ٥ -

تناول الأستاذ وليم أدامز الهجرة وأثارها فى النوبة منذ أقدم الفترات الزمنية ، مدلياً برأى جدير حول الإستعراق ، عقب تدفق القبائل العربية . وقال : " لم يفقدوا دياناتهم فحسب ، وإنما لغتهم النوبية أيضاً ، وهؤلاء الناس هم الذين يُسمون اليوم " قبائل الجعليين العربية " ، الجيرة الجنوبية

للنوبيين الحقيقيين " . إنه لرأى مثير ، جدير بالتأمل ، يضاف إلى ما يخص به المؤلف من آراء وأفكار لعلها على غير ما ألف قراء كثير للتاريخ والآثار ، وأخبار العصور السالفة . ومما كشف النقاب عنه أن المسيحية بقيت منها ممالك حتى الغزو العثماني ، مثل مملكة دوتوا : إن « علوة » ربما حكمت حكماً إسلامياً قبل تدميرها بتحالف الفونج مع العبدلاب ؛ وإن العبدلات ورثوا "علوة" عنوة ، ثم نافسهم الفونج من بعد ذلك وتقاوسما السلطان نحو ما جرى في السيرة . على أنه ثبت للنوبيين من قبل ذلك كله بقايم السلالى والنقافى - عنصراً متميزاً - منذ باكورة العصر الحجرى الأول ، دافعاً عنهم غلواء الذويان فى الأجناس المجاورة إلى أن عصفت الأنساب العربية - فيما رآه اختلافاً - بخصائصهم الحقّة .

بيد أن عروبة السودان الشمالى خاصة ليست مما يصح نقصانه ببنية المادة التاريخية نفسها ؛ وقد أفاض أدامز فى مراجع تحصيلها من عرب وفرنجة على حد سواء ؛ وهى عروبة تغلّلت عروقها وأعرافها فى أعماق السودان الجهوية بقيانئها الأصلية المتفردة ، لادماء يوزن سائلها ، ولا ملامح ترسم تقاسيمها ، إنما نسب وثقافة متمتجة مهما كان حكم الماضى بقسمتها ، فذلك مما يقف عزم الأصحاء على عدله فى الحاضر ؛ وفى ذلك كله وفرة لأهل السودان . فمن ظهور أجدادهم عرباً وأفارقة ، وتمازج الخؤولة والعمومة ، بزغت أجيال وأنظمة من السياسة والإجتماع ، وكان لها مع جبرتها فى كافة الإتجاهات مدار ، وكانت قبائل العرب التى أحاطت بالنوبيين هى " السندان الذى صُهر عليه مجتمع ما بعد التصرانىة " - إنصهاراً ما انفك يسيل على جنبات الوطن السودانى ، لجرة الشمال صدارةً وجدارة ؛ ولو ترك على رضى ثقافته المنسابة لأخرج مزيداً من بدائع الحضارة ، فليس ثمة حرج على السودانيين إن ولعوا بأنسابهم ، وتعلق المسلمون منهم بما يقربهم منها بشرف بيت النبوة ، وقد جعل الخالق خاتمتها فى بيت عربى . إلا أنه لن يبقى لأحد من زهو النسب بحق شئ من ذلك ؛ " فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالقوى " كما قال سيدنا النبى صلى الله عليه وسلم تصديقاً للقرآن المجيد " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ " (الحجرات . ١٢) .

- ٦ -

عبر تطور الإقتصاد والسياسة ، والمراعاة الحتمية لانتقالات العبادة من الأصنام إلى التوحيد ، يصل البروفسور أدامز إلى " أن النظام الإقطاعى فى قاعه كان واحداً دنيوياً ؛ فسلطة الصفوة العسكرية الطاغية لم تتوسد كتاباً مقدساً ، لكنها قامت على تركيب معقد من الإلتزامات القانونية والتعاقدية فى هذه الدنيا ... ما خلاص فى الآخرة .

من ثم يرمى فينهي إلى أن "الحكومة الدينية قاست من العجز التقليدى للأنظمة الإستبدادية . إن بإمكانها أن تدير الشؤون الإقتصادية والسياسية للدولة فى حدود كافية للغاية ، لكنها لم تستطع أن توفر الشؤون الدفاعية باقتدار . ويكون لزاماً عليها أن تطوف لإيجاد منقذ عسكرى فى أوقات الإضطرابات وإذا املت الضرورة ، فتسليمه نصيباً معتبراً من السلطة . هكذا كان الأصل التاريخى للأنظمة الإستبدادية ، بالمعنى الإغريقى للكلمة " . يتحدث الأستاذ أدامز هنا عن الكهنوت المصرى إبان تضعضع الإمبراطورية المصرية ، وهيمنة العسكرية النوبية . إن للصورة فى صفحات الزمان عودة بظالمها الماضى القريب والحاضر المعاش ، فى أكثر من مجتمع ، على اختلاف المسميات والأشخاص والوقائع .

- ٧ -

فى إشارة بليغة ، يشهد الكتاب على حقيقة " إمبراطورية الإسلام وحضارته العظميين " فى الصحراء الكبرى تظلاً ناجحاً فى إفريقيا المجهولة . ثم أورد البروفسور أدامز عبارات عن " حضارة

الإسلام القتالية - التي أعادها الإقطاع في العصور الوسطى ، و -بالحاق كل أنواع الشعوب غير العربية عملاء للقبائل العربية المختلفة التي سادتهم بالقوة - ، وعن - الضريح ذى القبة البيضاء ... رمزاً أرفع أهمية وقيمة من المسجد بالنسبة للسودانيين فيما قال تريمينغهام - . وذكر أن من آثار البقظ - إنعطاف النوبيين نحو تجارة الرق - .

إنها مداخل لقضايا تتعلق بشبهات حول الدين ، وتاريخ تفاعل المسلمين مع تراكيب السلطة والثقافة التي كان عليهم معالجتها ، وهذه ننهض إلى تناولها بإيجاز ، مؤمنين أن الإسلام ما قاتل إلا مُعتدئ عليه أو مُستنصرأ لحق وعدل ؛ إن القبائل العربية عرفت من صنوف العزل والطرود في ظل أنظمة متعددة تفتقت عنها الفتوحات الإسلامية ما لا تسعه مجلدات ، وقد أتى الأستاذ أدامز نفسه على بعضها في حديثه عن أجداد السودانيين من العرب المطرودين جنوباً من مصر ، قبل أن تزول مملكة أجدادهم من النوبة في المقررة المسيحية تماماً . ولم تكن - حضارة - الإسلام مصنوعة من سكان الصحراء ولأجلهم ، دون مساس بما أسهموا به من ريادة وقيادة . لكنها انطلقت من نور إلهي جبار ، فعمت العالمين بدءاً كانوا أم حضراً .

أما حضارات العرب والعجم وثقافتهم فإنها لا تماثل الإسلام - القرآن والسنة - إلا بمقدار ما تلتزم منه قولاً وفعلأ . وعلى ذلك ، لا يعادل أى ضريح ، بيتاً من بيوت الله ؛ وما القبة المقامة لبشر بمسجد ولو تعدت مؤذنته طولأ . فما جاوز ذلك ، فإنه وزر على الداعي قبل الاتباع معنىً أبغ منه شكلاً . أما الثقافة والدين فليسا بشئ واحد . ولعل الأستاذ أدامز في سياق تحليله لسيرة الإسلام في السودان كان على علم بذلك حين نوه بدور علماء الدين خاصة في تمييز الخطأ من الصواب . والحق أبج : فما وُجدت بينة المدافن المتسعة في النوبة المسلمة سوى نقشاً لراحل على شاهد ؛ الضرائح وما علت والقباب وما حوت ، ستورها ورسومها ، لا يأمر بها دين - لا يكسو الحجارة والطين - ، كما قال خاتم المرسلين .

الحديث كذلك واجب حول انعطاف النوبة نحو الرق . لقد احتوت إتفاقية البقظ تبادلاً بين المسلمين والمسيحيين سلعأ تُقبل برقي يُرسل . وقيل إن التبادل كان مأموراً بين قاهر ومقهور - وهو مالم يسنده وصف للمعارك أو ما تبعها من علاقات على وجه التدقيق - فلو كانت البقظ إنتصارأ ، لما بقى من النوبة ملك ليعاهد ويستقبل ، أو يملك حقأ ليرفض أو ليقبل .

كان الرق في وادى النيل قديماً قدم الإنسان نفسه بالحرب وقوانين الغاب . ولعب دورأ في بناء الصروح وإنجاز الأعمال للضخمة ، ومع ذلك كان درجات : الفلاحون يجعلون من الرعاية أرقاء ، وقادة الجيوش والكهنوت الديني يستعبدون الفلاحين ، والملوك يجنون فوق كل شئ فوائض الإنتاج ، يلبسونها حلية وتيجانأ مرصعة .... تسيل بين أحجارها البراقة آلام المقهورين ومعاناة الفقراء .

لقد حرم الإسلام كل ذلك ، وأخرج للرق روافد تزيل أثاره بعد أن قوض أركانه ، وجعل من الإنسان - خليفة في الأرض - ، مفضلاً في الكفارة على أقل الخطايا فك الرقاب ... وما على الدين من حرج إن ظل الإنسان تاجرأ للكهنوت والرق بقوانين من صنع تجارته ورأسماليته ، وسياساته اللاإنسانية الخرقاء .

#### - ٨ -

قبل أن نستعرض دروس النوبة كما تعلمها الكاتب ، من الأهمية بمكان تضمين بعض ما اكده من دور خطير للآثار في توسيع المعرفة بالعمران وحقائقه الإجتماعية الجوهرية ، وما يتصل بها من شتى العلاقات والإرتباطات . " إن وفرة للصروح الملكية - وبها ما لا يكفى دليلاً لتقويم الحضارات القديمة - يتحتم أن تبرز بصورة أكثر وضوحاً ومباشرة من خلال عملية التفتيق في مواقع المدن " وإنها لدعوة أصلية من الخبير الدولي ، الذى أنيط به واجب إدارة الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة

تحت مظلة اليونسكو ومصلحة الآثار السودانية سبع سنوات متصلة في السودان لرفع ستائر التاريخ .

أما القبائل الجنوبية فقد كتب عنها آدمز قائلاً : " ليست جزءاً من قصتنا " ، لكنه يُصرح في وضوح معهود عنه " إنها ظلت تمثل هدفاً رئيساً وإشكالاً أساسياً للحكومات السودانية " ربما بدءاً بدولة مروي ؛ مطالع القرون الوسطى ، " بلغت بعثة نبيرون مشارف جنوب السودان ... وما أعاق تقدمها سوى السدود " التي أعاقَت فيما بعد تقدم حضارة القرن العشرين بأغوارها ، إذ أضافت سياسات التنمية ومركزيتها دون تطوير الأقاليم سدوداً من الآثار السالبة . والحق يقال : ما على الجنوب حرج إن تجرّ نسيباً بحضارات خط الإستواء ، وعلي الشمال أن يؤكد بلا من أو أذى نالقه الحضارة ، وحق الثقافة ، ووحدة التاريخ والنضال ؛ فالتاريخ لا يزال قيد الكشف وإن لم تبرز آثاره بعد ، والقريب منه تمازج لا ريب فيه ... لا يجب أن تُجهل فيه الأدوار .

أما دعوة الأستاذ آدمز لتفقيب المزيد من الآثار النوبية شمالها وجنوبها فمن الأهمية بمكان ، وهي على حد سواء يتيقظ لها الإحساس القومي الأصيل بين السودانيين في الغرب والجنوب ، وما تخفي بطون أرضهم الممتدة من خفايا وأسرار ، وربما لأنها تحمل تغييراً جذرياً لمعظم ما نعلمه اليوم عن التاريخ في شمال السودان . وتكفي الإشارة هنا إلى علاقة الفونج للصيق بالثلك والنوبة . فضلاً عن تعاليفهم مع العبدلات والمجموعة العربية من ورانهم . وهي علاقة وثقى ولو أنها قيد لمزيد من البحث والإستقصاء . إن آدمز يُرجّح إنتماء أصول الفونج إلى الثلك ، لذا فإنه يقصد " بسلطنة الفونج السوداء " ما اصطلح عليه بالسلطنة الزرقاء . صراحة ووضوحاً . مُغلباً سبق العبدلاب إسقاط علوة وحكمها قبل الحلف السنارى ... وتدعى مترجمة كما تقتضى أمانة النقل ، ويستريح إليها تحقيق المؤلف ( السلطنة السوداء ) .

#### ٩٠

أعطى آدمز قسطاً كبيراً من اهتمامه لدروس النوبة . فلم يترك القلم حتى أبدع في صياغته محصلةً نظرية وفكرية جذرية بالتفكير والتتمعن الجاد في قضايا الفكر الإجتماعي الراهن ، كما تعالجها الأنثروبولوجيا (الأصول الإنسانية) والإثنولوجيا (الأصول الثقافية) والإجتماع والإقتصاد السياسى ، إضافةً إلى التاريخ والآثار . وهي منظومة متداخلة في تكامل من الحقيقة الإجتماعية ، يغذى بعضها بعضاً في التراث الإنسانى وإبداعه الحضارى الخلاق ..

كذلك تطرق إلى تشوهات نظرية الهجرة ، وما هى بمفسر أوحده للتمازج الثقافى ، وما هى بدافعة قدم وتواصل الإرث ، وما ينقطع عنه من مظاهر ومضامين . فالهجرة " لم تتظاهر أبداً بوعى كنظرية عامة للشرح التاريخى " فيما يقول الأستاذ : " إن عملية إرتقاء التطور الثقافى كنموذج تطورى لا تقف بإنشاء حضارة العصر البرونزى " ؛ بل إنه فى حالة النوبة لم يكن هناك عصر للنحاس أو البرونز سابقاً لعصر الحديد كما يرجع علماء ، إنما عكس الإرتقاء التطورى مجراه بالأيديولوجيا ، ما سار فى خط واحد طائفاً ينصاع وراء حضارة ما ، تابعة لإدارة له . يقطع آدمز بهذا الفصل الطريق على استخفاف البعض بالأصالة .

أما محددات نظرية الحتمية ، فلا تجد مصداقية لدى ويليام ي آدمز فى النمط الكلى لتاريخ النوبة . ويوجد أصدق منها التطور الثقافى ، بتركيز على السببية الداخلية فى أخذ الشعوب ما يروقها وولائمها من حضارة " عملية " ما ، غير متبدلة من النضج الفكرى " .

لقد درس آخر تماسك للإنتشار الثقافى تأكيداً لأثر العوامل الداخلية للتغير الإجتماعى والحضارى للشعوب بما يتعدى النفوذ الخارجى للحضارات الوافدة ، دون أن يستبعد نفوذها على الإطلاق ؛ لكنه يضع لنظرية " دائرة الثقافة " مكاناً علياً فى فكرة . إنها نظرية تفسر الإنتشار الثقافى



في عالم مجزأ ما بين أناس حضاريين وجيرتهم الأدنى حضارة . هكذا يشاهد التاريخ وعلاقات الشعوب والدول تتدرج في ممراته قائمة ، هاجعة . نعود هنا لترسيخ بيان ما خلص إليه أنفأ من أن "مصر البطلمية ( البطلموسية ) وكوش المروية تعبيران إقليميان لحضارة عالمية " فكل الذي سبق ذلك من أنظمة فرعونية في مصر والنوبة سواء بسواء " حضارة محدودة النطاق " . ما أرغد النوبة ترقد حين يذهب مستعمرها ، وتشقى حين يغدو .

واقع الدورات أن أحداثاً دائرية متوالية الوقوع لا تجليها النظرية الحتمية لأنها ضيقة الحدود...، وإلا فكيف تفسر السمات المشتركة بين كرمة وبلانا وبينها ألفا عام من الزمان ؟ ! - ما كانت خطأ مستقيماً في الزمان ؛ كانت دولة تدور .

-٩٠-

للأيدولوجية مركز رئيس الدور " فنحن ما نفعل " ... خلا أن آدمز يرى دراسته للنوبة تكشف أن " الإنسان هو ما يفكر " . لا أخاله إلا بهذه الرؤية يكتب أن " المهدي كان وطنياً هياً الأرض للأيدولوجية السائدة في القرن العشرين ... وأبعد درجةً بمراحل من المصريين الذين سبقوا أو البريطانيين الذين لحقوا . حاول المهدي أن يظهر نفاية الإقطاع والقبلية وأن يُوحّد اقوام السودان المتعددة في تطام مشترك ومصير واحد ... إنه أبو الإستقلال " إن أيدولوجية الدولة المهدية هي العقيدة الإسلامية وبلتها الوطنية هي الجهاد في سبيلها .

الأسلوب ، والأهمية المحددة لمصير العنصر الفني في التواصل الثقافي ، آخر درس المع إليه البروفسور آدمز فيما يرى أنه تعلمه من النوبة فهو يرى تواصل لا ينقطع في الأسلوب الفني والإرث الثقافي من خلال الفخار والدفن الجنائزي ، والرموز الكتابية ، وما شابه ذلك ، يرتبط بموجهات أيدولوجية متميزة غير وثيقة الارتباط بتطورات إجتماعية أو ثقافية إقتصادية ، لتحتم نشوعها - إن الإنسان يفكر حراً ذا إرادة ... خيطاً - لا كخيط العنكبوت - يجعل من كوش ونبتة وكرمة في غياهب القدم عقداً منظوماً من الهوية المستقلة لسودان ما انفك ثائراً ...

في حوالى ثمانمائة صفحة في الأصل الإنجليزي للمؤلف الأمريكي ، تحال إلى جزئين بالعربية ، كأنما يوعز الكاتب أن النوبة « فكرة أصلية » صمدت عبر العصور أمام رياح التغيير ، وعواصف التعرية المجتاحة للبيئة والمجتمع . لقد أزلت هذه بفعل الحضارات والثقافات المتدافعة قدراً بالغاً من بناءاتها الوصفية وسماتها المميزة . وما بقي منها إلا شئ من الهياكل والصروح ، وبعض من مخلفات القبور وتحف المدافن ، وما في باطن الأرض سرٌ لعله أعظم وأخفى . لكن الفكرة باقية ، ولو تخلى عنها حملتها بالدم والإرث ، ولا يحملون منها الآن إلا قليلاً من لغة . وقد بيّن المؤلف أن أقوى عامل فكرى أعملته المسيحية أنفأ ، ثم ورث الإسلام كامل النوبة .

ينتصر عمل البروفسور آدمز لبقاء الفكرة وخلودها على المادة المندثرة ... جهداً شميناً ، برؤية صافية تنم عن رصانة عميقة في المنطق والتفكير ، اللازمين لقراءة التاريخ واستيعاب دروسه الخالصة . أياً كان ذلك ، فهو يأخذ من حقائقه المادية متشوقاً لكشف المزيد .. يكفي أن اللغة المروية صنو للاتروية الإيطالية القديمة ، إختراعات محجوبة لما تزل ؛ يأخذ ما يحتاجه دونما مغالة ، أو إفتئات . كتابه عن النوبة قصة ، سلسلة أحداث مترابطة ، فصول من الواقع . إنه إتجاه يتسق ، فيما نرى بدورها ، مع ما نص عليه إلتزام المؤلف بالحقيقة الممحصّة . فلقد ذهب الرجل يبحث عن " إنسان بدائي " كما درج على ذلك علماء الأنثروبولوجيا ، فوجد " طفولة الحضارة ومرافقتها " .

-٩١-

في المؤلف معين لا ينصب للفلكلور السوداني وعشاق جذوره . أدنى منه موقف ، وعلاقة ، رأيت أن أسجل منها شيئاً .

جاء في الكتاب ذك لحظائر الأفيال في الحضارة المروية التي اجتذبت قراطجة والبطالمة حتى شيد بطلمي حظيرة للحيوانات الوحشية في مكان ما يجاور سواكن الحديثة لتشنح إلى بلاده . أما العلاقة فهي ما يتداوله أهل السودان عن « أداب الغيلة » - أي الذين يروّضون الغيلة - فليهما غاص الإسم في تراث الأجداد العتيق ، وقد أثبت التاريخ لهم هذا السبق العجيب .

كذلك كان الأسد لدى الأجداد في مروى محبوباً ؛ والسبع لدى العرب رمز بدوره للبأس والملك . يتعانق الرمز بين النوبة والعرب ، وصلاً ثقافياً غير ذى قطع .

أما ديانة النوبة القديمة فريما كانت أول ما مارست تكويناتهم الاجتماعية ، وقد ظلت سائرة الإيمان حتى بلوغ الإسلام أرض شعبها . أخذت من ديانات الجوار والعالم القديم ، تتابع ما يترك ، ولا تتخلي . لا جرم أن كهنة آمون حفروا في كل رابية على النيل معبداً أو نقشاً . . . وفي الحضارة الكوشية المروية قبل الميلاد وبعده بقرن أو يزيد من الزمان ، إخترع الإيمان النوبي لنفسه معبوده الذي لا يوجد له نظير في العبادات القديمة قبل أن ينزل وحى السماء من الواحد الأحد .. إختزلت النوبة أصنام القدم بآباداماك (٢) ورؤوس أسدية .

١٢٠

لعل مما يتقاسمه المؤلف من جهة ، والمترجم من جهة أخرى ، في جهد الكتاب ، عبء التأمل ونوء التفكير ، عزماً ماضياً من أجل المعنى الثاقب للكلمة الأصلية بالكلمة البديلة . على أن أشق ما يقع على الكاتب أنه يصنع ويرفع بناء لغوياً موازيا - إن لم يكن مرادفاً - للصرح الحقيقي الذي أرساه المؤلف وأقامه بلغته الأصلية إنه التمعن المرير فيما قصد إليه المؤلف وأراده ذلك الذي يضاعف من عناء الكاتب ويملك عليه أوقاته، بعقله يفك عقل آخر ... لا غرو أنه يؤلف جديداً دون أن يفقد القديم مادته وابتكاره . وفي ذلك ، لا تقل متعة المشقة ذرةً للكاتب عن المؤلف ، بل لعل الأولى يظهر بعض ما أسرَ الثاني .

لا نضع من جهتنا فيما ورد أنفاً إلا شيئاً من المحاولة التي عمدنا بها إلى معالجة هذا المؤلف ، نجد منها على وجه الخصوص علامات مضيئة من الأمل العميق ، والهدف الروحي السامي نحو بلاد خالدة وأقوام تليدة .. من خلال رواق واحد ، فسيح الأفق ، من الحقوق العامة

إن أثنى درس قد يخرج به الكاتب ، ترسماً لما أصدره المؤلف من دروس عن تاريخ النوبة ، لا تفارق علامات بعينها : فكرة السيرة الذاتية لمسيرة حياتية عن قوم في أمة مستقلة الثقافة . ما من حدود قاطعة بحيث تنأى التمازج ما لا تجرى حياة دونه . فالخالق جعل من الناس « شعوباً وقبائل لتعارفوا » وما بعد ذلك من قول ، طمس الهوية ، واستهوان الطوية ، والدوس على خصائص الإستقلال لا يناقض إلا حكمة التعارف - الفطرة والحرية والحق الموهوب - حركة حقوق الإنسان بأكملها كما تتناقلها السنة وتقرضها موافق وديساتير في عالم اليوم، وهي واضحة جليلة في محكم التنزيل من لدن العليم الخبير. ليت الادعاء ممن يتشدقون يتثبتون بالعمل كتبهم بالقول .

السيرة الذاتية للنوبة كما قصتها علي لسانها العالم الإنسان وليام ى آدمز تعكس إصراراً في مسيرة النوبة الحياتية على ممارسة حقوق الشعب الأساسية : التمتع بالحياة في الإقليم والمساهمة الوافرة في تنمية وتطويرة ، والانفتاح من موقع النوبة علي العالم من حولها.

لقد خاض أهل النوبة ما قُدر لهم في ذلك تاريخاً حافلاً بالصراع وبكافة أشكاله السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وتخبروا من طرائقه الثقافية ما أشق مع إرثهم ومكونه الحضاري الفريد عبر رواق من الإتصال، والهجر ، والهجرة، فالإنقطاع، ثم الوصل تارة أخرى ، يشكلون بتجربتهم الخاصة مدونهم الزمني وسجله التاريخي الطويل .

(٢) هم أربعة رؤوس لكنها تظهر ثلاثاً من الرسومات ، للضرورة الفنية فيما بينو - المترجم.

تلاحمت معالم تلك الصورة الغنية بالأحداث والمواقف مع أنباء العالم الكبري التي تفاعلت معها النوبة أيما تفاعل: الإسلام ، ومن قبله المسيحية، ومن قبلها عوالم الوثنية وحضارات الرومان وفارس، ومن قبلها الإغريق، وترويتها في عمر الزمان الآشورية والفرعونية، وما فقدت النوبة فكرتها ! هؤلاء قوم غزوا مصر وأعادوا من جديد سلطان عيادتها، ثم عادوا إلى مسقط رأسهم، وما ذابوا...

النوبة كذلك ما أذابت نفسها إلا باختيارها... عندما استدامت بعد غزو مصر حكم فرعونها وأمونها... وعندما اعتنقت المسيحية قروناً وأنشأت ممالكها... وعندما دخلت الإسلام وأدخلت العروبة وأصبحت أصولها العرقية ترفد منها الفروع والأنساق الحضارية والثقافية، عادات وأعرافاً لشمال السودان بأكملها، وتلامس جنوبيه عمقاً وأطرافاً...

ذلك كان درساً عن السيرة الذاتية لمائة ألف عام أو تزيد، وهل يقف الزمان عن دوران دولابه، أم أن مزيداً من التفاعل يقبل ويدير، أو يسيل ويجعد؟!

إن إرسال البصر يرتد تصوراً جريئاً حاسماً - ما استرسل أدمز فيه إذ أوقف عمله للنوبة وحدها- وأضحت النوبة كياناً آخر وأصولاً أخرى، هي السودان بأغلب شماله وأواسطه، يستعصى مسيرتها في التاريخ كياناً أكبر، وأصولاً أعرق عندما تعانق في السودان جنوبيه، إختياراً وثقافة مستقلة: نواميس الرواق التي أملت تاريخه ربما تنبسط فسيحة أمامها نواميس رواق من أعماق قارتها...

#### ١٣.

كلمات غالية عن مستقبل النوبة ، لا أرى من خلالها ما يأمله أدمز من «توحد» النوبيين. ولكنني أميل إلى الاتفاق معه على أنهم يذعنون لأيدولوجية العالم دون أن تُخمد ثقافتهم. إنصهر في أمة السودانيين نوبتها ؛ وفي مصر . لا يوجد حقيقة مانع يحرم إنصهارهم . إن الإنفلاق على ثقافة محلية لا يحول دون صهره إلا امتناع الوسائل وتعتن الأساليب ... والناظر إلى مستقبل النضال المشترك بين القوى الراغبة في تحولات الحياة الإجتماعية في وجهة أعلى تقدماً وأرقى إنسانية بوسعها أن يرى بوضوح تجمع الطاقات وتراكمها واستعداداتها القوية للتمدد والإنطلاق من تحت رماد الإهتمام المحدود . يترامى بتلك الرؤية أفق جديد واعد لأهل النيل ...

من هنا ، لا أتفق مع أدمز في وصفه حركة ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وثورتها الاجتماعية " بالطغمة العسكرية "، مثلما لا أتفق مع وصفه الانصار " بال دراويش " ، او المهدية " بالعصيان " ، فهي ثورة شعبية كاسحة .

وقد صنّف أدمز الثورة المهدية " حشداً من الدراويش " و " حركة دينية " ومن ذلك قوله في تصنيفها : " غير أن كلاً من حركة الجيش المصري عام ١٩٥٢ ، التي أطلقت الشعب المصري من إسارها وإن تخلى سيرها وفارقت نوعاً ما مسيرته ؛ وحركة الإمام المهدي عام ١٨٨١ - التي حررت الشعب السوداني من أغلال التركية وإن تحولت إلى سطوة رعبية - لا تقل آثارهما وما أحدثاه في مجتمعي النيل الكبيرين من تحولات نافذة، عن خصائص الثورة وعملياتها وأهدافها الكاملة : هدم نظام وإنشاء آخر مجتمعاً ودولة... " .

ما على الجيش المصري حَرَجٌ ، ولا على المهدي ، إن حَقَّقَا شيئاً . فقد أخرج الزمان بصراع القوى، وحسَم التاريخ شيئاً آخر ... فمن ذا يُفْلَحُ الجزء ، حين الكلُّ لا يَصُلُّ ؟

#### ١٤.

بقيت إشارة هامة إلى اتجاه يتبدى في المؤلف الضخم ، يبدو فيه رأى لأدمز يكاد أن يصير رؤية إستراتيجية .. نلمس أنه يؤكد ثمة ضرورة " لإبتعاد " الشقيق المهيم من أخيه الأصغر كي يستطيع أن ينمو ويتطور .

لا أقاسم أدمز الإتجاه . فالماضى ودروسه لا يجب أن تؤخذ مرآة تعكس الحاضر وتحدد كل المستقبل. ولئن كان الماضى كما طرحه فى إبداعه التأليفى شحنة من تسلسل غير متكافئ ، فإن الحاضر شرطه وقواه . وهى قمية بأعداد صيغة أوفر عدلاً وندية ، وأفضل تقدماً... وأيدولوجيات العالم، وحقائقه الإقتصادية والسياسية ، وما بلغته القوى الإجتماعية فى شطرى وادى النيل تؤكد مجال النضال المشترك. ومن زاوية الثقافة والحريات والذاتية المستقلة أرى مساهمة البروفسور أدمز العظيمة أبرز وأهم، فعلى أساس تلك الملامح ودينامياتها ، يصل مالم يعدل فيه أنفاً بما يجب أن يوفى حقه لاحقاً .

- ١٥ -

إلتزمنا ما أمكن تقريب مقاصد المؤلف ، وتقمصنا ما اقتضى الأمر تأليفه . يمثل ذلك نهج أستاذ الترجمة السودانية الحديثة جمال محمد أحمد الذى يعتلى هامة الإهداء العربى ، مثلما يعتلى الأستاذ راينز هامة الإهداء الأصلى ، وهو اختيار فاقنا فيه حماساً العالم ويليام أدمز مؤلف الكتاب . ولا عجب ، فإن مآثر جمال فى الكتابة والترجمة ظل نبزاً على مر الأجيال ... ابن سرّة شرق ، مفكر العربية ، وكاتب إفريقيا ، وسفيرها السودانى الضليع .

سيجد القارئ بسبب الإلتزام بالنص الأصلى جملةً من عبارات الترجيح [ ما يبدو ؛ عبارات الرجا . ربما لعل ] ، ومرد ذلك على الفور الإلتزام المؤلف بالأسلوب العلمى الصارم فى التقويم والتقدير بمقتضى البيئة - نصيةً أو أركيولوجية - والنأى عن الوثوق حين يكون الشك أولى ، لا سيما وهو ينقد نظريات ويجادل أخرى . حيثما دعت الحاجة - ليسد فراغاً زمنياً لا يقل فى فترات بعينها عن عشرات القرون .

إن جميع الإضافات التى طلبتها الترجمة فى سياق النص أشرنا إليها فى هامش النص . وسيجد القارئ مسميات بالعربية لإصطلاحات غربية سعى بها أصحابها من علماء الآثار والتاريخ لتقريب ما تبدى لهم من بنايات وهياكل . وكان من رأينا أن يطلق على ما توعر منها وأطنب مثل « البناء المُلَوَّى فوق قبور كرمة » كلمة ضريح - بسطاً وإيجازاً - ذلك أنها كانت أمكنة مقدسة تقسم أرواح الملوك فيما آمن أهلها إبان تلك الأزمنة السحيقة ، ولايكفى نقلها للشرح من القواميس «ركاماً ترايباً» وحسب . الضريح فى زعمنا أقرب ما يكون إلى الوجدان السودانى القديم الذى ما فتى يشيد الضرائح فوق قبور الوجهاء ، على انطواء العصور ، ثقافة لا تصح دنياً ! إلا أننا عدلنا عن ذلك عقب تصنيف الدكتور أسامة عبد الرحمن النور حيث يدعو القبور فى المدافن الإسلامية ضرائح . أما أبنية القبور فى الحضارة النوبية القديمة فتدعى مدافن تلية على كل حال، لايفتي ومالك فى المدينة

أما الإختراع الفكرى الشيق للبروفسور أدمز عن تواصل الحياة ما قبل التاريخ أفاقاً ثقافية، بدلاً من إعتبارها حلقات لجماعات تجول بين العصور بلا رابط أو واصل، على نحو ما رأى أكثر أقرانه من علماء الآثار ودراسة التاريخ، فقد رأينا إمكانية نقله إلى العربية بمصطلحات جديدة : ثقافة المجموعة الأولى للافق (١) كما أسماه أدمز، وثقافة المجموعة الثالثة للافق (ج)، وثقافة المجموعة المجهولة للافق (س) . أما الجماعة (ب) فى الأفق (١)، فهى أكثرها غموضاً وإفتقاراً وحاجة للكشف الأثارى لتوسطها فكرياً بين ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثالثة. وإلهم أن كل هذه المجموعات الثقافية متصورة بقدر ما توفر للبروفسور أدمز من تحليل علمى كمراسل فى كل متصل . ولقد شاورت الأستاذ أدمز مشاورة شخصية فى المسميات العربية التى جنتا بها فى الترجمة حول الأفاق وطرحها مجموعات ثقافية ، وأنشرح بها صدرأ .

لم نجد ما يقع لإعتبار « البربرية » مرادفةً « للهمجية والتخلف وانعدام التمدن » على نحو ما اتبعته قواميس بالمكتبات . فالنوع ذاتية لا تتماشى موضوعياً مع سياق المعنى بدقة فى المؤلف. لذا اقتصرنا - أقل حضارة - بدلاً من « البربرية » إيفاء للمعنى وتوخياً للعدل فى تصريفه . وعلى ذلك المنوال ، توألى نسيجنا لعدة مصطلحات ترد فى حينها ، خاصة بالمؤلف .



وجدنا كتاب النوبة ممتعا ، مهيبا بما وسع فيه المؤلف علماً بالبحث والتدقيق ، وما كرمه به عشرات العلماء والبحاث ذوي الإختصاص والمراس من تدارس وانتقاد ، تجسيدا لما للإنوبة من مكانة باسقة ، وتجسيما لمسؤولية التعرف على ماضيها العريق عن قرب ومعرفة ، وحفظاً لأولى النُهي من كل مشرب كي ينقبوا عن آثار الأمة السودانية المؤيدة في باطن الثرى ، وقد علم المجتمع الأثري المحلي والدولي من طلائع أطلالها ما فتن في الماضي البعيد الكتاب والشعراء والفنانين . ليس عجبا أن الكتاب مُنح جائزة هيرسكوفيتش الثَّيمة للدراسات الإفريقية عام ١٩٧٨ من جمعيتها الدولية .

- ١٧ -

أعد البروفسور ويليام ي . آدمز كتاب النوبة خلال ثلاث سنوات من العمل ، وذلك ضمن عشر سنوات من الإشراف على إنقاذ آثار النوبة في منطقة السد العالي ، والعمل الميداني تنقيبا عن الآثار في مواقعها الجغرافية المختلفة . وقد تمكن من صياغة قصة متكاملة الفصول للنوبة القديمة ، مع تسليمه بأن القصة تعترتها فجوات لا يوجد أثر لملئها بعد على صعيد الواقع العملي .

أما ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، فاستغرقت ما يقارب الثلاث سنوات في عمل متواصل ، شملت سنين طويلة أخرى من المراجعة والتدقيق ... ظل فيها « الرواق » منتقلا معي من مكان لآخر - السودان والحجاز ومصر والقامبيا والولايات المتحدة .

إن الفضل في فكرة الترجمة يعود بادئ ذي بدر إلى المؤلف نفسه الذي خاطب في شأنها الأستاذ جمال محمد أحمد ، رحمه الله ، ولم يمهل القدر فيترجم الكتاب . وابتدر الدكتور على عثمان المشروع ثانية ، فأمدني بطفه المعهود بنسخة من الكتاب أياما باكرة من عام ١٩٩١ في الخرطوم . ثم أريدب إهتمامه بضرورة الترجمة بإتفاق مع المؤلف والمترجم معاً منذ ذلك التاريخ ، وتابع الإتفاق لاحقاً عام ١٩٩٤ عندما صار مُتسقا لمركز الدراسات النوبية والتوثيق الوليد في القاهرة ، ومديراً لأبحاثه . وكنت أعترزم الذهاب إلى مكة المكرمة تلكم الأيام من عام ١٩٩١ بصحبة الحبيبة أمي أنزل الرحمن عليها رضوانه . وفي المدينة المقدسة تبادلنا الرسائل مع البرفسور آدمز في جامعة كنتكي ، وقد وافق حالاً على مشروع الترجمة ، مُشيراً في إحدى رسائله إلى كتابة مُطولة تلقاها من الدكتور على ، مؤيدة لإتفاننا السالف في الخرطوم .

نقتطف في هذه المناسبة **هذلكة تاريخية** لقصة الترجمة من مجلة إركي ( الطبعة الأولى ، القاهرة) التي أصدرها مركز الدراسات النوبية والتوثيق عام ١٩٩٦ :

في عام ١٩٨٤ زار السودان البروفسور آدمز بعد صدور الطبعة المنقحة الثانية للكتاب لمقابلة الدبلوماسي ورجل الدولة والمفكر النوبي المرحوم جمال محمد أحمد ليناقشه في أمر تولى الأخير ترجمة الكتاب إلى العربية إذ كان الأستاذ جمال أنها رئيساً لإتحاد الكتاب السودانيين . وكذابه في الأهتمام بالشأن النوبي ، وافق الأستاذ جمال بحماس شديد على القيام بترجمة الكتاب حيث عَبرَ الأديب النوبي الفذ عن إحساسه بالشرف والفخر إذ تعهد إليه مهمة ترجمة الكتاب لما للكتاب في نفسه من حب وتقدير عظيمين ، ولما له من أهمية ليس فقط لقارئ التاريخ وعلم الإنسان والإجتماع ، بل لقراء الفلسفة وعلوم الحضارة الإنسانية قاطبة . وعاجلت المنية الأستاذ جمال إذ رحل عن دنياه في أكتوبر ١٩٨٦ دون أن يُفكر له ترجمة الكتاب . فكان فقداً كبيراً وجللاً عظيماً للنوبيين خاصة والسودانيين اجمع . ويكتب بروفسور آدمز مرثية عظيمة في المرحوم جمال قائلاً إن ترجمة الكتاب أضحت ذات أهمية أكبر ، ومُعبراً عن إصراره على ضرورة تكملة مشروع المرحوم جمال وإهداء الترجمة لروحه الكريمة . مكلفاً جمعية الدراسات النوبية ممثلة في شخص الدكتور على عثمان محمد صالح ، ومخولاً بإياها إنجاز المشروع .

عملا بذلك تم إسناد مشروع ترجمة الكتاب إلى الدكتور محبوب التيجاني ، لتميظه في الترجمة ومعرفته الدقيقة للنظريات العلمية المستخدمة لدى علماء علم الإنسان والإجتماع وإدراكه لأهمية الجانب النظري لكتاب البروفسور آدمز في إلقاء الضوء الكاشف على الجانب العلمي ، ليتم الفهم الأشمل والادق لفصوله العديدة . بنهاية عام ١٩٩٢ إنتهى الدكتور محبوب التيجاني من ترجمة الكتاب وسلمه إلى الدكتور على عثمان محمد صالح الذي بعد أن أجرى القراءة الأولى للتصحيح سافر به إلى لكزنجتون - كنتاكي ، وقضى شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٩٢

بدعوة البروفيسور أدامز وضيافته في جامعة كنتاكي حيث تمت المراجعة الدقيقة للترجمة من حيث توافق الصياغة الأدبية العربية للمادة العلمية ، وتمت إجارته من قِبَل البروفيسور أدامز بقرار بتحويل المركز التصرف في حقوقه ك المؤلف على نحو يخدم أهداف المركز ويعمل على استمرارية نشاطه . وما كان هذا الأمر بالغريب على البروفيسور وليم أدامز إذ جاء متسقاً مع ما عهد فيه من عطاء وبذل في مجال الحضارة والثقافة النوبية، وما يحمله من مركز مرموق في الأوساط العلمية الدولية ذات الشأن (\*) .

وفي القاهرة ، فاتحنا الدكتور أسامه عبد الرحمن النور مدير مصلحة الآثار السودانية في امر المراجعة الأثرية للترجمة وإعداد مقدمة للكتاب : ومع إنه لم يتيسر له القيام بذلك العمل، فقد تكرم مشكوراً بمقترحات عديدة إلى نهاية الفصل الثالث حول عدد من المصطلحات الأثرية وشرح عبارتها في تدقيق عليم .

- ١٨ -

وبعد ،

يشرفنا أن نتقدم بالتقدير أوفره لمركز الدراسات النوبية والتوثيق في القاهرة ، وبصفة خاصة الدكتور علي عثمان محمد صالح منسق المركز ومدير أبحاثه ، الذي تفضل بالإتفاق مع المترجم عام ١٩٩٤ على أعمال الترجمة .

ولقد قام السيد البشير جمعة سهل بجمع مخطوط الترجمة فصَحَّح المترجم وأعاد له لمتابعة عملية الطبع ، وأسهم صديقي البروفيسور مايويوا مونانابالا أستاذ الدراسات الإفريقية بجامعة ولاية تنسي وقريته السيدة نفريتيتي مكيدا ، الأمريكية نوبية الأصل ، بإعادة تصوير مجموعة الكتاب الفوتوغرافية، فلهم شكرى الجزيل لما أسهموا به نحو إعداد الكتاب للطباعة في منتصف التسعينات . ومع ذلك الجهد الصدوق، لم يُقدَّر **للرواق** أن يرى النور، وقد أدركه بلا طبع قرن جديد .

إننى لايفوتنى أن أسجل الصعوبات الكثيرة التي حالت دون صدور **الرواق** عام ٢٠٠٢ فيما أعلن للحضور الكريم نبأ طبعه الوشيك في مؤتمر الدراسات السودانية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتقبله الجميع وفي مقدمتهم البروفيسور ويليام أدامز بالإستحسان . فلقد تعسرت جهود الطبع سنين طويلة خلال ١٩٩٢ - ١٩٩٦ ويعددها إلى عام ٢٠٠٢ . وبعاني الأمر إلى إعادة تجهيز العمل منذ ٢٠٠٢ برمتة إذ شقَّ على أن أرى مولودى الحبيب مؤدراً . ومن ثم، عاودت الإتصال مجدداً بالمؤلف أدمز الذى وافق على الفور لما نويت عليه، مباركاً ما عازمت من تول لشئون طبع **الرواق** بشخصى بكل ما يقتضيه ذلك العمل من إعداد مجدداً للأصول، ومراجعة دقيقة للنصوص، وإنفاق مالى، وترحال عبر القارات لمواقع النشر وهامو **الرواق** طباعة كاملة في مُجلد واحد، أنيقة جذابة بما يليق بالنوبية وتاريخها السحيق . ولعل الطبعة التالية تضيف ما يستجد ويُستحدث من أبحاث أثرية وتاريخية .

إننى أكن الشكر والعرفان لجامعة ولاية تنسي Tennessee State University التي أشترف بعضوية هيئة تدريسها لما أعانتنى به من منحة بحثية لعام أكاديمى كان لى خير مُعين على مشاق إعداد **الرواق** للطبع . فللجامعة العريقة إدارة ومركزاً للأبحاث Faculty Support Center ومديره د. ج. بامبلا برج - سيمس ، و د. أسكار ميلر رئيس قسم الاجتماع ، و د. ويليام لوسن عميد كلية الآداب والعلوم و د. أغسطس بانكهد نائب رئيس الجامعة للشئون الأكاديمية خالص الإعتراز والإمتنان .

وفي هذا، أشترف بتقديم أوفى تقدير للسيد جميل مدبولى عبدالوهاب، الفنى المصرى القدير الذى شاطرني هموم إعداد المجلد جامعاً له، ومشرفاً على شئون طبعه، وقائماً على إخراجها معى وتجهيز رسومه وخرطه وصوره فى دقة وفن ومحبة لرائعة أدمز الجلييلة فى القاهرة الجميلة؛ ولسان حالنا أن **النوبية - رواق إفريقيّا** لى مولود نيلنا العريق لكل قارئ بالعربية، مثلما أنها مولود أدمز

(\*) مما اعتزته المركز في ذلك الوقت أيضاً - إضافة ما استجد من معلومات وما استحدث من نظريات - عن تاريخ الحضارة النوبية بعد الطبعة الإنجليزية الثانية للكتاب عام ١٩٨٤ ، وهى خطة لم يتيسر للمركز القيام بها - المترجم

الفريد بالإنجليزية .

مسؤولية الترجمة هي بالطبع مسؤولية المترجم بحذافيرها ، إضافة إلى العمل على إخراج الأشكال والتصميمات بما يلزم من ضبط وتأكيد .

وعلى، عملاً بأخلاق المهنة وتقاليده الكتابية والترجمة، أن أعلن مسؤوليتي الكاملة عن ترجمة **الرواق** وتقديمه بكل فخر إلى القارئ الكريم .

إهداء الترجمة مرفوع بكل اعتزاز إلى روح أستاذنا المغفور له جمال محمد أحمد ابن سرّة شرق ، سفير السودان ، الكاتب العربي ، والمترجم والمفكر الإفريقي الإنسان .

وأحبّ تقدير نزجي إلى البروفيسور ويليام آدمز ، أستاذ الأنثروبولوجيا وعلم الآثار في جامعة كنتاكي في الولايات المتحدة الذي تكرم بالسماح لترجمة مؤلفه المرموق رافداً بازخاً للمكتبة السودانية الفتية وحفظاً أدبياً لذلك الجزء الخالد من تراث السودانيين منذ أقدم العصور .

١٩٠

قبل أن أبرح ساحة التقديم ، أخص بالعودة والشكر العميق كل من ساعد في تسهيل هذا العمل بالتشجيع عليه . وإنكر في هذا المقام الأصدقاء البروفيسور ريتشارد لويان والبروفيسور كارولان فلور - لويان ، أستاذة الدراسات السودانية البارزين ، وأبناء النوبة المجاهدين الكاتب سليمان بخيت والسفير نور الدين منان والمهندس بابكر سيد أحمد . كما أكنّ تقديراً خاصاً لشقيقتي نعمات وزوجها إبراهيم الجاك وأسرتهما الكريمة على ما قدموه لي من عون ورعاية حقة ، وللعديد من الأخوة والأصدقاء معهم في المملكة العربية السعودية حين أقيمت بينهم عام ١٩٩١ ، ضيافة وإكراماً ، ومن بينهم الدكتور يحيى عبد الرحيم ، وأحمد بخيت ومحمد حماد وقريناتهم الكريمات ، وسليمان العطا ، وأحمد علي ، ومحمد عبدالله محمود ، والدكتور أحمد عبد الرسول ، والدكتور جعفر البدرى وأسرهـم المضيفة . لقد حولوا بتشجيعهم وإهتمامهم الكتاب موضوع الترجمة إلى مشروع قومي عام لكل السودانيين . فاضفوا على العمل نكهة خاصة وهيبة وطنية محببة ، كما العديدين من الأهل والأصدقاء في مصر والسودان والولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، ومنهم عادل عبد اللطيف وعوض خوجلي وجاره عثمان أم الشهيد مصطفى وآل محمد الحسن الحسين ومحمد صدقي ، والأسرة جمعاء ، ومجموعة ناشغل المهندس على النصري والدكتور رفعت بدوي والسيدة حرمة والمهندس حمزه والدكتور عبدالله قسم السيد والدكتور سكينه والدكتور حسن ميرغني والسيد قاتلوك ثاك رئيس الجالية السودانية في تنسي والإخوة المهندسين عبد الرحيم وبخيت الكامل وأسرهـم والأبناء غسان عمر وعصام صديق بين آخرين عديدين ، والآل بحى السيد المكي في عاصمة بلادنا الوطنية ، أم درمان ، القادمين زماناً من هواره دنقلا و دراو ، و إنقرياب بربر والجزيرة ، وبنى ركاب - أهل **الرواق** وما لهم من عرق في كل ركن يكاد ، ومُرّ إنساناً غير إفريقي كان ؟

وأخيراً ، لأمنّا الحاجة « فاطمة » ودعواتها الحارة في رحاب مكة المكرمة بأجوانها الروحية العبقية وأبينّا الحاج « التجاني » الذي غرس في وجداني حب القراءة والكتابة منذ الطفولة الباكورة ، ولأسرتي الصغيرة زينب ورشا وأنجي وأمنّا الحاجة « عائشة » ودعواتها الحارة في المنفى بمصر الشقيقة ، ولحفيدى الحبيب كريم وأبيه الابن ناصر أقدم أزكى باقات الحب والوفاء . فقد شملنى الجميع بالدفع والتقدير لإنجاز هذا العمل العزيز ... فله درهم !

نسأله سبحانه وتعالى أن يسبغ شأبيب رحمته على أمهاتنا وأبائنا الأكرمين ، وأن يكلأ بالسلام والتقدم سوداننا الحبيب . ألا بالله وحده التوفيق ، وله التكبير والحمد والتسبيح ، إنه لإلهنا الأعلى ، فنعم المولى ، ونعم النصير

مكة المكرمة ١٢ ربيع الأول ١٤١٢ هـ

مراجعة في القاهرة ٢ أغسطس ١٩٩٣ م

وناشفيل ١٤ أغسطس ١٩٩٧ - ٢٠٠٣ م

**محجوب التجاني محمود**



١	إهداء المؤلف
٣	محتويات
٦	شكر وتقدير
٧	قائمة الصور
٩	قائمة الأشكال
١٤	قائمة الجداول
١٥	تقديم
١٧	تقديم (١٩٨٤)
٢٥	خريطة
٢٦	مقدمة

## الفصل الأول

### الرواق النوبى

٤١	لماذا النوبة؟
٤٢	حدود النوبة؟
٤٤	تقسيمات جغرافية
٤٧	النوبة السفلى
٤٧	بطن الحجر
٤٩	أرض عبرى - دلقو النهرية
٥٠	أرض دنقلا النهرية
٥٢	أرض « أبو حمد » النهرية
٥٢	أرض شندي النهرية
٥٤	المناخ
٥٨	النبات
٦٠	حياة الحيوان
٦١	الموارد الطبيعية

## الفصل الثانى

### سكان الرواق

٦٦	الخصائص الجسمانية
٦٧	الصفات الثقافية
٦٧	اللغة
٦٨	الحياة فى النوبة
٧٤	الأقوام غير النوبية

٧٩	الهجرة الخارجية
٨١	ملامح المجتمع النوبي

## الفصل الثالث

### التاريخ وعلم الآثار في النوبية

٨٣	المصادر التاريخية
٨٤	النصوص المصرية
٨٥	النصوص الهيرغليفية النوبية
٨٦	المؤلفون القدامى
٨٦	التواريخ الكنسية
٨٧	علماء العرب في العصور الوسطى
٨٧	أوائل الرحالة المحدثين
٨٧	المصادر الأثرية
٨٨	المسح الأثري الأول
٨٩	بعثات رائدة أخرى
٩٢	المسح الأثري الثاني
٩٦	بعثات متأخرة
٩٦	حملة السد العالي
١٠٤	الحاضر والمستقبل
١٠٦	المسألة العرقية
١٠٩	التاريخ اللغوي
١١٠	إشكالية التركيب

## الجزء الأول

### بدايات قبلية

## الفصل الرابع

### العصور الحجرية

١١٧	صناعات العصر الحجري القديم الأسفل والأوسط
١١٨	العصر الحجري القديم الأعلى
١٢١	مدافن العصر الحجري
١٢٢	الانتقال إلى الحياة المستقرة
١٢٤	العصر الحجري النوبي الحديث
١٢٦	سفن ما قبل التاريخ

١٢٨	ملخص تفسيري
-----	-------------

### الفصل الخامس

#### ظل الحضارة : ثقافة المجموعة الأولى النوبية

١٣٠	الفخار والتأريخ
١٣٣	الحياة اليومية في ثقافة المجموعة الأولى
١٣٦	المركب الجنائزي
١٣٩	التطور الثقافي لثقافة المجموعة الأولى
١٤٠	« المجموعة الثانية » الخيالية
١٤٣	ظل مصر
١٤٥	السجل النصي
١٤٧	ملخص تفسيري

### الفصل السادس

#### المثال الرعوي ثقافة المجموعة الثالثة النوبية

١٥٠	التسلسل الزمني والتاريخ
١٥٢	الحضارة المادية لثقافة المجموعة الثالثة
١٥٨	المعيشة : الخيال والواقع
١٥٩	المركب الجنائزي
١٦٢	ملامح المجتمع النوبي
١٦٤	ملخص تفسيري

### الفصل السابع

#### المدد الصاعد للإمبريالية : مصر في النوبة ، ٣٢٠٠ - ١٨٠٠ ق.م

١٦٨	نمط الإمبريالية المصرية
١٦٩	منتجات الحيوان
١٧٠	الرقيق
١٧١	الموارد المعدنية
١٧٢	الصناعات المعدنية في الدولة القديمة
١٧٧	قلاع الدولة الوسطى
١٨٤	الأهمية السياسية للقلاع
١٨٨	المناجم والمحاجر في الدولة الوسطى
١٨٨	الاطاحة بالقلاع
١٩٠	ملخص تفسيري

الجزء الثاني  
الأسرات والإمبراطوريات

الفصل الثامن  
الانتقال للإمبراطورية : مملكة كرمة النوبية

١٩٤	..... خصائص ثقافة كرمة
١٩٤	..... - جنازة السرير
١٩٥	..... فخار كرمة
١٩٥	..... - المدافن التلية القبابية
١٩٦	..... أضحى الكبوش
١٩٦	..... الضحايا البشرية
١٩٦	..... موقع كرمة
٢٠٠	..... - الجبانة الملكية
٢٠٠	..... المدافن التلية العظمى
٢٠١	..... المدافن الإضافية
٢٠١	..... المدافن الصغرى
٢٠٢	..... - القبور المستقلة
٢٠٢	..... - المباني الجنائزية
٢٠٤	..... معضلات التأويل والتسلسل الزمني
٢٠٤	..... حجم وأهمية الوجود المصري
٢٠٦	..... تعريف الموقع
٢٠٧	..... تأويل الجبانة
٢٠٧	..... مشكلات تسلسل الأحداث الزمنية
٢٠٨	..... مواقع كرمة فى الشمال
٢١٠	..... ثقافة " القبر الجامع "
٢١٠	..... ملخص تفسيري

الفصل التاسع  
ولاية كوش : النوبة فى ظل الدولة المصرية الجديدة

٢١٥	..... غُزاة وبناء
٢٢٠	..... المراكز « الحضرية »
٢٢٣	..... - التنظيم السياسى والإقتصادى
٢٢٥	..... صناعة الذهب
٢٢٧	..... ماذا آلت إليه حال النوبيين

٢٣٢ ..... ماذا آل إليه المصريون

٢٣٤ ..... ملخص تفسيري

### الفصل العاشر X

#### العصر البطولي : إمبراطورية نبتة النوبية

٢٣٩ ..... الإصطلاح والسلسل الزمني

٢٤٧ ..... سمر الأصول النبتية

٢٤٩ ..... الخلافة الملكية

٢٥٠ ..... فتح مصر

٢٥٥ ..... آخر الملوك النبتين

٢٥٧ ..... المعابد والمدن

٢٦٢ ..... الجبانة الملكية

٢٧٠ ..... دهماء الرعيه

٢٧٢ ..... المجتمع والإقتصاد النبتى

٢٧٥ ..... ملخص تفسيري

### الفصل الحادي عشر X

#### مجرى الإمبراطورية الجنوبية : الحضارة المروية بأراضى السهل

٢٧٩ ..... أصول مبرى

٢٨٧ ..... ملوك وصروح

٢٩١ ..... النقوش الملكية

٢٩٢ ..... مدن أراضى السهل

٣٠٤ ..... الديانة المروية

٣٠٦ ..... مجتمع الجنوب المروى وثقافته

### الفصل الثاني عشر X

#### إنبعاث نهضة الشمال :

#### عودة الإستيطان البطلمى، والرومانى، والمروى في النوبة السفلى

٣١٣ ..... فيلة وعبادة إيزيس

٣١٥ ..... المحافظة الرومانية

٣٢٠ ..... المحافظة المروية

٣٢٩ ..... حياة المدينة والقرية

٣٣٧ ..... الفنون والصناعات

٣٤٥ ..... العادات الجنائزية

٣٤٩ ..... مخلص تفسيري

### الفصل الثالث عشر

#### نهاية الإمبراطورية : ثقافة المجموعة المجهولة

٣٥٣	إضمحلال مروى وسقوطها
٣٥٧	العصر المظلم وثقافة المجموعة المجهولة
٣٦٠	آثار ثقافة بلانة
٣٦٩	المدافن الملكية ونظام بلانة الملكي
٣٧٦	المعتقدات والديانة في العهد ما بعد المروى
٣٨١	إشكالية النصوص التاريخية
٣٨٤	التاريخ ما بعد المروى في الجنوب
٣٨٨	ملخص تفسيري

### الجزء الثالث

#### حضارات القرون الوسطى

### الفصل الرابع عشر

#### بداية جديدة : تنصير النوبة

٣٩٥	تحول النوبيين
٤٠٠	خصائص المسيحية النوبية
٤٠٢	المدونات الكتابية
٤٠٤	النوبة المسيحية والعالم الإسلامي

### الفصل الخامس عشر

#### التاج والصليب : حضارة النوبة المسيحية

٤١٢	عروض معاصرة للنوبة في العصور الوسطى
٤١٣	تنظيم دول القرون الوسطى
٤٢٠	الديانة والكنيسة
٤٢٩	الفن والأدب الديني
٤٣٣	المدن، القرى، والمساكن
٤٣٩	الفنون الدنيوية
٤٤٤	المجتمع النوبي وإقتصاده في القرون الوسطى
٤٤٨	ملخص تفسيري

### الفصل السادس عشر

#### العصر الإقطاعي : إضمحلال الأنظمة الملكية المسيحية وسقوطها

٤٥٣	الدعاليات الأثرية
-----	-------------------

٤٦٢	العصر الإقطاعى فى مصر
٤٦٥	ضمور المقررة وسقوطها
٤٦٩	خلفاء المقررة
٤٧٣	نهاية علوة
٤٧٥	مغيب المسيحية
٤٧٩	ملخص تفسيرى

### الفصل السابع عشر

سندان الإسلام :

### الهجرات العربية وتعريب النوبيين

٤٨٤	الهجرات العربية
٤٨٩	إستعرا ب النوبيين
٤٩٣	الأثر النُسبى
٤٩٧	إنتشار الإسلام
٥٠١	سيرة الإسلام السودانى
٥٠٥	المعطيات الأثرية
٥٠٩	الأنوبة فى نهاية العصر الإقطاعى
٥١٣	ملخص تفسيرى

### الفصل الثامن عشر

### عودة للولاية ، السودان فى ظل حكم الفونج، والآتراك والمصريين

٥١٩	إتحاد سنار
٥٢٤	عصيان الشايقية المسلح وتداعى الفونج
٥٢٧	الحكم العثمانى فى الشمال
٥٣١	عودة الإستعمار المصرى
٥٣٣	النظام الإستعمارى
٥٣٦	أوج تجارة الرقيق
٥٣٩	المهدية: ختام لعصر القرون الوسطى
٥٤٥	ملخص تفسيرى

### خاتمة

### الفصل التاسع عشر

### إرث الغرب : التوبة والسودان فى القرن العشرين

٥٥٠	الحكم البريطانى فى السودان
٥٥٤	السودان منذ الإستقلال

٥٥٧	إندثار النوبيين السودانيين
٥٥٨	النوبيون في مصر
٥٥٩	برنامج التهجير
٥٦٣	تهجير النوبيين في السودان

## X الفصل العشرين

### دروس النوبة

٥٧٠	تشوهات نظرية الهجرة
٥٧١	إتتمانية نموذج تطوري
٥٧١	محددات النظرية الحتمية
٥٧٢	تماسك الإنتشار
٥٧٤	واقسع الدورات الحضارية
٥٧٥	الدور المركزي للأيولوجية
٥٧٧	أهمية الأسلوب
٥٧٩	تلخيص وإسترجاع

## الهوامش



إهداء المؤلف للأصلي  
إلى ذكرى جورج أندرو رايزنر  
عالم المصريات العظيم  
عالم إنقاذ الآثار الرائد  
أبو الدراسات النوبية



## محتويات

- شكر وتقدير
- قائمة الصور
- قائمة الأشكال
- قائمة الجداول
- تقديم
- تقديم (١٩٨٤)
- خريطة
- مقدمة

## تمهيد

### ١ - الرواق النوبى

لماذا النوبة ؟ : حدود النوبة : تقسيمات جغرافية : المناخ : النبات : حياة الحيوان : الموارد الطبيعية .

### ٢ - سكان الرواق

الخصائص الجسمانية : الصفات الثقافية : اللغة : الحياة في النوبة : الأقوام غير النوبية : الهجرة الخارجية : ملامح المجتمع النوبى .

### ٣ - التاريخ وعلم الآثار في النوبة

المصادر التاريخية ، المصادر الأثرية : المسألة العرقية : التاريخ اللغوى : إشكالية التركيب .

## الجزء الأول - بدايات قبلية

### ٤ - العصور الحجرية

صناعات العصر الحجرى القديم الأسفل والأوسط : العصر الحجرى القديم الأعلى : مدافن العصر الحجرى : الانتقال إلى حياة الإستقرار : العصر الحجرى النوبى الحديث : فن ما قبل التاريخ : ملخص تفسيرى .

### ٥ - ظل الحضارة : ثقافة المجموعة الأولى النوبية

الفخار والتاريخ : الحياة اليومية في ثقافة المجموعة الأولى : المركب الجنائزى : التطور الثقافى .  
لثقافة المجموعة الأولى : " المجموعة الثانية " الخيالية : ظل مصر : السجل النصى : ملخص تفسيرى .

٦ - المثال الرعوى : ثقافة المجموعة الثالثة النوبية  
التسلسل الزمني والتاريخ ، الحضارة المادية للمجموعة الثالثة : المعيشة : الخيال والواقع  
: المركب الجنائزى : ملامح المجتمع النوبى : ملخص تفسيرى .

٧ - المدد الصاعد للإمبريالية : مصر في النوبة ٣٢٠٠ - ١٨٠٠ ق م .  
نمط الإمبريالية المصرية : الصناعات المعدنية في الدولة القديمة : قلاع الدولة الوسطى : الأهمية  
السياسية للقلاع : المناجم والمحاجر في الدولة الوسطى : الإطاحة بالقلاع : ملخص تفسيرى

### الجزء الثانى - الأسرات والإمبراطوريات

٨ - الإنتقال للإمبراطورية : مملكة كرمة النوبية  
خصائص ثقافة كرمة : موقع كرمة : الجبانة الملكية : معضلات التأويل والتسلسل الزمني  
مواقع كرمة في الشمال : ثقافة « القبر الجامع » : ملخص تفسيرى .

٩ - ولاية كوش النوبية في ظل الدولة المصرية الجديدة  
غزاة وبناءة : المراكز « الحضرية » : التنظيم السياسى والإقتصادى : صناعة الذهب : ماذا الت  
إليه حالة النوبيين : ماذا آل إليه المصريون : ملخص تفسيرى .

١٠ - العصر البطولى : إمبراطورية نبتة النوبية  
الإصطلاح والتسلسل الزمني : سر الأصول النبتية : الخلافة الملكية : فتح مصر : آخر الملوك  
النبتيين : المعابد والمدن : الجبانات الملكية : دهماء الرعية : المجتمع والإقتصاد النبتى :  
ملخص تفسيرى

١١ - مجرى الإمبراطورية الجنوبي : الحضارة المروية بأراضى السهل  
أصول مروى : ملوك وصروح : النقوش الملكية : مدن أراضى السهل : الديانة المروية : مجتمع  
الجنوب المروى وثقافته .

١٢ - إنبعاث نهضة الشمال : عودة الإستهيطان البطلمى ، والرومانى ، والمروى في النوبة  
السفلى  
فيلة وعبادة إيزيس : المحافظة الرومانية : المحافظة المروية : حياة المدينة والقرية : الفنون  
والصناعات : العادات الجنائزية ، ملخص تفسيرى .

١٣ - نهاية الإمبراطورية : ثقافة المجموعة المجهولة  
إضمحلال مروى وسقوطها : العصر المظلم وثقافة المجموعة المجهولة : آثار ثقافة بلانة :  
المدافن الملكية ونظام بلانة الملكى : المعتقدات والديانة في العهد ما بعد المروى : إشكالية  
النصوص التاريخية : التاريخ ما بعد المروى في الجنوب : ملخص تفسيرى .

### الجزء الثالث - حضارات القرون الوسطى

١٤ - بداية جديدة : تنصير النوبة  
تحول النوبيين : خصائص المسيحية النوبية : المدونات الكتابية : النوبة المسيحية والعالم  
الإسلامى .

## ١٥ - التاج والصليب : حضارة النوبة المسيحية

عروض معاصرة للنوبة في العصور الوسطى : تنظيم دول القرون الوسطى ؛ الديانة والكنيسة ؛ الفن والأدب الديني ؛ المدن ، القرى ، المساكن ؛ الفنون الدنيوية ؛ المجتمع النوبي وإقتصاده في القرون الوسطى ، ملخص تفسيري .

## ١٦ - العصر الإقطاعي : إضمحلال الأنظمة الملكية المسيحية وسقوطها

المعطيات الأثرية ؛ العصر الإقطاعي في مصر ؛ ضُمور المقرة وسقوطها ؛ خلفاء المقرة ؛ نهاية علوة ؛ مغيب المسيحية ؛ ملخص تفسيري .

## ١٧ - سندان الإسلام : الهجرات العربية وتعريب النوبيين

الهجرات العربية ؛ إستعراب النوبيين ؛ الأثر السَّبَبي ؛ إنتشار الإسلام ؛ سيرة الإسلام السوداني ؛ المعطيات الأثرية ؛ النوبة في نهاية العصر الإقطاعي ؛ ملخص تفسيري .

## ١٨ - عودة للولاية : السودان في ظل حكم الفونج ، والأتراك ، والمصريين

إتحاد سنار ؛ عصيان الشايقية المسلح وتداعى الفونج ؛ الحكم العثماني في الشمال ؛ عودة الإستعمار المصري ؛ النظام الإستعماري ؛ أوج تجارة الرقيق ؛ المهديّة ؛ ختام لعصر القرون الوسطى ؛ ملخص تفسيري .

## خاتمة

## ١٩ - إرث الغرب : النوبة والسودان في القرن العشرين

الحكم البريطاني في السودان ؛ السودان منذ الإستقلال ؛ إندثار النوبيين السودانيين ؛ النوبيون في مصر ؛ برنامج التهجير ؛ تهجير النوبيين في السودان .

## ٢٠ - دروس النوبة

تشوهات نظرية الهجرة ؛ إنتمائية نموذج تطوري ؛ محدودات النظرية الحتمية ؛ تماسك الإنتشار الثقافي ؛ واقع الدورات الحضارية ؛ الدور المركزي للأيدولوجية ؛ أهمية الأسلوب ؛ تلخيص وإسترجاع .

## شكرو تقدير

الشكر والتقدير للإذن بالنقل راجع إلى المؤلفين والناشرين للمؤلفات الآتية:

ف. وندورف، النوبة في عصر ما قبل التاريخ

F. Wedort, ed, Prehistory of Nubia,

The Southern Methodist University Press, Dallas, Texas, 1968.

Copyright, The Fort Burgwin Reseach Center, 1968.

ي. ب. امرى، مصر في النوبة

W.B. Emery, Egypt in Nubia, Hutchinson, 1965.

Cppyright, W. B. Emery, 1965.

ج. س. تريمينغهام، الإسلام في السودان.

J. S. Trimmingham, Islam in the Sudan,

Oxford University Press, 1949.

Copyright, J.S. Timingham, 1949.

١. مورهد النيل الأبيض

A. Moorehead, The White Nile,

Harper & Row Publishers, Inc., New York, 1960 and Hamish Hamilton, 1960 .

Copyright, Alan Moorehead, 1960, 1971.

الشكر والتقدير مرفوعان أيضاً إلى ن. ب. ميليت للسماح بالنقل من رسالته للدكتوراه،  
النوبة المروية، المقدمة إلى جامعة يل في ١٩٦٨ .

يود الناشر أن يتقدموا بالشكر لكل أولئك الذين منحوا الإنن لإستعمال الصور.  
الفوتوغرافية . والشكر والتقدير مقدمان في قائمة الصور.

## قائمة الصور

- (١) ١ - جروف النيل الخصبة [ السهل الفيضي ] في النوبة السفلى ( البعثة الإسكندنافية المشتركة )
- ب - الصحراء النوبية المقفرة ( البعثة الإسكندنافية المشتركة )
- (٢) ١ - قرية نوبية حديثة في منطقة دلقو ( ف . هنكل )
- ب - واجهة منزل نوبى بكامل زينتها ( ف . هنكل )
- (٣) ١ - جماعة من النوبيين المعاصرين ( ف . هنكل )
- ب - حفريات أثرية ، ود بانقا ( ركس كينتنق )
- (٤) ١ - رسوم صخرية من العصر الحجري الحديث ، عبكة ( اليونسكو ، ركس كينتنق )
- ب - فخار ملون من ثقافة المجموعة الثالثة [ الأفق ١ ] ( ه . ا . نورديستروم )
- (٥) ١ - قرية مُحَصَّنة من ثقافة المجموعة الثالثة [ الأفق ج ] ، وادى السبوع ( المعهد الفرنسى للأثار الشرقية )
- ب - فخار نموذجى - للمجموعة الثالثة [ الجماعة ج ] ولكرمة ( البعثة الإسكندنافية المشتركة ) شلال سمعة من الجو ( مصلحة المساحة - حكومة السودان )
- (٦) ١ - منظر جوى لشلال بوهين وخرائب الحصون
- ١ - تحصينات في بوهين : السور المُترس من الداخل ( ركس كينتنق )
- ب - مجرى سحب القوارب في مرقسة ( ج . فيركوتر )
- (٧) ١ - الدفوفة السفلى ( الغربية ) في كرمة ( ف . هنكل )
- ب - الهيكل الطوبى للمدفن ك ٣ ، والدفوفة العليا ( الشرقية ) ، كرمة (متحف الفنون الجميلة ، بوسطن )
- (٨) ١ - معبد رمسيس في أبو سُمبل ( ف . هنكل )
- ب - معبد رمسيس من الداخل ، أبو سُمبل ( ف . هنكل )
- (٩) ١ - معبد أمُنْحَتَب الثالث في صلب ( ف . هنكل )
- ب - جبل البركل ، ويُرَى معبد آمون في المقدمة ( ف . هنكل )
- (١٠) ١ - معبد آمون في نبتة ، كما يشاهد من قمة جبل البركل ( فرتز هينتز )
- ب - أهرامات نوري النبتية ( ف . هنكل )
- اللوحه العظيمة لبعانخى ( متحف القاهرة )
- (١١) ١ - سهل البطانة أو « جزيرة مروى » وخرائب المصورات في المقدمة (فرتز هينتز )
- ب - المجموعة الشمالية للأهرامات ، مروى «البجراوية» ( ف . هنكل )

- (١٢) ١- أهرامات منقوشة الأركان ، مروى «البجراوية» ( ف . هنكل )  
 ب- حجرة دفن مزخرفة ، مروى ( ف . هنكل )
- (١٣) ١- « كشتك » ومعبد الأسد في النقة ( ف . هنكل )  
 ب- تمثال مروى ضخم على الأرض ، جزيرة أرقو ( ف . هنكل )
- (١٤) ١- خرائب الفناء الخارجى لمعبد إيزيس في فيلة ( ي . امرى : مصر في النوبة )  
 ب- القلعة المحصنة في قصر إبريم ( ج . م . بلملى )
- (١٥) ١- « القلعة » المروية في كارانوق ( متحف جامعة بنسلفانيا )  
 ب- موقع لقرية مروية في الشوكان ( ج . جاكبي )
- (١٦) ١- معصرة خمر مروية ، مينارتى (ويليام ي . آدمز )  
 ب- لوحة حجرية تحمل نقشاً باللغة المروية ، مروى «المدينة الملكية» ( ف . هنكل )
- (١٧) ١- بقايا قرية من الفترة البيلانية ، مينارتى ( ويليام ي . آدمز )  
 ب- المدافن التلية في مُسطل قبل التنقيب ( ي . امرى : مصر في النوبة )  
 ج- أنية فخارية نموذجية من بلانة ( ويليام ي . آدمز )  
 د- محتويات حجرة القرايين في بلانة ( ي . امرى : الكنوز النوبية )  
 هـ- ي- تيجان بلانة المجوهرة ( ي . امرى : الكنوز النوبية )
- (١٨) ١- بقايا قرية مسيحية نوبية ، بيرة غرب ( ب . ل . شينى )  
 ب- خرائب كنيسة نوبية من العصر الوسيط ( القرون الوسطى )
- (١٩) ١- رسم حائطى لملك نوبى في حماية العذراء ، فرس ( ف . هنكل )  
 ب- رسم حائطى لأسقف نوبى ، فرس ( هـ . رومانوشسكى ، منحة من ك . ميغالوفسكى )  
 ج- رسم حائطى في فرس يبين شدراك ، ميشيل ، وأبيد نقو ( ف . هنكل )
- (٢٠) ١- موقع قرية دفاعي من العصور الوسيطة المتأخرة ، ديفنارتى ( ف . هنكل )  
 ب- قلعة من العصور الوسيطة المتأخرة ، كولبنارتى ( ف . هنكل )
- (٢١) ١- قبور من فترة ما بعد المسيحية ، جبل عدا ( ن . ب . ميليت )  
 ب- قبة في مشو ، بالقرب من كريمة ( ف . هنكل )  
 ج- قبة المهدي في أم درمان ( ف . هنكل )
- (٢٢) ١- إغراق وادى حلفا القديمة ( ف . هنكل )  
 ب- منظر لشارع في خشم القرية ( حلفا الجديدة ) ١٩٦٥ ( أندريا كروننبرج )



## قائمة الأشكال

( كل الخرائط والتصميمات ، والرسومات مبيّنة كاشكال مُرقّمة بالتتالي في كل الكتاب )

رقم الشكل	الصفحة
١ - موقع النوبة الحديثة بالنسبة للأقطار المجاورة	٢٨
٢ - التسلسل الزمني للمراحل الثقافية المصرية والنوبية	٤٠
٣ - الغزوات الكبرى عبر الحدود المصرية - النوبية	٤٣
٤ - طبقات الأرض السطحية في النوبة ( مُبسّطة )	
( طبقاً لبريور ، جمهورية السودان ، ص ٣٥ ، وهيوم ، جيولوجيا مصر ، المجلد الأول ،	
الصورة رقم ١ )	٤٥
٥ - تقسيمات التضاريس السطحية في النوبة	٥١
٦ - رسم جانبي تخطيطي لوادي النيل من الخرطوم إلى اسوان	
( طبقاً لبريور ، جمهورية السودان ، ١٣٣ )	٥٣
٧ - المناخ في النوبة ووسط السودان	٥٥
٨ - الجماعات السكانية الرئيسية في النوبة والمناطق المجاورة	٧٥
٩ - قبائل النوبة والمناطق المجاورة	
( طبقاً لبريور ، جمهورية السودان ، ص ٧٧ )	٧٧
١٠ - التنقيب الأثري في النوبة ، ١٩٠٧ - ١٩٦٠	٩١
١١ - إمتيازات التنقيب في النوبة ، ١٩٦٠ - ١٩٧٠	١٠٣
١٢ - القرابات السلالية بين أقوام النوبيين القدماء وسكان إفريقيا القدامى والحديثين ( وفقاً	
لمُخرّجي ، راو ، وتريفور ، سكان جبل موية القُدامى ( السودان ) ، ص ٨٥ )	١٠٨
١٣ - تطور التسلسل الزمني للصناعات النوبية ما قبل التاريخ	
( من وندورف ، ما قبل تاريخ النوبة ، ص ١٠٤٢ )	١١٩
١٤ - توزيع مواقع معروفة لثقافة المجموعة الأولى ( الأفق ١ )	
( طبقاً لتريفر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى ، ص ٦٦ )	١٣١
١٥ - انواع المقابر في ثقافة المجموعة الأولى	
( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٢٤ )	١٣٧
١٦ - نحت الملك جبر في جبل الشيخ سليمان	
( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٢٦ )	١٤٥
١٧ - توزيع المواقع المعروفة في ثقافة المجموعة الثالثة ( الأفق ج ) ( طبقاً لتريفر ، التاريخ	
والإستيطان في النوبة السفلى ، ص ٨٤ )	١٥٣
١٨ - مسكن لثقافة المجموعة الثالثة ( الأفق ج ) ، دبيرة	
( من ساف - سود ريج في : كوش ، المجلد الحادى عشر ، مُواجهاً ص ٥٧ )	١٥٤
١٩ - قرية محصنة ، من ثقافة المجموعة الثالثة ( الأفق ج ) ، وادى السبوع	
( من سوينرون ، نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، المجلد ٦٣ ، ص ١٦٣ )	١٥٥

- ٢٠ - قرية محصنة من ثقافة المجموعة الثالثة ( الأفق ج المتأخر ) ، عمدا  
( من راندال ، مأل إيغر ، و وولى ، أريكا ، الصورة رقم ٥ ) ١٥٧
- ٢١ - رسوم تصويرية ( جرافيتي ) على أواني من ثقافة المجموعة الثالثة ( الجماعة ج )  
( وفقاً لإسرى وكيروان ، الحفريات والمسح ما بين وادى السبوع وأديندان ، الصورة رقم ٢٤ ) ١٥٩
- ٢٢ - تطور أنواع القبور في ثقافة المجموعة الثالثة ( الأفق ج )  
( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ) ١٦١
- ٢٣ - بيان الأنشطة المصرية في النوبة السفلى على عهد الدولة القديمة ١٧٣
- ٢٤ - تصميم لجزء من مدينة في الدولة القديمة ، بوهين  
( من امرى في : كوش ، المجلد الحادى عشر ، مُواجهاً ص ١١٨ ) ١٧٤
- ٢٥ - قرن لصهر النحاس من الدولة القديمة في بوهين  
( من امرى في : كوش ، المجلد الحادى عشر ، ١١٨ ) ١٧٥
- ٢٦ - الإستعمار المصرى في الدولة الوسطى ١٧٨
- ٢٧ - قلاع الشلال الثانى ١٨٠
- ٢٨ - رسوم تصميمية أولية لقلاع الشلال الثانى  
( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٤٤ - ١٥١ ) ١٨١
- ٢٩ - نموذج لقبر من كرمة وقربائها الصنائعية ( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٣٤ ) ١٩٥
- ٣٠ - خريطة للدوغة السفلى ( الغربية ) في كرمة  
( من رايزنر في: دراسات هارفارد الإفريقية ، المجلد الخامس ، الصور ٨ و ١٠ ) ١٩٨
- ٣١ - خريطة لهيكل البناء الطوبى الداخلى في المدفن التلى ٣ ، كرمة  
( من رايزنر في: دراسات هارفارد الإفريقية ، المجلد الخامس ، الصور ٨ و ١٠ ) ٢٠٣
- ٣٢ - خريطة للدوغة العليا ( الشرقية ) ، كرمة  
( من رايزنر في : دراسات هارفارد الإفريقية ، المجلد الخامس ، الصورة رقم ٨ ) ٢٠٥
- ٣٣ - الإستعمار المصرى في الدولة الجديدة ٢١٤
- ٣٤ - رسم تخطيطى لمدينة مسورة من الدولة الجديدة ، سسبى (دلقو)  
( من فيرمان في : مجلة الآثار المصرية ، المجلد ٢٤ ، مواجهاً ص ١٥٢ ) ٢١٧
- ٣٥ - خريطة لداخل معبد مشتق من الصخر ، أبو سمبل  
( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٩٦ ) ٢١٩
- ٣٦ - قبر نموذجى من الدولة الجديدة  
( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ١٧٧ ) ٢٣٢
- ٣٧ - النوبة العليا في الأزمان التبتية ٢٤٤
- ٣٨ - خريطة بالرسم التخطيطى لمقاطعة نبتة  
( وفقاً لديهام ، الكرو ، ص ٦ ) ٢٤٥

- ٣٩ - المعبد العظيم لأمون في جبل البركل  
٢٥٨ ( من دنهام ، معابد البركل ، التصميم الخامس )
- ٤٠ - رسم تخطيطي لمباني المعبد في جبل البركل  
٢٥٩ (من دنهام ، معابد البركل ، التصميم الأول )
- ٤١ - خريطة لمعبد تهارقا ، كوة  
٢٦٣ ( من مكادام ، معابد كوة ، المجلد الثاني ، الصورة رقم ١٢ )
- ٤٢ - تصميم وقطاع عرضي لمدفن ملكي بُنِيَ نموذجي ( الهرم السابع في نوري )  
٢٦٤ ( طبقاً لرايزنر في : دراسات هارفارد الإفريقية ، المجلد الثاني ، الشكل ٥٤ )
- ٤٣ - تصميم لجبانة ملكية بُنِيَتْ ، مروي  
٢٦٩ ( من رايزنر في : دراسات هارفارد الإفريقية ، المجلد الثاني ، الشكل ١ )
- ٤٤ - مثال للكتابة المروية : " اللوح العظيم " لآساني رناس وأكتينيداد من مروي «المدينة الملكية» ( من قارستنق في : حوليات جامعة ليفربول في الآثار وعلم أصول الإنسان ، المجلد السابع ، الصورة رقم ٩ )  
٢٨١
- ٤٥ - مسودة خريطة لمروي وضاحتها  
٢٨٢
- ٤٦ - مواقع مروية رئيسة في أراضي السهل  
٢٨٣
- ٤٧ - الإمبراطورية المروية في القرن الثالث الميلادي  
٢٨٤
- ٤٨ - رسم تصويري لانتصار الملك شركارير ، جبل قبلي ( من شيني ، مروي ، ص ٥١ )  
٢٩٣
- ٤٩ - تصميم المدينة الملكية وأجزاء ملاصقة لخزان مروي (من قارستنق في : حوليات جامعة ليفربول ، المجلد السابع ، الصورة رقم ١ )  
٢٩٥
- ٥٠ - تصميم لمعبد الشمس ، مروي  
(من قارستنق في : حوليات جامعة ليفربول في الآثار وعلم أصول الإنسان، المجلد الثالث، ص ٦٤)  
٢٩٦
- ٥١ - رسوم بارزة لمعبد الأسد المروي ، النقعة تُظهر الملك ناتاك أمانى والملكة أمانى تيرى  
يقدمان الإله الأسد آبادماك (ذا الثلاثة رؤوس )  
( من ليسيوس Deukmalers aus Aegypten und Athiopien المجلد الخامس ، الصورة ٥٩ )  
٢٩٨
- ٥٢ - تصميم المسور العظيم ، المصورات الصفراء ( من هينتز في : دنكلر ، محرراً ) Kunst  
٢٩٩ ( und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit ص ٦٠ )
- ٥٣ - نحت بارز يبين ملكاً مروياً راكباً على فيل ، المصورات ( من شيني ، مروي ، ص ٩٥ )  
٣٠٠
- ٥٤ - مخطط للقصر الملكي ، ودبانقا  
٣٠٢ ( من فيركوت في : سوريا ، المجلد ٣٩ ، ص ٢٧٨ )
- ٥٥ - التوبة السفلى في أزمان مروية ورومانية  
٣١٦
- ٥٦ - رسم إيضاحي لساقية عاملة  
٣٢٢ ( من شيلر في : Naturens verden يوليو ١٩٦٣ ، ص ٢١٨ )

- ٥٧ - تصميم لجزء من مدينة مروية ، وادى العرب  
 ٣٣٠ ( من امرى وكبروان ، الحفريات والمسح ما بين وادى السبوع وأندندان ، الصورة ١٧ )  
 ٣٣٢ - تصميم لمساكن مروية ، جزيرة قامينارتى ، الشلال الثانى  
 ٥٩ - تصميم لمركز قرية مروية ، مينارتى  
 ٣٣٤ ( من آدمز في : جانق ، محرراً ، علم آثار الإستهيطان ، ص ٢٠٠ )  
 ٣٣٩ ٦٠ - أنية فخارية مروية راقية من النوبة السفلى ( أعادت رسمها باتريشيا كلارك )  
 ٣٤٠ ٦١ - نماذج لأشكال فخارية مروية مزخرفة ، النوبة السفلى ( وفقاً لآدمز )  
 ٦٢ - حجرة مسقوفة لقبر مروى مع بنائها العلوى  
 ٣٤١ ( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ٢٢٨ )  
 ٣٥٢ ٦٣ - هجرات وغزوات الأزمان المروية المتأخرة وما بعدها  
 ٦٤ - النوبة السفلى في أزمان بلانة  
 ٣٦١ ( طبقاً لثريقر ، التاريخ والإستهيطان في النوبة السفلى ، ص ١١٦ )  
 ٦٥ - أنواع القبور في ثقافة بلانة  
 ٣٦٢ ( من امرى ، مصر في النوبة ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ )  
 ٦٦ - قرية من فترة بلانة ، مينارتى  
 ٣٦٥ ( من آدمز في : جانق ، محرراً ، علم آثار الإستهيطان ، ص ٢٠١ )  
 ٦٧ - قينة لصنع الفخار مزدوجة الغرف من النوع المستعمل في بلانة وأزمان مسيحية  
 ٣٦٨ ( من آدمز في : كوش ، المجلد العاشر ، ص ٦٧ )  
 ٦٨ - تصميمات لغرف ، فن سفلية ، القبور الملكية في بلانة وقسطل (من تريقر في : مجلة الآثار المصرية ، المجلد ٥٥ ، الصورة رقم ٢٩)  
 ٣٧٤ ٦٩ - الممالك الثلاثة للنوبة المسيحية  
 ٣٨٧ ٧٠ - الشرق الأدنى في زمن الحرب الصليبية الأولى  
 ٤٠٩ ٧١ - النوبة السفلى في الأزمان المسيحية الماثورة  
 ٤١٦ ٧٢ - تصاميم الكنائس النوبية مبينة التطور المعماري خلال الزمن  
 ٤٢٤ ٧٣ - مخطط لدير نوبى ، قصر الوُز  
 ٤٢٦ (من اسكانلون في : مجلة -ركز البحوث الأمريكى في مصر، المجلد ٥٦، الصورة رقم ٣١ )  
 ٧٤ - قرية من الفترة المسيحية القديمة ، ميناتى  
 (من آدمز في : جانق ، محرراً ، علم آثار الإستهيطان، ص ٢٠٤)  
 ٤٣٥ ٧٥ - إعادة فنية لبناء قرية تاميت النوبية في القون الوسطى ( من فانفونى في : تاميت ( ١٩٦٤ ) ،  
 ٤٣٨ الشكل ٤٤ )  
 ٧٦ - تصميم لمُجمّع مسيحي مُحَصّن ، إخميندى . ( من إستينكو في . Acme ، المجلد الثامن،  
 ٤٣٩ مواجهاً ص ٣٢ )  
 ٧٧ - رسوم فخار نوبية مسيحية  
 ٤٤١ ( أعادت رسمها باتريشيا كلارك، من آدامز في : كوش ، المجلد ١٥ )

- ٧٨ - النوبة السفلى ووطن الحجر في العصر الإقطاعي ٤٥٤
- ٧٩ - تصميم لمجمع مسور مسيحي متأخر ، صنارتى ( من دنكلر محرراً ، Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit ص ٢٦٦ ) ٤٥٦
- ٨٠ - تصاميم ومصاعد لقلعة من القرون الوسطى المتأخرة ، كولبنارتى ٤٥٩
- ٨١ - الهجرات العربية الرئيسية في القرون الوسطى ٤٨٧
- ٨٢ - قرية من القرون الوسطى المتأخرة ، كولبنارتى ٥٠٧
- ٨٣ - المكوكيات والقبائل الحاكمة في النوبة العليا في القرن الثامن عشر ٥١٨
- ٨٤ - الأملاك العثمانية والفونجية في القرن السابع عشر ٥٢٠
- ٨٥ مديريات السودان التركى - المصرى ، مع تواريخ حيازتها ( من هولت ، تاريخ السودان الحديث ، الطبعة الثانية ، ص ٢١٥ ) ٥٣٨
- ٨٦ - إعادة غزو السودان ، ١٨٩٦ - ١٩٩٨ ٥٤٦
- ٨٧ - تهجير النوبة في مصر والسودان ٥٦٥

رقم الصفحة	قائمة الجداول
٣١	الأول تسمية مقارنة للمراحل الثقافية النوبية وفقاً لمؤلفين مختلفين
٩٠	الثاني ملخص لحفريات المسح الأثارى للنوبة ، ١٩٠٧ - ١٩١١
٩٣	الثالث ملخص حفريات المسح الأثارى الثانى للنوبة ، ١٩٢٩ - ١٩٣٤
٩٤	الرابع التسلسل الزمنى لبعثات النوبة ، ١٩٠٧ - ١٩٥٨
٩٨	الخامس البعثات الأثرية للنوبة ، ١٩٥٩ - ١٩٦٩
٢٤١	السادس الترتيب الزمنى للحكام النوبيين والمرويين
٥١٧	السابع مدونة زمنية للزوار الأجانب للنوبة والسودان ، ١٥٢١ - ١٨٢٢

## تقديم

فكرة هذا الكتاب يرجع تاريخها إلى فترة السنوات السبع التي قضيتها في النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٦)، مديراً لعمليات الإنقاذ الآثاري لليونسكو ومصلحة الآثار السودانية. إنني أمل أن يقبل هذا الكتاب كمساهمة في حملة الآثار النوبية التذكارية - وهو عودة متواضعة لإستثمار الوقت والجهد الذي لم تبذله اليونسكو وحدها، إنما العالم بأسره، لدراسة آثار النوبة والحفاظ عليها.

عشرات من الرجال والنساء من كل جنسية - رصفاني في الحملة النوبية - أسهموا في هذا الكتاب ليس الأمر لأنهم مسؤولون عن مدخله النظري، كثيرون منهم سوف لا يتفقون، وقد اختلفوا، بحماس دافق مع أفكارى، وإننى لأمل في مواصلة الحوار. نفس هؤلاء قاموا كيفما اتفق الحال بتنفيذ العمل، ووفروا المعطيات التي جعلت من الممكن لى أن أقدم تقديري الخاص للتاريخ النوبى. وحيث أن غلبت من العمل الآثارى الراهن الذى استدعى ضرورته سد أسوان العالى لم ينشر بعد، فقد كان من خلال الإتصالات الشخصية والمراسلة أننى كنت متمكناً من أن أبقي على صلة، وأن أضف في كتابى نتائج آخر عمل إن شكرى القلبى يذهب، إذن إلى كل أولئك العلماء في الآثار النوبية، وعلماء اللغة والمؤرخين الذين لا تسمح لى المساحة بأن ادعوهم فرداً فرداً.

مع هذا، لزام على أن أسدد الدين بالإسم لمجموعة صغيرة من العلماء الذين كنت موصولاً بهم صلة وثقى بوجه خاص على مدى السنين، والذين كانت مساهمتهم في عملى على أعلى مستوى. بين هؤلاء أعد ريكاردو كامينوس، سرجيو دونالدوني، ي. ب. امرى الذى كان حياً بيننا منذ عهد قريب، روبرت أ. فرنيا، أندرياس كرونبرج، كازيمير ميخالوفسكى، ج. مارتن بلمل، تورجنى ساف-سودبرج، بيتر شينى، بروس تريفر، جين فيركوتير، وأندريا فيلا. أمسيات قضيت في معسكراتهم، وفي مواطنهم بأوروبا وأمريكا، ما فتئت لقاءات فكرية سامية مثلما أنها ظلت خبرات شخصية ممتعة. لقد كان الارتباط بهؤلاء وغيرهم من الرجال أثناء قسطنطين كل موسم هو الذى جعل السنين في وادى حلفا ما لعمرك محتملة فحسب، ولكنها حية الذكرى.

إننى أدين بقدر من العرفان لا يمكن حسابه لمصلحة الآثار السودانية ومديريها، ثابت حسن ثابت ونجم الدين محمد شريف، للدعم والتشجيع المستمر لعملى. عاماً بعد عام وجدت الموارد للإبقاء على مسيرتى في الميدان، حتى في أزمان الانقطاعات الخطرة والأزمات المالية والسياسية. إن على أن أشكر كذلك أصدقائى الآخرين بين ظهراني مصلحة الآثار، وعلى وجه الخصوص فريتز هينكل، والمساعدين المتعاقبين الذين ابتعثتهم لى اليونسكو، جان فيرورس، هانس - ألك نوردرستروم، وتوتنى ميلز. إنه لياخذ قدراً أعظم من كتاب لأسدد ما أنا مدين به لهم جميعاً. اليونسكو أيضاً تستحق شكرى ليس عن دفع مرتبى لسبع سنوات وحسب، لكن لأنها أغضمت عينيه نادياً عن الأنشطة الآثارية التى ما كانت جزءاً من واجباتى الرسمية. فلئن لم يأتنى بالمرءة إعطاء جزءا رسمى على عملى الحقلى، فإن تقديراً صامتاً كان مع ذلك مما لا يمكن الإستغناء عنه.

ليس ضروريا بالنسبة لى أن أنقل هنا الأعمال المنشورة الوفيرة القيمة التى ارتكزت عليها. إن عديداً منها جرت مناقشته بغزارة في الفصول التى تلى، وجميعها مذكور بما فيه الكفاية في الحواشى والهوامش بأخر الكتاب. حواشى كل فصل على رأسها فقرة أفردت فيها ذكراً خاصاً لأشد المصادر أهمية مما اعتمدت عليه في ذلك الفصل. أما المصادر المنشورة فإنها قد ألحقت بالطبع بقدر عظيم من الملاحظة الشخصية عن قرب، وبالاتصالات الخاصة التى نقلت كذلك في الهوامش.

إننى مدين ديناً خاصاً للوصفاء العديدين الذين كانوا من العطف بما يكفى ليرسلوا لى، وتقديم

على النشر ، نسخاً مخطوطة من مساهماتهم الأخيرة لدراسة النوبة وتاريخها . إن بلوغ هذه الأعمال - وبعضها ذا أهمية أولى - مكنتني من تقديم صورة أشد مواكبة بمراحل مما كان سيتاح لي على أساس المصادر المنشورة وحدها . العناوين المتعددة التي أشير إلى أنها ، تحت الطبع ، في الحواشي شهادة لحجم التعاون العلمي من النوع الذي حصلت عليه .

عالياً فوق شكري وما وراه للمعلومات التي أمدوني بها ، على أن أعبر عن عرفان إضافي أعمق لأولئك الرفقاء الذين أطلعوا وعلقوا على مسوداتي في مجرى إعدادها . بارزاً بينهم تورجنى ساف - سودريج ، بروس تريقر ، وحين فيركوتر ، الذين قرأوا العمل في كليته . أما الأقل أهمية بمعنى كمي لا أكثر فمساهمات أولئك الذين أطلعوا على أجزاء من المسودة : فرد ونورف (الفصل الرابع) ، روى كارلسون (الفصلين الرابع والخامس) ، دايفد أوكونور (الفصول الخامس إلى الثامن) ، هـ. س. سميث (الفصول الخامس إلى التاسع) ، برايان هايكوك الذي كان لوهلة بين ظهرائنا (الفصول العاشر إلى الثامن عشر) ، ب. ل. شيني (الفصول العاشر إلى السادس عشر) ، فريتز هينتز (الفصلين العاشر والحادي عشر) ، السير لورنس كيروان (الفصول الحادي عشر - السادس عشر) ، ن. ب. ميليت (الفصول الثاني عشر إلى السادس عشر) ، يوسف فضل حسن (الفصول السادس عشر - الثامن عشر) ، وروبرت أ. فرنيا (الفصلين التاسع عشر والعشرين) : إنني لأرتاب إن كان أي كتاب في التاريخ ، بالنسبة لمادة موضوعه ، قد لاقى جماعة من النقاد أعلى تفاضلاً أو أوسع وعياً قبل نشره . إن تعليقاتهم واقتراحاتهم أثرت العمل إثراءً عظيماً ، إضافةً إلى أنها أغنتني عن أخطاء لا حصر لها من الحذف والتنصيب : إن أيأ ما يبقى من نواقص بكل تأكيد الأم عليه أنا ولا يعود عليهم . كذلك يجب علي أن أشكر قلين دانيال لقيامه بتشجيعي على كتابة المؤلف ، على الرغم من أن كلاً منا لم يتوقع مسبقاً عبء العمل الذي ينطوي عليه .

الشكر يشمل كل هؤلاء الذين أمدوا في كرم كتابي بالتوضيحات التصويرية الفوتوغرافية : دوس دنهام ، فريتز هينتز ، جين جاكيت ، ركس كيتنق ، أندرياس كروننبرج ، كازيميرز ميخالوفسكي ، ن. ب. ميليت ، هانس . اك نورد ستروم ، دايفد أوكونور ، ج. م. بلملي ، سيرج سونيرون ، تورجنى ساف - سودريج ، ب. ل. شيني ، جين فيركوتر ، جان فيرورس ، وقبل الجميع فريتز هينكل .

شكري يغدو كذلك للفتيات في المكتب ، ثيريزا فريمان ، مارسيا مونتغمري ، وفيرجينيا سلاتري ، اللاتي بصبر ومعاونة أعملن المصحات في مسودتين من المخطوط ، وإلى جامعة كنتاكي لتفريقهن وقتاً وجهوداً للعمل في كتابي .

أما زوجتي ، نتي ، فإنها شريك كامل في هذا كما في أي اضطلاع آخر . إن كل الذين يعرفونها ، أو الذين يعلمون حياة المعسكر في النوبة ، سوف يدركون مدى ما ساهمت به .



## تقديم (١٩٨٤)

عندما اكملت المخطوط الأصلي لهذا الكتاب ، قبل حقبة من الزمان تقريباً ، كانت الحملة العظيمة لإنقاذ آثار النوبة قد بلغت نهايتها لوقت وشيك وحسب لقد افترضت إنه تكون هناك غفوة في حجم العمل الآثاري ، كما كانت هناك بعد حملات الإنقاذ السابقة في ١٩٠٧ - ١٩١١ - ١٩٢٩ - ١٩٣٤ . إنه لما يجزى أن يبلغ بعدم صحة تنبؤي فبالرغم من أن الجزء الشمالي من النوبة قد دمر إلى الأبد بامتلاء خزان أسوان ، تابع مالا يقل عن ست عشرة بعثة ، تمثل عشرة بلدان مختلفة ، العمل الآثاري في أجزاء أخرى من السودان منذ ١٩٧٥<sup>(١)</sup> . أضف إلى هذا أن الحفريات في قصر إبريم ، الموقع الرئيس الأخير في النوبة المصرية الذي لم يدمر ، لا تزال تواصل أعمالها إلى اليوم الحاضر<sup>(٢)</sup> .

إن نفقات الطبع تحول دون أي مراجعات لنصّي الأصلي في هذا الوقت ، إلا أن الناشرين سمحوا لي في عطف بصفحات إضافية قليلة لأذكر بعضاً من أهم الاكتشاف والتطورات منذ ١٩٧٥ . وفي المناقشة التي تلي ، تشير الأرقام بين الأقواس إلى صفحات في نصّي الأصلي تأثرت بالتطورات الجديدة .

**فترات ما قبل التاريخ (الفصل الرابع) .** واحد من أهم وأقيم التطورات في السنوات القليلة كان اكتشاف ما يبدو أنه مواقع زراعية في مصر الجنوبية ، تاريخياً يرجع إلى ما يبلغ ١٨٠٠٠ عاماً . إنها تسبق في الحدوث بعدة آلاف من السنين الأصول المفترضة لزراع القمح والشعير في « الهلال الخصيب »<sup>(٣)</sup> . إن البينة على الزراعة في هذه المواقع ليست قطعية على وجه التمام ، وهي لما تزال غير مقبولة من كل العلماء . فإذا وُفّر بمزيد من البحث ، ستقتضي يقيناً مراجعة كبرى في فهمنا لما قبل تاريخ وادي النيل المتأخر ، وفي الحقيقة كل الشرق الأدنى .

شغلت بقايا العصر الحجري الحديث تنبه مالا يقل عن خمس بعثات في السودان منذ ١٩٧٥ . كانت هناك حفريات رئيسة في المواقع النهرية بالكرك والكدادة ، شمال الخرطوم ، ومسوح في الصحارى إلى الشرق ، والغرب والجنوب<sup>(٤)</sup> . وقد محصت أن ثقافة الخرطوم الحجرية الحديثة كانت راجعة الانتشار للغاية في كل من شرق النيل وغربه في الألف الخامسة قبل الميلاد . أما الحفريات البولندية الموسعة والمتواصلة في مواقع الحفر بالكرك وفقد أضافت إضافة عظيمة إلى إدراكنا لهذه الفترة الثقافية . إن من الثابت الآن أن سكان الخرطوم في العصر الحجري الحديث كانوا يعتمدون في التنقل على البقر المستأنس للمعيشة ، وعلى الضأن والأغنام لعدة أقل<sup>(٥)</sup> . دفنوا أمواتهم بين حصور مستوطنتهم ، في جناز ضيقة القبور مصحوبة دائماً بفخار وقرابين أخرى .

شرق النيل ، ليس بموازاة النهر نفسه ، أفسح عصر الخرطوم الحجري الحديث الطريق لثقافة متأخرة تدعي تقليد البطانة ، تدل على صفتها مواقع قرى كبيرة ، مصنوعات فضارية برتقالية وبفسجية متميزة ، وجناز عليها علامة في السطح مدافن ثلثة بحجارة مستديرة . هذا التقليد يبدو أنه معاصر لثقافة المجموعة الأولى و/ أو المرحلة المبكرة لثقافة المجموعة الثالثة في النوبة السفلى . في نفس الوقت فإن أثراً محلياً من العصر الحجري الحديث ، على شئ من الاختلاف ، تطور على طول محاذاة النهر كما تعكس ذلك الحفريات الفرنسية في الكدادة . إن الفخار يبين بعض الإنجذابات لثقافة المجموعة الأولى النوبية ، ويعتقد أنه معاصر له في التاريخ<sup>(٦)</sup> .

الانطباع الذي جئى حتى الآن هو أن ثقافة العصر الحجري الحديث في الخرطوم ، التي كانت ذات مرة واسعة الانتشار في السودان ، تمت في الألف الرابعة قبل الميلاد لتقاليد ثقافية محلية

متنوعة . واحد من هذه ، عبكة ، كان قد جرى التعرف عليها مسبقاً . في النوبة الشمالية تركت هذه الثقافات المتأخرة في العصر الحجري الحديث بدورها المجال لثقافة المجموعة الأولى ، في حين أنه في المناطق الأبعد جنوباً ربما ظل بعضها متشبهاً بالبقاء إلى وقت متأخر كالأزمان الرومية .

**ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثالثة** (الفصلين الخامس والسادس) . أهم التطورات فيما يتعلق بهاتين الثقافتين سالبة . ما عُثر على أثر لآي منهما في المساحة إلى الجنوب من بحيرة النوبة ، ظاهر لذلك أن هاتين كانتا ثقافتين مصريتين هامشييتين ، أصبحتا محليتين . بالجنوب البعيد في السودان ، أخذت مكانهما ثقافات العصر الحجري الحديث الأكثر بدائية كما وصفت في الفقرة السابقة .

على أساس البنية التي نخب عنها أنفاً في قسطل ، دفع بروس وليامز النظرية الثورية إلى الأمام من حيث أن مؤسسات الملكية الفرعونية تأسست في ثقافة المجموعة الأولى النوبية قبل ظهورها في مصر نفسها (٧) ، مع ذلك ، فإن البنية على هذا نوعاً ما هشة ، ما وجدت بعد قبولاً واسعاً (٨) .

**ثقافة كرمة** (الفصل الثامن) جانباً ربما عن التحقيقات ما قبل التاريخية ، ما يزال أهم عمل أثارى أجرى في السودان منذ ١٩٧٥ ذلك المتعلق بثقافة كرمة . إن موقع كرمة نفسها ظل قيد التحقيق من بعثة سويسرية منذ ١٩٧٧ . لقد أضاف المتحقبون اللثام عن موقع متمر لمدينة لها منازل من الطوب الطيني كثيفة التجمع ومطموحات مستديرة للحبوب مقارنةً بالتى وجدت في المرحلة المتأخرة لثقافة المجموعة الثالثة بعيداً صوب الشمال (٩) . إكتشاف هام آخر هو مركب من مبانٍ تلتصق بالبرج العظيم للدفوفة الغربية . إنه لما يبدو الآن أن *الدفوفة* نفسها كانت في الأصل معبدًا . ولم تُملأ إلا مؤخراً ببناء صلب لتتيح أرضية مهيئة لتركييب أكثر علواً (١٠) . آثار الدولة الجديدة (١١) والإحتلال النوبي أزيل عنها الغطاء كذلك في كرمة (١٢) .

أما الجبانات غير الملكية في كرمة ، التي نقّبها رايزنر قبل ١٩١٦ ، فقد نُشرت أخيراً في ١٩٨٢ (١٣) . ومما له أهمية أكثر ، مع ذلك ، العمل الذي أنجزته بعثة فرنسية في جبانة كرمة الكبرى بجزيرة صاي (١٤) . على أساس هذه وغيرها من المواد المنشورة طورت بريجيت قراتين تسلسلاً زمنياً عاماً لثقافة كرمة ، التي قسمتها إلى أطوار باكراً ، وسطى ، متأخرة ، ومتأخرة . هذه تتعاصر على وجه غير دقيق مع ثقافة المجموعة الأولى ، والمرحلة المبكرة لثقافة المجموعة الثالثة ، والمرحلة المتأخرة لثقافة المجموعة الثالثة (المرحلة الوسيطة الثانية) ، وبداية التمسير (الأسرة الثامنة عشرة) ، بالترتيب (١٥) . هذا التتابع والتأريخ العام يبدو أنه أيدته الحفريات في كرمة (١٥) .

المدى الجغرافي الكامل لثقافة كرمة لا يزال مدركاً بمستوى فقير للغاية ، على أن شقوق فخار تشبه فخار كرمة عثر عليها الآن في سهل البطانة (١٦) وفي دلنا نهر القاش ، بالقرب من الحدود الأثيوبية (١٧) .

**الإحتلالات الفرعونية** (الفصلين السابع والتاسع) . قام هـ . س . سميث بنشر بنية نصوصية جديدة تشير إلى حضور مصري متواصل في قلعة بوهين بين الدولتين الوسطى والجديدة . إن الموظفين الرسميين المقيمين يعتقد أنهم كانوا في خدمة حاكم كرمة ، كما كان سبدهر في تاريخ متأخر (١٨) . نحو الجنوب البعيد كشف الغطاء الآن عن جزء كبير من قلعة الدولة الجديدة في جزيرة صاي ، إلا أنه لم يتوفر بُعْدٌ عنه تقرير تفصيلي .

**الفترة النبتية** (الفصل العاشر) . ما انفك التنقيب مستمرًا هناك في وحول المعابد بجبل البركل ، غير أنه لم يبلّغ عن نتائج أخاذه للغاية بعد (٢٠) . بعيداً في الشمال ، تم حفر جبانة نبتية واسعة مجاورة لعبري (٢١) . أنماط القبر وأمتعتها شبيهة بشكلٍ قريب بتلك التي حفرت مسبقاً من

(\*) يشار إلى الدولة الجديدة بالدولة الحديثة أيضاً في تراجم أخرى - المترجم.

قريفيث في صنم<sup>(٢٧)</sup> . القبور النبتية في منطقة عبرى هي الأكثر شمالية فيما وجد حتى الآن ؛ إنها البقايا النبتية الوحيدة المكتشفة في مسح لأكثر من ٥٠٠ موقع بين دال وعبرى<sup>(٢٨)</sup> .

**الفترة المروية** (الفصلين الحادي عشر والثاني عشر) . الحفريات في موقع - مدينة مروى كشفت في ١٩٧٥ و ١٩٧٦ عن بقايا لأربعة معابد صغيرة ، ما كان ثمة ترتيباً في شأنها آنفاً<sup>(٢٩)</sup> . بعد فجوة امتدت لعدة سنوات ، تكاد الحفريات في مروى تستأنف بينما يكتب هذا . في كرمة<sup>(٣٠)</sup> وفي عبرى<sup>(٣١)</sup> ، جبانتان تعودان إلى تاريخ مروى سحيق القدم وقد عُثِرَ من أنواع غير معروفة في السابق . إن شقوقاً قليلة في نفس النماذج الفخارية وُجِدت في مستويات السطح البطلمي (البطيُموسي)<sup>(٣٢)</sup> والروماني بقصر إبريم<sup>(٣٣)</sup> هذه هي المادة الأثرية الأولى التي باءى حالاً ملات الفراغ بين الإحتلالات النبتية والمروية المتأخرة في النوبة الشمالية .

لازلو توروك أخرج دراستين هامتين للتنظيم الإقتصادي والسياسي المروى ، بناء على مصادر نصوصية<sup>(٣٤)</sup> . إن الدليل يقوده لأن يتحدى وجهة نظري القائلة بأن النوبة الشمالية كانت غير محتلة في العهود النبتية والمروية الأولى ، بالغم من غياب أي بقايا أثرية<sup>(٣٥)</sup>

**الإحتلال البطلمي والروماني** (الفصل الثاني عشر) . الحفريات في قصر إبريم عُدَّت بمستوى معتبر صورتنا عن النشاط البطلمي والروماني في النوبة السفلى . ظاهر الآن أن أسوار التحصين الرئيسية بقصر إبريم شُيِّدت من قبل البطالمة ، حوالي أو قبل عام ١٠٠ م . وقد شُغِل المكان بعد ذلك من حامية بطلمية حتى مجئ الرومان عام ٣٠ ق م . لقد صان الرومان ووسعوا التحصينات ليس مرة بل في أوقات عديدة ، وإنه ليبدو أنهم مكثوا على احتلالهم أكثر من قرن . على نحو مطرد عقب إعادة القلعة إلى الإدارة المروية ، ربما حوالي ١٠٠ م ، هنالك بيئة على مستعمرة أو حامية رومانية بالموقع حتى وقت متأخر لمدى بعيد<sup>(٣٦)</sup> .

لجيهان ديسانجس عمل كتابي هام جديد ، يسمح المصادر الماثورة المتوافرة عن النوبة والسودان<sup>(٣٧)</sup> .

**ثقافة بلانة** (الفصل الثالث عشر) . أخرجت الحفريات بقصر إبريم كماً هائلاً من المواد من فترة بلانة التي لا تزال تحت الدراسة . على أساس أنواع الفخار من الممكن الآن أن تُقسَم الفترة ككل إلى أربعة أطوار فرعية لمدة تبلغ حوالي خمسين عاماً<sup>(٣٨)</sup> . لابد أن يبرهن ذلك على إعانة ضخمة لتاريخ قبور بلانة المتعددة التي كانت قد حُفرت مسبقاً .

**الفترة المسيحية** (الفصول : الرابع عشر حتى السادس عشر) استؤنفت الحفريات منذ وقت حديث في سوبا ، عاصمة علوة في القرون الوسطى ، التي ظلت الآن في تقدم متقطع لعشرين عاماً<sup>(٣٩)</sup> . في كلنبارتي ، صدرت عن حفر الجبانة المسيحية معلومات هامة حول أحوال السكان وأمراضهم في القرون الوسطى<sup>(٤٠)</sup> .

أخرج الآب جوفاني فنتيني كتابين لهما فائدة عظيمة لدراسة السودان في القرون الوسطى . المصادر الشرقية الخاصة بالنوبة (جمعية الدراسات النوبية ، هايدلبرج ووارسو ، ١٩٧٥) يحتوي تراجم لما كان على أكثر من ١٢٠ مؤلفاً عربياً أن يذكروه عن النوبة بين ٥٥٥ و ١٧٠٠ م . ثم المسيحية في السودان وهو عمل أوسع عمومية ، يتبع تاريخ كل من المسيحية والجهود البشرية في القرون الوسطى بالماضي القريب .

**الفترة الإسلامية** (الفصل السابع عشر) . الحفريات بقصر إبريم نتجت عنها قبل مدة وجيزة ثروة لكل من البيئة الأثرية والنُصْية من الفترة الإسلامية ولما كان هذا الموقع محتلاً من

(\*) انظر المقدمة : بدلاً عن البطليموس والبطالسة ، أخذنا بالبطلمي والبطالمة لتطابقها مع نطقها الأصلي Ptolemy - المترجم

حامية عثمانية ، كيفما ، فإن ما عثر عليه ذا صلة محدودة بإدراكنا للتاريخ الأعم شمولاً للسودان .  
إن معظم النصوص تشير إلى شؤون عسكرية أو تجارية (٣٦) .

قدّم على عثمان تاريخاً مثيراً للإهتمام عن مملكة كوكا اللاحقة للقرون الوسطى ، في أرض  
عبرى - دلقو النهرية ، التي ثابرت على البقاء حتى الفتح التركي عام ١٨٢٠ . وقد وجد عدة إحياءات  
بالتواصل مع مملكة دوتاوا في القرون الوسطى المتأخرة (٣٧) .

**الفترة الحديثة (الفصل التاسع عشر) .** طلاب شعبة الآثار بجامعة الخرطوم أعدوا دراسات  
« عرقية أثرية » لصنع الفخار وحرف يدوية محلية أخرى في السودان . وسوف تعين النتائج بقدر  
عظيم على تفسير المواد التي استعيدت أثرياً .

**الحياة الإحتفالية النوبية ،** الذي حرره جورج ج . كنيدي (بركلي ، ١٩٧٨) دراسة هامة  
حول الديانات الشعبية للنوبيين ، من قبل ومن بعد تهجيرهم . *النوبيون / المصريين* تأليف حسين أ .  
فهيم (سولت ليك سيتي ، ١٩٨٢) أول دراسة موسعة عن كيفية تلاؤم النوبيين المصريين مع  
محيطاتهم الجديدة منذ التهجير .

**السودان الجنوبي .** شهدت السنوات بدءاً بعام ١٩٧٥ أول نشاط أثاري ممنهج الإجراء في  
الجزء الجنوبي من السودان . بين ١٩٧٧ و ١٩٨١ أجرت بعثة بريطانية مسوحاً وتنقيباً نصياً في  
مواقع محلية كثيرة بالمحافظات الإستوائية وبحر الغزال . لقد وجدت البعثة عدداً كبيراً من المواقع ،  
تتفاوت في الوقت من العصر الحجري الحديث المبكر إلى الماضي القريب . إن البقايا المماثلة  
بصفة عامة للثقافات ما قبل التاريخية التي عُرفت آنفاً من يوغندا وكينيا ، لا تحمل شبهة لأى من  
الثقافات المألوفة للسودان الأوسط والشمالي (٣٨) .

خلال نفس السنوات ، حفرت إلسي كلبي موقعين على مرتفع في محافظة أعالي النيل . بيد  
أنهما كانا قري للشلك ترجع إلى فترة الفونج (٣٩) .

**ملحق .** يسرني أن أقرر أن هذا الكتاب مُنح جائزة ملفيل ج . هيرسكوفيتش من جمعية  
الدراسات الإفريقية في ١٩٧٨ . بيد أن الأوفى جزاء الحقيقة التي مؤداها ، وأمضى ما بها ، أنني  
دُعيت « نوبياً فخرياً » من منظمة تدعى جمعية الحفاظ على إرث النوبة الثقافي . إن قبول الناس الذين  
جرت دراستهم لعالم الأصول الإنسانية هو الوسام الأعلى .

## هوامش التقديم

- ١ - التقارير الأولية لأغلب هذه البعثات ستوجد في نيام أكوما Nyame Akuma ، نشرة الأنباء للآثار الإفريقية التي تنشر في كلجاري (وفيما بعد في آدمنتون) ، البرتا ، كندا . وفيما عدا حالات خاصة سوف لا تنقل هذه التقارير مفردة في النص الحالي .
  - ٢ - التقارير الأولية في نيام أكوما وفي مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology, vols. 63,65, 69 .
  - ٣ - انظر فرد وندورف وروملد شيلد تاريخ ما قبل الصحراء الكبرى الشرقية Prehistory of the Eastern Sahara (New York, 1980), pp. 273-80  
وفر وندورف ، روملد شيلد ، وأنجيلا أ . كلوس في : العلم Science 82, vol. 3, No. 9, pp. 68 -73.
  - ٤ - للمسح الذي أجري في الغرب أنظر عباس س . محمد على في الأنثروبولوجيا الراهنة Current Anthropology, vol. 22 (1981), pp. 176. 8 .  
للمسح إلى الشرق والجنوب أنظر نيام أكوما المرجع نفسه (بالحاشية ١) .
  - ٥ - أنظر بخاصة إيش كرزيزنيك في الدراسات النوبية ، إعداد بلملی Nubian Studies (Waminster, 1982) , pp. 151- 4 .
  - ٦ - أنظر على وجه الخصوص فرانسيس قيس في مصلحة آثار السودان Francaise de Recherche Archéologique, Rapport Annuel d'Activité, 1978-1979, pp.15-16 .
  - ٧ - أنظر الآثار Archaeology , vol. 33, no. 5 (1980), pp. 12 - 21 .
  - ٨ - للمناقشة أنظر و. ي . آدمز «شكوك حول الفراعنة المفقودين » Journal of New Eastern Studies (in press).
  - ٩ - أنظر شارلس بونيه في جنافا Geneva, vol. XXVI (1978), pp. 107 -34 ; Vol. XXVIII (1980), pp. 31- 72; Vol. XXX (1982), pp. 29-70.  
كذلك شارلس بونيه في بلملی (الحاشية ٥) ، pp. 45 - 56
  - ١٠ - أنظر بوجه خاص شارلس بونيه في جنافا Geneva Vol. XXX (1982), pp. 44 - 6.
  - ١١ - أنظر شارلس بونيه في جنافا Genavs. Vol . XXVI (1978), pp. 116 - 20; Vol. XXVIII (1980),p. 59.
- وفي نيام أكوما Nyame Akuma, No. 22(1983), pp.23-4.

Excavations at Kerma, Part VI (Boston. 1982)

١٣ - أنظر خاصة بريجيت قراتين في

Cahiers de Recherche de L'Institut de Papyrologie et d'Égyptologie de Lille, No.3

(1975). pp. 43- 66; No. 6 (1981), pp. 132 - 48 .

١٤ - بريجيت قراتين (Lille, 1978) Les Cultures Kema

Genava. Vol. XXVIII (1980) , pp. 50- 58 جنافا

١٦ - أنطوني ماركس وآخرين في نيام أكوما (1982), pp.39-40 Nyame Akuma No. 21

١٧ - رولفو فاتوش ومارسيلو بيرونو في نيام أكوما (1981), pp. 29-30 Nxame Akuma No - 19

١٨ - ه . س . سميث « قلعة بوهين : النقوش »

(Egypt Exploration Society, Excavation Memoir 48, 1976), pp. 80 - 85.

١٩ - أنظر جين فيركوتر

Cahiers de Recherche de l' Institut de Papyrologie et d'Égyptologie de Lille, No. 1

(1973). pp.7-38.

وأنظر مايكل عزيم ، نفس المرجع ، العدد الثالث (١٩٧٥) ، pp.91-126

٢٠ - أنظر سيرجيو دونادوني وسرجيو بوستيكي في «دراسات مروية » إعداد نيكولاس ب . ميليت

واللين ل . كلى . (Meroitica 6, 1982), pp.291-301.

٢١ - أندريا فيلا

La Prospection de La Vallée du Nil au Sud de La Cataracte de Dal, 12 (1980)

٢٢ - نفسه ، P. 169

٢٣ - أندريا فيلا ، المصدر السابق ، 37 ، pp. 7 -8, 11 (1979)

٢٤ - أنظر نيام أكوما (1976). p. 44 Nyame Akuma No. 9

٢٥ - شارلس بونه في جنافا 5-123 (1978), Vol XXVI

٢٦ - فيكتو فرناندز رسالة الأخبار المروية

Meroitic Newsletter No. 20 (1980), pp. 13-22 and pls I-IV

٢٧ - أنظر و . ي . آدمز « الإحتلال البطلمي والروماني بقصر إبريم » ، في

Cahiers de Recherche di l' Institut de Papyrologie et d'Égyptologie de Lille, No. 7 (in

press)

٢٨ - الأعباء والمناصب الإقتصادية في النوبة المروية

(Études Publiées par les Chaires d'Histoire Ancienne de L'Université Loránd E. otvos

de Budapest, 26 (1979) .

الإقتصاد المروى ومصادره المكتوبة : مسح للمعلوم والمتوهم (ماجستير قبل الطبع)

٢٩ - الإقتصاد المروى ، المرجع السابق (ماجستير قبل الطبع) ، 4-63 pp

٣٠ - أنظر آدمز ، المرجع المشار إليه (الحاشية ٢٧) ، ومثله « برمس [إبريم] والتخوم الأثيوبية »

٣٢ - أنظر و . ي . آدمز « من الفخار إلى التاريخ : تحديد زمن الرواسب الأثرية من البيئة الخزفية » ،  
ورقة قرئت في مؤتمر العمل حول إستعمال المناهج العددية في دراسة الثقافة المروية ،  
فurstenberg, GDR, October 11, 1983.

٣٣ - أنظر نيام أكوما

Nyame Akuma No. 20 (1982), pp. 50 - 53, and No. 22 (1983), pp. 30 - 33.

٣٤ - لتقرير حديث أنظر ستيفان جاكوبيليسكى في بلملى ، المصدر السابق (الحاشية ٥) ، pp - 116  
- 26 .

٣٥ - أنظر دنيس فان جرفن في نيام أكوما . 5 - 53 , pp. (1979) Nyame Akuma No. 15

٣٦ - أنظر و . ي . آدمز وجون الكسندر في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol, 69 (in press).

٣٧ - على عثمان في بلملى ، المصدر السابق (الحاشية ٥) ، pp. 185 - 205

٣٨ - أنظر نيام أكوما

Nyame Akuma No. 14 (1979), pp. 52-6; No. 16 (1980), pp. 37-40; and No. 18 (1981),  
pp. 48-50.

٣٩ - أنظر نيام أكوما

Nyame Akuma No. 15 (1979), pp. 63-70; and No. 21 (1882) , pp. 36-8.

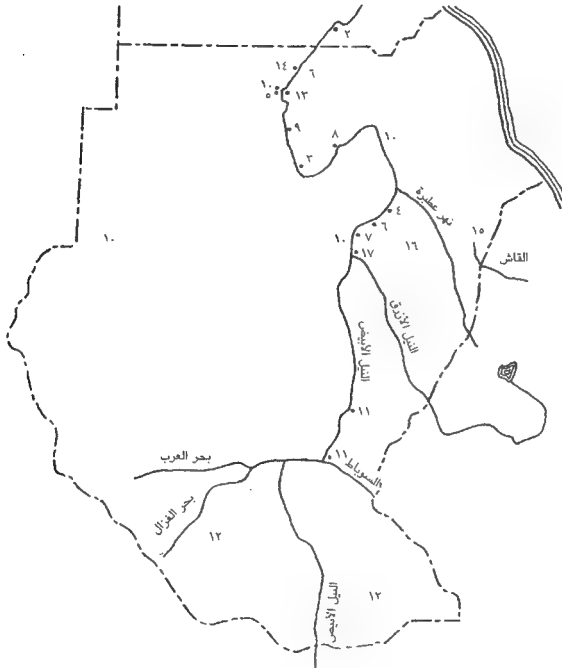
## المفتاح

السنوات	الجنسية	منطقة العمل	الفترات والبقايا
١٩٥٧-١٩٥٨ ح*	إيطالي/ فرنسي	صندقا	معبد من الدولة الجديدة . جَبانة مروية
١٩٦٣-٢ ح	بريطاني/ أمريكي	قصر إبريم	قلعة من العصر الفرعوني إلى الإسلامي
١٩٦٤-٣ ح	بولندي	دنفلا العجوز	موقع مدينة وكثانس مسيحية
١٩٦٥-٤ ح	كندي/ سوداني	مروى	موقع مدينة ومعابد مروية
١٩٦٩-٥ ح	فرنسي	جزيرة صاى	قلعة وجَبانات فرعونية حتى الإسلامية
١٩٦٩-٦ ح	فرنسي/ سوداني	دال إلى عبرى	مسح: كل الفترات
١٩٧٦-٨ ح	فرنسي/ سوداني	منطقة شندى	أساسا مواقع للعصر الحجري الحديث وجَبانات مروى
١٩٧١-٧ ح	بولندي	الكدرو	مستوطنة وجَبانة من العصر الحجري الحديث
١٩٧٣-٨ ح	إيطالي	جبل البركل	معابد نَبْتية ومروية
١٩٧٤-٩ ح	سويسرى	كرمة	موقع مدينة كرمة، معابد وجَبانات
١٩٧٥-١٠ ح	سوداني	(متنوعة)	مسح: كل الفترات
١٩٧٦-٨٢ ح	سوداني/ نرويجي	محافظة أعالي النيل	مواقع الشك من فترة الفونج
١٩٧٧-٨١ ح	بريطاني	الإسنوائية وبحر الغزال	مسوح وحفريات إختبارية؛ فترات متنوعة
١٩٧٨-١٣ ح	أسياني	منطقة عبرى	جَبانات من كرمة، ونبتية، ومروية
١٩٧٩-١٤ ح	أمريكي	كولبنارتى	جَبانات مسيحية
١٩٨٠-١٥ ح	إيطالي	دلتا نهر القاش	مسح: مواقع للعصر الحجري الحديث أساسا
١٩٨٠-١٦ ح	أمريكي	سهل البطانة	مسح وحفريات إختبارية؛ مواقع من العصر الحجري الحديث أساساً
١٩٨١-١٧ ح	بريطاني	سويا	موقع لمدينة مسيحية

ح\* : للوقت الحاضر



# البعثات الأثرية للنوبة والسودان منذ ١٩٥٧



## المقدمة

تملك مصر ، على الحد الأسفل من النيل ، أطول تاريخ مدون في العالم ، أما إفريقيا الداخلية ، على منابع نفس النهر ، فما لها فيما يكاد سوى تاريخ قصير . تتراوح النوبة ، الأرض الواقعة بينهما ، لـ ٥٠٠٠ عام بين التاريخ والعصور المظلمة . إن أقدم مدون مكتوب من النوبة ربما بدأ تاريخه من الألف الرابعة قبل الميلاد : وانتهى آخر عصر مظلم في ١٨١٢ .

السيرة المنقطعة لتاريخ النوبة المدون تعكس أكثر من أي شيء آخر إهتمام العالم الخارجي المتضارب وغير المستيقن بهذه الأرض القُصْية الجافية . ولآلاف السنين عاملتها مصر كتوع من إحتياطي الصيد الخاص لقنص الإنسان والحيوان . فإذا سيق مؤرخون أو كتاب مصريون على مضض لذكرها ، تحدثوا عنها بالالفاظ المحطة التي تُحذَرْنَ لـ " فصائل اقل لا يحيطها القانون " . قلما نصادف إسم كوش (لقباً عتيقاً للنوبة) في النصوص الهيروغليفية غير مقرون بالعت " تعس " أو "مقيت" (١) .

نوعاً ما ، أسدى النوبيون لأنفسهم عدلاً أفضل عندما بدأوا بعد ٢٠٠٠ عام في كتابة تاريخهم الخاص . ولم تكن منشوراتهم الملكية برغم ذلك أمضى إعلاماً من منشورات معلمهم المصريين . إنها ملأى بنفس المزاعم البالغة في تمجيد الذات والإنجازات المختلفة التي تربطها بالفراغة . وقد كُتبت بنفس الرموز الدخيلة ولا يميزها نوبياً عن غيرها سوى أسماء الممثلين .

ترك لهيرودوتس (وُريما سلفه هيكتيوس) أن يجلب وجهة نظر جديدة لدراسة النوبة وأهلها . كان من مصر والنوبة للإغريقي واسع العينين ، غريباً على حد سواء ، داعياً للتنبية على حد سواء ، وقديماً بالمثل فلئن كان " أبو التاريخ " ليس أول كاتب في التاريخ النوبي حقيقةً ، فقد كان على الأقل أول من أخذه بجدية ، وحاول أن يبلغ عنه بموضوعية (٢) .

أسرت أرض النوبة العليا النائية ، بحيوانها الغريب وسكانها ذوى البشرة الداكنة ، خيال الأغاريق والرومان الملتهب بالطولة والمغامرة كما لم تفعل بالمصريين أبداً . لقد كتب هومر نفسه "إنهم أقسى أمة ، وأشد الرجال عدلاً ؛ المفضلون من الآلهة . إن أسمى المقيمين بالأولمب يرتحلون إليهم ، ويشاركون في ولائهم ؛ وقرايبتهم هي الأغلب تقبلاً من كل تلك الضحايا التي يستطيع البشر تقديمها لهم " (٣) . بنفس القدر في أوج فلسفة الشك الهيلينية ، إزدهرت كل أشكال الأساطير الرائعة حول مصادر النيل ، كما وقع في أزمان القرون الوسطى حول مملكة برسترجون . إن ديودورس الصقلی ، المؤرخ الإغريقي المتأخر والمعاصر للوكريتيوس (٥٠ ق . م . تقريباً) ، هو الذى سجل ونقل إلى الأجيال التقليد الذى كان جارياً آنذاك أن النوبة كانت الموطن الأصلي للمصريين ومنبع الحضارة نفسها (٤) .

في العصور الوسطى ، أعطى إفتتاح القوافل عابرة الصحراء لعرب شمال إفريقيا نظرة أجمل وأقعية ونثراً من جبرتهم الجنوبية . هناك العديد من العلماء الإسلاميين المتميزين بينهم أثن خلدون العظيم (٥) ، إستجمعوا تواريخ وجغرافية النوبة . بضعة من هذه ترجمت إلى لغات أوروبية حتى القرن التاسع عشر ، مع ذلك ، فبعضها غير مترجم إلى هذا اليوم . وإلى ١٥٠ عاماً مضت ، كانت المفاهيم الأوروبية حول النوبة لا تزال إلى حد كبير مشتقة من الماثورات العاطفية لهيرودوتس وديودورس .

الإحتلال النابليوني للقصير لمصر ، ١٧٩٨ - ١٨٠٦ ، فتح أراضي النيل للدراسة الأوروبية . زار بورخارت (٦) ، كايو (٧) ، وهوسكنز (٨) النوبة وكتبوا عروضاً مفصلة ومستبصرة لسكانها وثقافتها . أما رحلة ريتشارد لبيسيوس صانعة العصر في ١٨٤٢ - ١٨٤٤ ، بما نتج عنها من عمل

لإثني عشر مجلداً في التحف النوبية والمصرية<sup>(٩)</sup> ، فقد وضعت النوبة على الخريطة التاريخية لكل الزمن . في هذه الأثناء فتح الإكتشاف وحل الرموز للنصوص الهيروغليفية طوال القرن التاسع عشر مدخلاً جديداً كل الجدة للتاريخ النوبي .

كانت صورة الأرض الجنوبية التي خرجت من النصوص المصرية متعارضة في جوانب غفيرة وعلى نحو محيط بتلك التي تصدرت من المؤلفين القدماء آنفاً . فالنوبة ، فيما يبدو ، ما كانت سوى محافظة على التخوم فقيرة وغير جذيرة بالحضارة ، مُستغلة ومضطهدة من المصريين وفق ما شاؤوا ، لذهبها ، وعاجها وعبيدها في المبدأ والأساس . ومع تطور حقل علم الآثار المصرية ، وبلوغ المؤرخين موضع الإعتماد بإطراد على النصوص الهيروغليفية وبمستوى أقل على المصادر القديمة ، تآصل سلوك المصريين القديم نحو النوبة في عقولهم ، إلى أن طغى كلياً بنهاية القرن على المفهوم القديم للنوبة كنوع دائم للحضارة . في ١٩٠٧ ، عندما نشر وليس بدج أول تاريخ حديث للمنطقة ، كتب :

تخيل كثير من علماء الآثار أننا سوف نجد في السودان اطلالاً لبيانات وصروح خالصة سوف تمكنهم من إعادة تاريخ موصل للقطر ، لكن شيئاً من هذه المسوح والإستطلاعات التي أجريت من قبل رحالة قدامى ومحدثين لم يتمخض عنه إيجاب لاي خرائط لم تكن ..... بحق ، عملاً لأجانب<sup>(١٠)</sup> .

من السخرية ان نفس العام الذي رأى نشر وجهة نظر بدج للمتشائمة شهد كذلك إستهلال البحث الأثري في النوبة الذي كان سيثبت أنها خطأ فادح . ذلك هو مسح النوبة الأثري العظيم ، أول حملة إنقاذ منظمة من العالم ، دعا إلى ضرورتها بناء خزان أسوان . إن أول مديرها جورج أ رايزنر ، الذي بدأ بذلك إستغلالاً دام طوال الحياة سيجعل اسمه فيما بعد بارز العلاء بين دارسي التأريخ النوبي .

لاقي المسح الأثري كائناً في الحال بقايا لم تكن من أصل مصري : كانت من الكثرة بمكان حتى أن رايزنر تعرّف بنهاية الموسم الأول على ما لا يقل عن أربعة مراحل ثقافية نوبية ما كان لها معادل مصري . ولأن التاريخ لم يوفر أي أسماء لهذه الثقافات (أو الناس ، كما اعتبرهم رايزنر) ، فقد أعطاهم توصيفات أبجدية - «أ» ، «ب» ، «ج» ، و«س» - لا تزال معروفة بها على الذبوع لستين عاماً لاحقة . فإن لم تكن وجه الدقة قد سمحت لرايزنر " ليعيد بناء تاريخ موصل للقطر " (في عبارة بدج) ، فإنها على الأقل بالفعل علّكت معظم العصور المظلمة في التاريخ النوبي ، بين فصول من الإستعمار أو النفوذ المصري<sup>(١١)</sup> .

في إتجاهه للمسح الأثري للنوبة ، وفي تحقيقاته الأخيرة عن الجبانة الملكية النوبية ، اضاف رايزنر ما لا يمكن قياسه إلى الصورة الكالحة للتاريخ التي كان بدج قادراً على جمعها من مصادر وثائقية . إن فترات الثقافة التي عرفها ، وترتيب خلافتها ، بقيت الإطار المعيارى لكل دراسات التاريخ النوبي منذ بداية أيامه ، تماماً كما ظل تسلسل مانتوي الزمنى للأسرات الفرعونية إطاراً معيارياً لكل دراسات التاريخ المصري القديم<sup>(١٢)</sup> . إلا أن رايزنر كان بوسعه كذلك أن يكتب أن : «النوبة البائسة» كانت في البدء جزءاً من مصر . ما كانت إلا ذليلاً للقطر الأكبر بعد الأسرة الأولى ، ويصعب أن يعدو تاريخها سراً لإستخدامها أو تجاهلها من مصر<sup>(١٣)</sup> .

ترأس رايزنر مسح النوبة الأثري أثناء الموسم الأول فحسب من مواسمه الأربعة ، ومن بعده تولى المسح س . م . فيرث . كان هناك مسح آخر من حجم ومدة مقارنين بين ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ، حين كان سد أسوان الأصلي قد تمت توسعته . عملت بعثات خاصة عديدة أيضاً بالنوبة في الفترة ما بين المسحين ، ولمدى أقل بعد المسح الثاني ، حتى أحدث إندلاع الحرب العالمية الثانية إيقافاً للعمليات الأثارية على النيل . ما كان حتى إعلان سد أسوان العالي أول مرة ، في ١٩٥٩ ، أنها أعيد مدارها

على أى مقدار يُماثل معدل ما قبل الحرب <sup>(١٤)</sup> .

إن المسحين الأول والثانى للنوبة تذكران ولا سابق لهما في الحقيقة ، لكن حجمهما متواضع إذا ما قورن ببعثة الإنقاذ النوبية للأعوام ١٩٥٩ - ١٩٦٩ ، التي كانت رهناً لدعاية ساحقة النجاح من منظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلوم والثقافة (يونسكو) . وبالرغم من أن الأولوية كانت بالضرورة ممنوحة للحفاظ على صروح مشتهرة سلفاً ، فإن أكثر من أربعين بعثة ، تمثل أغلب أمم العالم الصناعية ، اشتغلت بكشف أثارية صرفة في مصر والسودان . أنفق أكثر من مليون دولار للمسح والحفر وحدهما . يقينا ليس من جهر يقارن لتحقيق واستعادة الماضي بئذ بأي مكان آخر بالعالم في وقت بهذا القصر أبداً . إن تقارير التحقيقات التي جرت مؤخراً في النوبة بدأت الآن وحسب في الظهور ، إلا المنشورة أنفاً ضاعفت من حجم الأدب الموجود في التأريخ النوبى .

مذهل في واحد من المعانى كيف أن العمل اللاحق قليلاً أضاف ، أو حذف ، من التركيب الأصلي لرايزنر ما من فترات ثقافية أضيفت إلى التي اكتشفها بنفسه ، وما جرت ثمة مراجعة لتعاقبها . إنه لجزء دائم لنبرع رايزنر أن مشروعاً كان هو قادراً على اقتراحه خلال أشهر قليلة من ولوجه الحقل يظل جديراً بالصمود لاختبار تنقيب لاحق بستين عاماً . إن مؤلف ي . ب . امرى مصر في النوبة <sup>(١٥)</sup> ، أكثر عمل شائع قريب عن التأريخ النوبى (والعمل الوحيد الذى يأخذ بتوسع من نتائج الحملات الراهنة) ، يكاد يحتفظ على إطلاقه بالتركيبة الرايزنرية . وبينما أن وفرة من المادة الوصفية جديدة ، فإن الأجزاء النظرية والتحليلية ل مصر في النوبة كان بالإمكان أن تُكتب من رايزنر نفسه .

صحيح كذلك لسوء الطالع أن عمل رايزنر ، وأقربه ثلواً ، يبدو أنه يؤيد تنبؤ بدج أن علماء الآثار سوف لا يكون بمقدورهم أن يعيدوا إنشاء تاريخ موصول الحلقات للنوبة . فسر رايزنر طوال حياته التأريخ النوبى بقدر كبير على أساس مجئ وذهاب أقوام مختلفة : ناتج ذلك سلسلة من مناظر منقطعة الوصل يؤديها ممثلون مختلفون ، فإذا كانت هناك أى شعيرة من الإستمرار في صورته عن النوبة ، فهي مصرية كانت ، ما واحدة أصيلة . هذا الراى ظل مُتَقَبَّلاً بالتقريب من كل خلفاء رايزنر ، وإنه لمتضمن في العنوان مصر في النوبة <sup>(١٦)</sup> .

ربما وقع الراى « العرَضى » للتأريخ النوبى الذى طرحه رايزنر للإعتبار ، وتبناه معظم خلفائه ، تحت نفوذ ثلاثة عوامل . بادئ ذى بدء ، كانت « النوبة » في مطلق القرن العشرين تعنى لكل الأغراض العملية النوبة السفلى ؛ كأنما لم تكن هناك معرفة منظمة عن منطقة ما وراء الشلال الثانى . ولابد من التسليم أن المنطقة الشمالية لا يبدو حقيقة أنها كان لها تاريخ منقطع الوصل من الإستيطان والتطور الثقافى . عقب نصف قرن من التحقيق المكثف إلى اليوم ، هنالك أجزاء مفقودة في المدون الأثارى تُلقى على عاتقنا أن نفكر من زاوية التخلي وإعادة الاحتلال . مع هذا ، بوسعنا الآن أن ندرك أن أغلب هذه الحركات السكانية ما كانت أكثر من هجرات غدواً ورواحاً بين النوبة السفلى ، وأن الأقوام التي أعادت توطنها بالمقاطعة الشمالية من فترة لآخرى في معظم الحالات الحفدة المباشرين لأولئك الذين غادروها أنفاً .

إضافة إلى هذا ، دفع الغياب العام للمعلومات الأثرية في زمن من رايزنر العلماء لأن يعتمدوا اعتماداً مثقل الكاهل على المدون النصى للتأريخ النوبى ، وهو بدوره واحد غير واصل العطاء . إن العصور المظلمة تتناوب فيما بينها مع فترات من التاريخ المدون ، وعندما تستأنف القصة دائماً ما تُمنح رآياً جديداً أو متغيراً نوعاً ما عن النوبة وأهلها . في هذه الظروف يمكن للخيال في سهولة أن يصور إنقطاعاً رئيساً لإحالات سكانية ، أو فترات من التخلي مواكبة لفترات التي يُعتقد عنها الإعلام التاريخى .

بإفساح المجال للعاملين المتقدمين ، محتمل كذلك أن نظريات رايزنر ومعاصريه تكشف عن أثر

معين مترسب من الفكر التاريخي ما قبل العلمي ، كان لا يزال شائعاً على أيامهم ، كما جرى قروناً سائلة ، يُعرى التغير الثقافي ألياً بشكل أو بآخر لمجي أقالوم جديدة ، كأنما هناك علاقة ثابتة بين الناس وثقافاتهما <sup>(١٧)</sup> . إن توضيحات مماثلة طُبقت في زمن واحد أو ثان لتاريخ مصر ، سومر ، طروادة ، الصين ، المكسيك ، وفي نفس الوقت تقريباً على كل منطقة أخرى تعرض توالياً لثقافات تاريخية أو أثرية بدون حلقات وصل بادية للعيان . هكذا عندما صادف رايزنر أنواع القبور الغامضة «أ» ، «ب» ، و «ج» في شلال ، إتخذت صورةً في ذهنه مسبقةً بالبداهة . كجماعات متميزة من الناس بدلاً من مراحل متعاقبة في التطور الثقافي لنفس القوم . أما رفيقه عالم التشريح إيوت سميث ، الذي كانت موضوعيته دائماً تدفع جانباً بسعيه الدائب من أجل نظريات تاريخية معينة ، فكان قادراً على أن يجد فروقاً عنصرية إضافة إلى ذلك ، في البقايا الهيكلية من مجموعات قبور مختلفة تعرف عليها رايزنر <sup>(١٨)</sup> هنا ، فيما يبدو ، بينة لا سبيل لتخطئتها عن غدوات ورواح أقوام ذات هوية مستقلة . (كما سيُرى في الفصل الثالث ، لم تصمد الفروق التشريحية التي عرضها إيوت دليلاً أمام إختبار إعادة الفحص الحديث) .

خمسون عاماً من التحقيق المكثف ملائ كثيرأ من الصدوع في الصورة التي كان رايزنر متمكناً من رؤيتها . بنفس المستوى ، أينما بقيت أجزاء مفقودة ، فمن الواضح الآن أن المتشابهات الثقافية بين أي حالتين متعاقبتين في التاريخ النبوي يتعدى وزنها لمدى بعيد الإختلافات . وبالمشهور العريض المتوفر لنا ، لم يعد من الضروري أن نجلب أقواماً أجنبية لتعلل الفروق الخفية نسبياً بين « الجماعة - أ » و « الجماعة - ب » أو بين المرويين و « الجماعة - س » ، إذ بإمكاننا أن ننظر إليهم كمحصلة لعمليات سارية مألوفة من التطور الإرتقائي وانتشاره . ورغم هذا فإن النظرة «العرضية» للتاريخ تثار على البقاء . ربما بإطرام لرايزنر أثبت منها للبيئة المتوفرة الآن

ما يُعتقد في دراسة التاريخ اليوم ، ليس قدرأ كبيرأ الحقيقة التاريخية مثل ما تفتقد به وجهة نظر مبدركة ومتماسكة حولها لترتب الحقائق المعروفة . وجهة مثل هذا الرأي ممنوعة لعنقلى الأنثروبولوجى من منظور التطور الإرتقائى الثقافى . وبلا تحد جاد للبيئة التاريخية ، بناء عليه ، أو (باستثناء واحد) للتسلسل الزمنى للفترات الثقافية المختبرة على مر الزمن لرايزنر سواء بسواء ، فإننى أقترح في هذا المجلد أن أحكى القصة القديمة للنوبة في طريقة جديدة : حكاية متواصلة للتطور الثقافى لشعب مفرد ، الجينة والذهاب فيه لممثلين معينين ليست بذى بال . وقعت الهجرات هناك لا شك في ذلك ، لكنها كانت في القسط الأكبر هجرات بين النوبة . ترقيبات معادة لأقوام تتلقى كلها عن مخزون مشترك من التقليد والخبرة الوطنية الأصلية . مثل هذه الجينة والذهاب أحدثت إضطراباً مؤقتاً لكنه ، فيما أعتقد ، ما بدل أبداً العملية الماضية للتطور الإرتقائى الثقافى بشكل دائم .

وجهة نظرى تختلف عن وجهة نظر رفقاء وأسلاف كثيرين في جوانب المثل . إن دارسى التاريخ النبوى من بدج ورايزنر إلى امرى كانوا في الغالب الأعم علماء للآثار المصرية ، إستغفاهم بالنوبة ناتج فرعى ، كيفما كان ، لإلتزامهم الرئيس بمصر وحضارتها . كأنه لا مناص عليهم أن يطالعو التاريخ النبوى كإنعكاس (شاحب عادة) للأحداث والأحوال في القطر الشمالى أساساً ، وأن يقيموا آراءهم على المتشابهات بقدر أرسخ من نظر الإختلافات بين النوبة ومصر . لربما أمكن أن يقارن مسلکهم هذا في إنصاف بالرأى الإنجليزى المألوف تجاه الإيراندى .

على سبيل تبيان الفروق ، ما كان لى تدريب في الآثار المصرية ولى خبرة شخصية قليلة في القطر الشمالى ، في حين أننى أقمت سبع سنوات في السودان ، وأعدت زيارته مرات عديدة مذاك ، وقد نذرت ما أقره إلتزاماً حياتياً لدراسة ثقافته وتاريخه . النتيجة أننى أقدم وجهة نظر « متمركزة حول النوبة » في محل الواحدة « المتمركزة حول مصر » التى أراها مرتسمة على معظم رصفائى .

فإذا استطعت أن ارسم النوبة في ألوانٍ أكمل وأسطع مما كان معتاداً عمله ، فإن هذا يتم جزئياً على حساب الأحداث والشخصيات في مصر بإخضاعها لبوصلةٍ لها خلفية من بَعْدَيْن . ربما في يوم ما يقدر تتَمَيَّن غير متحيز للعلاقات المصرية النوبية من واحدٍ متعاطف بنفس القدر ولملم على نحو متكافئ بكل من الشعبين (رغم أنني لست مقتنعاً بأن مثل تلك الموضوعية التامة ستكون أسهل عما هي عليه في حالة إنجلترا وإيرلندة) ؛ وفي هذه الأثناء أوقن بأن الرؤية "المتمركزة حول النوبة" ، وإن لم تكن أفضل دقة ، فإنها على أقل تقدير أحسن ملاحة للنوبيين الذين أعترم أن أقص قصتهم .

لكوني لست عالماً في المصريات أو اللغويات ، فإنه صحيح كذلك إنني لا أملك قدرةً في اللغات القديمة ولغات القرون الوسطى ، وهذا هو النقص الأعظم بلا شك في كتابي بالرغم من أن البيئة النصية حيوية لقصتي في نقاط جَمَّة ، فإنه واجب عليّ أن أخذ في كل حالة من تراجع لا أستطيع أن أحكم على مصداقيتها . من الجانب الآخر ، اعتقد كعالم أثار متمرس مثلاً أنني دارس للثقافات المقارنة ، أن يوسعي أن "اقرأ" الأشياء في المدون الأثاري التي يستعصى إدراكها على أغلب علماء اللغويات . وعلى أي حال فإنني أضع ثقة أسمى في البيئة الأثرية عما أضع في البيئة النصية للوصول إلى إستنتاجاتي التاريخية الخاصة بي ، هذه بدورها تطل بعض الفوارق بين وجهة نظري في التاريخ النوبي وبين زملائي .

رغمًا عن أن مدخلي للمعطيات النوبية جديد في نواح عديدة ، فقد تفاديت ما أمكن ذلك الإغراء بتدبيجه بمصطلحات جديدة أو مشاريع تصنيفية . لقد كَأُن ضرورياً لي أن أعيد توصيف "جماعات" رايزنر<sup>١</sup> ، ب ، وج "كأفاق" (\*) لكي أؤكد إيماني بأنها لا تمثل سكاناً منفصلين ، لكنني فيما عدا ذلك قانع بأن ألزم التوصيفات الأبجدية المكرسة الآن فوق التقليد . لقد نصبت من فوق التعاقب الثقافي القديم لرايزنر تقسيماً من أربعة أجزاء يتداعى إلى فترات قبلية ، أسرية ، بالقرون الوسطى ، وحديثة ، لكنها وصفية أكثر منها كلمات مصنفة . مع ذلك ، ربما أن أولئك الذين هم أقل إحتراماً للتقليد الموروث يفضلون المصطلحات الثقافية الجديدة التي اقترحت في مؤلف بروس تريفر<sup>٢</sup> *التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى* (١٩) . أما التقابل ما بين أطوار الثقافة ، ومراحل ، والمراحل التي اقترحت أصلاً من رايزنر فمبين بالجدول الأول .

بعض الأفارقة والإختصاصيين في الشؤون الإفريقية ربما سيخبو أملهم في كتابي . ففي حين أن لي تعاطفاً على قدر مع الولوج الأيديولوجي الجارى بالقارة الجنوبية ، فإنه ليس مكاني أو مقصدي أن أروج دعاية لحركات قومية أو عنصرية . بالتالي ، فقد استهنت نسبياً "بأفريقية" النوبيين . إن صالحهم فيما اعتقد ليست له أي علاقة بلون جلدهم أو بالقارة التي يعيشون فيها ؛ إنهم بحض وجودهم الخاص قوم رائعون يملكون تاريخاً رائعاً . ولئن كنت أتحسر على الميل الباكر لعلماء الآثار المصرية أنهم لا يرون في النوبيين شيئاً أكثر من مهربين من الدرجة الثانية ، فإنني على صعيد واحد أنيد الجهود لوضعهم جانباً ما بتصنيف تاريخي آخر "أفارقة" أو "سودا" . على نقض ذلك إنه لأملئ المُخِيب أن أقرأ هذا الكتاب ربما يقاسمونني تقديري لهم ومن أجلهم ، ليس من أجل أي ضوء يمكن أن يعكسه آخرون عليهم ، أو يعكسونه هم على آخرين .

نادراً ما أشرت إلى النوبيين كـ "سود" ، ليس بسبب أي حساسية عنصرية لكن لأنهم صاروا سوداً في فترات متقطعة فحسب . بذلك لا أغنى أن لون بشرتهم وملامح وجوههم قد تغيرت بشكل فائق الأهمية في الفترة التاريخية ؛ إنني أؤمن في الحقيقة أنهم ظلوا باقين بدرجة كبيرة مثلاً كانوا منذ الأزمان الأولى . بيد أن العنصر يقع في عين حامله إلى مدى بعيد ؛ أمراً يُحَسَّب للتعيين

(\*) ترجمت أفاق إلى ثقافات ، عليه يعتبر الأفاق ١ ، ثقافة المجموعة الأولى ، ولم جرا ، حسب نظرية آدمز . وقد أشرت إليها في النص على أنها المجموعة الأولى في تتابع يتصل بمراحل . بدلاً من الجماعة ١ إلخ - تسهيلاً حيثما ورد ذلك مناسباً - المترجم

## الجدول الأول

تسمية مقارنة للمراحل الثقافية النوبية وفقا لمؤلفين مختلفين (\*)

تواريخ	تراير (٣)	رايزنر (٢)	أدمز (١)	
١٥٠٠ ٥٠٠ ٣	<div style="display: flex; align-items: center; justify-content: center;"> <div style="font-size: 3em; margin-right: 10px;">{</div> <div style="text-align: center;"> <p>المسيحية بلانة المروية البطلمية - الرومانية النبتية</p> <p>نوبى متأخر</p> </div> </div>	<p style="text-align: center;">*</p> <p style="text-align: center;">القبلى</p> <p style="text-align: center;">الجماعة - س</p> <p style="text-align: center;">بطلمى - رومانى ↑ إبنيوى</p>	حديث	١
			إسلامى	
			مسيحى	
			++ ثنائى المسرة	
			مروى	
ق.م. ١٠٠٠ ١٥٠٠	<div style="display: flex; align-items: center; justify-content: center;"> <div style="font-size: 3em; margin-right: 10px;">{</div> <div style="text-align: center;"> <p>المسيحية بلانة المروية البطلمية - الرومانية النبتية</p> <p>نوبى متأخر</p> </div> </div>	<p style="text-align: center;">الدولة الجديدة</p> <p style="text-align: center;">الدولة الجديدة</p> <p style="text-align: center;">+</p> <p style="text-align: center;">+</p>	نبى	٢
			الدولة الجديدة	
			++ كرمة	
			ثقافة	
			المجموعة الثالثة (الأفق ج)	
٢٠٠٠	<div style="display: flex; align-items: center; justify-content: center;"> <div style="font-size: 3em; margin-right: 10px;">{</div> <div style="text-align: center;"> <p>IV الجماعة-ج (الدولة الجديدة) III الجماعة-ج (الوسيلة الثانية) II الجماعة-ج (الدولة الوسطى) I الجماعة-ج (الوسيلة الاولى)</p> <p>نوبى أوسط</p> </div> </div>	<p style="text-align: center;">الجماعة - ج</p> <p style="text-align: center;">ب</p> <p style="text-align: center;">الجماعة - ١</p>	ثقافة	٣
			المجموعة الاولى (الأفق ١)	
			ثقافة	
			المجموعة الاولى (الأفق ١)	
			الحجرى	
٢٥٠٠ ٣٥٠٠	<div style="display: flex; align-items: center; justify-content: center;"> <div style="font-size: 3em; margin-right: 10px;">{</div> <div style="text-align: center;"> <p>III الجماعة ب II الجماعة-١ (اول الاسر) II ب جماعة-١ (قبل الاسر) I ١ جرزى</p> <p>نوبى مُبكر</p> </div> </div>	<p style="text-align: center;">*</p>	الحجرى	٤
			الحديث	
			الحجرى	
			الحديث	
			الحجرى	

(١) مذكرات ومدونات السودان (1967), p.5 Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII

(٢) قارن امرى Egypt in Nubia, p.44

(٣) منشورات جامعة يل فى الأنثروبولوجيا

Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p.46

\* غير مُضمَّنة فى صيغة رايزنر

+ غير مُضمَّنة فى صيغة رايزنر

± مرحلة إنتقالية

§ أرخ رايزنر خطأ معاصرة كرمة للدولة الوسطى

(\*) عدلنا مسميات آدمز إلى ثقافة المجموعة المجهولة، وثقافة المجموعة الاولى، وثقافة المجموعة الثالثة بدلاً عن الأفق ١ والأفق ج بالترتيب. وبالنسبة لرايزنر أبقينا على أسماء جماعاته الهجائية كما هى مع الإشارة إليها على أنها المجموعة الاولى إلخ وفقاً لترتيب آدمز حيثما ورد ذلك بما يناسب النص. واستبدلنا البطليموس بالبطلمي لقربها من الاصل - المترجم.

الإجتماعي أكثر منه بيولوجيا ، تغيرت أوصافه الدالة عليه من عصر لآخر ومن مكان إلى آخر . ولأصير دقيقاً من الناحية الفنية فإن النوبيين في الغالب ذوي لون بني متدرج ؛ إن الواحد ربما يوسعه ، ويمكنه ، أن يشاهدهم إما « سُوداً » أو « بيضاً » وفقاً لتحيزات زمنه ومزاجه . لقد كانت هناك قطعاً فترات كانوا فيها خاضعين للتحيز والطمع نتيجةً للون بشرتهم الداكنة ، وحينما تكون مناداتهم « سُوداً » ذات معنى في السياق الحاضر مجتمعياً . وهناك أزمة كانوا فيها كذلك خاضعين لنفس الاتجاهات والمعاملة ليس بسبب لون بشرتهم لكن لأنهم أناس أقل حضارةً لا يكتبون ، أو لأنهم كانوا مسيحيين محاطين بمسلمين . وظلت هناك جهود أخرى حينما انضم النوبيون إلى جبرتهم الشمالية في قمع وإستغلال الأقوام الأسود حلقة بإفريقيا الداخلية ، وحينما يصير أجلى معنى للعلاقات الإجتماعية أن يدعو « بيضاً » حاولت بدلاً من أضفاء أى إصطلاح عنصرى عليهم ، أن أصفهم في كل مرحلة من تأريخهم طبقاً لإتجاهات الزمان السائدة .

ربما سيدرج زملائي علماء الأصول الإنسانية الثقافية إشباعات ذاتياً من كتابتى إلى هذا المدى ، يحسون أنني قدمت آخر الأمر المدخل المقارن والمستقر لسلكنا إلى خوضنا ميداناً ظل مسيطراً عليه ربحاً طويلاً من علماء المدارس الإنسانية والإختصاصيين . كلما طالعوا المزيد ، سوف يجدون مع ذلك ، أن للتأريخ في النوبة قدراً مماثلاً لهم على الأقل لتعليم الأنثروبولوجيا علم الأصول الإنسانية على نحو ما للعكس . وبالرغم من أنه صحيح أنني ، كأنثروبولوجي يحسن صنعته ، انظر للتأريخ النوبى برسم أساسى في حوق التطور الإرتقائى الثقافى ، فإن المراحل التطورية الإرتقائية الفعلية التى تعرفت عليها ، والتى أوقن أنها مطبقة بعيداً ما وراء حدود النوبة ، هى بالتقريب مراحل لمؤرخ أقرب منه عالماً للأصول الإنسانية ، وسوف لا أتوسع عميقاً في هذا الموضوع هنا : إن فصلى النهائي مكرس بصفة رئيسة لمناقشة حدود النظرية الأنثروبولوجية كما طبّقت على التأريخ النوبى .

لم أنهى في الأصل لأكتب هذا الكتاب لجماعة الأنثروبولوجيا والآثار المصرية ، أو لى من أولى الإختصاص العلمى الآخرين الذين تخاطبهم الفقرات السابقة أساساً ، إنما قصدى أن أرتب تاريخاً نوبياً معروفاً . ليس غير . في صيغة مفهومة للجمهور العام ، أو على الأقل لذلك القسم الذى أشعلت إهتمامه الدعاية المسبقة على حملة إنقاذ أبو سُميل والسد العالى . على أنني وجدت ، في المرحلة الراهنة من معرفتى ، أن ما باستطاعتى أن أكتب كتاباً شعبياً برمته ، مع علمى في كل هذه الأثناء بأن رصفائى في المهنة يتفحصون خطاى . من أجلهم (وأحياناً لإصرارهم) أدخلت مقاطع من المناقشة ، والمحاورة ، وأحياناً العراك المباشر الذى ما كنت أملك فكرة لضمه أصلاً ؛ محصلة ذلك أن القارئ العادى ربما يرى في أوقات من " التفسير القذر " للدراسة التاريخية أقوى مما يرغب في رؤيته . غير أنني حاولت في كل العمل ألا يزعج بصرى عنه بالمرّة ، بل حاولت بدلاً من ذلك الوصول إلى مصالحة معقولة ما بين إهتماماته ومصالح الدارسين المهذبين . يقيناً أن هذا أكثر صعوبة من أى عمل كتابى حاولته أنفاً ؛ سيخبر الزمن وحده مدى نجاحه

ليس من المقصود بآى معنى أن يصبح كتابى « الكلمة الأخيرة » في التأريخ النوبى ؛ والحقيقة إننى أمل ألا تكون هنالك أبداً كلمة أخيرة . فبالرغم من أن امتلاء بحيرة ناصر قد وضع نهاية دائمة للعمل الأثرى في النوبة السفلى ، عدا قصر إبريم ، فإن كثرة من المادة التى نقبت في الستينيات من عام ١٩٦٠ لا تزال قيد الدراسة ، وتظهر طارئة كل مع تعزيز من مطبوع جديد بسانر نافذة . في نفس الآن يمكن للحفريات المتواصلة في النوبة العليا ، وقصر إبريم في النوبة السفلى ، أن تدر إكتشافات في أى وقت تبدل الصورة التى قمت بعرضها تبديلاً . والحق يقال ، إن كشوفاً بقصر إبريم في ١٩٧٢ و ١٩٧٤<sup>(٢٠)</sup> جعلت من الضرورى إجراء إضافات هامة للفصل الثالث عشر والفصل السادس عشر في مرحلة الإعداد للطبع . أخيراً ، فإنه لو أصبحت الحقائق الأثرية كلها محتواة أو أنها كانت كذلك ، يبقى تفسيرها بتأكيد موضعاً للجدل أجيالاً قادمة .



من أجل القارئ العام تلافيت إستعمال الإصطلاحات الفنية باستثناء المقدار الذي يوضحها في النص ، وحيثما يكون ضرورياً إدخال مناقشةٍ عصبيةٍ على الفهم حاولت أن أبينها بقيمتها وأهميتها بعبارات تاذن للعامة بمتابعة المجادلة . وأخيراً ، أخفيت هوامشي (الضرورية لأولئك الزملاء الذين لهم الحق وحسب إنما الواجب ملقى على عاتقهم ليطالبوا مصدر حقائق وأفكارى) في ظهر الكتاب ، حيث لا تتدخل مع القراءة الطبيعية.

إن كتابي ، بالرغم من إعتراضى على الهوية (العرضية) للمؤخين الأوائل ، هو نفسه عرّضى إلى مدى ما توصف به كل مرحلةٍ تاليةٍ للتأريخ النوبى في فصل منفصل ومكتفٍ بذاته . هذه الفصول كتبت بهذه الكيفية حتى يصير من الممكن قراءتها بشكل عام على حدة من أولئك الذين ينحصر إهتمامهم في فترات محددة من التأريخ .

لسوف تكون ثروة من الأسماء المربكة والغريبة التى يعج بها هذا التأريخ ، فيما اقترح ، جازبةً للبعض ومُنفرةً للبعض الآخر . ولأن شغلى الشاغل هو أن أصل وأثير إهتمام جمهور غير مهنى ، فقد حاولت كلما أمكن ذلك ، أن أستعمل أبسط والصق الهجاءات الصوتية قريباً من الأسماء الصحيحة ، على الرغم من أن هذه سيعترض عليها في بعض الحالات من أصفياء فقه اللغة .



تمهید

---



# الفصل الأول

## الرواق النوبي

الاهتمت مصر الإنسان على الدوام مساعي صروحية ، شيدت الدولة القديمة الاهرامات والدولة الوسطى قلاعاً ضخمة ؛ والدولة الجديدة معابد وقبوراً مخفية ؛ والأغاريق أقاموا أعظم مكتبة للعالم وأطول منارة . إن الإنسان الحديث ، وهو إسمياً أرفع منفعة في مطامحة ، يعلن على الملاخلوذه بسدود هائلة ، مفرقاً بضرية واحدة كُلا من الطبيعة وإنجازات ماضية في عرض مستهتر للنفوق الفني . إن ما يليق ولا شيء غيره لزمنا هذا أن صرحاً واحداً من أعظم صروح القرن العشرين هذه يجدر به أن ينهض ثانية في وادي النيل ، حيث يمكن له أن يتنافس في بهاء مع عجائب صروح الماضى القريب . يقول سد أسوان العالى ، الذى بنته روسيا هدية لمصر وتوبيخاً لأمريكا ، للقرن العشرين "تمعن أعمالى ، أيها القوى ، وأُصيبك اليأس" (١) .

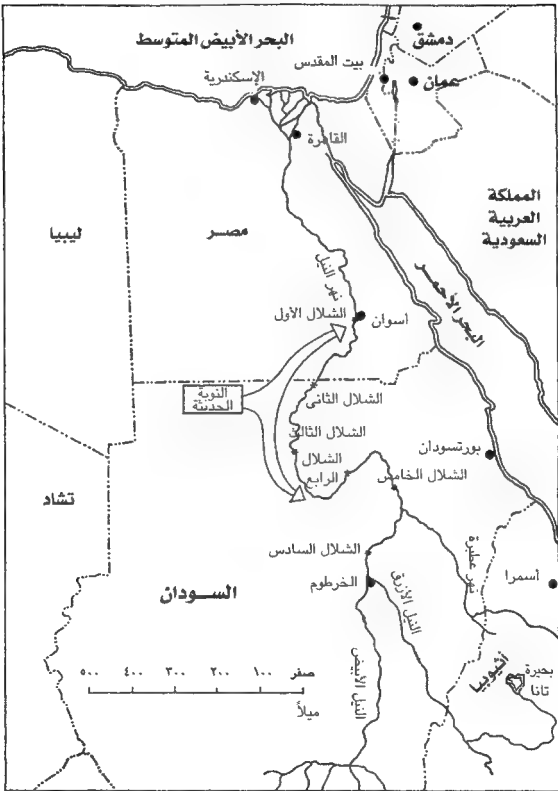
السد العالى رائعة هندسية . مائتا قدم علواً وأكثر من ثلاثة أميال طولاً ، يوسعه أن يختزن أربعة ترليون قدماً مكعباً من الماء في بحيرة تمتد بعيداً إلى باطن الأطراف الداخلية لإفريقيا . تحت تلك البحيرة تلاشت أرض قديمة بأقاصيصها ، معروفة في فجر التاريخ بأرض كوش ، لهيرودوتس ومعاصريه بإثيوبيا ، ومنذ عهود القرون الوسطى بالنوبة .

ما هي ، أو ماذا كانت النوبة ؟ ألقى السؤال دائماً في سنوات قريبة ، حيث أن السد العالى ، بنفس العمل الذى دمرت به النوبة ، جعل اسمها مشهوراً حول العالم ، غير أنه ليس إسماً موجوداً على الشيوخ في الخرائط إذ أنه ما من هوية سياسية أو إدارية مثله . إن الأرض المعروفة بالنوبة تقع اليوم جزءاً في مصر وجزءاً في جمهورية السودان ، لكنها تشكل لكل قطر قسماً صغيراً وحسب .

القارئ المتحرى بما فيه الكفاية ليجتنب عن النوبة على خريطة إفريقيا عليه أن يبدأ بتحديد مصب نهر النيل ، في أقصى ركن شمالي للخريطة (الشكل رقم ١) . متتبِعاً مجرى النيل صوب الجنوب ، أو نحو المنبع ، لسوف يجتاز في التو الحدود بين مصر والسودان . وربما تملكته دهشة وراها بالضبط ، إذ يكتشف أن مجرى النيل هو منحرف على شكل "S" عظيم الإتساع . وهو واحد من أكبر التعرجات في العالم . هنا ، ولو بأي مكان ، يمكنه أن يجد اسم "النوبة" مطبوعاً في الخريطة . سيلاحظ أيما حالة أن الخط يمثل النيل مُقاطِعاً على مسافات منتظمة في معظم الأحيان بخطوط عرضية قصيرة تدعى « الشلال الأول » ، « الشلال الثاني » ، « الشلال الثالث » ، وهلم جرا حتى السادس . هذه الشلالات - وكل واحد منها بالفعل متتالية من جنابل خاطفة السرعة - تملك بمفتاح شخصية النوبة الخاصة : أولاً ، لأنها تعيق أو تمنع الملاحة على النهر ، وثانياً لأنها تنبئ عن صفحة أرضية لأخاديد ضيقة ونبوءات صخرية . هنا حالتان تختلفان إختلافاً شاسعاً عن أحوال مصر الدهرية ، على حد سواء ، فإن النوبة كذلك ، بمعنى دقيق ، نتاج لشلالات النيل .

لكيما نفهم طبيعة النوبة ومصيرها ، يجب أن يقوم الواحد حقيقةً برحلة إلى أسوان ، في مصر العليا . إن المسافر الذى يفعل . ذلك سوف يكافئ ليس بجلال السد العالى وحده ، إنما ببعض من أشد المناظر الخلابة على النيل كذلك . إن تنبيهه يحتمل أن يأخذه في البداية لشلال الأول ، ركاماً فوضوياً من الصخور والأخاديد تنكسر هنا وهناك جزر خضراء ، وتشاهد القوارب الشراعية

موقع النوبة الحديثة بالنسبة للأقطار المجاورة



تتهادى بين الجزر ، على أنه لا توجد حركة أعلى النهر أو بأسفل إتجاهه .

تحت الشلال وعلى طول الضفة اليمنى للنيل تقع أسوان المزدحمة ، في السابق قرية هاجعة لكنها الآن تنوّج بالصناعة . حاشية خضراء من أشجار النخل تبرز حافة الماء ؛ تحتها مباشرة ، يذكرنا تجمع للقوارب أن هذه هي مقدمة الملاحة على النيل المصري . مواجهةً لأسوان تطل جزيرة فيله الكبيرة ، بخرائب مدينتها القديمة وفنادقها الحديثة الفاخرة . وراء النهر وعبره ، قمم من حجارة رملية تهبط مباشرةً من هضبة الصحراء إلى ضفة النهر . إن خطها الأفقي تنكسره سلسلة من مدافنٍ صخرية مرئية بلا مراء ، صروح أسياذ أسوان الأوائل .

شمال المدينة ، تتراجع القمم المطوقة مسافةً من حافة النهر بينها ، ممتدّاً بعيداً للآفاق ، يقع الوادي العظيم الذي ألّف مضت كان مرادفاً لمصر عملياً . إن السطح المنبسط ، سندس الخضرة ، مجزأ إلى مربعات ومستطيلات بصقوفٍ من أشجار النخيل وبالماء الرقراق آلاف المجارى والقنوات . وبالرغم من أن الوادي يظهر دائماً مهجوراً في سكوت الظهيرة ، فلسوف تعلن الحياة والنشاط عن وجودهما بكل مكان في ساعات الصباح والمساء .

المنظر إلى الجنوب يمنح مناقضة مذهلة . ما من وادٍ هنا لنهر . يكاد يقول الواحد ألا وجود لنهر . يغيب النيل عن النظر كأنه يغوص بالمرّة بين متشابكٍ من قمم ومنحدرات صخرية ؛ بل إن السد الذي لا يبعد سوى بضعة أميال ، يُخفى عن النظر . خضرة النبات وصغرة رمال الصحراء - اللونين اللذين يسودان صفحة الأرض بكافة أرجاء مصر الأصلية <sup>(\*)</sup> - يتقددان على السواء بينما ينظر الواحد جنوباً من أسوان . فما يظهر في مكانهما شئ غير السواد الرمادي الشاحب ، للفرانيت العاري .

لا غرو ، إذن ، أن أسوان تدل على التخوم سحيقة القدم لحضارة مصر الفلاحية . إن الأرض ما وراء الشلال الأولى قدمت إغراءات قليلة لأى من الفلاحة أو التجارة ، وكان المصري العادي من السداء بما يكفي ليركها في أيدي شاغليها القدامى قدم الزمن . سلالة صلبة ، بنية البشرة تختلف في المظهر ، والحديث ، والعادة على حد سواء عن المصريين .

فيما عدا ذلك ، كيفما مضت الحال ، كانت قرينة حكام مصر الطامحين . منذ أقدم العهود كانت لهم تطلعاتهم التوسعية الإمبريالية ، والنوبة ، أقرب جارٍ مأمول ، كانت على الدوام يكاد ، أول ضحاياهم . هكذا كانت التخوم الثقافية الثابتة منذ الأزل أى شئ عدا أنها مستقرة كحدود سياسية (قارن الشكلين رقم ٢ و ٣) . أجيال من الفراغة المحاربين دفعت الأملاك الإمبريالية بعيداً تجاه مجرى النيل جنوباً في بحثهم عن الذهب ، والعاج ، والعبيد ؛ والنوبيون يقاسون سواء بسواء مع المصريين من نير التوسع . بيد أن الفلاح المصري ظل في عنايه ، لصيقاً بجذر تربته القديمة ، وولج مستعمرون فلائذ النوبة إبان صحوة الجيوش المنتصرة . إن أولئك الذين فعلوا ذلك تصرفوا وفق إمرة لا ترد للفرعون ، وكانوا فيما هو واضح قرييين بما يكفي ليرجعوا إلى مصر في نهاية مدة خدمتهم . مزروعة هكذا من أي دعم محلي ، ما كان ممكناً إجراء فتوحات مصر للنوبة إلا بقوة السلاح وحده ، وتمويلها بأى ثروة أو جزية تُجبى من أرض خشنة وسكان لا يذعنون لسلطان . وبما لا مخصص عنه ، ما استدام رخاء لهذه المصلحة إلا بما ظلت إرادة الفرعون وأمواله ومدودين به . أما لدى أول استضعافٍ لحاميات السلطة الملكية فيهرع الإداريون والمستعمرون قائلين على متن النهر عبر تخوم أسوان ، بينما يثور عامة النوبيين الناقمين على أثر أقدامهم ويسرعون في الرحيل عدة مرات أو مآدون ذلك . كان لابد أن تعاد القصة على الأقل خمس مرات في المسيرة الطويلة للعلاقات المصرية - النوبية (الشكل رقم ٢) .

(\*) المقصود مصر الأم شمالي أسوان . أو مصر بإستثناء النوبة فيما لاحظ الدكتور أسامة عبد الرحمن - المترجم

## شكل رقم ٢

### التسلسل الزمني للمراحل الثقافية المصرية والنوبية

تواريخ	النوبية						مصر
	١	٢	٣	٤	٥	٦	
	أرض شندى	أرض أبو حمد	أرض دنقلا	أرض النهرية	بطن الحجر	النوبة السفلى	مصر
	السودان الحديث	السودان الحديث					مصر
١٥٠٠	إسلامية	عثمانية					مملوكية
١٠٠٠	مسيحية	خلايفية					خلايفية
٥٠٠	ثقافة تنفسي	ثقافة بلانة					بيزنطية
ب.م.	مروية	رومانية					رومانية
ق.م.	نبتية	(غير مأهولة)					بطلمية
٥٠٠	نبتية	أسرات أخيرة					أسرات أخيرة
١٠٠٠	?	(غير مأهولة)					أفلة
١٥٠٠	?	الدولة الجديدة					الدولة الجديدة
٢٠٠٠	كرمة	الوسيلة الثانية					الوسيلة الثانية
٢٥٠٠	?	ثقافة المجموعة الثانية (الأفق ج. ١٠٠٠)					الدولة الوسطى
٣٠٠٠	?	الدولة القديمة					الدولة القديمة
٣٥٠٠	?	ثقافة المجموعة الأولى (الأفق ١٠٠٠)					قديمة
٣٥٠٠	?	ما قبل الأسرات					ما قبل الأسرات

اقرأ الزمن من أسفل إلى الأعلى  
واقرأ المسافة من اليسار (الشمال)  
إلى اليمين (الجنوب).  
التخوم المصرية - النوبية السياسية



## لماذا النبوة؟

التناقض الظاهر للتأريخ النبوي هو أن هذه الأرض الجرداء جذبت الدخلاء واقتسمتهم على سعيد واحد منذ البداية . فالمصريون في العصر الفرعوني غزوا المنطقة مرة وراء أخرى ، إلا أنهم قلما أشاروا إليها دون النعت "عيسة" أو "مقيتة" <sup>(٧)</sup> . أما قمبيز ، الفاتح الفارسي لمصر ، فبلغ عنه هيرودوتس أنه صعد بالنيل إلى بُعد كالشلال الرابع ، لكنه كاد يفقد جيشه وحياته معاً في زحفه القافل . ووصل جيش روماني نبته واجتاحها سلباً ونهباً في القرن الأول قبل الميلاد ، على أن نيرون أعرض عن ضمّ النبوة إلى الأملاك الرومانية ، وتخلّى ديوقليتانس علاوة على ذلك عن الأقاصى الشمالية التي كانت مصر قابضةً عليها منذ زمن سحيق . أما الجيوش العربية ، التي أزلت النصرانية في أماكن أخرى من وجه إفريقيا الشمالية ، فقد بلغت قبالة دنقلا خلال عشر سنوات من وفاة محمد <sup>(٨)</sup> . وهناك خلصت إلى معاهدة تركت النبوة في أيدي مسيحية لـ ٨٠٠ عام أخرى . إن صلاح الدين ، قاهر ريتشارد قلب الأسد ، وفاتح مصر وسوريا ، صرف كل فكرة لإضافة النبوة إلى نطاق نفوذه بعد أن أوجز الغزوات المفاجئة لاختصاراً . وفي إطار القرن الماضي تخلت بريطانيا العظمى في أوج قوتها الإمبريالية عن كل السودان لحشد ثائرها من الدراويش <sup>(٩)</sup> مسلح في الغالب بالمدى والرماح ، خمسة عشر عاماً ، بعد ذلك كان عليها أن تتفق عامين ومبلغاً ضخماً من المال لتكسيه من جديد .

إن سخرية الأقدار التي توجب التأريخ النبوي ، ظلت مع ذلك ، محفوظةً للقرن العشرين لقد أطلع حكام مصر في الحال ، وقد أمثروا سيطرتهم على النبوة السفلى بمعاهدة في عام ١٨٩٩ ، بمشروع مخطط لبناء السد الذي سوف يحوو في النهاية هذه المنطقة ، التي طالماً شغف بها وحازها بثمن فادح أبابهم الأولين . الدويكاسخيون <sup>(١٠)</sup> القديمة (أنثى ١٠٠ ميل شمالي النبوة) ، التي أمسكت مصر بزمامها كطريق لمناجم ذهبها الصحراوية عدة قرون ، إندثرت خلال سنوات قليلة بعد إكمال سد أسوان المنخفض في سنة ١٩٠٧ . وتبعها معظم ما بقي من النبوة المصرية عندما جرى توسيع السد الأصلي في سنة ١٩٢٩ . تدمير النبوة السفلى ، وقسمت بالغ من النبوة السودانية بالمثل ، سيوزل نهائياً بارتفاع المياه إلى مستواها الكامل وراء سد أسوان العالي في السبعينات من عام ١٩٧٠ . وفي هذا الوقت جمعت الأمم الصناعية بأوروبا وأمريكا ، التي أسهمت بأغلب رأس المال لبناء سدود أسوان ، مبالغ إضافية طائلة في جهد محموم لإنقاذ صروح ماضى النبوة من الدمار

أثار التهكم على إنفاق الملايين لدمار النبوة وإنفاق أكثر من هذا المبلغ على أثارها العتيقة تعليقات جملته من بلدان العالم <sup>(١١)</sup> . فوق هذا ، تسام قليل من المراقبين المفكرين عن شرعية كل من الإنفاقيين . وفي قلب هذا التناقض الظاهري تقع حقيقة حيوية أن النبوة في الأزمان الحديثة خسرت الأهمية التي أرفقتها طويلاً مكاناً فريداً في التأريخ .

وفي حنايا نفسها ، ما انفكت النبوة بصفة دائمة أرضاً حارة ، جافة وقاحلة ذات موارد شحيحة واستعداد معيشي محدود ، فقيرة كما كانت ولا تزال ؛ مع هذا ، منحها وادي النيل بين أسوان والخرطوم ، لمدة ألف عام ، الطريق المعتمد الوحيد عبر الحاجز الصحراوي العظيم بالصحراء الكبرى ، والصلة الوحيدة بين العالم الحضاري وإفريقيا ، وإلى المدى الذي تتلاقى وتمتزج فيه الثقافات ، والمنتجات ، والقوى المندفعة للسود والبيض ، بمرور الزمان ، فإنها التقت وامتزجت هنا . إن مركز النبوة الفريد كإرضية لتلاقى العالمين لم يكن ليُتحدى حتى انفتاح تجارة القوافل عابرة الصحراء الكبرى في الألف عام الأخيرة قبل الميلاد ، ولم يتوار في نهاية المطاف حتى افتتاح عصر

(٥) النبي محمد صلى الله عليه وسلم - المترجم.

(٦) أنصار المهديّة - المترجم

(٧) الدويكاسخيون - حرفياً يعنى الإقليم الثاني عشر - المترجم.

الكشوف العظيم سواحل إفريقيا في القرن السابع عشر .

بداية ، ولقرون كثيرة فيما بعد ، كانت النوبة إفريقية إلى الحد الذي كان فيه العالم الخارجي معنياً . المكان الوحيد على طول التخوم الصحراوية الذي كان بإمكان المقيمين على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أن يسكروا فيه وضعةً عن عالم آخر وراء الأفق الجنوبي . وللمصريين القدماء ، بنفس القدر إلى زمن هيرودوتس وسترابو ، كانت كوش وإثيوبيا علمياً مترادفتين مع منطقة النيل الأوسط . بينما كان باقي إفريقيا السوداء مجهولاً .

الموارد التي شجبت بها مصر وجيرانها بالبحر الأبيض المتوسط رغبةً في النوبة كانت بالضبط تلك الموارد التي من أجلها استعرت رغبة الرجل الأبيض في إفريقيا . وكانت في جزء منها معدناً ، وفي جزء آخر حيواناً ، لكنها فوق كل شيء : كانت موارد بشرية . والنوبيون كانوا أول الفرانس في عملية للإستغلال إنتشرت في أزمان لاحقة فوق القارة الإفريقية بأكملها .

أول الأمر وجد النوبيون بلا شك دور الرجل الأسود في عالم الرجل الأبيض ضاراً مثلما وجدت كل الأجناس السوداء في كل مكان . إن تجاورهم للصيق بمراكز الحضارة الأولى ، كيفما اتفق الحال ، قدم منافع إستحوذتها سلالات أصلية قليلة في أزمان لاحقة . وبعد فترة مبدئية من الإخضاع والإستغلال الشامل ، كانوا قادرين على أن يمتصوا قدراً كبيراً من حضارة جيرانهم ، وبفعلهم هذا تمكنوا من سلخ أنفسهم عن العالم البدائي الكلي لإفريقيا السوداء دين أن تكون إفريقيا نفسها . صارت النوبة منطقة إنتقال ، أو على الأصح منطقة الإنتقال ، ما بين العالم الحضارى وإفريقيا . أما الشريط الأخضر الضيق لوادي النيل الأوسط ، من الخرطوم إلى أسوان ، فكان هو الرواق الذي من خلاله مرّ الرجال ، والأشياء والأفكار من عالم واحد إلى الآخر ، والذي بينه تلاقى وامتزج . وأصبح المقيمون في هذا الدهليز رجالاً وسطاء بكل معنى من المعاني . عرقياً وثقافياً وكذلك إقتصادياً . وبقيت وضعيتهم الفريدة بين العالمين الأسود والأبيض مثابرةً حتى الأمان الحديثة

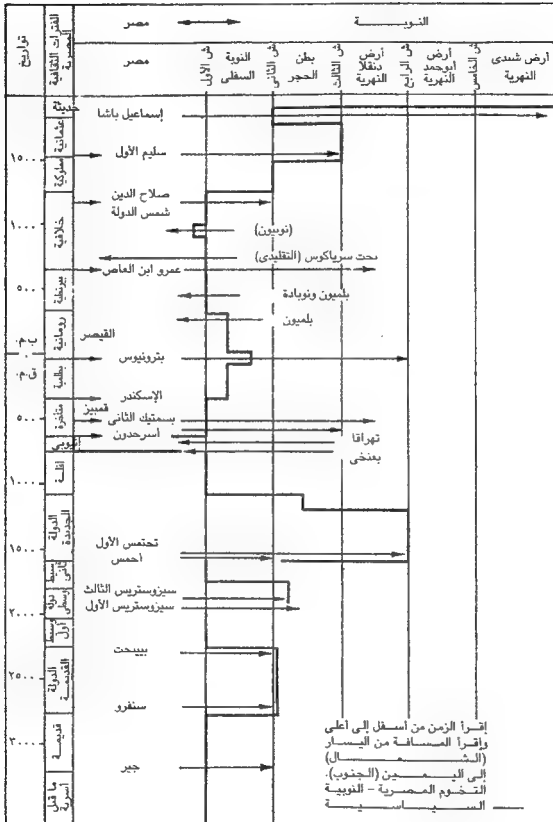
النوبة إذن في قسم محافظة للثقافة ، وفي قسم محافظة لتاريخية ، وفي قسم محافظة جغرافية . جرى فيها تشكيل المصير الإنسانى طرائق دقيقة ومتميزة بتركيب فريد من المنافع التاريخية والمضار البيئية . إنها ، على وجه التحديد ، ذلك الجزء من إفريقيا الأصلية التي لم تستعمر أبداً بوضع مستديم من قبل أقوام أجنبية لكنها ظلت دائماً أسيرة لنفوذهم . منذ فجر التاريخ إكتأت على تخوم الحضارة ، دون أن تتحرك أبداً تحركاً كاملاً عبرها .

### حدود النوبة ؟

الحد الشمالى من النوبة معرف بحدّة ، كما ظل دائماً مثل الشلال الأول نفسه <sup>(١)</sup> . الحدود الشرقية والغربية على قدم المساواة معلمان بصفاء ، لأنه لا شيء يعدو حدود الزراعة والإقامة ، ميلاً أو ميلين على كل جانب من النهر العظيم . وراء تلك الرقعة الضيقة تنبسط صحراء لا ماء فيها (الصورة ١ - ب) . وهى إما قبة بلا حياة على الإطلاق ، أو مأهولة ببؤى غير نوبيين تاريخياً أو ثقافياً ، بالاطراف العليا من النوبة ، بالرغم من أنهم (مثل المصريين) لعبوا دورهم في التاريخ النوبى .

الحد الجنوبى ، أو الأعلى للنوبة هو الذى يصعب تحديده . فإذا سلّمنا أن النوبة محافظة ثقافة ، أهلها ليسوا بمصريين لكنهم ظلوا واقعين في دائرة نفوذ الثقافة المصرية على نحو موصول ، حينئذ علينا أن ندرك أن مدى ومثابرتة ذلك النفوذ كانا مختلفين في أزمنة مختلفة في التاريخ . لذا ، بمعنى ما ، كانت للنوبة تخوم جنوبية متنقلة . كان النمط العام واحداً للإمتداد صوب الجنوب منذ أول تعريف للحضارة ، في الألف الثالثة قبل الميلاد ، حتى قيام البدواة الرعوية في الألف الأولى بعد الميلاد . أثناء ذلك الزمن إنتشر النفوذ المصرى جنوباً من الشلال الثانى للنيل (إبان الدولتين

## شكل رقم ٢ الغزوات الكبرى عبر الحدود المصرية - النوبية



القديمة والوسطى) إلى الشلال الرابع (في الدولة الجديدة) وفي نهاية الطوف حتى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض (الخرطوم الحديثة) على الأقل بحلول العصر المسيحي . إن نهوض البداوة الرعوية ، ويوجه الدقة مجيء عشائر من المهاجرين العرب ، خلق أول ضغط . معاكس للإنتشار الأبعد للحياة الحضارية الجلوسية ، وفي أزمان قريبة كان هنالك إنسحاب تدريجي نحو الشمال للتخوم النوبية - العربية ، ولهذا اليوم أصبحت ثنائية أسفل الشلال الرابع (بشكل رقم ٨ والشكل رقم ٩) .

إن كان لي أن أجمل تعريف النوبة في بضع كلمات ، فهي أرض شلالات النيل . ذلك الجزء من وادي النيل ، جنوب مصر مباشرة ، الذي تقيم به أقوام أفارقة في الأصل والحديث لكنهم مأخوذين بشدة بنفوذ الثقافة المصرية وثقافة البحر الأبيض المتوسط . إن الخصائص العرقية الخاصة بالنوبيين ، ومسألة أصلهم ، سوف تناقش في الفصلين القادمين .

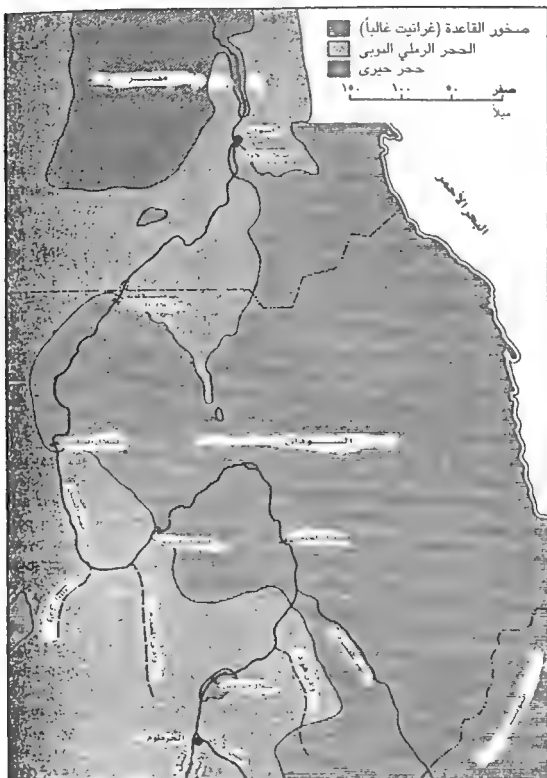
من الضروري أن نشير قبل ولوج الأشياء إلى أن التعريف الجغرافي المرن للنوبة الذي أعطيته هنا ، والمضمن في مدخل الثقافة بصورة حيوية للتاريخ لا يتماثل بالضرورة مع استعمال كتاب آخر . والدقة بسبب العلل التاريخية التي ذكرت آنفاً ، ليس هنالك اتفاق عام فيما يتعلق بحدود النوبة سواء في أزمان حديثة أم قديمة . ولأن الكلمة واحدة لغوية من الناحية الفنية ، أعلمها بعض الكتاب - على كل فترات التاريخ - للمنطقة وحدها التي يقطنها اليوم متحدثون بالنوبية ، بين أسوان في الشمال والدبة في الجنوب (الشكل رقم ٨) ؛ إنه أمر حقيقي - كذلك في تقارير أثرية باكرة متعددة - أن تمل « النوبة » لأن تمثل تلك المساحة التي أجرى فيها عمل أثري منظم خطة وإجراء : أي النوبة السفلى في هذا العمل كافة ، مع ذلك ، سوف أتبع التعريف العريض الذي قدمته مسبقاً

### تقسيمات جغرافية

تقسم ممارسة تقليدية النوبة إلى جزئين غير متساويين : النوبة السفلى ، ممتدة من الشلال الأول إلى الثاني ، والنوبة العليا ، جنوبي الشلال الثاني . هذا التمييز يتوافق بشكل لصيق مع التقسيم الحديث بين مصر وجمهورية السودان (الشكل رقم ١) ، لكنه في جوانب أخرى أشمل معنى تاريخياً منه جغرافياً . بينما النوبة السفلى في الحقيقة منطقة متجانسة لمدى واسع طويغرافياً من ناحية الوصف التفصيلي للتضاريس والسمات السطحية ، تحتوى المنطقة البعيدة الأكبر للنوبة العليا بين طهرانيها تشكيلة من البيئات ، بعضها مشابهة للنوبة السفلى والبعض الآخر مختلف بقدر ملحوظ . من وجهة نظر التضاريس الطويغرافية يجب أن نتحدث عن خمسة أو ستة أجزاء من النوبة ، ليس جزئين وحسب .

يمسك علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) بالمفتاح لتعددية النوبة الطويغرافية . في طول مجراه الأسفل يقاطع النيل ثلاثة تكوينات سطحية رئيسية بحرية ، وحجرية رملية ، وجمموعة من الصخور النارية الصلبة (« صخور القاعدة» للشمال الإفريقي) الغرانيت مكونها العمادى (الشكل رقم ٤) . إن الوادى العظيم لمصر الأم مشتق من الجير ؛ ومطوق بقمم حجرية ، والصحراء العارية ، علي كل جانب منه هضبة حجرية ، فوقها أكوام من الرمال تذروها الرياح في معظم الأمكنة .

أمياًلأقلية شمال أسوان ، في جبل سلسلية ، يفسح الجير الطريق للحجر الرملى النوبى البنى - الأصفر الخشن الذى يغطى مساحة شاسعة للصحراء الشرقية ، ممتدأ جنوباً حتى ملتقى النيلين وغرباً عبر ليبيا . ويربض تحت هذا الراسب السطحي ثقيل التعرية مع خفته نسبياً غرانيت أشد صلابة وتكوينات أخرى لصخور القاعدة في كل مكان . وفي مناطق مرفوعة تركيبياً تظهر صخور القاعدة في السطح . حيثما أجهزت التعرية تماماً على الترسبات القائمة من فوقها ، لربما تبقى حية بين فنية وأخرى في جبل صحراوى معزول .



شكل رقم ٤  
طبقات الأرض السطحية في النوبة (منبسطة)

من الخرطوم إلى أسوان ، تقاطع النيل يتتالي لمناطق الغرانايت ومناطق الحجر الرملى ، كما هو مبين في (الشكل رقم ٤) . هذه الظرفية ترجع جزئياً إلى التوزيع عبر المنتظم للتكوينين ، لكنها بقدر أكبر تعود إلى المجرى الذى لا يمكن التنبؤ به للنهر نفسه فيما يبدو . ينعطف النيل في «أبو حمد » بعد انسياب مستمر نحو الشمال من أصله في المرتفعات الإفرقية الشرقية ، في تغير مفاجئ للجنوب الغربى لـ ١٧٥ ميلاً ، قبل أن يستأنف مجراه المألوف للبحر . إن المنحنى المستحصل المتثنى على شكل «S» يضاعف بالتقريب طول النهر في السودان الشمالى ، وقد لعب دوراً معتبراً في تحديد المصير لمسيرة التاريخ النوبى أما من النواحي الطبوغرافية فإنه يعنى أن النيل ، بعد دخوله منطقة غرانايت بالقرب من مدخل الراقد عطيرة ، يعود إلى حوض من الحجر الرملى بالشلال الرابع . مستأنفاً جريانه صوب الشمال بالدية ، يذلف إلى منطقة غرانايت ثانية بجوار الشلال الثالث ، قبل أن يخرج مرة أخرى إلى داخل حجر رملى بالشلال الثانى .

كما في كل الصحارى ، حددت التعرية بصورة تكاد تكون مطلقاً ما لصفحة الأرض النوبية من صفة . إن أنماط التعرية المختلفة بشكل ملحوظ للتكوينين ، الحجر الرملى والغرانايت ، هى التى أنتجت الاختلافات الرئيسة في البنية النوبية . التكوينات البركانية النارية لصخور القاعدة صلبة ومقاومة ، هنا تحل التعرية أساساً على طول الصدوع والشقوق ، والتضاريس السطحية لمناطق الغرانايت واحدة لمضايق وسلاسل تلال من الحجر ، مفصولة بوديان ضيقة ، عميقة . أما حوض النهر فهو ضيق ، منحدر الجنبات ، تتقطعه جزر وشلالات متعددة ، وهناك إمدادات أرضية كبيرة الحجم قليلة العدد لتربة غرينية .

ولإبراز الفروق ، فإن الحجر الرملى النوبى ناعم ومتراص في طبقات أفقية ؛ تصدر التعرية سلسلة من المدرجات الممهدة بشكل أو آخر ، مقطاعة على فترات ببقايا منبسطة الرأس من التكوينات العليا ، وقطعاً من «الوديان» العريضة المنحلة (الصوره ٦ - ب) . حوض النيل في مناطق الحجر الرملى عريض ومتدفق ، وهناك سهل فيضى غرينى متواصل بالتقريب ، على الرغم من أنه بوجه عام ليس واحداً عريضاً للغاية ، على طول ضفة واحدة أو كليهما (الصور ٦ - ١) . وفى مساحات من التضاريس المنخفضة ، أصبحت قنوات مهجورة في النهر حيزاناً إضافية من الطمى المترسب إلى جانب الوادى الرئيس .

على العموم ، يبلغ المتوسط لمعدل التدرج الإلتحار للنيل قدماً واحداً لكل عشرة أميال في مناطق الحجر الرملى ، مقابل قدم واحد لنصف الميل بمناطق الغرانايت . إن التغيير السريع المفاجئ لمعدل التدرج حيث يعبر النيل من تكوين واحد إلى الآخر مسؤول عن معظم شلالات النيل الكبرى . يعلم الشلال الرابع المرور من الغرانايت إلى الحجر الرملى بالقرب من « كريمة » ؛ يناظر الشلال الثالث « بكرمة » عودة دخول النهر إلى داخل الغرانايت ، ويدل الشلال الثانى بوادى حلفا على رجوعه إلى حوض الحجر الرملى مرة ثانية . كل من الشلالين السادس والأول يرتبطان بنبوءات صخرية منحصرة من الغرانايت في مناطق يسودها الحجر الرملى .

وتقسيمات النوبة الفرعونية وفق التضاريس الطبوغرافية الرئيسة للنوبة ، التى سوف نعتبرها الآن كلاً على حدة ، موسومة هكذا بطريقة عامة (بإستثناء واحد.يجدر ذكره) بالشلالات الرئيسة « المرمقة » للنيل . هذه التقسيمات الفرعية في ترتيب وفق إتجاه منبع النهر هى النوبة السفلى ، بطن الحجر ، أرض عبرى . دلقو النهرية ، أرض دنقلا النهرية ، أرض أبو حمد النهرية ، وأرض شندى النهرية (الشكل رقم ٥) .

## النوبة السفلى

تمتد النوبة السفلى من الشلال الأول إلى الشلال الثاني . وتقع اليوم بأجمعها تقريباً بين حدود مصر . (كونها النوبة الأقرب لسد أسوان ، تكاد تقع كلها تحت الماء ، بحيث أن أى عمارات وصفية حولها يجب أن يعبر عنها بشكل سليم بفعل الماضى) . هذه المنطقة يبرزها - بالمقارنة عن الوادى العظيم لمصر الأم - نتوء صخري من الغرانيت أخرج الشلال الأول ، يمنع صفحة الأرض جنوب أسوان الوجه الحائل الذى قمنا بوصفه فيما مضى . إن هذا العرض - على وجه التخصص - لصخور القاعدة ، كيفما انتهى ، واحد مقيد جداً ، يمتد في اتجاه الجنوب فحسب إلى أن يبلغ « بوابة كلابشة » ، بعد خمسة وثلاثين ميلاً جنوب أسوان . من هنا إلى الشلال الثاني هناك فسحة غير مقاطعة وعموماً على استواء الحجر الرملى النوبى ، خلالها شق النهر أخدوداً عريضاً ، ضحلاً . بينما السهل الفيضى ليس متصلاً على طول أى من ضفتى النهر ، لكن هناك رواسب طميّة ممتدة بوجه خاص على مداخل الوديان الأكبر ، التى كانت فما مضى تدعم تسلسلاً منتظماً من قرى فلاحية صغيرة (الصورة ١ - ١) . إن المجرى نفسه عريض ، رائق ، وسهل الملاحة : كل أنواع الحرف النهرية كانت تحاك معاً بين الشلال بأعلى الشلال الأول ، ووادى حلفا ، أسفل الشلال الثاني . هكذا كانت النوبة السفلى ، وهى جغرافياً أقرب إلى مصر ، أيضاً أشد ما تماثلها طوبوغرافياً . لا عجب أن هذه المنطقة مفردة أغرت الإستعمار المصرى ، أو على الأقل الإستغلال المصرى ، خلال معظم تاريخها ، وبذا فإنها مطروحة جانباً ثقافياً وتاريخياً عن بقية النوبة (كما هى كذلك اليوم سياسياً) .

أرضية الوادى في النوبة السفلى منحصرة عموماً بين مرتفعات شديدة الإنحدار تتفاوت علواً من ١٠٠ إلى ٣٠٠ قدم . وبسبب الطبيعة الرخوة للحجر الرملى النوبى ، فإنها قلما تقرب من اتخاذ زاوية راسية فيما عدا الحالات التى يقوم النيل مباشرة بقطعها سفلياً . والمرتفعات المنحدرة إلى غرب النيل ، على وجه الدقة ، مبتلعة في محلات كثيرة تحت كثبان هائلة متساقطة من رمال الصحراء الذهبية ، التى يمكن أن تمتد بعيداً إلى ضفة النهر نفسها . ينطلق خارج النيل سطح متموج من الرمل الأصفر العادى إلى الأفق في كل الاتجاهات . ثم إنه يقاطع متعارضاً في هيئة منتظمة من الوديان الحافة الرافدة للنيل : محفورة بشكل متعاقب عميقاً إلى باطن الهضبة الجيرية كلما اقتربت من النهر الرئيس ، حتى تظهر في مداخلها كأخاديد جانبية تتفرع بعيداً من أخدود النيل الرئيس . وتعارض إنتظام سطح الصحراء كذلك بقايا منبسطة الرأس من تكوينات أعلى ، تقف في بعض الأحيان جبلاً معزولة ؛ وأحياناً أخرى في سلاسل موصولة من المرتفعات شديدة الإنحدار . بالرغم من أن هذه الملامح تفرز سلسلة تلال معينة لما يعد خلفها صفحة أرضية موحدة ، فإنها لا تقترب في أى مكان من مقاييس الجبال الحقيقية ، كما أن أعلى قمم ربما تكون ٥٠٠ قدم فوق أرضية الصحراء المحيطة .

## بطن الحجر

الفسحة المسالمة والرخية في إعتدال بالنوبة السفلى تنقطع فجأةً بالشلال الثانى للنيل ، للجنوب من وادى حلفا مباشرة . بل إن وجه النهر وصفحة الأرض هنا أشد إنفلاتاً مما يقدمه الشلال الأول . فعلى مسافة إثني عشر ميلاً تعترض سير النيل مئات من الجزر الصغيرة وصخور الغرانيت المتلاصقة ، فينحرف إنسياب الجليل المعتاد إلى متاهة من قنوات سريعة وجنادل متهاوية . وتعد الملاحة في اتجاه مجرى النهر جنوباً بمركب شراعى أو بخارى مستحيلة ؛ إذ لا يمكن أن تُجر القوارب خلالها إلا بأعظم مخاطرة من ناحية الضفاف ، ولا يجرى ذلك إلا أثناء أعلى موسم لفيضان النيل ..

تمتد صوب الجنوب لمائة ميل من الشلال الثانى رقعة بطن الحجر " نواة الصخر " ، أكثر قحولةً وحيلولةً من بين كل البنىات النوبية . هنا يمكننا بصعوبة أن نفرق بين الشاطئ والصحراء ،

حيث انها متماثلان في اماكن عديدة . إن صفحة الأرض المضطربة سلاسل تلال وإخاديد غرائبية جرداء تشخص هذا الجزء من النوبة من ضفة النهر نفسها : والراسب الغريني ليس كسهل فيضى مستمر ، لكنه يكون جيوباً وجداول محرزة ليس إلا . حقولاً وقتية صغيرة تحتضن الضفاف حيثما توفرت مثل تلك التربة ، وخلال اشربة طويلة لا يشاهد نبات طيبعى أو مزروع . فالمرجى الضيق وضفاف النهر المنحدرة تجعل الزراعة صعبة ولو وجدت رواسب الغرين ، بسبب الفوارق الاقصى بين مستويات النيل العالية والمنخفضة . وفي إرتقاء الموسم ربما يصير سطح المجرى خمسين قدماً أو أشد إنخفاضاً أسفل الحقول المجاورة منذراً بإستحالة عملية الزراعة في هذه الأحوال من غير عون الرافعات الحديثة .

في كافة جنبات بطن الحجر ليس النيل ضيقاً وحسب لكنه سريع . وخلال موسم إنخفاض المياه في «سمنه» يعتصر إنسياب النهر على إطلاقه خلال « أنبوية » يصعب أن تتعدى ١٠٠ قدم في عرضها ، وثمة أماكن جمة أخرى ليست بأوسع عرضاً . الجزر والمخاضات لا حصر لها ؛ وتتكرر مجرى النيل سلاسل منحدرات كبيرة عشر مرات كل ١٠٠ ميل . الملاحه طول المدى ، لا سيما ضد التيار (أى من مصر إلى النوبة) ، مستحيلة في موسم إنخفاض الماء ، وصعبة ومحفوفة بالمخاطر في أفضل الاوقات . التجارة والسفر عبر هذه المنطقة أغلبه كان تفضيلاً لمشاق الضفة على عسرة النهر .

لا غرو ، إذن أن بطن الحجر أخفقت في جذب الإستعمار المصرى ، ولأجيال خدمت كدروع يتباح لتقافات النوبة العليا وراها أن تتطور بنهجها الخاص . دام ذلك لأكثر من ألف عام بعد التغلغل المصرى الأول قبل بذل أى جهد لإستغلال الأرض فيما وراء الشلال الثانى ، وحتى حينها كانت السيطرة السياسية المباشرة للفراعة قصيرة الأجل . أنشأ إختراق « الستار الغرائبى » مع ذلك ، صلة ثقافية بين سكان النوبة العليا وسكان مصر ، جسدت نفوذاً بالغاً في مسيرة التاريخ النوبى مذآك الوقت وما أعقبه .

في قرون متأخرة ، أصبحت طبيعة بطن الحجر غير المنتجة حاجزاً بدورها للتوسع الشمالى للثقافة الإسلامية ، التى كانت قد أدخلت ونشرت مبدئياً من بدو رعاة . لقد كانت منطقة الشلال الصخرى ، بخلاف المناطق ذات الخصوبة والرخاء في إتجاه الجنوب ، هى التى صمدَ بها فيما يبدو آخر الفلاحين النوبيين المسيحيين أمام مذ الإسلام .

بعيداً عن حافة النهر ، وصف وجه بطن الحجر بأنه « قمرى » . إن إستطلاعات حديثة الموقع ربما ألت الشك على سلامة هذا التشبيه ، غير أن المنطقة تنقسم بالتأكيد مع السطح القمري مظهراً لإنعدام الحياة وفقدان الشكل نحو ما يوجد في أماكن قليلة على الأرض . إنها ليست بحراً من الرمل ، مثل صحاى مصر والنوبة السفلى ، ولا صحراء جبلية مثل صحارى آسيا وأمريكا . إنها تبدو ، على الأرجح ، مزيجاً متليكاً لا رسم له من الجلود ، سلاسل التلال ، أصابع الصخر ، ودياناً حادة ، دونما أى علامات مميزة . فوق مساحات شاسعة لا يعدو النتوء الاقصى مائتى أو ثلثمائة قدم إلا فيما ندر ، ورغم ذلك فإن الفضاء المستوى قليل بحق .

تعكس الصور الفوتوغرافية الجوية خروجاً صارخاً عن المألوف في بطن الحجر . نتوء التضاريس السطحية ليست أقل ظهوراً وحدّة غرب النيل عنها إلى شرقه ، ولكن اللون السائد لسطح الأرض أخف بشكل ملحوظ . إن كلاً من الظرفين نتج من الحقيقة القائلة أنه في كل النوبة تهب الريح من الشمال كئنها في تواصل ، في حين أن مجرى النيل في بطن الحجر يتجه من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . تحمل الرياح الجنوبية ، وهى تعرى في وضع مقيم هضبة الحجر الرملى العارية بالنوبة السفلى ، حملاً ثقيلاً من الرمال الغليظة الصفراء في الإتجاه الجنوبى ، لتغمر معظم الوديان والمساحات الممهدة إلى شمال النهر وغربه . وبين ثنايا هذا البحر الأصفر تبرز سلاسل تلال وعقد



غرائبية معزولة ؛ اطرافها الجنوبية تعلّمها كتابٌ ساحبةٌ ضخمةٌ ، أميالاً في الطول.

بما أن الرمل النوبي الثقيل ينتقل بالتحرج بدلاً من التحليق في الهواء ، فإن حاجز النيل المائى يحول دون انتشاره الإضافى جنوباً بما يعادل الطريقة التى يمنع بها جهاز إطفاء الحريق إنتشار النار . بذلك فإنه ليست ضفة النهر الشرقية وحدها (أى الجنوب الشرقى) خالية من الغطاء الرملى ، الذى ابتلع قدراً معتبراً من الضفة الغربية ، إنما كذلك كل جزائرها . إن لونها السائد هو الرمادى حالك الغرائيت ، يتناثر هنا وهناك سهولاً صلصالية مترسبة .

يعتقق درب المركبات الحديث عبر بطن الحجر (طريقاً ، بالمجاملة) الضفة الشرقية للنيل قبل مقدم الحركة الدائرة بالعجلات ، يتبع خطأ لسكة حديد عسكرية [ المنشأ ] قصيرة الأجل . مع ذلك ، وجد المسافرون بالبر سيراً أسرع على الرمل منه على الصخر فيما يظهر ، حيث ظلت الضفة الغربية تاريخياً هى طريق القوافل الرئيس على طول النيل . (ولا يزال مُتبعاً من آلاف الإبل التى تساق سنوياً نحو الشمال من غرب السودان إلى مصر للذبح) . ليس بالمصادفة وحدها ، في ما هو محتمل ، بناءً عليه ، أن أغلب البقايا الأثرية الكبرى في كل من النوبة السفلى وبطن الحجر موجودة على الضفة الغربية للنيل . (على سبيل الإيضاح ، تسبّب الغطاء الرملى أغلب الأمر في أفضل ما تم من حفظ البقايا الأثرية على الضفة الغربية) .

### أرض عبرى - دلقو النهرية

لعل شلال دال ، حوالى ١٠٠ ميل جنوب وادى حلفا ، يؤدى في أريحية دوره كمُعلم على الحد الجنوبي لبطن الحجر . إن رقعة وادى النيل بين هذه النقطة وبين الشلال الثالث (كرمة) ، مسافة ١٢٠ ميلاً ، تقدم شيئاً خارجاً عن العادة . إنها الإستثناء الوحيد للنمط العام من مناطق الغرائيت العارية التى تُتّبدّل مع مناطق حجر رملى أغزر إنتاجاً . وفى أرض عبرى - دلقو النهرية لا تزال صخور القاعدة تحت الأرض مكشوفة في السطح ، لكنها تأخذ تضاريس سطحية ذات سمة مختلفة للغاية عن بطن الحجر المجاورة . إن مُتشابك التلال والوديان يُزاح جانباً لأطراف غليظة مستديرة طويلة ، معزولة ، مفصولة بسهول صلصالية عريضة . هنا كما في أى مكان ، السهول مدفونة إلى غرب النهر بقدر واسع تحت رمل أصفر . إن أطول قمم ، في منطقة فركة ، تعلو أكثر من ١٠٠٠ قدم فوق القطر المحيط ؛ هذا هو الجزء الوحيد من وادى النيل بين الخرطوم والبحر الذى به شئ مثل وجه جبلى . مع هذا ، فإن متوسط معدل إنحدار النهر بين كرمة ودال أقل من أى مكان آخر في النوبة (الشكل رقم ٦) . ولا تُسبب الملاحة إشكالاً للمراكب الصغيرة ، بالرغم من بعض الجنادل الضغرى .

في كثرة من أرض عبرى - دلقو النهرية ، كما في أرض دنقلا النهرية إلى الجنوب ، ما من مرتفعات شديدة لتوسم الحدود بين وادى النهر والصحراء . إن رواسب التربة النهرية الغرينية المزروعة تنفس المجال لمنحدرات حصبائية متحجرة ، أو لكتبان على الضفة الغربية ، دونما أى نهوض حاد في المرتفع . ومع أن السهل الفيضى ، مُتأزماً هنا وهناك بجبال في طرف النهر ، فإنه عريض ومزروع بكثافة في أماكن غفيرة ، على وجه الدقة في الضفة الشرقية ، حيث يكون خالياً من الرمل . ويدعم الجزء الشمالى من هذه المنطقة ، بالقرب من المركز الإدارى لعبرى ما يقرب من صفر متوالٍ من القرى الفلاحية الماهولة بالسكان .

ولابد أن المناظر العريضة والنهر المنفتح لأرض عبرى - دلقو النهرية كانت ترحاباً لأولئك الذين عبروا سلاسل التلال لبطن الحجر . وربما لهذا السبب ، شجّد فاتحو النوبة المصريين معابد وصروحاً أخرى بين عبرى وكرمة أكثر من أى منطقة مقارنة بها في النوبة العليا . في هذا وجوانب أخرى كثيرة ، تشكل أرض عبرى - دلقو النهرية بصفاة إمتداداً لأرض دنقلا النهرية إلى الجنوب ،

وليس لبطن الحجر صوب الشمال ، على الرغم من قربها الجيولوجي للصيق بالأخيرة . ربما يمكننا لذلك أن نعتبر شلال دال ، على الحد الشمالي من أرض عبرى - بلقو النهرية ، التخوم الحقيقية للنوبة العليا ، تاركين بطن الحجر كنوع من أرض إنتقالية بلا صاحبٍ لا تنتمى على نحو سليم لأى من النوبة العليا أو النوبة السفلى .

## أرض دنقلا النهرية

تمتد هذه لأكثر لأكثر من ٢٠٠ ميلاً ، من الشلال الثالث إلى الرابع ، وتغطى النصف الغربى من منحنى التثنى «S» العظيم على طول النيل الأوسط . هنا يكون السطح مرة ثانية الحجر الرملى ، إلا أن المرتفعات الشديدة والكتل المستديرة للنوبة السفلى غائبة . والحقيقة ، أن التضاريس الأرضية في أرض دنقلا النهرية ، كما في غلبّة من الأرض الممدودة بعيداً إلى الجنوب ، تكاد تكون بلا ملامح . لا تعيقها كتابان ، وتمتد الأرض المهيبة للزراعة ميلاً أو أكثر على كل جانب للنهر . هنالك إضافة إلى ذلك أحواض مغمورة كبيرة ، مثل التي بكمره والتي تمثل حياضاً مهجورة للنيل لا تزال صالحة للزراعة الموسعة .

في أغلب الأحيان ، لا يبدو الخط الفاصل بين الوادى والصحراء للعيان إلا كفارقٍ ما بين الأخضر والأصفر البنى . تبدأ الصحراء حيثما تتوقف الفلاحة . وهو توقف يعتمد ، في معظم الحالات ، على محددات طوبوغرافية مطلقة بمستوى أقل مما يعتمد على حدود الطموح والبراعم البشرية . آلاف الأفندة التى أضحت صحراء الآن كانت مزروعة زماناً أو آخر في الماضى ؛ والخطوط التمهيدية للحقول والقنوات لا تزال مرئية بصفاء في الصورة الفوتوغرافية الجوية .

هذه المناطق الطوبوغرافية النوبية التى تعد أقل إستعطافاً للبصر هى إلى جانب ذلك الأشد إنتاجاً بهامش معتبر . وما الطمى الراسب أبعد إمتداداً وتواصلاً غير منقطع هنا بأعلى من أى مكان آخر ، لكنها إضافة إلى ما تقدم الجزء الوحيد من النوبة الذى بوسعه أن يستند إلى فيضان مستوى للنيل شبيه بالذى أغنى تربة مصر السفلى لآلاف السنين . فوق هذه الإعتبارات ، النهر نفسه عريض ، رابض ، وصالح للملاحة دونما تعويق من الشلال الثالث إلى الرابع . لا تزال الحركة التجارية في أرض دنقلا النهرية بالتقريب تتحرك بالباخرة النيلية والقارب الشراعى في الوقت الحاضر .

وبما لا دمشة فيه ، صارت أرض دنقلا النهرية بمضى الزمن قلب النوبة القديمة : مصدر أغلب رخائنها ومهد حضارتها الأصلية الأولى . وبالرغم من أن الفاتحين والمستعمرين استوطنوا في النوبة السفلى في ظل الدولتين القديمة والوسطى ، فلم يتخذ غرس الحضارة بحق جذراً جنوبى أسوان حتى حلول الوقت الذى أضيفت إليه أرض دنقلا النهرية لأملاكهم . وفي قرون متأخرة ، إلى جوار الطرف الأعلى من أرض دنقلا النهرية أنشأ أعظم الملوك النوبيين كرسى قوتهم الذاتية ، ومن هنا ركبوا حروب الفتح التى جعلتهم فراعنة لمصر زماناً بالمثل . هنا أيضاً نصبت مملكة « المقر » العظيمة بالقرون الوسطى عاصمتها ، في المدينة التى أسبغت على المنطقة إسمها .

بدخول أرض دنقلا النهرية من الشمال ، نجتاز ما وراء حزام الصحراء الخالى على إطلاقه من هطول الأمطار . وتسجل مدينة دنقلا الحديثة حوالى بوصة واحدة من نزول المطر سنوياً في أشهر منتصف الصيف (الشكل رقم ٧) . ومع أن هذا التساقط الكسول ليس بذى أثرٍ في الصحراء العارية ، فإنه يدعم نمواً للنبات يتوسط على طول الوديان الضحلة العريضة التى تتموج فوق أسطحها . تلتحق بأشجار السنت الشوكية ، القزمة ، بعد الانسياب السطحى للياه في الصيف ، نسباً مقدرة من العشب . من هنا لا يُحتاج ترحالٌ صوب الجنوب باى مدى لأن يتحتم ضفاف النيل - بوجه دقيق منذ إدخال الجمل في الـ ٢٥٠٠ عام الأخيرة - تعبر الدروب البرية أرض السهل للجنوب الشرقى



والجنوب الغربي من أرض دنقلا النهرية ، ينضم واحد للنيل في إتجاه منبعه ، والثاني يقود المسافة للمراعي العظيمة في غرب السودان وما وراه . فوق هذه الدروب لم تأت القوافل التجارية وحدها إنما أيضاً البدو الغزاة ، الذين لعبوا دوراً متقطع الحدوث لكنه هامٌ في تاريخ النوبة العليا ، ولا يزالون يظهرن إلى اليوم بانتظام على طول ضفاف النيل .

### أرض « أبو حمد » النهرية

يدل الشلال الرابع ، بالقرب من كريمة ، علي حد أرض دنقلا النهرية الخصبة . وللنصف الأول من الفترة التاريخية يُوسَم أيضاً ، إلى المدى الذي تذهب إليه معرفتنا ، حدُ النوبة نفسها . وراء منطقة أخرى من الغرائث العاري الذي وإن كان طوبغرافيا أقل وعورة من بطن الحجر ، فإنه قطعاً ليس أكثر إنتاجاً . إنه اليوم أقل رقعة مأهولة بالسكان للنيل بين الخرطوم والبحر ، ويُسْتخدَم بنفس القدر للرعي كما للزراعة .

في أرض « أبو حمد » النهرية ، كما في كل مناطق الغرائث ، يعطل مجرى النيل بالشلالات ، وضخالة ، وجذر لا عدد لها هنا ، مع هذا ، أضافت أحداث الجغرافيا حائلاً للملاحة . فمجرى النهر الجنوبي نحو الغرب بين « أبو حمد » و « الدبة » يعني أنه في هذه المنطقة ، وبها وحدها ، إتجاه الريح والتيار السائد شيء واحد . ليست الممارسة العادية للحركة النيلية صوب الجنوب والإنسياب شمالاً بإمكانية عملية في أرض « أبو حمد » النهرية وربما يكون الترحال صوب الشمال سريعاً بحق ، بيد أن الملاحة دون وسيلة قوية ناحية الجنوب لا يُسأل عنها عادة .

لن حال الشلال الثاني دون الإنتشار الجنوبي للقوة المصرية لألف عام ، فإن الشلال الرابع كان له أثر مماثل في الألف التالية . حقاً لم تمتد السيطرة المصرية النامة أبداً وراء أرض دنقلا النهرية ، وما جرى غرس لحضارة نبتة المتمصرة نهاية الأمر بأرض شندى الخصبة ، فوق الشلال الخامس ، حتى حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد . في قرون العصر المروى (تقريباً ٣٠٠ ق . م . إلى ٣٠٠ م ) ، مع ذلك ، فافت ثروة المنطقة الجنوبية وقوتها ما كان بأرض دنقلا النهرية نفسها .

إنها حقيقة موحية أن هناك صروحاً مروية أخاذة في أرض شندى النهرية وأرض دنقلا النهرية (مثلما هو كائن في أرض عبرى - دلقو النهرية) ، على أنه ما من شيء بالمرّة في أرض « أبو حمد » النهرية الداخلة بينهما . لم يتبع النهر سبيل الترحل بين المنطقتين مطلقاً بكل الإحتمالات ، لكنه اتخذ طريق القوافل الراهنة اليوم عبر سهل بيوضة . فإذا كان الأمر كذلك فإن انتشار الحضارة وراء الشلال الرابع فيما هو مفترض كان عليه أن يلبث منتظراً لتطور تجارة القوافل البرية ، في القرون الزخيرة قبل الميلاد . ولربما يبين هذا أنه لا تُشخص أرض « أبو حمد » النهرية في أهمية بأي مرحلة للتاريخ النوبي ؛ إنها بالقدر نفسه محرومة من البقايا المهمة من الحضارة النبتية - المروية ومن الفترة المبكرة لممالك القرون الوسطى . إن مآثرها الظاهرة الوحيدة تنتمي إلى عصر الإقطاع العسكري للقرون الوسطى ، عندما وفرت هذه المساحة ، لجزرها المتعددة التي لا يسهل الوصول إليها ، ملاذاً متقناً لأزياب حرب ضواري .

### أرض شندى النهرية

القسم الجنوبي الذي سنختار أن ندعوه النوبة يمتد من حوالى مدخل نهر عطبرة إلى ملتقى النيلين الأزرق والأبيض . وأرض شندى النهرية مماثلة في معظم الوجوه لأرض دنقلا النهرية ، عدا أن صخور الغرائث الصق بصخور القاعدة لمدى واسع بالسطح ، تلج خلاله جبلاً متعددة وتتواءم محلية متسعة . ينفرج اكبرها على جانبى النيل أميلاً قليلة شمال الخرطوم ، أخرجت خانق السبلوكة



العميق والشلال السادس . وباستثناء ما بين خانق السيلوكة هناك تقريباً راسب طمى متواصل على طول كل من ضفتي النهر ، وقرى الفلاحة متعددة ومأهولة تماماً .

في أرض شندى النهرية نكون قد دخلنا السودان الحقيقي - حزاماً من أرض عشبية شبة صحراوية وأشجار شوكية متناثرة تمتد طوال الطريق عبر إفريقيا جنوب الصحارى . في هذه المنطقة يشكل البدو الرعاة في كثرة بالغة جزءاً من النظر الإنسانى : يعسكرون خلال جزء من كل عام بأعداد كبيرة على طول وادى النيل ، وراء حدود الزراعة بالضبط .

مثل أرض «أبو حمد» النهرية ، ما كانت أرض شندى النهرية مكتشفة إلا بمستوى غير مكتمل من علماء الآثار . مع ذلك ، فإنها تحتوى عدداً من مواقع لصروح هامة ومشهورة كانت موضع تحقيق مبعثر منذ بداية القرن العشرين . كل من هذه المواقع المعلومة حتى الآن يبدأ تاريخها إما من الفترات النباتية المتأخرة والمروية (بالتقريب ٥٠٠ ق م . إلى ٢٠٠ م) أو من الفترة المسيحية الأخيرة (تقريباً ١٠٠٠ - ١٥٠٠ م) ، وجميعها قائم إلى الشرق من النيل . إن مروى لمدئ متقدم هي الأشد إشتهاراً ، كان اسمها معروفاً لنا من كتابات هيرودوتس وسقراطو قبل وقت طويل من اكتشاف موقعها الفعلى ، وقد أعطت إسمها للثقافة المروية . هناك مدائن مروية خزبة أخرى ، بعضها لا يزال غير متقرب ، ليس فقط على ضفاف النيل : وإنما على أرض المؤخرة الجافة بين وديان النيل والعبقرة - ما يسمى بـ «جزيرة مروى» . (وهي ليست جزيرة بالفعل لكنها سهل عريض محاط من ثلاثة جوانب بالأنهار) .

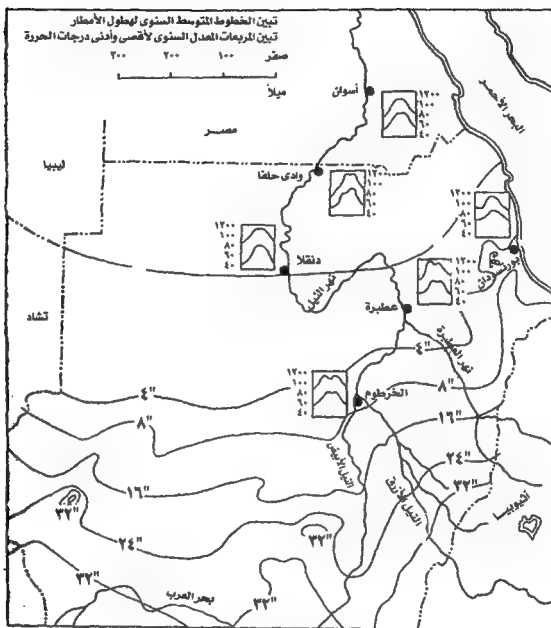
حتى هذه الأثناء ما من مواقع أثرية معلومة في الضفة الغربية للنيل ، وقد اكتشفت بضعة مدائن مروية معزولة وحيدة في اتجاه الجنوب من الخرطوم . مع ذلك ، ربما لا يعكس هذا شيئاً أكثر من غياب الكشف الأثرى السليم . نبقى على جهل في الوقت الراهن بالحدود النهائية التي تغلغت إليها الثقافة المتمصرة إلى داخل إفريقيا ؛ ويمكننا أن نقول شيئاً واحداً إن المعرفة الأثرية والتاريخية المنسقة خطة وإجراء تقف عند حد ملتقى النيلين (الخرطوم الحديثة) يمكننا ، لذلك ، أن نأخذ هذه النقطة كحد جنوبى للنوبة ، دونما استبعاد لإمكانية أنه قد يسعنا الأمل يوماً لأن نشمل مساحات لا تزال بعيدة إلى الجنوب .

## المناسخ

تتمتع النوبة ، إن كانت تلك هي الكلمة السليمة ، بواحد من أشد المناخات تطرفاً على ظهر الأرض . في وادى حلفا ، على الحدود بين النوبة السفلى والعليا ، متوسط الحرارة اليومى من مايو إلى سبتمبر حوالى ٩٠ درجة ؛ ويزيد الإرتفاع اليومى تقريباً عن ١٠٠ درجة ، وربما يبلغ فوق ١٢٠ درجة (الشكل رقم ٧) . الشتاء ، من نوفمبر إلى مارس ، معتدل ، بمتوسط حرارة يومية بين ٦٠ و ٧٠ درجة ، ونوبات البرد العرضية تتناوب عندما يسقط مقياس الحرارة بالتقريب إلى درجة التجمد (٥) .

يخفف آثار حرارة الصيف نوعاً ما غياب الرطوبة . والنصف الشمالى من النوبة - من أسوان إلى دنقلا - لا مطر فيه لكل الأغراض العملية . يسقط الرشاش لفترة دقائق قليلة محلياً بشكل مبعثر في الشتاء والصيف ، ربما ينقضى جيل قبل أن يهطل المطر ثانية بنفس الموقع . والرطوبة فلما تتعدى ٢٠ في المائة في الشتاء ، و ١٥ في المائة في الصيف .

يلاقى جنوب دنقلا نظاماً مختلفاً نوعاً ما . يوجد موسم «مطرى» حسن التعريف من ثمانية إلى عشرة أسابيع ، في يوليو وأغسطس . وحجم النزول الحقيقى صغير ، يتزايد كلما ذهب الواحد صوب الجنوب من حوالى بوصفه في دنقلا إلى سبع بوصات في الخرطوم . مع هذا ، فإن الأجواء القائمة دائماً والرطوبة العالية ، بالإنهار والليل معاً ، تضيف إضافة عظيمة لتنفيس موسم الصيف .



شكل رقم ٧  
المناخ في النوبة ووسط السودان

كما أن الفترة الحارة الخافقة ، التي تعقب الأمطار مباشرةً غير سارة على وجه التدقيق .

وتُعدّ الريح مكرراً آخر دائم الحدوث في البيئة النوبية . فعلى كل الصحراء الشرقية تهب الرياح من الشمال طوال العام ويندر أن يتفاوت إتجاهها أعلى من ٤٥ درجة . وتبرز كثبان هائلة متدرججة على جوانب نتوءات الصحراء المحمية من الريح ، متجهة بالفعل إلى الجنوب ، تشهد بقوة الرياح واتجاهها الثابت على السواء . إن ريحاً وطيدة بسرعة ١٠ إلى ١٥ ميلاً في الساعة من الأمور المعتادة ، بيد أن عواصف شديدة تصل إلى مدى ٥٠ ميلاً في الساعة تهب على الأقل مرة في الشهر ، وتكثر الأحيان التي تزاوّل في خلالها في المرة الواحدة يومين أو ثلاثة أيام . تلتقط الرياح العابرة حوض النيل حمولة من الرمل النهري الدقيق والطمى المسحوق سرعان ما تتساقط على أي واحد وأى شئ على طول ضفة النهر الشرقية (الجانب المحمي من الريح) . وتجلب رياح الشتاء كتلاً من الهواء البارد من باطن الصحراء ، وبإمكانها أن تجعل الحياة غير مريحة بما يدعو للدهشة في المساكن النوبية الكبيرة غير المغطاة ، غير المكيفة . أما رياح الصيف فهي أوسع رحابة ، لأنها بشكل عام تُطعم عن حلول تيار منعش . في معظم الأحيان ، تكون أنواء طقس الشتاء مكروهة من النوبيين لأنها أشد من تطرف الصيف ؛ والمطر على وجه التخصيص يرتعون منه بسبب الضرر الذي يلحقه بمنازل الطين وبناءات أخرى .

طوال العام ، يجري الطقس النوبي في دوائر مقدارها أسبوع أو أسبوعين مُدةً . وتصبح نوبة معتدلة في الشتاء ، أو حارة في الصيف ، أشد دفئاً في كل يوم تالٍ حتى تتوقف فجأة بزوبعة للريح خارجة من الشمال . تتأثر الرياح العاصفة ، القوية ، يومين أو ثلاثة ، ثم تسكن . فيوماً أو يومين من الطقس المعتدل الهادئ نسبياً ، يتبعه إنعطاف ثانٍ دافئ عندما تبدأ الدائرة ثانية .

ظلت الرياح السائدة عاملاً نشطاً وهاماً في البيئة النوبية في كافة جنبات التاريخ . في الجانب المفيد ، تجعل من الممكن الملاحة على النيل نحو الجنوب ولو في وجه تيار عنيف . على طول النهر العظيم فما عدا المنحنى المعكوس ما بين أبو حمد والدبة يتعاكس إتجاه التيار مع مهب الرياح ، بدا يعين على الملاحة في كل من الإتجاهين . وفي مناطق الشلال تظل النسمة السارية ضرورية لعبور النهر ؛ فدونها تصبح المركبة غير العملية (التُفَر) المستخدمة في النوبة العليا تحت رحمة التيار ، عُرضة لأن تدفع إلى حيث المخاضات والجنادل . لذا تتوقف كل الحركة النهرية بهذه المناطق في الأيام النادرة نسبياً التي تسكن فيها الرياح .

الأثار المؤذية للريح يمكن أن تُشاهد في الإطباق الدائم للكثبان على الأراضي الزراعية ، وبوجه الدقة في إتجاه الريح على الضفة الغربية للنيل . ليست الحقول وحدها ، إنما البيوت المائل تُبتلع مرات عديدة ، وذلك لأن أي بناء لا يشيد على موقع محمي يبدأ في الحال تراكم الكثبان على طول جانبيه الشمالي والغربي . وفي النهاية ، فإن وزن الرمل المنقول في مواجهة حيطان الطين غير المدعومة يجعل المساكن خطرة للغاية مع استمرار الإقامة . وتنتج عن هجرة الكثبان التخلي عن قرى كثيرة جداً ، علاوة على أرض مفلوحة كبيرة ، في الماضي القريب . هذه العملية المبتلية للسكان ، هي بالطبع منفعة لعالم الآثار ، لأنها تعني أن البقايا القديمة على الضفة الغربية للنيل محفوظة أجود حفظ بمستوى غير عادي أكثر الأحيان . إن المنازل تكون مدفونة في بعض المرات حتى رؤوس سقفوها قبل أن تؤدي الريح مع الزمان عملها في التعرية . إضافة إلى ذلك ، فإن الضرورة اللازمة للصيانة وإعادة البناء تجعل طبقات المواقع السكانية على الدوام متماسكة جلية في روعة .

كان مناخ النوبة الغليظ المستحكم رادعاً بلا شك لمعظم الغزاة . وبينما أنه لم يحم المنطقة من الغزو المتكرر ، يمكن أن يكون في جزء مسؤولاً عن المدة القصيرة لمعظم الإحتلالات الأجنبية نسبياً ، وانعدام الإستعمار الدائم . ومن جانب آخر لم يكن المناخ النوبي مؤدياً بأي معنى مطلق للإستيطان أو الإنتاجية ، أو هاماً للغاية بنفس القدر لهما . إنه النيل ، ناهضاً بمرتفعات من مسافة ٢٠٠٠ ميل



بالجنوب البعيد ، الذى يجئ بكل من الماء والتربة الضروريين للحياة في النوبة . ما من شئ مطلوب من البيئة المحلية سوى موسم تام من الطول بما يكفي للإنتفاع من هذه المصادر الدخيلة . لا النوبة ولا مصر يسهمان بنقطة من الماء للنبيل ، ولا بفدان من ترابهما لضفافه .

إذا كان النيل هو القسمة الرئيسية للمراى النوبى ، فإنه لا يعد واحداً غير متبدل باى حال من الأحوال . إن التضارب السنوى في الحجم بين موسم إنخفاض الماء وموسم الماء العالى هائل ، يبلغ في الحقيقة زيادة تربو على ١٠٠٠ بالمائة . الحد الأدنى المألوف لحوالى ٦٠ مليون قدم مكعب في اليوم يُبلغ في مستهل مايو ؛ ويرتفع هذا لما يقرب من ٨٠٠ مليون قدم مكعب في اليوم بداية سبتمبر<sup>(١)</sup>.

إن إرتفاع النيل وانخفاضه ، مُجنداً بالطمي في كل عام مساحات كبيرة الإتساع من الأرض امرٌ معروف ، وقد استُخدم كقاعدة لواحد من أقدم تقاويم التاريخ . بصرف النظر عن ذلك ، فإن النظام الطبيعى للنيل زائف في جوانب كثيرة . وفقاً ليفريكوتر ،

في حال كان الفيضان نافعا لمصر ، يمكن أن يصير كذلك بلاء . حيث ارتفاع النيل مفاجئ ، حاد ؛ فإذا ترك نفسه يقطع التيار العاتى كل شئ يعترض مجراه . والأهم من كل شئ ، أن الفيضان لا يمكن الإعتماد عليه بالمرة : صحيح ، أنه يصل كل عام ، لكنه لا يمكن الإعتماد عليه . ثلاث مرات من بين كل عشر مرات يكاد لا يرفد كمية الماء الضرورية للزراعة . وفى السبع الباقية يجئ قليلاً جداً أو وقيراً للغاية<sup>(٢)</sup> .

إن « السنوات السبع السمان والسبع الضعاف » في زمن يوسف<sup>(٣)</sup> هى أشهر حالة للتقلب غير المتوقع للنيل ، غير أن سرد الأب اليسوعى " جيرونيمو لوبو " يُجسد الحالة نفسها من عدم الإستيقان بالقرن السابع عشر من عصرنا . متحدثاً عن المقياس بالقاهرة حيث كان جريان النيل يُقاس سنوياً ، كتب :

على أسوار هذا البرج ، من السفح فاعلى ، وضعت علامات أو درجات : وطبقاً للعادة القديمة ، كلما غطيت كثرة أو قلّة من هذه بالماء ، يوعن القضاة بإعلانها على الملأ كل ليلة في الشوارع ، ومعرفة الدرجات التى فاضها النيل في ذلك اليوم قد تصبح عامة . يبدأ هذا الإعلان في نهاية يوليو ، ويتواصل في أغسطس كله ، عندما يكون ارتفاع أو إنخفاض النهر على وجه الدقة مراقباً بالدرجات . وهكذا تخفّ وفرّة العام . وعندما لا يغطى الماء ست عشرة درجة ، ينبئ عجزها عن الخوف من المجاعة : مرتفعة نحو خمس وعشرين ، كلما صعدت صارت الآمال في موسم مثمر ادعى . فإذا اجتازت ذلك العدد ، تناهبتها مخاوف جديدة من الموت إذ لا يسمح لهم الماء بالزرع ، أو بتخزين حصادهم . ولا تمر هذه الأشهر دون بعض الإضطراب والقلق ، فالطقس في كل مكان يخضع لعدم الإنتظام ، لذا فإن المطر في بعض الأحيان غزير جداً ، وأحياناً أخرى قليل جداً ، مما يدعو لتغيير المحصول<sup>(٤)</sup> .

عبر الاف السنين ، أهّل النيل المصرى وتم إخضاعه بالمصدات وعمليات التحويل . والخزانات ؛ إن العملية لا تزال سائرة اليوم . وبقي النيل النوبى ، الذى لا يمكن التنبؤ به بنفس القدر ، غير مُطوع حتى القرن العشرين . وتحيط بالفلاح النوبى إلى اليوم جملة من المتقلبات التى واجهت المصريين في فجر التاريخ .

لا يفيض النيل النوبى في العادة فوق ضفافه ، فيما عدا مناطق مثل لتى وكربة حيث يمكنه أن ينسكب إلى داخل قنوات المهجورة . إن الفيضانات المتباعدة التى تحدث بالفعل بلاء ، لا مخفف له ، تجرب المساكن والحقول على السواء . ويقال إن أقرب فيضان عظيم ، في ١٩٤٦ ، دمر ٩٠ بالمائة من بيوت القرى التى تلتف بوادى حلفا .

رغم أن النهر يستطيع عادة أن يحسب بقاؤه بين ضفافه ، فإن الإختلاف في المستوى بين النيل العالى والنيل المنخفض هائل . وعلى نحو الدقة في مناطق الغرائيت حيث المجرى ضيق وعميق . تترك الحقول التى تقع في نطاق بضعة أقدام من طرف الماء في موسم الفيضان مرتفعة وجافة

بمعنى الكلمة، وفي بعض الأحيان تعلق خمسين قدماً فوق النهر، في موسم إرتقاء النهر. والرى صعب أو مستحيل حتى بالوسائل البسيطة للقوة الرافعة - إنساناً كانت أم حيواناً - السائدة تقليدياً بوادي النيل. يقدر أن عجلة لرفع الماء يسوقها ثور (ساقية) بوسعها أن تروى أربعة أو خمسة أفدنة في فترة واحدة أثناء موسم إرتقاء الماء، لكنها لا تتعدى ثلث تلك المساحة في الموسم الأشد إنخفاضاً<sup>(١٠)</sup>. أما الرافعة بالقوة البشرية (الشابوق) فهي بالمقارنة أقل إستخداماً في النوبة، كما أنها غير ذات إقتدار لرفع ما يكفي لجلب الماء بمعظم أنحاء السهل الفيضي. إلى نقص التربة نفسها، صعوبة رفع ماء الرى فوق ضفاف النهر العالية، المنحدرة، حيث ظلت العامل العماوى الذى يحول دون التنمية الإقتصادية للنوبة طوال التاريخ

ينتقل النيل النوبى من فترة لأخرى فيما بين حوضه الضيق غير مقيد بأرصفت أو تدابير للتحكم في الفيضان. في هذه العملية، يمكن للراسب الغرينى الشحيح بالمنطقة أن يُعاد توزيعه جزئياً، بينما تجرف الفيضانات الطمي من إحدى ضفتى النهر ترسيبه بعيداً - سوب الشمال، ربما قبالة الضفة المواجهة - تُكوّن جزائر جديدة من زمن لآخر، وتُخفّى الجزر القديمة عندما تجف المجارى التى فصلتها أنفاً عن الضفاف. (جزر متعددة بالطبع جرى فصلها من الأرض الرئيسة في موسم علو الماء وحده). تتبع هذا بما لا محيص عنه إنتقالات السكان. وإننا لنجد بقايا كانت ذات مرة مدمرة حيث لا توجد هنالك اليوم أرض صالحة للزراعة لتدعمها، أو نجد مساحات من الحقول العريضة وقرى رخيئة دون بقايا أثرية.

تحت وطأة هذه الظروف السائدة في أكثر بلاد النوبة، تعد المعيشة الزراعية هشة بالضرورة. والإنحدار لبضعة أقدام في مستوى سطح النيل قد يجعل الرى مستحيلاً لمساحات كبيرة، وربما يأخذ نصف الأرض الصالحة للزراعة أو ما يزيد على ذلك خارج الإنتاج في سنة معينة. بإستطاعة سلسلة من سنوات الفيضان المنخفض أن تخلص بما لا معدى منه إلى نزع سكانى على الإجمال. ولسوف تُرتَّب هذه العملية أكثر من مرة في مسيرة التاريخ النوبى، إذ أن سقوط الأمطار في مرتفعات إفريقيا الشرقية كان أبعد ما يكون عن حالة الثبات. إن النوبيين، وهم محصنون اقتصادياً من مشاق مناخهم الكائن، أمسوا بدلاً عن ذلك تحت رحمة تقلبات مناخية ألقا من الأميال إلى الجنوب.

ويؤثر التقلب السنوى لمستوى النيل كذلك على الملاحة النيلية. من بين الشلالات الثلاثين أو تزيد بين أسوان والخرطوم، كلها عدا ثلاثة (الأول، الثانى، والرابع) يمكن تجاوزها ولو بصعوبة، إبان إرتقاء النيل. ومع نزول النيل، رغم ذلك، تبرز مئات الصخور والضحالات في مناطق الغرائث، وتصبح الملاحة لمسافات بعيدة مستحيلة. فالقوارب متعددة اليوم هي كل من بطن الحجر وأرض أبو حمد النهرية، لكنها خلال معظم العام لا يمكنها أن تستعمل إلا لعبور النهر

نعلم من كتابات رسمية أن تبادلاً سلعياً مِصرياً موسعاً على ظهر المراكب النهرية إجتاز بطن //حجر أثناء الدولتين الوسطى والجديدة. ومالم يكن متوسط إنسياب النيل أعلى بغزارة عما هو عليه اليوم (إمكانية متميزة خلال الدولة الوسطى، كما سنرى)، يمكننا أن نطمئن تماماً أن هذه البعثات لا بد أنها كانت منحصرة في الأشهر بين يوليو وأكتوبر.

## النبات

بيولوجياً، تقسم البيئة النوبية على وجه مهيأ للغاية إلى الحياة في نطاقين - شاطئ النهر والصحراء. إن النبات على طول ضفة النهر من الصعب أن يؤثر عليه خط العرض؛ فهو لكل الأغراض العملية واحد من الخرطوم إلى أسوان. أما الصحراء، مع ذلك، فإنها تدعم النبات حيثما استقبلت هطول المطر فحسب. ويصعب أن يُدعى شمال دنقلا نطاقاً حياتياً على الإطلاق<sup>(١١)</sup>.

أشجار النخيل يصح أن تخدم كعلامة تجارية لوادي النيل بأجمعه . من الخرطوم إلى القاهرة ، هناك محلات قليلة لا يُرى فيها على الأقل جمع من هذه الأشجار مطلاً على النهر . ومع أنها بشكل ملائم شجرة البقية (ومصدر محصول النوبة النقدي الوحيد) ، تتواجد أشجار النخيل بكثرة وتبدو لما ينالها من رعاية قليلة جزءاً من البيئة الطبيعية . صفوفاً من حقول مزروعة ، أو هُبة غير نسيئة على طول النهر ، ولكن في أمكنة غوست كذلك حدائق كثيفة .

تطل نخلة الدوم الصغيرة ، ذات الفروع المنخفضة ، أصلاً بالنوبة والسودان ، وهي أقل وفرة بكثير من أشجار النخيل اليوم ، هذه الأشجار تنمو مفردة أو في تجمعات صغيرة ، متناثرة على طول الهامش الصحراوي ؛ ولقماً توجد بالقرب من الماء . إن النواة الصلبة ، اللبيضاء للدوم كانت ذات مرة المادة العمادية التي تستعمل في صنع الزرائر ، ولكنها اليوم لا قيمة لها تجارياً . مع ذلك ، فإن جذع الدوم ، وهو بقدر معتبر أصلب من جذع شجرة النخيل ، يزود المساكن النوبية بأخشاب السقف .

معظم الأشجار الأخرى الموجودة بالنوبة أعضاء لعائلة السنط واسعة الانتشار ، ومنها تنبت على الأقل ستة أنواع . هذه الأشجار الشوكية ، ذات الأوراق المتباعدة فيما يرجع مبعثرة في حدائق ومرابض مقترحة على طول السهل الفيضي حيث لا تكون الأرض قد جرى تنظيفها للغلاحة . إن قيمتها الأساسية كحطب للأغنام والإبل ، أما خشب أغلب السنط شيوياً فيدعى أكاسيا أرابيكا ، ويعتبر المصدر الأساسي لخشب القوارب ولأبواب المساكن ونوافذها .

تشكل أشجار الطرفاء أجساماً متشابكة غزيرة بمحاذاة النهر شديدة الانحدار وفي مساحات الكثبان المتجاورة . إن أسطة من براعم الطرفاء الجديدة تنبثق كل عام تحت مستوى المنسوب العالي للماء مع انحصار النيل ، لتجرف مع التيار ليس إلا ، في موسم الفيضان التالي . وتنمو أشجار عديدة أخرى وشجيرات صفراء بشكل متباعد في النوبة ، على أنه ما من شيء منها يسهم مساهمة ذات أهمية ومعنى للبيئة سواء كان ذلك إقتصادياً أم جمالياً .

وعداً الأشجار ، يكون أغلب النبات الذي يرى على طول ضفاف النيل نباتاً مزروعاً من نوع أو آخر . سوف يوصف هذا في صفحات قادمة (الفصل الثاني) . إن أقساماً غير مزروعة من السهل الفيضي دائماً ما تكون عارية بوجه كلي ، أو أنها لا تدعم إلا شجيرات منخفضة النمو . مع هذا ، فإن عشباً ، خشناً ، مسماري النمو ينمو بكثافة على طول الضفاف شديدة الانحدار لمجاري النهر ، وأينما استطاع أن يجد ندوة غيرها . تهين الغروس اليابعة علفاً هاماً للحيوانات الأليفة . بيد أن النباتات مكتمل النمو شوكي وغير مأكول .

في مناطق الشلال بالنوبة ، دغلٌ من سيقان البردي يمكن أن يشاهد على حافة الماء إبان النيل المنخفض . كان هذا النبات مرة على وفرة في محاذاة النهر بطوله ، لكنه الآن اندثر من مصر ومعظم النوبة السفلى حاصلاً للغلاحة المكثفة لواجهة الشواطئ .

يتكون أغلب نبات الصحراء النوبية ، متى توافر وجوداً من أنواع ، وأعشاب خشنة ، وشجيرات ضاوية النمو . أما مده الذي تدعمه الصحراء فمحكوم في كليته بهطول المطر ، يزداد بالتدريج المستمر من الشمال إلى الجنوب جنباً إلى جنب مع نزول الغيث نفسه . وهضبة الحجر الرملي التي تلاصق النوبة السفلى خالية تماماً من النبات الدائم ، على أن عواصف مطرية محلية تخرج محصولاً قصير الأجل من الغيث في كل مكان تقريباً . وفي جنوب وادي حلفا ، توجد أشجار السنط المتناثرة إضافة إلى رقع من العشب في بعض من الوديان الأكبر ببطن الحجر ، وهي تجمع المطر الجاري على سطح الأرض من مساحة كبيرة للغاية .

في أرض دنقلا النهرية ، علاوة على أرض شندى النهرية ، يمكن أن يوجد تبعثر منظم بشكل حسن للسنط وكذلك رقع موسمية جيدة من العشب في كل وديان الصحراء بالتقريب ، وبمرور الوقت

الذى تبلغ فيه الخرطوم تصبح غطاء متواصل فوق أرض السهل إلى شرق النهر وغربه . هنا لا غير ، يعثر البدو على معيشة مؤتنة ؛ وقد ظلوا عنصرأ هاماً في السكان قروناً طويلة .

## حياة الحيوان

تصف رسوم الصخر النوبية من العصر الحجري الحديث والفترات التاريخية الباكدة على قدم المساواة تنوع حيوانات الصيد الكبيرة ، بما في ذلك الفيل ، وحيد القرن ، فرس البحر ، الزراف ، وربما الجاموس . حلت إقامة بشرية مكثفة مذك محل كل هذه المخلوقات . ومن الأعضاء الكثيرين لعائلة الوعل البرى الذى صال وجال ذات مرة في وادى النيل الأسفل ، فإن الباقي الوحيد على قيد الحياة اليوم هو غزال تومسون الصغير ، وأفراد منعزلة من هذه الأنواع ربما تصادف في وديان الصحراء إلى مدى ثلاثين ميلاً من النيل ؛ إنها تقتحر بالليل لتطعم وتشرب على طول ضفة النهر . ابن اوى ، والثعالب ، والضباع بشكل متكرر ، تقود وجوداً متشابهاً في الخفاء بين الصحراء والزرع . جانباً عن هذه الكائنات آكلة الفضلات ، فإن ذوات الثدي الوحشية الوحيدة الأخرى في النوبة هي القوارض التى تقيم تحت الأرض مصاحبةً للسكنى الإنسانية في كل مكان . أما الحيوانات الأليفة ، وهي جزء هام من الساحة منذ الأزمان المبكرة ، فسوف يناقش وضعها في الفصل القادم .

حياة الطير وافرة في النوبة موسمياً ، وثمة أنواع مهاجرة جمعة تتبع وادى النيل . وأغلب دالة مميزة للطيور الكبرى هي الأوز البرى ، الذى دائماً ما يرى أزواجاً تتهاذى فوق سطح الماء مباشرة . الكركى وابن الماء كذلك شائعان على ضفاف النهر . أما الصقور فهي الأكثر تعدداً من كواكن النوبة ؛ إنها تُحلق عادةً على نُجوم المستوطنات البشرية . والهدهد المخطط في حيوية بالألوان هو الأشد أخذاً من الطيور الصفراء ، يسير ويندأ مزهوا وسط الحقول ، حائناً رأسه باستمرار . أما الغربان والعصافير فإنها تهاجم المساحات المزروعة وتلحق ضرراً فادحاً بمحاصيل الحبوب .

وهناك أكثر من أربعين نوعاً من السمك معروفة في النيل ، كلها مأكولة بالتقريب . وفرخ النيل عالية القدر لنكهتها تقرباً وإنصافاً . تعكس الآثار أن صيد السمك كان في مرة نشاطاً معيشياً نوياً هاماً ، لكنه على سبيل المقارنة موضع لممارسة قليلة اليوم . وثمة حيوانات مائية أخرى بالنيل ، زواحف مائية كبرى (رول) وتماسيح ، بالرغم من أن الأخيرة تصبح نادرة شمال الشلال الثالث . ولا تزال تصطاد تجارياً بالجنوب النائي لجودها .

أما الزواحف البرية فأقل إنتشاراً بمراحل في النوبة عنها بالمناطق الأشد رطوبية إلى الجنوب . هناك شعبان سامان ، الكوبرا والحية ذات القرن ، وشعابين أخرى غير سامة ، لكنها لا تشاهد دائماً . إن الزواحف نادرة بالمثل بإستثناء الوزغ - الضب - المنقط الذى يسكن البيوت ويظهر على حيطان كل مسكن نوبى خلال موسم النمى (انظر أدناه) .

يجوس الذباب المنزلى حول كل مستوطنة وحظيرة للحيوان ، لكنه ليس بالأعداد الفادحة التى توجد أحياناً في مصر . إن ذبابة (التسى تسى) غائبة مما يدعو للغبطة ، والبعض لا يمثل إشكالاً ، على أن مكانها ، مع ذلك ، تحتله حشرة أخرى متعلقة بوجه خاص بالنوبة هي (النمتى) . إنها مخلوق طائر قارص ، دقيق ، تحلق أسراباً على طول ضفة النهر في سحب طنانة ، كثيفة أثناء أشهر الربيع من كل عام . والنمتى الأسود ، أو نمتى دنقلا ، الذى يوجد بصورة رئيسة بين الشلالين الرابع والثالث ، له لدغة ملهية ، مما يجعل من الضرورى أن تحمي الأجزاء المعرضة من البشرة . وفي قمة إرتفاع موسم النمى ، يلبس المقيمون في أرض دنقلا النهرية الذين يتوجب عليهم أن يغادروا الأبواب قناعاً من الشاش يشبه جورياً فوق الرأس والرقبة . بعض الدناقلة يجعل من الضرورة غير المبهجة مناسبة لإستعمال الأسطح من المواد الملونة في "قناعات النمى" كوسيلة إضافية للزينة الشخصية

، بالرغم من أنها تخفى على وجه التمام تقاسيم الوجه .

التمتى الأخضر ، أو نمتى حلفا ، الموجود أساساً في بطن الحجر والنوبة السفلى ، يحوم بكثافة أشد من أبناء عمومته السود . بخلاف نمتى نقلا ، يوجد داخل البيوت بمقدار ما يوجد خارجها فيكون ويا ، في كل دار نوبية خلال أشهر الربيع . وبالرغم من أنه لا يقرص أو يلسع ، فإن مجاورته تسبب كرد فعل حساسية شديدة لأشخاص عديدين . إعتاد بعض سكان وادى حلفا أن يقيموا في الصحراء ، أميالاً من النهر ، أسابيع عديدة كل عام كيما يتفادوا الآثار الأسوأ للتمتى (١٢)

والعقرب مقيم آخر غير سار بالنوبة . إنها توجد بشكل رئيس في مناطق الإقامة ، ودائماً ما تصنع مسكنها في شقوق السقف . إن غزو العقارب وحشرات سامة أخرى سبب للتخلى المؤقت أو الدائم عن المنازل . ومما يدعو للسعادة أنه ما من واحد من الأنواع العديدة التي توجد في النوبة يملك لدغة قاتلة . وقرص العقارب ، بخلاف لدغات الثعبان ، ليس سبباً للعداء البالغ بين سكان المنطقة.

البهارسيا ، أشد إيذاء من أى شكل للحياة ذكر حتى الآن ، وهى ديدان دقيقة طفيلية على أوعية الدم تسبب فقدان الدم وتلف الخلايا . " الحمى الزاحفة " . كما يسمى المرض في الأوساط الشعبية ، ظلت لعنة جائسة في طول وعرض المناطق الحارة ، وربما أنها ليست سائدة في أى مكان أكثر من وادى النيل . إن اليرقة التى تسبب هذه العلة الفتاكة تنشأ في حالة زحف مائى بطى ، ثم تسبح بحرية في الماء الراكد حتى تجد سائجة لتغزو مجرى الدم الإنسانى ، حيث تبدأ في مهاجمة الكبد وأعضاء أخرى ، ويبدأ هزال تدريجى وتليف عضوى ، قد يتواصل لعشرين عاماً أو تزيد .

لقد قدر أن ٥٠ بالمائة من سكان مصر الفلاحين يقاسون من البهارسيا . والرقم بالنسبة للنوبة يحتمل ألا يكون عالياً ، بسبب جريان النهر السريع وغياب قنوات الري ، لكن المرض منتشر بما لا شك فيه . والمالريا ، والسل ، والتراكوما أسقام أخرى شائعة في النوبة اليوم .

### الموارد الطبيعية

إنتاج النوبة الزراعى المحدود ليس بمقدوره أبداً أن يفعل أكثر من إطعام سكانها أنفسهم . إن الموارد التى كانت المنطقة من أجلها مشتهرة بموالة ، ومغزوة مجدداً ، لم تكن ضرورية إنما كانت سلعاً مرفقة : الذهب ، والعاج ، والأرقاء . بالرغم من أن شيئاً من هذه السلع لم يتأصل بالضرورة بين حدود النوبة ، فقد كان عليها أن تمر خلالها في طريقها لمصر . وجلبت الحركة في الموارد الطبيعية القليل من البؤس لأهل النوبة قرونًا طويلة ، ولكن بمضى الزمن إنقلبوا سماسرة وسطاء ، وكانوا قادرين على اشتقاق ربح معتبر من السمسة .

ويما يكفى لإثارة الغرابة ، كان النحاس السلعة التى يتضح أنها اجتذبت الأجانب أولاً إلى النوبة . ويبدو أن أقدم مستوطنة مصرية معروفة جنوب أسوان ، في بوهين (بالقرب من الشلال الثانى) كرسيت لصهر خام النحاس ، الذى كان يشحن وقتئذ عن طريق النهر بالمركب . أما المصدر الفعلى لل خام فلم يكتشف أبداً . لربما كان قد نغذ سريعاً ، إذ أن عملية الصهر إستمرت لقرون فقط (١٣) وربما أنه كان يوجد بعض إنتاج للنحاس بوادى العلاقى (١٤) ، في النوبة السفلى ، ولكن في أغلب تاريخها كانت النوبة مستورداً ولم تكن مُصنِّراً للنحاس والبرونز .

والذهب ، مع ندرته ، هو المعدن الوحيد الذى يوجد في معظم النوبة . تقع جيوب من خامته هنا وهناك في كافة أرجاء المنطقة الشاسعة حيث يتَّدى المركب البركاني لصخور القاعدة ، في مصر والسودان معاً . والهضبة الصحراوية من وادى النيل إلى البحر الأحمر مبقعة بعشرات من المناجم

وحفر الإستطلاع المهجورة<sup>(١٥)</sup> ، إذ كانت للفراعة شهية شرهة للذهب.

أما الأوفر تعدداً وأشد إنتاجاً من مناجم مصر فكانت ملقاة على طول وادي العلاقي وروافده ، بين النوبة السفلى والبحر الأحمر . إنها تقع في الصحراء بعيداً إلى شرق وادي النيل المأهول ، ولم تكون جزءاً من النوبة ، بيد أن موقفها كان له عيب هام على التاريخ النوبي . بادئ ذي بدء ، ألزمت مصر بأن تسيطر على وادي النيل إلى مبلغ يصل مدخل وادي العلاقي في اتجاه الجنوب ، سبعين ميلاً جنوب أسوان ، كي تبقى طريق القوافل الرئيس مفتوحاً إلى المناجم . ثانياً ، ربما وضعت طلباً مقدراً على النوبة كمصدر للعمل بالمناجم ، بالرغم من أن هذا ليس مثبتاً على التحديد بالمدونات التاريخية .

إن عدداً من أعمال الذهب الأقل إنتاجاً كانت مبعثرة في موازاة وادي النيل نفسه ، بصورة رئيسية في *بطن الحجر* . ولدى المصادر المكتوبة النذر اليسير لتذكره عنها بالنظر لما تقوله عن مناجم الصحراء ، لكنها مثبتة إثباتاً جيداً من الناحية الأثرية . يقع تجمع منتج على وجه الدقة من المناجم في دويشات ، جنوب سمنه : وتوالى نشاط التعدين بشكل متبايع حتى أزمان حديثة .

الحجارة النارية دقيقة التمريق منتوجات نوبية غير عضوية هامة أخرى في الأزمان القديمة . وكان غرائث أسوان الوردى ، مع أنه شديد الصلابة والثقل للعمل كمادة عادية للبناء ، عالي القيمة للإنشاءات المفردة مثل الأعمدة ، المسلات ، والنصب . ولأن إستخدام الغرائث عملي محصور في الصروح الملكية ، كان الطلب بالضرورة محدوداً ومقابلاً في يسر بالمحاجر في الضاحية المباشرة لآسوان . ونوعاً ما كانت المقاطع في الصحراء غرب توشكى (النوبة السفلى) التي يجئ منها الدوريت المحبذ للتماثيل الملكية في الدولتين القديمة والوسطى أكثر نأياً<sup>(١٧)</sup> .

خلال أوج الحضارة المصرية والنوبية كان هنالك تنقيب موسع للحجر الرملي في أجزاء عديدة من النوبة لبناء المعابد المحلية ، إلا أن هذا ما كان أبداً هاماً وقيماً كصناعة للتصدير .

والحيوانات الوحشية كانت وافرة على طول وادي النيل بأجمعه ، وقد أشبعت قدراً من الرغبات والحاجات البشرية . إلا أنه بانتشار الزراعة وتكثفها في النوبة السفلى ، إختفت حياة الحيوان المتأصلة بالتدرج ، وبدأت مصر أكثر فأكثر تعتمد على النوبة في المنتوجات الحيوانية التي لم تعد متوفرة بين حدودها . بين هذه كان بيض النعام وريشه ، وأنواع متعددة من الجلود ، وحيوانات حية لتسلية البلاط الفرعوني ، وفوق كل شيء ، العاج .

نعلم بالمقارنة القليل عن تنظيم تجارة مصر في العاج ، مع أنها مذكورة باستمرار في نصوص تتصل بكوش . إن البعثات العسكرية المصرية فيما يبدو انتهزت الفرصة لتجمع العاج وتوغل داخل النوبة العليا : أما إنهم حصلوا عليه من الوطنيين أو من المصدر الأصلي فأمر غير جازم . ولو كانت هناك أى تجارة للعاج في الفترات الزمنية ما بين الغزوات ، لابد أنها بالضرورة ارتكزت إلى حد ما على ممولين نوبيين . كانت الأفيال ترعى على الأقل في الشمال زمناً حتى الشلال الخامس (٢٠٠٠ عاماً مضت)؛ لقد كان السكان المرويون بالنوبة العليا في ظاهر الأمر هم الذين روضوا في البداية الفيل الإفريقي كحيوان للحرب . واليوم توجد الأفيال في المناطق الإستوائية وحدها بالسودان ، بعيداً إلى جنوب النوبة .

إندثار قنص الوحوش من مصر كُرّر في النوبة ، ربما بمعدل بطئ . وأصبحت النوبة ببساطة ، بدلاً عما كانت عليه كممول أساسي للمنتوجات الحيوانية ، مركزاً للشحن تمر عبره في طريق النوبة صوب الشمال . وكيفما قضى الحال ، تواصلت التجارة في أهميتها حتى أصبحت تفرض عليها الضريبة ، أو تُنهب مرات ، من قبل الساكنين على طول النيل الأوسط .

ما حق بشأن قنص الحيوان كان واقعاً بالمثل بشأن صيد الإنسان . النوبة فوق كل اعتبار آخر

كانت مصدراً للرقائق لمصر الفرعونية . فأعداد الأسرى لابد أنها كانت هائلة ، ولو أنها مبالغه في بعض ألواح الفتح معنّ بها . كانت تجارة الرق قطعاً هدفاً أولياً للحملة العسكرية المصرية المتعددة في مواجهة النوبة ، وإنه لجدير بالذكر أن هذه العمليات ظلت باقية ، بذريعة واحدة أو أخرى ، رديحاً طويلاً بعد أن أخضعت المنطقة إسمياً وضُمت لمصر نفسها . في أزمان متأخرة أضحي النوبيون بدورهم غزاة للرقاب مثلما كانوا تجاراً فيها ، والقبائل الأكثر بدائية ضحايا رئيسة بعيداً جنوب النيل.

استمرت حركة الرق عبر النوبة في إكتساب الأهمية زمناً طويلاً بعد غروب الشمس عن مصر الفرعونية . لقد كانت الموضوع الرئيس لمعاهدة التجارة بين مصر والنوبة ، التي أبرمت في ٦٥٢ م ، وظلت نافذة طوال العصور الوسطى <sup>(١٨)</sup> . كذلك كانت الاعتبار الرئيس الذي حداً مصر لإعادة فتح السودان في بداية القرن التاسع عشر ، فالتدخل اللاحق لبريطانيا العظمى ، وأخيراً عصيان المهدي المسلح الذي ابتلع القطر في نهاية القرن <sup>(١٩)</sup>.

---

(\*) لم يستخدم المؤلف عبارة " الثورة المهدية " ، إنما وصّفها بالعصيان - المترجم.





## الفصل الثاني

### سكان الرواق

مَنْ النوبيون ؟ لا يمكننا أن نتحدث عنهم ببساطة أنهم سكان رواق النيل ، إذ أن هذه الأرض ندر ما كانت حكراً مطلقاً لأي شعب . إن الفاتحين الغرياء ، والتجار الدخلاء والمغامرين ، والبُدو الأصدقاء والأعداء على السواء مسحوا الاكتاف دائماً مع سكان النوبة الفلاحين الأصليين . وقد أسهموا غير قليل في تأريخها الثقافي والسلالي بالمثل . مع ذلك ، فإن الفلاحين النهرين المستقرين ، المنحدرين بكل الإحتمال من سكان النوبة الأوائل ، هم الذين سنعنى بهم في كل هذا الكتاب ، والذين نصِفهم كنوبيين<sup>(١)</sup> .

بإمكاننا أن نفرق النوبيين الحديثين عن بعض جيرانهم على أسس عرقية ، وعن آخرين على أسس ثقافية ، والدليل العرقي غامض . سنكون ملزمين في كثير مما أمضاه التاريخ باستعمال الإصطلاح «نوبي» بحس ثقافي ، ونشير إلى الأقوام الفلاحية المستقلة بواى النيل فيما يتلو أسوان<sup>(٢)</sup> الذين تأثرت ثقافتهم بقوة ، ولو أنها لم تُشَقْ أصلاً من مصر ، بجيرتهم المصرية . ولا يسعنا دائماً أن تجزم بالصفة السلالية ، أو العرقية ، أو اللغوية لهؤلاء الناس ؛ ربما لأنهم يختلفون إلى حد ما من منطقة لأخرى ومن عصر لآخر . مع ذلك ، فإن معرفتنا بهم جرت في المقام الأول من خلال ما تبقى من ماثورهم الثقافي (أى غير علم الآثار) ، وهنا نرى دليلاً من تواصل عام للتطور طوال التاريخ النوبي ، بغض النظر عن غزو ورواح أقوام معينة على وجه التخصيص . إنه بهذا الخط المستمر من التطور الثقافي ، بدلاً عن أحداث التاريخ يمحض ذاتها ، يكون عناؤنا مُصنَّباً بالدرجة الأولى .

« النوبي » اليوم ، مع ذلك ، أقل معنىً كإصطلاح ثقافي مما كان عليه في الماضي ، إذ أن توسع الزراعة والتبني العام للإسلام قد أزالا تدريجياً الفوارق الثقافية بين النوبة وأقوام أخرى من فلاحى السودان . فالكلمة تعنى اليوم ، في مصر والسودان ، معنىً أشد تقييداً ، لتوصيف أقلية عرقية ثقافية معلومة ذاتياً ومحددة تحتل النيل بين الشلالين الأول والرابع . هؤلاء الناس متميزون سلالياً عن أغلبية المصريين ، مع أنهم ليسوا كذلك متميزين من أقوام سودانية أخرى ، بفضل نسبتهم العالية بقدر وافر من الدم للزنجى . إن ما يفصل بشكل رئيس ما بين النوبيين الحديثين وبين جيرانهم الجنوبيين هو لغتهم ، التى تنتمى إلى عائلة إفريقية قديمة ( سودانية شرقية ) سابقة لدخول الإسلام والعربية . أما المقيمون على النيل ما وراء الشلال الرابع إلى الجنوب ، فقير متميزين عرقياً من النوبيين ، وكانوا فيما مضى متحدثين باللغات النوبية أيضاً ، لكنهم اليوم يتحدثون العربية وحسب . هؤلاء الناس لم يعودوا مُعْتَبَرين ، وهم لا يعتبرون أنفسهم ، نوبيين . وباختصار : النوبي باقٍ على قيد الحياة محاطاً من كل الجوانب بالعربية ( الشكل رقم ٨ والشكل رقم ٩ ) . ومن الأهمية مع ذلك إدراك أن الناس الذين ندعوهم والذين يدعون أنفسهم نوبيين ليسوا بالأحفاد الجحيدين للنوبيين بالأمس ، وأن مرتع سكانهم في اليوم الحاضر لا يشكل أكثر من نصف النوبة التى عاشها القدامى . برغم هذا ، فإنهم النوبيون المطلون ذاتياً في الوقت الحاضر الذين تحتفظ ثقافتهم في إكتمال ممكن بكل ما ظل باقياً من الماضى ما قبل الإسلام ، والذين يُسَلَّمون بحس معين من الهوية مع السكان الأوائل للمنطقة<sup>(٣)</sup> . إن هؤلاء الناس هم الذين سنوليهم اهتماماً في المقام الأول ، إذ يمثلون آخر ما أنتج من العمليات التاريخية التى جرى اعتبارها في هذا الكتاب . هذه الثقافة

الحاضرة لديها الكثير لتخبرنا به حول نوبة الماضي ، وسوف نكون ملزمين بأن نتجه إلى البنية العرقية والسطحية مرة أخرى في سعينا لإعادة بناء الثقافات من الأزمان الباكورة .

ربما يبلغ عدد النوبيين اليوم ٢٠٠.٠٠٠ فرد يعيش منهم حوالي الربع بمصر ، والبقية في السودان . لقد شكوا قبل بناء سدود أسوان ما يقارب كتلة سكانية متواصلة على طول وادي النيل بين أسوان في الشمال والدة ، بسفح منحني النيل العظيم ، في الجنوب كانت هناك ، مع ذلك ، جيوب لمستوطنين غير نوبيين بين «قلب الأرض» النوبية . كذلك كانت هناك ، ربحاً طويلاً قبل أن تجعل السدود من الهجرة الخارجية ضرورة ، مستعمرات متناثرة لنوبيين يعيشون وراء حدود وطنهم ، في مصر والسودان .

### الخصائص الجسمانية

زائر القاهرة أو الاسكندرية سوف يلقى أعداداً معتبرة من النوبيين ، عمالاً بالمطاعم ، وخداماً وسائقين لعربات الأجرة . فإذا قان ملامح وجوههم والوان بشرتهم البنية كالكهوه الممزوجة بسكان مصر من ذوى البشرة الفاتحة لربما ظنهم بائ ذى يده زنوجاً . وإن الزائر للخرطوم ، عاصمة السودان ، سوف يلتقى كذلك كثيراً من النوبيين ليسوا كعمال بالمطاعم وسائقى عربات الأجرة ، إنما في كل مستوى للمجتمع والحكومة إلى درجة تشمل وزراء بمجلس الوزراء . وعندما ننظر لملبسهم ومسلكهم ، ويقارنهم بالسودانيين الجنوبيين والغربيين الأشد حلكة والذين يُكونون غالبية سكان الخرطوم العاملين ، ربما يكاد يعدم بشكل أساسى عَرَباً .

إن وصفهم بأنهم زنوج وعرب صحى إلى حد ما حيث يملك النوبى نسبةً أعلى بكثير من المصرى دماً إفريقياً ، ربما تبلغ ٥٠ بالمائة من تركيبه الوراثى الكلى . والنوبيون في نفس الوقت أعظم إسلاماً على وجه التمام من كل سكان السودان ، بنفس القدر الذى يتعلقون فيه بلغة أم إفريقية خالصة . وهم في اللباس والسلوك يتبعون الأعراف المتبعة في الزمان لحالهم العرب ( قارن الصورة ٣ - ١ ) .

نوبيوا اليوم - يختلفون قليلاً عن أناس آخرين كثيرين في السودان الشمالى . يعرضون توليفة قديمة ، ثابتة من العناصر الإفريقية الزنجية وقوقازية البحر الأبيض المتوسط . أغلب لون شائع للبشرة بنى خفيف فأوسط - هو لون الهنود الأمريكيين الشماليين أو البولينيزيين تقريباً ، لكنه من غير الطابع البرونزى . ويتفاوت الأفراد بدرجة معتبرة في اللون ، كيفما كان ذلك ، فلقد وقع تزواج متداخل دائم من جانب واحد مع رقيق حالك من الجنوب ، ومن الجانب الآخر مع مصريين وأقوام أوروبية من مناسبة لأخرى كانوا يحرسون تخوم الإمبراطورية العثمانية .

وبعيداً عن لون البشرة ، فإن السلالة الإفريقية مطعة على الملا كشذب ما تكون بروزاً عليه في شكل شعر النوبيين ، وكأنه دائماً مكشوط أو معقود . الشفاة المقنطرية بظناً للظهر شائعة ؛ لكنها ليست شاملة بائ حال . وكثيرين من النوبيين يملكون الملامح الحادة ، المعقوفة المميزة للعربى الأصل . أما تشطيب الوجه العمارس من قبل أقوام كثيرة بالسودان ، فلا يرى إلا أماماً بين النوبيين في حالة الجماعة بأقصى الجنوب (الدناقلة) . الشطوب محصورة على الخدين ، تأخذ في أكثر الأحيان شكل ثلاثة متوازنة ، أفقية على كل حد . وثمة أنماط أخرى أفقية قصيرة ثلاثة ، أو في شكل الحرفين H أو T .

غالبية الأفراد في قوامهم وينيتهم يعتبرون وسطاً . فالنوبيون في المتوسط ربما يطولون بوصة على المصريين ؛ وهم بمستوى ملحوظ أقصر من العمالة النيليين في السودان الجنوبي . والسمة المفرطة ممتئة ، إلى نقطة ما ، كعلامة للجمال في النساء وإشارة لرغد العيش للرجال ، بحيث

يصادف الواحد كثرة عظيمة من الأفراد على بناء متين ، بوجه الخصوص وسط أولئك المعمرين منهم . إجمالاً يميل النوبيون اليافعون للرشاقة وقوة البنية . على أنه قلما تُشاهد الرشاقة المتناهية لسكان جنوب السودان (٣) .

### الصفات الثقافية

أما في الجانب الثقافي فقد امتص نوبيو اليوم معظم المآثر الإسلامية لجيرتهم الشمالية بينما احتفظوا ببعض صفات أصلية بقدر متكافئ . ومع أنهم يعتزون إلى حد ما بهويتهم العرقية المتميزة ، يعتبر كل النوبيين أنفسهم إضافة إلى ذلك عرباً ، ويمكن لمعظمهم أن يتتبع تحدره من النبي أو من واحد من الخلفاء الأوائل ، كما ينبغى على المسلم التقى (٤) . والعربية هي اللغة الثانية لأغلب السكان الذكور ، واللغة الوحيدة المكتوبة . يحتمل أن ٥٠ بالمائة من الرجال النوبيين بوسمهم أن يقرأوا ويكتبوا على الأقل بضع كلمات . والعربية وسط النساء النوبيات أقل شيوعاً بكثير ، والكتابة تكاد لا توجد .

كغيرهم من الأقوام الإفريقية ، تحول النوبيون في الحقيقة منذ أمد قريب للغاية إلى الإسلام . وعلى غير ما عليه جيرانهم ، مع ذلك ، ما كانوا وثنيين ، فلقد كانوا مسيحيين طوال العصور الوسطى ، وقبل ذلك إبتعوا متواليه من ديانات الدولة ذات الأصل المصري . بالتالى لا يصادف الواحد في الثقافة النوبية المتبقيات الحية البدائية تاصلاً التي ثرى بارزة للغاية في غرب السودان أو نيجيريا . وهناك بدلاً منها بقايا حية من القرون الوسطى المسيحية والمصرية القديمة علاوة عليها .

النوبي في عالم اليوم بأي حال كان ، عربي الثقافة بمقدار ما عليه الفلاح المصري . حقيقة ، ويبرزه في بعض الجوانب ثقافة عربية ، إذ أن ثقافته ظلت سواء بسواء أقل تغييراً بالنسبة لأثر النفوذ الغربى . وربما يكون ذلك هو الفارق الثقافى المتفوق بين مصر والنوبة اليوم . لقد تم تحويل الأرض الشمالية تدريجياً وإن كان حتماً إلى أمّة حديثة ، جرى تصنيعها جزئياً ، بينما السودان متعلق ، قدرأ ما ، بتقاليد إسلام القرون الوسطى . والإنسان النوبى ، خلافاً للمصرى ، غالباً ما نراه لايسأ الجلابية العربية الماثورة والعمامة ، ( الصورة ٣ - ١ ) تفضيلاً على اللبس الغربى ، ويحفظ نساءه في عزلة بتشدد غامر . والنسوة النوبيات لا يأخذن بالحجاب فعلياً ، لكنهن على الدوام يلبسن خارج الأبواب جلباباً خارجياً أسود قفصافصاً ، ( ثوباً ) فوق الرأس والاكتاف ، يُجذب هذا على الأقل بتلقائية ليستغشى ألفم عندما يقترب غريب . والنوبيون كذلك بشكل بارز للعيان أكثر تنهباً لصلواتهم اليومية من جيرتهم المصرية ويقومون - على الأقل علناً - بجهد مخلص للمحافظة على صوم رمضان .

### اللغة

الصفة الوحيدة للنوبيين الحديثين التي تظل إفريقية كلية بما لا خطأ فيه هي حديثهم الأصلي . واللهجات النوبية تنتمى إلى العائلة السودانية للغات التي كانت موزعة على نطاق واسع متواصلة على كثير من بلدان شمال شرق إفريقيا . وتشكل النوبية جماعة فرعية متميزة بين العائلة السودانية ، لا

(٣) الشائع بين المسلمين في شمال السودان الإنتساب إلى الأتساب العربية بشكل عام ، والقبايل العربية خاصة ذات الصلة الأقرب بالبيت النبوى الشريف . ويميل بعضهم إلى إدعاء نسب مباشر بالبيت الشريف ؛ وهناك قلة من العائلات وثيقة الصلة عرقياً بكل البيت ، ومن هؤلاء أولياء لطريق صوفية معروفة مثل الطريقة الميرغنية الختمية . أما أغلبية المسلمين السودانيين فربما يقيمون رابطتهم بالعروية على حقائق التراث اللغوى الثقافى المتجذر فى البلاد أساساً ، ويرجعون رابطتهم الروحية بالبيت النبوى الشريف كأسمى عائلة عربية مسلمة على أساس الصديق النبوى المعروف «النبي جئ كل مسلمة الذى يُعلم من شأن القراة النبينة على الناحية العرقية - المتزوج.

تملك قرابة لصيقة سوى ببعض اللغات المعزولة في غرب السودان . والأشد بعداً عنها من حيث القرابة لغات الشلك ، النوير ، الدينكا ، الماساي ، وقبائل روحانية<sup>(٥)</sup> أخرى في جنوب السودان وأقطار مجاورة . إن الحقيقة القاضية بأن اللغات النوبية ليست لها قرابات لصيقة بأي مكان آخر (مع الاستثناءات التي ذكرت للتو) تُعَدُّ مسألة تتبع الأصول للنوبيين ، كما سنرى في صفحات لاحقة<sup>(٦)</sup>.

يُقسَم نوبيو وادي النيل إلى ثلاث جماعات ناطقة : الكنوز ( مفردا كنزى ) بالشمال ، المحس في المركز ، والدناقلة ( مفرد ، دنقلاوى ) في الجنوب . اللهجات الشمالية والجنوبية منها متبادلة الفهم ، بما يكفي لإثارة الإستطلاع ، ويقال : إنها تُكوِّن لغة واحدة (دنقلا - كنوز) ، في حين أن اللهجة المحسية التي تقع بينهما متميزة بشكل مرموق . النوبيون المحس ملزمون بالتحدث مع الجماعتين الأخريتين بالعربية ، كما يفعلون الشيء نفسه مع الأقوام غير النوبية . والعربية إلى جانب ذلك هي اللغة الوحيدة المكتوبة اليوم ، مع أنه في العصور الوسطى وُجدت صيغة قديمة من اللهجات المحسية ( النوبية العتيقة ) مكتوبة .

إجمالاً اللغات النوبية توفر لناطقها حساً بالهوية الخاصة ، لكن إختلافات اللهجة فيما يبدو غير مدركة بنفس الطريقة . يعمل النوبيون أفراداً لتعريف أنفسهم بالمنطقة . كدناقلة أو أسوانيين - بدلاً عن اللهجة ، محسية أو كنزية .

### الحياة في النوبة

على مسافة ٢٠٠٠ ميل من الخرطوم إلى البحر ، يصير وادي النيل في الغالب الأعم أرضاً من قرى الطين والحقول الصغيرة . وإلى درجة ما يتقاسم الفلاحون المصريون ، النوبيون ، والعرب السودانيون على السواء حياة المزارع الفلاح القديمة مدى الدهر ، المشدودة للأرض . بين ذلك الإطار المتعنت ، مع هذا ، هناك فروق في نمط الحياة والنشاط الإنساني ؛ وهي فروق تعود إلى التنوع البيئي من ناحية وإلى الخلفية التاريخية والثقافية من ناحية أخرى . ولا تزال الحياة في النوبة تتميز بملامح لا يتوفر مثله في مصر أو وسط السودان .

ربما يكون أغلب وجه مرئي مميّز للثقافة النوبية هو البيت النوبى ، إنه كبير وفسيع بدرجة لا تجارى بمصر ، أو أي مكان آخر في السودان . فالمسكن الحديث المألوف ، فيما عدا بالشمال البعيد ، مبنى من الجالوص ( لبن أو طين مرصوص في صفوف أفقية بكثافة قدم واحد تقريباً ) ، ويتكون من حجرات واسعة عديدة تحيط بفناء مفتوح . حجرة واحدة ، قريبة من واجهة الدار ، سوف تكون دائماً مزخرفة بوجه خاص ومؤنثة لإستقبال الضيوف . وحجرة أخرى ، عادة إلى جوار مؤخرة البيت ، ترفع أرضيتها وسقفها لقدمين أو ثلاثة أقدام فوق الغرف ببقية الدار ، وتُجَعَل غير مسورة في جانب إتجاه الريح (شمالاً) . هذه الحجرة ، المصممة لقبض النسيم ، تخدم كشرقة مسقوفة للراحة وتجاذب أطراف الحديث أثناء موسم الحُرور . وثمة حجرات أخرى تؤدي الدور المطلوب لإعداد الطعام ، والنوم ، وتخزين الحبوب والممتلكات وخطائر للأغنام<sup>(٥)</sup> . المقيمون العاديون بأي دار أزواج مع الأطفال ، بالرغم من أن والدى الزوج وأشقائه أو أخواته ممن لم يتزوجوا بعد ربما يعيشون فيها ، فإذا كان لرجل زوجتان (وهو أمر نادر ، بالمقارنة في النوبة اليوم) ، فكل واحد منزل منفصل .

وهناك ملمح يسترعى النظر في منزل النوبى الحديث ، واجهته ذات الزخرف الرائع تحيط

(٥) قصد المؤلف غير واضح من كلمة Pagan (وثنى) التي يشيع فهمها على أنها تعنى عبدة الأوثان أو من لا دين لهم . إن من أهل السودان من لا يعتنق ديناً سماوياً معروفاً ولكنهم يؤمنون بتبيان إفريقية قديمة يشار إليها بالمعتقدات الكريمة في دساتير السودان . وراينا لذلك أن نترجم الكلمة إلى «روحانية» بدلاً عن «وثنية» منعاً لرجح تلك المعتقدات بأي وصف يستهين بحقوق أهلها في حرية الاعتقاد الدينى - المترجم.

بالمدخل الرئيس ، وتفتح مباشرة إلى داخل فناء البيت . وفي مساكن المحس والدناقلة ينقش السطح الطيني المنبسط للواجهة بأنماط هندسية مُفصّلة في حتر نافر خفيف ؛ إضافة إلى ذلك تُسَمَّح أحياناً كثيرة بالجير الأبيض (الصورة ٢ - ب) . تُصَفَّى أطباق الصيني المغروسة في الرسوم طابعاً زخرفياً ضافياً . بمقردها أو في جماعة ، ربما تثبت داخل الحائط فوق كل باب في الدار . وفي الشمال ، لمساكن النوبيين الكنوز في العادة رسوم متعددة الألوان ، ربما تُدَنَّر حائط البيت الامامي برمته بدلاً من الزخرف المنقوش <sup>(١)</sup> .

قد تكون السقوف من عروق النخيل المفصومة (الجريد) مغطاة بالطين ، أو ربما تكون في بساطة عشباً أو حصائر منسوجة ، تُسَجَّى على كتل خشبية من السُّنْط والنخيل . وما فتى الكنوز النوبيون في الشمال يفضلون سقف الطوب المعقود الذي يعود للأزمان القديمة والقرون الوسطى . وتصنع الأرضيات من طين معجون صلب ، ومعظم البيوت مبنية في شكلها العام بفتحات لنوافذ مستطيلة متعددة ، لكن هذه غالباً ما تسد بالطين في المعتاد ، فيما عدا كوة بالأعلى ، ذلك أن مغالق النوافذ غالية الثمن ولابد أن تستتري في العادة من التجارين المتجولين . كيفما الحال ، فإن الإستقبال ، أو غرفة الضيوف على الأقل في معظم المنازل تهيأ بمصاريع ذات مفصلات لامعة الطلاء معظم الأحيان . الأبواب عادة ثقيلة وحسنة الصناعة ، وهي من ثلاثة ألواح ثقيلة الوزن مشدودة الوثاق بمسامير محلية الصنع . إنها غير مغلقة ، وكلها ترتكز على مسند رأسي مثبت على أعلى الحائط ، قائماً على حجر محوري مجوف من أسفله . أما القفل فهو مزلاج خشبي زلق ثقيل ، والأبواب الامامية مجهزة بأقفال خشبية حاذقة من صنع الدار ، تحمل مكرراً زينة محفورة <sup>(٢)</sup> .

قطعة الأثاث الشائعة الوحيدة في المساكن النوبية هي *العنقريب* ، أي سرير وطني صميم مصنوع من الحبل المفتول أو عروق النخل المشقّق مدودة على قالب خشبي ، مع رجل في كل ركن ، وربما يوجد العديد منها بكل غرفة ، لأنها تُحال موائد ومقاعد بمقدار ما أنها أسرة . كذلك تشاهد في المناسبات مناضد ذات ثلاث أرجل مصنوعة من ألواح الحديد . ومعظم المنازل لها مسطحات مرتفعة (مساطب) ، مبنية بالطين بمحاذاة بعض الأسوار بين الحجرات وفي الفناء الرئيس على السواء . وتودع الملابس والأمتعة الشخصية في صناديق أو أوعية محكمة .

يختلف البيت النوبى الكبير في الوقت الحاضر اختلافاً بيناً عن مساكن مصر الأصغر كثيراً والأشد ازدحاماً وعن منازل وسط السودان <sup>(٣)</sup> . إنه ، مع ذلك ، تطور بادئ الجدة ، أبذل إلى النوبة من الجنوب أو الغرب في الأزمان الحديثة <sup>(٤)</sup> . لقد انتشر فيما يظهر باتجاه الشمال من الشايقية إلى النوبيين الدناقلة والمحس <sup>(٥)</sup> ، لكنه لم يتبين من الكنوز في الشمال . إن منازلهم الملبّدة ، المعقودة كنصف دائرة من الطوب الطيني (بدلاً عن الجالوص) تحفظ التقاليد المعمارية للنوبة في القرون الوسطى .

كذلك يُرى في كل قرية مظلات مستطيلة خفيفة تعرف *بالراكوبة* (حرفياً ، « قابلة للنقل » ) ، مصنوعة من حصائر من القش موثوقة إلى هيكل من أعمدة رأسية وأفقية . تأتي الراكوبة في تشكيل من الأحجام والأشكال ، معتمدة في ذلك على عدد الحصائر والأعمدة المتوفرة وغرضها المقصود . إنها تقوم بدور مظلات صيفية مؤقتة بالقرب من الحقول ، وفي بعض الأحيان كمظلات للحيوان .

مثل كل شعوب الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، يفضل النوبى الإقامة في القرية . إن قراه ، مثل بيوته ، تفقد الضيق والكثافة التي تميز مصر (قارن الصورة - ١) . قد تتفاوت القرية النوبية في الحجم من منزلين أو ثلاثة إلى عدة مئات من المساكن ، وتقوم أساساً على مقدار مساحة الأرض المغلقة والموجودة محلياً . في أشد الأماكن المأهولة على قدم المساواة ، مع ذلك ، نادراً ما تبني البيوت في تلاحق مع بعضها البعض مباشرة . والبنائات الأعلى من طابق غير معروفة . وتتناثر في المناطق الفقيرة مثل *بطن الحجر* المنازل غالباً في تجمعات صغيرة للغاية ، وفي أحيان بعزلة كاملة

علاوة على ذلك ، في حين أنه بالأماكن الأكثر رخاء تكون صفاً متواصلاً في تطوح على طول جانبي النهر . في هذه الأمكنة من العسير عادة أن يُحدد أين تبدأ قرية ما وتنتهي الأخرى . ويقام المنازل عادة وراء الحقول مباشرة ، على الهامش ما بين الصخراء والسهل الفيضي . حيثما كان متاحاً تشغل أرضاً مرتفعة ، لتخرج عن أجة الفيضان <sup>(١١)</sup> .

وتتشابه المباني تقريباً في القرية النوبية المألوفة ، إقامة خاصة بأجمعها . يدير أصحاب الحوانيت ، إن كان منهم أحد ، العمل في حجرة واحدة أو أكثر بين ظهراني مساكنهم العادية . القرى الكبرى وحدها لها متاجرٌ متخصصة ودور لشرب الشاي ، ومساجد صغيرة .

ما من حاجة للقول ، أن المريحات والمنافع العامة الحديثة لا توجد في النوبة ، خلا قبضة يد من المراكز الإدارية . فدورة الحياة والنشاط تترافق وثيقاً مع ساعات النهر ؛ وما يُقتضى من ضوء بعد انسداد الظلام يؤخذ بشكل رئيس من مصابيح الجاز (الكيروسين) . والفحم هو الوقود الأول لإعداد الطعام وللحرارة ، مع أن مواقد الجاز مستخدمة أيضاً . إن المساكن النوبية غليظة الهواء مصممة تصميماً جيداً كي تبعد حرارة الشمس ، لكنها يمكن أن تكون باردة ببرودة غير مريحة في الشتاء . ولأنه ليست هنالك مدافئ والخشب قليل ، فالدفاع الوحيد قبالة البرد هو أن يلتفت الإنسان في ملابس دافئة . وربما يستجمع كوماً صغيراً من الفحم . ويميل النوبيون لأن يقبلوا حرارة الصيف القارحة بإذعان طيب مرح ، لكنهم يجأرون بالشكوى من نوبات الشتاء الباردة ، صارخين في احتجاج وسخط . إن النيل ، بالطبع ، هو المصدر العمومي للماء ؛ وحمل الماء ( غالباً في صفائح الجازولين سعة خمسة جالونات موزونة على الرأس) إلزام في المقام الأول للنباتات النوبيات .

إنهما وجدت المنازل ، فالحقول وحدائق النخيل غير بعيدة أبداً . تقدم مساحات بالنوبة مفضلة قليلاً ، مثل أرض دنقلا النهرية ، مناظر من حقول عريضة ، متماوجة جذيرة بالوادي العظيم لمصر نفسها . والانشدُ ميزةٌ بكثير رُفْعٌ صغيرة غير منتظمة من الزرع على طول ضفة النهر ، مفصولة بممر عريض من الكتبان أو المرتفعات الصخرية . كل مساحة مزروعة تشكل متاهةً من مواقع مستطيلة دقيقة مرتبة على طول شبكة من قنوات صغيرة (الصورة ١ - ١) ، وتتغذى جميعها من واحد أو أكثر من ساحبات المياه التي يجرها الثور (السواقي) . وقد تسهم عائلات عديدة في بناء وتشغيل ساقية ؛ ولكل حقوقي في الماء معروفة بدقة تعتمد على مساهمتها بالمواد والعمل . هذا النمط عالي الشكلية من التبادل ربما كان قوة تكاملية في المجتمع النوبي منذ إدخال الساقية قبل ألفي عام .

تميل الحيازات في الأرض المروية لأن تكون صغيرة عبر الوراثة ، إضافة إلى ذلك أصبحت شديدة الإنشطار . إن فرداً ربما يملك حقولاً في ضاحيات مختلفة عديدة ، وقللاً هميماً ربما يطلع حقولاً إضافية مستأجرة من جيرانه . أحياناً كثيرة جداً ، رغمًا عن ذلك ، يكون المستأجرون من غير النوبيين ، وأحياناً من غير السودانيين ، فالنوبيون يفضلون دور المالك على دور المستأجر . وبسبب الحيازات المنشطرة تصون العائلات مساكن في قرى مختلفة عديدة تنتقل حولها من حين لآخر .

ولوصف الفلاحة النوبية الحديثة ، لا يمكنني أن أفعل أحسن من نقل عمل بروس تريقر المرموق التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى <sup>(١٢)</sup> .

هنالك ثلاثة أنواع من الأرض القابلة للزراعة في وادي النيل : أرض السُّوكة ، وأرض الساقية والشادوف ، وأرض الحياض . الحوض منخفض ، ويقع عادة ما بين الحواجز الطبيعية للنهر والصحراء ، التي توجه إلى داخلها مياه الفيضان (لدى ارتفاع منسوب النيل) والتي يمكن تصريفها بعد أن تكون الأرض قد عُثرت تماماً . وتوجد في مصر أحواض كبيرة تقسم في العادة إلى أقسام صغيرة ، وتمرر الماء من الحياض الأعلى إلى الأدنى بعد الإبقاء عليها لفترة من الوقت محددة أنقاً . أما الحياض بين الخرطوم وكربة فاصغر وأبسط من المصرية ؛ لكل واحدة قناة مغنية ، ومجرى تصريف واحد أو أكثر ، تقسيمات داخلية قليلة . تسمح الحياض بالإستعمال الفاعل للماء لكنها

تتطلب تنظيمًا وتعاونًا بين أعداد كبيرة من الفلاحين .

وأراضي الساقية حقول ، لأكثر الأحيان تعلو على منسوب إرتفاع الماء ، وتُروى بساقية للماء يجرها الثور تسمى *الساقية* . وبعض هذه الحقول طبيعية ؛ وأخرى شيدت بجهد جهيد بالطمي المجروف من رواسب طبيعية على جانب الوادي والساقية . التي أنشئت في مصر بالأزمان الإغريقية . مبنية من الخشب وتشتمل عجلة بمتارس معلاة أفقيًا على محور أفقي يعمل على مدد للماء . ويبرز عمود أفقي من الجزء الأعلى للسور يُعقل إليه حيوان أو إثنان لعناء الخمة . هذه العجلة تدفع عجلة أخرى راسية كبيرة شُدت عليها سلسلة من القوايس أو صفائح الجازولين على حبلٍ لا نهاية له . وعندما يدفع الثور العمود ، يمتد كل إناء بدوره ويحمل إلى قمة العجلة حيث يفرغ إلى حوض مبنى من الحجارة والتراب ، ينقل الماء إلى الحقول . وربما يجرى تشغيل هذه السواقي بزواج من الثيران وبعضها يظل في العمل عشرين ساعة في اليوم ، ويعتمد الثيران بالرعاية عادةً صبي يافع .

بوسع أرض الساقية أن تقيم محاصيل ثقيلة تزرع في العادة بكثافة . ولكيما يحافظ على تدفق المياه ويؤشّد إتجاهها ، تُقسم الحقول إلى حياض مغمورة صغيرة مفصولة عن بعضها البعض بأسوار ترابية صغيرة . وأرض الساقية يمكنها أن تدر إلى ٣٠٠ مكبلاً من القمح للفدان (١٢) . ولا تزيد الحياض الكلية التي تُسقى بالساقية في المعتاد عن ١٠ أفدنة ( الفدان يقل شيئاً ما عن الأكر ) ، يجرى العمل فيها بحوالي الثلث في المرة الواحدة . تتفاوت المساحة التي يمكن رعيها وفقاً للإرتفاع الذي يجب أن ترتفع إليه الماء . ولدى إرتفاع النيل رفعةً من مترين ، قد تروى الساقية ٤ أو ٥ فدادين ؛ خلال الشتاء ، عندما يمكن الرفع حتى ٨ أمتار ، وربما تسقى ٢٫٥ فداناً فحسب ، وأثناء الصيف الباكر عندما يكون النهر منخفضاً والتبخير عالياً ، يمكن أن تسقى فداناً واحداً إلى ١٫٥ فداناً . فإذا كان السهل منخفضاً وعريضاً ، فإن السواقي الواقعة بعيداً إلى الوراء من النهر ربما تجذب الماء من ينر . على امتداد شرائط النهر الخصبة ، يمكن أن توجد السواقي على مسافات لكل ٣٠٠ ياردة .

الساقية غير فاعلة كوسيلة للرفع ، إذ أن جزءاً حسم الإعتبار من الماء المرفوع مفقود ، ويجب أن يذهب نصف المحصول بالتقريب لتغذية الثيران التي تجر الآلة ، مالم يتوفر علف طبيعي . فإذا لم تكن القرية مغمورة تصبح إما مألحة أو مغطاة بالرمل بما يدعو لأن تغطي دائماً بسماد ترابي من المدرجات الكامنة دون مقدرة للرى الزافع على بلوغها . هذه التربة تسمى *سبحاً* . إن فائدة الساقية الرئيسية أنها يمكن أن تصنع من مواد محلية وإصلاحاتها قليلة ، والإصلاحات الكبرى يمكن إيجادها بسهولة . ولكونها وحدة مستواء ذاتياً فإنها ملائمة بشكل مثالي للإستعمال في حيازات الأرض الفردية للصغيرى .

*الشانوف* فَوْن ذكره بمصر أولاً في الدولة الجديدة . وهو لا يعدو أن يكون أكثر من رافعة بثقل موازن لها قانوس على إحدى طرفيها - سهلة التركيب والتشغيل باليد . يمكنها أن ترفع الماء إلى علو ٢ أمتار ، إلا أنه كلما زاد علو الرافعة ، تقل الضربات التي يمكن أن تحرز في الدقيقة . ويرفعه مترين يمكن للشانوف أن يسقى حوالي نصف فدان ، وهو يستعمل عادةً لرى وقع الخضروات أثناء موسم الفيضان (١٤) .

على الجزء الخصيب من السهل الفيضى تتكون *أرض السلوك* من ضفاف وجزر النهر التي تستقبل بلاً يكفى أثناء الفيضان النبلى السنوى لإنتاج محصول ، دون أن تحتاج إلى ذواة إضافية... ويتفاوت حجم أرض [السلوك] وتضاريسها في المساحة من عام لآخر متى انزلت الضفاف أو الجزر بعيداً أو ترسبت تربة جديدة . ينحصر زرع *السلوك* في موسم إنبات مفرد ، يتطلب جهداً أدنى ويقل مدى عريضاً من المحاصيل بأقل تكلفة ( تأخذ اسمها من حقيقة أن المحاصيل المزروعة هنا لا بد أن تثبت مفردة بعضاً حافرة ، أو سلوك ، بدلاً عن الزرع المبهوث كما في حالة أرض الساقية . ومحاصيل العلف منتوج هام لأرض السلوك ) . وتقلع الأسر رقعاً صغيرة من أرض السلوك على مسافة معقولة من مساكنها ، في الأماكن التي تندر فيها الأرض الصالحة ....

يمتد موسم الزرع (*الشتنوى*) في الشتاء من نوفمبر حتى مارس وهو الوقت الذي تشجع فيه الأحوال المعتدلة على نمو القمح والشعير . يقول بورخارت : بعد الفيضان مباشرة أنبت الفلاحون البخن (الذرة كما يسمى محلياً)، الذي وفرت سيقانه العلف لبقريه لباقي العام . ثم أنبت الشعير ، الفول ، التبغ ، العدس ، البسلة ، والبطيخ . أما

القمح فقيل إنه كان نادراً . محاصيل الصيف (الصيفية) كانت أقل وفرة واشتملت بصورة رئيسة على الذرة ، وخفضت محاصيل أخرى خوفاً من أن النهر بما يبدأ ثانية في الفيض قبل أوانه ويتلف المحصول قبل حصانه . أما المحاصيل المعمرة مثل الحراز ( الخروم ) وأشجار الفاكهة فكان لزاماً الإبقاء عليها قيد الحياة خلال هذا الموسم . البلح ، المانجو ، والموالح كذلك تتطلب رياً حتى تبلغ جذورها سطح الماء الباطني . خلال موسم الفيضان (الميمرية) من أغسطس إلى نوفمبر تخرج حقول الساقية وحدها الغذاء . أما الذرة الشامية والفول فهما من المحاصيل الرئيسية (١٥) .

ما من وصف للزراعة النوبية يصير مكتملاً دون ذكر لزراعة البلح . وفق كلمات حسن دفع الله ، مأمور مقاطعة وادي حلفا السابق :

وقتما يفكر الواحد في النوبة ، فإن الوجه الرئيس الذي يلخذه بمجامع العقل هو «أشجار البلح» ، حيث يجد النوبيون في أشجار بلحهم تعويضاً من السماء لشح أرضهم . فهي أغلى ما يتعهدونه بالرعاية من ممتلكاتهم . وهدية لا ثمن لها من الطبيعة . إنها العمود الفقري لإقتصادهم المحلي والمصدر الوحيد المعتمد عليه للعائد النقدي . في الحقيقة ، إنها العلامة الوحيدة للثروة ، وهي موضوع التباهي بين الأجيال الكائنة والإستثمار المثمر لأطفال المستقبل . لكل قرية ، وكل دار وكل فرد تقريباً شجرة نخيل مملوكة أو مشاركة في شجرة . وصفة النهر بأكملها محفوفة بغابات من أشجار النخيل . وفي بعض الأماكن يصبح النخيل من الكثافة بحيث أن العين لا تستطيع أن تثقب السور العريض من جذوعها لترى ما يقع وراءه (١٦) .

ربما لم تتغلغل شجرة في تاريخ البسنتة عميقاً بهذا المثل إلى باطن الحياة الإجتماعية والإقتصادية كما شجرة البلح في النوبة . إنها تمس جوانب كثيرة للغاية من حياة السكان ، وترقب آثارها في كل مكان . منافعها متنوعة ومعقدة ، وما من شيء منها يضيع . وتباع أشجار البلح للعائد النقدي وتحقق أسعاراً طيبة . وبالإمكان تجديرها ، فوجود شجرة بمحضرها تأمين إقتصادي . تسحب العائلات حاجاتها اليومية من تجار القرية على الحساب وطالما أن هنالك أشجاراً للبلح ، فإنهم لعل يقرن أن مالهم سيعود بلحاً أو نقداً . وتدفع أشجار البلح كذلك هدايا في مناسبات الزواج . ويقتل النوبيون من غصونها الحبال ، يصنعون الطباقي المجدولة ، والسلاسل ، والحصائر . ومنها يقومون بعمل ممسحة خضنة لأغراض الإغتسال ولتنظيف أواني طعامهم . كذلك فإنها تطعم الحيوانات وتستخدم وقوداً (١٧) .

بالرغم من الثناء الحار الذي تقدم إيراده ، تجدر ملاحظة أن أشجار البلح النوبية كثيراً ما يجرى تقليعها بطريقة تفتقد النظام ولا تحظى إلا بتعهود قليل مما لا تبلغ به إلا جزئية من إستعدادها للحمل . ولربما يعكس هذا في قسطن منه النفقة والمشقة لتسويق المحصول في الانحاء الأشد نائياً في القطر (١٨) .

ويتبدى فارق هام ما بين الفلاح النوبى والمصرى في إعتاد النوبيين على تربية الحيوان بقدر أعظم بكثير . نقتطف ثانية من تريقر (١٩) :

البقر ، الضأن ، والأغنام تربي قطعانها ، فاليوم تربية الحيوان أقل أهمية بدرجة طفيفة وحسب من الزراعة . إن النوبيين يستخدمون كلاً من اللبن والزبدة ، ومع أن البقر لا يستعمل ( في المعتاد ) ليحرق الحقول ، فإنه يُحتاج إليه لسوق الساقية . أناس كثيرون يملكون الحمير ، وهي الوسيلة الشائعة للنقل ، ولكن قلة تملك إبلاً . الدجاج والحمام عامة ، والكلاب مع إنها مكروهة تحفظ لتحرس المساكن ولا توجد الجياد والخنازير على صعيد فعلى .

في عام ١٩٦٢ كانت قرية «موكى دور» الصغيرة بسكان يبلغون بالتقريب ٢٠٠ نسمة تملك ٢٩ بقرة ، ١٠٠ ضأن ، ٦٠ لكل من الأغنام والحمير ، وعدة متاجر من الدجاج . وفي الأزمان الأولى كانت الحيوانات قادرة على الرعى في العشب أو ما تبقى من نبات السهل الفيضي خلال معظم العام .

تعداد عام ١٩٦٣ للثروة الحيوانية في النوبة السودانية (أي تلك الجزء الذي كان مصيره أن يغمره الفيضان بخزان أسوان) سجلت قوائمه : ٢,٨٣٦ بقراً ، ١٩,٣٣٥ ضأناً ، ١٤٦, ٣٤ أغناماً ،



٨٦ جباداً ، ٣,٤١٥ حميراً ٦٠٨ إبلاً ، ٣٤,٥٨٣ نجاحاً ، ٢٧,٥٢٠ حماماً ، و١,٥٦٤ بظاً في مساحة يكاد لا يتعدى مَن بها ٥٠,٠٠٠ ساكن بشري (٢٠) .

ليس بالمستطاع تاريخياً أن يُستهان بأهمية العنصر الرعوى في الحياة النوبية . لقد كان الأساس الأسبق للحياة المستقرة ، وتوالى دوره يشكل إستكمالاً أو بديلاً للفلاحة في كل الأزمان اللاحقة . فقيرة كما هي ، لذلك ، فإن القاعدة الإقتصادية للنوبة رغم كل هذا أكثر مرونة وأكثر تعددية من الفلاح ( المصري ) ، ومن المحتمل أنها أنقذته في أزمان من السخرة والمجاعة . في حين تحمّل المصري عسوراً من الطفغان بسبب الحاجة إلى أى وسيلة للخلاص ، كان بمقدور النوبي أن يتخلى عن السعى وراء الزراعة وقد فعل أزماناً ونكص إلى أسلوب رعوى للحياة عندما أخفقت الموارد الطبيعية أو الإستقرار السياسي . إن فترات التدخل الفجائي من هذا النوع ، مشتملة على هجران مؤقت للحياة المستقرة ، تفسر فيما هو محتمل بعضاً من التجاويف الفاضية في السجل الأثارى للنوبة .

وبالتأكيد ، يُعد غياب الخزائير عن النوبة الحديثة إنعكاساً لإحتياج المعتقد الإسلامى للسكان . أما غياب الجياد فأكثر مدعاةً للدهشة ، إذ أنه في القرون الوسطى كان النوبيون خيالة مشهورين ، مثمّنة حيواناتهم من العرب أنفسهم . وكيفما مضى الحال ، فالوسيلة الأعم للنقل المحلى اليوم هي الحمار للترحل بطول الضفاف ، والمركب للشراعى لعبور النهر .

بما أن هنالك درياً عادياً بموازاة ضفة واحدة للنيل ، فإن العائلات التي تعيش على الضفة المقابلة ملزمة بأن تملك ، أو أن تملك الوصول ، للمراكب الشراعية لكيما تحصل على البضائع المختلفة التي تصل النوبة الآن بالبئر . وفى النوبة السفلى ، كما بمصر الأم ، كان الشكل السائد للمركب صنعة لموازنة قالب خشبى إنكماشى ، يرسم أوروبى . وفى ما وراء الشلال الثانى ظل هنالك مجال النقر القديم قدم الدهر . كان جهماً من كتل خشبية عريضة لكنه باهر الخدمة يصنع محلياً من أشجار السنط . وأغلبية النقر من المراكب الصغيرة لعبور النهر وحسب ، غير أن بعض المراكب تبلغ خمسين قدماً في طولها ، وتحمل شحنات تجارية بين الخرطوم وأرض شندى النهرية (٢١) .

وتتفاوت نوعية النقل بعيد المدى من جزء لآخر بالنوبة . ففي المياه الصافية بالنوبة السفلى يُنقل كل شئ تقريباً بالمركب فيما مضى ، وتحمل المراكب كذلك معظم الشحنات وكثيراً من المسافرين عبر أرض دنقلا النهرية ، بالرغم من أن هنالك درياً على طول الضفة الغربية للنيل على نفس النحو . في أرض عبرى - بلقو النهرية ويطن /الحجر ، يتم النقل السالك الوحيد عن طريق وعر للغاية وأحياناً بطريق لا يمكن عبوره يحتضن في أماكن ضفة النهر وفى أمكنة أخرى يتبع مجرى متعرجاً يخترق الصحراء أميالاً عديدة شرق النيل . وعلى هذا الشريان الحياتى غير المستيقن تمر شحنات ثقيلة الحمولة تحمل محصول البلع النوبى للتسويق بوادى حلفا ، جالبة بعودتها تلك البضائع المصنعة (الأوانى ، القماش ، الأغذية المعلبة ، إلخ) التى تعتمد عليها المنطقة . حتى وقت قريب للغاية ، حملت قوافل الإبل كذلك جزءاً من هذه التجارة . وفى أراضى شندى وأبو حمد النهرية . يتبع خط سكة حديدية ضفة النهر ناقلاً معظم الحركة السائرة .

بالرغم من أن أغلبية السكان النوبيين هم بالضرورة فلاحون يملكون الأرض ، فإن المنطقة توفر معيشةً عادية ، فوق ذلك ، لقلّة من خواص الصناع . وسط هؤلا بناءً للمنازل ، وفنانون لتزيينها ، ونجارون ، وصانعو مراكب ، وبناءة للسواقى ، وحدادون . وبما أن الطلب في أى مساحة معينة قابلٌ للتحديد ، فإن غالبية الصناع يتأتى عليهم أن يمارسو حرفهم إما على أساس وقت إضافى أو كتجار متجولين .

أصحاب الحوانيت يعتبرون نوعاً ما أكثر عددياً من الحرفيين ، وبشكلٍ معتبر أكثر مجلبةً

للإحترام في المخطط الإجتماعي النوبي وتكاد كل قرية بأى حجم أن تتباهى على الأقل بمتجر واحد صغير ، وربما لا يكون هذا المتجر أكثر من حجرة منفردة في منزل المالك بقدر صغير من القماش ، وعلب الشاي والأواني ، والشئ والسكر . إن صاحب المتجر في أكثر الأحيان فلاح بالمثل ، وقلماً تتعدى القيمة الكلية لقائمة بضاعته بضعة مئات من الدولارات . وتوجد أنواع أخرى من أصحاب الأعمال بالنوبة من وقت لآخر وتشمل : شاغلي مقاهى الشاي والقهوة ، وسائقى الشاحنات وأصحابها ، وملاك القوارب التجارية ، والتجار الممولين الذين يقرضون أحياناً ملاك القوارب والشاحنات ، والمتاجر . أما المصارف المالية فتكاد لا توجد . بيد أن إقراض المال يضطلع به على نطاق واسع ومريح أفراد أثرياء كثيرون . وتستثمر الإبخارات في الملكية العقارية والبضائع .

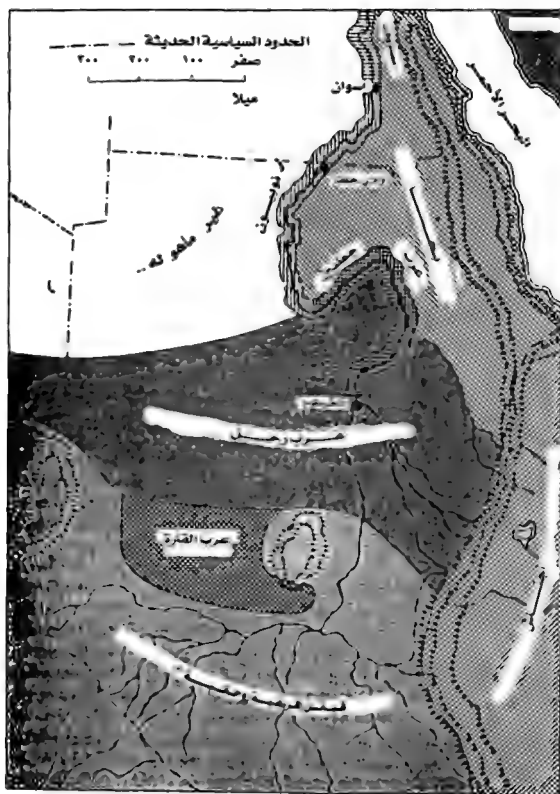
مع أن النوبة في غالبيتها أرضاً للقرى ، قادت مقتضيات التبادل السكتى والحكومة الممركزة في أزمان مختلفة من التاريخ إلى نمو المدن وما كان مصطلحاً عليه بنفس القدر في الأزمان القديمة مدائن . بلغ عدد سكان مروي في الأزمان الماثورة وبنقلا العجوز في العصور الوسطى عدة آلاف في الإحتمال ، بالرغم من أنهما انمحقا مذاك إلى خراب . المراكز « الحضرية » للأزمان الحديثة - الدر وعينية بالنوبة المصرية ، وادى حلفا وبنقلا العرضى<sup>(٢٢)</sup> في السودان - ذات تطور قريب للغاية ، يقترن بالأنظمة الإستعمارية والقومية للقرنين التاسع عشر والعشرين . هذه الأماكن لا تشمل دواوين ومعينات حكومية وحسب ، وإنما أعمالاً خاصة مثل الفنادق والمطاعم ، ومحطات تموين الوقود للقطاع الصغير . كانت المراكز « الحضرية » في الحاضر كما في الماضى بالضرورة جيوباً أجنبية بين ظهرائى النوبة : وكان أشد مسؤوليتها أهمية وكثيراً من مقيميها الآخرين غير نوبيين (انظر أدناه).

إستمر وادى النيل حتى الحقبة الثانية من القرن العشرين ، كما بأزمان باكورة ، في مد صلة السودان العمادية بالعالم الخارجى . إن المسافرين إضافة إلى شحنتهم ساروا بالخط الحديدى من القاهرة إلى الشلال ، أميلاً قليلة جنوب أسوان على مدخل الشلال الأول . من هنا انتقلوا إلى بواخر النهر للرحلة إلى وادى حلفا ، بأسفل الشلال الثانى . ثم يذهبون من وادى حلفا مرة ثانية بالخط الحديدى إلى الخرطوم ، عبر الخط الصحراوى الذى أنشئ أصلاً من أجل حملة كتشنر لإعادة الفتح في ١٨٩٨ .

إن وادى حلفا وأسوان ، كونهما انقاط الشحن الرئيسية في تجارة النيل ، تفوقاً بما لا مهرب منه في تطورها على المجتمعات الأخرى في النوبة أو قربها ، لمدى بعيد . قيل غمره في ١٩٦٤ ، كان لوادى حلفا والقرى المتناثرة حوله سكان يبلغون ٢٠٠٠-٣٠٠ نسمة<sup>(٢٣)</sup> ، بما في ذلك عدد كبير من الصناع ، وأصحاب الحوانيت ، والتجار ، والموظفون المدنيون . إن التهريب علاوة على الأعمال المشروعة كان مصدراً أولياً للدخل بهذا المجتمع الحى ، إذ أن العملة الصعبة وقيود الإستيراد في مصر الناصرية ولدت ميداناً خصباً للتجارة الخفية . في سوق وادى حلفا ، بوسع الواحد أن يحصل على كل نوع للادوات الكهربائية ، ساعات اليد ، وبضائع أذى غير مقصودة أبداً لعماله ملطيين .

### الأقوام غير النوبية

كما ذكرنا مسبقاً ، ما كانت النوبة وقفاً محصوراً على النوبيين إلا نادراً إن لم يكن مطلقاً . فالحكام الأجانب والتجار ، والبدو الرحل ، والمهاجر المقيم كانوا دائماً وما انفكوا إلى اليوم جزءاً من المسرح النوبى . والأفراد المهاجرة سواء بسواء كادوا على الدوام ، عاجلاً أو آجلاً ، أن يُستوعبوا إلى داخل السكان الأصليين ، لكنهم في بعض الأحيان مكثوا بمقدار قرن أو إثنين أقليات غير متمثلة<sup>(٢٤)</sup> .



شکل رقم ۸

**الجماعات السكانية الرئيسية هي النوبة والمناطق المجاورة**

(\*) انظر الهامش السابق - المترجم .

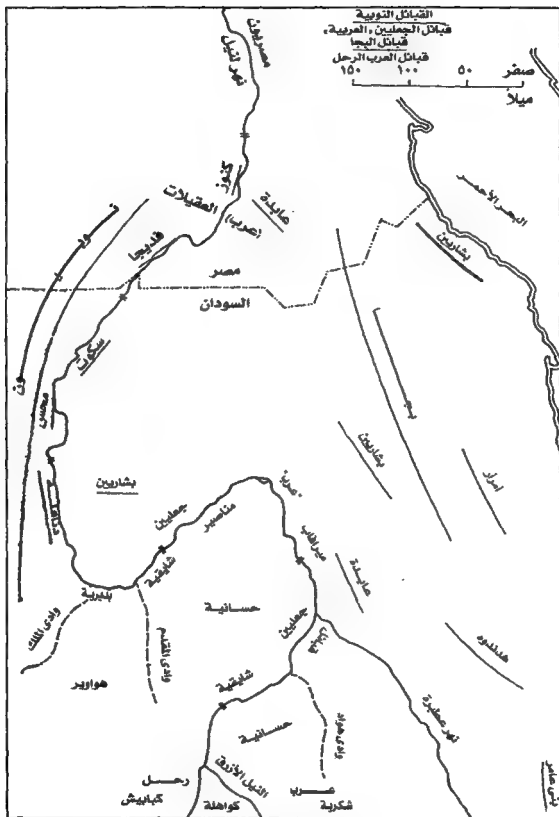
لربما كان أغلب الزوار وأحياناً المقيمون الأجانب في النوبة ، البدو الرعاة في تلال البحر الأحمر . لأن الصحارى التي تلاصق حدود النيل مباشرةً جرداء للغاية ، فيما عدا الجنوب القاصي ، لتقدم أى مستوى من المعيشة للناس أو الحيوانات . ما اختبرت مصر أو النوبة التعايش الحميم ولا الصراع الدائم بين الصحراء والزرع الذي كان سمةً مميزةً لأجزاء أخرى في الشرق الأوسط . بصرف النظر عن ذلك ، فإن المرتفعات الأعلى بالقرب من ساحل البحر الأحمر ، من خمسين إلى مائتي ميل شرق النيل ، دُعِمت ربحاً طويلاً سكاناً بداءة . طوال التاريخ ظهر هؤلاء الناس بطريقةٍ متقطعةً بوادي النيل ( غزاةً ومستوطنين ) . وبعد ١٢٠٠ ميلادية سببت الهجرة واسعة النطاق للعرب البداة إلى مصر والسودان إنتشاراً سريعاً للحياة الرعوية عبر السودان الأوسط أيضاً ، لتؤثر عميقاً في الحضارات النهرية العتيقة .

وهناك قومان رئيسان من البداة لعبا دوراً في التاريخ النوبي : البجا والعرب . والأسبق ذكراً ، الذين خلدهم كبلينق أنهم « فرزي - وزي » ( أشباح غامضة ) ، هم السكان الدهريون لتلال البحر الأحمر (قارن الشكل رقم ٨) : إن لغتهم الحامية (أو الكوشية) تصلهم بأقوام أخرى سابقة للعربية في معظم إفريقيا الشمالية . ويمكن أن يتعرف على البجا كاحفاد المديجاي<sup>(٢٥)</sup> ، شعب ظهر في النصوص المصرية في وقت باكراً يعود للأسرة السادسة (تقريباً ٢٤٠٠ ق.م) . ولشئ من الحمائية من غارات النوب التي يشنونها ، شيد فراعنة الدولة الوسطى سلسلةً من القلاع الهائلة على الحدود بين النوبة السفلى والنوبة العليا . المديجاي تُذكر في تشكيلةٍ من النصوص في مصر الأثرية ، وتكاد دائماً ترتبط بالحروب أو الغارات . فلئن كان يوسعهم أن يشكلوا قلةً موسمية لحكام مصر البعديين ، فإن تهديدهم لفلأحي النوبة الذين لا يملكون دفاعاً لابد أنه كان وافرأ للغاية . مع هذا ، نجد في أزمان متأخرة أن النوبيين والبجا أقاموا في بعض الأحيان علماً مشتركةً لمهاجمة النقاط الخارجية للتخوم الجنوبية لمصر ، على وجه التدقيق في الفترات غير المستقرة من العصر الروماني المتأخر والعصور الوسطى .

وبالرغم من سمعتهم القتالية فقد ظلت أقوام البجا بدائية الحياة وروحانية المعتقد<sup>(٢٦)</sup> حتى العصر المسيحي وتجاوزوا أغلب الأمر جماعات في حجم العائلة ، رعاةً لقطعان صغيرة جداً وباحثين عن الكلا بثبات . طبقاً لترمينغهام ، « يعرضون صفات مجتمع أبوي ، الوحدة فيه هي العائلة . لم يكونوا صانعي تحركات إجتماعية منظمة عظيمة مثل قبائل العرب .... »<sup>(٢٧)</sup> ربما خلخلوا السلم عبر أزمان ، في النوبة ، إلا أن مستوى تقنيتهم البسيطة لم تشكل تهديداً دائماً لأمن سكان الوادي . يبدو نقيض ذلك أن تعايشاً سلمياً ساد بين البدو والفلاحين ، ما خرق إلا بشكل متقطع . وربما أن بعض جماعات البجا ، كانت خاضعةً ، وتدفع الجزية ، لإمبراطوريتي نبتة ومروى النوبيين ، واستقرت جماعات من البجا من فترة لآخرى وسط النوبيين وتبنت حياتهم الجلوسية . وأسهمت هذه الملامسة على مر القرون مساهمةً غنيةً في المجرى الغالب : إن لم يكن ، في ثقافة سكان وادي النيل<sup>(٢٨)</sup> .

وتعتبر قبيلة العبابدة لصيقة الإقتران بمستوى دقيق بالنوبة ، حيث كان مرتعها الأصلي ذلك القسم من تلال البحر الأحمر الذي يقع مباشرةً إلى الشرق من النوبة السفلى ( الشكل رقم ٩) . وقد وجدت قرى لقبائل العبابدة في الماضي القريب بأماكن مختلفة في النوبة المصرية ، مبعثرةً بشكل أو آخر بين قرى النوبيين . أما المهاجرون فقد تقبلوا فيما كاد أن يكون تقبلاً كاملاً أسلوب الحياة الزراعي الذي انتهجه جيرانهم ، لكنهم لم يخسروا بعد حديثهم القديم أو إحساسهم بالهوية المنفصلة<sup>(٢٩)</sup> . تتعلق جماعات عبادة أخرى بحياة بدوية كانت تقيم موسمياً بالنوبة ، راعيةً لقطاعاتها بامتداد تخوم النيل جزءاً من كل عام ، في مصر وفي السودان معاً<sup>(٣٠)</sup> .

(٢٥) انظر الهامش السابق - المترجم .



ما يبدو توازناً راسخاً بين الفلاحين النوبيين ورياسة البجا هو حصيلة إنقلاب جذري في العصور الوسطى ، عندما بدأ الغرب البداة في التدفق إلى داخل السودان ( قارن الفصل السابع عشر ) . إن كثيراً من هؤلاء الناس هاجروا منذ أمد بعيد من شبه الجزيرة العربية وسوريا إلى مصر العليا ، ومنها أخرجوا بسياسة الممالك المعادية بحشونة للبدو ، زاحفين جنوباً بإختراق تلال البحر الأحمر ، وتسلسلوا وتزاحوا في البداة مع قبائل البجا ، التي جرى تحويلها في العملية سريعاً للإسلام . من هنا انعطفت مد الهجرة صوب الغرب إلى النيل ، وفيما وراء لكردفان ودارفور ( قارن بالشكل رقم ٨١ ) ، وبمضي الوقت أضحت العرب والبجا المستعربة سائدين سياسياً في مملكة المقررة النوبية القديمة (بنقلا) ، بحاصل في تحويل عائلتها المالكة من المسيحية إلى الإسلام في القرن الرابع عشر . إن مد الهجرة العربية نتج عنه في نهاية المطاف إستعرا ب أكثر كمالاً للنوبيين الجنوبيين (بأعلى الشلال الرابع ) إضافة إلى ذلك ، لم يفقدوا ديانتهم فحسب إنما لغتهم النوبية أيضاً . هؤلاء الناس هم الذين يدعون اليوم قبائل الجعليين " العربية " ، الجيرة الجنوبية للنوبيين الحقيقيين ( الشكل رقم ٨ ) . هذه القبائل كما يذكر تريمفهام " لا تملك إلا بالنسبة الأصغر من الدم العربي ، ولا يمكن تمييزها عرقياً من الدناقلة (النوبيين) ، ومن الأحسن أن تصنف معهم " (٣١) .

في أزمان حديثة ، وجدت جيوب غير متمثلة من عرب حقيقيين ومن نوبيين مستعربة معاً بين حدود النوبة . في الشمال ، إستوطن عدة مئات من عرب العقيلات (أو عليقات) حول المحرق ، فشكّلوا فاصلاً بين النوبيين الناطقين بالكنتزية والمتحدثين بالمحسية (٣٢) . في بطن البحر ، وصارت قرية امبوكول مأهولة بأجمعها «بعر» الشايقية ( النوبيين سابقاً ) (٣٣) . إن كلاً من الجماعتين ، وقد كانوا فيما مضى ملاكاً للإبل ، جازوا النوبة في الأصل ليعملوا في تجارة القوافل ، ومنذ أن أجهز تطور معينات النقل الحديث على معيشتهم التقليدية أو على الأقل قام بتقويضها ، ما كانت لهم سوى خبرة قليلة فيما عدا الأخذ بالحياة المستقرة للفلاحين ملاك الأراضي الزراعية أو مستأجريها .

إن الأكثر أهمية اليوم من البدو ، التجار والموظفون الأجانب الذين يكونون جزءاً كبيراً من السكان في مدن النوبة القليلة . في عام ١٩٦٠ ، شمل سكان وادي حلفا البالغين ١١٠٠٦ فرداً منهم ١١٩ ٣ فرداً مصنفيين « أجانب » . من هذا العدد كان الجميع باستثناء ٩٠ مصرياً - معظمهم من الأقباط . يقيم أجانب آخرون شملوا ٥٨ من شرق إفريقيا ، ثلاثة من شمال إفريقيا ، واحداً من غرب إفريقيا ، واحداً إثيوبياً ، عشرة لبنانيين وسوريين ، وسبعة هنود (٣٤) . الجماعات الأخيرة في معظمها عاملة بالتجارة ، بينما كان المهاجرون الأفارقة في المقام الأول مزارعين مستأجرين يفلحون قطعاً زراعية صغيرة إستأجروها من النوبيين . أما في النوبة المصرية ، فكان عدد كبير من المصريين بمصر العليا (صعايدة ) عاملين إما فلاحين أجراء أو مشاركين في المحصول (٣٥) .

إشتهرت دنقلا طويلاً « بسوقها الأبيض » ، مما يعني أن تجار المدينة - مع أنهم مواطنون سودانيون في الغالب - بيض البشرة بوضع ملحوظ للغاية مقارنة مع المقيمين في المقاطعة المحيطة بهم . إنهم في الحقيقة مصريون خلّص الأصل بالتقريب ، ويقال : إن وجودهم بدنقلا يرجع إلى الوقت الذي أخرج فيه حكام الممالك من مصر وهربوا إلى النوبة في مطلع القرن التاسع عشر .

أقلية أخرى لا تنتشر إلا بالتدريج تكوّن أحفاد الرقيق الماضي . وقبل تحريم الرق في بداية القرن الحالي إمتلك عدد كبير من النوبيين أرقاء على نطاق صغير . كانوا من أصل سوداني جنوبي في الغالب الأعم . يحيا أحفادهم اليوم بقسط رئيس في ، أو بالقرب ، من المدن الكبرى ، حيث يعملون كعمال أو فلاحين أجراء ؛ وقلة منهم تملك أرضاً . وبالرغم من أنهم الآن مسلمون ناطقون بالعربية ، يتواصل وضعهم بلون صبغتهم شديدة الحلكة وسلالة الرق المعروفة عنهم . ولا يعتبرون قرناء زواج مرغوباً فيهم من النوبيين ، وما استوعبوا إلا ببطء شديد في داخل السكان السائدين . وقد أماطت دراسة قريية العهد ومتبصرة للغاية لقرية سودانية شمالية اللثام عن أن أحفاد الرقيق لا

يستمرّون في معاناة الإعاقات الاجتماعية وحسب ، ولكنهم ليسوا مُحررين تماماً بأي شكل من الأشكال مما ألزموا به نحو أسياهم السابقين (٣٦) .

### الهجرة الخارجية

إذا كانت اعداد الأجانب قد جاءت أزماناً لتستوطن في النوبة ، فقد كانت هنالك في كافة جنابات الفترة التاريخية هجرة خارجية مقدرة للسكان الأصليين على حد سواء ، أو على الأقل لذكورهم الأقوياء . خدم النوبيين في أزمان قديمة في جيوش الفراعنة ، وإلى جانب ذلك بالخدمة المنزلية في بلاطات مصر . وبعضهم كان دونما شك من الرقيق ، لكن آخرين بدأ أنهم هاجروا طوعاً إلى القطر الشمالي في بحث عن معيشة أكثر أمناً أو حياةً أكمل مما كان متاحاً من موارد النيل الشحيحة . وتوحى كل البيئة بأن نمط هجرة العمل النوبى ( الذى كان فيما يظهر قد أنشئ مبكراً زمن الأسرة المصرية السادسة (٣٧) ) يتواصل بلا اعتراض حتى أزمان حديثة . إن خلفاء مصر الفاطميين إعتدوا في القرون الوسطى إعتياداً ثقيلاً على الفرق النوبية لتدعيم حكمهم ، بينما في القرن الخامس عشر ، وثانية في القرن التاسع عشر ، قيل أن النوبيين سيطروا على الروابط المهنية لعمال التشييد ، والمراقبين ، وسماسرة الرقيق في القاهرة (٣٨) . وما من معلومة محددة متوافرة في الأزمان المبكرة ، إلا أنه يبدو محتملاً أن كثيراً من المهاجرين النوبيين كانوا - كما الآن - يتربحون أسرهم في الوطن لرعاية القطعان والحقول القديمة ، عاندين إلى النوبة لزيارات موسمية ربما ليتقاعدوا هناك في أعمارهم المسنة .

هيات بدايات التصنيع ونمو المدن في القرن التاسع عشر سوانح كثيرة جديدة للعمل النوبى المهاجر ، وارتفع النزوح إلى فيضان جارف عقب تدمير بناء سدود أسوان الأولى لكثير من الموارد الأصلية للنوبة المصرية . فُتّر ( فرنياً ) في عام ١٩٦٤ أنه كان هنالك نوبيين مصريين يعيشون خارج موطنهم يبلغ عددهم ضعف المقيمين فيه (٣٩) . وبالرغم من أن الموارد الإنتاجية للنوبة السودانية لم تكن متأثرة بسدود أسوان الباكرا ، فإن نمط هجرة العمل كان متقدماً نشأة هنا إضافة إلى ذلك : سجل تعداد عام ١٩٦٠ للمنطقة المحيطة بوادى حلفا ٢٧٤٢٢ مقيماً و١٤٤٣١ غائباً (٤٠) . وأصبحت النوبة في القرن العشرين بقسم كبير منها أرضاً للنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، حيث غادر الذكور الأقوياء إلى الخارج سعياً وراء العمالة . وفي مراكز مصر والسودان الحضرية إكتسب النوبيون ( ولا يزالون محتفظين بما كسبوا ) إحتكاراً فعلياً لمهن عديدة للخدمة ، بما في ذلك على الأخص مهن الطامى ، وعامل المطعم ، وخادم المنزل ، ومراقب العمال . ويعود المهاجرون كل عام أو عامين لزيارات مختصرة لأسرهم ، ويرسلون مالا وهدايا من الخارج في كثير من الأحيان ما بين تلك الأوقات .

وسواء في القاهرة لم في الخرطوم ، يستمسك العامل المهاجر بحسه بالهوية العرقية وبالالتزام نحو ذويه . ومع أن إقاماتهم ربما تكون مبعثرة على مستوى واسع في أرجاء المدينة ، فإن النوبيين في الخارج ينضمون إلى «رابط القرى» التى تُبقى علاقاتهم حية مع بعضهم البعض ومع مجتمع الوطن . إن بعض هذه المظمات درسها أندرياس والترود كروننبرج في سنة ١٩٦٣ ، وهى موصوفة منهما كما يلي (٤١) :

يتحد النوبيون العاملون بالخارج في جمعيات لها مصلحة مشتركة بموطنهم الأصلي . وهذه الجمعيات وسيلة لنقل الروابط الإجتماعية التى تعمل في البلد ( القرية ) إلى محل كسب الأجر . وتعد المهاجرين الباحثين عن العمل بالأمن الإجتماعى الضرورى . كذلك فإنها تسهم في الإستقرار الإقتصادى والإجتماعى للبلد ، ولها ميل للإسراع بالتقدم والتنمية الإقتصادية في مجتمع الوطن من خلال جمع المال للمشاريع التعاونية مثل الطواحين ، المستشفيات ، المدارس ، والرلى الرافع . هكذا تزيد التنمية الحديثة بدرجة معينة أهمية روابط

المنطقة المحلية وأهمية المعمرين كجوه متميزة في كل منطقة محلية مع أنهم أقل ظهوراً للعيان . إن الإحساس بكونه جماعة مفردة تتقاسم نفس العادات تتضاعف في الأجواء الأجنبية ، وكذا يفعل تماسك الناس من المنطقة المحلية الواحدة .

بالرغم من أن تقسيمات *البلد* هي أساس الجمعيات النوبية في أماكن كسب الأجر ، فهناك علاقة ما بين الموقف الإيكولوجي <sup>(٤)</sup> في *البلد* ، وكثافة سكانها ، والجمعيات : إن لم يكن هناك أناس بما يكفي من بلد واحد ، فإن الرجال من بلدين أو أكثر سوف يتحدثون في جمعية واحدة . أرض الحجر مساحة جغرافية كبيرة جداً بسكان قليلين عدداً . أما *البلاد* شمال وادي حلفا فمأهولة نسبياً وتحتل مساحة صغيرة نسبياً . لذلك فإن كل بلد بالتقريب شمال حلفا له جمعية تتعلق به في أماكن كسب الأجر ، في حين إن أرض الحجر لها بالضبط جمعية واحدة في الخرطوم . لكنها مثبته للتنظيم بحيث أن هناك تظاهراً أقرب وسط أعضائها من *البلاد* المجاورة ، أكثر مما هو كائن بين أولئك القادمين من بلاد أخرى مسافة.

ولإعادة تكيف حدود *البلد* معقباتها في الجمعيات بالخارج . فعندما انقسمت عكشة بعيداً عن سرة غرب ترك رجال عكشة العاملون في الإسكندرية والقاهرة جمعية سرة غرب ، وأوجدوا جمعية لشائهم ، ثم إن كلاً من الجمعيتين ولجتا إلى منافسة ، وتحاول كل منهما أن تسهم بمزيد من المال *لبلدهم* أكثر من الأخرى . أسرعت جمعية سرة غرب بجمع المال لمشروع رى رافع كيما تبرهن أنها لم تعتمد على مساهمات رجال عكشة . وقيل الإنفصاف ، جمعت ٣٠٠ جنيه سوداني في ثلاث سنوات ، بينما جمعت بعد فض الشركة ٥٠٠ جنيه سوداني في شهرين فقط و ٣٠٠ جنيه سوداني إضافي في ثلاثة شهور أخرى . وكان هذا كافياً لشراء طاحونة ورافعة إلى جانبها

إضافة إلى الهجرة الخارجية المؤقتة للعمال بالأجرة ، كانت هناك إعادة دائمة لإستيطان العائلات النوبية ، بل قرى بأجمعها في بعض المرات ، من قبل أن يجعل تدمير موطنهم من ذلك ضرورة للكثيرين . إن قرى عديدة في ضاحية الخرطوم الحديثة تنحدر جزئياً أو بأكملها من مهاجرة نوبيين . خلافاً للأفراد المهاجرة ، تزواج أولئك القرويين الذين عادوا توطنهم مع أناس محليين بحرية ، وفقدوا لغتهم النوبية وكل إحساس آخر بالهوية الخاصة <sup>(٥)</sup> .

من الجانب الآخر ، لاذ نوبيون كثر في عتاد بأرض أسلافهم الصخرية حتى من بعد أن أنهى فقدان حقوقهم أي فرصة لإنتزاع معيشة منها . وعندما أنشئ سد أسوان المنخفض ، إختارت معظم قرى النوبة المصرية أن «يظلوا منفوسين في ثبات» ، معيدين البناء على مستويات أعلى بمحاذاة النشاط الصخرية للبحيرة الممتلئة حديثاً . إن غياب أشجار أو زرع نابت أفاض عليهم مظهرأ إنفرادي مهجوراً ، وكانوا ثلاثة أجيال يُدعمون بقسط كبير من أموال العاملين الغائبين من سكانهم الذكور . وفي وقت أكثر قريباً رفض عدد معتبر من السودانيين النوبيين أن يقبلوا الأرض الجديدة التي عُرضت عليهم في وسط السودان ، محبذين أن يأخذوا فرصهم على طول شواطئ بحيرة ناصر المملوءة حالياً . وآخرون تقبلوا الأراضي المخصصة لإعادة التوطين في «حلفا الجديدة» ( انظر الفصل التاسع عشر ) قاموا بتأجير أراضيهم إلى مقيمين ورجعوا إلى مزارعهم القديم .

مع هذا ترك بناء السد العالي غالبية النوبيين بالنوبة السفلى بلا اختيار سوى السعى لديار جديدة . وإن أولئك المقيمين في مصر لم يُمنحوا في الحقيقة خياراً للبقاء في أرضهم القديمة ؛ أغلقت المقاطعة بأجمعها بين أسوان والحدود السودانية دون الإقامة . ثم منحت الحكومة المصرية مواطنيها النوبيين أراضي جديدة ودياراً جديدة في كوم أمبو ، على مسافة قصيرة شمال أسوان . أما النوبة السودانيون من أهالي المنطقة المنكوبة فقد هُجروا في مكان أكثر نأياً عن الوطن ، على امتداد أعالي نهر عطبرة ليس بعيداً عن الحدود بين السودان وأثيوبيا . هنا هيأت الحكومة حيازات أرض جديدة متسعة ورتلاً كاملاً من قرى أنشئت لأول مرة ، كل قرية تحمل إسم واحدة من القرى المغشورة بالنوبة القديمة : حلفا الجديدة ، فرس الجديدة ، سرة الجديدة ، وهلم جراً . ولا يزال

(\*) علاقة البيئة بالأحياء - المترجم.



الوقت مبكراً جداً لقياس الأثر الكامل لهذا الغرس المنقول على أم المجتمع والثقافة النوبية ، بيد أن بعض مناقشة عنه سوف يُعثر عليها في الفصل التاسع عشر .

### ملامح المجتمع النوبى

تبيّن المناقشة السالفة خمس صفات للمجتمع النوبى الحديث مهمة لفهم التاريخ النوبى . أولاً ، إنه مجتمع مفتوح للفلاحين المقيمين ملاًكاً أو مُستأجرين أرحح منه واحداً مُطلقاً أو قبلياً . ومع أن النوبيين لهم جس قوئ بالتميز العرقى ، فإنهم لا يحاولون صونه عن طريق الحدود الجغرافية ، ولا يستبعدون الأجانب من حويتهم . إن الدخلاء ، غرباء في الحديث والمظهر وأحياناً في الدين فضلاً عن ذلك إستطاعوا أن يقيموا بينهم على قدم المساواة أفراداً أشدّ تقبلاً للنفوذ الخارجى والمتغير الثقافى عما ظلت عليه المجتمعات القبلية المسدودة لأقوام جنوب السودان .

ثانياً ، المجتمع النوبى ليس مُرتبباً طبقياً بشكل ملحوظ على أساس خطوط مهنية ، لكنه لا يزال لحدراً قائماً على طوائف عبر خطوط عرقية . وفى القمة صفوة صغيرة من تجار وموظفين مدنيين مصريين ( وفى حالات محدودة للغاية سوريين أو لبنانيين ) ؛ وبالقاع أحفاد الرقيق الماضى ، ومعظمهم من اصل جنوبى سودانى .

ثالثاً ، يشتمل الإقتصاد النوبى تركيبةً من الفلاحة المعيشية ، تربية الحيوان ، وإنتاج البلع التجارى . هذه القاعدة المعيشية المركبة ، بالرغم من فقرها ، أسبغت على النوبيين تكيفاً ومرونة معينةً فى وجه كل من البلاء الطبيعى والقمع البشرى ، ومكنتهم من البقاء على قيد الحياة والرخاء مرات كثيرةً فى بيئة غير واعدة .

رابعاً ، المجتمع والإقتصاد النوبى تكاملا مع مجتمعات وإقتصاديات السكان المجاورين زمنأ طويلاً من ناحية جزئية ، واعتمداً عليها . ويصدق هذا فيما يتعلق بالمصريين وبدو الصحراء .

وأخيراً ، قلماً كان ظل مصر غائباً عن الأرض . فإذا هبّ البدو أحياناً للإغارة ، جاء المصريون ليحكموا . وعندما تزاجوا مع النوبيين ما كان ذلك لئُستوعبوا فى بوتقة سكان محليين ، كما فى حالة البدو ، إنما لتزيد سيطرتهم عليهم . إن التركيز الغامر لرأس المال والتجارة فى قبضة تجار مصريين بوادى حلفا وبنقلا فى عام ١٩٦٠ لا يكشف إلّا حالة مافتئت طاغية فى النوبة منذ بداية التاريخ .



## الفصل الثالث

### التاريخ وعلم الآثار في النوبة

نعلم أن النوبة كانت على الأقل محتلة بصورة منقطعة منذ العصر الحجري ، لكننا لا نستطيع أن نستيقن أنها كانت دائماً موضع إقامة من نفس القوم . ما من صفات سلالية أو لغوية أو ثقافية نستطيع مراقبتها في السكان الحديثين يمكن تتبع أثرها باستمرار خلال التاريخ . بيئة الحديث النوبي مفقودة قبل العصور الوسطى ، والبيئة العرقية ، كما أعيد إنشاؤها مبدئياً من بقايا الهياكل البشرية ، غامضة في أفضل الحالات . وتبدو الثقافة النوبية مُبينة لتطور متواصل بدرجة عالية من البداية إلى النهاية ، إلا أن هناك إعتراضات كافية في القصة بحيث أن الخُوص إلى شعب مفرد بأى حال من الأحوال لا يسمو على الجدل .

تفسير التاريخ النوبي الذى تنامي في مطلع هذا القرن ، والذى لا يزال كامناً وراء معظم النظرية الحديثة ، يطرح أن المنطقة كانت مأهولة بأناس متعاقبين غدوهم ورواحهم مسؤول بقدر كبير عن تغيرات الثقافة في التاريخ النوبي . وكما اقترحت في المقدمة ، إن هذا الرأى مفهوم بالنظر إلى المعرفة المحدودة ( ويتعلق حجمها بالتقريب بالنوبة السفلى ) التى وُجدت في الحقبة الأولى من القرن العشرين ، لكنها لم تعد صامدة في ضوء البيئة الحديثة . في المنظور الأوسع للنوبة الذى توافر لنا الآن ، يمكننا أن نصور عملية متواصلة من التنمية الثقافية ، غير مهم فيها هوية ممثلين يتمتعون بأى وضع خاص . علينا ، لذلك ، أن نقدر بإيجاز كيف ولماذا تطورت النظرية السابقة للتاريخ ، وأين انحرفت في تأويل البيئة الموجودة ؟

صورتنا للتاريخ النوبي اليوم مستمدة من مصدرين : وثائق تاريخية وبقايا أثرية . إن الطبيعة المتناوبة ، ذات التميز الملحوظ للتاريخ النوبي المدون ، بتبادلها الفترات الموثقة والعصور المظلمة جعلت من تلك الأرض الملتقى الأوفى لعالم اللغة ولعالم الآثار « الخربة » . كل واحد منهما ملزم بأن يدرس على الأقل لدرجة ما نتائج الآخر إضافة إلى مناهجه ؛ إستجمعا معاً صورة لتطور ما كان بمقدور أى منهما أن يامل في تحقيقها وحيداً .

ومع ذلك إن علم الآثار بكليته ريبب للقرن العشرين في النوبة . وكل ما عُرف عن تاريخ الأرض الجنوبية قبل ذلك الزمن علم من المدونات النصوصية - مصنفة أغلبها من غير - نوبيين ، بلغات أجنبية ، أحياناً كثيرة من مصدر ثانوى بعيد . ومن مثل هذه المادة تُسقت المحاولة الأولى لتاريخ شمولى للنوبة في بداية القرن العشرين .

#### المصادر التاريخية

مؤلف واليس بذج *السودان المصرى* <sup>(١)</sup> ، المكتوب لإحياء ذكرى إستعادة القطر من الدراويش <sup>(٢)</sup> ، لابد أنه يختم نقطة إنطلاق لأى مناقشة للمصادر النصوصية في التاريخ النوبي . فلأنه كُتب بالضبط من قبل إستهلال علم منظم منهجياً للآثار ، وهو لذلك مجموع على إطلاقه من مصادر حرفية ، تعكس حكاية بذج على وجه الدقة كلاً من مدى وحدود المادة التاريخية في شأن النوبة . إن

(٥) انتصار المهدي - المترجم.

المعتادين على التفكير عن " إفريقيا الأشد ظلمة " ربما تصيبهم الدهشة من المعرفة التي امتلكها القدماء بدقة : أما أولئك الذين يتوقعون العثور على تاريخ موصول فلا يملكون سوى تلقى صدمة التجاوب الهائلة في المدون .

أدى بذج عملاً متقناً وواعياً بمستوى جدير بالذكر ليلملم شظايا المصادر المبعثرة عن النوبة وهي كائنة في نصف دسة من اللغات . والسودان المصري لا يزال ، بعد ستين عاماً لاحقة ، الجسد المكون للمادة النصية في التاريخ النوبي . تقع المصادر من حيث الترتيب الزمني واللغوي في ست مجموعات:

- ١ - النصوص المصرية الهيرغليفية ، من الأسرة الثانية إلى الأسرة العشرين .
- ٢ - النصوص النوبية الهيرغليفية للفترة النبتية .
- ٣ - أعمال تاريخية وجغرافية من مؤلفين قدماء
- ٤ - تواريخ القرون الوسطى الكنسية .
- ٥ - تواريخ وجغرافية العرب بالقرون الوسطى .
- ٦ - أعمال رحالة أوروبيين في الفترة الحديثة الباكرة .

فيما عدا ما بالمجموعتين الثانية والسادسة فإن عدد المصادر الأولية صغير بالطبع . معظم الأعمال القديمة والوسطى مكتوبة بمصادر ثانوية نائية للغاية ، وقد أطلق مؤلفوها في بعض المرات لخيالهم العنان ليمدهم بما افتقدوه من معلومات في مصادرهم الحقيقية الأصلية .

### النصوص المصرية

تظهر كوش وأسماء مصرية قديمة أخرى للنوبة في عدد غزير من النصوص الهيرغليفية والمنسابة ، لكنها في مجموعة كثيرة منها موضع لا يتعدى إشارة عابرة . طوال ٣٠٠٠ عاماً باكملها من العلاقات الفرعونية - النوبية هنالك بالكاد نصف مائة من النصوص التي تعنى بكيانها أو حتى بشكل أساسي بالشؤون النوبية <sup>(١)</sup> . لقد قصد منها كلها بالطبع الإحتفال بإنتصارات ومغانم مصر أو المصريين أكثر من نقل أي وصف موضوعي للأرض الجنوبية ، وقيمتها الرئيسية موجهة لإعادة إنشاء التاريخ السياسي والإقتصادي . لجوانب أخرى للحياة النوبية لزام علينا أن نقرأ ما بين السطور - ممارسة مربية دائماً ، تتضاعف إرتياباً حينما تنأى الأساطير نفسها عن الصفاء .

إن أقدم مدون تاريخي معلوم يتصل بالنوبة ينتمي فيما يكاد لفجر التاريخ نفسه . تمثل مرسوماً ، وُجد على تنوم صخري بالقرب من الشلال الثاني ، يُحكي بشكل ظاهر ذكرى نجاح عسكري لفرعون الأسرة الأولى جير (أو زير) على عدو محلي <sup>(٢)</sup> . نحتت أخرى ، وجدت بمصر ، تحمل ذكرى موجزاً لبعثات عسكرية إلى النوبة في الأسرتين الثانية والثالثة ، ومنذ فترة لاحقة لمدى يسير هنالك رسوم خطية للمكتشفين والمنقبين من أماكن متنوعة بالصحاري النوبية . من الأسرة السادسة يحكي نصان طويلان لسيرة حياتية يسردان عمليات عسكرية وتجارية معاً في السودان . إنهما أشد تفصيلاً بكثير من أي شيء سابق ، ويتيحان أول رؤية لنا إلى باطن الأحوال الثقافية في الأراضي الجنوبية .

يقرب إلا يكون هنالك مدون كتابي للعلاقات المصرية - النوبية خلال المرحلة الإنتقالية الأولى (الأسر السابعة إلى العاشرة) <sup>(٣)</sup> . شئت الأسرة الحادية عشر فيما يبدو حرباً متقطعة الحدث في الجنوب ، وأضعة المرحلة لفتح وإحتلال النوبة السفلى من قبل الفراعة الأوائل للأسرة الثانية عشر . إن عروض حملاتهم ، وإعلانات السيادة المصرية ، هي الوثائق العمادية في أمر النوبة في الدولة الوسطى . بعد الأسرة الثالثة عشر يصمت المدون ثانية لزمن معتبر ، حتى تكرر قصة الغزو

والإستغلال بشكل يبدو حرقيا في ظل الدولة الجديدة .

نصوص الدولة الجديدة (الأسر الثامنة عشر حتى العشرين ) مُدَوّن كتيب للعمليات العسكرية في مواجهة سكان يظهرون بلا دفاع . ليس أقل من ثمانية ملوك يزعمون أنهم فتحوا أو أعادوا فتح أجزاء من النوبة ، مع أن المدى الأثرى يشير إلى إحتلال مصرى متواصل كبيراً كان أم يسيراً <sup>(٩)</sup> . بعض هذه البعثات ما كان بالإمكان أن تصير سوى غزو للإسترقاق ، متخفية بفلاحة تتدرج باستعادة زمام النظام المبدنى . يسجل آخر مُدَوّن نُصى للحكم المصرى في النوبة إستلام جزية في عهد رمسيس التاسع . قروناً عقب زمانه هناك صمت آخر ، حتى أخذ النوبيون أنفسهم بأطراف القصة .

يمكن الحصول على أخبار إضافية حول النوبيين الأوائل من بيئة الرسوم للمعبد المصرى وتصاوير مقبرته . إنها تبين في أكثر الأحيان أسارى وخضماً من الأراضي الجنوبية ، يدركون بسهولة من ملامحهم وفى حالة الرسوم الملونة ، من لون بشرتهم . يمكننا أن نتعلم منهم شيئاً عن مظهر وملبس الناس ، والأدوار التي كان يوسمهم شغلها في النظام الإجتماعى المصرى .

### التنصوص الهيروغليفية النوبية

النوبيون - أو على الأقل - الملوك النوبيون إغتموا ساحة في النهاية ليدونوا رؤيتهم الذاتية للتأريخ بعد فتحهم لمصر في القرن الثامن قبل الميلاد . كحكام للأرض الشمالية ورثوا جهاز الدعاية المنمقة الذى مضى بإمرة الفراغة دائماً ، وما كانوا مُبطنين في إستعماله . فلن كانت إعلاناتهم ووقائعهم الملكية يصعب أن تختف في الأسلوب أو المادة عما كان للفراغة الأوائل والمتأخرين فإنها على أقل تقدير تعرض - لأول مرة في التأريخ - وجهة نظر مؤيدة للنوبيين . كانت بالرغم من ذلك مخطوطة من كتابة مصريين باللغة والحروف المصرية ، ولابد أنها خاطبت في جزر منها جمهوراً مصرياً : وكثير منها ما كان وثائق « نوبية » بالمرّة ، لكنها وقائع حكام نوبيين سيصيرين حكماً لمصر . إنها تخبرنا أبعد من ذلك عن الحياة في موطن النوبيين مما تخبر به النصوص المصرية لأزمان أخرى .

من وجهة نظر التأريخ السياسى ، من الجانب الآخر ، تملك نصوص الفترة النبتية (عصر الحكم النوبى في مصر والقرون التالية مباشرة ) على الأقل نفس القدر من الإهتمام مثلما تطورت عليه وقائع عهود سابقة . بارزة بينها لوحة بعنقى ، الذى فتح مصر ، وتهارقا ، الذى خسرها . من القرنين اللذين أعقبا تهارقا هنالك ثلاثة نقوش ملكية بطول معتبر ، كلها تسترجع أحداث عمليات عسكرية داخل السودان ولو أن ملوك نبتة احتفظوا باللقب الفرعونى الماثور «سيد الأرضين» (أى مصر العليا والسفلى) ، فليست هناك بيئة أنهم قاموا بأى جهد عملى لتأكيد وجوده بعد زمن تهارقا . إن نُصّب نستاسن ، الذى يؤرخ الآن حوالى ٣٣٦ ق . م . هو آخر نص متماسك تاريخياً من أصل نوبى . لا توفر لنا النقوش المتأخرة إلا قليلاً من أسماء الحكام ، ولا يمكن ترتيبها في نفس الوقت بتعاقب باد .

إنه من حسن الطالع في حس واحد أن الملوك النبتيين إختاروا اللغة المصرية وحرروها لوقائعهم الملكية ، لأنه يعنى أننا يمكننا أن نقرأها دونما شقة . من الجانب الآخر فإننا محرومون من أى دالة على الحديث النوبى الأصلى ، وعلى الهوية العرقية وقربابى السكان من ثم . في أزمان لاحقة تطورت في الحقيقة لغة مكتوبة أصلية خالصة ( المروية ) ، غير أنها حتى هذا المدى غير مُتركة لعلماء العصر . لا يبدو أنها لصيقة الأصل بالغة النوبية أو أى لغة حاضرة اليوم . لقد وثقت في عدد محدود من النقوش الصروحى ، لكنها أعملت أحياناً لنذور أو قداسات قصيرة وربما لنصوص تجارية .

## المؤلفون القدامى

المغامرون والمستوطنون الأغاريق كانوا عبيدين في مصر ، ربحاً طويلاً قبل الإسكندر مرتزقة في الجيش المصرى ، إصطحب بعضهم الفرعون بسمتيك الثانى في بعثته للنوبة في القرن السادس قبل الميلاد . إن الرسوم الخطية التى تركوها في معبد أبو سمبل ، وفى مكان واحد أو مكانين آخرين <sup>(١)</sup> ، أول دليل لنا على النحول إلى النوبة من أى أوروبى .

زيارة هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد تُعَلِّم عن نقطة تحول في تدوين التاريخ النوبى والتاريخ المصرى إضافةً إليه . «أبو التاريخ» لم يرتحل أبداً بشخصه وراء أسوان ، لكنه من المسافرين والتجار إستجمع وصفاً جغرافياً دقيقاً ( بالنسبة له ) مثيراً للعجب عن الأراضى بعيداً بأعلى النيل <sup>(٢)</sup> . تستقر معرفتنا للمملكة المروية في قسطنطينيا إلى هذا اليوم على بيئة هيرودوتس ، بالرغم من أنه لم يرها مطلقاً . إن عمله هو الأقدم بقاء عن التاريخ والجغرافيا النوبية التى تطرح أى ادعاء سواء بالشمولية أم الموضوعية ، مع أنه ربما يكون مسبوقةً بالسرد المفقود لهيكتيوس .

لا غرو ، بالنظر إلى شُح المادة المصرية ، أن معظم العروض الماثورة للنوبة أقوى في الجغرافيا والأصول العرقية عما هي عليه في التاريخ . كثير من مؤلفيها نسخوا بفيض من هيرودوتس : أضافت قلةً فحسب تفصيلاً إضافياً ذا أهميةٍ وقيمة . من بين هؤلاء كان سترابو <sup>(٣)</sup> (الذى نسخ وصفه الجغرافى للنوبة في جزء كبير من عمل ضائع ل إيراتوستين ) ، ديودورس سايكولوس <sup>(٤)</sup> <sup>(٥)</sup> ، وبلينيوس <sup>(٦)</sup> . إضافةً إلى وصفهم للأرض والناس ، هؤلاء الكتاب هم مصادرنا العمادية للعلاقات البطلمية - النوبية والرومانية - النوبية . قريباً من نهاية الفترة القديمة ، أعطانا ثلاثة كتاب صورةٍ عَرْضِيَّةٍ للأحوال الفوضوية السائدة في النوبة عقب تحلل الدولة المروية . إن السرد المبهم والمتناقض أحياناً لبريسكوس <sup>(٧)</sup> ، أولمبيودورس <sup>(٨)</sup> ، وبروكوبيوس <sup>(٩)</sup> مصادر قيمة في التاريخ السياسى ، لكنها أسهمت كذلك بأوفى نصيب في الضباب المحيط بمسألة ( الجماعة - س ) <sup>(١٠)</sup> النوبية ، التى ستناقش بتوسع في صفحات قادمة ( الفصل الثالث عشر ) .

وثيقة واحدةٍ تقف متفردةً فيما بين المدونات « القديمة » للنوبة . إنها إعلان نصر في القرن السادس لـ سلكو ملكاً نوبياً بعينه ، نقوش في يونانية بدائيةٍ غير نحوية على حجارة معبد كلابشة <sup>(١١)</sup> . بالرغم من حجمها المحدود ولغتها غير الدقيقة ، فهى النص التاريخى المتعمد الأخير للسلطة النوبية نزولاً لآزمان حديثة .

## التواريخ الكنسية

مؤرخان مبكران للكنيسة ، جون الأفسوسى <sup>(١٢)</sup> وجون البكلاريوس <sup>(١٣)</sup> ، وأخران متأخران ، يوتيكيس <sup>(١٤)</sup> وميخائيل السورى <sup>(١٥)</sup> ، كتبوا عن تحول النوبة للنصرانية في القرن السادس . تختلف عروضهم في عدد من النقاط الهامة ، كاشفةً عن تحيز لواحدة أو أخرى من الطوائف الأرثوذكسية المتنافسة آنذاك . مثل النصوص الماثورة الأخيرة ، أثاروا منازعات لا تزال بيننا . إن مثل الضوء الذى ألقوه منحصر بقدر كبير في القرن الأول للنوبة المسيحية ، إذ أنه بعد فتح العرب لمصر فقد العالم الخارجى النظر للمسيحية على النيل حتى نهاية العصور الوسطى .

(\*) ديودورس الصيقلى - المترجم.

(\*\*) بلينى - المترجم.

(\*\*\*) ثقافة المجموعة الثالثة - المترجم.

## علماء العرب في العصور الوسطى

الأعظم من المؤرخين العرب ، قُدامى أو مُحديثين ، كان ابن خلدون (أواخر القرن السابع عشر). إن سرده <sup>(١٩)</sup> ليس ، مع ذلك ، أفضل مصدر بالقرون الوسطى للتاريخ أو للجغرافية النوبية . ذلك الشرف يعود إلى معاصره ، المقريزى الجغرافى ، الذى لا يزال عمله الرئيس لسوء الطالع ينتظر الترجمة إلى الإنجليزية. مؤلف المقريزى *الخطاط* : ليس مصدراً أصلياً هاماً فحسب ؛ لكنه يحتفظ كذلك بمقالة طويلة من زائر أصلى ، ابن سليم الأسوانى ، الذى فقد ما عدا ذلك سرده لنوبة القرن العاشر <sup>(٢٠)</sup> . إن أعمالاً مهمة أخرى للمسعودى <sup>(٢١)</sup> والعمري <sup>(٢٢)</sup> تجمع التاريخ والجغرافيا . إنها توفر ترتيباً زمنياً لأحداث العلاقات النوبية مع الخلافة الإسلامية ، وفيما بعد مع الأسر الإنشاققية في مصر . عمل جغرافى خالص هو *كنائس وأديرة مصر وبعض البلاد المجاورة* ، ينسب لأبو صالح مُعِين ، «الأرميني» <sup>(٢٣)</sup> .

هبط الظلام على النوبة ، بالقدر الذى تعنى به المصادر العربية ، مع الفتح العثماني عام ١٥٢٠ . مع هذا ، يبدو محتملاً أن المصادر الخطية لفترة القرون الوسطى المتتخرة بعيدة عن النفاد . الوثائق العثمانية ، حوليات الاستكشاف البرتغالية والجنوبية <sup>(٢٤)</sup> ، العروض التجارية ومجلات لرحالة مسافرين ربما تلقى كلها مزيداً من الضوء على فترة تظل حتى الآن واحدة من أحلك الفترات في التاريخ النوبي <sup>(٢٥)</sup> .

## أوائل الرحالة المعحدثين

فى نفس العام الذى اختفت فيه النوبة وراء « الستار العثماني » ، قُدمت أرض إثيوبيا المجاورة للوعى الأوروبي خلال البعثة التبشيرية الأولى من بعثات برتغالية عديدة في هذا الزمن . لهذا ، يأتي ذلك الضوء الخافت كما نجد بالنوبة من الجنوب بدلاً عن الشمال . إن سرود الآباء اليسوعيين <sup>(٢٦)</sup> لديها القليل لتذكره حول الأحداث على النيل ، لكنها تكاد تساوى جميع ما نملك عن ملتهم .

بداية القرن الثامن عشر إعطى النيل رحالتان جسوران ، الفرنسي بونسيه <sup>(٢٧)</sup> والألماني كرمب <sup>(٢٨)</sup> ، من القاهرة ، الأول إلى حبربلغ إثيوبيا والثاني إلى بُعد سنار . قريباً من نهاية القرن صعد جيمس بروس <sup>(٢٩)</sup> عبْرَ نفس الطريق . كل هؤلاء أسرعوا باختراق ما عدوه أرضاً غير مضيافة في النيل الأعلى ، وقد تركوا لنا خطوطاً عريضة عاجلة من المناظر على امتداد الطريق فحسب . لقد كان الرحالة الدارسون العظماء الذين ساروا في صحوة فتح محمد على هم الذين أسخلوا العصر الحديث في التاريخ النوبي . بارزاً بينهم كان بورخارت <sup>(٣٠)</sup> وادينغتون وهنبرى <sup>(٣١)</sup> ، وكاليود <sup>(٣٢)</sup> لينانت دى بلغوند <sup>(٣٣)</sup> وجيلاً من بعد ، هوسكنز <sup>(٣٤)</sup> ولبسيوس <sup>(٣٥)</sup> . إن عروضهم الضخمة الموضحة بغزارة هي نقطة البداية لتاريخ موصول للنوبة يمتد متحدرًا لأزماننا الحالية .

## المصادر الأثرية

حفنة الحفريات التى نُفذت في النوبة من قبل عام ١٩٠٧ لم تكن عمليات تصفية صُممت لتكشوف عن نقوش هيروغليفيه ، تزيينات معمارية ، أو إسطبات كنوز معلومة بحذافيرها <sup>(٣٦)</sup> . لكل الأغراض العملية بدأ علم الآثار متسقاً خطأ وإجراء مع جورج أ . رايزنر والمسح الأثري الأول للنوبة ، الذى جعله ضرورياً توسيع سد أسوان الأصلي ( المبني ١٨٩٨ - ١٩٠٢ : توسع أولاً في ١٩٠٨ - ١٩١٠ ) . في ذلك الوقت كان تحدى إنقاذ الآثار ( أى التنقيب المنهجي المنظم غير المتحيز بالنسبة لكل المواقع المهددة بالدمار ) ما كان له سابق . ألزم رايزنر بتطوير منهج أثناء مسيرته عمله ؛ وجدت بعض إجراءاته - مثل إستخدام نماذج معيارية لتدوين المعطيات - مذاك قبولاً عالمياً .

(\*) نِسْبَةٌ لجنوة ، أى التبغية - المترجم.

## المسح الآثاري الأول

دام المسح الآثاري الأول في الميدان لأربعة مواسم ، من ١٩٠٧ إلى ١٩١١ ، واستطلع الكشف خمسة وتسعين ميلاً من وادي النيل بين شلال وادي السبوع ( الشكل رقم ١٠ ) . كان المسح موجهاً في الموسم الأول من ج ١ . رايزنز وفي المواسم الثلاثة اللاحقة من س.م. فيرت . بحسابه الذاتي نُقِبَ ١٥١ جَبانة وما يزيد على ٨٠٠٠ قبراً فردياً . حوالى نصف دسنة من المواقع فحسب بخلاف جَبانات جرى تحقيقها ، وواحد منها لا غير نُقِبَ يشي من الإتقان . جدولة أعمال المسح بالمواسم معروضة في الجدول الثاني . هذه النتائج ، وعلى وجه أشد من التدقيق أعمال الموسم الأول ، هي قاعدة المعطيات التي بُنيت عليها إعادة إنشاءات رايزنز وكل ما أعقبها للتاريخ النوبي .

تبرز خاصيتان في عمل المسح الآثاري الأول : أولاً : لقد كان مكرساً لبقايا جنائزية بما يكاد إبعاداً للثبينة الأثرية الأخرى ، وثانياً : إنه وضع تأكيداً ثقيلاً مختل التناسب على تحقيق المراحل الأولى للتاريخ النوبي . كلاً من الطرفين كان لحدراً مقصوداً . إن رايزنز وفيرث لم يرتابا مطلقاً في أن الثبينة الحرفية الكتابية سوف تؤثت الصورة الرئيسة للمراحل التاريخية المتأخرة ، وكان إختيارهم لمواقع التحقيق قائماً على قاعدة معقولة هي التركيز على أقل الفترات إشتهاراً . علاوةً على ذلك ، كان لا يزال من المأخوذ به في عام ١٩٠٧ أن القاعدة الأولى لكل علم الآثار - وبفلسف القدر إنقاذ الآثار - هي إستعادة المواد المنقولة (دالة يمكن عرضها) . كان التنقيب وتدوين المواقع الحية عملية غرضية وثأنوية أغلب الأمر . (هناك ، رغم هذا ، مسح معماري ونقوش لمعابد النوبة السفلى جرى في نفس الوقت : انظر بانباه ) . غُبر فيرت مرة أو مرتين عن أسفه أن ضغط الوقت لا يسمح لفرقه الميدانية بأن تفحص بعض المدائن الخربة التي لاحظوها على امتداد الطريق (٣٧) ، لكنه لم يعتبر أبداً بجديّة أن التحقيق التفصيلي عن هذه المدائن قد يُمنح الأولوية على الحفر المتواصل للقبور والجَبانات التي كانت أنواعها قد اشتهرت بحلول ذلك الوقت . نفس مدرج الأولويات كان سيبنى من علماء آثار متأخرين ، وقد أثر عميقاً على مخططنا للتاريخ النوبي مروراً بيومنا الحالي . وكمحصلة ، فإننا نعلم المزيد عن كيفية موت النوبيين الأوائل أكثر مما نعلم كيف أنهم عاشوا .

تعرض معالجة الآثار المسيحية القديمة ضوئاً جانبياً مثيراً للإهتمام عن عمل المسح الآثاري الأول . في الأسابيع الإفتتاحية التمهيدية نُقِبَ فريق رايزنز ١٠٦٢٥ قبراً بأكملها في جَبانة مسيحية بالقرب من شلال . عدداً من القبور أكبر بكثير مما جرى التنقيب عنه فيما بعد بأي جَبانة لأى فترة (٣٨) ، لقد كانت بالطبع خالية من أى قرايين ، حيث أن وضع المواد في القبر ما كان وجهاً للممارسة الجنائزية المسيحية . ويعد هذه المعرفة العملية المحيطة لم يفتح المسح أبداً أى عدد مهم من القبور المسيحية ثانياً ، ويمجئ آخر المواسم لم يُدَوّن وجودهم بمنهجية منظمة علاوة على ذلك .

كانوا ، مصحوبين ببقايا إسلامية ، مُحَقِّقِينَ بفترة فقيرة جداً وقريباً للغاية لا تثير أى اهتمام . وبسبب أن الآثار النوبية المسيحية لم تكن «أثراً جنائزياً» على وجه الدقة ، لم يسهم المسح الآثاري الأول ولا المسح الآثاري الثاني بأى شئ ذي قيمة وأهمية لإدراكنا عن طور تلك الأعوام التسعمائة من التاريخ النوبي .

إن الإنجاز الباهر للمسح الآثاري الأول كان من غير سؤال هو اكتشاف وتعريف « الجماعات » غير المدونة ، أ ، ب ، ج ، وس ، وترتيبها إلى جانب الثقافات المعروفة تاريخياً عن النوبة في تعاقب منظم . في حس ما ، كان هذا مُحَقِّقاً بما يكاد في المستهل . إن بقايا للفترات الأربع كلها ( وفي الحقيقة لكل فترة في التاريخ النوبي تقريباً ) تُصَنَّف في الجَبانة رقم ٧ بشلال ، التي استُكِمِل حفرها في إطار الأسابيع العشرة الأولى للحملة الميدانية (٣٩) . والجَبانة السابعة ربما أمكن وصفها لذلك بقاعدة المعطيات النهائية التي تقوم عليها كل التواريخ الحديثة للنوبة .



نُشرت تقارير أولية لعمل المسح في شكل نشرات صغيرة ، ظهرت في غاية من التعجل أثناء وبعد كل موسم . « جماعات » ١ ، ب ، وج كانت قد تُعرف عليها آنفاً (كنوعاً قهراً فحسب ) في أوائل *النشرات* ، والتتالي الكامل للنشرات ( المُصرَّفة الآن على وجه التحديد بجماعات سكنانية ) يُفُرح رسمياً في الصفحات الافتتاحية للنشرة الثالثة ، المطبوعة في ١٩٠٩ (٤٠) . وبعد عام ، في الأول من *تقارير مسح النوبة الأثرية* (لحملة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ) ، كرَّس راينز تعريفاً ومناقشة ممدودين لكل من المراحل الثقافية النوبية (٤١) . لقد كُرِّ ذلك وأكمل لتاريخه من فيرث في كلٍّ من الثلاثة تقارير الأخيرة ، إلا أن أسس هذه المراحل بقيت على حالها ، لا تخالف جهد راينز المبني .

تجب الإستزادة أنه لا *النشرات* ولا *التقارير* بائى حسي تعد سروداً شاملة لعمل المسح الأثري الأول . في بعض المواقع لم توصف أبداً في شكل طباعي ، وفي حالات كثيرة أخرى تبقى على جهلٍ بمدى ما أنجز أو مالم يتم إنجازه . في الحقبة الأولى من القرن العشرين كان التسليم بالتوثيق والنشر كاجزاء حيوية من مهام عالم الآثار بادئاً فحسب . ثم أُقيمت دراساتٌ معمارية ونقوشية للمعابد الفرعونية والبطلمية - الرومانية المتعددة في المنطقة المهددة ، مساوقةً للمسح الأثري ، لكنها مستقلة عنه . وقد تولى هذا العمل أ . م . بلاكمان ، ه . فوتير ، وس . رويدر ، ونُشر في سلسلة من المجلدات تحت العنوان *الجماعي معابد النوبة الغربية* (٤٢) .

### بعثات رائدة أخرى

خمس بعثات أخرى ولجت الحقل النوبي فيما بين عام أو عامين من المسح الأثري الأول . أما بعثات جامعة بنسلفانيا ، جامعة أكسفورد ، وأكاديمية فينا للعلوم فقد عملت في النوبة السفلى ، بإتجاه مصعد النهر من المساحة المهددة من السد الوطني . بعيداً صوب الجنوب ، بدأت بعثة مروي في إزاحة الغطاء عن المدينة الملكية الشهيرة بذلك الإسم ، واستطلعت حفريات (ولكم) بقايا ما قبل تاريخية في الجزيرة بين النيلين الأزرق والأبيض (٤٣) . باستثناء بعثة فينا ، دعمت كل هذه الحفريات عمل المسح الأثري في جانبيين مهمين . أولاً أعطت تنبهاً للبقايا الأثرية ، حيائية اليقة وصروحية تذكارية ، أشد بكثير مما فعل المسح . ثانياً ، كانت كلها معنية بقدر معتبر للغاية ببقايا الفترة المروية ، التي حدث أنها غير ممثلة في الشمال الأقصى للنوبة ومن ثم لم تظهر في عمل راينز وفيرث . بعثات أكسفورد وبنسلفانيا قامت كذلك بعمل أول مساهمة ذات قيمة وأهمية لدراسة الآثار النوبية المسيحية ، مرةً ثانية على أساس أثارى أكثر منه مخلفات جنائزية . خلال نفس السنوات كان المعماري سومرس كلارك يقوم بمسح للبقايا المسيحية بين الخرطوم والقاهرة ، مؤلفه *الآثار المسيحية القديمة في وادي النيل* (٤٤) هو العمل الرائد في هذا الميدان .

في ١٩١٣ عاد راينز إلى النوبة بعد غياب لعدة سنوات كمدير لبعثة هارفارد - بوسطن . هذه البعثة ، المعمولة شراكةً من جامعة هارفارد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة ، أمّنت رخصةً للتنقيب بلغت حد احتكار فعلى للبقايا الأثرية الهامة في السودان الشمالي . خلال الثمانية عشر عاماً التالية نُفذت تحقيقات تقريباً في كل المواقع الصروحية التي يرجع تاريخها إلى الفترات الأسرية في التاريخ النوبي (فرعونية ، نبتية ، ومروية ) . إن عمل البعثة يقع تحت ثلاثة عناوين رئيسة :

١ - تنقيب المركز التجاري المصري العظيم والجبانة الملكية النوبية في كرمة . أنجز هذا بين ١٩١٣ و ١٩١٦ ونُشر في دراسات هارفارد الإفرقية (٤٥) . إن معرفتنا لثقافة كرمة المتميزة ( قارن بالفصل الثامن ) ما انفكت قائمة بما يقرب من الإنحصار على هذه التقارير .

٢ - تنقيب لعدد من القلاع الهائلة في منطقة الشلال الثاني ، المشيدة أصلاً في الدولة الوسطى ووسّعت في ظل الدولة الجديدة . هذا العمل أُجرى بشكل متقطع طوال سنوات عدة ، تحت مديريين

## الجدول الثانى

ملخص لحفريات المسح الأثرى للنوبة، ١٩٠٧ - ١٩١١

الموسم	١٩٠٨-١٩٠٧	١٩٠٩-١٩٠٨	١٩١٠-١٩٠٩	١٩١١-١٩١٠	الاجمالى
الفترة	قبور	مواقع	قبور	مواقع	قبور مواقع
مسيحية	٢٠٤٤	٢٥	٤٢	٩	٨٣
				١	٤٨
				٤	٢٢١٧
					٢٩
الجماعة-س <sup>(١)</sup>	١٢٤	١١	٥١	٦	٢٨
					٤١٨
				١١	٢٤٣
				٧٨	١
				٢٨١	٩
				١	١٨
بطلمي-رومانى	٦٢٩	١٨	١	٩	٣٩
					١٠٨٩
				٣٠	٧٩٤
				٤٤٤	٧
				١٣٨	١٣
				١١٣	١٣
الدولة الجديدة	٩٩	١٣	١١٣	١٣	٥٣
					٧٩٤
				٣٥٥	١٦
				٤٧٤	١١
				٣٨٥	١١
الجماعة-ج <sup>(٢)</sup>	٤٠١	١١	٣٨٥	١١	٤٤
					١٦١٥
				١	٢
				١	١
				١	٩
				٦٦	٩
الجماعة-ب <sup>(٣)</sup>	٣٤٧	٩	٦٦	٩	٢١
					٤١٥
				١٣	٢٣٢
				٨	٥٦٤
				١٥	٣٧٧
				١٨	٥١٨
الجماعة - ا <sup>(١)</sup>	٥١٨	١٨	٣٧٧	١٥	٥٦٤
					١٦٩١
إجمالى	٤١٦٢	٦٠	١٠٣٥	٣٦	١٦٤١
				١٩	١٠٤١
				٤٢	٨٣٣٩
					١٠١

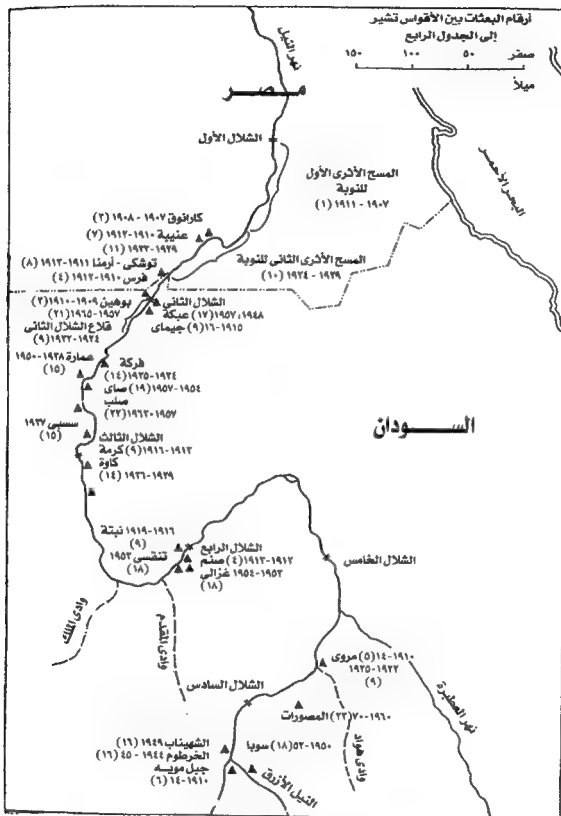
\* هذه إحصائيات لمواقع فردية، معدودة كالأعلى حدة فيما تم التحقيق عنه في كل موسم. وهي لا تساوى جملة المواقع المذكورة فى العواميد التى تعلوها مباشرة. وبما أن كثيراً من المواقع احتوت قبوراً شاملة لأكثر من فترة واحدة، فهي مكررة الذكر فى الجدول.

١- المجموعة المجهولة - المترجم

٢- المجموعة الثالثة - المترجم

٣- المجموعة الثانية - المترجم

٤- المجموعة الأولى - المترجم



شكل رقم ١٠  
التنقيب الأثاري في النوبة، ١٩٠٧ - ١٩٦٠

مختلفين . لم تظهر النتائج إلا منذ وقت وشيك للغاية وحسب ، في المجلدين المعنونين قلاع الشلال الثاني<sup>(٤٦)</sup> .

٣ - تنقيب الجبانات الملكية النبتية والمروية ، ومعابد مرافقة معينة ، بجوار كريمة وفي مروى . هذه كانت دونها شك عمل رايزنر *الطليعى* في السودان . ومنه أعاد رايزنر إنشاء التعاقب الملكي للأسر النبتية والمروية الذي لا يزال الإطار الأساسى للتسلسل الزمني لمناقشات هذه المرحلة من التاريخ النوبى . مرة أخرى ، لم تُنشر النتائج الملموسة الرئيسة حتى مضى وقت طويل بعد موت رايزنر ، في رتل من المجلدات الموضحة في روعة أعدها دوس دونهام ولُغبت جمعاً جباناً كوش الملكية<sup>(٤٧)</sup> .

الحفريات في السودان ما كانت سوى جزء ثانوى من عمل بعثة هارفارد - بوسطن . ومنذ بدء تنظيمها في ١٩٠٥ حتى وفاة رايزنر بما يقرب من أربعين عاماً لاحقة ، إستُحوذ اهتمام البعثة أولاً وبأعظم قدر في تنقيب مقبرة الدولة القديمة بالجيزة ، في ظل الأهرامات الكبرى . أُجريت العمليات العسكرية في السودان بتواكب على أفضل ما بوسعها . أكثر الأحيان أُنجز العمل في النوبة مؤخراً في الموسم ، بعد انتهاء الحفريات في مصر . كانت التنقيبات النوبية كيفما قضى الحال أكبر كتلة تم إنجازها في النوبة لعمل اثنى منسق ، ولسوف تشكل نتائجها دائماً العمود الفقري لدراسات التاريخ النبتى - المروى<sup>(٤٨)</sup> .

## المسح الأثارى الثانى

توسيع ثانى لسد أسوان الأصلى مدّ مياه النيل المحجوزة بعيداً بمصعد النهر حتى بلغ التخوم السودانية ، جعل ضرورياً قيام المسح الأثارى الثانى للنوبة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ( الشكل رقم ١٠ ) . هذه العملية ، التى اداها ي . ب . امرى ول . ب . كيروان ، كانت مشابهة لسالفتها في كل من مناهجها وفي نتائجها . ثانية ، ألغى تأكيد ثقيل على البقايا الجنائزية ؛ حققت ٧٦ جبانة وحوالى ٢٤٠٠ قبراً فردياً جرى استقصاؤه . إن جدولة جامعة لمحصلة المسح الأثارى الثانى معطاة بأدناه : إضافة إلى عمله في الجبانات ، أدى المسح الأثارى الثانى تنقيباً مُتقناً لقلعة الدولة الوسطى والدولة الجديدة في كوبان ومواقع الجماعة - ج<sup>(٤٩)</sup> والمدن المروية في وادى العرب . كان الإنجاز الباهر الحقيقى ( غير المتوقع تماماً ) للمسح مع هذا هو اكتشاف لجبانات الملكية الكبرى « للجماعة - س »<sup>(٥٠)</sup> واستطلاعها في بلانة وقسطل . إن التقرير المنشور في هذين الموقعين<sup>(٥١)</sup> وحده يشكل كتلة أكبر قدراً من التقرير المعد بشأن ٧٤ موقعاً آخر تحررت عنها البعثة<sup>(٥٢)</sup> . تصادفاً ، مُنّلت هذه التقارير - حسنة التنظيم والتوضيح - الدفعة المنهجية الرئيسة للمسح الأثارى الثانى مقارنة مع سابقتها .

كذلك كان جزء من حملة الإنقاذ للأعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٤ عمل ج . أ شتيندورف في عنبة ، ومسح البقايا المسيحية من طرف أوقو مونير دى فيلار . شتيندورف قام باكثر تحقيق إستكشافاً مما اضطلع به إلى الآن لبقايا الجماعة - ١ والجماعة ج<sup>(٥٣)</sup> . وقام مونير دى فيلار بمسح مُحصص ، كتابى وأثارى معاً ، لمادة تتعلق بالنوبة المسيحية ، ناتجةً في المجلدات الأربعة *النوبة في القرون الوسطى*<sup>(٥٤)</sup> . لقد كان بمقدوره من مصادر وثائقية أن يستجمع تاريخاً موسولاً بمنطقية للفترة المسيحية ، على أن توليفه الموعود للمادة الأثارية لم يتحقق أبداً وبالرغم من أن أجزاءه التحليلية والتفسيرية أولية ، *النوبة في القرون الوسطى* بصرف النظر عن ذلك ما فتئ الجسد الأساسى لى دراسة للآثار النوبية في القرون الوسطى .

(٥) المجموعة الثالثة - المترجم.

(٥٥) المجموعة المجهولة - المترجم.

### الجدول الثالث

ملخص حضريات المسح الأثارى الثانى للنوبة، ١٩٢٩ - ١٩٣٤

عدد المواقع	عدد القبر	الفترة الزمنية
٩	١٧	مسيحية
٢٠	١٧٨	الجماعة - س <sup>(١)</sup>
٢٩	٥٨٥	مروية <sup>(٢)</sup>
١٨	٤٠٥	الدولة الجديدة
٢٨	٩٧٥	الجماعة - ج <sup>(٣)</sup>
١	٤	الجماعة - ب <sup>(٣)</sup>
١٥	٢١٨	الجماعة - أ <sup>(١)</sup>
٧٦	٢,٣٨٢	إجمالي

\* هذه تأخذ مكان القبر البطلمية - الرومانية التى حُفرت بالمسح الأثارى الأول. التخوم الرومانية - المروية اتسقت إتساقاً مقرباً للنقطة التى كان قد انتهى إليها المسح الأول وبدأ فيها المسح الثانى (وادي السبع).

+ هذا هو الإجمالي الحقيقى للمواقع التى عُدّها وحققها المسح، وليس جملة ما هو وارد بالعمود اعلاه، ذلك حيث أن مواقع المراحل المتعددة مذكورة فى قوائم تزيد على مصنف واحد.

١- المجموعة المجهولة - المترجم

٢- المجموعة الثالثة - المترجم

٣- المجموعة الثانية - المترجم

٤- المجموعة الأولى - المترجم

**الجدول الرابع**  
**التسلسل الزمني لبعثات النوبة، ١٩٥٨ - ١٩٠٧**  
(انظر أيضا الشكل رقم ١٠)

رقم	المؤسسة والقطر	المدير	السنوات	المساحات المشغولة*	العمل الرئيس أو البقايا المحققة	مطبوعات†
١	المسح الأثاري للنوبة (مصر)	رايزنر شيرث	١٩٠٧ - ١٩١١	شلال - وادي السبع (ن س)	حفريات - مسح	ASN
٢	مصلحة الآثار المصرية	بلاكمان وآخرون	١٩٠٧ - ١٩١١	شلال - وادي السبع (ن س)	تقوش المعابد	TIN
٣	جامعة بنسلفانيا، بعثة أ.ب. كوكس (الولايات المتحدة)	مالك إيثر وولس	١٩٠٧ - ١٩٠٨	عمدا - غنيبة (ن س)	مدينة الجماعة ج: بقايا مروية وبقايا الجماعة-س	EBC
			١٩٠٨ - ١٩٠٩	منطقة فرس (ن س)	كلثس مسيحية	EBC
			١٩٠٩ - ١٩١٠	بوهين	قلعة فرعونية	EBC
٤	حفريات جامعة أكسفورد (المملكة المتحدة)	جريفيث	١٩١٠ - ١٩١٢	منطقة فرس (ن س)	معابد فرعونية؛ مواقع مروية إلى المسيحية	LAAA
			١٩١٢ - ١٩١٢	صنم (أ د)	معبد وجبانة نبتين	LAAA
٥	جامعة ليدربول (المملكة المتحدة)	فارستق	١٩١٠ - ١٩١٤	مروى (أ ش)	مدينة ومعابد نبتة ومروية	LAAA مروى
٦	حفريات ولكم (المملكة المتحدة)	ولكم	١٩١٠ - ١٩١٤	جبل مويه (س أ)	قرى وجبانات لعصر غير مؤكد	WES
٧	بعثة سيجلين (ألمانيا)	شتيندورف	١٩١٠ - ١٩١٢	غنيبة (ن س)	قلعة فرعونية؛ جبانات الجماعة ج	
٨	أكاديمية فيينا للعلوم (النمسا)	جنكر	١٩١١ - ١٩١٢	توشكي - أرمنا (ن س)	جبانات لكل الفترات	AWW
٩	بعثة هارفارد - بوسطن (الولايات المتحدة)	رايزنر	١٩١٣ - ١٩١٦	كرمة (أ د)	مستعمرة فرعونية؛ جبانات كرم	HAS
			١٩١٥ - ١٩١٦	جيماي (ب أ)	جبانات لتفترات زمنية مختلفة	HAS
			١٩١٦ - ١٩١٩	نبتة (أ د)	متابر ومعابد نبتة ومروية	RCK, BT
			١٩٢٢ - ١٩٢٥	مروى (أ ش)	جبانات مروية	RCK
			١٩٢٤ - ١٩٢٧	بطن الحجر (ب أ)	قلاع فرعونية	SCF
١٠	مصلحة الآثار المصرية	امري كبروان	١٩٢٩ - ١٩٣٤	وادي السبع أبدندان (ن س)	مسح - حفريات	MAN
١١	مصلحة الآثار المصرية	شتيندورف	١٩٢٩ - ١٩٣٣	غنيبة (ن س)	الجماعة أ، الجماعة ج وجبانات فرعونية	MAN
١٢	مصلحة الآثار المصرية	م. دي هيلار	١٩٢٩ - ١٩٣٤	كل النوبة	حصن لبقايا المسيحية	MAN

رقم	المؤسسة والقطر	المدير	السنوات	المساحات المشغولة*	العمل الرئيسى أو البقايا المحققة	ملاحظات†
١٢	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	ستانفورد أركل	١٩٢٩-١٩٣١	كل النوبة	بقايا العصر الحجري القديم	OIP
١٤	بمئة جامعة اكسفورد (المملكة المتحدة)	جريفيث، كبروان	١٩٢٩-١٩٣٦ ١٩٢٤-١٩٣٥	كاوة (أ د) فرقة (أ ع)	معابد فرعونية ونبتية قبور الجماعة س	كاوة فرقة
١٥	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	بالكان فيرمان سينى	١٩٣٧ ١٩٣٨-١٩٣٩ ١٩٤٧-١٩٥٠	ميميى (أ ع) عمارة (أ ع)	مدينة ومعبد فرعونى معبد فرعونى	JEA JEA
١٦	مصلحة الآثار السودانية	أركل	١٩٤٤-١٩٤٥ ١٩٤٩	الخرطوم (س أ) الشهباب (س أ)	بقايا العصر الحجري الوسيط بقايا العصر الحجري الحديث	EK Shah
١٧	جامعة الخرطوم (السودان)	مايرز	١٩٤٨، ١٩٥٧	عكة (ب أ)	بقايا العصر الحجري الحديث	كوش
١٨	مصلحة الآثار السودانية	شيني	١٩٥٠-١٩٥٢ ١٩٥٢	سوبا (س أ) تلقسى (أ د)	مدينة ممبiche وكنيسة قبور الجماعة - س	SASOP كوش
١٩	البعثة الأثرية الفرنسية	فيروكوت	١٩٥٢-١٩٥٤ ١٩٥٤-١٩٥٧	كور (ن س) جزيرة صاى (أ ع) ‡	مدينة فرعونية حصن فرعونى؛ جبانات لكل الفترات	كوش كوش
٢٠	مصلحة الآثار السودانية	ثابت	١٩٥٥	ديبره (ن س)	قبر فرعونى	كوش
٢١	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	امرى	١٩٥٧-١٩٦٥	بوهين (ن س) §	حصن فرعونى	كوش JEA
٢٢	جامعة بيزا (إيطاليا)	شيف جورجيني	١٩٥٧-١٩٦٣ ١٩٦٤	صلب (أ ع) صندوقا ¶ (أ ع)	معبد فرعونى معبد فرعونى؛ جبانة نبتية ومروية	SS كوش
٢٣	جامعة هامبولت (ألمانيا) D.D.K.	هنتز	١٩٥٧-١٩٥٨ ١٩٦٠-١٩٧٠	البطانة (س أ) المصوات (أ ش)	مسح إستطلاعى مدينة مروية	كوش كوش
٢٤	مصلحة الآثار السودانية	فيروكوت	١٩٥٨-١٩٦٠	ودبانقا (أ ش)	قصر ومعبد مروى	Syrie

\* الإختصارات لمناطق النوبة كالآتى: أ ع، أرض عبرى - دلقو النهرية؛ أ ح أرض أبو حمد النهرية؛ ب  
أ، بطن الحجر؛ س أ السودان الأوسط؛ أ د، أرض دنقلا النهرية؛ ن س، النوبة السفلى؛ أ ش،  
أرض شندى النهرية. أنظر الفصل الأول.

† لشرح الإختصارات وللمراجع كاملة أنظر المذكرات، ص:

‡ العمل فى جزيرة صاى إستؤنف فى ١٩٦٩.

§ أصبحت هذه البعثة جزءاً من حملة إنقاذ النوبة أنظر الجدول الخامس، البعثة رقم ب-١٠.

¶ حفريات لا تزال جارية.

## بعثات متأخرة

عُمر النوبة السفلى ، مدمجاً بكساد إقتصادي عالمي ، إستجلب خفصاً متنبأ به في النشاط الأثاري بالثلاثينيات من عام ١٩٣٠ . أوقفت بعثات هارفارد - بوسطن في ١٩٣٢ ، مع أن البعثة لم تُصَف رسمياً حتى بعد سنوات متأخرة . رغم ذلك ، أحيا ق. ل . جريفث بعثات أكسفورد في ١٩٢٩ ، وتواصلت من بعد وفاته من قِبَل ل . ب . كبروان . نحو نهاية الحقبة العالجت جمعية إكتشاف مصر الجيلية صاحبة الباع الطويل في واجهة العمل الميداني بمصر . أول دخول لها في داخل الميدان النوبي بسلسلة من الحفريات في منطقة عبرى - دلقو النهرية . كان هذا العمل بالضرورة موقوفاً خلاف الحرب العالمية الثانية ، لكنه استأنف سيره بين ١٩٤٧ و ١٩٥٠ .

نشاط أجنبي آخر قليل توالى في النوبة أثناء السنوات الباكورة ما بعد الحرب . في قسم ملكي الفراغ ببعثات محلية من كلية غوردون التذكارية ( جامعة الخرطوم لاحقاً ) ومصلة الآثار السودانية . بمستهل ١٩٥٠ إفتتحت مصلحة الآثار سلسلة من الحفريات السنوية المنظمة فوضعت المرحلة للقسم النشاط المتأخر الذي كان علي المصلحة أن تلعبه في حملة إنقاذ السد العالي . في هذه الأثناء أُستعيد الإهتمام الخارجي تدريجياً . شرعت بعثة فرنسية في العمل بجوار وادي حلفا في ١٩٥٣ ، وفي ١٩٥٧ بدأ مالا يقل عن ثلاثة جماعات خارجية ، من بريطانيا العظمى ، ألمانيا ، وإيطاليا ، تنقيباً واسع النطاق في السودان<sup>(٥٢)</sup> . من بعد عامين ، أطلق إعلان سد أسوان العالي حملة الإنقاذ الكاسحة الثالثة في النوبة ما بين ستين عاماً .

## حملة السد العالي

المسحان الأثريان الأولان للنوبة حُملا على الترتيب من مصلحة المساحة المصرية ومصلة الآثار ، بإعتماد من وزارة المالية في كل حالة . إن المطالب التي خَلَفَهَا السد العالي ، مع هذا ، كانت مما يقع فوق موارد كل من الحكومتين المصرية أو السودانية . في هذه الظروف ، قررت منظمة الأمم المتحدة للتعليم ، والعلوم ، والثقافة (يونسكو) بناء على نداء يهيب بضمير العالم أن تتبرع بموارد علمية ، فكرية ، ومالية نحو الحفاظ على صروح النوبة المهددة . فإذا لم تتماشى نتائج هذا المسعى في النهاية تماماً مع الوعد البراق الذي طرحه دعايتو اليونسكو ، فإن إضافتهم تظل قائمة لسجل من الإنجاز لم يسبق له مثيل في التنقيب والحفظ على حد سواء .

كانت مقتضيات حملة السد العالي مختلفة في عدة وجوه عما فرضته المشروعات السابقة المسبقة للإنقاذ . ولأن خزان أسوان القديم كان قد أفرغ خلال جزء من كل عام ، فإن المعابد المفترقة وصروحاً أخرى للنوبة السفلى كانت لا تزال شاهدة أثناء أشهر الصيف ، ما كانت إعادة وضعها ضرورة معتبرة . أما السد العالي من الجانب الآخر فهو سيصنع بحيرة دائمة ، وإى شئى مغطى بالمياه يفترض خسارته إلى الأبد . لقد كان ضرورياً بسبب ذلك أن يخطط لإقتلاع ونقل ، وإعادة تركيب على أرض أعلى إرتفاعاً لبعض خمسة وثلاثين معبداً رئيساً وجملة من صروح ضخمة أقل . إنقاذ أبو سمبل الذى لا يوجد له شبيه كان بالطبع هو الأشد سعاًراً للخيال الأعظم غلاء بما لا حد له من هذه التعهدات ، بيد أن الحفاظ على ثلاثين أو نحو ذلك من المعابد كلف ، بتقدير إجمالي ، ما يعادله أو أكثر .

كانت حملة السد العالي على غير ما كان عليه حال الحملات السابقة ، برنامجاً للحفظ في المقام الأول ، تحديها الأكبر ملقى عاتقه على المهندسين بدلاً من علماء الآثار . رغم أن هذا كان حجم النشاط الأثري هائلاً . في إستجابة لنداء اليونسكو كان هناك «إندفاع ذهبي» بالفعل للأثريين إلى ضفاف النيل ، أكثر من أربعين بعثة أقامت نقاط مراقبة لدعاويها بمصعد النهر ومنحدره . ( في



زحمة الإنقاذ الأول كانت هناك إضافةً إلى ذلك إدعاءات متنافسة ومجادلات حول الحدود ( القوائم المعدة للبعثات مكتملة العدة والعتاد ( الجدول الخامس ) لا تستنفد بأى حال من الأحوال قائمة المساهمات لحملة النوبة الأثرية ، إذ أن عدة أمم ومؤسسات أرسلت بالمثل بعثات فنية لتعين أعمال اليونسكو والحكومتين المصرية والسودانية . على وجه العموم لا يزيد مجموع الآثار التي حققت في النوبة ١٩٥٩ على كل ما استقصى من كل الفترات السابقة فحسب ؛ إنما يحتمل كذلك أنه أعظم مما كان سيُتحرى عنه في القرنين أو الثلاثة قرون القابلة دون إستثارة من السد العالي .

مستحيل هنا أن نفعل أكثر من تعديد البعثات المختلفة التي عملت في النوبة المصرية والسودانية في السنوات العشر الأخيرة ( الجدول الخامس ) . إن تقاريرهم المنشورة قد بدأت لتوها الآن في الظهور ، وسوف تمضى سنون قبل أن يكون بإمكاننا قياس مساهمتهم الكاملة في دراسة التاريخ النوبى . وبالنظر إلى قاعدة المعطيات المعتبرة التي أتاحها عمل سابق ، مع ذلك ، ومما لا يثير دهشة ، أن الحملة الأثرية الحالية لم ، وما كان بمقدورها ، أن تدر نتائج بنفس القدر الذى أدركه أسلافها . إن قانون تناقص الغلة الحدى يؤدى مفعوله في الآثار بمدى ما يقوم به فى أى ميدان آخر للإجتهد . حملة السد العالي أمدت بضعاً من القطع التي ما فُتنت مفقودة من الصورة النوبية ، لكن إنجازها العمادى هو إلقاؤها مزيداً من الضوء على كل جزء منها . بشكل مفهوم ، جعلت أغلب إضافات وفيرة في تلك الفترات التي تكون البداية والنهاية للتاريخ النوبى ( ما قبل التاريخ وبقرون الوسطى ) إذ أنها متجاهلة بقسط كبير من المسوح المبكرة .

بالرغم من أن اليونسكو ولدت الدعاية وجمعت معظم المال لحملة إنقاذ النوبة ، فإن التنظيم والإدارة الفعلية لهذا العمل المعقد ترك للحكومتين المعنيتين . على نحو مختلف جرى تطوير إستراتيجيات مختلفة في الحالتين . قسمت الحكومة المصرية النوبة السفلى جميعها إلى حصص جغرافية من نفس الحجم بالتقريب ، وأذنت للبعثات أن تلتقط وتختار من بينها على أساس من يصل أولاً يُحَدَّم أولاً . إن البعثة كانت بطبيعة الحال مسؤولة عن التحقيق في كل شئ هام في نطاق مقاطعتها المختارة . أما إغراء إمتيازات التنقيب اللاحقة في جِبانات المدن القديمة بالنوبة السفلى فأكد أنه حتى حصص النوبة الأقل وعداً لم تكن في حاجة لطالبيين . وبرؤية العمل المتسع الذى أُجرى أنفاً بالمسوح الأولى ، والمواقع التي دمرتها الغمرات السابقة ، فإن الحاجة في معظم النوبة المصرية كانت لتقصٍ تفصيلي لمواقع مختارة قليلة أكثر من كشفٍ إضافي عام .

اختلف الموقف في النوبة السودانية عنه بمصر في جانبين . أولاً : ما كانت هناك مسوح سابقة لتوفر قاعدةً لمعطيات مقارنة بأى طريقة كالتى في مصر . ثانياً : ما كان باستطاعة مصلحة الآثار السودانية أن تعرض للمشاركة في الحملة النوبية توقعات بالتقاطات غنية لاحقة في أجزاء أخرى من القطر . قررت مصلحة الآثار لذلك أن تاذن لأصحاب إمتيازات التنقيب الأجانب أن يحصروا أنفسهم في مواقع من إختيارهم الخاص ، وفى نفس الوقت ، أن تنظم من مواردها الذاتية مسحاً مماثلاً للمسوح المبكرة في النوبة المصرية . أغراض هذا المسح كانت ، أولاً : أن يجد ويعرف أى بقايا جديرة بالتنقيب من بعثات أجنبية ، وثانياً : أن يدعم عمل البعثات الأجنبية بالتنقيب عن أى شئ غير مطلوب من قبَلها .

مسح النوبة السودانية ، الذى نُظِم في بداية عام ١٩٦٠ بعون من اليونسكو ، إستكشف في نهاية المطاف الإمتداد الكامل لودائ النيل بين الحدود المصرية ومدخل الخزان المقترح (حوالى ١٠٠ ميل ) ، مكتشفاً لما يزيد على ١٠٠٠ موقع ، ومنفذاً بعض التنقيب في أكثر من ثلثها <sup>(٥٤)</sup> . في نقطة فرقة المسح ، أو في حالات قليلة قبلها ، أخذت بعثات أجنبية حوالى ١٨ إمتيازاً للتنقيب في النهاية ( الشكل رقم ١١ ) . ومع أن إقليمهم غطى أقل من ربع المساحة الكلية المهددة للنوبة السودانية ، فقد شمل معظم مواقع الصروح وكثيراً من الجِبانات الكبرى . إضافةً لذلك ، كانت هناك

**الجدول الخامس**  
**البعثات الأثرية للنوبة ١٩٥٩ - ١٩٦٩**  
مرتبة من الشمال إلى الجنوب  
[ انظر الشكل رقم ١١ ]

١. النوبة المصرية			
رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
١-١	دابود	المركز البولندي لآثار البحر الأبيض المتوسط	معبد فرعوني
٢-١	دهميت	المتحف المصري في تورين (إيطاليا)	خرائب فرعونية
٣-١	كرتسى - طايفي	المعهد الشيكوسلوفاكي للمصريات	قلعة رومانية؛ موقع فرعوني
٤-١	خوردحميت - بيت الوالى	المعهد السويسري - المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	جبانات الجماعة - س
٥-١	بيت الوالى	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة)	معبد فرعوني
٦-١	سبفورة	جامعة ميلانو (إيطاليا)	مدينة مسيحية محصنة
٧-١	كويان - المحرقة	جامعة ميلانو (إيطاليا)	خرائب فرعونية؛ مدن مسيحية
٨-١	دكة - وادى العلاقى	أكاديمية لينتفرد للعلوم (الإتحاد السوفيتي)	بقايا الجماعة - أ و الجماعة - ج
٩-١	سيالة	جامعة فينا (النمسا)	مسح - حفريات
١٠-١	شيمة - وادى السبوع	المعهد الفرنسى - المعهد السويسري	قرية للجماعة - ج؛ خرائب فرعونية؛ كنائس
١١-١	وادى السبوع	مصلحة الآثار المصرية	معبد فرعوني
١٢-١	عمدا	المعهد الالماني	الجماعة - ج وخرائب فرعونية

## تابع الجدول الخامس

### تابع ١. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
١٣-١	كورسكو - قصر إبريم	المتحف المصري فى تورين (إيطاليا)	مسح - حفريات
١٤-١	توماس	جامعة استراسبورغ (فرنسا)	الجماعة-ج وجبانات فرعونية؛ قرية مروية
١٥-١	عافية	المسح الأثارى الهندى	بقايا الجماعة-١ والجماعة-ج
١٦-١	شيخ داؤد	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	قلعة مسيحية
١٧-١	عنية	جامعة القاهرة (الجمهورية العربية المتحدة)	جبانات فى كل الفترات
١٨-١	قصر إبريم	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	قلعة وجبانات مروية إلى العصور الوسطى
١٩-١	مسمس	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	جبانة مروية
٢٠-١	توشكى - ارمنيا	بعثة بنسلفانيا - يل (الولايات المتحدة الأمريكية)	جبانات لفترات مختلفة؛ مدينة مروية إلى العصر المسيحي
٢١-١	تاميت	جامعة روما (إيطاليا)	مدينة وكنائس مسيحية
٢٢-١	عبدالله نرقى	جامعة ليند (هولندا)	مدن وكنيسة مروية ومسيحية
٢٣-١	جبل عدآ	جامعة الاسكندرية (الجمهورية العربية المتحدة)	مسح حفريات
٢٤-١	جبل عدآ	المركز الأمريكى للبحوث فى مصر	مدينة وجبانات مروية إلى العصور الوسطى
٢٥-١	قسطل	المعهد الشرقى بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	مسح - حفريات
٢٦-١	بلانة	مصلحة الآثار المصرية	مقابر الجماعة - س

## تابع الجدول الخامس

### تابع أ. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
٢٧-١	قصر الوز	المعهد الشرقي بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	دير مسيحي
٢٨-١	(كل المنطقة)	البعثة المشتركة لما قبل التاريخ (الولايات المتحدة الأمريكية)	بقايا ما قبل التاريخ
٢٩-١	(كل المنطقة)	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	مسح إستطلاعي

**ملحوظة :** المسوح شمال أسوان التي أجرتها بعثة يل لما قبل التاريخ والمتحف القومى الكندى غير مضمّنة فى هذه القائمة.

### ب. النوبة السودانية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
١-ب	فرس غرب- جيمائى غرب	مصلحة الآثار السودانية	مسح- حفريات، لكل الفترات
٢-ب	فرس شرق - جيمائى شرق	البعثة الإسكندنافية المشتركة	مسح- حفريات، لكل الفترات
٣-ب	فرس غرب	المركز البولندى لآثار البحر الأبيض المتوسط	كنائس مسيحية وقصر
٤-ب	عكشة	البعثة الأرجنتينية الفرنسية	معبد فرعونى؛ مدينة مسيحية
٥-ب	سرة شرق	المعهد الشرقي بشيكاغو (الولايات المتحدة)	قلعة فرعونية؛ مدينة وكنائس مسيحية
٦-ب	سرة غرب	البعثة الإسكندنافية المشتركة	مقبرة فرعونية
٧-ب	دبيرة غرب	جامعة غانا	مدينة وكنائس مسيحية
٨-ب	أرقين	البعثة الاسبانية القومية للنوبة	جُبانات لكل الفترات

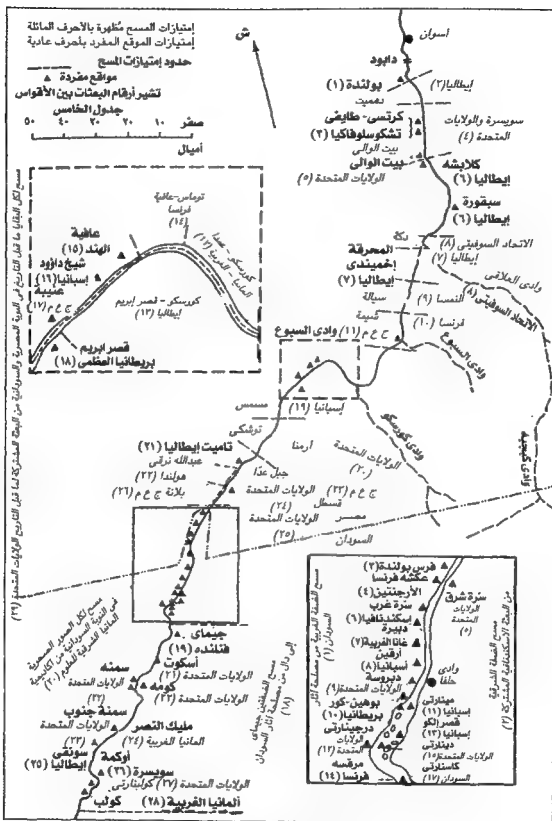
## تابع الجدول الخامس

### تابع ب. النوبة المصرية

رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
ب-٩	دبروسة غرب	متحف جامعة كولرادو (الولايات المتحدة الأمريكية)	بقايا ما قبل التاريخ؛ الجماعة سس ومدن مسيحية
ب-١٠	بوهين	جمعية إستكشاف مصر (المملكة المتحدة)	قلعة فرعونية
ب-١١	مينارتي	مصلحة الآثار السودانية	مدينة وكنيسة مروية إلى العصر المسيحي
ب-١٢	دورجنارتي	المعهد الشرقي بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية
ب-١٣	قصر إيكو	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	كنائس مسيحية
ب-١٤	مرقمة	البعثة الفرنسية للآثار	قلعة فرعونية؛ مدينة وجبانات
ب-١٥	دابينارتي	جامعة كاليفورنيا (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية
ب-١٦	ابكانارتي	البعثة الأسبانية القومية للنوبة	مدينة مسيحية مُحَصَّنة
ب-١٧	كاسا نارتي	مصلحة الآثار السودانية	مدينة مسيحية
ب-١٨	جيماي - دال	مصلحة الآثار السودانية (اليونسكو)	مسح - حفريات
ب-١٩	جيماي - مرشد	البعثة الفنلندية للنوبة	مسح - حفريات
ب-٢٠	مرشد - دال الضفة الغربية	جامعة كولرادو (الولايات المتحدة الأمريكية)	مواقع ما قبل التاريخ
ب-٢١	أسكوت	جامعة كاليفورنيا (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية ؛ مدينة مسيحية
ب-٢٢	سمعة - كومة	جامعة براون (الولايات المتحدة الأمريكية)	معابد فرعونية

## تابع الجدول الخامس

تابع ب. النوبة المصرية			
رقم	منطقة الكشف	الهيئة والقطر	العمل الرئيس أو الآثار تحت التحقيق
ب-٢٢	سمنة جنوب	المعهد الشرقي بشيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية)	قلعة فرعونية ؛ جبانة مروية
ب-٢٤	ملك النصر	المعهد الألماني (ألمانيا الاتحادية)	خرائب مسيحية
ب-٢٥	سونقي غرب	جامعة روما (إيطاليا)	كنيسة مسيحية
ب-٢٦	عكاشة - أوكمة	جامعة جنيف (سويسرا)	مسح - حفريات كنائس مسيحية
ب-٢٧	كولبارتي	جامعة كنتكي (الولايات المتحدة الأمريكية)	قرى مسيحية
ب-٢٨	كولب	المعهد الألماني (ألمانيا الاتحادية)	مدينة مسيحية مُحصنة
ب-٢٩	(كل المنطقة)	البعثة المشتركة لما قبل التاريخ (الولايات المتحدة الأمريكية)	بقايا ما قبل التاريخ
ب-٣٠	(كل المنطقة)	الأكاديمية الألمانية للعلوم (ألمانيا الديمقراطية)	رسوم ونقوش صخرية



شکل رقم ۱۱

إمтиازات التنقيب في النوبة، ١٩٦٠ - ١٩٧٠  
تُظهر المربعات تكبيراً لمناطق عنبية ووادي حلفا

تولته مصلحة الآثار . قامت جماعة إسكندنافية بكشف محصن لقسم واحد من النوبة السودانية وفي نفس الآن نُقِّبَت كل المواقع الكبرى بينها . مسوحٌ متخصصة أخرى لكل الإقليم كُرسَت لتدوين النحت والرسم الصخرية وللتحقيق في بقايا العصر الحجري .

بسبب مركزه الفريد تجاه ما تبقى من مسؤولية ، كان ضرورياً لمسح النوبة السودانية أن يظل لصيق الملامسة بعمل البعثات الأخرى ، يدعمه حيثما دعت الضرورة . حُفِّظَ سَجَلٌ وثائقي مركزي لسنوات عديدة في وادي حلفا ، دُوِّنَ فيه نتائج عمل كل بعثة في مسيرة تقدمها . في عمله الخاص إرتأى مسح مصلحة الآثار أن يركز على تلك الفترات وتلك الأنواع من البقايا التي لم تلق تنقيباً من البعثات الأخرى ، مؤكداً بذلك أنه في ختام الحملة النوبية ستجتمع الأجزاء المختلفة لنسق ما من الكل الموصول . مبدئياً خلال هذه الإستراتيجية من الدعم ، اضحى مؤلف هذا الكتاب خبيراً في دراسة بقايا الحياة ، والمرحلة المسيحية من التاريخ النوبي ( السجل الوثائقي لوادي حلفا - الذي نقل الآن للخرطوم - أدى إلى جانب هذا مساهمة وفيرة في كتابة هذا المؤلف ) .

### الحاضر والمستقبل

بينما كان السد العالي يسدل الستار على كتاب النوبة ، كان يفتح في نفس الوقت فصلاً جديداً في دراسة آثار النوبة العليا . عبر مشاركتهم في حملة الإنقاذ أخذ علماء آثار كثيرون أول نظرة لهم على الأراضي المولجة لجنوب الشلال الثاني ؛ يتولى عديد منهم الآن إمتيازات تنقيب في أجزاء أخرى من السودان . المدائن المروية بالمصورات ومروى ، العاصمة القديمة للقرون الوسطى بدنتا ، معابد صلب وصدنقا وقلعة صاى العظيمة وُضعت كلها تحت حفر التنقيب في الأعوام البائدة منذ حملة السد العالي ، وبعثات أخرى تُتَوَقَّعُ للنوبة العليا <sup>(٩٠)</sup> . إن الإهتمام بهذه المنطقة التي أخذ تجاehlها وقتاً طويلاً يمكن أن يتضاعف حينما يصير معلوماً الآثارى أكثر إشتهاراً وحسب - وعندما يزول بديل العمل في النوبة السفلى . قارئ هذا الكتاب يجب أن يكون مهياً لإضافات مهمة للقصة في أى وقت .

إجمالاً يمكن لعلماء الآثار أن ينظروا القهقري لإنجازاتهم في النوبة بافتخار كبير . إن المَدُونُ الذي تمكنوا من كشفه في ثلاثة أرباع قرن أكثر إكتمالاً لمدى بعيد في طرائق كثيرة من الذي قدمه التاريخ الموثق في عام ١٩٠٠ . غير أنه لا تزال هناك تجاويف هائلة . الإستطلاع المنهجي ، ومن ثم المعرفة المنظمة ، ما انفكت محصورة في تلك المساحات التي دُمِرت بسدود أسوان المتعاقبة . النوبة السفلى وبلن الحجر موسعة ومفصلة ، كما يَبْهتُ الإحتلال في هذه المناطق ، لكنها ليست مكتملة بأى حال . فصولٌ بأكملها - ما يُسمى « ثقافة المجموعة الثانية » <sup>(٩١)</sup> ، الفترة النبتية ، وبنفس القدر فترة القرون الوسطى الأخيرة - تبدو مفقودة .

ربما جاز لنا أن نقدم صورةً مصغرة لتأريخ التنقيب في النوبة مع الملاحظة بأنه هنا كما بأى مكان آخر في العالم سار التعرّي الميداني خلال ثلاث مراحل ، ويمكن بشكلٍ مريح توصيفه « كمشوائي » ، « انتقائي » ، و « شمولى » . الفترة العشوائية موصوفة لغثم مهتبل وغير علمى تماماً بحثاً عن القطع الفنية أو الكنوز . لقد كان ذلك هو المصير التحس للصروح القديمة في كل الأجزاء التي يمكن بلوغها من العالم ؛ إن مثل هذه الأنشطة في النوبة قليلة من باب الرحمة . فبالى القرن العشرين كانت المنطقة نائيةً قصيةً وغير مستقرة للغاية لتجذب أى أحد سوى أصلب عشاق التحف .

بدايات علم الآثار هلَّتْ بشائرها بالتنقيب المتزايد منهجيةً وعنايةً لمواقع قليلة متخيرة ، عادةً من بعثات كبيرة مكتملة التجهيز والإعداد وعلى رأسها علماء مهنيين ( ليسوا بالضرورة متقبيين مدربين ) . إن المواقع التي أفردت للتنقب في المرحلة « الإنتقالية » هى بالتقريب دائماً الصروح الإمبريالية الفنية

(٩٠) - الجماعة - ب - فى النص الاصلى - المترجم.



العظيمة . فوق كل شيء المعابد الملكية ، والقصور ، والقبور . مثل هذه البقايا تحفظ بالتأكيد الثقافة الخاصة بصفوة منعمة لا لغيرها . إن تنقيبها يسهم بما لا يحصر قياسه في دراسة تاريخ الفن والتأريخ الأسرى ، لكنه في نفس الوقت يؤسس صورة غير كاملة ومن جانب واحد للتطور الثقافي لشعب بأكمله .

تبدأ الآثار " الشمولية " عندما ينعطف التنقيب من بقايا الصروح العظيمة لمواقع صغرى وأقل إلهاباً للفكر ، ويُبذل جهد يعرض المنطقة لأخذ عينات لمواقع من كل نوع ولكل فترة تاريخية . من مثل هذه القطع الصغيرة تنشأ صورة كبيرة بالتدرج للثقافات والتواريخ الثقافية لأناس بأجمعها .

بانتهاء كثيرة من العالم ، لم تُتَّكَم المرحلة الشمولية للتحقيق الأثري بعد . في قلة ، جاءت للساحة لاحقة لإنقاذ المواقع الصروحية ، على مبدأ *ما لا يوجد أفضل منه* . وفي الغالبية العظمى من الحالات حيث تنامي علم الآثار الشمولي ، مع ذلك ، فرضت على عالم الآثار بمتطلبات الإنقاذ . ربما سيرد منقبو المستقبل ظهور علم آثار إنقاذ في الحقب التي تتلو الحرب العالمية الثانية كواحد من أشد التطورات ثورية في تاريخ سلكهم . في نطاق الجيل الحاضر أدى هذا المدخل الشمولي المُحدث للتنقيب ، الذي جعل ضرورياً بالتفجر العظيم لنشاط البناء في سنوات ما بعد الحرب - إلى زيادات قيمة ومهمة ، وأحياناً لمراجعات جذرية ، في معرفتنا للتاريخ الثقافي في أنحاء كثيرة بالعالم . إن التحرر عن بعض المناطق الضخمة التي دمرتها السدود والخزانات قد اضطرننا لأن نفكر عن الثقافة والتاريخ ، بعض المرات لأول حين ، في تعابير فضفاضة بدلاً عن التفكير عنهما بإصطلاحات الموقع ، المدينة ، أو الأسرة الأكثر إتفاقاً وحصراً<sup>(\*)</sup>

لسوف يدرك القارئ أن أغلبية أعمال التنقيب التي أُجريت في النوبة قبل ١٩٦٠ تنتمي إلى المرحلة الثانية أو الإنتقائية للتطور الأثري . يَصْنَق هذا على وجه الخصوص بالنسبة لبعثة هارفارد - بوسطن ، التي يُشكّل عملها في وجوم كبيرة العمود الفقري لعلم آثار النوبة العليا نزولاً لليوم الحاضر . بالرغم من أن البعثة تقبض إمتياز تنقيب يغطي السودان الشمالي بأكمله ، وقد كانت نشطة في الميدان كل عام تقريباً من ١٩١٣ إلى ١٩٣٢ ، كادت أن تنحصر بكليتها في القلاع والمعابد والمدافن الكبيرة في النوبة العليا . ولمدى بعيد كانت كذلك كانت الحفريات ليست بعثات رئيسة أخرى دخلت الميدان خلال النوبة الأول من القرن العشرين .

إذا كان تنقيب النوبة في قسط وافر من النوع الانتقائي ، لابد أن يُذكر أيضاً ، مهما كان من شأنه ، أن نفس هذه المنطقة بحس واحد هي مهد علم الآثار الشمولي . وعلى نحو ما دُكر آنفاً ، كان المسح الأثري الأول ( ١٩٠٧ - ١٩١١ ) حملة الإنقاذ الأولى في العالم ، وقد أُرست المعيار للغلبة التي أعقبها . إن إكتشاف رايزنر الوصف الثقافي المفصل " لثقافات " المجموعة الأولى ، والثالثة ، والمجهولة<sup>(\*)</sup> ، التي استُخرجت في مدى أشهر قليلة من إبتداء الحملة ، يقف مثلاً للكيفية التي يمكن أن يضيف بها التحقيق الشمولي للصورة غير المكتملة التي تبرّغ من دراسة منحصرة بأجمعها في البقايا الصروحية .

رغما عن النتائج الموقفة المستحصلة من المسح الأثري الأول ، ما كانت هناك بالمقارنة سوى متابعة قليلة . فحالما استُكملت عملية الإنقاذ نكس علماء الآثار ( بمن فيهم رايزنر نفسه ) على أعقابهم عائدتين إلى ولعهم بالمواقع الصروحية ، ولنصف القرن التالي كان برنامج التنقيب الشمولي الوحيد الذي طُبِق في النوبة هو ذلك الذي جعل ضرورياً بتوسعة سد أسوان ( المسح الأثري الثاني ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ) . تهديد السد العالي تمخض عنه بالطبع قدرٌ عظيم أكثر تنسيقاً من العمل منذ ١٩٦٠ ، كما تمت ملاحظة ذلك آنفاً . جدير بالذكر ، بغض النظر عن ذلك ، أنه إلى اليوم ما من مسح أو تنقيب شمولى أُجريت بأي جزءٍ من النوبة عدا تلك المساحات التي عُمرت من سدود أسوان المتعاقبة ، والتي أغلقت حالياً قبالة كل تحقيق إضافي . هذه النقطة ذات أهمية جوهرية لإستيعاب

(\*) الجماعات ١ ، ج ، س - المترجم.

بعض التجاوب في التاريخ الذي سيلي .

أثراً لذلك ، بلغ علم الآثار النوبية المرحلة الشمولية في النوبة السفلى وبين الحجر لا غير . في كافة أرجاء المنطقة الشاسعة جنوب شلال دال بحذافيرها - أرض الداخل القديمة للحضارات النوبية - لم نتقدم وراء المرحلة الإنتقائية <sup>(٥٧)</sup> . يمكننا ، لذلك ، أن نقدم صورة من التطور مكتملة منطقياً وحسنة الإرتان لتلك الثقافات والفترات الثقافية التي حدث أنها ممثلة جيداً في الجزء الشمالي من النوبة ووحدها . معالجتنا لثقافات النوبة العليا - وهي بعض من الأكثر أهمية في تاريخ القطر - يجب أن تكون أغلب الأحيان خطوطاً عامة وتخصيية . هذه بقية خاصة سوف تظهر لإقرأ الفصلين العاشر والحادي عشر ، المشتغلين بفترة تاريخية تبدو النوبة السفلى أثنائها متناقضة السكان بمستوى كبير .

## المسألة العرقية

علاوة على البنية التسمية والآثارية ، أسهمت البقايا الهيكلية البشرية للنوبيين بأهمية في كثير من الجهود السابقة لإعادة إنشاء التاريخ النوبي . عندما نُظِم المسح الأثري الأول للنوبة ، وافق سير قرافنتا إيليوت سميث ، عالم تشريح مرموق كان يعيش في القاهرة ، على أن يسطلع بالتحليل ووصف البقايا الهيكلية البشرية التي يكشف عنها الغطاء . إصطحب البعثة الأولى في الميدان ، وقام بعمل قياسات وملاحظات دقيقة على العظام في موضعها الأصلي أما تلك التي كانت محفوظة بما يكفي (جماجم في المقام الأساسي ) فقد نُقلت من ثم وأُرسلت إلى القاهرة لمزيد من الدراسة الموسعة . عدد الجماجم التي جُمعت بهذه الطريقة لم يُرقَ أبداً لأكثر من خمسة عشر أو عشرين بالمانة من التي استُعِيدت من العتمة ، حيث أن أغلب جنازات النوبة السفلى كانت في حالة سيئة من الحفظ .

إيليوت سميث ، مثل رايزنر ، كان ملزماً بأن يترك المسح بعد الموسم الأول ، على أن عمله ومناهجه تولاهما دوقلاس ديرى ، مبدئياً تحت إشراف سميث ، في الحملات اللاحقة . نشرت تحليلاتهما التشرحية جنباً إلى جنب مع النتائج الأثرية الخالصة في كل من *النشرات الأولى للمسح الأثري* ، وبشكل أكمل في *تقارير ١٩٠٧ - ١٩٠٨* <sup>(٥٨)</sup> . النمط الذي أسسته سميث وديرى أثبتت خطأه كذلك جيلاً متأخراً من قبل أحمد بطراوى في دراسته للبقايا التشرحية من المسح الأثري الثاني .

ما كان لإيليوت سميث وديرى من مشقة في التعرف على اختلافات عرقية دالة ومفرى بين الهياكل البشرية من أنواع القبور النوبية المتنوعة . إعتقدوا أن أناس « المجموعة الأولى » ، متماثلين مع المصريين ما قبل الأسرات ، في حين استبصروا في « المجموعة الثانية » تياراً زنجياً أشد قوة بكثير . هذا المركب لا يزال يؤمن بحضوره ، مع تخفيف شديد ، في « المجموعة الثالثة » - حالة قادت كلاً من إيليوت سميث ورايزنر لتصوير هجرة ثانية من الشماليين إلى داخل السودان في هذا الزمن . نفس المدمج العرقي شوهد في المجموعات السكانية التالية إلى زمن « المجموعة المجهولة » ، حينما كان هنالك تدفق زنجي كثيف . كانت هذه الاختلافات التشرحية - فيما يبدو بيئة على هجرات عرقية - هي التي قادت رايزنر إلى أن يُعرّف أنواع القبر النوبي بجماعات سكانية متميزة ، والتي بهذه الكيفية تمكن وراء مجمل التفسير « متعدد - الطبقة » للتاريخ النوبي .

إن عمل سميث وديرى التشرحي قد يوجه له النقد على أسس معينة - حتى بأفضل النوايا وتحت أفضل الشروط ، كانت المناهج المتوفرة لهما في بداية القرن العشرين بُدائية وذاتية بمستوى عال . إن تأكيداً قديلاً أُرسي على عدد ضئيل من السمات المميزة ، مثل الدليل الرأسي الذي كثر سوء استعماله ، وكثير منها كان ملامح مورفولوجية (متشكلة) لا يستطيع إثباتها بالقياس . وربما أن الأحد خطورة من بدائية المنهجية ، النزعة العنصرية المتضمنة باكورة التشريح المقارن - لقد كانت في جوانب كثيرة علماً - زائفاً ، تُعَد تغريق الأشكال الحية للإنسان كأنما كانت أنواعاً جلية للحيوان أو النبات . كانت إستراتيجيتها أن تتعرف على وتحدد الفروق المتماسكة بين سلاسل مدركة حدسياً ، متجاهلة التماثلات - ودونما اعتبار للسؤال المتعلق بما إذا كانت « السلاسل » نفسها لها أى سرديان ،

كمفاهيم للنوع . كانت هذه صرخة نائية عن دراسة اليوم العملية لديناميات السكان .

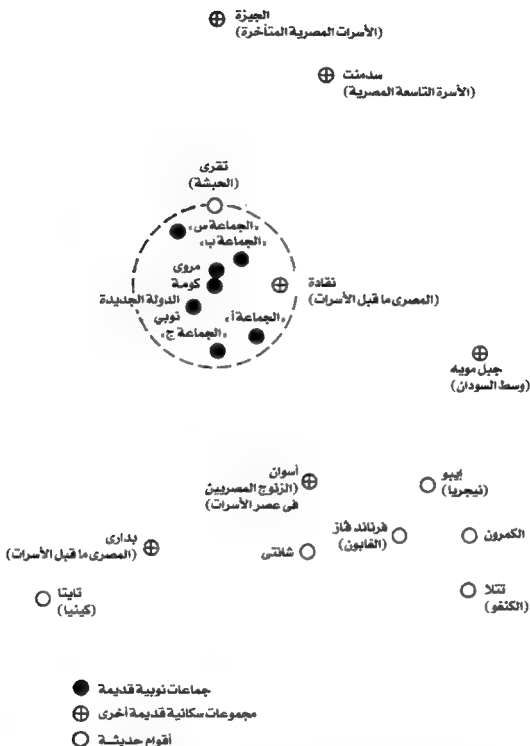
تسليماً بالمناهج والفرضيات السائدة في ١٩٠٧ ، يتساوى أفضل علماء التشريح المقارن إذ يسعهم أن يجدوا في تأييدها المادى أى نظريات تاريخية يرغبون في اليقين بها . وقع هذا بما لا يدعو للتساؤل في حالة سميت، ديرى ، ورايزنر . لا بد أن يُسَلَّم أيضاً بأن وجهة النظر العنصرية التي تقاسمها بالتقريب كل الدراساتين الأوائل للتاريخ النوبى تبين العصر أكثر من الرجال . ربما أن إيليوت سميت كان أكثر متحدثاً بارز منهم ، مؤكداً في إحدى تقاريره أن : . . أصغر صب للدم الزنجى يُجسّد ذاته حالاً في تبدل المبادرة وإعاقة النمو اللاحق لفنون الحضارة<sup>(٩٩)</sup> . يبدو أن نفس الاعتقاد يمكن أن يوجد مغبّرأ عنه بطريقة أو أخرى في كتابات معظم معاصريه . ما كان ، فضلاً عن كل شئ ، حتى مُضَى جيل لاحق أن مفاهيم التفوق والتدنى العرقى أخضعت لسؤال جدى<sup>(١٠٠)</sup> .

أعملت الأنثروبولوجيا الطبيعية خطوياً قيمة في الجيل الفاصل بين المسحين الأول والثاني للنوبة . إمتلك أحمد بطراوى في دراسته للمادة الهيكلية البشرية من مسوح امرى - كيروان ، المزية المتمثلة في منهجية أشد تصفية ونهن أقل إنحيازاً بكثير مما إمتلك سلفه على حد سواء . أخضعت دراساته في معظم الحالات أن تبرهن على خلاصاتها ، وبصفة دقيقة فيما يختص بالمسألة العرقية . لقد كان نفوذ إيليوت سميت ، رغم ذلك ، من الهيمنة بحيث أن بطراوى إمتنع عن تحدى نظرياته التاريخية حتى عندما جادل أساسها التجريبى . نتائجها الخاصة المنشورة تصدر مقدمتها نوعاً ما تعبيراً متردداً من النقل لنظريات سابقيه<sup>(١٠١)</sup> ، مما يبدو متأقفاً بقدر كبير في الفقرات الأخيرة لعمله .

كان بطراوى أكثر إستقامة بعد حقبة ثلت ، عقب أخذه نظرة ثانية ليس على عمله الخاص بمفرده ، إنما على المسح الأثرى الأول إلى جانبه . في مقال نُشر في مجلة المعهد الأنثروبولوجى الملكى (١٩٤٦)<sup>(١٠٢)</sup> تخلى صراحةً عن فرضية التعددية العرقية واعترف بالسكان النوبيين الأصليين (أى بدون المستعمرين المصريين) غديراً وراثياً قريراً غير عادى بما يدعو للتأمل من البداية إلى النهاية . كذلك اعترف بأن « الفشل في التفريق بصفاء ما بين إنجازات السكان وأوصافهم البيولوجية الموروثة سبّب ريكة كثيرة في الكتابات الأنثروبولوجية » . إن الأدب الذى يعالج التاريخ العرقى لمصر (والنوبة) يتيح مثلاً غير عادى لخطر تقدير العلاقات البيولوجية من بيئة ثقافية<sup>(١٠٣)</sup> . هذا التحذير من الخطأ الذى طال الزمن على أوانه ، ظاهراً في مجلة قليلة لا يستشيرها المؤرخون ، ذهب يكاد غير مُكثراً به على الإطلاق . كنتيجة ، لا تزال نظرية الأعراق المتعددة معنا بكثرة وفيرة ، مثلاً في صفحات مؤلف امرى القريب مصر في النوبة . مدعماً بشبكة من الخيالية التاريخية التي سُجّت حولها ، تظل النظرية باقية بعد ردد طويل من هدم ركانزها التجريبية .

لقد رأى بطراوى في المراجع عن التاريخ العرقى النوبى تأييداً إضافياً من الدراسات المقارنة للمواد الهيكلية البشرية في جبل مويه التي اضطلع بها موخرجى ، ورو ، وتريفور . مستخدمين طقماً معقداً من المصنفات الإحصائية ، إحتسبوا درجات من العلاقة بين جزء من عشرين مجموعة سكانية إفريقية ، بما في ذلك زنج « انقياء » إضافة إلى نوبيين ، وإثيوبيين ، مصريين . في تركيبهم تخرج الجماعات النوبية السبعة (أى كل أولئك الذين درسهم في الأصل سميت وديرى ، ومؤخراً بطراوى ) كتجمع متميز وبشكل لصيق متجانس وراثياً ، مفصولاً فضلاً عريضاً عن الجميع عدا اثنتين من الثلاث عشرة جماعة المتبقية التي أجريت المقارنة معها (الشكل رقم ١٢)<sup>(١٠٤)</sup> . مثل بطراوى ، خلصوا إلى أن الجماعات النوبية تمثل غديراً متفرداً قليل الاختلاف وراثياً . وما فتئ ، الأكثر قرياً ، دراسة لسمات الأسنان (سَلَمَ بها في وقت لاحق أنها وجه البقة مؤشرات وراثية حساسة ) فشلت في عرض أى اختلافات هامة ذات معنى ما بين ثقافة المجموعة المجهولة المروية ، والجماعات السكانية المسيحية<sup>(١٠٥)</sup> .

أحدث ما نشر عن البقايا التشريحية النوبية هو تحليل فاقن نيلسن عن مادة الجماجم ، من فترات تاريخية مختلفة عديدة ، أزال عنها التراب البعثة الإسكندنافية المشتركة للنوبة السودانية بين



درجة القرابة العامة متضمنة وفق المسافة. لاحظ أن كل الجماعات النوبية تقع في نطاق الدائرة المنقطلة - أقرب كثيراً إلى بعضها البعض منها إلى أي أقوام غير نوبية فيما عدا المصريين ما قبل الأسرات في نقادة والتقري والحديثين والحبشة.

## شكل رقم ١٢

القرابات السلالية بين أقوام النوبيين القدماء وسكان إفريقيا القدامى والحديثين

١٩٦١ و١٩٦٤<sup>(٦٦)</sup> . من دراساته وجد المؤلف تأييداً محدوداً لكثير من النظريات السالفة لإيليوت سميث وديري ؛ أى ، أنه وجد اختلافات هينة لكنها متماسكة بين السكان في كل مرحلة متعاقبة للتأريخ النوبي ، إن تشخيصه لهذه الاختلافات بتعبير عرقى يقع ، مع هذا ، على أننى درجة مفارقة لـ سميث وديري :

فيما يختص بمسألة الأثر الزنجى في النوبة بوجه عام ، يجب أن يُقرر من هذه الإختبارات أن سكان المجموعة الثالثة أسفر تشخيصهم عن مميزات زنجية قليلة جداً ، أو غير موجودة . كانت السلسلة الفرعونية من غير مميزات زنجية . لم يكن حتى مجئ السلسلة المروية أن بداية مزيج زنجى توجد ، إلا أنه في المجموعة المجهولة وحدها يمكن للواحد أن يتحدث عن سائر زنجية عامة أشد تميزاً ، أياً كان ذلك فإن الجماعة لا يمكن وصفها بأى حال زنجياً<sup>(٦٧)</sup> .

من الصفاء أنه في ذهن فاقن نيلسن أن زنجياً تمثل بعض نوع من طراز " نقى " وهو شئ لا يوجد بطبيعة الحال أبداً في النوبة أثناء الفترة التاريخية . إن المؤلف ، في كل الأحوال ، حذّر بشكل سليم ، من إرجاع إختلافات وراثية يسيرة لهجرات أو إحلالات سكانية ؛ إنه يميل لأن يراها كنتيجة لتطور إرتقائى مألوف ومحصلة للإنسكاب الوطيد ، التدريجى لدم جديد ( أحياناً من الجنوب ، وأحياناً من الشمال ) في داخل السكان النوبيين<sup>(٦٨)</sup> . دراسة أخرى أجريت وشيكاً بينت ، بدورها ، إنه ربما كانت هناك تعددية كثيرة بين السكان النوبيين أثناء فترات معينة من التاريخ مثلما كان كانئاً بين فترة واحدة وما تلاها<sup>(٦٩)</sup> .

ثلاثة أجيال من الدراسات التشرحية كأنها تركتنا حيثما بدانا : إلماً بأن النوبة كان لها دائماً سكان إفريقيون أو أفارقة جزئياً ، مختلفون عن سكان مصر ، علماً كذلك أن هذه لا تدعنا أكثر حكمة حول التاريخ السياسى ، الاجتماعى ، أو الثقافى للقطر . لا يمكننا بالنسبة للوقت الراهن أن نقوم بأفضل من أن نشهر تحذير بطراوى بأن " يُعَيَّن بصفاً ما بين منجزات السكان وصفاتهم البيولوجية الموروثة " . علينا أيضاً أن نذكر أن غياب البرهان التشرحي لا يستبعد مطلقاً إمكانية الخلاصة الشرعية الوحيدة وهى أنه لى نعلم شيئاً حول اللغة والمجتمع ، يجب علينا أن ننظر إلى بنية اللغة والمجتمع ، لا إلى بنية علم الأحياء .

## التأريخ اللغوى

اللغة هى المصدر الأول للهوية الذاتية لمعظم بنى الإنسان . وسط الأقوام البدائية هناك ترافق لصيق بين جماعات اللهجة وشبكات القرابة ؛ في مجتمعات أشد تعقداً يُتعرّف بشكل مماثل على الدول القومية باللغة أحياناً كثيرة . هكذا دائماً ما تبدأ مساعيها لإكتشاف الأصول والقرابات الاجتماعية للأقوام الأولى بمحاولة لإيجاد أى لغة كانوا ينطقون .

إن البيئة المباشرة للغة مفتقدة بالتاكيد لكل الفترة ما قبل التاريخية . إنه إختراع الكتابة ذلك الذى يعطينا أول دالة على الحديث . في الحضارات القديمة ، مع ذلك ، ما كانت العلاقة بين اللغة المكتوبة واللغة المتحدثة بالضرورة لصيقة ، وقد كان على عدد صغير من الأنساق الكتابية ، أن تتساقط مع عدد كبير من الناس قروناً كثيرة . أما أولئك الذين قاموا بتطوير كتابة لأنفسهم فقد استعاروا اللغة المكتوبة لجيرانهم . هذه الظاهرة بوجه الدقة بادية في النوبة حيث استعمل مالا يقل عن ست لغات مكتوبة أزماًناً مختلفة في التاريخ . من الخمسة التى بمقدورنا فك حروفها - هيروغليفية ، إغريقية ، قبطية ، نوبية قديمة ، وعربية - تقارب واحدة فحسب لغة أصلية متحدثاً بها . يُعتقد أن لغة سادسة لم تُفك حروفها بعد ، هى المروية ؛ كانت أصلية بسبب إفتقادهما العلاقة مع أى لغة معروفة ، إلا أن هذا بالطبع يظل إفتراضياً .

لن نعلم أبداً أى لغات تُطّق بها خلال الفترة القليلة ، ما قبل الكتابة للتأريخ النوبى . مع هذا ،

فإن التجانس الثقافي الوثيق لثقافتَي المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة ، مصحوباً بكثافة السكان المنخفضة ، يحمل احتمالاً معتبراً أن لغة مفردة كانت مستخدمة في كافة جنبايا المنطقة ، التي عُثِرَ بها على هذه البقايا الثقافية . حضارة الأسرات ، مع ذلك ، مدت تخوم النوبة بعيداً خارجها ، يكاد يكون مؤكداً إلى داخل الجُمى ، جماعات لغوية متعددة . من أزمان الدولة الجديدة وما أعقبها يجدر بنا فيما يحتمل ، أن نصور على الأقل تشكيلة من اللهجات ، إن لم تكن لغات مستقلة تماماً على وجه الكمال ، على امتداد أجزاء متفرقة من النيل .

الموقف اللغوي في النوبة الحديثة يحتمل تماثله مع كثير من الماضي . الناطقون باللهجات الأهلية الثلاث ، إضافة إلى المستعمرين غير النوبيين وسطهم ، يوظفون لغةً مكتوبة مشتركة ، إجنينية على قدم المساواة عنهم جميعاً . درسان مهمان يمكن استقاؤهما هنا . أولاً : إن استعمال لغة مكتوبة بمفردهما في كل أنحاء المنطقة لا يتضمن بالضرورة لغة مفردة متحدتاً بها . ثانياً : إن اللغة المكتوبة ربما لا تكون اللغة الأم لأي من الجماعات التي تستخدمها .

سبّبت علاقة النوبي الحديث باللغات الأولى للمنطقة صعوبة دائمة . فالافتقار الظاهر للتمثل باللغة المروية التي لم تحل رموزها بعد ، مترافقاً ببينة الاختلاف السلالي كما يستدل بها إيليوت سميث ، أدى إلى افتراض ذائع الانتشار أن لغة اليوم الحاضر جاءت إلى النوبة مع الغزاة الزوج من « المجموعة المجهولة » الذين حلوا محل أسلافهم المرويين أو قاموا بإحوائهم . إن القاعدة التشريحية لهذه النظرية تبين مذكاً أنها زائفة : علاوة على ذلك ، ليس لدينا طريقة في الحقيقة لنعرف أي لغة كان متحدتاً بها من المقيمين المرويين في النوبة السفلى . ربما نرجح أن اللغة المكتوبة التي تداولوها من وقت لآخر كانت لغة قبيلة حاكمة بعيداً إلى الجنوب (أي بمروي) ، ومختلفة للغاية عن حديثهم اليومي<sup>(٧٧)</sup> . وإذا كانت البينة اللغوية ستعين على إزاحة الغطاء عن التاريخ الإجتماعي للنوبة ، أصبح لزاماً علينا ألا نحل طلاس اللغة المروية وحسب لكن علينا كذلك أن نكشف - زيادةً على ذلك - من تحدث بها . في هذه الأثناء تتركنا بينة اللغة ليس أكثر حنكةً ، تاريخياً ، عما تفعل بينة العرق .

### إشكالية التركيب

ونستون تشرشل ، بتبصر معهود ، تحدث عن « جغراف عالم الآثار ، يصحح ويوسع دراسة المؤرخ<sup>(٧٨)</sup> . تبدو العبارة ملائمة في دقة للنوبة حينما نقارن صورة التاريخ التي قدمها وليس بدج في ١٩٠٧ بالتى كان باستطاعة رايزنر، مُعاناً بكشوفه الأثرية ، أن يعرضها بنفس القدر عامين قابلين ألا أن هنالك فارقاً ما بين ' تصحيح ' و ' توسيع ' دراسة المؤرخ ، وتتجسد هذه بدورها في الحالة النوبية . أن مؤرخي النوبة من بدج إلى إمري إعتدوا على علم الآثار في المقام الأول لتوسيع رأيهم التاريخي ، بدلاً عن تصحيحه . ولأنهم كانوا قد تلقوا تدريبهم الأوفى كعلماء ومؤرخين ، فقد أسندوا للبيئة الأثرية دوراً ثانوياً أكثر منه دوراً تكميلياً مُستحقاً .

أوصاف المجموعة الأولى ، والمجموعة الثالثة ، والمراحل الأخرى غير المؤثرة من التاريخ النوبي تستند بالضرورة على الكشف الأثرية في نفس الوقت قلما سُلمَ أوصاف كثيرة للأطوار الفرعونية ، والمروية ، والمسيحية بوجود سجل أثارى . أنه التمتع دون الرجوع إلى علم الآثار ، باستثناء حالة العجز التام للمدونات النصية ، ذاك الذي لا يُضفى على دراسات نوبية كثيرة نوعية عرضية الأحداث وحسب إنما مفككة الأوصال . في لحظة واحدة يبدو أننا ندرس تاريخاً سياسياً وإجتماعياً . في اللحظة التالية ندرس تاريخاً ثقافياً ، بينما نتأرجح جيئةً وذهاباً ما بين المدون النصي والإصطناعي .

هذا الفارق متأصل إلى حد ما في البينة . إن علم الآثار والتاريخ المدون لا يقدمان لنا آراء عن جوانب مختلفة جداً للحياة فحسب ، إنما يتحاجان لنا على حد سواء مقاييس مختلفة للهوية والعلاقات . الآثار يمكنها فقط أن تزودنا بالمنجيات الملموسة غير الذاتية للثقافة ، وما يسعنا أن نقرأ منها عن

العادات والمعتقدات التي يحملها صانعوها في نطاق هذا الحق المحدود . على أننا نطبق معايير للهوية والقرابة من ابتكارنا - مؤسسة في المقام الرئيس على استطاعتنا لأن نتعرف على أنماط متميزة . هكذا تنسب أهمية غامرة ، لنوعيات الفخار والممارسات الجنائزية ، كقضايا للهوية، وهنا اعتبار لما إذا كانت لها أي أهمية وعياً بالناس الذين قاموا بخلقها . وبالقدر الذي يمكننا به أن نعيد به إنشاء التاريخ ، بمقارنة بقايا فترة واحدة ببقايا فترة أخرى ، نعيد بالطبع إنشاء تطور الثقافة وحدها ، لا تطور الإنسان .

بمجيء نصوص مكتوبة نبدأ في مشاهدة التاريخ من خلال عيون المشاركين فيه ، أو على الأقل المراقبين له . إن منظور الثقافة في جوهره ربما لا يكون أعرض من المنظور الذي يقدمه لنا علم الآثار ؛ الحق إنه دائماً أضيق . ميادين كثيرة الثقافة ، على وجه الدقة الميادين المادية والتقنية ، بقيت على حالتها دون تدوين ، عالقة بمرحلة ما قبل التاريخ زمنياً طويلاً من بعد إختراع الكتابة . ولم يشغل الأوائل من كتاب التاريخ أنفسهم بعموميات عريضة لكنهم عُتُو باناس معينين وبأحداث ذات خصوص . على قدم المساواة عندما تحدثوا عن « أقوام » بدلاً من « أناس » ، تحدثوا في تعابير عرقية ، غير ثقافية . إن المجتمعات التي كانت مهمة لهم كانت مجتمعات لغة ، وقانون ، وتقليد اجتماعي ، ما كانت مجتمعات ثقافة مادية وتجارة مثل التي أَلزَمنا بمعالجتها في علم الآثار . وإلى المدى الذي تسيير فيه وراء تدوين أحداث ، بِمُخْصِبِهِ ، ترفدنا المُدُونات النصية تاريخاً اجتماعياً وعرقياً ، بينما تمنحنا الآثار تاريخاً ثقافياً<sup>(٧٣)</sup> .

علم الآثار والتاريخ النصي يمكنهما بشكل بائن ويجدر بهما أن يكمل بعضهما بعضاً . معاً يمكنهما أن يؤسسا صورة أكثر إستكمالاً للحياة في أي وقت في التاريخ عما باستطاعة أي مصدر منهما بمفرده . مع هذا ، ليس بوسعهما أن يُستخدما بالتناوب ، كما كان معمولاً به في النوبة ، كي يُخرجنا قصة متماسكة ومتواصلة لأي من التطور الاجتماعي أو الثقافي . سابقاً أو لاحقاً على الواحد أن يخطرا ما إذا كان سيدع المدون النصي أم السُودن الأثري ليحمل العبء الرئيس للقصة ، وما إذا كان سيكتب ذلك تاريخاً اجتماعياً أم ثقافياً .

ما كانت لواليس بدج مثل تلك الخبرة في ١٩٠٧ . مُفتقداً للسُودن الثقافي علي نحو ما تكشف لنا من خلال الآثار ، كان مؤلفه *السودان المصري بالضرورة* تاريخاً اجتماعياً وعرقياً ، مع أنه واحد غير مكتمل للغاية . برغم ذلك لم تر النور سوى مادة نصية إضافية قليلة جداً منذ زمانه ، بخلاف ما يختص بشأن الفترة المسيحية ، بحيث أننا لسنا أفضل إعداداً لنكتب تاريخاً اجتماعياً اليوم . علاوة على هذا ، يبدو غير محتمل أن كثيراً من التجاويف سوف تُملأ أبداً . التداول المتواصل لتوصيفات رابيزنر الهجائية شهادة بليغة لإفتقارنا الإخبار العرقي والإجتماعي الصلب بالنسبة لفترات كثيرة في التاريخ النوبي . نظرية عن الإنقطاع العرقي ربما تبقى معنا كذلك لكل الوقت ، لسوف لاثبتتها الآثار وحدها أو تدحضها .

لئن كنا لا نزال غير قادرين أن نسمي أقواماً نوبية كثيرة باسمائها السليمة ، فإننا كيفما قضى الأمر حققنا تقدماً متصلاً في دراسة تطوهم الثقافي عبر علم الآثار . قصة الدراسات النوبية في القرن العشرين كاعلى ما تكون عليه قصة للسود العظيمة الثلاثة ، والمشروعات المخططة للإنقاذ الأثري الذي تناسل منها . عبرهم لهم نمتلك فحسب يَبِينُنا التامة للمراحل غير الموثقة من التاريخ النوبي ، إنما كتلة من تفصيل مقارن وغير مدون في أكثريته فيما يتعلق بثقافات المراحل المعروفة تاريخياً . بكتلمات أخرى ، لا نزال نملك نصوصاً لفترات منتقاة دون غيرها في التاريخ النوبي ، بيد أننا نمتلك الآن أثاراً لكل الفترات بالتقريب . ما بوسعنا أن نفعله الآن ، لذلك ، أن نرفع الآثار إلى مكانها اللائق بها ، نُدعها تخبر عن قصة متواصلة من التطور الثقافي من أزمان ما قبل التاريخ إلى الحاضر .





# **الجزء الأول**

## **بدايات قبلية**



## الفصل الرابع

### العصور الحجرية

لقد رأينا من قبل أن هيرودوتس وأغلب معاصريه نظروا بلا تدقيق « لاثيويا » على أنها منبع كل الحضارات . وحالما فتحت أحاجي القدم المجال للتحري العلمي لفترة ما قبل التاريخ ، بشكل أو آخر ، جنح الرأي المدروس إلى رأى معاكس بقوة . لقد لام مفهومي القرن العشرين للتفوق الأوروبي الاعتقاد بأن « القارة المظلمة » كانت دائماً مقاومة لعملية التطور الإرتقائي الآن تبدأ الإكتشافات الرائعة للإنسان الأول في شرق وجنوب إفريقيا في تصويب وجهة النظر هذه المتمركزة عرقياً ، وقد نهض إهتمام جديد في فترة ما قبل التاريخ الإفريقي كنتيجة لذلك . لقد بدأت تتراءى كأنما لم يكن القدماء على خطأ تام بغض النظر عن أى اعتبار آخر .

في ملازماتها للإفتقاد العام للإهتمام بفترة ما قبل التاريخ الإفريقي ، أعادت المسوح الأثرية الأولى للنوبة تنبهاً نادراً لبقايا العصر الحجري . أيقن رايزنر وفيرث فعلياً أن مصريين مهاجرين في الألف الرابعة ق م . ( الآباء الأجداد ب « مجموعتهم الأولى » كانوا أول سكان للمنطقة . ما كان حتى مُضى جيل لاحق أن الإستطلاع الأول لمرحلة ما قبل التاريخ ، الذي قام به ساندفورد واركيل هو الذى كشف عن حضور ثقافات تحمل الخصائص الحقيقية للعصر الحجري <sup>(١)</sup> . كيفما تم ذلك ، كانت البقايا المكتشفة قليلة وغير ذات أهمية ، وبدأ أنها تؤيد الإنطباع المهم بالهامشية الثقافية .

أحدث علم آثار ما قبل التاريخ دفعات هامة في كل من المنهج والنظرية منذ الحرب العالمية الثانية . بتدقيق خاص ، أدت العلاقات الودية ما بين مؤرخي ما قبل التاريخ والجيولوجيين المختصين بالعصر الحجري الأولى إلى رأى أشد إدراكاً بكثير للإرتقاء التدريجي بالنسبة للبيئة . هذه التطورات ، مقرونة بالإعتراف المتنامي بإفريقيا كواحدة من أوائل الساحات للتطور الإنسانى ، أكدت أن بقايا العصر الحجري سوف تلقى تنبهاً أكثر إحتراماً بكثير أثناء حملة إنقاذ النوبة عنها في أى من سابقتها . أكبر بعثة مفردة في الميدان بين ١٩٦١ و ١٩٦٦ كُرسِت بكليتها لدراسة ما قبل التاريخ ، وأربع جماعات أخرى كذلك أدت عملاً هاماً في هذا الحقل <sup>(٢)</sup> . فإذا كانت جهودهم الهادفة لم تمنح على وجه التمام الإنطباع السالف بالتخلف النوبى في أزمان ما قبل التاريخ ، فقد أقت الضوء على أقل تقدير على متتالية طويلة من الثقافات الأصلية التى سبق تأريخ حدوثها الفعلى ، وربما كانت أقدم وجوداً ، من تلك التى اكتشفها رايزنر .

أياً كان الأمر ، يظل التحقيق الذى أجري لفترة ما قبل التاريخ النوبية سائراً في طفولته الأولى إلى اليوم <sup>(٣)</sup> . حصر الإستكشاف المنظم الممنهج بقدر كبير الضاحية المباشرة لوادى حلفا : أكثر من عشر صناعات للعصر الحجري التى تم تحديدها هنا ، ثلاثة أو أربعة لا يعرف غير أنها ممثلة في مناطق أخرى <sup>(٤)</sup> . حتى في إطار المعسكر المحدود لمنطقة وادى حلفا لم تكن النتائج المستحصلة من بعثات مختلفة متفقة إتفاقاً مطلقاً ، لم ينشأ إصطلاح معيارى بشكل مكتمل وصفياً وتصنيفياً بعد . وكما هو معتاد في المراحل الأولى للتطوير النظرى ، حلّ الخيال في بعض المرات مكان بيئة الإنتشار الدائمة كقاعدة للنظريات الباحثة في الأصول التى هي أكثر تمايزاً في الابتكار عنها في الإحتمال . فلنعلي وجود تقاليد لمصنوعات حجرية على وجه الدقة حذاء النيل ، قُدمت لنا نظريات للهجرة بعيدة المدى يَاقَى بمستوى صارخ للنظريات التى صاغها رايزنر من قبل ستين عاماً ، حينما

كانت دراسة الفترات التاريخية النوبية في نشأتها الباكرة وضعاً متماثلاً . مرة ثانية ، تحتوي هذه الإنشادات المعدة للتاريخ الإجتماعى من بيئة ثقافية ( أى إصطناعية ) فرضياتٍ لعلاقة ثابتة بين المجتمع والثقافة ليس في الإستطاعة تبيانها ( قارن المقدمة ) . ولكيما نؤكد بالضبط الإفتقاد إلى روابط سلوكية معلومة نشير في العادة إلى بقايا إنسان العصر الحجري على أنها « صناعات » أو « مركبات » بدلاً من الإشارة إليها كثقافات .

إن أشد عمل حاسم في الوقت الراهن عن فترة ما قبل التاريخ النوبى هو مجلدان ما قبل التاريخ النوبى<sup>(٥)</sup> ، مقرر بالتفصيل نتائج البعثة المشتركة لما قبل التاريخ . حدد المؤلفون بعض أربعة عشر أو خمسة عشر صناعاتٍ للعصر الحجري ، تتراوح في الزمن من العصر الحجري القديم إلى المدخل المباشر للتاريخ المذون ، وسلموا بسلسلةٍ من العلاقات ذات التسلسل الزمني والتاريخي فيما بينها إلى جانب مركبات ثقافية خارجية فوق ذلك ( انظر الشكل رقم ١٢ ) . لو كان هذا العمل قائماً بحق الأولية لا غير فإنه لا بد أن يؤخر كنقطة إنطلاق لدراسات القابل لما قبل التاريخ النوبى ، مثلما أدت صياغة راينزير المبتدرة « للمجموعات » الهجائية دورها كنقطة إنطلاق لدراسات الفترات النوبية المتأخرة . يقيناً زيادةً على ذلك . أنه ، مع تنامي معرفة أبعد مدى ، ستكون هناك إضافات ومراجعات هامة لهذا الجهد الريادى لتصنيف ثقافات العصر الحجري النوبى .

لنن لم نُبلِّغ بعدُ إتفاقيةً كاملة بشأن ثقافات النوبة قبل التاريخ وعلاقاتها ، فإن هناك بالمثل حيرةً فيما يتعلق بطبيعة البيئة التي ترعرعت فيها . إن المذون الجيولوجى يشير إلى تبدلات معتبرة الأهمية للمناخ في شمال إفريقيا ، كما في بقية العالم ، طوال العصر الحجري قديم ( أى أثناء المليونى عام الأخيرة أو نحو ذلك ) . في أوروبا وأمريكا الشمالية تُستجلى هذه التضاربات في تناوب عصور الجليد وفترات دافئة : وكان هنالك تناوب في إفريقيا لفترات مثقلة لرطوبة غزيرة المطر وفترات جافة . بأى صورة جأت ، ما من إتفاق عام في أمر المدة النسبية لفترات الندوة والجفاف . يعتقد بعض علماء الجيولوجيا ( علم الأرض ) أن أوضاع الصحراء اليوم شبيهة بالصحراء الكبرى خلال معظم تاريخها ، بحث أن الإستعداد الكامن للإستيطان الإنسانى ، فيما عدا أثناء الفترات « المطيرة » الموجزة ، كان محصوراً بدرجة عالية بويان قلة من الأنهار البارزة كالنيل<sup>(٦)</sup> يرتضى آخرون ، بطريقةٍ أو أخرى ، أن فترات أشد طولاً عندما كانت شمال إفريقيا أرضاً للسافانا الملتفة أو غابات . دعوةً مضيافة أكثر منها حائلاً لإستقرار الإنسان<sup>(٧)</sup> . هنالك إضافةً إلى ذلك عدم إتفاق فيما يتصل بتعرية الصحراء الكبرى القديمة . يُعد بعض الأساتذة النيل ، كما نعرفه الآن ، كنهر يافع نسبياً ، يعود تاريخه إلى ما لا يتعدى خمسة وثلاثين أو أربعين ألف عام<sup>(٨)</sup> ، في حين يدعى آخرون له قديماً أعظم بكثير<sup>(٩)</sup> . جلّى للعيان ، أن فهمنا للمقيمين الأوائل من البشر في النوبة سوف يبقى نوعاً ما محجوباً حتى نملك صورةً أضفى للبيئة الطبيعية التي انتقلوا إلى أحشائها .

يصير تخطياً للحدود بالنسبة لى أن أحاول توليفاً مفصلةً لما قبل تاريخ النوبة في وقت لم يتفق فيه الخبراء أنفسهم عليها بعد . لقد تعددت بحق أن أتجاهل هذه المرحلة التكوينية للتطور الثقافية برمتها ، وأن أبداً أقصوصتى بأقدم ثقافات نوبية لفترة العصر الحجري الحديث ، أى ، في أعتاب الحياة الجلوسية . كيفما جرى ذلك ، فالتطورات الثقافية السحيقة القدم والتي سبق وأدت إلى تبني الزراعة وإلى الحياة المستقرة هى الآن على الأقل مدركةً بقدرٍ كاف كى تبدو مستحقة لأن يُخاطر ببضع كلمات من التعليق العام عليها .

## صناعات العصر الحجري القديم الأسفل والأوسط

أخفقت مسوح ما قبل التاريخ النوبى في إبداء أى أثر لهؤلاء الرجال - القردة الأولين الذين اتخذت بقاياهم مؤخراً مثل هذه الأهمية في شرق وجنوب إفريقيا . في الوقت الراهن يظهر أن المنطقة الصحراوية الكبرى لم تكن جزءاً من الساحة الإفريقية التي ربما نشأ فيها الأسلاف القدامى للجنس البشرى . بحلول الوقت الذي بدأ فيه الإنسان الأول في شمال شرق إفريقيا ، ربما ٧٠.٠٠٠ عاماً ماضية ، كان قد انهك عميقاً في المراحل التجريبية لصنع العدة وكان ينتج ويستخدم تركيبة متميزة من الأدوات الحجرية . هذه الأدوات ، التي بالإمكان أن يُعثر عليها اليوم فوق أنحاء كثيرة بأوروبا ، وإفريقيا ، وآسيا الغربية ، معروفة جميعاً بالصناعة الأشولية .

إذا كانت النوبة بيئة خاصة ، في إنتاج النهر والصحراء ، لا يمكننا بالتالى أن نتحدث عن المقيمين الأوائل بمنطقتنا كنوبيين ، إذ أنه ليس جازماً أن إياً من الصحراء أو النهر كما نعرفهما الآن كانا موجودين في زمانهم . إنثقت الأزمان الحجرية الأشولية في كافة جنبات الصحراء الكبرى ، مُقترحة أن صانعيها عاشوا في واحد من هذه الفترات الرطبة نسبياً عندما ازدهرت الصحراء سافانا وغابات ، عارضة منبتاً جذاباً لصيادي وملقطة ثمار العصر الحجري (١٠) .

أى طراز من الرجال جال هذه الصفحة الأرضية « ما قبل النوبية » التي لا تقع في علمنا ، إن بقاياهم الهيكلية البشرية لم تبلغ النور بعد . فإذا كانوا مشابهين لصناع الأدوات الأشولية في مكان آخر ، فمن المحتمل أنهم كانوا من فصيلة ثنى الكوين : رجالاً حقيقيين ، لكنهم ما بلغوا بعد فصول الأنواع الحديثة . كانت أدواتهم الحجرية في غالبيتها أدوات كبيرة قواطع ثنائية الوجه ، تشمل « الفاس اليدوى » الأشولى المتميز . الفطرة غير المتخصصة لهذه الأدوات تمنع مؤشراً قليلاً لاستعمالها المقصود . ثانياً عن طريق موازاتها بمناطق أخرى ذائعة الصيت ، يمكن فيما هو محتمل أن يفترض أن الأشوليين من شمال إفريقيا عاشوا بصيد حيوانات متوسطة الحجم ، مُدعماً بالنقاط نبات برى . مثل هذه الحالة من المعيشة تُملئ ما يتأتى بالضرورة حياة مهاجرة ، ربما في فرق صغيرة . ومساكن الأشوليين ما كانت أكثر من معسكرات مؤقتة دونما أى نوع من النباتات إلا بصعوبة . ومهما كان الأمر ، فلم توجد أغلب أدوات الأشوليين المعروفة من منطقة النوبة في أماكن مناسبة للمعسكرات لكنها في مقالع الحجر حيثما صنعت .

وجدت البقايا الأشولية على طول امتداد المجرى المنخفض للنيل ، من الخرطوم إلى الدلتا ، وعُثر على فؤوس يدوية منزلة في كل جزء من شمال إفريقيا (١١) . كان هذا بوضوح تقنية حجرية واسعة الانتشار وغير متميزة للغاية يتقاسمها قسم كبير من البشرية ، من رأس الرجاء الصالح إلى الجزر البريطانية ، ثم إلى الشرق بُعداً حتى وادى الجانج . في الوقت الحالي يمكننا أن نتعرف على فروق صغيرة فحسب بين الصناعات الأشولية لشمال شرق إفريقيا ومصنوعات مناطق أخرى ، وربما افترضنا تشابهاً عاماً للحياة والمعيشة على بسطة كثير من العالم المأهول .

في العصر الحجري القديم الأوسط ، ربما ٥٠.٠٠٠ عام إنقضت ، أفسح آشوليو النوبة الطريق لرتل من الصناعات التي تميزت بوفرة أعظم قدرأ تشكيلة من الأدوات مصنوعة من بلاط حجري ، والإندثار التدريجي للفؤوس اليدوية . هذه الصناعات تبدو ، مثل أسلافها ، بقايا لأناس صيادين - جامعين للثمار على غير تخصص نسبياً ، غير أنه ليس بالإمكان أن يُحدد ما إذا كانوا الأحفاد المباشرين للأشوليين أم أنهم كانوا قادمين جديداً للمنطقة . بعض صناعات العصر الحجري النوبى القديم الأسفل على قُربى بشكل معترف به بالموسطرة المشهورة في أوروبا ، وشمال إفريقيا ، وآسيا الغربية ، في حين أن صناعات أخرى تبين قرابات مع ثقافات العصر الحجري المعاصرة للغابات الإفريقية المركزية (سانجوان ولوياميان) . إن التعايش الظاهر لصناعات مختلفة في نفس الوقت يبدو أنه يوصل إلى مشاطرة أقوام نوى أصل مختلف للبيئة النوبية ، خلال جزء من العصر الحجري

القديم الأوسط . ومع إقتضاء الزمن ، بطريقة أو بأخرى ، يبدو أن وسائلهم الفنية لصنع الأدوات على تفاوتها إنصبّت في أثر نوبى شائع ومحدود الخصائص <sup>(١٢)</sup> .

### العصر الحجري القديم الأعلى

فوق كثير من أنحاء العالم يعلم العصر الحجري الأعلى ظهور كل من رجال (نوع الإنسان العاقل) وثقافات شقائق بما يمكن التعرف عليه لأنواع أزمان تاريخية . في النوبة ، شهدت هذه المرحلة على قدم وساق خروج بيئة مثل الكائنة اليوم . أضحت الصحراء الكبرى ( ليس ضرورة للمرة الأولى ) صحراء لا ماء فيها ، بين جنباتها بزغ وادى النيل على أنه الواحة العمادية والرواق الأساسى عبر الصحارى .

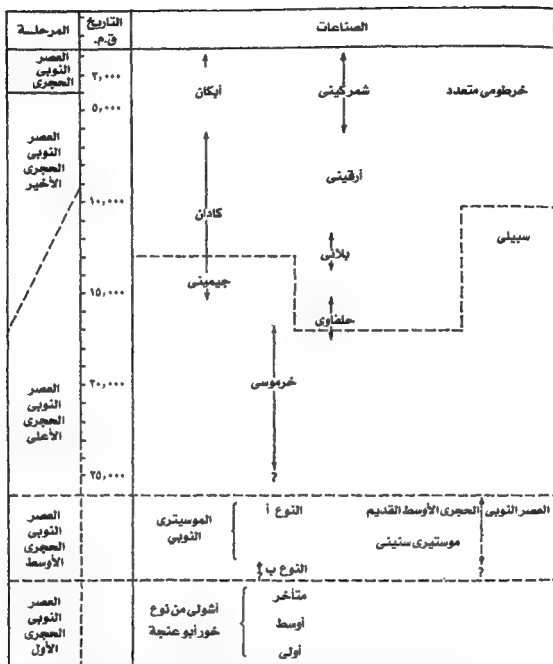
عدد صناعات العصر الحجري القديم الأعلى وتعديتها التى جرى تحديدها في النوبة تتناقص بشكل صارخ مع التوحد الثقافى البادى لأزمان سالفة . أقرّ وندورف ورفقاؤه بعشر مركبات حجرية مختلفة من فترة الـ ٢٥.٠٠٠ عام ما بين العصر الحجري القديم الأعلى والنهاية الأخيرة للعصر الحجري ( الشكل رقم ١٣ ) <sup>(١٣)</sup> . لا يبدو أنها تمثل تعاقباً موحداً للتطور ؛ نقيضاً لذلك ، فإن بعض صناعات العصر الحجري المتأخرة لها قرابات مع الجنوب ، وبعض منها مع الشمال ، وبعضها الآخر مع الغرب . على أساس هذه المؤشرات سنّم وندورف بسلسلة من الهجرات في مرحلة ما قبل التاريخ إلى بطون النوبة ، ملحقاً بتعایش لفترات طويلة من الزمن لجماعات سكانية متميزة بين نفس البيئة <sup>(١٤)</sup> .

إن أحوال الصحراء السائدة في أزمان العصر الحجري القديم الأعلى تعبّر عن درجة ما تحمل على الإقناع بالإقتراح القاضى بأن إناساً من مناطق مجاورة متنوعة ربما دُفعوا لإيجاد ملاذٍ بإمتداد النيل ، أو على الأقل لشملة في إقليم صيدهم خلال مواسم غير مواتية . تفاضياً عن ذلك لا نعلم بعد على نحو قاطع أن صناعات حجرية مختلفة مؤشر على جماعات مختلفة من الناس . إن نفس القوم ربما ينتجون أدوات مختلفة ، لتؤدي وظائف مختلفة ، بضاحيات لا تبعد إلا أميالاً قليلة عن بعضها البعض <sup>(١٥)</sup> . معاكساً لهذا ، فإن أقواماً مختلفة وغير ذات قرابة ربما تنتج بنفس القدر أدوات متماثلة عندما تُتاح لها نفس الموارد البيئية ؛ سيما إن كانت لهم ساحة أنفأ ليرصدوا أنشطتهم ويتبادلون المعرفة . إن المكون الفنى في الأدوات الحجرية المقطوعة ليس عظيماً للغاية بحيث يمكننا أن نفترض ، على بداهة ، أن أقواماً مختلفة سوف تتفرد فرديتها في أساليب مختلفة ، كما نفعل ذلك بما اعتدنا عليه في حالة الفخار ومصنوعات أخرى أكثر تقدماً <sup>(١٦)</sup> . لذا فإنه من الميسور نسبياً لنا أن نفكر بعلاقات بين مجموعات من الأدوات ( خاصة إذا استعنا بالتحليل الإحصائى ) ، لكننا لا نجرم أبداً بمعاية العمليات التاريخية التى تعلل تماثلها . ربما تصير بيئة على انتشار الأفكار ، أو الأشياء ، أو هجرة الأفراد أو قبائل بأكملها ، أو ربما تضحي حالات من التطابق العرضى .

طارحين جانباً الفوارق الفنية الواسعة ما بين الثقافات النوبية للعصر الحجري القديم الأعلى ، فإن لها تشابهات عريضة معينة تشير إلى تكيف تخصصى متزايد لبيئة النيل . هذا التكيف أسماه وندورف « التكيف النيلي » ، وقد وصف ملامحه بالعبارات الآتية :

منطقة الثقافة النيلية النوبية تبدأ في البروز وقتاً قصيراً عقب البيئة الأولى بأن النظام الحديث للنيل قد أنشئ إن أهم عنصر في تنمية منطقة الثقافة النيلية النوبية كان هو التكيف مع البيئة المصغرة لودى النيل ... ما أنجز هذا التكيف حتى كانت النتيجة ثباتاً عاماً للسكان . وقعت بعض الحركات بأعلى النيل وأسفله ، وندر وقوعها ما وراءه .

التكيفات مع البيئة النيلية جلية في وجوه كثيرة للمواد الأثرية ... النقلة من رمل حجر خرساني وصخور دهريّة عتيقة إلى صخر صوانى نيلي وحصى عقيفى في صنع الأدوات مثال ممتاز . إنها منعكسة للنظر أيضاً في



تتضمن الأسهم مدة الصناعات خلال الزمن. إقرأ الزمن من أسفل إلى الأعلى

### شكل رقم ١٣

تطور التسلسل الزمني للصناعات النوبية ما قبل التاريخ

تغير بإستغلال البيئة ، خصوصاً في ظاهرة تخفيض المحاجر ومحللات العمل بعيداً عن المواقع الحياتية .

التكيف النيلي واضح كذلك في الإقتصاد المختلط المؤسس على صيد حيوانات السافانا الكبيرة والحيوانات المائية ، وعلى الإنتقاط من السمك الوافر بالنيل . إن صيد الأسماك هام على وجه البقعة ، ويبقى مهماً وذا معنى ولربما للفترة التاريخية . غياب البيئة بشأن الإستفادة من هذا المورد وسط "السبيلين" مؤشر قوى أن "السبيلين" لم يتأصلوا بين البيئة النيلية المصغرة .

بالقرب من نهاية العصر النوبي الحجري الحديث ، إرتقت الوسائل الفنية لتسمح بالإستعمال الفعال للحبوب البرية التي نمت بإمتداد النيل ، ومن ثم لتجعل من الممكن إستغلال مصدر جديد وغنى للغذاء . ما من بيئة ، كيفما مضى الحال ، أن الإنتفاع من الحبوب ، الذى حدث في وقت راكم للغاية في النوبة بالمقارنة مع باقي أنحاء الشرق الأدنى ، قاد إلى نعام محلى لإنتاج الغذاء .

هذه الأنماط الإقتصادية كُشِف عنها النقاب في هوية المجتمعات وتوزيع المستوطنات . منذ البداية كانت المجتمعات صغيرة ومضمومة ، ربما لا تتجاوز عشرين فرداً إلا فيما ندر . ويظهر معظمها حجم عائلة ممتدة صغيرة لها ديار متميزة عديدة . أما تركيب هذه الجماعات فمتضمن إضافةً لذلك بالتجمع المُتَّحد بما يتراوح بين مساحتين لأربعة للسكن تُكوّن موقع الإقامة المألوف . يحتمل أن كل مساحة سكنية كانت مستخدمة ضمن دارٍ يديرها .

أغلب الإقامات تبدو وحيية ؛ مواقع الحفلاويين وحدها كانت مبنية على استعمال متواصل كثير من المواقع ، مع ذلك ، استُخدمت مُجدداً إفتراضياً لأن تلك الضاحية إمتلكت بعض المزايا بوجه دقيق - على الأقل موسمياً .

يبدو السكان كانوا مكتوفاً عديداً في ثبات إلى ما يقرب من إنتهاء العصر الحجري الحديث ... مع الكادانيين هنالك زيادة مرموقة في عدد من المواقع ، مع أن حجم المجتمعات لا يتغير بأهمية ذات قيمة . غير معلوم ما إذا كانت هذه الزيادة الظاهرة في السكان جاءت نتيجةً لوسائل فنية أشد فعالية للفنص وصيد الأسماك ، أو أن إرتقاء موارد الغذاء الجديدة من الحبوب الأرضية مسؤولة عنها . وأياً ما أدّى منهما إلى زيادة السكان ، برغم ذلك ، هناك بيئة أن سكان وادى النيل النوبي كانوا متناسلين مع بعضهم البعض بشكل متزايد ، كما يتضح في التكرار العالى للوحدات المنيفة التي عُثِر عليها وسط الهياكل البشرية في فناء القبور بجبل صمابه .

من الواضح أن الأحداث الثقافية لما قبل التاريخ التى برزت في النوبة قامت بوضع هذه المنطقة جانباً عن شمال إفريقيا وشرقها . إن الوجوه المميزة للصناعات النوبية واضحة في المراحل الأولى للتكيف النيلي ، وهى تتأثر على البقاء في كل مكان (١٧) .

هنا ثانيةً ، نجد بدايات تأريخ ثقافى نوبى متفرد .

كما ذكر وندروف ، تبدو صناعة السبيلين في العصر الحجري القديم الأعلى ممثلةً لإستثناء جزئى عن النمط العام للتكيف النيلي . البقايا السبيلية نوعاً ما موزعة توزيعاً عرضانياً في كل من النوبة ومصر العليا ؛ حقيقةً هذه واحدة من صناعات العصر الحجري القديم القليلة في النوبة وقد كانت معروفة قبل بداية اقرب حملة للإنقاذ . التقنية الحجرية تنتمى بالضرورة للعصر الحجري القديم الأوسط ، ولذلك السبب فإن الثقافة عُين لها تاريخ باكر من مكتشفها الأوائل (١٨) . يبدو هذا في خطى الآن : المواقع السبيلية التى اكتشفتها "البعثة المشتركة لما قبل التاريخ" أرجع تأريخها إلى الألف العاشرة قبل الميلاد (١٩) . في مثل هذا التاريخ المتأخر تمثل الثقافة حالةً خارجة عن المألوف في تميز وإثارة للدهشة . لم تختلف الأدوات وحدها لكن المادة الموطقة ( رمل حجري خراسانى تقضيلاً على الصخر الصوانى والعقيق ) مفارقةً لتلك التى كانت لصناعات العصر الحجري القديم الأعلى ، كما فعل بالإقتصاد لغياب أى ما يؤجى بصيد الأسماك أو الصيد المائى عنه . وإذا ثبت التأريخ المقترح بحسم ، فإن ما يؤجى به وندروف من تبخل لصيادين بدائيين يبدو مثيراً للإقناع بمستوى عالٍ . لربما أنهم صعدوا بالنسبة لجيرانهم الأشد تقدماً في الوسائل الفنية بمقدار ما يفعل



السكان الأصليون في الزمن الحديث مع قبائل البانتو بإفريقيا الوسطى .

كطريق للحياة ، وصل العصر الحجري القديم الأعلى بلا شك ذروته في ثقافات الصيد شبه القطبية ذات التخصص العالي في أوروبا ، بأنواتهم رفيعة القطع ، ووفرة العظام والعاج ، والنحت الرائع . هذه التطورات ما أزعج عنها الغطاء إلا بشكل باهت جنوب ساحل البحر الأبيض المتوسط . معظم إفريقيا وآسيا دارت دورة أشد تدرجاً في اتجاه التخصص الثقافي ، محتفظة باستعمال كثير من الوسائل الفنية للعصر الحجري القديم الأوسط حتى نهاية العصر الحجري . إن مثير التطورات في الشمال النائي كان محسوساً بالتأكيد ، مع هذا ، وعُثر كذلك على عدد من أنواع الأدوات تدل على متأخرة العصر الحجري الأوروبي القديم ( هنا يُدعى عادةً العصر الحجري القديم الأعلى) في الصناعات النوبية لهذا الزمن .

فنياً ، نهاية العصر الحجري القديم يعلم عنه ظهور كثير من أدوات حجرية قزمية (ميكروليثية) ، مستجمعة في أكثر انحاء العالم . كانت هذه حيويًا موضوعات للخشب أو العظم ، مُروسة أو مُطرقة الأطراف بأحجار صوانية حادة . بعضها دونما رية كان سهاماً ؛ بعضها الآخر مِدَى ، ومناجل ، وربما مكاشط . في أوروبا والشرق الأدنى تزامن حدوث هذا المدخل الجديد لصنع الأدوات مع التخلي عن صيد الحيوان الكبير وبداية حياة شبه جلوسية مستقرة ، ذات تخصص ، تقوم على صيد الأسماك ، صيد المستنقع ، والإستجماع الواسع للحبوب البرية . تكيفاً هيئ المرحلة لثورة العصر الحجري الحديث الحاصلة ولأنهم مصحوبون بتغير إيكولوجي إنتقالي متميز ما بين طرائق الحياة بالعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث ، فإن الصناعات الحجرية القزمية لأوروبا والشرق الأدنى جرى إعدادها فيما كان معتاداً عليه لمرحلة وسيطة من الإرتقاء تسمى بمرحلة العصر الحجري الوسيط .

التقنية الحجرية القزمية إنتشرت بمضى الوقت من أوروبا والشرق الأدنى لإفريقيا ، إن لم تكن قد نبتت فعلياً هناك . إن التجارة القزمية ( الصوان الدقيق الذي خدم كإطراف ونقاط قاطعة ) هي أوفر وجه من بين كل صناعات ما قبل التاريخ بالنوبة الأشد تأخرًا من حيث الزمن . هنا ، مهما جرى الحال ، (بإستثناء هام سيذكر لاحقاً ) لا تبدو موصولة بأي تغير إيكولوجي على قدر ما من الأهمية والمعاني . إن تكيف القنص وصيد الأسماك بقي صفةً للنوبة حتى نهاية أزمان ما قبل التاريخ . يحتمل لهذا السبب ، أن وندروف يعطى للصناعات الحجرية القزمية النوبية للتوصيف الجمعي ( العصر الحجري النوبي الختامي<sup>(٢٠)</sup> ) ، أحياناً يُدعى كذلك « العصر الحجري القديم اللاحق » بدلاً عن « العصر الحجري الوسيط » .

يمكننا أن نرقب في العصر الحجري القديم الأعلى بدايات ذلك التحفظ الإيكولوجي الذي يدل على هوية إفريقيا ، بما في ذلك مصر ، خلال كل التاريخ اللاحق . ربما بسبب أن قطعان الحيوان الكبيرة التي اندثرت في أماكن أخرى بنهاية العصر الحجري ظلت باقيةً بوفرة في القارة الجنوبية ، كان الإنسان بطيئاً في تكيف أنماطه المعيشية مع لونية الحياة بالعصر الحجري الحديث جديد النمو ولو كان متقبلاً لكثير من إختراعاتها التقنية . إن قصة الحضارة الإفريقية كانت ولا تزال على نطاق واسع واحدة لإختراعات فنية وإجتماعية مطهمة لقاعدة معيشية بدائية نسبياً .

### مداخل العصر الحجري

بيئاً أن معطيات النشاط الإنساني في النوبة ترجع إلى ما يزيد عن ١٠٠.٠٠٠ سنة ماضية ، لا نجد حتى مجئ نهاية العصر الحجري الباقي الأولية للإنسان نفسه . إن الطابع المتنقل وغير المحدد للحياة المبكرة ما قبل التاريخية صد بتشبيه أي طقوس جنازية متواصلة كما عاكس بالتأكيد أي نمو

لجِبانات كبيرة . وإن تطور حياة شبه - جلوسية مستقرة فيما هو محتمل ، بالقرب من نهاية العصر الحجري ، هو الذي جعل في الإمكان الإستعمال المستمر لمواقع محلية معينة للتصرف في الموتى . ثلاثة من مثل تلك الجِبانات بلغت الأضواء في مسيرة حملة الإنقاذ الراهنة . وبالرغم من أن أياً منها لا يمكن تأريخه بدقة ، فإن غياب قرايين الفخار (وجهاً يكاد يكون عالمياً للجناناز في العصر الحجري الحديث ) يجعل من المستيقن بالفعل أنها تسبق في الحديث إرتقاء الفن الخزفي .

جِبانات العصر الحجري الثلاث المعلومه إحتوت بالترتيب ٥٨ ، ٢٩ ، ١٩ هيكلأ بشرياً (٣١) . نُفنت بأجمعها في حفر بيضاوية ضحلة بوضع منحن ، مع دفع الركب كثيراً أو قليلاً على زوايا قائمة نحو الجسد ووضع الأيدي بالقرب من الوجه . أغلبية الأفراد إنكبوا على جانبهم الأيسر ، إلا أن هذا لم يكن شاملاً ، ما كان هناك توجه متماسك في إتجاه واحد أو غيره . إثنان من الجِبانات إُشتملتا قبوراً مُركبة : إثنان ، ثلاثة ، أو حتى أربعة أفراد مدفونون في نفس الوقت بنفس القبر . جدير بالذكر أن نفس عادات الدفن بقيت صفة للنوبة حتى مجئ حضارة الأسرات .

لم يُثر على أشياء في قبور العصر الحجري مما يمكن تفسيره بقرايين جنائزية . مع هذا ، فإن الجِبانة الأكبر ، بجبل صحابة ( جوار وادي حلفا ) ، كانت على غير المعتاد موضعاً للملاحظة نسبة لحضور ١١٦ مصنوعاً حجرياً بين الرديم الترابي للقبور . إن وجود بعض من هذه ربما كان غرضياً ، على أن قلّة منها وُجدت بالفعل مُودعة مع عظام الأموات . هذه ، مقرونة ببينة الإصابة بجراح على كثير من العظام ، تشير إلى احتمال مُداه أن كثيراً وربما أغلب الأفراد المدفونين بجبل صحابة كانوا ضحايا لصدام ما قبل التاريخ . فإذا كان الحال كذلك يُضاف بُعد جديد لصورتنا عن المجتمع النوبي في هذا الزمان (٣٢) .

جسمانياً ، هؤلاء النوبيون الأوائل المعروفون لم يمثلوا بالتأكيد سكان الأزمان التاريخية . كانوا طوألأ أشداء ، بتقاسيم حادة وذقون بارزة . إلتصموا إلى تلك السلالة الكرو - ما قنونية من الإنسان العاقل التي كانت منتشرة في أوروبا وشمال إفريقيا في نهاية العصر الحجري . أقرب تمثيل لهم مجموعات سكانية إفريقية أخرى من العصر الحجري الوسيط وعصره الحديث الذي تم العثور على بقاياه في المغرب والجزائر (٣٣) . من الممكن أن هؤلاء الجنوبيين كان لهم نفس لون الجلد الداكن مثل الأفارقة اليوم ، إذ أن هذا يُعتبر بصفة عامة تلاؤماً شائعاً لأقوام المنطقة الحارة .

## الانتقال إلى الحياة المستقرة

ميز مؤرخو ما قبل التاريخ في القرن التاسع عشر العصر الحجري الحديث عن العصر الحجري القديم بوجود أدوات من حجر أرضي وفخار . لقد تعرف العلماء في فترة متأخرة على أن الأهمية الحقيقية لهذه الإختراعات لا تقع في تقنيتهما إنما تكمن في إستعمالها ، حالات كثيرة ، لإعداد وتخزين المنتجات الزراعية . وبإيجاز ، نجد في أزمان العصر الحجري الحديث ، ربما ١٠.٠٠٠ عاماً ماضية ، أن الإنسان استغنى نهائياً عن إعتماده على وجود الطبيعة ويدا في إنتاج غذاءه بنفسه . نوعاً وفي مكان ما - ربما في امكتة عديدة كائناً في وقت واحد - تعلم أن يكأثر كلاً من النباتات والحيوانات لإستعماله الخاص ، محققاً بذلك تحكماً في مصيره ما حلم به أبائوه السابقون الذين تُسل من أصلايهم . خلال بضعة آلاف من السنين - كأنها بين قرون - تحول المجتمع الإنساني بما يفوق الإدراك ، ما كانت الحضارة نفسها أبعد مدى من قطع خطوة واحدة . أعلى قوردين تشايلد ، أحد أشد مؤرخي القرن العشرين الثقافيين إستبصاراً لهذا التحول إسم «الثورة الزراعية» أو «ثورة إنتاج الغذاء» (٣٤) .

يبدو أن النشاطين التوأمين للفلاحة وتربية الحيوان تطوراً في نفس الوقت تقريباً بشكل وثيق : لا

تزال هناك بعض الحيرة وسط العلماء أيهما جاء أولاً بالفعل<sup>(٢٥)</sup>. متى ارتقى نموهما، سار الإنسان بدأ بيد؛ كذلك يمكن أن كل الفلاحين الأوائل بالعصر الحجري الحديث إحتفظوا بقلّة من الحيوانات المستأنسة. بمرور الوقت، مع ذلك، إنتشر حفظ القطعان ما وراء حدود المناطق الخصبة حيث كانت الزراعة ممكنة؛ هنا نشأ الرعي البدوي أو شبه البدوي فرعاً متخصصاً للثروة إنتاج الغذاء.

كان تحول العصر الحجري الحديث أشد حالةً والهب إثارةً للخيال في جنوب غربي آسيا، لاسيما مناطقها المرتفعة. قريّ متينة البناء، يزيد عدد من فيها على ألف ساكن، منتجةً ومبالة لكل أنواع السلع الفاخرة، تبعث أينما كانت فرقاً من الصيادين المهاجرة لا غيرها تجول قروناً قليلة سابقة لثورها. لهذا ولأسباب أخرى مال الرأي السليم طويلاً لأن ينظر لمرتفعات الشرق الأدنى على أنها الموطن الأصلي للثورة الزراعية<sup>(٢٦)</sup>. إن أحوال الصحراء السائدة بالصحراء الكبرى تظهر مبدئياً كأنما منعت نشرها في القارة الإفريقية، حيث تمسكت بالبقاء إقتصاديات الصيد والإلتقاط زمنياً بعيداً بعد إنشاء حياة القرية المستقرة في الشرق الأدنى. مُستهلاً ربما بالآلاف السادسة قبل الميلاد، كيفما تم ذلك، كانت هناك إستراحة غير متوقعة: أمطار هطلت بغزارة أوجدت نباتات البحر الأبيض المتوسط المألوفة فوق مناطق كانت بلا حياة لآلاف عام. ثم ما أسرع ما شرع القحط فيها، إلا أن عودة أوضاع الصحراء ما كانت مكتملةً إلا بصعوبة حتى بداية الأزمان التاريخية. لقد كانت فيما يبدو خلال «المرحلة الرطبة للعصر الحجري الحديث» أن طريقة الحياة بإنتاج الغذاء كانت قد أُقيمت بشكل دائم في إفريقيا. وفي مسيرة القرون إنتشرت تدريجياً فَعَمَت القارة بأسرها، حتى لم يبق إلا البوشمان البدائيون بصحارى جنوب إفريقيا نموذجاً لأسلوب الحياة ما قبل الزراعة<sup>(٢٧)</sup>.

تأثيرات العصر الحجري الحديث التي ظهرت في إفريقيا أثناء «المرحلة الرطبة» يبدو أنها كانت من نوعين متميزين، كلاهما هام في تاريخ النوبة. إشتعل واحد منهما على إنشاء إقتصاد زراعى أساساً على النيل الأسفل، كما تدل على ذلك مثلاً ثقافات الدلتا في العصر الحجري الحديث (الفيوم ومريدا) بمصر السفلى والبدارى بمصر العليا. أما الثاني فكان الإنتشار الذي وقع في نفس الآن فيما يظهر للبدواة فوق إمتدادات شاسعة للصحراء الكبرى المأهولة من جديد<sup>(٢٨)</sup>. هذان الطريقتان المملوءان بالحياة إلتقيا واندمجا في رواق النيل، صاغ وتداخلهما جزءاً كبيراً من تاريخ النوبة في أزمان لاحقة.

الأصل الأساسي للإقتصاد الفلاحي المصري يبدو مما لا جدال فيه<sup>(٢٩)</sup>، فمستقبقات البدواة الإفريقية أقل يقيناً بكثير. البقر الذي نجد بقاياها في مواقع للعصر الإفريقي الجليدي الباكر الحديث ليس سلالةً أسيوية بحكم التعرف؛ ربما يمثل حالةً من الإستئناس الأصلي لأنواع محلية<sup>(٣٠)</sup>. تناوباً مع ذلك، ربما أن الحياة الرعوية بلغت شرق إفريقيا من شبه الجزيرة العربية عن طريق مضيق باب المندب، أو لعلها انتشرت صوب الجنوب من سيناء على طول مرتفعات البحر الأحمر، كما فعلت بدواة الرُحّل في العصور الوسطى.

يعقب إشكالية الأصول المستقرة في شمال - شرق إفريقيا إضافةً لذلك الظهور الأول للفخار (مؤشراً للحياة المستقرة) متقدماً على كل من الزراعة وتربية الحيوان. إن إستخدام الآنية الفخارية واحد من أكثر وجوه الحياة في العصر الحجري الحديث إنتشاراً، لكنه في جنوب - غرب آسيا سار قروناً قليلة من بعد الإستئناس الأولى للنباتات والحيوانات. أقدم مواقع للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى (وربما كذلك في البلقان) تفنقد تلك البقايا الخزفية وتنتمي إلى «ما قبل الفخار» أو «ما قبل العصر الحجري الخزفي الحديث» قصير الأجل.

في النوبة تعاقب هذا التطور كان معكوساً. إن ما يُدعى ثقافة الخرطوم في العصر الحجري الوسيط، التي اكتشفت سنوات قليلة ماضية في وسط السودان، تعرض صناعة حجرية قديمة مألوفة مصحوبة بفخار راقٍ بما يثير الدهشة، غير أنه لا توجد بُيئة لأي من إستئناس النبات أو الحيوان<sup>(٣١)</sup>.

. هنا ، كما في أحيان كثيرة كذلك ، يبدو أن إفريقيا كانت أكثر تقبلاً لإختراعات تقنية خالصة منها التطورات البيئية التي تسببت في مجئها ، فإن الأصل الأجنبي لصناعة فخار الخرطوم في العصر الحجري الوسيط غير جازم ، إذ أنه ليس له سوابق معروفة سواء بالوطن أم خارجه . ربما أنها تمثل حالة واحدة مزادة لإختراع الفخار المستقل - مستتاراً على سبيل الإمكان بالإمام بصنوعات مماثلة في مكان آخر (٣٧) . في الوقت الحاضر يجعل غياب تواريخ الكربون المشع أى نوع من الارتباط التاريخي للعصر الحجري الوسيط بالخرطوم أمراً عسيراً .

ثقافة الخرطوم في العصر الحجري الحديث توحى بتلاؤم عالى التخصص لأحوال الندواة السائدة . عاش الناس فيما يبدو معسكرات كبيرة شبه دائمة ، مع أنها بدون مساكن مبنية ، بموازاة ضفاف الأنهار والحقائر . كان جزء كبير من حياتهم مستمداً من صيد الأسماك ومن قنص فئران الأعشاب طويلة السيقان وغيرها من خواص القنص الصغير في بيئة مستنقعية . هذا التشكل من أشكال الوجود يقترح مرتعاً قريب الشبه بما هو كائن اليوم بمستنقعات جنوب السودان . إن وفرة الغذاء الطبيعي ماثبة بقدرة سكان الخرطوم في العصر الحجري الوسيط على انتهاز حياة مستقرة (ومن ثم صنع وإستعمال الفخار ) دونما أى من الزراعة أو تربية الحيوان . ما من جبانة بهذه الفترة عُثر عليها ، بيد أنه عند إكتشاف موقع " الخرطوم الأولى " كان عدد من الأفراد قد دفن بين المستوطنة . ممارسة أخرى دلالة على أقوام المستوطنة باكورة العصر الحجري الحديث (٣٨) . طريقة الدفن ، في وضع منح بحر يضاوية ضحلة لا تختلف عن الطريقة المتبعة من قبل الأقوام النوبية الأولى والمتأخرة على السواء .

بقايا العصر الحجري الوسيط في الخرطوم وُجدت على رقعة ذات اعتبار بشري النيل وغيره . صناعة الحجر المرافقة لها ذات توزيع أوسع إنتشاراً بكثير ، وهي مماثلة بشكل لصيق للصناعات الحجرية الدقيقة في كل من شمال - غرب إفريقيا وكينيا (٣٩) . بل إن فخار الخرطوم في العصر الوسيط الغامض والذي يبدو متأسلاً له شبيهة في الغرب البعيد بالصحراء الكبرى ، مع أنها ربما تمثل تشبهاً لاحقاً لنفس الفكرة (٤٠)

في معظم الجوانب ، للعصر الحجري الوسيط في الخرطوم نكهة إفريقية متميزة بدلاً من نكهة شرق أدنية . كما رقب ديزموند كلارك " الصحراء الكبرى في هذا الوقت لابد أنها كانت ملتقى لأقوام من شمال وأواسط إفريقيا . هؤلاء الناس كانوا كثرة أم قلة أهل قنص وصيادى أسماك مستقرين تركزوا بالبحيرات الدائمة ، والمنخفضات ومجارى المياه الكائنة آنذاك ، وعاشوا في مستوطنات لها أكوام نفايات من التي طُبعت عليها الخرطوم الأولى ، تفرجيت ، وتامايا مليت " (٤١) . وتجدر الإشارة إلى أن البقايا الهيكلية البشرية التي وُجدت في كل من المواقع المحلية التي دُعيت أسمائهم بعاليه تبين بما لا تخطف العين صفات إفريقية . ثقافياً ، وربما كذلك وراثياً ، كان أولئك الناس هم الأسلاف المباشرين للنوبة الحاليين (٤٢) .

### العصر الحجري النوبي الحديث

في وسط السودان خُلف العصر الحجري الوسيط في الخرطوم ، ربما حوالى ٣٥٠٠ ق م (٤٣) بصناعة مشقة تُدعى العصر الحجري الحديث في الخرطوم (أحياناً تسمى بالمثل ثقافة الشهبان على اثر موقع إكتشافها (٤٤) ) . إن تواصل مباشر بين الثقافات الأولى والمتأخرة يوحى به فخارهم ، وصناعاتهم الحجرية لصيقة التقارب . كل من الجماعتين صنع فخاراً بنياً غير ملون مزخرفاً في تنميق يرسم مضغوطة وحقورة ، تشمل مرات كثيرة مجمعات من خطوط منقوطة ومتواصلة . إقترح أ . ج . أركيل أن هذه نُفذت بشوكة سمك العجل (٤٥) .

إن أهم وأقيم تحديث يُروى في العصر الحجري الحديث في الخرطوم هو حضور ماعز البيفة صغيرة ، من فصيلة الشروق أدنى فيما هو ممكن مع أنه ليس مستيقناً . بعبارة أخرى ، كان إنتاج الغذاء من هذا النوع قد ارتقى في نهاية الشوط بأعلى النيل في هذا الزمان ، يكاد يكون بنفس القَدَم مع نهوض الحضارة نفسها في مصر وبلاد ما بين النهرين . على قدم المساواة الآن . وكيفما اتفق ، يصعب أن يكون إقتصاد النوبيين مُحَوَّلًا : صناعة العصر الحجري الحديث في الخرطوم تستنتج اعتماداً ثَقِيلاً متواصلًا على صعيد الأسماك وقنص المستنقع ، ربما مع رعى قطعان الماعز كدعم عرضي في البداية ليس إلا . بمعظم الأوجه لا تزال الثقافة تقدم المثال على التكيف النيلي في أقصى مراحل تخصصها . هنالك متشابهات متضمنة للإتصال مع ثقافات الفلاحين بالعصر الحجري الحديث عصر ( الفيوم والبدارى ) ، إلا أن هوية الثقافة الجنوبية تظل بما يدعو للملاحظة متميزة وإفريقية بالضرورة <sup>(٤١)</sup> . بالبيئة على الزراعة ما تنفك مفقودة .

إقتصاد القنص وصيد الأسماك المائل منذ ربح طويل إستمر بوضوح في إتاحة معيشة أكثر من كافية ، على الأقل بإمتداد النيل الأعلى . إن البقايا الثقافية من الشهبان ومواقع أخرى في وسط السودان تُفرد إنباعاً مذكوراً من الرخاء والترف . العقود وأدوات أخرى للزينة من حجر الأمازون ، العقيق الأحمر ، العظم والصدف ، رؤوس هراوات من الحجر الرملي ، قدايم ، ورؤوس فاسية ، والفخار ، كلها وُجِدَت في كثرة عظيمة <sup>(٤٢)</sup> . بالرغم من أن تجفيف الصحراء الكبرى ربما كان مرة ثانية حديثاً ، ما كانت هنالك عودة كاملة لأوضاع الصحراء بعد ، ذلك أن بقايا العصر الحجري الحديث في الخرطوم عثُر عليها على مساحات لا حياة فيها الآن لمدى بعيد <sup>(٤٣)</sup> .

ثمة بقايا مشابهة من ناحية الأنواع المصنّفة للعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث في الخرطوم توجد كذلك في الجزء الشمالي للنوبة ، على الأقل إلى مبلغ الشلال الثاني . إنها لا تُبَيِّن قُرْباً وثيقاً من الصناعات النوبية نهاية العصر الحجري الحديث لهذه المنطقة ، وهي لذلك يُعتقد أنها تمثل تسخلاً من مكان لآخر <sup>(٤٤)</sup> . ثَمَّ التفتيح عن عشرة مواقع بالتقريب للعصر الحجري الحديث في الخرطوم ( تدعى « متباين الخرطوم » من قبل وندورف وصحبه ) ، وفي منطقة وادي حلفا أثناء حملة الإنقاذ الأخيرة <sup>(٤٥)</sup> .

ومع أن مواقع العصر الحجري الحديث في الشمال تُظهر بعض التماثل لتلك المجاورة للخرطوم ، فليس هنالك نفس الإقتراح بالرخاء والوفرة على غرار ما يُعد وصفاً دالاً على البقايا الجنوبية . إن أدوات الزينة المتعددة إضافةً إلى الأدوات المصنوعة من الخشب ( القدايم والرؤوس الفاسية ) التي وجدت بالشهبان لم يُعثَر عليها في النوبة السفلى . أحوال الصحارى ربما كانت أكثر تقدماً في الشمال ، كما هي اليوم ، وتناقضت موارد القنص بالتالي . الأنشطة الإقتصادية لأناس العصر الحجري الحديث في الخرطوم وبالنوبة السفلى لسوء الطالع ليست مُتضمنةً في صفاء البقايا التي اكتشفت حتى الآن . لا عظام للحيوان الوحشي أو المتناس أو أى بيئة محدودة لصيد الأسماك ، جاءت إلى النور بعد . وبالنسبة للمواقع التي تقع بعيداً عن ضفاف النيل ، مع ذلك ، من العسير أن يُتخيل أى نشاط معيشى بخلاف رعى القطعان أو قنص الصيد الصغير .

كلُّ من المواقع المعروفة للعصر الحجري الحديث في الخرطوم بالنوبة السفلى معسكرات صغيرة وغير دائمة . شقٌّ من أرضية طينية مُجْبِرة وُجِدَت في مكان واحد <sup>(٤٦)</sup> ، ونفاية موافد خشنة في مكان آخر <sup>(٤٧)</sup> ، غير أنه ما من شئ ليُثبت عن بناء هياكل دائمة . ثانية ، يشير غياب الجبانات إلى نمط متقل من الإستيطان . إجمالاً ، توحي بقايا العصر الحجري الحديث في النوبة السفلى بحياتٍ أغلظ وأشدّ تضيقاً من التي تمتع بها سكان الشهبان .

هنالك بيئة في منطقة وادي حلفا لثقافة ثانية للعصر الحجري الحديث ، إصطلاح عليها بالعبيكي من وندورف وصحبه <sup>(٤٨)</sup> . للصناعة الحجرية المرافقة ، على غير ما عليه « متباين الخرطوم » ، تبدو

من أصل محلي ومأخوذة من صناعة الكادان في العصر الحجري الحديث . فخار عبكة من الجانب الآخر يبين تماثلات مُثَمِّمة لفخار مصر في العصر الحجري الحديث . الأواني غالبيتها رقيقة الحواف للغاية ، قِوَّاحاً نصف كروية منبسطة ، ذات شقوق حمراء بين فينة وأخرى . وعلى الرغم من أن زخرفاً ثلما يظهر أحياناً ، ليس هنا شيء مقارناً بالرسوم المعقدة التي تميز العصر الحجري الحديث في الخرطوم . بصرف النظر عن هذا ، فإن العثور الموسمي على فخار عبكة في مواقع الخرطوم وبالعكس يوحي بالمعاصرة بين الصناعتين .

في مناقضة لبقايا العصر الحجري الحديث في الخرطوم ، تقع كل المواقع المعروفة لثقافة عبكة بالقرب من النيل الحالي ، وتقدم بيئة تعلق إعتدالاً ثقيلاً على صيد الأسماك . طبقاً لجويل شاينر :

إقتصاد عبكة ، وفقاً لبيننتا ، ربما كان مؤسساً تأسيساً ثقيلاً على صيد الأسماك ، بعض الصيد والإلتقاط لابد أنه لعب دوراً ، مع أن البيئة المباشرة شحيحة . توجد حجارة السخن ، مع إنها ليست عديدة .. لو كانت هناك اختلافات ذات قيمة ومعنى في النشاط الموسمي ، فإن تلك الأنشطة كانت تمارس من موقع دائم منفرد إلى حد ما ستة من عشرة مواقع عبكية موضوعة على مدار أمتار من مواقع ممكنة للشراك المنصوبة للسمك (٥٠) .

حتى الآن ( اللحظة ) ، فإن مواقع عبكية بالعصر الحجري الحديث معلومة من منطقة الشلال الثاني و بكن الحجر وحسب (٥١) . وجانباً عن الفوارق المتماسكة في التقنية الخزفية والحجرية . هنالك القليل لإجراء مفاضلة بينهما وبين مواقع العصر الحجري الحديث في الخرطوم . كلاهما كان بالضرورة معسكرات دونما أى بيئة لنباتات دائمة أو حتى مساكن مهيأة بعناية أو أرضيات للحياة عليها في معظم الحالات . برغم هذا ، إكتسبت بعض مساحات إقامة مواقع عبكة في منطقة الشلال فائدة كبيرة من الحماية التي تكفلها الطبيعة نتوءات وجلمودا . أما مدى وعمق راسب الإقامة في هذه الأمكنة فيؤحي بسكان أكبر عدداً وطريقة حياة أكثر استقراراً عما تفعل بقايا عصر الخرطوم الحجري الحديث في نفس المساحة .

بمعاشية صناعيتين ، واحدة منحصرة بضفاف النهر والأخرى منتشرة بشكل أكثر ، من المغري أن يُشاهد تكوين هذه الثنائية الزراعية . الرعيوية التي تعد دالة مميزة للغاية على الشرق الأدنى المتأخر . لعل مثل هذا الفرض يفسر على السواء الفقر البادي لبقايا العصر الحجري الحديث في الخرطوم بالشمال ، بافتراض أن سكان الخرطوم كان قدومهم متأخراً بعد أن استولى العبيكيون على أفضل أجزاء الوادي . بصرف النظر عن ذلك هنالك إعتراضات مريضة على أى تأويل بهذا المنوال . فالذى يبدو هو أن العبيكيين كانوا بشكل رئيس صيادي أسماك بدلاً من فلاحين وإننا نعلم أنه على الأقل في الجنوب كان صيد الأسماك كذلك مصدراً مهماً لمعيشة سكان الخرطوم . بنفس المستوى فإن المعاصرة بين الأثرين ليست مما يقع فوق الجدل ، حيث أن التواريخ الفعلية مفتقدة . يمكنهما بشكل محتمل الوقوع أن يمثلتا تطورات متوالية ، مع تأكيد أن العبيكيين هم الآخريون . إن الثنائية على أى حال لم تعد ظاهرة في ثقافة المجموعة الأولى التي أعقبتهما ، وكل من ماثر عبكة والعصر الحجري الحديث في الخرطوم تبدو توليفة ممتزجة في هذه الثقافة النوبية الباكورة للفترة التاريخية ( قارن بالفصل الخامس ) .

## فنى ما قبل التاريخ

ما من وصف كامل لحياة ما قبل التاريخ يكون كاملاً في شمال إفريقيا من غير أن تُذكر النحت الصخرية التي تمثل تعبيرها الفنى . تصويراً للحيوانات ، بتركاز أقل للناس ومتواجهاً ، توجد محفورة ( أو ملونة من وقت لآخر ) على نتوءات صخرية في كل أنحاء الصحراء الكبرى وما وراءها . تنوع الأساليب والتقنيات اللونية يشهد بتاريخ فنى طويل .

تاريخ البقايا النقوشية دائماً ما ينطوى على مشاق ، إذ أنها نادراً ما تقتزن بفضلات الإقامة . مع هذا ، فإن أصل ما قبل التاريخ لكثير من الفن الصخري في الصحراء الكبرى - يبدو مما لا جدال فيه . كثير من الرسومات توجد في أمكنة غير مسكونة منذ طور الندوة في العصر الحجري الحديث ، والنبات الموصوف خمدت جنوره منذ عهد طويل في الجزء الشمالي من إفريقيا . الأكبر والأحسن تطبيقاً للرسم يبدو على عدد من الأسس ما كان أكر زمناً . إن تمثيلها الفني للوحات الكهوف المجدلينية العظيمة في فرنسا وإسبانيا صارخ للغاية بحيث تُقترح صلة تاريخية معها عن طريق مضيق جبل طارق <sup>(٥٦)</sup> . في أزمان متأخرة يبدو الفن النقوشي كأنما شهد تدهوراً في الأسلوب بالترديج ، ربما مرافقاً لتداعى إندثار الصيد الثقيل نفسه . مع هذا ، فإن ممارسة النحت والرسوم الصخرية بقيت على قيد الحياة متحدرة إلى داخل أزمان تاريخية ، ولا تزال ممارسة اليوم من البوشمان الصيادين في الصحارى الجنوبية من إفريقيا .

المحفورة الصخرية وافر على طول امتداد وادي النيل ، على الأقل من الخرطوم إلى الدلتا . ما يقرب من ألف مجموعة من الصور بُلّغ عنها من بعثة مفردة في مناطق الشلال الثاني وبطن الحبر <sup>(٥٧)</sup> . وإنها فيما هو ظاهر يرجع تاريخها لكل الفترات ، من فترة ما قبل التاريخ إلى الماضي ذي القرب الوشيك . تبين رسوم ما قبل التاريخ حيوانات الصيد المألوفة في السافانا التي توجد اليوم بأواسط وجنوب إفريقيا ( إفتراضياً توجد كذلك في النوبة إبان الزمن الذي رسم فيه ) ، بينما البقر هو الموضوع المفضل لمعظم الفترات المتأخرة . هنالك أيضاً عدد من الرسوم الرئيسة ، مثل مركب بصارية ومجداف للقيادة ، إشتقاقاً مصرياً لا تخطئه العين في أنحاء الصحراء الكبرى توجد رسوم مماثلة للمركب ، يُرى أنها ترتبط بمعتقدات جنائزية محددة <sup>(٥٨)</sup> .

بالرغم من أن الصور الصخرية النوبية الأشد قديماً ترجع بالتأكيد لما قبل التاريخ ، لكنها لا تنتمي للطور التمهيدى . ما يُجد شئ يُقارن من مرحلة بناء الصروح لفن الصحارى الصخرية في وادي النيل بالرسوم الصخرية من النوع المجدليني في الصحراء الكبرى الوسطى والغربية . إن الحيوانات ممثلة دائماً في نماذج مصغرة جداً ، الحركات والسكنات جامدة وشكلية .

واحد من أكثر المعثورات وأشهرها لفن ما قبل التاريخ النوبى وجد في عبة ، يرتبط وثيقاً ببقايا إستيطانية لصناعات الكادان والعبكان بالعصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الحديث <sup>(٥٩)</sup> . مئات من الرسوم الفردية نُحِتت على مجموعة من الجلود الغرائيتي مبعثرة فوق أفدنة عديدة ، بعضها في تجمعات كثيفة والأخرى معزولة ( الصورة ٤ - ١ ) . أكبر جمع مفرد إحتوى أكثر من خمسين حيواناً إلى جانب رسوم أخرى لا حصر لها . مع أن بعض المجموعات ذات الشكلين أو الثلاثة أشكال كانت قد أُجريت بصفاء في نفس الوقت ، ما كان هناك جهد حقيقى بالنسبة لمنظر المنشأ ، وكان تجاوز أشكال كثيرة فيما هو واضح غرضياً . هنالك بعض التنصيب الفوقى الذي جاء مؤخراً على رسوم سابقة . إلا أنه لا يوجد ما يوحي بأن الرسوم الممسوحة ، التي أوجدت في تعمر ، تُشخص أياً من الفن الكهوفى في الصحراء الكبرى الغربية أو المجدلوني <sup>(٦٠)</sup> .

الحيوان الذى يمكن التعرف عليه وسط الصور الصخرية في عبة يشمل الزراف الوعل ، الغزال ، التيتل ، الحمار الوحشى ، الفيل ، فرس البحر ، وحيد القرن ، النعام ، والأرنب . يدعو للإستطلاع ، بالنظر إلى النشاط المعيشى المفترض للناس الذين عاشوا في عبة ، أنه ما كانت هنالك رسومات للسك ، مع أن رسماً شبه تجريدى واحد ربما يكون فخاً للسك <sup>(٦١)</sup> . هنالك زيادة على ما ذُكر أنفاً صيادون بالنبال والسهام ومعهم كلاب ، وأشكال إنسانية أخرى متنوعة . أفضل هذه الأشكال منفذ بعناية معتبرة ، لكنه لا يشتمل أياً ما يُزحَب بحياء أو حركة . علاوة على هذا يوجد عدد كبير من رسوم تجريدية خالصة . لا يتعدى علو الرسوم للفردية عشر أو إثنى عشرة بوصة .

موانع الإقامة في عبة يرجع تاريخها بين ٧٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق . م <sup>(٦٢)</sup> ربما أن الرسوم هنا تبدو

من أوائل الطُور الموجودة في النوبة ، يحتمل أن هذه كذلك تُرْسَخ التاريخ لدخول الفن الصخري إلى جوف وادي النيل .

### ملخص تفسيرى

تأريخ النوبة في العصور الحجرية تميزت سماته بالإرتقاء التدريجى لبيئة من نوع الواحات ، وبتلاؤم متزايد التخصص للسكان الأصليين مع موارد تلك البيئة . كان هذا « التلاؤم النيلى » من النجاح بمكان لدرجة أنه مضى طويلاً غير متأثر بالتغير المناخى أو بتطور طرائق حياتية أكثر تقدماً في المناطق المجاورة . جُمُعُ النبات الحَبُّى ، الذى كان في الشرق الأدنى عينَةً على ثورة ثقافية واجتماعية ، ما كان في النوبة أبداً أكثر من ملحَق غذائى لا أهمية له . لم يكن للإدخال المتأخر للحيوانات الأليفة ولا للنمو المستقل للفخار فيما يصح إمكان حدوثه أى أثر تحويلى هام ، على المجتمع النوبى . جعل الطور المطير للعصر الحجري الحديث من الممكن نشر حياة فلاحه الشرق الأدنى في باطن مصر ، لكنه على النيل الأعلى كان من أثره الأساسى أن يُغْنى إقتصاد القنص - صيد الأسماك - الإلتقاط الذى أحسن إنشاؤه من قبل . وفى النهاية ، تبدو الحياة الجلوسية المستقرة كأنها ما جاءت عن طريق نماء في إنتاج الغذاء إنما عبر الإنتاجية غير العادية للقنص وصيد الأسماك إبان الطور الرطب للعصر الحجري الحديث . ما كانت حياة الفلاحة مقامةً آخر الحلقة في النوبة حتى نهاية العصر الحجري ، عندما كانت مصر وسومر في ذلك الحين على اعتاب الحضارة . تنتمى تلك القصة بشكلٍ سليم إلى المجموعة الأولى من الفترة التاريخية .



## الفصل الخامس

### ظل الحضارة ثقافة المجموعة الأولى النوبية

في الألف الرابعة قبل الميلاد جعل نفوذ الحضارة المتنامية في الشرق الأدنى نفسه محسوساً بصورة نهائية في إفريقيا . على طول النيل الأسفل كان هناك توسيع لمجتمع ، وإسراع بخطى الحياة ، وترقية للفنون التي وضعت الأساس لبزوغ الدولة الفرعونية قريباً من نهاية الألف الرابعة . وبالمظهر المصاحب للكتابة الهيروغليفية ، نجد أنفسنا بشكل مفاجئ في الفترة التاريخية . إن صورتنا في الحال عن الحياة والمجتمع في مصر أوسع مساحةً وأعلى كمالاً منها في أي فترة سابقة .

يُلقى فجر التاريخ في مصر ظلالاً خافتة على الأرض الواقعة إلى الجنوب في أحسن الحالات ، وقد بقيت في العصر الحجري الجديد على أمية قروناً طويلة . من حوليات الملوك والمسؤولين المصريين نمسك خيوطاً زائلة وأحياناً غامضة عن النوبة ، بيد أنه للحصول على إثبات راسخ عن الثقافة وتطورها ، علينا أن نعتمد اعتماداً كلياً على الآثار ما استطعنا حتى مجئ ، حضارة الأسرات نفسها إلى النوبة ، بعد ١.٥٠٠ عام ، أن ننشئ أي نوع من الصور عن الحياة اليومية في الأرض الجنوبية من إثبات نصي .

فترة الحضارة الناهضة في مصر معاصرة بصفة خاصة لثقافة المجموعة الأولى في النوبة . هذه هي الجماعة القديمة لرايزنر - الأولى في الثقافات غير المدونة التي اكتشفها منذ ستين عاماً مضت في شلال ، والتي عرّفها بأنها أسبق إقامة في النوبة . ملاحظاً تمثل فخار « المجموعة الأولى » لفخار المصريين ما قبل عهد الأسرات ، مثلما لاحظ الغياب البادي لبقايا أقدم زمناً في النوبة ، إرتأى رايزنر بما هو مفهوم للغاية هجرة في اتجاه الجنوب من مستوطنين مصريين إلى أرض لم تكن مأهولة من قبل <sup>(١)</sup> . إن تاريخه للنوبة ، وتواريخ عديدة أخرى أعقبته تبدأ لذلك بإقامة « المجموعة الأولى » .

« المجموعة الأولى » كمركب ثقافي متميز أثبتته في إتيقان عمل آثارى منذ أيام رايزنر . وفي الجانب الآخر يمكننا أن ندرك اليوم أن كثيراً من أفكار رايزنر فيما يتعلق بأصول الجماعة ١ - أ ، « المجموعة الأولى » وعلاقتها ، لم تكن صحيحة . إن ثقل التينة الحديثة يخبر أن كلاً من الثقافة والمجتمع كانا نوبيين لا جدال ، وكانا على مقربة من الأزمان الأولى والمتأخرة ثقافياً ومجتمعياً في نفس المساحة . بداية الأمر ، تبدو الآن مستبينة ، أن ثمة علاقة وجدت مع أثر عبكة في العصر الحجري الحديث ، وربما كذلك مع ثقافات أخرى للنوبة السفلى في العصر نفسه <sup>(٢)</sup> . في النهاية ، يظهر التمييز المفترض بين « المجموعة الأولى » <sup>(٣)</sup> و « المجموعة الثانية » <sup>(٤)</sup> زائفاً بكيته . هنالك حلقات وصل وفيرق على حد سواء مع « المجموعة الثالثة » <sup>(٥)</sup> التي تُطالع دائماً على أنها أشد

(\*) الجماعة ١ في النص الأصلي - المترجم .

(\*\*) الجماعة ب في النص الأصلي - المترجم .

(\*\*\*) الجماعة ج في النص الأصلي - المترجم .

تأخراً في الزمان . لذلك يبدو من الأفضل أن تتفادى المضامين الإجتماعية لكلمة «جماعة» ويُحدث بدلاً منها عن أفق ثقافي عريض ، يغطي كلاً من « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثانية » : ثقافة المجموعة الأولى، بسبب الإفتقاد لإسم أفضل .

دفاعاً عن فرضية رايزنر الأصلية ، فإن النفوذ المصري في ثقافة المجموعة الأولى النوبية يصعب أن يُقول من شأنه . الابتداعات الثقافية الرئيسية إلى جانب الأحداث التاريخية الكبرى لهذه الفترة كلها بالتقريب مما يمكن رد أثره مباشرة أو غير مباشرة إلى المصريين . إنها ظل الحضارة الحاضر أبداً في الشمال ذلك الذي يفاضل النوبة هذا الزمان عن كل الفترات الأولى . مبدأ الأمر ، مع ذلك كان انتشار الأفكار والأشياء ، ليس حركة الناس ، هو الذي دفع تطورات ثقافة المجموعة الأولى للتحرك . المصريون أنفسهم جاءوا من بعد ، بنتائج مختلفة . ستكون المغامرات الإستعمارية لمصر في النوبة (إستلافاً للعنوان الذي أطلقه امرئ) <sup>(٣)</sup> موضوع فصول لاحقة ( قارن على الأخص الفصلين السابع والتاسع ) .

جانباً عن ثروة من الأفكار والمواضيع المستحيلة ، تميز أربع خصائص أصلية ثقافة المجموعة الأولى عن أسلافها بالعصر الحجري الحديث : الزراعة المحددة للنبات الحبي في بدايات معمار محلي ، صنع فخار أسوأ وأحمر متميز ، وممارسة إيداع قرايين مادية مع الموتى . الأوليان من هذه الخصائص أثبت حدوثهما منذ وقت متأخر ليس إلا . وعلى أساس القبور ، وفوق كل شيء الفخار الموجود بها ، حدد رايزنر منذ وقت طويل خصائص « المجموعة الأولى » وأعاد إنشاء تأريخها الإجتماعي .

مواقع ثقافة المجموعة الأولى وُجدت بكثرة في كافة أرجاء النوبة السفلى ( الشكل رقم ١٤ ) <sup>(٤)</sup> . أما المدى الذي امتدت إليه جنوباً هذه الثقافة التي تُعد أول ثقافة طالها النفوذ المصري في النوبة ، فيظل ، في الوقت الراهن ، غير محدد . وُجدت ثلّة من مواقع ثقافة المجموعة الأولى في المسح الذي أكمل منذ مدة وجيزة لبطن الحجر <sup>(٥)</sup> ، بيد أن أثراً أبعد مكاناً في الجنوب ، يشمل بضعة قبور ، يُلّغ عنه لحين وشيك من ناحية صانداً في أرض عبري - دلفو النهرية <sup>(٦)</sup> . ثقافة المجموعة الأولى يظهر هكذا أنها بشكل معتبر موزعة بإتساع أكبر من أي صناعة للنوبة السفلى سبقتها في العصر الحجري الحديث ! ربما يجدر بنا لذلك أن نعدّها نموذجاً لعدد من تقاليد محلية مختلفة ، كلها تستجيب لنفوذ شائع من الشمال . يجب أياً ما كان أن يُؤكد أنه بالنسبة للوقت الحالي تنحصر المعرفة المنسقة عن ثقافة المجموعة الأولى في النوبة السفلى فعلياً .

## الفُخار والتاريخ

يبدو الفخار مغالى فيه في تعريفنا للمراحل الثقافية النوبية المتأخرة بشكل يجعل من المحتمل أن تُذكر كلمة حول دوره العام في الآثار . حجم المسافة المكروسة لمناقشة أواني الفخار في التقارير الأثرية قد تُؤدى بالفقارئ العادي لأن يستنتج أن صنعها كان العناء الأساسي لأقوام ما قبل التاريخ . قليلٌ من علماء الآثار يؤمنون عن وعى بهذا ، مع أنهم في مساعيهم لإعادة إنشاء التاريخ من بيئة مادية ينسون أحياناً أن ما يكون هاماً لهم ربما لم يكن مهماً لصانعيه . هنالك بصرف النظر عن ذلك أسباب وجيهة لأكثرنا بالفن الخزفي ، بعيداً للغاية عن أي إعتبارات لأهمية وظيفية .

هنالك إتفاق عام أن الفنون - تلك التعابير من الثقافة التي غلب تحررها من إملاءات الضرورة - هي أشد المؤشرات حساسيةً للتقليد الثقافي في جوامعهم . يصدق هذا فوق كل اعتبار آخر على الفنون الشفوية : إنه بلغتها ، وأدبها ، وأسطوريّتها نتعرف على هوية الثقافات والحضارات في عصرنا الذي نحياه . ومما لا يدعو للغبطة أن هذه التعابير ليست محفوظة لنا من ثقافات الأزمان ما



شكل رقم ١٤  
توزيع مواقع معروفة لثقافة المجموعة الأولى (الألف ١)

قبل التاريخية . إننا ملزمون بأن نستعيد الخطى ، من ثم ، على آثار الفن الواحد الذى ارتقى بسعة في مجتمعات العصر الحجري الحديث والتى هي محفوظة بنفس القدر على نحو شمولي وافر ؛ ذلكم هو فن تشكيل وزخرفة الأواني الفخارية . ما كان بأي حس فناً خالصاً ، غير أنه حتى في أغلظ المصنوعات ، هناك إختيارات للبالغ ، واللون ، ومعالجة السطح لابد أن تكون مؤسّسة على اصطفاء جمالي ، أو بكلمات أخرى على تقليد ماثور . عجزاً عن إيجاد تعبيرات أكثر إتفاقاً وإعلاناً عن الهوية الثقافية ، أصبحت أشكال الفخار بالنسبة لعالم الآثار ، لذلك ، « إمضاءات » لشعوب ما قبل التاريخ .

قيمة الفخار كدليل معياري للهوية الثقافية جرى إظهارها من خلال خبرته على مدى قرن في الميدان . في أي موقع مسلماً به يمكننا أن نرقب أن الخزفيات ليست أكثر توفراً لدرجة تعلو على بقايا ثقافية أخرى وحسب ؛ إنها على قدم المساواة أكثر وحدة ، أشد تماسكاً ، فوق كل شيء أخذ تميزاً من رسوم المساكن ، والأدوات ، والمنتجات غير الهللكة الأخرى التي تُكوّن بقسط كبير السجل الأثري . كذلك فإنها تتغير بشكل وطيد ، في كل من الزمن والمسافة . نفس التقاليد الزخرفية سوف يُشرك فيها كل أعضاء المجتمع أو التجمع في العادة ، لكنها قلما تنقسمها في كليتها مجتمعات أو تجمعات أخرى ، كما أنها لا تتأثر على البقاء على مدى فترات طويلة من الزمان . بل إنه حيثما يكون هناك ، نفوذاً شائعاً ومشتركاً بينها ، فإن مساوى الصيغة الدارجة ( أو توفر المواد ) ستفرض الإحساس بها في أشكال متفاوتة محلية ، وإبداعات تترى بين حين وآخر . ونتيجة لذلك ، يمكن « لثقافات » ما قبل التاريخ أن تكون دقيقة للغاية ومتباينة في صلابة بفخارها حتى عندما تتشابه في كل الجوانب الأخرى .

أهمية الفخار بالطبع تصنيفية أكثر منها وظيفية . نقطة يفضى العلماء الآثار طرفهم عنها مرات عديدة . إن نفعها لنا كدلائل تصنيفية ليس مؤشراً على أهميتها بالنسبة لصانعيها ، فربما كانت قلميراً أو شيئاً طفيفاً . لا يصنع ثلّب أي نسق ثقافي ولبابه بالضرورة من تلك الأوجه التي تميزه أغلب الأمر أكثر من الأنساق الثقافية الأخرى . إن أشكال الفخار في الحقيقة تهى بحق قاعدة لا غنى عنها للتمايز بين البقايا الأثرية في الزمن والمسافة ، بينما تضربنا على وجه المقارنة بالقليل عن رقة صانعيها وتطلعاتهم .

لأن الوصف العلمي لابد أن يبدأ بتعريف ، هنالك دائماً إغراءً بتركه لينتهي به . وعندما يحدث هذا يصير المتميز ، على نحو تلقائي إلى ، هو القيم الأهم . في ميدان علم الآثار ، أصبح الفخار الذئب الذى يؤرّج كلبى الثقافة والمجتمع التوأمين . عطفة نرقبها المرة تلو الأخرى في دراسة التاريخ النوبي . خدمت الاختلافات والتشابهات في الفن الخزفي والهامة بمستوى رئيس لتقدير التسلسل الزمني في المواقع كقاعدة لإعادة إنشاء التاريخ الإنسانى . أكثر الأحياء على حساب بيئة ثقافية أكثر قيمة وأهمية وظيفياً . لو كان راينرز ، كمثال مُستغرقاً في التعابير الثقافية خلاف الفخار لكان قد رقب قطعاً أن التشابهات بين جماعاته ١ ، ب ، ج<sup>(٥)</sup> ، تفوق الاختلافات نسبة تقدر عشرة إلى واحد ، ولما كان على نحو الإحتمال ينظر لها كجماعات سكانية محددة . مرة ثانية ، لو كان مقصده غير مسلط على متماثلات فخار محددة بعينها ، لما كان مُعرفاً « المجموعة الأولى » النوبية بالمصريين ما قبل عهود الأسرات<sup>(٦)</sup> . كلتا الحالتان انطلقتا بجدهل من شبيثة الفخار إلى كينونة الناس ، ما تجاهل حسب وجوهاً أخرى للثقافة لكنه نسى ، كما فعل علماء آثار كثيرون ، أن الفنون والأفكار متى خلقت تملك حياةً وتاريخاً ينتميان لذاتهما ، مُستقلين عن الصانعين . « للأفكار أجنحة » كما تعن السير مورتيمر ويلر<sup>(٨)</sup> ؛ تستطيع أن تطوق الأرض في بضع سنين بينما يظل مبتدعوها متجنزين بحزم في وطنهم .

النوبيون أصحاب ثقافة المجموعة الأولى صنعوا أواني فخارية من عدة أنماط مختلفة ، بعضها

(٥) أي المجموعات الأولى والثانية والثالثة – المترجم .

مشتقُ بصفاء من موروث عبكة في العصر الحجري الحديث <sup>(٩)</sup> . الأواني التشخيصية «والتوقيعية» لهذه الفترة كيف جاءت قديماً وجراراً لها سطح خارجي ، مصقول ، وجوف وحافة سوداوان لامعان . هذا الأثر يبدو كأنما أخرج أولاً بمسح لسطح الأواني غير المحروقة بمسحوق حجر الدم . ثم في ختام الحرق ، يُوضَع مع اتجاه حافة رأسه للأسفل على موقد من أوراق الشجر أو العشب بينما لا يزال ساخناً مُصمراً <sup>(١٠)</sup> والناتج تلمخ أو إسوداد للحافة والجوف . إن القاعدة ربما اكتُشِفَت في البداية غرضاً ، لكنها سرعان ما طُبِقت عمداً للأثر الجمالي .

الفخار ذو الرأس الأسود يبدو أنه صنع في وقت واحد أو آخر من ناحية أقوام كثيرة في العصر الحجري الحديث بكل من شمال إفريقيا وجنوب آسيا . أول مستخدميه (وربما مخترعيه الأصليين) في وادي النيل هم البداريون ما قبل التاريخ بمصر العليا ، مع أن الصناعة أضحت أكثر شعبيةً سواء بسواء في الفترة الامراتية (نقادة الأولى) <sup>(١١)</sup> . حُمِلَت الفكرة صوب الجنوب بواسطة الرحالة النوبيين أو المستوطنين المصريين ، وسرعان ما استحوذت إعجاب الأقوام ما وراء أسوان . تقع أقدم مواقع نوبية للفخار أسود الرأس في اقاصى الشمال بأجمعها ، منبئة أن الفكرة كانت في بدايتها بطيئة الانتشار ، مع أن رايزنر أرجعها بترجيح إلى هجرة المصريين أنفسهم المتجهة في تدرج إلى الجنوب <sup>(١٢)</sup> . هناك - أيا كان الأمر - فوارق قائمة نوعاً ما منذ البداية بين فخار النوبة أسود الرأس وفخار مصر ، وهى فوارق تومئ إلى انتشار فكرة بدلاً عن هجرة أناس <sup>(١٣)</sup> . بحلول المرحلة المتأخرة من المجموعة الأولى بلغت على الأقل جنوباً حتى منطقة عبرى - دلفو ، وقد أخذت بها كل الأقوام السكانية الأصلية ما بين ذلك المكان وأسوان .

حالما أُنشئت في النوبة ، تشبَّث تقليد الفخار سوداوى الرأس بالبقاء طويلاً بعد نبوله في مصر . ما فُتنت أوانى من هذا النوع تُصنع على نطاق صغير في الفترة الأخيرة ما قبل الأسرات التى أعقبت الامراتية في مصر ، غير أن الفن ذهب ريحه تماماً ببداية الأزمان التاريخية . بقى محبوباً في النوبة لمدة ١.٥٠٠ سنة أخرى ، حتى تخطلت سلع الدولة الجديدة المصرية صنَّع المجلة . هذه الظاهرة من «البقاء الهامشى» سوف نرقبها مرات ومرات في التاريخ النوبى ووفق كل شئ بالرجوع إلى رسوم الفخار .

### الحياة اليومية في ثقافة المجموعة الأولى

معظم الاختلافات الثقافية بين ثقافة المجموعة الأولى وأسلافها بالعصر الحجري الحديث ، مثل الفخار ، لها أهمية وقيمة في التسلسل الزمني أكثر منها وظيفية . كما بمصر المعاصرة كانت المُحدثات الكبرى في ثنایا الثروة والترف أكثر منها في ظروف الحياة اليومية . المعيشة ، الإسكان ، والفنون المحلية قليلاً ما تغيرت ، بينما يمكننا أن نُدرِك في إرتقاء المجتمع والإقتصاد إستمراريةً لتلك العملية المتدرجة من «الإناخة» لا غير ، التى تُشخص النوبة طوال الفترة ما قبل التاريخ . « ثورة » العصر الحجري الحديث التى حَوَلَت مجتمع الشرق الأدنى بضعة قرون كانت هنا عمليةً ممدودة لتطور إرتقائى لا يزال بعيداً عن الكمال في ثقافة المجموعة الأولى .

مواقع ثقافة المجموعة الأولى أكثر تعدداً بشكل مطلق من مواقع فترات سابقة ، مما يوحي بزيادة في السكان . يبقى مع ذلك أن أكبر مستوطنة يحتمل أن يكون عدد سكانها قد بلغ أقل من مائة فرد ، حيث قدر تريفز أقصى سكان النوبة السفلى بأجمعها بـ ٨.٠٠٠ إنسان <sup>(١٤)</sup> . الجيانات والفخار الوافر يشيران إلى حياة أشد استقراراً مما كان ممكناً في أزمان أولى للعصر الحجري الحديث ، إلا أنه مازال هناك إندعام للتجمعات الكبيرة . أماكن السكن في ثقافة المجموعة الأولى كانت في أغلبيتها معسكرات موسمية أو مؤقتة ، رغم أن بعضها ربما كان يعاد شغله بصورة متقطعة للأجيال .

مباهجهم الطبيعية يصعب تفوقها على ما أُتبح للعصر الحجري الحديث أو أزمان العصر الحجري الوسيط بنفس القدر . يصف تريقر موقعاً فوق رابية من ثقافة المجموعة الأولى المبكرة في العبارات الآتية<sup>(١٥)</sup> :

ما كانت هنالك اثار لاسوار بأي مكان على الموقع ، لكن ستة عشر كوماً من الفضلات كانت مبعثرة بلا نظام على وجه التدقيق فوق مساحة حوالي ١٠٠ قدم مربع . بمقدار معادل في القرن الأخير ، كيفما اقتضى الحال ، عاشت عائلات كثيرة في النوبة العليا بمساكن مصنوعة من حصائر مئيلة على أعمدة . جوار (مصرية) عبيدة وُجِدت في المواقع ، تُبين أنها كانت مستخدمة في الحياة اليومية إلى جانب دفن الجنائز . في نهاية المعسكر عُثر على لوحات تلوين أردوازية ، حجارة للمسح ، ورؤوس فأسية حجرية إلى جانب فأس نحاسي ثقيل . عظام السمك وبيض النعام ، وعظام الحيوانات لم يتم التعرف عليها حيث وُجِدت بالمثل . توحي عظام السمك أن النهر لابد أنه كان مصدرأ هاماً للغذاء في هذا الزمان ، كما يُحتمل أنه ظل كذلك أثناء فترة العصر الحجري الوسيط آنفاً . حوالي مائة ياردة إلى الجنوب ، وجد رايزنر جبانة صغيرة يُعتقد أنها كانت مُصاحبةً للمعسكر . ما كان هنالك سوى سبعة عشر جسداً في هذه الجبانة

إذا كان هذا الموقع نموذجياً بأي حال ، فإن المجتمع النوبي ( للمرحلة المُبكرة من ثقافة المجموعة الأولى ) لابد أنه كان صغيراً للغاية ، محتوياً على مالا يتعدى حفنةً من العائلات النوبية . يظهر الموقع معسكراً مؤقتاً أشد منه موقعاً مستديماً للسكن . هذا المعسكر على وجه التدقيق يبدو متخلياً عنه بصورة غير متوقعة ، وإلا فإنه من غير المحتمل أن مادةً غالية بهذه القيمة العالية يُتخلى عنها . بالرغم من ظهور أحوال ، غير مستقرة ، بدوية بالفعل ، في هذا الموقع ومواقع حيائية متأخرة ، هنالك بيئة أخرى تُوحى إستقراراً أقوى بشكل معتبر . على نحو دقيق هنالك جنائز ثانوية في عدد كبير من القبور يبدو أنها دفنت في وقتٍ ما بعد الجنائز الأصلية . يبدو هذا مؤشراً على أن عُصابة أو عائلة كان يقودوها أن تستخدم نفس المقبرة على مدى فترة طويلة من الزمن . ربما أن كلًا من هذه الجماعات إتجهت حينما تبقى إلى جوار قسم محدود من النهر ، نوع حياة يتزايد في تساوقه مع اعتماد جزئي على الزراعة باقل تقدير ، بدلاً عن التجوال البدوي . بما أن الإقامات كانت هشة فإن المستوطنات يمكن تحريكها أحياناً كثيرة في يسر . وخلال معظم العام ربما كانت المعسكرات موضوعةً بإمتداد حافة النهر ، ما كان إلا إبان فترة الفيضان أن سكانها تراجعوا إلى طرف السهل الفيضي .

من بين الأربعين موقعاً حياتياً أو أكثر لثقافة المجموعة الأولى الذي تم تحقيقه إلى الآن ، تُعرض ثلاثة فحسب بقايا لا خطأ فيها من البيانات<sup>(١٦)</sup> . أكبر هذه المواقع وأحسنها حفظاً ، بالقرب من عافية نُقِبت عنه بعثة هندية في ١٩٦٢ . وصفه يجي كما يلي من تريقر :<sup>(١٧)</sup>

في المواقع (٥١) ، جوار عافية ، إكتشف مسح ١٩٦١ موقعاً مساحته على الأقل ٨٠×١٥٠ متراً ، مثل بعض المواقع في مصر ما قبل الأسرات ، إمتد عبر مرتفع لمنحدر سحراوي عريض الواجهة بين وادين . وُجِدت اثار الاسوار حجرية خشنة في أرجاء الموقع ، مكوّنة مساكن تحتوى ما يبلغ ست حجرات ... أزال البريطانيون الغطاء عن بقايا مسكن من حجرتين في الطرف الشمالي من الموقع . كلا الحجرتين كانتا مستطيلتين ولهما ابواب خارجية تواجه الشمال . الاسوار الداخلية ووجوهها الخارجية بُنيتا من مواد بناء جافة : القضاة بيّن بيّن ملي رملاً وطنياً . وكانت الأركان الخارجية اكثف من بقية السور ومستديرة إستدارة خفيفة ، كلا الحجرتين لهما أرضية من طين .

المساكن الحجرية لثقافة المجموعة الأولى هي أقدم نماذج للمعمار في النوبة ، لكنها في أفضل الحالات ما كانت أكثر من أكواخ . تُرعى الوفرة في حفر تثبيت الأعمدة بأن الأعمدة كانت لا تزال تلب دوراً هاماً في بنائها . ربما بدأت أسوار الحجر ببناء خارجي أضيفت إلى منزل من عشب أو قصب . بمقتضى الندرة البالغة للبقايا الهيكلية : فإن العشب أو القصب وحده لابد أنه كان كافياً للأغلبية العظمى من المنازل (١٨) .

الفنون المحلية الأصلية لثقافة المجموعة الأولى تُبين بالمثل تقدماً قليلاً على ما كان منها

بالأزمان الفائتة الفخار ، حجارة السحن ، أدوات القطع ، وكل أنواع السلع المنزلية بطبيعة الحال أكثر عدداً ، بالنظر إلى الحياة الأكثر إستقراراً في ثقافة المجموعة الأولى . لكن هذه المصنوعات المحلية ما كانت ، في معظم الأحيان ، أرفع مستوى بشكل ملحوظ من منتجات أزمان العصر الحجري الحديث . إستثناء واحد يجب مع كل ذلك أن يُجَرى في حالة العثور على أواني فخارية ملونة من نوع معين ، فربما أصدرها أول إختصاصيى النوبة في صنّع الفخار (انظر « التطور الثقافي في ثقافة المجموعة الأولى » بإنداه ) . هذه الأواني ، مثل موضوعات الصنع المصرية التي تبدو في قبور ثقافة المجموعة الأولى ، نادرة بما فيه الكفاية لتعتبر سلعاً للترف بدلاً عن ممتلكات يومية . كانت الزراعة بشكل قاطع ممارسة على أساس منظم أكثر بكثير في ثقافة المجموعة الأولى منها في أزمان سابقة ، على أنه مرة ثانية كان الفارق كبيراً أشد منه نوعياً . وحتى ذلك الحين كانت الفلاحة غير معانة بدفعات تقنية مثل قوة الحيوان والمحراث .

أما الأنشطة المعيشية لثقافة المجموعة الأولى فمُثبتة بمستوى ضعيف للغاية ، جزئياً لأن علماء الآثار في النوبة ما تنامي لديهم تقدير للإيكولوجيا الثقافية إلا منذ وقت وجيز . بقدر متكافئ ما كانت ممارسة الزراعة ، مع أنها استُتِجت منذ وقت طويل ، مقاماً على وجه التحديد من مُقدم الحفريات ب عافية في عام ١٩٦٢ . وُجِدَت هنا أخيراً حبوب قمح متفسخة ، والشعير ، والبرسيم ، والبسلة . المحصول المُركَّب المؤلف للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى <sup>(١٩)</sup> . ولابد أن زراعة هذه المحاصيل قد فُرضت على نوبيي ثقافة المجموعة الأولى أن يرتادوا حياة أكثر إستقراراً مما أنيط بأجدادهم . إن حالة إفتقاد المستوطنات للتواصل المستمر لا تزال تشير رغم ذلك إلى أن الزراعة كانت بعيدة عن توفير قاعدة كاملة للمعيشة . يقيناً إن صيد الأسماك ظل مهماً ، وربما القنص إلى جانبه .

دور تربية الحيوان في ثقافة المجموعة الأولى يبقى سؤالاً صعباً - أكبر قطعة مفقودة في لغزنا . طالما أن هذه الفترة على سبيل الدقة لا تزال موضعاً للإعتبار في التاريخ . كانت الأغنام المستأنسة تحفظ سلفاً من سكان العصر الحجري الحديث بالشهيناب <sup>(٢٠)</sup> ، بالرغم من أن وجودها في النوبة السفلى لم يؤسس على وجه حازم بعد . رعاية القطعان كانت عناءاً مركزياً للنوبيين في ثقافة المجموعة الثالثة ، التي أعقبت ثقافة المجموعة الأولى . منطقياً ، إذن ، يجدر بثقافة المجموعة الأولى <sup>(٢١)</sup> أن تكون حلقةً للوصل بين هذين التطورين ، والفترة التكوينية لتلك التقاليد الرعوية الماثورة شديدة البروز في ثقافة المجموعة الثالثة . مثل هذه الفرضية تُلقي جانباً من الدعم في الحقيقة التي مؤداها أن كساءات الجلد شائعة في قبور ثقافة المجموعة الأولى <sup>(٢٢)</sup> ، وأن كلاً من البقر والضأن مذكورين كخفيمة من النوبة في نص مصري من الأسرة الرابعة <sup>(٢٣)</sup> .

إقتراح بأن تربية البقر كانت النشاط المعيشي الرئيس لثقافة المجموعة الأولى دفعه منذ وقت قريب عالم الآثار الروسي ياريس بياتروفسكى ، على أساس حفريات ب خور داود في النوبة السفلى . طبقاً له :

« المستوطنة التي نُقِيت كانت المكان الذي يُحضر إليه الرعاة اللين كي يجرى تشغيله ... و يُنقل منتوج اللين بعد ذلك إلى الضفة المقابلة للنيل حيث تقع المستوطنات والحقول الرئيسية . حقيقة أن الرعاة كانوا أحياناً كثيرة ملزمين بإستعمال المراكب أمر مُبَيَّن بنحوت صخرية لبقر منقول عبر النهر ، وكذلك بالحصور في المقابر ، مصحوباً بتمائيل صغيرة لأبقار ذات قرون ، ونموذج طيني لقارب . المستوطنة الأسرية الأولى ب خور داود تمثل نوعاً جديداً من الإستيطان المصري العتيق قائماً على تربية البقر . هذه المستوطنة مثل منطقة تربية البقر بجمعاتها ، لم تجذب الإنتباه ، ومع ذلك فدور تربية البقر في عملية التكوين الطبقي وإقتصاد مصر ... كان مُعتبراً <sup>(٢٤)</sup> .

(\*) المقصود بما فيها ثقافة المجموعة الثانية ، أى الجماعة ب فى تقسيمات رايزنر الهجائية القديمة - المترجم.

في مكان آخر ، يسلم المؤلف أنه " ما كانت هناك عظام حيوانات يُعْتَر عليها في وسط بقايا الفيضان " (٢٤) ، بالرغم من أن الشعيير ونوعين من القمح كانت موجودة . إضافةً إلى ذلك ، دلت القبور وصور الصخور بطريق غير مباشر على أنها لا تنتمي إلى خور داود وإنما إلى مواقع أخرى ، وربما أفاق زمنية أخرى . المنطق على إطلاقه بالنسبة لدور البقر في ثقافة المجموعة الأولى (الذي تواصل لصفحات عديدة ) هو بحق نموذج ماثور للجدلية الماركسية ، المؤسسة ليس على بيئة تجريبية لكن على تماثل مفترض مع بلاد ما بين النهرين السالفة . مثل هذا التماثل لا يسرى إلا إلتماساً من تلك النظرية الجامدة لمتوازية التطور الإرتقائي التي هي واحدةٌ من الثوابت المقدسة للأيدولوجية الماركسية . لقد رُفِضت لعدم دقتها منذ وقت طويل من قِبَل أساتذة يرغبون في منح بعض السماح لتغيرات الجغرافيا وأحداث التاريخ . في أرض كانت ، في ٢٢٠٠ ق م ، تتقدم أنفاً نحو حالتها الحديثة من القابلية للزراعة (٢٥) ، يُبين الإقتراح القأصى بعمليات تجارية لإنتاج البان في خور داود نبذاً إجمالياً للحقيقة الأيكولوجية ويبدو أنها حالة لإنتصار الأيدولوجية على الحس العام .

حتى هذه اللحظة ، تحقق لممارسة تربية الحيوان في ثقافة المجموعة الأولى تأييد تجريبي قليل ، بضعة عظام لقطعان اليفة حُددت في مواقع لهذه الفترة إلى هذا الحد فحسب (٢٦) . بالرغم من أن بوسعنا منطقياً أن نستقرئ حضورها ، لا يمكننا أن نقطع بمدى مساهمتها في الغذاء النوبى أثناء الفترة التاريخية الأولى . من الجانب الآخر فإن العثور على عدة منات من عظام الغزلان في موقع لمعسكر بـ بطن الحجر ، مؤرخاً حوالي ٣٠٠٠ ق م ، يبين أنه على الأقل في هذه الرقعة المحلية غير المنتجة بقي تنص الصيد البرى هاماً من الناحية الإقتصادية . في نفس الموقع كانت هنالك خمسة شقوق عظيمة لا غير ربما كانت لبقر ، لآعينة لضانٍ أو ماعز (٢٧) .

بمضاهاة الفن والعادات الجنائزية لثقافة المجموعة الأولى مع ما كان منها بثقافة المجموعة الثالثة ، بمقدورنا على الأقل أن نجزم بأن البقر ، إن وُجد ، لم يجد نفس الأهمية الأيدولوجية التي أوليت له في أزمان متأخرة . إن إشكالات الأصل والقيمة المهمة لإستئناس البقر ولتقديمه سوف تُناقش فيما بعد في الفصل التالي .

### المركب الجنائزي

بوجه عام ، لا تلمح لمواقع السكن في ثقافة المجموعة الأولى إثراء في الحياة مقارنةً بأزمان ماضية إلا بصعوبة . عندما ندير أعطافنا للجبانات ، برغم ذلك ، تواجهنا صورة مختلفة إختلافاً شاسعاً . بالرغم من أن حفر القبر ووضع ما يضمه بين جنبيه غير متغيرين منذ العصر الحجري الحديث ، هنالك الآن فيضٌ من القرايين الجنائزية ، كثير منها أجنبي الصنع . مباشرةً أو بطريق غير مباشر ، تعكس قبور الأفق أ ثلاث مستجدات متميزة : عناء متنام بالحياة الآخرة ، تراكم لثروة طائلة في صيغة سلع ترفية ، وأعظم أهمية من كل ذلك . إنشاء علاقات تجارية مع الحضارة الصاعدة بمصر .

جبانات ثقافة المجموعة الأولى كانت بؤرةً لإهتمام خاص لعطاء الآثار منذ إكتشافها الأول وتُركت قبور قليلة لهذه الفترة بلا تنقيب تركاً معلوماً . بالتالي يمكننا أن نتحدث بإطمئنان أبعد مدًى بكثير ، عن الممارسات الجنائزية بأفضل مما نتحدث به عن ظروف الحياة اليومية في هذه الفترة الزمنية من التاريخ . القبور في «المجموعة الأولى» غلّت ثروة من السلع المادية ، كثير منها لم يُعثر عليه أبداً في المواقع السكنية الفقيرة أو الجرداء ، مما يجعلنا غير قادرين على أن نتناول أى دور لعبته في هذا العالم .

ما يزيد عن مائة جبانة من ثقافة المجموعة الأولى تم التحقيق بشأنها الآن (٢٨) . أكبرها تفل

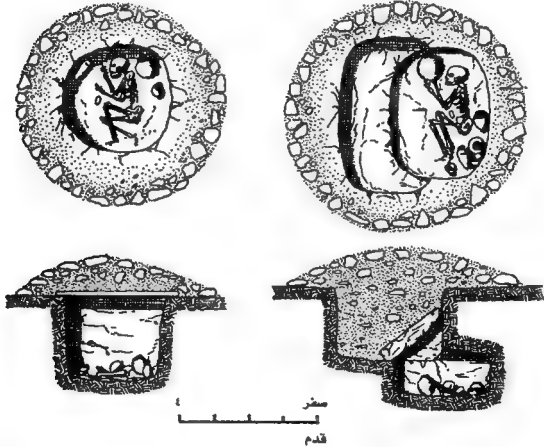


«موقع الإكتشاف» (الجبانة السابعة) في شلال ، إحتوت ٦٦ قبراً من ثقافة « المجموعة الأولى » وفوق المائة منسوبة « للمجموعة الثانية »<sup>(٣٩)</sup> . مع ذلك ، كما سنرى ، فإن معظم القبور من المجموعة الثانية ليست لها ملامح تباين بصفاء . أكبر رقم لقبور تم التعرف عليها بتحديد قاطع في أى جبانة واحدة في ثقافة المجموعة الأولى هو ١١٧<sup>(٤٠)</sup> ، في حين أن العدد العادي يقع بين ٣٠ و ٨٠ . لقد لاحظنا أنفأ أن الجبانات أحياناً كثيرة تُبَيَّن نمطاً من الإستعمال المتقطع على مسافة فترات طويلة من الزمن ؛ كثيرٌ منها في الحقيقة بقي مستعملاً خلال ثقافة المجموعة الثالثة .

عادات الدفن في ثقافة المجموعة الأولى موصوفة كما يلي من ي . ب . امرى<sup>(٤١)</sup> :

إستعمل أناس في ثقافة المجموعة الأولى عند دفن موتاهم نوعين من القبور : واحد كان حفرةً بيضاوية بسيطة، مستديرة تقريباً ، مقطوعة بعمق ٨٠ . مترأ والآخر ، أقل شيوعاً ، كان نوعاً من قبر بفجوة جانبية : غرفة مدفونة على جانب واحد ، مقطوعة لعمق متوسط ١.٢٠ مترأ (قارن الشكل رقم ١٥) .

أُسجِيت الأجساد في وضع منطوي على الجانب الأيمن مع إتجاه الرأس عادةً إلى الغرب تحيط بالجسد مواد للإستعمال اليومي مثل أواني الفخار ، حجارة صحن المرمر ، لوحات للتلوين من المرمر والرمل المجري ، قاذفات



شكل رقم ١٥  
أنواع المقابر في ثقافة المجموعة الأولى

إرتدادية من الخشب، ومقنبات النحاس. تزين الجسد مجوهرات بسيطة، مثل أساور من الصنف، حبات عقود من العقيق الأحمر. وحجر دمى من استيت أزرق صقيل، ومجار. الفخار على العموم. أرفع تصميماً ومنعاً على السواء. ويظهر تنوعاً معتبراً في القالب والصنعة. أكثر الأنواع شيوعاً كانت جراراً كبيرة قرنظية السطح لإحتواء السوائل، جراراً كبيرة مستديرة حمراء السطح لها قاعدة مستديرة لحفظ الطعام، وقديحاً عميقة التجويف وأكواباً حمراء لامعة رقيقة السطح، سوداء مصقولة في الداخل ومعدة التلويح الزخرفي بالخارج، يُعدّ ذلك تقليداً لأعمال السلالة. إن أواني من هذا النوع ربما استعملت لأغراض الأكل.

الغالبية العظمى من قبور ثقافة المجموعة الأولى غير مصّاحبة بأي بنايات أو علامات على سطح الأرض، وقد اعتُقد طويلاً أن النوبيين بهذه الفترة لم يثبتوا بعد ممارسة بناء ركام أو هياكل علوية فوق القبر. إن أثرأً يُجد مؤخرأً في النوبة المصرية، كيفما اتفق، يقضى بعض التعديل لهذا الرأي. بَلَّغَ المكتشف هـ. س. سميت أنه "في الجبانة ٢٦٨ ب تنكالة غرباً، التي لبعدها من أي واد وكونها على مستوى مرتفع نسبياً ما كانت متأثرة بغمر المياه مثل معظم الجبانات في ثقافة المجموعة الأولى، وُجدت (١) مدافن تليمة مبنية من أطواف من الحجر الجاف غير مُستوى على مدخل القبر، أو ما يقرب من شكل دائري؛ (ب) مكاناً للقرايين مشيداً من حجارة مستقيمة موضوعة بزوايا قائمة على المدفن النيلي الذي يحتوي فخار القرايين؛ (ج) شيئاً ما، كان باعتبار لكل الإحتمالات، نُصِبَ غير مكتوب للقبر" (٣٢). كل هذه المجرىات تسبق في الحدوث الممارسات الجبائزية الشائعة في ثقافة المجموعة الثالثة، وتدعم فوق ذلك إقتراح التواصل بين الفترتين. الغياب العام للهياكل العلوية في ثقافة المجموعة الأولى ربما يرجع بسبب ذلك للتدمير الذي لحقته بها التعرية الطبقيّة؛ عملية مقترحة أيضاً بالصحالة غير المألوفة لعريش القبر.

ثروة السلع الترفيّة المدفونة مع نوبيي ثقافة المجموعة الأولى، لأناس من العصر الحجري الحديث، مثيرة للعجب. في نفس الوقت تحتوي أفقر القبور (بإستبعاد قبور ثقافة المجموعة الثانية، التي سيكون علينا أن نُقَرِّر وضعيتها عما قليل) مواد قليلة مثلها، أشد ما يلاحظ منها المجوهرات، وهي فيما يظهر قلما ورثها الأحياء. الحاجات الشائعة للزينة، من صنّع مصري غالباً، كانت خرزاً من الفايانس (أو حجر جيرى مُدَوَّر بصافى أزرق أخضر) ومُخَاراً، وأنواعاً مختلفة من الحجر، ومعلقات، وقماقم من الفايانس والحجر وأمشاطاً من العاج، وأساور من العاج والصدف. أمتعة أخرى مصرية الصنع في القبر شملت أدوات نحاسية وكمياتٍ مدهشة من الفخار صنع العجلة.

تبانياً مع القبور في ثقافة المجموعة الأولى، فالقبور في ثقافة المجموعة الثانية، إما أنها خالية خلواً من القرايين أو أنها تحتوي سلماً بسيطة قليلة، معظمها من صنع محلي. أمّن رايزنر أن هذه انتمت إلى عصرٍ متأخر وأناس مختلفين، لكنها في الحقيقة غير متباينة عن القبور في ثقافة المجموعة الأولى «فيما عدا فقرها. هنالك سبب للإعتقاد، لهذا، أن ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثانية» ربما كوّنا في الواقع الطبقات الإجتماعية الأعلى والأدنى لنفس السكان، الفارق بينهما إجتماعي - إقتصادي أكثر مما يعد تسلسلاً زمنياً. إن كان الأمر كذلك، فإنه يقول شيئاً كثيراً حول المدى الذي اندفع إليه أنفاً التمايز الإقتصادي، وربما بقدرٍ متساوٍ، التمايز الإجتماعي، في فجر العصر التاريخي.

في الطرف الآخر من القبور في ثقافة المجموعة الثانية «عدد من جنازات ثرية بعين الدقة مثل واحدة نُقِشَها فيرث بالقرب من سيالة، ووصفها كما يلي تريقر (٣٣):

بعض من فكرة من ممتلكات زعيم نوبي يمكن اكتسابها من الجبانة ١٢٧ جنوب سيالة بالضبط، تلك التي اعتبرها فيرث مكاناً لدفن مثل ذلك الرجل وعائلته. إن القبور، مع كبرها، كانت من قالب معهود لكل القبور في النوبة خلال هذا الزمن. إحوتُ حُفراً مستطيلة بآركانٍ مستديرة محفورة في الطمي ومسقوفة ببلاطات من الرمل الحجري ذات أبعاد مقدرة أحياناً كثيرة. كان كل قبر قد استعمل لجنازةٍ عديدة. يبدو أنها أُجريت أزماناً مختلفة.

المصنوعات الموجودة في واحد من القبور شملت أواني حجرية عديدة ، عدداً كبيراً من فؤوس النحاس الثقيلة ، سبائك فضيية وأزاميل ، مغرفة مصنوعة من أردواز معصوب ، لوحتان للالوان ضخمتا الحجم على شكل مزدوج لطائر ، رأس أسد من بلورات لمري ودرى مغطى بصاقل أخضر ، مرآة من معدن المايكا ، وهراً وأتان ذواتاً مقابض مكسوة بالذهب . وسلسلة من الحيوانات ، مصورة على شكل جانبي منخفض على مقبض الهراوة الصغرى ، مشغولة على نفس طراز الحيوانات التي وجدت على لوحات للتوطين من عهد حكم الملك نمر . أرخ هيلين كانتود (٢٤) هذه المقبرة بالجزء الباكر من الأسرة ( المصرية ) الأولى ...

مضامين لفظ « زعيم » تتطلب بعض التأهيل . إن التقنية البدائية نوعاً ما والمجتمع الذي كشفت عنه البقايا المادية للتوبيين الأوائل تجعل من غير المحتمل إنجازهم لأى شئ يقرب من ملكية وراثية كما نفهم معنى ذلك اللفظ الآن . ويحتمل ، مثل الأقوام البدائية ، إنهم استمروا محكومين مدّة طويلة للغاية بمؤسسات القرابة . فإذا تولى فرد أو عشيرة سلطة أكثر رسمية ، فقلعها كانت سلطة من النوع المقيّد ( وبالإختيار مجدداً ) الذي انتهياً للعثور عليه وسط فلاحى أو رعاة العصر الحجري الحديث ، والذي يمثله اليوم « زعماء المطر » للقبائل النيلية بأعلى النيل (٢٥) .

من الممكن كذلك ، أياً كان الأمر ، أن الفرد المدفون في سيالة ما كان قائداً سياسياً بالمرة . ربما أنه لم يكن شيئاً يعدو وسيطاً ناجحاً بمستوى غير عادى في التجارة النوبية . المصرية النامية . واحداً من « سماسرة الثقافة » يظهر بصورة منتظمة ، ويجنى السلطة سريعاً ، عندما تصل ثقافات أجنبية مبلغ الإحتكاك . أو لعله كان قائداً لقوات مرتزقة في خدمة المصريين ( مهنة اتبعت من نوبيين كثر . في وقت قريب ) . واستمد ثروته مكافأة من أوليائه . رجّح هذه الإمكانية المقترحة وجود الهراوات في قبر سيالة ؛ وهى علائم مصرية تقليدية للإمرة العسكرية . أيا كانت الظروف ، يمكننا أن نتأكد أن قسماً عظيماً من ثروة « زعيمنا » النوبى القديم وسلطته تتبعه إلى القبر . إنها ١٥٠٠ سنة أخرى قبل أن يكون بمقدورنا أن نبصر زخارف مزركشة لنظام ملكى وراثى أصيل في النوبة السفلى .

### التطور الثقافى لثقافة المجموعة الأولى

يمنح وجود السلع التجارية المصرية في ثقافة المجموعة الأولى قاعدة لتأريخ المواقع الأثرية المتفقدّة في كل الأزمان الأولى . للمرة الأولى يكتننا أن ندرس النمو والتغير ما بين المجموعة الثقافية نفسها ، ليس بين مجموعة ثقافية وما يليها وحسب . إن رايزنر وفيرث منذ البداية فاضلا بين أطوار « المجموعة الأولى » ما قبل الأسرات وأوائل الأسرات ، مستخدمين الإصطلاحات المنطبقة على مصر المعاصرة . أما تريفز فسار خطوة إضافية وقسم الفترة « النوبية الأولى » إلى أربعة أطوار ، أخرجها [المجموعة الثانية] أى « الجماعة - ب » المعروفة رايزنر قديماً والتي سنناقشها في الحال (٢٦) .

إشكالية التأريخ والتسلسل الزمنى تظل رغماً عما مضى ذكره إشكالاً معضلاً - دونما غيطة - هي أشد صعوبة مما يدرك معظم خبراء الدراسات النوبية القديمة . قليل جداً من مشاريعنا للتسلسل الزمنى للفترات الباكرة من التأريخ النوبى تقوم على بنية ثابتة النتائج في العادة مثل تواريخ طبقات الأرض السطحية والكربون المشع . وسواء أ بسواء ، حيثما يتنهاى وجود أسطح حية ( كما في بعض مواقع لمعسكرات في ثقافة المجموعة الأولى ) ، لا يكون ممكناً أن تُميز البقايا المنشطرة فوقها عن بعضها البعض . الكتلة الأكبر لمادتنا الثقافية تأتي من الجبانات ، وهى ليست على طبقات أياً أدركت . القبور لا تؤرخ فيما جرت العادة عليه بقرابته لبعضها البعض إنما بالمواد التى يعثر عليها فيها .

تؤرخ القبور النوبية للفترات التاريخية الأولى في الغالب بمواد صُنعت في مصر . ولا تؤرخ هذه بدورها بأى مقياس مطلق من العمر ، لكن بسلسلة من الحسابات المُبدعة الأصلية ، التى اضطلع بها

لاكثر من ثلاثة أجيال ماضية عالم المصريين القديمة العظيم فلندرن بنزاي<sup>(٣٧)</sup> هذه « التواريخ المتتالية » صمدت لإختبار الزمن صموداً مرموقاً للغاية ، إلا أن قاعدة المعطيات التي بُنيت عليها كانت واحدة صغيرة ، وهي بالتأكيد ليست دلائل غير قابلة للخطأ في شأن التسلسل الزمني النسبي على وجه الدقة<sup>(٣٨)</sup> . إنطلاق الخيال الضرورية لجعلها لائقاً للمعطيات الأثرية النبوية تقترح أن أقل ما يمكن عمله تجاهها وجوب أن يعاد فحصها بعناية .

حتى في ظل أفضل الظروف ، لابد أن يُعالج بالجدد تاريخ القبور من محتوياتها . إن هذا بكل دقة هو ما يصدق في حالة السلع الترفية المستوردة ، التي ربما تكون محفوظة من الأحياء لفترات طويلة من الزمن من قبل إيداعها مع الأموات . لذا ، فإن وجود نوع معلوم أنفأ من المواد في طراز قبر معين سلفاً لا يثبت تعاصرهما ، بالرغم من أن الإمكانية تزداد بعدد مثل هذه المترافقات . من الناحية الأخرى ، فالحقيقة التي مؤداها أن نوعاً بعينه من المواد لا يوجد أبداً في نوع بعينه من القبور ليس برهاناً على الإطلاق أنهما ليسا متعاصرين . لربما أنها تعكس عارضاً في إمداد السلع ، أحوالاً اقتصادية متغيرة ، أو ببساطة تلميحاً متغيراً لما سوف يحتاج إليه في العالم الآخر أو لا يحتاجه .

الاختلافات بين القبور « ما قبل الأسرات » و « قبور » الأسرات الأولى « لثقافة المجموعة الأولى » ، بمثل ما هي عليه ، تبدو حسنة الإنشاء . إنها تُرى بشكل رئيس في الحجم والحدق الأعظم درجة للسلع المصنعة مصرياً في الفترة الأخيرة ، عاكسة الإزدهار العظيم للصنائع في فجر الحضارة الفرعونية . النوبيون أنفسهم ، إضافة لذلك ، قاموا بتطوير نوعية جديدة من الفخار تمثل واحدة من أسمى منجزات فنهم الخزفي . إن الأواني في معظمها قِداد كبيرة ، أحياناً عريضة منخفضة وأحياناً عميقة ، بقاع مَرُوس . أما الحواف فهي إستثنائياً صلبة ورقيقة ، أسطحها مصقولة بمستوى عال . أشد وجه تشخيصي ومميز لهذه السلعة هو استعمال رسوم هندسية بالأحمر على خلفية بترقالية ، كلا اللونين مستخرجان بإستخدام (حجر الدم) بتركيزات مختلفة ( الصورة ٤ - ب ) . إنه هذا الوجه ذلك الذي أسبغ على الفخار المزخرف في ثقافة المجموعة الأولى إِيَّان مرحلتها الأخيرة إسم « سطح الحجر الدُمى المبرقش »<sup>(٣٩)</sup> . إنها ليست شائعة ، وربما كانت منتوجاً لجماعة صغيرة من الإختصاصيين<sup>(٤٠)</sup> . تواصل صنع الفخار مُسوِّد الرأس بنفس الأشكال كما كان من قبل بطريقة أو بأخرى . كثير من الأواني الحمراء - فوق - البترقالية لها دواخل سوداء كذلك .

في المراحل الأخيرة لثقافة المجموعة الأولى ( أو ربما يجدر بنا أن نقول إِيَّان إفتقادها ) يبدو أن نظرية التسلسل الزمني القائمة خاطئة بوضوح . ما من حاجيات مصرية مما يعود تاريخه إلى عهد متأخر عن الأسرة الثانية وُجدت في قبور « المجموعة الأولى » النوبية ، فأصبح لذلك تطبيقاً إتفاقياً أن تُعَلَّم نهاية « المجموعة الأولى » ، في تساوق مع نهاية الأسرة الثانية ، أو حوالي ٢٨٠٠ ق . م . يترك هذا فترة لستة قرون - قابلة للمقارنة دون تدقيق مع الفترة الممتدة بين أزمان البلاتاجيين وأزماننا - قبل حدوث الإحتلال اللاحق للنوبة المثبت بالتحديد في ثقافة المجموعة الثالثة . لقد كان بسبب ملء هذا الفراغ المريك إن رايزنر اقترح « المجموعة الثانية » في الأصل .

## « المجموعة الثانية ، الخيالية »

« المجموعة الثانية » مثل أبناء عمومته الهجانين<sup>(٤١)</sup> ، تعرفنا عليها أولاً في مجموعة من القبور بالجبانة رقم ٧ بالشلال . إنها الوحيدة من جماعات رايزنر الثقافية التي لم تجد مؤازرةً في عمل أثاري لاحق . وبينما عَيَّن رايزنر وفيرث في المسح الأثري الأولى ٢٦ موقعاً و ٤١٥ قبراً « للمجموعة الثانية »<sup>(٤٢)</sup> ، وجد إيسري وكيروان بعد جيلٍ ثلاثة مواقع فقط وقبضةً من القبور التي أرجعوا نسبها

(٤٣) كما ذكر أنفأ ترجمنا مجموعات رايزنر من « الجماعة أ » إلى « المجموعة الأولى » و « الجماعة ب » إلى « المجموعة الثانية » وفقاً لنظرية أيمز ، وهلم جرا - المترجم .

لهذه الفترة . ما من بعتة أخرى ، آنذاك أو من بعد ، وجدت مادة لا جدال فيها من «المجموعة الثانية» . ولأنه يجب أن يكون هناك شيء ما لملء الفراغ الكبير بين ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة ، وأصل معظم علماء الآثار كيفما اقتضى الحال تقبلهم لها من حيث المبدأ مع إخفاقاتهم في التعرف عليها في حقيقة الأمر . باكراً كعام ١٩١٥ ، مع ذلك ، إقترح جونكر <sup>(٤٧)</sup> أن الناس في «المجموعة الثانية» ما كانوا سوى القرابة الفقيرة لأولئك المنتمين إلى «المجموعة الأولى» ، وقد لقيت هذه الفكرة تأييداً معتبراً أثناء الحملة النوبية مؤخراً <sup>(٤٨)</sup> . كضريبة قاضية للفرد الأصلي ، راجع هـ . س . سميث بالتفصيل بينة رايزنر وفيرث ، وقد اكتشف أن أكثر من ربع القبور الكائنة في «مجموعتهما الثانية» كانت خالية من أية بقايا ، بينما ثلاثون على الأقل إشتملت إبداعات حيوانية بدلاً من أى حشر إنساني <sup>(٤٩)</sup> . من القبور الباقية المحتوية على قرابين من نوع أو آخر ، وُجد أن بعضها ينتمى إلى ثقافة المجموعة الأولى والبعض الآخر من ثقافة المجموعة الثالثة ، في حين أن العدد الأكبر ببساطة غير قابل للتحديد بسبب النهب المتزايد أو غياب مواد مميزة . لم يُخَرَج بمعياري إيجابى مُفرد «للمجموعة الثانية» .

منهج فيرث لتصنيف القبور موصوف هكذا من سميث :

تبدو مبادئه كالأتي . في جيبانات المجموعة الثالثة ، أطلق اسم « المجموعة الثانية » على أى قبر ظهر له بناء على طبقات سطحية أو نوع للقبر سابق « للمجموعة الثالثة » ، شريطة ألا يكون محتوياً على أمتعة قبر مميزة : في الجيبانات ما قبل الأسرات وجيبانات المجموعة الأولى عُرِىَ « للمجموعة الثانية » أى قبر إعتبر أنه يَبَيِّن علامات للتآكل <sup>(٥٠)</sup> .

مقالة سميث بشأن « المجموعة الثانية » يجب أن تقرر قراحتها على الأثاريين . إنها تكشف بجلاء كيف أن مصطلحاً - نوعياً باعثاً على الريبة أحكم وثاق نفسه تدريجياً بالخيال عندما برهن على أنه دَرَجَ تصنيفى مفيد . هذا هو بدقة تامة ما فعلته « المجموعة الثانية » لرايزنر وفيرث : في وقت واحد يعينه ملات الفراغ المحرج بين « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثالثة » ، وأتاحت نعتاً للقبور غير المُصَنَّفَة . مفهوم « المجموعة الثانية » كممثل لمرحلة تسلسل زمنى منفصلة كان بالطبع ، مُدْعِماً ببيئة التميز العرقى الذى طرحه إيليوث سميث : بيئة تعترف الآن أنها زائفة ( قارن المسألة العرقية ، الفصل الثالث ) .

يجب ألا يفترض أن أى من قبور « المجموعة الثانية » لرايزنر لا ينتمى لفترة الوقت التى عينها له . لدينا أسباب طبية ( بينها نصوص مصرية ) للإعتقاد بأن النوبة لم تكن مهجورة بكليتها بين ٢٨٠٠ و ٢٢٠٠ ق . م . كذلك للإعتقاد أن هذا كان زمناً لفقر معتبر نتيجةً للمسلك الجردائى والاستغلالى المتفاقم لمصر . في الدولة الشمالية نفسها هناك إنحسار ملحوظ للثروة في قبور عامة الناس حتى عُرِىَ الفراعنة قوتهم في الأسرة الثالثة <sup>(٥١)</sup> . فلئن كانت « المجموعة الثانية » يُكوِّنها الأعضاء الأفقر وحدهم بين « المجموعة الأولى » ، لربما أنهم بائى بقية كانت أصبحوا متعددين بشكل مُضاعف في عدد السكَّان مع إنكماش حجم التجارة وتصادد الغزو للإسترقاق <sup>(٥٢)</sup> . في هذه كما في مناطق كثيرة أخرى ، لذلك ، ما كانت نظريات رايزنر بلا أساس . إن خطئه يكمن في إجراء تفاضل نوعى لما هو مجرد خلاف كمى .

إنه الإنقطاع الزمنى الطويل المفترض بين « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثالثة » ذلك الذى يشكل في النهاية الأساس الخاطئ عن « المجموعة الثانية » . لو لم يكن هنالك مثل ذلك الفراغ ، ما كانت هناك حاجة لإختلاق بلا سبب لملئه . نظرة فاحصة ، مع ذلك ، تُوحى بأن الفجوة الزمنية للبيئة نفسها ربما كانت خيالية في جزء منها . فالنظرية القائلة بأن نوبيي ثقافة المجموعة الأولى ظلوا باقين بما لا يتعدى الأسرة المصرية الثانية قابلة للتساؤل على ركنين . أولاً ، إن أنواع الفُخَّار ومعايير أثرية أخرى للأسر المصرية الأولى ليست محددة ومزوّجة بدقة في تراثها الأصلية على حد سواء .

والأشد أهمية ، كما ذكرنا من قبل ، أن التّبيّة السالبة لا تُكوّن أبداً قاعدةً لتاريخ إيجابى . إنه ليظهر عياناً ببياناً أن النوبة في الفترة التاريخية القديمة كانت تشارك في شبكة عامة لتجارة مصرية عريضة ، وأنه بعد الأسرة الثانية لم يعد ذلك من الحقيقة شئ . كذلك مما هو مؤكد إنه في فترات متأخرة كثيرة شاركت النوبة في شبكة تجارة محلية مركزة بأسوان لا غير ، امتدت أحياناً كثيرة سلخاً مختلفة للغاية عن السلع الدائرة في بقية مصر ، وربما كانت مُصممة على وجه التحديد للتجارة النوبية . في أكثر المرات خَلُو التقاليد الأولى لمصر توقيراً لتحفظ الجنوبيين عليها ، تماماً مثلما تظل دولارات ماريا تريزا الفضية مصنوعة من القوى الأوروبية للتداول في إثيوبيا وشرق إفريقيا .

وايزنر نفسه أقر بالإمكانية التي تابعت مناقشتها . في الأول من تقارير المسح الآثارى للنوبة كتب :

إذ ما اعتبرت الحقائق ، يتضح على الفور أن الجبانات التي اقترح تاريخها لفترة الأسرات الأولى تملك ، في أغلب الأحيان ، صفات فترة ما قبل الأسرات أو الأسرة الأولى الباكورة : والواضح أن كثيراً من القبور ترجع لذلك التاريخ . لكنه واضح بقدر متساوٍ فيما يتعلق بوقوع أشكال الفخار a . d . ٥٠٠ ، وأنواع وأوضاع الدفن ، والأحجية والعقود ، والأواني الحجرية ، أن هذه القبور ربما تكون في جزء منها أشد تأخرً زمنياً ( تأكيد نفسه ) إن إستمرارية الفخار مُستود الرأس متخللاً كل الجبانات حتى الإمبراطورية الحديثة ، والإستعمال المتواصل لبعض رؤوس المدقات وفؤوس ملحقة بهذه القبور ، وقوة الإستمرار المُجسدة في بدايتها للثقافة النوبية إلى فترة الهكسوس . كل هذه الاعتبارات تجعل من المحتمل أن الفخار ومواد كثيرة أخرى من الفترة المتأخرة ما قبل الأسرات في النوبة تواصل إستعمالها طويلاً عقب التطور السريع في مصر مما جعلها أشياءً للماضى . نقطة واحدة أخرى تُقوى هذا الإستنتاج . العدد العظيم من القبور بهذه الفترة عند مقارنته بالقبور التي تمثل فترات أخرى ، مثل الإمبراطورية الحديثة .. في هذه الحالة يبدو ضرورياً بالنسبة لى أن تُنسب لهذه القبور فترة معادلة لأي من الفترات العظيمة الأخرى ، احتمالاً من آخر فترة ما قبل الأسرات إلى نهاية الأسرة الثالثة (٤٨) .

إعتراض إضافى على نظريات التسلسل الزمني الإتفاقي ترفعه المتواصلات الثقافية بين ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة ، التي تجعل مسافة ٦٠٠ عام بينهما أمراً غير محتمل . ما من واحد ، يقارن المزيكين الثقافيين إجمالاً بوسعه أن يرتاب منطقياً أنهما يمثلان مرحلتين في مسلسل من الإرتقاء . الإختلافات بينهما من نسق أدنى بكثير ، على سبيل المثال ، من الفروق الماثلة ما بين الفترات المسيحية الأولى والمأثورة في نوبة القرون الوسطى . والمبالغة وحدها في تأكيد أن الفُخار نفسه ( الذى يُبين تواصلات كثيرة ) هى التى قادت إلى الإيحاء بفارق عرقى بين أقوام ثقافى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة .

على صعيد واحد فإن الأشد إيهاءً من المتواصلات الثقافية ، ذلك الإنتظام الذى سعى به القوم في ثقافة المجموعة الثالثة وأعادوا شغل كلاً من معسكرات وجبانات أسلافهم (٤٩) ما كانت هناك ضرورة عملية لهذا ؛ مواقع المعسكر وأماكن الدفن المناسبة متعددة على طول جبانات وادى النيل . أما إعادة الإقامة فلا يقبل إيرادها إلا كمحصلة لتقاليد متأثرة البقاء لإقامة أو الملكية ، وهى يقيناً لم تكن لتبقى حياً بعد فوات قرون . إن مطلق الجهد لأن تكتشف مواقع سابقة عقب مسافة طويلة من الزمن ربما كان من شأنه أن يُعَد ، بالنظر إلى الغياب العام للبقايا الهيكلية .

بإيجاز ، يمكننا أن نتفق مع النظرية القائمة إلى المدى الذى تتصور به سكان نوبيين (المجموعة الأولى) عاشوا حياة ثبات ورخاء في زمن الأسرتين المصريتين الأولى والثانية ، فقرأ سريعاً (مصحوباً ربما بهبوطٍ بالغ في السكان ، من خلال الهجرة الخارجية أو الإسترقاق) موازن لزمن الدولة القديمة (المجموعة الثانية) ، وعودة مفاجئة للرخاء في نهاية الأسرة السادسة (المجموعة الثالثة) . لا يمكننا ، مع هذا ، أن نُعد هذه التغييرات وقفات في تسلسل التاريخ الثقافى النوبى ، كما لا نستطيع أن نعوّدها إلى هجرات عرقية . لربما جئ بها عن طريق تطويق مصرى ثم انسحابه (أنظر بخاصة

الفصل السابع ) . غير أنه يبدو الآن من غير المحتمل أنها تكشف عن أى تغيير في الهوية الأساسية للسكان النوبيين .

مع مراعاة الحجج السابقة ، يجب التأكيد على أن الفراغ الثقافي والزمنى بين ثقافتى المجموعتين الأولى والثالثة - الفراغ الذى تُرك عندما قمنا بإزالة « المجموعة الثانية » ، كمرحلة تسلسل زمنى متميز - لا يمكن ملئه كغاية على أساس البينة الكاننة . ما من شئ نوبى يُستطاع رد تاريخه بأمان للأسرات الثالثة ، أو الرابعة ، أو الخامسة<sup>(٥٠)</sup> ، وخطقات الوصل الفعلية بين فخار « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثالثة » ، لم يُزل عنها الحجاب بعد<sup>(٥١)</sup> . علينا لذلك أن نمتنع بالإمكانية البادية في أن النوبة السفلى هُجرت بقدر كبير من ناحية سكانها الأصليين - ربما نتيجة لطاغوت مصرى في زمن الدولة القديمة ، وأن الانتقال الثقافى بين ثقافة المجموعة الأولى وثقافة المجموعة الثالثة اتُخذ سبيله في مكان ما بالنوبة العليا ، وإنه كانت هناك عودة للهجرة إلى الداخل من الجنوب في الوقت الذى انسحب فيه المصريون من النوبة السفلى<sup>(٥٢)</sup> . تتأوى مع ذلك ، ربما يُقترح أن التدهور البيئى والضغط المصرى ردا النوبيين على أعقابهم مؤقتاً لمعيشة رعوية وبدوية تركت أثراً أثرياً قليلة<sup>(٥٣)</sup> . يبدو هذا كاتما حدث مرة أو مرتين في تاريخ نوبى لاحق ؛ وفى وقت أقرب حدوثاً لدى إنتهاء العصور الوسطى ( الفصل السابع عشر ) . إنه يُؤمل أن إجابات لهذه الأسئلة تأتى في المقابل عندما يبدأ كشف اثارى ممنهج الخطة والإجراء في النوبة العليا .

### ظل مصر

عناؤنا إلى اللحظة مرتبطاً بالتطورات الثقافية والاجتماعية لثقافة المجموعة الأولى ، التى يمكن تتبعها معاً في جزء معتبر قيد أحداث محلية سابقة . ولأننا الآن في الفترة التاريخية ، كيفما كان الحال ، لدينا بعض مؤذن لأحداث وشخصيات فعلية بالإضافة إلى البينة الأثرية للثقافة والمجتمع . بمقدورنا لذلك أن نطالع هذا الزمن كفصل في التاريخ النوبى إلى جانب أنه أفق التطور الثقافى . فإذا تبيناً وجهة نظر المؤرخ سنجد منظورنا عن النوبة مُبدلاً بقدر معتبر ، لصيقاً بمنظور رايزنر إلى مدى بعيد .

ما يميز ثقافة المجموعة الأولى النوبية وكل الفترات المتأخرة عن العصر المصرى الحديث وكل الفترات الأولى هو ظل مصر وحضارتها المائتين أبداً . هذا النفوذ المحول يقرأى سواء بسواء قبل مبتدأ الفترة التاريخية . يمكننا أن نرقب كذلك ، أياً ما كان ، أن النفوذ المصرى ما كان مبدولاً بنفس الطريقة أو إلى نفس الدرجة طوال الزمن الذى استغرقت ثقافة المجموعة الأولى . لقد بدا مصدراً لثروة ورخاء لم يُسمع بمثله في أزمان سالفة ؛ تنامى تعريضاً للخطر ثم أفة للخراب والدمار في آخر المطاف .

يشير عدد من النصوص الهيروغليفية المصرية إلى النوبة في زمان ثقافة المجموعة الأولى . تساوياً مع ذلك من قِيل إختراع الكتابة ، يثبت الحضور المصرى في الجنوب الحجم المعتبر للسلم ذات الصنع المصرى في المواقع النوبية للفترة الأخيرة لما قبل الأسرات . هذه الشهادة البكماء كما هو معتاد أشد إخباراً فيما يختص بالعلاقات اليومية بين الشعبين من السجل النصى ، وسوف نفضحه أولاً .

بقدر متعادل ، تحتوى قبور « المجموعة الأولى » الأقدم (الموصوفة «بما قبل الأسرات الأولى» من رايزنر وفيرث) كميات وفيرة من الفخار ذى الصنع المصرى . إنها برغم تلك الإتاحة الأعظم بلوغاً لهذه الثروة المحلية ، ثباين بشكل رئيس طور الأسرة الأولى عن طور ما قبل الأسرات في ثقافة المجموعة الأولى : ألغى التأكيد بطبيعة الحال على عدة النحاس ، والأواني الحجرية المنحوتة ، وزينة

العاج الفاخرة كأوضح أمثلة على الأثر المصري في ثقافة المجموعة الأولى . وعلى ما بها من تميز بوصفها مثلاً لهذه السلع الترفيئة المصرية ، لربما أمكن تهويل أهميتها الاقتصادية . الحجم الكلي للنحاس ، والعاج ، والحجر المنحوت الذي وُجد في مواقع « المجموعة الأولى » يقيم بصعوبة شحنة كاملة لواحدة من السفن الشراعية الكبرى في تلك الفترة . وفيما يتعلق بالكتلة المشحونة ، فإن الفُخار المصنوع بالعجلة يشكل ما يفوق ٩٥ بالمائة من الصادرات المصرية للنوبة أثناء ثقافة المجموعة الأولى . هذه الأواني العادية بدلاً عن السلع الترفيئة ، توفر القياس الحقيقي للتبادل السلعي المصري - النوبي في فجر التاريخ .

قليل جداً من الأنية المصرية التي عُثِر عليها في مواقع ثقافة المجموعة الأولى من سلع الترف . الفُخار المصنوع من ناحية النوبيين أنفسهم - على سبيل التدقيق عقب إرتقاء « السلعة الحديدية الحمراء المبرقشة » - كان أرفع درجة في النوعية الجمالية وكان سخياً في كميته بالتأكيد . لم يكن هنالك - في الحقيقة - سببٌ ليفترض أن النوبيين في ثقافة المجموعة الأولى لا قوا حاجةً لإستجلاب أنية فُخارية لأنفسهم . بين ذلك إحتمالاً أن الأواني الأجنبية خدمت ، كما قام بذلك دائماً فخار مصري عظيم العدد ، كنوعية شحن للحمولات السائلة والجامدة . ويُستدل على ذلك بالحجم الكبير للأواني المستوردة وغلبة السلع المصرية الأطول عمراً ، مع أنها أقل زخرفاً .

توحى كمية الفخار المستورد في ثقافة المجموعة الأولى وتنوعه بأن التجار المصريين لابد أنهم كانوا زواراً مداومين للنوبة على مدى فترة طويلة من الزمان . ربما أن أول رجال الأعمال موضع الحديث كانوا من الجوّالة ربابنة القوايق وأرباب القوافل من أسوان ، إذ أننا لا نملك بيئة على مصلحة ملكية في التجارة النوبية خلال الأسرات المصرية الأولى ( قارن الفصل السابع ) . يبدو من غير المحتمل أن تجاراً كثيرين خاطروا بتجارتههم وراء الشلال الثاني ، أو حاولوا إقامة محطة تجارية دائمة بين النوبة . المحتمل أنهم كانوا قنوعين بالتعامل مع ممولين محليين على امتداد طريقهم . ربما أمكننا أن نتعرف وسطهم على « الزعيم » النوبي المدفون في سيالة . قد يفترض الواحد منهم أن التجارة في السلع الغالبة تحركت في المقام الأول على طول النيل ، كما ظلت حركة التجارة في كل الفترات اللاحقة ، لكن ساف - سوديرج إستخرج الحقيقة الغربية أن المصريين في الدولة القديمة فضّلوا قوافل الحمير لنقل كل شيء عدا السلع الأثقل<sup>(٥٤)</sup> . ربما أن الشلال الأول انبرى في هذا الزمن ردعاً للتجارة النهرية ، إذ أن الفرعون مرنر أمر بتطهير قناة خلال صوب أنسدال الستار على الدولة القديمة<sup>(٥٥)</sup> .

ما هي أنواع السلع المتبادلة في التجارة النوبية ؟ لا يحتمل أنها كانت منتجات الغذاء الشائعة في كل من القطرين - الغلال ، الجبن ، والجمعة . لحسن الطالع أن بحوزتنا نصاً تجارياً من الأسرة السادسة يذكر تصدير دهان ، وعسل ، وملابس ، وزيت « لإمتاع النوبيين »<sup>(٥٦)</sup> . كل هذه مواضيع متجددة الحدوث في التجارة المصرية - النوبية في أزمان متأخرة ، لكن الأهم أن وسطها أدوات التجميل والزيت ، الذي أُلِفَت الأقوام الإفريقية أن تدهن به أجسادها ربحاً طويلاً .

ما أعطاه النوبيون في المقابل أقل جزءاً . لم يُكتشف « ذهب كوش » بعد ، وعندما تم ذلك إتخذ المصريون خطوات حالية لإحتكار إنتاجه وإمداده في قبضة أيديهم ( الفصل التاسع ) . العاج والريق والمُصدّرات التقليدية الأخرى للنوبة ، ربما برزت من قبل إلى حد ما في التبادل السلعي لثقافة المجموعة الأولى ، مع أنه يبدو أن سكان النوبة السفلى بعدهم المبعثر الصغير كانوا قادرين إما على تنظيم تجارة واسعة النطاق في منتجات المناطق الحارة أو الإمداد بأى عدد وافر من الرقيق . ويمكن أيضاً ، كما اقترح بروس تريفر ، أن النوبيين الأوائل لم يكونوا على شغل بالتجارة على الإطلاق ، لكنهم كانوا يتقبلون السلع المصرية مكافأةً على خدمات عسكرية أدت في القطر الشمالى . الفقر البين عقب الأسرة الثالثة قد يمثل بهذه الكيفية الزمن الذي انعطف فيه الفرعون من التجنيد



الطوعي إلى الإسترقاق القهري للصفوف النوبية <sup>(٥٧)</sup> تجدر الإشارة إلى أنه فيما يختص بهذه النظرية يعد توزيع السلع المصرية رائج الإنتشار ومتساوي الجمع بما يبعث على الدهشة في قبور « المجموعة الأولى » ، أشد إichاءً وأكثر إلهاماً بنتائج التجارة السلمية عنه بعسكرة الإرتزاق <sup>(٥٨)</sup> .

ربما أن حجم التبادل السلعي المصري - النوبي بلغ قمته في الأسرة الأولى ، التي يبدو أنها ترسم ذروة الرخاء النوبي في ثقافة المجموعة الأولى . لقد ذكرنا من قبل أنه ما كانت هناك بضائع من صنع مصري مؤرخة من بعد الأسرة الثانية ، وأن راينر آمن بأن توقفاً تاماً حدث للتجارة في زمن « مجموعة الثانية » . توجد أسباب لجعل هذه العبارة مبالغاً فيها ، خلا أن نقصاً معتبراً في كمية الصادرات المصرية للنوبة ونوعيتها جلى قطعاً في ثقافة المجموعة الأولى خلال مرحلتها الأخيرة . فإن كان في ذلك الأمر شيئاً ما ، فهو إشارة إلى البضائع المستعملة ومنتجات المصادر الإقليمية التي كان المصريون المتأخرة يعبثونها للجنوب ، على غرار ما اعتادت الأمم الصناعية الحديثة عليه من إغراق للأسواق الإفريقية والأمريكية اللاتينية بمنتجات فائضة بطل إستعمالها آنفاً .

الفقر في ظل الدولة القديمة المصرية ما كان محصوراً في النوبة . قاسى مزارعو القطر الشمالى حرماناً يكاد يكون مساوياً ، إن كانت أمتعة القبر تعادل أى مقياس للثروة المتراكمة . إن السبب في كل من الحالتين يبدو واحداً ، تركز الثروة والتجارة في (يدى الفراغة) <sup>(٥٩)</sup> . أنجز ذلك في مصر بالضرائب المهلكة ، وفي النوبة بإزالة الأعمال الوطنية الصميمة . لزام علينا في قص هذا الجانب من العلاقات المصرية - النوبية أن نتجه للنصوص الهيروغليفية لمصر الغابرة ودولتها القديمة .

### السجل النصي

يُعين أقدم نص معروف عن النوبة سلفاً شكل الأشياء القادمة . في ناتى هسخرى قريباً من الشلال الثانى ( جبل شيخ سليمان ) حُفر اسم الملك جبر من الأسرة الأولى <sup>(٦٠)</sup> ونص قصير نصفه رسم والآخر هيروغلى <sup>(٦١)</sup> . هذا التمثيل يُبين زعيماً نوبياً موثقاً إلى المقدمة بواجهة سفينة مصرية . شكل آخر إلى الشمال يحمل للبل المقوس وهو الرمز الهيروغلى التقليدى للنوبة السفلى وأموأتاً مسجّبة في الماء تحت القارب . المنظر كما هو بادىحى ذكرى لفتح قريتين أو منطقتين كما



شكل رقم ١٦

نحت الملك جبر في جبل الشيخ سليمان

يدل عليها طائر وعلمة غير معلومة ، بالترتيب <sup>(١٢)</sup> .

باعتباره مدوناً لحداثتين بدقّة لا يرقى انتصار الملك جبر إلى شيء كثير . يكاد لا يوجد هناك مبنى دائم من طرف واحد من النوبة إلى طرفها الآخر ، والسكان النوبيون في النوبة السفلى قد لا يملأون قاعة كبرى للمحاضرات في عالم اليوم <sup>(١٣)</sup> . لربما أحاط المصريون بالسكان المقيمين زيجاً من القرى المبنية بالعشب وقتلوا بضعة من الجوّالة بمنأى - شيئاً ما حدث مرات كثيرة في التاريخ لا يكاد يستحق ذكراً . فإني إدعاء بالإخضاع يصير بأي حال من الأحوال بلا معنى إن لم يصاحبه جهدٌ وإنفاقٌ لإنشاء حامية ، وهو ما لم يضطلع به فرعونٌ ما لأجيال قادمة . وبغض النظر عن ذلك ، لنحت الملك جبر أهمية رمزية كتب دال على دور مصر التاريخي في النوبة .

المرجعان النصبان التاليان للنوبة عسكريان في صفتتهما . على لوحة إنتصار مهمشة يظهر الملك خا - سخم من الأسرة الثانية منتصراً على عدو يُحتمل أن رمزه الهيروغليفى يُعرّفه كنوبى . وجد النُصب التذكارى في مصر ، والإجراء ، إن كان قد وقع أبداً ، يمكن بالطبع أن يكون قد حدث إما على تربة مصرية أو نوبية <sup>(١٤)</sup> . والملاحق التى يبدو أنها لا تشبه الشخصية المحاربة للنوبيين الأوائل تجعل وقوع غزو من مصر غير جائز .

نحت الملك سنفرى من الأسرة الرابعة يُعد أكثر تحديداً ، وهو محتوى في حجر باليرمو الشهير <sup>(١٥)</sup> . طبقاً للنص « إجتاحت » جيوشه النوبيين وجلبت للدار ٧.٠٠٠ سجيناً و ٢٠.٠٠٠ رأساً من البقر . هنا ليس لدينا شيء غير مدون عن غزو إسترقاقى عالى النجاح ، ربما تذرّعاً بانتقام عسكري . وعلى حد سواء إذا ضُخمت هذه الأعداد بمغالة ، كما هى أحياناً كثيرة في المباهاة المصرية ، ما من هدف عسكري خالص يمكن له أن يبرر عمليات يمثل هذا النطاق . التأثير على النوبة لابد أنه كان مزناً . فمثل هذه الحملة وأخر على طرازها بالإمكان جداً أن تضع حداً للحياة المستقرة جزئياً في ثقافة المجموعة الأولى ، بإرغام النوبيين إما على التراجع خارج مرمى الجشع المصرى أو ببنى مزاج معيشى أشد هروبياً ويداؤياً خلاف ذلك . كلا من النكوصين ربما ينتج عنه الفراغ البادى في السجل الآثارى بين ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة . يستحق الذكر مهما كان من أمر أنه إذا اقتربت من الصحة نسبة الحيوانات التى عُثمت إلى نسبة الناس فيما زعم سنفرى ( حوالى ٣٠ إلى ١ ) ، فإن البداوة الرعوية لابد أنها كانت قد ارتقت في النوبة إبان عهد سنفرى . ما من قوم مستقرين يروعون مواشى يمثل هذا الحجم في وادى النيل .

في زمن سنفرى وجدت على الأقل مستوطنة من قبّل على التراب النوبى . كانت هذه هى « مدينة الدولة القديمة في بوهين » <sup>(١٦)</sup> أسفل الشلال الثانى بالضبط وقریباً من منظر « إنتصار » الملك جبر منذ أربعمائة عام سابقة . سيضفى نفس المقام بؤرة لتتركز النشاط المصرى قروناً قادمة . هناك بعض أدلة ، في شكل طوب طينى كبير بحجم غير عادى ، ربما شيده المصريون هنا في وقت باكراً كالأسرة الثانية ، لكن هذا غير مستيقن <sup>(١٧)</sup> . في الأسرات الرابعة المتأخرة وبأكورة الخامسة كانت هناك بالتأكيد مستوطنة ذات رقعة معتبرة ، محاطة بسور حجرى وخندق . هذه التدابير شاعت في تجمعات قديمة كثيرة ، بما في ذلك قرى ما قبل الأسرات في مصر ، وهى ليست بالضرورة بيّنة على أن الأعداء كانوا بالضاحية . بعض أنية غير مميزة سلفاً ذات رؤوس سوداء ، وأخرى يدوية الصنع ( فخاراً من المجموعة الثانية ، وفقاً لأمرى ) <sup>(١٨)</sup> عُثرت عليها في الموقع ، مقترحة أن التجمع اشتمل على قلعة من نوبيين أتباعاً لمفسكر . مع ذلك ، لأسباب جرت مناقشتها آنفاً ، من المستحيل أن يُقدّر حجم السكان الأصليين بالنوبة السفلى في هذا الزمن .

المصريون في بوهين إبان الأسرات الرابعة والخامسة جرى توظيفهم غالباً في صهر وتنقية خام النحاس ، من مصدر غير معلوم إلى الآن . سوف توصف هذه الأعمال بإكتمال في فصل قادم ( الفصل السابع ) . حوالى نفس الزمن كان مصريون آخرون يستخرجون معدن الداويريت من

الصحراء غرب النوبة السفلى <sup>(٧٩)</sup> لإستعمالة في التماثيل الملكية . العثور على عدد من نُحوت الأسرات الرابعة والخامسة على ضفاف النيل بالقرب من توشكا غرب يُوحي بأن هذه هي نقطة الإنطلاق لغزافل الدابيوريت ، بالرغم من أنه لم توجد بقايا مستودع للشحن العابر <sup>(٨٠)</sup> عمليات التعدين في كل من بوهين والصحراء يبدو أنها وصلت نهايتها قبل الأسرة السادسة .

نهاية آخر فترة للدولة القديمة جاء نص طويل يسرد مخاطرات تاجر مصرى في النوبة . إنه السيرة الذاتية الجنائزية لحرقوف ، مسؤول مهم في عهدهي مرزوي وببى الثانى ، وهو أول نص مصرى عن النوبة يكون بالضرورة تجارياً أرجح منه طابعاً عسكرياً <sup>(٨١)</sup> . يدعى حرقوف أنه قاد أربع بعثات تجارية منفصلة إلى بطون البلاد الجنوبية ، ويؤسس قدراً عظيماً من المعلومات حول أهلها ومنتجاتها . أياً ما اتفق ذلك ، تنتسب حكايته بصفاة لزمن مختلف ، وبالإمكان كذلك أنها تتصل بأقوام مختلفة عن هؤلاء الذين ظللنا نناقش شؤونهم في هذا الفصل . إنها تُؤل بتقدير سليم قصة ثقافة المجموعة الثالثة .

في حس واحد ، تبدو كل النصوص الهيروغليفية المصرية واصفةً لنوبة مجهولة عن النوبة المعلومة لنا أثرياً . جزءٌ من هذا يُعزى لسمعة المصريين ذائعة الصيت في المبالغة ، وجزءٌ لجهل المكتشفين الأوائل بأرض قليلة الشهرة ، وجزءٌ ربما للميل العام لحياكة قصة محبوة . الأجاجى التى عاد بها المصريون الأوائل من النوبة ، والتي يحتمل أن تكون قد ألهمت كثيرين حُثلات لاحقة ، تُذكر فيما يدعو للشك بالأساطير التى نشرها الفاتحون الأوائل للعالم الجديد نعلم الآن كيف أن القليل يُبطنه تطوير بعض هذه المنسوجات .

### ملخص تفسيري

تمثل ثقافة المجموعة الأولى تلك المرحلة من التطور الثقافى الذى بدأ النوبيون به الإنتقال المصيرى من رجال قبائل إلى مزارعين . رغماً عن أن معيشتهم ، وتقنياتهم ، وفروهم المادية تغيرت قليلاً من أزمان العصر الحجرى الحديث ، فقد جُذبوا إلى مدار لنظام من العلاقات التجارية مع مصر فُقدت جزئياً من خلالها إستقلاليتهم الثقافية منذ الأزمان الأولى ، ما أسعيت أبدأ بالكامل . اما مؤسساتهم السياسية ظلت مستقلة أثناء هذه الفترة ، على أن المرحلة كانت قد أُرسيّت عبر التداخل الإقتصادى لإستعمارية أزمان لاحقة .

أثر مصر ، بدايةً ذا نفع وإستئارة ، نما بتزايدٍ قمعيّ ( كما فعل بحر متكافئ للفلاح المصرى ) مع تعزيز الفرعون لقوته وتوسيعه لطموحاته . حتى نهاية الأسرة الثانية كان مشغولاً بوجه عام في دائرة حدوده ، وانتعشت التجارة مع الجنوب بينما النوبيون يمدون جبرتهم الشمالية إما بسلع المناطق الحارة أو بجنود مرتزقة . في ظل الدولة القديمة جمع الفرعون مصادر الإمداد والوسائل المحركة للتوزيع في قبضة يده ، وانتهى الرخاء النوبى . ومرات كثيرة عبر التبادل السلعى التجارى ، أفسحت التجارة الطريق للغزو ثم للإخضاع . كان على القصة أن تستعاد في الدولة الوسطى وثانيّة في الدولة الجديدة . مثل معظم البشر ، نادراً ما اقتنع المصريون بأن عليهم أن يدفعوا ما يوسعهم دفعه مقابل ما كان يمتدورهم حيازته دونما عناء بقوة السلاح ، لعل ميزان القوة فرض عليهم أن يتعاملوا بشروط تجارية مع إمبراطوريات حوض البحر الأبيض المتوسط ، لكنهم مع الجنوبيين الذين لا يقاومون أحوا هامتهم للتجارة في الغالب عندما كان تنظيمهم العسكرى مُهتِك الأوصال . وهكذا سار الأمر ، إن أعظم فترات الرخاء للنوبة كانت في العادة فترات أعظم ضعفٍ لمصر .



## الفصل السادس

### المثال الرعوي

### ثقافة المجموعة الثالثة النوبية

القرون الأخيرة للآلاف الثالثة قبل الميلاد شهدت تطورين قيمين هامين وربما كانا متصلين : الإضمحلال والإنحلال المؤقت لنظام الملكية المصرية الموحد ، والعودة المفاجئة للسكان والرخاء في النوبة السفلى . تَبَدَّت علامة الحدث الأخير بظهور « المجموعة الثالثة » أو ، على نحو ما أفضل تسميتها ، ثقافة المجموعة الثالثة ، تكيّفاً ثقافياً متميزاً وقريراً في رعوية كان عليه أن يظل باقياً ما يقرب من ألف عام . نظر إليه رايزنر ، المكتشف الأصلي « للمجموعة الثالثة » كنوع من النهضة ، على أثر الفقر والنكوص الثقافي المفترض « للمجموعة الثانية » . لمرّة واحدة ، مع ذلك ، لم يَنْسَبْ التطور الجديد لنفوذ اجنبي . في أول تقرير المسح الأثري النوبي كتب " وهو كانما أسرعت به فترة من الرخاء في الثقافة النوبية القديمة ( ثقافة المجموعة الأولى ) إلى بوقّة نشاطٍ لنفسها ، فأخرجت ما يمكن أن يُسمى بتأكيد الثقافة النوبية /الأسْمَى : (١) منظومةً بصياغة مختلفة إختلافاً خفيفاً ، بلغت العملية الطويلة للإرتقاء الثقافي في الفترة القبلية أوجّها في ثقافة المجموعة الثالثة : الأغلب تفرداً نوبياً بين كل الثقافات . هذا الرأي يبدو متماسكاً بدرجةٍ كلية مع البيئة الأثرية كما نعرفها اليوم .

بينما اتفق معظم العلماء مع رايزنر فيما يختص بالهوية « النوبية » المتميزة في ثقافة المجموعة الثالثة ، جادل كثيرون في أصلها الأهملي بغض النظر عن ذلك . أشاروا إلى الإبتداعات الثقافية التي لا شك فيها « للمجموعة الثالثة » ، في مواضيع مثل الفُخار وأنواع القبر ، وفوق كل شيء للإدخال المفاجئ فيما يبدو اقتصاداً رعوياً من قِبَل القادمين الجدد . في البقايا الهيكلية البشرية أيضاً ، بدا أن هنالك بيئة دالة على وجود عنصر قوقازي في « المجموعة الثالثة » (٢) . تركيب المحدثات السلالية والثقافية المفترضة أدى ، كما هو معتاد إلى التعرف على هوية « المجموعة الثالثة » كقوم جُدد مهاجرين للمنطقة . وبما أن معظم صفاتهم الثقافية لم تكن مصرية ، في حين أن سماتهم الوراثية كانت إفتراضياً غير إفريقية ، صار للشرق والغرب وحدهما أن يصبحا مصادر جهوية ممكنة للقادمين الجدد . (٣) حاول عدة أساتذة أن يتتبعوا أثراً لصلّة مع ليبيا حيث توجد بيئة لمرْكَب البقر في الفترة التاريخية الأولى (٤) . آخرون ، مهما كانت الأحوال ، قنعوا في بساطة بالحديث عن " قوم المجموعة الثالثة الغامضين " (٥)

لا يمكن أن يوجد شك أن ثقافة المجموعة الثالثة . تراعت أولاً بَحْجانية شديدة في النوبة السفلى ، مُعْتَبَةً لفترة من عدة قرون عندما كانت المنطقة مَقْفَرَةً ثقافياً وربما عديمة السكان على نطاق واسع . كيفما اتفق الأمر ، لا يبدو « سر » أصلها ، من وجهة نظر المؤرخ الثقافي ، عظيماً جداً . فلقد ذكرنا سلفاً (الفصل الثالث) أن الفرق العرقي المفترض ما بين « المجموعة الأولى » و « المجموعة الثالثة »

(\*) أي أن عدم إحتمال أصلهم من الشمال ( مصر ) والجنوب ( إفريقيا في إتجاه الجنوب ) يَقْوَى من إحتمال أصلهم من ناحية غرب إفريقيا أو شرقها - المترجم.

أبطله البحث مؤخراً . وإذا اعتُبرت على وجه صحيح ، فإن الفوارق الثقافية بين «القومين» صغيرة نسبياً على حد سواء ، ومن نوع تطوري إرتقائي أكثر منه ثورياً . وبلا مساس بتتابعها اليسير فإن قبور ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة وفخارهما يشبهان بعضهما البعض بصورة إستثنائية تدعو للملاحظة ؛ متشابهتان لمدى بعيد بحيث أن صلةً ثقافية قريبة بينهما يصعب أن تخضع للمسألة . اخذاً بالحقيقة القائلة بأنه ربما كانت هناك قرون عدة تائهة ما بين آخر بقايا معلومة لنا من ثقافة المجموعة الأولى وأوائل البقايا التى نعرفها لثقافة المجموعة الثالثة ، فإن التعجب لا يمكن في أنها مختلفة وحسب ، ولكنها تختلف بدرجة طفيفة للغاية . نهائياً ، تكاد رعوية ثقافة المجموعة الثالثة . وهى افتراضياً الإبتداع الثقافى للرئيس لهذه الفترة . أن تكون على اليقين تضيلاً أكثر منها حقيقة ، كما سوف نرقب في التو . وما دام هناك تحولاً ما ثقافى مقرونٌ بإدخال البقر إلى النوبة ، فقد كان تحولاً دقيقاً في المحيط الأيدولوجى عنه في المحيط المادى .

بإختصار ، غير قابلٍ لتفكير المؤرخ الثقافى ، أن " قوم ثقافة المجموعة الثالثة الغامضين " هم أى أناس عدا أحفاد القوم في ثقافة المجموعة الأولى وأسلافهم في العصر الحجري . كانوا يوجه قاطع مهاجرين مقبلين للنوبة السفلى ، إلا أنهم مهاجرون بكل الإحتمالات من منطقة مجاورة ، لا من غيرها حيث كانت العملية الفعلية للإنتقال الثقافى من ثقافة المجموعة الأولى إلى ثقافة المجموعة الثالثة تتبوا مكانها . غيائاً على نحو ما تظهر هذه على أرضيات إستنتاجية ، كيفما كانت ، من الضرورى أن يؤكد أن التأييد التجريبي لا يزال مفقوداً . فنوعية الفخار والقبور في الفترة الإنتقالية التى يتأتى عليها أن تصل ما بين المراحل الأولى والمتأخرة من الطور القبلى النوبى تبقى قيد الإستكشاف - ذلك فيما هو مفترض ، عندما يتخذ إستطلاع منظم الإجراء في النوبة العليا (٥) .

### التسلسل الزمنى والتاريخ

« الأعراس » الأثرية لثقافة المجموعة الثالثة النوبية فخار أسود لامع برسوم هندسية محفورة ، وقبور بهياكل علوية ، سقوفاً حجرية مستديرة . إعتقد - أصلاً - أن هذه السمات أدخلت في البداية إلى حوق النوبة السفلى في زمن الفترة المصرية الإنتقالية الأولى ، أو حوالى ٢٢٥٠ ق . م .<sup>(٦)</sup> . في ثقافة المجموعة الأولى أسس التاريخ كُليةً على سلع تجارية مصرية وجدت في القبور النوبية ، وهو بعيد عن إعتباره كتاريخ نهائى . هنالك عدد من الأسباب اليوم للإعتقاد بأن الظهور الأول للثقافة الحديثة كان مُعاصراً للأسرة السادسة المصرية ، أو نوعاً ما أسبق مما كان مفترضاً في الأصل . وجدت أختام مصرية للأسرة السادسة في أعداد معتبرة بقبور من « المجموعة الثالثة » ويقال أن فخار « المجموعة الثالثة » يقع في مرافقة مع فخار الدولة القديمة إبان مرحلتها الأخيرة في مصر (٧) .

ربما ان الادعى إطمئناناً من المعثورات الأثرية أن مُعطيات نصوص السيرة الحياتية المصرية تحمل نوه هذه النقطة المحورية في التاريخ النوبى . صوب نهاية الدولة القديمة سافر مسئولان مهمان هما اوى وحرقوف ، بعيداً إلى جوف النوبة ؛ لربما لا نعلم أبداً مدى ما قطعاه للتحديد من مسافة بالداخل (٨) . في سرد سيرتهما الحياتية أعطينا صورة لارض رَعْدَة ومأهولة على نحو جيد بالسكان ، وهى سرود متماسكة بدرجة أعلى للغاية مع البقايا الأثرية لثقافة المجموعة الثالثة من أى معرفة قليلة نملكها عن ثقافة المجموعة الأولى في مرحلتها المتأخرة . يبدو أنهما في كل مكان قابلاً مجتمعاً وإقتصاداً وطينين على رخاء ، وكانا مُزمنين بمعاملتهما بإحترام أكثر مما طرحه أى مُغامر مصرى سابق (٩) . كلاً من اوى وحرقوف إقتضى الحال أن يؤمنا تأزر " زعماء " محليين في أعمالهما التجارية - إستحداثاً بارزاً في العلاقات المصرية - النوبية . لقد كان إبان نفس الأسرة السادسة أن الحاكم المصرى لأسوان إكتسب أهمية وسلطات خاصة " محافظاً للبوابة الجنوبية " (١٠) ؛ مؤشراً إضافياً على الرخاء والأهمية المتنامية للنوبة . هنا ، إذن ، دليل وثائقي لذلك " الإسراع إلى بوتقة

نشاطر عن طريق فترة من الرخاء - التي قرّنها رايزنر ببداية ثقافة المجموعة الثالثة (١١) .

بالرغم من أن أصل ثقافة المجموعة الثالثة لا يمكن بعد أن يُرجع إلى هجرة أجنبية إلى الداخل ، لربما أن عاملاً خارجياً قد ساهم ، أياً كان الأمر ، في إعادة تعمير الثقافة النوبية والعودة للإقامة في النوبة السفلى . ذلك العامل كان بكل الإحتمالات هو تداعي الإمبريالية المصرية . لقد ذكرنا في آخر فصل أن حظوظ النوبة نهضت في أكثر الحالات وسقطت في تناسب عكسي مع حظوظ جارتها الشمالية . فحينما غاصت مؤسساتهم السياسية والعسكرية في إنفراط عقد النظام ، صار المصريون مؤرّمين للتعامل بشئ مثل الشروط المتكافئة مع الجنوبيين ، وأن يدفعوا بأمانة للسلع التي كانوا أزماناً أخرى يستحوذونها في سرور نهياً .

الأسرة الرابعة ( أول طور للدولة القديمة ، التي شهدت بناء الأهرامات الكبرى ) تبرز كإحدى قمم الحكم المطلق في التاريخ المصري . وإذا كان شاهد القبور موضعاً للتصديق ، فإن كلاً من النوبيين والمصريين عانوا نتيجةً للتركيز المتزايد للثروة في جفنة من الأيدي في هذا الزمن (١٢) . في الأسرّات الأخيرة للدولة القديمة ، مع ذلك ، يوجد دليل على إضعاف تدريجي للسلطة الفرعونية . إن الدفع الجهادي للتوسع الإمبريالي استنفذ جهده ، وظهرت دولة أكثر سلماً وإن كانت أقل إحتداماً . لطالما أن النوبة معنية ، ما من شئ متضمن لهذا التغيير أشد من الميانية ما بين نحت الأسر الرابعة ليسنفرو ، بمباهاته بأسر ٧.٠٠٠ رجل و ٢٠٠.٠٠٠ حيوان ، ونحت الأسرة السادسة لحرقوف في تدوينه لتفاوض أجري بعناية وإستقامة مع « زعماء » نوبيين . لقد كان في الأسرة السادسة ، أيضاً ، أن المصريون تخلّوا عن مستعمراتهم النوبية المستديمة الوحيدة في النوبة ، بوهين ومقالع معدن الدايريت (١٣) . تهاوت السلطة المركزية للدولة بأجمعها بعد وقت قصير ، ولزمن ما تفرّق فراغة متنافسة بأماكن مختلفة بالقطر . هنا ، في إضمحلال الإمبريالية المصرية ، يتحتم أن يُوجد بالتاكيد مفتاح واحد لإعادة إحياء الرخاء النوبي .

بعد أن أُنشئت ، ثابرت ثقافة المجموعة الثالثة على البقاء في النوبة السفلى لشئ مثل ٨٠٠ عام . خلال هذا الزمن ، كما بكل الأزمان في الفترة التاريخية ، ما كان ظل مصر غائباً أبداً عن الأرض الجنوبية . إلا أنه صعب بما يثير الدهشة أن تُصاغ صورة صافية لعلاقات مصرية - نوبية في ثقافة المجموعة الثالثة ، إذ أن الدليل الأثاري والنصّي لا يُعطي صورة متماسكة . البقايا الثقافية للنوبيين أنفسهم تشير فحسب إلى استمرارية تلك العملية المتدرجة من الإستقرار والتصر التي تظاهرت مُسبقاً طوال ثقافة المجموعة الأولى . لو لم يكن لنا أي شاهد خلا قبور « المجموعة الثالثة » وقرامها ، لَصُعِبَ علينا فيما يُنَاط بنا أن نتوقع إمكانية أي شئ خلاف صلح سليمة وغير مقطوعة بين النوبيين والمصريين ، اثناهما جاء المذكورون بدايةً شيئاً فشيئاً ليقفوا الأخيرين في عادات حياتهم وأعرافهم .

الدليل المصري ، النصّي والأثاري معاً لا يمنح وحسب صورة مختلفة بشكل متباعد جداً للعلاقات المصرية - النوبية ، لكنها صورة واحدة متقلبة بعنف . إننا نرى تجارة رخيّة في بعض الأزمان مُجاهلةً تجاهلاً كبيراً في أزمان أخرى ؛ مسافات زمنية من السلم تُجْهَض بإنتهايات مصرية ، وينفس القدر فصلاً واقعياً لـ ٢٠٠ عام من الإحتلال العسكري تحت الدولة الوسطى . وفي أزمان أخرى نجد النوبيين يعملون كمسؤولين مؤقّرين في خدمة الفرعون بالوطن والخارج على السواء . ما ترك شئ من هذا ، مع ذلك ، أي أثر في السجل الأثاري للنوبيين أنفسهم . ليست هنالك زيادات أو إنتقاصات مفاجئة في حجم سلع التجارة بقيور « المجموعة الثالثة » لِتُسَمِّي السياسة المصرية ، وليس هنالك إنقطاع مُؤرّك في الإقامة بقرى أو جبانات يمكن أن يشير إلى تفكك مؤتمر في المجتمع النوبي .

في البقايا المادية لثقافة المجموعة الثالثة من الممكن أن نعرف ثلاث أو أربع مراحل تنمية ، على أسس مُصنّفة ، خلا أن التغييرات في كل حالة تجي من نوع تدريجي وتطوري إرتقائي (١٤) . لعل

الواحد يفترض أن نفوذاً ثقافياً مصرياً ربما بلغ قمته في الزمن الذي كانت فيه النوبة السفلى تحت سيطرة مباشرة ( حوالى منتصف ثقافة المجموعة الثالثة ) ، لكن هذه ليست هي الحالة بأى حال . بدلاً عن ذلك ، تُبين كل مرحلة متعاقبة لثقافة المجموعة الثالثة درجة أعلى من التبصر أشد مما أجرى في المرحلة السابقة . إنه بسبب هذا الفارق الذي لا يزال غير مفهوم بأكتمال ، يبدو الأفضل ترك البقايا الأثرية النوبية لتحكي قصتها عن الإرتقاء الثقافى في الفصل الحالى بينما نحتفظ للفصل التالى بتاريخ لأنشطة مصرية مواكبة لحدوثها في النوبة .

### الحضارة المادية لثقافة المجموعة الثالثة

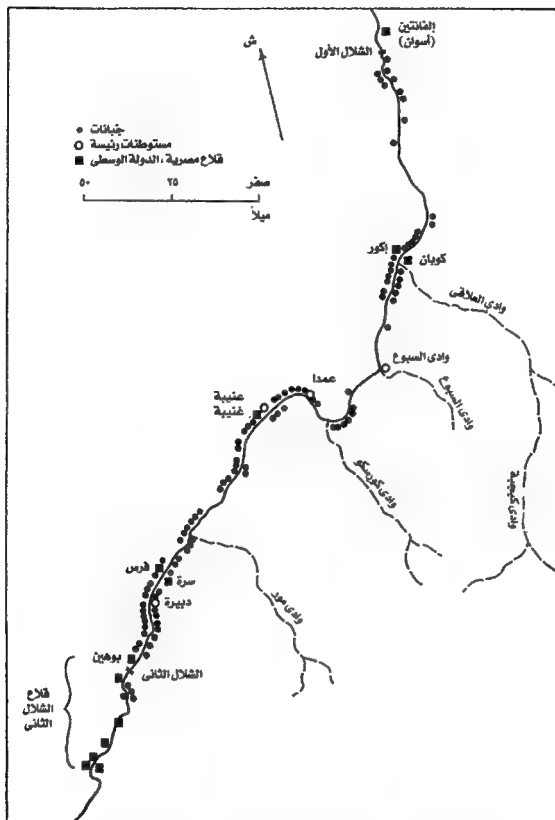
على نحو ما سنربط عما قليل ، إن أهم تحولات لثقافة المجموعة الثالثة قد يكون حدوثها قائماً في الدوائر الإجتماعية والأيدولوجية . التغيرات المادية ، مع أنها قاعدة للتعرف الأثرى على هذه الفترة ، أجلى كميّاً منها كيفياً . مرة ثانية ، تُبين المواقع السكنية تحسناً وظيفياً قليلاً على مثيلاتها في الأزمان السابقة . هنالك زيادة متدرجة في الحجم وربما في مدة بقاء المستوطنات ، إلا أنه لم يتعرف على حياة لقرية مكتملة النمو لتُقارن بقرى الشرق الأدنى حتى وقت متأخر في ثقافة المجموعة الثالثة . يقدم تريفز الوصف المعمم الآتى للمواقع السكنية في هذه الفترة :

جميعها كانت قرى مفتوحة أو مواقع لمعسكرات . حمل معظمها أثراً لأسوار حجرية . توحى بأن السكان ككل كانوا قد شرعوا في الإقامة في قرى دائمة بشكل أو آخر بحلول هذا الزمن . في عيّنة حفر الكسندر لانتقسدورف موقعاً على طبقات لقرية . في المستوى الأدنى وجد ثلاث دوائر لخيام . قطر كل واحدة ٤ إلى ٥ أمتار . في كل منها عمود مركزي وكان لإيقاد النار نوعاً ما على بعد من المركز ، وحول محيط الخيمة سلسلة من أعمدة اصغر لا تواجه المداخل إلى الخيام المختلفة إتجاهاً واحداً . وجد لانتقسدورف أثراً لجلود كانت سقفاً للخيام . وبالرغم من أن جزءاً يسيراً وحسب من الموقع حُفر إلى هذا المستوى ، يبدو أن كل خيمة وقفت منفصلة عن البقية . إحدى المستوى الذى يطو مباشرة هذه الخيمة مساكن شبه . سفلية تحت الأرض ، إشمطت أجزائها الدنيا على الواح مستقيمة من الحجر مثبتة إلى بعضها البعض ومغطاة بطين وقطع صغيرة من الحجارة . عوضاً عن دُعامة مركزية ، يقم السقف تركيب معقد من العارضات الخشبية . كان المدخل في شكل حجرة مفصولة صغيرة تنفجر عن منظر مباشر للداخل . القرية مقامة من منازل من غرفة واحدة وبناءات عبارة عن تجمعات لحجرات عديدة منحنية الأضلاع أو دائرية . المنازل ذات الغرفة الواحدة بُنيت بعناية ، على أنه ما من بُنية تقترح أنه كان هنالك أى نوع لهيكل لإقامة الطقوس . واحد من المنازل الدائرية قطره ٦ أمتار ويدخله ثلاث مدافن ، مرتبة في صف . المنازل المجمعة تصل إلى ١٧ متراً في الطول واحتوت سبع أو ثمانى غرف وفناءات . في مكان آخر بالنوبة وجدت منازل مماثلة . بينها مساحات خاصة للطماير وأعمدة لربط الحيوانات . لا تتراى القرى كأنها كانت كبيرة ، وبالرغم من أن هناك ميلاً ملحوظاً لكل منزل لأن يكون موضعه على مسافة ما من الأخرى ، ما كانت المنازل موزعة بنظم دقيق<sup>(١٥)</sup> .

يضم موقع عينية مستوى ثالثاً أعلى له حجرات صغيرة مستطيلة من طوب طيني . ومع أن تاريخاً لكل المستويات الثلاثة غير مؤكدة ، هنالك تعاقب إرتقائى مرئى ، بادئاً بخيام ، متقدماً لأكواخ شبه سفلية ، ومنتهياً بمنازل مستطيلة على النهج المصرى في السطح . تسلسل زمنى إرتقائى مماثل ، مع أنه لا يقع بين موقع مفرد ، صادفته البعثة الإسكندنافية المشتركة في النوبة السودانية . يصفه ساف . سودبرج :

ثلاثة منازل للمجموعة الثالثة تم تنقيبها ... واحد ... مخرب تماماً ، لكنه بدا من النوع العادى بأسوار من الألواح الثامنة والشكل الدائرى للحجرات . هذا هو النوع الموجود ، مثلاً ، في عينية وبعدا .



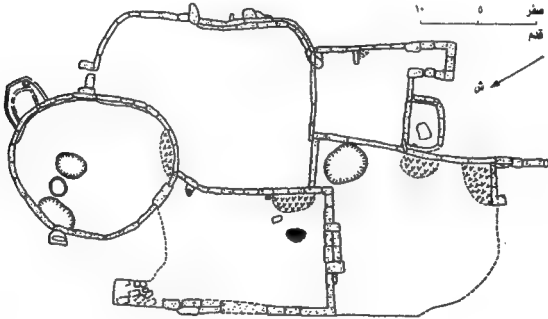


شكل رقم ١٧

توزيع المواقع المعروفة في ثقافة المجموعة الثالثة (الأفق ج)

منزل اخر ..... كان جيد الحفظ على سبيل المقارنة ، خصوصاً جزؤه الذي كان مبنياً على غرار أسلوب المجموعة الثالثة الأكثر تقليدية بالواح قائمة . إنه حجرة مستطالة بآركان دائرية وذات امتصاف خاص إذ أن الأجزاء العليا من الأسوار مَصانة ، مشيدة على البناء من فوق الألواح القائمة على القاعدة . تتلو هذه الغرفة بناءاً من الطوب . حجرة مستطيلة بأسوار مستقيمة ومخزن في شكل قبة ، نوع ذائع الصيت من الصور المصرية لمخازن الفلال ومبانٍ مماثلة ( قارن الشكل رقم ١٨ ) . في هذه الحجرات يُستعمل الطوب بنفس طريقة الألواح القائمة ، غير مُضَجَّع أفقياً ، كأنما لم يكن البناء معتاداً بعد على الطريقة السليمة لإستعمال الطوب .

منزل المجموعة الثالثة ، الثالث ... الذي نقبته البعثة كان مبنياً بدقة كمَنْزل مصري حكماً بما تَبَقَّى . الحجرات مربعة بخطط عادية من الطوب النُّي على قواعد من الحجر ولولا خرف المجموعة الثالثة لكان المنزل معدوداً على وجه حسن بنائية مصرية (١٦) .



شكل رقم ١٨

### مسكن لثقافة المجموعة الثالثة (الأفق ج) ، دبيرة

آخر هذه المساكن الثلاثة يعود بصفاً لطور متأخر عالى التمصر في ثقافة المجموعة الثالثة إضافات الطوب للمنزل الثاني الأكبر يمكن أن تُعتبر كذلك رابعة لفترة متأخرة . الطوب النُّي (غير المحروق) وجه ثابت للغاية في القبور الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة ( انظر أدناه ) . بالرغم من أنه ظل طويلاً مادة البناء الشائعة في مصر ، إستعمل من النوبيين أولاً بطريقة عشوائية وغير منسقة لمدى بعيد ، كأنه نوع آخر من الحجر أياً ما كان عليه . ما كان حتى مجئ إستعمار المصريين في الدولة الجديدة ، أن مبنى الطوب أصبح متطوراً بدرجة مكتملة ومنسقة . عقب ذلك ظل واسطة للبناء النوبي النموذجي نزولاً إلى نهاية العصور الوسطى .

أول إقتراحين " للحضرية " أو على الأقل النواة الدفاعية (١٥) ، مُجسد في قريتين مسورتين

(١٥) المقصود الإقامة المتحضرة في مجمعات صغيرة لأغراض دفاعية - المترجم.



شكل رقم ١٩

### قرية مُحَصَّنَة ، من ثقافة المجموعة الثالثة ، الأفق ج ، وادي السبوع (المقياس والوجهة غير مشمولين)

يرجعان للمرحلة الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة ، كلاهما في الشمال البعيد من النوبة . في وادي السبوع ، حوالي مائة منزل مُجَمَّعة بكثافة بين سور حائطي متين من بناء حجري جاف مرصوص (الشكل رقم ١٩ ؛ الصورة ١٠٥) . إن التشييد ورسم المنازل لصيق الشُّبب بما هو كائن في المستوى الثاني في عَيَّبة ! هنالك على قدم المساواة بنايات من حجارة واحدة مستديرة وتجمعات لحجرات عديدة غير منتظمة الشكل . معظم الأسوار الباقية على قيد الحياة الواح حَجَرِيَّة قائمة الإرتكان ، على أن بقايا محروقة متفحمة من البناءات العلوية الخشبية وُجِدَت سواء بسواء . السور المحيط ، مقام من كتل حجرية كبيرة مُراكمة بلا انتظام ، في حوالي متر واحد سُمكاً في القاعدة ويقف علواً من مترين في بعض الأماكن . إنه يشكل نصف دائرة حول الجانب الغربي للقرية ؛ أما في الجانب الشرقي فمحمى بمنحدر شديد يقع مباشرةً على النيل . السور الحائطي تتخلله ثلاث بوابات ، أكبرها على الجانب الغربي ، وهو محمي إضافةً لذلك بأسوار درئية و « بيت للحراسة » . هنالك كذلك إثنان وثلاثون فتحةً للنبالَة على مسافات منتظمة بجلام على امتداد السور . إستلهم هذه التدابير جاء لا ريبه فيه من القلاع المصرية العظيمة التي شُيِّدت بين النوبة في المرحلة الوسطية من ثقافة المجموعة الثالثة ( انظر الفصل السابع ) ، بالرغم من أن التشغيل بوادي السبوع كان محلياً ، بلا سؤال . إن الموقع مؤرخ من المنقبين بما يعود إلى فترة تعقبُ مباشرةً التخلي عن القلاع المصرية ، أو حوالي ١٨٠٠ ق . م . (١٧) .

مُشابهةً من جوانب عديدة للقرية بوادي السبوع ، مع أنها تبين إرتقاءً معمارياً إضافياً ، تقع المستوطنة المُسَوَّرة في (عمدا) التي نُقِّيت قبل أكثر من ستين عاماً مضت من بعثة إكلي ب . كوكس ( الشكل رقم ٢٠ ) . إن المساكن مُجَمَّعة بكثافة شديدة في عمدا حتى أن المنقبين عاملوا المستوطنة كبنية مفردة " قلعة " ، كما دعواها (١٨) .

لقد فُكِّر أصلاً في تاريخها بدءاً بالأسرة الثامنة عشر أي الدولة المصرية الجديدة ، إلا أن

آخرين اقترحوا لبنائها الأول تاريخاً سبق بكثير<sup>(١٩)</sup>. وربما صح كل من الإقترحين إذ أن رسم مستوطنة عمدا يُرى بأنها ذات تاريخ طويل على الأرجح. هناك بعض بقايا من مبان، إلى جانب شريحة من سور حائطي، غير منتظمة بدرجة عالية وتذكر بوجه عام بوادي السبوع. مع ذلك، فإن حجرات أكثر عدداً لها أسوار أشد استقامة وانتظاماً، مدعومة باكتاف داخلية، وهناك استعمال معتبر لفواصل الطوب السور الحائطي حول النصف الجنوبي من القرية، مع أنه لا يزال بناء حجرياً خشناً، مستقيم ومنظم بمستوى غير عادي يدعو للملاحظة، ومدعوم في ركن واحد ببرج أو تحصين بارز. هذا الانتظام في التشييد يشير بما لا خطأ فيه إلى الوصاية المصرية، ويُدعى بأن آخر فترة للبناء في عمدا تنتهي بحقٍ وحقيق إلى فترة متأخرة جداً ومتحصرة من ثقافة المجموعة الثالثة، كما اقترح أصل المنقبون.

مثل كل القرى الأخرى من ثقافة المجموعة الثالثة، إشملت مستوطنة عمدا عدداً من ميال مستديرة متباعدة على الفور عن حجرات المعيشة العادية. إن هذه المباني أينما وجدت، قابلة لأن يكون لها مدخل صغير للغاية، أو ألا تكون لها فتحة مطلقاً في القسم الأسفل الذي يظل باقياً من الأسوار. بالتالي، فإن تأويل ساف. سوديرج بإعتبارها مخازن للفلال يبدو مما يحمل على الإنعاع بمستوى عال<sup>(٢٠)</sup>. كيفما اتفق، يذكر تريقر أن بعض الحجرات الدائرية في عينية إحتوت مذافى، لذا لا بد أنها كانت قد صُممت للإقامة البشرية<sup>(٢١)</sup>.

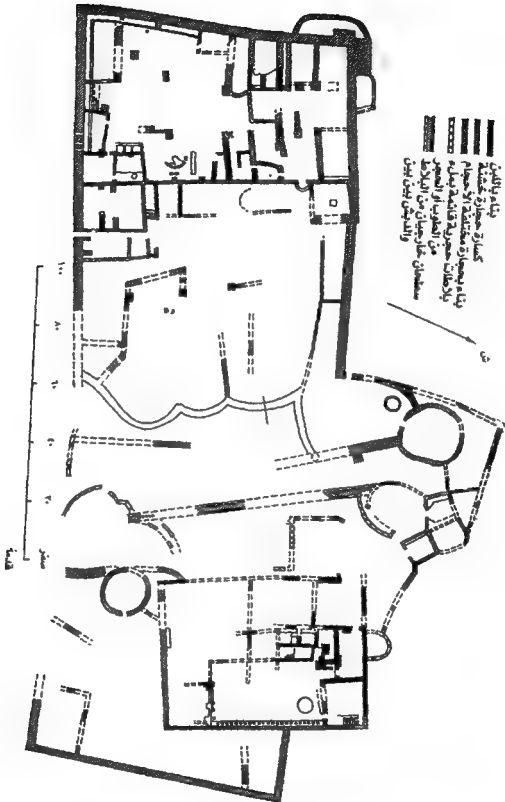
الفنون المحلية المعتادة في ثقافة المجموعة الثالثة مختلفة قليلاً عن سابقتها في أزمان سالفة. لا يزال الفخار مسود الرأس مُستخدماً بوفرة، مع أن بعض أشكال جديدة تفضل عليه. الإبتداع الخزفي الذي أضفى "إمضاء" لهذه الفترة يتكون من أواني سوداء لامعة سطوحها الخارجية مغطاة بزخارف هندسية، محفورة. وبعد الحرق تسمح الرسوم بجير أبيض أو بطلق، حتى تعطي المظهر لخطوط بيضاء ملونة رفيعة جداً على خلفية سوداء، بدلاً عن الزخرف المحفور (الصورة ٥ - ب) بعد إدخاله، امتك هذا التقليد فوقاً عن ذلك شعبية عاشت زمناً طويلاً. الفخار الأسود بالزخارف المحفورة والمملوءة بالأبيض ما فتى يُصنع في الأزمان المروية وعلى الرغم من أن سلع ثقافة المجموعة الثالثة، مثل سلع ثقافة المجموعة الأولى، بلغت مستوى عالٍ من الإمتياز الجمالي، فإنها كانت لا تزال تصنع يدوياً بجمعائها. ربما من قبل النساء. زمناً طويلاً من بعد أن بُنيت عجلة صانع الفخار في مصر المجاورة.

شاهد الملابس وأدوات الزينة توفرها جنانز ثقافة المجموعة الثالثة، وإلى حد ما كذلك الأشكال الإنسانية غير الدقيقة التي كانت تُحفر أحياناً كزخرف في قدير «المجموعة الثالثة»<sup>(٢٢)</sup>. أعطى تريقر الوصف العام التالي:

معظم اللباس في هذا الزمن مصنوع من الجلد. يلبس الرجال عادة إزاراً إلى الركبتين، وصنادل، وقبعة. القماش لا يوجد في المألوف إلا كغُلفاء لمرابيا النحاس كانت أغلب المجوهرات مصنوعة بالدار من الصدف، والعظم، أو الحجر، مع أن الصدف يجي من وقت لآخر من بُعد يبلغ البحر الأحمر. تجارة عقود الصينى ليست غير شائعة، إلا أن المعدييات خاصة الأسلحة المعدنية نادرة<sup>(٢٣)</sup>.

الحقيقة القاضية بأن القماش المغزول موجود وحسب كغطاء لأدوات النحاس المستوردة يوحي بأنه كان مجلوباً. الجلى أن فن النساجين ما كان مُتَبَيِّناً بعد من النوبيين، الذين كانوا، مثل شعوب إفريقية أخرى كثيرة إلى الأزمان الحديثة، على قناعة بلبس الجلود.

يبدو أنه كانت هنالك تقلبات ذات اعتبار في حجم التجارة المصرية أثناء ثقافة المجموعة الثالثة، بالرغم من أنها لم تنقطع مسيرتها بصورة كاملة أبداً وعلى الإجمال، تحتوى قبور هذه الفترة حوالى نفس كمية السلع المستوردة وتشكيلتها كما كان جارياً في قبور ثقافة المجموعة الأولى



شكل رقم ٢٠  
 قرية مُحصنة من ثقافة المجموعة الثالثة (الأفق ج المتأخر) ، عمدا

السابقة. أنماط الفخار وأشكاله المجلوبة في الفترتين متشابهة كثيراً. مع ذلك، فإن تعويض النحاس بالبرونز جعل من الممكن تصنيع أعمال معدنية أرفع مستوىً وينعكس هذا في الحضور الموسمي لمواد مثل المرايا والمبدى في قبور ثقافة المجموعة الثالثة

## المعيشة، الخيال والواقع

كما رأينا في الفصل الخامس، ليس مؤكداً إستمداً النوبيين في ثقافة المجموعة الأولى أى جزء في معيشتهم من رعى البقر. ولقرين لاحقة، مع هذا، لم يُرَع البقر بأعداد مقدرة وحسب ولكنه كان بؤرة رئيسة للإهتمام الثقافي. هذا الإستحداث البادى لاقى تنبهاً فائقاً من المؤرخين أكثر من أى وجه آخر لثقافة المجموعة الثالثة، وقد أدى إلى اعتقاد عريض لانتشار أن " القادمين الجدد " كانوا قوماً رعيين. غير أمرى عن الرأى العام في هذا الخصوص :

المدى الذى كرس به المجموعة الثالثة نفسها للزراعة غير معلوم بأى درجة من اليقين، فلم يُعثر على أى معادير لإفلاحة التربة في هذه القبور. لكنهم كانوا يواجه قاطع ملاكاً للبقر على نطاق واسع توجد مرات كثيرة نماذج طينية خشنة من البقر، والضأن والأغنام في مستوطناتهم . ومع جنانهم، تُرسم هذه الحيوانات دائماً كزخارف في فخارهم وتتضح في رسوماتهم الصخرية التى تكاد تنتمى لهم بالتأكيد. النبوة اليوم لا تملك المرعى لتربية البقر ولا يمكننا سوى الإنتهاء إلى أن الأحوال المناخية كانت مختلفة جداً عندما رعى قوم المجموعة الثالثة قطعانهم من المواشى على ضفاف النيل قبل ٥٠٠٠ عام من الماضى (٢٤) .

طيف النوبيين القدماء الذى قدمه أمرى وآخرون يُذكر بشكل صارخ بوصف عالم أنثروبولوجي حديث للنوير ، قبيلة بأعلى النيل :

في سويدها قلوبهم كانوا رعاة، العمل الوحيد الذى يبتغون له هو رعاية البقر إنهم لا يعتمدون على البقر في كثير من ضرورات الحياة وحسب، لكنهم يملكون مطالعة الراعى للعالم البقر أعز ما يمتلكون وهم يخالطون عن طيب خاطر بحياتهم ليدافعوا عن قطعانهم أو لإستلاب قطعان جيرانهم تُعنى أغلب أنشطتهم الإجتماعية بالبقر وتُعرف البقرة أفضل نصح يمكن تقديمه لأولئك الذين يرغبون في فهم سلوك النوير (٥٢) .

أما أن النوبيين في ثقافة المجموعة الثالثة مَثَلُوا مصدرراً عظيماً بملكيتهم للبقر، وأنه ربما أُغدق عليهم أعلى صيغةٍ للثروة، فمن الصعب أن يُرتاب فيه. فلقد حُصرَ فنهَم النقشى لحوالى ألف سنة بقدر كبير في تمثيلاتٍ لبقر، وجواميس، وأنشطة رعية، كأنما رسموها على أى سطح توفر لهم. تتواءم الصخر، شواهد القبر، أواني الفخار (الشكل رقم ٢١)، وحيطان البيوت المهجورة. كذلك دقنوا في جدرانهم نماذج طينيةٍ للبقر ، وفي بعض الأحيان جماجم لحيوانات مذبوحة. بيد أنه لا يبدى أمناً أن يُخلص من هذا الشاهد إلى أن رعاية البقر كانت هى القاعدة لإقتصاد المعيشة النوبية. إن البقر يمكنه أن يخدم كثرةً وبؤرةً للنشاط الإجتماعى والطوقسى دون أى مساهمة ذات قيمة أو اعتبار في الغذاء ، كما يجري الحال عليه وسط اقوام كثيرة في أواسط إفريقيا اليوم . بأماكن أخرى وفي أزمان أخرى كانت الخيول والإبل بالمثل غالبية، دون أن تشكل مصدرراً هاماً للغذاء.

الإنتباع بالحياة الرعية، المكتسب في المقام الأول من فن ثقافة المجموعة الثالثة، غير مُساند بأى بيئه إدارية مباشرة أخرى. مواقع القرى، الفخار الوافر، والجبانات الواسعة كلها تشير إلى حياة أكثر استقراراً جلوسياً وحضرياً منها بأى زمن سالف . حياة يصعب أن تتماشك مع الإعتماد الممدود على تربية الحيوان. فإذا صار تفسيرنا للمنازل المستديرة من الجانب الآخر ، على أنها صوامع للخلال تفسيراً صحيحاً ( انظر بعاليه )، لا يمكننا دون صعوبة أن ترتب في أن الزراعة كانت تغل فرائض وفيرة في ثقافة المجموعة الثالثة، وأنها كانت القاعدة الرئيسة للمعيشة النوبية. شاهد إضافى في هذا الإتجاه نتيجته المستوطنات المسورة في وادى السبوع وعمدا التى كانت تضم بينها صوامع للخلال دونما حظائر للحيوان مما يمكن التعرف عليه .



(١) أ - جروف النيل الخصبة [ السهل الفيضي ] في النوبة السفلى



(٢) ب - الصحراء النوبية المقفرة



(٢) أ - (الصورة الأعلى) قرية نوبية حديثة في منطقة دلقو



(٢) ب - واجهة منزل نوبى بكامل زينتها

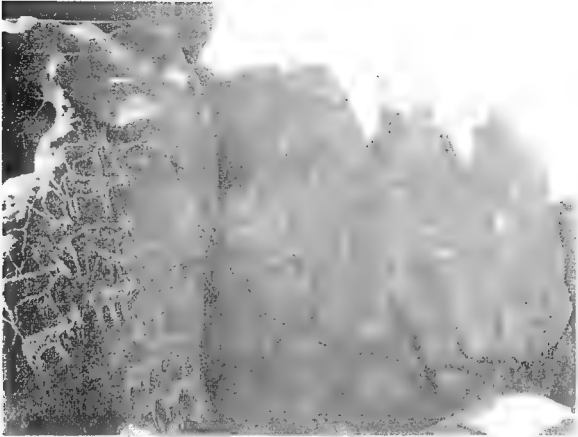




(٢) أ - جماعة من التوحيين المعاصرين



(٢) ب - حفريات أثرية ، و د بانقا



(٤) أ- رسوم صخرية من العصر الحجري الحديث ، عبكة



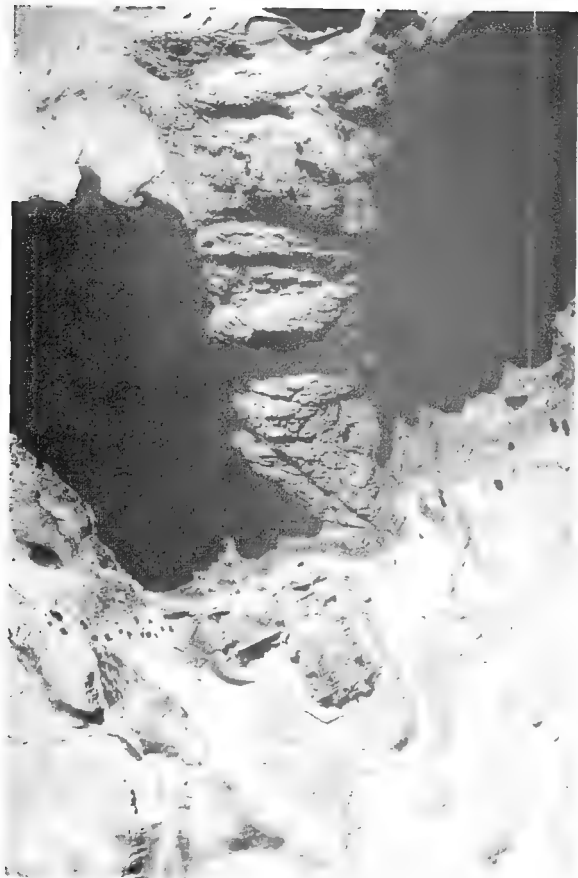
(٤) ب - فخار ملون من ثقافة المجموعة الثالثة [الأفق أ]



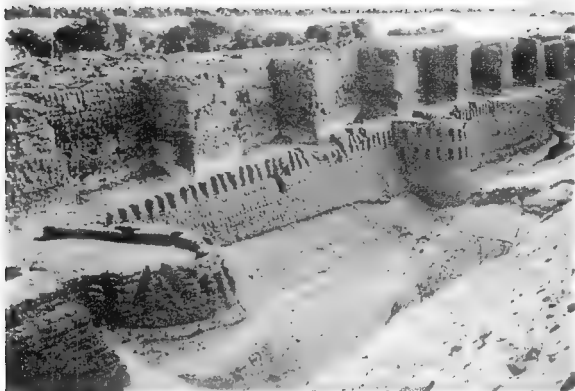
(٥) أ- قرية مخصصة من ثقافة المجموعة الثالثة [الأفق ج]، وادي السبع



(٥) ب- فخار نموذجي - للمجموعة الثالثة [الجماعة ج] وكريمة



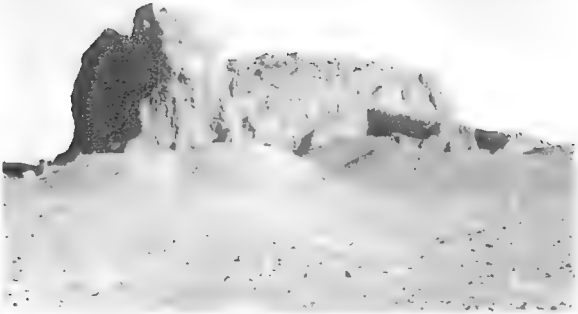
(٦) منظر جوی لشلال بوھین و خرائب الحصون



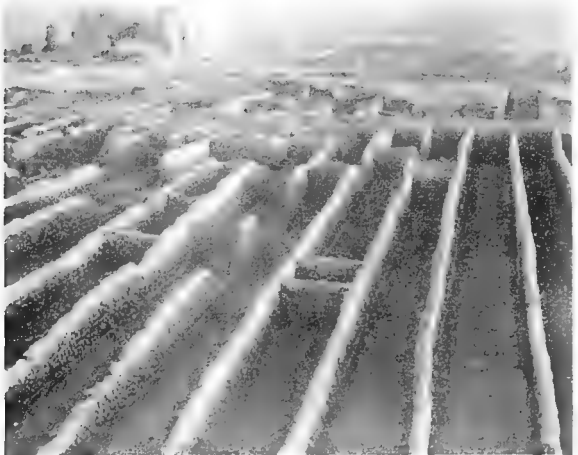
(٦) ١- تحصينات في بوهين ، السور المترس من الداخل



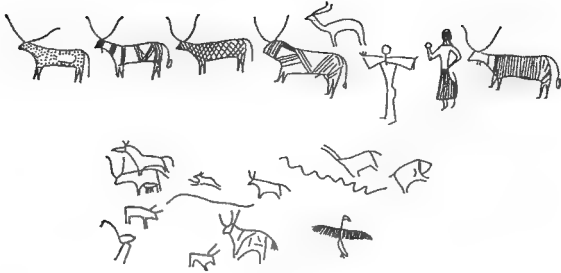
(٦) ب - مجرى سحب  
القوارب في مرقسة



(٧) أ- الدفوفة السفلى ( الغربية ) هي كرمة



(٧) ب- الهيكل الطوبى للمدفن ك ٢ ، والدفوفة العليا ( الشرقية ) ، كرمة



شكل رقم ٢١

### رسوم تصويرية (جغرافيتي) على أواني من ثقافة المجموعة الثالثة (الجماعة ج)

يلقى شاهد مناخى مزيداً من الشك على فرضية الإنتشار الواسع للحياة الرعوية في ثقافة المجموعة الثالثة . في زمن طويل قبل هذا الوقت كان الطور الربط للعصر الحجري الحديث (قارن الفصل الرابع ) قد بلغ نهايته ، والأحوال السائدة فوق الصحراء الكبرى مماثلة لأوضاع اليوم بالضرورة <sup>(٢٦)</sup> . المعيشة الممكنة الوحيدة للإنسان والحيوان قائمة على ضفاف النيل ، حيث يُتطلب اليوم إثنان إلى أربع فدانان لتقييم أود بقرة واحدة . أخيراً كشف تحليل شامل لعظم الحيوان أُستعيد من موقع في بطن الحجر ، يعود تاريخه إلى ١٦٠٠ ق.م ، أن ٦ بالمائة فقط عظام بقر ، ٤٠ بالمائة عظام ماعز وضأن ، و ٥٤ بالمائة عظام غزال <sup>(٢٧)</sup> . يبدو أن الصيد في هذه المنطقة كان لا يزال أشد أهمية من أنواع أخرى لتربية الحيوان .

الظاهر ، إذن ، أن نوبيي ثقافة المجموعة الثالثة لا تجدر مقارنتهم مع النوير إنما بجيرانهم الشلك - قوماً ( مثل آخرين كثر في شرق إفريقيا ) يُعِدُّون ثروتهم في البقر لكنهم يشترقون معظم معيشتهم من الزراعة <sup>(٢٨)</sup> . فإذا كان هذا التفسير صائباً ، فعلينا من ثم أن ننظر بلا جدوى للقطعان الهائلة التي توقع رؤيتها امرى وأركيل <sup>(٢٩)</sup> . إن العبارة التي تقول " إنهم كانوا مُلاكاً للابقر على نطاق واسع " <sup>(٣٠)</sup> ، ربما يجب أن تعدل لنقرأ " إنهم تطلعوا لكي يُصبِحوا مُلاكاً للبقر على نطاق واسع " لغالبيتهم كانت مثلاً ، لا يمكن تحقيقه أبداً . إن نوبيي ثقافة المجموعة الثالثة أياً كان الحال يجوز أنهم كانوا أول شعب إفريقي يُنمّي تلك التركيبية الواسعة من الأنظمة الإجتماعية والطقوسية المركزة حول رعاية البقر ، وهو أمر شديد الوضوح في شرق إفريقيا ووسطها في الوقت الحاضر .

### المركب الجنائزي

الإستغراق في الحياة الآخرة ، المرئى أنفاً في القبور الخاصة بثقافة المجموعة الأولى ، يتجسد في تزايد خلال ثقافة المجموعة الثالثة النوبية . هنا ، كما يُرى في جوانب كثيرة أخرى للثقافة ، يمكننا أن ندرك إستمرارية لمآثورات سابقة وفي نفس الوقت نتعرف على النفوذ الأيدولوجي المتنامي لمصر . في ملامحها السفلية ، هناك فرق طفيف بشكلٍ مقارنٍ بين القبور التابعة لثقافتي المجموعة

الأولى والمجموعة الثالثة . إنما ممرات رأسية بسيطة ، بيضاوية أو مستطيلة بأركان مستديرة ، يُضَجع فيها الجسد على جنبه الأيمن في وضع مُنقبض أو مُتقلص جزئياً ( الشكل رقم ٢٢ ) . يتجه الراس إلى الشرق عادة ، على أنه ليس هناك قاعدة توجيهية ثابتة بصرامة . وتوضع أواني الفخار وقرابين أخرى بنظام لا يَفقه فيه بين طيات القبر ، حيثما وجد مجال بين الجسد وجُثثات الممر .

أكثر ملامح مميزة لقبر « المجموعة الثالثة » توجد فوق الأرضية . حلقة من بناء حجري جاف مغروز ، حوالى ثلاثة أقدام في الإرتفاع وخمسة عشر قدماً في قطرها بوجه عام ، بُنيت حول قمة ممر القبر . داخل الهيكل البنائى مكى بالحصا أو الرمل ، وفى بعض الأحيان يُغطى في القمة بالواح حجرية منبسطة ، حتى يكون مدفناً تلياً . ربما أن الجنائز في هذه الفترة تكاد أن تكون منهوبة بشكل ثابت ، كيفما تم ذلك ، فإن الإمتلاء الداخلى للمدفن التلى نادراً ما يوجد كما كان أنفاً بلا مساس .

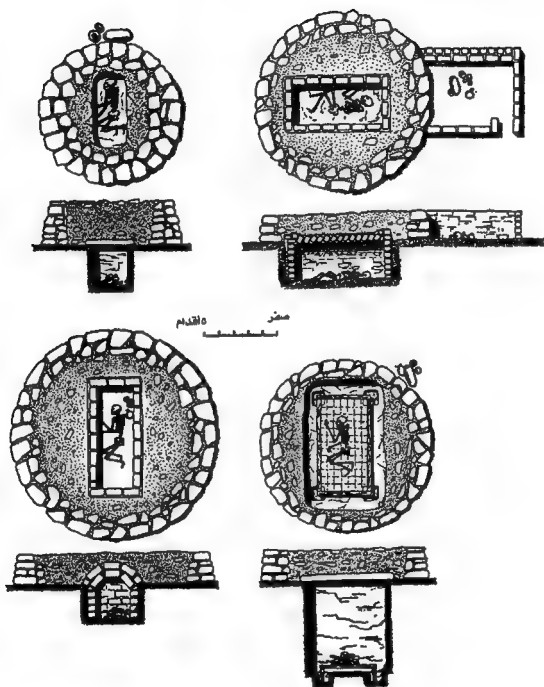
فكرة ترك علامة على القبور في السطح ، عن طريق نُصب شاهد أو مدفن تلى ، فكرة موهلة في القدم وبالغة الإنتشار . إنها تتراعى في فجر التاريخ بكل من مصر وبلاد ما بين النهرين . نحو ما ذكرنا في الفصل الخامس ، هناك الآن شاهد على أن بعض المدافن التلية بُنيت في النوبة إبان ثقافة المجموعة الأولى ، بالرغم من أن الغالبية العظمى من قبور هذه الفترة ليست لها علامات سطح باقية . وسواء كان بناء مثل هذه البنايات غير شائع ، أم أن غالبيتها دُمُرت بتعرية لاحقة ، لم نعلم أبداً ، مع ذلك ، في ثقافة المجموعة الثالثة ، إن كانت ممارسة إشهار القبور عامة في كافة أرجاء النوبة . بقيت طوال الدهر مذكاة ، برغم أن التقليد الدقيق لاشهار القبر تفاوت بقدر عظيم من فترة لآخرى .

ليس أكيداً ما إذا كانت المدافن التلية في ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة قد قُصد بها التذكار أساساً ، أو أن تكون حائلاً دون النهب . فإن كان القصد الأخير هو الاعتبار العمدادى ، إذن ، مثل أى حيطة أخرى شاملة وبالغة كالأهرامات الكبرى ، ما كان مُطلساً . في طول جُثثات وادى النيل ( وعلى امتداد معظم العالم القديم بحق ) يصعب أن يكون هناك شئ مثل قبر غير منهوب في أى من الفترات التاريخية عندما كانت الثروة تُدفن بانتظام مع الموتى . كان نهب القبور في جلاء صناعة بروليتارية عظمى ، ربما مانحة لمزارعى العالم القديم المُتجذرين في الأرض وأحد من أساليب القليلة للهروب من حياة الفقر وَضُك العيش مدى العمر . لا جرم أنه بعد قرون والفيه من الحزن الخفى ، يُعد العثور على قبر غير ممسوس في الوقت الحاضر يوماً سامق الأهمية لعالم الآثار . وكنيجة نحصل على ومضات موسمية وعرضية فحسب من الطائفة الجنائزية الكاملة للحضارات القديمة ؛ علينا أن نقنع أنفسنا في أغلب الحالات بالدور المكسورة وبالأشياء الصغيرة ، وغيرها من الغرائب والإنتهابات التى غُض أسلافنا عنها الطرف أو عاملوها بإزدراء .

قبور ثقافة المجموعة الثالثة ، بما في ذلك مدافنها التلية ، تبين دليلاً أصفى في جانب تغيير التسلسل الزمنى عما يُبين أى وجه آخر للثقافة ( قارن الشكل رقم ٢٢ ) . إن أقدم قبور كانت ، كما قد يفترض ، تشبه القبور في ثقافة المجموعة الأولى أشد شبه . ممر القبر دائرى كأعم ما كان عليه ، والبناء العلوى صغير نسبياً مع أنه جيد البناء . في أزمان متأخرة أصبح الركام القوى بشكل متزايد كبيراً لكنه مُشيد بعناية أقل . القُبور وقرابين جنائزية أخرى وُضعت في بعض المرات قبالة قاعدة المدفن التلى بدلاً عن - أو إضافة إلى - جوف القبر . ربما تكون القرابين الخارجية شاهداً على ولاء لإحياء الذكرى أو احتفالات عُقدت في تواريخ لاحقة ، مثلما كان شأنها في الشريعة الجنائزية المصرية . وفى الأيام الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة بُنيت حجرات مستطيلة من الطوب التلى في مواجهة الجوانب الشرقية للبنائات العلوية لبعض القبور ، لوضع القرابين عليها <sup>(٣١)</sup> .

دارت ممرات القبور تدريجياً من شكل دائرى إلى مستطيل . بحلول المرحلة الوسيطة من ثقافة المجموعة الثالثة وُجِدت في بعض الممرات مصفوفة بالواح حجرية قائمة في إستقامة أو بطول تلى ، لابد أنه كان مغطى بخشب أو بلاطات إضافية . كانت الفكرة - بوضوح - أن يُحفظ الجسد بين غرفة مهواة ،





شكل رقم ٢٢  
تطور أنواع القبور في ثقافة المجموعة الثالثة، (الأفق ج)

مثلاً كان النهج الممارس طويلاً في مصر وغيرها . هذه الطريقة من الدفن بلغت اكمل تطور لها في ختام ثقافة المجموعة الثالثة ، عندما أُسجى الجسد بين غرفة طويلة مستطيلة مغطاه بعرش طوي . تبرز الحافة العليا للسقف في المألوف فوق سطح الأرض ، لكنها تطوى بين جدران المدفن التلي .

دُفنت الأضاحي من الحيوانات دائماً بين الجُبانات الأخيرة في ثقافة المجموعة الثالثة . هياكل لضان ، وماعر ، وغزلان وكلاب وُجدت أحياناً بين نفس ممرات القبر مثل الإيداعات البشرية ، وفي بعض الأحيان في حُر ضحلة ، منفصلة لها . دُفن البقر خاصةً كذلك ، مع أنه أقل عدداً من الضأن والأغنام ، ومثّل بالرؤوس وحدها . وبينما عُثر على هياكل لضروفين أو ماعز في قبور كثيرة ، توجد رؤوس البقر عادةً بتجمعات ستة أو أكثر ، مرافقةً لأكبر القبور وأغناها (٣٢) . الواضح في المركب الجنائزي ، كما في الحياة ، أن البقر مثل الثروة بينما مثلت الحيوانات من الفصائل الأدنى قوام المعيشة . بعض الجُبانات في المرحلة المتأخرة من ثقافة المجموعة الثالثة تشمل شواهد حَجَرية قائمة عليها رسوم محفورة لبقر (٣٣) . يمكن لهذه أن تمثل محاولةً من النوبيين «ليأخذوا كعكتهم ويلتهمونها بالمثل» : أي ، أن يقوموا بصنع قُربان رمزي للبقر من أجل الموتى دون أن يَحرموا الأحياء منها بالفعل .

### ملامح المجتمع النوبي

في الجُبانات الأولى من ثقافة المجموعة الثالثة تُبين قبور على سبيل المقارنة تفاوتاً قليلاً في الحجم والثروة ، بما يقترح أن المجتمع النوبي في هذا الوقت كان لا يزال بالضرورة ديمقراطياً تسوده مفاهيم المساواة في الحقوق والميزات الاجتماعية والسياسية والإقتصادية . بمضى الوقت يمكن أن يُرَقَّب تبايناً متزايداً بين القبور ، ربما إنعكاساً لفوارق متنامية في الثروة والسلطان . هذا الإنعطاف موسوم بدقة في الفترة الوسيطة الثانية ، التي تَبَعَت إنسحاب الحكم المصري المباشر من النوبة السفلى ( انظر الفصل الرابع ) (٣٤) . ما هناك بيئة في أي وقت ، مع ذلك ، لترتيب طبقي اجتماعي واضح القسَمات على غرار ما هو قابل للنظر المتضمن في جُبانات مصر الفرعونية . الاختلافات ما بين أغني القبور النوبية وأفقرها كميةً أكثر منها نوعية ، ليس هناك إنفصال طبيعي جامد بين الإثنين . صورتنا ، من ثم ، لابد أن تكون لمجتمع تُحدد دلائله فوارق متزايدة من الثروة والسلطة ، لكن هذه الفوارق التي تحول به لم تتخذ شكلاً في مميزات اجتماعية موروثة .

الفوارق الاجتماعية أقل بروزاً على حد سواء في البقايا السكانية لثقافة المجموعة الثالثة . لقد حاول امرئ أن يُعطِل هذه الحالة كما يلي :

مسكان المواطنين الأثرياء ربما يُخَيَّر مكانها في مساحات الأرض الخصيبة بالقرب من ضفاف النيل وبالتالي تتمحى دونما أثر بسبب الفلاحة المكثفة لمثل تلك الأرض الغالية . وهكذا ما بقيت على قيد الحياة سوى المستوطنات المتواضعة للطبقة الأكثر فقرراً الواقعة على حافة الصحراء وهي لا تقدم سوى إبطاء لناس يُحِبُّون أوضاعاً في غاية البدائية : ذلك في حين أن صفة كثير من القبور تشير إلى أن مثل هذا (الرأي) لم يكن دالاً على الواقع بأي حال (٣٥) .

يبدو محتملاً ، رغم هذا ، أن بناء المساكن الواسعة - إن كان هنالك مثلها - ربما تحملوا معاناةً خاصةً ليجعلوا موقعها على أرض عالية أو بارزة ، بعيداً عن مبلغ فيضانات النيل الدورية . إن إيضاحاً أكثر قدرةً على الإقناع بالبقايا السكانية عليه أن يفترض أن كل النوبيين الأوائل ، مثل معظم الأقوام القبلية ، تقاسموا بشكل أو آخر معياراً مادياً عاماً للمعيشة ، وأن فوارق الثروة والسلطة إنعكست على المكانة الاجتماعية وفي مُتَرَفَات مثل الصروح الجنائزية بدلاً من ظروف المعيشة اليومية . لا نحتاج سفيراً بعيداً إلى جنوب النوبة لنجد أقواماً لا يزال ينطبق عليهم ذلك الحال .

لا تواجهنا في السَّجل الآثارى للنوبة السفلى البوارق المعهودة للنظام الملكى : لا قصور ولا قبور ملكية ولا شعارات ملكية متفقا عليها . غير أن النصوص المصرية من الأسرة السادسة وما تلاها تنص مراجع لحكام نوبيين . قام أوتى بتأمين عون زعيم الواوات في بناء صنادل خشبية (٣٦) : وفي واحدة من بعثاته للأراضي الجنوبية وجد حركوف ملك " يام في حرب مع " ملك " تيمه (٣٧) : في مناسبة أخرى زُود بدليل من " ملك " يام بينما كان يرتحل عبر أراضي ملك غريم (٣٨) . الفرعون مرثر في زيارة رسمية لأسوان تُقْبَل ضيافة حكام منجاي، إرتت، وواوات (٣٩) . ما يقرب من عشر مقاطعات أو تزيد قليلاً موصولة الذكر مع "زعماء" بمحتوى واحد أو آخر . معظمهم كانوا فيما يتراعى في النوبة السفلى ، مع أن أماكن إقامتهم لا يمكن أن تُثبَّت بتحديد (٤٠) .

جانبا عن بيئة النصوص هناك أسباب مُستتبطة أخرى ، للإعتقاد بأن المجتمع النوبى في ثقافة المجموعة الثالثة كان يسير في ظل سيطرة سياسية تزداد شكلاً رسمياً . لشئ واحد ، تظاهر السكان على أنهم كانوا أكبر حجماً سكانياً عنهم في أى زمن سابق ، وأنهم إزدادوا عدداً طوال فترة ثقافة المجموعة الثالثة . وفى نهايتها ، قُدر تريقر سكان النوبة السفلى بحوالى ١٧.٠٠٠ إنسان أو ثلث الرقم الحديث (٤١) . تُشعَب أسماء الأماكن في النصوص المصرية يحمل كذلك إحياءاً بالتعددية العرقية أو المحلية ، تصاحبه إمكانية التنازع . خارجاً عن مثل هذه الظروف تنبعث مؤسسة القرابة دائماً . إلا أن شاهد الآثار يجعل من الواضح أننا لا نستطيع التفكير في وجود " ملوك " في النوبة بنفس الحس الذى نفعله في مصر المعاصرة لها ، والحقيقة أن الحرف الهيروغليفى الذى أجرى به المصريون توصيف الحكام النوبيين ما كان نفس الحرف الذى طُبِّقوه على فراعنتهم . في الجنوب ، كما في مجتمعات قبلية بوجه عام ، كانت السلطة السياسية فيما هو محتمل لا تزال مقيدة باعتباريات للقرابة والطقوس ، وكانت مقيدة بتأكيد جغرافى - ربما في قرى منفردة على حد سواء . في اصطلاح النظرية السياسية الحديثة ، كان الحكام النوبيون في ثقافة المجموعة الثالثة رؤساء لقرى أو زعماء ، ما كانوا ملوكاً (٤٢) .

في غياب معطيات من الماضى أكثر تحديداً ، ربما يجب علينا أن نأخذ نموذجنا للنوبة القديمة من المجتمع والكيان السياسى لقبائل حديثة معينة في أعلى النيل : اقوامٌ لا تفتقر ظروفيهم المعادية إفتراضاً عظيمياً عن ظروف النوبيين الأوائل وينقسمون إشتغالهم بالقرى المُستقرق فيه محدداً . الأداة المعادية للحكومة وسط هؤلاء الناس هى " نسق العُصبة القطاعية " الذى يُوصَل به كل المقيمين في القرية معاً عن طريق شبكة من الإلتزامات القرابة (٤٣) . يمتد هذا "النسيج القرابى" ما وراء القرية ، كيفما اتفق : المقيمون بالقرى المجاورة ، وفى الحقيقة كل أعضاء القبيلة ، يمكنهم أن يذعوا مقياساً من القرابة بفضل تحدرهم المفترض من سلف مشترك . إن القيادة السياسية تُمارس بقسط وافر ، وأحياناً بوجه كلى ، من الرؤساء المعترف بهم من عائلات وعشائر ، يجلسون معاً إذا دعت الضرورة كمجلس للحكم ، فإذا وُجدت أى سلطة ممركة إضافية ، فإنها تكون قابلة للإيداع في شخص "زعيم للمطر" ووظائفه طوقسية مثلاً إنها سياسية (٤٤) . بمنحنا إيفانز - بريتشارد وصفاً بليغاً لمثل هذا النسق بين ظهرانى الشلك :

أكواخ الشلك . كأنما تتسلسل ، تماثل حَيَات عقور على خيط بإمتداد الضفة الغربية للنيل .. إنها زراعية ومستقرة كأعلى ما يكون ذلك عليه ، إذ أن مواجهتها للنهر بطوله تمنحها ماءً ومرعى كافيين في موسم الجفاف للإبقار القليلة ... التى يملكونها بالمقارنة [مع غيرهم] .

الأكواخ ... مبنية بمقدار ١٠٠ ياردة إلى ميل أو نحوه جانباً عن بعضها البعض على أرض مرتفعة موازية للنهر ، تتباين في الحجم من واحد إلى خمسين داراً ... كل كوخ مشغول بأعضاء عائلة ممتدة ، أو عشيرة صغيرة ، بزوجاتها ، وديار هذه الجماعة مُرتبة في شكل جردة حصان غير دقيقة الرسم تخطيطية بقر عامة . تولى الحيوان إليها في حالة الأمطار ، وتُستعمل كمئدى في كل المواسم ... رب كل كوخ ، وهو أيضاً رأس لعشيرته في المستوطنة التى تكون جزءاً منها ، يمثل الكوخ في مجلس المستوطنة ويتقبل من ثم رداء شرف من الملك أو من زعيم

جدير بالذكر أن الشك كان لهم حتى وقت قريب " ملك " قبلى، لكنه لم يكن يحيا في دولة ظاهرة، ولم تدفن عظامه في قبر ملكى عظيم . كانت جنازته بحق "شأنًا عشائريًا أكثر منه قومياً" (٤٧) . عن طريق المماثلة ، لا يمكننا بوجه كلى أن نستبعد إمكانية وجود نظام ملكى ممرکز في ثقافة المجموعة الثالثة ، لا شئ إلا لأنه لم يترك أثراً في السجل الأثارى .

وسط الأقوام البدائية ، سارت الزعامة القوية يداً بيد مع تطور عالٍ في القتال . إن الرأى العلمى إنقسم بحذو رغم ذلك فيما يتعلق بالإستعداد القتالى للنوبيين الأوائل . وصفهم امرى كسلالة غير عدوانية من ملوك البقر الجلوسيين" ، وأشار إلى الغياب الموحى بالأسلحة عن قبور ثقافة المجموعة الثالثة (٤٨) . غير أن آخرين أمعنوا النظر في أن النوبيين في هذا الزمن كانوا ذوى قيمة كقوات مرتزقة في مصر (٤٩) ، وأن هناك إقتراحات وفيرة عن ظاهرة النزاع المحلى في نصوص السيرة الذاتية لحرقوف (٥٠) . يجوز أن يضاف أنه ما من شئ على صعيد يعلى يماثل وجود «سلالة غير عدوانية من ملوك البقر» في القارة الإفريقية اليوم ؛ فكل القبائل التى تملك الأبقار متورطة في دورة متواصلة من غزو البقر ما بين القرى وما بين القبائل . إن هذا الإستعداد الحربى الشديد يجدر بنا على الأقل أن ننسبه إلى النوبيين القدماء على حد السواء .

شاهد مله للخيال أشد مما مضى بكثير من البأس العسكرى النوبى نجده في السلسلة العظيمة من القلاع التى بُع حكام مصر لبنائها في النوبة خلال فترة الأسرة الثانية عشرة ، موازنةً بطريقة أو أخرى للفترة الوسيطة من ثقافة المجموعة الثالثة . فإذا كانت هذه المباني الشاهقة قد قُصد منها أن تُخضع النوبيين في النوبة السفلى وترهبهم ، مثلما اقترح بعض الكتاب (٥١) ، فإن الآخرين ذكروا لابد أنهم كانوا بحق وحقيق خصماً مهولاً محكم التنظيم . بيد أنه ما من شئ في بقاياهم الأثرية يُبَيِّن مثل هذا الرأى . الإحتلال المصرى للأسرة الثانية عشرة سبقه رتلٌ من الإغارات على جسمى النوبة (٥٢) ، إلا أن هذه فيما يبدو حملات للذهب أكثر منها عمليات حربية أصيلة في مواجهة مقاومة منظمة . وحالما أنشئت الحاميات المصرية في النوبة السفلى ، قلقل وجودها مسرى الحياة الأهلية نوعاً ما بحيث لا نستطيع أن نستيقن أى قبور ومستوطنات «للمجموعة الثالثة» تنتمى للمسافة البالغة ٢٠٠ عاماً من الإحتلال المصرى وأيها يرجع تاريخه لأزمان باكرة ومتأخرة (٥٣) . هذه الإعتبارات ، مصحوبة بطبيعة وموقع القلاع نفسها ، تلهمنى بأن بناءها عَجَل به عدو أبعد مدى وأقوى شكيمة . سؤال سيؤخذ بطوله في الفصل القادم . ومادام أن النوبيين في النوبة السفلى معنيين ، يبدو أنهم عاشوا قرنين تحت خضوع تام للمصريين دون أن يكون لهم - عدا ذلك - الكثير ليتخذوه نحوهم .

### ملخص تفسيري

إستأنف المجتمع النوبى في ثقافة المجموعة الثالثة العمليات التدريجية للنمو والإستقرار الجولسى التى ظلت عاملة منذ بداية العصر الحجري بالرغم من أنها اعترضت إبان المرحلة المتأخرة من ثقافة المجموعة الأولى . ما من تقدم ثقافى ثورى كان معلماً لبداية الفترة الحديثة ، أو أى طور لاحق من مدتها البالغة ٨٠٠ عام . لقد كانت هناك رجعى مفاجئة للرخاء ، وتبدو هناك إعادة بالجملة للإقامة في النوبة السفلى ، لكن الإبتداعات التى تفاضل ثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها البكرة عن ثقافة المجموعة الأولى كانت قليلة وغير هامة . كانت هناك تحديثاً على درجة أعظم من الأهمية في وقت متأخر من الفترة مثل إبحال الطوب اللئى وتشديد أول قرى وتحصينات نوبية . بِنهاية ثقافة المجموعة الثالثة ، أنجز النوبيون في آخر المطاف نوع حياة القرية المستقرة التى ارتقت في الشرق الأدنى الألفاً سابقة من السنين .

المعيشة خلال ثقافة المجموعة الثالثة كانت فيما هو جلى مؤسساً على زراعة الصوب ، مُدعمةً إلى حد ما بتربية الحيوان والقص وصيد الأسماك . بمعنى الجزء الأخير من الفترة كان الفلاحون يتجون فواض بما يكفي لإستدعاء تعزيز وتحصين المستوطنات حيطاً من الهجوم ، سواء من نوبيين أمثالهم أم من أعداء خارجين . تراكم البقر المستأنس في أعداد مقيمة أصبح رمزاً للثروة ، مع أن مساهمته في الإقتصاد المعيشي ربما لم تكن كبيرةً فيما يحتمل . لقد كان مع ذلك بؤرة رئيسة لنشاط ديني وإجتماعي بإحتمال عال، وبذلك يمثل تحدياً أيولوجياً هاماً لثقافة المجموعة الثالثة .

ثم كان هنالك رخاء متزايد جعل من الممكن نشوء تراكمات معتبرة في الثروة الفردية ومعها فارقاً متنام بين الغنى والفقير . مع ذلك، فهو حال مجتمع منساب وإقتصاد غير مؤكد دون التخصص المهني والإحتكار الدائم للثروة والسلطة في أيدي قليلة . في كافة الأبعاد المتعلقة بثقافة المجموعة الثالثة لا نجد شاهداً واضحاً لتباين طبقي أو خروجاً لأرستقراطية . قادة البدنة والقرية كانوا في بعض الأحيان أقوى بما يكفي لكسب إعتراف مصري ، غير أنه ليس هنالك اقتراح بأن سلطتهم تعدت المحلية ، ولعلها كانت مُكيفة بالتزامات تقليدية للقرابة والطقوس . إن التهديد بتدخل مصري أو إنفاذه ربما اجتمع مع أحوال إقتصادية وإجتماعية بدائية لتحول دون ظهور نظام ملكي متركز في النوبة السفلى أثناء أي زمن في ثقافة المجموعة الثالثة .

الاعمال الإستعمارية المصرية المحصورة بدايةً في النوبة السفلى ، سُرعان ما وجدت حقلاً أكثر خصباً للإستغلال بعيداً صوب الجنوب ( انظر الفصلين السابع والثامن ) . بعد ذلك كان عناء مصر الرئيس في المنطقة الشمالية ببساطة هو أن تبقى طرق تجارتها مفتوحة للنوبة العليا والصحارى . إستحصل السكان في ثقافة المجموعة الثالثة أهميةً صغرى وحسب في المشروع العسكري المصري، مع إنهم ربما أدوا بعض الضرائب وأعمال السخرة أثناء فترة الإحتلال العسكري المصري ، وكانوا في كل الأزمان سوفاً لبعض من السلع المصنعة بقيمة أرخص في القطر الشمالي . كانوا بذلك فرانس موسمية لحملات النهب، بالتحديد تحت ظل الفراغة المحاريين في الأسرة الحادية عشرة وياكورة الأسرة الثانية عشرة .

وبينما أضحت الثقافة المادية للنوبيين مُتمصرة بشكل متزايد خلال ثقافة المجموعة الثالثة ، تَخلفت مؤسساتهم الإجتماعية والسياسية . إلى اليوم الذي باتوا فيه رعيةً صميمةً للفرعون ، ظلت نظرة النوبيين ديمقراطية وقبليةً بحويوة .



## الفصل السابع

### المدد الصاعد للإمبريالية

مصر في النوبة، ٣٢٠٠ - ١٨٠٠ ق.م

"كوش البائسة"، النعت صفة التكرار في نصوص الفتح المصري، يقتر في بلاغة عن الإزدراء الذي دائماً ما أحسّت به أقوامٌ حضارية نحو جبريتهم الأقل حضارة. شيءٌ من نفس المسلك منقول في عبارة القرن التاسع عشر "إفريقيا الأحلك". السواد الإفريقي، كما تصوره أصلاً الفيكيتوريون، كان أمراً يتعدي كونه لوناً للبشرة؛ لقد كان ظلمةً للعقل على السواء ومن هنا تضمن التبرير "مهمة حضارية لأوروبا - حقيقةً كانت في جانب منها، وفي جانب آخر ذريعةً لإستعمار مُستغل. الإيماء المتكرر بما لا اداعي له للتخلف النوبي هياً للمصريين القدماء، أيضاً علي نفس النحو، إستغلال جبريتهم الإفريقية بحسبٍ من التبرير الأدبي<sup>(٥)</sup>

من أول نظرة يبدو الإعتقاد المصري بتفوقهم مُستدعيً بمنجزاتهم المادية. وفي حين كان الفرعون محاطاً بكل نوع من أنواع الترف، ورفع رعاياه بعضاً من أكثر الصروح في التاريخ صموداً لصالحه، ما تغيّرت أحوال الحياة في النوبة إلا قليلاً منذ العصور الحجرية. بغض النظر عن ذلك، فإن مسلك المصريين ينضج إلى حد ما من العنصرية المبالغ فيها بسبب النعمة/المستحقة، إذ أن نهوضهم نفسه من الحياة الوحشية إلى الحضارة كان وجيز الوقوع وخاطفاً. الثقافات الأولى من العصر الحجري الحديث في النوبة السفلى - بدارية، وفيومية، ومريمية - يصعب القول أنها كانت أكثر تقدماً من ثقافات النوبة وأجزاء أخرى من إفريقيا - ربما كانت فلاحية المصريين أكثر إنساقاً على وجه التدقيق مما فعل النوبيون، لكنهم كانوا بقدر متساوٍ جهلاء بحياة القرية التي تضج بالنشاط والتبادل السلعي المتنامي في الشرق الأدنى المعاصر. وحتى صوب نهاية أزمان ما قبل التاريخ، في الفترات الأمراتية والجرزية (أو نقادة الأولى والثانية)، لم يكن هنالك إسراعٌ معين للحياة على امتداد النيل الأسفل. أصبحت المستوطنات أكبر وأكثر دواماً، أدخل مِعمار الطوب النُّي، ارتقى جمالياً وكذا فنياً بصنع الفخار والغزل، وبلغت أدوات النحاس مبلغ الإستعمال في نفس الوقت الذي بلغ فيه قطع الحجر ونحته ذروتها من الإمتياز الفني. بدأت مصر أخيراً في سبق بقية إفريقيا وإن تحقّق ذلك الشموخ في المحيط المادى الذي ما كان له أبداً أن يُعْتزل<sup>(١)</sup>.

في مصر، بمدىً يبعد كثيراً عما بالنوبة، أدى تنامي الثروة السكانية إلى نمو القوة السياسية وتعزيزها أصبح الزعماء الصغار أرباباً لحروب إقليمية، يتنافسون للسيطرة على أقاليم أكبر فأكبر. في تدرج، ربما على أنقاض عدة أجيال، تغلب قادة أسرات تينيس في مصر العليا على غرماهم وبسطوا هيمنتهم من أسوان إلى البحر. في ذلك الإنجاز وُلدت الدولة الفرعونية وحضارة البلاط الملكي في مصر. لربما كانت إرتقاءً طبيعياً لا مَحِيص عنه بالنظر إلى الإنسجام الثقافي للصيق (واللفظي إفتراضياً) الذي يبدو أنه سِمة مميزة للمصريين في العهود الأولى<sup>(٢)</sup>.

أما إن الحضارة المصرية كانت متأثرة بنموذج حضارة ما بين النهرين فيبدو مما لا جدال فيه.

(٥) فَصَّلنا وصف التبرير بالادبي - وليس بالأخلاقي، لأن عنصرية الفكتوريين وإستغلال الإستعمار للقارة الأم إفريقيا وتقد المؤلف الحازم لما حاق بالنوبيين من إساءة تجعل من التبرير كما هو حقيقة - أمراً غير أخلاقي - المترجم.

على أنه حتى في ذروتها كانت الحياة على النيل شيئاً نائياً في بُعدِه عن الإنتفاض الصاخب عالمي الأفاق ( الكسمبوليتاني ) في الشرق الأدنى . بقيت مصر لأكثر من ألف عام أرضاً لقطر من الولايات ، دون مدن عظمى وما بها من حياة تجارية وإجتماعية معقدة <sup>(٣)</sup> . أعلى هذا المنظر الريفي الرعوى يتراس الزعيم القبلي الأعظم ، وال بيتة الولاية . فإن كان في مقدور أكثر الملوك الفرنسيين خيلاء أن يتباهى بقوله " الدولة ، إنها أنا " ، يكاد في وسع الفرعون أن يؤكد " الحضارة ، إنها أنا " .

ليس هنالك إنجاز لا يحمل دمة الحاكم للحضارة المصرية في أي ميدان من ميادين الإجتihad إلا بصعوبة : جنوداً ، ومعلمين ، وصناعاً ، ورجال دولة كانوا على حد سواء خُدّامه الشخصيين . وبنفس القدر ، ما سارت المنتجات الوفيرة والأخذة بالألباب للصينة المصرية ، في غالبيتها ، لآماكن الأسواق ، لكنها ذهبت لتزين مقابر الملوك والنبلاء .

في البداية لم يسترح الصرح الشامخ للبهاء الفرعوني على هيكل معقد . ما كان صون البهجة الشاملة لحضارة البلاط جارياً بالتبادل السلعي والصناعة إنما بإقتصاد زراعي أديرَ بصلابة ، الفرعون والنبلاء كانوا أكثر من انتفع به . طيقاً « لمصادر رسمية » ( أي لنصوص السيرة الحياتية للملوك والنبلاء ) إستفاد المزارعون كذلك من إحتوائهم في حق نظام إقطاعي : صاروا مستحقين للحبوب من مستودعاتها الملكية في أزمان المجاعة ، وللمعمل في الصروح الملكية وأعمال أخرى للدولة خلال موسم الخمول الزراعي . توفير الأمن الإقتصادي ظل تسويقاً ذاتياً ماثوراً للأنظمة الإستبدادية ، كيفما اتفق الحال ، ولنا على حرية لتسائل ما إذا كان الفلاحون المصريون قد قدروا على صعيد الواقع العملي المنافع التي استمدوها من العمل بالسخرة . بتقدير نهائي لا يبدو أن مستواهم المعيشي اليومي تحسّن بإخضاعهم للسلطة الفرعونية : القبور العادية في الدولة القديمة تكاد تخلو من القربان ، في نفس الوقت الذي كانت القبور الملكية والنبيلة تبلغ فيه بروجها السنية .

بالنسبة للرجل في الحقل ، كان الفرق ما بين العصر الحجري الأقل حضارة والمدنية ظلاً أكثر منه مادة محسوسة . ظلاً للوصاية أحياناً لكنه في معظم المرات بلاط قمعي لحاكم إستتاري ، بنهال في طرائق مختلفة على المصريين وعلى النوبيين . جلب للفلاح أماناً إقتصادياً من لُون ما ، لكنه كان ذا ثمن فادح لا نهاية له في تحميله أعباء الجندية وهلكه بالضرائب . للنوبي عُرضت سوانح موسعة للتجارة ، لكنها مصحوبة بإبتلاات تحثن النهب والإسترقاق . قروناً من الإخضاع للفرعون حوّلت الشعبين إلى تلافيف من البروليتاريا الداخلية والخارجية للإمبراطورية المصرية ، ركوناً لعبارة أرنولد توينبي الأخاذة <sup>(٤)</sup> .

## نمط الإمبريالية المصرية

حالما أقيم الحكم الفرعوني مكنةً ، أصبحت سياسة مصر الخارجية متعائلةً مع مؤسساتها الإستبدادية الأخرى . فبينما كان يُحصل على المواد الخام المطلوبة من وقت لآخر عبر تبادل سلعي سلعي ، زحفت جيوش الفرعون أكثر الأحيان قُدماً واستولت على ما تشتهي من أراضي الجوار . وفيما عدا الشعوب المراوغة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، قلما ريمت أمم أجنبية طويلاً من الحركة مع مصر القديمة .

كانت الإمبريالية المصرية - إقتصادياً وسياسياً - عاملاً مستمراً في التاريخ النوبي لأكثر من ٢٠٠٠ عام من تأسيس الدولة الفرعونية حتى قرون تحللها النهائي . خلال ذلك الزمن تقلب مدى النفوذ المصري وكنهه تقلباً معتبراً ، كاشفاً عن قوة أو ضعف نسبين للفرعون إلى جانب مصلحته الإستهوانية تجاه أنواع متنوعة من سلع الثرف . الأطوار الرئيسية الثلاثة للقوة الإمبريالية - الدولة القديمة ، والوسطى ، والجديدة - شهدت كل واحدة منها مرحلة مختلفة من التطور الإستعماري في



النوبة . إلى درجة صارخة ، تعادل هذه المراحل التوسع الإستعماري للقوى الغربية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر .

الدولة المصرية القديمة كانت عصباً من الإستكشاف، مُشخصاً في البداية بحملات إغارة وتجارة متباعدة وغير منسقة إلى داخل الأراضي الجنوبية . ومع حُسبان إستثناءات صغيرة (ستذكر فيما يلي أدناه) ما بُذل جُهدٌ لِمَد سيطرة سياسية مصرية أو لإنشاء علاقات ودية مع الأقوام النوبية ، عدا بعض الزعماء في التخوم ربما بضاحية أسوان المباشرة <sup>(1)</sup> .

الدولة الوسطى فترة من إحتكار تجارى مسلح، يعمل عبر واحدة أو أكثر من محطات تجارية مقامة في الداخل . عناؤها الرئيس لم يكن إخضاعاً لإقليم أو للسكان الوطنيين ، وتُرك الإنتاج (خلاف حالة المعادن) في أيدي نوبية . الحيوان ومنتجات الغابات ، التي ربما كانت لا تزال أعظم أهمية من المعادن في هذه الفترة ، إستحصلت من خلال التمويل من ممولين وطنيين ، بما يعنى بكل الإحتمالات حكماً محليين . لم يكن هنالك حركة ذات قيمة أو أهمية للمستوطنين المصريين في جوف الأراضي الجنوبية . أياً كان الأمر، جُرس جهدٌ عسكري ضخم لحماية طرق التجارة إلى الجنوب ، وتأمين إحتكار مصرى كامل للتجارة على امتدادها . هذا النوع من الإمبريالية الإقتصادية يُذكر بقوة بكل من تجارة الفراء الفرنسية في كندا وبالمراحل الأولى للإمبراطوريات البرتغالية والهولندية وليدة البحار في الشرق، بموانئها " ذات المصنع " على سواحل إفريقيا ، والهند ، والجزر الهندية .

وفي النهاية ، رأت الدولة الجديدة توسيع الإمبريالية من المجال الإقتصادي إلى السياسى . مدّت السيرة المصرية المباشرة فوق الإقليم النوبى وأهله، طاردة أو مُخضعة الحكام الوطنيين الذين كان المصريون من قبل على قناعة بالتعامل معهم . التحكم في إنتاج المواد الخام ، وربما كذلك الزراعة ، إنتقل مباشرةً لقيضة المصريين ، وأضحى النوبيون بدورهم فلاحين . هنا ، إذن ، إستعمار مكتمل النطاق وإنشاء إقتصاد " مزروعة " ، مقارناً بمراحل متأخرة للإستعمار الأوروبي في أنحاء كثيرة من العالم .

المنتوجات الإفريقية التقليدية التي استُغلت القارة من أجلها منذ زمن دهرى سحق كانت الذهب، والعاج، والعبيد . أول القائمة المذكورة وثانيها، أياً كانا ، يصلحان وحدهما لتروّس قائمة طويلة من منتجات المعدن والحيوان التي برزت في مقدمة التجارة الإفريقية . يمكننا أن نُدرِك على أفضل وجه نمط التوسع الإستعماري المصرى في الألف الثانية ق . م. جنباً إلى جنب مع توسع القوى الأوروبية في الماضى القريب ، إذا ما اعتبرنا موارد إفريقيا تحت ثلاثة عناوين أكثر عُمومية : موارد حيوانية، وموارد بشرية ، وموارد معدنية . اكتسبت هذه الموارد تقليدياً بثلاثة طرائق مختلفة على الأرجح، الأول بالتجارة ، والثاني بالإغارة ، والثالث بالإستعمار . لعب الطلب المتضارب للأشكال الثلاثة من هذه السلع من ثم دوراً ما في الطبيعة المتغيرة للعلاقات المصرية . النوبة وسوف نفترها في إيجازٍ هنا وفق التسلسل الزمني لتطورها .

### منتجات الحيوان

يُحتمل أن المنتجات الحيوانية كانت أسبق السلع تحركاً من النوبة إلى مصر . وكما رأينا في الفصل الخامس ، فإن القبور معنعة القدم في ثقافة المجموعة الأولى النوبة تقدم شاهداً على تجارة مزدهرة مع مصر، حتى من قبل توحيد الدولة الفرعونية . في هذه الأيام الأولى غير المعقدة ما كان هنالك بالتأكيد إنتاجٌ منظم للذهب، ومن غير الجائز، أن المجتمع والإقتصاد السائدين في مصر ما قبل الأسرات كان لهما مجال كبير لطلب الرقيق النوبى . إننا نُدرك لنسُلم، لذلك، بأن منتجات برية إختلفت مؤخراً من وادى النوبة السفلى، كانت مواد عمادية لتبادل مصر السلعى الباكر مع الجنوب.

وفيما ذكر قاردينر بين المنتجات الإفريقية البارزة علي سبيل الإحتمال في هذه التجارة، منتجات كانت عاجاً، وأبنوساً، وبخوراً، وزيتاً عطرياً، وجلود نمور<sup>(٧)</sup> . في أيام أخيرة صدرت أنواع أخرى كثيرة من الجلود وبيض النعام وريشه، وعام فرس البحر من أوعر مناطق النوبة .

التجارة النوبية الأسبق، الجارية قبل قيام دولة مصرية قوية ، تنامت - فيما يُرجح علي يد أصحاب الأعمال الخاصة - كمثل ما كتب راينزر - السوق المحلي وآلئ سيره - تلك العملية المتعبة التي تُعْبَرُ فيها السلع النهر صعوداً ونزولاً عن طريق تبادلات بين التجار الذي لا يتراوحون إلا من سوق محلي واحد إلي الثاني جيئةً ونهاياً . المتبادلات من سوق لآخر يمكن إستقرارها بنفس القدر من أزمان ما قبل الأسرات وتجري اليوم بين القرى النوبية . بعض تجار اليوم الحاضر يتراوحون علي قدم المساواة من أسوان إلي حلفا ، وقوفاً بكل القرى<sup>(٨)</sup> .

قدرٌ عظيم من التجارة الخاصة في منتجات الحيوان والغابات ربما سار حملة في كل أزمان التاريخ النوبي ، وبالتحديد إبان تلك الفترات ( مثل الفترات الوسيطة الأولى والثانية ) عندما كانت الحكومة المركزية من الضعف بحيث لا تقوى علي فرض إحتكار . ومهما مضى الأمر ، فإن البعثات التجارية الجنوبية العظيمة التي نملك عنها تدويناً من الدولة القديمة وما أعقبها، كانت بأجمعها منظمّة من ناحية الفرعون او لمصلحته . بالتركيز المتضاعف للثروة في أيدي قليلة ، ربما مثل الملك وخواص بلاطه السوق الحقيقي الوحيد لسلع الترفية الأعلى من الجنوب . هكذا، مثل غالبية تجارة مصر الخارجية ، باتت التجارة النوبية أعمالاً ملكية بدرجة كبيرة إن لم تكن مطلقة .

## الرقيق

يحتمل أن نحت الملك جبر في الأسرة الأولى - وهو أقدم وثيقة في التاريخ النوبي - مما يدل بالمصادفة علي استغلال تجارة الرقيق<sup>(٩)</sup> . وسواء كان وقوع الأسرى البشريين هو الذي جَذَبَ هذا الفرعون الباهت إلي داخل الأراضي الجنوبية ، أم لم يكن ، فقد كان الأسرى جزءاً من مغانم حُمِلت، إذ يُبين مكتوبه المنحوت بجبل شيخ سليمان أسيرين علي الأقل موثوقين إلي جانب القتلى الذين يفوقونهم عدداً . في معظم النصوص العسكرية اللاحقة التي تخاطب النوبة إلي زمن الدولة الجديدة يظهر الأسرى بعدد متكاثر . واضح أنهم كانوا باعثاً رئيساً لعمليات عسكرية مصرية في الجنوب . مثل هذه العمليات مُوثقة من الأسرات الأولى، والثانية، والرابعة، والسادسة، والحادية عشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرين<sup>(١٠)</sup>، او بكلماتٍ أخرى أينما كانت قوة الفرعون في أشدها . أياً ما كان الغرض الظاهري لهذه الحملات ، يحتمل أن كل واحدة منها أحدثت كنائج جانبى محصولاً مُعتبراً من الأسرى.

بعض العبيد النوبيين إُسْتُخُوذَ عليهم بلا شك من خلال التبادل السلعي (أي، إُسْتُخُوذُوا من جانب النوبيين أنفسهم ثم هاجروا بهم للمصريين)، لكن العدد الأعظم يبدو أنه أُسِرَ مباشرةً من قِبَل جيوش الفرعون . يمكننا لذلك أن نفترض أن تجارة الرقيق كانت عملاً ملكياً لمدي عريض، إن لم تكن إحتكاراً . أما ما كانت عليه أهميتها الإقتصادية والإجتماعية فصعب تقديره . عدد الأسرى المزعومين في بعض نصوص الفتح يُشكل أكبر مبالغة مهولة بما لا ريبه فيه؛ كمثل يقرب أن يتساوى سجناء سنفرو البالغ عددهم ٧.٠٠٠ كما ادّعى إِبْنُ الأسرة الرابعة مع العدد الكلي المُقدَّر لسكان النوبة السفلى في ذلك الزمان<sup>(١١)</sup> . كذلك لم يكن عمل الرقيق أبداً مُنْهَظاً ذا قيمة أو أهمية للإقتصاد المصري . من الجانب الآخر ربما كان امتلاك عدد كبير من العبيد النوبيين المُسخَّرين للخدمة المنزلية رمزاً هاماً للمكانة بالنسبة للنبلاء المصريين، علي غرار ما كان عليه بوجه عام أزماناً لاحقة لملوك ونبلاء شرقيين . أكثر من أي شئٍ آخر، رغم ذلك، ربما كانت هناك حاجة للعبيد النوبيين

لتعزيز صفوف الجيش المصري نفسه<sup>(١٢)</sup> . إن نفس الإعتبار كان سيقود إلى استبعاد النوبة في مصر في وقت قريب كالقرن التاسع عشر (قارن الفصل الثامن عشر)

## الموارد المعدنية

تَمَلَّكت الفراعنة المصريون المتأخرة شهوة مُستعرة للذهب ، فأصبح الأهم والأشد مداً للعبيون من بين كل المنتجات من الأراضي الجنوبية. «ذهب الواوات» (ربما النوبة السفلى) و «ذهب كوش» (النوبة العليا) تُترسم خطوطهما مجّداً في وقائع الدولة الجديدة<sup>(١٣)</sup> . مع ذلك، ليس هنالك مؤشراً على أن هذه الصناعة كانت متطورة في إتساع قبل مجئ الدولة الجديدة . إننا نعلم الآن ، أن تعدين الذهب في النوبة سبقه تعدين النحاس وتقييب الداويريت ، اللذين بدأ كلٌ منهما في زمن مبكر كالدولة القديمة.

كل من العمليات التعدينية في النوبة ، سواء إكانت تعديناً أم تقييباً ، يبدو أنها كانت أعمالاً للدولة المصرية منظمّة ومُشرّقاً عليها من مسؤولين مصريين، مع أن النوبيين ربما كانوا يوفرّون قوة العمل غير الماهرة . النحوت التي عُثِر عليها في مناقب الداويريت وفي كثير من مقاطعات التعدين لا تترك شكاً أن المسؤولين الذين اشرفوا عليها كانوا مسؤولين لدى الفرعون مباشرة<sup>(١٤)</sup> . هنا إذن عمل يشتمل قدراً معيّنًا من الإستعمار الصريح : هيئة ذات تخصص من المشرفين ، مستكشفين ومُتقيّين مهرة ، وإفراضياً قوة عسكرية قادرة على حمايتهم من وطنيين يضمرون العدا .

وبإيجاز طُورت ثلاثة أنماط مختلفة من الصناعة الإستخراجية في النوبة القديمة تحت إستشارة مصرية ، كل واحدة مستقلة بطريق مختلف نوعاً ما . حُصِّل على منتجات الحيوان الوحشي والغاية عبر تجارة أصلية جيّنة وذهاباً يُفترض أنها كانت متبادلة النفع . لقد كان ذلك التبادل السلمي فيما يحتمل هو الذي أتاح عرض معظم السلع المصرية التي استقرت في أيدي النوبيين الأرقاء، من جانب آخر، إستعبدوا بحملات إغارة ما عادت على النوبيين شيئاً سوى المعاناة والحرمان . أخيراً، إستُحصِلت الموارد المعدنية عبر أعمال مصرية مباشرة موطّعة على تربة نوبية، جاءت نفعاً بخساً للسكان الوطنيين للمرة الثانية .

في كافة الفترة الفرعونية، كانت صورة العلاقات المصرية - النوبية التي خرجت من النصوص الهيروغليفية واحدة كأنها بلاه بلا شفاء . سَلِمَ الفراعنة دائماً لأنفسهم بعدالة حكمهم في أرضهم<sup>(١٥)</sup>، لكن أياً منهم لم يُباه أبدًا بإقامة عدالة للنوبيين . سوى أنه من الضروري أن يُذكر أن الوقائع الملكية والرسمية لا تحكي القصة كلها . شريكاً مع معظم الإمبرياليين مَجْد المصريون القاهر وعَيروا التاجر؛ كانت إنتصاراتهم في ميدان المعارك، وليس في السوق هي التي حفلوا بها وهولوا من شأنها على وجه الترجيح .

عندما نعتبر محتويات القبور النوبية في ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة، ينعكس لنا جانب آخر من الصورة . فيما عدا ما وجد ربما في المرحلة المتأخرة من ثقافة المجموعة الأولى، تبعث غزارة السلع مصرية الصنع في هذه القبور على الدهشة . إن سجلًا خاطفًا لعدد ١.٤٨٤ . قبراً «للمجموعة الثالثة» حقّقها المسحان الآثاريان الأول والثاني في النوبة (انظر الفصل الثالث) يكشف أن نصفها بالتقريب كان قد احتوى مادة أو إثنتين من أصل أجنبي . العقود، والفوايش، وأدوات تجميل أخرى كانت عظيمة الشيوخ ، توجد في ٥٢٨ من ١.٤٨٤ . قبراً، أو أكثر من ثلث الجملة . قبر واحد من بين كل خمسة قبور إحتوي بالمثل واحداً أو أكثر من أواني الفخار مصرية الصُنع . هناك لوحات دهانية الألوان ، وأواني مرمرية، وأدوات مُشكلة من النحاس والبرونز، أقل إنتشاراً، لكنها لا تزال بادية للعيان . ولأن الغالبية العظمى من قبور المجموعة الثالثة، كانت منهوية نهياً ثقيلًا، وإن المحققين

في حالات كثيرة أجروا تصفيةً للبناء الطلوى وحده ولم يجروا تصفيةً على ممر القبر، يبدو أن النسبة الأصلية للبضائع مصرية الصنع ربما كانت لا تزال عالية . هذه السلع بكل تأكيد ما جاءت إلى النوبيين هدايا، ولا يُحتمل أنها كانت تُستقبل دائماً كتعويض للعمل، الأكثر احتمالاً، أنها تتضمن دفقاً متواصلاً لتجارة سليمة، متبادلة بين مصر والنوبة طوال معظم الفترة الفرعونية، على الرغم من تقلبات الحظ السياسي والحظ الإجتماعي .

في الفصلين السابقين عالجتنا وجوهاً مختلفة للتجارة والإغارة المصرية ، وأثارها على المجتمع والإقتصاد النوبيين. في هذا الفصل يبقى علينا أن نعتبر الشاهد على الإستعمار المصري الصريح في النوبة خلال ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة . أنشطة لم يكشف عنها لى مدى سواء في السجل الهيروغليفي أو في البقايا الأثرية للنوبيين المعاصرين. إن معرفتنا لها تأتي من مجموعة أخرى من البقايا الأثرية لأقربى بينها، تركها مصريون جاعوا ليعيشوا ويعملوا في النوبة .

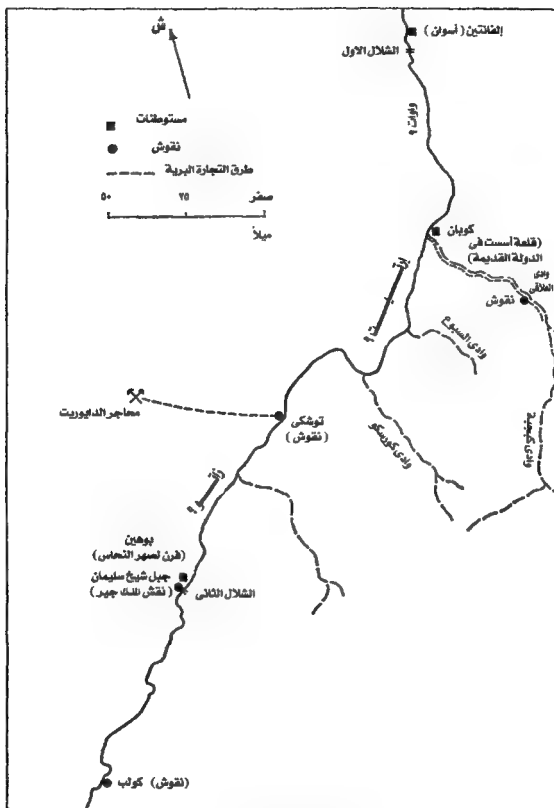
### الصناعات المعدنية في الدولة القديمة

الدايوريت، صخرة متبلورة صلبة سوداء اللون رماديت، كانت المادة المفضلة للتماثيل والنُصب في الأسرات المصرية الأولى. لقد تحُصل عليها من مصادر عديدة، واحد منها موقعه في الصحراء النوبية حوالى أربعين ميلاً غربى أبو سمبل . وفقاً ل كيز :

ما يوسع المستكشف القديم أن ينجزه يظهر في إعادة الإكتشاف الحديث المكان الذى جاء منه في الأسرة الرابعة الدايوريت المستعمل لتمائيل شفرن في معبدته الجنائزى وربما كذلك الكتل المرصوفة في معبد سيبس الجنائزى . أسمت فرق العمل هذا المكان توريةً مكاناً لنصب فخ سيبس ، كما لو كان واحة خصيبة . إنه يقع في الصحراء اللببية التعيسة ... شمال غرب أبو سمبل ولا يبعد كثيراً عن درب القوافل الذى قاد من أسوان عن طريق واحة دنكل إلى نخلة و (غرب السودان) . المكان مُعَم برجم من الحجارة . تحمل اللوحة الموجودة هناك أسماء سيبس وجدفدى مبرهنة أنه كان مُستقلاً من قبل في زمن صمت فيه الأثر (باسوان) . على مقربة يقع منجم لمعان الجُنُشت . إن درب النقل الذى لا يزال في الإمكان تمييزه يبلغ النيل في جيرة توشكى، إلى الشمال قليلاً من أبو سمبل (الشكل رقم ٢٣) من هنا بالنهر إلى الجيزة مسافة تمتد لأكثر من ٧٥٠ ميلاً<sup>(١٧)</sup> .

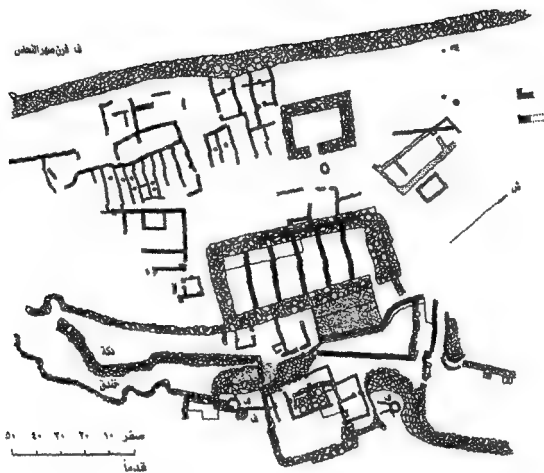
ما وُجد أثراً لمستوطنة مصرية دائمة سواء في المحاجر أم على ضفاف النهر بتوشكى، مع أن شظايا جرة أختام طينية و لوحة حَجَرِيَّة، يعود كلاهما لتاريخ الدولة القديمة، وُجدا في المكان المذكور [أي توشكى]<sup>(١٧)</sup>. ومع أخذ الطبيعة المتقطعة للطلب على الدايوريت ، يبدو محتملاً بما فيه الكفاية، أن نشاط التنقيب ما كان يجرى إلا موسمياً لفترات مختصرة نسبياً، بعثات ترسل على وجه الخصوص لذلك الغرض .

سابقاً لأقرب حملة أثرية، كان المسلّم به عامة أن النشاط المصري في النوبة إبان الدولة القديمة قُيدت حركته عدا عطفات محدودة على فترات، للتجارة، أو الإغارة، أو التنقيب . نعلم الآن، مع ذلك، أنه أنشئت مستعمرة مصرية واحدة على الأقل على تربة نوبية خلال الأسرتين الرابعة والخامسة . وتوجد في بوهين على الضفة الغربية للنيل أميالاً قليلة في إتجاه مجرى النهر من الشلال الثانى ، بقايا موقع لمدينة ذات حجم كانت محاطة بسور حجرى ضخّم غير دقيق البناء. كانت المبانى متناسبة، مُشيدات مستطيلة من حجر وطنى، مصرية بمستوى مُدرك في خصائصها ومختلفة للغاية عن أى شئ حاوله النوبيون حتى قرون لاحقة. بعضها كان فيما يبدو إقامات سكنية، بينما أخرى مشاغل للعمل لا تخطئها العين (الشكل رقم ٢٤) . ومع أنها خَرِبَةٌ لأقصى حد، مثل البقايا المتعاصرة لثقافة المجموعة الأولى النوبية ، بالإمكان أن تُدرّج مدينة بوهين في عصر الدولة القديمة بالنسبة لكل من الفخار الموجود بها وسدادات الجرار الطينية التى تحمل شعارات ملكية لعدة فراعنة



شكل رقم ٢٢

بيان الأنشطة المصرية في النوبة السفلى على عهد الدولة القديمة



شكل رقم ٢٤  
تصميم لجزء من مدينة في الدولة القديمة، بوهين

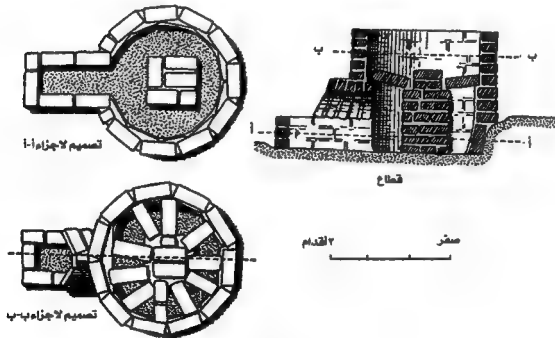
من الأسرتين الرابعة والخامسة . عكست الحفريات فيما وراء المستوى الرئيس للإحتلال آثاراً لمبانٍ أقدم في أن واحد، يمكن أن يعود تاريخها إلى عهد بعيد كالأسرة الثانية (١٨) .

بينما كان حضور مستعمرة مصرية في بوهين في الدولة القديمة مثاراً للدهشة، فإن الغرض الذى من أجله أنشئت يُعد أشدّ بحثاً على الإندهاش . لننقل من تقرير المنقب :

كُتبت بلاطات حجر خشنة في أرضياتٍ لحجرات من النوع الصغير ، لإستعمالها في سحق الخام ، مقرونةً مع بقايا لبواتق فخارية وقوالب للصبّ، تبين إننا كنا نُصَفَى مساحةً من المدينة كانت فيما هو واضح مصنعةً لتشغيل المعين . أيدت هذا نفاية الفحم الحجري والنحاس مصحوبةً بقطرات من نحاس نقي تتلى من البواتق ....

... تحت متر واحد من الرمل المطروح أمَلْنَا اللِّثَام من هيكل حَجَرى حسن البناء بأسوار واقفة على ١.١٥ متراً من الإرتفاع . على كل جانبٍ منها ، بمستوى لا يزال منخفضاً ، إكتشفنا ثلاثة أفران جيدة الحفظ كان يُسهر بها خام النحاس (١٩) .

كانت الأفران هياكل أسطوانيةً من الطوب، مفتوحة السقف، حوالى ٣ أقدام قطراً و ٢ أقدام علواً . في النقطة التى تتنصف ما بين قاعدة الأسوار وقمتها، تسمح أرضية مقبوبة من الطوب النّى، تقف على عمود مركزي من البناء، لبواتق الصّهر بأن توضع مباشرة على النار في الغرفة السفلى (الشكل رقم ٢٥) . كما يأتى من ممّ مغطى يقود إلى الغرفة السفلى بإيقاد الفرن وتنظيفه (يكفى للدهشة أن هذه الفُتُحات كانت موجهةً في كل حالة بعيداً عن الريح ، ولذلك لا يمكن أن تكون قد خدمت لتزويد من التيار الهوائى على النار) . إن قمانن للفخار مزدوجة في غرف الحرق مماثلة للتصميم لأفران بوهين كانت تُستعمل في النوبة طوال الفترات ما بعد الفرعونية (٢٠)، وربما لا تزال تُرى في أعمال الخزف في القاهرة القديمة .



شكل رقم ٢٥

فرن نصهر النحاس من الدولة القديمة في بوهين

يوجز البروفيسور امرى، المكتشف، إكتشاف بوهين كما يلي :

١ - كانت المدينة مستعمرة مصرية خالصة، إذ بالرغم من أن «المجموعة الثانية» النوبية حاضرة ، فإن ٩٥ بالمائة على الأقل من شقوق الفخار مصرية. (٢١) .

٢ - كان شغل النحاس واحداً من صناعاتها، ولذا ربما نستنتج أن رواسب هذا المعدن يمكن أن توجد في مكان ما في السودان الشمالى .

٣ - كانت خدمة إرسال منتظمة للغاية مصونة مع مصر طوال الأسرتين الرابعة والخامسة، حكماً على ذلك من تكتل البزدي في جرة الأختام .

٤ - ... أسماء الملوك التالية تُعرف عليها بالأختام وشقوق الفخار المكتوبة : خفرع، منقرع، أوسركف ، سهورع، نفراركارع ، نسرع (٢٢) .

أول مستوطنة مصرية دائمة في النوبة كرسيت ، إنَّ، لإنتاج النحاس وليس للذهب الذى اهل ببروز عالٍ في تاريخ نوبى لاحق . حتى هذه اللحظة يقف واحداً من الحالتين المعروفتين لتعدين النحاس في النوبة . أما الثانى فيمثله منجم في الصحراء شرق كُبان، في الشمال الثانى للنوبة، الذى يُعتقد أن تاريخه لا يرجع إلى عهده بعيد كالدولة القديمة (٢٣) . في الزمن الحاضر ليست هناك رواسب معروفة للنحاس في السودان الشمالى، ويبقى مصير الخام المذاب في بوهين سراً . والمفترض أنها كانت تُسحب من نقطة ما في الصحراء الغربية ، ربما على مسافة معتبرة من النيل، لأقرب نقطة على ضفة النيل حيث الطاقة والماء وفيرين للصحراء .

يُكون موقع مستوطنة بوهين نفسه شيئاً من الغز . إنها مقامة على بُعد أميال قليلة من الشلال الثانى، الذى يدل على مطلع الملاحة الفعالة في النوبة السفلى ، إلا أن النشاط الصحري غير المحمى في بوهين لا يمنح مرسى محبذاً على وجه التدقيق للمراكب الصغيرة . إرساء أفضل متاح على أميال قليلة صوب الجنوب، في السفح المباشر للشلال . وهذه تبدو مكاناً أكثر منطقية للتعبئة وتفريغ الشحنات المنقولة بالبر من الجنوب. ربما أن بوهين كانت أخرمحة لطريق صحراوي كان خام النحاس يُجلب إليه من مصدره داخل البلاد إلى النيل ، غير أنه جدير بالذكر أن الموقع بقي مهماً لزمن طويل بعد توقف صناعة النحاس. إن نفس الضاحية في الدولة الوسطى كانت موقعاً لواحد من أكبر القلاع التى شيدها المصريون في النوبة علي الإطلاق ، ثم أضيفت لها معابد كثيرة خلال حكم الدولة الجديدة ، ومؤخراً كذلك من قبل الفرعون النوبى تهارقا. بوهين إنَّ كانت مكاناً ذا أهمية للمصريين طوال تاريخ مخاطراتهم الإستعمارية في النوبة ، لأسباب يُحتمل أن تكون قد فقدت الآن إلى الأبد . وربما أن أهميتها الأخيرة كانت رمزية ، إحياءاً لذكرى المستوطنة المصرية الأولى في تربة نوبية.

الكشوف المبدئية للنحاس والدايوريت في النوبة يمكن أن تكون قد جاءت نتيجة استطلاع موسع ومنظم لا غير . إن صيادى المعادن في الدولة القديمة إنطلقوا بجلاء بعيداً وراء المنحصرات المعتادة في النوبة السفلى، ذلك أن نقوشهم عُثر عليها في جنوب ناء مثل كولب في بطن الحجر (٢٤) وفي وادى العلاقى بالصحراء الشرقية (الشكل رقم ٢٣) (٢٥) . مؤلفو نقوش كولب حُددت هويتهم على أنهم «كتبه للمستكشفين»، وإثنان من «مراقبى المستكشفين»؛ وأولئك الذين كانوا في وادى العلاقى يُدعون «زعماء للقوافل» . تجعل الألقاب واضحاً أن كل هذا الكشف كان أعمالاً للدولة . وتوحي النقوش ، كما تفعل دلائل أخرى كثيرة، أن المصريين جالوا الديار بحرية ودونما مضايقة فوق مساحات كبيرة من النوبة أول «عصر الكشف».

المدى الذى تأثرت به حياة النوبيين في ثقافة المجموعة الأولى بحضور مستعمرات مصرية أو أسطهم عسير على القول . وطبقاً لنظرية تقليدية فإن الدولة القديمة في مراحلها الأخيرة كانت زماناً



للنقص والنقص السكاني جزئياً في النوبة السفلى (انظر الفصل الخامس) ، بحيث أن عدد النوبيين الذين احتكروا مباشرةً بمستوطنات أجنبية ربما كان صغيراً. إن قبضة اليد من شقوق «المجموعة الثانية» الفخارية (أي الأنواع الأفقر من خزف ثقافة المجموعة الأولى) التي وُجدت في بوهين تُوحى بأن عمالاً وطنيين أو خدماً قلة فحسب وظفوا في المعسكر ، ولم يكن هناك جمع لمعاليق خارج السور. افتراضياً، ربما كان العمال النوبيون يُجرى تشغيلهم في أعمال هي الأشد وضاعاً لإستخراج ونقل الخام، إلا أنه مرةً ثانية ربما لم تكن الأعداد المطلوبة كبيرة . السور الدفاعي الذي يحيط بمستوطنة بوهين يوحي من الجانب الآخر أن المنطقة المجاورة ما كانت مهجورة على الإطلاق .

إجمالاً، لا يبدو جائزاً أن عمليات التعدين المصرية في توشكي وبوهين كان لها نفوذ كبير على الحياة النوبية المعاصرة . باعتبار نطاقها المحدود، من غير المحتمل لأبعد مدى إنه كان لها دور بشأن النقص السكاني الجارى آنذاك في النوبة السفلى. فإن كان أى نشاط للمصريين مسؤولاً عن ذلك التطور ، فإن أشد الاحتمالات أنه كان الغزو الإستراتيجي الذي شنه خا - سخم وسنفرو (قارن الفصل الخامس).

ما وُجدت أسماء لفراعة الأسرة السادسة سواء بمستوطنة بوهين أو مناقب الداويرت في الصحراء الغربية<sup>(٣٦)</sup> . كان هذا زمن إستضعاف واضح للسلطة الفرعونية ، ولعل الحصالة الملكية ما كان بمقدورها أن تقدم مثل تلك الأعمال المكلفة على تربة أجنبية . أياً كان الأمر ، لقد جاءت مخاطرة مصر الأولى كقوة إستعمارية إلى نهايتها قبل وقت معتبر عما فعلت الدولة المصرية الموحدة نفسها . نصوص الأسرة السادسة ل اوني وحرقوف ، كما أوربنا في الفصل الخامس ، مَدونات لتجارة بين قوى ذات سيادة ما كانت للفتح ولا للإستعمار .

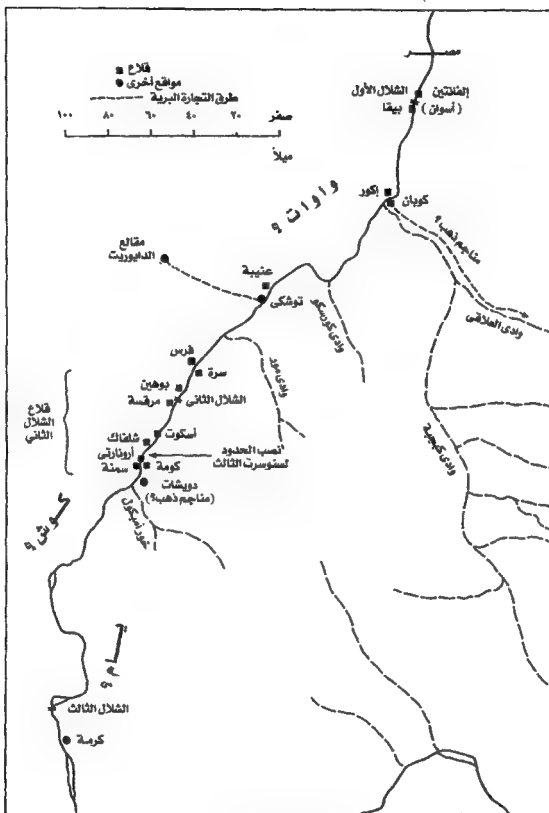
## قلاع الدولة الوسطى

لفترة من مائتي عام في ختام الألفية الثانية ق . م . لم يكن لمصر حكومة مركزية فعالة . إن إستهتار ملوك الدولة القديمة إندمج فيما هو يُبين مع سلسلة من الآفات الطبيعية<sup>(٣٧)</sup> ليستنفد قوة الدولة وثروتها، خالصاً إلى انشقاق أمراء محليين في أنحاء مختلفة من القطر . تولت أربع «أسرات» قصيرة الأجل ( الأسرات السابعة إلى العاشرة ) زمام الحكم في أجزاء مختلفة من مصر خلال المرحلة الوسيطة الأولى ، التي تدخلت بين الدولتين القديمة والجديدة<sup>(٣٨)</sup> . من وجهة نظر السجل الحرفي يُعد هذا واحداً من أظلم العصور في التاريخ المصري؛ فقد ترك صروحاً قليلة في مصر، ولا شيء بالمرءة في النوبة. والمعروف أن أرباب الأسرات المحليين كانوا على شغلٍ شاغل ، يتناحرون فيما بينهم، ما وجدوا وقتاً لمغامرات إستعمارية في الجنوب .

إن ضعف مصر ربما أسهم بقدر واسع في إعادة الرفاهة النوبية في بداية ثقافة المجموعة الثالثة. فكرة ما للعلاقة المتباعدة بين المصريين وجيرانهم ينقلها نص ميروغليفي من المرحلة الإنتقالية الأولى، مُعرباً في أسى أن «أجانب أصبحوا في كل مكان شعباً»<sup>(٣٩)</sup> . النوبيون ما كانوا يعملون مرتزقة في الجيش المصري وحسب ( كما كانوا كذلك في الفترة الأخيرة من الدولة القديمة ) ، لكنهم كانوا يستقرون في ثبات ويكتسبون مراكز ذات شأن في القطر الشمالي، كما يتضح من نقوشهم الجنائزية التي وُجدت بالقرب من جبلين في مصر العليا<sup>(٣٩)</sup> . الحجم المعتبر لسلاح من صنع مصر في القبور الأولى «للمجموعة الثالثة» ربما يمثل مكافآت لخدمة عسكرية في الشمال؛ إنه يُبث في كل الظروف العودة للرخاء النوبي .

في الجزء الأخير من المرحلة الوسيطة الأدنى كانت المراكز الرئيسة للقوة قائمة في مصر في حوض الفيوم ، حيث حكمت الأسرة التاسعة والأسرة العاشرة ، وفي طيبة (الأقصر الحديث) بمصر

(\*) انظر الشكل رقم (٢) ، تمهيد - المترجم.



شكل رقم ٢٦  
الإستعمار المصري في الدولة الوسطى

العليا . قرن من الحرب المتقطعة إنتهى بانتصار أرباب الأسرات الجنوبية وإعادة إنشاء حكم موحد تحت الأسرة الحادية عشرة الطيبية . وبالنسبة لمعظم فترة ال ١٠٠٠ عام التالية كانت مصر تُحكم من طيبة . الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، المعلوماتان جمعاً بالدولة الوسطى ، تمثلان الذروة الثانية للقوة الإمبريالية في التاريخ المصري ، وإليها يشار أحياناً بعصر مصر الإقطاعي (٣٠) .

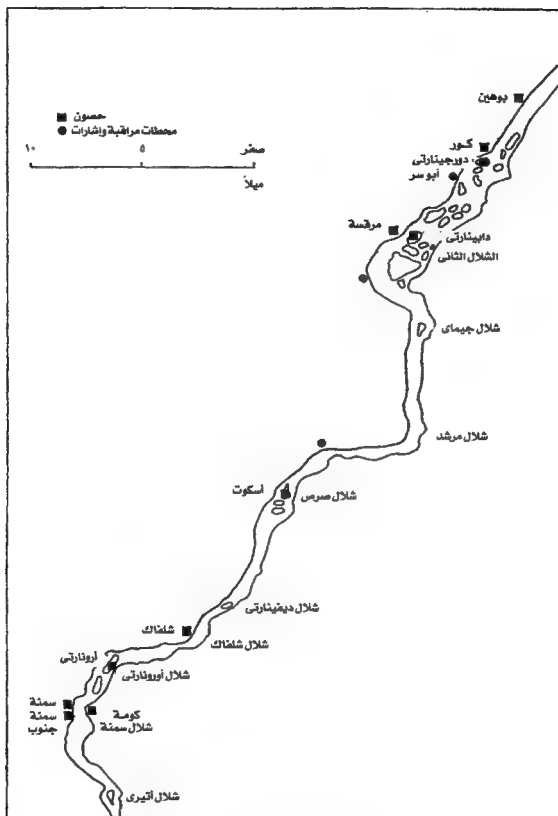
كان فراغة الأسرة الحادية عشرة مستغرقين فيما يبدو في إعادة النظام إلى بلادهم بصورة رئيسة . هنالك إقتراحات بحملات عسكرية بعيداً في الجنوب إلى الشلال الثاني خلال العهود المتأخرة للأسرة ، لكنها تبدو صغيرة حجماً ومدة (٣١) . لقد وقع ، في كافة الأوضاع ، تحت الأسرة الثانية عشر الأكثر أمناً والأشد عسكرة أن المد الكامل للإمبريالية المصرية في النوبة اقبل كزفة أخرى . إن حملات كبرى إضطلع بها أثناء العهدين الأولين للأسرة الثانية عشر أحييت ذكراها في عدد من النقوش الهيروغليفي . النصوص لا تترك شكاً فيما يتصل بطبيعة ومقصد العمليات المصرية : " جئنا لنطبخ بالواوات " : " إني أحضرت ... كل البلاد التي في النوبة تحت قدميك ، أيها الإله الطيب ؛ " " حياتهم إنقُضت " : " النار في خيامهم " : " غلالهم ألقى بها في غياهب النيل " بعض عبارات مألوفة وجدت بها ، في صيغة التثنيات واسعة الإنتشار لأسرى مغلولين (٣٢) .

تفتقر نصوص الفتح للأسرة الثانية عشرة قليلاً في المادة عن النصوص التي تُص ذكرى غزوات الرقيق من جانب خا . سخم وسنفرو في المملكة القديمة . إن ما جرى بعدها ، كيفما اتفق ، ما كان له سابقة في تاريخ العلاقات المصرية النوبية . غير قانعين بمغرم الأراضي الجنوبية ، شرع الفراغة في تحصين النيل في بطن الحجر الشمالية بحلقة من أعتى التحصينات التي ما شيدت في أي وقت مضى في العالم القديم (الشكل رقم ٢٦ ؛ الصورة ١٠٧) . أربعة آلاف سنة من بعد بنائها ، وثلاثة آلاف عام بعد هجرانها النهائي ، لا تزال الأسوار الطينية لهذه الأطلال الماردة ماثلة ، في أماكن ، فوق ما يعلو على أربعين قدماً على رمل الصحراء . مع أبو سميل ، ينهض ترتيبها بين أشمخ صروج للأعمال المصرية في النوبة أو بأي مكان آخر . بيد أنه بينما أنقذ أبو سميل ، بما يعود بالثناء على اليونسكو والعالم ، اخفت القلاع دوماً أثر تحت مياه النيل .

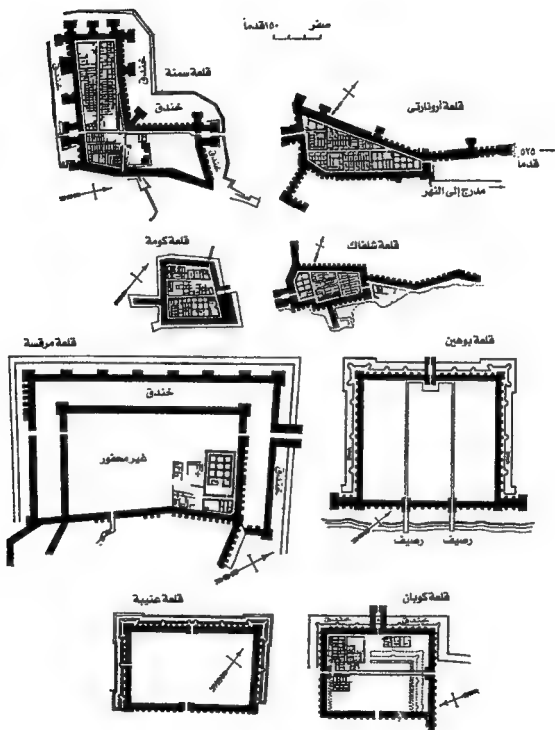
المجموعة الأكثر أخذاً للإنتطباع والأكثر تركيزاً لقلاع الدولة الوسطى ، هي ما يسمى بقلع الشلال الثاني ، البالغ عددها عشر إنشاءات كبرى (٣٣) . إحتمل مداها على طول النيل مسافة تزيد على أربعين ميلاً ، من بوهين في الشمال إلى سمنة في الجنوب . كلها عدا واحدة من القلاع كانت على الضفة الغربية للنهر أو على جُزُر يمكن بلوغها من الضفة الغربية . في سمنة وحدها كان هناك إنشاء ، على الضفة الشرقية ، مواجه مباشرة لقلعة أكبر بالغرب ( للتوزيع الجغرافي لقلاع الشلال الثاني أنظر الشكل رقم ٢٧) .

قلاع الشلال الثاني بنيت فيما يظهر على مدى فترة تروبو على ما يقرب من المائة عام ، في عهد سنوسرت الأول ، سنوسرت الثاني ، وسنوسرت الثالث (٣٤) . لقد تم تصورها بجلاء على أنها تشكل مركباً مفرداً ، ولعلها كانت تحت إمرة موحدة (٣٥) . تشابهات الرسم تُوحى أن غدة من الحصون صممت عن طريق نفس المهندس المعماري كأنما شُيدت في وقت واحد ( الشكل رقم ٢٨) (٣٦) .

تعتي بردية وُجدت في معبد رمسيس (الرمسيسيوم) بطينية في ١٨٩٦ م أسماء سبع عشرة قلعة مصرية من الدولة الوسطى في فترتها الأخيرة (٣٧) . من هذه يتضح أن الشلال الأول هو قلاع الشلال الثاني ، وسبعاً منها مَعْرِفة بالاسم تحديداً . أما النعوت التي تعكس الوحشية وتؤكد العداء فيحمل بعضها - "نحر السيتائ" (٣٨) ، "إزاحة النبال" ، "نحر الإنو" "تحجيم الأرباف" ، "نحر المدجاي" - بصفاة تعكس الرواية الذاتية لمصر الأسرة الثانية عشرة (٣٩) . جدير بالذكر ، مع ذلك ، أن قلعتي أكين وبوهين الشماليين مُنِحاً أسماءاً لأمكنة محلية عادية ، موجية أن هذه كانت ضاحيات مالوفة للمصريين منذ وقت سابق ولذلك ما كانت ثمة حاجة لإعادة تسميتها .



شكل رقم ٢٧  
 قلاع الشلال الثاني



شكل رقم ٢٨  
رسوم تصميمية أولية لقلاع الشلال الثاني

بوهين ، أبعد قلاع الشلال الثاني شمالاً ، أدت في أزمان متأخرة دور الرئاسة الإدارية لكل المجموعة (٤١) . لقد حُدد موقعها أميالا عدة أسفل قاعدة الشلال ، وأقل من نصف ميل من المدينة المهجورة طويلاً ، التي كانت أول مستعمرة لمصر على تربة نوبية . الحفريات في بوهين أُجريت في فواتح السنوات الأولى من ١٩٠٠ من بعثة جامعة بنسلفانيا (٤٢) ، ثم لما يقارب العشر سنوات في الخمسينيات والستينيات من لدن جمعية بريطانيا العظمى لإكتشاف مصر (٤٣) . إنها للمدى البعيد اكمل ما شمل التنقيب من مواقع للقلاع و (إلى الآن) أتمها تقريراً ، ويمكن أن تخدم في توضيح ملامح المجموعة ككل . في كلمات المنقب :

إنها تستعمل على سلسلة موسعة من التحصينات بُنيت على مخطط مستطيل، ١٧٢ في ١٦٠ متراً (٥٦٠ × ٥٢٥ قدماً بالتقريب ) ، يحيط مدينةً تحتوى إقامات سكنية ، وتكنات، ومحلات للعمل، ومعبدًا، وقصرًا للحاكم . تنقيب هذا الصرح العظيم أكمل وكشف عن نموذج مطروح بعناية لتخطيط مدينة مستطيلة لها طرق شريانية مهيبة لكل واحد منها نظام تصريفه المستقبل . على الجانب النهرى للقلعة ، تقود بوابتان ضخمتان بالأسوار إلى أرصفة الحجر مباشرةً ومنها تُعبأ السفن بالجيزة ومنتجات التجارة من النوبة المقهورة . محتويات القبور التي اكتشفت خارج المدينة ، وحالة المساكن بينها ، تعطى بُينة كافية على مستوى معيشي مُرتفئ الثراء على صعيد واحد في هذا المحيط الأمامي لمصر الاستعمارية .

النظام الدفاعي المتسق الذى يحيط بهذه المدينة الصغيرة مكون من سور طوبى ضخم، سُمكه ٤٨ متراً (١١ قدماً) وارتفاعه ١١ متراً (٣٦ قدماً)، تتخلله على بون في واجهته الخارجية الإبراج المستطيلة المعلقة المعتادة . في قاعدة السور متراس مهد مع فتح للئار ، يحميه سورٌ منخفض ذو فتحات يتدلى من فوق خندق جاف حوالى ٩ أمتار (٣٠ قدماً) عرضاً و٧ أمتار [٢٣ قدماً] عمقاً . على الجانب الآخر يعتلى جدار الخندق الخارجى عبر طريق ينسدل ضيقاً وهو مشغول بالطوب ، ينهض وراءه مُنحدر من المستوى الطبقي . تطل على الخندق من جانبه الداخلى أبراج مستديرة بنظام من الفتحات الثلاثية لها طاق مفردة ، يستطيع الثبالة من خلالها أن يسدوا نيراناً متقطعة تغطي بصورة متكاملة كل الخندق (انظر الصورة ١ - ٧) . أما أقوى جزء محصن من البناء فهو البوابة العظمى المشيدة في مركز السور الغربى الذى يواجه الصحراء ومنها تتطرق دروب التجارة الطويلة المؤدية إلى المناجم والمقالع . كانت البوابة مغلقة بآبواب مزدوجة، من خلفها جسر خشبي متحرك جذب إلى الوراء على بكرات . البوابة والجسر كانا متخاصرين بحائطين ناتئين يمتدان من فوق الخندق الجاف ، يشكلان مقيّراً ضيقاً ينبغى على أى قوة مهاجمة أن تشق لعبوره طريقها متعرضةً لوابل من القذائف من راجعات الجوانب الثلاثة . وينفس القدر، إذا ما انطلقت الفرقة المهاجمة كاسرةً للبوابة ، فإن الصعوبات سوف لا تنتهى، إذ أنها ستجد نفسها في مربع مسدود بمخارج لا تفضى إلى الولوج للمدينة . إلا من خلال دروب ضيقة تقع مباشرة تحت الحيطان لأسوار التحصين، وبذا يقعون تحت وابل نيران المدافعين مرة أخرى (٤٤) .

تهز بوهين الخيال لا لحجمها ٣٠٠٠ مها فحسب إنما لتعدد دفاعاتها . أبراجاً ، منافذ ، خندقاً، جسراً متحركاً، منحدرًا مَحْصِناً . كل العناصر الماثورة بالفعل لتحصينات القرون الوسطى حاضرة في هذا الصرح الذى بُنى منذ ٣٠٠٠ عام ماضية في الصحراء النوبية . لدرجة أعظم أو أقل، استوعب نفس الجوانب في معظم القلاع الأخرى بالدولة الوسطى (٤٥) .

اميالا عُشرًا إلى جنوب بوهين، تحرس قلعة مرقسة (٤٥) الأكبر الطرف الأعلى من الشلال الثانى بقدر متساو (٤٦) . مواجهةً لها يقطع القناة الرئيسة للنيل تبرز قلعة الجزيرة دابينارتنى ، التى تبدو كأنما لم تكتمل أو تحُتَل أبداً (٤٧) . ثالثةً إلى الجنوب البعيد تطل المعازل المعزلة لاسكوت (٤٨) ، شلفاك (٤٩) ، وكلاهما بُنى على قمم صخرية عالية فوق النهر . أخيراً، كان الطرف الجنوبى من السلسلة موسوماً بجعم من أربعة قلاع منفصلة ( سمنة، كومة (٥٠)، سمنة جنوب (٥١)، وأروارتنى (٥٢) تحيط بشلال سمنة . أكثر ممر مزموه على طول مجرى النيل بأجمعه ( الصورة ٦) . لقد كان في هذه النقطة التى يسهل التحكم عليها ، فيما هو ظاهر، أن المصريين اختاروا أن يقيموا حدود سيادتهم في الدولة الوسطى .

شُيّدت خمس قلاع إضافية على الأقل إلى شمال مجموعة الشلال الثاني، بين النوبة السفلى (الشكل رقم ٢٦) <sup>(٥٦)</sup>. وهي كذلك تبدو راجعةً في تاريخها مبدئياً إلى عهد سنوسرت الأول. إنها لم تشكل تجمعاً وثيقاً مثل قلاع الشلال الثاني، لكنها كانت متناثرةً بشكل عريض؛ معظمها كانتا جعل موقعه قريباً من المساحات الرئيسية لإقامة الوطنيين. كل القلاع الشمالية كان لها رسم مستطيل رتيب، والدفاعات الخارجية متماثلة في الخطة لقلاع بوهين. التدابير الداخلية، عدا كوبان <sup>(٥٧)</sup>، كانت من الخراب بما لا يتيح معالجتها بلى تفصيل.

معظم القلاع المصرية تعرضت لتجديد مُوسّع خلال كل من الدولتين الوسطى والقديمة، حتى إن الملامح الداخلية التي وجدها المنقبون لم تعكس بالضرورة الخطة الأصلية. القلعان اللتان بيننا أقل دليل على التبدّل كانت شلفاك وأرونارتي. وفي بوهين، رغماً عن أن المباني لها تاريخ طويل ومعقد، تدقيقاً، عانى المنقب معاناةً خاصة في إعداد الرسم الأصلي ومفاضلته بتعديلات لاحقة <sup>(٥٨)</sup>. يبدو من هذه التحريات أن كل قلاع الدولة الوسطى كانت في الأصل مقسمةً إلى "أرباع" تحتوي حجرات تخزين ومشايغل، وأحياء سكنية وتكنات، ومرابح للضباط. كل قلعة كانت هكذا تجمعاً مضمواً في ذاته. أما أعظم إنظام متناسب فكان بادي الدمج في التصميم الأصلي للقلاع: شوارع ومصارف مستقيمة بإتقان ومقننة المسافة، وحجرات موحدة في الحجم والرسم. في سنوات قادمة، كما الحالة في مرات كثيرة، أُجريت مفارقات عن "الخطة النموذجية" الأصلية تحقيقاً لدواعي الراحة والدعة.

حفريات تمت منذ فترة بسيطة بقلعة مرقسة كشفت، من بين تفاصيل كثيرة أخرى، الفرسانة التي كانت تُصنع بها الأسلحة وتُخزن. هنا وُجدت "قوالب" حجرية كانت تُشَدُّ عليها دروع جلدية ديفاً وتشكلاً. وعدد من مقابض خشبية متقاطعة مكتملة الصنع للدروع، وكُميات من خام الخشب والجلود المدبوغة لصنع دروع إضافية. أكثر من خمسة وسبعين رمحاً ومزقاً أُسندت بعناية حول حيطان الحجر؛ الأعمدة الخشبية، تطلت منذ زمان طويل، غير أن الرؤوس على حالها غير ممسوسة. ما صُنعت من المعدن، حتى في هذا التاريخ المتأخر من العصر البرونزي، إنما من حجر صوانٍ مقطو. النوعية الممتازة من الأشغال الحجرية تستدعي ذكرًا لأفضل قطع من الصوان بمصر ما قبل الأسرات. حجرة مجاورة أخرجت عدداً كبيراً للغاية من رؤوس لسهام حجرية على شكل هلالى <sup>(٥٩)</sup>. بشكل بائن، ما كان مُعتبراً كضرورة في هذا الزمن أن تُؤمن الحاميات الإستعمارية بأخر صيحة في عالم الأسلحة.

إننا نعلم من حيث المقارنة قليلاً عن التنظيم العسكري لحاميات التخوم. يعتقد امرى أن تركيبها في أزمان الدولة الوسطى كانتا كان مصرياً خالصاً <sup>(٥٧)</sup>، وعلى ذلك الأساس، أعطانا صورة قائمة بتوسع على معرفتنا بتنظيم الجيش في مصر:

بينما كان الجندي الخاص يُدعى ببساطة «عضواً بالجيش»، كانت هناك تشكيلة من ألقاب الرتب لصفوف الضباط، مثل «لواء»، «قائد قوات الصدمة»، «قائد المجندين»، أو «معلم المحتجزين». كان هناك أيضاً «كاتب الجيش» الذي أدى وظيفته في مصلحة ضابط التموين، و«كاتب أسرار الملك في الجيش». الذي يشير بتأكيد إلى وجود سلك للإسخبارات ملحقاً بقيادة الوحدات الكبرى.

جيش الدولة الوسطى تُكوّن بشكل مطلق من مشاة يضمون تشكيلةً من الثبالة، وقاذفي المقاليق، والرماحة وحَمَلَة القوس، الذين يلبسون لباساً خفيفاً، لطبيعة تدريب الجسم دفاعياً كما نعلمه نحن. يلبس الجندي قماشاً من الكتان وأحياناً أربطةً منسوجة فوق الكتاف قاطعةً للصدر، لتعطي بعض الحماية من قطعات السيف، لكنه اعتمد غالباً في الدفاع عن الجسم على دروع من جلد الجاموس المدبوغ تبدو متفاوتة في الحجم طبقاً لما إذا كان صاحبها مُتّمياً لمشاةً ثقيلة أو خفيفة <sup>(٥٨)</sup>.

يعتقد آخرون أن الحاميات النوبية منذ البداية شملت أعداداً مهمة من المجندين الوطنيين، وأن الإعداد والتنظيم العسكري ما كان بالضرورة نفس ما شملته مصر المعاصرة <sup>(٩٤)</sup>. إن حجم الحاميات في أكبر القلاع جرى تقديره من ٢٠٠ <sup>(٩٥)</sup> إلى ٣.٠٠٠ <sup>(٩٦)</sup> فرد؛ وفي ظل أحوال عادية من الإحتلال يبدو الرقم المنخفض أكثر واقعية باعتبار <sup>(٩٧)</sup>.

مجموعة قلاع الشلال الثاني، من بوهين إلى سمته، كان قطعاً تحت إمرة موحدة في زمن الدولة الجديدة <sup>(٩٨)</sup>. لكن هذه مُنَبَّهة بصفاة أقل في الدولة الوسطى. كان هنالك، مع ذلك، نظام لإتصال بصرى بين القلاع الرئيسية في المجموعة. من أرونارتى، القيادة العامة للتجمع الأبعد جنوباً <sup>(٩٩)</sup>، كان من الممكن أن تُرى بإتجاه مصعد النهر إلى سمته وكومة ونحو مجرى النهر نزولاً إلى شلفاك. أسفل شلفاك، حيث المسافة بين القلاع أعظم، أنشئت نقاط للمراقبة والإشارات على بعض المرتفعات شديدة الإنحدار غرب النهر. خمسة من مثل هذه المحطات إكتُشفت في مسوح الستينيات الأثرية <sup>(١٠٠)</sup> في كل مكان أكواخ حجرية خيشنة تحتوى فخاراً مصرياً خالصاً، إقامات مؤقتة للحرس بوضوح. نقطة مراقبة واحدة جنوب مرقسة حملت كذلك آثاراً لمصبطة دائرية من الطوب، ربما قصد منها بناء نيران الإشارة.

أفضل نقاط المراقبة حفظاً تجثم على صخرة أبوسر، ضاحية اشتهرت في أزمان قريبة بالمنظر الرائع لرؤية شموية من أعلى الشلال الثاني بكامل طوله. إن النيران التي أشعلت هنا يمكن أن تُشاهد في بوهين شمالاً ومرقس جنوباً. أعداد كبيرة للغاية من الأكواخ وعدة كتابات وُجدت بأسفل قمة الصخرة تماماً، حوالى ٢٠٠ قدماً فوق ضفة النهر مباشرة. وتحتها حُطَّت قاعدة القمة الصخرية بما يزيد على ٢٠٠ نحت إضافى يُحكي نكزى مرور تجار، وأصحاب قوارب ومسؤولين في الدولة الوسطى <sup>(١٠١)</sup>.

## الأهمية السياسية للقلاع

يكتب امرى أن إكتشاف التحصينات المعقدة والموسعة في بوهين يُبين أن الفاتحين المصريين في الأسرة الثانية عشر كانوا يسكنون بزمام إقليمهم الذى اكتسبوه حديثاً في مواجهة عدو حسن التنظيم ما كان بأسه العسكري مُتجاهلاً بأى حال من الأحوال <sup>(١٠٢)</sup>. حقيقة، تتضمن أسماء الحصون عدة أعداء كامنين: السيتائى، "النبالة"، الانو، "الآرياف"، والمدجائى. بعض هؤلاء لم يُكُنْ بوضوح. اقواماً نهريّة، وليس منهم بالضرورة من تُعرف هويته بين نوبيي ثقافة المجموعة الثالثة. وكما شأهنا من قبل (الفصل السادس)، لا يبدو أن النوبيين في النوبة السفلى شكّلوا تهديداً لأى من الأمن أو المصالح الخارجية لمصر في أى زمن كان.

ما من شئ في المدون الباقي على قيد الحياة للعلاقات المصرية - النوبية يبدو على قدر كامل من الكفاية ليعلم قلاع الشلال الثاني. لم يُقصد منها ببساطة أن تسترهب أهل النوبة السفلى وُبق عليهم في خُصُوع <sup>(١٠٣)</sup>، فالعند الأكبر منها بُنى في أكثر الأجزاء نأياً وجفاء، بعيداً عن مراكز السكان في ثقافة المجموعة الثالثة. ولا يحقق الخضوع بالتوسع في تدابير دفاعية على أى حال، إنها في التحليل الختامى علامة ضعف أكثر منها قوة. لربما تبعت على الإحترام، لكنها لا تُشعل الرهبة. أزماناً أبنى قريباً عُدُنْ لأطول من قرن، وجبل طارق لأكثر من قرنين، تحديداً لجُيرة معادية، لكنْ الإثنى أخففاً بدرجة ملحوظة في إرهاب المناطق المحيطة. وفي النوبة القديمة، ربما أن اقتحامات السلب من أسوان حُفَّت من وقت لآخر بدرجة أكبر لإخضاع السكان الوطنيين بأقوى مما أحدثته كل التحصينات العاتية للدولة الوسطى.

كذلك ليس من الممكن إعتبار قلاع الشلال الثاني ببساطة أبعد مرابط دفاعية خارجية لمصر.



إنه لحق أن قراعنة الأسرة الثانية عشرة طرحوا ادعاءً على النوبة السفلى، لكن غرضهم ما كان قطعاً أن يحموا بهذا الإيعاز أيّاً من مصر أو النوبة نفسها من هجوم يُقِل من الجنوب . كراى سليم ما كانت الحصون دفاعات إقليمية أبداً، ذلك أنها تحتضن ضفة النيل وبالإمكان أن يُحتاج جانبها من أى غزاة أولى عزم . مع ذلك، لا يوجد دليل بأى مكان على أى محاولة من المصريين لجوب أو حماية أجنابهم الصحراوية<sup>(٧٩)</sup>.

قلاع الشلال الثاني تُذكر وظائفها من زاوية علاقاتها بالنيل وحسب، ويتحديهم أكبر بشلالات النيل . كلها تقع في أو بالقرب من جنادل بطن الحجر الكبرى : أماكن يتوجب أن تُنقل عبرها الشحانات النهرية من مراكب أكبر إلى قوارب أصغر ، أو ربما تفرغ حوالتها إلى ظهور حمير للنقل البرى ، في حين تُسحب المراكب نفسها بجهد جهيد خلال أو حول الجنادل . من هذه الظروف يبدو منطقياً أن يُستدل على أن الحصون صُممت بصفة رئيسة لتقدم العون للتجارة النهرية ، وفي نفس الوقت لتحميها في تلك النقاط حيث كانت أقوى ما تكون عُرضة للهجوم عليها من الضفة<sup>(٨٠)</sup> . إنها، باختصار، جبال طارق، العُدنات، وقنالات السويس لتجارة النيل . لربما أن الحاميات جُنّدت للخدمة العسكرية، لكن أهم أنشطتها اليومية كانت فيما هو محتمل شحن وتفريغ حمولات السفن .

ويستحق الذكر أنه كان هناك ميناء حَسَن الإعداد وتسهيلات لإيداع السلع بكل من مرقسة (٧) وبوهين<sup>(٨١)</sup>، موضوعة بالترتيب في مقدمة ومؤخرة السلسلة الرئيسية للجنادل التي تُكوّن الشلال الثاني . هذه التسهيلات كانت تُقام في كل حالة على مسافة ذات اعتبار من الطوق الرئيس المحصّن ، وكانت هي نفسها ثقيلة التحصين، إلا أنها تبدو كأنها كانت مراكز كبرى للنشاط المصرى إبان الدولة الوسطى . إفتراضياً أتاحت الإحاطات التحصينية العظيمة مالأذاً وحمايةً موسمية للقوات العاملة، عندما تُبدل نشاطها اليومي الرئيس على ظهور السفن .

يُجسّم إكتشاف تم مؤخرًا في مرقسة بشكل أكثر وضوحاً الوظيفة الأولية لقلاع الشلال الثاني . مباشرةً على مجرى النهر من مرقسة يقع جندول كابوكا، الأعسر من بين ما يزيد على ٢٠٠ جندول تُشكّل الشلال الثاني، ومكاناً فقدت فيه قواربٌ عديدة على مدار القرن الماضى . هنا، على الصحراء الرملية المنبسطة غرب النيل، وجدت البعثة الأثرية الفرنسية بمرقسه بقايا طريق منحدر خطّه الطين عرضه ياردتان وطوله ميلاً ونصف ، كانت تُسحب المراكب عليه حول أسوأ الجنادل (الصورة ٧ - ب). كان يبقى على الطين بشكلٍ سافر بينما عمليات السحب تتقدم، ذلك أن بصمات أقدام عارية إلى جانب علامات لقواعد أحد المراكب كانت مرئيةً بصفاء على طول الأثر . ويُعتَقَد الآن أن هذا كان أسلوباً شائعاً إستعمله المصريون لنقل تماثيل كبيرة وكتل بنائية، بالرغم من أن إستخدامها كوسيلة لعمليات تمويين السفن لم يُسجَل من قبل<sup>(٨٢)</sup> .

رؤية إضافية ثابتة لطبيعة المصالح المصرية في منطقة الشلال الثاني توفرها مسلة "الحدود" التي نُصبت في سمنة بإسم سنوسرت الثالث . مترجمة تُقرأ :

الحدود الجنوبية، مقامة في سنة ٨، في ظل جلالة ملك مصر العليا والسفلى، خاكعوس سنوسرت الثالث الذى منح الحياة إلى أبد الآباد : لكيما يمنح أى زنجى أن يعبرها، عبر النهر أو بالبر، بسفينة أو أى جموع من الزنوج : فيما عدا زنجى يكون عليه أن يأتى ليتاجر في أيكن (مرقسه)، أو مبعوثاً . كل شئ طيب يجب أن يُفعل لهم، لكن دونما سماح لسفينة من الزنوج بالمروء ب هيج<sup>(٨٣)</sup>، نهابا بمجرى النهر، إلى الأبد<sup>(٨٤)</sup> .

الرسالة هنا صافية في إبتقان . ليس هناك صلصلة للسيف: عناء الملك إقتصادى خالص<sup>(٨٥)</sup>. الحدود تطلق ببساطة إلى الأبد في وجه كل تجارة لسفن أجنبية: مالم تكن محبوبة السير للشحن الناقل بإتجاه مجرى النهر المباشر لمرقسه شمالاً . هنا، فوق كل شك، يوجد الجَدّ المشيَّب لكل تلك المراسيم المتعلقة بإحتكار التجارة والتي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ الإستعمارى نزولاً لأزمان حديثة . إنها تخدم

مرّة أخرى لتجسّد فتوى جون ستيوارت مل أن التوزيع عملية سياسية ، لا إقتصادية<sup>(٧٧)</sup>.

قلاع الشلال الثاني كانت ، إذن ، الدفاعات ونقاط الجمارك في أن واحد لتجارة النيل. ما كانت وظيفتها أن تحفظ النوبيين تحت السيطرة، إنما كانت بشكل واضح لإبقاء النيل تحت هيمنة مصرية. أن نظائرهما لألف عام لاحقة تُرى في القلاع بإمتداد الراين والدانوب، وأخيراً في "الحصون" التي استعادت ظهورها في النوبة في الفترة المتأخرة من العصور الوسطى. (لسوف يتمك سنوسرت العجب بما يتعدى أى قياس لو علم أنه بعد ٣.٠٠٠ عام سوف ينشئ ملوك النوبة أنفسهم حاميات في بطن الحجر في مواجهة التجارة المصرية، ويعلنون على الملأ إحتكارهم التجارى في كلمات تُذكر تنكيراً صارخاً بكلماته: انظر الفصل الخامس عشر) . تمكين قلاع التخوم المصريين ليراقبوا تحركات السكان الوطنيين تُثبتها كذلك سلسلة من التجريدات من حامية سمنة عُثر عليها في طيبة<sup>(٧٨)</sup>، وعلى أى حال، ليس هناك سبب لإفتراض أن هذا هو الغرض العِمادى للقلاع أو أنه يوفر أى إيضاح لجمها المربع .

إذاً كنا قد حددنا في صحبة أهم وظيفة لقلاع الشلال الثاني، فمّة لوازم طبيعية هامة عديدة تُتبع. أولاً : لابد أنه قد وُجد أنفأ في الأسرة الثانية عشر حجم عظيم جداً من التجارة ما بين مصر والأراضي الواقعة جنوب سمنة لأن المصريين كانوا على مثل ذلك العناء المقيم للتحكم فيه وحمايته . ثانياً : إن بعض سكان الصحراء أو النوبيين في النوبة العليا لابد أنهم قاموا بإنشاء عادية للنهب والسلب على "القوافل" النهرية . مؤشراً آخر محتملاً على حجمها وثروتها . ثالثاً : وضع "حدود" المصريين في سمنة ، والجهد المبذول لإنقاذ إحتكار التجارة فيما يقع شمال هذه المنطقة فحسب ، يتضمن ما يعنى أن الأصول الجنوبية لتجارة النيل لم تكن تحت إدارة مصرية مباشرة. أخيراً ، إن غياب قلاع مصرية بالشلالات ما وراء سمنة (إعترافاً بأنها ليست على خطورة مثل الشلالات البعيدة صوب مجرى النهر) تطرح إمكانية أن النيل فيما وراء سمنة جنوباً كان في قبضة قوى أخرى. فإذا صح ذلك، كانت هذه تجارة نولية صميعة .

ماذا كانت طبيعة ومصدر هذه التجارة المتنوعة، التي لعبت دوراً بمثل هذا الإتساع في تشكيل سياسة مصر الخارجية إبّان الدولة الوسطى؟ أمعن تريقر النظر حين قال "بما أن المنطقة بين كرمة وسمنة يكتنفها الخطر وهناك قبائل جّوالة وراء النوب في الصحراء الشرقية ، فإنه مما لا يقف دليل عليه أن هذه الحركة النهرية تكونت من أفراد يجلبون للشمال من مناسبة لأخرى منتجات ليتاجروا مع المصريين. إن الأكثر قبولاً أنها تألفت من أسطول منتظم يبتعثه ملك كوش، الذى ربما كان وريثاً لحاكم يام وهو من تاجر معه حرقوف"<sup>(٧٩)</sup>.

في زمن سحيق كالدولة القديمة، ذكرنا أن إهتمام الفرعون إنعطف من قبل من الأراضي غير المنتجة بإمتداد تخومه المباشرة إلى المراعى الخضراء بأعلى النهر البعيدة . إن الهدف العِمادى لكل من أربع البعثات الكبرى لحرقوف لم يكن المناطق المالوفة إرتيترو واوات لكنها أرض يام الأكثر ثناءً ورخاء . إنه لما يدعو للريبة أن هذه الصلة الراجعة كانت مصونة خلال السنوات المضطربة للمرحلة الإنتقالية الأولى، بيد أن إستعدادتها تبدو كأنها كانت المرمى الرئيس لإفراغة الدولة الوسطى الذين فتحوا النوبة السفلى وأقاموا فيها الحاميات .

اسم يام لم يُسمع عنه أبداً عقب الدولة القديمة ، وموضعها المحدد ربما لا يُعرف أبداً . إنها ربما كانت تقع أو إنها لا تقع إلى جنوب الشلال الثاني<sup>(٨٠)</sup> . من الجانب الآخر يمكن تقريباً أن يقطع بأن المصدر الرئيس لتجارة مصر الخارجية في الدولة الوسطى يُحدّد في موقع كرمة ، ليس بعيداً عن الشلال الثالث . هنا في أزمان لاحقة كان مقعد أهم زعيم أوتقراطى حكم على الإطلاق في النوبة ما بعد الفرعونية ، وهنا أيضاً بقايا مركز لتجارة مصرية<sup>(٨١)</sup> . كرمة، إذن، هي القطعة المفقودة في لغزنا : المفتاح لسياسة مصر الإستعمارية في الدولة الوسطى . أما مكان كرمة في التاريخ النوبى

## فسوف يُعالج بطوله في الفصل القادم .

كان إخضاع النوبة السفلى لسيطرة الأسرة الثانية عشرة، بالتالي جارى الحدث في أن واحد بكل الإحتمالات لتأمين الشلالات وطريق التجارة الجنوبية . لقد كان واحداً من تلك الحالات العديدة لإحتلال عسكري مرسوم بالقدر الأكبر لا لإستغلال إقليم تم فتحه إنما لتوفير عازل في مواجهة أقوام أشد مراساً من ورائه : ربما، في هذه الحالة - النوبيين في النوبة العليا أو بدو الصحراء<sup>(٨٦)</sup> . على غرار ما شاهدنا من قبل، يبدو العبد المصري كأنما ألقى على رقاب النوبيين القويين الذين عاشوا بين الإقليم المحتل عبثاً خفيفاً، إن كانت بقاياهم الأثرية وسيلة دقيقة للقياس<sup>(٨٧)</sup> . بغض النظر عن ذلك، فإن بعض القلاع التي بنيت إلى الشمال من بوهين، والتي لا ترتبط بشكل واضح بجنادل أو عوائل طبيعية ، لا يمكن إلا أن تكون مقصودة لإخضاع وإدارة الوطنيين . وهذا حُرَى بالتصديق ببالغ الدقة بالنسبة لقلة عنيبة، الواقعة في منتصف سهل عريض وخصيب مطبق في كثافة ببقايا د المجموعة الثالثة<sup>(٨٨)</sup> . كويان، حصن آخر تربع على مدخل وادى العلاقى، ربما كان في الأصل متعمداً كنقطة لتموين الحركة وإدارتها على امتداد درب الصحراء الذى قاد إلى بعض من أغني مناجم مصر ومحاجرها (انظر بادناه)، لكنه يمكن أن يكون إلى جانب ذلك قد خدم كمرکز إدارى محلى<sup>(٨٩)</sup> . قلاع النوبة السفلى في فرس<sup>(٩٠)</sup> وسرة<sup>(٩١)</sup> أصعب في التعليل: إنها بعيدة بالمثل عن الشلالات، وعن مسالك التجارة البرية ، وعن مراكز معروفة للسكان النوبيين<sup>(٩٢)</sup> . إننا لا نعلم، وربما لن نعلم أبداً، أية اعتبارات عجّلت بالإحتلال والتحصينات المصرية لهذه الأماكن .

بينما يمكننا على أسس متنوعة، أن نفسر المواقع لكل قلاع الدولة الوسطى عدا قلّة منها، ما من شيء قيل حتى الآن يبدو كافياً ليفسر حجمها وتعقيدها الجسيمي. لسنا مُلمين في أى مكان بالمرسح النوبى « برجال يضاهون هذه الجبال». إنه لشيء مذكور أنه في أزمان قادمة، عندما كانت مصر مهددةً تهديداً حقيقياً من قبل أعداء أكثر قوةً بكثير في كل من الشمال والجنوب، ما كانت التدابير الدفاعية التي تبنيها مقارنة ولو من طرف ناءٍ بقلع الدولة الوسطى .

إن أى محاولة لتعليل وجود القلاع على أرضية الإنتفاع الحربي وحسب<sup>(٩٣)</sup> يبدو محاولةً بلا طائل كمثل تعليل الأهرامات بحاجة ما للتصرف في الأموات. كلاهما نموذجٌ للمغالاة المادية التي هي صفةٌ للحضارة المصرية . حالما اتُخذ القرار لبنائها ، تسترسل البقية وراءه بدفع من العادة . على المدى الطويل ، ربما يصير حجم الحصون أقل عكساً لإرادة الفرعون منه راجعاً إلى عجزه عن تحجيم طموح مهندس المعماري - مراساً غير غريب على ملوك يرعون .

النهج المتصلب لتصميمها، إلى جانب تاريخ تمجيدها الطويل، يجعل واضحاً أن القلاع لابد أن تُعد في المقام الأول صروحاً . التناسب الشكلي للبروج والمنافذ يحمل مقارنات للتجميل الخارجى لمعبود أو كاتدرائية، أرجح منه تحديداً عسكرياً معروفاً عن تلك الأزمان . إن القلاع هي الصيغة المختارة للتعبير الذاتى عن الحضارة العسكرية للدولة الوسطى في مصر، مثل الأهرامات للدولة القديمة ، والكرنك للدولة الجديدة . أما أنها شُيّدت في النوبة وليس بمصر فحدّث ظرفى لا يؤثر على وظيفتها الرمزية الأساسية . لقد «أظهرت العَلَمُ للنوبيين، لكنّها كذلك، وربما بقدر أكثر أهمية، بينته لفرعون نفسه، وللذرية . ( ربما نذكر بين قوسين أن كلاً من رمسيس الثانى في الدولة الجديدة وجمال عبد الناصر في الأزمان الحديثة تبعاً مثال الدولة الوسطى في تشييد أعلى صروحها جنوب أسوان ) .

لا يمكن للقيمة الكاملة للقلاع أن تُدرَك إلا بالنسبة لأزمانها . لم تكن الدولة الوسطى عصرأ للإنتعاش الخلاق لنفس المدة التي كانت عليها الدولة القديمة والدولة الجديدة: لقد كانت فترة إستقرار عبر ميسور يتبع قروناً من الفوضى . كان مضمون الأزمان يُقتَض، حدراً، وسلطوياً، وشعارها القانون والنظام<sup>(٩٤)</sup> . القلاع العظيمة كانت التجسيد الطبيعي لتلك الأفكار .

## المناجم والمحاجر في الدولة الوسطى

بالرغم من أنها لم تكن البؤرة الرئيسية لتبته مصر في الدولة الوسطى، ما كانت النوبة السفلى بلا موارد إنتاجية إجمالاً. فرضاً يمكن جَبَى حجم معين من ضريبة أو جزية من المقيمين الأصليين، وربما يمكنهم أن يجنّدوا للعمل في المناجم والمقّال المصرية. مناجم الداويوت غرب توشكى تبدو كأنها أُعيد فتحها في مستهل حكم الأسرة الثانية عشرة. وكأنها أُجريت تشغيلها بقطع حتى نهاية الدولة الوسطى (٩١). مَحْجُور الجمشت عُثِنَتْ كذلك في نفس المنطقة العامة (٩٢). يدوّن مَكْتُوب من زمن أمنمحت الثانى إن فرقة عمل متجهة لمحاجر الصحراء تكونت من ٢٠ "مَسْؤُولاً ديوانياً"، ٥٠ صائغاً، ٢٠٠ من قاطعى الصّجر، ١.٠٠٦ عاملاً، ١.٠٠٠ بغلٍ للتعبئة، وعدده غير محدد من الحراس (٩٣).

صهر النحاس في بوهين لم يُستأنف في الدولة الوسطى، لكن منجماً بآبو سيال، في الصحراء شرق قلعة كويان يُعتقد أن تاريخه يعود لهذا الزمن. يسجل مفتشٌ من عهد سنوسرت الأول أن مسؤولاً معيناً اسمه حورس كان مأموراً من الملك ليجمع «نحاساً من أرض النوبة» (٩٤). وُجد كومٌ كبير من الجُفّاء ب كويان نفسها يمثل خاماً من منجم أبو سيال؛ مع ذلك، فإن بقايا الأفران وأكوام الخبث تبين أن قدراً طيباً من الصّهر كان يجرى مباشرة في المنجم (٩٥).

إنتاج الذهب النوبى تنامى أساساً تحت ظل الدولة الجديدة، لكن هناك بضع إقتراحات على أقل تقدير بأنه سابق للتأصل. بين المئات من نحوت المعدّنين والمستكشفين التي عُثِر عليها في مقاطعات تعدين الذهب النوبى (قارن الفصل التاسع)، ثلاثة لا غير يمكن نسبها، نوعاً ما يتردّد، إلى الدولة الوسطى (٩٦). كيفما اقتضى الحال، تُقرّر لوحة للدولة الوسطى من إدفو أن صاحبها "عاد بذهب وخادِمات من جنوب كوش" (٩٧). وربما أن الأكثر إقناعاً من هذه البينة المباشرة عن نشاط تعدين الذهب البينة غير المباشرة الممثلة في قلعة كويان العظيمة، التي أقيمت بصفةٍ أولية فيما يكاد يقينا لتحكم مسار الحركة بإمتداد وادى العلاقى - مسيل الماء الصحراوى الذى أدى إلى أغنى حقل ذهب في النوبة (٩٨). ميزانٌ متناهى الصغر من النوع الذى استعمل تقليدياً في مصر لوزن الذهب وُجد في قلعة سمنة، فيما يظهر طابعاً للدولة الوسطى (٩٩). قد يوحى حضوره أن المصريين في سمنة كانوا يشترون الذهب في كميات صغيرة من ممولين وطنيين، ربما استحصلوه من التتواتر القائمة بدويشات، أميلاً قليلة بمصعد النهر. كان هذا مركزاً رئيساً آخر لإنتاج الذهب في الدولة الجديدة (١٠٠)، لكن النشاط هنا أيضاً غير مشهود عليه بصفاً في أزمان سابقة. في كل الأحوال، يبدو واضحاً أن حجم إنتاج المعادن ما كان بوسعها أن يتيح التسويغ الأكبر لإحتلال مصر للنوبة السفلى خلال الدولة الوسطى إلا بصعوبة.

## الاطاحة بالقلاع

بلغ الحكم الموحّد في مصر نهايته في الأسرة الثالثة عشرة؛ خلال المرحلة الوسيطة الثانية (الأسرات الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة) تقسم القطر مرةً ثانية بين شرائع متحاربة. بقيت الأسرات الباهنة الثامنة والرابعة عشرة معاً لما يزيد على قرن بقليل. في هذه الأثناء ولج إخلاء من أسيا (الهكسوس) منطقة الدلتا وأنشأوا مملكةً لهم. حكموا كُفراعنةً الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. حفظ الحكم المصرى شبه المستقل مكانته في طيبة بالجنوب، لكن الأسرات الطيبية كانت ملزمة بدفع جزية لجارتها الأقوى والسماح لتجارة الهكسوس بالمرور عبر إقليمها.

وبينما كانت مصر مجزأة بهذا الشكل، تضاعفت قوة النوبة وثروتها قُدماً بخطى سريعة. بحلول ١٧٠٠ ق.م. كانت هناك ثلاث قوى كبرى على النيل في مكان القوة الواحدة السابقة، مُعجّلة بتدمر الحاكم الطيبى: "يوجد زعيم في أفاريس [بالدلتا] وآخر في كوش: أجلس أنا مُتحدّاً مع أسويى ونوبى، كل رجل يمتلك شريحته من مصر هذى" (١٠١). ميزاناً للقوة غير ذى يسر أبقي عليه حلف بين

الملكين النوبي والهكسوس، يستدعى ذاكرة التحالف التاريخي بين فرنسا وإسكتلندا ضد إنجلترا . أقيمت علاقات إقتصادية وسياسية إضافة لذلك بين كرمة والهكسوس<sup>(١٠٦)</sup>، وأضح أن السيطرة على التجارة النوبية الراجعة انتقلت من أيدي فراغت طيبة إلى حوية غرمانهم الشماليين .

ما الذي حدث للمخاطر الإستعمارية المصرية في النوبة السفلى خلال هذه الأزمان المختلفة؟ يتراءى أنها لم تأت إلى نهاية حالية، إذ أن حاميات توالى صتوئها في العديد من القلاع على الأقل خلال العهود الأولى للأسرة الثالثة عشرة . وهناك مراقبة ما ظلت ترابط على تحركات النوبيين، كما هو مٌبين في «تجريدات سمته» التي يعود تأريخها فيما يبدو لبأكورة الأسر الثالثة عشرة<sup>(١٠٧)</sup> . بدخول الوقت الذي كان فيه حكم الهكسوس قد أقيم بحزم في الشمال، أيأ كان الأمر، يصبح جازماً أن السيطرة المصرية في النوبة كانت قد اندركت حدما<sup>(١٠٨)</sup> .

نتيجة إكتشافاته في بوهين، أشاع ي . ب . امرى الفكرة القائلة بأن قلاع الدولة الوسطى «أطيح بها» و «دمرت بالنار»<sup>(١٠٩)</sup> . هذه الخلاصة لا ترتكز على أى نصوص معاصرة إنما تنكئ على شاهد أثرى للحرق وخراب . وكما سبق لى أن كتبت في مكان آخر، مع ذلك، يحتمل أن تكون التينة الأثرية للحرب غامضة . إن معظم المواقع في مجرى الزمن طالها الدمار من قوة إتلاف واحدة أو أخرى، وبعد مرور قرون أو ألف عام قلما يصير ممكناً أن يُقرَّ عمل الإنسان البدوى عن عمل الطبيعة<sup>(١١٠)</sup> .

في بوهين كان هنالك شاهد لا شك فيه على حدوث للحرق بين مستويات إحتلال الدولتين الوسطى والحديثة، وأبرز ما يكون عليه في ضاحية البوابة الغربية «قصر القائد» ، على أن مطالعة هذا الأثر كشاهد على الصراع المسلح تتطلب تخيلاً مُعتبراً . علامات النار في «قصر الحاكم» غالبيتها في مستوى الأرضية ، ومن غير المحتمل أن تكون ناتجة ببساطة عن حريق السقف، الذي كان إفتراضياً الجزء الوحيد القابل للإشتعال في البناية . إنها تبدو كأكثر ما يكون عليه الحال وكأنها نار أشعلت عمداً بين البناية، وهى مالا يمكن إجراؤه إلا بصعوبة إذا ما كانت العدواة في ازدياد . لربما كانت عملاً لإتلاف رمزى، إما أنه نُفذ من قبل المصريين المنسحبين أو من ناحية النوبيين عقب حيازتهم للقلة المهجورة .

شئ واحد يبدو مستيقناً . ما من هجوم ضد هذه القلاع كان حليفه النجاح في وجه دفاع منظم الإلتحاق . سواء تُغلب على قوة صغيرة أو أجلاها مهاجمون نوبيون، اعتقد أنه يمكن التسليم بإطمئنان على أن كتلة الحاميات كانت قد سُحبت من قبل . فليس متوقفاً أن الفرعون الطيبى، مُحاطاً به على نحو ما كان عليه في الشمال، كان بوسعه نشر أى عدد من الرجال والإمدادات لإحتلال متواصل للنوبة . كذلك يبدو على الأقل في الإمكان أن الإجلاء مضى في سلام، وأن النيران في بوهين وسمته<sup>(١١١)</sup> أوقدت من المصريين المتراجعين أنفسهم ، وإتلاف إمدادات غير قابلة للنقل وبنائيات سابقة للجلاء، في نهاية الأمر، إجراء عسكري مألوف<sup>(١١٢)</sup> .

إن الأوضاع التي تُصانف وجودها في بوهين ومرقسنة تشير إلى نُغرة ذات وزن بين إحتلالى الدولة الوسطى والدولة الجديدة . لقد كان هناك تدهور في المتاريس، وكذلك تراكم كبير للرمال بينها، بطول الوقت الذي أجرى فيه تجديد المبانى في الأسرة الثامنة عشرة . إلا أن القلاع لم يكن ليُتخلى عنها تماماً أثناء المرحلة الوسيطة الثانية . حضور المتسللين النوبيين يحصن دورجيتارنى يُستدل عليه بنحوت جواميس على باب وضمائنه<sup>(١١٣)</sup> . الإحتلال عن طريق التسلل مقترح بالمثل في أسكوت<sup>(١١٤)</sup> . أما الأشد إجحاءاً بقدر مضاعف، رغم غموضه ، فمجموعة من لوحات هيروغليفية وُجدت في بوهين ، يبدو أنها تشير إلى أنه في وقت ما أثناء المرحلة الوسيطة الثانية كان المعتقل المصرى السابق محكوماً من قبل عائلة مصرية لصالح حاكم النوبة (ويعنى في الإفتراض كرمة)<sup>(١١٥)</sup> . لوحة سيدهر ، أطول المجموعة ، تقرا في جزء منها : «كنت قائداً جسوراً لبوهين، ولم يفعل أى قائد أبداً ما فعلته أنا : بنيت معبد حورس ، رب بوهين، لإرضاء حاكم كوش»<sup>(١١٦)</sup> . نُصِبَ آخر يعطى الملك النوبى اسماً، جاعلاً في بيان أنه بحق حاكم ولفى وليس الفرعون الموصوف بإصطلاح «حاكم كوش»<sup>(١١٧)</sup> .

بينما حل ملك كرمة فيما يبدو - على ذلك النحو - محل الفرعون سيداً على النوبة السفلى خلال الجزء الأخير من المرحلة الوسيطة الثانية، ما كان التنفيذ المصري من ثم قد أفضى إلى نهاية . إن حجم السلع التجارية في القبور الأخيرة لثقافة المجموعة الثالثة أعظم منه بأي فترة سابقة، والتنفيذ المصري أوضح الآن بنفس المستوى في ظهور معمار من الطوب النقي وفي التمييز المتزايد لعادات الدفن (قارن الفصل السادس) . التبادل الفعال بين مصر والنوبة لم يتركز بشكل جلي ، على الرغم من الإعتبارات المناقضة، على سيطرة مصرية على الشلالات : لقد ازدهر حجمه في ظل السيطرة النوبية .

### ملخص تفسيري

يعود تاريخ مصلحة مصر الإستعمارية في النوبة إلى زمن في الماضي يقارب تأسيس الدولة الفرعونية. أثناء القرون الأولى، مع ذلك، لا يبدو هناك مخطط سياسي أو إقتصادي مكتمل للظهور نحو البلاد الجنوبية. أنشطة إستغلالية متنوعة بدأت خلال الفترة القديمة والدولة القديمة، لكنها كانت في أغلبها ذات طبيعة متفرقة وغير متسقة . أخذ العبيد والسبياسا سار بالغارات العسكرية من مناسبة لأخرى، وكان هناك إستكشاف وتقيب في الصحارى النوبية. بوهين وحدها كانت بها مستعمرة مصرية دائمة غرست على تربة نوبية، بادياً لصهر خام النحاس المستحصل في مكان ما داخل الصحراء . ما من شيء بموحي، أياً كان الأمر، أن مستعمرة بوهين كانت مركزاً إدارياً، أو أن أي جهد منظم بذل في الحقيقة لمد سلطة الفرعون على سكان النوبة السفلى. الظاهر أن الوطنيين كانوا قلة شديدة وضعفاً أكيداً في أزمان الدولة القديمة بما لا يشكل تهديداً للمصريين .

بمجيئ الدولة القديمة في مرحلتها المتأخرة ، كان الفرعون قد أصبح على علم مسبق بأراض أغنى تقع إلى الجنوب من النوبة السفلى ، ومُذاك الوقت إلى ما تلاه تركزت السياسة المصرية على إنماء التبادل التجاري مع البلاد الجنوبية . بعثات كبرى إبان العهود الأخيرة للأسرة السادسة عادت ومعها كل أنواع المنتجات الغريبة من أرض يام، التي يحتمل وقوعها في النوبة العليا .

التبادل السلعي مع الجنوب البعيد ربما اعتُرضت مسيرته أثناء السنوات المضطربة للمرحلة الوسيطة الأولى، لكنه استأنف عمله في بداية الدولة الوسطى . بحلول الأسرة الثانية عشرة بلغت التجارة مع النوبة العليا نسباً جعلت منها عُرضة للنهب الضاري من النوبيين في النوبة العليا أو اقوام الصحراء . ومن أجل أن تؤمن درب التجارة الجنوبية ، وكذلك لتؤكد إحتكاراً مصرية للتجارة ، حصّنت فراعنة الأسرة الثانية عشرة أكثر النقاط تعرضاً للنهب في منطقة الشلال الثاني بسلسلة من مرابط عسكرية هائلة ، خدمت في نفس الوقت كمحطات جمركية للتحوم. لقد قُصد بها أن تُظهر العُلم مرفوعاً في الأراضي الجنوبية، لكنها كانت - مع ذلك - بجس أكبر، الصروح المعمارية الكبرى لعصر عسكري .

ومع بناء القلاع ، تولى الفرعون إدارة سياسة صريحة للنوبة السفلى. كانت هذه عملية إستيلاء حُطّطت بالدرجة الأولى لتحمي المصالح التجارية المصرية ، ما كان لها سوى أثر مرئي قليل على حياة الفلاحين النهريين في ثقافة المجموعة الثالثة . كيفما اقتضى الحال، إستأنفت إستخراج المعادن وتعدين النحاس على نطاق صغير، وأعملت جبايات الوطنيين دون شك .

بُمرت وُحدة الدولة المصرية مرة ثانية خلال الأسرة الثامنة، وكان الحاكم المحلي في طيبة ضعيفاً للغاية ومستغرقاً للغاية في دأره دون تمكين لقبضته على النوبة . أما آخر الحاميات الجنوبية فسُحبت أو أُجليت من عامة الوطنيين، ثم سقطت القلاع في حالة من التصدع الجزئي. علي أنه بصرف النظر عما ذكر أنفاً، والت التجارة إزدهارها، بشكل بيّن تحت حماية الملك النوبي في كرمة، وظل ذلك الإزدهار قائماً ربحاً طويلاً من بعد رحيل الحاميات المصرية .

# **الجزء الثانى**

## **الأسرات والإمبراطوريات**





## الفصل الثامن

### الانتقال للإمبراطورية مملكة كرمة النوبية

أيام تجارة القوافل المروية، كانت ثروة وسلطة الممالك في غرب إفريقيا أسطورية. ولكن عندما بدأت مراكز التجارة الأوروبية في القرب من موانئ غرب إفريقيا إبان عصر الاكتشاف، وجدت المقاطعات الساحلية فقيرة ومختلفة ثقافياً، لا يعدو حكامها أكثر زعماء صغار. أما الممالك العاتية، فقد علموا أنها تقع في السهل وأراضي السافانا بالداخل البعيد. وفيما بعد كانت السياسة التي اتبنت بها القوى الإستعمارية هي أن تُنشئ علاقات مع الممالك العظيمة في أرض الداخل، ثم تسيطر عليها في آخر المدار.

كانت تجربة مصر في النوبة القديمة مماثلة. في البدء كان الفرعون مُلماً بالأراضي الفقيرة وحدها التي تقع مباشرة وراء حدوده، ولم يكن سكانها ولا مواردها تسوّغان جهداً إستعمارياً إلا بصعوبة. ثم علم مؤخراً أن أرض أكثر غنى تقع وراءها. فوجه اهتماماً متزايداً نحو النوبة العليا وحكامها؛ وأصبحت العلاقات معهم مفتاحاً للسياسة المصرية حيال الجنوب، وللهيمنة عليه في نهاية الأمر.

من هم السكان الجنوبيون، الذين جرد ثروتهم وسلطتهم جيرانهم في النوبة السفلى لهذا الحد؟ حتى هذا الوقت يمكننا أن نعطي إجابة غير مكتملة للغاية، وحسب. النوبة العليا لم تُكتشف بعد على نهج عظيم، وقد حُصر العمل الأثري في حفنة من المواقع والمدافن التذكارية. إن أيأ من هذه لا يمكن تأريخها بوجه حاسم إلى زمن أسبق من المرحلة الإنتقالية الثانية. لا نعلم لذلك شيئاً محققاً عن أصول سكان النوبة العليا، ولا ندرك إلا قليلاً عن ثقافتهم ولو في أوجها.

بحوزتنا بيّنة عن وجود ثقافة ومجتمع ناجعين في النوبة العليا لألف عام. فمذ الدولة القديمة في مراحلها المتأخرة لدينا عرض حرقوف عن أرض يام، التي لم يكن موقعها محدداً، لكن يصعب وجودها بأي مكان آخر سوى النوبة العليا. من الدولة الوسطى حصلنا على بيّنة غير مباشرة لكنها مع ذلك ملهمة بوجود تجارة واسعة النطاق مع الجنوب كما تثبت قلاع الشلال الثاني ذلك. غير أننا لم نتمكن أثرياً من معرفة ثقافة يجوز لها التماشي مع كل من يام والمملكة النوبية موضع التخمين في النوبة العليا والتي تبادلت معها التجارة الأسرة الثانية عشرة المصرية، إلا في وقت لاحق، ربما عقب التخلي الأولى عن القلاع. هذه الثقافة معروفة لنا أساساً من موقع واحد مثير، هو كرمة، التي أخذت منها إسمها<sup>(١)</sup>.

كما سنلاحظ في الوقت الحاضر، إن التواريخ الموضوعة لبداية ونهاية ثقافة كرمة غير محددة. مع ذلك، يبدو ثمة شك قليل أن قمة نهوضها وقعت خلال الفترة التي سيطر فيها الهكسوس على مصر؛ أي خلال الجزء الأخير من المرحلة الوسيطة الثانية. كان سكان كرمة، وقتذاك، معاصرين لثقافة المصموعة الثالثة في مرحلتها الأخيرة. يصعب لذلك إبداء تعجب لما اكتشف من تقاسم الثقافتين لكثير من الخصائص، وبما يشير بكل إحتمال إلى سلف واحد.

## خصائص ثقافة كرمة

لم يتم التعرف بعد على مواقع سكنية لأهل كرمة؛ نستقى معرفتنا في الوقت الحاضر عن الجوانب الأصلية النقية لثقافتهم من المدافن بصفة مطلقة. مرة ثانية، نلزم بأن نتعرف ونُميز ثقافتها عن طريق فخارها وعادات دفنها أساساً (قارن الفصل الخامس) .

أهل كرمة، مثل النوبيين في النوبة السفلى، صنعوا فخاراً من أنواع عديدة. أما أكبر الأواني الاستهلاكية وألها إستعمالاً فتكاد تكون غير مميزة عن أواني ثقافة المجموعة الثالثة كذلك فإنهم صنعوا قِداداً سوداء لامعة ذات زُخرف محفور مملوء باللون الأبيض، يوازي مرة أخرى تقليد النوبيين في النوبة السفلى . في كرمة، مع هذا ، شكّل مثل هذا الفخار النسبة الضئيلة من المُرْكَب الخَزَفِي. أغلب سلع الترفيه كثرة وتُميّز في إناء أحمر، أسود الرأس، خاضع للتقليد النوبي العام لكنه يحقق، على أيدي قوم كرمة، رِفَّةً في الصنْع لم يسبق لها مثيل أبداً في فخار ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثانية . إن صناعة أواني كرمة رفيعة المستوى للدرجة التي جعلت مكتشفها، رايزنر، يعتقد خطأ أنها قد صُنعت على العجلة (وإنها لذلك كانت في الحقيقة إنتاجاً للصناع المصريين، حيث أن عجلة الصناع لم تكن معهودة آنذاك للنوبيين) (٢١).

أفضل فخار كرمة ذو رأس أسود له جدارٌ رفيع لأقصى حد وأطراف حادة، يذكرنا بصناعة ثقافة المجموعة الأولى المعروفة بالأواني « الحديدية المبرقشة » (الفصل الخامس). إن الأواني لها باطن وأطراف سوداء، حالكة السواد، لامعة مصقولة، وإلى الأسفل تمتد رقعة السواد عادة نحو بوصة على السطة الخارجى للإناء . أما السطح الخارجى الأسفل فهو أحمر غامق . في معظم الأحوال يُفصل الجزء الأسود العالي والجزء الأحمر بأسفل الإناء بلون أبيض معدي. هذا الملمع لا يوجد في أى من مصنوعات النوبة ذات الرؤوس السوداء، وقد صار أصلها والغرض منها موضوعاً لنقاش طويل (٢٢) .

أكثر شكل نموذجي في مصنوعات كرمة مُسوَّدة الرأس إناء مستدير القاع، قدحٌ عريض الفم (الشكل رقم ٢٩)، ليس له شبيه في صناعات الفخار في النوبة السفلى . هذه الأواني توجد "متداخلة" مع بعضها البعض في تجمعات في أى قبر من قبور كرمة بالتقريب، يبلغ عددها أحياناً عشرات في القبر الواحد . إنها من الشيوخ بحيث أن المصنوع مُسوَّد الرأس ككل يوصف في بعض المرات بأنه "صناعة كأس كرمة". مع ذلك، فإنه يوجد في أشكال مختلفة أخرى مثل الطاسات نصف الكروية وفي شكل مميز لقارورة أنبوبية (الشكل رقم ٢٩) .

الممارسات الجنائزية في كرمة تتقاسم الكثير مع ممارسات ثقافة المجموعة الثالثة. فالحفرة الأصلية للقبر يغلب أن تكون مربعاً ضحلاً أو حفراً مستطيلاً له أركان مستديرة ( الشكل رقم ٢٩). يوضع الميت على شقه الأيمن، في وضع منقبض يواجه الشمال. تتوفر القوابين الجنائزية فيما بين القبور . ومن العادة تُرتَّب أدوات الزينة وغيرها من الأمتعة الشخصية بجوار الميت، بينما تُصَفَّ أواني الفخار التي تحوى الطعام والشراب على حيطان الحجرة. وتُجمع الكبوش الضحايا في أديم الحالات مع الجنائز . وبعد الدفن ، يغطى القبر بثل مستدير من التراب موسوم الطرف بطلقة من الحجارة يُعرِّزها صف من رؤوس الثيران حول الحافة الجنوبية من متراس التل .

بينما تنتمى الممارسات الواردة بأعلاه إلى تقليد عام ربما كان منتشرراً في طول النوبة وعرضها تُميز خمسة خصائص مدافن كرمة من جنائز النوبيين في النوبة السفلى :

## جنازة السرير

يكاد في كل قبر لم يتعرض لنهب غير معروف في كرمة، أن توجد الجنازة الرئيسة مُصنَّجة على سرير محلى الصنع (عقريب) من النوع الذى ما انفك مُستخدماً في النوبة (انظر الفصل الثانى).



شكل رقم ٢٩

### نموذج لقبر من كرمة وقرايينها الجنائزية

هذه العادة تُصانف في ندرة شديدة فحسب في قبور ثقافة المجموعة الثالثة (٧). إنها، أياً كان ذلك ، تملك تاريخاً لاحقاً في النوبة، كما سيُرى في فصول قادمة .

### فخار كرمة

الأواني المصنوعة للتجارة من فخار كرمة مُسوّد الرأس المميز توجد عَرَضاً في قبور لا تنتمي إلى كرمة في النوبة السفلى أو حتى في مصر، لكنها ملتح يكداد يكون شاملاً على العموم لقبور كرمة الأصلية، ويوجد عادةً في تجمعات كبيرة .

### المدافن التلية القبابية

الركام الترابي المستدير، أو متراس القبر، وجه شائع لجنازات النوبيين في النوبة العليا والسفلى . فكما شاهدنا في الفصل السادس ، مع هذا ، فإن متراس « المجموعة الثالثة » النموذجي أسطواني

الشكل، حيث شُيد بين حائط رأسى متماسك البناء . شكل متراس القبر في كرمة قبابى، ينحدر للأسفل من قمة منخفضة إلى سطح الأرض في كل الاتجاهات. أما حلقة الحجارة التى تجد المتراس فتعلو بوضع بوصات فحسب؛ وهى للتغطية الزخرفية أساساً وربما لتحمى حواف المتراس من التعرية . العيد من قبور كرمة تحيط بها حجارة سوداء اللون، بينما سطح المتراس بين حلقة الحجارة مغطى بحصباء بيضاء أو صفراء . متاريس قبور كرمة متفاوتة جداً في الحجم أكثر من متاريس القبور في ثقافة المجموعة الثالثة ؛ إن أكبرها أضخم بقدر كبير من أى ما وُجد في النوبة السفلى .

## أصاحي الكبوش

تضم القبور بين الفينة والأخرى ضحايا حيوانية . ضناً وأغناماً بصفة رئيسية . بل إنها أكثر من ذلك توجد في حُفر مستقلة للتضحية ، بين جبانات ثقافة المجموعة الثالثة . إنها تكون ملمحاً مطابقاً لجنائزة كرمة، ويحدث دائماً بين أرجاء القبر نفسه . تقع في العادة مباشرة أمام العنقريب الذى يرقد عليه الميت؛ في حالة أو حالتين، وضعت الضحايا على قدم العنقريب نفسه . وعثر على عدد بلغ في الكثرة ست حيوانات قربان بنفس القبر .

إن الأشد تمييزاً من كل ما تقدم :

## الضحايا البشرية

هنالك عدد يثير الدهشة من قبور كرمة . على الأقل القبور التى يعود تأريخها إلى أوج المملكة . يحتوى أجساداً لواحد أو أكثر من ضحايا قربانية تم دفنها في نفس الوقت الذى دفن فيه "سيد" القبر . لقد وُجدوا بنفس القدر في جبانة مرقسة الصغيرة غير المثيرة، التى ستجرى مناقشتها مؤخراً، لكنها توجد في كرمة أكثر توافقاً ووفرة . إحتوى العديد من القبور الأصغر والمتواضعة نسبياً محتفظات قربانية واحدة أو أكثر، بينما نجد أن أضخم القبور الملكية ربما أودع فيها أربعائة قربان. خلص رايزنر من أوضاع الأجساد إلى أنهم دفنوا أحياء وماتوا اختناقاً<sup>(٥)</sup> .

الفروق الشكلية بين ثقافة المجموعة الثالثة وثقافة كرمة هي، كما سيرى ذلك، من نوع طفيف نسبياً . فالإنسان على أقل تقدير "بنات عم ثقافياً"، وربما على أفضل الوجوه إنقسموا من سلف واحد في ثقافة المجموعة الأولى<sup>(٦)</sup> . إن أشد الفروق قيمة وأهمية بينهما، مع هذا، لا تُشاهد في الشكل غالباً بمثل ما ينطوى عليه مقياسا وكثافة تطورهما النسبى. ولكيما يُقدر هذا الفرق من الضروري أن نتبصر الموقع الأثرى العظيم لكرمة، الذى لا يعده آخر في النوبة السفلى .

## موقع كرمة

كرمة الحديثة قرية هائمة يقطنها عدة آلاف من السكان وتقع على ضفة النيل الشرقية بأقصى الحد الشمالى من امتداد دنقلا . أخصب منطقة في النوبة العليا (انظر الفصل الأول). إن السهل الفيضاني هنا ليس عريضاً بشكل إستثنائى فحسب، ولكن المساحة المتوفرة للزراعة تتسع إتساعاً متعاضداً بوجود قناة سابقة في النيل، ما يُسمى بحوض كرمة، التى يغمرها الفيضان سنوياً عندما يعلو النيل. هذه واحدة من الأماكن القليلة في السودان التى يمكن أن يُمارس فيها ري الحياض الطبيعي، من الطراز الذى يُشخص مصر القديمة . هنا، على رأى من القرية الحديثة، يبدو أثر أول مقعد للسلطة الأوتقراطية في النوبة القديمة .

حُفر الموقع الأثري لكرمة بين ١٩١٢ و ١٩١٦ بواسطة جورج أ. رايزنر، وكان أول عمل رئيس

إصمّلت به بعثة هارفارد - يوسطن في السودان . لقد تم الإبلاغ عنها إبلاغاً مكملاً أكثر من أي من حفريات راينز النوبية اللاحقة <sup>(٧)</sup> . رغم هذا، فإن مساحات كبيرة من الموقع لم تُستكشف أبداً ، وهناك جزءٌ معتبر من المادة المثقبة لم يُنشر بعد .

موقع كرمه حقه راينز اشتمل على مساحتين رئيسيتين . فحوالي ميل ونصف من ضفة النيل، ليس بعيداً وراء صف المنازل الحديثة، كانت هناك كتلة عظيمة متاكلة من الطوب التي تعرف محلياً بالدفوفة الغربية أو السفلى ( تعبيراً نوبياً لأي أطلال من الطوب لا تزال قائمة) . وعلى بعد ميلين من الشرق البعيد، عبر سهل صلاصلى منفتح (يقع الآن غالباً تحت الزراعة)، كانت هناك جبانة كبيرة أيضاً بقايا بناء طوبى ثانٍ، *الدفوفة العليا* .

أما *الدفوفة الغربية*، التي استرعت أولاً إنتباه راينز، فهي واحدة من أكثر الهياكل غرابية في النوبة، الوحيدة من نوعها في الوجود . كما شُيّدت أصلاً، فقد كانت كتلة صلبة مستطيلة من الطوب التي يبلغ طولها أكثر من ١٥٠ قدماً وعرضها ٧٥ قدماً، وربما أنها تشتمل لإرتفاع أعظم باعتبار أن ٦٠ قدماً لا تزال قائمة (الصورة ٨ - ١) . بين هذه الكتلة الصلبة لم تكن هناك شقوق داخلية؛ إنما بقايا لا غير لمدرج سلالم ضيق متعرج يؤدي في صفاء إلى قمة الهيكل ( الشكل رقم ٣٠ ) . المدرج بين المبنى يبدأ من ارتفاع يُعلو فوق الأرض بمقدار بضعة أقدام؛ ثم يواصل نحو الأسفل من سطح الأرض بمقدمة تتجه غرباً من ناحية الكتلة الرئيسية للمبنى . في أول طابق جعل المدرج واسعاً ليكون نوعاً من غرف الحراس - المساحة الوحيدة في نطاق كتلة الطوب الصماء التي يمكن وصفها كغرفة .

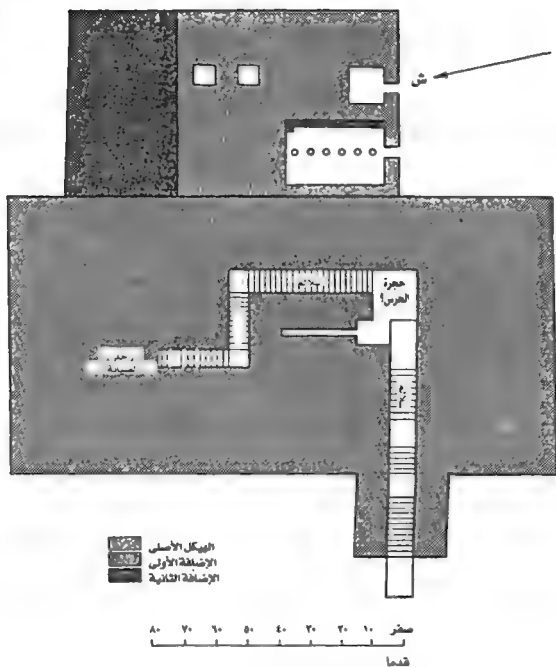
عقب البناء الأصلي للدفوفة السفلى، أُضيفت زيادتان أضفتا مسحةً بارزة على وجهه الشرقي . إن كليهما، مثل البناء الأصلي، طوب صلب بالتقريب، وربما إن كُلاً منهما نهض حتى الإرتفاع الكلى للهيكل الأصلي ليوسع السطح المرتفع في قمة البناء . مع هذا ، فإن أول وأكبر الإضافتين يحتوى غرفتين صغيرتين، أدخلتا من خلال مداخل الأبواب في مستوى الأرض، وأيضاً عمودين رأسيين ليست لهما فتحات جانبية ( الشكل رقم ٣٠ ) .

سمة بناء *الدفوفة الطوبى* مصرية بما لا يدعول خطأ . إنها تشترك مع قلاع الدولة الوسطى بالنسبة للإستعمال المنظم لرباط الخشب : أعمدة ضخمة ، مجزأة بخشونة وموضوعة أفقياً على البناء الطوبى بزوايا قائمة في وجه الحائط <sup>(٨)</sup> . إن *الدفوفة* قطعاً ليست قلعة، مع هذا، وهي لا تحمل في الحقيقة تمثلاً لأي بناء آخر معروف عن المعمار المصري .

الوجه الغربي للدفوفة مجاورٌ بتجمع غير منتظم من حجرات الطوب التي بدت كأنها أُعيد تشييدها وتم توسيعها مرات عديدة . هنا وللمرة الثانية تُوحى الإستقامة والتساوى المتناهي للأسوار يعمل مصري . أما الحثالة الوافرة التي وُجدت بين هذه الصجرات الغربية فإنها تؤثت الدليل الحقيقي الوحيد لتاريخ ووظيفة *الدفوفة السفلى* . الأغلب وضوحاً شقوق مقدارها ٥٦٥ ختماً طينياً دامغا من طراز مصري، بُنيت على أوان ، وسلال، ونوعاً ما من حار خشبي . هناك أيضاً بقايا شقوق لمواد كثيرة من صنع مصري، مثل قوارير مرمية للدهان (يحمل خمسة وعشرون منها اسم فرعون الدولة القديمة بيبى الأول)، وأواني أخرى حجرية أكبر منها ، وأواني فخارية ومن الصينى، وعقود وبلورات حجرية وخزف لصنع العقود، وقطع من البرونز . وفيما عدا قوارير الدهان فإن هذه المواد كانت في الغالب أنواعاً من الدولة الوسطى أو متأخرة عنها ، طبقاً لراينز <sup>(٩)</sup> .

كذلك كان ممثلاً في الحثالة بالدفوفة الغربية اشكلاً مختلفة من المواد الخام :

بينما تُعد الأختام الدامغة بطريقةٍ ما دليلاً على الأنشطة الإدارية للإحتلال المصري ، تقف المواد الخام والمنتجات التي لم يكتمل إنتاجها دليلاً على الأنشطة التصنيعية . إن المواد الخام التي عُثر عليها تحتوى على كتل عديدة من *الكرباك* المستعمل لتلميع الفخار : وكتل من لون أحمر يُستعمل في غسل أحمر لتغليش الفخار، وكتلة



شكل رقم ٣٠  
خريطة للدخول السفلي (الغربية) هي كرم

كبيرة وكثُلٌ صغيرة عديدة من أكسيد النحاس الذى يُستعمل لتلوين مصنوعات الصينى وغيرها من اللعيات ، وكثُل من الراتنج، وكثلة من المايكا لخزاف المايكا، وعدة رواسب كبيرة من بلورات الصخر وجصيات من العقيق الأحمر من نفس المواد، كالتى عُثِر عليها في حبات الصخر، وشقوق بيض النعام التى صُنعت منها حبات في شكل أقراص صغيرة. حصى كثيرة مصنوعة بلعمة خضراء عُثِر عليها أيضاً، وكانت قد استُعملت جبيراً لصلل مصنوعات الصينى. أما حصى الصلل للفقار والمحار الصدفى لكساء قوالب الفقار ، فقد وُجد بأعداد صغيرة، وهناك كميات من كؤوس الشرب الكبيرة ذات اللون الأسود غير مكتملة الصنع أو التى لم يُحسن حرق رؤوسها، وبعض أوانى الصينى التى أسس حرقها، وحبات كثيرة اكتمل صنعها جزئياً، عديد منها يظهر أنه تكسر أثناء الصلل، كلها تم رسدها . جماع الإثبات هو أن صنع الفقار، والصينى، والكوارتزيت المصقول، والعقود، وخزاف المايكا بالدقوفة السفلى تواصلت خلال فترة ... جِبانة الدقوفة العليا وأخرجت نفس أنواع المادة التى تماثل ما وجد بتلك الجِبانة

... إن نقاطاً عديدة لم يتحدد مصيرها بالبيّنات المتوفرة لدينا . بالرغم من ذلك، فإن النقطة الرئيسة تبرز ناطقة بأن الدقوفة كانت مركزاً لعمل تجارى ذى اعتبار، سواء أكان ذلك العمل تخزيناً أم غيره ، لسلع قيمة بشكل أو آخر. لكن بلا شك كانت هناك أنشطة أخرى مثيرة للإهتمام - التجارة في المنتجات القادمة من الأراضي الأبعد جنوباً، وإستلام وتصريف البضائع من وإلى مصر <sup>(١٠)</sup> .

هنا بالتأكيد واحد من المخازن الكبيرة أو "المصانع" التى أنبعت منها تلك التجارة العظيمة في النيل، والتى لاقت مصر مثل تلك المعاناه لتحضى مرورها بمجرى النهر شمالاً.

أما أن الدقوفة السفلى قد حُطط لها وشُيدت تحت إشراف مصرى فيبدو مُشاهداً من طبيعة البناء الطوبى. مع هذا، فمن الخطأ أن يُفترض أن اصل التجارة النوبية في النوبة العليا كان في قبضة مصرية . لربما أن المستعمرة المصرية الدائمة في كرمة كانت صغيرة للغاية، حيث أنه لم يُعثر هنا على قبور مصرية صميمة، في حين أن القبور المصرية سائدة في كل قلاع الشلال الثانى . إن المصريين المقيمين في الدقوفة كانوا - من المحتمل - في معظم الحالات كتبة، يدونون وصول الشحنات وترحيلها وربما أشرفوا على عمل جماعة من الصناع الحرفيين المحليين الذين يصنعون الخرز والصينى على الطراز المصرى للسوق المحلى. وكما تُبين الأدلة المستقاة من الجِبانة الشرقية (انظر أدناه) ، فقد عاشوا وعملوا تحت رعاية حاكم محلى كان هو القوة المتحكمة الحقيقية على تجارة النيل <sup>(١١)</sup> .

كل التفسير الفائت مؤسسٌ على معثورات بين الحجرات الغربية للدقوفة السفلى. إنها لا تغل شيئاً لتشرح الكتلة العظيمة الصماء من البناء الطويل بأكمله الذى يعلو فوقها . لقد ظل هذا معتبراً عُرفياً كنوع من التجهيز الدفاعى، ودُعِى الهيكل بأكمله نقطة تجارية محصنة <sup>(١٢)</sup> . إلا أن الدقوفة العظيمة لا تُعنى شيئاً كتحصين؛ إنها لا تحمى سوى نفسها ، ولا تحوى شيئاً. فبينما يمكن للتجار ومسؤولى الدولة المقيمين أن يتخذوا سطحها الأعلى ملجأً من الهجوم، فإنه من الصعب تخيل بناية أشد عُرضةً للحصار منها . إن باب خروجها الوحيد يمكن اجتازه بحفنة من الرجال المسلحين، وسوف ينفض عدد شاعليها عطشاً خلال بضعة أيام .

إلى مبلغ عشرة أو إثني عشر قدماً كثافةً ، يجوز في الحقيقة أن يكون حجم أسوار الطوب مؤشراً على طبيعتها الدفاعية . ما وراء تلك النقطة، مع هذا، لا يُجنى شيئاً من الكتلة المضافة إلى البناء كثافة الأسوار، بالنسبة إلى المساحة المحاطة، يمكن أن تُنسب بإضطراد إلى متطلب وظيفى واحد لا غير: الإرتفاع. فبإعطاء ذلك الإعتبار، يبدو ظاهراً لى أن دفوفة كرمة قد حُطت كُبرج مراقبة عاتى، يرتفع ربما إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف الإرتفاع الذىبقى إلى الآن .

عرض مثل ذلك الهيكل لا يصعب تصويره . فإذا كانت الشحنات المُحملة، كما هو مقترح ، لا

تصل إلا على فترات غير منتظمة الوقوع، وفي قوافل كبيرة<sup>(١٣)</sup>، فإنه دونما شك يكون من النافع للملك وضباط بلاطه أن يعلموا أول الأخبار عن وصول المراكب، حتى تكون جماعات التفرغ والشحن جاهزة لهم ولكي يسبقوا المنافسين من أصحاب الأعمال الخاصة. وحيث أنه لا توجد جبال في ضاحية كرمة، فإن موقعاً عالياً لا يمكن إنشاؤه إلا اصطناعياً<sup>(١٤)</sup>. إقراراً، لا يعطى هذا الإضافات بالوجه الشرقي من النقوفة - إنه سر ربما لا يُكشف عنه أبداً .

## الجبانة الملكية

تُغطى الجبانة الشرقية الكبرى في كرمة مساحةً ربما تبلغ ميلاً من حيث الطول ونصف الميل عرضاً . تشمل بكل الاحتمالات بضعة الاف من القبور، بالرغم من أن أجزاء ضخمة منها لم يتم مسحها إلى اليوم. عدد القبور المحفورة من قبل راينزر أثناء مواسم عمله الثلاثة غير عدد في أي من تقاريره، لكن يمكن لها فقط أن تكون نسبةً من الجملة . بين القبور المحفورة، هناك ٢٨٨ تم الإبلاغ عنها بلاغات فردية<sup>(١٥)</sup>، وهناك أخرى، على وجه الخصوص بالجزء الشمالي من المقبرة لا يزال غير مبلغ عنها .

الملاحح الحيوية للمارسة الجنائزية في كرمة كانت متماثلة بالفعل في كل قبر تم حفره، وتماشى مع الخطة العامة التي سبق لنا وصفها آنفاً . أثاث القبر أيضاً كان متوافقاً بشكل ملحوظ التكوين إن لم يكن في الكمية . مع ذلك ، فقد عُثر على تغييرية ساحقة في الحجم الكلي ودرجة التعقيد في قبور كرمة. إنه على ذلك الأساس في المقام الأول قام راينزر بتقسيمها إلى أربع جماعات : مدفن تلى عظيم، مدفن صغير ، مدافن إضافية ، وقبور مستقلة .

## المدافن التلية العظمى

يصل عدد المدافن التلية العظمى إلى ثمانية أمثلة ليس إلا، وقد رُتبت بشكل أو آخر في صفٍ على الحافة الجنوبية من الجبانة . هذه الهياكل ليس لها مثل وسط الصروح الجنائزية في النوبة . أكبرها يبلغ بالتقريب ٣٠٠ قدم قطراً، وإن أرجاءه الداخلية لأشدّ إمتداداً بكثير مما تمتد فيه أرجاء أي هرم مصرى بالداخل<sup>(١٦)</sup> . ولإستكمال صورة الأبهة الهمجية يمكن إضافة أن عدد القرابين البشرية في المدفن التلى المجهول بكرمة . يبلغ ٢٢٢ بالعدّ الحقيقي، وربما أنها بلغت ٤٠٠ قبل النهب<sup>(١٧)</sup> . أكبر من أي ما وُجد بأي بناية لقبر معروف لأى حضارة كانت .

الأحوال الداخلية المتضمنة بالمدفن التلية العظمى يصفها راينزر على النحو الآتي :

يقع المدفن الرئيس على الجانب الجنوبي للقبر، عادةً على سرير، على الجانب الأيمن، مع ثنى الأرجل بخفةٍ من الركبتين، ووضع اليد اليمنى تحت خد واليد اليسرى على أو بالقرب من الكوع الأيمن . وكان الجسد فيما يبدو مُدْتَرّاً بالكِتان، مع الأسلحة وأدوات الزينة الشخصية المعتادة . وعلى السرير وُضِعَ، كقاعدة، سند خشبي للرأس، ومروحة من ريش النعام، وزوج من صنادل الجلد الخام . إلى جوار قدم السرير أو عليها أُلْقِيَت كذلك أدوات معينة للزينة ومعدات برونزية. بالقرب من السرير وحول جدران الحفرة رُتِبَ عدد كبير من أواني الفخار .

المدفنة الرئيسة وأثاث القبر شغلا خيزاً صغيراً فحسب من مساحة أرضية القبر. أما باقى المساحة فاحتلتها أجساد بشرية، تتراوح من واحد إلى إثني عشر أو أكثر عدداً، وأجسام كبوش من واحد إلى ستة. مواقع هذه الأجساد البشرية لا تتبع بصراحةً أى قاعدة بعينها؛ فالأغلبية كانت على الجانب الأيمن؛ ومنها ثمانية تقع أغلبيةً مع اتجاه رأسها شرقاً، لكن يكاد كل وضع ممكن أن يكون موجوداً. مدى التضييق يتفاوت أيضاً بالمثل - من وضع الجسد الرئيس نصف الممتد إلى أضيق خَشِرٍ ممكن توضع الأجساد فوق بعضها بعضاً . إن بعضها كان على الظهر والآخر على البطن. الأيدي عادة فوق الوجه أو على الحلق، أحياناً مثنية مع بعضها البعض، وأحياناً قابضة



على الشعر. في حالات قليلة لا غير شهود شخص يوقد كما يفعل الزعماء، ولكن في عدد من الحالات شُهد تعديل ذلك المسلك .

يظهر جسد الزعيم دائماً مغطىً بجلد، يكون في الغالب جلد ثور، وفي بعض الحالات على الأقل كان الجلد مغطياً للقرابين إلى جانب ذلك . لزاماً أن يتذكر علماء الآثار المصرية إنه في رسالة أمنمحت الثالث ل سنوه، الملك، بعد أن وعد سنوه بدفن مصري أميري، يضى فيقول : " لا تدع موتاك يأخذون مكاناً بأرض أجنبية، لا تدع البدو يقومون بإعداد مراسم جنازتك، لا تدع لنفسك أن توضع في جلد كُتَيْش" (١٨) .

أكبر ثلاثة من المدافن التلية العظمى، تعرف بالثالثة، والرابعة ، والعاشره ، لها خواص معينة خاصة بها . في كل من هذه الحالات أُسبغت على كتلة المدفن التلي غلظة معينة عن طريق "بنائية-كُبرى" ذات أسوار طويبة بالغة الطول، مستقيمة، غرضها الوحيد فيما يبدو أن توفر نوعاً من الهيكلية للحفرة (قارن الصورة ٨ - ب) . يجرى مر طويل ، غير منكسر عبر العرض الكلي لكل حفرة، بينما الأسوار الباقية للبنائية الكبرى تتبع منها على زوايا قائمة . أما غرفة الدفن الرئيسة فتنتفتح مباشرةً على الجانب الجنوبي للممر بالقرب من مركز المدفن التلي (الشكل رقم ٢١) . القرابين المدفونة وُجدت بصورة أولية بين الممرات المعارضة ، التي استدل رايزنر بناءً عليه أنها كانت ممرات قربانية .

### المدافن الإضافية

المدافن الإضافية قاسم مشترك لكل المدافن التلية العظمى عدا اثنين، وكذلك بضعة من المدافن التلية الصغيرة . إنها ليست لها حفر للقبور على شاكلتها، لكن أُدخلت من خلال سطح المدافن التلية القائمة في وقت ما بعد إكمالها . إن طبيعة هذه القبور وتوزيعها يبينان أنها لم تكن ببساطة تدخلات عشوائية من قبل ذرية لا تحترمها ، ذلك حيث أنها وُضعت في عناية بشكل يتفادى قلقله غرفة الدفن الرئيسة أو إتلاف الأسوار الأساسية . وفي المدفن التلي الثالث ، صنعت غرف القبر لكل المدافن الإضافية بوضع أسوار قصيرة فاصلة بين الأسوار الرئيسة للبنائية الكبرى بغرض إنشاء غرف صغيرة من الطوب (الشكل رقم ٢١) . لقد اقترح رايزنر أن مدافن كريمة بأحجامها الضخمة قُصد منها أن تترك مساحة لمثل تلك المدافن عمداً . أما أكبر عدد منها تصادف وجوده بأي من المدافن فكان ١٠٢ . (١٩) وبالرغم من أن المدافن الإضافية ليست بها بناءات فوقية خاصة بها، فهي ثرة في ذاتها بمستوى ملحوظ، وكثير منها مُصطببٌ بقرابين بشرية .

### المدافن الصغرى

هذه تمثل أنواعاً أصغر حجماً من المدافن العظمى، وليست بها ممرات للضحايا أو بناءات كُبرى من الطوب . وتوجد تكاد في كل حالة غرفة مستطيلة أو مربعة محفورة في الطمي، وتحتوى القبر الأساسي، وإمتهته، وقبوراً مفردة للضحايا إن وُجدت. المدافن في هذه الحالات تظل أضخم بكثير مما هو مطلوب لتغطية القبر العادي، ويتراوح محيطها بين حوالي ٧٥ إلى ما يزيد على ١٥٠ قدماً . مع ذلك، قليل منها يحتوى قبوراً إضافية . عشر على المدافن الصغرى بشكل غير منتظم في أنحاء متفرقة من جبانة كريمة، ولكنها كانت مُجمعة بطريقة واضحة في الطرف الجنوبي، مجاورةً بالقرب من المدافن العظمى.

## القبور المستقلة

ذلك وصف قُدُمه رايزنر القبور التي لم تملك بناية فوقية أو أن بها مدفنة ذات اتساع كافٍ لتغطية القبر وحسب. إن بعضاً من أقفر (وربما أقدم) هذه القبور ينطوى على حفرة بيضاوية الشكل أكثر منها قبراً مستطيلاً، مثل قبور ثقافة المجموعة الأولى (الفصل الخامس). وفي حالة القبور ضئيلة الحجم كانت المعدات المألوفة لجنازة كرمة متواجده بانتظام ومشتملة على:

.... حفرة مستطيلة مفتوحة، تحتها مرقد للجنازة، مصحوباً بقربان بشري واحد أو أكثر مُدكّر بستر من قماش أو أردية جلدية، وكبش، ومعدة من نوع كرمة الخاص بها، ومسند للرأس، ومروحة، وزوج من الصنادل، وعدد من الكؤوس مُسوكة الرأس، ولباق، وقبور، وعدد من قداح الأمتعة أخرى (٢٠).

وُجِدَت القبور المستقلة في كل جزء من جَبانة كرمة . مبعثرة في الطرف الجنوبي حول المدافن التلية الأكبر مساحة وفي وسطها، في حين أنها في الشمال كانت تبدو التكوين الوحيد للقبور الموجودة. لاحظ رايزنر أن قرابين الأضاحي الحيوانية كانت أغلب توفراً في القبور الشمالية، حيث حلّت محل القرابين البشرية لحذر كبير .

## المباني الجنائزية

إضافة إلى مدافنها التلية العظمى والصغرى، إحتوت جَبانة كرمة بقايا لبنائيتين ضخمتين تُذكران في بعض الجوانب بالدفوفة السفلى العظمى. إن إحداهما، وهي لا تزال مُنتصبة لإرتفاع معتبر، تُعرف في الحقيقة بالدفوفة العليا أو الشرقية . أما ثاني بنايتي الجَبانة فقد وُجِدَت في حالة أكثر تعرية، لكنها كانت قريبة الشبه في خطتها من الأولى. فكلاهما اشتمل على غرفتين طويلتين موصولتين بممر ضيق بينهما وممر ثانٍ للخارج. وأقيم صف من الأعمدة إلى أسفل المركز في كل غرفة فيما يبدو سقفاً من الأعمدة المتعارضة (الشكل رقم ٣٢). إن كلا الهيكلين له أسوار طويلة ضخمة، تتعدى ٣٠ قدماً في كثافتها . أحدهما . ويفترض أنه الأسبق - (٣١) نما بالتراكم الطبيعي بدءاً بنوافٍ أصغر، بينما الثاني تم بناؤه منذ البداية مُتخذاً شكله النهائي. المبنى الذي يبدو أنه الأسبق إحتوى كذلك مدرج سلالم داخلي ضيق يؤدي إلى طابق أعلى أو إلى السقف . وتحمل الحجرات الداخلية لكل من البنائيتين بقايا زُخرف مرسوم بالأحمر، والأسود، والأصفر. أما الرسوم فإنها مصرية في الأسلوب والموضوع بما لا تجدر تخطئته، مُبَيّنة مناظر لشاطئ إنساني وحيواني مالوف. البنائتان العظمتان تقعان بجوار الطرف الجنوبي لجَبانة كرمة، في كل حالة إلى شمال أحد أكبر المدافن التلية بالضبط. إن رايزنر، لأمر مُستبعد، خلص إلى أنهما غرف لإعداد الجناز مرتبطة بالمدافن التلية العظمى، ولربما أدت كل واحدة منهما خلال فترة طويلة من الزمان مهمتها في وصل لعدة جَبانات متعاقبة. الغرف الداخلية نُهبَت نهباً تاماً منذ القدم، على أن كتلة كبيرة من الأشياء المكسرة التي اعثر عليها البحث بالضاحية ربما أفرغها الناهبون مما إحتوت. إن عددًا ضخمًا من اختام الطين ، مشابهة في الطراز والتاريخ للتي وُجِدَت في الدفوفة السفلى، أوجت إلى رايزنر أن إحدى مباني الجَبانة قد أُقفلت بالاختتام، ثم أُعيد فتحها مرات عديدة (٣٢) .

كما بالدفوفة السفلى، تلهم الأسوار العاتية لغرف تحضير الجناز (٤) بإرتفاع غير عادي. ربما أن قممها كانت محطات مراقبة لحراس الجَبانة. إن مراقبة تُجرى على جَبانة ضخمة كهذه بسطحها المموج بالمدافن التلية الكبيرة والصغيرة ، ربما كان مهمة صعبة على مستوى الأرض . لا ريب البتة .

لقد وُجِدَت غرفاً لتحضير الجناز (٤) أصغر بكثير، مرتبطة بستة من المدافن التلية الصغرى في كرمة . كانت هذه غرفاً مُربعة، صغيرة من الطوب مُبينة على طرف المدفن التلي، على طول جانبه الجنوبي بطريقة أو أخرى. من المفترض أنها كانت مخصصة لوضع المقتنيات التذكارية التي تعقب



قفل القبر، بالرغم من أنها كلها قد نُهبَت كثيراً منذ القدم. مثل هذه الغرف تقتدر بمدافن كثيرة في ثقافة المجموعة الثالثة إبان مرحلتها المتأخرة في النوبة السفلى، لكنها فيما يبدو كانت وجهاً غير عادي لممارسة الدفن بكرمة .

### معضلات التأويل والتسلسل الزمني

إن تأويل راينرز لموجودات كرمة يقدم مثالاً على عبقريته الحُسية في أفضل حالاتها وأسوأها. بتطليل تفصيلي أعد بعناية مدمجاً بشطحات خيالية، أعاد تصميم كلاً من الهوية والتاريخ لموقع كرمة بتأكيد المعهود المُعَدَّ بوثوقه. لقد كانت، فيما خُصص إليه، مستعمرة من المصريين المتوطين في الدولة الوسطى، وكُرسياً لأول ولاية مصريين في كوش<sup>(٣٦)</sup>. من هذا يستنتج أن الهيمنة المصرية على النوبة العليا سبق لها أن أُنشئت في الدولة الوسطى، وهو إستنتاج لا يمكن بخلاف ذلك أن يؤخذ من السجل النصي أو الأثري .

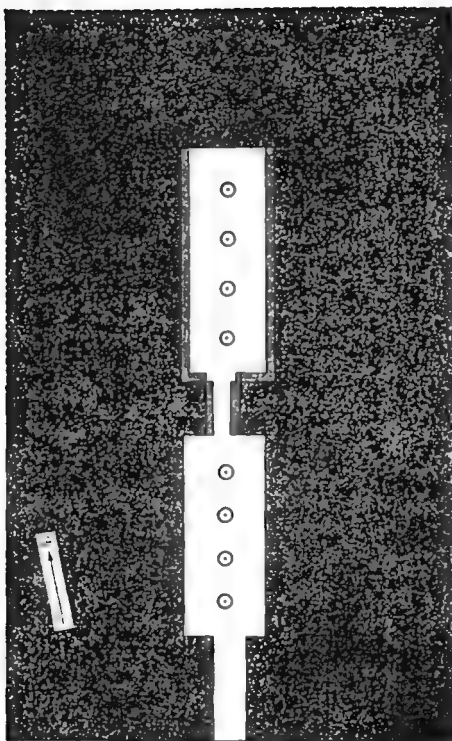
تفسير راينرز أُسس لدرجة كبيرة على مواضيع قليلة مؤرخة ومعرفة فيما وُجد بجبانة كرمة. إن الأبرز وسطها تمثالا الغرائبي بالحجم الطبيعي للأمير المصري حيزفا وزوجته سنوي، اللذان وُجدا في المدفن التلي الثالث العظيم، إن هذين الفردين كانا معروفين من قبل معرفة جيدة من معثورات في أسيوط بمصر الوسطى، ويمكن إرجاع تاريخهما إلى حكم سنوسرت الأول في بداية الأسرة الثانية عشرة. الكشف عن هذين التمثالين قاد راينرز لأن يخلص إلى أن المدفن التلي الثالث كان مكان دفن حيزفا نفسه، وأنه (بالنظر إلى حجم مدفنه التلي وبهائه) لم يكن أي إنسان آخر سوى والي كوش. تبع ذلك بالتالي، أن المدافن التلية العظمية المجاورة كانت لخلفائه في منصب والي .

علماء آخرون للأثار المصرية أسرعوا بتحدى رأي راينرز<sup>(٣٧)</sup>. فقد أشاروا إلى أن مقبرة حيزفا (المسك بعدم إكمالها) كانت معروفة آنفاً من أسيوط، إن المدفن في تربة أجنبية كان أمراً موقوتاً من قبل مسؤولي الدولة المصرية، وإن طقوس الدفن الأجنبية تضاعف من ذلك المقوت، وأنه على أي حال فقد احتوى المدفن التلي الثالث مادة يعود تاريخها إلى أنظمة حكم متأخرة أكثر من عهد حكم سنويرت الأول. واقتُرح أن التماثيل المنحوتة<sup>(٣٨)</sup>، مثلها في ذلك مثل عدد كبير من المواد مصرية الصنع الأخرى مما وُجد بكرمة، كانت رموزاً للمكانة الغابرة لعصر غُنى عليه الزمان بمصر ، قام تجار مغامرون بإفراغ حملها للملوك النوبيين حسنى النوايا والمدركين لمكانتهم .

إن ربع القرن الذي انقضى منذ حفريات راينرز أحدث أثراً يسيراً لإجلاء سر كرمة<sup>(٣٩)</sup>. وحتى يشرع في علم آثار منهجي الشُّق في النوبة العليا، هنالك الكثير مما سيبقى غامضاً مثلما ظل عليه الحال منذ ١٩١٦. وبسبب الأهمية الحرجة لكرمة بالنسبة لأي تفسير للتاريخ النوبي الأخير، مع هذا، يبدو من المرغوب فيه هنا أن نُعيد تقدير بعض المسائل التي أثّرت عن موقع كرمة وثقافتها.

### حجم وأهمية الوجود المصري

يبدو مما لا جدال فيه أن ثمة مصريين وُجدوا في كرمة . على أنه يكاد يتساوى مع ذلك أن راينرز بالغ قطعاً في تقدير عددهم ودورهم. إن هذا يرجع في جزء منه إلى تفسيره للمسائل المجلوبة، التي ذكرناها لتونا، كذلك لإعتقاده الخاطي أن فخار كرمة ذا الرأس الأسود، صُنع بالعبلة، وإنه كذلك كان عملاً لصناع مصريين<sup>(٤٠)</sup>. وفي الحقيقة فإنه كان سيتطلب مستعمرة كبيرة من صُنّاع الفخار لتزويد كمية القِذاح التي وُجدت في جبانة كرمة. مع هذا، فإن تحقيقاتي التي أجريتها طرحت ما اقترعني مفاده أن الأواني كانت مصنوعة باليد، لذلك أنجزها صُنّاع فخار وطنيين فيما يكاد يكون يقيناً.



أصل بالطوب الطام      بنام شهاد بالطوب الطام      أصمعة حجرية  
 ٢٠      ٢٠      ١٠      ص.م.      ق.م.  
 ٠

شكل رقم ٣٢  
 خريطة للدهوقة العليا (الشرقية)، كرامة

سيتفق معظم العلماء اليوم مع جنكر وساف - سويرج (٢٨). أن الجنائز في كرمه لم يكن من الممكن أن تكون لمصريين . ماذا، إذن، يبقى دليلاً على وجود المصريين ؟ يمكننا أن نشير بدرجات متفاوتة من الثقة لمعمار *النفوثة* ، البناء الطوبى بين أضخم المدافن التالية (٢٩) ، والرسوم بغرف تحضير الجنائز، والمصنوعات والتبادل السلعى الذى أجرى في المحطة التجارية، وبعض الأمتعة المتميزة في القبر مما وجد في الجبانة. الدليل الأخير يجب رغم ذلك أن يُقدر بدرجة معينة من الحِطة.

جدير بالذكر إقتطاف نص لتريقر في هذا الخصوص :

بالرغم من أنها متأثرة تأثراً قليلاً بوسائل المصريين الفنية في الصنوع والرسوم، فإن كثيراً من العادة التي أنتجت في كرمه تعكس تقليداً ثقافياً محلياً . كمثل على ذلك، فإن تصميم ونجارة الأسرة التي تم العثور عليها مصرية الصنع بشكل مالوف، لكن العديد منها له قوائم أرضية مُرصعة في اسطو . غير مصرى . مماثل لذلك، أشكال المايكا التي صُنعت لتُحز على أغلبية من الجلد فهي ليست مصرية . خناجر النحاس التي وُجدت منها ١٣٠ قطعة، نوع محلى متميز ويختلف عن النوعية المصرية المأخوذة على وجه القياس، وشكاكى الأعمال المعدنية أشكال الفخار المحلي . ومع أن كثيراً من هذه المادة قد فُسر على أنه إخراج لصناع مصريين ، يكيفون أنفسهم مع الأنواع المحلية ، من الممكن إلى جانب ذلك أن الصناع المحليين إكتسبوا الإلمام بالوسائل الفنية المصرية للصناعة وإنهم بعد ذلك قاموا بتطبيقها وفق إصطلاحهم الثقافى الخاص (٣٠).

لا يشير أى مما ذكر آنفاً بالضرورة إلى وجود سكاني مصرى كبير . إنما ندرك فيه للمسة المصرية بصفا، وهذا الوجود على المستوى الإدارى فحسب : في رسم الهياكل الطوبية العظيمة، وفي الإشراف على الإنتاج والتبادل السلعى الحرفى . إن صقوة مصرية صغيرة ، تشرف على التجارة الوطنية وصناعتها بالإنابة عن ملك نوبى، يعطى أفضل تعليل الحقائق الأثرية في كرمه كما نعلمها الآن (٣١).

### تعريف الموقع

في جبانة كرمه ، ليس بعيداً عن *النفوثة* العليا، وجد رايزنر شقوق لوحة هيروغليفية وصفها وترجمها كما يلي :

بالأعلى كان قرص شمسي ذو أجنحة عليها ثعبان أريوس بكل جانب . تبعت ذلك ثمانية خطوط لنقش هيروغلى يرجع تاريخه إلى اليوم الأول من الشهر الأول للموسم الثالث ( شهر بشونه) من السنة الثالثة والثلاثين لأمنمحت الثالث : 'السنة الثالثة والثلاثون ، الشهر الأول من الموسم الثالث، اليوم الأول تحت صاحب الجلالة ملك مصر العليا والسفلى، نيماترا، ابن رع، أمنمحت، الهى للأبد. قائمة الطوب التي وصلت إلى سنب - تا والتي هي كائنة في انبوى . أمنمحت (أسوار أمنمحت) . . بفعل الأمير الوارث، الصديق الوحيد، الذى ابتعته سيده لما من قيمة في زيادة حدوده وبسبب إمتياز تخطيطه ، المستشار إنتف، ابن سميب، عندما كان في صحة جماعة من فيلة ٣٠٥ ٣١ (أو ٣٠٠ - ٣٠٥) (٣٢).

عُرف رايزنر على الفور 'أسوار أمنمحت' (إسم مكان غير معروف خلاف ذلك في الحوليات المصرية) بالمستعمرة في كرمه . مسيراً إلى أن ٣٥٠٠٠ طوبة سوف لا تذهب بعيداً جداً لبناء أى من الهياكل المعلومة هناك . فقد رجح الأمر إضافة لذلك في أن إنتف بوسعه فقط أن يقوم بترميمات لمبنى قائم آنفاً . يفترض أنه *النفوثة* الأعلى المجاورة . من هنا تلا ذلك أن الهيكل العظيم سبق تشييده من قبل حكم أمنمحت الثالث . وكان جائز الإستدلال أيضاً أن مدينة أطلق عليها اسم على أثر ملك مصرى (إسم يتناقض بشكل ملحوظ للغاية مع أسماء قلاع الشلال الثانى) كانت مدينة مصرية

مطالعة للأمر بواقعية ، فإن تفسير لوحة إنتف يقدم كل أنواع الصعوبات. فليس هناك أحد يعرف ما تُعنيه سنب - تا ، حيث أن الكلمة لا تقع في أى نص آخر. وأياً ما كانت ، فلما كان واجباً على إنتف أن يُحْيى ، في صيغة تُحفظ عادةً للمغامرات البطولية. نذكرى استلام شحنة من الطوب كافية لبناء متواضع فحصب ؟ ولما يجب أن يشحن الطوب ، على أى حال ، بينما كان من الممكن صنعه في الموقع بأى مكان في وادى النيل ؟ إن التسويج الوحيد لنقل مثل هذه السلعة الرخيصة وغير المجزية سوف يجرى في حالات يكون فيها التشييد مُطلَباً فيما لا يمكن توفيره من مصادر الماء أو الطين - شروطاً لا تسود في كرمه .

بينما أن أسراراً عديدة متعلقة بلوحة إنتف ربما لا تُكشف أبداً ، فإن نفس التنفير ينسحب بالتأكيد على هذا الكشف مثلما ينطبق على التماثيل المنقوشة المختلفة كبيرها وصغيرها في كرمه . إن نُصَب تماثيل بعينه ، بعد كل هذا ، كان أحد رموز المكانة الرفيعة منذ القدم ، ولربما كان ملك نوبى أسمى مقتنعا أشد الإقتناع بأسر إعجاب رعاياه الأمينين بنموذج مستعمل مثله. وإذا كانت لوحة إنتف قد أحضرت من مكان آخر ، مع هذا ، فإنه لا تعريف "أسوار امنصت" ولا تأريخ الدولة الوسطى بالضرورة ينطبقان على كرمه (٣٣) .

## تأويل الجبانة

إذ سَلَّمْنَا ، كما يفعل معظم العلماء الآن ، بأن عادات الدفن في كرمه عادات نوبية لا عادات مصرية ، يصعب علينا بصرف النظر عن ذلك أن نتجنب دون مشقة الخلاصة التى مُؤداهما أنها تمثل جماعةً من أفراد أو عائلات على ثراء وقوة غير عاديين. يحتمل أن يكون موقفنا سليماً إذا عرَفْنَاها كأول جبانة ملكية في التاريخ النوبى . بالرغم من أن ترتيب تطورها غير مُستيقن (٣٤) ، فإن معظم المدافن التالية من الصعب أن تمثل أى شئ سوى سلسلة متوالية؛ إذ لا يمكن التفكير في تواجد فردين أو أكثر من هؤلاء الأفراد الأقوياء معاً في نفس الوقت والمكان .

فى حين أننا في حضرة سلطة شديدة التركيز ومتزايدةً في تكافؤ ، لا نستطيع بعد أن ندرك وجود مجتمع طبقى. فالفارق بين أعظم وأقل مدافن كرمية أساساً أقوى منها نوعية ؛ إضافة إلى ذلك ، فإن القبور كلها بشكل أو آخر مخلوطة مع بعضها البعض في نفس الجبانة ، ولا نستطيع أن نرسم خطأ حاداً بين المدافن الثلثة العظمى وما يقل عنها ، فالعديد منها يجوز أيضاً أن يكون قبوراً لملوك في عهود متواضعة . القبور الإضافية تُمثل ، فيما هو مفترض ، أعضاء مهمين في دار الملك ممن كان مسموحاً لهم بالحياة بعده ولكنهم يرغبون في تجديد إرتباطهم معه في الحياة الآخرة .

أما التناقض بين القبور الإضافية والجنائز القريانية فيوحى بأنه بينما أن الأولى ربما كانت حفاظاً ملكية هامة ، فإن الأخيرة كانت على الأرجح عبيداً . فإذا كان الحال كذلك ، فإن حيابة الرق لابد أنها تطورت على نطاق واسع إبان أوج مملكة كرمه ، وربما أنها أيضاً استُثِرت بالنموذج الذى مارسه الفرعون ، كما كان قبضُ الرقاء المتزايد من قبل ملوك غرب إفريقيا في القرن الثامن عشر ناتجاً متفرعاً من عقودهم مع تجار الرقيق الأوروبيين . إن الوجود الظاهر لأعداد كبيرة من العبيد مؤشر واحد من مؤشرات عديدة على أن أهل كرمه كانوا سلالة مُحاربة أشد بكثير مما كان عليه أبناء عموماتهم في النوبة السفلى .

## مشكلات تسلسل الأحداث الزمنية

مشكلة مبدئية تخص العلاقة المؤقتة لجزئى موقع كرمه . كرباط عام بينهما ، كيفما تم ذلك ، أمامنا العمل الطبوى للفراعنتين العليا والسفلى ، والاختام الطينية العديدة (وأغلبها يعود تأريخه للكمسوس)

التي وُجدت في كل من المكانين، والمصنوعات المختلفة التي تم حملها للمحلة التجارية حيث شابهتها بضائع عُثر عليها في قبور الجبّانة . إنه يبدو منطقياً في أي حالة أن يفترض - كما فعل رايزنر - أن مباني الطوب والمداخن التلية العظمى تمثل قمة واحدة من الثروة والقوة .

التاريخ المطلق لأوج كرمة مشكلة أقسى صعوبةً لمدى بعيد . لقد أسس إعتقد رايزنر الأصلي في تاريخ دولة وسطى تأسيساً يكاد يكون تاماً على تماثيل حيزفا وسنوي، ولوحة إنتف، ومواد قليلة أخرى من صنع مصري . فإذا تُعرفنا، مع هذا ، على أن مادةً من تاريخ متأخر قد وُجدت في نفس المدافن التلية ، وأن كل المادة النقوشية التي وُجدت في كرمة قد تمثل بضائع مستعملة إستجلبت في تاريخ متأخر، فإنه لا تبقى هنالك قاعدة صلبة لتاريخ دولة وسطى . إنما تبقى البينة الإستدلالية الخاصة بقلع الشلال الثاني وحدها، مشيرةً إلى وجود نوع ما من مركز القوة بعيداً صوب الجنوب، والتماثلات المُحددة لعمل الدفونة الطوبى لبناءات القلاع .

الأجدر بالذكر من الحجارة المنحوتة تلك الأختام الطينية الدامغة التي توجد في كل من الدفونة السفلى وجبّانة كرمة . إن غالبيتها العظمى ترجع إلى فترة الهكسوس . وقد تعرف رايزنر بنفسه على ذلك، لكنه تغلب على الصعوبة المُكتنفة في الأمر جزئياً بافتراض أن طران الختم الذي يُحدد عادةً بالمرحلة الإنتقالية الثانية يجب في الحقيقة أن يكون قد جرى تطويره في وقت سابق <sup>(٢٤)</sup> . إن خلاسته - مع هذا - لم يؤديها عمل لاحق في مصر . وإذا أخذت الأختام ككل مع خطوط أخرى للإثبات، في كل من كرمة وغيرها من الأماكن ، فإن أفضل تاريخ إحتمالاً لأوج عظمة كرمة يبدو مواكباً لقمة قوة الهكسوس في مصر السفلى، القرن السادس عشر قبل الميلاد <sup>(٢٥)</sup> .

من الجائز بالطبع أن تُمثل المدافن التلية العظمى فصلاً قصيراً فحسب من تاريخ أشد طويلاً . إعتماذاً على السكان في مستوطنة كرمة . فإن آلاف القبور في الجبّانة الشرقية يمكن أن تمثل إقامةً لعدة قرون، أو أنها يمكن أن تنتمي بكليتها إلى فترة أكثر قصراً . تتجسد درجة معينة من التغيير الثقافي بين القبور في الأجزاء الجنوبية والشمالية من الجبّانة؛ إنها تُبرز علامتها في ناحية بقلع الجنازات القريانية في الشمال . أما افتراض رايزنر فقد انصب على أن الجبّانة نمت من الجنوب إلى الشمال، وأن التغيير الذي طرأ عليها مثل عملية لجعلها نوبية وإفقاراً بمستوى عال <sup>(٢٦)</sup> . أيأ كان ذلك، لا يمكن إستبعاد إمكانية النمو في الإتجاه الآخر . في ضوء معرفتنا العامة بالعلاقات المصرية - النوبية، تبدو فترة طويلة من النمو الذي يؤدي إلى قمة إزدهار كرمة أكثر إحتمالاً مما تبدو عليه فترة طويلة من الإضمحلال الذي يعقبها (قارن الفصل التاسع) . إن علينا، رغم هذا، أن نسلم بأن مساحة الزمن الذي تمثله جبّانة كرمة وثقافة كرمة قد لا يكون طويلاً . فالثقافة كما نعلمها الآن تُبدي تغييراً تطورياً أقل كثيراً من بدايته إلى نهايته، مما تُبدي ثقافة المجموعة الثالثة في النوبة السفلى (الفصل السادس) .

### مواقع كرمة في الشمال

بقي موقع كرمة، بعد حفرها بزمان طويل، الممثل الوحيد على قيمة ثقافتها . وقبل وقت قريب، مع هذا، وُجدت مواقع قليلة أخرى بين ما يفترض أنه 'إقليم كرمة' . لا تزال مواقع أخرى مما عُثر عليه في مكانٍ بالقصى اتجاه الشمال، تصنيف في ظروف خاصة بعداً إضافياً لمسألة كرمة .

ولئن كانت قصة كرمة مقبولة على أنها معاصرة لثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها المتأخرة، إنَّ لابد أن يكون بينهما في مكان ما هنالك حد ثقافي أو منطقة إنتقالية . إن المكان المنطقي للنظر فيه إلى مثل تلك الحدود هو سمعة ، حيث أنها كانت الحد الذي اختاره حكام النوبة السفلى في الدولة الوسطى <sup>(٢٨)</sup> . يجد هذا الغرض، غم أنه ليس مؤيداً بشكلٍ مكتمل، مؤازرة مقدرة من المسح الأثري



الذي اختُتم من فترة وجيزة في بطن الحجر. جَبَانات ثقافة المجموعة الثالثة وُجِدت بما لا يبعد عن جنوب السَّرات وحسب، عشر أميال شمالي سمنة<sup>(٣٩)</sup>. في المنطقة التي تقع جنوب سمنة مباشرة، كُشِفَ عن عدد من جَبَانات كَرمة (٤). مدافن كَرمة وُجِدت أيضاً إلى الشمال من سمنة، لكن تحت أحوال خاصة معيَّنة سوف يجرى وصفها في الحال .

إقليم كَرمة. إنَّ، امتد إفتراضاً من مكان ما فوق كَرمة بالجنوب إلى سمنة في الشمال. بكل الإحتمالات، كان هو الأرض الأصلية لكوش، كما ظهرت الكلمة أولاً في نصوص الدولة الوسطى<sup>(٤١)</sup>. في نطاق هذا الإقليم جرى التحقيق في جَبَانتين هامتين بالإضافة إلى "موقع الإكتشاف" . المحطة التجارية بجزيرة صاى (كرسى محلى هام للسلطة خلال معظم التاريخ النوبي الأخير) ضخمة؛ وربما توازى في ضخامتها جَبَانة كَرمة نفسها. هنا أيضاً بعض المدافن القليلة شديدة الضخامة، مع أن أياً منها لا يقارب أبعاد أكبر المدافن التلية الملكية في الجنوب. المحطة التجارية في صاى حُفرت جزئياً بين ١٩٧٠ و ١٩٧٢؛ وُجِدَ أن القبور وما حوت متماثلة في كل جانبٍ مع المدافن القليلة الصغرى في كَرمة ما عدا الغياب الظاهر للمدفونات القرينانية<sup>(٤٢)</sup> .

لقد حُفرت جَبَانة بأكملها في كَرمة تشمل عدة مئات من القبور في اكمة بطن الحجر حيث تم إنجاز العمل لتوه، وليس هناك تقرير توفر نشره بعد . إن معظم المعثورات تتساقط فيما هو واضح مع نمط كَرمة المتوقع<sup>(٤٣)</sup>، لكن المنقب يعتقد أن قبوراً عديدة تمثل تقليداً ثقافياً إفتراضياً : جماعة أجنبية ربما كانت تحيا في علاقة تبادل وثيق رغم إختلافها مع سكان كَرمة الغالبين<sup>(٤٤)</sup>.

شمال سمنة، بُلِّغَ عن جَبَانات لكَرمة أو عن قبور منعزلة في السَّرات<sup>(٤٥)</sup>، وعبكة<sup>(٤٦)</sup>، ومرقسـة<sup>(٤٧)</sup>، وأبو سر<sup>(٤٨)</sup>، وبوهين<sup>(٤٩)</sup>، وعينية<sup>(٥٠)</sup>، وكويان<sup>(٥١)</sup>. من هذه القبور ، حُفرت الجَبَانة في مرقسة التي شملت إثنين وعشرين قبراً ، حُفراً كاملاً . لقد وُضعت القبور بالقرب من أسوار القلعة الكبرى، نوعاً ما في وادي بعيداً عن المدافن المصرية الرئيسية. كانت كل القبور صغيرة نسبياً لكنها في جوانب أخرى عرضت المركب الجنائزى المطابق لكَرمة. وكانت هناك أربع حالات على الأقل لقرابين بشرية<sup>(٥٢)</sup> .

في سفح صخرة أبو سر، منتصف الطريق بين مرقسة وبوهين وُجِدَ تجمع خفيف لسبعة من أشباه قبور كَرمة. ومع ذلك كانت هناك إختلافات عن ممارسة الدفن المألوفة. فقد وُضعت الأجساد إما على اليمين أو يساراً بالجانب، دون توجه منتظم، ولم تكن هناك آثار لأسرة. إن المدافن التلية، إن كانت قد وُجِدت أصلاً، دمرها التآكل<sup>(٥٣)</sup> .

جنانز كَرمة المعهودة شمال سمنة لها صفة محددة شائعة بينها . فأغلبيتها العظمى مرتبطة بالقلاع المصرية الكبرى، أو في حالة أبوسر، بنقطة مراقبة مصانة في توافق مع القلاع (الفصل السابع). تبدو الخلاصة مما لا يمكن الهروب منه أنه في مكان ما أثناء تأريخها كانت القلاع تدار جزئياً بقوات كَرمة، التي جاءت أو أحضرت من موطنها البعيد لذلك الهدف.

كيف كان الوقت والظروف المتعلقة بإحتلال كَرمة للقلاع؟ إن كل المعثورات المعلومة تشير بما لا خطأ فيه إلى وقت متأخر في المرحلة الإنتقالية الثانية . بإفتراض أنها كانت مواكبة لأوج كَرمة نفسها. يقع هذا نظرياً بين الإحتلالات المصرية الرئيسية للقلاع . مع ذلك يبدو من غير المحتمل أن الكرميين كانوا هم المحتلين الوحيدين لهذه الهياكل العظيمة . من الصعب على إثنين وعشرين رجلاً أن يُديرُوا المتاريس في مرقسة، ويبدو أن أتباع كَرمة في القلاع الأخرى كانوا لا يزالون جماعةً صغيرة . يمكن أيضاً أن تكون هناك قبورٌ مصرية في مرقسة وغيرها مما يعود تاريخه إلى نفس فترة مدافن كَرمة.

الإثبات المتوفر يوحى بأنه ، أثناء فترة الهكسوس، كانت قلاع النوبة السفلى تُدار بكوانر

صغيرة، من مسؤولى الدولة المصرية تُدعمها بضعة قوات من الوطنيين. إلا أننا نعرف أن أوامر الملك المصري في طيبة لم تكن تمتد وراء أسوان ، وأن الحاميات في النوبة لم تكن لذلك تابعة له . الخلاصة المعقولة الوحيدة هي أن كلاً من المسؤولين والرجال القائمين بالحراسة كانوا في خدمة ملك كرمة. يبدو هذا الأمر مثبتاً أيضاً في لوحة سيدهر (قارن الفصل السابع) : لقد كنت قائداً جسوراً لبوهين، و ... إننى بنيت معبد حورس، رب بوهين، لإرضاء حاكم كوش<sup>(٥٤)</sup>. فالظاهر ، بإختصار أنه في أثناء رفعة سلطانهم حل حكام كرمة محل الفرعون نفسه كأعلى أسياد للنوبة السفلى وتجارتها<sup>(٥٥)</sup>. كانت هذه الحالة من الشؤون بلا شك هي التي أثارت ولى العهد الفرعوني في طيبة لبثت شكواه الشهيرة "إننى أجلس متحداً مع أسبوى ونوبى، كل رجل ممتلك شريحة من مصر هذى"<sup>(٥٦)</sup>.

## ثقافة "القبر الجامع"

جماعة واحدة أخرى من البقايا الأثرية، معاصرة لفترة كرمة، تتطلب الذكر في هذا الفصل. هذه هي « القبور الجامعة » (كما تُدعى لأن حفرة القبر تحتفظ بخاصية التكوين البيضاوى الضحل المميز للأزمان الأولى في النوبة) تحدث على تباعد في كل من النوبة السفلى ومصر . بالرغم من أنها تعرض خصائص نوبية معّمة ، وأحياناً تجزى في وسط جَبانات « المجموعة الثالثة » ، فإن القبور الجامعة تتباين وفق عددها من الأسس عن القبور المألوفة في ثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها الأخيرة، ويظهر أنها تمثل إدخالاً أجنبياً في مصر والنوبة السفلى على السواء<sup>(٥٨)</sup>. لقد فكر مرة أنها تبين روابط قريبة من كرمة، وعلى أساس ذلك اقترح أنها في الحقيقة جنازات لجنود من المملكة النوبية في النوبة العليا الذين كانوا قد خدموا في البلدان الشمالية<sup>(٥٩)</sup>. إن تحليلاً أكثر تفصيلاً اقترح مع ذلك أن القبور الجامعة تفتقر على قدم المساواة عن « المجموعة الثالثة » ودفونات كرمة، ويُعتقد الآن أنها تمثل جماعة سكانية نوبية ثالثة<sup>(٦٠)</sup> يُعرفها ساف . سوربرج بالمدجاء الرهيب في النصوص المصرية<sup>(٦١)</sup>. هذه، فيما يبدو، لم تكن جماعات نهرية ولكنها جماعات بدو من الصحراء الشرقية، الذين ربما باعوا خدماتهم كمرتزقة لكل من ملك كرمة وللفرعون. ويُستيقن الآن أن كل القبور الجامعة المعلومة يعود تاريخها إلى فترة الهكسوس<sup>(٦٢)</sup>، عندما كانت قوة كرمة في قمته سواء بسواء.

## ملخص تفسيري

بينما كانت ثقافة المجموعة الثالثة تنمو ببطء وسلام في النوبة السفلى، برّغت ثقافة أشد حيوية وحركة في الأراضي الأكثر تفضيلاً نحو الجنوب . الجوانب المادية لثقافة كرمة وثقافة المجموعة الثالثة متماثلة على العموم ، ويحتمل أنها نبعت من أصل واحد، لكن ثروة كرمة وقوتها جردت لحد بعيد ما امتلكه النوبيون من ذلك في النوبة السفلى. إن كرمة في أوجها أصبحت ملكية مطلقة ذات موازنات مريرة، في حين أن المؤسسات الاجتماعية لثقافة المجموعة الثالثة لم تتقدم أبداً وراء نظام لعصبية قطاعية ربما أنها افتقدت أي سلطة مركزية . التناقض بينهما يمكن أن يُشابه بالتناقض بين باقندا ذات السلطة الاستبدادية الطاغية وبين النوير الذين هم أكثر ديمقراطية، في أزمان حديثة : إنهم أناس متصلون ثقافياً ، لكنهم يعرضون مستويات مختلفة للغاية من التطور السياسى .

تقدم النوبيون في النوبة العليا على جيوانهم أنفاً بحلول نهاية الدولة القديمة يبدو واضحاً من التقارير المصرية عن أرض يام . ويمقدم الدولة الوسطى كانت قيمة التجارة المصرية مع النوبة العليا كافية لإيقاظ طموح الفرعون كي يبذل جهداً محسوساً لحمايتها والسيطرة عليها، كما تيرهن على ذلك قلاع الشلال الثانى. إلا أنه مع هذا لا يمكننا أثارياً التعرف على مصدر كل هذا الإهتمام والنشاط في النوبة العليا إلى تاريخ لا يزال متأخراً. فالمدافن الملكية التالية العظمى والصروح المعمارية لكرمة

فيما يظهر تنتمى إلى المرحلة الإنتقالية الثانية، عندما كانت قوة النوبيين تنمو بالنسبة لحالة الضعف والإنتساق الجارية في مصر .

إن الثروة إن لم تكن قوة كرمه نفسها إعتدت في صفاء على تجاور لمنافع إقتصادية وثيقة مع مصر، وعلى وجه الخصوص مصر السفلى . التجارة مع الدلتا هي التي جعلت الملك النوبى والنبله مزودين بسلع الترف المستجلبه، والتي حرضتهم ليطرخوا طريق التجارة مفتوحاً نحو الشمال بإنشاء حاميات صغيرة في القلاع المصرية السابقة في النوبة السفلى. ومن أجل صون هذه التجارة وتمديدها، ربما اضطلع الملك النوبى بمشاريع عسكرية وتجارية مكثفة في الاراضى التى لم تزل بعيدة صوب الجنوب .

أشرفت صفوة من مسؤولى الدولة المصريين على المصنوعات وتجارة كرمه والتصدير إنابةً عن الحاكم الوطنى. لقد كانوا، مع هذا ، اشخاصاً تجاريين أكثر منهم عسكريين أو سياسيين. مملكة كرمه كانت مستقلة، ذاتية الحكم، وقادرة ليس فقط على حماية إقليمها وإنما ، في غياب السلطة المصرية، على الإحتفاظ بهيمنة غير مشددة على النوبة السفلى بالمثل . تعرض صورة كرمه في الألفية الثانية قبل الميلاد موازيات عديدة بمملكة داهومى في القرن الثامن عشر، إعتدت ثروتها وقوتها على الأسلحة النارية التى أمدتها بها القوى الأوروبية في مقابل الرقيق، الذى كان يُسلم 'لعواملهم' المقيمة في ميناء وايده الضخم للرق (١٧) .

تمثل كرمه خطوةً إنتقالية بين مراحل قبلية وأسرية للتطور الثقافى النوبى. إن مؤسساتها المادية وإلى حد ما مؤسساتها الإجتماعية على حد سواء هي مؤسسات الفترة القبلية، وهي تختلف إختلافاً يسيراً في مادتها عن الثقافتين النوبيتين للمجموعة الأولى والمجموعة الثانية في النوبة السفلى. مع هذا فإن ملكها الإستبدادى الذى يُفترض أنه صاحب حق إلهى وتجارته التى نظمته الدولة يشكلان خطوة أولى، طويلة في إتجاه الطريق نحو الإمبراطورية . ولو قيض للثقافة أن تنمو بلا مضايقة ، فإن مجتمعاً طبقياً، وإقتصاد مزارعين، وحكومة بيروقراطية، وكل 'المباركات' الأخرى للحضارة الإمبراطورية كان من المحتم أن تتبع ذلك زمنياً .

فيما ال إليه الأمر، أعيقت مسيرة النمو الطبيعى الصميم لنظام إمبريالى في السودان من المصريين (الفصل التاسع). بإقصائهم الحكام الوطنيين جانباً، أنشأوا هيمنتهم الخاصة بهم من الشلال الأول إلى الشلال الرابع. إن المركب الحضارى الكامل للنوبة بهذه الكيفية ليس نتاجاً للتطورات الثقافية المحلية، لكنه كان غرساً من مصر. ولقد مضت عدة قرون مؤخرأ قيل أن تتحقق إمبراطورية نوبية أصيلة - لكنها إذ جاءت - تدين بالكثير لتراث كرمه .



## الفصل التاسع

### ولاية كوش

### النوبة في ظل الدولة المصرية الجديدة

الأحداث المقجمة لحكم الهكسوس في مصر شخّصها جون ويلسون أنها "الإذلال العظيم" <sup>(١)</sup>. إنه إذلال لابد أن يكون حاداً - على وجه الخصوص - للفراعنة السابقين الذين واصلوا احتفاظهم باستقلال هش في طيبة. بينما وقعت الأراضي المصرية السابقة شمالهم وجنوبهم تحت سيطرة الأجانب. لأجيال عديدة كان على ملوك الأسرات طيبة أن يتحملوا الدوس على كبرياتهم، يدفعون الجزية للهكسوس من حين لآخر، ويسمحون بمرور حر لتبادلهم السلعي مع كرمه - وفي كل تلك الأثناء كانوا يتحينون لوقتتهم، ينتظرون سانحةً لقلب الموائد - أعاد كاموس، آخر حاكم للأسرة السابعة عشرة في طيبة بصفاء موضوع إستعادة الإقليم السياسي للسيطرة المصرية : "لا يستريح رجل، أفسده استبعاد الآسيويين. لسوف أوثقه بالأغلال على سفينة، وأبعج أمعاءه، فإن رغبتى هي إستعادة مصر وإن أجهز على الآسيويين" <sup>(٢)</sup>.

الطرد التدريجي، الذى بدأه كاموس، بلغ نهايته المنتصرة في ظل ورثته أحمس، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة البارزة وأعظم إمبراطورية لمصر. بعد حصار طويل أقصى الغرباء عن عاصمتهم الكائنة في الدلتا وأجبروا على الانسحاب للأراضي الآسيوية التى ربما جاء منها أسلافهم أصلاً. إن إشفاق لحظة المطاردة شنتها الجيوش المصرية عبر سيناء ثم إلى داخل فلسطين، حيث أجبر الهكسوس في سلسلة من المعارك العنيدة على الجلاء من مواقعهم الحصينة الواحد تلو الآخر، وسحقت قوتهم في آخر الأمر <sup>(٣)</sup>. في ختام الحملة وجد أحمس نفسه سيداً ليس فقط على مصر لكن على مقاطعات فسيحة من فلسطين وسوريا وإفريقيا على السواء .

ما رجع أحمس منتصراً من حملاته الآسيوية حتى وجّه إنتباهه للنوبة، الحليف الأخير للهكسوس (قارن الفصل الثامن). لقد كانت حملة تنويرية في العام الثانى والعشرين من حكمه كافيةً لإستعادة الإقليم المصرى السابق للنوبة السفلى، وقد لاقت فيما يبدو مقاومةً قليلة من القوات المحلية أو القوات التى تدعمها كرمه. أعيد إحتلال قلعة بوهين، بُدئ في معبد هنالك، وعُيّن حاكم مصري دائم في عهد الحكم التالي كان عليه أن يصير أول والٍ لكوش <sup>(٤)</sup>.

الفراعنة المحاربون الذين خلّفوا أحمس - منحتب الأول وتحتمس الأول والثاني والثالث الأوائل - ناضلوا بوعى لمد تخوم الإمبراطورية بكل من آسيا وإفريقيا. إختزقت جيوشهم النوبة بعيداً فيما وراء حدود الإستكشاف السابق، مما أدى في النهاية إلى إنشاء سيادة مصرية في إتجاه مصب النهر إلى الشلال الرابع وربما بعده. لوحات "الحدود" لتحتمس الأول وتحتمس الثالث وجدت وراء أبو حمد، ليس بعيداً عن الشلال الخامس، حيث يعبد الطريق الصحراوى العظيم من كورسكو إتصافه بالنيل (الشكل رقم ٢٣) <sup>(٥)</sup>. مثل نحت سنوسرت الباكر في سمته (الفصل السابع)، قصد بهذه فيما هو محتمل إعلان إحتكار مصرى - للتجارة البرية في هذه الحالة - عبر الطريق الصحراوى العظيم .

كانت آخر حملة رئيسة للغزو والضم قد اضطلع بها في عهد تحتمس الثانى. بلغ عن غارات إسترقاق متخفية في زى حملات تالبيبة، من وقت آخر حتى نهاية الدولة الجديدة، ولم يكن لها شأن كبير مع ذلك بالأحداث السياسية خلال العهود الأخيرة <sup>(٦)</sup> . كانت النوبة طيقاً لكل الأغراض العملية



إقليمياً مصرياً، وسكانها رعايا مصريين. فلما تمت حيازة هذا الإقليم الواسع المدر للثروة - الذي يساوى في حجمه مصر نفسها، ويزيد كثيراً في مساحته على الأملاك الإمبراطورية، في آسيا - تهايا الفرعون لحكمه وإستغلاله، وبتمصيره في عاقبة الأمر. وفي النهاية تعدى نجاح هذه المساعي ما كان متوقعا، وظل الأثر محسوساً في مصر لقرون تالية.

### عزارة وبناة

كان فراعنة الدولة الجديدة من بين بُناة التاريخ العظماء. إن مغامراتهم في آسيا أدت بهم لإحتكاك مباشر مع حضارات القدم العظيمة، وفتحت أول نافذة حقيقية لمصر على العالم الخارجى. أفسحت إدارة المحافظات التقليدية الطريق لنظرة جديدة أكثر عالمية. والمحصلة، كما هو معتاد، إستئارة هائلة للفنون الصروحية. فالمعابد الضخمة في الدولة الجديدة ربما لم يُقصد بها أن تؤثر على المصريين وحدهم، ولكن على كل العالم المتحضر. إن عدد هذه الصروح، بكل من مصر والنوبة، يتعدى كثيراً جملة النُصب التذكارية الباقية من كل العصور الأخرى.

كان الفراعنة الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة يمتلكهم إشتغال بالميدان العسكرى دون إقامة لمشاريع مخططة لتشييد رئيس. كانوا قانعين بداية الأمر بإعادة الإحتلال وصيانة القلاع الموجودة في النوبة. بُدئ في هذا العمل أنفاً كما يبدو في عهد أحمس، وقد نُفذ على نطاق واسع بشكل معتبر في ظل تحتمس الأول وتحتمس الثاني. لربما كان تبرير الأولوية الأعلى التى مُنحت لتجديد القلاع منصبا على أساس أن قبضة حازمة يُحتاج لها في الإقليم الذى أُعيد فتحه من جديد، لكنها ربما كانت أيضاً عملاً رمزياً يُخطط له لإستعادة المكانة المصرية، حيث أن القلاع كانت وقد بقيت رموزاً عمادية للحكم المصرى في النوبة. الترميمات في حالات كثيرة يمكن أن تُفسر كإبراز للوجه ليس إلا؛ تمثلاً لذلك، فإن "الأسوار الخارجية" التى أُضيفت للتحصينات العالية المنيية من قبل في بوهين ومرقس ما كان بوسعها أن تُخدم أى هدف سوى استعادة واجهة سالفة. جدير بالذكر أيضاً أن القلاع التى جُددت تجديداً كثيفاً كانت هى التى يتوجب عليها أن تقوم بدور مراكز إدارية رئيسة فصب : كويان، عينية، سرة وبوهين. قلاع الشلال الثانى جنوب بوهين، التى كانت ذات مرة المفاتيح الإستراتيجية للسيطرة على النوبة، أصابها إهتمام قليل نسبياً.

مع اندفاع السيطرة المصرية بعيداً في إتجاه مصب النيل، تم إنشاء مستوطنات جديدة وراء مدي القلاع القائمة. معظمها تم تسويره، على نهج المباني القديمة، لكن دفاعاتها افتقدت بوضوح التعقد و "الصرحية" الملموسة في تحصينات النوبة الوسطى. ترتيباتها الداخلية، في طائفة ما تم التحقيق بشأنه، لا تُوحى بحمايات مدن عالية النظام (الشكل رقم ٢٤). من الجانب الآخر، فإن المعبد الحجري صفة غالبية لكل المستوطنات الجديدة، وقلاع النوبة السفلى التى أُعيد شغلها على حد سواء (٧). إن تغييراً متنوع الظلال السياسية يلاحظ بدقة هنا : المعبد بدأ في الحلول محل القلعة كرمز أساسى للحكم المصرى.

بدأت بناية المعابد على نطاق واسع في النوبة على عهد تحتمس الثانى، الذى أكمل إخضاع القطر. منذ دخول عهده وما تلاه من عهود إضمحلت بشكل يدعو للملاحظة بناية التحصينات وصيانتها، وبعض المدن الأخيرة التى أنشئت في النوبة العليا، في كاوة وجبل البركل، ربما لم يجر تسويرها. علاوة على ذلك، بحلول الأسرة الثامنة عشرة مؤخراً أقام العديد من المستوطنات القديمة أسوارها الدفاعية الخاصة بها. في كويان، وعينية، وبوهين، يمتد خليط غير متجانس من المنازل الخاصة بعيداً وراء أبراج القلاع. وبينما تصير التحصينات أقل أهمية شيئاً فشيئاً، مع ذلك، فقد اضطلع ببناء المعابد على نطاق توسعى بمستوى متزايد، وبلغ قمته في عهد رمسيس الثانى.

كانت هناك "موجتان" رئيستان لبناء المعابد في النوبة خلال الدولة الجديدة . تربط الأولى بعهود حكم تحتمس الثاني وتحتمس الثالث، وإلى مدى أقل ترتبط بخلفائهم الخمسة المباشرين. إن التحتمسيين هم الذين قاموا ببناء المعابد في قلاع عديدة بالشلال الثاني، وبذا أدمجت التعبيرات الصروحية القديمة والحديثة معاً للسيادة المصرية . برغم أنها صغيرة شيدت المعابد التحتمسية أغلب الأحيان تشييداً متيناً وهي بسيطة في تصميمها بأناقة. أما معابد سمنا وكومة (وقد أعيد تركيبها في الخرطوم) فهي بين أبقى الأمثلة الكاملة لمعمار الأسرة الثامنة عشر بأى مكان<sup>(٨)</sup> .

مع انحصار الأنشطة البنائية للتحتمسيين الأوائل بالقدر الأكبر في مستوطنات القلاع القديمة، إشتق الفراغة المتأخرون في الأسرة الثامنة عشرة أساساً جديداً بإنشاء المعابد والمستوطنات المسورة مع بعضها البعض في إقليم النوبة العليا الذى كان يكرأ من قبل. إن أمحتب الثالث، الذى يعد عهد حكمه أعلى إبهةً فرعونية، شيد في أرض عبرى - دلفو النهرية معبداً رائعاً لنفسه وآخر لزوجته. وفى نفس المساحة العامة قام خلفه "الفرعون الصابى" إخناتون، ببناء مدن معبدية في سسبى وكاوة (الشكل رقم ٢٢) . وشيد توت عنخ آمون، أحد آخر الملوك في الأسرة الثامنة عشرة، معابد صفرى تتخلل المستوطنات القائمة في فرس وكاوة .

لما حلَّ عهد إخناتون، كان الدفع الرئيس للتوسع الإستعماري المصري قد استهلك بوضوح. ما أوجدت مدنٌ جديدة بعد إنقضاء حكمه، وكان بناء المعابد لخلفائه المباشرين على نطاق ضيق للغاية. إن الفوضى السياسية التي صدرت نتيجةً لمحاولته تبديل ديانة الدولة في مصر أضعفت القطر لنصف قرن ، وقادت إلى سقوط الأسرة الثامنة عشرة .

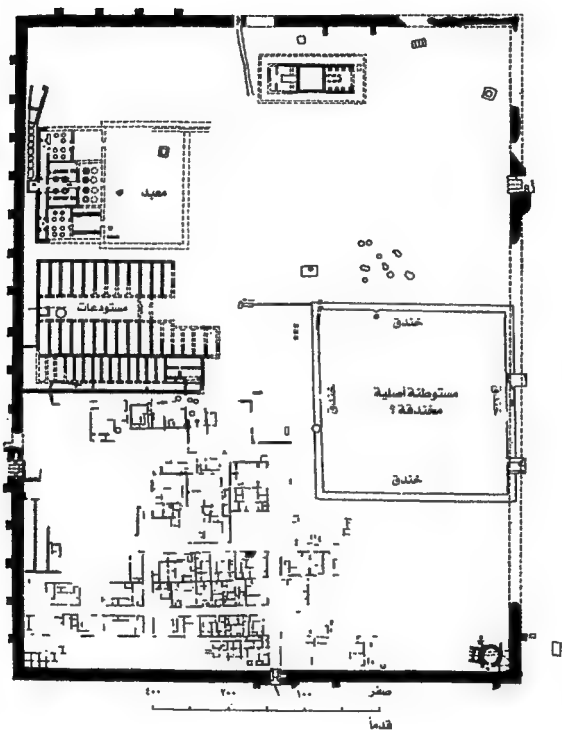
الموجة العظيمة لبناء المعابد في النوبة تبدأ وتنتهى فعلياً بعهد رمسيس الثاني، رابع ملك في الأسرة التاسعة عشرة وآخر وجه بارز حقيقةً في تاريخ مصر القديم. في مصر، كما في النوبة، أنشأ هذا الملك المتباهى بأمجاده معابد أكثر وأضخم من كلٍ مما قام به أسلافه معاً. وفى حين أن أبوسمبل هو أبرز الصروح الباقية، فإنه ليس إلا واحداً من عشر معابد رمسيسية جنوبى أسوان. في الرسوم المنحوتة بأبو سمبل والعديد من المعابد الأخرى، يُرسم رمسيس راکعاً في خضوع لإله - وهو منظر إتناقي في يُخرف المعبد المصري - إلا أنه في هذه الحالات كان الإله موضع التقديس هو رمسيس نفسه! ككفل خيالاتي لا بد أن لهذا موازيات قليلة في التاريخ<sup>(٩)</sup> .

التجديد العظيم لعهد رمسيس موضعه المعبد المقطوع من الصحراء. هذه التركيبة المعمارية جرى تطويرها في نطاق محدود أنفاً، على الأقل فيما يعود إلى زمن التحتمسيين، سوى أن كل المعابد الفضة المقنطرة من الصخر في النوبة من عمل رمسيس الثاني . بالإضافة إلى النموذج الذى لا يوجد له شبيه في أبو سمبل، كانت هناك معابد صخرية لرمسيس في الدر، وادى السبع، جرف حسين، وبيت الوالى، وكلها تقع شمال أبوسمبل في النوبة السفلى (الشكل رقم ٢٣)، حيث منحت المنحدرات العالية نسياناً من الحجارة الرملية نفسها لنمط هذا المعمار المتميز. وراء أبو سمبل، في فرس، وعكشة، وعمارة، وجبل البركل، كان على رمسيس أن يُقنع نفسه بمعابد ذات بناء أكثر اعتياداً

وُصف أبو سمبل بأنه أى شئ من قطعة رائعة المستوى إلى "مثير هائل للإعجاز"<sup>(١٠)</sup> . إن تفريده، مع هذا، وراء أى جدال. وإعجاب المكتشف بورخارت المحير، عندما ساقته الأقدار في ١٨١٣ إلى مقربة من البناية الضخمة المدفونة، مدونٌ في مجلته :

حيث أننى، فيما أعتقد، قد شاهدت كل الآثار في أبو سمبل، كنت أحاول الصعود للجانب الرملى من الجبل بنفس الطريقة التي نزلت بها أنفاً؛ وعندما استدرت لحسن الحظ في اتجاه يميل ناحية الجنوب، أخذت بما كان لا يزال ظاهراً من أربعة تماثيل ضخمة للغاية ومقطوعة من الصخر: ... إنها تنتصب في مكان خفى عتيق، مدفونة في





شكل رقم ٢٤

رسم تخطيطي لمدينة مسورة من عهد الدولة الجديدة، سبى (دلقو)

الجبل، لكنه مما يدعو للأسف العظيم، أنها الآن مدفونة بكاملها تحت الرمال، التي تُدفع نحو الأسفل هنا بإجتياح. إن الرأس بأكمله، وجزءاً من الصدر وأيدي أحد التماثيل مع ذلك فوق السطح؛ ومن التمثال المجاور له قلماً يظهر أي جزء، الرأس مكسور، والجسم مغطى بالرمال إلى ما فوق الاكتاف؛ ومن الثاني ظهرت قيعات الرأس وحدها، من الصعب أن نتخّذ ما إذا كانت هذه التماثيل في وضع جلوس أو قيام؛ إن ظهورها تابعة لجزء من صخرة، تتقدم عن الكتلة الرئيسية، ويمكن أن تمثل شيئاً من كرسي، أو ربما تكون محض عمود للتدعيم. أما الرأس الذي يطل فوق السطح فإن له أكثر مظهر شبابي مُعَبّر، أقرب ما يكون إلى نموذج إغريقي للجمال، من أي منظر مصري أبصرته من قبل؛ حقيقة، لولا لحية خفيفة مُستطالة، لأمكن أن يُعدّ رأساً لاثينا<sup>(١١)</sup>.

إن إزالة مئات من أطنان الرمل، منذ زيارة بورخارت، جعلت في الإمكان تقديم امرى لوصف أدقّ تفصيلاً للمعبد :

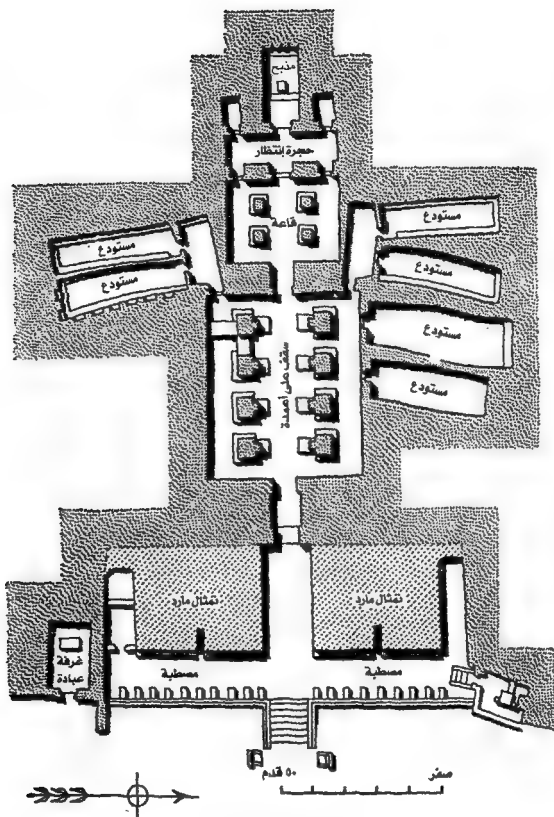
الملاحم الرئيسية لشكل المعبد الخارجى هي أربعة تماثيل ضخمة للملك نُحتت من الصخر الحى جانب التل (الصورة ٩ - ١). إن الأشكال الجالسة، اثنان على كل من طرقي المدخل، أطول من ٦٥ قدماً إرتفاعاً، وتمثل رمسيس لأبناً لتاج مصر المزدوج. على جانبي كل تمثال، بين الأقدام، أشكال للملكة نفرتاري وبعض الأطفال الملكيين، وهم أنفسهم مُمَثّلون بتماثيل من حجم عظيم ولكنها مصغّرة بالنسبة للبناء الضخم. إن كلاً من الجماعات الأربعة تقف على قاعدة عالية منحت عليها في أشكال مستطالة رمسيس وجماعات من الأسرى الآسيويين والزنوج؛ بينما العروض التي تشبه الصناديق وهي ما أقيم عليه البناء الضخم مزخرفة بجماعات متقلّبة تمثل إتحاد الأرضين. الواجهة التي تمثل خلفية للبنية منحوتة في شكل بوابة ذات عرض بارز يُزيّنة صف من القروء، ترتفع أيديهم لعبادة الشمس البازغة. وفوق المدخل إلى بهو المعبد تمثال لإله الشمس برأس النسر رى - هارمشيس ...

يقود المدخل المؤدى إلى المعبد مباشرة إلى القاعة الكبرى، ومن ملامحها الرئيسية صفان لأربعة أعمدة مربعة على واجهاتها أشكال ضخمة بارزة للملك، الذي يُمثّل ثانية وهو يلبس التاج المزدوج ويمسك بالصولجان المتدلي ذى المقبض المنحني (الصورة ٩ - ب). أما أعمدة القاعة الكبرى وأسوارها، التي تبلغ ٣٠ قدماً في إرتفاعها، فهي مُغطاة بالمناظر والنقوش التي تتصل بالاحتفالات البينية ومغامرات الملك العسكرية في حروبه مع الهيتيتس في سوريا، والكوشيين في السودان، ويحلى السقف رسم متآلف من الأشكال المستطالة وصقور لها أجنحة معطولة.

في الأسوار الشمالية والغربية للقاعة، أبواب تقود إلى سلسلة من الغرف التي ربما استُعملت كغرف لإجتماعات ومخازن للكهنة (قارن الشكل رقم ٢٥). إن الرسوم المنقوشة على الحيطان مكرسة بأجملها لمواضيع دينية.

أما الباب المركزي في السور الغربي فيعطي مجالاً لقاعة أصغر، سقفها مدعوم بأربعة أعمدة مربعة، هنا مرة ثانية رسوم الحيطان كلها بنية تماماً في كنهها. وراء هذه القاعة غرفة إنتظار لأداء العبادة، لها ثلاثة أبواب في السور الغربي، إثنان يقعان على جانبيها يؤيدان لحجرات غير منقوشة وإلى الغرفة المركزية على المحور المباشر للمعبد، وتقود لمكان العبادة. وفي السور الغربي لمكان العبادة صف من أربعة تماثيل جالسة في نحت على الصخر الحى. هذه هي الآلهة الأساسية للمعبد : بتاح، آمون، رمسيس نفسه، رى - هارمشيس. أمامهم، في مركز الغرفة، مذبح صغير غير منقوش، فهنا في هذا المكان لابد أنه كانت ستقدم الضحية وتوضع القرابين، عندما ينير شعاع الشمس الطالعة مكان العبادة في الفجر<sup>(١٢)</sup>.

على خلاف من سبقه من الفراعنة، كان رمسيس مُشْتدّاً للمعابد على وجه الخصوص، فلم يكن بانياً للمدن. وفي حين أن معابد التحتمسين والمنحبتين كلها بالتقريب مرتبطة بالمستوطنات القائمة أو بمستوطنات جديدة، فإن بعض إنشاءات رمسيس، خصوصاً في النوبة السفلى، يبدو أنها تحمل علاقة بسيطة بمراكز موجودة للسكان والنشاط هناك في الحقيقة دليل شافٍ على أن الإستثمار الإستعماري للنوبة كان قد بدأ في الإضمحلال إبان عهد رمسيس (انظر أدناه). إن الفرعون المصاب



شكل رقم ٢٥  
خريطة لداخل معبد مشفق من الصخر، أبو سمبل

بدء العظمة، ربما لإستبصاره نهاية عصره الإمبريالي، يبدو انه صار أشد أكثرأ بتخليد اسمه أكثر من تجديد نظام مصر الإستعماري .

كان رمسيس الثاني كانه لويس الرابع عشر في التاريخ المصري . إن بذخيات حكمه الطويل لم تستفد الدولة المصرية تماماً، على أن /نغماسه/ ربما أمكن أن يُستتبأ به أنفاً من خلفائه. فقد تُركوا دون طاقة أو موارد لمواصلة مشروعه التعميري للجنوب. ما حاول أحدهم ذلك. ومُرت بالتقريب ٥٠٠ سنة بعد رمسيس الثاني، قبل أن يتم بناء معبد آخر في النوبة.

تذكيراً بأهم النقاط باختصار، تعرض الأنشطة المعمارية لقراعة الدولة الجديدة في النوبة ثلاثة مراحل رئيسة. العهد الباكره للأسرة الثامنة عشر وهى فترة من إعادة الفتوح وتركيز السلطة، موسومة بإعادة إحتلال وتوسيع للقلاع القائمة، وبأول تأسيس لمستوطنات محصنة جديدة في النوبة العليا . أما الأسرة الثامنة عشرة المتأخرة، كفترة ترسيخ وإستعمار، فشهدت بعض بناء إضافى للمدن في الجنوب، لكن الأهم من ذلك بناء المعابد في كل من المستوطنات القديمة وما أنشئ منها إنشأءً جديداً. إن فترة رمسيس ، عندما كان السكان والإقتصاد النوبيين في إضمحلال بدأ من سابق، تشخصها موجة ثانية من بناء المعابد التي حُطّلت أساساً لتمجيد الفرعون، وليست لها سوى علاقة بسيطة بظروف الحياة اليومية في النوبة.

### المراكز الحضرية ،

هيات مجمعات المعابد والمراكز الإدارية للدولة الجديدة نوعاً ما من نوافه لحياة إجتماعية وسياسية كانت تفتقر إليها النوبة في السابق، ربما بإستثناء الحياة في كرمة. لقد كانت في الغالب موضوعة في مقاطعات مكتظة بالسكان كبدائية؛ ويعد إنشائها مالت كلٌ من المستوطنات المصرية والوطنية للجمع حولها. ديمغرافية النوبة في ذلك الوقت وما تلاه، وإن لم تكن أبداً "حضرية" على وجه الدقة، كانت على الأقل نوافه، على نهج الإستيطان في الشرق الأدنى (١٣) .

لقد كان توزيع الإستعمار المصري لإستيطانه ولصناعته في النوبة بعيداً عن الإنتظام. فالجزء الشمالى من النوبة السفلى كان فقيراً نسبياً في الموارد، وقدم إغراءات قليلة للإستعمار نفسه . أما التحكم فيه، مع هذا ، فكان حيويأ لإستغلال أهم مناجم الذهب المصرية، والتي كان الوصول إليها يتم عن طريق النوبة السفلى وواى العلاقى. إن قلعة كوبان، التى تقع في فم الوادى، كانت النقطة الجوهرية في هذه العملية. أصبحت خلال الدولة الجديدة مركزاً لمجتمع كبير، احتوى أيضاً سهل دكة الخصيب عبر النهر. ومع هذا الإستثناء، رغم ذلك، هنالك بقايا قليلة من نشاط الدولة الجديدة في النوبة الشمالية عدا معابد رمسيس الصخرية في بيت الولى، وجرف حسين وواى السبوع (١٤).

بمقارنتها مع المنطقة الكائنة مباشرةً نحو الشمال، كان النصف الجنوبى من النوبة السفلى خُصباً وماهولاً بالسكان بشكل إستثنائى؛ لقد كان مركزاً للقوة والثروة أوقات عديدة في التاريخ النبوى (قارن الفصل الأول) . إن أكثر من ثلث الصُروح الباقية على قيد الحياة وثلثى القبور المعروفة منذ إحتلال الدولة الجديدة للنوبة مركزة في رقعة من خمسة وسبعين ميلاً من وادى النيل بين عينية والشلال الثانى. أما العاصمة الإدارية لكل المنطقة فكانت بوضوح قلعة عينية، التى ربما كانت في بعض الأزمان موقعاً لإقامة ولاه كوش (١٥). إن أماكن أخرى، ربما أنها مركز إدارية محلية، مواقعها سررة وبوهين، بالقرب من الشلال الثانى. في كل من المكانين، كما في عينية، أُقيمت من جديد أسوار قلعة الدولة الوسطى وجرى توسيعها.

بنيت معابد هامة في عمدا والليسية، ليس بعيداً عن عينية، ووضع معبدان بين أسوار القلعة في بوهين . مع هذا، فإن أهم مركز دينى في النوبة السفلى لم يكن موقعه قائماً بأي من المستوطنات

الإدارية الرئيسة وإنما في فرس، ثلاثين ميلاً شمال الشمال الثاني. لقد كانت هناك منشأة عسكرية صغيرة هنا خلال الدولة الوسطى، لكنها لم يُعاد إستخدامها بعد إعادة الفتح، ويبدو أن المكان كانت له أهمية سياسية أو عسكرية ضئيلة في ظل الدولة الجديدة. كيفما كان الحال، فإن خمسة معابد على الأقل شُيّدت في فرس والضاحية المباشرة لها بواسطة حكام مختلفين من الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. يبدو أن هناك إختلافاً وظيفياً بين هذه المنشآت، التي تقع في قطر مفتوح إفتراضياً لنشر شعائر الدولة المصرية وسط النوبيين، والمعابد بين أسوار القلعة نفسها، التي ربما كانت جزءاً لا يتفصم من الآلة الإدارية. أهمية فرس ترجع بجلاء رجوعاً يكاد تاماً للتقليد الأصلي للنوبيين، وقد ظلت مركزاً دينياً هاماً زماناً طويلاً بعد أن رحل المصريون أنفسهم عن النوبة (قارن الفصل الثاني عشر والفصل الخامس عشر).

بينما مدّت السيادة المصرية صوب الجنوب فيما وراء بطن الحجر فقدت منطقة الشمال معظم أهميتها الإستراتيجية. إن الأنشطة المصرية فيها كانت نسبياً غير هامة أثناء الدولة الجديدة. أُعيد شغل القلاع طبقاً لما كان سائداً، إفتراضياً لمعاونة المراكب في المرور عبر الشلالات، غير أنه لا يوجد دليل على إصلاحات رئيسة إلا في سمّة وحدها. مع هذا، شُيّدت معابد في ثلاثين من قلاع سمّة الأربعة (سمّة، كومة، وأرونارتي) تحت حكم التحتمسين، وينطق عدد جنازير الدولة الجديدة في سمّة غرب بحجم معتبر للسكان<sup>(١٦)</sup>.

جنوب مصعد النهر من سمّة، تثبت أعمال تعدين الذهب الوجود المصري في نوبشات، التي يجري وصفها بأبنائها، وبالنحوت الصخرية في نقاط مختلفة. التركيز غير العادي للنحوت في جزيرة تنجور يوحي بأن محطة خارجية كان مُحْتَفظاً بها هنا لإعانة المراكب على المرور بشلال مجاور، رغم أن مخلفاتها لم تُكتشف بعد<sup>(١٧)</sup>. جنوب النهر من تنجور لم يُصانف وجود أي صُروح مصرية من أي نوع حتى بلوغ منطقة عبري - دلقو الخصيبة.

الحقول العريضة والماء المنساب بلا انقطاع في أرض عبري - دلقو النهرية لا بد أنها كانت منظرًا داعياً للمصريين بعد عبورهم وعورة بطن الحجر، حيث أن غالبيتهم لم تذهب أبعد من ذلك. تركز الإستثمار المصري الإستعماري الرئيس في النوبة العليا بالمنطقة بين عبري ودلقو، جنوب النهر بالضبط من ناحية آخر نقطة لشلالات بطن الحجر. وبالرغم من أن هذه المساحة لم تُستطلع بعد بطريقة منظمة منهجياً، فإن صُروحها المصرية المعلومة تحتوى أربع معابد رئيسة وثلاث مستوطنات مُسوّرة (الشكل رقم ٢٢).

عُرس أول مستعمرة في أرض عبري - دلقو النهرية فيما يبدو في زمن التحتمسين أو ما قبل ذلك؛ ربما أن القلعة القائمة في جزيرة صاى بُدئ في إنشائها في عهد أحمس<sup>(١٨)</sup>. إن التسميات المُخدّقة الغربية (وهي فيما يبدو بلا حيطان) التي تدعم أساس المستوطنات المتأخرة في صلب وسبسي لا بد أنها أيضاً تنتمي لعهود الحكم الأولى للأسرة الثامنة عشرة<sup>(١٩)</sup>. هذه المستعمرات الرائدة لم تُستكمل مُطلقاً طبقاً للرسم الذي خُطّطت له أصلاً؛ فلقد زيد بناؤها وحلت محلها مدنٌ مسورة، مستطيلة الشكل، في زمن الأمنتحيين.

المنشآت الإستعمارية الرئيسة في أرض عبري - دلقو النهرية بالإضافة إلى صاى كانت عمارة، صلب - صدنقا، وسبسي (دلقو). أساس تأريخ عمارة غير مُستيقن، لكنه يحتمل أن يعود إلى الجزء الأوسط أو الأخير من الأسرة الثامنة عشرة<sup>(٢٠)</sup>. أما معبد صلب الرائع (الصورة ١٠ - ١) ومعبد صدنقا القريب الذي أصابه تدمير كثير، فكلاهما قام ببناؤه أمنتحت الثالث<sup>(٢١)</sup>. وأسس مدينة سبسي ومعبدتها خلفه أخناتون (أمنتحت الرابع)<sup>(٢٢)</sup>. لهذا فإن الاستعمار الأساسي لأرض عبري - دلقو النهرية ينتمي بوضوح إلى الفترة الوسيطة من الأسرة الثامنة عشرة.

عمارة، صائ، وسبسي كانت جميعها مذنأ مسورة، يقارب المربع رسمها العام (الشكل رقم ٢٤) (٣٧). في صلب أيضاً كان هناك سور عات، او بالأحرى تعاقب من الأسوار، يُحيط بالمعبد، على أن ذلك يبدو كحائط المصريين التقليدي تمنوس محيطاً بالأماكن المقدسة بدلاً عن دفاعات المستوطنة (٣٨). وبالرغم من أن صلب وصدنقا دعى كلاً منهما مستوطنة رئيسة في نصوص الدولة الجديدة، فإن مواقع المدينة وتحصيناتها لم يحدد مكانها أبداً (٣٩). في عمارة ودلقو، أبأ تم ذلك، كان هناك مركب متكامل من المدينة والمعبد. ما كان أى من هذه المواقع قد أخضع للتحقيق بأى قدر من الدقة، لكن المباني التى تصانف وجوبها في الجفر الجزئى لعمارة كانت شديدة التعقيد لأقصى حد، وقد تعرضت لتعديلات لا حصر لها حتى نهاية الأسرة العشرين (٤٠). أما معبد عمارة فقد بناه رمسيس الثانى، على أنه من الممكن أن يكون قد حل محل بناية سابقة. كانت المدينة بصفاء مركزاً إدارياً هاماً في الدولة الجديدة أثناء مرحلتها المتأخرة، وربما كانت كرسى نائب الوالى في النوبة العليا (٤١).

أرض دنقلا النهرية، رغم أنها ظلت أرضاً مركزية للسيادة الإستراتيجية لمعظم الحضارات النوبية المتأخرة، تبدو كأنها جذبت إستعماراً قليلاً أثناء الدولة الجديدة. إن الصروح المصرية الرئيسية التى لا تزال باقية تكمن في نبتة، على أقصى طرف بالمنطقة صوب مصب النهر، وفي كاوة بالقرب من نهاية إتجاه النهر شمالاً. هاتان المستوطنتان هما المستعمرتان المصريتان الوحيدتان في النوبة العليا اللتان وُضعتا على الضفة الشرقية للنيل. إنهما شديدتا القرب من آخر نقطة في الوقت الحاضر لطريق مهيلة، طريق صحراوي للقوافل يمر عبر إنحناء النيل العكسى في أرض دنقلا النهرية (الشكل رقم ٢٥). ظهور نبتة وكاوة كمراكز حضرية رئيسة، متناقضاً مع غياب أى مستوطنات معروفة على امتداد وادى النهر بينهما، يؤدى بقوة بأن طريق مهيلة كان قيد الإستعمال مسبقاً في أزمان حديثة. إن نفعه فوق درب النهر، إلى جانب أنه مباشر، هو في تفاديه للرياح المعاكسة في أرض دنقلا النهرية العليا (قارن الفصل الأولى).

أرض نبتة، أسفل الشلال الرابع تماماً، خرجت على أنها المركز السياسى والدينى العظيم للنوبة في ظل امبراطورية حضارة كوش (الفصل العاشر)، لكن تأسيسها يعود إلى فترة إستعمار الدولة الجديدة. وتوحي النصب اللوحية وكتل بنايات تحتتمس الثالث وتحتتمس الرابع التى أعيد إستعمالها بأنه كان هناك معبداً ومدينة قائمتين من قبل، هنا في عهد الأسرة الثالثة عشرة (٤٢)، في حين أن المعبد العظيم لأمون، الذى صار فيما بعد "كرنك" الإمبراطورية النبتية (الشكل رقم ٢٦ والصورة ١١ - ١)، أسسه قطعاً رمسيس الثانى (٤٣). شُيدت هذه المباني تحت قمم جبل البركل مباشرة، وهو مرتفع صحراوي عالٍ ذى انحدار، ربما كان مقدساً للسكان المحليين سلفاً (الصور ١ - ب). مع هذا، فإن معابد كبيرة لرمسيس لا تضم بالضرورة مستوطنات هامة، كما لاحظنا في تمنع من قبل: وإلى أن يصير الإضطلاح بمزيد من التنقيب في جبل البركل جارياً، لن يكون بوسعنا أن نقرر أهمية نبتة خلال الدولة الجديدة.

المستوطنة في كاوة، قبالة دنقلا الحديثة، تحمل إسم جيماتن. إن هذا لما يجعل هويتها بشكل يكاد قاطعاً مصحاحية للفرعون الصابى، أخناتون، الذى حاول بمعبدوه الشخصى، اتون. أن يُزيل ديانة الدولة التى طال اعتناقها لعبادة آمون. وإذا كان أخناتون قد شيد معبداً على الإطلاق في كاوة، فقد دمّره تماماً خلفائه، مثكما جرى لمعابده في طيبة وتل العمارنة. أما المعبد الفرعونى الصغير الذى لا يزال ماثلاً في كاوة اليوم فقد بُنى في عهد توت عنخ آمون، فيما يقارب نهاية الأسرة الثامنة عشر. كانت هناك كذلك مدينة كبيرة الحجم، لا يزال معظمها غير محفور بعد (٤٤). كاوة، مثل نبتة، لها تاريخ تالٍ طويل، وقد كانت مركزاً هاماً خلال الفترات النبتية والمروية. على مسافة قريبة باتجاه النهر شمالاً، على جزيرة أرقو، برزت إلى الضوء في وقت وجيز كل معبد مستعمل وموحية بأنه هنا أيضاً كانت توجد مستوطنة هامة في عهد الأسرة الثامنة عشرة (٤٥).

بشكل واضح للغاية تُفتقد كرمة في قائمة المراكز "الضرورية" الجديدة في النوبة. ومع أن السُّدون التاريخي صامت بالنسبة لمصيرها، فإن المملكة النوبية فيما هو بادر إندثرت إبان الإنفعا الأول لإعادة الفتح، وبتنا لا نسمع عنها ثانية أبداً . إن الغزاة المصريين لم يشعروا بحاجة لتعريف أنفسهم ورثة لها، حيث أنهم تركوا صروح كرمة ومدافنها التلية لتفوص في الخراب ، وأضحى المكان عائماً في النسيان حتى أزمانٍ حديثة.

### التنظيم السياسي والاقتصادي

ثوود، قائد بوهين الذي عيّنه أحمس، مُنح لقب "ابن الملك في كوش"، في عهد امحتب الأول. لقد كان الأول أو الثاني (٣٢) في صف من خمسة وعشرين أو أكثر من الضباط الذين حملوا ذلك اللقب، وحكموا كلاً من النوبة وأبعد المقاطعات المصرية جنوباً ككتاب للفراعة (٣٣). إنهم يوصفون عادة بأنهم ولاة كوش، مع أنه في عبارة جازمة إشتمل تفويضهم كلاً من كوش (النوبة العليا)، والواوات (النوبة السفلى) إلى جانب المنطقة من أسوان إلى الكاب في مصر . بمرور الزمن ، ومن خلال عملية "قانون السيطرة على الهامش"، لتويني (٣٤)، أصبحوا أقوى موظفي الدولة في مصر نفسها، كما سنرى ذلك لاحقاً .

إن النظام المبنى على الولاية في النوبة يصفه أ . ج . أركيل على النحو التالي :

كان الوالي مسؤولاً عن التسديد المنتظم لجزية النوبة (من كل من الواوات وكوش). كان يُختار عادةً من النعية الملكية ، لضمان ولاءه بالقرام قاطع، وكان مسؤولاً مباشرةً للملك. ويبدو أنه كان يحضر الجزية بنفسه ويسلمها في إحتفال للوزير أو أمين الخزنة.

شمل معاونوا الوالي قائد رماة النبال في كوش، ونايين، واحداً للواوات والثاني لكوش، و ... يُعتقد أنه إبان الأسرة التاسعة عشرة أقام نائب كوش في عمارة . كان أغلب ضباط الوالي بلا شك مصريين، لكنهم شملوا بعض النوبيين المتمصرين ... لا رب أن الزعماء الوطنيين الموالين كانت تُسند إليهم مهام الإشراف على مناطقهم القبيلة، وقد وُصف زعماء معام (عينية الحديثة ) والواوات وهم يتقدمون جماعتهم لتقديم الجزية لتوت عنخ امون. مثل هؤلاء الزعماء لا شك أنهم كانوا يُعدون مسؤولين عن الجزية المفروضة على أهلهم، بالرغم من أن المحاولات التي بُذلت من أجل الإستقلال على غرار ما قام به بعض الزعماء خلال الأسرة الثامنة عشرة سُحقت بطبيعة الحال في قسوة .

أما أطفال الزعماء النوبيين فكانوا يُؤخذون إلى مصر، أصلاً كرهائن ، لكنهم كانوا يُمنحون تعليمًا ورتبةً مصريين: بدأ فإن أحد زعماء معام في نقش منحوت على الصخر في توشكي يدعو نفسه حامل الصندل (٣٥) وفارس الملك . الفرسان كانوا أطفالاً تجرى تنشئتهم مع الأمراء اليافعين، ويحتفظون باللقب في حياتهم المتأخرة . وليس ثمة شك أن السياسة المصرية تجاه النوبة هدفت إلى تجاوز سلمى لصيق بين المصريين والوطنيين (٣٦).

التمثل (٣٧) ، أكثر من التجاور الوثيق بين هويتين مختلفتين، يبدو أشد دقة لوصف مرمى السياسة المصرية في النوبة. إن إرسال الأمراء النوبيين للتعليم في مصر يُلقى بظله على سياسة إتبعها العديد من الحكام "المتعلمة" الذين أجروا سياسة التمثل على رعاياهم في الأزمان المتأخرة . ومثلما تم إحلال المعابد بدلاً من أسوار القلاع بوصفها التعبير الرمزي الرئيس للقوة المصرية ، فإنها تُنْبئ حالاً عن تغيير هام في مسلك مصر نحو النوبيين. لم يعد الفرعون ساعياً لترسيخ حكمه بإظهار القوة، ولكن ليُضفي شرعيةً عليه بالتنظير الأيدولوجي - عن طريق الدعاية لديانة الدولة ونشر الثقافة الوطنية . إن المهر الغليظ للأسر الجسماني تُطلى عنه لصالح قناعات عقلية متنوعة وأشد أثراً. والآثار الناجحة لهذه السياسة ، ولو أنها بلا شك غير متوقعة، يمكن أن تُشاهد في بزوغ "دولة

(٣٥) التمثل عملية إجتماعية شاملة تتبنى من خلالها جماعة ما ثقافة جماعة أخرى على حساب ثقافتها الخاصة - المترجم.

## الخلافة الماثورة بنبئة بعد خمسمائة عام.

أما المدى الذى تم فيه إستيعاب الأعيان الوطنيين في الطبقة المصرية الحاكمة فهو غير مؤكد، ويُشكل صعوبات سوف ننظر لها بتفصيل وإفٍ فيما بعد. حيكاً - فَنَرُ، أحد الزعماء المحليين من عَنِيبة المشار إليها سابقاً<sup>(٣٧)</sup>، كان قطعاً نوبياً، ذلك لأنه رُسِمَت صورته ومُنَحَ إسمُا في مقبرة الوالى حاي في طيبة<sup>(٣٨)</sup>. أما مقبرته الخاصة، التى هى مصرية خالصة في طرازها ومنسوخة على أثر مقبرة حاي، فقد تم الكشف عنها قبل وقت وجيز في توشكى<sup>(٣٩)</sup>. وهناك شقيقتان تُعرَفهما صروحهما الجنائزية بأنهما 'امراء تخت' (سرة) يُعتقد أنهما كانا نوبيين. مرة ثانية، فإن غرفة مقبرتهما المزدانة مصرية خالصة في الطراز والزخرف، ووُضِع تعريف هويتهم كنوبيين بناءً على نسبة أسمائهما الأبوية وهى أسماء غير معهودة في الأسماء المصرية<sup>(٤٠)</sup>. في الجانب الآخر، يبدو أن موظف الدولة بُنُوت، الذى حكم عَنِيبة أثناء الأسرة العشرين ودفن بالجوار، كان مصرياً<sup>(٤١)</sup>.

تحت النظام الإمبريالى تحول الإقتصاد النوبى من إكتفاء ذاتى إلى قاعدة إقطاعية . التغيير الطارئ يُفصل ملامحه تريقر كما يلى : (٤٢).

أثناء الدولة الجديدة كانت الحياة الإقتصادية في النوبة السفلى أكثر تعقيداً عما كانت عليه مطلقاً من قبل . كذلك كانت متكاملة تكاملاً أكثر وثوقاً مع الإقتصاد المصرى . وبالرغم من أن الصيد والرعى لا بد أنهما ظلا مهمين، خاصة في المناطق المحلية الفقيرة، فإن قسماً من الصيد أو القطيع ربما أنه الآن مما تطلبه الحكومة أو المعبد كجزية . في نفس الوقت فإن نمط حياة الأرض الذى ساد في (ثقافة المجموعة الثالثة)، وربما كان مؤسساً بشكل واسع على الملكية الجماعية، حلَّ محله نظامٌ حيازَةٍ مصري معظم الفلاحين، إن لم يكونوا مجتمعهم، يعملون الآن في أراضٍ يملكها التجار، والأمراء المحليون، وإداريو الحكومة، أو المعابد التى شُيِّدت في طول المنطقة وعرضها . النقلة في أنماط ملكية الأرض يبدو أنها كانت مُصطلحةً بنقلة بعيدة عن الرعى في إتجاه زراعةٍ أكثر كثافة . منظر المزروعات في جَبانة جيهوتى - حُتَب توحى بأن النوبيين ربما كانوا ينتجون من قبل ويصدرون البُلع ... (٤٣) كما أن حوافظ النحل والنبيذ تذكر بالمنطقة التى تقع في الجنوب البعيد ، وربما كان هناك إختصاصيون مثل ذلك في النوبة السفلى كذلك (٤٤). أما الزراعة بالحياض التى كانت هامةً في مصر فقد كانت مستحيلةً في النوبة بسبب طبيعة الأرض، لكن الشادوف ربما أُدخل في ذلك الوقت (٤٥)، وربما استُعمل رى بسيط بالأيدي لزيادة كمية الأرض القابلة للفلاحة . إن هذا ساعد بلا شك على تعويض إنخفاض مستوى الفيضان منذ الدولة الوسطى . لعل الذرة أيضاً أرسلت من مصر لإطعام أو لتسديد مرتبات أولئك المستخدمين من قبل الحكومة .

الآرياح التى تجنبها المعابد من أملاكها والرسوم التى استطاع بعضها أن يجيبها من مرور البضائع على النهر (٤٦) لم تُستخدم لدعم مسؤولى الدولة، والكنهة ، وخُدّامهم فحسب وإنما للإختصاصيين مثل التجار، والمعدنين، وبنّاء السفن، والصنّاع على قدم وساق (٤٧) بنهاية الأسرة الثامنة عشرة بدأت بعض السلع المصنّعة في الظهور كجزء من الجزية التى كانت تُبعث إلى مصر . بين الجزية في مدفن حاي نجد دروعاً، ومقاعد، وأسرة، وأرائك (٤٨) .

لقد أرسل الأرقاء وسجناء الحرب إلى النوبة السفلى ليوفروا قوة العمل في مشاريع الدولة الكبيرة مثل بناء المعابد . أما الأسرى الليبيين فكانوا يُسَخَّرُون للعمل في وادى السبوع بالعام الرابع والأربعين من عهد رمسيس الثانى (٤٩) . بالمثل أدى ملوك مصر حيات دائمة من الرقيق للمعابد . يُدَوّن مرسوم من بواكير الأسرة التاسعة عشرة أن الملك زود مشاغل معبد في بوهين بالعبيد من الذكور والإناث الذين كان قد أسره صاحب الجلالة (٥٠) .

بإنشاء 'إقتصاد زراعى' ثم إنتزاع حيازات الوطنيين على نطاق واسع، أصبح التسلسل التاريخى للتطور الإستعمارى مكتملاً . فاعلبيّة النوبيين أصبحوا الآن فلاحين، وربما شاركوا السُخرة الشقية لزملائهم الفلاحين في مصر وأجزاء أخرى من العالم . إن ملاك الأراضى الذين كانوا يقومون بخدمتهم كانوا غائبين في الغالب الأعم - نبلاء مصريين أو موظفين في المعابد . وأولئك النوبيون، مثل جيهوتى - حُتَب وحيكا - نفر اللذان استطاعا أن يجدا لأنفسهما مكاناً في طبقة ملاك الأراضى الجديدة، كانوا متمصرين تماماً في السلوك وفاق إتنماؤهم الطبقي بحكم مكانتهم مع النبلاء



المصريين بلا ريب إلتصاعهم السِّلالي مع رفاقهم النوبيين إلى حد بعيد. الإلتصاع الطبقي بدأ في الحلول محل التقسيم العرقي بإعتباره القُربى الرئيسة في المجتمع النوبى .

كانت التنمية الزراعية وجهاً واحداً وحسب من الإستعمار المصرى في النوبة . تواصل قدر معين من حملات الرقيق حتى نهاية الأسرة العشرين<sup>(٥١)</sup> ، وقَدَّم النوبيون بأنفسهم عبيداً إضافيين . ربما قبضوا على بعضهم من جيرانهم الذين كانوا لا يزالون أبعد مسافةً إلى الجنوب . بين جزيئتهم السنوية للوالى<sup>(٥٢)</sup> . إن فكرةً عن كمية جزية النوبية ونوعيتها يمكن إكتسابها من حُويلات تحتمس الثالث، نحو منتصف الأسرة الثامنة عشرة<sup>(٥٣)</sup> :

#### جزية الوالى

- عام ٣١. ٩٢ بقرة، محصول واحد .
- عام ٣٣. ٢٠ عيداً، ١٠٤ بقرة، محصول واحد .
- عام ٣٤. ٢٥٤ دَبْنًا<sup>(٥٤)</sup> من الذهب، ١٠ عبيد، وعدد غير معروف من البقر .
- عام ٣٥. ٣٤ عيداً، ٩٤ بقرة، محصول واحد.
- عام ٣٨. ٢٨٤٤ دَبْنًا من الذهب، ١٦ عيداً، ٧٧ بقرة .
- عام ٣٩. ٨٩ بقرة، عاج وأبنوس .
- عام ٤١. ٣١٤٤ دَبْنًا و٢ كيت من الذهب، ١١٤ بقرة، وكمية غير معروفة من العاج.
- عام ٤٢. ٣٣٧٤ دَبْنًا و١ كيت من الذهب، محصول واحد .

#### جزية كوش

- عام ٣٤. ٣٠٠ دَبْنًا من الذهب، ٦٠ عيداً زنجياً، ٣٧٥ بقرة، عاج وأبنوس .
- عام ٣٥. ٧٠ دَبْنًا و١ كيت من الذهب، عدد غير معروف من الرقيق، بقر، عاج وأبنوس، ومحصول واحد.
- عام ٣٨. ١٠٠ دَبْنًا و٦ كيت من الذهب، ٣٦ عيداً زنجياً، ٣٠٦ بقرة، عاج وأبنوس، ومحصول واحد .
- عام ٣٩. ١٤٤ دَبْنًا و٢ كيت من الذهب، ١٠١ عيداً زنجياً، وكمية غير معروفة من البقر.
- عام ٤١. ٩٤ دَبْنًا و٢ كيت من الذهب، ٢١ عيداً زنجياً، وكمية غير معروفة من البقر.
- \* ١ دَبْن = ٢٠ رطلاً من الذهب تقريباً وكان الكيت حلقة من الذهب تزن حوالي ٥ أطلال .

#### صناعة الذهب

بينما كانت الحروب الأوروبية لفيليب الثانى<sup>٥</sup> ممولةً بفضة المكسيك، كانت قوة مصر في آسيا ممولةً مثل ذلك بالذهب النوبى. فإثناء أغلب عهود الأسرة الثامنة عشرة كانت يد الفرعون قوية بما فيه الكفاية لتحتفظ بقبضةٍ حازمةً بفلسطين وسوريا، بالرغم من أن نفقة الإحتلال العسكرى كانت بلا أدنى شك عالية. إن إضعاف الدولة في عهد أخناتون هبَّ الذرائع الجاهزة للعصيان المحلى والتدخل الأجنبى، وبنهاية الأسرة الثامنة عشرة تدهورت معظم الفتوح المصرية في آسيا. ثم هدد الهيمنة المصرية في كل مكان، نهوضُ قوة هيتيت في الأناضول و "شعوبُ البحر" (الكرينيين، والفينيقيين، وغيرهم) بشرقى البحر الأبيض المتوسط، والقي بظلاله على تصارع الإمبراطوريات التى شغلت مساحةً كبيرةً للغاية في الألف الأخيرة قبل الميلاد .

إستعاد ستى الأول التخوم المصرية في سوريا في مبتدأ الأسرة التاسعة عشرة. ولما كان مهدداً بغزو هيتيتى جديد، إعتلى رمسيس الثانى تجريدةً كاسحة وباهظة النفقات لأقصى الحدود

إستطاع أن يحفظ بها *الحالة الراهنة* لفترة أطول حين انتهت إلى وقفة مع الهيتيتيين. أما الهيتيت بدورهم فقد قضت عليهم شعوب البحر، وكان على المصريين أن يقتعوا بسلسلة كاملة من الأعداء الجدد في كل من آسيا والوطن. لقد حارب خلفاء رمسيس حروباً طويلة متواصلة لحماية ظهورهم، لكنهم بحلول نهاية الأسرة العشرين كانت إمبراطوريتهم قد ذهبت ريشها بلا رجعة. بعد ذلك ساد النفوذ المصري فلسطين بالمظاهرة والسياسة أكثر منه تفويضاً إمبريالياً صريحاً.

إن ذهب الفرعون طالما انصرف أساساً إلى الوله بالصروح الملكية، لم يكن إنتاجه مساهمةً محسوبةً لأولوية قومية عليا. وعندما كان يُنفق بكميات ضخمة دائمة لدعم الطموحات الإمبريالية في آسيا، أضحت تنمية المصادر لذهب جديد موضع إهتمام حيوي للدولة. وجاب المستكشفون المصريون أنحاء الصحراء الشرقية طولاً وعرضاً، ما تركوا نائناً ولا وادياً، فيما يبدو، دون استطلاع بين النيل والبحر الأحمر. بات أكثر من خمسة وثمانين منجماً قديماً معروفين في الأراضي الجرداء غير المستصلحة في شمال شرق السودان وحده (٥٤).

بالرغم من أن الذهب كان يُراكم بكميات من قبل كل فرعون من الأسرة الأول وما بعدها، فإن مصدر ذهب مصر قبل الدولة الجديدة معلومٌ بشكل غير متقن للغاية. فهناك، كما رأينا في الفصل السابع، بعض المؤشرات على إنتاج الذهب النوبي في الدولة الوسطى، غير أن الكميات لا تبدو كبيرة. أما مناجم الذهب الرئيسية للدولة الوسطى فربما كانت تلك القائمة بصحراء كويتس، بين مصر العليا والبحر الأحمر.

ذهب كويتس لا يزال شاخصاً في إيرادات الخزانة في الدولة الجديدة، لكنه يطغى عليه ذهب الواوات (النوبة السفلى) و ذهب كوش (النوبة العليا). تعكس حوليات تحتمس الثالث، التي نُقل عنها أنفأ، جملة ٨.٦٨٢ نبياً (١.٧٦٠ رطلاً) من ذهب الواوات و ٥٩٥ نبياً (١٢٠ رطلاً) من ذهب كوش تم استلامها في السنوات الأربعة والثلاثين، الثامنة والثلاثين، والحادية والأربعين من حكمه (٥٥). بأسعار اليوم، تبلغ الجزية النوبية للملك أكثر من ثلاثة مليون دولاراً في قيمتها.

الكمية الضخمة من ذهب الواوات المدونة في حوليات تحتمس يمكن أن تعني فقط أن هذا الرقم يشمل عطاء المناجم التي لا يُحصى عددها بوادي العلاقي وادي كبجة، الذي كان يُجلب إلى النيل في كويان بالنوبة السفلى (٥٦). هذه المناجم، التي يزيد عددها عن مائة منجم كانت مبعثرة في أرجاء الصحراء الشرقية على مسافات تبلغ ١٥٠ ميلاً من ضفاف النيل. لقد كانت كما تبين سجلات تحتمس أغلي ممتلكات مصر المعدنية إلى أقصى الحدود في الدولة الجديدة، وأصبح إستغلالها الكفء واحداً من أكثر الضروريات حيوية للإمبراطورية. وفي أزمان لاحقة وُفرت المناجم الدعم الإقتصادي للإمبراطورية النوبية في ثبته ومرارى، ولوقتٍ ما كانت أيضاً المفتاح للسياسة الرومانية في كلٍ من مصر والنوبة.

نقطة الرسو لصناعة الذهب في النوبة السفلى كانت قلعة كويان، على مدخل وادي العلاقي. كان الرجال يحضرون هنا مع المؤن عن طريق النهر من أسوان، ومن هنا يبدأون السير الطويل المجتوف بالمخاطر براً صوب حقول الذهب. ربما كان العبيد يُشكلون غالبية القوة العاملة (٥٧). أحوال الحياة صعبة فيما هو واضح، إذ يُدون لوح منقوش لرمسيس الثاني أنه "إذا كانت قلة من أفراد قافلة تنقية الذهب قد ذهب إلى ذلك المكان، فإن نصفهم لا غير وصل هناك، لأنهم ماتوا من العطش في الطريق، إلى جانب الحمير التي كانوا يسوقونها أمامهم. ما وُفّر لهم التمرين الضروري من الشراب، في الصعود والرجوع، من ماء القرب. لذا لم يُجلب ذهب من هذا البلد، لإنقاذ الماء" (٥٨).

لكيما يتم تجنب مثل هذه الأحوال حفر رمسيس بئراً في وادي العلاقي. ويبين اللوح المنحوت

أن إهتمامه لم يكن مُتَّصِباً على رفاهية العمال بمتلما اتجه إلى التمكن من إستغلال المناجم بأرياح أفضل. إن كون الجهد كان ناجحاً لربما جاز إستنتاجاً من الحقيقة التي مؤداها أن غالبية النقوش التي وجدها بعثة روسية قبل وقت وجيز في وادي العلاقي تنتمي إلى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . لقد اكتشف الروس أيضاً ما يظهر كئنه الموقع الأصلي لبئر رمسيس، حوالي أربعين ميلاً بالير بعيداً عن النيل (٥٩) .

تقرير بعثة للتعيين وُجِدَت في وادي حمامات ، بصحراء كويش، يُؤدّن أن فرقة من ٨.٣٦٨ شخصاً يرتب ومهن مختلفة ذهبت رأساً للمناجم في عهد رمسيس الرابع (أواخر الأسرة العشرين). يحوى النص ملاحظة خاصة بشأن الحقيقة القاضية بأن ٩٠٠ فرداً من الفرقة هلكوا أثناء سير البعثة . عدد كبير من النقوش الخاصة التي وُجِدَت في وادي العلاقي يحمل أيضاً عبارات وداع ونصوصاً جنائزية (٦٠) .

طبقاً للوكاس، الذي يُعدّ مؤلفه في شأن مواد مصر القديمة وصناعاتها مرجعاً قيماً في تقنية القدماء :

طريقة المصريين في إستخراج الذهب من عروقه بصخور الكوارتز البلورية يصفها أغاثارشيدس، كاتب إغريقي من القرن الثاني قبل الميلاد، زار المناجم وكتب عرضاً مُفصلاً لما شاهدته. ورغم أن العمل الأصلي قد فُقد، فإن وصف مناجم الذهب حفظه أحسن الحفظ ديودورس، الذي نقله بأكمله. الصخر كان يُشَقّ أولاً ويكسر بالنار ثم يهاجم بالمطارق والملاط. ثم تُحمل الصخرة المكسرة خارج المنجم، حيث تُسحق في مساحن حجرية بحجم حبات البسلة وبعد ذلك تُسحق مسحوقاً دقيقاً في طواحين يدوية؛ ويفصل المسحوق بالماء على سطح منحدر كي يفصل المعدن، الذي ربما يُضَمّن أخيراً في سبائك صغيرة. إن كثيراً من طواحين السحن الحجرية القديمة، ومكفات الطاولات الحجرية لمعالجة الخام المسحوق لإستخراج الذهب، لا تزال مشاهدة في المناجم القديمة (٦١) .

في إشارة للمناجم النوبية، يضيف فيركوتر أن "مناجم قليلة فحسب لها منشآت دائمة، أكواخ، طاولات للغسيل، أفران، بقايا أواني التدويب وأكوام الزبد. في العادة تُظهر مناجم الذهب القديمة ركناً فحسب من الحجارة المكسرة وطواحين سحق الخام التي تُجر إستعمالها. هناك آثار قليلة لمستوطنات، ولا توجد طاولات للغسيل، ولا أفران، أو أباراً بذات الوتيرة ... لربما كان معظم الإستخراج النهائي للذهب من الخام المسحوق والمذاب يتم على ضفاف الأنهار " (٦٢) .

جاء ذهب كوش أساساً من ولاية دويشات، بالقرب من النيل أمياً قليلة صوب مصب النهر من سمّة . إن الموقع جرى تحقيقه قبل فترة قليلة بصورة مُسقة في المسح الأثاري لمصلحة الآثار السودانية، على أنه لم يتوفر تقريراً بعد (٦٣) . وُجِدَ عدد كبير من المعارض وحفر الإستطلاع، سوى أن عدداً يفوقها وفرة ربما أزاله نشاط متأخر، فقد وقع إستئناف لتعدين الذهب بشكل متقطع في دويشات حتى أزمان حديثة. إن المعدنين المصريين عاشوا بوضوح في أكواخ حجرية خشنة مبعة بكثافة في أرجاء المنطقة. يبدو أن موقف دويشات، بالقرب من النهر ، دعا لمستوطنة دائمة وربما لبناء مقر لمراقب التعدين، عدا أنه لم يُعثر على مبنى من ذلك القبيل. ويبدو محتملاً أن التعدين في دويشات، كما في الصحراء الشرقية، كان نشاطاً مُقطعاً يجرى عندما تكون الخزانة في حاجة ماسة، للإنعاش أكثر منه صناعة دائرة على مدى العام.

### ماذا آلت إليه حال النوبيين

حتى الآن إهتمت المناقشة أساساً في هذا الفصل بالأنشطة المصرية في كوش التي فُتحت من جديد. لقد تجنبت التصدي بتمحيص للسؤال المُشكّل عن ما آل إليه حال عامة الوطنيين عندما أُجِيتِخ ومنهم للمرة الثانية، وأضحوا رعايا للفرعون. لسوء الحظ لا نعلم حقيقة ما أضحت عليه حالة

أغلبتهم؛ لا التاريخ ولا الآثار يعطيان إجابة مرضية .

في النوبة السفلى، يمكننا أن نتعرف على مجموعة سكانية مميزة «للمجموعة الثالثة» حتى منتصف الأسرة الثامنة عشرة على الأقل، متعايشة مع المصريين وربما أيضاً مع نوبيين متمصرين. «القلعة النوبية في عمدا، التي جرى وصفها في الفصل السادس، كانت لا تزال مستعملة في عهد تحتمس الثالث<sup>(١٤)</sup>. كثير من القبور الأغنى في ثقافة المجموعة الثالثة تنتمي أيضاً إلى الأسرة الثامنة عشرة الباكورة، بينما يُبلغ ساف - سودبرج عن مجموعة من القبور ذات الإنتماء الثقافي المتعدد من كبيرة يجوز لها أن تمثل مرحلة لا تزال متأخرة من التطور الثقافي ذى الأصل المحلي :

تشتمل القبور على أعمدة مستطيلة موضوعة بمهارة على الطما الحجرى الصلب، أما البنايات المكوّنة التي دائماً ما حطمها النهابون، فكانت من النوع العادى لحجارة مستديرة خشنة، وأحياناً بؤجر للقرابين على الجانب الشرقى. كانت الأعمدة مغطاة ببلاط منبسط، ووضِع بلاط عمودى على جُدر الأعمدة. عادات الدفن هكذا تماثل عادات المجموعة الثالثة، ولكن لم يوجد فخار المجموعة الثالثة، إنما عثر على فخار الدولة الجديدة وحده. وفي وسط حجارة لواح من أفضل السقوف حفظاً وجدت شقوق عديدة لوانى من الصينى، تحاكي الشكل والزخرف لعمالات زهرية ماسينية. وُجدت حمالات زهرية تكاد تماثلها في صلب بقبر يرجع تاريخه إلى عهد تحتمس الثالث (جعارين). ولكن... لابد أن صنف ما وجدناه ينتمى إلى تاريخ متأخر بكثير<sup>(١٥)</sup>.

إذا كان التاريخ المقترح غير صحيح، فإن هذه القبور الوطنية الأخيرة التى لا يمكن تخيلتها في النوبة السفلى لألف عام. فائشاء الأسرة الثامنة عشرة المتأخرة كان تصاعد طقوس الدفن والأثاث الجنائزي المصرى قد اكتمل، ولم يعد من الممكن التعرف على سكان نوبيين مميزين سواء بالقبور أو بالفخار.

لقد لاحظنا أنفاً، في الفصل السادس، أن النفوذ الثقافى لمصر يتجسد بشكل متزايد في ثقافة المجموعة الثالثة في مرحلتها المتأخرة، بالنسبة لكل من مساكن النوبيين وقبورهم. يبدو منطقياً أن يفترض أن عملية التمثل الثقافى دُع بها دفعا بعيداً بالضم المصرى للنوبة، وأن التحول كان بالفعل مكتملاً بمقدم الأسرة الثامنة عشر مؤخراً. هذا رأى كان قد ساد على وجه العموم وسط علماء الآثار المصرية للثلاثين عاماً الأخيرة. فهم يعدون المئات من قبور الدولة في النوبة السفلى منتمية، مع إستثناءات قليلة، لنوبيين متمصرين لم يعد ممكناً تفريقهم ثقافياً عن حكامهم الإستعماريين المتحكمين<sup>(١٦)</sup>.

يوجد الكثير لدعم نظرية «التمثل الثقافى للمجموعة الثالثة». إنها تعلل تليلاً مرضياً إختفاء قبور معروفة بنوبيتها، إن لم يكن للمفاجأة البادية في إختفائها. هنالك بالمثل الحقيقة الموحية بأن عدداً من جبانات الدولة الجديدة إنضمت لها جبانات ثقافة المجموعة الثالثة<sup>(١٧)</sup>، وتظهر على أنها مواصلة لها، بالرغم من أن الميل للإستخدام المتواصل لنفس الجبانة القديمة ظاهر في كل مراحل التاريخ النوبى. إن بقايا الهياكل البشرية من قبور النوبيين في النوبة السفلى التى حُفرت في حوام المسحين الأثاريين الأول والثاني أوجت أيضاً بأنه لم تكن هنالك فوارقٌ سلالية بين أقوام «المجموعة الثالثة» و «الدولة الجديدة»<sup>(١٨)</sup>. أخيراً، تدل الأمثلة على «الأمراء» النوبيين المتمصرين بلا شك، حيكا - نفر، وجهوتى - حُتب، وأمنحت، الذين أُلح إليهم أنفاً .

رغم أن هذه المؤشرات الإيجابية، لا تزال هنالك صعوبات من قبيل التقبل التام «لنظرية التمثل الثقافى»<sup>(١٩)</sup>. أعسر الأسئلة سؤال يتعلق بالسلسل الزمنى. فإذا افترضنا أن قبور «الدولة الجديدة» في النوبة هي قبور النوبيين المتمصرين، فإن عدد مثل تلك القبور لابد من أن يزداد مع انخفاض عدد قبور «المجموعة الثالثة». مع هذا، فالحق أن العكس هو الصحيح. فما فوق ثلاثة أرباع قبور الدولة الجديدة المزخرفة في النوبة تنتمى إلى الأسرتين السابعة عشرة وأوائل الثامنة عشرة. نفس الفترة

التي لا يزال بوسعنا فيها أن نتعرف على سكان نوبيين متميزين ثقافياً. في الأسرة الثامنة عشرة إختفت القبور النوبية في أواخرها، لكن هناك نقصان ملحوظ في عدد القبور المصرية (أو المتصورة) بالمثل (٧٠).

معاصرة قبور «المجموعة الثالثة» الأخيرة مع غالبية قبور «الدولة الجديدة» تلزمنا بأن نبصر جماعتين نوبيتين تتعاشان معاً : واحدة متمصرة تماماً والأخرى تتعلق بأساليب قبلية. مثل هذا التقسيم ليس مستحيلاً بأي حال من الأحوال: إنه يمكن أن يُمثل الفرق بين النوبيين المُعَدِّمين الذين يُجبرون على الإلتحاق بصغوف الفلاحين وبين جماعات أكثر تحفظاً احتفظت بأراضيها القبلية وقطاعاتها. يمكن بتعمق ملاحظة تقسيمات مماثلة بين عناصر قبلية وعناصر أزيلت قبليتها في مجتمعات إفريقية كثيرة والهنود الأمريكيين في الماضي القريب. يصعب مع هذا أن تنبئ الثروة غير العادية التي نجدها دائماً مدفونة مع جناز الدولة الجديدة في النوبة القديمة عن مجتمع فلاحين أزيلت قبلية قبل وقت وجيز.

في المجتمعات الاستعمارية، ينتج عن إزالة القبلية عادةً خسارة في كل من المكانة والثروة المادية، وعلى قدم المساواة عندما تُصدر تقنيات جديدة زيادة في المستويات اليومية للتغذية والصحة أحياناً كثيرة. وفي حين تفقد رموز المكانة في المجتمع القديم قيمتها، وتكون رموز المكانة في المجتمعات الطبقيّة الجديدة مستعصية على البلوغ، فإن مكافآت النشاط الإنتاجي تذهب أكثر فأكثر لإرضاء الحاجات والرغبات المباشرة ويصير أقل لتراكم البضائع الميسورة. إن الفلاحين، خلافاً لرجال القبائل، يملكون ممتلكات مترفة قليلة. بالإضافة إلى ذلك، كلما يزداد انتزاع حيازات الأراضي يصير مستوى معيشتهم اليومية بنفس القدر قابلاً للسقوط في قاع مستوى هامشي، تحت ثقل الدين والسُّخرة. النتيجة الواقعة لتلك العملية هي أن مجموعات الفلاحين السكانية تنجس إلى أن «تختفي» أثرياً. وحول ما إذا كانوا لا يستطيعون بعد ذلك أن يتعهدوا الجناز وعطاياها أو يرعونها من بعد، فإن قبورهم نادر ما يُعرف عليها. أين فلاحو عصور الإمبراطوريات الكبرى بمصر وبلاد ما بين النهرين؟ قطعاً إنهم لا يُوجدون في المدافن الأثرية التي استرعت إنتباه الأثاريين حتى اللحظة.

في النوبة، كما في مصر، لا تُظهر قبور الدولة الجديدة التي تم التعرف عليها على أنها قبور فلاحين. وبينما تعرض فئة منها الثروة الباهظة الموجودة في قلة من القبور الكبرى في ثقافتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة، فإن المتوسط لحجم الأمتعة الجنازية في الدولة الجديدة أعلى كيفما اتفق أمرها من أي فترة سابقة. إن عادات الدفن في النوبة إبان الدولة الجديدة يصفها امرى على هذا النحو :

لم نعد نجد الميت راقداً على جانبه في وضع شبه مضموم؛ بدلاً عن ذلك، تبعاً للعادة المصرية، يرقد الميت على ظهره بكامل إمتداده، وفي القبور الأغنى يُوضع بين أكفان خشبية منبسطة. كانت القبور من ثلاثة أنواع : حفرة مستطيلة بسيطة [الشكل رقم ٣٦]، وحفرة مشنقة من الصخر في نهايتها غرفة تحت سطح الأرض للجنازة، وحفرة مستطيلة لها فتحة جانبية مُتعلّقة على جانب واحد من الجانبين الطويلين. في معظم القبور، يبدو تجميع مناع الجناز متبعاً لنظام بعينه، بحيث أنه في فترة الدولة الجديدة نجد فخاراً وغيره من الأشياء مُرتبة كما يلي :

#### على جانب الرأس

صحن أحمر

إناء أحمر كبير للصب

إناء أحمر صغير للصب

معدات تجميل، مثل مرايات برونزية وأمشاط خشبية

### يجوار اليك اليسرى

إناء لحفاظه دهان ذات رسوم

صحن أحمر

إناء كحل ومرود من المرمر

### على القدمين

صحن أحمر

إناء للصب أحمر كبير

إناء للصب أحمر صغير

### بين الركبتين

أوانى من نوع رخيص فخاراً، وصلصلاً، وصينى

تتكون المجوهرات من أقراط للأنثى برونزية، وشياً، وعقيقاً أحمر، وخواتم للأصابع ذهبية وبرونزية، وجعارين وأحجية من العقيق الأحمر، وحجر صابونى، وزجاج، وشب، وصينى مزخرف مصقول، وقلاند من الصينى، وذهب، وعقيق أحمر، وزجاج، وفخار. أما الأسلحة، مثل رؤوس الرماح البرونزية، ورؤوس السهام، ورؤوس الفؤوس، والخنجر، فكلها توجد في بعض الأحيان مع الميت، لكنها نادرة الوجود، خاصة في النوبة السفلى. فيما عدا المدافن الصخرية محدودة العدد لمواطنين أنعم رخاء فإن مثل هذه الأشياء عادة ما تكون من نوعية رخيصة والإطباع العام الذى يؤخذ من دلائل المنشآت الجنائزية غير تلك القائمة في ضاحية المحطات العسكرية هو أن النوبة عقب الفتح كان يسكنها جنس تابع فقير يعتمد إقتصاداً كبيراً على مستجلبات، بخسة النوع من مصر، ولها خلفية ثقافية ذاتية ضئيلة أو معدومة (٧١).

القبور النوبية الحديثة يمكن وصفها بأنها "فقيرة" وحسب بالمقارنة مع مستوى المعيشة العالى الذى تمتعت به طبقة النبلاء المصرية؛ إنهم قادرون طبقاً للمعايير النوبية العادية، أغنياء وفقاً لمعايير كائنا تتبع من أى "جنس خاضع". إضافة لذلك، على نقيض ما اقترحه امرى، تعرض بعض الجبانات الريفية في النوبة السفلى مستوى أعلى من الثروة مما تعرضه الجبانات القريبة من أسوار عينية، وبوهين، ومرقس (٧٢). إنه لجدير بالذكر في كل من المقابر الريفية وتلك الملحقة بالمراكز الإدارية الرئيسية أن العطايا الجنائزية في كليتها بضائع مُصنعة مجلوبة من مصر أكثر منها مصنوعات محلية. ولم يكن بالإمكان الحصول عليها إلا بالمقايضة أو كتعويض للخدمات، يُبنى في كل حالة عن إقتصاد تخصصى ومتمايز. هل كان الإقتصاد الإقطاعى لنوبة الدولة الجديدة في الحقيقة قابراً على توفير سلع مُصنعة يمثل هذا المستوى لعامة المواطنين؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنهم تمتعوا بمستوى أعلى من رفقتهم فلاحي مصر.

الشخصية المصرية المطلقة للقرابين الجنائزية في الدولة الجديدة تنتشر شكاً أبعد مدى على فرضية "التمثل الثقافى للمجموعة الثالثة". وفى حين أن تغيرات مفاجئة من الطقوس الجنائزية تبدو قاعدة عامة، لكل من النوبة وغيرها من الأماكن (٧٣)، هناك في العادة بعض ما يُحمل من فترة إلى الفترة التالية لها من المتاع الذى يدفن مع الميت. في النوبة، مع هذا، فإن السلع المدفونة ولو كانت في القبور الأخيرة من ثقافة المجموعة الثالثة (عدا المجموعة القليلة المذكورة سابقاً ذات الإنتماء الثقافى المتعدد (٧٤) ذات أصل نوبى لما يتعدى ٧٥ في المائة من الحالات، في الوقت الذى تبلغ فيه الامتعة المدفونة في قبور مصرية الطراز ما يزيد على ٩٩ في المائة أصلاً مصرية. يظهر أن هنالك أساساً متوسطاً غير كافٍ لدعم نظرية الانتقال. إننا نعلم أن صناعة الفخار اليدوى والتها للنساء النوبيات إلى تاريخ متأخر بعيد، وإنها ظهرت مرة أخرى بانتظام في قبور الفترات ما بعد

الفرعونية. السبيل الوحيد لتعليل إستبعادها من قبور الدولة الجديدة هو أن يُفترض أن التقليد الجنائزي المصري كان من التصلب بحيث أنه أعاق حتى إدخال سلع غير مصرية كاثاث للقبور. إن مثل هذا الشرح لا يمكن بالطبع إنكاره، لأن الممارسات الجنائزية كانت معصوبةً إلى مدى قريب بالأيديولوجية المركزية لمصر أقوى من أي حضارة أخرى.

مسألة أخرى تتعلق بالتشتت الثقافي. نعلم أن ماثورات الفخار وممارسات دفن الأموات في النوبة ما قبل الفرعونية لم تكن مُصادرةً في ظل السيادة المصرية، حيث أنها ظهرت من جديد في بُنية قروناً متأخرة<sup>(٧٥)</sup>. لسوف يعارض هذا في فكر التمسك الكامل لكل السكان النوبيين. ومهما اقتضى الأمر، فإن المركز الرئيس للمثابرة كان بلا شك في النوبة العليا، التي لا تملك عنها حتى الآن سوى معلومات بسيطة للغاية حول إستعمار الدولة الجديدة وأثاره الثقافية.

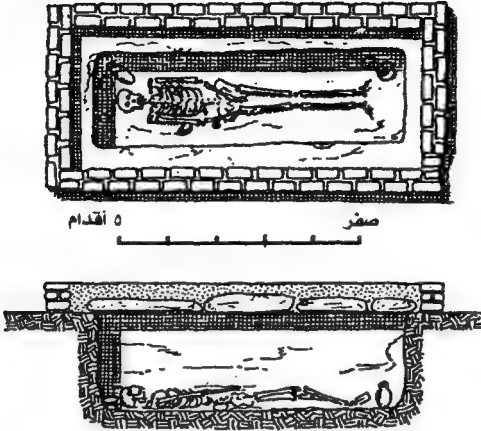
إذا كانت قبور الدولة الجديدة في النوبة السفلى ليست قبوراً للنوبيين المتمصرين، حينئذ لا يمكن لها إلا أن تكون قبوراً لمستعمرين مصريين. وبينما أن هذا يجب أن يُقطع بصحته في الحالات الفردية، فإنه يصعب على السواء أن ترجع كل قبور الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في النوبة للمستعمرين المصريين مثلاً أن من الصعب نسبها إلى نوبيين متمصرين. عدد مثل هذه القبور، بصفتها خاصة في بعض المقاطعات الريفية، يتعدى كثيراً المجموعة السكانية المستعمرة التي كان علينا أن نتوقع وجودها في تلك الأماكن. إن مقبرة واحدة في ديبدة، أمثالاً عديدة من أقرب مركز "حضري"، بلغ عدد قبورها أكثر من ٦٠٠ قبر في عهد الدولة الجديدة<sup>(٧٦)</sup>. وللحقيقة كيفما اتفق الحال تتركز غالبية قبور الدولة الجديدة في الضاحية العامة للمراكز الإدارية والدينية الرئيسة، حيث نعلم أن المصريين كانوا بها يقيمون.

ربما كان متوقعاً أن تُسوّى البنية التشريحية مرةً واحدة كليةً مسألة ما إذا كان سكان الدولة الجديدة في النوبة السفلى مصريين أو نوبيين متمصرين. مع ذلك، حتى هذه اللحظة، ليست هذه بالجمالة المقصودة. فبينما أن دراسات سابقة اقترحت أنه لم يكن هناك فرقٌ سلالتي بين الدولة الجديدة وبين جماعات سكانية سالفة<sup>(٧٧)</sup>، ومن ثمّ فضلت "فرضية التمثيل الثقافي"، كشف فحص دقيق أقرب حدوداً للثقاب عن أن هنالك بحق إختلافات وطيدة بين «المجموعة الثالثة» والهياكل البشرية للدولة الجديدة<sup>(٧٨)</sup>. مع هذا، لم يجر بعد تحديد لأهمية هذه الإختلافات وقيمتها. إضافةً إلى ذلك، يجعل الإقتقاد إلى مادية مقارنة كافية من مصر الأصلية من المستحيل القول بأن سكان الدولة الجديدة في النوبة كانوا أقرب سلالياً إلى المصريين أو إلى السكان الأوائل بنفس المنطقة<sup>(٧٩)</sup>.

بعد إستعراض المضامين المختلفة الممكنة للبنية التشريحية، يخلص عالم الأنثروبولوجيا فافن نيلسن إلى فرضية الهجرة المصرية المقيمة في النوبة "... تبدو أكثر وضوحاً من وجهة نظر عالم الأنثروبولوجيا الطبيعية"<sup>(٨٠)</sup>. وإذا كانت الحالة كذلك، تبقى مسألة ما آل إليه النوبيون بالطبع بلا إجابة. إننا ملزمون بأن نفترض أمرين إما إنهم قُتلوا جميعاً، أو أنهم طُردوا أو تم تحريكهم خارج [المنطقة]، أو سقطوا إلى وضعية /الفلاحين المعمدين الذين لم يتركوا وراءهم أي بقايا آثارية معلومة.

في التحليل الختامي ربما تكون هناك بعض الحقيقة في كل من هذه النظريات. قلة من النوبيين كانوا بلا شك ضحايا لإعادة الفتح، رغم أن العدد المقتول بالفعل كان صغيراً فيما هو محتمل بالنسبة لأولئك الذين جرى استرقاقهم وأرسلوا لمصر أو لمناجم الذهب. مع هذا، فقد ترك عديدون لحالهم، لوقتٍ ما كانوا في صفاء قادرين على مواصلة أسلوب حياتهم القبلي. لربما أن أفراداً وعائلات ساحطة أو متقدمة تركو صفوف النوبيين منذ البداية والحقو أنفسهم بالمستعمرات المصرية النامية. وربما أن ثقل الضرائب غاص بأخزين لمستوى رقيق الأرض.

مع تنامي قوة المصريين وأعدادهم، وامتصاص حييزات الأرض كمملوكات إقطاعية، لابد أن



شكل رقم ٣٦  
قبر نموذجي من الدولة الجديدة

معظم النوبيين أبصروا الكتابة على الأسوار. فرداً فرداً وجماعة جماعة، واجهوا الإختيار ما بين الإقامة والإستيعاب في أتون إقتصاد الفلاح الإستعماري أو الهروب قبل أن تُطبق الحضارة على ما يتأتى لهم إنقاذه من قطعانهم وممتلكاتهم. نفس هذا الإختيار فُرض على السُكان القبليين المرة تلو الأخرى في مسيرة الحضارة المنتشرة. شُطرت مجتمعاتهم إشطاراً، فيما جرت عليه العادة: يُفضل بعضها الإقامة ويبقى بعضها الهجرة. ومن المحتمل أن هذا هو نفس ما وقع للنوبيين.

في الوقت الحالي، يمكن على أفضل الوجوه أن نشرح الإختفاء المفاجئ لآخر متعلقات من ثقافة «المجموعة الثالثة» في منتصف الأسرة الثامنة عشرة بافتراض أن العناصر الأقوى تحفظاً بين السكان النوبيين، الذي رفضوا حتى ذلك الحين الخضوع والتمثل الثقافي، حملوا أنفسهم لمناطق أكثر أمناً في النوبة العليا، حيث كانت قبضة المصريين غير قوية للغاية<sup>(٨١)</sup>. هنا، بأي شكل، يمكننا أن نستبصر إرثهم الثقافي بامبراطورية بُنته بعد مضي وقت طويل على اختفائه من النوبة السفلى .

### ماذا آل إليه المصريون

ربما يوحي مشروع البناء المخطط - الذي لا يوازيه آخر مما اضطلع به رمسيس الثاني بأن عهد



حكمه مَعْلَم لُقمة القوة المصرية وثروتها في النوبة. في واحتر من المعانى هذا القول صحيح، فصناعة الذهب بلا شك بلغت أقصى تنمية لها خلال حكمه أو في العهود التالية له مباشرة. على أن هناك الكثير الذي يُمكن من إقتراح أن الإقتصاد الزراعى للأراضى النهرية كان منذ السابق في تَدَنٍ خطير أثناء عهد رمسيس، فخلال قرن عقب موته انهار مرة واحدة.

البَيِّنة الدالة على تدهور النوبة في الدولة الجديدة أثناء فترتها الأخيرة من نوعيتين: ديمغرافية وإيكولوجية. من الناحية الديمغرافية، هناك إنخفاض موسوم ومتواصل في عدد من القبور، مصرية ووطنية، بعد منتصف الأسرة الثامنة عشرة. بَلَّغَ س. م. فيرث في خلاصة المسح الأثرى الأول للنوبة إنه لم يتم التعرف على أكثر من عشرة قبور من الأسرة التاسعة عشرة والأسرات المتأخرة طوال أربع السنوات التي استغرقها العمل الميداني بكامله. في وصف النوبة على عهد رمسيس الثاني كتب :

المجموعة العظيمة من المباني المرتبطة بإسم رمسيس الثاني من الصعب جداً أن تتوافق مع الغياب الذي يكاد يكون تاماً للمدافن في هذه الفترة. إن معابداً ضخمة مثل جرف حسين، وادى السبوع، وأبو سُميل، لم يكن في الإمكان بناؤها من قِبَل السكان المحليين، أو إن كانوا كذلك، فالتناس الذين شيدهوا لم يتركوا، فيما هو معلوم حتى الآن، أثاراً عن وجودهم. صعبٌ علينا أن نخلص إلى أن النوبة قد أضحت نوعاً من الأرض التي لا يوجد لها صاحب، تحكمها الآلهة وتسكنها أشباح الموتى<sup>(٨٧)</sup>.

إن فرث إنتقص قطعاً من عدد القبور في الدولة الجديدة في مرحلتها الأخيرة في النوبة السفلى، بيد أن التناقض بين عدد القبور المعروفة من الأسرة الثامنة عشرة ومن كل العهود التالية مثير للعجب إذا قدرها أى فرد. فحتى بين الأسرة الثامنة عشرة يبدو أن هناك قبوراً منذ العهود الأولى تفوق في عددها القبور التي تنتمي للأزمان المتأخرة بنسبةٍ لحوالى ٢ إلى ١<sup>(٨٨)</sup>. مثل هؤلاء السكان الذين مكثوا في النوبة أثناء الفترة الأخيرة من الدولة الجديدة كانوا مُركّزين تركزاً ثَقِيلاً في أماكن قليلة مفضلة كانت فيما هو محتمل مملوكات إقطاعية كبيرة. أما في أماكن أخرى، فتوفق الإسطيطان الريفى بالفعل عن الوجود .

مراكز مثل عينية، ويوهين، وعمارة بقيت هامة حتى مداخل الأسرة العشرين، تُخلَى عنها قبل نهاية تلك الأسرة. لم يجر تشييد لآى مدن أو صروح جديدة مطلقاً في النوبة؛ فمشاريع البناءات العظيمة التالية تلاها النوبيون أنفسهم، لأكثر من ٢٠٠ عام بعد رحيل المصريين. في النوبة السفلى كانت الفجوة التاريخية لا تزال طويلة. إمتدت الأرض بين الشلالين الأول والثاني برغم هجرانها على مدى أفضل جزء من ألف عام، لكل الأغراض العملية. بنفس القدر ما نجح أبداً أباطرة بُتة العظيمة الذين فتحوا مصر وهزموا آشور في إعادة إستعمار المحافظة الشمالية المهجورة .

النقص السكاني شبه التام الذى حاق بالنوبة السفلى في الألف الأخيرة قبل الميلاد، يبقى حتى الآن، واحداً من أكثر الألغاز إثارة في التاريخ النوبى<sup>(٨٩)</sup>. قد يجوز لتدهور الدولة المصرية الطويل بعد حكم رمسيس الثاني أن يُعَلِّلَ إنسحاب المستعمرين المصريين، لكنه يصعب أن يفسر الإختفاء الذى صاحبه من ناحية عامة للوطنيين، أو إخفاقهم في إعادة شغل المقاطعة الشمالية لما يقارب ألف عام. في الوقت الحاضر، لا يزال أفضل تفسير فيما سبق هو الذى قدمه فيرث قبل خمسين عاماً : أن إنخفاضاً في مستوى النيل جعل من النوبة السفلى غير صالحة للرى<sup>(٩٠)</sup>. إننا نعلم من سلسلة شهيرة من النقوش المنحوتة في سمنة أن مستويات الفيضان في الدولة الوسطى كانت دائماً أعلى بكثير مما هي عليه اليوم<sup>(٩١)</sup>؛ يمكننا أيضاً أن نستنتج من بَيِّنة متنوعة أن مستويات الفيضان كانت منخفضة بشكل معتبر في الدولة الجديدة<sup>(٩٢)</sup>. فإذا كان بمقدورنا من خلال هذه النقاط المسكم بها أن نرى بالإستقراء سقوطاً متواصلًا في متوسط إنسياب النهر، فمن الممكن إذن في الحقيقة، كما اقترح فيرث، أنه بمقدم الأسرة العشرين كان متوسط مستوى المياه أيضاً من الإنخفاض بحيث لم يسمح برى مؤثر في المناطق التي تعلو بها ضفاف النيل علواً إستثنائياً، كما هي الحالة عموماً في

النوبة السفلى ووطن الحجر. إن التأييد غير المباشر لهذه الفرضية تتضمنه الحقيقة التي مؤداها أن إعادة إحتلال النوبة السفلى بشكل رئيس، يُحتمل أنه جرى في القرن الأول الميلادي، يبدو أنه كان مواكباً لإدخال الساقية التي تجرها الثيران - أداة جعلت للمرة الأولى رفع مياه الري ممكناً بزيادة من العشرين أو الخمسة وعشرين قدماً الممكنة بالشابوف الذي يديره الرجال (انظر الفصل الثاني عشر). مع هذا يجب التسليم بأن البينة الجيولوجية فشلت حتى الآن في تأييد [الافتراض القاضي] بأن متوسط مستوى النيل كان منخفضاً بمستوى غير مألوف في الألف الأخيرة قبل الميلاد<sup>(٨٨)</sup>.

على الرغم من أن تاريخ وظروف التخلي النهائي غامضة بهذا الشكل، فمن الظاهر أنه مجيء العام ١١٠٠ قبل الميلاد ذهب كل من المصريين والنوبيين عن النوبة السفلى ووطن الحجر. يمكن افتراض أن المصريين تراجعوا أساساً صوب الشمال وتراجع النوبيون صوب الجنوب، حتى أن نوعاً من المنطقة العازلة إفتتحت بينهما لأول مرة في ألف عام. مع هذا لم يتوقف تفاعلها: تكثف في جوانب عديدة خلال القرون التي انبسطت النوبة السفلى أثناءها كأرض بلا صاحب بينهما.

التقهقر عن النوبة السفلى كانت له معقبات سياسية وثقافية في كل من مصر والنوبة العليا. في مصر تواصل صف أبناء الملك في كوش - بلا انقطاع حتى نهاية الأسرة العشرين، لكن الولاة يقيمون الآن في طيبة نفسها<sup>(٨٩)</sup>. إن الولاة المتأخرين تمتعوا بسلطة قصوى من خلال سيطرتهم على إنتاج الذهب، الذي كان بالطبع غير متأثر بإنهيار الإقتصاد الزراعي، ولأنهم كانوا يهيمنون على قطاع كبير من المجندين النوبيين الذين ربما كانوا القوة العسكرية الفاعلة الوحيدة في مصر العليا. لا ضير، فقد صاروا الدعم الرئيس للعرش الفرعوني، ثم بعد ذلك إعتلوا العرش نفسه<sup>(٩٠)</sup>. إن مبدأ توينبي، أن كل من سيطر على طوابير الحدود في مواجهة الأقل حضارة يسبك بمفاتيح الإمبراطورية، قد برهن مرة ثانية على صحته<sup>(٩١)</sup>.

في النوبة العليا، تُعد آثار الانسحاب المصري وهجرة النوبيين الداخلية من النوبة السفلى أكثر تخمينية. ليس مستيقناً أن القبضة السياسية المصرية كُسرت شوكتها حالاً عندما هجرت النوبة السفلى. إن رايزنر وآخرين<sup>(٩٢)</sup>... إقترحوا أن المهاجرين إلى النوبة العليا شملوا مصريين وكذلك نوبيين متمصرين، من خلالهم ضُمّت السيادة المصرية الإسمية على جبل البركل. إن اداتهم الرئيسية في ذلك الصدد كانت فيما يبدو المعبد العظيم لآمون، الذي شُيّد رمسيس الثاني أصلاً<sup>(٩٣)</sup>. ربما أنهم بحق وحقيق كانوا على اتصال بكنهه آمون في طيبة، لكن من المحتمل أيضاً أن الصلة كانت دينية أكثر منها سياسية في طبيعتها، تماماً مثلما أن الكنيسة القبطية المصرية وفرت "ابونا" لاثيوبيا حتى أزمان حديثة. لقد كانت، على أي حال، كافية لتبقى النفوذ المصري حياً وتوفر قاعدة إيدولوجية لإمبراطورية نبتة النوبية ٣٠٠ عام فيما بعد. إن الظروف المحيطة بأصول هذه الإمبراطورية التي يشوبها الغموض، سنتناقش في الفصل القادم.

### ملخص تقصيري

طرد فراعة مصر في الأسرة الثامنة عشرة أندادهم الهكسوس من الدلتا، وامتلكوا لأنفسهم إقليماً مُعتبراً في آسيا، ثم وجهوا طاقاتهم لإعادة فتح النوبة. خلال خمسين عاماً إكثشت المنطقة بأكملها، إنتشرت الأسرة الوطنية في كرمة نون أثر، وأضحت مصر سياداً على النيل إلى مدى يمتد جنوباً حتى الشلال الرابع. ثم عُيّن وال للاقاليم التي أُعيد إستردادها من جديد، وحكم هو وخلفاؤه النوبة كمحافظة مصرية طوال ٥٠٠ عام للقائمة.

تبعث الإدارة الجديدة، في البداية، خطى الإحتلال المصري السابق للنوبة. إنصّب التصرف المبني للفراعة الفاتحين على استعادة اللقلاخ العظيمة التي كانت رمزاً للحكم المصري في الدولة

الوسطى وتوسيعها. في هذه الحالة، مع هذا، صاحب تجار وإداريون الحاميات، وبدأ عمل إستعماري أصيل. أنشئت مدن حصينة في أراضي عبري - دلقو النهرية وأرض دنقلا النهرية، بعيداً وراء الحدود السابقة للسيادة المصرية .

مع مضي الوقت ونمو الحكم المصري في النوبة أمنأ، خُفَّت القبضة العسكرية تدريجاً. أُنْزِلَ للمدن أن تنمو خارج أسوار القلاع، وربما كانت بعض آخر المستوطنات في النوبة العليا غير مسورة. في نفس الوقت وقع تغيير هام في السياسة المصرية تجاه المنطقة المفتوحة وشعبها. إن الفراغة انعطفتوا من بناء القلاع إلى بناء المعابد، ساعين لإضفاء الشرعية على حكمهم لا عن طريق الإرهاب إنما بتكثير أيديولوجية الدولة. وجد المسعى نجاحاً معتبراً، مُسرّعاً بتمصير السكان الوطنيين. وبنهاية الأسرة الثامنة عشرة لم تترك عناصر قبلية في النوبة السفلى دون تمثّل للثقافة المصرية .

تحت إدارة الوالى جرى تطوير لإقتصاد زراعى في المناطق النوبية الأكثر تفضيلاً كانت الإقطاعيات في شقها الأكبر ملكاً لأيدى أجنبية، وأدير بعضها بأماناً ملكيين أو من طرف المعابد، إلا أنه في حالات قليلة شملت طبقة ملاك الأراضي الجديدة أعياناً نوبيين. إن مقابرهم وسلوكياتهم الثقافية المتمصرة تماماً تقدم تحولاً هاماً في التاريخ النوبى : لقد بدأت الترتيب الطبقي بين النبلاء والعبيد محل التقسيم العرقي بين النوبى والمصرى على أساس أنه القربى الإجتماعية الأولية .

ما حدث في صفوف النوبيين تحت السيطرة المصرية بعيد عن الوضوح. إن بعضهم فيما يظهر قُبِضَ عليهم كعبيد، والبعض الآخر جُرد من ممتلكاتهم وطُرد من المنطقة، واتخذ عدد لا بأس به أماكن بين طبقة الفلاحين المعدمين المتنامية والبعض الآخر اتجه للعمل في الصناعات المصرية. أما الذين هجروا حقولهم القبلية وقطعانهم فُحِثَمَلْ أنهم كَيَّفُوا أنفسهم إلى أقصى ما يوسعهم مع أساليب سيادهم. ولأن بعضهم تعلقاً بأساليب الحياة التقليدية طالما كان بإمكانهم ذلك. ربما أن بعض هؤلاء المحافظين هاجروا في نهاية المطاف إلى منطقة النوبة العليا التي كانت أكثر تحسراً من إفسار السيطرة المصرية بدلاً عن مواجهة الإجماد الثقافى في الشمال الذى قضى التمصير عليه .

لعل مستوى ارتفاع النيل هبط أثناء الدولة الجديدة ، وبحلول الأسرة التاسعة عشرة لم يكن البرى ممكناً إلا في أماكن مُحْبَذَة قليلة في النوبة. كانت هنالك هجرة خارجية من النوبة السفلى حتى أنه بقيت حفنة قليلة من المستوطنين أثناء الأسرة العشرين، والأنكى من ذلك أن ربحهم ذهب لآلاف عام بلغ الإستعمار المصري نهايته، لكن آثاره البعيدة ظلت محسوسة لآلاف عام. أما النوبيون المتمصرون فربما أنهم وجدوا الإعانة من المهاجرين المصريين، احتفظوا بالتقاليد الفرعونية حياً في النوبة العليا، واضعين بذلك القواعد الأيدولوجية "لدولة الخلافة" نَبْئَة .

بالرغم من أن التوجهات الأولى لدولة ملكية يمكن إستجلاؤها في مملكة كرمة، فإن ولاية كوش تُسَمِّى البداية الحقيقية لحضارة الأسرات - المرحلة الكبرى الثانية في تطور النوبة الثقافى. أما الثورة الإجتماعية والسياسية التي كَانَ قد بُدِئَ فيها من طرف المصريين أثناء إستعمار دولتهم الجديدة فوالها النوبيون أنفسهم، بقى التقليد الفرعونى حياً على أيديهم بعد خضوده في مصر. أما تحول المجتمع فهو مُدْرَك أنفاً في إندثار السكان القبليين منتصف الأسرة الثامنة عشرة، وظهور النوبيين بين صفوف الصفوة. بدءاً من ذلك الوقت وما تبعه تم التنظيم الحضارة النوبية حول مجتمع طبقي الترتيب، وإقتصاد فلاحى، وأيدولوجية إمبريالية.

لقد أجبر نيل منحسر وإمبراطورية منكشة المصريين على الخروج من النوبة في الأسرة العشرين، لكن النوبيين لم يكن في وسعهم إستغلال قوتهم الجديدة أو ضعف مصر مباشرة. لقد إستغرق وعى دروس الفراغة بعض الوقت. وعندما ترسخ الدرس، أى كان ذلك، فإن نوبة متمصرة، ومُستنهضة سياسياً، بمواردها الهائلة من الذهب، كان عليها أن تخرج كقوة كبرى في النيل. لأفكى عام إنبسط ظل مصر على النوبة، وفي نهاية الدولة الجديدة كان ظل النوبة قد بدأ في مصر منظوراً على مرمى البصر .



## الفصل العاشر

### العصر البطولي

#### إمبراطورية تبتة النوبية

«الآن تبصر، أن ثقك في هيئة هذه القَصبة المكسورة، ولو كانت مصر، إنها حينما انحنى عليها رجل، فسوف تقع في يده ويخترقها؛ وهكذا الفرعون، ملك مصر، بكل ذلك العهد الملقى عليه»<sup>(١)</sup>. هذه الكلمات، المُخاطب بها ملك يهودا من قبل أشور، توحى في براعة بالدرك الذى سقطت فيه حظوظ مصر الإمبريالية في القرن الثامن قبل الميلاد. العبارة برغم أن نكهتها، عزيزة على مؤرخى النوبة، ذلك أنها تُذكر بوحدة من الحالات المختصرة التى ظهرت فيها كوش على مسرح التاريخ العالمى. لقد كان ملك مصر الذى شُبهت قوته بَقَصبة مكسورة<sup>(٢)</sup>، الحقيقة نوبياً؛ لمائة عام (٧٥١ - ٦٣٥ ق.م) حكم هو وال بيتته الأرضين فراعة للأسرة الخامسة والعشرين أو الأسرة «الإثيوبية». إن الفترة الطويلة بشكل معتبر لصعودهم في النوبة يُشار إليها عادة بالفترة النَّبْتية، تبعاً للمنطقة (الواقعة تحت الشلال الرابع مباشرة) التى نهض فيها النظام الملكى النوبى أولاً.

تقلب الأحداث غير العادى الذى جاء بنوبى للعرش الفرعونى ربما كان منظوراً في إنسدال الأسرة العشرين، عندما أمسك الذهب الجنوبى والقوات الجنوبية بمفاتيح القوة في مصر العليا (قارن الفصل التاسع). إلا أنه لم تخرج دولة خلافة مكتملة التقاليد في النوبة إلا بانقضاء أجيال عديدة عقب إنهيار الإمبراطورية المصرية. في هذه الأثناء تَقَسَّمت مصر مرة ثانية بين عُمُوديات متصاربة. الساحة الرئيسية للعراك آنذاك هى منطقة اللبنا، التى ظلت لبعض قرون خاضعة للغزو والنهب من جماعات دخيلة من كل من البحر وليبيا في الغرب. لبعض الوقت إكتسب الليبيون، الممرَكزين في مدينة الدلتا بوياسنثس، السيادة على جيرانهم ونَصَبُوا أنفسهم فراعنة للأسرة الثانية والعشرين

حينما كانت مصر السفلى في قلقلة على ذلك النحو، إبتكست طيبة بعد أن كانت ذات مرة المركز المعتز بالقوة الفرعونية، إلى مكان هادئ متخلف نسبياً. إن كهانة آمون، التى نمت سلطتها الإستبدادية طوال الدولة الجديدة، تقلدت في هذه الأثناء زمام الحكم رسمياً في مصر العليا، وربما في النوبة كذلك؛ وعلى أى حال فإن دواوين الملك، ووالى كوش، ورئيس كهنة آمون يبدو أنه قد جرى استيعابهم في هيئة واحدة<sup>(٣)</sup>. إحتفظ كهان طيبة الملوك بقدر من الإستقلال طوال الفترة الخاصة بالأسرة الحادية والعشرين حتى الثالثة والعشرين، بالرغم من أنهم كانوا مكرمين من مناسبة لأخرى بدفع الجزية لواحد أو آخر من الحكام ذوى القوة الأعنى في الشمال.

الذى مارس السلطة في النوبة حقيقةً خلال السنوات الطويلة من اضمحلال مصر يكاد يكون من المستحيل القول به. بعنقى بعينه، إبن الكاهن - الملك الطيبى حريحور، دُعِيَ «إبناً للملك في كوش» خلال الجزء الأخير من عهد حكم والده (١٠٦٠ قبل الميلاد تقريباً)، لكنه كان آخر مصرى يحمل ذاك اللقب المبين<sup>(٤)</sup>. إن إنضمام جذوة ديوان منفصل للوالى لا يُعَيِّن بالضرورة نهاية الحكم المصرى<sup>(٥)</sup>، غير أن الواضح أنه في زمن الوالى بعنقى كانت النوبة السفلى قد نقص سكانها آنفاً. أما الحضور المصرى المتواصل في النوبة العليا فهو غير مثبت بوضوح سواء في بَيِّنة نَصْية أو آثارية<sup>(٦)</sup>. وفيما يظهر فإن النفوذ المصرى الوحيد المتشعب بالبقاء هو ديانة الدولة لأمون في بُتَّة، جوار الشلال

الرابع. إنها بغربها أصلاً في جبل البركل بأزمان الدولة الجديدة، كان عليها أن تثابر لأكثر من ألف عام بقدر ما، وأن توفر الأيدولوجية المركزية لمملكة كوش المستقلة.

ما كان بوسعنا أن نستبصر بوضوح عودة إنبعثات السلطة غير الدينية في النوبة حتى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد<sup>(٧)</sup>، حوالي ٢٠٠ سنة بعد ولاية بعضى. فكما جرى أيام كرمة، تبسّى ظهورها أول الأمر ليس عن طريق سجلات نصية، إنما بظهور مالا تخطئه العين من مدافن تلية ملكية في جبانة الكرو، التي تقع على بعد عشرة أميال في اتجاه النهر شمالاً من جبل البركل. مرةً أخرى - ولأول مرة خلال قرون - حكمت النوبة بنوبى.

نهوض النظام الملكى النوبى المستقل في نُبْتة يمكن أن يتم وصفه على أنه ومضة كالشهاب وجسب. فلم تتكشف أكثر من ستة أو سبعة أجيال ما بين بداياته المتواضعة على غموضها نوعاً ما والوقت الذى احتل فيه أمير نوبى عرش الفراعنة التاريخى. إن صعود كوش السريع شهادة لا شك فيها على حالة مصر الضعيفة تمرقاً، لكنه إثبات قوى في نفس الوقت على فراغ السلطة الذى خلقه إنحسار النفوذ المصرى في النوبة. وفى النهاية كان مثلاً ماثوراً لشعب كان محكوماً عليه بالتخلف يقلب الموائد على طُفاته السابقين وقد أذاقوه مرارة الإستبداد. مثل هذه الأحداث اضطربت بها سنين الاضمحلال لحضارات عديدة؛ وهى كذلك تُفسر في عبارات عامة من أرنولد توينبى:

عندما تتساقط حضارة نامية من خلال تدهور أقلية خلافة وذات نشاط إبان صيرورتها إلى أقلية مهينة معقوبة، فإن أحد آثار هذا التغيير المشوّم بالنسبة لقيادة المجتمع الهابط هي غربة أتباعه السابقين في المجتمعات المحيطة به التي كانت مُختلفة من قبل، والتي كانت الحضارة في مجرى تطورها تثبت نفوذاً عليها بدرجات متفاوتة بسبب آثار إشعاعها الثقافي. يتغير سلوك الأتباع السابقين من إعجاب يُقْبَر عن نفسه (بالمحاكاة الثقافية) إلى معاداة تنطلق إلى حرب ... بين الحضارة المتحللة وبروليتاريتها الخارجية المنسلخة عنها<sup>(٨)</sup>.

لقد ظل الناتج الشائع لمثل هذه النزاعات بادياً في قيام دولة أقل حضارة في زمن قصير على انقراض الحضارات القديمة. أعطى توينبى هذه الإمبراطوريات سريعة الزوال وصفاً تهكمياً إلى حد ما هو "العصور البطولية"<sup>(٩)</sup>. إنها بالطبع بطولية في أعين الفاتحين الأقل حضارة وحدهم، الذين تشكل لهم قدراً من فرض العدالة عُتوة بعد قرون من التسيّد الثقافى والسياسى. أما بالنسبة لـ"سلالات السيد" المتهاوية التي تجد نفسها الآن خاضعة لعبيد إقطاعها الذين كانوا موضع إحتقارها الطويل، فإنها ربما تمثّل إذلالاً مريعاً على وجه الخصوص.

هذه الوقفة الزمنية الموجرة للحكم النوبى في مصر تقدم بصفاً مثلاً لواحد من "العصور البطولية" وفقاً لتوينبى<sup>(١٠)</sup> مع هذا فإن العبارة ملائمة كذلك في معنى آخر، غير ما عناه توينبى. كحكام لمصر، أصبح الملوك النوبيون وزنة لجهاز الدعاية الكتابى الذى كان دائماً في إمرة الفرعون، وقد مكّتهم من أن يتركوا للذرية نوع الشهادة الشخصية التي ظلت دائماً عزيزة على الفاتحين والملوك المحلقين. إن هذه السانحة أنكرت على معظم الحكام النوبيين في العصور الأمية غالباً التي سبقت فترة النبتية وأعقبها. وهكذا، تضم الشخصيات الوحيدة التي تقف فرداً بالإسم في مواجهة الستارة الخلفية غير الشخصية، الشاملة للتاريخ النوبى حاكمين للأسرة الخامسة والعشرين: بعضى الفاتح وتهارقا المؤسس. إنهما "البطالان" الشرعيان الوحيدان اللذان يمكن لمؤرخ النوبة أن يُقدّرهما. فإذا كان هناك حكام أعظم وأشد حكماً في عصور أخرى، كما بالإمكان ذلك، فإن أسمائهم ومنجزاتهم مفقودة في مجهولية السجل الأثارى .

إن لوحة بعضى التذكارية، التي تُعَد بتفصيل حملات هذا الفاتح النوبى الأول العظيم، واحدة من القطع الفنية النادرة في الأدب القديم<sup>(١١)</sup>. وتكاد نقوش قصر عديدة لتهارقا أن تساوى أخبارها. ورغم ذلك فإن هذه الوثائق الشخصية لا تعتبر الدليل الوحيد للحكم النوبى في مصر. فحينما خطا

أمراء كوش خشية المسرح العالمى، شغلت انشغلتهم رُصداء الأحداث التاريخية في أماكن كثيرة. في حوليات الملوك الآشوريين يحتفظ بتقاليد عديدة للأسرة الخامسة والعشرين، وفي مدونات الأحداث التاريخية اليهودية توجد في ٢ - الملوك وأشعيا، وفي التواريخ المتأخرة لهيرودوتس ومثنو<sup>(١٢)</sup>. إن تهارقا، التالى لآخر فرعون «إثيوى»، هو النبوى الوحيد الذى ذكر اسمه في الأناجيل<sup>(١٣)</sup>.

جميع النصوص التاريخية المختلفة للأسرة الخامسة والعشرين تنقل لصورتنا المرسومة للتاريخ النبوى نوعاً من واجهة ظلت حتى هذا الزمان مفتقدة. في نفس الوقت علينا أن نقر أن قدراً غير يسير من الخلفية الثقافية التى عُنيَنا بها كثيراً في فصول سابقة خفية مفقودة. ليست النصوص الحرفية للأسرة الخامسة والعشرين، مع كل هذا، حُويلات للنوعية لكنها حوليات للحكم النبوى في مصر. بين الأرض الجنوبية نفسها، نعلم قليلاً عن الأحوال الإجتماعية والثقافية في الفترة النُبتية مثل معرفتنا في أى زمن منذ بداية التاريخ. هذه الحالة يؤمل أن تكون مؤقتة، وفي الوقت الحاضر فهى ترجع إلى الغياب شبه الكلى للبقايا الأثرية النُبتية في النوبة السفلى، وإلى الإفتقاد لعمل أثري منظم منهجياً في الموطن النُبتى بالمناطق الأكثر وقوعاً في الجنوب.

في الوقت الراهن، تجى معرفتنا الأثرية بالفترة النُبتية بصفة رئيسة من الجبائتين الملكيتين في الكرو ونورى - وكلاهما نُقُيا من قبل رايزنر منذ منتصف قرن مضى - ومن بضعة من المعابد الكبرى، التى حقق معظمها رايزنر. إضافةً لذلك، بإختصار، تقف الصروح الملكية وحدها لنا كدليل ثقافي من نُبتة، من غير شهادة من المساكن العادية والقبور المتواضعة لموازنة الصورة (كما في كرمه). ونوع هذا السجل، مثل الدليل النصي، تكون قابليته لدراسة التاريخ الأسرى أعلى من التاريخ الثقافى، وإنه لما لا يثير الدهشة أن العمل التاريخي الرئيس الذى نتج عن حفريات رايزنر المتعددة كانت إعادة بناءً محصلاً للخلافة الملكية النوبية<sup>(١٤)</sup>. إن هذا العمل يعتبر مثل كل أعمال رايزنر النظرية صريحاً من البراعة في ربط الأشياء، يجمع بين الغريزة المضئنية للنُبتية التجريبية العلمية وبين تخميناتٍ شاطحة. يظل كثير منها، بما لا محيص عنه، تخميناً، وقد أثارَت مجادلات ما فُتنت بعيدة عن التسوية في الوقت الحاضر<sup>(١٥)</sup>. بوسعنا أن نتجاهل هذه المجادلات لمدى بعيد في اللحظة الراهنة، من ناحية لأن هناك إتفاق عريض فيما يختص بالأطوار الباكراً من التسلسل الزمني، ومن ناحية لأن الترتيب السليم للملوك النُبتيين والمرويين ليس بأى حال من الأحوال، أمراً عظيم الشأن للمؤرخ الثقافى. إنه، كيفما كان الحال، حقيقى، بالنظر إلى مادة المصادر المتوفرة، بحيث أن قصتنا عن النوبة في الفترة النُبتية لابد أن تكون في معظمها تاريخاً شخصياً وأسرياً، أقل منها تاريخاً ثقافياً، عما ظل حقيقةً في الفصول السابقة.

### الإصطلاح والتسلسل الزمني

حَدِثَ الحكم النوبى في مصر لم تكن سوى فصل موجز في قصة طويلة. برهنت الدولة التى نهضت في النوبة بُنيّة إبان القرن التاسع قبل الميلاد أنها بما لم يكن متوقعاً صلبة في عقر دارها. فلقد بقيت دونما مقاطعة تذكر لآلاف عام، ولم تحصل فحسب عدداً من الغزوات الأجنبية لكنها حققت بعضاً مذكوراً في قرونها الأخيرة. وفي الدائرة المحددة للنوبة العليا، إستمرت تقاليد مصر الفرعونية حية في أيدي نوبية حتى بعد إختفائها من مصر نفسها.

يتوقف الحكم المصرى المباشر في النوبة كان محتوماً أن تقاليد وطنية خالصة غير مصرية تؤكد من جديد وجودها بشكل مضاعف. حتى نهاية العهد الأسرى الملكى، مع هذا، لم تفترق المؤسسات الملكية - وهي الإطار المركزى للحكومة النوبية - بوعي عن النمط الذى سبق أن استنه الفرعنة أبداً. إن مملكة النوبة المستقلة التى انبثقت من رماد الحكم المصرى كانت في نظرها

مُواصلَة - شرعية وحيدة - لدولة مصر الفرعونية الخالدة، التي أسست على عبادة ديانة الدولة في طيبة. في وقت متاخر إلى القرن الثالث الميلادي ظل الحكام النوبيون يدعون أنفسهم بالقباب الفراغة التقليدية «إله الأرضين» (أي مصر العليا والسفلى)، «معبود آمون»، وهم جراً، رغم أن أياً منهم لم يضع قدمه في مصر لما يقارب ألف عام. وربما أنهم كذلك، في المناسبات، يكتؤون أنفسهم «بحكام كوش»<sup>(١٦)</sup>، على أن هذا كان وصفاً شكلياً غير ديني على وجه التمام مُعرِّفاً للإقليم الذي يقع بالفعل تحت سيطرتهم؛ إنه لا يقدم القاعدة الأيدولوجية لحكمهم. فنظام حكمهم كان دائماً، من حيث المبدأ، حكومة لمصر في المنفى (تحتوى محمياتها النوبية الشرعية)، أغلب منها حكومة وطنية خالصة للنوبة. لقد كانت شنيئية سياسية ممكنة المقارنة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة وبالصين الوطنية اليوم.

ولأنها لم تطور أبداً طرازاً واعياً أو إسماءً لهويتها، كان هنالك بعض الإرتياب فيما يمكن أن تُسمى عليه دولة النوبة شبه الفرعونية. إن معظم العلماء حتى ما قبل خمسين عاماً مضت يشيرون إليها بمملكة إثيوبيا<sup>(١٧)</sup>، محفظين بالإسم الذي استخدمه كتاب ماثورون. أياً كان ذلك، فإن التبنّي الذي تم مؤخراً لهذا الاسم من طرف مملكة أخرى تقع بعيداً إلى شرق النوبة يثير إحتمال الخطأ، ويجعل من المرغوب فيه أن يوجد إسم آخر للمملكة النوبية القديمة. إن كتاباً عديدين في الوقت الراهن يفضلون «مملكة كوش»<sup>(١٨)</sup>، وسوف يُستخدم هذا الإسم منذ اللحظة في العمل الحالي.

كيفما دُعي اسمها، تمثل مملكة كوش فترة ذات إستقرار سياسي وإجتماعي ملحوظ. ربما لا يُعرف أبداً ما إذا كانت أسرة واحدة أو أسر متعاقبة توالى عليها، لكن التواصل غير المنقطع للمملكة يبدو فوق أي جدال. إن مساحتها الزمنية التي تبلغ ١.٢٠٠ عام تشمل كل عصر النوبة في ظل الأسرات الملكية فيما عدا القرون الأوائل والأخيرة (الجدول السادس)، بالمصادفة تتعدى بهذا المدى تعدياً بعيداً أياً من ممالك مصر الموحدة.

بالرغم من التواصلات السياسية والإجتماعية، كانت هنالك نورتان منفردتان للغاية من التطور الثقافي في ظل مملكة كوش، يفصلهما «عصر مظلم» من عدة قرون. نتيجة لذلك، فإنها ممارسة مألوفة أن يُقسّم تاريخ المملكة إلى طورين، يسميان الطور النبتّي والطور المروي تبعاً لمركزيهما الجغرافيين المتتاليين. خلال فترة السيادة النوبية على مصر، ولمدة قرن أعقبها على الأقل، كانت «عاصمة» كوش دونما سؤال في نبتة، التي تقع مع اتجاه شمال النهر تماماً من الشمال الرابع. بعد ذلك، وبقدر متزايد إبان القرون الأخيرة، إنتقل مركز القوة صوب الجنوب، حيث نمت مستوطنة هامة في مروى، على الجنوب من مدخل نهر عطبرة (الشكل رقم ٢٧). إن كلاً من الظروف والأسباب التي أدت لهذا الإنتقال بعيدة عن الوضوح، والتاريخ الذي نقلت فيه «العاصمة» رسمياً ظل موضوع جدال طويل<sup>(١٩)</sup>. برغم ذلك، يظهر أنه بعد القرن الرابع قبل الميلاد كان مجهر السلطة الملكية الرئيس - قصوراً، ومعابد، ومدافن تلبية ملكية - منصوباً في المنطقة الجنوبية.

فإذا كانت الاختلافات الوحيدة بين النوبة النبتية والمروية تتعلق بموقع الصروح الملكية، فإن التمييز بينهما يصعب أخذه أمراً جديراً بالإعتبار. كانت النقلة الجغرافية، مع هذا، تطوراً بالصدفة وقد هيا لنا مسميات مريحة لطورين متميزين بالأحرى من الإرتقاء الثقافي.

منذ بداية الأسرة الخامسة والعشرين وما تبعها، كانت ثقافة نبتة (أو القليل الذي نعلمه عنها) في غالبيتها مُقلدة لمصر الفرعونية، مع أنها كانت في صيغة مُخففة وغير مصقولة نوعاً ما. إن الصروح المعلومة وبقايا أثرية أخرى للفترة النبتية تختلف في معظمها قليلاً عن صروح وآثار الطور الأخير من الإحتلال الإستعماري المصري بحيث أنه ليس من السهل التفريق بين الإثنين على أسس داخلية. لذا فإن جون ويلسن لاحظ ببراعة أن بعضى، أول حاكم نوبي على مصر، «كانت ثقافته تقليداً غير مُصقل لمصر الأولى، متطرفة في إحتفاظها بالصيغة الدينية»<sup>(٢٠)</sup>. الإنجازات العظيمة لبعضى وخلفائه المباشرين كانت في المحيط السياسي أكثر منها في المحيط الثقافي<sup>(٢١)</sup>، كلها مكتسبة في



## الجدول السادس

### الترتيب الزمني للحكام النبتيين والمرويين (\*)

الحاكم	التواريخ بالتقريب	مكان الدفن
كاشتا	٨٠٦ - ٧٥١ ق.م.	نَبْتَة ( الكُرد )
بعنخى	٧١٦ - ٧٥١	" "
شباكو	٧٠١ - ٧١٦	" "
شبيكتو	٦٩٠ - ٧٠١	" "
تهارقا	٦٦٤ - ٦٦٤	نَبْتَة ( نُورى )
تنوتامون	٦٥٣ - ٦٦٤	نَبْتَة ( الكُرد )
اتلانرسا	٦٤٣ - ٦٥٣ ق.م.	نَبْتَة ( نُورى )
سنكامنسكن	٦٢٣ - ٦٤٣	" "
انلاماني	٦٢٣ - ٥٩٣	" "
اسبيلطه	٥٩٣ - ٥٦٨	" "
امتلکه	٥٥٥ - ٥٦٨	" "
مالي نكن	٥٤٢ - ٥٥٥	" "
انلماي	٥٤٢ - ٥٣٨	" "
اماني - نُنكي - لبتي	٥٣٨ - ٥١٩	" "
كركا ماني	٥١٩ - ٥١٠	" "
اماني إستبركا	٥١٠ - ٤٨٧	" "
سياسبيكا	٤٦٨ - ٤٦٣	" "
ناساخمه	٤٨٧ - ٤٦٨	" "
ماليوب اماني	٤٦٣ - ٤٣٥	" "
تلاخ اماني	٤٣٥ - ٤٣١	" "
امان - نتي - يركي	٤٣١ - ٤٠٥	" "
باسكا كرين	٤٠٥ - ٤٠٤	" "
حارسيفوف	٤٠٤ - ٣٦٩	" "
( ملك مجهول )	٣٦٩ - ٣٥٠	نَبْتَة ( الكُرد )

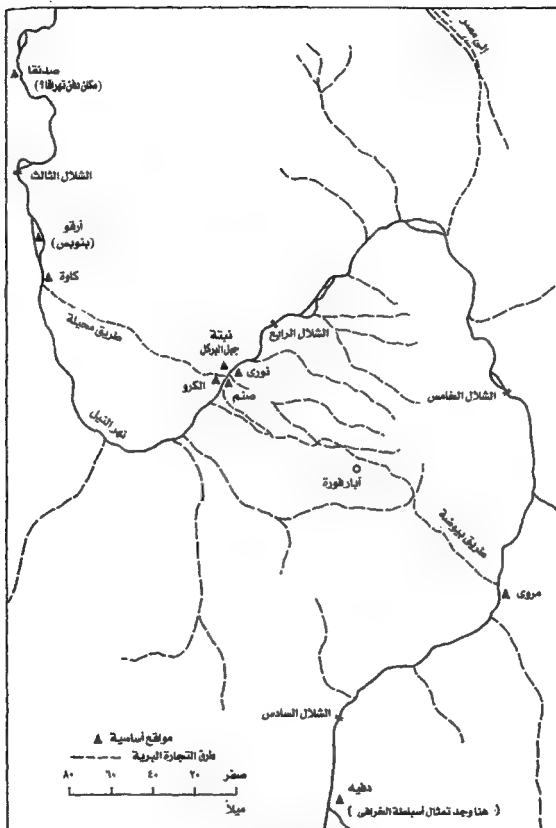
تابع الجدول السادس

الحاكم	التواريخ بالتقريب	مكان الدفن
أخراثان	٣٥-٣٣٥	نَبْتَة ( نُورى )
ناستاسن	٣١٠-٣٣٥	“ “
أمانى بخى ؟	٣١٠-٢٩٥	نَبْتَة ( نُورى ؟ )
أركاك أمانى	٢٩٥-٢٧٥ ق.م.	مروى ( الجبانة الجنوبية )
أمانى سيلو	٢٧٥-٢٦٠	“ “
الملكة يارترى	٢٦٠-٢٥٠	“ “
أمانى ... تيخا ؟	٢٥٠-٢٣٥ ق.م.	مروى ( المقبرة الشمالية )
أرنخ أمانى	٢٣٥-٢١٨	“ “
أركامانى (إرقامين؟)	٢١٨-٢٠٠	“ “
تابركا ؟	٢٠٠-١٨٥	“ “
... إيوال ؟	١٨٥-١٧٠	“ “
الملك شانكا دختي	١٧٠-١٦٠	“ “
(ملك مجهول)	١٦٠-١٤٥	“ “
نك ريسان ؟	١٤٥-١٢٠ ق.م.	مروى ( المقبرة الشمالية )
تانيد أمانى ؟	١٢٠-١٠٠	“ “
... خالى ؟	١٠٠-٨٠	“ “
... أمانى ؟	٨٠-٦٥	“ “
أمانى خيالى ؟	٦٥-٤١	“ “
الملكة أمانى شختى	٤١-١٢	“ “
ناتاك أمانى والملكة	١٢ ق.م.	“ “
أمانى تيرى	١٢ م.	“ “
شمركاير	١٢-١٧ م	“ “
بيساكار	١٧-٢٥	“ “
أمانى تارا كدى	٣٥-٤٥	“ “
أمانى تنما ميدي	٤٥-٦٢	“ “
الملكة أمانى ختأ شان	٦٢-٨٥	“ “

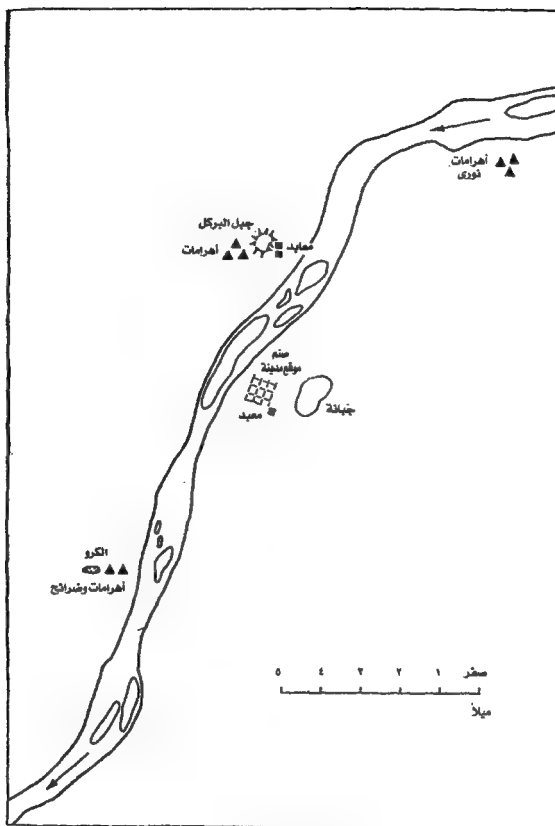
## تابع الجدول السادس

الحاكم	التواريخ بالتقريب	مكان الدفن
تاركي ني وال	١٠٣-٨٥	“ “
أمانى خليكا ؟	١٠٨-١٠٣	“ “
أريتى انى سبُخى	١٣٢-١٠٨	“ “
أكراك أمانى	١٣٧-١٣٢	“ “
أديكا تالى ؟	١٤٦-١٣٧	“ “
تاكيدى أمانى	١٦٥-١٤٦	“ “
... ريكا رَم ؟	١٨٤-١٦٥	“ “
(حاكم مجهول)	١٩٤-١٨٤	“ “
تريتى دا خاتى ؟	٢٠٩-١٩٤	“ “
أريسا بُخى	٢٢٨-٢٠٩	“ “
تريتا نايد	٢٤٦-٢٢٨	“ “
أريتا نايد	٢٤٦	“ “
تُكرى دي أمانى	٢٦٦-٢٤٦	“ “
تعلى دي أمانى ؟	٢٨٣-٢٦٦	“ “
يسبُخى أمانى ؟	٣٠٠-٢٨٣	“ “
لا خير أمانى ؟	٣٠٨-٣٠٠	“ “
مالىكا رابار	٣٢٠-٣٠٨	“ “

(\*) بما أن أسماء الملوك فى النص الإنجليزى غير مُنظمة النطق، إستعان المترجم بفنائه نوبى بلغة المحسن لتقريب نطق الأسماء بالطريقة النوبية ما أمكن ذلك، إنطلاقاً من نظرية البروفسور آدمز والدكتور على عثمان أن أقرب موروث للغة النوبة القديمة لعله هو لغة المحسن الحالية - المترجم.



شكل رقم ٢٧  
التوبة العليا في الأزمان التبتية



شكل رقم ٢٨  
خريطة بالرسم التخطيطي لمقاطعة نوبة

حدود فترة تقل عن القرن. ويعد الإنسحاب النوبي من مصر ثلث ذلك عدة قرون من الجمود السياسي والنكوص الثقافي إلى حالة أقل إستقراراً وحضارة، لأن السجل التاريخي خلالها بالصمت الشديد، والشاهد أنه إبان ذلك العصر المظلم وقعت نقلة السلطة من نبتة إلى مروى.

إنشاء "عاصمة" جديدة لم يستطع إحياء فوراً لمملكة كوش. فالظلام الذى عمّ القرون الأخيرة لنبّنة يغطى بالمثل بدايات الفترة المروية. لقد أنابت عن نفسها في نهاية المطاف، بطريقة غير مباشرة، في حادث وقع بعيداً في الشمال: وصول الإسكندر وجيشه المقدوني إلى مصر ٣٣٢ قبل الميلاد. إن الأسرة البطلمية المصرية - الإغريقية التى أسسها خلفاؤه جاءت بالإحياء العظيم لآخر جولة لحضارة مصر، وكانت آثارها ملموسة، بما لا يُخطأ تداوله، في النوبة على حد سواء. البعث الثقافى في مروى الذى بدأ في القرن الأخير قبل الميلادى<sup>(٢٢)</sup> كان، مثل ما جرى في مصر البطلمية، مزيجاً من تأثيرات إغريقية وفرعونية. فإذا كان الطراز السائد للحضارة المروية قد بقى مصرياً غير إبداعي، فإن نظامها المانع الجديد تولد بحجم كبير من ضم كل من مصر والنوبة إلى داخل شبكة عالمية من التجارة الساحلية. كانت هذه، بالطبع، إرث الإغريق الخاص.

يتوجه الإقتصاد القومى والثقافة العالمية المروية في سمو أعلى من الأزمان النبّنية. ولكن مع ذلك لا نعرف واحداً من الحكام المرويين القليلين الذين نملك عنهم معرفة فردية إرتفع إلى مكانة بغضى أو تهارق. بإختصار، كانت الإنجازات الكبرى للإنبيعات المروى في المحيط الثقافى أوفر منها في المحيط السياسى. الفترة النبّنية "عصر بطولى" للنوبة؛ والفترة المروية "عصرها الذهبى". وفيما يتبقى من هذا الفصل نُولى إهتمامنا للطور النبّنى - "العصر البطولى" - وحده .

الموقع الجغرافى لنبّنة يتطلب كلمة توضيحية يظهر هذا الاسم أولاً في النصوص الحرفية المصرية للأسرة الثامنة عشرة<sup>(٢٣)</sup>، ومن بعدها استُعمل إستعمالاً منظماً حتى الإنتثار النهائى لمملكة كوش. إنه يشير بما لا جدال فيه إلى مقاطعة تقع مباشرة شمال النهر من الشلال الرابع للنيل (منطقة كريمة الحديثة)، بيد أنه ليس في أيدينا جازماً ما يثبت أن هنالك مدينة بينها تدعى نبّنة . أو إنه لم يحدث ذلك<sup>(٢٤)</sup> . فالصروح الملكية المعلومة لنا من منطقة الشلال الرابع غير مركزة بأى منطقة واحدة، لكنها مُبعثرة علي مسافةٍ لحوالى خمسين ميلاً علي طول كلٍ من ضفتى النيل. بين هذه المساحة المدافن الملكية بالكُرو، وجبل البركل، وتُورى، المجموعة العظمى لمعابد جبل البركل، والمعبد والقصر الأصغر في صتم (الشكل رقم ٢٨). ولأن إسم نبّنة يمكن أن يُربط في معنى من المعانى بكلٍ من هذه المواقع المحلية، يُفترض في العادة أنه اشتمال على المقاطعة التى تمتد بأكملها شمال النهر من الشلال الرابع إلى مسافة خمسين ميلاً أو نحو ذلك.

إن الحاجز الطويل الذى يقف حائلاً يكاد دون الملاحة ويمثله الشلال الرابع يوفر حداً طبيعياً لإمبراطورية مصر النوبية، والمستوطنة التى نمت مباشرة تحت الشلال في ظل الأسرة الثامنة عشرة، ربما أنها قد بدأت كذلك محطة خارجية على الحدود. ويلاحظ مع هذا، أنه لا توجد هنا أية تحصينات أو موقع لمدينة ذات أهمية؛ منذ بداية الأمر يبدو المكان أكثر أهمية كمركز دينى من كونه مركزاً سياسياً أو تجارياً. ما كان محور تركيزه الشلال ولا النهر سواءً بسواء، لكنه المرتفع المقدس لجبل البركل<sup>(٢٥)</sup> الذى يتنصب ميلاً أو ميلين من ضفته الشمالية. لقد بُنى المعبد المصرى الأول في ظل هذا المرتفع الشامخ ذى القمة المنبسطة في عهد تحتمس الثالث أو الرابع، وهنا في الأيام الأخيرة قام رمسيس الثانى ببناء المعبد العظيم لآمون الذى أضحى في زمنه المركز الدينى لمملكة كوش المستقلة. هنالك معابد أصغر أُضيفت في العهود النبّنية والمروية، وأقيمت أهرامات ملكية قليلة إلى غرب الجبل مباشرة. فإذا اردنا بالفعل إطلاق إسم نبّنة على موقع محلى محدد، فيتحتم بالتاكيد أن يكون ذلك الموقع هو جبل البركل المقدس وما يحيط به. ولأهدافنا مع ذلك، يصح من المريح أن نطلق الإسم بمعنى عريض، على المساحة التى تغطى الصُروح الملكية الأولى لكوش.

## سرايا اصول التبتية

اوائل الصروح المعلومة عن دولة كوش هي ستة وثلاثون مدفناً ملكياً تكون في مجموعها جبانة الكرو (الشكل رقم ٢٨). وبينها رفات كل النوبيين الذين حكموا من مصر عدا واحداً، وفيها ايضاً رفات كثير من ملكاتهم. هذه المدافن غرف مكتملة البناء تحت الأرض مغطاة في ظاهر السطح بأهرامات صغيرة (موصوفة بتفصيل أوفى في صفحات قادمة). مع ذلك، فإن جبانة الكرو تضم كذلك بعض قبور المدافن التالية الأصغر التي تبدو، على أسس طبغرافية، أسبق وقوعاً من المجموعة الرئيسية للجنازات الملكية. وهذه، في رأي رايزنر، تمثل الأجيال الأولى التي تأسست منها الأسرة النوبية الملكية، قبل أن تفتح مصر (٢٩). إنها لا يمكن أن تنسب برغم ذلك لأي حكام معروفين، حيث لم يُعثر على أسماء أو نحت منقوشة في قبور المدافن التالية.

ويصل عدد المدافن في كليتها إلى ثلاثة عشر مدفناً تلياً على الأقل في الكرو. غير أنها، طبقاً لتساويل رايزنر، لا تشكل ما يتعدى خمسة أو ستة أجيال من الحكام (٣٠). أما الجيل السادس أو السابع فهو جيل كاشتا، الملك المعروف الذي أعلن الحكم النوبي في مصر في وقت ما قبل عام ٧٥٠ قبل الميلاد. فإذا صح هذا الرأي (وقد قبله معظم خلفاء رايزنر)، وإذا قُدرت عشرين سنة لكل عهد حكم، فإننا نحوز على بُنية تؤكد وجود أسرة كوشية في الكرو لحوالي مائة عام وحسب قبل فتح مصر (٣٨). وتبقى هناك فجوة زمنية مقدارها ٢٠٠ عاماً بين نهاية حكم مصري فعال وظهور أول ملك معترف به لكوش.

إن الأحداث السابقة للأسرات النوبية ظلت بطبيعة الحال موضوعاً لتخمين شديد (٣٩). واعتقد رايزنر في البداية أن ملوك كوش كانوا من أصل ليبي، يستند إدعائهم بحكم كل من مصر والنوبة إلى قرابتهم للفراغة الليبيين في الأسرة الثانية والعشرين (٤٠). هذه النظرية تتعلق بأضييق بُنية إثارية وفلسفية، وقد رفضها بالتقريب كل العلماء المعاصرين (٤١). وما من مؤشر بدال - في أي حالة - علي أن الفراغة النوبيين أقاموا - على الإطلاق - إدعائهم لحكم مصر على أسس أُسرّة .

نظرية أخرى تقول بأن ملوك كوش نهضوا من بين صفوف كهنة آمون في جبل البركل (٤٢). هؤلاء فيما هو مقترح، ربما كانوا في معظمهم مصريين - حيث أن العديدين منهم كانوا مهاجرين قديماً من النوبة السفلى التي كانت آنذاك مهجورة (٤٣). أما الحقيقة التي مؤداها أن أول ملك نوبي عظيم، بعنشى، أخذ نفس الاسم الذي كان قد أخذه أنفاً آخر وإل معروف، والذي كان هو نفسه إبناً لأحد الكهان - الملوك بطيبة، فنقلت كبرهان على ذلك الرأي (٤٤). خلا أن الخصائص المتفردة للقبور الأولى في الكرو ما كانت ليبية ولا مصرية، لكنها نوبية بما لا تخطفه عين. إنها تحتوي استخدام دفن تلى مستدير ووضع الميت على السرير - وكلاهما ممارسات مصاحبة بالذات لمملكة كرمة النوبية العظيمة. وفي حين أن هذه السمات يصعب أن تشير إلى عودة لأسرة كرمة عقب إنقضاء سبعائة عام، فإنها على الأقل إشهاراً كافٍ على الأصول الوطنية للملوك النوبيين (٤٥). لقد أشير ايضاً إلى أنه في الصروح الملكية في طيبة رُسم الفراغة النوبيون بملامح إفريقية وتفاصيل في الملابس لا مجال لتخطئها (٤٦).

وإذا كان ملوك كوش لم ينحدروا حرفياً من كهنة آمون، ويغض النظر عن هذا، لا يوجد شك في أن شرعيتهم وقوتهم إرتكزت في نهاية الأمر على سلطة الكهنة الروحية. وربما أنهم كانوا أوصياء مؤقتين على عبادة آمون الكبرى - الدين الرسمي لكل من النوبة ومصر العليا منذ الدولة الجديدة - صعدوا للحكم في بُنية. وكان لذلك اللبس ظهورهم بادئ الأمر على المسرح في مصر. ومن المعروف، يكاد مستيقناً ليس صدف أن الأسرة النوبية المالكّة تجذّر أصلها في ظل جبل البركل، الذي كان قد أسس مركزاً لعبادة آمون في النوبة في وقت باكر من الدولة الجديدة.

تشكل ديانة آمون الرابطة الرئيسة للتواصل الأيدولوجي طوال عصر أسرات النوبة. إن هذا الدين الذي يقرب وصفه من الفموض، والذي لم يكن في الأصل أكثر من عبادة محلية في طيبة، ظهر كإله عالٍ في مصر أيام السيادة السياسية لطيبة (الدولتان الوسطى والجديدة) <sup>(٣٧)</sup>. كانت النقطة الجوهرية في عبادة آمون هي المعبد العظيم في الكرنك، الذي ازدان مع كل جيلٍ من الفراعنة بالصروح لإله الدولة حتى حقق تضخماً هائلاً لا يعادله أي تذكارات ديني آخر.

عُرست عبادة آمون في ظل الدولة الجديدة، ومثلما كان حالها في مصر أضحت عبادة آمون ديانةً للدولة. إن اختيار جبل البركل مركزاً رئيساً لها، ربما أملت حقيقة أن الجبل العظيم كان مقدساً من قبل في التقليد المحلي. فهنا بنى رمسيس الثاني معبداً ضخماً قصد به أن يكون النظير النوبي للكرنك - المجهر الرمزي للقوة والسلطة في الأراضي الجنوبية. إن المخطط لاقى نجاحاً تعدى أحلام المصريين المتصورة وبقي معبد جبل البركل هاماً طوال تاريخ كوش لدرجة أن تدميره كان الهدف الرئيس لحملة رومانية تانيبية بعد ألف عام لاحقة.

لقد أمعنّا النظر آنفاً كيف أن كهنة آمون تقلدوا دست الحكم في مصر العليا عقب إنحلال الملكية الموحدة في الأسرة الحادية والعشرين. ولعل نفس النمط أعيد في النوبة. فعلى الصعيد العملي ربما كان معنى ذلك ما لا يزيد قليلاً عن التوظيف المتواصل لليبروقراطية بلا رئاسة بعد إزالة رئيسها الإسمي. إن "الحكومة" التي قدمها الكهنة في كل من مصر والنوبة ربما اشتملت أساساً على الإدارة المتواصلة لمقاطعات المعبد، التي بحلول هذا الوقت كانت العمود الفقري للإقتصاد الإقطاعي في كل من المنطقتين. صعود كهنة آمون ربما نتج على هذا المنوال بسبب التآكل الذي أتى على أشكال السلطة بأكثر من كونه أمراً عائداً إلي طموحاتهم في الحكم. إن موقفهم ربما أمكنت مقارنته بموقف الباباوات في روما ما بعد الإمبراطورية.

تسليماً بالأحوال المضطربة في مصر السفلى ونوايا أشور العدوانية المتنامية، ربما تأسف الحكام الطغاة الكهنوتيون في الكرنك كل الأسف على اندثار سلطة غير دينية مستقلة يكون بإمكانهم الاعتماد عليها للحماية. يجوز لنا أن نستنتج إستنتاجاً خفيفاً أن الحكومة الدينية قاست من العجز التقليدي للأنظمة الإستبدادية: إن بإمكانها أن تدير الشؤون الإقتصادية والسياسية للدولة في حدود كافية للغاية، لكنها لا تستطيع أن توفر الشؤون الدفاعية بإقتدار. في الأوقات المضطربة يكون لزماً عليها أن تطوف حول إتحاد عسكري، وإذا أملت الضرورة لتسلمه نصيباً معتبراً من السلطة. هكذا كان الأصل التاريخي للأنظمة الإستبدادية بالمعنى الإغريقي للكلمة.

أما في النوبة فلم يكن هناك بالطبع تهديد خارجي خطير لهيمنة آمون، فحالا انسحبت الحاميات المصرية، مع هذا، يتبدى أن صون السلطة المستديم من قبل صفوف صغيرة أو متمصرة، دون أي قاعدة محلية من الدعم لابد أنه كان عملاً صعباً وغير حاسم. وربما كانت إعتبارات من هذا القبيل هي التي قادت الكهنة في جبل البركل للبحث عن تحالف وحماية زعماء محليين ذوي نفوذ - أسلاف بعضى ونهارقا. إنه في مثل تلك الحالة يبدو ممكناً قيام أكثر التفسيرات احتمالاً في شأن الملكية الكوشية، رغم أن التفاصيل الدقيقة سوف لا تصبح معلومة أبداً بما يقرب من التأكيد.

ما تم تأسيس لإزدواج سلطة الكهنوت والسلطة غير الدينية، حتى دعم كلٍ منها الآخر بشكل طبيعي لا مَحِيص عنه. لقد إعتد الملوك الكوشيين على كهنة آمون لمنع البركة الروحية لحكمهم وجعله شرعياً، وإيضاً لعزل جهازهم الإداري البيروقراطي. في المقابل تقلدوا الوظائف إن لم يكن القاب المدافعين عن العقيدة، وأغدقوا على المعابد ثمرات فتوحاتهم الخارجية. إن دوام هذه العلاقة تثبتته الحقيقة القاطنة بأن الحكام النوبيين حتى نهاية مملكتهم إِنْخَرُوا بِإِسْم آمون - (أمانى) - كأحد أسمائهم الملكية في العرش. دَوَّن المؤرخ ديودورس سايكولس إضافة لذلك أنه حتى القرن الثالث قبل الميلاد كان لكهنة آمون الحق في خلق أي ملك نوبي لا يرضون عنه، وقتله، وتسمية خلفه <sup>(٣٨)</sup>.



## الخلافة الملكية

علاقات القريبى بين حكام كوش المتعديدين معلومة في حالات قليلة فحسب. إن عبارات القرابة التى عُثر عليها في النقوش الملكية، مثل الحروف التى كُتبت بها، مصرية، وكان النهج المصرى في تدوين القرابة مُشتهراً بعدم الدقة<sup>(٤٨)</sup>. عبارات كثيرة واضح أنها استعملت تحليلاً في بعض المحتويات وخرقياً في محتويات أخرى، حتى أنه لا يصفو دائماً ما إذا كانت العبارة "زوجة - شقيقة"، كمثال، يجب أن تؤخذ كإثبات على زواج الأقارب أم لها تعبير متنوع ليس إلا لزوجة محبوبة<sup>(٤٩)</sup>.

الملكية الكوشية كانت منذ بدايتها وراثية بجلاء. السلالة الملكية ضرورة لكنها لم تكن شرطاً كافياً للحكم؛ فقد كانت الصفات الشخصية مطلوبة بالمثل. كمعظم الشعوب المتخلفة نسبياً ما استطاع النوبيون الأوائل أن يتحملوا المصائر المجهولة التى تكثف حياة طفل ملك أو ملك مافون، ذلك أن الغالبية العظمى من مصائرهم اعتمدت على شخصية قائدهم الخاصة وحكمته. نتيجة لذلك لم تكن هناك قاعدة مطلقة الثبات للخلافة الملكية وما كان لها أن تكون.

النظام المفضل للخلافة في كوش اقتضى على التاج فيما يبدو انتقالاً مرتبطاً لكل من الإخوة الأحياء لملك فاروق الحياة، ثم بعد وفاة الشقيق الأخير، يعود التاج لأكبر ابن للاح الأول، ومنه بالتعاقب لإخوته. هذه القاعدة التى لا تشبه الوراثة في الأنظمة الملكية الأوروبية تؤكد عادةً نهاب التاج إلى طالب العرش الأكبر عمراً، وبالتالي من يفترض أنه الأكثر خبرة. مع ذلك، يبدو أن هناك استثناءات عديدة لها بالفعل. فقد تم تخلى عدد من الإخوة وسيطين فيما يبدو عندما دُعى تهارقا وريثاً لشبكتو (انظر أدناه)، ربما لأنه أظهر مقدرة غير عادية في عمر مبكر<sup>(٤١)</sup>. إلى حد ما كان المنصب بالانتخاب بين الإخوة والأبناء المستحقين، ويتم الاختيار من بين ادعاء العرش أنفسهم أو (بإحتمال أقوى) عن طريق كهنوت أمون. ومع ذلك، ربما لم يكن الإمتياز الذى نغم به الكهنة بخلع الملك وتعيين وريثه، كما بلغ ديودوروس سايكوس، سوى حالة مؤقتة من الشؤون نتجت عن ضعف أو تقسيم داخلى في الأسرة المالكة. لقد كانت هنالك أزمان بالتأكيد طرق فيها ميزان القوة الناحية الأخرى، فكان في مقدور الملك أن يأمر الكهنة حتى في الأمور الدينية<sup>(٤٢)</sup>.

في بعض المناسبات يبدو أن الخلافة إنتقلت لإبن شقيقات الملك، لا لإبن ملك سابق. أخذ هذا بينة على أن النوبة القديمة، مثل كثير من إفريقيا ما قبل الإسلامية، إتبعت قاعدة أمومية في تسلسل الأنساب<sup>(٤٣)</sup>. أياً كان ذلك، فالإثبات على هذه النقطة ليس قاطعاً، وهناك لحظات كافية من التوروث الأبوى في عائلة كوش المالكة لقيام الشك حولها. فإذا كان زواج الشقيقة بالشقيق متكرراً على نحو ما تقترحه بعض النصوص الملكية، فإن السؤال يطرح نفسه: فالمواليد من الجانبين في مثل تلك الزيجات يمكنهم بالطبع أن يدعى الإنتماء إلى السلالة الملكية.

وفى حين أنه لم يكن المجتمع النوبى باى حال من الأحوال مجتمعاً أمومياً، لا يمكن أن يكون ثمة شك أن الملكات تمتعن بمكانة عالية بشكل غير معتاد فهن شريكات في الحكم وسيدات يحظين بالوقار. إنهن يبرزن عميقاً في نصوص ورسوم ملكية عديدة، والواضح أنهن تصرفن أحياناً كمستشارات، ووصيات على العرش مرات لأبنائهن<sup>(٤٤)</sup>. يُدَوّن فرعون الأسرة الخامسة والعشرين، تهارقا، في أحد نقوشه أنه طلب حضور أمه طول المسافة من تبّة كى تشهد تنويجه في مصر<sup>(٤٥)</sup>. إن الثروة والبهاء في قبور الملكات بالمدفان النوبية شهادة أبعد مدى لمكانتهن العالية.

لأبد أن المكانة الرفيعة والسلطة القائمة ما وراء الستار التى تمتعت بها الملكات النوبيات ذلكم الذى انهض الأثر الرومانى للقاضى بأن كوش كانت تُحكم بتسلسل وراثى من النسوة الحاكمات، يدعى كلون بلقب كنداكة<sup>(٤٦)</sup>. يبدو الإسم في الحقيقة تحريفاً للقب مروى (كنكى) الذى حمله كل الأوصياء الملكيين على العرش أو الأمهات الملكات على كوش؛ وهو لا يُعَيّن بتحديد ملكة وصية على العرش<sup>(٤٧)</sup>.

لقد كان هناك بحق خمسون ملكات على الأقل وصيات على العرش خلال القرون الأخيرة للأسرات الكوشية، لكن لم يحكم إثنان منهم في تعاقب، وليس هناك جزءٌ منهم حُكِمَ اللقب كنسبة. إن الظروف التي جاءت بهن للعرش، في تفضيلهنَّ على طلاب العرش المذكور (إن وجدوا) غير معلومة<sup>(٤٨)</sup>.

## فتح مصر

كاشتا، أول ملك نوبي يمكننا التعرف عليه من إسمه<sup>(٤٩)</sup>، ينتمي إلى الجيل السادس للأسرة الكوشية طبقاً لتقويم رايزنر التخميني. إسمه يظهر في نقش واحد أو نقشين شديدي الاختصار وحسب، نعلم تفاصيل قليلة عن حكمه<sup>(٥٠)</sup>. في لحظة ما من سيرته، يبدو أنه اتخذ طريقه صوب الشمال حتى طيبة، حيث رَسَخَ كهنة آمون قوته، والزم الكاهنة الأعظم لتبتي ابنته كوريتة مُعلنةً لها<sup>(٥١)</sup>. يجعل التحالف رسمياً على ذلك المنحى بين النظام الملكي وديانة آمون كان يُنمِّعُ مراس عدد من الفراعة الأرائل<sup>(٥٢)</sup>. ليس هناك ما يُوحى بنشاط عسكري مرتبط بزيارة كاشتا؛ البادي أنه قطع رحلته في سلام وقد دُعي في طيبة، كما في جبل البركل، الراعي المُتَّين لآمون وحامي عقيدته. أما بالنسبة للكهنة المصريين، على ما هم عليه من تهديد في الشمال وباعتقادهم الطويل على القوات النوبية لحمايتهم، فإن نهوض قائد نوبي جديد ومقتدر ربما بدا ظهوره إلى حد مُعتبر خلاصاً. لقد أسرعوا يعترفون به ويدعون حمايته. إن المنظر المُتداعي لحضارة قديمة تُسَلِّم لقبضة عهد جديد أقل حضارةً بأيدي ولاتها الروحيين لابد أنه قد تمتع به النوبيون الحاضرون؛ ذلك مما أُعيد القيام به مع اختلافات يسيرة لا غير إبان تنويع شارلمان بعد ١٠٥٠٠ عام مؤخرًا<sup>(٥٣)</sup>. ومع أنه لم يُطالب بالقباب الفرعون كاملة<sup>(٥٤)</sup>، فإن تقلد كاشتا للسلطة في طيبة إخطط الطريق للظهور المُختصر لكوش كقوة عالمية<sup>(٥٥)</sup>.

مات كاشتا حوالي ٧٥١ قبل الميلاد، وخلفه ابنه بعنخي<sup>(٥٦)</sup>. بدا الملك الجديد كأنما قضى العشرين عاماً الأولى من حكمه في بَنَتِه، معطياً القليل من التفكير للإقليم الشمالي الذي تُكَدُّ أبوه مسؤوليته. وبإقضاء الوقت، كيفما جرى ذلك، بلغته كلمة أن طيبة يتهدها جيش بقيادة تفنخت، أحد ملوك أسرات الدلتا الذي كان يرمي لاستعادة الحكم الفرعوني على مصر بأجمعها. لقد إبتهل المسؤولون العسكريون في طيبة لبعنخي كي يقوم بحماية مُقدَّرات آمون من الدخيل. وفي هذه اللحظة تتولى القصة لوحة بعنخي العظيمة (التي عُثِرَ عليها في جبل البركل عام ١٨٦٢، وهي الآن بمتحف القاهرة؛ انظر الصورة - ١٢)<sup>(٥٧)</sup>.

أمر بعنخي القوات في مصر أن تقاوم بأبسل ما تستطيعه، وبعد وقت قصير جَرَدَ حملةً اكمل عُدةً وعتاداً لتردع الغزاة. لقد نجحت هذه في هدفها المباشر، لكنها لم تتبع قوات تفنخت المندحرة وتدمرها. ماضى بعنخي عن أبناء هذه التدابير بين بين، وصمم على أن يقود المعركة بنفسه. تقدم أولاً نحو طيبة، حيث احتفل في مهرجان عظيم بالإحتفال السنوي للأوبت في معبد الكرنك. إن هذا التصرف البارع من فن إدارة الدولة أعلن على الملا مهمته المقدسة في مصر كراعٍ وحامٍ لديانة آمون. متى فرغ من ذلك، إتجه شمالاً في مطاردة لأعداء طيبة السابقين. فكان أول أعماله لمواجهة لمدينة مصر الوسطى هرموبولس، التي كانت فيما سلف تحت الحصار لعدة أشهر.

إن نملوت، ملكها، حين وجد أن الهدايا، ولو أنه ألقى يتاجه الملكي بينها، لم تُكسبه شيئاً مع بعنخي، أرسل ملكته لتدفع ببرائه مع نساء النوبيين ليرما يتشفعن بعنخي لصالحه. كانت هذه الوسيلة ناجحة، ليحافظ الملك على حياته، إستسلم نملوت وسلم المدينة وكل ثروته لبعنخي، الذي استولى فوراً على المكان. وبعد تقصير لقصر نملوت وكثره، دخل بعنخي الأسطبلات .... 'إن صاحب الجلالة تقدم نحو أسطبلات خيوله'، هكذا أوردت خُولَيَاتِه و 'مواقع المهور الصغيرة. وعندما رأى أنها قد عانت من الجوع، قال: 'إبني أقسم بمحبتي رَحْ لي... إنه لأكثر إيلاماً في فؤادي أن تُقاسي خيولي من الجوع أكثر من أي فعل شرير قمت به لتحقيق رغباتك'<sup>(٥٨)</sup>.

بعد سقوط هرميوبولس، سرعان ما أُنجزت أهداف بعنشى الباقية.

تحرك بعنشى لمواجهة الدلتا، مستولياً بالهجوم على ممفيس، حيث استخدم أسطولوه بجيشه معاً. وفي هذا الهجوم إستسلم العديد من أمراء الدلتا، ثم ذهب إلى هليوبولس وتقبل إستسلام أوسركن الرابع (إسمياً آخر فرعون في الأسرة الثالثة والعشرين) بالمثل. فالتجأ تفنخت إلى جزيرة لا يمكن الوصول إليها بإحدى مداخل النيل الغربية وتوسل لبعنشى كي يقبل إستسلامه. أما في شأن فتح مصر كما اكتمل الآن، فقد رجع بعنشى لوطنه نبتة، ونصّب لوحه التذكاري، ثم أعاد بناء المعبد العظيم لآمون - رع هناك .... (٥٩).

هنا ينتهى النص الرسمي. بهوده حُكم بعنشى بما لا يقل عن حقبة من الزمان، لكن أيامه كفاتح إنقُضت، ما عاد إلي مصر أبداً. ويصرف النظر عن ذلك، بعد أن الحق الهزيمة بالفرعون المعادي، أوسركن الرابع، كان هو الذى تقلد أول الانقلاب الكاملة لملك مصر. إنه يُعد على وجه العموم مؤسساً للأسرة الخامسة والعشرين، بالرغم من أن منثو يُعطى ذلك الشرف لوريثه.

مع تقلده القاب الفرعون، لم يكن بعنشى فاتحاً ولاطاغياً من النوع المعتاد، إن تدخله في مصر عَجَلت به توسلات مباشرة ومتكررة من الشمال. وكان إهتمامه الرئيس من البداية حتى النهاية يبدو كأنما انصبّ على إزالة التهديد الذى حاق بطيبة، ومن ثم حماية مَقدرات آمون. لقد قادته المثابرة المكثفة لتلك السياسة لإخضاع أى أمير منافس في مصر، لكنه عندما حصل على خضوعهم إسمياً كان قانعاً بالرجوع صوب وطنه وترك مصر لفاعلياتها الخاصة. ما من عجب، أن أعداءه، قاموا بمجازاته على معاملته الإنسانية الرؤوفة بنكت عهودهم واستئناف طموحاتهم الأسرية في اللحظة التى أدار فيها ظهره. إن بعنشى دونما شك سرعان ما بلغ علمه هذا السلوك، إلا أنه كان قانعاً بأن يترك الأمور على حالها طالما أن تهديد طيبة لم يتواصل بل انقطع عنها. حتى انتهاء حياته لم يتخذ خطوة لإعادة سلطته شمال مصر.

عن المنحوت العظيم لبعنشى، كتب بريسند أن :

... هذا اللوح النُصى المشهود هو أوضح وأقوى تعليل منطقي لحملة عسكرية بقي حياً في مصر القديمة. إنه يُعرض مهارة حربية وتقديرًا لمواقف مؤثرة ملهبةً للفكر وجديرةً بالملاحظة، في حين أن اللمسات الحية الموجودة هنا وهناك تزيل عنه تماماً تلك النغمة الجرداء المُتعبة في مثل هذه الوثائق الهيروغليفية. يُضفى الخيال على الشخصيات الزعمية التى تظهر هنا يُسرأ مع الحياة أجلى من أى أقاصيص تاريخية أخرى شبيهة بها في مصر، إن بعنشى الإنسان، مُحب الخيول خاصةً، يبقى رجلاً نانياً لمدى بعيد عن القرين المعهود حينئذٍ الآلهة الذى يحتل لا محالة العرش الماجد للفرانة في مثل كل تلك المُونوات الأخرى (٦٠).

فوق ذلك يلاحظ ويلسن في تفحصه :

إن قصة فتح بعنشى لمصر وثيقة إنسانية مثيرة للإهتمام بمستوى غير عادي، وعلى وجه التدقيق التناقض بين هذا الصفى المعتكف وبين المصريين العُقم المتكلفين. إن قروسيت في المعركة، وحلمه المتورع مع الأمراء الأسرى، وابتهاجه بالخيول، وأدائه المستقيم للطقوس الدينية، ورفضه لأن يبطش بالأمراء المهزومين الذين كانوا غير انقياء وفقاً لمُحتفى الشعائر - "ما كانوا مختونين وكانوا أَكَلَةً للسّمك" - يُنبأ عنها بلغةٍ مصرية أنيقة ذوقاً رفيعاً سامياً (٦١).

ربما كانت الشخصية البسيطة الزاهدة بالاحرى التى عرضها بعنشى في مصر شيئاً نذيراً من دهاء بالغ في لعب الأدوار، خطط له لترسيخ صورته كُمُخْلِص. وإنتقاده أى أعدامٍ بشرعية الأسرات الملوكية، فهو مثل أى فاتح جاء لاحقاً، ربما وجد من الأفضل أن يُدثر نفسه بمُسُوح الإستقامة الشخصية (٦٢). شخصيته، مثل سيرته، تُظهر متقابلاتٍ مبهمه لما ينسب التقليد الإسلامى للفاتح الإصلاحى صلاح الدين، الذى جاء إلى السلطة في مصر بعد ٢٠٠٠ عام مؤخراً (٦٣). في وطنه، مع هذا، لم يُعد يُعلن عن مدفنٍ ملكى لبعنشى ولا لمدافن عدة من ملوكائه كرجل متواضع أو زاهرٍ على

وجه الخصوص.

وريثا بعضي المباشرين، شباكو وشيكو، شخصان باهتان نوعاً ما، لم يترك أحدهما مآثر شخصية هامة. كان شباكو فيما يبدو شقيقاً صغيراً لبعنضي وكان شيكوتو ابناً لبعنضي، طبقاً لنظام الورثة المفضل. وقد مارسا الحكم فيما بينهما منذ عام ٧١١ حتى ٦٨٩ قبل الميلاد.<sup>(٦٤)</sup>

فيما هو يَبِين، إعتبر شباكو وشيكو نفسيهما فرعونين بالمعنى الحقيقي للكلمة؛ أي، أولاً وقبل أي اعتبار آخر كحكام لمصر. أنشأ الكرسي الملكي في طيبة، وبأثرا على سياسة أخذ مُضَيّاً وأقل حيطة بدرجة أعلى مما اتخذه بعنضي. إستأنف شباكو الحملة ضد منافسيه في الدلتا وسرعان ما استعاد الحكم النوبي على مصر بأكملها؛ إضافةً لذلك، قاده طموحه الإمبريالي ليَتَدَخَّل مع حكام فلسطين وسوريا الصغار في مواجهة إمبراطورية آشور. هذه المساعي غير الحكيمة لم تؤد إلى استفزاز الإستجابة الآشورية المفعة بالإحتقار التي نُقلت في مطلع هذا الفصل. إن نتيجتها الفورية كانت تخريب مقاطعة يهودا في فلسطين، وبعد أربعين عاماً تلت، الزلزال الآشوري الذي اجتاحت الأسرة النوبية المالكة في مصر.

مثلاً وقع في عُصُور قابلة، كانت فلسطين المادة الرئيسة للتناحر بين القوى في الشرق الأدنى. بعد أن طال وقوعها في دائرة النفوذ المصري، سقطت الممالك اليهودية والفلسطينية في بُيْر البطش الآشوري في القرن التاسع قبل الميلاد. لقد كانت محافظات متمردة، مع هذا، مُستدعيةً لعمليات تاديبية وإنتقامية آشورية متكررة. مرتان خلال عهد بعنضي، أُجريت حملات ضد يهودا على حدود مصر نفسها؛ في كل مرة ترجع الجيوش الآشورية إدراجها بدلاً عن الإنزلاق في مستنقعات الدلتا التي قامت بحماية مداخل النيل طويلاً. على الرغم من هذه المسارب الضيقة، وربما بسببها، إرتأى شباكو أنه بالتدخل والإعانة يمكنه أن يُثير العصيان في الدويلات الشرقية في البحر الأبيض المتوسط ويضعها كعارضة في مواجهة التهديد الآشوري.

ذاكرين منعة مصر القديمة، في إخفاق لفهم حالة الحُزْر المتحلل التي هوت إليها، وفي لفة لخلطة الإستبعاد الآشوري، منحوا أدناً صاغية لرسول شباكو. غير أنه في يهودا وحدها إستبصر رجل الدولة النوبي يشعياه عُقم الإعتماد على مصر والكارة النهائية التي سبَّغت بها على أيدي آشور.<sup>(٦٥)</sup>

أخيراً أقنعت دسائس شباكو الإمبراطور الآشوري سنحاريب أن الجَلْبَة المصرية يجب القضاء عليها. قاد جيشاً مُعتبراً في عام ٧٠١ قبل الميلاد نحو الغرب، قاصداً أن يسحق مصر ويضع حداً مرة واحدة لكل العصيان المُزْمَن في فلسطين وسوريا. وطبقاً لمدعنة الوقائع اليهودية فإن شباكو لم يتول ساحة القتال ضد سنحاريب بشخصه، لكنه أولى قيادة الجيش المصري لإبن أخيه ذي العشرين عاماً تهارقاً<sup>(٦٦)</sup>، الذي كان عليه أن يحكم مؤخراً على أنه الفرعون «الاثيوبي» الرابع. أسرع القائد النوبي لفلسطين مُستهدفاً مقابلة الخصم قبل أن يبلغ أبواب مصر. هناك بعض الغموض عما حدث بعد ذلك، ولكن من الجَلَى أنه ما من نزال حاسم وقع أبداً؛ أما الجيش الآشوري فقد أجهز عليه قدره بيوام فتاك. مرةً أخرى إبقى الحظ على نظام الحكم الكوشى في مصر.

الواضح أن شباكو أنهى عهد حكمه في سلام؛ إن شقوقاً من قائمة طينية تحمل ختمه الملكي وختم ملك آشوري قد تشير إلى أن نوعاً من مُدنة خُلص إليه بين الحاكمين<sup>(٦٧)</sup>. حكم شيكوتو الموجز يبدو أنه أيضاً مضى دون أحداث جديرة بالملاحظة، بالرغم من أنه ترك مُدونات قليلة سواء في مصر أو النوبة. لعشرين عاماً شغل الإمبراطور الآشوري بحدود أخرى، لربما كان سعيداً بما فيه الكفاية لأن ينعم بالسلام في الغرب. أما شيكوتو كيفما اقتضى الأمر، فقد وجد من الضروري أن يصون حكماً شخصياً في مصر، مع أنه كسلافه، نُفِن في الكُرو.

إعُتلى العرش تهارقاً، الشقيق الأصغر لشيكوتو وابن بعنضي، في وقتٍ ما حوالي ٦٨٩ قبل

الميلاد . بدا رجلاً ذا قُدرة مرموقة، مع أنه كان واحداً من أكثر القادة العسكريين إخفاقاً في التاريخ. كان حظه العاثر أن يجمع حصاد طموحات أسلافه المتهورة في آسيا، وقد جاء إلى العرش عندما كانت قوات الآشوريين تتجمع لمعركة فاصلة مع مصر. إمتلت سنوات حكمه الأخيرة بسلسلة متواصلة من الحملات المجهضة والعمليات التأمينية لظهيرته في مواجهة العدو الآشوري الزاحف بقيادة أسر حدون، ابن ووريث سنحاريب. أحبط بالقوات المصرية والنوبية في كل من هذه الإشتباكات تقريباً، وفي النهاية لم تُترك سوى طيبة ومصر العليا في القبضة النوبية. بدأ انهي تهارقا حكمه حينما بدأه أبوه يعنشى.

بالرغم من الإنتكاسات العسكرية التي ظلت حكمه، كان تهارقا وحده العضو الأول في الأسرة المالكة النوبية الذي اتجه بجديّة من مهمة الفتح إلى مهام ترسيخ الحكم. فمثل حكام مصر الآخرين، حاول أن يُدعم حكمه وحكم سلفه بمشروع مخطط بطموح عظيم لبناء المعابد الصروحية. وبذا يقف بإعتباره واحداً من أعظم البناة في الأسرة الكوشية. صروح تهارقا الباقية، في كل من مصر والنوبية، تتفوق عددياً على كل المسلات والتماثيل لفرانة الأسرة الخامسة والعشرين مجتمعين.

يعدد امرى أنشطة تهارقا المعمارية على النحو التالي :

في معبد الكرك زُيّن الساحة الكبرى بأسلوب إحتفالي تصطف على جانبيها أعمدة ضخمة ذات نسب باهرة، بقي أحدها قائماً، وما يبدو أنه كان مسؤولاً عن البوابات التي لم يكتمل إنشاؤها على جانبي المدخل الرئيس للمعبد. جانباً عن هذه الأعمال الكبيرة شُيد تهارقاً مباني أخرى أقل أهمية في مجموعة الكرك مَبْنِيَتْ حابو على الطرف الغربي من النيل سواء بسواء، ومن المادة المنصوتة يمكننا أن نخلص إلى أنه شيد كليهما في تبتيس وإدفو. إن عمليات بنائه في موطنه ربما كانت أكثر كثافة، وفي نُبْتَة استعاد زُخرف المعبد العظيم لأمون، وشُيد معبد صغيراً مشقاً من الصخر في الجبل المقدس وراءه. على النهر من ناحية الجبل، تكوين لوجه [الجبل] في غاية تجعله يُعطى مظهر لواجهة صناعية مقامه من أربعة أشكال ضخمة. وقد اقترح أنها بقايا لمعبد مقطع من الصخر على طراز أبو سُمبل وذو حجم أعظم منه على قدم المساواة. على أن جهات مختصة عديدة ترتاب في وجود هذه التماثيل المصنوعة من الصخر، وتعتقد أنها لا تدو كونها تكوينات بالصدفة للصخر الطبيعي<sup>(٧٨)</sup>.

تهارقا مسؤول أيضاً عن معبد كاوة، الذي أصبح، مع جبل البركل، واحداً من المراكز الدينية العظيمة للنظام الكوشي. إن ادعى صروح حكمه إثارة للإعجاب، مع هذا، كائنه في النوبة السفلى وبطن الحجر. لقد بنى بوضوح معابد صغيرة في سمنة<sup>(٧٩)</sup>، ويوهين<sup>(٨٠)</sup>، وقصر إبريم<sup>(٨١)</sup>، ووُجِدَت كتلٌ منقوشة تحمل اسمه في أماكن أخرى من النوبة السفلى أيضاً<sup>(٨٢)</sup>. من الصعب أن نُكلل هذه الصروح في منطقة كانت مهجورة بكل النوايا والأغراض، رغم أنها كانت بالطبع رواقاً للرسل والتجار يذرعونها جيئةً وذهاباً بين أملاك الملك النوبية والمصرية. الأمر الأكيد أن القلاع العظيمة في الشلال الثاني ومعابد أسرتها الثامنة والعشرين ظلت أطلالاً لفترة طويلة في زمن تهارقا، إلا أن مغزاهما الرمزي كتعبيرات للسلطة الفرعونية ما فُتِنَ بابقاً فيما يبدو مما جعل تهارقا يُفضل بناء صروحه الخاصة بنفس المواقع. وتكاد هذه المواقع أن تكون المؤشرات الوحيدة الدالة على نشاط بشري في منطقة الشلال الثاني خلال الألف الأخير قبل الميلاد.

ترك تهارقاً ثلاثة ألواح تذكارية هامة في معبد كاوة، تُفَصِّل أحداثاً مختلفة في سيرته<sup>(٨٣)</sup>. لوح آخر، لم تُحفظ إلا شقوقه، في تبتيس بمناسبة تسنمه السلطة في مصر. فيه يخبر تهارقا كيف أرسل لأمه، التي لم يرها منذ أن رحل من نُبْتَة سنوات عديدة سبقت، حتى ترى ابنها المتوج "بنفس الطريقة التي رأت بها إيزيس ابنها حورس على عرش والده"<sup>(٨٤)</sup>. إن هذا النقش - وَضَحَ على العموم - أن تهارقا حكم بصفة أساسية من تبتيس. سجلات أخرى لحكمه تحتوي عدداً من النصوص الحرفية المكرسة للمعبد واللوح التذكاري الطويل المُفَصِّل لثابته المخلص منتومت في طيبة<sup>(٨٥)</sup>، إضافة إلى مدونات الأحداث التاريخية الآشورية واليهودية التي تشير إلى مناوشاته العسكرية مع أسر حدون.

مثل معظم أسلافه أقام تهارقا في نُبْتة في آخر سنينه، بعد أن عَيَّن ابن أخته ووريثه تنوتامون ليرعى ما تبقى من الممتلكات النوبية في طيبة. مع كل هذا، لم يبن صرحه الجنائزي في الكُرو. مُتبعاً المثل الذي اتخذه بعض فراعنة مصر الأوائل<sup>(٧٦)</sup>، يبدو أنه هياً صرحين مختلفين في مكانين مختلفين بإمبراطوريته : أحدهما فيما يظهر ليخدم كصرح تذكاري لتمجيده، والثاني مكاناً حقيقياً لقبره. أما المواقع المحلية التي اختارها فكانت نُوري، عبر النهر من جبل البركل حوالى خمسة وعشرين كيلو متراً صوب مصب النهر من الكُرو، وصدنقا في أرض عبري دلقو النهرية. في أجيال متعاقبة كان على نُوري أن تحل محل الكُرو جِبَانة ملكية، دُفن هنالك كل من تبقى من الملوك النوبيين عدا واحداً أو اثنين.

مع أن أهرامات تهارقا هي الأولى بين أربعين هرمأ ملكياً أو نحوها في نُوري، فليس مؤكداً أن الملك قد دُفن تحتها أبداً. إن غرفة الجنائزة (التي نُهبَت بإتقان مثل كل الغرف في نُوري) وُجِدَت فارغة تماماً<sup>(٧٧)</sup>، وتُوحى إكتشافات حديثة أن مكان راحة تهارقا الأبدية ربما كان مدفنه الملكي الأقل مفعرةً بكثير في صدنقا<sup>(٧٨)</sup>. (سوف نُجرى مناقشة التسلسل التاريخي والتطور الخاصين بالمدافن الملكية النوبية بتفصيل (وفي فيما بعد).

مات تهارقا ولا يزال مُستحوذاً على الأقاليم المصرية في مصر العليا التي كان أبوه قد حكمها آنفاً وجده: كان الحظ عطوفاً بما يكفي لتأجيل السحق النهائي للأسرة الخامسة والعشرين إلى ما بعد وفاته. لقد وقعت الضربة مبكراً في عهد وريثه تنوتامون، مرةً ثانية جاء بها طموح الفرعون نفسه وطيشه. فبعد وصوله للعرش عَجَلَ تنوتامون بمحاولة وحيدة لم تعقبها أخرى ليوحد مصر تحت حكمه. صعد بجيشه لممفيس، التي قام بمحاصرتها وربما أمكنه أن يأخذها أسيرة. إن الآشوريين عقب هزيمتهم لتهارقا لم يتركوا جيش إحتلال في مصر السُفلى، والنتيجة أن تنوتامون وقواته الضعيفة نسبياً إستطاعوا مرةً أخرى أن يُجبروا مدن الدلتا على الخضوع المؤقت لهم. إنتقام الآشوريين، كان سريعاً وعارماً، كما أشارت إليه حُويلات آشور بانيبال :

في حملتي الثانية وجهت طريقى نحو (مصر) و (النوبة). لقد سمع تنوتامون بحملتى، وإننى طرقت أرض مصر فتخلّى عن ممفيس وهرب إلى طيبة لينتقذ حياته. إن الملوك والولاة، والعمال الذين نُصِبَتهم في ممفيس حضروا إلى وقبَلوا قدمى. وفي أعقاب تنوتامون إستأنفت طريقى وجئت إلى طيبة، مكان قوته فهرب إلى كبكب (نُبتة؟) إن طيبة بأجمعها هزمتها بعون آشور واشتار الذهب، والفضة، والأحجار الكريمة، وكل ممتلكات قصره، وملابس ملونة كثيرة، وكتان وخيول عظيمة، ووصائف من الرجال والنساء، ومُسَلِّتين عابقتين من معدن لامع. تعادل قيمته ٢٠٠٠ وزنًا من المال، وضُفِّلَ باب المعبد التي انتزعتها من قواعدها وحركتها إلى آشور. غنائم ثَقِيْلَة، فوق العد، أخذتها بعيداً عن طيبة. إننى في مصر والنوبة أعملت أسلحتى لتفتك بهم وبِئِنت باسى<sup>(٧٩)</sup>.

أنهى إجتياح طيبة أيام مجد تلك المدينة بالمرة. ما انفكت تذكر بعد خمسين عاماً عندما تنبأ النبي ناحوم بالدمار الذى سيحل بأشور بدورها :

هل انت خير من الماهولة (طيبة) التي كانت تقع وسط الأنهار، تحيط المياه بها، متراسها البحر وسورها منه؟ كانت إثيوبيا ومصر قوتها، وكانت غير متناهية... مع هذا حُملت بعيداً... في الأسر تثار أطفالها الصغار في رؤوس كل الشوارع، القوا بالأثقال على أشرف قومها، وبالأغلال قُيد كل رجالها العظام<sup>(٨٠)</sup>.

بعد هذا البلاء أمضى تنوتامون بقية حكمه الوجيز في نُبْتة، ما وضع هو ولا أحدًا من خلفه أبداً أقدامهم في مصر ثانية. ولم يحذ تنوتامون حِذو تهارقا لبناء هرمه في نُوري. فقد فَضَّلَ الجِبَانة القديمة في الكُرو، وكان آخر ملك نوبى يُدْفَن بها<sup>(٨١)</sup>. كذلك كان آخر نوبى يستطيع أن يطالب شرعياً بلقب فرعون، رغم أن ورثته استمروا في ذلك لخمسة وستين عهداً بعده. إن وفاة تنوتامون معلم لنهاية الأسرة الخامسة والعشرين، وعصر النوبة البطولى.

أما إنجازات الفراعنة "الاثيوبيين" خلال الأجيال الثلاثة لحكمهم في مصر فلم تَمْضِ غير مقدرة. فقد استعادوا القطر الشمالي لحظيرة الوحدة، مهما كانت مؤقتة، لأول مرة لمدى يزيد عن ثلاثمائة عام. أنشطتهم المعمارية في طيبة وحولها، مع أنها متواضعة بالنسبة لمستويات الدولة الجديدة، كيفما اتفق حالها، أطول باعاً من معمار أي حاكم منذ رمسيس الرابع<sup>(٨٢)</sup>. وبالرغم من أنهم كانوا بثوةً لأناس أقل حضارة هواناً فيما مضى، لم يكن هدفهم أقل من استعادة الثقافة المصرية وديانتها "لثقافتها" الأصلية، وما كان يدينهم في هذا الشأن عملاً محموقاً على الإطلاق بلا نجاح. أما الميول لإستخدام الآثار القديمة التي تبدوا أولاً في صروح الأسرة الخامسة والعشرين وأدبها فكان عليها أن تثبتت بالبقاء من خلال أجيال متوالية حتى السقوط النهائي للدولة الفرعونية .

## آخر الملوك النبتيين

عندما غادر ملوك كوش مصر، رحلوا كذلك عن المسرح العالمي. إن مدونتي المسلسلات التاريخية يهودا وأشوريين لم يعيروهم إهتماماً أكثر مما فعلوا، فإن مقاليد مصر لم تعد ملكاً لهم ليدبروا شؤونها، وكان في طوعهم بالوطن عدد قليل من خبراء العلاقات العامة وأساليب تنميتها. على كل حال، لربما وجدوا شيئاً نذيراً يابهون به - خاصة حينما ظلت ذكرى الأمجاد الغابرة مُحَضَّرَة. نتيجة لذلك، كاد السجل التاريخي أن يتوقف مرة واحدة مع انهيار حظوظ الفوية الإمبريالية، وخيم الظلام ثانية على الأسرة الجنوبية .

بعد تهارقأ، دُفِن في ثوريّ عشرون جيلاً من الملوك. نعلم أسماءهم كلهم عدا واحداً منهم، إذ أنها كُتبت على قبورهم أو على بعض المتاع الذي وُجد بينها. خمسة فحسب من العشرين، مع هذا، تركوا تديناً ما عن أنفسهم. إن نقوشهم في غالبيتها حُوليت عن الحملات، تدين بالكثير أسلوباً ومحتوى على السواء لإشهادات بغضى وتهارقا العظيمة. أما الأعداء فلم يعودوا هم الأشوريين والمصريين الأقوياء، لكنهم شعوب قبلية من أصل غير معروف يقيناً، يُبَيِّن تنفيذ النصوص الحرفية تناقصاً في الإلفة بلغة لم تعد متحدتاً بها؛ وفي النهاية فإن التعبير وأحداث الأزمان الأولى على السواء جرى تكرارها ألياً من قبل كتبة أنصاف متعلمين<sup>(٨٣)</sup>.

كان أنلاماني أول ملك نُبِتِي ترك في فترة المغيّب مدوناً، ويبدو أنه كان حفيداً منحدراً من تهارقا وقد حكم بعد خمسين عاماً من وفاته (تقريباً ٦٢٣ - قبل الميلاد)<sup>(٨٤)</sup>. يُحْيِي نقش أنلاماني ذكرى زيارة لمعبد كاوة، حيث احتفل بحفل ديني لآمون، وكذلك تجريدة عسكرية ضد بجا الصحراء. يريد صداها امرين ماثولفين من أزمان سالفة : فالملكة الأم جئ بها من كاوة لتشهد إبنها على العرش، وشقيقات الملك تُصْنِف في دور الشقيقات بكل من إحدى المعابد العظيمة لآمون في المملكة<sup>(٨٥)</sup>.

ترك أسبلطه، شقيق أنلاماني ووريثه، لوحين في معبد جبل البركل. في لوح ذكرى إعترائه العرش اخبر عن الكيفية التي تم انتخابه بها من قبل آمون نفسه من بين الأمراء المستحقين. بما يعني إفتراضاً كهنة آمون. وبما يشبه اللغز، في منحوتة الآخر تَبَيَّن أسبلطه عن دعوته لجمع الكهنة ليسمعوا ويقرروا اختياره لمدايكن، أرملة أنلاماني، كأعلى كاهنة<sup>(٨٦)</sup>. ويبدو أن الموازنة الدقيقة بين الملكية والكهنوت رجحت في البداية طريقاً ثم جنحت للأخر.

يُعزى لعهد حكم أسبلطه، مع أن ذلك محذوف بشكل مفهوم من حُولياته، الغزو المصري للنوبة في عهد فرعون الأسرة السادسة والعشرين، بسميتك الثاني. إن الحملة دونها هيرودوتس<sup>(٨٧)</sup> وفي نقشين لبسميتك نفسه، بيد أن التفاصيل الجغرافية محدودة غير كافية . يقيناً أن الحملة اجتازت النوبة السفلى، لأن مرتزقة الإغريق والكاريين الذين يُكوّنون الآن أغلبية القوات المصرية تركوا رسومهم الخطية على تماثيل أبو سُمبل والشلال الثاني<sup>(٨٨)</sup>. يبدو الآن ممكناً (كما يُلَغ هيرودوتس) أن

الحملة بلغت جنوب النهر حتى بُنيت نفسها. تماثيل محطمة لأسباطه وعدد من أسلافه، وُجِدت في معبد جبل البركل، وتفسر كُتَيْبةٌ على تخريب بسمتيك الإنتقامي<sup>(٩١)</sup>. مع ذلك، فإن الغزو لم يكن له أثر نهائى على مسيرة التاريخ النوبي أو العلاقات المصرية - النوبية. مراكز القوة في مصر كانت كلها في الشمال؛ ومراكز القوة في النوبة بالجنوب؛ بين الإثنين تمتد أرض عريضة لا صاحب لها، وعقب تدمير طيبة جمعت بينهما مصالح ضئيلة. أصبح الإنسان الآن قوتين من الدرجة الثانية، ينشغلان بشؤون محلية.

أسباطه هو أول ملك نوبى وُجِدَ اسمُه في أطلال مروى، رغم أن الكُتَيْبة على أنه أقام بالفعل في المدينة الجنوبية ليست بقاطعة تماماً<sup>(٩٢)</sup>. ربما أمكنه بالطبع أن يلتجئ بها مؤقتاً خلال غزوة بسمتيك. أياً كان الأمر، فالواضح من نقوشه أنه كان متورطاً في مناهضة من أجل القوة وراء الستار مع الكهنة في جبل البركل<sup>(٩٣)</sup>. ويمكننا لذلك أن نرتاب بصعوبة في أن "العاصمة" النوبية كانت لا تزال قائمة في بُتَيْة زمن أسباطه. إن الاقتراح الذى يتردد كثيراً بشأن التخريبات التى ألحقها بسمتيك بِبُتَيْة كانت مسئولة بصورة مباشرة عن نقل "العاصمة" إلى مروى<sup>(٩٤)</sup>، لا يملك إلا تزكية قليلة، كما متمنعين نلاحظ توأ.

بعد أسباطه تَظَلَّ فجوةٌ ربما تبلغ ١٥٠ عاماً في السَّجَل التاريخي؛ فكل النقوش الملكية المتبقية تنتمى إلى العهود الأخيرة من العصر النُبْتِي. في معبد كاوة هناك أربعة نقوش لآمان - نتي - يركى، حاكم الأسرة الكوشية الحادى والعشرين (والوريث السادس عشر لتهارقا) وفقاً لتسلسل رايزنر الزمنى<sup>(٩٥)</sup>. يحتوى واحداً من النقوش على مادة تاريخية غنية ومثيرة للإهتمام، بالرغم من أنها نوعاً ما غير ملتزمة بالقواعد النحوية و "أقل حضارة" لغوياً. يطعننا شينى :

النقش العظيم لآمان - نتي - يركى له أهمية كبرى لتاريخ الفترة، ذلك أنه يحتوى أول ذكر لمروى، ويخبرنا أن الملك يقيم هناك. مَنَحَتْ، بينما الملك في الحادية والأربعين من عمره،<sup>(٩٦)</sup> يصف أولاً حملة بحق /الرم- رهم، الذين يبدو أنهم كانوا يحتلون الطرف الشمالى من جزيرة مروى. ويعد أن هزمهم، ذهب إلي بُتَيْة ليقبل كملك من كهنة آمون، وشارك في إحراق في معبد البركل حيث اعترف به بالطريقة المُنْتَبِعة من قبل الإله. ومن بُتَيْة، أبحر جنوباً إلى مكان غير مُعرَّف يسمى كرتن، يحتمل أنه يقع على الضفة اليمنى، حيث حارب المذيد، قوماً وُصِفُوا بأنهم "سكان الصحراء"؛ وفيما بعد سار في رحلةٍ لسبعة عشر يوماً من بُتَيْة إلى كاوة ثم بنويس [أرقو؟]، وفيها مُنَح أرضاً لمعبد ثم رجع إلى كاوة، وقام بتنظيف المنزل المؤدى إلى معبد تهارقا وأمر بإجراء ترميمات على عدد من المباني. أما النصوص الأخرى عن هذا الملك فهي مبهمة المعنى لآبعد حد، لا تُضيف للتاريخ شيئاً...<sup>(٩٧)</sup>

الممنصوتان المتبقيان لحارسيتوف (الجيل الثالث والعشرين)، وناستاسن (الجيل السادس والعشرين) نُقِشَا معاً في المعبد القائم في جبل البركل.<sup>(٩٨)</sup> إنهما منطمان يشكل قريب على أثر نقش آمان - نتي - يركى، ويكرران كثيراً من نفس التفاصيل. كذلك يحتوى نُصَب ناستاسن كثيراً من المعلومات الأصلية، بما فيها وصف الطريق الصحراوى الذى سافر عبره من مروى إلى بُتَيْة لحفل تنويجه.<sup>(٩٩)</sup> إن أهمية هذا الطريق بالنسبة لتفسيرنا لتاريخ كوش سيُنَاقَش في الفصل القادم.

يَدْعَى آمان - نتي - يركى وخلفاؤه أنهم شنوا حملات عى /الميد (ربما الجيا) و/الرم- رهم - أناساً يبدو أنهم كانوا مثابرين وربما كانوا أعداء متمرسين وربما كانوا عدواً تقليدياً لودو للنبوة الكوشية. ومن الأوصاف يظهر أنهم البدو الرعاة بأعينهم على نحو ما هو مألوف عنهم. إضافة لذلك، حارب ناستاسن غازياً جاء من الشمال بأسطول.

يقرا إسم عدو ناستاسن الشمالى الغامض شيئاً مثل كمبسن، وقد تُعرَف عليه منذ أمر طويل مقروناً بإسم الإمبراطور الفارسى قميبيز. وكان قد فتح مصر في عام ٥٢٥ قبل الميلاد، وطبقاً لهيرودوتس، أرسل تجريدةً إلى بلاد النوبة فلاقت مصيرها التعس هلاكاً في الصحراء.<sup>(١٠٠)</sup> هذه



الحملة - التي استُعيدت مرةً باعتبار أنها إحدى تخيلات هيرودوتس الرومانسية - يبدو أنها تجد تأكيداً من التاريخ في نُصب ناستاسنس. ومع ذلك، يستحيل أن تتفق التواريخ مع بعضها بعضاً، فإنه حسب التسلسل الزمني لرايزنر حكم ناستاسنس بعد مائتي عام من زمن قمييين. ولذلك، لابد أن العدو الشمالي كان شخصاً آخر - ربما خباش الذي ذُكر كمتزود في مصر العليا أو النوبة السفلى حوالي عام ٢٣٠ قبل الميلاد. (١٠١)

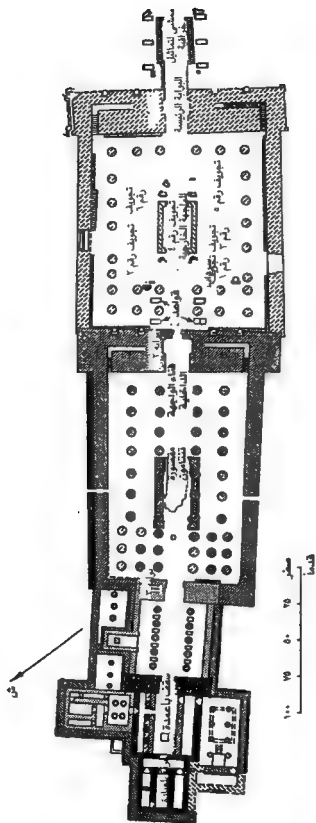
يبدو قليلاً من الشك أن أمان - نتي - يركي، وحارس يوتف، وناستاسنس أقاموا في مروى أغلب الأمر. مع ذلك، قام كل واحد منهم حين اعتلى العرش برحلة صوب الشمال ليعلن ملكاً في جبل البركل. ويُدّن كل واحد منهم عبر النهر من الجبل المقدس في الجبابة الكبرى التي بداها تهارقا. وإلى ذلك الحد نملك تبريراً حين نتحدث عنهم كملوك بُتيين ولو أن الإقامة الملكية المفضلة تكمن الآن في الجنوب. وإذا ما حُفرت المدينة الجنوبية العظيمة بشكل أكثر منهجية مما جرت محاولته إلى الآن، عند ذاك لا شيء غيره سيكون في وسعنا أن نقول متى حلت مروى محل نبتة كمركز روحي للإمبراطورية الكوشية.

إن الجدل المستطال حول موقع "العاصمة" النوبية لا معنى له بالفعل مالم نحدد (كما حاولت قلة من الكتاب) ما تعنيه كلمة "العاصمة" لقد كانت إمبراطوريات سالفة عديدة متعددة المركز، لا شيء سوى أن الحاكم واله كان يوسعهم أن يتحركوا حول الأمكنة بحرية، وقد فعلوا. وحتى بعد حدوث حكم جلوسي أكثر تطوراً كانت هناك دائماً إقامة ملكية متعددة في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. ما أصبح هناك معنى للحديث عن "عاصمة" جغرافية بالمعنى الحديث إلا بظهور بيروقراطية راسخة في قوة ووطيدة نسبياً.

أنشئت دولة كوش القديمة بشكل واضح تأسيساً على سلطتين متفاعلتين: النظام الملكي وكهنوت أمون. لكل منهما أكثر من مصدر كُموُن واحد للقدرة. وكان لملوك نبتة المتأخرة الذين تتضمن نصرتهم أخبار إقامتهم في مروى بالتأكيد منتجات مماثلة في نبتة، تخيروا شغلها مدداً طويلاً من الوقت ثم لم يفعلوا. وكان للكهنة أيضاً مركزاً رئيساً على الأقل، وربما ثلاثة. وربما صُرف النظر عن كاوة كمركز للمحافظة، ولكن معابد أمون العظيمة في جبل البركل ومروى تكاد تتساوى أهمية في تاريخ كوش. لقد كان البركل هو الأعظم شأنًا في صفاء، بداية الأسرة الكوشية، وكان شأن مروى مماثلاً للبركل في فترة إنتهاء كوش، على أنه كانت هناك فترة طويلة من التعايش يستحيل خلالها أن يقال أيهما كان غالباً. ومن الممكن جداً أن ملوك نبتة المتأخرة كان عليهم أن يتلقوا إختيار الإله في كل من المكانين، مثلما كان على كاشتا ويعنخي أن يتلقياه في نبتة وفي طيبة. لذا لذلك أن نتحدث حديثاً مشروحاً عن "عاصمة" في نبتة حتى عهد ناستاسنس دون أن نغفط حقاً للإحتمال القاضى بأنه كانت هناك "عاصمة" في مروى على حد سواء<sup>(١٠٢)</sup> وبما أن ناستاسنس (طبقاً لمشروع رايزنر) كان آخر ملك إختيار أن يُدفن في الشمال، أيا كان الحال، يجوز لنا أن نختار في طمانينة حكمه كعاصمة على نهاية العصر النُبتى.

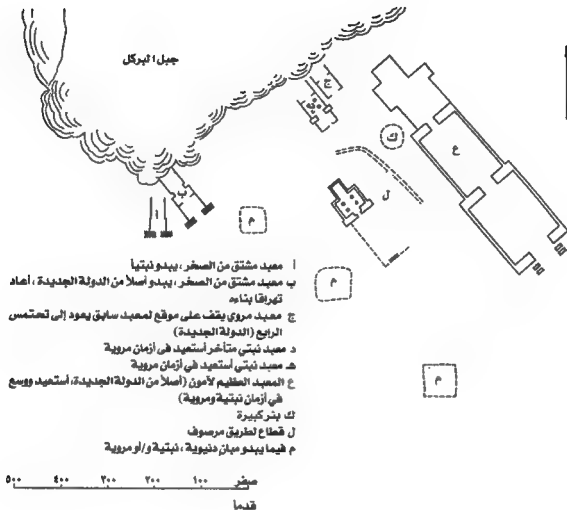
## المعابد والمدن

ينهب جبل البركل، جبل النوبيين المقدس، مثل محراب مارذ فوق السهل القيصي للنيل. إن قمته إمتداد عظيم مستوي من الحجر والحصباء يبلغ عدة أقدنة في مداها؛ وإلى الشمال ينحدر نحو الأسفل بما يقارب التدرج نحو سطح الصحراء العاري. أما الوجه الذي يقدمه جبل البركل نحو النيل، رغماً عن هذا، فهو يقرب من قمة رأسية أعلى من ٢٠٠ قدم (الصورة ١٠ - ب). لقد شُيد رمسيس الثاني في ظل هذا الطود العظيم المعبد الذي ظل ماثلاً قروناً متتالية بوصفه المركز الروحي للنوبة.



خطوط التنايل المختلفة تبين مراحل متعاقبة من النمو والتعديل في أزمان الدولة الجديدة ، والنبتية والمورية

شكل رقم ٣٩  
المعبد العظيم لأمون في جبل البركل



شكل رقم ٤٠  
 رسم تخطيطي لمباني المعبد في جبل البركل

معبد آمون كما نُقِّحَ رايزنر في عام ١٩١٦<sup>(١٠٤)</sup> يشكل المتواليات العادية لمستطيل، وقاعات ورودهات ذات أعمدة تمتد على طول ربما قصد به أن يكون محوراً شرقياً - وغربياً<sup>(١٠٥)</sup>، مع غرفة للعبادة في الطرف الغربي (قارن الصورة ١١ - ١). أما الطول الكلي للمبنى في صورته النهائية فقد بلغ بالتقريب ٥٠٠ قدماً - أكبر من أي معبد مصري معاصر له عدا الكرنك<sup>(١٠٦)</sup>. كانت النواة الأصلية التي بناها المصريون أصغر بمديٍّ مقدر؛ وهناك إضافات كثيرة في كل من الأزمان التبتية والمروية (الشكل رقم ٣٩). كما الكرنك، إصطُلح بوفرة بالغة من التبديل وإعادة البناء خلال مُدَى القرون فلم يكن من السهل على رايزنر أن يتأكد أي هياكل كانت من أعمال حكماء بعينهم<sup>(١٠٧)</sup>. الطراز والزخرف، كما في المعابد النوبية، بقيا بالضرورة مصريين من البداية إلى النهاية.

في جبل البركل كما في الكرنك، كان المعبد العظيم لآمون المعلم المركزي الوحيد لمركب ديني أكثر تعقيداً. في الضاحية المباشرة (ربما بين سور المقاطعة نفسها، بالرغم من أنه لم يُعثر عليها أبداً) تقع ستة معابد أخرى على الأقل وربما معها عددٌ من المباني غير الدينية بالمثل (الشكل رقم ٤٠). بُنى إثنان من المعابد الأصغر، التي يعود تاريخها إلى الأسرة الخامسة والعشرين، مباشرة في مواجهة القمة، وكانت غرف العبادة مشبَّعة من الصخر بين أعطاف الجبل المقدس نفسه. تمت صيانة معبدتين أخريين من أصل تبتى وتوسيعهما إبان الفترة المروية، وكان هناك معبد صغير مروى بكيئته. أما معظم المعابد الثانوية فاحتوت على غرفتين أو ثلاثة غرف، ولم يكن لأي واحد منها ذى حجم، أن يُقَارَنَ ولو من بعد بحجم المعبد العظيم لآمون<sup>(١٠٨)</sup>.

وُجِدَت معابد البركل في حالة سيئة لأقصى الحدود من ناحية الحفظ، حيث تعرضت المنطقة بأكملها لتعرية سطحية متزايدة. أما المباني نفسها، مثل معظم الأرض الجنوبية، فقد بُنيت من حجر رملي نوبي من نوعية متواضعة - المادة الوحيدة المتوافرة مئاثراً من الأميال. (في أغلب المعابد الصغرى شُيدت واجهة الحائط الخارجي بطوب طيني كحماية جزئية من التآكل). بسبب حالتها المتدهورة لم يُحفر أي منها حفراً تاماً، وكانت المساحات بينها وحولها قد أخذت منها عينات في اختصار وحسب. هناك آثار لعدد من مباني عادية من الطوب الطيني في الضاحية المباشرة، على أن إمكان الفرد التحدث عما إذا كان هناك موقع مستقر لمدينة في جبل البركل، أم لم يوجد، مسألة تظل مثيرة للجدل. والمأمول أنها ستجرى "الإجابة منها بمجرة" في المستقبل غير البعيد.

عبر النهر على مسافة قصيرة صوب الشمال من جبل البركل، في صنم، يقع مركز بُنِيَ آخر شديد الأهمية. هنا يقف واحد من معابد تهارقا العديدة، مكرس لآمون، نور أرض النبال، وهو ما يعنى، آمون بتجسيد نقى في محليته<sup>(١٠٩)</sup>، نلزم أن أرض النبال كان إسماعاً مصرياً تقليدياً للنوبة. هذه البناية يبدو أنها ذات تاريخ غريب، كما تردد ذلك في كلمات المنقُب. ل. ا. جريفيث :

بينت حفرياتنا أن المعبد في صنم كان له حجم معتبر، إذ أن به ردهة في الواجهة محاطة بأعمدة منتظمة مثبتة للسقف أدخلت عبر بوابة هرمية؛ ومثلها بوابة أخرى مفتوحة على قاعدة مبنية على أعمدة وراها بناء مقفول وغرفة للعبادة محاطة بغرف متنوعة. كل هذا شبيه تهارقا، الذي وضع كذلك غرفة صغيرة للعبادة في النصف الشمالي من البناء المقفول. ثم أضاف أسبيلته، بعد قرن من الزمان، غرفة أخرى مثلها في النصف الجنوبي. سرعان ما احتل المعبد إحتلالاً واسعاً في جلام صناع الأشميتى (تماثيل النذور وحنيط الموتى) مصحوبةً بغيرها من التماثيل الصغيرة والتحف الجميلة في مصنوعات لامعة، وقد وُجِدَت قوالب صنَّعها وبعض الرسوم مبعثرة خلال الجزء الأكبر منه وحوله. إن المحتمل أن حيطاناً جامدة من الطوب الخشن بُنيت لهؤلاء الحرفيين كانها بناء عشوائي بين المعبد، يحتجز المباني الرئيسية؛ وسُكَّت المداخل الجانبية شمالاً وجنوباً في غناية بالحجر ...<sup>(١١٠)</sup>.

بالرغم من التعرية والنهب، كانت هناك علامات لا تخطئها العين لموقع كبير للغاية لمدينة في صنم. إن تقرير جريفيث يتواصل :

ينتصف المعبد على الحافة الجنوبية - الشرقية من أطلال المدينة. على طول الحافة الجنوبية - الغربية للمدينة أي نحو النهر حوالي نصف كيلو متر صوب جنوب المعبد، تبدأ جبانة كبيرة قعنا بإجلاء معقلها، ووجدنا ما يزيد على ١٥٠٠ - قبراً في جُفَرٍ طبيعية، وقبوراً مصفوفة بالطوب، وچنائز في الرمل. إن المحتويات تعود إلى الفترة الأثيوبية، ويحتمل أنها بدأت حوالي عهد بعضى واستمرت رشحاً طويلاً عقب حكم تهارقا؛ في الطرف الغربى وحده تعطلت قلة من القبور الكهفية في الحفر الطبيعية بئنة على إعادة إستخدامها في العهد المروى .

موقع ثالث أعلنناه يبعد حوالي كيلو متر صوب الشمال من الجبانة، نحو نفس المسافة من النهر. هنا يتكشف النقاب عن سلسلة غير عادية من الغرف القائمة على الأعمدة التي يبدو أنها كانت مستويات ملكية للأسرات الأثيوبية. الحيطان محروقة عزتها الريح، فانكشمت إلى ارتفاع أعلاه ثمانية عشر بوصة وفي قبالة الطرف الغربى بقايا معتبرة من أعمال الطوب واثار من أعمدة الحجر التي ربما تنتمى للقصر الملكى وتصل هذه "الخزانة" بالمدينة (١١١).

حفریاتنا، إلى المدن الذى نعتبت إليه، أظهرت أن الآثار الباقية تثبت مدى طويلاً ضيقاً من المباني، ٢٥٦ متراً في الطول وحوالى ٤٥ متراً في العرض تجرى من الشرق إلى الغرب، فيما يبدو أنها معزولة كلياً في الصحراء عدا طرفها الغربى إلى هذا الحد ربما أن درياً واحداً لا غير تولى فصلها عن بناء طوبى هام به بعض الأعمدة الحجرية، ربما أنه قصر ملكى.. بدا أن الخزانة تحتوى على سلسلة مزدوجة من سبع عشرة غرفة متساوية على كل جانب من جانبيه سور رئيس. لقد أمطنا اللثام تماماً عن السلسلة الجنوبية، كذلك عن غرفتين أو ثلاث غرف على الطرف الشرقى من النصف الشمالى... (١١٢).

ماذا كانت طبيعة المبنى وما هو الغرض منه؟ بدانا بتسمية المكان "بالقصر" بسبب النسبة الكبيرة من الأشياء ذات الشعارات الملكية التى وجدت به. لكنه مع تطور الخطة أدركنا أنه لم يكن قصراً في ذاته رغم أنه ربما كان موصولاً بالقصر، فاعدنا تسميته "بالخزانة". في إحدى الغرف الجنوبية وجدنا شقا صغيراً من الكنز الذى ساقه بعضى من هرموبولس، وأن جزءاً من الأرضية رقم ١٥ غطيت بعاج خام مصاب بالحرق. لكن هناك صعوبات ذات اعتبار في طريق هذا التفسير أو أى تحليل غيره للأطلال. ربما كان الواحد يتوقع مستويماً أو خزانة ملكية وقد قفلها حائط خارجي كثيف به غرف للحراسة ... إلخ، وقد حُفَّت منه بعض آثار مقدرة (١١٣).

يوحى الخيال لكتاب عديدين أن صنمٌ ربما كانت موقع المدينة الرئيس لبئنة، والمقر الملكى إضافة لذلك (١١٤). ورغم أن، كما يشرح جريفيث، ما من قصر تم التعرف عليه بالفعل، فإن الأسباب التى حدثت به للإعتقاد بأن واحداً لم يكن نائياً تبدو راجحة. فتكرس معبد صنمٌ لأمون، يعد تبياناً نوبياً أكثر منه تجسيداً لإدارته الشاملة، ربما يقترح كذلك بأن هذا في إحدى محسوساته دار عبادة للأسرة المالكة، لا تخضع لسيطرة الكهنة الراسخة في جبل البركل. إن الفصل الطبيعى ما بين النقطتين المقدسة وغير الدينية، على جانبيين متقابلين للنهر، يُذكرنا بالفاتيكان وسلطة الكيرينال، أي الدولة؛ لربما كان ضرورياً أن يُمنع توليد الشرر الناتج عن الاحتكاك للصيق بين السلطتين. هنالك بالطبع إحياء، يمثل هذا الصراع في الواح أسبلطه، مسح الكهنة إحتقاراً إسم الملك عن واحد منها (١١٥).

بعد هجران النوبة السئلى وفقدان مصر، كانت المدينة الشمالية الكبرى لكوش هي كابة، بالقرب من نهاية إتجاه النهر شمالاً في أرض بنقلا النهرية (الشكل رقم ٢٧). كما رأينا في الفصل التاسع، يرجع تاريخ هذه المستوطنة إلى الأسرة الثامنة والعشرين، ويُنسب أقدم معبد بقى منها لتوت عنخ آمون. لقد أسنعت وتوسعت من قِبل فراعنة مصريين متلخرة كما جرى ذلك بالمثل في باكورة الفترة النوبية، ويبدو أن شباكو بنى هيكلأ ثانياً على طول جانبيها. المعبد الرئيس في كابة، مع هذا، صرح آخر من صروح تهارقا. يكاد يتماثل في الحجم والرسم مع معبد صنمٌ، لكنه أفضل بكثير حفظاً (الشكل رقم ٤١) (١١٦). وكما في صنمٌ، يبدو أنه كان هنالك نشاطاً عظيمًا للتبادل السلعى في الربة الأمامية، تدلل عليه الحيطان الرقيقة التى تم إنشاؤها بين الأعمدة العظيمة. تحيط مدينة كبيرة الحجم إحاطة مباشرة بالمعبد، وكل من المعبد والمدينة يقعان في نطاق سور تمنوس سميك يحتمل أنه إلى جانب ذلك مما عمل تهارقا (١١٧). وكما بكل المواقع النوبية في النوبة العليا يبقى موقع المدينة غير

محفور بعد.

هيا تنقيب كاوة اكتشاف كنز من النقوش الملكية النوبية لا تلى في اهميتها سوي جبل البركل وحده<sup>(١١٨)</sup>. الواضح انها كانت مركزاً محلياً ذا أهمية معتبرة حتى أن ملوكاً عديدين وجدوا من المرغوب فيه أن يقوموا بزيارتها زيارات رسمية وأن يقدموا الهبات للمعبد. لقد احتفظت كاوة بأهميتها قبلت بها الفترة المروية نفسها، ولعلها بلغت نهاية المملكة الكوشية.

مستوطنة نوبية هامة أخرى لا بد أنها كانت بالجزيرة العريضة أرقو، على مسافة قصيرة بإتجاه النهر شمالاً من كاوة (الشكل رقم ٣٧). يُعرف هذا المكان عادة بأنه بنويس التي ذُكرت في عدة نقوش ملكية، مع أن هذا التعريف غير مُستيقن بشكل مطلق<sup>(١١٩)</sup>. إن المعبد الخرب الذى رأى النور منذ وقت وجيز هنا بالتحديد مُشابه جداً للمعابد في صَنَم وكاوة حجماً ورسمياً بما يوحي أنه صرح آخر من صروح تهارقا. أياً كان الأمر، فإن كل المادة المؤرخة التي استُعيدت حتى هذه اللحظة تنتمي إلى الفترة المروية؛ نتيجة، ربما، لإستعادة جرت مؤخراً<sup>(١٢٠)</sup>.

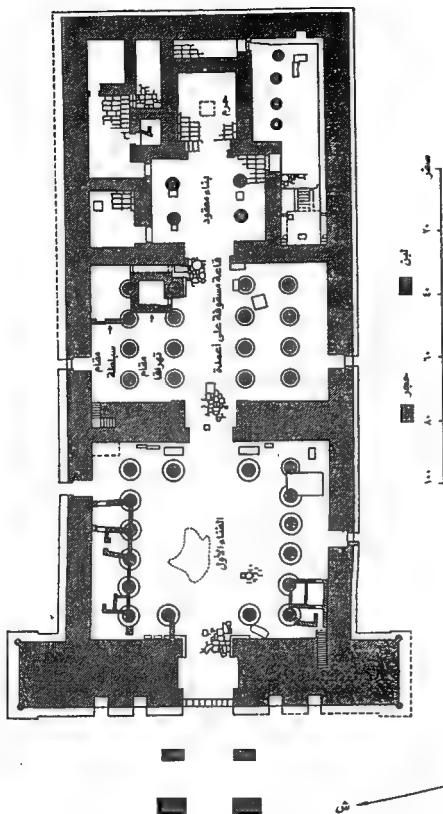
صديقنا، في أرض عبرى - دنقلا النهرية، لا بد أنها كانت ضاحية هامة أثناء العهود النوبية إن كان قد تم اختيارها حقيقة من ناحية تهارقا لراحته الأبدية، كما هو مقترح الآن (انظر 'الجبانات الملكية، أدناه). لقد ذكرنا أنفاً (الفصل التاسع) معبد الأسرة الثامنة والعشرين الذى شُيده هنا أمنتحتب الثالث، وهناك بقايا مروية عديدة في الضاحية بالمثل. إلا أن الإقتراح الوحيد القاضى بالاحتلال النُبتى الذى تم التعرف عليه حتى الآن لصديقنا يكمن في المدفن التلى الذى يُنسب لتهارقا نفسه<sup>(١٢١)</sup>.

المدينة الجنوبية الكبرى ذات الشأن العظيم في كوش كانت بلا شك مدينة مروى. ربما أنها في أزمان نُبتية متأخرة سببت أنفاً حُسوف المستوطنات الشمالية حجماً وأهمية. بيد أنها أيضاً تظل في الوقت الراهن غير مُقنعة لدرجة كبيرة. هذا الوضع يجب علاجه سريعاً بالتحقيقات التى تتقدم في الفترة الحاضرة؛ حتى اللحظة، كشفت بصورة أساسية أن العمق الخاص بترسب الإقامة في مروى يتعدى ثلاثين قمماً، وأن قاعدة المدينة ربما ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد<sup>(١٢٢)</sup>. بعد مَضَى قرن على إنشائها كانت مروى قد اكتسبت من قبل أهمية كافية للحكام أمتلكه و مالي نكن كى يُشيداً قصراً صغيراً (أو معبداً؟) بها<sup>(١٢٣)</sup>، ومنذ عهد أمان - نتي - يركى كان في مروى واحداً على الأقل من المنتجعات الملكية<sup>(١٢٤)</sup>. في الوقت الحالى يمكننا بصعوبة أن نقول أكثر مما ذكرناه، وسنُرجأ أى مناقشة تالية عن المدينة الجنوبية وتأريخها حتى فصل قادم .

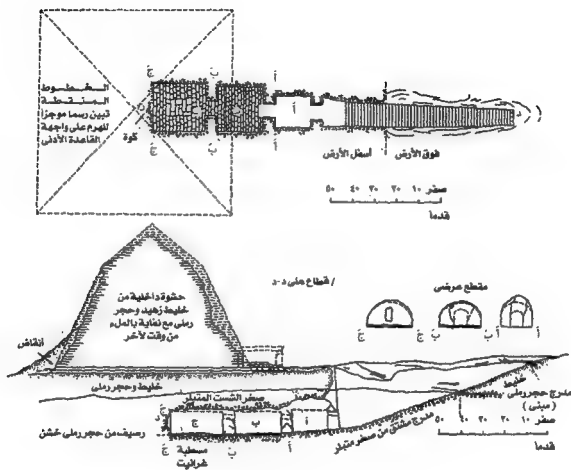
أما المدى الذى امتدت إليه السيادة النُبتية جنوباً ما وراء مروى فسوف يبقى كذلك مشروعاً للجدل حتى يُقام إستطلاع منظم للإجراء في وسط السودان. لقد عثر على عدد من موضوعات التأريخ النُبتى في مواقع تمتد جنوباً حتى الخرطوم الحديثة<sup>(١٢٥)</sup>، لكن المستوطنات الفعلية لم تكتشف بعد. ومهما كانت عليه حدود الهيمنة السياسية الكوشية، مع هذا، فمن الممكن جداً، أن نفوذ نُبْتة النقافى امتد بعيداً بما لا يستهان به ربما صوب الجنوب حتى النيل الأرقى وغرباً إلي داخل كردفان<sup>(١٢٦)</sup>.

## الجبانة الملكية

أغلب صروح الحضارة الكوشية تعدد، وإلى مدى أبعد، أكثرها تميزاً، هي مدافنها الملكية. في هذا الشأن كما في مجالات أخرى عديدة ، يبدو تطور الأسرة النوبية الحاكمة موازياً للتطور الذى وقع في مصر منذ ٢.٠٠٠ عاماً سابقاً. إن الدولة القديمة، قبل نهوض كهنتو راسخ، هي التى كان بها الملك وال بيتة هم الدولة، لكل الأغراض العملية؛ وكان المدفن التلى الملكى هو صرح الدولة الرئيس. ربما إضافة إلى هذا تُكون بعض الأهمية والمعانى القيمة للحقيقة القائلة بأن شكل الصرح الجنائزى



شكل رقم ٤١  
خريطة معبد تهرقا ، كوة



شكل رقم ٤٢  
تصميم وقطاع عرضي لمدفن ملكي نبتي نموذجي



الذى اختاره بعضى وكل خلفائه حتى نهاية الأسرة كان هو الأهرام - التعبير الأسمى لديانة الملك المتاله في مصر، ولكنه كان قد انطمركتقليدزمناً طويلاً عندما ارتقى بعضى العرش .

الجَبانات الملكية المعروفة خمس : الكُرو، نُورى، جبل البركل في المنطقة النَّبْتية، وجَبانتان تقعان شرق مدينة مروي. الأولتان من هذه الجَبانات فتنتميان بوضوح للفترة النَّبْتية، وتنتمى الأخيرتان للفترة المروية . أما وضع القبور في جبل البركل فيعانى من شك له قدره، كما سنناقش ذلك في الفصل القادم.

حُفرت الجَبانات الملكية الخمسة بما يقارب كليتها بعثة هارفارد - بوسطن (١٧٧). وقد احتوت . بأجمعتها حوالى ٤٠٠ قبراً منفرداً، بما في ذلك قبور إثنين وسبعين حاكماً على الأقل وعدداً يفوق ذلك بنسبة أعلى من الزوجات والمعية الملكية. أما الجَبانات الرئيسة الأربعة (أى، باستبعاد جبل البركل) فقد اعتقد رايزنر أنها تمثل تعاقباً غير منقطع من التطور، بدأ بالكُرو، ثم نُورى ثم الجَبانة الجنوبية في مروي، وأخيراً جَبانة مروي الشمالية. ومن ناحية إسمية، يُفترض أن القبر الملكى الأسبق في كل جَبانة هو الوريث المباشر لآخر قبر في الجَبانة السابقة .

فوق سطح الأرض، كان الهرم هو الملمح الأساسى لكل قبر ملكى نوبى منذ عهد بعضى وما تلاه من عهود. إن الهرم الملكى الكوشى أصغر شأنًا بكثيرٍ من أهرام مصر في الدولة القديمة، وأكبر مثال معروف (هرم تهارقا في نُورى) الذى يبلغ مقاسه حوالى ٩٥ قدماً فحسب على طول القاعدة، إذا ما قُورن بـ ٧٥٠ قدماً لهرم خوفو في الجيزة . كذلك فإن الهرم النوبى أطول بدرجة معتبرة بالنسبة لقاعدته مقارنةً مع نظيره المصرى، مما يعطيه مظهراً بارزاً بشكل واضح (الصورة ١٣ - ب). متوسط زاوية الإنحدار بين ٦٠ درجة و ٧٠ درجة (١٧٨)، على نقيض المنصرد البالغ ٥٠ درجة في أغلب أهرامات الدولة القديمة. هذه الخصائص توجد أيضاً في جَبانات نبلاء مصريين معينين في الدولة الجديدة؛ والمفترض، بتقدير أرجح من الصروح الجنائزية العظيمة في الدولة القديمة، أنها هى التى قامت بدور النماذج المباشرة للقبور الملكية الكوشية. شُيدت الأهرامات النوبية الأولى من بناء حَجَرى صلب - قوالب صغيرة بالآخرى - لكن مبانى العهود المروية المتأخرة لم تكن إلا رُكاماً من حشوة بناء خشن ممسوحة بوجه من الحجارة المشكلة (١٧٩).

لم تكن هناك غرفة داخلية بين الأهرامات، على أنه يكاد يكون لكل هرم غرفة إنتظار للجناز بُنيت على وجهة الشرقى. كانت هذه حُجيرة مستطيلة الرسم، أحياناً لها مدخل لبوابة هرمية محلاة بالنحوت. في مروي كانت أكبر غرف الجناز وأغلبها إكتمالاً مُزخرفة بنحوت لوجوم من الأجناب ونقوش تُعد بين البقايا الفنية والكتابية للفترة المروية (١٨١). ليست هناك بقايا يمكن أن تُقارن بها بغرف أهرامات الكُرو ونُورى، إن مساحةً مستطيلةً تحيط مباشرةً بالهرم وغرفة إنتظار جنازٍ كانت في العادة مسدودةً بسور مبنى، يلج إليه مثل غرفة إنتظار الجناز وغرفة دفن الموتى أسفله، من الشرق الإرتفاع الأصلى لهذه الأسوار التى تُسد المكان غير معلوم، حيث أنها جميعاً وُجدت في حالة شديدة الخراب.

تحت الهرم ، إشتمل القبر الملكى عموماً على سلسلة متصلةٍ من غرفتين أو ثلاث حجيرات صغيرة، تحوى الميت أوغل واحدة منها إلى الداخل (قارن الشكل رقم ٤٢). كانت هذه مُشْتَقّة من الصخر الصلب، رغم أنه في قلةٍ من مدافن الكُرو كان من الضروري تثبيتها ببناء بسبب ضعف الشرائح من فوقها. أما غرفة الجناز الرئيسة فكانت، على الأقل واقعةً في تعمير مباشرةً تحت الهرم، في حين أن الغرف الجَنائبية والدمليز المؤدى إليها تمتد شرقاً منها . في بعض الأهرامات المتأخرة التى بُنيت بناءً غير متقن تميل الإسقامة المعمارية للبناء عن المركز بما يدعو للملاحظة ، وفى حالة واحدة أو حالتين أخطأ البنائون تخطيطهم المرسوم بأجمعه. إن الوصول إلى الغرف المستطيلة، عدا بعض المقابر العتيقة من ناحية أو المتأخرة من ناحية أخرى، كان عن طريق سلسلةٍ من السلالم

تتحد من الشرق. ويعد صنع القبر الملكي، يُسد الطريق الذي يؤدي إلى المدخل بين السلام وبين أبعد غرفة نحو الشرق ببناء أو بحشوة خشنة من البناء، ويعد ملء الدهليز المؤدى إليه بالتراب. مع هذا، ما وُجدت هذه الترتيبات في أي حالة كانت من غير سوء؛ كل قبر ملكي كوشى أُقْسِمَ وبُهِبَ منذ القدم. نتيجةً لذلك، يُترك لعالم الآثار إعادة بناء التفاصيل المتعلقة بممارسة الدفن من البقايا النُزيرة التي تجاهلها الناهيون أو داسو عليها غبثاً وتخريباً.

كان الجسد الملكي يُسجى بين الغرفة السفلية الأقرب موقعاً إلى الداخل. وكانت ممارسة دفن الميت على السرير عامة في الكرو، لكنها لم تتواصل عقب الإنتقال إلى ثوري. تُدُن كل الملوك الكوشيين المتأخرة في أكفان خشبية، أو في حجر جيري من وقت لآخر، وفقاً للأسلوب المصري. وكان التحنيط عاماً. ينتصب الكفن عادةً على أرضية مرفوعة أو مصطبة من الحجر تُترك قائمة عندما يتم شق الغرفة من الصخر. وبسبب الإقلاق المعمن فيه الذي حاق بغرف الجبانز يكاد مستحيلاً أن يقال شيئاً ذا معنى حول التوزيع الأصلي لمناخ الموتى، عدا أنه كان مُتعددًا وغنيًا. إن الأشياء ذات الصنع المصري تُكون أغلبية المقامع في جَبانات الفترة النُبية.

خلال معظم الفترات، كانت قبور الملكات من نفس الطراز العام لمدافن الملوك، لكنها أصغر إلى حدٍ مذكور وأقل إستغراقاً في الزينة. إنها ليست مصفوفة في العادة على طول جانب القبور الرجالية؛ في الكرو<sup>(١٣٢)</sup> ونوري شغلت الملكات أقساماً منفصلة من الجَبانات، وفي مروي إحتلن جَبانة منفصلة بأجمعها. تبدو بعض قبور الملكات (أو العشيقات؟) فاقدةً للهيكل الفوقية.

لا غرو، أنه في مجرى ألف عام من الزمان كانت هناك تغييرات متعددة في تفصيل النوع والبناء المتعلقين بالجَبانات الملكية النوبية. على أساس هذه التغييرات صنع رايزنر وحدةً معقدة للغاية من الأنواع والتعاقب التطوري هي العمود الفقري لمسلسله الزمني للملكة الكوشية<sup>(١٣٣)</sup>. ولأن معظم الحكام الأخيرين لم يتركوا مدونات تاريخية، فقد الحقوا مكاناً في الوراثة على أساس الخصائص المرتبطة بنوعية مواقع قبورهم. المشروع الكامل معقد للغاية إذا أردنا إعادة عرضه هنا؛ فهو قائم على الاختلاف الملاحظ فيما لا يقل عن عشرة خصائص للقبر الملكي (الهيكل الفوقي، الطوق، غرفة إنتظار الجنازة، الوصول إلى مكان الدفن، مداخل المنافذ، سد الأبواب، عدد غرف الدفن وبنائاتها، تعلية غرف الدفن، الفتحات المؤدية إلى الغرف الجبائزية، وطريقة الدفن)، بالإضافة إلى القرابين الموجودة في القبر<sup>(١٣٤)</sup>.

التقويم التاريخي للأهرام، مثل كثير من أعمال رايزنر النظرية، أقوى إنطباعاً في جانب الإستقراء منه في الإستدلال. إن التصنيفات النوعية تبدو بذلك رصينة أكثر ما تكون الرُصانة عليه، لكن المنطق الذي تم ترتيبها بمقتضاها في تعاقب من التسلسل الزمني ليس على وضوح دائم. فالمشروع بأكمله مغلق، بالطبع، على فرضية *باليد/ة*. إن كل القبور الملكية الكوشية المعروفة (عدا الجَبانة في جبل البركل) تمثل متتاليةً واحدة وحسب من التطور، دونما أي انقطاع أو تدخل. الجَبانات الأربعة الرئيسية تمثل كل واحدة منها بهذه الطريقة قطعاً من التسلسل الزمني لنفس الأسرة، يبدأ كل واحد منها حينما انتهى الآخر. هذه النظرية بينما تدعمها بدرجة محسوسة البينة النوعية، فإنها ليست بأي حال مثبتة من الناحية العلمية التجريبية. تظل واحدة من فرضيات عالم التاريخ الإستدلالية<sup>(١٣٥)</sup>. أما صورة التسلسل الزمني فواضحة منطقياً بشكل أو بآخر بالنسبة للجَبانات النُبية التي سنعنى بها هنا.

حيث أن القبر الملكي الكوشى يشتمل بالضرورة على سلسلة من الغرف السفلية الكائنة تحت الأرض والتي يوارىها هيكل فوقى ثقيل، فإن المتطلبات الرئيسية للجَبانة الملكية كانت تتمثل في مساحة منبسطة بمستوى معقول ذات شريحة من صخر صالح ذى متانة، يقع مباشرة تحت السطح. هذه الشروط مستوفاة بأماكن وفيرة في المنطقة النُبية، في كل من المنطقتين الواقعتين إلى الشمال

والجنوب من السهل الفيضي النيلى. والمواقع التى تم اختبارها بالفعل، في الكُرو، ونُورى، وجبل البركل، كانت قد حُددت قطعاً بإعتبارات التركيب الجيولوجى من جهة، لكن عوامل أخرى لابد أنها لعبت دوراً مماثلاً. فالكُرو، أقدم الجُبانَات تقع على مسافة معقولة في إتجاه شمال النهر من جبل البركل؛ ولأنه لا توجد بقايا معروفة أخرى في الضاحية، فإننا نظل على جهل بالسبب الذى أختير به هذا الموقع الخاص للراحة الأبدية لملوك كوش الأوائل.

جُبانَات الكُرو ونُورى تبدو ملكية مطلقة: أى، أنها لا تشتمل إلا على قبور الملوك وشركائهم. إن الكُرو هى مكان الراحة الأبدية النهائية لخمسة أو ستة ملوك نوبيين حكموا مصر، وست عشرة ملكة من مليكتهم، وخمسة أجيال من أسلافهم الذى لم يُدعوا بأسمائهم. وفيما يلى يصف أركيل تطور الجُبانَة في الكُرو :

فى الكُرو، الجُبانَة الرئيسة التى توجد بها قبور الملوك الأربعة الأوائل، هضبة جيرية رملية بين واديين وراما على كل من الجانبين قبور لملكات هؤلاء الملوك. أفضل موقع كان يشغله قبر ... صغير من نوع المدافن التلية، والأماكن الخمس عشرة التالية فى نقطة مرغوب فيها كانت مملوكة بمتتالية من المدافن ذات حجم متزايد وبنام ممتاز. ثم تأتى بعد ذلك أربعة مدافن ملكية فى أربعة مواقع هى الأيمن سوءاً فى الجُبانَة، وهى بوضوح الجُبانَة الأخيرة فى جُبانَة كانت على استعمال دائم منذ حوالى ٨٦٠ قبل الميلاد ... هناك تطور تدريجى فى شكل القبر - أولاً : القبر البسيط فى حفرة تحت مدفن تلي به جُنة مدفونة على جانبيه الأيمن حتى الركبتين حُنية خفيفة، بإتجاه الراس شمالاً، والوجه غرباً، ثم مدفن تلي مُحْسن بقالب من بناء بالحجر الرملى، وحجرة صغيرة مبنية من الطوب الطينى، وسورٌ محيط به على شكل حصة الحصان؛ ثم مصطبة مبنية فى شكل مربع دون تدقيق من فوق قبر فى حفرة له غرفة من بناء، ويحيط بالكل سور مستطيل؛ ثم نوع جاء مؤخراً من المسطبات تُوجد بأسفله حفر الدفن شرقاً - غرباً، وهو توجه كل القبور الملكية الأخيرة. يتلو ذلك من حيث الزمن قبور لست ملكات لبعنشى، وفيها سَقَّفت حفر الدفن بكم - مقوس من البناء. أما قبر الملك بعنشى نفسه فهو يقع أمام صف من المصطبات، فى مكان تحت أسفل المنحدر نحو النهر؛ وفيه، من أجل أن يتأتى بناء السرداب قبل الجُبانَة، أُشْتُق مدرج سلالم صغير يداخل الصخر ويُفتح على طرف الحفرة الشرقي عبر مدخل مصنوع من قطع الصخر . كان هذا هو الأول على رأس سلسلة طويلة من مدافن السلالم الملكية. ومن المستحيل أن يقال - إذ أن المادة قد نُهبَت منذ القدم - ما إذا كان الهيكل الفوقى كان مسطبة أو هرمًا، بيد أنه من المفترض عموماً أنه كان هرمًا، كما فى القبور التى أُقيمت بعده (١٢٧).

من بعد بعنشى، أصبحت كل الهياكل الفوقية فى الكُرو صغيرة نسبياً (٣٠ قدمًا مربعًا بالتقريب)، أهرامات ذات وجه متساوى السطح، دونما زينة عدا غرفة مبنية مسطحة فى الطرف الشرقى. الجزء الواقع تحت الأرض يتكون من غرفتين فى قبور الملوك وحُجيرة واحدة فى قبور الملكات . بعض غرف الدفن مُزخرفة بأكملها بمناظر ونصوص حرفية عن الأموات على غرار القبور المشتملة من الصخور فى مصر (١٢٨).

إن وجهاً نادرًا فى جُبانَة الكُرو يختص بمجموعة من أربعة وعشرين حصاناً مدفوناً، فى مساحة على مسافة قصيرة من القبور الرئيسة. "كانت القبور فى أربعة صفوف، صفين فى كل منهما أربعة خيول، وصفين فى كل منهما ثمانية. وكانت القبور متجاورة جنباً إلى جنب متساوية المسافة عن بعضها البعض، ودفن كل حصان واقفاً مع وضع رأسه إلى الجنوب. أما الصفا الأول والثالث فينسبان من تماثلهما ... إلى شباكوش وشبكتو، لذا فإن الصف الأول يكاد أن يُعزى فى جُزء إلى بعنشى والصف الأخير إلى توتامون. لقد نُهبَت كل القبور، لكن بقايا الشراك ، بما فى ذلك حاملات الرياش، ورياطات الراس الفضية، وحببات العقود والتمائم عُثِرَ عليها، مشيرةً إلى أن الخيول كانت حتماً فرقاً من العربات الملكية (١٢٩). هذا الإكتراث الفائق بالخيال، الذى تاكد أنفاً فى لوحة بعنشى، موضوع يتكرر من فترة لأخرى فى التاريخ النوبى حتى نهاية العصور الوسطى .

تشغل جُبانَة نُورى ضيعةً لا تختلف إختلافاً كبيراً عن جُبانَة الكُرو : هضبة رملية صحراوية

تنبسط ممتدة من وراء أطراف السهل الفيضي. إنها، مع ذلك، واحدة من صُروح كوش القديمة التي تقع في قِلة متناهية على الضفة "الغربية" للنيل.<sup>(١٤٠)</sup> إن الإقتراح القاضي بأن تهارقا شَيدَ هرمه هنا لأن الكرو كانت "ممتلئة" قد تحمل شيئاً من الحقيقة،<sup>(١٤١)</sup> ولكنه يفشل بوضوح في وضع الاعتبار لعملية إختيار الأمكنة المحلية، فإماكن أخرى كثيرة ربما أنها كانت تؤدي الغرض علي قدم المساواة. وفي الحقيقة، كان تهارقا فيما يقرب من اليقين يُقَدِّد ممارسات مصر الإمبريالية؛ فالجبانات الملكية العظيمة في كل من مصر العليا والسفلى على هامش للصحراء الغربية في مقابلة المعابد العظيمة في الكرنك وممفيس. وفي مواجهة جبل البركل تقف نُورى تماماً على نفس النهج .

تبلغ جَبانة نُورى حوالى ضعف حجم جَبانة الكُرو وتحتوى - وفقاً لتفسير رايزنر - على قبور لتسعة عشر ملكاً وثلاثة وخمسين ملكاً<sup>(١٤٢)</sup>. أهرام تهارقا الأكبر، أكبر صرح ملكى في كوش (٩٥ قدماً في الجانب)، ينتصب بالقرب من مركز الجَبانة القديمة، في حين رُكبت أهرامات الملوك المتأخرة في صفين إلى الجنوب الشرقي منها (الشكل رقم ٤٣). بالقرب من الجانب المقابل لبقير تهارقا (أو صرح وفاته) تحتشد أهرامات الملكات متضائلة في الصُغر للغاية (الشكل رقم ٤٣). الشكل المميز للأهرامات في نُورى أنها "ذات سلالم"؛ أى، أن الجَبانات تقوم في متتالية من السلالم الضيقة، القصيرة، بدلاً من أن يكون لها وجه متواصل الانحدار كما في الكُرو. لذلك فإن جَبانات مروي تمثل المظهر الكائن اليوم لأهرامات الجيزة (صورة ١١ - ب). معظم قبور الملوك لها ثلاث غرف سفلية .

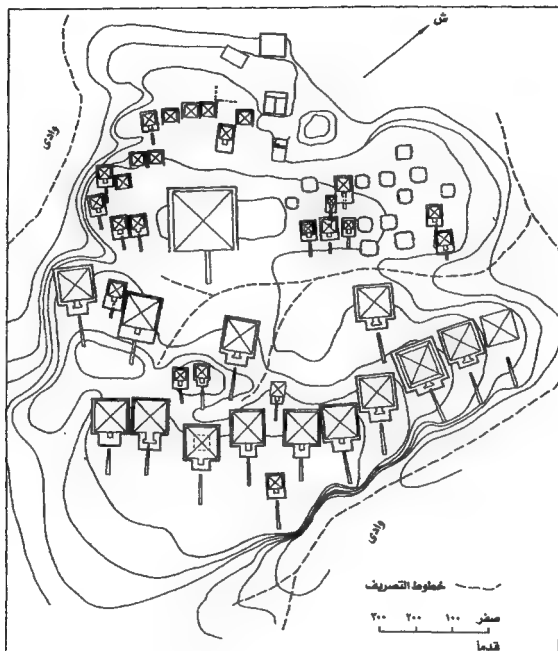
يشكل الهرم الذي تعرض لتدمير شديد في صدينقا والمنسوب إلى تهارقا مخالفةً للعادة وسراً غامضاً على السواء. لقد اكتُشف في ١٩٦٣، وهو موصوف كما يلي من المنقّبين :

تكون هذا القبر من هرم (٩.٨٠ متراً [٣٢ قدماً] مربعاً في القاعدة ) مبني من حجارة سوداء، محشو بالمصبي ومطلي بالأحمر. إن الهرم، الذي تقف بقاياه على ارتفاع ١.٧٠ متراً [٥ أقدام]، كان مُحاطاً في ثلاثة جوانب بحائط كسوار المعصم من حجارة سوداء. على الجانب الشرقي من السور فناء، يمتد المنخل إليه عن طريق بوابة من الحجر الرملى. لقد وجدنا آثاراً عديدة لهذه البوابة، في السلم المؤدى إلى غرفة الدفن بالأسفل وكذلك بالفناء. بعض الكتل البنيانية مُزخرفة وتبين شخصاً ملكياً يلبس تاجاً أحمر اللون، وحزاماً رأسياً من النصوص الحرفية وفي الأجزاء السفلى شكلان لتهارقا.

أما القبر ، الذى اشْتُقَّ بعناية فائقة من داخل الصخر، فاشتمل على غرفة إنتظار (٢.٣٠ × ٢.٣٥ متراً [٧ أقدام و٦ بوصات × ٧ أقدام و٨ بوصات]) لها سقف ذو كمر - مقوس، وإلى غربه، غرفة دفن مقوسة (٢.٢٥ × ٣.٢٥ متراً [٧ أقدام و٦ بوصات × ١٠ أقدام و٨ بوصات]) . غرفة الإنتظار مطليّة بخام حديدي أحمر. في مركز غرفة الدفن هناك متكا للدفن شقٌّ في الأرضية وسوئٌ ببلاط أسود. أرضية القبر مُغطاة بطبقة من التراب نُثرت عليها صخور مكسرة، ووجدنا في وسطها شقوقاً عديدة من عرق الذهب والعظام المبعثرة.

كانت كل شقوق العظام المُجمعة في الغرفتين مُصنَّفة ومُعرفة، كل عظم على حدة. وقد بُنيت الدراسة أنها تشكل العناصر الكاملة لهيكل بشري واحد<sup>(١٤٣)</sup>.

على أساس هذا الإكتشاف اقترح المنقّبون أن صدينقا هى مكان الدفن الحقيقى لتهارقا، أما الهرم العظيم في نُورى (الذى لم يُعثر تحته على أى جنازة ) فلا يعدو كونه ميدناً تذكاريّاً أو صرحاً محيّياً للذكراه. الصرح المعروف للفرعون ستنى الأول في أيببوس، الذى يحمل تماثلات هيكلية معينة لأهرام تهارقا، يُشار إليه بتأييدٍ لمثل هذا التفسير<sup>(١٤٤)</sup>. وبالنظر إلى الحقيقة التى مؤداه أن هنالك غرفة تحت الهرم القائم في نُورى ، مع هذا، يبدو من المنطقي بدرجة عالية أن يُوقن بأن تهارقا كان مكتمل النية تجاه بناء هذا الهرم كمكان لراحته الأبدية، لكنه ربما بسبب مصادفةٍ ما في غير محلها أو بسبب سقوطه من السلطة كان ملزماً بأن يقنع بغير متواضع نسبياً في محافظة ثانية<sup>(١٤٥)</sup>. مؤكداً أن القبر الكائن في صدينقا لا يليق بشخصية أعظم بُناة النوبة، ويتناقض تناقضاً صارخاً مع هرمه في



شكل رقم ۴۲  
تصميم لخبانة ملكية تبتية، مروي

نُورى وكل صروحها المعروفة الأخرى. أضف إلى ذلك أنه واحد من مجموعة صغيرة للغاية من القبور، يعود معظمها إلى التاريخ المروى. فنقل عن المُتَقَبِّين ثمانية :

ربما تشكل مجموعة الأهرامات التي تقع بجوار قبر تهارقا مالا يزيد عن ثمانية قبور، وضعت شرقاً - غرباً. يعد اثنتين منها هرمٌ واحد بطوَّعة سور .... القبور الستة الأخرى لها أهرامات مزدوجة، بالطوب الطين، بُني كل هرم منها خلال فترتين مختلفتين: الهرم الأول وُضع فوق مكان الدفن. والثاني، وهو الأصغر، وُضع إلى شرق الهرم الأول مغطياً المدخل إلى السلال.

أما القبور الستة فيبدو أنها تعود إلى عهد مروية (١٤٦).

## دهماء الرعية

لا تُدبُّنا السجلات التاريخية ولا البقايا الأثرية التي جرت مناقشتها حتى الآن، شيئاً كافياً بشأن الكيفية التي عاش عليها الشعب النوبي تحت ظل الملكية الكوشية . في غياب مواقع مُتَقَبِّة للندن ليس بمقدورنا أن نصف مسكناً نوبياً واحداً بأي تفصيل. أما إن المساكن كانت أساساً من الطوب فهو مُستَقَرٌّ من القليل الظاهر في السطح، ويبدو مؤيداً من الحفريات الإختبارية التي أُجريت مؤخراً في مروى، لكننا فيما يتعلق بكل ذلك نعلم أن بعضاً من النوبيين الجنوبيين ربما عاشوا في منازل من القش (١٤٧).

تقدم جَبَانَتان، واحدة في مروى والثانية في صَنَم، نافذةً على أنواع تطل على ثقافة النوبي العادي في الفترة النَّبْتِيَّة . فالجَبَانَةُ الجنوبية في مروى، بالرغم من أنها أصبحت مكان الدفن للملوك المرويين الأوائل، ظلت قيد الإستعمال جَبَانَةً عادية منذ تاريخ أسبق من ذلك بمدة طويلة (١٤٨). من بين ٢٠٤ من مدافنها المعروفة، لهذا ، جميعها ما عدا قلة منها "غير ملكية"، معظمها سابق الوقوع للفترة المروية كما نحدد معالمها هنا (أي الزمن الذي أُنشئت فيه الجَبَانَات الملكية في الجنوب). إن أقدم جنانز في الجَبَانَةُ الجنوبية تنتمي لزمان بعضى وشيككو، وتُظهر نفس التفصيل لدفن الميت على السرير الذي يعد خاصيةً مُميّزة للقبور في الكرو. أما الإستنتاجات الرئيسة التي خلص إليها رايزنر من حفر القبور غير الملكية فيلخصها شيني :

أولى القبور في جَبَانَات الجنوب والغرب، تلك التي كانت مستخدمةً قبل زمن أسبلطه، لها اهتمام خاص حيث أنه هنا .... يمكن لتقليدين أن يُشاهدا مُتَعاصرين. عثر على نمطين مختلفين للغاية من الدفن. الأول : أو النمط الأهلِي، تكون من قبر مستطيل يرقد عليه الجسد غير المَحْنَط، على شيقه الأيسر عادةً، في سرير خشبي كما في الجنانز الأولى في الكرو. إن دفن هذه الجنانز إحتوى متاعاً غنياً في القبر من نوع معروف بالكرو ومقابر سالفة في نُورِي. محتويات نمط الدفن الآخر أفرق درجة لدى بعيد؛ فهي أضيق، تحتوى أجساداً مُحْنَطَةً موضوعةً على إكفان خشبية تُغطى غالباً بشبكة من خرز نوعه معروف جيداً من جنانز مدفونة في ذلك الوقت في مصر. وجود جنانز نُفُدت في وقت معاصر لهذين النوعين العتمايزين جدير بالملاحظة وقد اقترح أنه كان هناك مجتمعان منفصلان يعيشان معاً في مروى في ذلك العهد؛ إن دفن الأموات على الأسرة يعود للاستقرار. المحلية في حين أن دفن الموتى بالكفان على النمط المصري يرجع إلى مستعمرة مصرية من الصنّاع والكتبة (١٤٩).

الواجب أن يضاف على سبيل الحذر أن التاريخ النسبي لدفن الجنانز غير الملكية في مروى ينوء بعدم اليقين أكثر مما يعانيه التاريخ النسبي لدفنها في الأهرامات. فكلها، نُهبت، ويحتوى القليل منها على أشياء مكتوبة أو خلاف ذلك من أشياء متقاربة التواريخ، أما أنماط النمو التي عرضتها المدافن ككل فكانت بعيدةً عن العيان. نتيجةً لذلك، فإن تأويلات رايزنر لتسلسل التاريخ الزمني كانت تعتبر أكثر حدسيةً بقسط وافر. لم يتفق كل العلماء على ترتيبه لتعاقب القبور أو بنظرته الخاصة بتعاصر نوعين من طقوس الدفن الجنانزي، مفضلين على ذلك الإيقان بأن الفرق بين "الوطني" و

المصريّ فرق تسلسلي زمني بصفة أولية.

لقد وصف راينزر الجبّانة الجنوبية في مروي بأنها "جبّانة لعائلة قديمة أصبحت جبّانة ملكية عندما أصبح أرباب العائلة حكاماً للمملكة" (١٥٠). فإذا كان هذا الرأي سليماً، فإن الجنائز -غير الملكية- المدفونة في الجبّانة الجنوبية يجب أن تكون جنائز لصفوة صغيرة حاكمة كيفما اتفق الحال، لكنها ربما كانت شديدة الاختلاف في أسلوب حياتها عن الرجل العادي في مدار الحياة .

إن صورة أقل غموضاً وأوسع إحاطةً وشمولاً لطقوس دفن الجنائز النّبئية تزود بها جبّانة صنّم، حيث أزيلت بقعة جريفيث الغطاء عما يزيد على ١.٥٠٠ قبر. إحتمل الموقع ضفّة طميّة تتعدى حجماً ما يشغله من رف صخري، ويسبب ذلك قاسى تعريةً أمضى في سطحه مما عانت الجبّانات الملكية التي نقّبها راينزر. ومن الجائز أن يُفسّر هذا الوضع السؤال الخاص بعدم وجود آثار أسوار محيطة بها أو هياكل فوقية عليها. مع هذا فإنه حتى تحت سطح الأرض، كانت المدافن في صنّم غير متقنة البناء نسبياً.

في كل الجبّانات لم تكن هناك علامة على البناء ذي التكلفة العالية، أو الغرف المحفورة على نطاق واسع سواء بسواء. كانت المخلفات الجنائزية متوافرة بحق في بعض الحالات وتشمل كمية مقدرة من المعدن النفيس وأشياء صغيرة رفيعة الصنع على أنه هنا أيضاً وللمرة الثانية لم يكن هناك ما يوحي بالعظمة. ربما يُخمن البعض إنفراداً مؤداً أن عليّة القوم والأمراء العظام لآرض كوش دفنوا في مكان آخر غير صنّم (١٥١).

تم التعرف على ثلاثة أنواع من القبور في صنّم :

١ - غرفٌ للقبور ذات مدخل له سلالم، إما محفورة في شكل كهوف في الطمي أو مسوّرة ومعروشة بالطوب. الجنائز المدفونة في هذه القبور كانت مُحنطة كلها وموضوعة في أكفان أو دواليب، وكانت مصحوبة بفخار مصنوع بالعجلات وغير ذلك من المصنوعات المصرية.

٢ - الدفن الممتد في حفر مستطيلة صغيرة. توضع الجنائز على ظهورها ويوجه رأس الميت ناحية الغرب. لم تكن أمتعة القبر عديدة، لكن الفخار إذا وجد كان مقصوراً على الأواني من الطراز المصري.

٣ - دفن عن طريق حشر الأموات في حفر مستطيلة أو بيضاوية الشكل. يرقد الميت على إحدى شِقَيْهِ الأيسر أو الأيمن متجهتان ناحية الوجه وكعابه مرفوعة بلصق عظام الركبتين؛ كان الرأس بوجه عام وليس دائماً بأى حال موجهاً نحو الغرب. هذه القبور إشتملت على جِرارٍ مصرية الصنع كبيرة الحجم من نوع غير موجود في القبور الأخرى، لكنها كذلك إحتوت أعداداً من الأواني المحلية بدوية الصنع وفقاً للتقليد العام لثقافة المجموعة الثالثة وكومة .

على الرغم من تميزها النوعي، كان جريفيث قادراً على أن يبين بإستنتاج لا بأس به أن أنواع دفن الجنائز الممدودة والمحشورة كانت معاصرة لبعضها البعض، حيث أنه كانت هناك حالات تداخل بينها فيتواجد كل نوع منها في قبور مع سابق من النوع الآخر، واحتوى قبران مزدوجان على دفن لجنائز من النوعين في وقت واحد. ففى القبر رقم ٢٢١ يرقد هيكل بشري ممتد دونما تحف إلى جانبه مع اتجاه الرأس إلى النصف الجنوبي ناحية النهر، وفى النصف الشمالى هيكل بشري في حفرة ضيقة على شِقْهِ الأيمن، مع وضع الجمجمة في الإتجاه المقابل) وبصحبته عقود وفخار يدوي.... مُؤيّن يفترض أنهما رجل وزوجته» (١٥٢).

هذه الظروف قادت جريفيث إلى نفس ما خلص إليه راينزر :

لعل الأمر يبدو كأنه لا بد أن نشخص طيقتين من السكان أو طائفتين بدلاً عن فترتين زمنيتين. إن العنصر الداعي للتصميم لربما يُفضل الوضع الممتد، في حين أن العنصر الأقل تنقفاً وأعق أصالةً وتحفظاً، ولو كان على رخاء، يُفضل الوضع منحني الأرجل أو المنحصر للميت. طبقاً لهذا الرأي فإن المرأة في الحفرة رقم ٢٢١ دفنت وفق

العادة الأصلية مع التحفظ اللائق بينما تبع دفن زوجها الأسلوب الذى يُعد أكثر حداثة.

حالات دفن الأموات حشراً في الحفر عديدة على وجه الخصوص في الطرف الجنوبي من الجبانة .... هنا يكاد جميعهم لا يختلط به أموات مدفونين بالطريقة الممتدة ... بينما في كل الأقسام الأخرى كانوا مبعثرين بدرجة خفيفة جداً بين عدد ضخم من الدفن الممتد. العديد من الأموات المنحصرين في الجزء الخاص بهم قبورهم مؤنثة تأثيثاً جيداً بالجرار والأكواب دون أدوات للزينة. ربما يُوحى هذا بأن الناس الذين يمثلونهم اتخذوا وجهة نظر مادية للغاية تجاه متطلباتهم بعد الموت، لا يكثرثون إلا بوجود وفرة أكيدة من الجعة وحسب (١٥٢).

استعمال جريفيث للكلمة "طبقتين" إستعمال هام، لأنه رأى بوضوح الفرق بين نوعى الدفن تركيزاً على معاني إجتماعية - إقتصادية أساساً، بترجيح أوثق من رؤيته لها كتعبير عرقى خالص كما فعل رايزنر. فمن جانب، هناك المصريون والنوبيون "المتحصرون"؛ وفي الجانب الآخر نوبيون محافظون. يواكب هذا بدرجة عالية جداً حالة الشؤون التى ابصرناها أنفاً في النوبة السفلى تحت ظل الدولة الجديدة (الفصل التاسع). والملاحظ أنه في صنم تبدو أوضاع الجماعتين معاكسة لوضعهما في مروي: فالقبور المحنطة هي الأغنى والقبور المنحشرة هي الأفقر. نوعاً ما من المثير للدهشة فشل جريفيث في أن يتعرف على أى دفن للجنازة بالأسرة في صنم؛ مع ذلك، يجوز أن ينعكس هذا الوضع مستوى من الحفاظ بالغ الضعف للبقايا العضوية في هذه الجبانة التى دائماً ما يغمرها الفيضان.

وقتما يجوز أن يعكس التمييز بين القبور "الوطنية" و "المتحصرة" في صنم ومروي عوامل إجتماعية أو ثقافية، أو خليطاً من الإثنين، في حد الممكن كذلك أن يفترض أن اختلافاً في الجنس مضى دون تعرف عليه بنفس الوتيرة. ففي صنم، يُوازى توزيع الجنازة المنحشرة مقابل الجنازة الممتدة بما يقرب من السواء توزيع الملكات مقارنة مع الملوك في المقابر الملكية: أى، أنها مركزة تركيزاً ثقيلًا في منطقة واحدة، لكنها أيضاً مبعثرة بين جنازة الرجال. هذه النظرية تجد بعض الموازنة الإضافية من حالتى الدفن المزدوج اللتين تم ذكرهما أنفاً، وإنها بالطبع مواكبة بدرجة قصية للحفاظ الثقافي الذى تعرضه النساء عادة.

إعتبر جريفيث قبور الغرف ذات الجثث المحنطة - وهى الأكل بناء في صنم - أسبق حدوثاً بكليتها من الحفر البسيطة ممتدة أم منحشرة (١٥٤). فإذا كان ذلك حقيقياً، فإنه موضوع ذو أهمية فائقة لنظريات التسلسل الزمني التاريخي، ذلك أنها تُوحى بصعود مؤقت لطقوس الدفن المصرى وفى أعقابها عودة لممارسة أكثر تقليدية - سيراً عكسياً للتعاقب التطورى المتوقع. فإذا كانت قبور الموميات لمصريين حقيقيين، بطبيعة الحال، فإن إختلافها المتدرج قد يُفسر بهجرة صنم وكتبة من بعد خسران النوبيين لمصر، أو بتبنى الحياة النوبية من ناحية العنصر المصرى في النوبة. مثل هذه العملية يُوحى بها أيضاً عدم تكرار النقوش المنحوتة [وهى عمل الكتبة المصريين] منذ العهد النبئى الأخير، والظهور المعاد لفخار مصنوع يدوياً من الأهالى في المقابر الملكية النبئية المتأخرة. مهما كان الأمر، فإن بُنية التسلسل الزمني فيما يختص بصنم غير نهائية. والحالة الوحيدة التى تبيتها هذه الجبانة في وضوح هي بقاء عنصر غير متمصر قطاعاً كبيراً وسط السكان النوبيين حتى نهاية العهود النبئية. وكما رأينا في الفصل التاسع، فإن هذا عاملاً من العوامل التى تؤيد اعتقاداً مؤداه أن كل النوبة لم يجر "تثقيفها" فى ظل الدولة الجديدة وفقاً للثقافة المصرية.

### المجتمع والإقتصاد النبئى

بنظرة سريعة يحتمل أن يذكرنا تطور النوبة الإجماعى في ظل الملوك النبئيين بالتطور الإجماعى لمصر تحت ظل الدولة القديمة، منذ ٢,٠٠٠ عام سابقة. إننا نأخذ الإنتطاع بمجتمع من



طبقتين يشتمل على طبقة فلاحية كاسحة وصفوق وراثة صغيرة - زعامة أقل حضارة بالضرورة أخذت بناصية قليل من رموز المكانة الخاصة بحضارة أكثر تعقيداً. هذه هي الصورة كما تخيلها هايكوك عندما كتب قائلاً :

المكانة الاجتماعية لاولئ... التَّبَيُّين الذي نَعْنُو في المدافن التلية في الكُرو كانت بالمقارنة قليلة الشأن ... لكن الملوك كانوا هم المتفخعين الرئيسيين من إتحاد... السودان وفتح مصر، وقد اكتسبوا مكانة مُحِبَّة للغاية كفراغة شيدوا أهرامات حَجَرِيَّة عظيمة ومعابد راقية، وأمتلكوا نصوصاً حرفية حية بالهيوغرافية الساحرة. إن هذا التقسيم العريض بين الحكام والمحكومين ثابر خلال الفترات النَّبَتِيَّة والفترات المروية الباكرا، ما كان حتى حوالى حكم أمانى شختي بأواخر القرن الأول قبل الميلاد - بواكير القرن الأول الميلادي) أن الفرد يملك دليلاً وافراً لأول مرة على ظهور طبقة قوية من النبلاء بالمحافظات (100).

مهما كان من مآل، يجوز أنه كانت هناك تقسيمات هامة في فئة "المُحكومين". فإذا كانت بقايا المدينة غير المُتَقِيَّة في كُوة، وصنم، ومروى يرجع تاريخها بحق إلى الأعوام الأولى للملكية الكوشية، عندئذٍ يتحتم علينا أن نوسع المجال في مكان ما من صورتنا لطبقة حضرية ذات اعتبار من الصناعات وصغار التجار: لمجتمع من ثلاث طبقات. وفي الحقيقة، سوف لا نقدر أبداً على الإمام بمدى أكبر بالدور الذي لعبته الطبقة الوسطى مالم تُثَقَّب بالفعل مواقع المدن: يمكننا فقط في هذه الأثناء أن نرجع إلى الأخذ ببيئة المدافن الغامضة نوعاً ما.

في الوقت الحاضر، تمنحنا القبور الكائنة في صنم أصفي صورة متملكها عن المجتمع النبوي في الفترة النَّبَتِيَّة. إنها تُشير بلا جدال إلى تعايش عناصر متمصرة وأخرى غير متمصرة ضمن السكان الأصليين. هذه هي نفس الحالة التي أبصرناها في النوبة السفلى في ظل الدولة الجديدة (الفصل التاسع)، بيد أن هناك فرقاً هاماً. فخلال الفترة الإستعمارية كان هؤلاء النوبيون - الذين لم يستكينوا للأساليب المصرية لا يزالون محافظين على وجود قبلي مستقل بطريقة أو أخرى في أراضيهم ومواردهم الخاصة - وهو موقف يُقَارَن بموقف جماعات عديدة من الهنود الأمريكيين في مطلع القرن العشرين. إن القبور "البداية" في صنم لا تقترح نفس الدرجة من الإستقلال الإجتماعي والثقافي بالنسبة للجماعة الغالبة. فالفرق لم يعد فرقاً بين أناس قبليين وآخرين مستقرين، وإذا عكس أي تقسيم إجتماعي على العموم فهو ما بين فلاحين محافظين وطبقة وسطى متحضرة ومتقدمة. (لا نستطيع، برغم ذلك، أن نستبعد إمكانية أنه فرق ينطبق فقط على طبقوس الدفن المنسوبة إلى الجنسين). ومن سوء الطالع أن جريفيث لم ينشر سجلاً كاملاً للقبور في صنم مما كان سيتيح لنا حساب الأعداد النسبية للجماعتين.

إن أي نسبة مئوية للطبقة الوسطى النَّبَتِيَّة تكونت من المصريين سؤال آخر من الأسئلة التي لم يجد كلاً من التاريخ أو الآثار إجابة مرضية لها. لقد سيطر الشماليون سيطرة سادت إدارة الدولة وأنواع التجارة تحت النظام الإستعماري، بالرغم من أن النوبيين المتعلمين كان يوسعهم أن يجدوا مكاناً بينهم، كما رأينا في الفصل التاسع. إن أعدادهم ونفوذهم لابد أنها ظلت باقية في قوة وعزم فترة ما بعد الإستعمار مباشرة، مثل حالة الفنيين والمدرسين الأوروبيين في الأقطار الإفريقية الحديثة. رغم ذلك ما نفاك موقف موظفي الدولة ورجال الأعمال الصغار قائماً، ولابد أنه كان مُثَقَّلًا عندما سُحِبَت الحاميات، وتخلّى عدد كبير من المصريين عن النوبة فيما هو محتمل وقلقوا عائدتين للوطن.

أثناء العهد النَّبَتِيَّة، لا تخطئ العين اليد المصرية في الرسم والتنفيذ للصروح الملكية الأولى، والتي يكاد يُطَح أن نوبياً لم يكن يملك في ذلك الوقت الضخمة الضرورية لإنتاجها. كذلك يُحتمل الافتراض، بالنظر إلى الصلة المتبادلة الوثيقة بين جبكى البركل والكرك، أن بعض كهنة آمون كانوا مصريين، على الأقل حتى سقوط النظام النبوي في مصر. أما عن البقية، فربما انتقلت الإدارة الدنيا

وانواع التجارة حتى ذلك الوقت إلى ايدنوبية، مع أن لمستهم غير واضحة في المنتجات التي عُثر عليها في القبور الملكية الأولى .

ربما يُتوقع أن المقابر النُبتية تُعطي دالةً على التكوين العرقي للطبقة الوسطى. ومثلما في النوبة السُطلى تحت الدولة الجديدة، مع هذا، يثور السؤال : هل القبور "المصرية" في مروي وصنم حقيفة قبور لمصريين، أم أنها لنوبيين متمصرين؟ كما رأينا، فسر رايزنر الشواهد القائمة في مروي بطريقة مُعينة، وفسرها جريفيث في صنم بطريقة أخرى.

صورة رايزنر عن المجتمع النُبتى، كما تَبَدت في عدد من دراساته (١٥٦)، صورة لمجتمع إستعماري ضالع بالضرورة: أى مجتمع ذو شرائح عرقية يحتوى بروليتاريا وطنية وطبقة وسطى مصرية. التغيير الوحيد منذ "الاستقلال" يبدو أنه كان في عضوية الطبقة العليا، التي حَلَّت فيها أرستقراطية من الأماالى عوضاً عن جماعة راج المصرية. في الماضى القريب تنامت مجتمعات ذات شرائح عرقية من ذلك النوع في بعض الأحيان عندما دُفع بمستعمرة مُختلفة على وجه الخصوص إلى الإستقلال السياسى، أو حينما اضطلعت ملكية قديمة لكنها مُختلفة بمشروع مخطط لتحديث "ساحق". في كل حالة السكان الوطنيون غير قادرين على توفير الفنيين وموظفى الدولة الذين يكونون الطبقة الوسطى، ويصبح من الضرورى تجنيدهم كلية من الخارج . ربما كانت تلك هى الحالة في النوبة القديمة، لكنها ليست معادلة تماماً لمجتمعات ما بعد الاستعمار.

تحليل جريفيث لقبور صنم يتضمن وجود فلاحين نوبيين وطبقة وسطى مكونة من النوبيين والمصريين معاً . ولم يبدل جريفيث جهداً للتفريق بين الإثنين على أسس عرقية (١٥٧). وطبقاً لهذه الصورة جرى جزئياً تحويل المجتمعات ذات الشرائح العرقية في العهد الإستعماري إلى مجتمعات ذات شرائح طبقية عبر الإنخراط المتواصل للنوبيين إلى الطبقة الوسطى، وتوليهم رموز المكانة الخاصة بالطبقة الوسطى. إن حالة مشابهة تسود معظم مجتمعات ما بعد الإستعمار اليوم، وهى بداهة، وصف أقوى احتمالاً للنوبة القديمة مما وصف رايزنر. ويستحيل القول بالمزيد، في الوقت الراهن.

يمكن الحصول على نظرة أفضل إلى تركيب المجتمع إذ علمنا المزيد عن إقتصاد النوبة في العهد النُبتية. مرة ثانية، يُعيقنا الإفتقاد إلى النصوص الحرفية الحية وشُح البقايا الأثرية بنفس القدر. لقد كتب دنهام أن :

الأساس الإقتصادى للقوة يكمن في التحكم علي التجارة على طول الطريق النهرى إلى مصر، وحركة الذهب من المناجم في الصحراء الشرقية، وتجارة الأبقار، والجلود، والرقيق، وريش النعام، والأبنوس، والمنتجات الوفيرة الأخرى من الجنوب التى تستجلبها مصر من السودان. وفى المقاطعة النُبتية نفسها مع كفاية الزراعة للحاجات المحلية، يصعب تصور أنها كانت قاعدةً لتجارة تصدير ممتد ومرجحة، ذلك إن المنطقة تقع شمال حزام المطر، وكانت الأرض التى تُثَلج بالرى من النيل محدودة (١٥٨).

هذه فرضية محتملة بالنظر إلى تاريخ كوش الأسبق والمتأخر، بيد أن وجود تجارة أجنبية رائجة يظل باقياً حتى الآن دون دعم من البقايا النُصبية الضئيلة الواردة من مصر الأسرات في مرحلتها المتأخرة، ولو بدا أن هيرودوتس أودعها ضمناً (١٥٩).

بطريقة غير مباشرة، ربما أمكننا استقراء شئٍ حول النماء الإقتصادى من طبيعة المدن النُبتية وتوزيعها. إن مجتمعات في حجم گاوة وصنم (إلى الحد الذى يسمح لنا بالحكم عليها من بقاياها التى لم يُثَقَب عنها بعد) يصعب أن تكون مدعومة من قِبل أى عمل آخر خلاف التجارة؛ لم تكن - فيما هو مؤكد - مراكز صناعية بأى احتمال. فضلاً عن ذلك، يشير غياب أى مستوطنات هامة بين هذين المكانين إلى الإستخدام المتواصل لدرب المهجلة، بدلاً عن وادي النيل، سكةً عمادية بين الشلالين

الثالث والرابع (قارن الشكل رقم ٣٧). كما المحنا في الفصل التاسع، فائدة الدرب الصحراوي، إضافةً إلى مباشرته، تكن في تقاديه للرياح المعارضة في المنحنى المعكوس للنيل بين بُتة والدة. فإذا كانت المدن الواقعة على كل من طرفي درب المهيلة قد أصبحت هي المراكز الحضريّة الرئيسة للفترة النُبتية، وإذا لم تكن مستوطنات هامة قد نمت بينها، فإنه لإستقراء منطقي أن يقال أن التجارة على طول السكة البرية لعبت دوراً هاماً في تنميتها كما سنلاحظ في الفصل القادم، كان الإمتداد المنبسط للتجارة البرية عاملاً ذا أهمية أعظم شأنًا في تطور مروي وغيرها من مدن وسط السودان.

التحكم النوبي على الأقل في بعض مناجم الذهب الصحراوية مُثبت بكميات الذهب التي عُثر عليها في العديد من الجُبانات الملكية؛ يصعب التصور أنها جاءت من أي مصدر آخر. مرة أخرى يصير الإثبات إستقرائياً تماماً، حيث إنه لا توجد نقوش كتابية للفترة الكوشية في المناجم. فلئن بقيت في قبضة النوبيين، مع هذا، فهو يمثل وحده توضيحاً مُغنياً لثروة الملكية الكوشية. بدأ فإن التجارة الدولية المزدهرة كما استبصرها دنهام<sup>(١٦٠)</sup>، لا يمكن إستقرارها ببساطة من كثرة وأبهة الصروح الملكية؛ بل يتحتم أن تبرز بصورة أمضى مباشرة من خلال عملية تنقيب مواقع المدن النُبتية .

وبينما تظهر الثروة الدنيوية للحكام النوبيين بارزةً في وضوح، لا تبدو ثروة كهنة آمون الذين شاركوهم السلطة في نفس المستوى . تركّز الثروة يوحى بأن "الأشياء نفسها التي كانت ملكاً لقيصر" كانت تُعد بشكل شبه مطلق خالصةً لقيصر، وأن أيّاً ما كانت المعابد تتمتع به من أثّة، فقد كان إلي حذر كبير جارياً من خلال الإغداق الملكي<sup>(١٦١)</sup>. ويعد تهارقا كانت الترميمات والإضافات التي تُجرى عليها قليلة ومتباعدة الحدوث. إن السلطة الذاتية التي مارسها الكهنة في مقابل النظام الملكي تجعل من الممكن إعتبار أن الكهنة كانت لهم مصادر دخلهم الخاصة، إلا أنه ما إذا كانت تلك المصادر مجلوبة من أملاك زراعية أو من التحكم على التجارة فأمر غير مؤكد. في صنّ هذا أنهم كانوا يجنون دخلاً خارجياً من إنتاج تماثيل النور وبيعها وتحنيط الموتى وهي أسبق إثبات لنا على وجود صناعة مُنظمة في النوبة .

### ملخص تفسيري

ترك إنهيار إمبراطورية مصر الإستعمارية فراغاً في السلطة بكل من النوبة ومصر العليا في الكرنك وجبل البركل. تولى كهنة آمون بعض الوظائف الحكومية، لكنهم مع الزمن وجدوا من الضروري أن يُحالفوا أنفسهم مع رجال أقباء محليين للدعم والحماية. في ضاحية جبل البركل وقع إختيارهم على - أو أنه كان إنتزاعاً من - عائلة نوبية لا نعلم شيئاً عن أصولها. من الدليل المأخوذ من قبورهم لا ينتمون إلى العنصر المتمصر من السكان، وربما جاز لنا أن نفترض أنهم كانوا شعباً لقادة غير متعلمين لكنهم عسكريين متمكنين دائماً ما أنهضتهم عهود مضطربة إلى مكانة عالية. في جبل البركل أصبحوا الرعاة الأوصياء والحماة لطائفة آمون العظيمة، ومن هذا الحلف بين حكام وطنيين وكهنة مصريين أو متمصرين إنبعثت الملكية الكوشية والدولة شبه الثيوقراطية التي كان عليها أن تسود عصر أسرات النوبة .

السلطة التي مارسها الحكام الكوشيون الأوائل ربما اشتقت مباشرة من استطاعتهم تجميع القوات النوبية وقيادتها فهي القوات التي اعتمد عليها كل من النوبة ومصر العليا زمناً طويلاً للحماية. لقد كان هذا العامل هو الذي أدى إلى قبولهم حكاماً مؤقتين من قبل كهنة آمون ليس جبل البركل وحده، إنما كذلك من ناحية الكرنك. وبحلول الجبل السادس أو السابع من حكمهم، شملت ممتلكاتهم الواقعة تحت سيطرتهم مصر العليا والنوبة على حد سواء .

حُماة لمصر العليا، ما كان يوسع الملوك النوبيين تجنب التورط في منازعات الأسرات في القطر

الشمالي. في عهد بعنشى، اعظم حاكم نوبى، كانت طيبة مهددة بغزو من الدلتا، وكان الملك مكرماً بشن تجريدة كبرى لإنقاذها. لقد حالف النجاح الساحق ذلك العمل وقاد، ربما بشكل غير متوقع، إلى تسليم كل ملوك الأسرات المتنافسة في مصر. أعيد توحيد مصر والنوبة مؤقتاً تحت ملك نوبى، وتقلد بعنشى القاب الفرعون الخالدة.

تقاعد بعنشى بما يحمل من شرفه ومجد إلى النوبة، بيد أن الطموحات التوسعية لوريثه أثارت عداوة آشور، القوة الناهضة غربى آسيا. لقد وُطد الفراعنة النوبيون المتأخرون في نزاع طويل مع آشور للسيطرة على مصر السفلى وفلسطين. كان ذلك بالضرورة حرباً من أجل السيطرة ما بين الداهاء النوبى والقوة الحربية الآشورية؛ في كل مرة يظهر فيها جيش آشورى يسلم له أمراء الدلتا، وفى كل حين ينسحب عن الدلتا، يكون النوبيون بطريقة ما قادرين على إعادة سطوتهم عليها. وفى نهاية الأمر، مع ذلك، تغلبت القوة على المكر، وجئ بالنظام النوبى إلى نهايته بعد أقل من قرنٍ من الحكم في الشمال. مدة حكمهم القصيرة أسبغوا على الأرضين أعطت للملوك النوبيين الخبرة والطلاعة كيفما كان الحال مما مكّنهم من الإحتفاظ بالسلطة في وطنهم لألف عامٍ أخرى. واصلوا، أولاً بنبته ثم بمرى الإحتفاظ برأى بلاط فرعونى، ولم يتخلوا عن القاب الفرعون أبداً .

تؤسس مملكة كوش نموذجاً ماثوراً لدولة الخلافة : شعب حظه أقل حضارة يتولى إريدي إمبراطورية وأثقالها من أيدي أباطرته السابقين. على غرار ما جرى بأغلب الإمبراطوريات أقل حضارةً كان «العصر البطولى» مُحْتَصِراً، على أن الدولة شبه الفرعونية بمحليتها المحدودة التى خَلَقَتْه في النوبة العليا عاشت لألف عام . إن تركيبها العرقى غير مصرى، وربما داوم على ذلك في تزايد مع تعاقب القرون، لكن مذهبيتها وتطلعاتها الثقافية لم تنحرف بدرجة هامة أبداً عما كان في القطر الشمالى. سياسياً وأيدولوجياً، فضل الميزان الذى أقيم بين الرجال النوبيين الأقوياء والكهنة المصريين في الفترة المباشرة لما بعد الإستعمار، فاعلاً حتى انتهاء المملكة.

فى القرون الأولى لكوش، كان كل من مراكز القوة الدنيوية والروحية في مقاطعة نبته، بالقرب من الشلال الرابع. إننا لا نملك صورة واضحة عن الأحوال الإجتماعية والإقتصادية في هذا الوقت، لكن الثبينة الأثرية والنصية لا تشير إلى مجتمع حضرى معقد، أو إلى تبادل سلعى رائج. ويبدو أننا نشاهد - على الأرجح - دولة بدائية زراعية إلى حدٍ كبير، وذات طبقة وسطى صغيرة، إشتق حكامها ثروتهم المتضاعفة من احتكار إنتاج الذهب أساساً. إنها هي هذه الحالة عينها تلك التى وضعت في الأساس المرحلة النبئية السابقة من الحضارة الكوشية جانباً عن الطور المروى المتأخر، الذى يصير اعتباره في الفصل القادم.

## الفصل الحادي عشر

### مجرى الإمبراطورية الجنوبية الحضارة المروية بأراضي السهل

اسم مروى، المدينة الغامضة عميقاً في إفريقيا، كان معلوماً للعالم من خلال عدد من الماثورات والأساطير التاريخية. إن هيرودوتس، معتمداً على معلومات قدمها مسافرون في مصر العليا، وصفها في القرن الخامس قبل الميلاد :

بعد ... رحلته لأربعين يوماً بالبر يأخذ الواحد مركباً آخر وفى عشرين يوماً يصل مدينة كبيرة إسمها مروى، يقال إنها عاصمة الأثيوبيين. يعبد السكان زيوس وديونوس وحدهما بين الأكله، ويقدسونهما بتجليل عظيم. هناك محراب وكهان لزيوس، يشنون الحرب وفقاً لإعلاناتهم الرسمية، اخذين منهم كلاً من المناسبة والموضوع لصلاتهم المتنوعة ..... (١)

فى مكان آخر، يصف "طاولة الشمس" التي كانت محسوبة كموضوع رئيس لتجريدة قمبيز بحق النوبة (قارن الفصل العاشر) :

يقال إن طاولة الشمس ارض مُعشوشبة خضراء، تقع في اطراف المدينة، حيث يُحتفظ بتموين من اللحم المشوي من كل الأصناف؛ إنه واجب القضاة أن يَضَعوا اللحم هناك في الليل، وكل من يرغب اثناء النهار بيجوز له الحضور ليأكله. إن الأسطورة المحلية تقول إن اللحم يظهر تلقائياً وأنه هيئة من الأرض (٢).

ما فُتحت مروى مزدهرة لأربعمائة عام من بعد هيرودوتس، حيث أنها ذُكرت من مؤلفين مختلفين في الفترة الرومانية، من أهمهم ديودوروس سايكولوس (٣)، وسترابو (٤)، وبلينيوس (٥). ما زار واحد منهم المدينة بشخصه، لكن الدقة المرموقة نسبياً في معلوماتهم - والذكر الدائم لمروى من مؤلفين معاصرين آخرين (٦) - شهادة على التداخل المتكتم الذي كان موجوداً بين روما الإمبريالية وجازها في أقصى الجنوب (٧). فإذا قُدرنا أيضاً التأثيرات المعهودة للثقافة المروية، والكميات غير العادية حقاً للسلع ذات الصنع الأجنبي التي توجد في المواقع الأثرية المروية، يمكننا أن نبدأ في تقدير الشخصية الخاصة التي تُميز العصر المروى النوبة - كما لم تكن أبداً من قبل وكما ندر أن صارت من بعد - كانت جزءاً من "العالم القديم المعروف" (٨).

أما تعابير صرح الحضارة المروية - المعابد، والمدافن الصخرية، والرسوم المائطية العظيمة - فهي مماثلة بالفعل للعهود النُبتية. إلا أن القاعدة الاجتماعية والإقتصادية الكامنة وراء ذلك تبدو مختلفة إختلافاً هاماً. إن الحضارة المروية لم تعد الحد الأقصى البسيط بصورة مباشرة للحضارة النُبتية بكثير مما تُعد مصر البطلمية تنوياً للعصور الفرعونية. فكلٌ منهما يمثل نهضة ثقافية كبرى بعد قرون من الجود والإضمحلال. القوة الناهضة في كل حالة واحدة : الإتصال والإنصهار الجزئى داخل العالم المعروف. مصر الفرعونية وكوش النُبتية كانتا حضارتين محدودتين النطاق؛ وكانت مصر البطلمية وكوش المروية تعبيرين إقليميين لحضارة عالمية (٩).

لربما بلغت النهضة المروية قممها في القرن الأول الميلادى ربحاً طويلاً عقب تداعى بُتة والنقطة الجنوبية لمراكز القوة والثروة الرئيسية في كوش. في القرنين التاليين عانت المملكة الجنوبية بدورها من تدهور سريع. القلاقل العظيمة وهجرات السكان التي أحاطت في نهاية المطاف بالإمبراطورية

الرومانية كانت قد بدأت في خلخلة الأوضاع بإفريقيا كذلك في آسيا، مصيبةً بذلك الدول المستضعفة على طول تخوم الإمبراطورية زمنًا طويلاً من قبل أن يجتاحوا مركزها. ربما كانت مروي واحدة من الضحايا الأول لتلك العملية. فالمدينة العظيمة يبدو أنها كانت قد هُجرت هجراً مُبيناً بحلول القرن الرابع الميلادي، وأن اسمها سرعان ما غمره النسيان. ما من ذكرى بقيت عنها في الماثور المحلي، فقدت المعرفة الدولية "مدينة الآثيوبيين" حتى جعلها إحياء التعليم القديم معروفة مرة ثانية عبر صفحات هيرودوتس واسترابو. وحتى ذلك الوقت كان النظر مصروفاً عنها باعتبارها أكنوبة: ما انفك الأمر كذلك إلى نهاية القرن الثامن عشر حيث اكتسبت الأسطورة بُرهاناً ما. لقد صافد المكتشف المتحمم جيمس بروس في ١٧٧٢ "ركامات من قواعد البناءات والمسلات" على مقربة من قرية البحراوية الحديثة، وكتب في مجلته إنه "من المستحيل أن تُفادى المضاطرة بتخمين أن هذه هي مدينة مروي القديمة" (١٠). إن الإكتشاف اللاحق لبقايا بُنية - بينما أنه مَحْص وراء التساؤل وجود حضارة نوبية قديمة - ترك بعض الشك فيما يتعلق بأى من مركزيه الرئيسيين كانت "العاصمة" معلومة لهيرودوتس. لم يسوّى الأمر نهائياً إلا في ١٩١٠، عندما وقعت حفريات قامت بها بعثة جامعة ليفربول على إسم مروي في نقوش عديدة في المدينة الجنوبية (١١).

منذ إكتشافها الأصلي من بروس، إمتلك "مدينة الآثيوبيين" تاريخاً أثرياً متعدد الظلال. في حقيقة الثلاثينيات بدء بعام ١٨٢٠ تحفّص الأهرامات الملكية بمخاطراته الذاتية طبيب غير مختص بالآثار يدعى فرلينى فحصاً متممناً ومنظماً حتى إنه أطاح بالعديد من قممها (١٢). تحقيق العارفين كان لابد أن ينتظر ما يقارب مضى قرن بعد ذلك، فحتى آنذاك كانت بداياته غير مرعية. أما حفريات بدج في ١٩٠٣ فلم تكن أفضل علمياً من حفريات فرلينى إلا بجهد جهيد (١٣). في حين أن حملة السنوات الخمس لجامعة ليفربول (١٩١٠ - ١٩١٤)، التي أدارها جون قراستنت، لم تخرج إلا القليل للأجيال القادمة، فيما عدا سلسلة من تقارير دورية مختصرة ظهرت في نهاية كل موسم (١٤). لم تُصدر على الإطلاق أى تقارير محددة، ومنذ ذلك الوقت باتت مذكرات العمل الميداني الأصلي وما جمع أثناءه مبعثرة ولا يمكن الوصول إليها بسهولة. كما لاحظ شيني تفضلاً منه نوعاً ما "أن الحفريات أجريت بطريقة الجملة المتبعة تقليدياً في تلك الأيام بوادى النيل، وإنه ليصعب أن يستخرج من تقارير الحفر السنوية وصف سليم لتلك الأجزاء التي نُقبت في الموقع" (١٥). أما حفريات الإختبار التي تكاد أن تكون مصدودة مما قام به شيني نفسه بين ١٩٦٥ و ١٩٧١ (١٦) فتظل حتى الآن التحقيقات العلمية الوحيدة التي أُجريت بسلامة على الإطلاق في هذه المواقع ذات الأهمية البالغة للمدن النوبية. نُقبت كذلك جَبانات مروي العادية في جزء كبير منها بعثة ليفربول، ولم يُبلغ عنها إلا نَزراً يسيراً. الجَبانات الثلاث التي تُدعى ملكية حالفها توفيق أفضل إلى حد ما، عقب نهيبها الأولى من فرلينى، حيث أنها تحفظت عليها تحفظاً محيطاً جماعة ليفربول. ثم نُقبت كلها بالإتقان المعهود بواسطة بعثة هارفارد - بوسطن في العشرينات (١٩٢٠)، ونُشرت النتائج من قبل فترة وجيزة في سلسلة من المجلدات التذكارية التي أصدرها دوس دنهام، الذي كرس نصف عمره لنشر عمل رايزنر غير المكتمل (١٧).

من حسن طالع عالم الآثار أن العصر المروي كان عصراً حضرياً، خَلَف لنا بقايا مدن كثيرة إلى جانب بقايا عاصمته. في الجنوب، صارت مدينة مصورات الصنفراء الهامة مسرحاً لتحقيقات راهنة قامت بها بعثة ألمانية لسنوات عديدة (١٨). وفي الشمال، أصاب البقايا المروية المتوفرة في النوبة السفلى وبطن الحبر (على خلاف مخلفات الفترة النبتية)، نفس الإهتمام الممنهج مثلما وقع بالنسبة لمواقع أثرية أخرى في منطقة خزانات أسوان. لقد نُقبت قرى مروية عديدة وجَبانات لا حصر لها جملة أو جزئياً (١٩). الشكر يُسدى لهذه الحقيقة وللغنى المودع في البقايا الأثرية على حد سواء، فإن ثقافة العهود المروية معروفة على وجه أحسن وبدرجة أرقى من أى ثقافة أخرى لأى فترة سابقة في التاريخ النوبى.

مع هذا، يظل السجل الوثائقي للعهود المروية مُفتقراً للإنتظام كما كان حاله سابقاً. مصادرنا الخارجية لم تُعَدِّ المصريين المتعالمين في زهو، إنما الإغريق والرومان المتقصبين وأحياناً المعجبين. لقد أثَّروا قدراً عظيماً من الوصف الموضوعي الذي لم يتنازل المصريون أبداً عن أنفثتهم فيقولوا تدوينه، على أن ما اكتسبوه موضوعياً فقدوه أصالةً، ذلك أن أحداً من الكتاب القدماء لم يشاهد النوبة على الإطلاق مشاهدة مباشرة .

ما كان الكتاب القدماي دائماً يُفَادُّ كما كان ينبغي عليهم وإنَّ غلبةً مما سجَّلوه كان سماعياً. إنهم في نقاط عديدة غير متوافقين وإنه لهم وذن معنى أن نجد واحداً منهم - ديونورس سايكروس - ناصحاً للقارئ ألا يثق في عروضهم عن أثيوبيا ثقةً مطلقة لأن معظمها يبدو له إما سانجاً سريع التصديق للغاية، أو خلاف ذلك ترويحاً لقصص خيالية إغترعت للتسلية (٢٠).

كذلك يوجد "سجل داخلي" للفترة المروية، حيث أنه لبعض من الوقت في القرن الثاني قبل الميلاد بدأ النوبيون لأول مرة في التاريخ، يكتبون لغتهم الخاصة. لقد استعاروا لنقوشهم الأسبق الحروف الهيروغليفية المصرية في العهود السالفة، على أن هذه سرعان ما تم تبسيطها وإدماجها في كتابة مناسبة الحروف، خالصة الهجاء من ثلاثة وعشرين حرفاً (الشكل رقم ٤٤) (٢١). إن الترميز اللغوي الصوتي لأغلب الحروف معروف (٢٢)، بيد أن اللغة المُعبر عنها في هذه الهجائية التي طال نسيانها تُوَاصل تخييرها للعلماء رغم خمسين عاماً من الدراسة المكثفة. ويجوز إبتماؤها، كما تنتمي اللغة النوبية الحديثة، إلى العائلة السودانية العامة من اللغات الإفريقية، لكنها لا تُظهر أي قرابة لأي نوع معلوم من الحديث في عصرنا الحالي (٢٣). هكذا، كما يلاحظ شيني :

اللغة المروية، مع اللغة الأثورية، تملك ميزة أنها واحدة من اللغتين القديمتين اللتين يمكن للترميز اللغوي الصوتي لعلامتهما أن يُقرأ بتأكيد معقول، لكن معاني هذه الكلمات لا يمكن أن تفهم. إن هذا حاجز عظيم دون الإدراك الكامل للتاريخ والثقافة المروية، وحتى يحدد الوقت الذي نُقِرا فيه هذه اللغة بنجاح وتُترجم النقوش، سيظل الكثير من قصة مروى غير معروف (٢٤).

إذا كانت صورتنا، ساعئذ عن العهود النَّبْتية طويلة عن التاريخ قصيرة حول الوصف الثقافي، فإن صورتنا عن العهود المروية يجب أن تكون فيما هو أرجح عكس ذلك.

## أصول مروى

المدينة العظيمة التي أعطت إسمها بحق للعصر المروى تبدو من السطح أكبر مجتمع للنوبة القديمة. إنها تقع على مسطبة متموجة من الحُصباء والطمى تُشرف مباشرةً على الضفة الشرقية للنيل وجرفه من السهل الفيضي، وهو ضيق للغاية في هذا المكان. تواجه الخرائب عين الناظرين في شكل كُثبان لا حصر لها من تراب يتناثر فوقه بكثافة طوب مكسر وحجارة بنايات منهرة، وعلى حد سواء أكوام ضخمة من جُفاء الحديد. لا يُتاح إلّا هنا أو هناك فحسب إدراك معنى المباني التي تم تنقيبها في مطلع هذا القرن؛ فكلها في حالة مוגلة من الخراب. أما موقع المدينة فهو مبرقع بأشجار السنط، لأنه يقع بين حزام سقوط الأمطار. إلى الشرق من المدينة ينحس تدرجياً مسطح عال من الحصى عارياً من التآكل صوب صَف من تلال الصحراء المنخفضة ذات القمم المسطحة لميلين أو ثلاثة أميال. هنا، في سفح هذه الجبال، تقع أهرامات مروى الشهيرة: وبينها وبين المدينة جبالينات «غير ملكية» ويضع بنايات إضافية، بعضها نُقِبَ والآخر لم يُنْقَب بعد (قارن بالشكل رقم ٤٥). وعلى مسافة قصيرة جنوب الأطلال حوض عريض جاف لوداي نُهير لا يمكث إلّا أياماً معدودات يحمل عطاءً عميماً من المياه المتسرية موسمياً من سهل البطانة العظيم .

وموقع مروى بلغ عنه ديونورس والعديد من معاصريه أنه كان جزيرة (٢٥)، وقد عاش إسم "جزيرة مروى" إلى عهود حديثة. لقد كان واستمر على ذلك مصدراً لأزيع الفهم، لأن المدينة تقف عالية

في جفاف على الضفة الشرقية من النيل، ولا تقف على جزيرة تحتل أواسطها. إن "الجزيرة" المشار إليها هي سهل البطانة، مساحة تزيد على ١٢٠ ميلاً في عرضها وتقع بين النيل ورافده الشرقي، نهر عطبرة (الشكل رقم ٤٦) <sup>(٢٦)</sup>. (في إستعارة مشابهة الطراز، يطبق السودانيون الحديثون الكلمة العربية لمعنى جزيرة على أرض محددة بعينها شاسعة تقع بين النيلين الأزرق والأبيض منبسطة من ملتقاهما في الخرطوم).

ما مدينة مروى سوى واحدة من مستوطنات مروية هامة تتعدد في المنطقة ما بين الشلال الخامس والسادس. تبدو، مع هذا، بمستوى جدير بالإعتبار أقدم واحدة في المجموعة، وهي افتراضياً "أم المستعمرات" التي انتشر منها المستوطنون الكوشيون مؤخراً شرقاً وجنوباً. وإلى الآن، تعد مروى المستوطنة النوبية الوحيدة في إتجاه منبع النهر من بُنية نفسها التي يمكن إرجاع تاريخها إلي العهد النُبتية (قارن الفصل العاشر). يترامى بين المدينتين ٣٠ ميل من وادي النيل تستودع بقايا قليلة هامة من الفترة المروية أو أي فترة أخرى. إنه لسؤال مثير لما كان لزاماً علي حضارة تتقدم أن تقف في مثل هذه اللحظة مساحةً فاصلةً يمثل هذا الإتساع مُتحطيةً تغفلها المحدود سابقاً في الشلال الرابع لتتشى كيانها بعيداً جنوبي النهر.

كتب عديون على المزاي البيئية " لجزيرة مروى ". مثلاً على ذلك، كتب دنهام .

تقع مروى بعيداً في الجنوب، في دائرة منطقة الأمطار الصيفية. وبينما تحتل مكاناً أقل إنتفاعاً من بُنية بالنسبة للتحكم على التجارة مع مصر، فقد كانت مُفضلة للغاية لتربية الأبقار وكانت أقرب لمصادر الشربة في السودان والشرق الأوسط وجنوبه. بيد أن الأغلب أهمية من هذه العوامل صناعة صهر الحديد الرائجة، التي لا تزال أكوام جُفاء الحديد الضخمة بضاحية مروى المباشرة توفر لها الدليل <sup>(٢٧)</sup>.

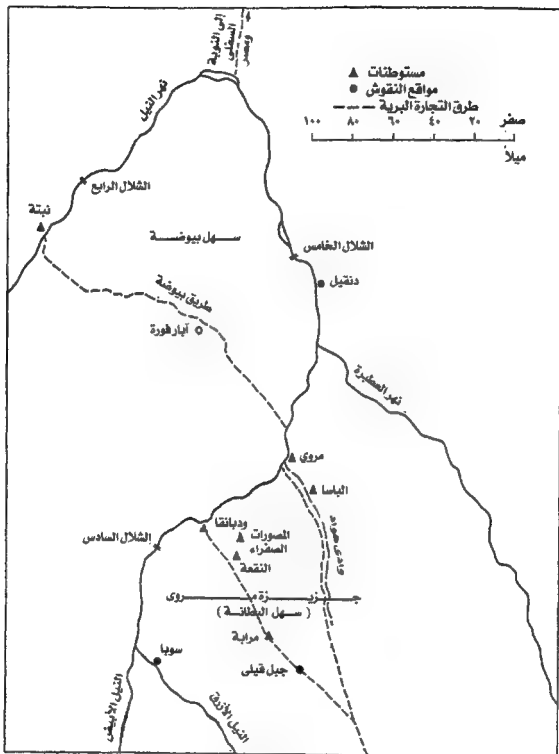
نُبتة ومروى - المقاطعتان الشمالية والجنوبية اللتين ازدهرت بهما أصلاً الحضارة الكوشية - مفصولتان في الحقيقة بما لا يزيد عن درجة ونصفها من خط العرض (الشكلين رقم ٤٦، ٤٧)، ويتبادلان فارقاً مناخياً خفيفاً. وما يصدق قوله كذلك أن سهل النيل الفيضي الوافر للزراعة في بُنية يساوي، على الأقل، سنتوه في مروى مساحة. فلئن تمتعت الضاحية الجنوبية بأى ميزة بيئية، فإنها لم تكتسبها من تزايد الأمطار المحلية أو موارد التربة بمتلما يتوافر عليها من سهل البطانة، أرض الداخل المروى، ويمكن العبور لجملة من مجاري المياه التي تمتد عيونها عميقاً في غور الحزام المطري علي مسافة مُعتبرة جنوباً، حاملةً من كم في كل موسم غمرها الدافق. بين هذه الوديان في الفصل الذى يعقب الأمطار مباشرة، يمكن أن تزرع محاصيل قابلة للحصاد من الذرة وهى اليوم تزرع من طرف اقوام شبه بدوية ترعى قطاعاً كبيراً من الأبقار على أرض البطانة المعشوشبة. يُخبرنا سترابو أن مثل هؤلاء القوم الفو نسبةً عالية من رعايا مروى القديمة <sup>(٢٨)</sup>، ويمكننا أن نرقب أن المدن المروية الخرية تتراعى فوق الجزء الغربي من سهل البطانة، علي مسافات يصل مداهما ستين ميلاً من ضفاف النيل <sup>(٢٩)</sup>، لذا، يجادل علي <sup>(٣٠)</sup> ويشني <sup>(٣١)</sup> بأن أساس الإستقرار والرخاء المروى في المنطقة الجنوبية لا يرجع لإستغلال وادي النيل وإنما يرجع لأرض البطانة بالداخل، في نظام إقتصادي مختلط قائم على الرعى بمقدار قيامه على الزراعة (قارن الصورة ١٣ - ١).

بوتيريم غير عادية، ذُكرت أكوام الجُفاء الظاهرة في مروى دواماً، ودعت عالم اللغويات المقارنة العظيم أ. ه. سيسى لأن يصف المكان بأنه "بيرمنجهام إفريقيا القديمة" <sup>(٣٢)</sup>. من غير تنقيب، مع هذا مستحيل أن يُقَر حجم صناعة الحديد المروية وأهميتها، أو أن يؤرخ أصلها. فلعل كميات هائلة من الجُفاء تراكمت من إنتاج كمية قليلة نسبياً من المعدن المستعمل، ولعلها أيضاً تراكمت علي مدي فترة طويلة من الزمن <sup>(٣٣)</sup>. من الضروري أن نشير كذلك إلى أن وضعية مروى لا تتمتع بأى ميزة خاصة بالنسبة لصناعة الصُّهر، فأنواع الخام الأقل جودةً موجودة في أرجاء المناطق الرملية الحَجْرية في السودان الشمالى، والحطب الضروري للصهر لا يمكن إحضاره إلا من اشجار السُنت

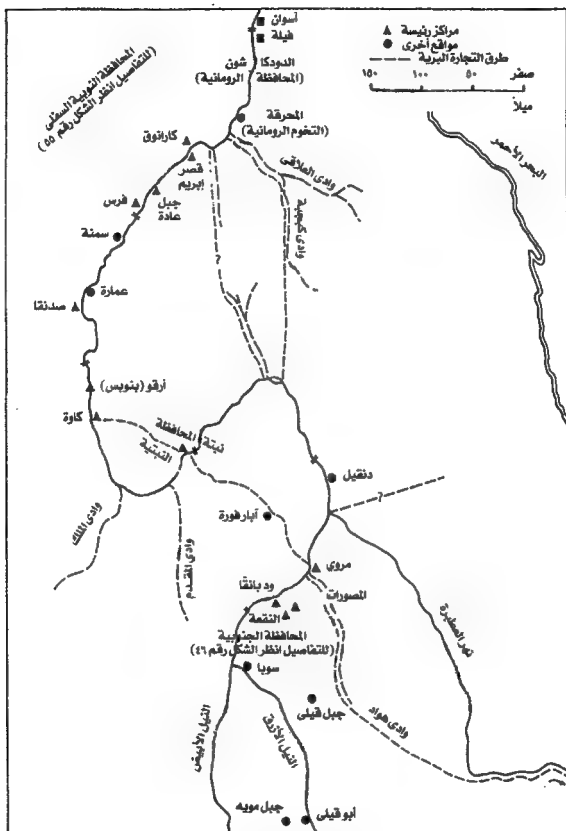








شكل رقم ٤٦  
 مواقع مرؤية رئيسة في أراضي السهل



شكل رقم ٤٧

الإمبراطورية المروية في القرن الثالث الميلادي

المنتشرة في كل مكان علي طول النيل<sup>(٣٤)</sup>. إن الصناعة كان بوسعها أن تنمو لهذه الأسباب في أي مركز سكاني موجود، والأقوى احتمالاً أنها قامت تابعة أرجح من كونها قائدة لنمو مروى كأكبر مدينة في كوش.

دون أن نصرف النظر كلية عن المزايا البيئية للمنطقة الجنوبية، يبدو قيام مروى أفضل تعليلاً بحساب الجغرافيا الإنسانية أكثر من تعليله بالجغرافيا الطبيعية. مثل كل مدن العالم بالقرب، يُحتمل أنها دانت بوجودها لموارد طبيعية منها للتجارة. لقد ذكرنا سابقاً (في الفصل العاشر) أن بُنية وكاوة ربما حققا بعض علائقهما الخاص من على نهاية درب صحراء المهيلة، الذي يُجانب أرض نقلا-النهرية العليا ورياحها العكسية. إن مروى تمثل إمتداداً أبعد أهمية وأعظم قيمة لهذه التجارة البرية. فالمدينة تقع على الطرف النهائي صوب جنوب النهر لطريق صحراوي عظيم يشق عابراً سهل بيوضة، مُجانباً لكل من الشلالين الخامس والرابع والرياح المعاكسة لأرض أبو حمد النهرية المعاكسة لأرض أبو حمد النهرية (الشكل رقم ٤٦). يكاد يُجزم أن تطور هذا الطريق البري هو الذي مكّن التبادل السلعي والحضارة لجارتا حاجز الشلال الرابع الذي دام طويلاً وبيلفا وسط السودان.

مروى، إذن، تدين بوجودها لطريق بيوضة. فالتحريك الصحراوي اضحى شرياناً للحياة يصل المقاطعات الشمالية والجنوبية لكوش، وبنية ومروى كانتا نقطتي بدايته ونهايته. حتى اكتمل إنشاؤها، أصبحت المدينة الجنوبية أيضاً نقطة الإنطلاق الرئيسية للتجارة البرية ليس مع بُنية فصص، لكن مع مصر مُماثلة في مبلغ الحال. إضمحلت نبتة وكاوة وريداً وريداً إلى مستوى مركزيين وسيطين للتجارة والشحن.

حتى إن لم يكن بحورتنا دليل مباشر على وجود طريق بيوضة، بإمكاننا أن نستقرئ، ذلك مما يشبه الغياب الكامل للبقايا المروية على طول النيل بين مروى وبنية. لدينا إضافة لذلك، مع كل هذا لوحة نستاسن، واصفاً تقدمه عبر الصحراء عندما جاء من مروى إلى بُنية ليتوج (قارن الفصل العاشر). في أبار فورة منتصف الطريق عبر صحراء بيوضة، خرائب لقلعة من الحجر نُسبت إلى الفترة المروية<sup>(٣٥)</sup>، مع أن أصلها يبقى بعيداً عن الإستيقان<sup>(٣٦)</sup>.

وراء مروى، إمتد عدد من طرق التجارة بعيداً إلى داخل أحشاء إفريقيا. من هذه النقطة في إتجاه الجنوب كان النيل صالحاً للملاحة النيلية دون اعتراض فعلي إلى أبعد ما يبلغ من السودان، الشلال السادس في السبلوقة الذي لا يقدم سوى إعاقة صغيرة للغاية. إن حضور موقع قرية مروية في أبو قبلى (الشكل رقم ٤٧) يُوحى بأن التبادل السلعي النيلي جاس بعيداً بأعلى النيل الأزرق ومن الممكن كذلك النيل الأبيض، من فوق ملتقاهما في الخرطوم الحديثة. جنوباً شَطْرُ الشرق من مروى عبر سهل البطانة جرى طريق التجارة التاريخي إلى هضاب الحبشة - الطريق الذي استقله الجيش وربما دمر أخيراً المدينة المروية (قارن الفصل الثالث عشر). لا يزال متيقناً مع ذلك طريق آخر قاد شرقاً بإتخاذ درب معر سنكات إلى ميناء البحر الأحمر القديم سواكن. لربما كان إتقاء هذه الطرق التجارية التي مع مرور الزمن هو الذي أتى بمروى إلى مكان السيادة السياسية والإقتصادية في نطاق الإمبراطورية الكوشية. تماماً مثلما كان إتقاء نفس الطرق في العصور الوسطى المتأخرة هو الذي أدى إلى نُهوض شندى، خمسة وعشرين ميلاً جنوب مروى، باعتبارها المركز الوسيط لى الشأن العظيم لتجارة القوافل في السودان<sup>(٣٧)</sup>.

فاذا كانت مروى مدينةً بداياتها طريق بيوضة، فإن صُعودها النهائي - وأقول بُنية - كان راجعاً بكل الإحتمال إلى تطور طريق آخر ما انفك قائماً للتجارة البرية. كان هذا هو طريق كورسكو الشهير إلى مصر. تاركاً النهر في أبو حمد ومعيداً إتقائه به بعيداً صوب المصب شمالاً في النوية السفلى، يُجانب المنحنى العظيم للنيل برمته وعوائقه التي لا حصر لها للملاحة (الشكل رقم ٤٧). لقد كان الطريق قطعاً معروفاً بما يعود في الماضى لعهد الدولة الجديدة، ذلك أنه كان في جزء وأفر منه نفس

الطريق الذي أدى إلى حقول الذهب في وادي كيجبة<sup>(٣٨)</sup> إن "مسألة الحدود" التي شيدها تحتتمس الأول وتحتتمس الثالث في كركس ، بالقرب من نهاية الطريق الجنوبية، ربما تشهد بوجود طريق كورسكو أثناء الأسرة الثامنة عشرة في فترتها الباكرا (قارن الفصل التاسع) . الظاهر، مع ذلك، إنه لم يصبح طريق الصحراء صلة رئيسة بين وسط السودان وعالم البحر الأبيض المتوسط حتى بزوغ العهد المروية.

التاريخ الباكر لتجارة القوافل عابرة الصحارى غامض . ورغم أن إدخال الجمل قد يسره تيسيراً عظيماً (ربما في القرن الأخير قبل الميلاد<sup>(٣٩)</sup>) ، تعود بداياته بالتأكيد إلى ماضى قرون عديدة سلفت من قبل<sup>(٤٠)</sup> لقد وظف المصريون قوافل الحمير لإستجلاب البضائع من النوبة في عهود تعود إلى الدولة القديمة (الفصل السابع)، لكنهم كانوا في سيوداء قلوبهم شعباً نهرياً يُحَبَّذ أن يستعمل المراكب حيثما استطاع . كان التجار القرطاجيون يُحضرون الذهب والياقوت من جنوب ليبيا، يوظفون فيما يبدو الحمير، والثيران، والخيول للنقل على حد سواء<sup>(٤١)</sup> . في إفريقيا كما في آسيا، مع ذلك، يبدو أن سكان الصحراء الأصليين هم الذين قاموا بتطوير تجارة القوافل على نطاق واسع، بدأ تبدل من دواوة بسيطة إلى القيام بأعمال التجارة الرانجة . وفي الألفية الأخيرة قبل الميلاد كانت أنشطتهم قد أعادت رسم الخريطة الاقتصادية والسياسية للشرق الأدنى بقدر متسع . إن "بحور" الصحراء الكبرى أصبحت قابلة للملاحة بشكل متزايدة، ترعرت مستعمرات جديدة، وحضارات جديدة، وأخيراً إمبراطوريات على طول "سواحلها" . جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومروى في السودان، وقرطاجة في شمال إفريقيا من أوائل المستفيدين من تجارة القوافل؛ وقد وجدت تعبيرها الأعلى لآلف عام فيما بعد في إمبراطورية الإسلام وحضارته العظميين.

مقدم القوافل أنهى تبعية العصور الشانخة للتبادل السلعي عبر الصحارى على النيل . وبينما بقى طريق النهر هاماً لقرون آتية، لم يُعَدُّ مُحْتَكَراً للحركة بالنسبة لمنتجات إفريقيا المدارية . منذ تلك اللحظة يمكن أن نتتبع التناقض في حظوظ النوبة الاقتصادية التي تواصلت حتي ولجت الأزمان الحديثة.

إن معرفتنا قليلة بشأن التطورات الأولى لتجارة القوافل التي تمر عبر طريق كورسكو، ولكنه أصبح بوضوح الصلة الاقتصادية الرئيسة بين السودان ومصر بحلول القرن الأخير قبل الميلاد<sup>(٤٢)</sup> . إن تطوره كان أمراً مباركاً لمروى ، لأنه فَصَّرَ المسافة إلى مصر بأكثر من النصف إلى جانب تقاديه لأسوأ عوائق الملاحة في النيل الأوسط . وكبؤرة لتجمع شبكة من طرق التجارة البرية، إحتفظت المدينة الجنوبية بأهميتها مساحةً لإنتلاق القوافل . من الناحية الأخرى، أصبحت نوبة وكاوة مدينتين الآن إلى مدى بعيد . الأهمية الاقتصادية التي إحتفظا بها ربما كانت موصولةً بشكل أساسي بتصدير البلح، الذي لا ينمو جيداً في حزام المطر في الجنوب النائي . إذن : كان طريق كورسكو بكل الإحتمالات أكبر عامل يساهم بمفرده في سؤدد مروى وأفول نوبة . نتيجةً لذلك ، بمقدورنا أن ننظر إلى المرحلة الأخيرة من الإمبراطورية الكوشية كنقطة تحول هامة في التاريخ الإفريقى:

إنها في نفس الوقت الأخيرة في عقد الإمبراطوريات النيلية العظيمة والأولى من "إمبراطوريات السهول" التي انبعثت بمولد تجارة القوافل.

إختيار مروى إقامة مُفضَّلةً للمتأخرة من ملوك النبتيين ربما يُنْقَلُ على أنه عامل إضافي أخر ساهم في قيام المدينة الجنوبية واضمحلال نوبة . إن عدداً من الكتاب فسروا "إنتقال العاصمة" (قارن الفصل العاشر) كهيئة على أن مروى كانت قد أراحت أنفاً نوبة، مركز كوش الإقتصادى<sup>(٤٣)</sup>، ولكن هذا العامل ليس واقعاً للحالة بالضرورة . إنه ربما يصحح دليلاً في حالة واحدة وحسب وهي رغبة النظام الملكى في الهروب من نفوذ كهنة آمون المترسخ في جبل البركل . إن التاريخ مغمورٌ بالآثار موازية، بادئةً بمحاولة إختاتون من قبل ألف عام سابقة للهروب من نوعية نفس الكهنة، بإزالة

البلاط الفرعوني من طيبة إلى تل العمارنة. ولتنفس السبب كان البلاط الملكي للصين، وفارس، والإمبراطورية الإسلامية مُتَقَدِّدًا لِإِشْتِهَارِهِ بِتَعَدُّدِ التَّنْقِلِ، بل إن بعض القياصرة الجبابرة وجدوا من منطلق المنفعة العملية ضرورةً للإقامة بعيداً عن روما، كي ينعموا بالحرية من إملاءات السنانو والحرس الإمبراطوري. إن الضاحيات التي حَبَّتْهَا هَوْلَاءُ الأباطرة كانت دائماً غير هامة قبل إختيارهم لها مكاناً للإقامة الملكية.

رأينا في الفصل العاشر أن "تستور" الدولة الكوشية أقيم على أساس توازن حساس للقوة بين الملكية والكهنوت، بكل ما به من إستعداداتٍ كامِنٍ للتنافس والتداخل. إننا نعلم مناسبتين على الأقل، في عهدي حكم أسبلطه و أركاماني عندما انفجر صراع القوة إلى نزاع مفتوح. هذا التوتر الدائم فيما بين الدولة ربما كان بحق العامل الذي أغرى في البداية ملوك النُبتيين للإقامة عبر النهر جانِباً عن المركز الديني الرئيس في جبل البركل (قارن الفصل العاشر)، ولأخذ أنفسهم مؤخراً جُمْلَةً واحدةً من جواره بإنشاء إقامتهم الأساسية في مروى. كانت النتيجة نوعاً ما من التوافق الجغرافي بين المؤسسة الدينية والدولة، وقد دام ذلك خلال القرون عندما بقيت بُنيتُ "العاصمة" الدينية في حين كانت مروى "العاصمة" الدنيوية. ولأن التحكم في الثروة كان لدرجةٍ كبيرة في قبضة الملكية، مع هذا، لم يكن نقل البلاط الملكي أمراً نافعاً لمروى إلا على حساب بُنية.

مع بقاء أطلال مروى غير مُتَبَقِّة بعد في قسطلها الأكبر فسوف لا يكون مثيراً إستدامة التضمين حول تاريخ وأسباب نهوض المدينة. مهما بقي حياً من تاريخها السالف يظل مدفوناً تحت زخم الركاب الأيل من القرون الأخيرة، ما رأى النور منه إلا النزر القليل. ومما عُثِرَ عليه بالمصادفة في المدينة ومن الأدلة غير المباشرة لجَبَانَاتِهَا يمكننا أن نتأكد بدرجة معقولة من أن الإستيطان يرجع بها إلى زمن بعنقى<sup>(٤٦)</sup> إنها كانت محلاً ذا أهمية كافية لتستحق نقشاً ملكياً في عهد أسبلطه<sup>(٤٧)</sup>، وإنها كانت المنتج المفضل لبعض ملوك النُبتيين الآخرين. لكننا، رغم ذلك، لا نستطيع أن نتعرف على هويتها كمركز روحي لكوش حتى تُصبح كذلك مُجمَعاً للجَبَانَاتِ الملكية. ولهذا السبب، فإن عهد أركامين، أول حاكم نُفُنَ بمروى، أختير في هذا المؤلف وَسَمَةً لبداية العصر المروى.

## ملوك وصروح

طبقاً لتقويم رايزنر التاريخي، حكمت أربعة أجيال من الملوك والملكات من مروى وُفُنُوا بِجَبَانَاتِهَا الملكية<sup>(٤٨)</sup>. إن إيماننا بهم جميعاً عدا حفنة منهم يبدأ وينتهي بمدافنهم. أما تواريخهم، ومنجزاتهم، وفي حالات عديدة أسماءهم سواءً بسواء، فإنها غير معروفة لنا؛ بنفس القدر، لولا أهراماتهم لما كان بإستطاعتنا التأكد من أن كوش القديمة كانت دائماً ملكية عظيمة. من كل هذا يجب أن يكون واضحاً أن مشروع رايزنر التاريخي العظيم ليس في أغلبيته تسلسلاً زمنياً للأسرات الحاكمة مثلما أنه دراسة تطورية للمدافن الملكية، التي يُستقرأ منها وجود مُتتالية من الحكام. ومن المستحيل حتى اليوم أن يُناقش النظام الملكي المروى في أي محتوى كان بخلاف صروحه الجَنائِزية.

وُضعت الجَبَانَاتِ الملكية لمروى في الصحراء ميلين إلى ثلاثة أميال شرق المدينة. وعلى غير حالة الصروح الكوشية الملكية الأخرى فإنها غير مرئية بشكل ظاهر من ضفة النيل، ذلك أن الأهرامات تتداخل مع خلفية لجبال صحراوية تعلوها وتبرز من خلفها مباشرة. وبمشارفتها عن قرب، مع ذلك، يتخذ أكبر الأهرامات وأفضلها حفظاً شكلاً يُرتَّب له وضِعاً مثيراً للإنتباغ على طول القمة لسلسلة من مرتفع صحراوي صخري، يعلو من فوق سهل الحَصَا المحيط به بما يقارب الـ ١٠٠ قدم (الصورة ١٢ - ب). من قمة المرتفع، تُشاهد أهرامات أخرى أصغر حجماً تتناثر بطريقه أقرب إلى الإنتظام على طول جانب المرتفع الشرقي. هذه المجموعة من المدافن تكون ما يدعى بِجَبَانَةِ مروى

الشمالية. بالنظر صوب الجنوب عبر *والدروملى* ، عريض، يمكن أن تُرى أهرامات الجبانة الجنوبية أشد خراباً بمستوى بالغ على قمة سلسلة أخرى من المرتفع الصخري، حوالى ٢٥٠ ياردة بعداً . أما الجبانة الغربية، التى لا تُرى واضحة من بقاياها السطحية، فتقع بين مجموعتي الأهرامات وبقايا المدينة (الشكل رقم ٤٥) .

يعود للفصل المكاني الدائر ما بين جبانات الشمال، والجنوب، والغرب بعض القيمة الاجتماعية والتاريخية، كما سنذكر ذلك ترواً. إن الثلاثة كيفما اتفق الحال تمثل تواصلاً من التطور التاريخي، يمكن معالجته لكل الأغراض العملية كمركب دفن واحد. وفي كليتها، تقدم أكبر مجموعة من الأهرامات بأى مكان في الوجود.

الجبانة الجنوبية في مروي أقدم بشكل معتبر من الجبانة الشمالية، لقد كانت مكاناً للدفن على الأقل لعائلات الطبقة العليا بالمدينة منذ أيام بعنقى<sup>(١٧)</sup> . بمجىء الوقت الذى اختارها فيه حكام كوش مكاناً لدفنهم، مع هذا، كانت أغلب مواقع البناء المناسبة قد استُهلكت، ونتيجة لذلك وُجد ثلاثة ملوك وستة قرناء ملكيين وحدهم مجالاً لإقامة أهراماتهم هناك. هذه المجموعة من القبور تنفرد لهذا بين جبانات كوش الملكية من حيث أنها لا تشكل إلا قلة من صروح ملكية أصيلة محاطة بما يقرب من المائتين من القبور الوضعية التى تفوقها عدداً.

لقد وصفها رايزنر بأنها "جبانة لعائلة قديمة اُضحت جبانة ملكية عندما أصبح أرباب العائلة حكاماً للمملكة"<sup>(١٨)</sup> .

بعد المدفنة الملكية الثالثة في الجبانة الجنوبية، كان ضرورياً أن يختار موقع جديد للدفن حوالى ٢٥٠ ياردة بعيداً صوب الشمال. في هذه الجبانة الشمالية دفن جميع الحكام المرويين المتبقين أو ما يقرب من ذلك حتى نهاية الأسرة المالكة. على خلاف جارتها، الجبانة الشمالية اكمل جبانة ملكية على الإطلاق بين الجبانات الكوشية، كلها عدا ستة من قبورها الأربعة والأربعين يعتقد أنها مدافن لملوك أو أمراء متوجين كانوا بالفعل حكاماً<sup>(١٩)</sup> . أما الخدم والحشم، والأشخاص الأقل نبلاً، إضافة إلى وصيقات الملكات فقد ألحقوا بالجبانة الغربية، التى تقع على سهل الحصا تحت الأهرامات الملكية. لهذا لا تحتوى الجبانة الغربية أى قبور لملوك حاكمين، بصرف النظر عن ذلك تُصنّف بين جبانات كوش الملكية لأنها كانت مكان الدفن لأعضاء الأسرة المالكة الأقل شأنًا والنبلاء الآخرين. أما عامة الشعب في مروي فقد نُفِنوا في سلسلة من الجبانات تتراعى مباشرة وراء أطراف المدينة، وقد تم تنقيبها لكنها لم تنشر أبداً<sup>(٢٠)</sup>.

أهرامات مروي تواصل التنمية التطويرية التى بدأت في الكُروى ونُورى (الفصل العاشر)<sup>(٢١)</sup> . إن المدافن في الجبانة الجنوبية، رغم أنها ليست مماثلة للمدافن في نوري، إلا أنها تقترب منها بمستوى معقول في الحجم والرسم. في كل من المكانين يقوم الهيكل الفوقي على منبرج من السلالم، يرقد على طبقة مرسومة ظاهرة لقاعدة البناء. نفس هذه الخصائص موجودة في ما يفترض أنها أول أربعة مدافن في الجبانة الشمالية. مع بداية الجيل الخامس، مع ذلك، برز ابتكار مكيلى. لا تزال وجوه الهرم سلالم متدرجة، لكن الأركان تَعُرت الآن إلى منحدر ناعم متواصل (الصورة ١٤ - أ) . الأهرامات مشكلة الأركان، كما سنعوها، تمثل إنجازاً متميزاً للمدفن الملكى الكوشى. هنالك عشرة من هذه الهياكل في مروي وثمانية في جبل البركل (سنناقش في هذه الأثناء) . بالإضافة إلى أركانها المتركزة لها عادة غرف كبيرة مزخرفة زخرفاً مفصلاً يصل ما بين الوجه الشرقى للهرم، ومعظمها له ثلاث غرف تحت الأرض. ترتيبها وزخرفها المتمثلان يصفها رايزنر كما يلي :

الحجرة الأولى من الغرف الثلاث كانت غرفة مواجهة صغيرة على جدرانها نُقِشت الفقرات المأخوذة من الفصل المائة وخمسة وعشرين من كتاب الأموات (قارن الصورة ١٤ - ب) ، الحجرة الثانية عريضة جداً عبر محور الهرم تحمل "الإعتراف السالب" ، وهو كذلك من كتاب الأموات، أما الحجرة الثالثة، وهى طويلة، فتعوى الميت



الحقيقى. أجزء الأعظم من القوابين كان في الغرفة الثالثة لكنها أيضاً فائضة في الغرفتين الأخرتين. هذا النوع ذو الغرف الثلاث تواصل استعماله باعتباره القالب التقليدى لمدفن الملك لخمسة قرون (٦٠٠ - ١٠٠ قبل الميلاد) (٥٧).

لسوف يُلاحظ أن المدفن الملكى ذا الغرف الثلاث بعيد، بشكل مُصَغَّر، الرسم العام للمعبد الكوشى المعتاد (قارن الشكلين رقم ٤٠ ورقم ٤١). غرفة القوابين الخارجية في المدافن تتوافق مع الردهة الأمامية للمعبد، الغرفة الثانية الممتدة تأخذ تقاطعاً مكان البوابة المقوسة الكبرى، وغرفة الدفن الداخلية تمثل غرفة العبادة. في أكبر غرف الدفن تُركت أعمدة من الصخر، إما قائمة بنفسها أو على صلة بالحيطان الداخلية، كى تساعد في دعم السقف. وفي مدافن قليلة، هناك مناظر مرسومة على الطراز المصرى إضافة إلى نقوش هيروغليفية (٥٨).

إن تغيرات لاحقة في معمار المدافن الملكية كانت كلها تقريباً ذات طبيعة مشوهة (٥٩). بعد حوالى عشرة أجيال تُخلى عن الهرم ذى الأركان المشكلة، كانت هنالك عودة في البداية إلى الشكل الأبسط للهرم المتدرج، ثم إلى الهرم ذى الوجه الناعم الذى لا يزال أقدم من الآخرين والذى كان خاصاً من قبل للمدافن الملكية الكوشية الأولى في الكُرو (الفصل العاشر). الأهرامات المتأخرة، مع ذلك، ليس لها إلا واجهة من الحجر المشكل على حشوة داخلية فقيرة البناء من الصوينة الخشنة، وكانت الأهرامات الثلاث أو الأربعة أهرام الأخيرة مشيدة بالطوب. منذ زمن الأهرامات مُشكلة الأركان وما بعدها كان هناك تخفيضٌ مستمر في حجم كل من الهياكل الفوقية وغرف الدفن. إن بعض أواخر الأهرامات الملكية لم يبلغ مقاسه أعلى من ثلاثة وعشرين قدماً على الوجه الواحد - نسخاً رثة صغيرة من الطوب الأحمر لما سبقها من الأهرامات رفيعة البناء، كما وصفها أركيل (٥٩). لا تعدو غرف الدفن كونها كهوفاً مشتقة في حشونة، وما بها زُخرف.

الأشياء التى عُثِرَ عليها في المدافن الملكية المروية لا تحمل سوى إيماءة عن ثروتها الأصلية، ذلك أن كل واحدة من الغرف نُهيت تماماً. حتى مع ذلك، فإن وفرة تنوع الأمتعة مما ترك الناهيون وراهم مشير للدخلة. يمكننا أن نرقب أيضاً في المدافن الأخيرة نوعاً آخر من المتاع، يسترجع الخطى نحو الممارسات الجنائزية لزمان عتيق القدم. يكاد بكل هذه أن توجد بيئة على دفن - ساتائى - ، أى، دفن الحريم والخدم مع الملك حتى يمكن لأرواحهم أن تقوم بخدمته في الدار الآخرة (٥٦). وجدت كذلك جناز قريانية في بعض أكبر المدافن "الخاصة" في الجبانة الغربية. في أغلب الحالات، قلقل النهابيون البقايا لدرجة أنه صار من المستحيل أن يؤكّد موقع الدفن الأصلي أو عدد الخدم الذين ضُحى بهم على حد سواء. أما أكبر عدد من أموات الساتائى الذين أمكن التعرف عليهم في مدفن واحد فكانوا ستة (٥٧). وهو نسبياً رقم معتدل بالمقارنة مع الضحايا البشرية بالجملة في كل من الأزمان الأولى والمتأخرة (الفصلين الثامن والثالث عشر). ضحايا القوابين من كلاب، وجمال، وخبول كانت بشكل معتبر أكثر شيوعاً من موتى البشر؛ وجدت رممهم أساساً على مدرجات السلالم المؤدية لغرف الدفن بالأسفل (٥٨).

أيقن رايزنر أن الجبانة الملكية أنشئت في مروى عندما "امتلاً حقل الأهرامات في نُورى، باعتبار أن أول المدافن التلية الجنوبية كان هو الخلف المباشر لآخر مدفن تلى في نُورى (٥١). هذه النظرية تُركت دون شرح لتجمع الأهرامات الصغير الذى يقف بما يشبه العزلة المضروبة عليه في الصحراء غرب جبل البركل. إنها بلا جدال أمعن تأخراً في تاريخها من أى من المدافن التلية في المقاطعة التبتية؛ وأقرب نسباً «مبغرافياً» لها، لا لنُورى أو الكُرو، إنما لبعض الأهرامات في مروى. تبدو بحق، ثمة ريبية ضئيلة أن الجبانة في جبل البركل كانت في جزء منها معاصرة لمدافن الجنوب، مما يجعل من الصعب تفسيرها على أساس أنها خلاف ملكية واحدة غير مُقاطعة. تعقيد أبعد من ذلك إثراً ينشأ من الحقيقة التى تقضى بأن أهرامات البركل نفسها مُقسمة إلى تجمعين مميزين من نوع يرجح أنه مختلف (٦٠). فمجموعة واحدة تشكل أهرامات مُشكلة الأركان تقارن بأفضل ما يوجد في

مروى؛ والمجموعة الأخرى أهرامات مُترجة، عادية .

أما الهياكل الفوقية بالحجم والنوع الموجودين في جبل البركل فإنها قريبة مدافن الملوك الحاكمين في مروى وحدها، لهذا يبدو معقولاً أن يُفترض أن أهرامات البركل هي كذلك أهرامات لملوك وملكات. إن إسماً ملكياً واحداً، কিম্বা اقتضى الحال، هو الملكة ناوي دَامَاك<sup>(١١)</sup>، وجد في أهرامات البركل البالغة ثلاثة وثلاثين هراً. أما الأهرامات الأخرى، مثل كثير من الأهرامات المتأخرة في مروى، فلا يمكن أن تكون بصفة محددة مصاحبة لأي حاكم معروف.

سبق أن شرحت مفارقات جُبانة البركل من وجوه عديدة. لقد تصور راينزرك حكم أُسرتين متنافستين قصيرتي الأجل أقيم في بُنة، تبعث واحدة الهجرة الخارجة للعائلة الحاكمة مباشرة إلى مروى، والثانية لحقت بها بعد ١٥٠ عاماً<sup>(١٢)</sup>. كان هذا، كما هو شائع، النظرية التي هيأت أغلب تفسير منطقي لنوعية أهرامات البركل، أرجع من النظرية التي تماشت بشكل أفضل مع البينة الخارجية. وفي الحقيقة تجعل النصوص الحرفية المعاصرة من المؤكد وجود حُكام في مروى مُسلم بنفاد أحكامهم في كل من بُنة وكَاوة خلال الأزمان التي كانت الأسرات الملكية المتنافسة ممسكة بزمام الأمور إفتراضاً أثناءها<sup>(١٣)</sup>. كنتيجة لهذا إستبعد ماك آدم مقولة راينزرك المتعلقة بآبول ملكة مروية لبُنة مُصبداً عليها النظر إلى الأهرامات العادية في جبل البركل كجزء من المجري الغالب لتطور الجُبانة الكوشية. وسيطة في الزمن بين ثوري والجُبانة الجنوبية في مروى<sup>(١٤)</sup>. لقد أخذ دُنهام بالضبط إتجاه السير المغاير، متقبلاً للأسرة المالكة المنافسة في بُنة ورفضاً للأخرى. أما الأهرامات مُشكلة الأركان في البركل فقد نُظر إليها على أنها مدافن لحكام شرعيين في مروى فضلكوا لسبب أو آخر أن يُدفنوا بالأرض المقدسة لأسلافهم السابقين<sup>(١٥)</sup>. إن هينتز، الذي يُعد مؤلفه - دراسة في التسلسل الزمني للمروى<sup>(١٦)</sup> أهم عمل أُنجِز منذ وقتٍ وشيك في الموضوع، فقد جاء لصالح مشروع راينزرك الأصلي، لكنه مُذاك أضحي مدفوعاً لتعديل جزء لا يُستهان به من تقويمه التاريخي الخاص الذي أجراه في ضوء إكتشافاته في المصورات الصفراء<sup>(١٧)</sup>. وكما لاحظ جاد الله "يبدو أن التسلسل الزمني المروى سيظل لوقتٍ طويل نهياً للتغيرات والتعديلات حيثما بدت بيئة جديدة"<sup>(١٨)</sup>. إن الجدول المتواصل يمكنه وحسب أن يخدم في تبين المدى الذي يتأني علينا أن تقطعه لتتعلم شيئاً ولو كان مستهدفاً لأبرز الملامح للمملكة الكوشية<sup>(١٩)</sup>.

التعاقب الصحيح للملوك المرويين لا يلزم أن يسبب إضطراباً شديداً للمؤرخ الثقافي، علي أن مسألة الوحدة أو الانقسام بين الدولة مهم بالطبع كي نفهم الواقع الإجتماعي والسياسي لأزمانهم. وما دمنّا لا نملك دليلاً أبلغ مصداقية من نوعية الأهرامات وتعاقيها المفترض فسوف لن نأمل في الإجابة عليها؛ إننا لا نستطيع سوى أن نرقب أن تاريخ مناطق أخرى يقدم موازيات متعددة للموقف الذي تخيلك راينزرك أصلاً. لقد ثابتت إمبراطوريات قليلة جداً ذات مراكز متعددة على البقاء لزمن طويل على غرار كوش دون أن تنفصل عن أجزائها مرةً أو مرتين على الأقل، وكان كثير منها يميل لمعاودة البقاء في نفس أماكنها السابقة، مرةً ثل الأخرى وهي مفصلة عن الإلتحام بباقي أقسامها. مصر، بلاد ما بين النهرين، والصين كلها تقدم أمثلة على التطل وإعادة التوحد بصورة متكررة.

على غير ما كان عليه طراز الإمبراطوريات المذكورة للتو، لم تُستجمع أطراف كوش القديمة بتوحيد جُبرى لمناطق متميزة عرقياً وإجتماعياً. في بادئ الأمر كانت وحدةً إجتماعية - سياسية ملتزمة تُدار من مركز واحد في بُنة. لكنها مهما كان حالها أضحت إمبراطورية متعددة المراكز بعد إنشاء مستعمرات ممتدة لها في منطقة مروى، على أتم تدقيق ممكن بعد هجرة البلاط الملكي مكاناً بعيداً، مفارقةً لكنهنوت آمون الذي كان لا يزال راسخاً بكرسيه القديم في بُنة. إن كون هذا الفصل الجغرافي للسلطتين الروحية والدينية كان غاصاً بخطر القسم السياسي يبدو شاهداً على نفسه. بمعنى ما، خلعت الملكة الدور التاريخي كراعية وحامية لطائفة آمون التي دفعت بها إلى السلطة قبل خمسمائة

عام خلت (قارن الفصل العاشر). علينا لذلك الا نواجه صعوبة في التصور، كما فعل رايزنر، ان احداً انبثت ناهضاً أو خلق ليملأ كرسى القوة الملكية المخلوع في ثبته.

وعلى هذا النحو، فحينما يُبدى تعايش سلطتين ملكيتين إمكانيةً منطقية بهذه الصورة، تُصبح العالاي بينهما مسألة في غاية الصعوبة. إن عدداً من التفسيرات البديلة تُثلى بإقتراحاتها. من جانب واحد، يمكننا أن نتخيل بسهولة كهنه أمون وهم يجعلون من إحدَي الأسرات المالكة دُمية في أيديهم إقتصاصاً من هجرة الحكام الشرعيين الخارجة. وربما تكتسب مجاورة مدافنها لضاحية أمون المقدسة أهمية في هذا الخصوص؛ فعلى أقل تقدير تُوحى بأن الأفراد الذين دُفِنوا في جبل البركل تمتعوا بتفضيل الكهنوت ودعمه الخاص لهم. في نفس الوقت علينا أن نُسلم بغياب أى إichاء بالمناهضة بين أعطاف الدولة المروية، بينما يبدو التماثل المعماري للأهرامات في جبل البركل ومرور مشيراً إلى اتصال حميم بين مجموعتي الحكام. فإذا كانت الأسر المتعاصرة قد حكمت بالفعل من مروى وثبته، يبدو إذن انها قاما بذلك في رضى متبادل .

على أى شئ كانت تقوم شروط إتفاقيهما؟ هل كان هناك تقسيم مؤقت للإمبراطورية، مشابه لذلك التقسيم الذى أقيم في الإمبراطورية الرومانية عندما أصبحت مُستعصية للغاية على الحكم من مركز واحد؟ أن الملوك النبتيين، فيما يبدو أقوى احتمالاً، كانوا تابعين للمرويين، بمقتضى نوعية النظام الإقطاعي الذى كان مألوفاً من قبل بمصر والشرق الأدنى؟ أكان النبتيون ببساطة ولاء أو مأمورين للملكية الجنوبية؟ مهما كان الأمر، فهناك العديد من البينات إلى جانب أهرامات البركل يرجي أن ثبته بقيت مركزاً للسلطة السياسية لفترة طويلة من بعد هجرة العائلة المالكة الرئيسية إلى مروى. كل من استرابو (٧٠) وديوكاسيوس (٧١) إعتبر ثبته العاصمة النوبية في ٢٢ قبل الميلاد، عندما هاجمها ونهبها جيش روماني. ويعتقد ميليت أنه في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد كانت كل النوبة الشمالية، من الشلال الرابع إلى النخوم المصرية، منطقة شبه - مستقلة محكومة بسلالة من الولاة في ثبته (٧٢).

## النقوش الملكية

لم يترك سوى ما يقارب العشرة من الملوك المرويين أى سيرة عن أنفسهم عدا مدافنهم. إن أركامين واحد من أقدمهم وأفضلهم شهرة، ربما كان معروفاً علي أنه هو نفسه أرقامين الذى تحدث عنه ديودورس سايكلوس (٧٣). إنه مهم تاريخياً باعتباره أول ملك نوبي أنشأ علاقات رسمية مع حكام مصر البطالمة - وسيناقش ذلك الظرف بتفصيل وإف في الفصل القادم (٧٤). كانت تواريخه موضعاً لجدل عظيم، غير أن معظم الكتاب يضعونه في النصف الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد (٧٥). تبعاً لديودورس كان على علم وزير بالتعليم الإغريقي؛ أما كيف وقف عليه فغير معروف علي وجه التحديد. يصل نفس الكاتب إلى أن أركامين أجهز على كهنه أمون في جبل البركل ووضع حدّاً لسلطتهم التاريخية على الحياة والممات من فوق الملك الكوشى. أهرام أركامين ربما أنه الثالث بين الأهرامات التى بُنيت في الجبانة الشمالية في مروى؛ غرفته جبيرة بالملاحظة لأنها تشتمل على واحد من آخر النصوص الحرفية النابهة باللغة الهيروغليفية المصرية على أى صرح جنازى مروى (٧٦). توجد نحوت لاحقة بالمروية الهيروغليفية أو بالمروية الجارية، أو بمحاكاة غير ذات معنى للهيروغليفية المصرية ما بغير تكرار.

ترك عدة حكام من القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد نقوشاً مُهداة أو محيئة للذكرى في معابد مروى وثبته. إن النحوت كلها منقوشة بالكتابة المروية الجارية، ولا يمكن استنباط فصوص مانتها إلا بغموض إن لم يكن بها شئ مطلقاً. أما طول نحت وأشهر ما في المجموعة فهو "الروح العظيم للملكة إمانى وبناس وابنتا وشريكها في الوصاية على العرش أكيثى داد، الذى عثر عليه في أحد المعابد

بمرور. يبدو في جزء منه سرداً لعمليات حربية، ربما كان أحدها منقوشاً في مضادة جيش بترونيوس الروماني الذي هاجم بُتّة في ٢٢ قبل الميلاد (قارن الفصل الثاني عشر) <sup>(٧٧)</sup>.

البُنة العظما للعصر المروى كانوا هم الملك ناتاك أمانى والملكة أمانى تيرى، اللذين ربما واكب عهد حكمهما المشترك بشكل أو آخر حياة المسيح. لقد كانتا فيما هو ظاهر حاكمين معاً أطول الحياة، لم تُبين اسمائهما مطلقاً في نقوش ملكية إلا سواً. ومن لوحهما المكرس لذكرهما يتبين أنهما أجريا استعادات كبرى في المعابد العظيمة لأمون في كل من بُتّة ومروى ومعابد أخرى متعددة، وقاما ببناء معبدين كاملين جديدين على الأقل في مدينة النقة الجنوبية علالة على ذلك. يصحبهما في نوصتهما ثلاثة أمراء مُتوجون؛ واضح أن الاثنين الأولين ماتا في المهـد. أما الإبن الثالث، شركارير، فعاش ليرثهما. إن صرحه الوحيد المعروف كان لوحاً للنصر منحوتاً على صخرة في جبل قبلى، بعيداً بالأرض المعشوشبة من سهل البطانة (المعرفة الموقع انظر الشكل رقم ٤٦) <sup>(٧٨)</sup>. يبين اللوح الملك وهو يتلقى مباركة إله الشمس منتصباً على أعداء غير مُستمين، وهو موضع النظر لأنه استجماع لتأثير فنى مصرى، وهيلينى إغريقى، وربما شرقى (الشكل رقم ٤٨) <sup>(٧٩)</sup>. وهو أبعد صرح مروى عُرف حتى الآن بالجنوب موقعاً، كما آخر نقش ملكى لآى حدث في تاريخ كوش. ما كانت المملكة بأجمعها مُقفرة ولا متخلفة ثقافياً خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين، لكن حكامها لا بد أنهم كانوا غير متميزين، لأنهم فيما يَكد لم يبق عنهم سجلٌ ومن العشرين ملكاً أو أكثر الذين خلفوا شركارير، يمكن تسمية أقل من نصفهم (قارن بالجدول السادس).

ليس واجباً أن يُفترض أن التاريخ النصى لكوش ينتهى بنقوش ملكية. من الآن فصاعداً تضى كتلة مادتنا الوثائقية عن الفترة المروية من منطقة العاصمة؛ غير أنها تاتى من الحدود الشمالية القصوى للإمبراطورية، في ضاحية أسوان مباشرة. هنا عدد كبير من النقوش - إغريقية ومصرية كذلك نوبية - موظفة في خدمة مسؤولين مرويين متنوعين، وقد تركوا مكتبة مختلفة الأنواع من الرسوم المُخططة على جدران المعابد في النوبة السفلى. ومن حسن طالع المؤرخ أن كثيراً منها بالإغريقية والمصرية فيما يزيد على المروية فبالإمكان قراءتها دون صعوبة <sup>(٨٠)</sup>. مع ذلك، لديهم القليل ليتحدثوا عنه حول المملكة في الجنوب البعيد. كان اكتراثهم منصباً على الناس والأحداث في متناول أيديهم. لذا فمناقشة ما خطه أيديهم مُرجاً على أفضل الوجوه حتى ننظر بإعتبارٍ للسؤال الجامع الهام عن عودة الإحتلال المروى للنوبة السفلى في الفصل الثانى عشر.

## مدن أراضى السهل

يجوز أن تغطى أطلال مروى مساحةً تصل إلى ميل مربع، مع أن امتدادها الكامل لم يُجدد أبداً. ليست لدينا فكرة عن تخطيط المدينة ككل؛ وقد ركزت بعثة ليفربول على قلّة من المباني الصرحية فلم تأخذ عيناً من المساحات المتداخلة بينها. إن الطوب الأحمر (المحروق) كان على وجه اليقين مستعملاً بتوسع كمادة للبناء، حيث أن شقوقه تتناثر بلا نظام وسط أكوام المدينة غير المُقبة. مع هذا يمكننا بصعوبة أن نرتاب في أن أغلب المباني المتواضعة كانت من اللين (غير المحروق)، كما في كل فترات التاريخ النوبى.

ومن بين أجزاء المواقع المُقبة، التى يمكن وصفها تتبعاً لنهج من التقارير المنشورة الموجزة <sup>(٨١)</sup>، فالأكبر وأشد إثارة للإهتمام ما يُسمى بالمدينة الملكية. كانت هذه أرضاً بعينها مُسورة في رسم مستطيل بشكل أو آخر، بعض ل ٣٠٠ ياردة طولاً وحوالى نصفها عرضاً. بين الأسوار تشكيلة معقدة من المباني، معظمها صروح حَجَمًا وزخرفاً، وهى ما افترض قارستق أنها المشيدات الرئيسة للعائلة المالكة (الشكل رقم ٤٩). فيما عدا السور المحيط بالمكان نفسه، هنالك بناء قليل للغاية بالحجر؛ معظم المباني من اللين، بالرغم من أن كثيراً من المباني لها واجهة خارجية من الطوب



شکل رقم ۴۸  
رسم تصویری لانتصار الملك شرکاریو، جبل قیلو

المحروق. (إستخدام هذه المادة كقشرة خارجية يُستبان بموقع مروى بين حزام المطر. أما الطوب المحروق فيكاد لا يعمل به مطلقاً في مواقع بعيداً شمالاً لأن مقاومته للتعرية ما كانت لها حوجة). تمت صيانة المباني في المدينة الملكية وأعيد بناؤها مرات لا حصر لها، مُعربة بذلك عن تاريخ طويل جداً ومعدن من الإحتلال.

يلاصق مركز المسور الملكي بانيقان مريعان على ضخامة، متمثلتان تقريباً في الحجم، يعتقد أنها قصران. مبان أخرى فُسرت على أنها مستودعات، وغرف للجمهور، وأحياء سكنية لحاشية القصر. هناك بالمثل معبد صغير: "... جدرانها الداخلية مغطاة بمسحوق جيرى ومزخرفة على طراز منفلت بالوان رائعة. تمثل المناظر ملك وملكة آشوريا، وموظفى دولتهم، وربما، حلفاءهم، وعلى حد سواء عبداً من الأسرى من جنس أجنبي" (٨٢). في واجهة هذا المعبد عُثر على رأس أغسطس البرونزى الشهير، الذى كثيراً ما يُشار إليه في الكتب المؤلفة عن النوبة، وهو ما جرى تأويله تأويلات متنوعة كهديّة من الإمبراطور وكجزء من الغنائم المسلوقة في غزو نوبى على المعابد الرومانية في فيلة (٨٣).

أما الوجه غير المتوقع غالباً والأبرز تميزاً بدرجة عالية في المدينة الملكية فهو ما يُدعى بالصّمام الرومانى. إنه يفتقد إلى جهاز التسخين وغيره من الأدوات الفنية الرفيعة للحمامات الرومانية في أوروبا، لكن إستلهاها الماثور منها مضى أمره لا يُخطئه إنسان.

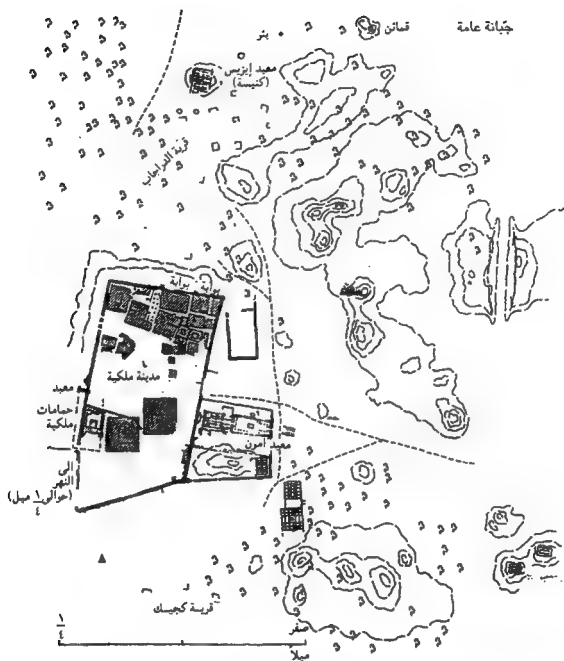
إنه يحتوى على خزان كبير مخطط بالطوب له نظام مُقلد من قنوات المياه التى تصل إليه من بئر قريبة. زُين مجرى حول الجزء الأعلى من الخزان بوجوم وميداليات من الجير المقوى، إلى جانب نوافير للمياه في شكل رؤوس الأسد. كل هذه الاشكال كانت ملونة، وبقي أثر مواد التلوين على الجير فوق ما آل من حائط عال. يُوحى كل من الرسم العام والزخرفة المنمقة أن هذا بشكل مُقنع كان مكاناً للترفيه، لا بد أنه كان حماماً للسباحة، وهو تصديرٌ إقلى لحد وجه الحياة في البحر الأبيض المتوسط المشهورة خلال تلك الفترة (٨٤).

ويوصل المسور الملكى من جانبه الشرقى مسور أصغر يحيط بمعبد أمون (الشكل رقم ٤٩) المقابل الجنوبي للمعبد العظيم في جبل البركل. أما إنه كان متعمداً كمنافس وربما خلفاً للمعبد الشمالى فمقترح بمؤدى الحقيقة القائلة بأنه يبرز حجماً ( ما يقرب من ٥٠٠ قدم في الطول) وإلى حد ما في خطة الرسم؛ إنه المعبد الوحيد في الأزمان المروية الذى يحتفظ بنظام الردهة المركزية، المطوّلة، للمعابد المصرية والنّبتية الكبرى. في كل وجوه التشييد والزخرف، مع ذلك، يقل معبد أمون في مروى بمستوى بالغ عن معبده في نبتة.

كان المعبد مبنياً في شوطه الأوسع بالطوب، الواجهة وهذا طوبها محروق، ولها أعمدة، وبوابات مقوسة، ومداخل أبواب تواجهها كتل مُشكّلة من الرمل الحجري. وهو يحتوى قاعةً خارجية من النوع المعتمد بكمر يبين علامات لفترتين من البناء على الأقل. في وسط القاعة حجر صغير كمحراب عليه أسماء ناثاك أمانى وأمانى تيرى على الجدران، وإلى الغرب منه مُصنّبة مرتفعة، أو منبر، بسلاسل ومناظر مُحفّرة لسجناء رُكع ومقيدين. وراء هذه القاعة سلسلة من قاعات صغيرة تؤدى إلى غرفة للعبادة بها منبر مُزخرف بمناظر دينية. إن ما يسمى بقاعة العمدان وجه غير عادى والغرض منها غير واضح. طُلّيت الأعمدة بالأزرق والوان أخرى على جصس أبيض، وفي الطرف الغربى مصطبة مرفوعة يوصل إليها عن طريق مدرج قصير من السلاسل (٨٥).

ليس هناك دليل لسوء الحظ فيما يتعلق بالوقت الذى بُنى فيه معبد أمون أصلاً. إن استعادته من ناثاك أمانى وأمانى تيرى تدفع بإقتراح أنه كان قديماً في زمانهم بعدة حِقَب على الأقل، حوالى بداية عصرنا. في الضاحية المباشرة لمعبد أمون، وَجِدَت بعثة جامعة كالجارى في ١٩٧٦م آثاراً لأربعة معابد إضافية لم يكن ثمة شك في وجودها مسبقاً .

نَقَبَت بعثة ليفربول أربعة معابد ومصاريب أخرى في مروى: المسماة إيزيس، والأسد، ومعابد الشمس ومحراب أبيس. كلها تقع بأطراف منطقة الإقامة الرئيسية أو خلفها. إنها مبانٍ حَجَرية



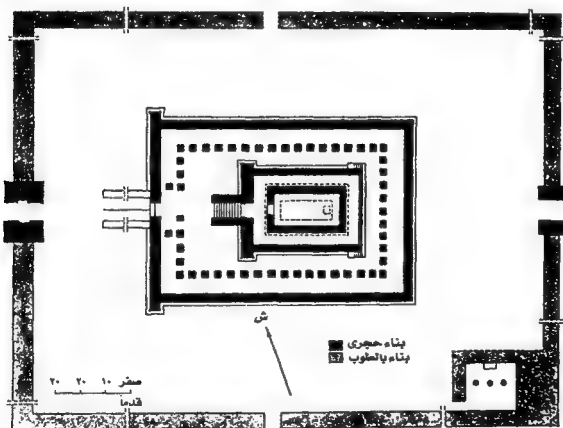
شكل رقم ٤٩  
تصميم المدينة الملكية وأجزاء ملاصقة لخرائب مروي

صغيرة، من غرفة أو غرفتين، مشابهة لمعابد مروية متأخرة ولا يمكن أن تُقارن بأي حال بالمعبد العظيم لامون. (سوف تناقش خصائص المعبد المروي بملء تفاصيلها في صفحات قادمة). الأذى إثارة للاهتمام بين المعابد الصغرى هو "معبد الشمس" الذي يبين رسمه في الشكل رقم ٥٠. نحو ما يصفه شيني :

كان المعبد محاطاً بحائط تمنعوس من الطوب الأحمر بمدخل حَجَرِي في الواجهة كما في معبد أمون. في داخل هذا البناء المسور دهليز على انحدار يؤدي إلى مصطبة تقوم عليها أعمدة منتظمة الأبعاد تُطوق غرفة العبادة أما السور الخارجي لهذه المصطبة فكان مزداناً بسلسلة من الصور الجانبية، وقد تحللت كثيراً الآن. يدنو من غرفة العبادة مدرج لسلالم من الحجر، أرضيتها وجدرانها مغطاة بقرميد لامع أزرق اللون. أما أنه كانت هناك أيضاً صوراً جانبية على جدران الدهليز الذي يحيط بغرفة العبادة فيبينها رسم لا يزال حياً يُبرز شخصاً ملكياً وثلاثة رسوم مُزخرفة القالب باسم الكنياد... (٨٦).

لأن موقعة صائتر في "أرض عشبية" خارج المدينة، وبسبب ما وُجد في داخله من كتلة حَجَرِي عليها نحت قرص شمسي، عُرف هذا المبنى إلى حد ما تخليلاً "بطاولة الشمس" التي كتب هيرودوتس عنها (انظر أعلاه).

أكوام الجفاء الشهيرة في مروي سلسلة من تلال واسعة المساحة خيطت من نفاة الحديد الملوقة وغير ذلك من الفضلات الناتجة عن عمليات الصهر. لقد ظلت مادةً لنقاش عظيم وقاعدة لمزيد من التخمين التاريخي. عُرف دنهام صناعة الحديد بأنها أساس الرخاء المروي (٨٧)، وتحدث كتاب آخرون في ثقة عن مروي المركز الذي انتشر منه صنع الحديد لكل شعوب إفريقيا المدارية



شكل رقم ٥٠  
تصميم لمعبد الشمس، مروي



(٨٨). ثم طرح أ. ه. سيسي نغمة جديدة بالنسبة لفكيلة من التخمين التاريخي المتأخر عندما كتب في إحدى التقارير المبكرة عن مروي .

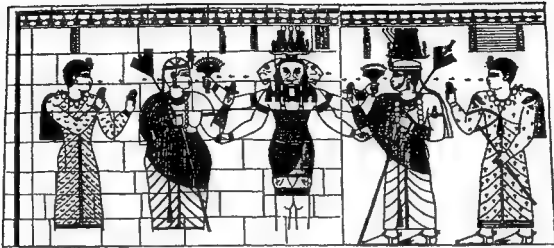
... إن جبالاً من جفاء الحديد تحيط بتلال المدينة على جانبيها الشمالي والشرقي، وقد ألقى التنقيب الضوء على الأفران التي كان يُصهر بها الحديد ويصنع بها أدوات وأسلحة. ولابد أن مروي، كانت بحق برمنجهام إفريقيا القديمة؛ الدخان المنبعث من أفرانها لصهر حديدها لابد أنه كان يتصاعد بإستمرار السماء، وربما كانت شمال إفريقيا بأجمعها تُؤمن من مروي بمعدات الحديد الضرورية . في حين استخدم المصريون النحاس أو البرونز، إستعمل الآثوريون الحديد. فما كان هنالك عصر للنحاس أو البرونز، فيما يبدو، في السودان؛ إنتقل سكانه من عصر الحجر إلى عصر الحديد (٨٩).

بالرغم من هذا الإدلاء الواثق لا يزال كأننا على جهل تام بطبيعة صنع الحديد وأهميتها في مروي أو بأي مكان آخر في السودان (٩٠). عقب حفر عُدة الأفران من القبور المروية، مع ذلك، يمكننا أن نتأكد بقدر معقول أن أدوات الحديد كانت أبعد ما تكون من الوفرة خلال هذه الفترة؛ فقد كانت في الحقيقة أقل شيوعاً من أدوات البرونز بفارق ملموس (٩١). في مقالة وُضع عنوانها وضعاً سليماً "أسطورة مروي وعصر الحديد الإفريقي"، خلص بروس تريقر قبل وقت وجيز إلى أنه :

... بينما تظهر مواد الحديد في السودان مُبكراً أثناء الأسرة الخامسة والعشرين، لا يظهر أن صناعة الحديد أنشئت هناك قبل القرن الرابع قبل الميلاد (٩٢). وطوال الفترة المروية كانت معظم مواد الحديد التي تم إنتاجها مفردات صغيرة، تُستعمل بصفة رئيسة كنسلة خفيفة وللأغراض المنزلية، ما أصبح الحديد عنصراً ضرورياً من تقنية الجزء الشمالي للإمبراطورية المروية الأخيرة إلا من بعد إضمحلال مروي (٩٣)...

بعد مروي، كانت أهم مدينتين في النوبة الجنوبية هما المصورات الصفراء والنقعة، اللتان تقعان على بعد أربعين إلى خمسين ميلاً جنوباً من غرب العاصمة الملكية (الشكل رقم ٤٦). هذه المستوطنات لا تقع على ضفاف النيل إنما على اثني عشر إلى ثمانية عشر ميلاً بالداخل، في منخفضات واديين عظيمين تسيل عبرهما المياه إلى سهل البطانة الغربي. أما بقايا المدينة في النقعة فهي تقرب كثافة من بقايا مروي نفسها، وينطوي المكان كذلك على سبعة معابد على الأقل، كلها بالحجر (٩٤). وهذه المجموعة هي الأفضل بناءً وأحسن الهياكل حفظاً في الفترة المروية. يشتهر معبد الأسد لئناك أمانى وأمانى تيرى برسوماته الجانبية الخارجية، التي تقدم مثلاً نموذجياً من الزخرف المنقوش علي الطراز المروي - المصري المتصخم نوعاً ما (الشكل رقم ٥١). ويعرض المعبد الصغير "الكشك" الذي يقف بالضبط في قبالة مزيجاً أخاذاً من التأثيرات المصرية والإغريقية - الرومانية (الصورة ١٥ - ١) (٩٥). إنه ليس شبيهاً بأي معبد آخر في النوبة العليا، لكنه يحمل تمثيلاً معتبراً لكشك تراجان، على جزيرة فيلة، بالقرب من أسوان. المعابد العديدة في النقعة تدلّ أن هذا المكان واحد من أهم المراكز اللدنية في النوبة القديمة مثلما أنه مدينة ذات مكانة أولى. وهناك أيضاً جبانتان كبيرتان تقعان جانبها. كل هذه البقايا لم يُنقب عنها إلا كتاب هذا المؤلف.

على بعد عشرة أميال شمال النقعة تقع المصورات الصفراء، وهي من جوانب كثيرة أكثر المواقع غرابية في النوبة جمعاء. هنا لا يبدو أن هناك بقايا مدينة أو جبانة؛ فلا شيء غير تجمع من مباني الحجر الصُّروحية (٩٦). أكبرها ظهوراً في حدة المسور العظيم - تجمع بنائى شديد التعقيد من المباني العالية المفتحة، والممرات والغرف، لا يوازيه مثيل في المعمار النوبي أو المصري (الشكل رقم ٥٢). وقد أُجريت قريباً حفريات بواسطة أكاديمية برلين للعلوم (٩٧) فنُفذت الكثير لتبين خريطة المسور، لكنها لم تلق ضوءاً على أصله أو غرضه. أفدنة من الأسوار الجرداء مبنية بالرمل الصجري المنعم نغومة جميلة خالية تماماً من الرسوم الجانبية أو النقوش، مع أنها تهى إغراء لا يقاوم لكتاب الرسوم الخطية من الأزمان القديمة إلى الحديثة. ويصف شيني الموقع على النحو التالي :



### شكل رقم ٥١

#### رسوم بارزة لمعبد الأسد المروي، النقعة

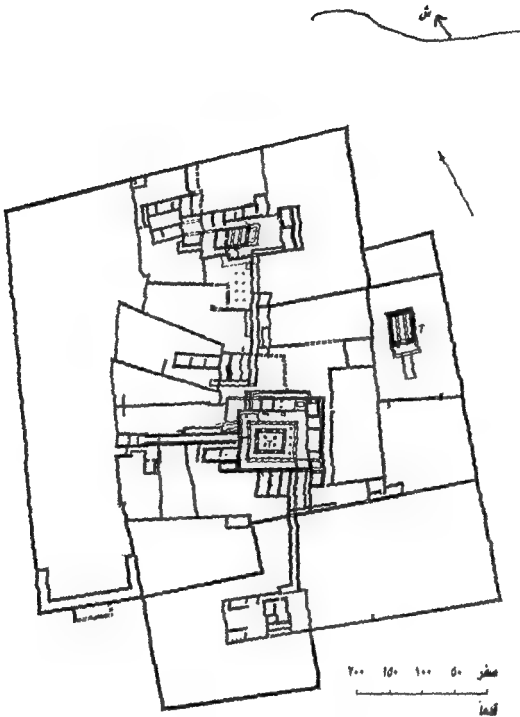
تظهر الملك نالطاك أماني

والملكة أماني تيري يقصدسان الإله الأسد أبا دماك (ذا الثلاثة رؤوس)

يتكون "المسور العظيم" من عدد من المباني والمساحات المستورة التي تحيط بمعبد مبنى على مصطبة، مشابهة لوضعية معبد الشمس في مروي على الأرجح وبناءً على ثوابت تتعلق بأسلوب البناء، يبدو هذا المعبد المركزي منتصباً للقرن الأول الميلادي أو أبكر من ذلك بقليل. (٩٨) على أنه لا توجد به نقوش غير رسوم خطية ثانوية، بقدر وفير للغاية. ويحيط بهذا المعبد صف من الأعمدة بأبعاد منتظمة، بعضها عليه نحت جانبيّة مثيرة للإهتمام. وخارج معبد الأعمدة سلسلة من الممرات والمنحدرات التي تصل الأجزاء المختلفة للبناء المعقد، وهي غير معروفة في أي موقع مروي آخر. أما عدد الرسوم الممثلة للأفيال المنحوتة فيعرض إنطباعاً بأن هذا الحيوان لعب دوراً هاماً في المصورات الصفراء؛ وربما خلطت المسورات الكبيرة لتحظيرها، إذ أن الممرات المنحدرة ربما جعلت لراحتها حيث أنه بالإمكان قيادتها بسهولة أفضل من الصعود بالسلالم. ومن الجائز أنه وُجد هنا مركزاً لتدريب الأفيال لأغراض عسكرية وإحتفالية، أما الحائط المرموق الممتد في شكل فيل فهو مفرد ودليل إضافي على أهمية هذا الحيوان (٩٩).

على الرغم من أن الفكرة القائلة بأن القاعات المفتوحة المشيّدة بجمال في المصورات صُممت كحظائر للأفيال تبدو نوعاً ما بعيدة الوقع، فمن الصعوبة أن يُقترح تفسير أحسن منطقية من ذلك لها. إن بعض أفيال الحرب التي وظّفها حكام مصر البطلمية - وربما كذلك القرطاجيون - كان قد حصل عليها قطعاً عن طريق بعثات أرسلت إلى السودان، إفتراضاً داخل الإقليم المروي. فبطلمي الثالث بلغ عنه أفاثارشيدس أنه أنشأ "ميناء للأفيال"، دعاه (بطلمي الحيوانات الوحشية) على ساحل البحر الأحمر في مكان ما بالقرب من سواكن الحديثة (١٠٠). ولما كان صيد الأفيال في الخلوات المنفتحة عريضاً في وسط السودان مما سوف يكون عملاً غير مضمون ومستهلكاً للوقت، لا يزال في مقدورنا أن نتخيل جيداً أن وكلاء بطلمي ربما كانوا سعداء للتعامل مع وسطاء وطنيين. حركة الإتجار بالأفيال الحية ربما أصبحت بهذا الأسلوب هامشياً جانبياً صغيراً لكنه مريح لسكان البطانة (١٠١). يبين أحد الرسوم الجانبية في المصورات، بمحض الصدفة، ملكاً يركب فيلاً (الشكل رقم ٥٢).

وظيفة المسور العظيم كانت على وجه قاطع دينية في جزء منها، ذلك أنه استوعب على الأقل معبدين ربما ثلاثة معابد وسط ممراته وقاعاته، تحمل جدرانه عدداً مضاعفاً من الرسوم الخطية لإسم

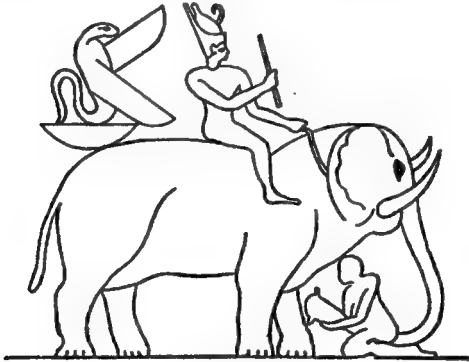


شكل رقم ٥٢  
تصميم المسور العظيم، المصورات الصغرى

الإله الأسد إباداماك<sup>(١٠٢)</sup>. أما المبانى المعروفة الأخرى في المصورات فهي كلها تقريباً ذات طبيعة دينية؛ تحتوى ثلاثة معابد صغيرة أخرى من النوع الذى تُرجَّح بساطة تصميمه كخاصية للفترة المروية المتأخرة. وهناك أيضاً هيكل مُسَوَّر ("المسور الصغير") يحيط بمجموعة يبدو أنها حجرات سكنية عادية. هي البُنية الوحيدة على الإقامة الفعلية بالموقع.

مما يلاحظ وسط أطلال المصورات بقايا ل حفير ضخم أو منخفض من صنع الإنسان قُصد به أن يحفظ المياه ويحتجزها من وادى الصفرا. مثل هذه التراكيب، قديمها وحديثها، هامة في أرجاء منطقة البطانة وهي مصادر المياه الوحيدة أثناء موسم الجفاف البالغ تسعة أشهر. وبدونها لابد أن المعيشة طوال العام في أماكن مثل المصورات والنقعة ستكون مستحيلة. إن /الحفير العظيم في المصورات هو الأكبر لحد بعيد، مع ذلك، بين الحفائر المعروفة - فهو من الكبر حيث يحتمل توفيره المياه لقطع من الأفيال. يزيد عن ١٠٠٠ قدم عبوراً و ٢٠ قدم عمقاً، وقد شُيدت جنباته فوق مستوى الأرض بمادة محفورة من القاع، ثم دُعِمت جُزئياً وبُنيت واجهتها بالحجر. أما الشكل أياً كان فهو مستدير، وله قناة تموين تؤدى بعيداً ناحية الشرق<sup>(١٠٣)</sup>. هنالك حفير آخر أصغر منه يقع بالقرب من المسور العظيم .

المصورات والنقعة، مع أنهما الأكبر وسعاً، ليستا بالمستوطنات المروية الوحيدة في سهل البطانة الجاف. فأكثر من عشرة من المواقع الأخرى عُثِر عليها، على مسافات تصل إلى ستين ميلاً من ضفاف النيل<sup>(١٠٤)</sup>. كثير منها، مثل المصورات، مصاحب /حفائر خربة. فعند الياباسا، رُتبت مجموعة أسود من حجر منحوت حول محيط الخزان، كأنما تحرس مستودع الماء الغالى<sup>(١٠٥)</sup>. هنالك معابد خربة بأربعة على الأقل من المواقع في البطانة إضافةً إلى المعابد الكائنة في المصورات والنقعة. هذه المستعمرات، التي أبدعتها أعمال جريئة من الهندسة المائية، هي المستوطنات الدائمة الوحيدة التي دُعِمتها سهل البطانة ابداً؛ إنها تهتئ ضوءاً جانبياً يومض صدفةً على منعة الحضارة



شكل رقم ٥٣

نحت بارز يبين ملكاً مروياً راكباً على هيل، المصورات

النوبية وريختها خلال القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي.

إقترح أن مواقع البطانة كانت مراكز إدارية وبيئية للقطاع السكاني الرعوى من المرويين (١٠٦). بيد أن هذا الإقترح غير مدعوم بدليل توزيعهم. فالبقايا المعلومة كلها في الجزء الغربي من البطانة، في حين أن أفضل الأراضي العشبية تقع مكاناً قصياً صوب الشرق. تتكاثر الحفائر القديمة في كل من المنطقتين، ولا يمكن اعتبارها مستوطنات مروية مميزة (١٠٧). ويلاحظ أن كل المواقع المروية «بالداخل» تقع على طول ثلاثة وديان عظيمة تحمل جزءاً كبيراً من مياه البطانة. فيحتمل، إذن، أنها تعكس إمتداداً مؤقتاً للزراعة في باطن أراضي الداخل، ربما خلال فترة كان هطول الأمطار الموسمية فيها أعلى بقليل مما هو عليه اليوم. يجدر بالذكر أن المصادر الغربية للنيل نفسه ليست وفيرة على وجه الخصوص في ضاحية مروى.

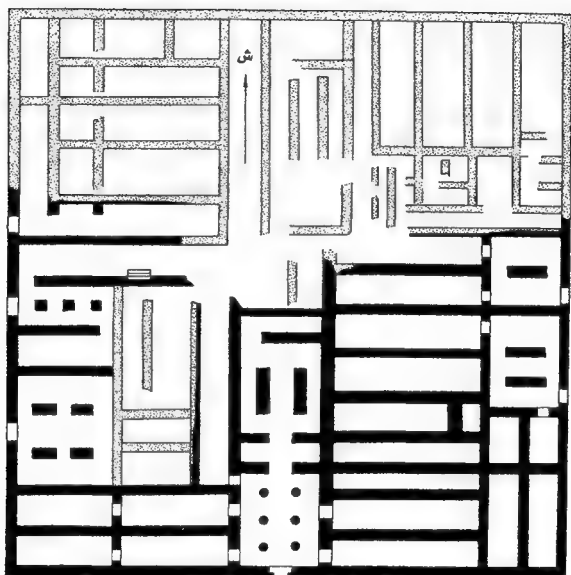
على بعد أربعين ميلاً في اتجاه مصب النهر جنوباً من مروى على الضفة الشرقية من النيل، أطلال وديانقا. هذا المكان يعرف أحياناً «بمينا النهر» لمدينة النقة، حيث أنه يقع في رأس واد ينحدر من المدينة القائمة في الداخل (١٠٨). حفريات وجيزة الوقوع هنا أضافت اللثام عن بناء مربع ضخم، حوالي ٢٠٠ قدماً في الجنوب، يمثل بقوة القصور في مروى وكذلك عركه المتقبون بأنه مقر ملكي (الشكل رقم ٥٤). بني كله بالطوب؛ جُعلت واجهة الأسوار الخارجية من طوب محروق وأُترعت من علٍ بمسحوق جيرى أبيض. للمبنى طابقان على الأقل، بالرغم من أن الطابق الأدنى وحده محافظاً عليه. أما الوضع الضيق، المستطال للحجرات الداخلية فيُحظر أنها كانت مغطاة بمرش معقود بالطوب. والسقف بهذه الصورة يحمل خاصية المبانى العامة المروية.

لو كان وصف فيركوتر للقصير صحيحاً، فعلياً أن نسلم بأن وديانقا كان محل إقامة ثانية في بعض الأحيان للعائلة المالكة الكوشية، ربما في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد (١١٠). تشمل مبانى أخرى في الموقع معبدتين صغيرتين وهيكلاً دائرياً ضخماً من الطوب، كأنه أسطواني هائل، غرضه غير معروف بالمرّة. هناك دليل كذلك على وجود مدينة ذات اعتبار، لكنها لم تُلقب بعد.

يستكمل وديانقا قائمتنا عن مدن مروية معروفة في وسط السودان. مع هذا، فإن مجتمعات أصغر مبعثرة على مرمي البصر أعلى النيل وأسفله وفي سهل البطانة بالمثل. وربما كانت هناك مستوطنة مروية هامة في سوبا، ليس بعيداً عن الخرطوم الحديثة، حيث وُجد بها أسد منحوت بالحجر من أصل مروى قبل بضعة سنوات مضت (١١١). بعيداً صوب الجنوب في سنار، على النيل الأزرق، بقايا كل من جبانة (مكوار) (١١٢) وقرية ذات حجم (أبو قيلي) (١١٣) من الأزمان المروية، وليس هناك سبب ليُفترض أن الإستيطان لم يمتد على طول النهر بين هذه النقطة والمراكز السكانية الرئيسة في جزيرة مروى (١١٤).

خرائب سنار لا تزال إلى اليوم أكثر بقايا معروفة من العهد المروى أقصى حدوده الجنوبية. أما لى مدى بعيد صوب الجنوب أو الغرب امتدت المملكة أو نفوذها، فقد ظل نهبا لقدر عظيم من التخمين. وكما أشار فيركوتر، لا توجد هناك حواجز جغرافية لتمنع إنتشار حضارة زراعية إلى حد يبلغ مستنقعات السدود العظيمة في جنوب السودان (١١٥). مهما كان الأمر، تظل كل المنطقة إلى جنوب سنار مجهولة لم يكشف بعد لعالم الآثار. أما إلى الغرب، فالدليل الذى أسند لإثبات النفوذ المروى بسهول كردفان ودارفور (غرب السودان) (١١٦) من طبيعة تخمينية وربما يقتضي ذلك ألا يؤخذ بجديّة. إن أقصى حدود للتوسع الكوشى الثقافى في إفريقيا سوف يتأتى تصديدها بالاستطلاع المنظم. في الوقت الراهن، نحن مُجبّرون على أن نقبل بسنار على أنها النقطة المروية القصيرة إستثنائياً، وحقيقة كاقصى نقطة جنوبية إختارتها أى حضارة نوبية خالصة.

إنها لحقيقة غريبة، لم تُفسر حتى الآن، أن كل البقايا المروية المعروفة في النوبة الجنوبية تقع



صفر ۱۰ ۲۰ ۴۰ ۶۰  
 قدما

شکل رقم ۵۴  
 مخطط قصر مروی، وادی بانقا

إلى شرق النيل<sup>(١١٨)</sup>. بل إن جَبانات جبل مويه الممتدة، في المنطقة ما بين النيلين الأزرق والأبيض (الشكل رقم ٤٧)، ليست مروية في شخصيتها بلا جدال مع أن كثيراً من القبور تحتوي على مواد من صنع مروى<sup>(١١٩)</sup>. إننا بما لا مهرب منه نذكر بعبارة بطلمي (١٥٠ ميلادية تقريباً) أن الضفة الغربية للنيل كان يحفلها قوم آخرون، النوبا، الذين لم يكونوا خاضعين لمروى<sup>(١٢٠)</sup>. وبقدر ما أن هذا الاقتراح يبدو غير محتمل، (لا يمكن صرفه كغاية في ضوء البينة الأثرية المتوافرة الآن).

إلى شمال مروى، وجدت قلة من المواقع المروية في وادي النيل بعيداً ناحية الشمال حتى بربر، خمسة وسبعين ميلاً سافلاً العاصمة. إن شيئاً منها لم يُحَرَّ عنه منهجياً بعد<sup>(١٢١)</sup>. ولا توجد بقايا معلومة بين بربر ونبّنة في الفترة النّبّنية أو المروية. وكما الملحنا إلى ذلك أنفاً، ربما أصبحت نبّنة نفسها معزولة ثقافياً واقتصادياً بحلول الأزمان المروية؛ يتحدث هايكوك عنها في بواكير القرن السابع قبل الميلاد على أنها في نفس الوقت ".... مدينة مليئة بمبانٍ قديمة تتحلل إلى خرائب، لا يكثر الملوك بزيارتها دائماً لأنهم كانوا ملاحظين في ضيق من الكهنة في ليفعوا ثمن إصلاحاتها العاجلة"<sup>(١٢٢)</sup>. إلا أن هذا لم يكن نهاية لقصتها، إذ أن معابد البركل أصلحت إصلاحاً مكثفاً من قبل ناتاك أماني وأمانى تيرى، وأضيف على الأقل معبد واحد جديد وبنائتان أو ثلاثة مباني أخرى إلى مجمع البركل في الأزمان المروية<sup>(١٢٣)</sup>. وهناك أجزاء من موقع المدينة والجبانة في صنم في ذلك ذات تاريخ مروى<sup>(١٢٤)</sup>. كاوة، بدورها، كانت مكاناً ذا أهمية معتبرة في الفترة المروية المتأخرة، وكانت موقعاً "لقصر" آخر لا يزال قائماً رغم أنها يصعب أن تُقارن بقصور مروى ووديانقا. وفي المساحات القليلة للمدينة التي تم تحقيقها، بقايا لمساكن مروية تقع من فوق المنازل التي ترجع إلى الفترة النّبّنية<sup>(١٢٥)</sup>. إن الدليل القائم على علم ترتيب طبقات الأرض هناك، كما في صنم وجبَل البركل، تشير إلى إحياء ملحوظ لنشاط البناء حول مطلع العصر المسيحي، بعد قرون عديدة من الجمود الفعلي. نتيجة لهذا هناك مستويات إقامة نبّنية ومروية متميزة بصفاً في معظم المواقع التي تنتمي إلى كل من الفترتين، مع قليل جداً مما يربط بينهما فيما عدا الإستخدام، الإصلاح المتوصل للمعابد القديمة. البينة القائمة على طبقات الأراضي تشير إشارة واضحة إلى فترتي انتعاش متميزتين للحضارة الكوشية<sup>(١٢٦)</sup>.

في اتجاه الشمال من كاوة، تظهر كذلك فاعليات النهضة المروية في جزيرة أرقو (بنوبس) وأرض عبرى - دقو النهرية. في أرقو، أُعيد بناء معبد تهارقا (قارن الفصل العاشر) بناءً مكثفاً، وزين خارجه بمثالين ضخمين لشخصين (الصورة ١٥ - ب)<sup>(١٢٧)</sup>. هذه الأنشطة ترجع بطبيعة الحال لناتاك أماني، المعروف من مضامين أخرى بأنه البنا العظيم ومُعِيد البناء للعهد المروية<sup>(١٢٨)</sup>. "آتي" (صدنقا)، التي اقترحت منذ فترة وجيزة كمحل دفن لتهارقا نفسه، مذكورة في نصوص عديدة كموقع محلي هام للفترة المروية<sup>(١٢٩)</sup>، إن هذا مثبت - حتى هذه اللحظة - أثرياً بما لا يعدو جبانة ومجموعة صغيرة من أهرامات الطوب التي تحيط بالقبر المنسوب إلى تهارقا<sup>(١٣٠)</sup>. مع هذا، فعلى بعد أميال قليلة شمال النهر كان هناك معبد مروى لا بأس به في (عمارة شرق). لقد زاره، لحسن الحظ، ورسوم رسماً تخطيطياً عاماً له رحالة عديدين في القرن التاسع عشر، ذلك أن كل أثر له بالتقريب إندثر في الأزمان الحديثة<sup>(١٣١)</sup>.

النصوص الحرفية للفترة المروية لا تذكر أي مستوطنات بين صدنقا وقرس<sup>(١٣٢)</sup>، ولم يعثر إلا على مواقع قليلة في هذه المنطقة من قبَل مسوح السد العالي<sup>(١٣٣)</sup>. إن بطن الحجر الجرداء غير المنتجة كانت المنطقة الأخيرة الأقل تأثراً بالنهضة المروية، ربما بقي معظمها مهجوراً كما ظل كذلك منذ أيام الحكم المصري. نقض ذلك، فالمساحة من الشلال الثاني صوب الشمال إلى وادي العلاقي تكاد أن تكون مبرقة باستمرار بالبقايا المروية<sup>(١٣٤)</sup>. هذه المستوطنات الشمالية لا يمكن، مع هذا، أن تطالع ببساطة على أنها نقاط خارجية على الحدود لمملكة جنوبية تتوسع بالتدريج شمالاً. إنها تمثل من عدة وجوه محافظة مروية متميزة وملأى بتاريخ، وإقتصاد، وثقافة خاصة<sup>(١٣٥)</sup>، سوف

## نناقشها في الفصل الثاني عشر.

إن وجوهاً عديدة للحياة اليومية المروية لم تمس في المسح الآنف . مع ذلك، فإن إمامنا بهذا الموضوع جاء في أوسع اجزائه نتيجة لتلقيب المواقع المروية في النوبة السفلى بحيث أنه يبدو من الأفضل أن نرغب إعتبار الوجوه المتواضعة للثقافة المروية، وملخص تفسير الفترة ككل، حتى الفصل القادم. وقيل أن نوجه إنتباهنا نحو الشمال، مع هذا، تبقى قيد الإعتبار قلة من الخصائص الإضافية للحياة والمجتمع المروى في أراضي السهل .

## الديانة المروية

الديانة في مروى هي مثل الوجوه المتقلبة الأخرى من الحياة في النوبة العليا، لابد أن تستقرأ بشكل موسع من بقايا صروحها . لخص شيني ببراغته الحالة التي تقع عليها معرفتنا الراهنة:

إلى أن نستطيع قراءة اللغة. نيجد المصادر لتقدير الديانة المروية مفيدةً بمعتقدات المعبد والقليل الذي يخبرنا به الكتاب القدامى . إن المعلومات المعطاة من هؤلاء الكتاب لأتعين كما ينبغي ، لأنهم يبنوا إدراكاً ضئيلاً عن الكيفية التي يمكن بها لمعتقدات يعتقدونها الآخرون أن تختلف عن المعتقدات التي يحملونها هم بأنفسهم، وكثيراً ما يحاولون... إن يعرفوا الآلهة المحليين بتعريفهم الذاتي. ( قارن مقالة هيرودوتس التي نقلت في بداية هذا الفصل).

إن دراسة العبادات المتعددة الموصوفة بالصروح تعكس أن الشعب المروى إشتق أفكاره الدينية من مصر، أن أغلبية الهتهم ورموزهم الدينية ظلت دائماً لصيقة الشبه بما أخذ به الفراعنة. لكن كان لهم بالفعل إله تخصصهم ليس لها نظراء مصريين، ويعتبر إباداماك- على الأقل- واحداً من هؤلاء، بل أصبح إلهاً لجذيرة مروى.

دوما شك عقد الملوك المرويين الأوائل الولاء لأموّن كعنصر أساسي لفترة تتقدم العرش وإننا لنعلم من النقوش... التوفير الذي أخذ به. إن النحت ليست منقوشة فحسب باللغة المصرية، لكنها في الأفكار الدينية التي تعكسها، تظهر توافقاً كاملاً مع الفكر المصري . ربما يكون هذا الدين الرسمي ، المشتق كما كان من التعاليم الدينية للإحتلال المصري الأسبق، مقصوداً على الأسرة المالكة، ويلاطها، وكهنوت المعبد (١٣٦).

لم يعرف الملوك المرويون بأنشطة بناء المعابد، باستثناء التفجير العظيم الوحيد من نوعه للتشييد وإعادة البناء في عهد حكم تاتاك أمانى وأمانى تيرى . بالنسبة للآخرين، تتعدى الصروح الجنائزية الملكية لحد بعيد عدداً وتلقاً كل الصروح الدينية الأخرى، في حين أنه وسط المبانى المدنية تبرز القصور بوضوح في مروى ووديانها باعتبارها أكبر من المعابد حجماً . المعبد المروى المألوف في الحقيقة قليل الشأن نسبياً، إذ يشتمل على غرفة مستطيلة منفردة يُدخل إليها عبر بوابة مقوسة ضخمة، ويعد معبد الأسد في النقعة (الصورة ١٥ - 1) خير مثال على ذلك بقي حياً حتى اليوم. أعيد بالضرورة وضع نفس الرسم على مقياس أصغر فيما يتعلق بغرف الجنائز الموصولة بالأهرامات الملكية. بعض المعابد الكبيرة لها أربعة أو ستة أعمدة داخلية تقيم السقف الخشبي المنبسط . في حالات معدودة أخرى كانت غرفة العبادة تُحجب عن بقية هيكل المعبد بفواصل داخلية ، في حالات قليلة معدودة أخرى كانت هناك قاعة أمامية مسنورة في مقدمة البوابة المقوسة الرئيسة . يوجد إستثناءان ملحوظان للرسم العادي للمعابد هما معبد الشمس في مروى والمعبد الذي يقع بين المسور العظيم في المصورات، كلاهما له أعمدة منتظمة الأبعاد تحيط بداخلهما غرفة للعبادة ذات أسوار تنتصب جدرانها منفردة وسط المبنى. هذا اللون من المعمار يوصف على نحو ما تقدم بمصطلح Peripetral ؛ يعتقد أنه يمثل واحداً من عدد من التأثيرات الآسيوية في ثقافة مروى (انظر بانداه) (١٣٧) .

أما أشد ملامح المعابد المروية التي لا تزال باقية إثارة للإهتمام، كذلك فيما يتصل بغرف



الأهرامات، فهي رسوماتها الجَنْبِيَّة المنقوشة في الحيطان، وهي أفضل ما تكون نموذجاً في معبد الأسد في النقعة (الشكل رقم ٥١). أسلوبها الفني والمناظر المرسومة مصرية الأصل بلا نزاع، لكن هناك لمسات محلية متميزة. تعد النسب الضخمة للشكل الإنساني خاصية دالة على الرُخرف المروى المتأخر؛ يُشخص نهم في مقدرة رسماً جانبياً لإحدى الملكات بأنه يبين ... سيدة ملكية مرتفعة بحق ... راسخة في ثبات بأبهة سلطانها وهي تتربع بدست الحكم على عرشها الأسدي<sup>(١٢٨)</sup>.

لمسات إبداعية أخرى هي تمثلات الإله الأسد بثلاثة رؤوس على جسم أفعى، وحيوانات أسطورية، مؤلفة متنوعة أخرى وسط الرسوم الجَنْبِيَّة في المصورات<sup>(١٢٩)</sup>.

تُبرز معابد آمون لا شك في ذلك صروح كوش الدينية الأخرى حجماً وعددًا أسماء الملوك المرويين، بتكرارها المتواصل للمركب "أمانى"، سوف تعنى كذلك في وثوق أن تقديس هذه العبادة الطيبية ظل مركزاً لأيدولوجية الدولة حتى نهاية المملكة. الجدير بالذكر، مع هذا، أن كل معابد آمون فيما عدا القائم منها في مروى على وجه الإحتمال تبدو كأنما شُيدت في عهد ثَبْتِيَّة. آمون يبرز بين الرسومات الجَنْبِيَّة في المعابد المروية الخالصة، لكنه لم يعد سيِّداً بالقوى مما هو عليه حال عدد من العبادات الأخرى. ربما ينطعم من هذا أن الدين المنظم في الفترة المروية كان شأنًا ملكياً بدرجة غير مطلقة تماماً كما كان عليه في عهد ثَبْتِيَّة، فقد كان عليه أن يلبي حاجات عناصر أخرى من السكان إلى جانب البيت الحاكم.

يلى آمون في الأهمية، على الأقل في منطقة مروى، الإله الأسد، أباداماك، الذي لا يوجد له نظير مصري. وكما ذكرنا آنفاً، كانت هنالك معابد للأسد في مروى، والمصورات، والنقعة، وربما الباسا. يبدو تقديس أباداماك مهماً على وجه الدقة في المصورات، حيث يُذكر في رسوم خطية متعددة وعلى صعيد واحد في صلوات رسمية، طويلة منقوشة بهيروغليفية مصرية جيدة على جدران معبده الذي نُقِب قبل وقت وجيز<sup>(١٣٠)</sup>. الكلمات التي يخاطب بها الإله ثَبْتِيَّة ذات أهمية: "التحيات لك، أباداماك، سيد النقعة؛ إله عظيم، سيد المصورات الصفراء؛ إله جليل، على رأس النوبة. أسد الجنوب، قوى الزراع"<sup>(١٣١)</sup>. يوجد هنا اقتراح أن الإله الأسد كان حارساً محلياً للجنوب المروى (حيث كانت الأسود شائعة وأفرة حتى القرن الأخير)، ومما هو جدير بالملاحظة أننا قلما نسمع عنه في النوبة السفلى المكان الرفيع الذي أودعت به معابد أباداماك في المدن الجنوبية تمثل بهذه الكيفية تسليماً بالتقليد الديني المحلي<sup>(١٣٢)</sup>.

الإله الشمس الممثلة في لوح النصر العظيم في جبل قبلى (الشكل رقم ٤٨)، والذي ربما تُرس له معبد الشمس في مروى، يبقى شيئاً كأنه الطلسم. مثل أباداماك ليس معبوداً مصرياً فيما أدرك عنه، لكنه يبرز بشكل أقل هيمنةً بكثير من الإله الأسد في النصوص الدينية المروية الباقية. ربما أن تقديسه في مروى يصير دليلاً على انتشار طائفة "مثرأ" إله النور الفارسي، التي كانت تنال شعبية في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية في نفس الفترة<sup>(١٣٣)</sup>. وهي تأثيرات شرقية أخرى يمتحن علماء كُثُر التسليم بها في ثقافة الجنوب المروى.

أما إيزيس، التجسيد المصري للآلهة الأم القديمة قدم الدهر، فتظهر مجدداً في الرسومات الجانبية للمعبد المروى، وكانت هناك معابد مكرسة لها بوجه خاص في مروى وودبانقا. يحتمل أن تمثل هذه إنتشار النفوذ الديني من مصر البطلمية صوب الجنوب حيث انبثقت آلهة الخصوبة كأوسع معبودة شعبية في القطر تحت الحكم الإغريقي. تقديسها كان لكل الأغراض العملية ديانةً لدولة البطالمة والمحافظة المروية في النوبة السفلى، كما سنرى ذلك في الفصل القادم. إنها لا تبدو مُنجززة لنفس الهيمنة في الجنوب المروى، حيث مكثت تقاليد دينية أقدم منها زماناً وأصعب اندثاراً. مع هذا، كانت إيزيس مهمة فيما يتصل بالطقوس الجنائزية للمرويين، مثلما كانت كذلك في مصر. نقلاً عن شينى مرة أخرى :

بعض التأييد لوجهة نظر هيرودوتس فيما يختص بديانة إيزيس وأوزيريس للأغراض الجنائزية يمكن أن يُشاهد في العدد المتضخم لطاولات القرايين الجنائزية وتضرعاتها لهذه الآلهة. ولما كان أوزيريس هو الإله التقليدي للأموات وإيزيس زوجته، هنا مرة أخرى يمكن أن تُرى الأفكار المصرية تسود. إن كثيراً من هذه الطاولات القربانية تُبين الآلهة نفثيس والإله أنويس، وكلاهما معنى بطائفة الموتى في مصر، تتدفق منهم البركات. ورغم أن صيغة هذه الطاولات القُربانية والنقوش مروية، فإن الأفكار اللاهوتية المتضمنة فيها مصرية<sup>(١٤٤)</sup>.

يبدو من الضروري بصعوبة إضافة الطقوس الجنائزية يتحتم أنها لعبت دوراً هاماً وربما مُحكماً في الحياة الدينية لمروى، كما فعلت طوال تاريخ مصر القديمة وكوش. هذه هي المساحة الوحيدة للتعالم الدينية التي بوسعنا أن نكون متأكدين، من بيئة الجبانات، أنها كانت شائعة لدى كل أوساط المجتمع المروى، ليس وفقاً على البلاط الملكي والنبلاء المدافن التلية الملكية المؤثثة بفخامة وُصفت من قبل في صفحات سابقة. أما أغني مدافن "خاصة" في الجبانة الغربية بمروى، رغم أنها أصغر حجماً من المدافن التلية الملكية، فيصعب أن تقل عنها بهاءً. فهي على قدم وساق مزودة بأهرامات صغيرة أو مصطبات، مُسورة بحيطان، ولها غرف إنتظار للجناز وأحياناً غرف مُركبة أسفل الأرض. نقيضاً لذلك، تجد غرف دفن الأموات من المواطنين العاديين ذات تكوين بسيط للغاية على وجه الدوام. علي أن وفرة المتاع الذي عُثر عليه في الجبانات الأشد تواضعاً في المحافظات من أحد أطراف النوبة إلى طرفها الآخر تحمل إشارات للحقيقة التي مؤداها أن الطقوس الجنائزية المكملة لم تكن حكراً للطبقة العليا. (يوجد تقدير أدق تفصيلاً لممارسات الدفن المروية، المعلومة لنا بصورة رئيسية من جبانات في النوبة السفلى، بالفصل التالي).

## مجتمع الجنوب المروى وثقافته

الصحرواح التي جرى حفرها ومواقع المدن التي لم تُنقب بعد لا تسمح لنا إلا بعمل تعميمات تلخيصية قليلة حول الأحوال الاجتماعية والثقافية في أراضي السهل المروية. ما نبدأ به، أن بإمكاننا أن نرقب أن الإستيطان كان أكثر تحضرأ عنه في أي فترة سابقة. عملية التحضير كانت بالطبع غير جيدة؛ فلقد بدأت حياة المدينة في النوبة تحت الدولة الجديدة المصرية، وفي العهود النُبتية كانت كل من صنم وكاوة مركزاً حضارياً هاماً. إلا أن بقايا المدينة أكثر تعدداً وامتداداً لمدى بعيد من بقايا عهود سابقة. بل إن أشد القرى تواضعاً تُعرض تخطيطاً منحصراً بما يدعو للدهشة، مُنبأ أن الحياة الاجتماعية ذات النطاق الأسرى بين شعوب النيل وصلت درجة من التطور ظلت لأمدٍ طويل ميزة للشرق الأدنى (انظر "حياة المدينة والقرية" في الفصل التالي).

إن عدداً من الإستقراءات الإستنباطية يمكن إستنتاجها من الشخصية الحضرية للمجتمع المروى. أحدها نمو طبقة وسطى على حجم، ربما ازدادت قوتها وثروتها على حساب الملكية. إن هذا مثبت أيضاً بعدد المدافن "الخاصة" الثرية في الجبانة الغربية في مروى وصدنقا وغيرهما. وكما لاحظ هايكوك،

.. التعاقب الملكي الأخير [لمروى] الشمالية هو المصدر الرئيس للبيئة في هذه المجادلة... لم تكن هناك مدافن تلية غنية بعد القرن الأول للميلاد. غير أنه تجدر الإشارة إلى أنه .. بالرغم من الإنخفاض الثابت في حجم المدافن وتشبيدها، لا يزال بعضها حسن التآثيل بالمواد... إن هذه المدافن يعود تاريخها بلا تدقيق إلى ما بين النصف الثاني من القرن الأول الميلادي ونهاية الثالث. المدافن الخاصة، التي يُحتمل أن تقع بين القرن الثاني إلى الثالث، ... دائماً مُترفة بحق، واحتوت أعداداً كبيرة من المواد المتأثرة بالتقاليد الإغريقية - الرومانية. من الممكن أن ما كان يحدث لم يكن إفقاراً عاماً، لكن ما حدث هو ببساطة حكم ملكي لطاغ يُوسع الطريق بين يدَي طبقة غنية من النبلاء الأقوياء؛ وهكذا ربما أصبح الفارق الإقتصادي بين الحكام والمحكومين أصغر مما كان عليه في أي وقت مضى منذ إنشاء الأسرة المالكة النُبتية<sup>(١٤٥)</sup>.

التحول الاجتماعي المرئي هنا ربما كان عرضاً تشخيصياً بدوره لتحول إقتصادي. وعلى نحو ما رأينا في فصول سابقة، دائماً ما اعتمد رخاء كوش إلى حد كبير على تجارة الصادر، وكان انتشار الحضارة الكوشية بأراضي السهل راجعاً فيما هو محتمل إلى امتداد طرق التجارة البرية. على أنه لقرون، كانت وسائل التوزيع محتكرة من العائلة المالكة وصفوة حاكمة صغيرة، جنو تقريباً كل منافع التبادل السلعي النوبي الخازجي. هذه الصورة تغيرت بشكل راديكالي في العهود المروية. فكان حجم البضائع المتحركة صوب الجنوب على طول النيل وفوق دروب القوافل الصحراوية أكبر بوضوح ظاهر عنها في أي فترة سابقة، وكانت تبلغ سوقاً إستهلاكياً أوسع عرضاً. بل إنه حتى الجبانة المحاطة الصغيرة في سنار، بأقصى حدود الإمبراطورية المروية، كانت رافلة في برونز، وزجاج، وغيرهما من سلع الترف التي كانت في غالبيتها صنْعاً اجنبياً<sup>(١٤٦)</sup>. مثل هذا العمل الواسع لم يكن بالتأكيد إحتكاراً ملكياً؛ إنه من الممكن فقط أن يُعلم عن نشاط عدد متقدم من أصحاب الأعمال الخاصة. والمجمل، أن الرخاء المادي في الفترة المروية كان ذا قاعدة أوسع بمستوى بالغ من عهود سابقة، وأن طبقة وسطى نشطة قد نمت مع هذا بإقتصاد تجاري فاعل. هنا نتعرف على اللمسة الإغريقية بوضوح عن أي مكان آخر وهي تحول الحضارة القديمة للنيل<sup>(١٤٧)</sup>.

ولأننا نعلم، حتى اللحظة، شيئاً قليلاً عن حياة القرية في الجنوب المروي، فمن الصعب أن نُصدر تعميماً حول الإقتصاد الزراعي للمنطقة. البقايا المعروفة لنا في أماكن مثل أبو قبلي هي بالتأكيد لزراعيين مستقرين أرجح منها مكاناً للزراعة. وعلى قدم المساواة في سهل البطانة، فإن الشخصية الحضرية لمعظم المستوطنات المعروفة تجعل من المحتم أنهم كانوا مدعومين بتطور الزراعة في *الواديان* الغربية بما يزيد على تربية الحيوان في الأراضي العشبية المحيطة. أما وصف استرابو للنوبة فيذكر زراعة الذرة<sup>(١٤٨)</sup> والذي أضحي في عهود متأخرة غلة الغذاء الرئيس في السودان (قارن الفصل الثاني). إن سرده يُؤيدنا بدليلنا الأول على زراعة الذرة جنوب مصر؛ ربما أنه كإحتمال قوي أن إدخال هذا النوع من الحبوب الذي يقاوم الحرارة والجفاف هو الذي جعل ممكناً مد الزراعة من جروف النيل إلى أراضي السهل.

إن لنا سبباً حسناً لنعتقد أن الفلاحة في الدولة الجديدة والعهود النُبتية نُظمت على الأقل جزئياً على أساس إقطاعي، يُكوّن ملاك الأراضي في حالات كثيرة مؤسسات المسجد العظيم (الفصلين التاسع والعاشر)<sup>(١٤٩)</sup>. أما عما إذا كانت معابد العهود المروية الأكثر تعدداً، وإن كانت أصغر بقدر عالٍ، موهوبة بالمثل بحيارات إقطاعية فإنه لأمر غير جازم، لكنه يبدو على أقل تقدير فرضية معقولة. من غير المحتمل أنها كانت مدعومة على الإطلاق بمخصصات ملكية، كما أنها لا تبدو مشاركة بأي قدر عظيم في التجارة. في نفس الوقت، يجعل سكان النوبة الأصغر حجماً نسبياً، والإمتداد الشاسع العريض لأرض قابلة للزراعة في الجنوب، من المُستيقن به أن قسماً كبيراً من السكان - ربما أغلبية غالبية - كان من أصحاب الأملاك الحرة الصغيرة، كما في كافة فترات التاريخ النوبي.

كذلك يقرر استرابو، كما يفعل كُتّاب قدامى عديدون متأخرون، أن عدداً منداها من رعايا مروي كانوا رعاة من الرُحّل الفقراء<sup>(١٥٠)</sup>. هذا الوصف لا يمكن أن يشير إلى السكان الجلوسيين المستقرين بالحضر الذين تعد بقاياهم معلومة لنا من الناحية الأثرية. لكنه يمكن أن يعني شيئاً واحداً هو أن المملكة المروية مارست قسماً من السيطرة على رعاة الصحراء أثناء ذلك الجزء من العام حينما جاءت بهم هجراتهم السنوية إلى حافة المنطقة المستوطنة. ويمكننا أن نقرر أن نوعاً من التآلف المعيشي حدث بين المزارعين والرعاة، مثلما كان دائماً أمراً حقيقياً في تاريخ الشرق الأوسط. وينفس الوثيرة فإن المزارعين المستقرين في منطقة شندى اليوم يتمكنون من رعي أعداد معتبرة من البقر على أراضي البطانة العشبية عن طريق تشغيل جيرانهم البدو كزعاة<sup>(١٥١)</sup>. بيد أن رعاة اليوم يظلون فقراء ومتخلفين، ويبدو غير محتمل أن أسلافهم في عهود قديمة قدّموا عطاءاً ملموساً كمساهمة في الحياة الاجتماعية أو الإقتصادية للإمبراطورية الكوشية<sup>(١٥٢)</sup>. إن كلا من

استرابو (١٠٢) وبلينيوس (١٠٤) كانوا على وجه النقطة مأخوذين بإنطباع عن فقرهم.

إذا كان البدو الرعاة قد ساهموا قليلاً في حضارة كوش، مع هذا، فإن علينا أن نذكر أياً كان الحال عليه أن "تعظيم البقر" لا يزال مزدهراً بهمة معتبرة بين المزارعين المستقرين. مع ذلك ليس مؤكداً تأكيداً واضحاً كما في ثقافة المجموعة الثالثة (الفصل السادس)، فقد كانت الرسومات التي تُصبر عن البقر ووعيه ألواناً زخرفية شعبية على أواني الفخار والبرونز، علاوة على الرسومات الجنينية للدفان الملكية (١٠٥). تُبين الأبقار عادةً بضرع ضخمة الحجم، ويصف دوح برونزي منظرراً لحلب اللبن (١٠٦). كميات عظام البقر التي كُشفت عنها في حفريات وجيزة في مروي تُظهر أن اللحم ومثله اللبن كانا مهمين في الغذاء المروي (١٠٧). ولذا فقد لعبت تربية الحيوان دوراً في حياة المزارع المروي، سواء كان ذلك مباشرةً من خلال أعماله الخاصة أو غير مباشرةً عبر إتصالاته ببداو البطانة.

أخيراً : في ارتباط كذلك بالتحول الاجتماعي والاقتصادي للنوبة، يمكننا أن نلاحظ بانتظام خروج موظفي دولة أقوياء في المحافظات بكل من المحافظة النبتية القديمة والنوبة السفلى. إن المجتمع السياسي للعهود المروية أصبح لا مركزياً بصورة أعلى من أي فترة سابقة منذ إنشاء حكم الأسرات المالكة. ربما كان هذا لا محيص عنه بالنظر إلى انشطار المملكة إلى ثلاث مقاطعات منفصلة جغرافياً لكنها بالتأكيد تعكس في نفس الآن الثروة والسلطة المتزايدتين للبرجوازية المستقلة. إن موظفي الدولة في المحافظات بالشمال ربما بدأوا معينين من طرف البيت الملكي ببيروقراطياً، غير أنه عندما اضمحلت قوة سلطات النظام الملكي الحاكم فقد انتهى بهم الحال إلى حكام متوارثين، شبه مستقلين (١٠٨). ويوسعنا أن نتمتع في الفترة المروية الأخيرة بدايات أول مجتمع إقطاعي متاصل في النوبة. إن تطوره سوف يكون أفصح لساناً وبشأنٍ أسمى في العصر ما بعد المروي (الفصل الثالث عشر).

التحولات التي فصلت الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مروي عن نوبة الفترات السالفة يمكن بالتقريب أن نتتبع كلها مباشرة أو غير مباشرة في أثر الحضارة الماثورة عليها. يصدق نفس القول على مجالات أخرى من الثقافة المثل، المعمار، والزخرف الصائلي، والفنون الشعبية ما فُتحت مصرية أساساً، لكنها بلمسات هيلينية؛ مرآة تُجلى في كل حالة التطورات المعاصرة في مصر تحت الحكم البطلمي والروماني بشكل لصيق. في مروي، رغم هذا، علينا أن نذكر أيضاً مجموعة صغيرة من تأثيرات خارجية لا تظهر أوروبية الأصل. هذه هي ما تُدعى بالتأثيرات الشرقية وقد تعارف عليها علماء متعددة بالثقافة المروية.

أما العناصر المروية التي تُسببت إلى أصل شرقي فتشمل إله الشمس، وبدقة التخصيص صيغة "تمثله في جبل قبلي" والمعابد التي ربما كانت مصاحبة أيضاً لإله الشمس؛ وعبادة تقديس الغيل (إذا صح أنها كانت كذلك) في المصورات والرسومات الممثلة لأباداماك ذات الرؤوس الثلاثة على جسد أفعى في النقعة (١٠٩)، وإخال الحفاير وزراعة القطن في وادي النيل (١١٠)؛ وشكل أواني البرونز ثلاثية القوائم التي تشعب في جبانات مروية (١١١). هذه اللوحة من العناصر الفنية الهندية كانت من القوة الشديدة في بعض جوانب من الفن المروي، بحيث أنها قادت فيركوتر للقول بأنه "يعتبر كل الفن المروي هندياً" (١١٢) مثلما أنه متأثر بالفن المصري.

الحقيقة، أن الأثر المتراكم للتأثيرات الشرقية في مروي هزيل لا يُسمن ولا يغني بحق إذا ما جرت مقارنته بالمصري والتأثيرات الإغريقية - الرومانية على السواء، وقد أنكر الأصل الخارجي لبعض العناصر بُدعة واحدة (١١٣). أما ما هو أقوى صلة بالآمر، فهو إنها "فئات وشتات" ولا تقوى على أن تكون مُركباً متكاملًا، ولا تقطع تأكيداً بماضي مكان واحد في الأصل. لربما وفدت العناصر المختلفة للنوبة في عهود متفاوتة ومن فوق دروب متنوعة، بما في ذلك ما وفد إليها من مصر. إن الهند وفارس بعد كل ذلك كانا قد أصبحا جزءاً من "العالم المعروف" منذ فتح الإسكندر، وكانت

افكار شرقية كثيرة قد اُضحت مُتداولة في العالم المعروف مؤخراً. ركب أفيال الحرب الإغريق والرومان الأوروبيون وما كانوا في ذلك أقل من القرطاجينيين واليطالمة، وقُدس ميثراً في بريطانيا والمانيا النائيين مثلما عُبد بأجوام أسطع شمساً. كانت التجارة الملاحية تفتعش في المحيط الهندي الغربي، ووجدت وفرة من البضائع الشرقية طريقها إلى اقطار البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى الحبشة والنوبة، ربما مباشرة أدنى قريباً عن طريق البحر الأحمر. بإجمال، إن التأثيرات الشرقية مما قد يُرى في مروي يحتمل الا تكون اعظم تعدداً ولا ارفع قيمة أو اهمية من التأثيرات التي قد تُنظر في روما نفسها؛ إنها أكثر وضوحاً فحسب في مدن الصحراء الشرقية المعزولة حيث لا يحيط بها دفع متموج من الطرائق والتأثيرات المتنازعة .



## الفصل الثاني عشر

### إنبعاث نهضة الشمال

#### عودة الإسطيطان البطلمي، (\*) والرومانى، والمرؤى فى النوبة السفلى

بينما كانت المراكز السياسية والإقتصادية لكوش تنتقل فى إتجاه الجنوب من المنطقة النُوبية نحو أراضى السهل المَروية، كانت تطورات سياسية هامة من نوع آخر توالى بعيداً فى الشمال . فعقب طرد حكامها النوبيين (الفصل العاشر) ، ظلت مصر فريسة لعدة قرون للفتح الأجنبى واحداً بعد الآخر. إن فُصولاً من الحكم الآشورى والفارسى كانت تتخللها على فترات إستعادة للإستقلال المصرى، إلى أن وضع فتح الإسكندر الأكبر فى ٣٢٢ قبل الميلاد نهايةً أخيرة للتسلسل الفرعونى القديم. ومع هذا، فإن معياراً من الإستقرار والحكم الذاتى تم إقراره بعد موت الإسكندر، عندما قام خليفته، القائد المقدونى بَطْلَمَى، بإلغاء ولاءاته الخارجية واشترع أسراً مالكة مستقلة فى الإسكندرية. بعد ذلك بما يقرب من ثلاثمائة عام إعتلى البَطْلَامِيَّة البقايا المتأكلة من حضارة مصر، حتى أهلكت كليوباترة، آخر سليله، حياتها فى عام ٣٠ قبل الميلاد. ويموتها ذوى آخر رمز للإستقلال المصرى. وأضحى أرض النيل القديمة محافظةً رومانية، لتحكم فى الأعوام ست مائة المقبلة من قبل قناصلة أجانب يعينون من روما أو القسطنطينية .

تقدم حضارة مصر البَطْلَامِيَّة لقاحاً غريباً من التأثيرات الإغريقية والفرعونية، تسود فيها الأخيرة. وكما علق توينبى ، إنها اللحظة الوحيدة التى تبدو فيها تقاليد حضارة أقدم متغلبة على تقاليد يونان، بدلاً من العكس <sup>(١)</sup> . إن البَطْلَامِيَّة لم يتبنوا فحسب القاب الفرعون ببلاغتها المنمقة، لكنهم فى معظم الجوانب الأخرى وأصلوا تقاليد الملكية المصرية وحياتها التى تسبقهم دهرًا. نتيجةً لذلك، ربما كان لتغيير الحكام أثر محدودٌ لكُتَل الفلاحين. ويغض النظر عن هذا، فإن النفوذ الإغريقى كان له أثر ملموس فى مجالات أخرى من الحياة المصرية، ويوجه خاص فى المال والتبادل السلعى. لقد شهدت الفترة البَطْلَامِيَّة إحياءً إقتصادياً رئيساً، ناتجاً عن كل من توسع الإنتاج الزراعى <sup>(٢)</sup> و تنمية التجارة الملاحية غير موانئ جديدة النشأة فى الإسكندرية وعلى ساحل البحر الأحمر. ومن خلال هذه الموانئ وصلت مصر إقتصادياً وكذلك سياسياً وأيدولوجياً بالعالم الإغريقى - الرومانى القديم المعروف. إن أنشطة البناء المتعددة التى مارسها البَطْلَامِيَّة وخلفاؤهم الرومان فى مصر العليا والنوبة السفلى، إن لم تكن تعنى شيئاً آخر، كانت شهادةً على الحيوية الإقتصادية للعصر <sup>(٣)</sup> .

فى أن واحد سعى البَطْلَامِيَّة، مع برنامج إنعاشهم الإقتصادى والسياسى لإعادة إغناء حق مصر التاريخى فى النوبة السُفلى من جديد. كانت المنطقة فى هذا الوقت، إلى الحد الذى نعلمه، مهجورة هجراناً واسعاً، ومن غير المحتمل أنه كان لضمها علاقةً ما بالمشروع البَطْلَامِي المخطط للتوسع الزراعى. الأبلغ احتمالاً أن السياسة الجديدة لمصر نحو الجنوب دفعت بها رغبةً فى إقامة إدارة مباشرة على خطوط الإمداد من مَروى وساحل البحر الأحمر ، الذى لم ترد عبره منتجات المناطق الحارة المألوقة فى الأزمان السالفة وحدها، إنما كذلك أفيال الحرب التى استُخدمت فى حملات

(\*) البطليموسى نسبة إلى البطالسة فى تراجم أخرى . وفضلنا البطلمى نسبة إلى البطالمة لتطابقها مع النطق الأصلى .  
انظر المقدمة - المترجم .

بطلّمية عسكرية عديدة في آسيا<sup>(٤)</sup> . ولقد بالغ أحد الكتاب منذ فترة وجيزة عندما اقترح أن صيد الفيل ربما كان الدافع الأساسي للتوسع البطلمي في الجنوب، الذي بدأه على ما يبدو الحاكم الثاني من الأسرة الملكية<sup>(٥)</sup> . بمجيء عهد بطلمي السادس ( ١٨١ - ١٤٥ قبل الميلاد )، مع ذلك، جُدد نشاط مناجم الذهب الصحراوية، ويبدو أن إخراج الذهب من المناجم كان عاملاً هاماً على أقل تقدير في سياسة مصر الجنوبية مثل صيد الفيل. (إن وصف تعددين الذهب المصري الذي نُكر في الفصل التاسع كتبه في الحقيقة زائر إغريقي لمناجم الصحراء خلال العهد البطلمي)<sup>(٦)</sup> .

كما هو معتاد تركّز إهتمام مصر قبل أي اعتبار آخر في المنطقة ما بين أسوان ووادي الغلاقي - الطريق الرئيس لمناجم الصحراء . المحطات العسكرية والتصوينية أُنشئت في عدد من النقاط على امتداد النيل، وأعلنت السيادة المصرية على الملا بالطريقة التقليدية ممثلة في بناء المعابد في بسلشيس (دكة الحديثة) ودابود، ترتباً بجوار الحدود العليا السفلى من الإقليم الذي أُعيد احتلاله. وكانت المسافة من أسوان إلى وادي الغلاقي، تبعاً لنظام القياس الإغريقي - المصري، اثني عشر سخيوناي (حوالي خمسة وسبعين ميلاً)، أما المقاطعة التي أُعيد احتلالها، ولعل اسمها القديم أصبح متسبباً خلال قرون للتخلي عنها، فقد أصبحت بمرور الزمن معروفة باسم الدوديكاسخيون - أرض الإثني عشر شوناي (حوالي خمسة وسبعين ميلاً) . وتطورت بالتدريج في ظل الاسم لتصبح آخر محافظة جنوبية لمصر الإغريقية - الرومانية، وهكذا بقيت حتى نبذها ديوقليانوس مؤخراً لبُدو الصحراء بعد خمسمائة عام .

من الواضح أن أركاماني "أرقامين"<sup>(٧)</sup> الذي في مختلف التقديرات، كان واحداً من أكثر الملوك المرويين طاقة، غدّ النوبة السفلى دائرة لنفوذه الخاص. وطالع لما أثارته الأنشطة البطلمية في الدوديكاسخيون، أحس إنه مجبر ليتخذ إعلاناً مضاداً بشأن السلطة عليها. وقد اخذ إعلانه شكل قاعة دخول صغيرة أضافها إلى معبد بطلمي الرابع في بسلشيس، مفقوشة بشعاراته الملكية الخاصة . وفي زمن يواكبه تقريباً أقام معبداً جديداً كل الجدة في فيلة - أضاف إليه بطلمي الرابع بدوره قاعة دخول. (كذلك يبدو أن أذكر أمون، وهو ملك مروى آخر لم يتم تحديد مكانه في التسلسل الملكي، شيد معبداً صغيراً بالقرب من فيلة، أضاف له بطلمي السابع إضافات لاحقة<sup>(٨)</sup>). هذه المباني "الملقحة" الغربية عُدت ليلاً على كل من التنافس والتكالب بين الملكيات النوبية والمصرية<sup>(٩)</sup>، والنقطة ذات الأهمية والدلالة في الحاليين هي أن كليهما أحس بضرورة إعلان مصلحته في منطقة لم تكن لعدة قرون محل اعتبار لأي منهما . وقد يبدو كذلك أن كلاً منهما إعتزف بحقوق الآخر، لأنهما تاذنًا بإقامة المعابد والنقوش دون مُساس بها. (مع ذلك، خلال فترة لاحقة من العداوة أزال بطلمي الخامس بعض شعارات أركاماني من فيلة. أما قاعدة الحكم الثنائي فتبدو متضمنةً إنفاً في معابد بسلشيس وفيلة الممتزجة؛ إن عليها أن تتطور بوضوح علي درجة تحت حكام مصر الرومانيين. ومثل هذا الترتيب يُثير فكرة بأن الاهتمام الأول لكل من الطرفين كان إهتماماً استراتيجياً أكثر منه إقتصادياً .

للوهلة الأولى، نري أن إهتمام أركاماني بمنطقة الدوديكاسخيون يستعصي علي الفهم أكثر من إهتمام بطلمي بها. إن المنطقة الواقعة جنوب أسوان مباشرة طبقاً لتقليد جغرافي كانت جزءاً من النوبة (أصلاً الواوات) أكثر من تبعيتها لمصر، لكنها أخضعت للسيطرة المصرية في أطول فترة من تاريخها. وفي زمن أركاماني لم تطا الشمال قدم أي حاكم من حكام كوش، ولم يدع أحدهم السيادة عليها، لعدة قرون<sup>(١٠)</sup>، وقد هجر السكان النوبيون الأصليين المنطقة في الألف الأخيرة قبل الميلاد على حد سواء. ما من بنية أثرية توحى بأن أحداً على الإطلاق كان يعيش على امتداد النيل بين أسوان ووادي الغلاقي عندما شيد بطلمي الرابع معابده هناك (٢٢٠ قبل الميلاد تقريباً). ومع ذلك فإن السيطرة على النوبة السفلى، كانت ضرورية لتأمين الطرف الشمالي من طرق التجارة التي نشطت عليه معظم الحركات بين مصر ومروى، ولابد أن هذا هو تاويل إهتمام أركاماني وكذا بطلمي بها سواء



بسواء. تحت هذه الظروف صارت أنشطة البناء النوبية تعبيراً مواتياً لتأكيد الحق أكثر منها إندعاءً بالسيادة؛ لقد كان معنياً بصون نوع من وضعية "الميناء الحر" في النوبة السفلى.

بعد أن خفف علم أركاماني فوقها ورأى أنه رُوعى باحترام، صار هو وخلفاؤه على قناعة بأن يتركوا للبطالمة الإدارة العملية للدوديكاسخيون. ولم يكن هناك سعي من مروي لإستعمار المنطقة الشمالية أو وضعها تحت الحماية، وفي القرون التي تلت نمت ثقافياً واقتصادياً كمحافظة إغريقية - رومانية، بصرف النظر عن زعم السيادة المروية المشتركة عليها. وفي ظل بطلمي السادس (١٨١ - ١٤٥ قبل الميلاد) إمتد الحكم المصري بالفعل صوب الجنوب حتى الشلال الثاني؛ وهناك دليل على أن الحاميات البطلمية ظلت قائمة لزمن في بوهين<sup>(١٢)</sup> ومرقس<sup>(١٣)</sup>، وربما أيضاً في جبل عدا وقصر إبريم<sup>(١٤)</sup>، التي أصبحت مؤخراً أهم المستوطنات المروية في النوبة السفلى. أما الممتلكات المصرية إلى الجنوب من الدوديكاسخيون فيُشار إليها في نقشٍ منذ عهد بطلمي السادس على أنها ترايكاونتاسخيون - أرض الثلاثين شوتاي<sup>(١٥)</sup>.

يمثل حكم بطلمي السادس بوضوح نقطة النهاية للتوسع البطلمي في باطن النوبة<sup>(١٦)</sup>. وبعد موت هذا الملك غاص البيت الحاكم الإغريقي - المصري في لجةٍ من التنازع الأستري تكاد لا يهدأ لها قرار، وامتد ذلك التنازع حتى الإنسحاق النهائي للأسرة المالكة بعد قرن من حدوثه. في أثناء هذا الزمن سُحبت الحاميات على ما يبدو من الترايكاونتاسخيون؛ ولا توجد أي بُينة إضافية على أقل تقدير عن النشاط البطلمي إلى جنوب وادي العلاقي. ويحتل غاية الاحتمال أن حاميات مروية صغيرة كانت تمتلك بمجى القرن الأول قبل الميلاد مواقع القلاع في جبل عدا وقصر إبريم، وربما أيضاً بوهين<sup>(١٧)</sup>. لقد حافظ البطالمة على سطوتهم على الدوديكاسخيون، بالرغم من أنهم لم يسطعوا فيها بأنشطة بنائية أقوى مما فعلوا من قبل<sup>(١٨)</sup>.

يبدو واضحاً أنه طوال العصر البطلمي كان الإهتمام الذي تركز في النوبة من ناحية الحكام المصريين ونظراتهم المرويين في الغالب إستراتيجياً؛ إن أيّاً من القوتين لم تبذل جهداً ما لتعديد إحتلال المنطقة بالقوة. فعندما ينشأ تعايش عملي، يصبح من غير الضروري لأى واحد منهما أن يحتفظ بقوات مؤسعة في المنطقة العازلة بينهما. وهكذا، فإن البقايا الأثرية ذات القيمة والأهمية التي خَلَفها كلٌّ من البطالمة والمرويين الأوائل في النوبة السفلى هي المعابد في بسلشيس، ودابود وفيلة، وربما القواعد الأسبق لقلاع جبل عدا وقصر إبريم. وأما عن بقية الأماكن، فقد اكتفى كل طرف بالحفاظ على بضع حاميات صغيرة لصماية التجارة. إعادة الإستيطان على نطاق شامل للنوبة السفلى، فيما بين الدوديكاسخيون وما وراءها، كان عليه أن ينتظر مجئ الحكم الروماني.

### فيلة وعبادة إيزيس

ظلت جزيرة إلفانتين المستوطنة والمركز الإداري الرئيس على التخوم المصرية النوبية في أسفل الشلال الأول وقبالة موقع أسوان الحديثة مباشرة، منذ عصر الدولة القديمة<sup>(١٩)</sup>، لقد كانت "باب الجنوب" التقليدي - نقطة نقل الشحن للحمولات من النوبة وإليها، ومقر المسؤول المصري المُطاب به الدفاع عن الحدود (قارن الفصل السابع). واحتفظت إلفانتين تحت الحكم البطلمي بأهميتها الإقتصادية، لكنها في المحيط السياسي أزلحها زحزحة واسعة عن مكانتها مركز جديد يبعد عنها ستة أميال جنوباً، ويقع على جزيرة فيلة فوق مسقط الشلال بالضبط.

تعود أهمية فيلة فيما يبدو إلى حقيقة أن الجزيرة كانت مقدسة لدى الإلهة إيزيس - النسخة المصرية لأم الأرض الخالدة. لقد كانت جزءاً من منظومة الآلهة المصرية منذ الأزمان السحيقة، غير أن طقوس الخصوبة لم ترتق قط إرتقاءً عالياً في مصر الفرعونية، وأسدل على إيزيس ستارٌ كثيف

من شقيقها ورفيقها أوزيريس، الذي أصبح الرمز الأساسي للطقوس الجنائزية. إن هذه العلاقة تعرضت لتحويل تحت حكم الإغريق، الذين وجدوا في إيزيس وجهاً مشابهاً للآلهة الأولمب بما يدعو للإقرار بها، فجعلوا منها من ثم أغلب المعبودات شعبية إلى حد بعيد في مصر البطلمية<sup>(٢٠)</sup>. وكان على عبادتها أن تنتشر في الأزمان المروية بعيداً ما وراء النيل، إلى قسم كبير من العالم الغربي .

إن نزراً قليلاً معلوم من تاريخ فيلة الميكر. مثل إلهتها الراحية، كانت تلك الجزيرة فيما يبدو غير هامة في الأزمان الفرعونية، بالرغم من أنه ربما كان فيها معبد للأسرة الثامنة عشرة. أما أقدم مبنى بقي ماثلاً إلى يومنا فمعبد صغير بدأه نكتانيو الأول، أحد آخر الفرانعة المصريين الخلفاء (٣٧٨ - ٣٦٠ قبل الميلاد). ويعود تاريخ المعابد الستة الأخرى، إضافةً إلى عشرين من مبانٍ غيرها في الجزيرة، إلى بداية الفترتين البطلمية والرومانية. تحت حكم هؤلاء الحكام المتأخرة، جاءت الجزيرة الصغيرة (التي لا تزيد عن ٥٠٠ ياردة طولاً و ١٥٠ ياردة عرضاً) لتدعم مدينة لا شك في وجودها، تحيط بالمعبد العظيم لإيزيس الذي يسيطر عليها (الصورة ١٦ - ١). ويشار إلى المكان في نصوص معاصرة متنوعة على أنه "الجزيرة المقدسة"، و "دار الجنة" و "مدينة إيزيس"<sup>(٢١)</sup>.

مع نمو القوة الروحية لإيزيس، تنامت بها السلطة المؤقتة لوزرائها الدينيين. يتضح هذا الأمر على وجه الخصوص في الدوديكاسخيون، المنطقة التي أحاطت مباشرةً بالمركز الرئيس لعبادة إيزيس. وفي زمن أركاماني أيضاً يبدو أن المنطقة كلها كانت تُعد من الأراضي المخصصة لعبادة إيزيس مثلما كانت مقاطعة طيبة من قبل مملوكةً لأمون، يديرها ممثلوه الدينيون في الكرنك. ويوضح ميللت أنه "في نص حفرى بقاعة إرقامين، يمنح الملك رسمياً للآلهة الإثني عشر إرتو من الأرض (شوناي إغريقي) على كل جانب من ضفتي النهر من أسوان إلى تكيسو، وهو عمل خُذ ذكره في مناظرٍ بمعابد كثيرة متأخرة في فيلة، ويُدعى أنه بهذا العمل يؤكد صنع الملوك السابقين"<sup>(٢٢)</sup>.

هنا يمكن العثور على المفتاح الرمزي للحكم الثنائي النوبي والمصري في الدوديكاسخيون. فمن الناحية النظرية كانت أرض إيزيس الخاصة، وكان الملوك النوبيون والمصريون يرعونها معاً. وعلى حد تعبير ميللت "... كانوا رسمياً، على الأقل، ينظرون إليهم على أنهم الذين وهبوا معابد النوبة". ولأنهم يتقبلون سوى المنافع القدسية لنفس الحياة من آلهة النوبة بالمقابل<sup>(٢٣)</sup> ومن الناحية العملية كانت منطقة عازلة شبه مستقلة - عمودية إقطاعية يديرها كهنة إيزيس كولاة إسميين لكل من مصر والنوبة. دائماً ما وُصف المسؤولون المدنيون وحتى العسكريين أنفسهم في نقوشهم "كوكلاء لإيزيس"<sup>(٢٤)</sup> بدلاً عن نعت أنفسهم كخدام لهذا أو ذاك من الحكام المصريين أو المرويين .

السلطة المؤقتة لكهنة إيزيس لم تمتد أبداً وراء هيراسايكامينوس (محرقة الحديثة) على الطرف الجنوبي للدوديكاسخيون إن نفوذهم الروحي، مع هذا، ذهب إلى أبعد من ذلك بمدى. فقاصياً في الجنوب كانت هنالك معابد إيزيس في مروى وودبانقا (الفصل الحادي عشر)، بالرغم من أنها إلى حد معتبر كانت أقل أهمية من معابد أمون العظيمة التي كانت تعبيراً محسوساً لسلطة الدولة. وأياً كان، فقد بدا أنه عندما رجع المستوطنون المرويون إلى الشمال، وقفوا كهيئة تحت جرف التيار الأيدولوجي لفيلة؛ لدرجة بالغة، كانت إيزيس أهم معبود مجيد في كل من المحافظات الرومانية والمروية في النوبة السفلى.

في ديانة إيزيس التي اعتنقتها النوبة الرومانية والمروية، علينا أن نذكر البدايات لواحد من أهم تحولات التاريخ الأيدولوجية. فعلى محيط الدائرة الصغرى لأراضي النيل، أصبح تقديس إيزيس أول دين دولي وقومي سامياً بحق، وما عاد يُدعى اعتناقاً موقوفاً على أي حاكم مؤقت بمفرده؛ بل مُعتنقاً ببسط بركاته على العديدين. وأضحيت فيلة مدينة مقدسة ومكاناً للحجيج بأنجمعه من كل الطبقات والجنسيات: إغريق، ورومان، ومصريين، ومرويين، وبدو الصحراء<sup>(٢٥)</sup>. لا جرم، إنَّ أن يصبح النفوذ الموقوت للكهنة القيمين على عبادة إيزيس ماثلاً لنفوذ الفاتيكان في أزمان متأخرة. لقد كان بوسعهم

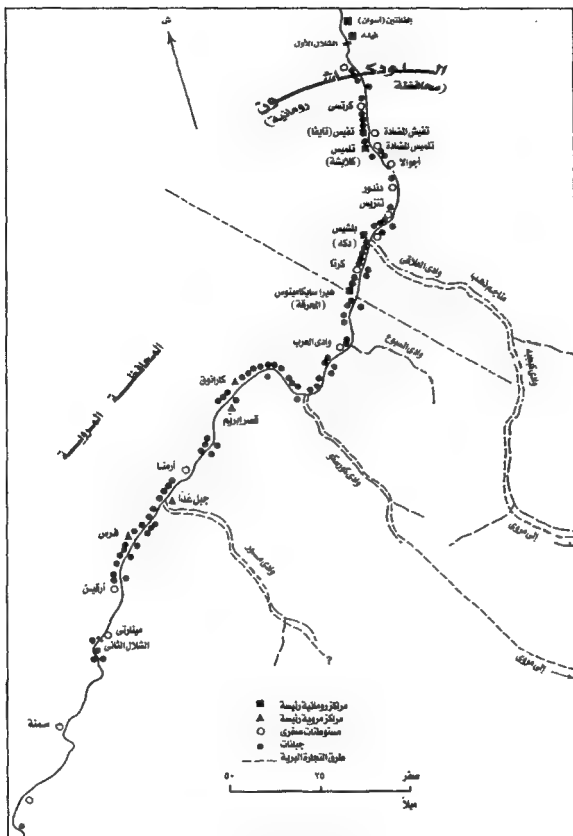
أن يحافظوا على وضعيتهم وعلى ديانتهم، لمنفعة الخاصة من مواليتها المؤمنين، ربحاً طويلاً بعد أن قُضَ إنشاؤها رسمياً في أنحاء مصر<sup>(٢٧)</sup>. وفي كل هذه الجوانب، سبقت عبادة آلهة الخصوبة المصرية القديمة قدم الدهور الدور الذي يتأتى أن تلعبه المسيحية ويلعبه الإسلام على المسرح الأكبر للعصور الوسطى .

### المحافظة الرومانية

إذا استثنينا الاضطرابات في عهدى حكم بطلمي الخامس ويطلمي السادس<sup>(٢٧)</sup>، فإن "إتفاقية الجنتلمان" التي كان طرفاها أركاماني ويطلمي الرابع في الدوديكاسخيون<sup>(\*)</sup> ظلت نافذة طوال العصر البطلمي. أما البطالمة المتأخرون فكانوا مشغولين في استمرار بمنازعات الأسر الحاكمة بين ديارهم وتهديدات الإحتواء الروماني لهم، فلم يُعيرَ محافظاتهم الجنوبية إلا انتباهاً محسوراً. بيد أنه لم يتحرك حاكم مروى ليستثمر ضعفهم بتأكيد سلطته الذاتية في الشمال. كان هنالك، في الجانب الآخر، قدراً معيناً من الإستبطان المروى في منطقة الترايكونتاسخيون الخالية، التي سُحبت منها فيما يظهر القوة المصرية بعد موت بطلمي السادس. وربما أن نوعاً ما من المركز الإداري والعسكري المروى أقيم في قصر إبريم، المكان الذي سيضحي فيما بعد العاصمة المروية في النوبة السفلى (انظر الشكل رقم ٥٥) إننا نعلم بوجوده في القرن الأول قبل الميلاد بدرجة رئيسة من مراجع نصية، ذلك أن البقايا الأثرية التي رأت النور في قصر إبريم حتى الآن يكاد يعود تاريخها بأجمعها إلى أزمان متاخرة<sup>(٢٨)</sup>.

على امتداد العصر البطلمي لم يجر مبدأ الحكم الثاني في الدوديكاسخيون بطريقة رسمية أبداً. لقد كانت تسوية الحكم الواقع ممكنة الحدوث طالما أن أياً من مصر أو النوبة لم يحتفظ بقوة منيعة في المنطقة العازلة، فحسب. إن ترتيباً غير رسمي ورفيق للغاية كمثل هذا الترتيب كان قدره أن يضطرب بحلول قبضة روما المدرعة محل دهاء الشرق الذي باشره البطالمة. وبخاصية روما في التوجه المباشر، لم يفتر القنصل الأول على مصر، كورتيليوس قالوس، في الوقت؛ فسار بقوة ذات حُسيان صوب الجنوب إلى أسوان، قاصداً القيام بتسوية فورية بحكم الإقامة لمسألة الترخوم الجنوبية. وخلال مقابلته مبعوثى مروى في فيلة، تفاوض، أو باحتمال أعلى، أملى، إتفاقية ثُبِتَ بمقتضاها الحدود الإمبريالية في أسوان، لكن المملكة المروية برمتها أقر وضعها محميةً رومانية. ولأنه لم يكن هناك مسؤول رسمي ذو شأن في الشمال، فقد عين حاكماً أو والياً لكل الترايكونتاسخيون، وذلك يعني على سبيل الإفتراض المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني<sup>(٢٩)</sup>. لقد تم كل ذلك حفاظاً على السياسة الشرقية التي انتهجها أغسطس، الذي أرتأى أن يُدعم الحدود الإمبريالية بحلقة من الدول الحليفة<sup>(٣٠)</sup>. إن المبعوثين المرويين، الذين ما كانوا ملمين بالأساليب الرومانية واللغة الدبلوماسية الرومانية ربما أنهم طالعوا إتفاقيتهم مع القنصل الروماني على أنها تأكيد للوضع الراهن الكائن آنفاً. بل إن تعيين والٍ مطلق السلطة على النوبة السفلى كان متماشياً مع السوابق لأن الإدارة العملية للمحافظة الشمالية كانت متروكة على الدوام في أيادٍ مصرية<sup>(٣١)</sup>. لما يُمض وقت طويل؛ مع ذلك، حتى بدأ النوبي، الذي لم يداخله شك من قبل، في إكتشاف الدلالة الحقيقية لوضع المحمية وأهميتها؛ فقد انتقصهم الرومان من مرتبة الشركاء في الحكم إلى وضع دافع الجزية، وجرت معاملتهم طبقاً لذلك. وثمة دليل على أنه، عقب إتفاقية فيلة، تمت إدارة الدوديكاسخيون ببساطة على أنها جزء من المحافظات المصرية الثانية في الجنوب<sup>(٣٢)</sup>. وجأرو النوبيون في المنطقة بالشكوى المبررة من معاملتهم على أيدي مسؤولين مصريين، غير أنه لسنوات عديدة كان حضور قوة رومانية منيعة في أسوان حائلاً دون التعبير عن سخطهم بصورة أقوى .

(\*) أو الدوكاشيون . انظر الشكل رقم ٥٥ - المترجم .



وجد المرويون سانحتهم في ٢٣ قبل الميلاد عندما سُحب قسم كبير من حامية الحدود من أسوان ليشترك فيما ثبت أنه حملة أجهضت في شبه الجزيرة العربية. وفقاً لإسترابو، صعد جيش قوامه ٢٠.٠٠٠ رجلاً إلى المدينة المصرية الجنوبية، ونهبها، محطماً إلى الحضيض التماثيل الإمبريالية التي كانت قد شُيّدت آنفاً في فيلة<sup>(٣٣)</sup>. (ويعتبر رأس أغسطس البرونزي رفيع الصنع الذي وُجد في مروى عام ١٩١١م على الدوام جزءاً من الفئام التي جُنيت من هذا الغزو)<sup>(٣٤)</sup>. ما حدث بعد ذلك قام بسرده في شيء من التفصيل كل من إسترابو<sup>(٣٥)</sup> ويليبيوس<sup>(٣٦)</sup>؛ إن ما صاغه كيروان بإيجاز عنهما يمكننا نقله هنا :

كان رد فعل الرومان على هذه الأحداث سريعاً للغاية، وإلى المدى الذي تعد فيه العلاقات بين روما ومروى، ذا تأثير حاسم لما يقرب من ثلاثمائة عام. فليق واحد واحتياطيه كقوة مؤلفة من ١١ ألف رجل تقريباً، ساق بترونيوس [الذي حل لثو محل قالوس قنصلاً لمصر] السودانيين إلى بسلشيس (دكة) التي فيما هو واضح كانوا قد قاموا بإحتلالها مسبقاً. ثم بدأت المفاوضات. وعندما طلب بترونيوس إعادة الأسرى والفئام، أبدى السودانيون شكواهم مرة ثانية من النومارش حاكم المقاطعة ...

ولما ماطل السودانيون وتعثرت المفاوضات، هاجم بترونيوس ثانية. فاستولى بهجومه برأ ونهرأ على بسلشيس (دكة) ثم بريميس (قصر إبريم)، وهى قلعة حصينة بالطبيعة . على غلج صخرى يطل على النيل والطرق الصحراوية (الصورة ١٦ - ب). ثم سار نحو بُتة، فنهب المدينة ورجع بالسجنا، والأسلاب إلى الإسكندرية وفى طريق عودته، ترك دليلاً على عزم روما في ألا تتحمل مغامرات سودانية مُجددة، حاميةً من أربعائة رجل مع تمويها لعامين في قلعة الصخرة بإبريم. على أنه مع اقتراب هذين العاملين من نهايتهما، قَرَّ المرويون في ثقة أن الحامية لا تستطيع أن تستعصم طويلاً، فهاجموها ثانية. مع هذا، فقد مُرِع بترونيوس لنجدتها، وفى هذه المرة أجبر مندوب مملكة مروى على السفر طوال الطريق إلى ساموس البعيدة ، على ساحل تركيا، ليلتمسوا السلام من البلاط الإمبراطوري الجليل بما يحيط به من هيئة تثير الخشوع . وباشرط أن يحفظ السودانيون السلام، ألغيت الجزية. لكن ثقة الرومان كانت قد تزعزعت نحو أمن مصر الجنوبية لذا قاموا بمد الحدود الرومانية إلى هيراسياكامبوس (المحرقة)، وهو توسع صائب إستراتيجياً لأنه لم يكفل لهم الدفاع عن مصر في العمق وحسب، بل أتاح للرومان فرصة الوصول إلى مناجم الذهب في وادي الغلاقي ومنحهم أيضاً السيطرة على دروب الصحراء الهامة إستراتيجياً...<sup>(٣٧)</sup>

لعل من الممكن ألا تكون حملة بترونيوس أكثر من ضربة جزاء، يتناولها كل من الطرفين بمثل ذلك الفهم. فقانون المعاملة بالمثل يقتضى الحط من شأن موقع يقارن أهمية بفيلة، مما يعطل السبب الذي جعل بترونيوس ملزماً بقطع الطريق كلها إلى بُتة، كما يشرح الدافع الذي جعله غير ملزم بمواصلة السير إلى مروى<sup>(٣٨)</sup>. ويعد أن اقتصر لشرف روما بطريقة مناسبة، أسرع بالعودة صوب الشمال دون أن يتوقف ليفاوض أعداءه أو ليفرض شروطاً عليهم ما من سبب يدفع إلى افتراض أن إجراءاته بالإنتقام والسلب كان لها وقع دائم على الخطوط الإقتصادية والسياسية للمملكة المروية أشد مما كان لأثر إنتقام النوبيين وسلبهم ثروات فيلة آنذاك. تاويل هذه الضربة الجزائية التي تعتبر نسبياً غير قاصصة باتنها أصابت بالكساح قوة مروى، كما ذهب إلى ذلك بعض الكتاب<sup>(٣٩)</sup>، يعنى تجاهل الحقيقة التي مؤداها أن أعظم إنجازات العصر المروى لا تزال كامنة فيما كان سيحصله له المستقبل. والحق يقال، أن الأبلغ احتمالاً إعتبار غزوة بترونيوس إسترجاعاً للنفوذ، حيث أن التفجير العظيم لنشاط البناء في ظل نatak أمانى وأمانى تيرى تم عقبها مباشرة (الفصل الحادى عشر).

فى حملتهم على الرومان، خسر المرويون فيما هو واضح كل المعارك ولكنهم كسبو الحرب، بمعنى أن هدفهم الأكبر قد تحقق : وهو إسترجاع الوضع القائم في الشمال قبل مجئ الرومان. ويبدو أن مبدأ الحكم الثنائى للديوبيكاسخيون أعيد تأكيده من جديد<sup>(٤٠)</sup>؛ أما ما دون ذلك، فم يكن هنالك سعى إضافى لتأكيد السلطة الرومانية عليه أو لجبي الجزية منه. فقد واصل سليم روما حكام الروم

المتعاقبون سيطرةً على أراضي النيل، ما بين التخوم الإمبريالية وما وراءها على السواء.

لم يُظهر سوى حاكم روماني واحد متأخر أى اهتمام بالمنطقة التي تقع جنوب الهيراسايكامنوس. وفي عهد نيرون، أرسلت بعثة إستكشافية على مجرى النيل نحو مصبه ما لمُروى وحدها، بل عميقاً في قلب القارة الإفريقية.

روى كل من بلينيوس وسنيكا خبر بعثة نيرون الشهيرة وقابل ... سنيكا المستكشفين في عودتهم إلى روما. لقد أرسلت البعثة من قبل نيرون في خريف عام ٦٦ وتكونت من فرقة من جنود الحرس الجمهوري تحت قيادة تريبون<sup>(٤٩)</sup> وقائمين لفرقة متفرعة عن فيلق. إرتحلوا، مثل بترونيوس، أولاً صعوداً على النيل ثم عبوراً للصحراء الشرقية، فوصلوا مروى على بعد ألف ميل تقريباً من الحدود. وقد شاهدوا طائر الببغاء، والحمير، ودلائل وجود الخريت والغيل في الجوار. ولاحظوا هنا أن العشب أشد إخضراراً وأنضج لوناً (ربما بعد هطول الأمطار). وراقبوا أيضاً الأشجار الصغيرة الرقيقة في الغابة الإفريقية الوليد. وفي مَروى رُوِّدَت البعثة بعرض عسكري وتوصيات للقبائل الجنوبية المجاورة وراء المملكة النُرية، وواصلت البعثة رحلتها على النيل الأبيض، نحو ما أخبر أفرادها سنيكا بعد عودتهم لروما، أنهم "وصلوا إلى مستنقعات كثيفة حيث كانت النباتات منفردة بشدة في المياه" لدرجة أنه لم يكن من الممكن إختراقها باستثناء قارب يسع رجلاً واحداً. ظل هذا الوصف زمناً طويلاً معروفاً كوصف للسود، أى للمساحة الشاسعة من جزر النبات الطافية جنوب ملكال، التي احتجزت أكثر من مرة إنسياب النيل. وكانت تلك الرحلة، بنى اعتباراً، استكشافاً باهراً جيد الإعداد والتنفيذ ومنها استحضرت البعثة خريطة ومعلومات جغرافية كثيرة وأخرى تتعلق بعالم الحيوان. وقد أعلمت عن أقصى ما توصل إليه التطفل الروماني جنوباً في باطن إفريقيا<sup>(٤٩)</sup>.

لم يكن الغرض من بعثة نيرون واضحاً تمام الوضوح. فسنيكا<sup>(٤٩)</sup> يقرر أن مهمتهم كانت إكتشاف مصدر النيل، ويرى بلينيوس<sup>(٤٩)</sup> أنها كانت إستطلاعاً عسكرياً يهدف لتجديد ضد مروى. ولعل كلاً من التاكديدين غير صحيح في حقيقة الأمر<sup>(٤٩)</sup>. ويمكننا أن نذكر مجازةً لتفسير بلينيوس، ممارسةً رومانية مألوفة هي احتواء الدول الحليفة على طول الحدود الشرقية بعد جيل أو جيلين من وضعها "كحمية"<sup>(٤٩)</sup> وربما كان نيرون يستهدف خطوة كهذه في النوبة. ويائز أن همته ثبتت بسبب المعلومات مخيبة الأمل التي قدمها المستكشفون فانتهت إطلاق الطموحات الرومانية الإضافية كلها في الجنوب.

في الوقت ذاته الذي تراجع فيه اهتمام الرومان بأراضي أعالي النيل، إتجهوا لإستعمار الدوديكاسخيون بما امتازوا به من إتقان وإقتدار. إن دليل سفر أنطونين في القرن الثاني بعد الميلاد لا يذكر أقل من عشر مستوطنات كبرى بين ساين (أسوان) وهيراسايكامنوس، على الحدود السُفلى والعليا للنوبة الرومانية<sup>(٤٩)</sup>. كانت هذه المستوطنات موضوعاً أساساً على الضفة الغربية للنيل، مع وضع رؤوس غير مهمة من الجسور على الضفة الشرقية قبالة المستوطنات الكبرى<sup>(٤٩)</sup>. وكما جرى في كل فترات التاريخ، أسهمت الضفة الغربية في توفير الأمن من البدو القاطنين فوق تلال البحر الأحمر الذين لم تكن لديهم وسائل لعبور النهر.

كانت أهم المستوطنات الخمس في النوبة الرومانية (الشكل رقم ٥٥) شاملةً لفيلة، تافيس (تايفا الحديثة)، ولتميس (كلبشة) وسيلشيس (بدكة)، وهيراسايكامنوس (المحرقة). وكان في كل منها معبد روماني أو بطلمي وحامية كبيرة. ولعل المعابد في كل من كلبشة والمجمع الصغير لأجوالا التي كانت رمزاً للوضع السياسي والثقافي للدوديكاسخيون قد كُرسها أغسطس لإله النوبة مندوليس - المعبود الموقر لبو الصحراء<sup>(٤٨)</sup>.

إن العسكريين ذوي السلطة في الدوديكاسخون كانوا من الرومان أو المصريين الذين أصبحوا

(٥) تريبون : قائد روماني تحت إمرة القيصر كانت مهمته أن يدافع عن حقوق المواطنين -- المترجم .

جزءاً منهم. ومع ذلك، يُوقن ميليه أن قسماً مُعتبراً من السكان المدنيين، بما في ذلك بعض مسؤوليهم الكبار، كان من النوبيين.

ربما يبدو أن إقليم الدوديكاسخيون القديم كان يُدار بإسم الدولتين معاً، مع قيام روما حتماً بالسيطرة على الطرق والشؤون العسكرية، بقاء الشؤون المدنية في أيدي الإدارة الرسمية المروية، التي كانت تتحكم أيضاً في كثير من الشؤون الدينية والمالية للمحافظة بافتراض ما يقتضيه لقب ... «وكيلة إيزيس». ولعل *براعة/الخدعة* المروية كانت قد جرت بالإتفاق ما بين القوتين، أو لعلها صُنِّرت من ناحية السلطات الرومانية وحدها، عن طريق إختيار مرشحها من بين السكان المصريين - المرويين المختلطين في الدوديكاسخيون<sup>(٤٩)</sup>.

هذا الفرض يتسق تجريبياً إتساقاً أفضل مع البينة النصية أكثر مما يتسق مع البينة الأثرية<sup>(٥٠)</sup>. فالمقابر والمساكن العادية تؤول إلى مصر الرومانية أكثر من نسبتها إلى محافظة النوبة المروية المجاورة. ويلاحظ تريقر :

إن نوع القبر العادي في الدوديكاسخيون كان حفرةً وطرفاً من غرفة، مبنياً ليحوى أكثر من جنازة واحدة. وكانت القبر مَشْنُتة في الصخر أو في قواعد صلبة من الفين علي الدوام لأجساد عديدة محنطة بمواد للتحنيط، أو ملفوفة على الأقل على نمط اللومبات وموضوعة في أكفان خشبية أو أوعية مُغلقة. أما الفُخار ومِنَاج القبر المصنوع من المعادن فنادر، وليس ثمة مناضد للقرايين. أما في المنطقة المروية فكانت القبور مختلفة الأسلوب، الأجساد غير محنطة، ومِنَاج القبر من كل نوع شائع وتماثيل با ومناضد القرايين مطروحة خارج القبر<sup>(٥١)</sup>.

وفيما يتعلق بالمساكن يقول :

بالرغم من أنه لم تُثَقَب مواقع حية بالفعل<sup>(٥٢)</sup>. فإننا محظوظون لأن يُقال وصف عدداً من المباني في تايفا التي تظهر في هيئة مساكن للفترة الرومانية إن الأسوار الخارجية، مثل القلعة القائمة في كرتسى، كانت مبنية من كتل حجرية كبيرة. مستطيلة، ترتفع عموماً بمقدار ١٦ إلى ١٨ متراً [٥٠ - ٦٠ قدماً]، ولابد أنها كانت في الأصل خمسة أمتار [١٦ قدماً] في الإرتفاع. وكانت من الداخل مقسمة إلى حُجرات، لكن تخطيط معظمها لم يكن مميز المعالم. وكان لبعضها مداخل مزودة بالاطراف المَجَنَّة للثعبان المقدس أوروى<sup>(٥٣)</sup>.

وعلى الرغم من أن بعض فُخار مروي وغيره من المواد المعروفة وُجِدَ في الدوديكاسخيون تدل ندرتها بالنسبة إلى المواد مصرية الصنع على أنها بضائع تجارية بلا شك<sup>(٥٤)</sup>. فلو كان سكان الدوديكاسخيون، إذن، يتكونون جزئياً أو في قسمهم الأكبر من النوبيين فمن الجائز إعتبارهم كذلك بمعنى سُلَالِي فحسب أو ربما بمعنى عرقى. أما ثقافياً ولغوياً على حد سواء<sup>(٥٥)</sup>، فقد كَيْفُوا أنفسهم مع عادات أربابهم الشماليين. إن الفاصل الثقافي بين النوبة المروية ومصر الرومانية لا يقع في أسوان وإنما في المحرقة، حدود الدوديكاسخيون.

كانت معسكرات الرومان العسكرية وجهاً بارزاً لأرض الدوديكاسخيون. وقد تم التعرف أثرياً على أربعة منها : إثنان في قبالة فيلة وواحدة في كرتسى، وأخرى في دكة (بسلنثيس)<sup>(٥٦)</sup>. وطبقاً لوصف تريقر :

المنطقة خالية من السكان حول الشلال، إذ لم يكن بها مؤخرأ سوى قلعةٍ وبعض قرى صغيرة، حافلة الآن بمعابد كبيرة وفيها سكان على حجم . وعلى الضفة الشرقية، في مواجهة جزيرة فيلة، كان إايترز قادراً على تتبع الخطوط الدالة على معسكرين رومانيين ربما جرى بناؤهما من قبل ليحرسا المعابد الكائنة في الجزيرة. إن المعسكر الأسبق وهو الأصغر كان مربعاً، له بوابة في وسط كل جانب، وكان مُحاطاً بخندق على شكل ٧ خيطاً للنموذج الروماني المألوف. أما المعسكر الأكبر والأكثر جدة فكان غير منتظم في خطوطه العامة وقد احتوى الأرض المرتفعة في غرب السهل. تم العثور على شقوق يبدو أنها كانت لأبراج في أركان القلعة الجنوبية الشرقية والشمالية الشرقية وهناك بوابة في وسط السور الشرقى للمعسكر وبوابة أخرى بجوار البرج الجنوبي. وقد سقطت كمية

(\*) شعار السيادة الفرعونية - المترجم .

مقدرة من الطوب اللين من الأسوار الخارجية إلى داخل الخندق الذي يحيط بالقلعة. أما النقود، والفضار، والأواني الإغريقية الأظفورة المختومة ذات المقيضين التي وجدت في هذا الخراب فتنبئ عن أن القلعة أصابها الخراب مؤخراً في الفترة الرومانية. في داخل الأسوار وجد المنقبون خنقنين لتنفيذ أحكام الإعدام يحتويان على ١٠٢ جسداً، وهي تدل على نهاية غير سعيدة لبعض العُصاة على السلطة الرومانية أو لغزاة غير مؤثقين من الصحراء الشرقية<sup>(٥٨)</sup>.

لعل سكان الدوديكاسخيون في الأزمان المروية تضاعفوا بمعدل يزيد عن أي فترة أخرى في التاريخ<sup>(٥٩)</sup>. كان هذا في قسط منه نتيجة لسياسة إمبريالية متعددة . فمثل مقاطعات حدودية متعددة أخرى، ينبغي أن يرى الجهد الإستعماري الروماني في النوبة مثلاً في تغييراته الإستراتيجية أرجع مما يُرى في حدود اقتصادية ضيقة. لقد كانت الحاميات الكبيرة ضرورية لحراسة خط الإمداد لمناجم الذهب؛ فوجود صناعة كبيرة كان أمراً ضرورياً لتموين الحاميات.

بما أن معظم النوبة الرومانية كانت ذات إمكانية زراعية متدنية للغاية ولو إستعملت السواقي، لابد أن رخائها يُقل بالتجارة في الغالب الأعم وكانت الحاميات الرومانية، الفرسان منها وفرنق الإبل، تطعم بالغذاء المطلوب من مصر... ولوقت ما كانت مناجم الذهب والزمرد في الصحراء الشرقية مستغلة على الأقل، حتى سقطت تحت سيطرة قبائل الصحراء. وقد هيا العمل بالمقالع الذي يعد أساساً لبناء المعابد، مصدر عيش للعمال في أماكن مثل كرتس حيث عُثر على قرايين تدور منذ عهد أنطونيوس بيوس، وماركوس أريليوس، وكاراكالا، وجورديان<sup>(٦٠)</sup>.

يُحتمل أن إمدادات الغذاء للدوديكاسخيون لم تكن مجلوبة من مصر وحدها على نحو ما رصدنا في التور، بل من الإقليم المروى المجاور صوب الجنوب أيضاً. ولعل التجارة المتبادلة بين النوبة الرومانية التي جرى تصنيعها والنوبة المروية الزراعية هي في الحقيقة السبب الرئيس للرخاء الذي تمتعت به كلتا المنطقتين.

## المحافظة المروية

في الوقت الذي كانت فيه الحاميات الرومانية تأخذ بنواصي الدوديكاسخيون، ظل النصف الجنوبي من النوبة السفلى، من المحرقة إلى الشمال الثاني، مهجوراً بالتقريب مثلما كان عليه طوال الألف سنة السابقة. وبعد ثلاثة قرون، ظهرت المنطقة نفسها واحدة من أهم المحافظات الإمبراطورية المروية، تتساوى في حجم السكان وربما تتعدى بالثروة المحافظات الأقدم في الجنوب<sup>(٦١)</sup>. هذا الإنبعاث المفاجئ في شمال النوبة الذي طال هجرة كان أهم إنجاز مفرد في العصر المروى، بالرغم من أن أحوال كثيرة موصولة به غامضة حتى اليوم. إن الصرح والنقوش الملكية نادرة بما يُثير العجب في النوبة السفلى<sup>(٦٢)</sup>، ولم يأت به من عامة القوم أحد ليدون عملية الإستيطان العائد يوماً بيوم؛ أما البقايا الأثرية، على ما هي عليه من غنى ووفرة، فإنها تعرض طبقات أرضية أو بيئة علي تطور التسلسل الزمني من القلة بحيث يكاد يستحيل وضعها في أي مخطط تقريبي<sup>(٦٣)</sup>.

وعلى أساس البيئة النصية العرفية، يبدو أن غالبية الإستيطان المروى العائد إلى النوبة السفلى يبدأ تاريخها في القرنين الثاني والثالث الميلاديين<sup>(٦٤)</sup>. مع هذا فإن مستوطنة واحدة على الأقل في قصر إبريم، لابد أن تكون سابقة على العصر الروماني، فقد استولى عليها ووسعت حامية عليها بأمر بترونيوس في ٢٢ قبل الميلاد (انظر «المحافظة الرومانية» بإعلاؤه). من خلال تنقيب قريب العهد يتضح أن قصر إبريم يعود تاريخه في الحقيقة إلى أزمان الدولة الجديدة، وكان أيضاً موقعاً لأحد معابد تهارقا (انظر أدناه)<sup>(٦٥)</sup>. وعما إذا كان أم لم يكن هناك احتلال متواصل منذ الأزمان النبتية إلى المروية فأمراً غير مستيقن بعد، ولابد أن المرويين على كل حال كانوا يمتلكون قصر إبريم في ٢٢ قبل الميلاد، عندما أقصاهم عنه بترونيوس. ولما لم يكن للسكان وجود محسوس حتى ذلك الوقت في المقاطعة المحيطة به آنذاك، لابد أن الاحتلال المروى لإبريم كان أمراً إستراتيجياً بدرجة عالية، وربما



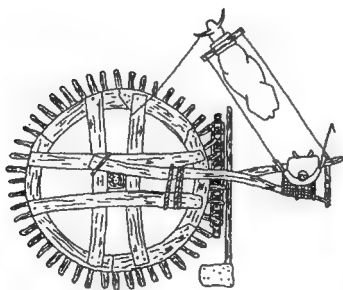
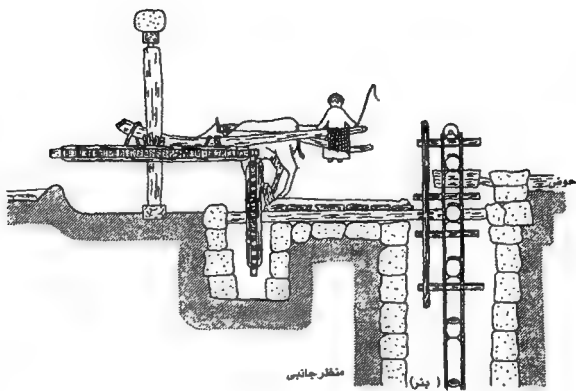
قصد به مناظرة الحضور البطلمي والروماني المتنامي في الدوديكاكسيون.

لعل تاريخ مستوطنة مروية واحدة أو اثنتين في الشمال يرجع إلى وقت مبكر سالف مثل قصر إيريم. إن سرد يلينوس لحملة بترونيوس يذكر أربع مدن استولى عليها بترونيوس بين قصر إيريم وثبئة، ربما كانت بعضها أو كلها قائمة في النوبة العليا<sup>(٧٧)</sup>، فإذا وجدت أية مستوطنات أخرى وراء الشلال الثاني، يجوز أنها كانت في الأماكن التي ظهرت فيما بعد مراكز حضرية رئيسة للشمال المروى : فرس، جبل غدا وكارانوق (انظر أناه)، أغلبية المواقع المروية في النوبة السفلى كانت مع ذلك متأخرة قرناً على الأقل في تاريخها<sup>(٧٨)</sup>، ما من شيء يشير إلى أن تأسيسهم كان له دورٌ ما في السياسة الإستراتيجية. وحقيقة الأمر، إن غياب المنشآت الملكية يُوحى بُمضى القوة الدافعة للإستيطان المروى العائد في الشمال دون تشجيع أو حتى تعرفٍ عليه من الحكام بمرور. لقد كان، فيما هو راجح، ناتجاً فرعياً جاء مصافاة لتحديث فني لا تزال آثاره فيما هو محتمل غير مرئية : إدخال الساقية أو عجلة المياه "الفارسية".

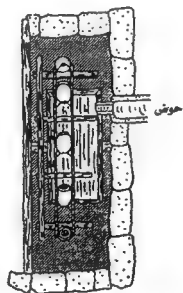
*الساقية* آلة بسيطة، يسوقها حيوان لرفع مياه الري (الشكل رقم ٥٦). إن عجلة خشبية كبيرة، موضوعة أفقياً على الأرض، يدبرها جانباً بشكل متواصل ثور يمنى. وعن طريق التروس القابضة على طول حافتها، تدبر العجلة الأفقية عجلة ثانية، رأسية، ذات تروس ملصقة بإحدى أطراف عمود محوري. وعلى الطرف الآخر من العمود ذاته، عجلة ثالثة أكبر حجماً يلتف حولها حبلان طويلان، بينهما سلسلة من *قوانيس* فخارية مربوطة إليهما. وكلما دارت العجلة، تغوص *القوانيس* واحداً تلو الآخر في باطن بئر، حيث تمتلئ بالماء ثم تبدأ رحلتها الصاعدة، كل ذلك في حركة متصلة. وعندما تجتاز أعلى مستوى للعجلة العليا وتبدأ رحلة نزولها للأسفل، يتدفق السائل الذي تحتويه إلى داخل حوض منه يُحمل إلى قنوات الري. إن الآلة بدائية وغير كُفأة بالقدر المطلوب بالمعايير الحديثة، مع ذلك كُفءة متقدمة على *الشوانوف* (الرفع براحة اليد) القديم قدم الدهر بمصر والنوبة فهي لا تقصر شيئاً عن الأداة الثورية. فتعويض الحيوان للذراع بدل الإنسان يسمح وحده بزيادة تبلغ خمس مرات القوة المتوافرة. والأكثر أهمية، أن سلسلة الساقية من القوانيس التي لا نهاية لها يمكنها أن تجلب الماء من أي بئر مهما كان عميقاً دونما فقدان ذي اعتبار لفاعليتها، بينما تسمح ثلاثة *شوانيف* يؤازر بعضها بعضاً برفع لا يتعدى أقصاه ثلاثين قدماً (قارن الفصل الثاني).

*الساقية* بالنسبة لفلاحي مصر، كانت راحة مميزة؛ وكانت آثارها في النوبة ثورية. فلم يعد الري قاصراً على حقول لا يزيد إرتفاعها عن ثلاثين قدماً فوق سطح النهر، وبالتالي أصبح قسم كبير من الجُروف النوبية صالحاً للفلاحة لأول مرة منذ باكورة الدولة الجديدة. فإن لم تكن النتيجة إندفاعاً لنيل الأرض وحسب فقد كانت على الأقل إقامة مجددة سريعة للغاية ومتقنة في الإقليم الذي طال هجره طويلاً بين الشلالين الأول والثاني<sup>(٧٩)</sup>. في قرون قليلة ارتفع سكان النوبة السفلى من حوالى الصفر إلى ما يقرب من ٦٠.٠٠٠<sup>(٨٠)</sup>؛ وهو حجم سكاني أعلى من أي فترة أخرى قبل الأزمان الحديثة (٧١).

وكما هي الحال مع عديد من الإختراعات التقنية، لم يسجل أحد أصل *الساقية* الزماني أو المكاني. ويجرى تفكير أنها اخترعت في مكان ما بالبحر الإغريقي - لعله ما بين النهرين - ومنه أدخلت إلى وادى النيل في القرن الثاني قبل الميلاد<sup>(٨٢)</sup>. أما انتشارها جنوباً في اتجاه منبع النهر فلا ريب أنه كان بطيئاً، إذ ليس في حوزتنا بُينة مباشرة على وجود *الساقية* في النوبة حتى القرون الأولى من عصرنا<sup>(٨٣)</sup> ومرة ثانية، فإن التاريخ الدقيق لإدخالها مفقود، لكننا ربما أمكننا أن نستقرئه من الحقيقة القائلة بأن الأغلبية العظمى للمواقع المروية في النوبة السفلى يرجع تاريخها إلى القرون الثاني والثالث والرابع الميلادية<sup>(٨٤)</sup>، وهي مواقع لم تكن أبداً بدون بقايا من أواني الفخار المستديرة المميزة (*القوانيس*)، وقد كانت ولا تزال مصنوعة للإستعمال في الساقية وحدها<sup>(٨٥)</sup>، فإذا صحت قراءتنا لهذه البُينة، فلسوف يبدو أن القوة الدافعة الرئيسة للإستيطان المروى العائد في الشمال، بدءاً



منظر من الأعلى



شكل رقم ٥٦  
رسم إيضاحي لساقية عاملة

من القرن الثاني الميلادي، كانت موصولة بإدخال الساقية مباشرة.

البقايا الأثرية المروية من النوبة السفلى يظهر أنها تحمل هذا التفسير الإقتصادي. وهي تعطى الانطباع بمحافظات زراعية في المقام الأول مع اعتماد قليل على التجارة وحسب. لا نجد في محل المراكز الحضرية الكبيرة، وهي حافلة الغنى بالصروح، التي تعد خاصية للمحافظات المروية الجنوبية، إلا بضعة مراكز إدارية صغيرة نسبياً، مع ما يقارب خطأ متواصلاً من القرى الزراعية الرغيدة على طول النيل<sup>(٧٦)</sup>. هذا التفاوت الإقتصادي الهام يمكن أن يجلي بعض الملامح الفارقة للثقافة المروية في الشمال، مثل عبادة الشماليين لإلهة الخصب إيزيس تفضيلاً لها على آمون وأباداماك.

المستوى العالي للرخاء المادي الذي تمتع به الشمال المروي مثبت بكل من قراه وحيثياته. لكنه كما يذكر ميليه:

إنه لامر يسير أن يتم وصف الثروة النسبية للنوبة السفلى في أزمان مروية متاخرة من أن يُطل أمرها: قطعية القول أن التجارة لعبت دوراً ذا شأن، لكن هذا الدور ما كان سوى تعليل جزئي، إذ أن طرق التجارة الشرقية كانت قيد الاستعمال زمناً طويلاً من قبل القرن الثاني، ولابد أن هذه الطرق هي التي حملت العبء الأكبر من التجارة بين مصر وذاك الجزء من أعماق الأرض الإفريقية التي تُسيطر عليها مروى. إن المرء ليغيره الافتراض القاضي بأن التجارة زادت بإزدياد رقعة المساحة إلى غرب النيل النوبي وجنوبه..... لكن لو كان الأمر كذلك، لما بقيت أي بيئة أثرية حية. ربما يعود الأمر إلى أن الإسترقاق بدأ يلعب دوراً أعظم في نمط التجارة النوبية... إن هذا بالطبع تضييق؛ فالواضح أننا نكاد لا نعلم شيئاً عن التجارة الجنوبية لمروى ومحافظاتها وتبعياتها، باستثناء القليل الذي يمكننا استقراؤه من الأوصاف الماثرة لسلع ترفرف إفريقيا معهودة، ومتوازياتها في أزمان أقرب وقوعاً. إن وجود مثل هذه التجارة لا يدعو للتساؤل؛ أما أي صيغة أخذت، إلى أي مدى وبأي اتجاه سارت، وفوق كل اعتبار، أي دور لعبت النوبة السفلى جنوب الدوديكاسخين، فهذه مسائل لا يمكننا إلا أن نضمنها<sup>(٧٧)</sup>.

إننا لا نحتاج تخميناً لطبيعة التجارة المحددة جنوباً وحجمها؛ إنها مثبتة بالآلاف المواد من البرونز الروماني أو المصري، والزجاج، والخزفيات التي عثر عليها في القبور المروية بأرجاء إمبراطورية كوش. لقد ذكرنا من قبل حضور هذه البضائع في المواقع المروية بأراضي السهل (الفصل الحادي عشر)، وقلنا شيئاً عن الطبيعة المحتملة للتجارة بها. إلا أن إلا أن السلع التجارية تزداد وفرة سواء بسواء في مواقع الشمال المروي، وهنا نكاد نبقى على جهل مُطبق بما كان متبادلاً معها. إن إمداد منتجات المناطق الحارة النادرة يمكن أن يفسر بسهولة رخاء الجنوب، على أن النوبة السفلى في مبتدأ العصر المسيحي لم تعد مصدر هاماً لمثل هذه السلع، ويبدو من غير المحتمل، كذلك، أن التجارة البرية كانت عالية النماء بين النوبة السفلى وغرب السودان، ولذا كان واجباً أن نمس دليلاً أقوى على قيام المراكز التجارية وعلى الإهتمام الملكي بتلك المنطقة. عكس ذلك، يشير كل شيء إلى تطور التجارة تطوراً كبيراً على أيدي أصحاب الأعمال الخاصة الصغيرة<sup>(٧٨)</sup>. في ظل هذه الظروف من الاندفاع للإطمئنان أن يُقبل الاقتراح الذي قدمه جريفيث منذ وقت طويل، وهو أن رخاء النوبة السفلى لم يكن قاعدة قائمة على تجارة المسافات البعيدة في سلع الترف وإنما كان ببساطة تجارة في إمدادات الغذاء إلى المستوطنات الرومانية المكتظة بالسكان في الدوديكاسخيون<sup>(٧٩)</sup>. وعلى كل حال، نعلم أنه كان هنالك سوق مزدهر في الهيراساكامنوس، على الحدود بين النوبة الرومانية والمروية<sup>(٨٠)</sup>.

في إطار محافظة النوبة السفلى المروية يمكننا أن نتعرف على ثلاثة أو أربعة مراكز "ميثروبوليتانية" لا غير. ففي جوار منتصف المحافظة كانت قلعة قصر إريم العظيمة (ويعدها الرومان بريس، فيما تسميها النصوص المروية بديمي) ومدينة كارانوق، الواقعة على بعد أميال قليلة من القلعة على الجانب المقابل من النيل (الشكل رقم ٥٥). ويعتدأ صوب الجنوب، تنتصب

المستوطنات المحصنة في جبل عداً و فرس (بحوراس في النصوص القديمة) على مسافة أبعد لمدى خفيف من بعضها البعض. كل هذه المدن الأربع كانت في وقت أو آخر مراكز إدارية هامة. إن دمارها الذي وقع منذ عهد و جيز كان واحداً من أشد الوقائع سوءاً في طالع الحملة الأثرية النوبية، ذلك أنه ما من واحد من المدن الأربع جرى التحقيق عنها بالتمحيص أو المنهجية التي تسوغها أهميتها. والخطأ في معظم الحالات لم يكن ملقى على المنقبين؛ فكل المواقع ما عدا كارانوق بقيت على قيمتها طوال المراحل الأخيرة من التاريخ، وكانت هياكلها المروية مثقلة بالبقايا المتأخرة لدرجة أن تحقيقها الكامل فاق مصادر أي بعثة أثرية<sup>(٨١)</sup>. نتيجة ذلك نضال على جهل بالكثير مما كنا نأمل في أن نتعلم منه أحوال الجوانب الرسمية للإستيطان المروى في النوبة السفلى، لقد تركنا نستقرئ شيئاً عظيماً من بيئة نصية قليل فهمها.

إن قصر إبريم، وجبل عداً، و فرس كلها مستوطنات مُسوّرة. ومع أنها لا تختلف إختلافاً معتبراً في الحجم وتفاصيل تحصينها، تظهر للعيان وظيفتها العسكرية الأصلية. إبريم وعداً تقفان على مرتفعات عالية تطل على الضفة الشرقية للنيل تطوقهما أسواراً صماء ضخمة من الطوب والحجر (الصورة ١٦ ب). إن أجزاء من البناء الحجري ذات نوعية أرفع مستوى بقدر زائد مما يوجد عادة في البناء المروى<sup>(٨٢)</sup>؛ وقد ألهم هذا الملمح فيما يبدو مونير دى فيلار فاشار بأن الموقعين كانا من أصل بطلمي<sup>(٨٣)</sup>. ومع ذلك، استطاع ميليه أن يبين أن السور المبنى بالحجر في جبل عداً يرجع إلى تاريخ لاحق للغاية. وقد سبقه تحصين ناتى من الطوب الطيني<sup>(٨٤)</sup>. وفي قصر إبريم أيضاً نعلم الآن أن أسوار التحصين الرئيس ترجع إلى تاريخ ما بعد البطالمة، بالرغم من أن الموقع نفسه أقدم من ذلك بكثير. وفي فرس كان الجزء المحصن من السور مائلاً على أرض منخفضة جداً تقع إلى جانب النيل مباشرة. لقد كانت محاطة بسور منيع، على تقوية تعلو الثلاثين قدماً في إرتفاعها، وكانت الثلاثة عشر قدماً أسفل السور مبنية من الحجارة والبقية من الطوب الطيني<sup>(٨٥)</sup>. كل هذه المدن المحصنة كانت لها بوابات صروحية من الحجر على جنباتها المتجهة صوب اليابسة، إضافة إلى واحدة أو ما يتعداها من البوابات الجانبية الخاصة.

كانت أسوار التحصين المروى في النوبة السفلى قبل أن تغمرها المياه أفضل نظاماً وحفظاً لمدى محسوس من أي شيء عُثر عليه بينها. لقد افترض جريفيث أن المساحة التي تم حصرها في فرس كانت محتشبة بالمباني العامة والخاصة<sup>(٨٦)</sup>، لكن قليلاً منها رأى النور في معرض حفريات أكثر جِدّة أجرتها بعثة بولندية في فرس، ولو أن شقوقاً ما يحتمل أنها كتل معابد مروية وُجدت هنا وهناك على الموقع. أما المساكن المروية القليلة التي اكتشفت فكانت هياكل غير منتظمة لحد بعيد وقد بُنيت أنفاً من كتل متساقطة من معابد فرعونية عتيقة<sup>(٨٧)</sup>.

في جبل عداً، يبدو قسم كبير من المساحة الكائنة بين تحصين الطوب الطيني الأصلي كأنما كانت خلواً على التمام من المباني<sup>(٨٨)</sup>. في كثير من تاريخها ما كان المكان شيئاً فيما يظهر سوى نقطة عسكرية مطية. وفي تاريخ لاحق، مع هذا، تم اختياره لينمو مركزاً إدارياً ودينياً رئيساً. إن تحصينات الطوب الأصلية دُفنت وشُيد فوقها سور من الحجر المنظوم أوسع وأدعى أثراً، وبدئ في بناء معبد بينها. وفق أقوال المُتَقَب :

كانت فترة البناء الرابعة في عداً دون شك نتيجة قرار بتغيير طبيعة المستوطنة؛ فشيء مسطح هائل من الخرائب وركام الصخور وأودع بين أسوار مشيدة حصة البناء فوق الركن الشمالي من وحدة التحصين التي رُممت منذ وقت وجيز، بطريقة تستكمل المنظر. وعلى المنصة العظيمة التي برزت للوجود بهذه الكيفية، بما يشغل ثلثها الشمالي بأكملها، أقدم معبد من خلطة جيدة البناء من الرمل الحجري، ما بقي منه الآن غير الأطراف الثلاثة السفلى أو نحو ذلك. ليس مؤكداً ما إذا كان المعبد كله من الحجر أو إنه سار على نهج مروى مالوف... فكان من اللين على قاعدة من الحجر. نُقبت قواعد الأعمدة وفتحاتها بما يقارب المتر قطراً في نتوءات الرمل الحجري البارزة فوق سطح

الأرض جنوب القلعة، لكنها لم تثبت قط بمكانها في الفناء الخارجي للمعبد، ربما لأن فتات الطوب وركام الصخر الذي يشكل غالباً قاعدة المنصة برهن على أنه غير صلب بما فيه الكفاية. أما أطر الأبواب وفتحات النوافذ فكانت من الحجر. زُودت غرفة العبادة، وهي حجرة ضيقة محاطة بدعليز بمحور كثيف اللحاء من الرمل الحجري من النوع المعتدل وعليه رسوم؛ وكان وجه المعبد مزخرفاً بالشكل التقليدي للملأ راكم ويده مديتان لإغاثة القارب المقدس، لكنه لم يكن من الممكن التعرف على إسم ملكي من الشقوق التي بقيت حية. وربما تمثل فضلات من عروق الذهب على خشب مغمور كل ما بقي من اللحاء نفسه. وتشير مواد أخرى وجدت ضمن البقايا إلى ترفرف متواضع ملائم لرخاء تلك الأزمان. على أقل تقدير، يُضَع لوحان رسميان كبيران بين مساحة المعبد، وبين رأس مهشم من الرمل الحجري لتمثال ملك مروي أن حاكماً واحداً على الأقل عنى بزيينة المعبد. ولم يُعثر على أي إسم ملكي بأى مكان في المعبد ...

في نفس الوقت الذي جرى فيه بناء المسطح ومعبد... كانت إعادة بناء تجرى للمسكن الكبير الوحيد الذي تعرف عليه المُقْبُون في داخل الأسوار... إن بعضاً على الأقل من المسكن الجديد بُني بأطوافٍ عديدة من قواعد الحجر، مثل "القصر" في كارانوق وكثرة من مباني فرس، بَزُخرف على رسم مغمور. لا يزيد عن بضعة شقوق تبين رسماً جيداً لرتل من الأبقار، فيما عثر عليه. إضافة إلى واحدة على الأقل من الحجرات الجديدة. أما الإنتطباع الذي اكتسبه المُقْبُون من الجزء الصغير من المبنى الذي يمكن أن يُجلى فهو أن إعادة البناء كانت على نطاق عظيم الساحة بحق وأن طابقيين ربما كانا ضمنه (٨٩).

قلعة قصر إبريم المحصنة تشبه في عدة جوانب جبل عدا، لكنها أكبر حجماً. إنها تقف على مقدمة أرض شامخة على علم شاهق فوق وادي النيل لدرجة أنها أعلى من مستوى بحيرة ناصر، وهي الموقع الباقي الوحيد بعد كل ما تقدم في النوبة السفلى. الحفريات في قصر إبريم، لحسن الحظ، لا تزال في تقدم، ولم تبدأ في عكس ملامح غالبية للتاريخ الباكر للموقع إلا في هذا الأوان. لقد عكست الإكتشافات خلال ١٩٧٢ للمرة الأولى أنه كان هناك معبد حجري للدولة الجديدة في إبريم، أعيد بناؤه جزئياً باللبن في زمن تهارقا ثم أعيد ترميمه إضافة لذلك في أزمان مَروية (٩٠). ويُدعى في معبد ثان من الحجر على نهاية الطرف الشمالي من الموقع في الفترة المَروية المتأخرة، ولعل إنجازَه لم يكتمل أبداً؛ على الأصعدة كافة، كانت أسواره خالية تماماً من أي زُخرف أو نقوش كتابية (٩١).

وجه مميز في قصر إبريم يبدو في شُرْفَة مطلة (تدعى البوديوم) وهي ذات حاجز منخفض من حجر مدنظوم نظماً دقيقاً، تبرز للخارج من الجانب الغربي للقلعة. إنها بشكل ملحوظ لا تشبه أي شيء آخر في الموقع وتبدو طلعتها عموماً كأنها صنعة رومانية؛ وهي في الحقيقة ماثلة إلى حد قريب للشُرَفات في كلايشة وغيرها من المواقع الرومانية في النوبيكاسخيون ومصر العليا (٩٢). وربما كانت البوديوم لذلك عنواناً دالاً على الفترة الموجزة من الإحتلال الروماني في عهد بترونيوس، من ٢٣ إلى ٢٦ قبل الميلاد. وتقترح إكتشافات في ١٩٧٦ أن البوديوم ربما كان بعضاً من مركب أكبر من البناء الروماني.

أما أسوار الحصن الحجري الضخمة في قلعة قصر إبريم فهي متأخرة بصفاء في تاريخها من البوديوم، وتعود بحق في معظم أجزائها للفترة ما بعد المروية. وعلى نحو ما هو كائن في جبل عدا أيضاً كان الحال، هنالك آثار لسور أقدم مؤكدة أنه من تاريخ مروي.

إخترقت الحفريات في قصر إبريم المستويات المَروية أماكن قليلة فقط بين الأسوار المحصنة؛ إنها مدفونة في جزئها الغالب تحت مترسبات متأخرة من ١٥ إلى ٢٥ قدماً. وأمامنا الآن بَيِّنَة نهائية على أن معبد تهارقا المشيد بالطوب كان قد رُم في أزمان مَروية، بعد انقضاء وقت عانى خلاله فيما يبدو من دمار كثيف. هنالك مباني أخرى يبدو أنها مساكن مَروية دنوبية في ضاحية المعبد، لكن مداها ومعظم تفصيل بنائها لا تزال ماثلة للتيقن منها. جدير بالذكر أن المستويات المَروية في قصر

إبريم حوت أنواعاً من الفخار متميزة بشكل ملحوظ عن الفخار المروى المألوف في أغلب مواقع النوبة السفلى، يكاد يقطع أنها أقدم منه (انظر إلى «الفنون والصناعات»، أدناه). المصنوعات في معظمها غير مزخرفة تغلب عليها مماشاة التقاليد الفرعونية أكثر من الأزمان الإغريقية؛ في هذا الجانب تمثل المصنوعات المألوفة في مروى والمصورات (قارن الفصل الحادي عشر). هذه البنية تثير (كما يفعل ذلك قدر عظيم من البنية النصية) الإمكانية التي لا جدال حولها في أن قصر إبريم كان محلاً للإقامة في تاريخ مبكر للغاية من الفترة المروية، سابقاً للموجة الرئيسية للإستيطان العائد للنوبة السفلى. ونحن لا نستطيع أن نستبعد تماماً إمكانية الإقامة المتواصلة خلال الفترة برمتها من الأزمان البنيّة إلى الأزمان المروية، عندما كانت كل المقاطعة المحيطة غير مأهولة تقريباً بالسكان. وإذا كانت هناك أي حاميات تجرى صيانتها على الإطلاق في الشمال أثناء فترة الإنقطاع، فإن قصر إبريم لابد أنه كان واحداً من الأماكن الظاهرة.

تمثل كارانونق مختلفاً من الإستيطان عن المواقع الثلاثة التي جرت مناقشتها للتو. فهي أقرب ما تكون إلى تجمع مبشّط من المساكن التي لم يكن ليحميها سور أصم إنما تدافع عنها قلعة هائلة، مؤلفة من ثلاثة طوابق بنية من الطوب الطيني تسيطر على المباني والأرياف المحيطة بها (الصورة ١٧-١). هذا الهيكل متفرد وسط المباني النوبية لفترة ما قبل المسيحية. لا يمكن نسبة تاريخه بتأكيد مطلق إلى الأزمان المروية، ذلك أنه لم يوجد فيه شيء مميز. إن موقع المدينة الملاصق له على الرغم من أنه أسس في الفترة المروية، إستمر موضعاً للإقامة قروناً عديدة متأخرة<sup>(٩٢)</sup> مع هذا، فالأسوار الملساء، المحصنة وما حولها بالأبيض، والبناء الطوبى المسقوف لقلعة كارانونق تتماثل كثيراً في شخصيتها مع أفضل المساكن المروية (انظر «حياة المدينة والقرية» فيما يلي بأدناه) أقوى من تشابهها مع أي بناءات متأخرة.

لئن كانت مساعينا لوصف المدن المروية في النوبة السفلى وتوضيحها ضئيلة نوعاً ما، فالسماح مطلب للحقيقة المفضية إلى أن هذه الأماكن، فيما عدا كارانونق، أصبحت كذلك المراكز الإدارية والدينية العظيمة للنوبة في العصور الوسيطة. وبين أسوار الحصن كان هناك قدر كبير من الإقتلاع والتجديد البنائي الممنهج من فوق البقايا القديمة، ولا يرجع ذلك الحال إلى أن السّجّر كان مطلوباً للكتانس وحدها، فالسحق الكامل للرموز القديمة للسلطة الدينية كان جزءاً من المشروع الأيدولوجي المسيحي المخطط (انظر الفصل الرابع عشر). والنتيجة هي، أن صورتنا عن الإحتلال المروى في فرس، وجبل عدا، وقصر إبريم ربما ظلت غير كاملة للغاية حتى لو تم حفر هذه المدن حفرأ كاملاً.

إعتباراً لكل الإحتمالات المسموح بها لدمار لاحق، كيفما اتفق، يثير الدهشة غياب الصروح الملكية ونقوشها في الشمال المروى. فالقلعة والقصر، بدلاً عن المعبد والقبر، يبدو أنهما التعبير الرمزي الرئيس للسلطة في النوبة السفلى. إنهما يمدان علناً عظمة الدولة بصفة عامة، من تمجيدهما عظمة الأسرة المالكة على وجه التحديد، لأنها غير مُجددة بنقوش ملكية. في أرجاء النوبة السفلى المروية كافة، كانت أسماء الحكام الوحيدين التي برزت إلى النور حتى هذا الحد مصحوبة بأسد منحوت صغير<sup>(٩٣)</sup> وشقوق لوحة منشطرة<sup>(٩٤)</sup>، وُجد كلاهما في قصر إبريم. وفي الجانب الآخر<sup>(٩٥)</sup> يبدو أن هياكل المعبد نفسها، في كل من إبريم وجبل عدا<sup>(٩٦)</sup> لا تحمل أي نقوش ملكية، في تناقض موسوم لمعايد الجنوب المروى ذات النُحوت الفاخرة (قارن الفصل الحادي عشر). من الضروري أن نتذكر أيضاً أن كلاً من المعبدتين الشماليين بيدوان كانما شديداً في تاريخ متأخر جداً، وربما تُركا في الحقيقة غير مكتملين<sup>(٩٧)</sup>. إن الغياب العام للصرح الدينية في النوبة السفلى غصني على الفهم لولا أننا ندرك في فيلة المركز الديني العظيم ليس للنوبة الرومانية وحدها، إنما للمحافظة المروية على حم سواء. ومهما كانت رعاية الحكام المرويين وتشجيعهم العالي لعبادة إيزيس، فقد بقيت مع هذا يدانة

عالمية لا يمكنها أن تخدم التعبير عن سلطة الأسرة الكوشية وتدعمها بالطريقة ذاتها التي قامت بها عبادة آمون وأبادماك الرايشتان في الجنوب.

بوضع الإعتبار لكل الأشياء، من الصعب أن يُتجنب الإنطباع الساري بأن الحكام في مَروى لم يكونوا مهتمين جداً بمحافظتهم الشمالية. إن إعادة الإقامة بها تبدو في غالبيتها التي أمثلتها تحركاً تلقائياً غير مرتبط أو مُشجعاً عليه من ناحية السياسة الملكية. ومتى أعيد إستيطانها، تطوّر الشمال المَروى إلى مقاطعة زراعية كبيرة كانت برغم أنها تمتعت برخاء محلي معتبر، قادرة على إنتاج دخل قليل للتاج. أما الجزء الخالص في مَرويته من النوبة السفلى فقد استمر تجنبه من الطرق الرئيسية لتجارة المسافات الطويلة التي اعتمد عليها رخاء الجنوب، إذ كانت آخر محطة لها واقعة بين الدوديكاسخيون. نتيجةً لذلك ربما كان للملكية إهتمام بصون مركزها ونفوذها في المحافظة الرومانية أكبر من ممارسة سلطتها في المساحة الواقعة جنوب المحرقة. إن أمثلة النقوش المروية التي وجدناها في الشمال تشتمل مدونات السفارة إلى فيلة <sup>(٩٨)</sup> وإلى روما أكثر منها ذكراً لزيارات أو هبات ملكية للمدن المروية. على نحو ما يتمتع ميلية ".... إن الواحد مرغم على أن يخلص إلى أن سكان المحافظات عاشوا حياتهم بأقل قدر من الدخل أو الإهتمام الملكي" <sup>(٩٩)</sup>.

واضح أن مثل هذه الحكومة كما وُجدت في الشمال المَروى إستندت إلى مبادئ مختلفة للغاية عن المبادئ التي كانت تقليدية في محافظات نوبة ومَروى. إن أباً من الأمراء الملكيين أو البيروقراطية الكهنوتية لم يكن مقيماً في النوبة السفلى، تولى مكانهم مسؤولو الدولة المحليين بالقاب متميزة غير معلومة لنا مما يوجد في المناطق الأخرى <sup>(١٠٠)</sup>. معرفتنا عنهم تأتي أساساً من لوحهم الجنائزى - المكتوب باللغة المَروية - وقلة من الرسوم التصويرية التذكارية [جرافيتي]. ومنذ فترة بذل ميلية جهداً تخليقياً ليفرض هذه التينة المتناثرة طلاس، ليصل عبرها إلى نوع من الصورة عن الإدارة الإقليمية في النوبة السفلى <sup>(١٠١)</sup>. وعلى الرغم من أن منخله يظل تخمينياً، وحسباً في نقاطه من بدرجة بالغة، يجدر نقله هنا لأنه يمثل تفسيراً واحداً ممكنًا للفروق السياسية والثقافية بين الشمال المَروى والجنوب المَروى .

يؤمن ميلية أن أول مركز إدارى في المحافظة الشمالية كان في فرس، لكنه أفسح الطريق مؤخراً لقصر إبريم <sup>(١٠٢)</sup>. ويمكن التعرف على الأخير أثرياً وغير النصوص بوصفه أهم مجتمع مَروى في الشمال خلال معظم تاريخه. في وقت متأخر جداً، مع هذا، تنامي فرع إدارى منفصل من المركز في جبل عدا <sup>(١٠٣)</sup>. إن إختيار هذا الموقع وتفضيله على فرس المجاورة ربما يرجع إلى وضعه الطبيعي الأصلب مُنعةً، وهو أثر يذكر بقصر إبريم لصلته القوية بها.

عرّف ميلية ثلاث فئات رئيسة من موظفى الدولة المرويين في الشمال، الذين ترجم القابهم إلى "لواء النهر" (بمس)، "أمير أكين" (بستى)، و "ولى العهد الملكي" (بكر). والذي يبدو هو أن اللقبين الأخيرين كانا موروئين في نفس العائلة، وأن البكر كان أشد أهمية من الإثنين. طبقاً لتحليل ميلية :

يبدو أن الأسرة الأميرية توارثت مناصب ولى العهد الملكي البكر... وأمير أكين تبسّي... ومثل ذلك مناصب أخرى للشرف مرتبطة بهما، تسلسلاً عن طريق الإناث، بحيث أن الأمير الذى يموت لا يترك مناصبه إلى أبنائه، إنما إلى أبناء إحدى شقيقاته، وأن كل شقيق بدوره ينقلد المناصب، بالأقدمية إجمالاً. يحتمل كذلك أن النظام مد سلطانه لأبناء كل الشقيقات بدورهن، حتى صار أبناء الخوالة الأوائل ومن يتلونهم في الحق طوع ذلك النظام

يدعى عدد كاف من هؤلاء الأمراء وأقاربهم العلاقة <sup>(١٠٤)</sup> بولى العهد الملكي البكر... كيما يجعلوا من الأمر مؤكداً تأكيداً باتا بأنهم يتمتعون بشكل مألوف إلى العائلة نفسها وأن المناصب تنحدر إلى عصبه الأشقاء في ارتباطهم وثيق، ويبدو صافياً كذلك... أن منصب الأمير ولى العرش كان أكثر أهمية من الاثنين. ورغم أن وجود هذا اللقب... لم يكن هنالك أبداً ذكر واحد لملك أو ... لملك - لم كاتقارب ... إننى مسوق لإستنتاج أن صلة عائلة أكين

الأميرية بالعائلة المالكة كانت نائية لأقصى حد، وإن ألقاب العرّان الملكي الخاصة بولى العهد الملكي البكر، وأمير أكين بشتي، وكيرى - سم كانت تقليدية خالصة، ولنا الآن نتعامل حقيقة مع ولاية إقليمية وراثية متحررة من التعيين الملكي. إستخدمت ألقاباً أميرية إما لأنها تتبع بحق أصلها النهائي إلى سلف ملكي، أو لأنها كانت ذات مرة تقليداً لحكام النوبة أن يكونوا أمراء بافعين يتعلمون واجبات الحكم في المحافظات. إن حكام النوبة في الأزمان الفرعونية جرى تمييزهم بلقب "آبناء الملك في كوش"، مع أنهم ما كانوا كذلك حقاً ...

الترتيب العادي للأفضلية في نقوش الأشخاص الذين يدعون القرابة مع كل من ولى العهد الملكي البكر، وأمير أكين بشتي ... قد يبدو بصفاه أنه يشير إلى أن ولى العهد الملكي البكر ... كان أهم الإثنين .. إننا نعلم الآن ... عن بعض ستة أو سبعة أمراء لكن دُفِنوا في منطقتنا هذه، في فرس أو كارانوق. غير أنه لم يوجد أبداً مدفن ثلثي أو صرح لقبر أمير ولى العهد في النوبة السفلى، كما أننا لا نعرف أى امرأة كانت زوجة أمير ولى للعهد دُفِنَتْ هناك. يجب أن يُخلص إلى أن محل دفن ولى العهد ومكان الإقامة يقعان في مكان آخر، وأن ذلك المكان محتمل أن يكون مقراً حقيقياً للعائلة. أما الرجال الذين أُحييت ذكراهم في شواهد قبورهم كأمراء لكن بشتي دون ذكر آخر فقد كانوا أولئك الذين ماتوا آنفاً قبل أن يرثوا أمانة - التاج الملكي، القمة الحقيقية - لمؤشر الشرف للعائلة ... وأما مقر الأمراء أولياء العهد، فإن الاختيار المحتمل الوحيد هو، فيما أرى، بُنيت نفسها (١٠٥).

إذا تقبلنا هذا التفسير، علينا أن نتخيل عمودية إقطاعية شبه مستقلة تحتوى كلاً من المحافظات النبتية والمحافظات النوبية السفلى للإمبراطورية المروية. إن الحكام المحليين طالبوا بنوع من العلاقة بالعائلة المالكة في مروي، لكن الظاهر إنها كانت علاقة بعيدة. فلقد كان كرسي السلطة الرئيس وقفاً على أصحاب الألقاب الذاتية من الأمراء أولياء العهد الملكي (البكر) في بُنيت، في حين كان الشمال محكوماً بعدد أقل من أعضاء عائلة (بشتي أمير أكين) نواباً لهم. ومن الضروري أن يكرر القول، مع هذا، أن بإعادة بناء ميليه للمشروع المروي في النوبة السفلى عالى التخمين؛ لهذا السبب ولأسباب غيره فهو مرفوض جزئياً من كل من هايكوك (١٠٦) وترير (١٠٧). يلاحظ الأخير يلاحظ في دقة أن قراءة نصوص حرفية للغة لا تفهمها عمل محفوف بالمخاطر في أفضل حالاته (١٠٨). أضف إلى ذلك، أن قليلاً من النصوص الجنائزية من النوبة السفلى تثير إقتراحاً بأن الصلات السياسية بين المحافظة الشمالية ومروي كانت أقرب مما اعتقده ميليه. فواحد من أمراء أكين البشتي في فرس أصبح في نهاية المطاف الأمير العالى لأمون في مروي (١٠٩)، واثنان من الأفراد الذين دُفِنوا في أرمينا ربما كان أيضاً كهنةً لأباداماك - عبادة لا تملك خلافها سوى دليل ضئيل في النوبة السفلى (١١٠). إن صلات العائلة مع مروي والبيت المروي الحاكم على حد التكافؤ موضع للإدعاء في عدد من النقوش الجنائزية الأخرى في أرمينا وغيرها من الأماكن (١١١).

أما علاقة "لواءات النهر" بلمس والأمير ولى العهد البكر وأمير أكين بشتي فهي غير مثبتة بصفاً على الإطلاق. يبدو المنصب وراثياً في صف الذكور وحدهم (١١٢). ويعتقد ميليه أنه لم يتأصل في المحافظة المروية في النوبة السفلى إنما في الدوديكاسخيون، حيث تطور من اللقب الإغريقي - الروماني القديم /سترانجيوس.

إن كون العائلة تمتلك روابط قوية مع منطقة الدوديكاسخيون ... واضح من ألقاب أمانى ثراوى وشقيقه في رسوم فيلة التصويرية، وعلاقة عائلته الوثيقة مع ممتلكات معبد فيله من الأراضي ("وكلاء إيزيس")، ومن الحقيقة القائلة أن لواء النهر العام الذي بمقدورنا أن نحدد موقع مدفنه التلى، دُفِن هو وزوجته ... في منطقة ماديوك ... جنوب حدود الدوديكاسخيون نفسها تماماً. نفترض إقامتها في تلك المنطقة العامة أيضاً، ربما في المدينة المروية التي تشغل خرائطها مساحةً كبيرة بوادي العرب [أنظر حياة المدينة والقرية باندناه]. أما المكان الآخر الذى عُرف أعضاء هذه العائلة بأنهم دُفِنوا به فهو جبل عدا الذى يقرب أن يقع في أقصى مسافة ممكنة من الدوديكاسخيون.

الذى يبدو، إذن، أن عدا كانت كرسياً آخر لعائلة اللواءات، إلا أنه لا يمكن إثبات ما إذا كان الجنرالات أنفسهم مقيمين بها ... وعلى كل حال، فإن حضور عائلة وى كاي بكامل قوتها في عدا يبين أنها لم تبق بوجه خالص عائلة



الدوديكاكسيفون، لكنها استقرت أيضاً في الجنوب الذي هو بحق أشد مَروية (١١٣).

مضمون هذه الحقائق يدل على أن اللواءات إستمدوا قوتهم في الأصل من الدوديكاكسيفون، لكنهم بسطوا نفوذهم مؤخراً إلى جانب ذلك داخل محافظة النوبة السفلى المَروية، حيث أنشأوا كرسياً مستقلاً. فإذا كان هذا التعليل سليماً، علينا أن نذكر نوعاً من قواعد الحكم الثنائي في النوبة السفلى المَروية والمحافظة الرومانية سواء بسواء. نظرياً، استمد أمير أكين نبشتي وأمير العهد الملكي الكبُر سلطتهما من الجنوب "أمراء أولياء للعهد"، واستمد لواءات النهر سلطتهم من الشمال "وكلاء لإيزيس" (١١٤). قدمت هذه الهياكل السلطوية المتطابقة خطراً يَبْنَى من التنافس والنزاع، لكنه يبدو مُبدَأً بأسلوب مألوف في العصور الوسيطة عن طريق شبكة من الزيجات المتداخلة بين عائلتين أميريتين (١١٥).

مهما كانت تفاصيل تنظيمها الإداري، لا تلمس ثمة إرتياب في أن النوبة السفلى من المحرقة إلى الشلال الثاني كانت على الأقل خاضعة إسمياً للملك النوبي في الجنوب، وأن عائلتها المالكة كانت من أصل مَروي وتحدثت اللغة المَروية. إن الرأي ذاته لا يمكن أن يقال بقدر مساوٍ من الثقة عن الرعايا من السكان. تكفى الفوارق الثقافية والاجتماعية بين الشمال المَروي وبقية أنحاء المملكة لإثارة إمكانية فحواها أن بعض الشماليين أو أغلبهم إنتموا إلى جماعة عرقية مختلفة، خاضعة لمَروي لكنها لا تشاركها كل تقاليدھا الثقافية. في جانب واحد تَبَيَّن مجموعة عديدة من مواقع القرى في النوبة السفلى إقاماً متواصلة منذ عهد المَرويين إلى أزمان حديثة (١١٦)؛ وعلى الجانب الآخر فإبنا غير قادرين على أن نتعرف في اللغة النوبية الحديثة ما يعدها سليله للغة المَروية القديمة. إبتنا ملزومون لذلك بأن نعتبر إمكانية أن المستوطنين الرواد الذين أعادوا الإستيطان بالنوبة السفلى في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد لم يجيئوا من المقاطعات المباشرة لثبته ومَروي لكنهم ربما جاؤا من محافظة نائية تتحدث النوبية، ربما إلى غرب النيل، وربما كانت هامشية بالنسبة لمركز الحكم المَروي (١١٧). لسوف تقدر المسألة بتفصيل أوفى في الفصل القادم .

## حياة المدينة والقرية

باستثناء المراكز الإدارية العظيمة التي جرت مناقشتها سابقاً، كانت المستوطنات المَروية في كل من النوبة السفلى والجنوبية غير مُسورة (١١٨) وبلا تخطيط نسبياً. الصورة المتخيلة نوعاً ما لكأرانوق التي رسمها وُولي قبل ستين عاماً مضت سوف تخدم في وصف أى مستوطنة مَروية أخرى بالمثل:

كانت المدينة ذات شوارع ضيقة غير منتظمة، إن كان بالإمكان أن تدعى شوارع، تلف وتدير بين منازل ذات طابقين أو ثلاثة طوابق في علوها، مبعثرة هنا وهناك عشوائياً مع إنها موجهة بانتظام، دين وأجاجة موحدة، لكنها راجعة إلى الوراء أو مَطلّة إلى الأمام طبقاً لما إذا كانت المساحة التي تشغلها أكبر أو أصغر من المساحة التي تشغلها جارتها. منزل واحد بُنى من فوق أنقاض بناء أقدم منه، ربما يقف على قطعة تمت تسويتها بلا إتقان لعدة أقدام أعلى من الباب المجاور له؛ أما الحيطان الصلبة لمينى ما من ثلاثة طوابق مسدود الفناء بمستودعات ومخازن منخفضة السقف دليلاً على ثروة مالكة، فيقف خدأً على فك ملاصقاً لسقيفة ضلت طريقها يملكها رجل فقير... (١١٩).

يُبرز وصف وُولي خاصيتين شائعتين للمدينة المَروية: إختلافها غير المخطط والتعدد الذي يثير الدهشة في هندستها المعمارية. وكما يذكر المؤلف برؤية ثاقبة، فإنه حتى مساكن الحياة اليومية متفاوتة بشكل غير عادي في الحجم والنوعية، تنقل بحق إنبطاعاً قوياً بالتمايز الطبقي (١٢٠). الأحوال ذاتها يمكن أن تُرَقَّب في معظم المجتمعات المَروية الأوسع حجماً في النوبة السفلى، ومن بينها وادي



شكل رقم ٥٧

### تصميم لجزء من مدينة مروية، وادي العرب

العرب (١٢١)، إرمينا (١٢٢)، الشوكان (١٢٣)، أرقين (١٢٤)، ومينارتى (١٢٥). في كل واحد من هذه الأماكن منازل قليلة صلبة بالبناء "مفتخرة" محاطة بجمع غير منتظم من مساكن أقل فخامة بفارق ملحوظ.

المنازل "الفخمة" في الأزمان المروية كانت لأقصى حد جيدة متماسكة البناء، ومتناسقة جداً في تخطيطها بما يقترح أنها كانت عملاً لبنانيين يمتنون تشييد المساكن ترجيحاً لهم على قيام قرويين محلين بذلك. كما هي حالة أفضل المنازل في النوبة اليوم (١٢٧). لقد كانت مربعة تقريباً في شكلها العام، بسمة حوالي ثلاثين بوصة للحائط، وكان الدخول إليها من باب واحد على الجانب الجنوبي أو الجنوبي الشرقي (قارن بالصورة ١٧ - ب). وبين بين، كانت الغالبية العظمى للمنازل مقسمة إلى غرفتين مسقوفتين متوازيتين من حجم متساو بالتقريب، وفي عدة من المنازل الأكبر حجماً كانت الغرف إضافة إلى ذلك مقسمة بفواصل متقاطعة (قارن بالشكل رقم ٥٧). صلاية الحيطان، والبقايا المحفوظة للدرج، والحجرات الأرضية التي يُعثر عليها من حين لآخر دون أن تكون لها مداخل جانبية تدل كلها بوضوح على أن القسط الأكبر من المساكن المروية كان ذا طابقين وربما ثلاثة طوابق، كما اقترح ولى في وصفه لكارانوق بعاليه. الضوء والهواء يدخلان إلى الغرف الطويلة المسقوفة من خلال أزواج من نوافذ ضيقة، كوة تقع تحت مستوى السقف بالضبط في أعلى الحيطان - نظاماً من التهوية ظل سارياً في كل المساكن المسقوفة في النوبة المتأخرة. أما الحيطان والسقوف فكانت مدهونة بطلاء ناعم وفي كل حالة تقريباً كانت بيضاء الطلاء أو صفراء اللون. بهذه الخصائص، كما انتظام بنائها، فاقت المنازل "الفخمة" في نوعيتها المساكن التي أقيمت بأى فترة متأخرة قبل الأزمان الحديثة (١٢٨).

المنازل المروية العادية أقل انتظاماً لدى بعيد في تخطيطها وبنائها من المنازل "الفخمة". كان سُمْك الجدران على الدوام حوالي خمس عشرة بوصة وكان من النادر أن تُرى مستقيمة بما يسترعى النظر. إن خصائص بنائها هي الإستعمال العام للطوب "الراسى" (المقاطع) وحده، دون إستعمال للأطواف المتبادلة مع الطوب "الممتد" (الطولى) المألوفة في البناء بالطوب (١٢٩). هذه الجدران الأقرب إلى النحافة وعدم الإنتظام ما كان لها أن تدعم سوى سقف خفيف وحسب من العمدان والعشب الجاف. وهناك آثار قليلة من الدهان الداخلى الناعم أو الجير الأبيض. معظم الحجرات لها حُجرة خازنة للجرار مفروزة في ركن واحد داخل الأرضية علي الأقل، ومكان للنار في ركن آخر. والأخير مصنوع في حالات عديدة من رقاب أو حوايا كبيرة مما يستعمل للتخزين تُكف بها إلى داخل

الأرضية. ومن الملامح العامة لكل المساكن المروية تقريباً، كبيرها وصغيرها، الترتيب المعقد لطوابقها. يتراكم الرمال والفضلات فيما هو ظاهر بمعدل سريع للغاية، فما كانت تنظف أبداً؛ بدلاً عن ذلك، تنشأ مستويات أرضية جديدة أعلى منها من فترة لأخرى تهباً قدوراً للتخزين وأماكن جديدة للنار. نتيجة هذا أن المنقب دائماً ما يجد القدور وهيكل أماكن النار "مكومة" فوق بعضها البعض عندما يُنقب هذه المساكن (١٣٠).

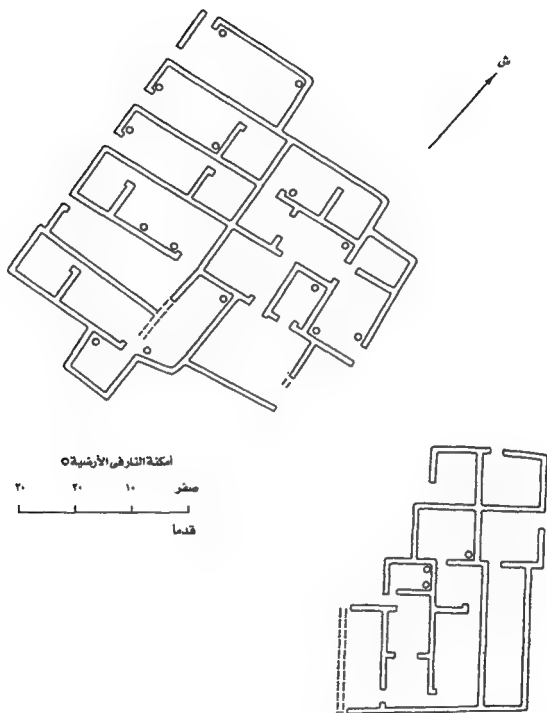
من الصفات المتماثلة للمنازل المروية العادية تجمعها الكثيف، المتراص. وفي حين أن المساكن "الفخمة" تنتصب على بُعْدٍ خفيف من بعضها البعض، ويُعرف عليها في صفاء كإقامة لعائلة بمفردها، تتراحم البنايات الأشد تواضعاً على الدوام في تجمعات تصل إلى خمسين حجرة، يصعب أن يُتعرّف بينها على وحدات الأسر الفردية. هذه الخاصية موجودة ليس في طول انحاء النوبة السفلى وحدها فحسب، لكنها رُصدت بعيداً إلى الجنوب في أبو جيلي، أقصى نقطة جنوبية للإستيطان المروية معلومة لنا حتى الآن (قارن بالفصل الحادى عشر) (١٣١).

في قرية مروية واحدة بجزيرة قامينارتى، يمكن أن يُرى تجمع المساكن الرئيس محتوياً أزواجاً متوالية عديدة من الحجرات، كل واحدة تشمل حجرة طويلة وأخرى قصيرة، وكل واحدة تملك مدخلها الخاص من الخارج (الشكل رقم ٥٨) (١٣٢). في معظم الحالات يُحدد اوانى التخزين بالحجرة الأصغر بينما كانت أماكن النار في ركنين من الأركان الأربعة بالحجرة الأكبر، للطهي والحرارة. إفتراضاً، كان لكل زوج من الحجرات شقة لعائلة بمفردها. وأياً كان الأمر، لم يلاحظ هذا النوع من إزدواج الحجرات بشكل متماثل في مواقع قرى مروية أخرى.

وعلى ما هو متوقع، كانت القرى المروية الأصغر مثل القرى في جزيرة قامينارتى (١٣٣) وميلى (١٣٤) في الشلال الثانى، مكومة بكاملها من النوع الشائع للمنازل، فلم تستعرض مساكن "فخمة". وفي أماكن أخرى تظهر المساكن "الفخمة"، في حالات كثيرة على أنها بُنيت في تاريخ متأخر، وتقع بعض أجزائها على بقايا منازل أقدم منها من النوع المتواضع (١٣٥). محتمل أن هذا لا يقدم شيئاً يتعدى بروز الثروة المتنامية للقرى المروية، التى تستطيع أوسع أسرها أعمالاً أن توفر بعضى الوقت ترف المساكن المكتملة التى يشيدها إختصاصيون مهرة (ربما انهم مصريون). هناك شئ مشابه جداً يمكن أن يراقب في القرى النوبية ذات الماضى القريب، على نقيض قرى القرن التاسع عشر التى لم تحتو مساكن كبيرة ظاهرة للعيان. سكان القرى في الأزمان المروية، ربما الهب تطلعهم نموذج المجتمعات الرومانية - المصرية في الدوبيكاسخيون التى ربما جاء منها أبناؤهم المحترفون. مع ذلك، لا يمكننا بشكل كلى أن نستبعد تأويلاً آخر للمساكن "الفخمة": لعلها علامة على أن القرى النوبية في نقطة ما أصبحت خاضعة لطبقة جديدة من ملاك الأراضي، تحت نظام إقطاعى متطور.

معظم القرى المروية الكبرى التى احتوت مساكن "فخمة" إزدهت أيضاً بوحد أو ما يزيد عليه من المنشآت العامة. بين هذه ربما وسعنا التعرف على معابد، و "قصور" أو على الأقل إقامات رسمية، ومستودعات أو مخازن للسلع، ومعاصر للنبذ، وحمامات. في قرية جزيرة مينارتى (الشكل رقم ٥٩)، تبدو نواة المجتمع الأصلى مجموعة صغيرة لمبان عامة شيدت قبل أى من المساكن المحيطة بها (١٣٦). وفي موقع مرتفع إرتفاعاً خفيفاً هناك مبنى صرحى له قواعد من الحجر وأعمدة داخلية منتظمة الأبعاد - يحتمل أنه معبد صغير أو إقامة رسمية. إن المبنى تداعى عقب الأزمان المروية في كمال وإتساق لم يترك منه شيئاً سوى قواعده والاعتاب الحجرية المزدانة وأرضية من حجر منشطر هى التى هيأت مصدره الأصلى .

مباشرة إلى جانب المعبد أو القصر في مينارتى يشخص مبنى مركب مستطيل الحيطان على جانبيه الشمالى والجنوبى صُفّت غرف مسقوفة ذات أحجام متساوية (انظر الشكل رقم ٥٩). وتحت كل طابق أرضيتان مسقوفتان في إنخفاض. إن ما عثر عليه بين المبنى المركب من ثلاثة مغاييس



شكل رقم ٥٨  
تصميم لمساكن مروية ، جزيرة قامينارتى ، الشلال الثانى

برونزية يوحى بأن هذا المكان كان سوقاً وصفاً من الحوانيت يُصان للاستعمال العام (١٣٧). وفي  
فرس مبنى يفوقه إتساعاً عداً ذلك معائل له غاية التماثل وصفه قريفيث بأنه "القصر الغربى" (١٣٨)،  
لكن احتمالاً أقوى من ذلك يراه مخزناً للأدوات وربما فندقاً ليلياً صغيراً (١٣٩).

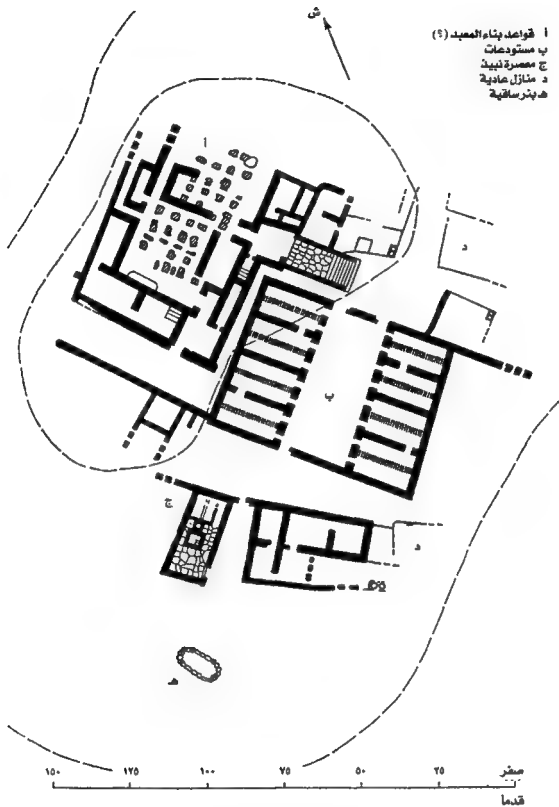
هناك مبنى ثالث عام في مينارتى يقع بالقرب من مجمع السوق، كان معصرة للنبيذ. إن سلسلة  
من ثلاثة حياض محفورة رتبت في تسلسل إنحدارى في نطاق حجرة ضيقة طويلة (الشكل رقم ٥٩)  
(١٤٠). كانت الأعتاب تضرب بالأقدام في الحوض الأعلى: فيسيل العصير من أرضيته المنحدرة في  
مجرى محدد ثم يتخلل فماً في شكل رأس مزدان لأسد، يتدفق منه إلى داخل حوض يُصفى به.  
السائل المتدفق من هذا الحوض الوسيط يجرى إلى جوف إناء أكبر ربما كان الخمير يتم فيه، حيث  
كانت القوارير الإغريقية [الأمفورة] أو القُرَب تملأ للتخزين والنقل.

معصرة النبيذ في مينارتى واحدة من عشر منشآت معروفة في أجزاء مختلفة من النوبة السفلى  
(١٤١). كل المعاصر التي أمكن تحقيق تاريخها تنتمي إلى العصر المروى الأخير. مع هذا، كانت  
المعاصر في مينارتى وحدها وفي وادى العرب (١٤٢) مودعة وراء أبواب داخلية بين المباني  
المحصورة لمستوطنة ما؛ واقعة بالعراء في أماكن أخرى، يفترض قريبا من حدائق العنب. إن  
معظمها مشتق من صخر محلى. ومع هذه الاستثناءات، مهما كان الحال، تتشابه الأمثلة العشرة  
المعروفة من معاصر النبيذ النوبية تشابهاً شديداً في تفاصيل رسمها وبنائها بما يدعو لإقتراح أنها  
كانت متعاصرة في العمر الزمني، وربما كانت من عمل مهندس واحد. تتفاوت الأحواض بشكل خفيف  
في الحجم وحده من مجموعة واحدة للتي تليها. في كل حالة معروفة كانت مخططة باسمنت أحمر  
التلوين. كذلك في كل حالة، كان المنفذ من مستودع الضغط إلى مستودع التنقية منحوتاً على شكل  
رأس لأسد (الصورة ١٨ - ١) (١٤٣).

لم تكن تربية العنب وتصنيع مشتقاتها جديدة على نوبيى الأزمان المروية كل الجدة. فالنبيذ كان  
ينتج في أجزاء مختلفة من مصر، وجرى الإتجار فيه إفتراضياً منها إلى النوبة منذ أيام الدولة  
القديمة، وهناك محاولات لزراعة العنب بين الأراضي الجنوبية أثناء الدولة الجديدة ومرة ثانية تحت  
حكم تهارقا (١٤٤). هذه التجارب، فيما هو ظاهر، كانت قصيرة الأجل وغير ناجحة في نهاية الأمر.  
طوال الفترة الفرعونية، ربما كانت تكاليف النقل والصعوبات التى تكثف الإنتاج المحلى كافيةً للتأكيد  
على أن شرب النبيذ بقى إمتيازاً للصفوة. جمهرة النوبيين، مثل فلاحي مصر، كانوا بالدرجة الأولى  
يحتسون الجعة حتى كثير من الأزمان اللاحقة .

لقد جاء "عشق العنب" إلى مصر والنوبة، كما العديد من العالم القديم، جزءاً من فصول  
الحضارة الإغريقية. ورعى البطلامة تربية العنب في طول مصر وعرضها، وبدأوا تصدير الإنتاج لا  
إلى النوبة وحدها إنما لأراضٍ مختلفة في البحر الأبيض المتوسط علاوة عليها (١٤٥). وعلى أبهى  
الإغريق، مع هذا، قطعت تنمية ذوق شعبى للنبيذ شوطاً أبعد من مجرد الإنتاج على نطاق واسع  
للمشروب. فقد شجعت طقوس باخوسية بأشكال متعددة ونشرت آخر الأمر على كثير من أرجاء العالم  
المتمدن عن طريق وسائل مثل القصص الشعبية، والطقوس الشعبية، وفن الرسوم التصويرية. وفي  
النوبة المروية، تحمل آلاف الشقوق من قوارير النبيذ الإغريقية [الأمفورة] مصرية الصنع شهادةً على  
النجاح النهائي لهذا العمل، كما تشهد به شعبية أقواس العنب ورسومات الزخارف الباخوسية ليس  
على الفخار المستورد وحده، لكن على الفخار المروى المحلى على حد سواء.

إن معاصر العنب في مينارتى، وولدى العرب، وغيرهما من الأماكن يعود تاريخها إلى وقت  
متأخر جداً من العصر المروى، عندما كان "عشق العنب" قد ترسخ آنفاً في النوبة السفلى (١٤٦). ومن  
الممكن لذلك أن تمثل المعاصر محاولةً من النوبيين لمعالجة موازنة غير مرغوبة في التبادل التجارى،  
ناتجةً عن إعتمادهم الثقيل المتزايد على نبيذ الأعتاب المستوردة. من الممكن كذلك، مع كل هذا، أن



شكل رقم ٥٩  
 تصميم لمركز قرية مروية، مينارتي

إمداد النبيذ المستورد كان مُقطّعاً بشكل مؤقت - وبخاصة عندما انسحب الرومان من الدوديكاسخيون في ٢٩٧ بعد الميلاد (أنظر الفصل الثالث عشر) <sup>(١٤٧)</sup>. في كل من الحالتين يبدو محتملاً أن رجال الأعمال الذين سعوا لتطوير تربية العنب في النوبة كانوا إغريق أو مصريين أصبحوا أغريق أظهر من كونهم نوبيين، فتقنية المعاصر نفسها اجنبية مميزة. وفي أرجاء النوبة كلها، يوجد إسمنت (مصنوع من الطوب مخلوطاً بمادة من الجير المسحوق) <sup>(١٤٨)</sup> في معاصر النبيذ وفي الحمامات "الرومانية" وحدها .

للمرة الثانية، فإن مَنْ كانوا سيصبحون تجاراً لمعاصر النبيذ في النوبة المروية ربما أحببتهم شدة الحرارة وجفاف المناخ. فالمعاصر في مينارتي ووادي العرب لابد أنها استُعملت لوقت قصير جداً لاغير، حيث أنها نبذت آنفاً ومُكّنت بالفضلات قبل نهاية الفترة المروية <sup>(١٤٩)</sup>. بعد ذلك، استعادت صناعات النبيذ المصري إحتكارها للسوق النوبي، وظلت مستمرة قروناً طويلة. بل إنه بعد الفتح الإسلامي لمصر، كان الإمداد السنوي بما مقداره ١.٣٠٠ كغ من النبيذ للنوبة المسيحية مضموناً بمعاهدة (١٥٠).

يحمل إكتشاف مثير للعجب في سيالة، بجوار الحد الشمالي للنوبة المروية، شهادة إضافية على ازدهار عشق العنب في نهاية العصر المروى. وفي مساحة لا تزيد عن ١٦٠ قدماً مربعاً، عُثرت بعثة إستيرالية على ما لا يقل عن تسع عشرة مجموعة من المباني لبيع النبيذ، نقبوا عشرة منها <sup>(١٥١)</sup>. إن المواقع تلخص كما يلي من أحد المراجعين :

باستثناء مبنى جزئي، كان كل واحد من مجموعة المباني التي نقبت خاضعاً لرسم واحد. الجدران الداخلية مصفوفة بمصطبة عريضة، مصنوعة من الحجارة ومزوية الطين، وفي متناول اليد مناظف صغيرة مبنية من الحجر. في ركن واحد من مجموعة المباني "غرفة لإعداد الطعام"، محاطة أحياناً بأسوار حجرية سمكية بمستوى غير عادي، وفي إحدى المرات مزودة بباب له مزلاج. وفي مركز المباني كتلة من الحجر ذات قنوب دائرية، يعتقد كرومر أنها كانت تستعمل لتحمل أواني للمياه من إثناء إلى ثلاثة. كذلك كانت في الجوار آثار لمدفأة وبئى قرن صغير بالقرب من أحد الجدران.

بين المنازل وحولها وُجدت كمية مقدرة من الفخار، معظمها شقوق لقوارير إغريقية، وأنية لصب السائل، وزهريرات تشبه الأباريق، و "كؤوس"، وأقداح، وأجراس من الفخار وفوانيس زيتية، وتظهر قوارير إغريقية متعددة كانت كانت مخزونة في "غرف إعداد الطعام" وعُثِر على أقداح حول بعض من أفضل المناضد حفظاً .

في ضوء هذا الدليل، إستنتج كرومر أن هذه البيانات المتشابهة كانت مجموعة من محلات بيع النبيذ، التي استخدمت إلى جانب ذلك دوراً للضيافة أو أماكن لقضاء الليل. إنها تبدو محددة المكان وازاء المدينة أو القرية الصغيرة التي استخدمت الجبانة رقم ١٣٨؛ وقد اندثر أي أثر لهذه المدينة. إن أكثرية النبيذ الذي استهلك في محلات البيع صنع في عصارة النبيذ... التي اكتُشفت في مكان لا يبعد عن الموقع <sup>(١٥٢)</sup>.

لقد اقترح المُتق تاريخاً وأصلاً رومانياً لمحلات بيع النبيذ في سيالة <sup>(١٥٣)</sup> مع هذا، فإن الفخار وغيره من المواد التي وجدت بها تضع هذه المحلات دون خطأ ما في "منطقة الفجر" بين الثقافة المروية وثقافة المجموعة المجهولة - متأخرة في الزمن بشكل أشد إعتباراً من تخلي الرومان عن الدوديكاسخيون <sup>(١٥٤)</sup>. أضف إلى ذلك أن المعمار غير المنصقل وغير المنتظم لمباني سيالة ليس رومانياً بوجه قاطع، لكنه مشابه تماماً لغلبة من المباني النوبية في ثقافة المجموعة المجهولة. إن هيكلًا بنائياً في موقع بعيد القادر مماثل جداً، وهو بالتأكيد محل لبيع النبيذ بالمثل، يرجع تاريخه بدءاً من نهاية ثقافة المجموعة المجهولة وبداية الفترة المسيحية التي تلتها <sup>(١٥٥)</sup>. بإعتبار هذا التاريخ الأخير، من غير المحتمل أن النبيذ الذي استُهلك في محلات البيع في سيالة أُنتج بمعاصر النبيذ

المجاورة مالم يكن قد بقي قيد الإستعمال لفترة أطول وبمستوى أفضل مما كان عليه الحال في وادي العرب ومينارتى.

إن واحداً من اكمل محلات النوبيه ككل بُنى في قصر إبريم في إثناء السنوات الأخيرة للعصر المروى<sup>(١٥٦)</sup>. يقف المبنى في ملتقى شارعين رئيسيين في المدينة (قارن الفصل الثالث عشر)، وكان موضعاً للذكر بسبب درجة شقله الرفيع بالحجر المشكل. وكانت الجدران السفلى منظومة في عناية برمل حجرى وبرى اللون، ومُجمَّلة بنحوت يفترض أن القصد منها كان الإعلان عن وظيفة المبنى: عنايد من العنب ورسم لقارورة إغريقية تقف على متكأ<sup>(١٥٧)</sup>. أما الجدران العليا (التي أصابها الدمار خلال إعادة بناء لاحق) فقد كانت فيما هو مرئى من الطوب المجصص باللون الأبيض، ومثقوبة على مسافات متساوية بنوافذ ذات أطر منحوتة نحتاً مزداناً. حُدِّدت هوية المبنى أصلاً على أنه قصر بسبب بنائه الحجرى وزُخرفه الرفيع غير المعتاد<sup>(١٥٨)</sup>. لكن العثور في عام ١٩٧٢ على كتل من القوارير الإغريقية وأقداح الشرب المكسرة لم يترك شكاً فيما يتعلق بمهمته الحقيقية<sup>(١٥٩)</sup>.

وثمة منشأة عامة أخرى في النوبة المروية تستحق الذكر. في فرس، ليس بعيداً عما يدعى «بالقصر الغربى»، عُثر على بقايا ما يبدو أنه كان حماماً صغيراً<sup>(١٦١)</sup>. كان هناك حوضان للغسل، أحدهما مستطيل والآخر بيضاوى الشكل، موصولان عبر جدرانهما الجانبية عن طريق قناة خزفية. من قاع الحوض البيضاوى، الموضوع بدرجة خفيفة على إنخفاض أوطأ من جاره، تمتد ماسورة التصريف إلى قناة مائية من الحجارة المصقوفة على مقربة منها. كلاً من الحوضين يبلغ قياسه حوالى ثلاثين بوصة عرضاً وستين بوصة طولاً. مساحة لا تكبر كثيراً عن صحن الحمامات الحديثة. ولما كانت الأجزاء العليا من هذه الهياكل قد دُمِّرت بفعل التآكل، لم يأتَ تحديد مبلغ لعمقها الأصلي، ولم يُعثر على أثر لآلية التشغيل. برغم ذلك، تم اكتشاف عدد من المواسير الخزفية ملقاة على أرضية منزل مروى مجاور بأطوال مختلفة. وظيفة هذه الهياكل البنائية كحمامات فكرة تضيئية، ولكن من الصعب إقتراح أى إستعمال آخر لها. إنها تختلف إختلافاً بيناً في الحجم والرسم عن كل معاصر النوبيه المعروفة في النوبة وبذا فمن غير المحتمل أنها كانت تلجئ ذلك الغرض. إنها إيا كان الأمر، المثال الوحيد المعروف لحمام مبنى في النوبة بخلاف الحمامات المشيدة في مروى نفسها (الفصل الحادى عشر). مثل الحمامات في مروى، ومعاصر النوبيه في النوبة السفلى، كانت أحواض فرس مضطلة بأسمنت مجرَّ اللون [مصنوع من الطوب الأحمر مخلوطاً بمادة من الجير المسحق]. وتدل شقوق الفخار المتناثرة فيها وحولها، كما هو الوضع في منزلين مجاورين، على أن تاريخها يعود إلى العصر المروى.

على الإجمال، تبدو مواقع المدن والقرى الواقعة شمال مروى مُكوَّنة لصورته من الحياة اليومية تختلف على الأرجح عن الصورة التي ربطنا بينها وبين أراضى السهل وفى الجنوب، بصرف النظر عن إزدهار التبادل السلعي الخاص، كانت الرموز القديمة وتقاليده الحضارة الفرعونية قوية لا تزال، المعبد والقبر تعبيرهما العلنى البارز. أما الشمال، فكان النفوذ العلماني للحضارة الماثورة محسوساً بشكل مباشر، ومحور الحياة العامة في مجتمعات عديدة فيما يبدو قائماً على الحمام، ومحل النوبيه، والسوق.

تمثل مدن النوبة المروية السفلى وقرائها واحدة من القمم الحضرية في تأريخ النوبة الإجتماعى. وفى حين أن أى منها، بقدر ما نعلم، ما كان كبيراً بمستوى بعض المستوطنات في أزمان متأخرة، تشير بقاياها إلى درجة من التمايز الإجتماعى والتخصص الإقتصادى الذى قلما أعيد نظيره قبل مجئ القرن العشرين. إننا ربما ينبغي علينا أيضاً أن نضيف التعدد العرقى إلى هذه الصورة :

جائز أن تجار النوبيه في مينارتى ووادي العرب كانوا من الإغريق، وربما كانت طبقة التجار مصرية في قسم منها أو أزيد منه هى حقيقة في المدن الأكبر في النوبة الحديثة. ومثلما رسم مونير



دى فيلار من صورة لها ... إن التجار المصريين، عبروا باستمرار النوبة المروية، أو إستقروا فيها بالمثل؛ رجال أعمال شجعان يخاطرون بأعمالهم التجارية يتجولون حينما انبسطت التجارة، على غرار الباعة المتجولين المحدثين<sup>(١٦٣)</sup>. بل إن المدن الإقليمية الصغيرة نسبياً مثل مينارتي وأرمينا كانت لها أسواقها ومعاصر نبيذها؛ أصغر القرى وأشدّها نائياً وحدها، مثال القرى الصغيرة في قامينارتي وجزيرة ميلى، هي التي عرضت نوع التجانس الاجتماعي والإقتصادي الذي نربط ما بينه وبين المستوطنات النوبية التي تعود للزمان الأولى وأزمان عديدة متأخرة بالمثل .

## الفنون والصناعات

يتكون قسط ملموس من الثروة المادية التي تمتع بها النوبيون المرويون من بضائع أجنبية مجلوبة من مصر وما يبعد عنها بالخارج علي حدٍ سواء، إشتملت هذه الأصناف بالقدر الذي نعلمه، على مخزونهم كله تقريباً من البرونز، والزجاج، ومواد الصقل بل إنها احتوت على جزء معتبر من فخارهم. برغم هذا، يمكننا أن نتعرف بالمثل على ثلاث صناعات محلية هامة على أقل تقدير في النوبة المروية: صنع الحديد، وصنع الفخار، والنسيج .

كما مر بنا في الفصل الحادى عشر، تتكون أغلب بيئة مباشرة في برونز لصناعة الحديد المروى على أكوام الجفأ الهائلة في مروى وبعض المراكز الحضرية الأخرى في المحافظات الجنوبية. ومن الجانب الآخر، لا تشهد مواد الحديد التي عُثِرَ عليها في مواقع المنازل والقبور المروية بإثبات لتلك الصناعة ذات التطور الباسق، والدعامة الرئيسة للإقتصاد المروى، كما تصورها بعض الكتاب<sup>(١٦٤)</sup>. وفيما ذكر تريقر من قبل، كانت كل المواد بالتقريب صغيرة وتشتمل أساساً على رؤوس السهام، رؤوس الحراب، وبضائع متنوعة للزينة.

في جبانات مروى، كانت المواد الإستعمالية المصنوعة من الحديد فيها تحتوي سكاكين، وملاقط، وأزاميل، ومقصات، وأسلاك، ومسامير، والأخيرة استُخدمت لتثبيت مواد خشبية. هناك أيضاً أقفال حديدية لصناديق، بالرغم من أن هذه إلى جانب مواد أخرى كثيرة للزينة، ربما كانت مستوردة. بضائع التجميل تحتوي على خواتم، وحجول، والسنة لأجراس البرونز. أما الأسلحة التي تظهر في القبور فهي رؤوس رماح ورؤوس سهام متميزة<sup>(١٦٥)</sup>.

الأنواع المختلفة للسلع الحديدية التي وُجِدت في الجبانات المروية السُفلى هي أكبر حجماً نوعاً ما، ربما بسبب توفر المواد المستوردة من الأقاليم الرومانية المجاورة .

تظهر في كل مُكَبَّر دأثم الحجول، الفوايش، خواتم الأصابع وأقراط الأنثين، مراوید الكحل، ومعينات النظافة، إلى جانب رؤوس الحراب ورؤوس السهام، والأسلحة المذكورة أخيراً متعائلة الشكل للتي في مروى. يبدو أن هناك مواد إستعمالية أخرى في القبور الكائنة بفرس وكارانوق أزيد من المواد الموجودة بمروى. هذه المواد فيها قاطعات، وملاقط، وخناجر، ومسامير، وإبر، ومقصات، وقصاصات جاهزة إلى جانب أمواس للقطع، وأزاميل، وفؤوس، وقناديم، وكلابات، ومعاول بالرغم من أن هذه المواد لا تزال تبرز إلى الوجود على نحو متقطع سيما القطع الثقيلة منها علي وجه الخصوص<sup>(١٦٦)</sup>.

ولننقل إضافةً من مقالة تريقر الثاقبة عن صنع الحديد المروى :

... قليل جداً من المعلومات المحققة تمت معرفته فيما يخص الوجه الاجتماعي والسياسية لصنع الحديد في الثقافة المروية. مثل هذه البيئة علي ما هي عليه ربما تكون مُحِيرة لكنها ليست نهائية لقد بُلِّغَ عن أكوام الجفأ في عدد من المواقع المروية العامة مثل كاوة، وبَيْتة، وجزيرة أرقو<sup>(١٦٧)</sup>. يفترض أن هذه نتجت من صنع الحديد، مع أن هذا الإدعاء لم تَزِدْ مصداقيته بعد<sup>(١٦٨)</sup>. ففي كل موقع تبرز أكوام الجفأ موصولةً مع معبد مروى. لم يبلغ عن أثر لاي فرن أو منشأة للصهر، فيما أعلم، بأى من المواقع الصغيرة في النوبة السُفلى. وعلى الأقل، يظهر أن بعض المواد التي وُجِدت في النوبة السُفلى من أصل مصري، ويبدو محتملاً أن وفرةً من المواد التي عُثِرَ عليها في

المستوطنات الأصغر كانت مجلوبة من الشمال أو مصنوعة في المستوطنات المروية الأكبر (١٧٦).

إن قرن الحديد المروى الوحيد الذي تم تحديده تحديداً قاطعاً، في مَرَى نفسها، يبدو أنه كان من نوع أسطوانى العمود مألوفاً لغالبية العالم القديم المعروف (١٧٧). أدخلت رافعة ضاغطة إلى داخل غرفة الصهر عن طريق مواسير من الفخار (أقساماً قصيرة، سميكة الجدار من المواسير ذات الأطراف المصغرة)، عُثِر عليها بكثرة حول الموقع (١٧٨).

مع إنه ما من أحد اقترح أن صنع الفخار لعب دوراً هاماً في الإقتصاد المروى، فإن الألوان الخزفية وليس البضائع الحديدية هي في الحقيقة الأغلب توافراً والأوسع إشتهاراً في النوبة القديمة. إن الجبانات الكبرى، ويوجه الدقة في الشمال، تمخّضت عنها عشرات الألوف من أواني الزينة ذات الألوان البراقة، شاهدةً كلها بالتطور الرفيع للفن الخزفي (انظر الشكل رقم ٦٠ للامثلة). ولأن صانعي فخار النوبة المحافظين تمسكوا بتقاليد الزخرفة المبالغ فيها والتي اندثرت لونيها في عالم البحر الأبيض المتوسط، تقف منتجاتهم ماثلة في عصر كانت تسوده خلافها مصنوعات حمراء الأديم مصنوعة تقليداً لأواني البرونز. نتيجة لذلك فإن الفخار المروى متفرد للنوبة القيمة وله مكان مُشرف في مجموعات المتاحف باتحاء العالم، بالرغم من أنه يُعرَف في شيء من التكرار كخزف روماني إقليمي (١٧٩).

مع وفرة الفخار المزخرف المروى، نظل بمثل ما كنا عليه من جهل غالب بالتفاصيل التاريخية والفنية الموصولة بتطوره، كما في حالة صناعة الحديد. فالمواقع المروية في أراضي السهل (مثل المواقع النبتية التي سبقتها) تحتوي في الغالب على مصنوعات الفخار بالعجلة فحسب وهي أشدّ خلواً من الزخرفة والإتقان، ويبدو أنها تواصلت بتقاليد مصر الفرعونية في الفخار الإستعمالي ثقيل الإستهلاك (١٨٠). وبمقدار ما يوجد الفخار ذو الزخرف رفيع المستوى بأماكن مثل المصورات (١٨١) ومروى، فإنه يبرز إلى الوجود فقط مستوياته الأسمى جودةً والمتاخرة زماناً، بكميات من الصغر بحيث أنها توجى بانه غير مصنوع محلياً. ومع هذا، فإن المواقع المروية في النوبة السفلى مصحوبة منذ أول لحظة للعثور عليها (ربما في القرن الميلادي الثاني أو الثالث في معظم الحالات) بكميات عظيمة من الفخار المزخرف، لكن قليلاً جداً من المصنوعات الإستهلاكية يُعد من نفس النوع الموجود في الجنوب. هنالك، بإيجاز، ما يقارب إنقطاعاً كاملاً في المصنوعات الخزفية بين الشمال والجنوب المرويين (١٨٢). واحداً من مؤشرات ممكنة عديدة على انقسام عرقي بين المنطقتين (انظر الفصل الثالث عشر).

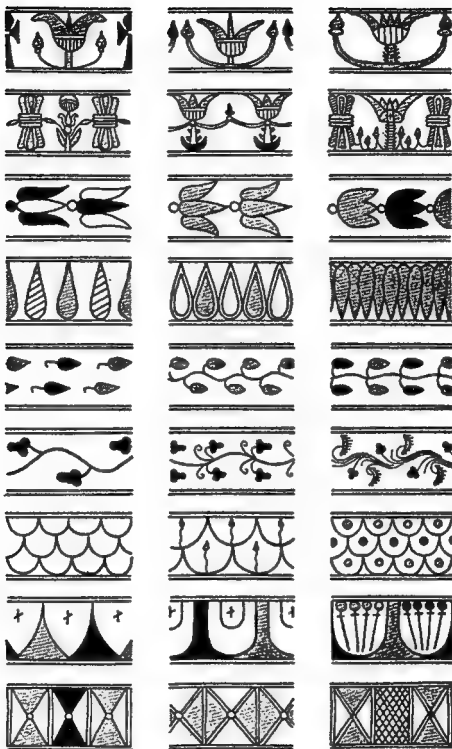
صناعة الفخار المزخرف في النوبة السفلى تعطى مظهراً دالاً على أنها نبعت شابّة عن الطوق، دونما أي مراحل تجريبية أو تطويرية، في الوقت الذي عاد فيه الإستيطان لأول مرة للمنطقة، إن تطورها ربما يُعزى منطقياً إلى نفوذ مصر البطلمية في الشمال، لكننا في الحقيقة غير قادرين على تتبع الأثر لأي صلة محددة بين التقاليد الزخرفية الموجودة في الفخار المروى وتلك الموجودة في مصر المعاصرة لها أو أي مكان آخر (١٨٣). إن الغلبة السائدة للأفكار الرئيسة للنقشات المصرية على غرار زهرة اللوتس والأنث (قارن الشكل رقم ٦١) في الفخار المروى تبدو جزءاً من القصة العامة للنفوذ الفرعوني في النوبة، أكثر منها محاكاة مباشرة للأواني المصرية المعاصرة. هذه النقشات لا توجد، بحق، في فخار مصر البطلمية. فإذا كانت، إذن، صناعة النوبة السفلى للفخار المزخرف قد جرى نموها في ظل إلهام أجنبي، فإنها لا تمت نفسها منذ البداية لأنواع محلية محافظة.

بينما نجد تقاليد الخزف المروى عالية التفرد، فإن قوالب الأواني نفسها مشتقة بما يمكن إدراكه من العالم الماثور. إنها تؤلف كمية وافرّة من الأواني لحفظ السوائل من كل الأحجام والأشكال: أكواباً، وأقداحاً، وكل أنواع للزجاجات والأباريق، وجراراً، وقوارير إغريقية (الشكل رقم ٦٠). إن عدداً كبيراً من هذه الأواني تُصَد بها بالثقائد تخزين النبيذ واستهلاكه؛ فهي تحمل شاهداً



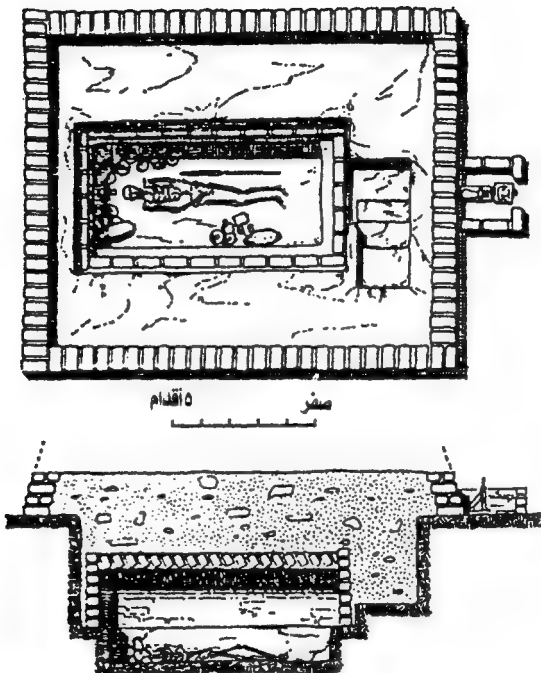
شكل رقم ٦٠

أواني فخارية مروية راقية من النوبة السفلى



شكل رقم ٦١

نماذج لأشكال فخارية مروية مزخرفة ، النوبة السفلى



شكل رقم ٦٢  
حجرة مسقوفة لقري مروي مع بنائها العلوي

إضافياً على نفوذ ظاهرة "عشق العنب" في الأزمان المروية المتأخرة. أما القصصات وغيرها من أنواع الأواني العريضة كالتى يُحتاج إليها في إعداد الطعام وخدمته فهي نادرة بما يدعو للعجب؛ يبدو محتملاً أن هذه الصحوة كانت تقابل في المقام الأولى بالأواني البرونزية<sup>(١٧٧)</sup>.

إن (لون الخلقة) في معظم الفخار المروى سمنى - أصفر باهت أو مغرة صفراء مرسومة في خفة، بزخرف أسود وأحمر. وثمة أنية أخرى خلفيتها حمراء، لها زخرف أسود وأبيض<sup>(١٧٨)</sup> أما التصميمات، فعلى خلافها في أى فترة أخرى من التاريخ النبوى تمثيلية بصفة أولية، وتشمل كل أنواع النبات والحيوان، ومناظر عن النشاط البشرى، ووجوهاً إنسانية كاريكاتورية ساخرة. والأشكال النباتية الشعبية على وجه الخصوص تمثيلات لزهرة اللوتس، ونبات ثلاثى الوريقات، وغصن العنب، وهو واحد من رسوم قليلة تُقاسم عموميتها بين الفخار المروى والمصرى المعاصر له. والتماسيح والضفادع، والثعابين هي أعم العناصر الحيوانية شيوعاً، لكن الطيور، والبقر، والزراف، والأسود، وتشكيلة مختلفة من حيوانات أسطورية تشخص أيضاً فيما يبدو. يُضاف إلى ذلك عدد لا بأس به من أشكال هندسية خالصة، معظمها شكلى جامد<sup>(١٧٩)</sup>. الإناء المألوف يتشكل من رسم واحد إلى خمس قطع مركزة من الزخرف، كل قطعة منها تتميز عن كل القطع الأخرى بشكل خاص .

إن صنع الفخار باليد لم يذو حتى في أوج أيام الأواني المزخرفة التى صُنعت بالعجلة. وعلى نقيض ذلك يبدو أنه لم يتأثر إلا قليلاً جداً بوجود صناعة "منافسة". ولوقت قصير كانت هناك بعض محاولات أقرب إلى الرثة للزخرف الملون، ولتقليد القوالب المصنوعة بالعجلة الأسبق تقدماً، لكن على العموم إستدامت الأواني المصنوعة يدوياً تلك التقاليد البسيطة التى كانت سمة مميزة لها منذ الأزمان الفرعونية - وواصلت المسيرة حتى الوقت الحاضر. ومنذ الأزمان المروية في مراحلها المتأخرة حتى العصور الوسطى - ألفرومحتى عام أو أكثر - ثابرت صناعات الفخار النبوى اليدوية أو المصنوعة بالعجلة على البقاء جنباً إلى جنب دون أن تؤثر إحداهما بدرجة ملحوظة على الأخرى. وعلى ما يبدو عليه الأمر من غرابة، إختفت عجلة صانع الفخار، حتى أن الصناعة الأولى بدائية وحدها، والمتصلة في الأزمان الحجرية الحديثة، بقيت حية إلى الحاضر، إن تفسير هذا الحدث الغريب الذى يثير الدهشة يقع في الحقيقة التى مؤداها أن صنع الفخار باليد كان، ولا يزال، فيما يبدو فناً أليفاً لجمهرة النسوة النبويات، في حين أن الإنتاج على نطاق واسع للأواني المصنوعة بالعجلة كان وقفاً على الإختصاصيين من الذكور<sup>(١٨٠)</sup>. ومع أنها في أوقات قامت بتغطية الحاجة لقسم كبير من السوق الإستهلاكي، كانت الأواني المصنوعة بالعجلة في التحليل النهائى على أى حال ترفاً واردة وقد فُضى عليه في أزمان ابتلاء المنطقة بالفقر .

لعل وفرة الخزف الفاخر المصنوع بالعجلة فريماً أنه أغلب دليل بليغ نملكه عن مستوى الرخاء العالى في النوبة المروية السفلى. فليس هناك قبر في الغالب الأعم ليس فيه على الأقل ثلاث أو أربع أواني مزخرفة. أضف إلى ذلك، أن التراكم الهائل لشقوق الفخار في أماكن مثل قامينارتى تبين أن الأواني الفاخرة لم تكن بذخاً متعمداً من الأغنياء، لكنها كانت ضمن إستعمالات الحياة اليومية حتى في أشد القرى تواضعاً<sup>(١٨١)</sup>.

الحجم وحده ومثله في تعدد الفخار المروى المزخرف يعطى انطباعاً بأنه كان يُنتج في عدد من المراكز المختلفة. مع هذا، فإن فرناً واحداً لصانع فخار، في النوبة السفلى، تم التعرف عليه نوعاً ما بصورة أولية<sup>(١٨٢)</sup>. لقد كان مبنى أسطوانياً من بناء الطوب له قطر يبلغ أربعة أقدام، لم يتبق منه إلا الأطواف السفلى. وحتى بعد الأزمان المروية بقليل، كان الفخار يُحرق في أفران أسطوانية من الحجم ذاته بالتقريب مجزأة إلى غرفة حرق عليا وغرفة صهر سفلى (قارن الفصل الثالث عشر). ويمكن القول أن القرن المروى كان مصمماً بشكل مشابه، على أنه لم يكن ما تبقى منه كافياً ليؤكد على ذلك الرأى.

تركزت صناعة الفخار المروى المزخرف بما يشبه التأكيد في النوبة السفلى، وفي حين وجدت مصنوعات متماثلة في الجنوب أيضاً، فإنها أقل تعدداً لمدى بعيد، وتبدو منحصرة في المراكز الحضرية الكبرى. حتى في مروى نفسها تندر شقوق الفخار المصنوع بالعجلة وتوجد في الطبقة الأعلى من الراسب فحسب<sup>(١٨٣)</sup>. ما وجد سوى عدد غير ذي قيمة أو أهمية من الأواني المصنعة بالعجلة وشقوقاً فخارية في قرية أبو جيلي القاصية في الجنوب<sup>(١٨٤)</sup>، والجبانة المجاورة لمكوار (سنار)<sup>(١٨٥)</sup>، مع أن أواني البرونز في الموقع الأخير من الأنواع المتأخرة التي توجد بانتظام في الشمال مصحوبة بفخار مروى مزخرف مألوف. كل البيانات تتجمع مشيرة بأن صناعة الفخار بالعجلة في النوبة السفلى كانت نسبياً تطوراً متأخراً، ربما جاء في وقت كان فيه الجنوب يجتاز مسبقاً إنكماشاً سياسياً واقتصادياً، وأن مثل تلك الأواني الفخارية الفاخرة التي وجدت سبيلها إلى باطن المحافظات الجنوبية ذهب معظمها إلى أيدي صفوة ثرية في المراكز الحضرية الكبرى.

صرفاً عن إنهم يُعدون بوفرة فخاراً من صنعهم الخاص - الجرار الإستهلاكية بدوية الصنع إلى جانب مصنوعات الفخار الفخمة - حصل المرويون في النوبة السفلى كذلك على عدد يثير الدهشة من الأواني بالتجارة مع مصر. إن معظمها فيما هو ظاهر كان مصنوعاً في أسوان أو بالقرب منها. ويمكن التعرف عليها بلا غناء ليس فقط بصلصالها الوردى ذي الصلاب اللامع، (الذي لا يوجد أبداً في الأواني النوبية الصنع)، لكن بقوالبها وزخرفها المتماهي في البساطة، الذي لا يشبه للغاية أنواع الفخار المروى وتخضع بشكل كلي للمعايير الرومانية<sup>(١٨٦)</sup>. أما أكبر عدد من هذه الأواني فهو القوارير الإغريقية (الأمفورة) التي كان يستورد بها النبيذ المصري، بيد أن هناك أنواعاً مختلفة من الكؤوس، والأقداح والقداح والفوانيس، تقرب كلها من أن تكون محاكاة لأنواع من أواني البرونز المعاصرة. في الفترة اللاحقة على الفور لما بعد الأزمان المروية، عندما اختفت مؤقتاً صناعة الفخار الوطني مرة ثانية، أخذت الأواني المجلوبة من أسوان وغيرها لوقت قصير بناصية سوق الفخار النوبى.

النسيج كان بالتأكيد صناعةً وطنية أخرى في الفترة المروية. إن كثيراً من البينة غير مباشرة عليه؛ وهو يتكون من أعداد كبيرة من أوزان منسج طينية مثقوبة عثر عليها في مواقع مساكن مروية. وبما أن الأقسام الأخرى من المنسج افترض أنها مصنوعة من الخشب، فإنها لم تقو على البقاء، لكن الأوزان العديدة فوق الخمسين التي وجدت في حجرة واحدة في جزيرة ميلي<sup>(١٨٧)</sup> تشير إلى أن المرويين كانوا يستخدمون منسجاً موزون الشبكة يُجرى عليه الغزل من أعلى إلى الأسفل. هذه الأداة لم تكن هي المغزل المصري الماثور منذ القدم، لكن يحتمل أن تكون إدخالاً إغريقياً إلى وادي النيل<sup>(١٨٨)</sup>. وفي جزيرة ميلي عثر على عدد من الآلات عظمية للنسيج مسنونة الرأس في نفس الحجرة التي تضم أوزان النسيج. إن وجود هذه المواد في منازل قرية بسيطة يقترح أن النسيج المروى لم يكن صناعاً، لكنه، مثل صناعة الفخار اليدوى، كان يُنفذ في المنزل من عامة النساء.

الشكر موصولاً لإكتشافات تمت قبل وقت وجيز في إبريم، حيث بدأنا من خلالها نتعلم الكثير عن المنسوجات التي كانت تُنتج بالمناسج النوبية. كان أغلبها من القطن، مع استعمال وفير للزخرفة بالطينين ويكرات الربط. غالبية الجلابيب كانت بيضاء، بزركتة زرقاء أو خضراء، وعثر على جلابيب القطن كذلك في مقابر كارانوق<sup>(١٨٩)</sup> ومروى<sup>(١٩٠)</sup>. ولما كان بليونس يتحدث عن القطن في السودان في القرن الميلادى الأول<sup>(١٩١)</sup>، ولم يكن القطن بعد شائعاً في مصر حتى وقت متأخر بكثير<sup>(١٩٢)</sup>، هناك سبب جيد للإيقان بأن منسوجات القطن في النوبة المروية كانت صناعة محلية. يشير أركيل إلى زراعة القطن كواحدة من التأثيرات "الهندية" على الثقافة المروية (قارن الفصل الثانى عشر)<sup>(١٩٣)</sup>. إن بعض منسوجات الكتان في حالة حسنة الإكتمال من الزخرف وجدت أيضاً في كارانوق<sup>(١٩٤)</sup> ويحتمل كل الاحتمال أن تكون من أصل مصرى<sup>(١٩٥)</sup>.

وهناك اثنتان من المهارات الفنية الأخرى يمكن أن يُسَلَّم منطقياً بتطورهما في النوبة المروية هما نسج السلال وصنع الجلود. السلال صنعت في كل الأزمان في التاريخ النوبي، أمثلة منها قليلة غير ذات قيمة أو أهمية معروفة لنا من القبور المروية في الشمال<sup>(١٩٦)</sup>. فالنوبة بحجم سكانها الروميين الكبير، كانت كذلك في كل العصور منتجاً رئيساً للجلود، وكان الناس في الأزمان قبل الفرعونية يلبسون عادةً جلابيب من الجلد. أما البضائع الجلدية التي عثر عليها بشئ من الانتظام في القبور المروية ولم يوجد غيرها فهي الصنادل<sup>(١٩٧)</sup>، لكن قلّة من بقايا جلد مزخرف مُطعماً بالعاج وُجدت في كارانوق<sup>(١٩٨)</sup>.

ثمة ممتلكات هامة أخرى للنوبيين المرويين كانت مواد البرونز، والزجاج، والصيني، والخشب، والعاج. كل هذه البضائع أشد شيوعاً في النوبة السُفلى منها في الجنوب، وهناك سببٌ للإعتقاد أنها كانت في جزء واسع منها إن لم تكن كلها مجلوبة من مصر أو الخارج الأبعد<sup>(١٩٩)</sup>. إن أفضل الأمثلة شهرة وأشدّها ثراء المتاع الفاخر الذي وُجد في الجبانة العظمى بكارانوق<sup>(٢٠٠)</sup>، وفرس<sup>(٢٠١)</sup>، غير أن مواد مستوردة من نوع واحد أو غيره وُجدت تقريباً في كل موقع مروى في النوبة.

كان البرونز يستعمل لأنواع مختلفة من أدوات الزينة، وأدوات التجميل الصغيرة مثل المقالم، والمقصات، ومرواد الكحل، وفوق كل شئ للقداح وأوان برونزية. إضافة إلى هذه الحاويات العادية، كانت هناك أنواع مختلفة من مزخرف الأرياق والمباخر، والمغارف، والاكواب، والفوانيس، في أشكال مأثورة أغلبها مشهور. أما كمية البرونز التي كانت قيد الإستعمال في الأزمان المروية فهي مثبتة بحقيقة أنه في مينارتي كان مستودع الفضلات في معصرة النبيذ مهجورة الإستعمال يحتوى عدة مئات من قطع البرونز - أوفر مما وُجد في أى مستويات أخرى مجمعة في الموقع<sup>(٢٠٢)</sup>.

الأغلبية العظمى من أواني البرونز مصنّعة في قوالب رومانية أو إغريقية مالوفة، بيد أن قليلاً منها مماثل في الشكل للأواني الفخار المروية، بل إن لها زخرفاً مماثلاً (مع أنه مطبوع وليس مرسوم)<sup>(٢٠٣)</sup>. فإن لم تكن إنتاجاً حقيقياً للنوبيين، فلا بد أن رسوماتها صُممت على وجهه بعينه لتُرضى الأذواق النوبية أكثر مما تُرضى المصرية. ومما هو نوبي على نهج التمييز الحُجُول بكمية كاسحة، عادة بزخرف مطبوع بقواطع، وُجدت من وقت لآخر في قبور الإناث<sup>(٢٠٤)</sup>. وبعضها من الصديد<sup>(٢٠٥)</sup>، لكن الأغلبية من البرونز - ولابد أن حجمها وزينها أعاق من يلبسها إعاقة شديدة، ربما لأن وظيفتها الاجتماعية كانت معادلة لمهمة حاجز - القدم بين الصينيين<sup>(٢٠٦)</sup>.

لما كان بعض البرونز الذي وُجد في النوبة منتوجاً محلياً على سبيل الاحتمال، فالمعتقد فيه حتى وقت وجيز أن كل الأواني الزجاجية كانت من أصل اجنبي<sup>(٢٠٧)</sup>. كما ذكر منقبوا كارانوق 'إن الأواني دون إستثناء من نوع اجنبي، من الأنماط المعمولة من قالب واحد وقد سادت بشكل عام في طول أنحاء الإمبراطورية الرومانية؛ قلما يتوقف إستعمالها على منطقة واحدة بعينها، وهي ليست متفردة، إلى الحد الذي يمكن فيه بقدر متساو أن يُعثر على إناء زجاجي واحد في كارانوق وفي أى مكان آخر بين الراين والبحر الأبيض المتوسط'<sup>(٢٠٨)</sup>. أغلب الأشكال الآتية شيوعاً هي الأيقونة - زجاجات صغيرة مبسوطة الأحجام، مثلثة التكوين بشكل أو آخر، ذوات رقاب أنبوبية وأطراف لامعة عريضة. كذلك وُجدت أنواع مختلفة من زجاجات أكبر، وأخرى بطينة، وكؤوس، جميعها من أصناف رومانية مشهورة. ومع هذا، فإن مجموعة لا يستهان بها من الزجاج في الجبانة المروية التي حُفرت منذ وقت قريب في صدنقا<sup>(٢٠٩)</sup> فيها أيضاً أواني قليلة، مثل بعض الأواني البرونزية، التي كانت مصنوعة دون شك لسوق مروى أو لسوق محافظة مصرية؛ بينها جرة تنسج يوماً جلد قالب فخار يدوى مروى<sup>(٢١٠)</sup>. هنا ثانية لا يمكن أن تُستبعد إمكانية التصنيع المحلي، بالرغم من أنه لم يعثر بعد على أجهزة لصنع الزجاج في موقع نوبي<sup>(٢١١)</sup>.

أما أكثر البضائع المجلوبة عمومية في النوبة المروية فكانت خرز العقود، وغاليبتها العظمى من



الزجاج. توجد بالآلاف وعشرات الآلاف في أي جَبانة مَروية. وينقل للمرة الثانية عن مُتَقيي كارانوق :

العقود كانت تقليعة شائعة وسط النساء النوبيات. تلبس... حول العنق، وأعلى اليدين، والمعصمين، وفوق مفصل القدمين، وكان عقدان حول الرقبة يلبسان معاً بصورة دائمة على أنهما عقد واحد. وتدفن هذه مع أجساد الموتى، ولحسن الحظ فإن نهايي القبر في بحثهم عن المعادن الثمينة كان يوسمهم أن يُمَيَّنوا بترك عقود هن الزجاج أو خرز الصَّجَر مرة واحدة مما ليست له قيمة جوهريّة، أو أن يطرحوها جانباً. بالتالي كان عدد الخرز الذي حُصل عليه خلال حفر المقبرة عظيماً جداً...

مع إثارته للدهشة بعده، كان الخرز أشد إثارةً للعجب لتنوعه وفنه الممتاز. لقد كان بعضه من الحَجَر، ويلوّر الكوارتز الأبيض، والعقيق الأحمر أو متعدد الألوان، الأخضر أو البني، والاستيت، وشقوق الصخر المديب؛ أما الأغلبية العظمى فكانت من الزجاج. وبعض الأخير كان منظوماً من زجاج أبيض شفاف، وبعضه أكمد اللون في ظِلٍّ أحمر، وأزرق وأصفر؛ وهناك خرز رخامي، وخرز من زجاج مشكل، وخرز من قسيفساء، وخرز مضغوط، وخرز زجاجي محاط بالذهب ومُطعم بالفضة .

يُصنع الخرز في غالبيته من أطوالٍ زجاجية تقطع وتشكل. أما الخرز ذي الألوان المتعددة المنفصلة فإن قطعة الزجاج نفسها معقدة الطول تتكون من عدد من القطع الخفيفة بألوان مختلفة تنظم في حزمة وتلصق بخفة مع بعضها بعضاً. وعندما تقطع مثل هذه القطعة إلى أجزاء منبسطة يبيّن كل وجه النمط الذي يسود على طول القطعة؛ إن الطريقة المستعملة في ما يجري لبعض عصي السُّكَّر لشباننا (٢١٢).

توفر خرز الزجاج، وما يكاد يبدو غائباً كاملاً للنقود المعدنية، في وقت كان يزدهر في أثنائه بالتأكيد إقتصاد للسوق، يلهم بإمكانية أن الخرز ربما كان وسيلة معتمدة من وسائل التبادل.

الصيني (مُرَكَّب للصقل لامع أزرق - أخضر) مادةٌ أخرى تُستورد لتُستعمل في صنع العقود وسلاسل التحلية، وفي وسطها يمكننا أن نتعرف على عدد معتبر من الجعارين (٢١٣). وُجِدَتْ أيضاً أقذاح صغيرة قليلة العدد من الصيني. هذه الأواني وأدوات الزينة تشير إلى النفوذ الفرعوني المتواصل على الثقافة النوبية؛ على أنها كانت أقل شعبيةً لمدى بالغ في الأزمان المَروية عنها في العصور السالفة، وفي الوقت الحاضر إندثرت بأجمعها.

في وسط أغلب السلع المجلوبة الفاخرة التي يعثر عليها أحياناً في القبور المَروية، صناديق خشبية حسنة التركيب مطعمة بالعاج. مزخرف بالعاج المطعم كذلك، صناديق خشبية وأنابيب للكحل مستديرة الشكل [خرز أسطواني مائل لحفظه]. مرةً أخرى، توحى الزخرفة بأن هذه المصنوعات كانت في بعض المرات تصمم بشكل واضح للسوق النوبي، ولعلها مصنوعة محلياً، بالرغم من أن الخشب كان في بعض الحالات شجر الأرز اللبناني (٢١٤).

## العادات الجنائزية

تهي الطقوس الجنائزية موضوعاً هاماً موحداً على امتداد حضارة كوش وإمبراطوريتها. فمن المحرقة في الشمال إلى سنار في الجنوب، كانت القبور، والممارسات الجنائزية أقرب تماسكاً مما كان عليه أي وجه آخر للثقافة النوبية في الفترة المروية.

الجَبانات تشمل أكثر من ثلاثة أرباع كل المواقع المَروية المعروفة (٢١٥). وكما هو الحال دائماً في الفترة التاريخية، تتجمع القبور بكثافة مع بعضها البعض وفي أوقات متداخلة فوق بعضها. إن الأغلبية العظمى من الجَبانات المَروية في النوبة السفلى موضوعاً غرب النيل، ربما حفاظاً على التقليد الجنائزي القديم. بذا، فإن الجَبانة الهائلة في كارانوق، التي ربما احتوت بين ثلاثة إلى أربعة آلاف جنازة (٢١٦)، يجوز أنها خدمت سكان قصر إيريم (٢١٧) وعلى حد سواء أموات المستوطنات المجاورة على الضفة الغربية. في جبل عدا، من جانبٍ آخر، كانت الجَبانات المَروية بشكل محدد تقع على

الضفة الشرقية بالقرب من المدينة<sup>(٢١٨)</sup>. أما في المحافظات الجنوبية، كما ذكرنا في الفصل الحادي عشر، فكان كلا من المستوطنات وأماكن الدفن على الضفة الشرقية، وهناك آثار قليلة لإحتلال مروي غرب النيل.

الأغلبية الكاسحة للقبور المروية يحتمل أنها ما كانت ذات علامة على السطح. وعلى كل، تعرض كل جبانة تقريباً على الأقل بضعة هياكل فوقية من الطوب، أغلبها يصاحب أكبر القبور وأكثرها ثراءً. إنها تنطوي في معظم الحالات على بناء مُقفل من الطوب أو من بناء حجري بين الفينة والأخرى، من ستة إلى عشرين قدماً مربعاً، بجوانب منحدرية إلى الداخل تحيط بملء من فتحات حُرَب. لقد تم تصميمها عادةً كمصطبات [على غرار القبور المصرية القديمة منذ عصر أسرات ممفيس]، إلا أنه يبدو من المؤكد في بعض الحالات أن الهياكل الفوقية للقبور كانت في حقيقتها أهرامات مصغرة، أصاب قممها الدمار من جراء التَّعَرِيَة والنَّهَب<sup>(٢١٩)</sup>. أهرامات جبل عداً يبدو أنها عُلِيت بطلاء أبيض<sup>(٢٢٠)</sup>؛ وجُصِصت أهرامات مَروية أخرى في صندقة بالأحمر<sup>(٢٢١)</sup>. إن كثيراً من البنايات الفوقية للقبور وليست كلها لها غرفة مسقوفة صغيرة تطل من الجانب الشرقي، وتُقارن بالغرف الجنائزية التي تجاور الأهرامات الملكية. إفتراضياً استُخدمت هذه الغرف كمستودعات لقرابين ما بعد دفن الجنازة. ووُضعت قرابين إضافية في بعض الأحيان ما بين امتلاء المبنى الفوقي إبان تشييده<sup>(٢٢٢)</sup>

تظهر القبور المَروية إختلافاً معتبر التفاوت في ترتيباتها السلفية<sup>(٢٢٣)</sup> لكنها تتداح تحت نوعين أساسيين يمكن وصفهما بقبور الغرفة وقبور المخبأ. القدر الأكبر من قبور الغرفة كهوف مستطيلة، من ستة إلى عشرة أقدام في الطول وحوالي نصف ذلك عرضاً، محفورة مباشرة من طما مشحون في صلابة. إن الوصول إليها يتم عبر سرداب منحدر، في ضيق، من الجانب الشرقي عادةً. هذه التفاصيل، مثل تفاصيل الهياكل الفوقية للقبور، تعيد بشكل مصغر ترتيب القبور الملكية في مراحلها المتأخرة في بُتة مَروى (الفصل الحادي عشر). بعد مراسيم الإخخال يحجز المدخل إلى غرفة القبور بطوب ومن ثم يعاد ملء السرداب، تاركين الجسد والقرابين في حجرة هوائية مختومة. بعض قبور الغرف الكبيرة كان سقفويات لعائلة فيعاد فتحها من وقت لآخر لتستقبل جنازات إضافية؛ وُجد ما يصل إلى إحدى عشر جسداً في القبور الأكبر حجماً في كارانوق<sup>(٢٢٤)</sup>.

ثمة نوع أقل شيوعاً من القبور الكهفي يتمثل في القبور ذي السقف الطوبى. ويتكون من غرفة من الطوب، مسقوفة، صغيرة من نفس الحجم الذي تكون عليه غرفة الجنازة المألوفة المبنية تحت الأرض، وهي مشيدة في قاع حفرة مستطيلة عميقة، ثم تملأ من أعلاها بالتراب. وكان الوصول اللاحق إليها، كما في القبور الكهفية، يتم عن طريق سرداب منحدر ومدخل صغير يؤدي إليها بالطرف الشرقي من السقفية. هذه القبور يُفترض أنها مبنية بتفضيل على القبور الكهفية حيثما كانت الأرض الطبيعية غير متماسكة بمستوى كافٍ لدعم غرف تبني تحت الأرض.

أما قبور المخبأ فتشكل الطبقة الثانية المهمة لغرف الجنائز المَروية. إنها فتحة راسية ضيقة، بنفس نسب القبور الحديثة بطريقة أو بآخرى، وفي قاعها يُحفر وضع جانبي إما على طول جانب واحد ("قبور المخبأ الجانبي") أو على طرف واحد ("قبور المخبأ القُدَمي") لتقبل الميت والقرابين (الشكل رقم ١٢). بعد الدفن يُقفل المخبأ بالطوب من عل ويعاد ملء الفتحة، مع ترك الميت في نوع من الكفن الطبيعي أو مساحة فارغة محدودة لا تزيد كثيراً عن رقعته .

تظهر غرف الجنائز المَروية تنوعاً يتعدى ما تبينه قبور أي فترة أخرى ولما يكتمل إستيعابها بعد على وجه التمام بالنظر لقيمة وأهمية الأنواع الأخرى. لقد فسر قريغيث أنواع القبور الأربعة الرئيسة في فرس بأنها تمثل تعاقباً تطورياً<sup>(٢٢٥)</sup>، إن هذا التفسير لم يُستنبط من المواد التي وجدت فيها، وهي كلها بشكل أو آخر من أنماط متماثلة<sup>(٢٢٦)</sup>. والحقيقة، أن الأنواع المختلفة من القبور المَروية موجودة بالتقريب في كل جَبانات الفترة، وإنه لجدير بالذكر أنها كلها عثر عليها أيضاً في الجبانات

التَّبْتِيَةِ فِي صِنَم (الفصل العاشر) <sup>(٢٣٧)</sup>. إن أغلب تفسير إحتماً للفرق الرئيس، بين قبور الغرف وقبور المخابئ، هو أنها تمثل الشرائع العليا والدنيا لنفس المجتمع <sup>(٢٣٨)</sup>. فالعلاقة الطبيعية لنوعى القبور تشبه كثيراً العلاقة بين المساكن "الفخمة" والمنازل العادية في المدن المروية: قبور الغرف تتجمع بكثافة في مساحات قليلة، في حين أن قبور المخابئ بشكل أو آخر مبعثرة بعشوائية بينها وحولها. الواضح، لذلك، أن "المسافة الإجتماعية" لم تكن بين الجماعتين عظيمة.

الإختلاف بين قبور الغرف المسقوفة وقبور الغرف السفلية يبدو أفضل شرحاً على أسس هيكلية، كما ذكرنا في وقت سابق. ولما كان من الجائز أن القبور الأسبق قد استحوذت أفضل الأرض ملائمة، مع هذا، يبدو من المعقول أن يفترض أن الغرف المشيدة أصبحت ضرورية بمستوى متزايد، ومن ثم شاعت في الفترات المتأخرة. لا يتبقى في الوقت الحاضر إيضاح مرض للوجود الموسمي لسرداب غربي يفضل على واحد شرقي، أو بالنسبة للفرق بين قبور مخابئ وأخر قديمي. هذه الإختلافات ربما تكون في الحقيقة تسلسلاً زمنياً، يُمثل فيه المخابئ الجانبى والدلهيز الشرقي تطورات متأخرة ومنحرفة عن النمط المعهود.

كل القبور المروية تقريباً موجهة شرقاً - غرباً بالإشارة إلى النيل (أى، أنها تأخذ الإتجاه المحلي لمجرى النهر كمعادل للشمال، كما فعل البناتيون النوبيون في كل أزمان التاريخ). بين بين، يُمَدُّ الجسد على ظهره، للرأس عادة إلى الغرب، طبقاً للممارسة المصرية العتيقة. لم يكن هناك تنطيط أو أكفان خشبية، لكن في حالات قليلة جداً كان الميت يُزود بكفن من فُخار أو خشب <sup>(٢٣٩)</sup>. ومن الدائم بنفس القدر، أن يرقد الجسد على حصيرة منسوجة أو على عنقريب خشبي منخفض مشابه لما هو مستعمل اليوم <sup>(٢٤٠)</sup> عادة الدفن بالسريير النوبية القديمة قدم الدهر تؤكد عودتها مرة أخرى. أما الموتى فكانوا دائماً وريماً من العادة يُلفون في لفافة منسوخة أو من الجلد، مع إنه لم تبق منها حية سوى قطع صغيرة فحسب في أشمل الحالات <sup>(٢٤١)</sup>. النسوة والأطفال يُغطون في إنظام بالخرز وبغيره من المجوهرات.

أثاث القبر عدا ملابس الميت ومجوهراته كان يوضع حيثما سمح به المكان بين غرفة الجنازة، لكنه بصفة عامة يُركّز بجوار الرأس <sup>(٢٤٢)</sup>. الأثاث أقله في أى قبر يبدو جرة من الفُخار، يُفترض أنها تحترق جعة أو نبيذاً، أو كوكياً يعلق على فم الجرة دائماً <sup>(٢٤٣)</sup>. مع ذلك، كانت أغلبية القبور تضم ما يفوق ذلك عدداً: حتى في نهجها الشديد تضمنت معظم المدافن المروية على الأقل ست مواد. في بعض المرات يحوى عدد الأكواب والجرر وحدها أكثر من إثني عشر قطعة <sup>(٢٤٤)</sup>.

وبالتقريب جاءت كل الأمتعة المادية الأخرى التي تمت مناقشتها في صفحات سابقة - مواد الحديد، والبرونز، والفُخار، والزجاج، والصيني، والخشب، والعاج والمعادن الثمينة - من قبور مروية أيضاً، شأها على وفرة القرايين الجنائزية وتعددها في صورة ثابتة الوصل. وفيما عدا طرازاً واحداً أو اثنين من الفُخار الإستهلاكي <sup>(٢٤٥)</sup>، فإن كل مادة تقريباً مما كان مستعملاً في الحياة اليومية في الأزمان المروية ربما كان متوقعاً أن يصبح سيده إلى الحياة الأخرى .

التعبيرات الثلاث الأشد تميزاً للممارسة المروية الجنائزية كانت مواداً حَجَرِيَّة منصوبة وموضوعة ليس بين القبر إنما خارجه. كانت هذه ألواحاً مرسومة بالألوان أو منقوشة، تدعى طاولات القريان والتماثيل الصغيرة با. لم تكن على استعمال دائم لكنها تبدو كأنها كانت مقصورة على القبور الأغنى؛ فلم تسفر بعض الجبانات المروية عن أى نماذج أمثالها. وبسبب حالة الجبانات المنهوبة لأقصى حد، وُجد عدد قليل جداً من الألواح أو التماثيل الصغيرة أبداً في موضعه الأصلي؛ تلتقط قطع منها في العادة من سطح المهملات التي قلبها الناهيون مرات ومرات. إن التكرار الذي توجد به قطع من الألواح أو التماثيل الصغيرة في تراب القبور المتأخرة يقترح أيضاً أن قدرأ عظيماً من النهب كان جارياً حين كانت الجبانات لا تزال مستعملة <sup>(٢٤٦)</sup>.

لا تختلف الألواح المروية كثيراً في هيئتها أو وظيفتها عن حجارة القبور اليوم، سوى أن النقوش في العادة أطول وأوضح، مع أنها ليست بالضرورة أدق. أما القطع الحجرية الصماء فهي عامة تميل إلى النحافة، بجنيات مستقيمة ورأس مستقيم أو مستدير. يحمل بعضها صوراً جانبية للميت مرسومة بالألوان أو محفورة بشكل غير دقيق، وهي تنفذ بأسلوب عالي التنظيم، على أن معظمها يزدان خطوطاً عديدة من النصوص بحروف مروية مناسبة لا يغيرها<sup>(٢٣٧)</sup>. لقد وجد لوح في كارانوق بوضع أوحى أنه وضع أصلاً بين غرفة القرايين الملاصقة للجانب الشرقي من بناةات القبر الفوقية<sup>(٢٣٨)</sup>؛ رغم هذا، فإن الواحاً وفيرة أخرى طويلة جداً على مثل ذلك الوضع. ربما نُصبت في داخل الأرض، أو وُضعت على وجهة القبر أو الهرم.

"طاولات القرايين" صُممت لتقبل النبيذ والطعام المقدمين بالإثابة عن الميت بعد دفنه. هي مدارج من الرمل الحجري منبسطة، مستطيلة أو مربعة، يبلغ قياسها في الغالب عشر بوصات عرضاً وأربع عشرة بوصة طولاً، ولها حافة مرفوعة تحيط بمركز مخبوء. يبرز في العادة مصرف بأحد جوانبها، ليحمل السائل الذي يندفق إلى داخل المركز. إن الحافة المرفوعة يمكن أن تزخرف بواحد إلى ثلاثة سطور من النص المنساب إحاطة بها؛ أما النقوش المنصوتة، مثل تلك القائمة باللوح الجنائزي، فتحصى أسماء الميت والقباه. وتحمل مراكز المدارج المخبوة تنوعاً من الرسوم المنحوتة، أكثرها شيوعاً بين أمفورتين - قارورتين إغريقيتين - مكتنزين يتدفق منهما ما حويا، وعدة شطائر مستديرة من الخبز. ويبين رسم منتشر آخر عبادات الأموات نفثس وأنوبيس يحضران القرايين على مذبح ينتصب بينهما<sup>(٢٣٩)</sup>. وُجدت مناضد قليلة للقرايين في المكان الأصلي بكارانوق؛ كانت مطروحة إلى داخل رؤوس مذابح منخفضة مبنية بناءً غير متقن بالطوب وتقف مباشرة إلى شرق بعض الهياكل البنائية الفوقية للجبانة الكبرى<sup>(٢٤٠)</sup>.

أما الأشد إثارةً في كل الممتلكات الشخصية الجنائزية المروية فهي التماثيل الصغيرة با. إنها نحت في رمل حجري، حوالى القدمين إرتفاعاً في العادة، يُسَوِّر شكلاً لإنسان مائل بجمود في أجنحة طائر تمتد خارجاً وإلى الأسفل من ورائه. ومعظم المماذج التي بقيت تحمل آثاراً لرسم بتكوين لامع<sup>(٢٤١)</sup>. ومع أن النحت في العادة غير متقن، فإن الملامح والتعبيرات الوجهية تعتبر رسماً مأثوراً (\*) أظهر منها أسلوباً مصرياً تقليدياً<sup>(٢٤٢)</sup>.

هذه المنحوتات يعتقد أنها تحمي روح الميت.

... الجزء الروحي من الشخص، الذي بعد موته، يحفظ فرديته ويستطيع أن يهيم وفقاً لما يرضيه. وفي البردى الديني تُمثل الروح با كطائر له رأس إنسان، يستطيع أن يبقى مع الشخص الميت في الغرفة الجنائزية، لكنه يفضل أبداً أن يذهب خارجاً في العراء، ويعود لزيارة الأماكن التي يجيها الميت ...<sup>(٢٤٣)</sup>

في كارانوق، كما في شبلول، من الثَّين أن القبور الأوسع غنى كانت كل واحدة منها عموماً مؤنثة بتمثال واحد، يكون في العادة قد أزيح من مكانه ليُلقى به بعيداً بعض المسافة عن موقعه الأصلي من قبل الناهبين في أيام قديمة. إن نمط التمثيل غير معروف في مصر ويبدو أنه قد طُور عن النوبيين بأسلوب مستقل إيفاء لمقتضيات عبادة مملكت المصريين في بعض الجوانب لكنها بلا ريب كانت متميزة وغريبة في وجوه أخرى. إن النحات المصري، وأفكاره المركزة على الشخص الميت، يرغب أن يُزَوِّر بدقة متناهية شكل الميت وتقاطيعه حتى يتأتي للروح عندما تعود من القبر أن تخطي هيئة النفس الحقيقية. لكن هدف النوبي كان مختلفاً من البداية؛ إنه يقصد تمثالا لا ليبعث النسخ الطبيعي من جسد إنما يسعى لإعادة الروح ...<sup>(٢٤٤)</sup>

لم يعثر أبداً على أي تمثال صغير للروح في المكان الأصلي، ومن المستحيل أن يقال أين كانت هذه المنحوتات ذات التمييز العالي موضوعة فيما يختص ببناءات القبر الفوقية. إن معظمها كان من

(\*) أي عائلة إلي الأثر النوبي الإغريقي أو الروماني - المترجم.

شدة الطول بحيث لا يمكنه الوقوف بين غرف القرايين التي تلاصق القبور أو الأهرامات. وقد فكر وولمى وماك إيفر أنها ربما انتصبت على رأس غرفة القرايين المسقوفة، على أن هذا لا يبدو كونه تخميناً<sup>(٢٤٩)</sup>. والتماثيل الصغيرة للروح، على خلاف الألواح طاولات القرايين، وُجدت فقط في الشمال المروى<sup>(٢٤٧)</sup>؛ إن الدمار الذي حاق بقسم كبير من هذه المنطقة يجعل من غير المحتمل أن نعلم مطلقاً أى شيء جديد عنها يعلم ما نعلمه الآن .

### مخلص تفسيري

كانت الفترة المروية هي العصر الذهبي لحضارة الأسرات في النوبة. محمياً بالصحرى التي تحيطه إحاطة السوار بالمعصم، ومتفوقاً عليه من "مارد الشمال"، بلغ غرس الحضارة الهش الذي كان قد انشئ في الجنوب أيام الإستعمار أكمل قرونه المزدهرة من بعد أن زوى مئبته الوالد في مصر وتاكل خرباً. غير أن الإنتعاش المروى كان شيئاً أرقى من بساطة القول ببقائه النائي في الهامش، لحضارة فات أوانها. فالأرجح أنه كان انبعاثاً ناهضاً ثقافياً وسياسياً ذا شأن وقيمة عقب قرون عديدة من الجمود والإضمحلال في النوبة نفسها. فلئن كان مذهبه مخلصاً للتقاليد القديمة لمصر، فإن رخاءه اشتق بمعيار كبير من إمتداد أعمال التبادل السلعي الإغريقي، في حين كان استقراره السياسي لدرجة ما ناتجاً فرعياً من السلم مع الرومان .

إن واحداً من إنجازات الأزمان المروية كان توسعاً إقليمياً أعظم من أى حضارة أصلية أخرى في التاريخ النوبي. لقد جعلت تجارة القوافل من الممكن تنمية الطرق البرية عميقاً في باطن الجوف الإفرقي، متجنبين حاجز الشلال الرابع المائل دهرأ ومنهية الإعتماد القديم قدم الزمن على النيل للتجارة عابرة الصحارى كانت النتيجة إستعماراً سريعاً لأراضى السهل فوق الشلال الخامس، التي بمرور الوقت تخطت المحافظة النوبية الأقدم باعتبارها المركز الرئيس للقوة والثروة في السودان. إمتد السلطان المروى في نهاية الأمر إلى سنار على النيل الأزرق. أبعد نقطة بلغتها أية حضارة نوبية قبل الأزمان الحديثة. وفي هذه الأثناء قاد تطور طريق تجارى برى مباشر بين مروى ومصر، إستباقاً منتشراً لوداي النيل في الداخل، إلى الإنحسار الإقتصادي والسياسي لمنطقة نوبة المهيمية سابقاً .

كان تطوراً متأخراً للأزمان المروية إعادة إحتلال النوبة السفلى ويطن/الحجر. ظاهر أنها كانت حركة سكانية كاسحة، لم تحث عليها سياسة رسمية وقد مكّن من تحقيقها إدخال الساقية التي يجرها الثور. أضحت المنطقة الشمالية التي استطلت هجرها في الزمان محافظة زراعية مزدهرة، مدعّمة مرة أخرى بالتبادل السلعي المحلي مع المستعمرات الرومانية المجاورة في الدوديكاسخيون، بما يزيد علي تجارة المسافات البعيدة في منتجات المناطق الحارة. وفي القرن الأخير أو القرنين الأخيرين من العصر المروى زاد سكان الشمال وثروته زيادةً بالغة في حين تناقص ذلك في المحافظات الجنوبية، حتى انتقل في النهاية "مركز الثقل" النوبي تارة أخرى إلى الشمال، حيث كان عليه أن يبقى طوال العصور الوسطى .

فى كل قواعدها الأيدولوجية بالتقريب، ظلت حضارة مروى وفيةً للتقاليد القديمة التي انحدرت إليها من العهود النبتية والأزمنة الأولى. وحتى اندثار الأسرة الكوشية، ربما في القرن الرابع الميلادي، وأصل الحكام تنميط أنفسهم باللقاب التي كانت قد ابتدعت قبل ثلاثة آلاف عام سابقة من فراعنة مصر الأولين<sup>(٢٤٧)</sup>. وُضع القبر الملكي على نموذج الدولة المصرية القديمة، وظل تبجيل أمون، العبادة الطبيعية لأزمان الدولة الوسطى والجديدة، حجر الزاوية لديانة الدولة. الفن، والمعمار، والدين الشعبي على السواء إبتدع قريباً من التعاليم المتبعة التي أرسيت أيام الفراعنة .

وبيّنا بقيت التعابير الشكلية للحضارة النوبية أسيرة للماضى، تحول إقتصاد الأراضى الجنوبية ومجتمعها تحولاً متعدد الظلال بتأثيرات جديدة ذات نفاذ. لقد جعلت تجارة القوافل توسيع الإستيطان والحضارة أمراً ممكناً داخل أراضى السهل فيما وراء النيل خلال الفترة نفسها التى كان الفتح الإسكندرى يأخذ فى أثناءها مصر فى تحالف مع شبكة التجارة البحرية الإغريقية بعيدة المدى. كانت النتيجة إزدهاراً فى التبادل السلعى وتدفقاً للبضائع المصنعة. الإستهلاكية والتفاخيرية على حد سواء. بما لم يسبق له نظير فى أراضى النيل. إنه بكثرة وتنوع لا متناهى لا تستطيع تجارة أن تبقى بلا حدود. إحتكاراً ملكياً، ما مَرَّ وقت طويل حتى كان قسمٌ واسع منها منطرحاً فى أيدي خاصة التجار فى جَلَا. إن أعمالهم طُورت سوقاً شعبياً لم يكن أبداً من هموم التاج، حتى إنه فى النهاية صار الرخاء المادى المَرُوى مؤسساً على قاعدة أعرض بكثير عنها فى أى فترة سابقة

مُثاراً بأعمال التبادل السلعى الملكى والخاص على حد سواء، أصبح المجتمع النوبى حضرياً كما لم يكن من قبل فظهرت مدن كبيرة، مُغدقةٌ فى حالات عديدة صروح القصور والمعابد على أراضى السهل التى ما كان غير البدو متجولاً بها قبل وقت قصير ماض. إن مدن نَبْتة وكَاوة الأقدم، بالرغم من أنها لم تعد طرق التجارة البرية الرئيسة، أُعيد بناؤها وإحيائها جزئياً فى الفترة المَرُوية، وأنشئت مجتمعات جديدة لا حصر لها فى النوبة السفلى. بل إن القرى المَرُوية الصغيرة عرضت درجةً من الحضرية وأعمال التبادل السلعى لا نديد لها فى الفترات الأولى .

يدأ بيد مع التخصر والتوسع الإقتصادى سار نهوض حضرى بروجوى. فلم يعد المجتمع النوبى مُقسماً تقسماً حاداً بين الحكام والمحكومين، كما الأزمان النَبْتية وأيام الدولة الجديدة. إن علينا أن نذكر أيضاً فى الفترة المَرُوية، ولأول مرة فى التاريخ النوبى، أن طبقةً وسطى ثابتة الروسوخ تضاعف ثرائها ونفوذها حتى عندما إضمحل ثراء الملكية وسلطانها إن مساكنهم الوفيرة وقبورهم الغنية لا توجد فى المراكز الحضرية العظيمة وحسب، بل على قدم المساواة فى كثير من مدن المحافظات فى النوبة السفلى .

لا مَعْدَى أن نهوض طبقة وسطى تُرِيه أذى إلى لا مركزية سياسية وانحدار فى السلطة الملكية المطلقة ما كان محتملاً أن يتقدم هذا التطور أبداً لمدى بعيد فى الجنوب المَرُوى، الذى يبدو دائماً كنوع من الإقطاع الملكى. وفى النوبة السفلى، مع ذلك، بينة لا جدال فيها على وجود مجتمع إقطاعى شبه مُستقل فى أزمان مَرُوية متأخرة، سابقاً فى ظهوره على الإنهيار وشيك الوقوع لامبراطورية كوش.

كان بقاء التقاليد الفرعونية هو الأطول واندثارها الأصعب فى الأقاليم الجنوبية المحافظة التى امتلكت القيادة فى تطور الحضارة الكوشية. ومنذ حدوث استيطانها العائد، كانت النوبة السفلى واقعة تحت نفوذ أشد مباشرةً من الميول الدنيوية للعالم القديم المعروف الذى يقع من خلف حدودها تماماً. السلطة الملكية وديانة الدولة غير بارزين بوضوح فى البقايا المَرُوية بالنوبة السفلى؛ تبدو المنطقة محكومةً بموظفين رسميين محليين ما كان لهم إشتغال قريب بإيدولوجية دولة الجنوب ومزوما المرنية. تركزت الحياة العامة على الأسواق، ومحلات بيع النبيذ، والقصور أكثر منها على المعابد والقبور.

لئن كان الشمال المروى يمتلكاً لأى ديانة للدولة، فهى عبادة إيزيس فى فيلة. لم تكن هذه، كبقية اتفاق الحال، عبادةً مُحتركة للأسرة الحاكمة والبيروقراطية الإمبريالية؛ لكنها كانت ديانة فوق . قومية يدعى القوام عليها سواء بسواء ملوك مَرويين، وقناصل رومانين، وزعماء بدويين. فى هذا الفصل البارز بين الكنيسة والدولة، كما فى الإقطاع الوليد للنوبة المَرُوية، يمكننا أن نتعرف على بدايات لموضوعين من أشد المواضيع أهمية لحضارة العصور الوسطى والتى كان عليها الا تُخول النوبة وحدها فى وقت حالى، إنما نعظم العالم الغربى .



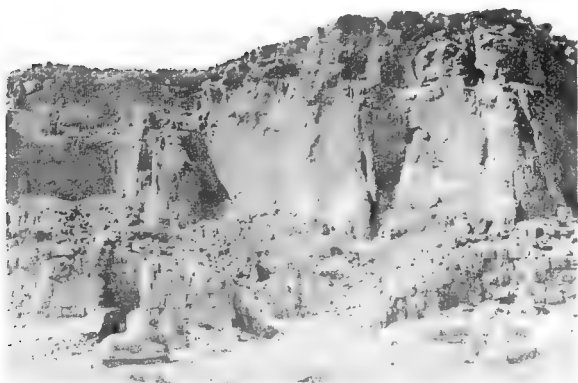
(٨) - معبد رمسيس في أبو سمبل



(٨) ب - معبد رمسيس  
من الداخل ، أبو سمبل



(٩) أ - معبد أمنحوتب الثالث في صلب

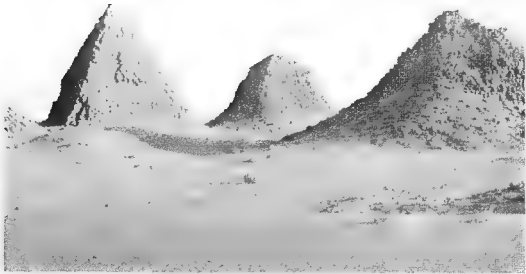


(٩) ب - جبل البركل ، ويرى معبد آمون في المقدمة





(١٠) ١- معبد آمون نبتة كما يشاهد من قمة جبل البركل



(١٠) ب - إهرامات نوري النبتية



اللوحة العظيمة لبعانخي



(١١) أ - سهل البطانة أو « جزيرة مروى » وخرائب المصورات في المقدمة



(١١) ب - المجموعة الشمالية للأهرامات ، مروى « البجراوية »



(١٢) أ- أهرامات منقوشة الأركان ، مروى ، البجراوية »



(١٢) ب- حجرة دفن  
مزخرقة ، مروى



(١٣) أ- كشك ، ومعبد الأسد في النقعة



(١٣) ب - تمثال مروى ضخم على الأرض ، جزيرة أرقو



(١٤) أ - خرائب المناء الخارجى لمعبد إيزيس في فيلة



(١٤) ب - القلعة المحصنة في قصر إبراهيم

## الفصل الثالث عشر

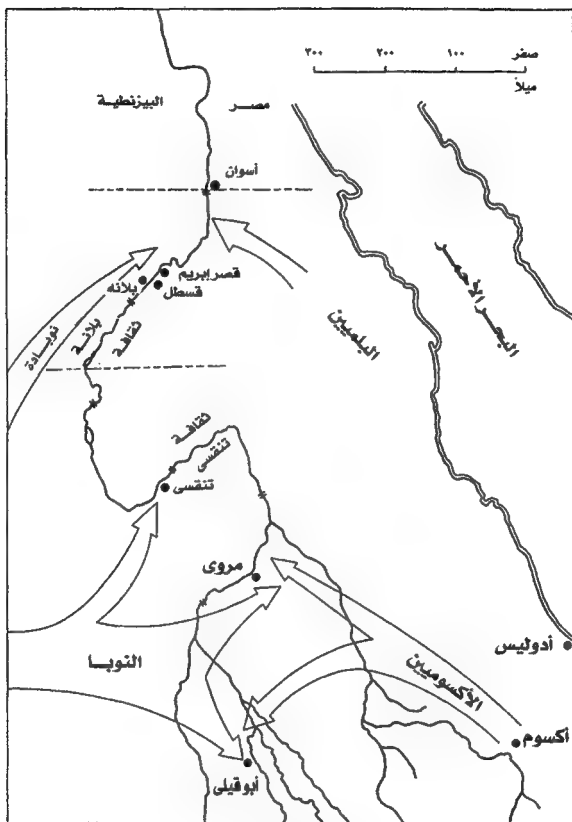
### نهاية الإمبراطورية ثقافة المجموعة المجهولة

في القرن الرابع من العصر المسيحي، كان عمر الإمبراطورية النوبية التي أوجدها كاشتا ويعنخي يزيد على ألف عام. مولودة إبان سنوات إضمحلال الحضارة الفرعونية، عُمِرت طويلاً في الزمان. ما تعدت عمر الحضارة المصرية التي أعطتها ميلادها وحسب، إنما مضت في الحياة لعمر أطول من القوى الآشورية، والفارسية والمقدونية التي ورثتها في الشمال وعلى قدم المساواة، ولجت الإمبراطورية الرومانية مرحلة نضجها، وكانت على أعتاب إعادة ميلادها الأيدولوجي من جديد في ظل المسيحية، عندما كان آخر "الفراعنة" الكوشيين يُتَوَجَّ "سيداً لمصر العليا والسفلى"، وقتاً ما بعد عام ٣٠٠ عقب الميلاد (١).

في حين تُنبئ مدونات الأزمان النَّبِئَة والمُروية الباكِرة عن مناهضةٍ تحدث إنقطاعاً من وقت لآخر بين حدود كوش وما وراءها، نُدَر ذكرُ إيراد أي نشاط عسكري لاحق لغزو بترونيوس الخاطف في ٢٢ قبل الميلاد (الفصل الثاني عشر). وإلى الحد الذي نستطيع أن نخبر فيه، عاش المُرويون لقرنين أو أكثر في حالةٍ من السلم المتعمق مع جيرانهم، على الأقل في الشمال. على أنه من الواضح أن أيام قوتهم وحيويتهم كانت قد باتت في حكم الماضي البعيد. فلم تكن هنالك أنشطة بناء هامة من بعد نatak أمانى وأمانى تبرى، في مطلع العصر المسيحي، ومن الصعب أن تُميز قبور آخر الحكام بِمُروى في الحجم أو المعروف بها عن قبور رعاياهم الأثرياء. في النهاية، يبدو البقاء المتواصل للملكية العريقة مضموناً بعزتها الاقتصادية والسياسية بدرجة أقل مما ضمنتها لها المنفعة الاقتصادية والسياسية لروما البعيدة.

على النيل، ليس أقل مما كان جارياً على الراين والدانوب، كانت حالة السلم مع روما غالباً وقبل كل شيء حالة عقلية. رغبةً من شعوب ما بين التخوم الإمبريالية ما وراءها في تقبل السيطرة الاقتصادية والسياسية الرومانية كُثمن لرخاء مبعثه الرومان. هذا الرداء من الحماية إلّثف من فوق مُروى والدول الأخرى حليفة روما مثلما تسربت به الإمبراطورية نفسها، بيد أنه كان نفعا نفسياً أشد منه عسكرياً. فعندما تهاوى الرخاء الإمبريالي، وبدأت الجماعات الأقل حضارة تصب جام سخطها في مواجهة أربابها القدماء، تعلّمت أن إمبراطوريات كوش وروما ما عاد منهما من يملك القوة العسكرية التي كانت أساس وجودهما ومبدأ تكامله. فسرعان ما اختزقت التخوم الإمبريالية؛ ما أصبحت بينها، حتى فتحت المسارب إلى مِروى وإلى روما على مصراعها. وفي وجه الهجوم العنيف من الجماعات الأقل حضارة ذابت أجزاء واسعة من الإمبراطورية كأنما أبُلِغَتْ بليل.

قصة إضمحلال الإمبراطورية الرومانية الغربية وإنهيارها جرى تسجيل أحداثها الزمنية بتفصيل دقيق. أما الظروف التي اكتنفت السقوط النهائي لكوش فإن قسماً كبيراً منها غير مُؤن، لكن الخطوط العريضة للقصتين لا بد أنها كانت متماثلةً تماثلاً شديداً. يمكننا أن نرقب في السنوات المتأخرة لكل من الإمبراطوريتين هُيُوطاً في الرخاء ناتجاً عن قلقة التجارة ما وراء البحار، وبيروقراطية مثقلة من علٍ إستدعت تقسيم الإمبراطورية إلى أجزاء شبه مستقلة، وربما أهم من كل شيء آخر، القوة الهابطة لأيدولوجية الدولة وقد جرى تحديثها، وعلت فوقها آخر المطاف عبادات شعبية



شكل رقم ٦٢  
هجرات وغزوات بالأزمان المروية المتأخرة وما بعدها



- عالمية، كان الإمبراطور نفسه ملزماً في النهاية، بأن يُسلم بها. ومن العسير تحديد أي من هذه التطورات كان له الأثر الأعظم في إثارة غارات الجماعات الأقل حضارةً. إن هو إلا وقت قصيرُ وجدنا بعده الأغراب يملكون كراسي الإمبراطورية القديمة (قارن الشكل رقم ٦٣).

كان آخر نقش مؤرخ لأي ملك مروي هو رسوم تصويرية في معبد بفيلا، يدون ابتعاث رسول إلى روما من الحاكم المروي تَكرى إيدى أمانى في ٢٦٠ بعد الميلاد<sup>(٦)</sup>. هنالك، مع ذلك، أربع أهرامات على الأقل في الجبانة الشمالية في مروي يعتقد أنها كانت متأخرة في تاريخها عن تاريخ تَكرى إيدى أمانى، وبالتالي يُعتقد على وجه العموم أن الأسرة الكوشية ظلت باقيةً حتى دخول القرن الرابع الميلادي. ويقدّر هينتز تاريخ اندثارها النهائي في ٣٢٠ بعد الميلاد<sup>(٧)</sup>، وقدره دنهام في ٣٣٩ ميلادية<sup>(٨)</sup>، على أن التقديرين يصعب إعتبارهما أكثر من محض تخمين. فليس بأيدينا بيئة داخلية أو خارجية تتعلق بنصف القرن الأخير للإمبراطورية الكوشية، بوسعنا فقط أن نُنشئ من جديد قصة هبوطها وسقوطها النهائي إستدلالاً .

### إضمحلال مروي وسقوطها

ابتداءً من القرن الثاني بعد الميلاد يمكننا أن نتعرف على عملية حثيثة من التدهور الإقتصادي والسياسي في أراضي السهل المروي، ما كانت إلا وجيزاً في مقدمة التطور الثقافي الكوشي . تبدو ثلاثة عوامل مساهمة في هبوط الجنوب المروي. واحد من هذه العوامل الإفقار السريع لمصر - وهي السوق التقليدي لمعظم صادرات النوبة - تحت النظام الروماني المستغل جشعاً<sup>(٩)</sup>. عامل ثانٍ هو الحراك والقوة العسكرية المتزايدة لبدو الصحراء، يتهددون طريق القوافل الطويل وهو عُرضة لهم بين مروي ومصر. وكما لاحظ تريقر برؤية ثاقبة، إن إدخال الجمل يبدو أنه قد صاغ تحولاً اجتماعياً وسياسياً وسط شعوب البدو مقارناً بالتحول الذي أعقب إدخال الحصان وسط الهنود الأمريكيين<sup>(١٠)</sup>. فبعد أن كانوا رعاة بسطاء، منحصرين في ضيق بين مرتع يتعلق بيئة عالية التخصص، إستحالوا إلى ضراوة بعيدة المدى مستثمرين للصحراء، تحت قياد أقبليات عسكرية أرستقراطية التحكم على قوتهم لكنها غير محكمة التنظيم. وعندما تم إنجاز هذا التحول، أصبح في وسع تجارة قوافل الصحراء أن تحيا بمصاهرة غنائها تحت رحمتهم فحسب. خربت سُهبي البدو في بعض المناطق تجارة القوافل مرة واحدة، لكن قبائل الصحراء الأفضل تنظيمًا كانت أبعد إستبصاراً؛ باعوا حمايتهم لتجار القوافل بثمن غالٍ. والنتيجة النهائية هي تواصل التجارة، على نقص حقيقي في الربح.

أخيراً، ربما أشد أهمية من كل ذلك، لم تعد كوش في مطلع العصر المسيحي مستحوذة على احتكار الحضارة والتجارة في الداخل الإفريقي. فإن حضارة منافسة، ترعرت أصلاً في المرتفعات الخصيبة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ونشرت سلطانها عبر باب المندب (المضيق المحدود في مدخل البحر الأحمر) لهضبة الحبشة المجاورة .

نُكرت المملكة الحبشية أول ما نُكرت في دليل البحر الأحمر الذي كُتب في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي وصفاً لسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي. وصف المؤلف ميناء أدوليس وقرر أن الرحلة إليه تستغرق ثمانية أيام بالبر مبلغ الحاضرة الأكسومية، من حيثما يُعمل الماعج من وراء النيل فيُصدّر إلى أدوليس، ثم إلى الإمبراطورية الرومانية. وكان ملك كل هذه المناطق، فيما أضاف، هو زوسكالا - رجلاً جشعاً يتطلع بلا تورع إلى استحواد ما يملكه الآخرون، لكنه عدا ذلك نبيلٌ محفوف بتعليم الإغريق. إن زوسكالا لابد أنه ... يُرتّب كؤول ملك تاريخي للحبشة، وكانت الحضارة في أيامه تسير أنفاً على خطى التبادل السلمي<sup>(١١)</sup>.

إفتراض أن زوسكالا امتلك تعليمًا إغريقياً في هذا التاريخ المبكر يبدو مثيراً لل تساؤل، ولكن من الضروري أن يُذكر أنه بحلول القرن الأول الميلادي كان التحكم في تجارة البحر الأحمر، التي اعتمد

عليها بدرجة كبيرة رخاء، كل من شبه الجزيرة العربية والحبشة، في قبضة الإغريق زماناً طويلاً. وربما كان ميناء أدوليس (بالقرب من مَصْنُوع الحالية) مزدهراً لعدة قرون سالفة، حيث وجد هناك نحت يدل على ذلك لبطلاني الثالث (٢٤٧ - ٢٢١ ق.م.)<sup>(٨)</sup>. إن مدى اهتمام الإغريق بهذه المنطقة مثبت على أفضل وجه في كتابة *ليليل الملاح* نفسه<sup>(٩)</sup>.

حول أقدم مملكة في الحبشة (وهي ما يشار إليها بالملكة الأكسومية عادةً، ترسماً بعاصمتها أكسوم)، يحتوي كتاب *الطبقات المسيحية* لمؤلفه كوسمس انديكوبلستس<sup>(١٠)</sup> أخباراً أسهب تفصيلاً. لقد كان تاجراً إغريقياً - مصرياً كتب، حوالي منتصف القرن السادس، وصفاً للتاريخ، وطبقات الأرض، وأثار البلاد التي قام بزيارتها وبينها مملكة أكسوم<sup>(١١)</sup>. يثير الإهتمام بوجه خاص سرده للتجارة الصامتة التي كان الأكسوميون يحصلون خلالها على خام الذهب من جيرانهم البدائيين في السهول<sup>(١٢)</sup>. ويورد كوسمس أيضاً أن الزمرد كان يُحصل عليه من البلميين (البجا) المجاورين، ثم يُتاجر به إلى الهند بريح فاحش<sup>(١٣)</sup>. هذه التقاليد المجزأة لا توفر صورةً متكاملة غاية الإكتمال عن التبادل السلمي الأكسومي، لكنها كافية لتدل على أن الأحباش يجولون بعيداً وراء مرتفعاتهم التي نشأوا عليها، إفتراضياً إلى داخل النفوذ المروى القديم، في بحث عن سلع التجارة.

على الرغم من المعوقات ذات الاعتبار بشأن السفر في المرتفعات الحبشية، أعطت مجاورة أكسوم لميناء أدوليس ذى المياه المالحة ميزةً لتنافس عظيم مع مروى، بخط إمدادها الطويل وما يتعرض له عبر اليابسة لمصر. لم يكن الأكسومسون فيه هو واضح غير متخلفين في إستغلال هذا الموقف المفضل. ففي أثناء الفترة ذاتها التي كانوا خلالها يطورون صادراتهم السلعية، ربما قاموا كذلك ببيعان بعض قبائل البجا المجاورة لمهاجمة تجارة قوافل مروى<sup>(١٤)</sup>. ركوناً إلى التنافس المتزايد للقوتين الإفريقيتين من أجل الموارد التجارية التي يعتمد عليها رخاء كل منهما، كان وقوع نزاع مسلح بينهما عاجلاً أم أجلاً أمراً محتوماً.

لقد كان بين أهم التقاليد التي دوتها كوسمس انديكوبلستس ما يتعلق منها بحكم الملك الأكسومي عيزانا، الذي تعلم من مدونات أخرى أنه كان أول ملك مسيحي للحبشة، ومؤسس ما صار منذ ذلك الوقت ديناً للدولة بوطنه. لدينا بالإضافة إلى عمل كوسمس، عدداً من المدونات عن عهد حكمه في شكل لوح تذكاري من تأليفه الخاص، بعضه بالإغريقية، وبعضه بالاثيوبية القديمة (قين)، والبعض الآخر بلغة سبأ جنوب شبه الجزيرة العربية. في هذه المدونات إنزعى السيادة على مساحات واسعة ما بإفريقيا الوسطى فحسب، إنما في شبه الجزيرة العربية بالمثل<sup>(١٥)</sup>. إن الإدعاء الأخير بالإمكان أن يمثل قصةً سياسية مختلفة تشابه الإدعاء المروى في شأن مصر العليا والسفلى، ذلك أن أكسوم كانت دولةً وريثة لسبأ (شيئاً الواردة في الإنجيل) تماماً كما كانت مروى وريثة لمصر. يجدر بالذكر أن ملك اثيوبيا (الحبشة) الأخير ظل مؤسساً إرغاعه للحكم على السلالة المتحددة من ملكة سبأ. قاعدة للشرعية أسبق زماناً من أى مبدأ آخر تدعيه حكومة أخرى في العالم عدا ما يمكن أن ينطبق على اليابان الإمبريالية.

إن واحداً من الواح عيزانا يشير إهتماماً غير عادى لدارس التاريخ النوبى، ذلك أنه يسجل حملة قاد فيها الملك جيشاً إلى قلب كوش القديمة وفيما يظهر إلى مروى نفسها. الفقرات ذات الصلة عذهاً كما يلي يَدَج:

يجبرون إله الجميع، شنت الحرب على النوبيا، حيث أن القوم شقوا عصا الطاعة وتباهاوا بذلك. وكانوا معتادين على مهاجمة أقوام منقرو، وخاسا، وباريا، والسود، وعلى شن الحرب على الأقوام الحمر. وبما أنني بعثت لهم إنذارات، ولكنهم لم يصغوا لى بإحترام، ورفضوا أن يمتنعوا عن فعائلهم الشريرة، ثم إنهم ساقوا أنفسهم للهرب، فقد شنت الحرب عليهم. إننى نهضت بقوة رب الأرض، وتجاريت معهم في [العبراء]، وفى مياه الكيمالك المضطلة. بعد ذلك مباشرة أخذوا يهربون، ولم يتخذوا وقفة. ولقد تتبععت اثر الهاربين لثلاثة وعشرين يوماً، أقتل

بعضاً وأجعل آخرين أسرى، وأخذ الغنائم حيثما أقمت بمكان. إن الأسرى والغنائم قام بإحضارها لى قومي الذين توغلوأ في البلد. وفي هذه الأثناء أحرقت مدنهم المشيدة بالطوب منها والمينية بالقصب، وأخذ جنودى طعامها، ونحاسها، وحديدها، ونحاسها المخلوط ودمروا تماثيل [معابدها]، وخزائن أطعمتها، وأشجار الفطن، والقوا بها في النهر [النيل]. وحضرت إلى كاسو وبُخِضَت معركةً وجعلت من أهلها أسرى في ملتقى النهرين [النيل] و [العطبار]. إن أسماء المدن المشيدة بالطوب كانت علوة، ودارو. والمدن المينية من الطوب التي كان قد استولى عليها النوبا كانت تاييتو وفرتوتى. ولقد أقمت عرشاً في ذلك البلد بالمكان الذي يلتقى فيه النهران [النيل] و [العطبار] (١٦) ...

إن تاريخ حملة عيزانا غير مؤكد على وجه الإطلاق، فهو محدد إتفاقياً في حوالى ٣٥٠ ميلادية (١٧). لقد كانت فيما يبدو واحدةً من آخر عمليات الملك العسكرية، إذضلع بها في وقتها بعد إعتناق المسيحية، حيث أن اللوح الذى يصفها واحد من كتابات عيزانا القليلة التى تبدأ وتنتهى بالإتهالات المسيحية (١٨).

اللوحة المكتوب جدير بالملاحظة في كل من محتواه ومحدوفاته. إنه يوحى بأن الأعداء الرئيسين لأكسوم في الغرب ما كانوا هم الكوشيين (الذين ربما أمكننا أن نتعرف عليهم تحت الاسم "كاسو" في منتصف النص) ولكنهم النوبا - قوماً كان قد وصفهم إسترابو (١٩) ويطلّمي (٢٠) بأنهم يقطنون غرب النيل. وربما يظهر أنه في الوقت الذى حل فيه عيزانا بجيشه، كان هؤلاء الجيران وهم من رعايا مَرُوى السابقين زماناً طويلاً قد تحركوا قبله عبر النهر وحازوا لأنفسهم جزءاً كبيراً من الأراضى التى كانت تحكمها كوش وراثياً، بما في ذلك بعض مدنها ومعابدها المشيدة بالطوب. وبينما أن معنى النص غير مطلق الصفاء، فهو يقترح فيما يبدو أن المساكن العادية للنوبا (كما أغلب السكان في وسط السودان اليوم) كانت من العشب، في حين كانت مدن تاييتو وفرتوتى التى أقاموا بها قد استولوا عليها أنفاً من المرويين (٢٢).

ليس مستيقناً ما إذا كانت "كاسو" (كوش) في الجزء الأخير من النص تشير بتحديد إلى مدينة مَرُوى، أم الإقليم العام ("جزيرة") مَرُوى، أم الشعب المَرُوى، سوى أن من المعانى القيمة على أي حال إنه لم يرد ذكر لمملكة كوش القديمة. الواضح، على الأقل إستدلالياً، إنه في عهد عيزانا كانت الأسرات الكوشية قد ذهب ربحها من قبل إما بإغارات النوبا أو بغزو أكسومى سابق (٢٣). وعلى نحو ما يتمعن كيروان:

... إن البنية منشطرة، بيد أن الإنطباع هو أنه، بشكل منقطع، منذ القرن الأول الميلادى على الأقل ظل أكسوم مصدرأ مهدداً لمَرُوى ولم تكن البطانة تخلو بشكل غير متكرر من أن تكون مسرحاً لمعارك بين القوتين. فكما اقترح هينتز (٢٤)، إن الصورة المحفورة للملك شركاير... في جبل قبلى (قارن الفصل الحادى عشر) ربما أمكن أنها... إحياء لذكرى نصر مَرُوى على أكسوم أو إنصهار تقدم أكسومى. ثم إن هنالك منحوتان أكسوميان أخران معنيان بجزيرة مَرُوى، وكلاهما يحتمل أن يكون مكتوباً سابقاً لعيزانا. واحد منهما تحت إغريقى شديد الإنشطار على صخر مُسَوَد اللون وجده سايك في مَرُوى .. يُحْصى ذكرى استيلاء أكسومى على المدينة والثانى تحت أغريقى أبصره ونسخ جزءاً منه في أدوليس مساح طبقات الأرض إبان القرن السادس الميلادى كوسمس أنديكوبلستس. ربما يكون هذا عملاً للملك أفيلاس، واعتبر قلاسر وآخرون أن تاريخه يعود إلى النصف الثانى من القرن الثالث . بعد قائمة طويلة من الأقاليم والأقوام الذين قُهرُوا إلى الشمال، والشرق، والجنوب من أكسوم، يواصل الملك في مكتوب كوسمس (واسمه مفقود)، "بسبب هذا النجاح فإننى الآن أقدم شكرى لإله الجبار أريس الذى أنشئنى والذى بعونه ضعفت كل الأمم الواقعة على حدود بلادى، على الشرق إلى مبلغ أرض الإسثُس وغرباً حتى بلاد اثيوبيا وساسو". إن ساسو هنا لايد أنها بالتأكيد نقلاً مفلوطاً فيه في كِتَابَة كاسو (٢٥).

إذاً، فالسقوط النهائى للمملكة الكوشية القديمة محجوب يكاد يلفه ظلام دامس. ومع أن ترنحها كان من غير شك قد أسرعت به المنافسة الإقتصادية وربما عَجَل به الضغط العسكرى من قبل أكسوم، فلعلها في نهاية الأمر إندثرت بفعل إغارات من جماعات أقل حضارة وأكثر قرباً لجيرتها عبر

النيل. لقد أعلن عيزانا نفسه ملكاً على كاسو (بمعنى سبعة ممالك أخرى)، على أن البادى هو أن الذين امتلكوا أرض الإقليم الكوشى الموروث هم النوبا أرجح مما يلصق بسكان المرتفعات الحبشية. ومن القيمة والأهمية بمكان، أن أياً من الجماعتين لم يحاول أن يبنى دولة خليفة على أطلال مَروى ومؤسساتها. في المراسم الملكية لعيزانا ما من ذكر لأمون، والأرضيين، أو لأي من التقاليد السياسية والدينية القديمة التى كان قد أسس عليها حكم كوش منذ أيام الفراعنة .

كانت السيادة الأكسومية على النيل واهنة إستغرقت بضعة أيام في حالاتها، ولم تحيا طويلاً بعد عيزانا. أدار الحكام المتأخرة من الجُوش إنتباههم صوب الشرق، في محاولة لبناء إمبراطورية في جنوب شبه الجزيرة العربية. ولم تدمر الفتوحات الفارسية والعربية اللاحقة في شبه الجزيرة إمبراطوريتهم وحدها، لكنها دمرت تجارة البحر الأحمر التى اعتمد عليها وجودهم. ففاصت الحبشة في عصر مظلم دام ما يقارب الألف عام<sup>(٢٦)</sup>. وولجت النوبة كلها عصرًا مظلمًا، إذ أن الكتابة المَروية غابت مع أقول الحضارة المَروية<sup>(٢٧)</sup>. كنتيجة لهذا، ليس لدينا مَدُون تاريخي عن الأحداث في النيل العالى ما بين حملة عيزانا وظهور مملكة مسيحية في علوة بعد قرنين من الزمان (الفصل الرابع عشر). فالمفترض أن رعايا علوة كانوا، في جانب منها، قد تحدروا من المَرويين القدامى، غير أن المملكة ما كانت دولة خليفة لمَروى بأى معنى من المعانى. إن بونا أيديولوجيا كاملاً يفصل الإندثار النهائي للحضارة "الفرعونية" عن بدايات المسيحية في العصور الوسطى .

لم يكن السقوط الحاسم للحضارة الكوشية في النوبة السُفلى بأحسن توثيقاً إلا بشكل طفيف منه بالجنوب. هناك على السواء يبدو أن الهبوط الإقتصادي كان مصطحباً بضغط خارجي، أدى إلى انهيار سياسى في النهاية. وكانت العوامل المساهمة في ذلك مختلفة بعض الشيء في الحالتين، لكن المحصلة الختامية كانت واحدة .

كانت النوبة السُفلى نائية جداً عن الحبشة لتتهدها القوة العسكرية الأكسومية؛ ولم تكن تابعة بقدر مؤثر لتجارة طويلة المدى لتصبيها المنافسة من مملكة المرتفعات. ربما تفسر هذه العوامل الأسباب التى جعلت الشمال المَروى باقياً على رخائه زمنًا مقدراً من بعد أن نال الوهن المحافظات الجنوبية. ومع هذا، فمنذ القرن الثانى وما تلاه، بات كل من النوبة السُفلى ومصر العليا عُرضة للإنتهاب من بدو الصحراء - البليبيين الكواسر الذين وصفهم بلينيوس بأنهم "سلالة لا رأس لها، تنمو عيونها وأذناها تحت اكتافها"<sup>(٢٨)</sup>. يظهرون أحياناً عديدة في النصوص الحرفية القديمة في القرنين الثالث والرابع مديرين لغارات يقومون بها على المجتمعات المقيمة حول أسوان وقيلة، وفي مناسبتين يبدو أنهم شاركوا في عصيان مصرى مجهض ضد السلطة الرومانية<sup>(٢٩)</sup>. من الواضح في عدد من المصادر أن بليمى الماضى القديم يتأتى التعرف عليهم مع قبائل البجا الحالية اليوم<sup>(٣٠)</sup>، وبكل الإحتمال على حد سواء مع المديجائ أو مدجو الذين يُدْعَوْنَ دَانماً غزاة الصحراء في النصوص الهيروغليفيه للدولة الوسطى (الفصل السابع). طوال الفترة التاريخية كان المرتع الأساسى لهؤلاء القوم تلال البحر الأحمر، وهو أمر قد يبين لماذا كان نفوذهم محسوساً كاقوى ما يكون عليه في أبعد جزء شمالي من النوبة يلاصق مصر العليا - مناطق لا تفصلها سوى قطعة ضيقة من الصحراء عن أراضي العشب والشجيرات القزمة في بيئة البجا الطبيعية .

نذكرنا أنفأ التحول الذى حيَّث في المجتمع البجاوى وثقافته بحيازة الجمال. نهاية القرن الثالث لم يكن البدو يمتلكون ذهب الصحراء وزمرد المناجم فحسب<sup>(٣١)</sup>، لكنهم، طبقاً للمؤرخ بروكويوس كانوا ينهبون المستوطنات المحروسة بالحاميات في الدوديكاسخيون الرومانية<sup>(٣٢)</sup>. تحت هذه الظروف، خلص الإمبراطور ديوكليتيان<sup>(٣٣)</sup> بشكل لا يخالف مألوفاً إلى أن الإحتلال المتواصل للنوبة السُفلى لم يكن مسوغاً بالدخل الضئيل الذى تدره المحافظة. وفي ٢٩٧ ميلادية سحب الحاميات الرومانية وأنشأ التخوم الإمبريالية في قيلة، تاركاً الدوديكاسخيون تحت رحمة البدو .

(\*) ديوقليتيانوس في مراجع عربية - المترجم.

لم يأت إنسحاب الحاميات الرومانية في الحال بنهاية الحضارة في الدوديكاسخيون، ذلك أن كثيراً من السكان المستقرين فيما تبين واصلوا إقامتهم، وهناك إقتراحات عديدة باستمرار النفوذ الروماني الثقافي والإقتصادي في القرن الرابع<sup>(٣٣)</sup>. أما المحافظة المروية التي تقع إلى جنوب المحرق فقد كانت أقل تأثراً مباشراً بالإنسحاب الروماني، لأنها كانت أقل عُرضة لهجوم البدو من المحافظة الرومانية. وتقرّر كتابات مروية وفيرة من القرن الرابع أن حضارة الشمال المزدهر (التي وُصفت في الفصل السابق) ثابتة على البقاء زمناً معتبراً بعد التراجع الروماني، بل من بعد سقوط المملكة الكوشية في الجنوب واندثارها<sup>(٣٤)</sup>. كيفما كان الحال، ربما أن الرحيل الروماني من الدوديكاسخيون جاء بهبوط مباشر للفرص الاقتصادية في المحافظة المروية المجاورة. فكما لاحظنا في الفصل الثاني عشر، ربما كان إمداد الحاميات الرومانية بالطعام في ذاته صناعة هامة في النوبة المروية. مع ذلك، فالأكثر أهمية أن الإنسحاب الروماني ترك صلة التجارة الحيوية بين النوبة المروية ومصر الرومانية في قبضة البليبيين على وجه الدقة. منذ تلك اللحظة وما جَد بعدها، كان الإنهيار النهائي للرخاء المروى مسألة وقت ليس إلا .

إنتهاء الرخاء المروى أدى بدوره أيضاً، حيثما اتجهت كل المقاصد والأغراض، إلى نهاية الحضارة المروية. إن الظروف التي أحاطت بأفولها الأخير في النوبة السفلى مع هذا ليست بأجلى إثباتاً عما هي عليه بأراضي السهل في الجنوب. إننا لا نستطيع في الشمال أن نتعرف على ضربة قاسية، على غرار ما كان متاحاً للغزو الأكسومي أو غارات النوبا على مروى. وفي غياب النصوص المعاصرة، يمكننا الإنطباع بأن الحضارة الكوشية خارت قواها وتوقفت عن الحياة ببساطة. بحلول القرن الخامس، كانت عمارة الصروح، والفن على الجدران، وديانة الدولة والكتابة، وأغلب الفنون السامية للحضارة قد انقضت؛ وبعد ١٥٠٠ عام غاصت أرض كوش مرة ثانية في أعماق عصر مظلم، ما كان لها أن تخرج منه حتى مقدم المسيحية بعد قرنين. وبالنسبة لأحداث الفترة الواقعة ما بين ذلك الزمان يمكننا فقط أن نعتد على البينة المجزأة والمتناقضة دائماً للنصوص المتأخرة الماثورة وعلى الآثار.

### العصر المظلم وثقافة المجموعة المجهولة

من وجهة نظر أثرية، يمتلئ العصر المظلم ما بعد المروى في النوبة السفلى بالمخلفات الثقافية التي وصفها رايزنر قبل ستين عاماً بأنها تمثل "المجموعة المجهولة"<sup>(٣٥)</sup>. على نهج مجموعات الحروف الأبجدية التي سُردت في الفصلين الخامس والسادس، إكتشفت بقايا "المجموعة المجهولة" أول مرة في الجبانة ٧ في شلال، أميلاً قليلة جنوب أسوان<sup>(٣٦)</sup>. وبالعادة، أقيم التعرف على هذا المركب الثقافي الجديد ووصفه على بقاياها الجنائزية لا غير؛ ما من حفرة قيم أُجرى في مواقع السكن لفترة ما بعد المروية إلا بعد انقضاء أكثر من جيل تأخراً .

كما يحدث دائماً، فسر رايزنر نوع قبور "المجموعة المجهولة" غير المعناد على أنه دليل على مقدم أناس جُدد (قارن الفصل الثالث). لقد كان، كما قرر "... نوعاً من القبر جديد وبغير مصري بشكل متميز... مختلفاً كل الإختلاف عن الأنواع البطلمية - الرومانية السابقة. إن هذا النوع من القبر... موسوم بحشر جسد الميت وتوجهه ويخار متفرد النوع. محتويات هذه القبور تقدم ثقافة غير مصرية، سواءها السلاطية غير واضحة"<sup>(٣٧)</sup>. وفيما يحدث دائماً، كذلك، تجد نظريات رايزنر الثقافية تأييداً حالياً في البينة التشريحية لهياكل "المجموعة المجهولة"، على نحو ما دلل على ذلك إيليوت

(\*) المجموعة المجهولة هي "الجماعة س". راجع المقدمة، حيث تُرجمت مصميات ادمز إلى ثقافة المجموعة المجهولة، وثقافة المجموعة الثالثة بدلاً من "الأق س"، إلخ. أما المجموعات الهجائية لرايزنر فترجمت إلى المجموعة الأولى، والمجموعة الثانية، إلخ - المترجم.

سميث: "أناس المجموعة المجهولة كانوا من سلالة مختلفة شديدة الزنوجة جعلوا طريقهم فجأة ناحية الشمال إلى داخل النوبة، جالبين معهم أسلوباً من الدفن ونوعاً من الفخار أعلن د. رايزنر أنه غير مصرى بشكل متميز... أما الوجه الذي استرعى البصر حالاً في هذه الجماع كان ملاصق وجهها الرزنجى الصارخ..." (٣٧).

إن العبارتين اللتين جري نقلهما للتو تبينان لدرجة الإلتقان اضطراب البنية السلالية والثقافية التي غُيبت دائماً مسألة "المجموعة المجهولة". لقد تحدث رايزنر عن ثقافة تملك "سوالف سلالية"، واقترح إيليوت سميث أن الشخصية غير المصرية لجماع "المجموعة المجهولة" نوعاً ما تعززها النوعية غير المصرية لفخارهم وأسلوب دفنهم. والحقيقة، أننا نعلم الآن أنه طالما كانت هناك مستحدثات عرقية وثقافية في الفترة ما بعد المروية، فهي جاءت من اتجاهات متعارضة لا وصل بينها لمدى بعيد .

يجب إضافة أن نظريات رايزنر وإيليوت سميث لم تكن خاطئة على إطلاق بالنسبة إلى محتوى زمانها ومكانها. لقد كان أول مسح أثاري للنوبة (قارن الفصل الثالث) محصوراً في شمال النوبة القصى، حيث لم تكن هناك إقامة مروية؛ لذا فإن أناس "المجموعة المجهولة" وثقافتها جرت مقارنتهم مبدئياً ليس بأى جماعة نوبية إنما بأسلافهم البطالمة والرومان - المصريين في الدوديكاسخيون. وفي هذه المنطقة يوجد كل سبب لإفترض أن الوافدين الجدد يمثلون بحق تدخل عرقياً وثقافياً، فيما أعقب إنسحاب الحاميات الرومانية (قارن "إشكالية النصوص التاريخية"، فيما سيلي بأنداه). غير أنه عندما اكتشف في وقت لاحق أن المراكز الرئيسة لأناس "المجموعة المجهولة" ونشاطها لم تكن قائمة في الدوديكاسخيون لكنها في المحافظة المروية القديمة في النوبة السفلى، إصطنع نوعاً ما أنها مثلت تدخل عرقياً وثقافياً في هذه المنطقة بالمثل. بدا على الإجمال أن جماعة جديدة من الأقوام الجنوبية الأقل حضارة إمتلك النوبة السفلى بالجمعها، أخذت مكان الرومان والمرويين على السواء .

لم يؤيد البحث الأثاري الحديث [حول أصول الأجناس] نظرية التمييز العرقي "للمجموعة المجهولة" إزاء السكان المرويين السابقين في النوبة السفلى (٣٨). وبالرغم من أن دارسين معاصرين عديدين لاحظوا عملياً - كما فعل إيليوت سميث - خلطة "زنجية" (٣٩)، أقوى في "المجموعة المجهولة" (٤٠) لم تعد الاختلافات بين المجموعتين السكانييتين تُرى كبيرة. لقد عبر بطراوى بصفاً عن الإجماع الحديث إذ كتب يقول إن "السلسلة المروية وسلسلة المجموعة المجهولة.. ربما اعتُبرا ممثلين لاختلافات بين السكان أنفسهم. إن ... سلسلة المجموعة المجهولة، مع هذا، تشمل أولئك الأجانب، عبيداً ربما، الذين جعل وجودهم السلسلة ككل عارضاً لأعظم تعدد مُشكل وسط الجماعات السكانية النوبية" (٤١).

لقد جرى التفكير أيضاً في أن مفهوم الإنتقطاع الثقافي بمعنى الإفتقار إلى التماسك الثقافي بين "المجموعة المجهولة" وأسلافهم، وهو ينطبق بمشروعية كافية فيما يختص بالدوديكاسخيون، يصدق على المحافظة المروية. وبعد حفر الجبانة المروية وما بعد المروية العظيمة في فرس، بُلغ قريفت "إنه ليس هناك إنتقال حقيقي للمجموعة المجهولة، التي جاءت بشكل مفاجئ" (٤٢). ومع زيادة المعرفة بالثقافات المروية وثقافة المجموعة المجهولة، بالرغم من ذلك، أصبحت الخواص المتواصلة بينهما أقوى فأقوى ظهوراً. وإلى وقت باكر كعام ١٩٢٥م أمكن لجنكر أن يتفحص أنه ليس هناك فرق صارخ بين المجموعة المجهولة والثقافة المروية. قوالب القبر تكاد تتماثل بكل منهما، الفرق يكمن بصفة رئيسية في تفضيل الأنواع الفردية. وجدت أنواع فخار متعددة في المجموعتين، والشارع في كل من الفترتين حراب الحديد، ورؤوس السهام، والألوات. هكذا يمثل كل منهما في النوبة ثقافة مُفردة يتساعد نموها مباشرة أو بصور غير مباشرة إلى ثقافة الفترة المسيحية (٤٣). تجدر الإشارة أن

بعض أهم الاختلافات الثقافية - عيناً في الفخار - لا تعود بدرجة اليقين إلى النفوذ الجنوبي لكنها ترجع إلى الغلبة الثقافية المتزايدة لمصر البيزنطية<sup>(٤٤)</sup>. أخيراً، بيّن حفر عدد من المستوطنات المصنفة في الماضي القريب أنه لم يكن هناك إنقطاع في الإقامة بين الفترات المروية وما بعد المروية<sup>(٤٥)</sup>. في النوبة السفلى على الأقل لا نملك مبرراً للتفكير بأن الثقافة المروية وثقافة "المجموعة المجهولة" ليستا سوى فصول متعاقبة في تاريخ نفس الثقافة .

إماماً بالحالة الراهنة لمعرفتنا، يبدو الاستعمال المستمر لتوصيف "المجموعة المجهولة" المضل والذي لا يحمل تشخيصاً محدداً، غير منطقي. إن الاسم "ثقافة بلانة"، الذي اقترحه تريقر منذ سنوات عديدة مضت، مفضلٌ بشكلٍ محسوس<sup>(٤٦)</sup>. فهو يُعرف مثل "ثقافة كرمة" هويةً لمرحلة معينة بدقة من التطور الثقافي النوبي بتعبيرها الصرحي العمادي (أنظر "المدافن الملكية"، بادناه)، ويوفر إسماً مرموقاً في الحال لأي واحد ألف مسبقاً التاريخ النوبي. كذلك يمكننا من التمييز بين ثقافة النوبة السفلى والثقافة المنسوبة إليها ولو أنها في بعض الطرائق ثقافة مميزة لأرضي السهل ما بعد المروية، وهي موصوفة وصفاً محدداً من قبل تريقر على أنها ثقافة تنقسي<sup>(٤٧)</sup>. ولما تبقى من هذا الفصل، بناء على ما تقدم، سوف أستخدم مصطلح ثقافة بلانة لتوصيف ما دعاه رايزنر "بالمجموعة المجهولة"، في حين أنشير إلى الفترة ما بعد المروية بحسبٍ عريض (شاملاً كلاً من ثقافتى بلانة وتنقسي) على أنها ثقافة المجموعة المجهولة .

إذا كانت البقايا الأثرية للأطوار المروية والبلانية تُؤمّن بلا خطأ إلى تواصل ثقافي وإجماعي، تبقى هنالك، كيفما اتفق الأمر، اختلافات هامة بينهما لا بد من شرحها. إن علينا أن نُكَلِّف في المحيط الثقافي إختفاء كثير من الفنون السامية التي ظلت زماناً طويلاً خاصة مميزة للثقافة الكوشية، وإحياء طقوس الدفن التي يبدو أنها تسترجع كل ما فات ما قبل كرمة الفرعونية في نفس الوقت (الفصل الثامن). وفي المحيط السياسي علينا أن ندرك بروز نظام ملكي مستقل، جديد في النوبة السفلى يمثل بغض النظر عن كل شيء آخر، تجسداً أقل حضارةً للتقليد الفرعوني. ولكي نَعُدَّ الصورة تعقيداً إضافياً، بحوزتنا عدد معتبر إعتباراً عالياً من متأخرة النصوص الماثورة التي لم تورد ذكرًا لمروى أو المرويين، لكنها تشير إشارةً غير مباشرة مكرراً إلى ما يبدو قومين جديدين، البلميين والنوباديين. أخيراً، نملك بُيئةً ممكنة على عدم التوافق اللغوي بين الفترات المروية وما بعد المروية مما لا يمكن تجاهله. وكما سيكتشف القارئ، يكاد مستحيلاً حتى اليوم أن يجري تصنيف لهذا البناء المتشابه من البُنية التي، فيما يبدو، يُعَيِّبها التناقض. إنَّ الأمل الوحيد للقيام بهذا العبء يقع في التقدير المستقل لما يلقى التاريخ، وعلم الآثار، وعلم اللغويات من ضوء على التطور الثقافي للنوبة ما بعد المروية .

إتخذت دراسات التاريخ ما بعد المروى<sup>(٤٨)</sup> بوجه عام نقطة إنطلاقها في السرد التاريخي المتكسر دائم الغموض لكتاب مثل بروكويوس<sup>(٤٩)</sup>، وأوليمبودورس<sup>(٥٠)</sup>، وبريسكوس<sup>(٥١)</sup>. في ظاهر الأمر، يقترح هذا المبلخ أن المؤلفين القدامى هم أفضل مرشديننا على أحداث الفترة ما بعد المروية، وأن السجل الأثري يجب نوعاً ما أن يتوافق معهم. والحقيقة، إن العكس تماماً هو الصحيح. سوف أبداً ذلك التحليل الحالي على أساس الأرضية الصلبة لعلم الآثار، مُرجعاً لوقتٍ قادم التقدير لكيف تنعكس هذه الأرضية على النصوص القديمة، ومصدقاتها (قارن "إشكالية النصوص التاريخية" بادناه).

### آثار ثقافة بلانة

عُثِرَ على بقايا ثقافة بلانة في الرقعة الممتدة من شلال في الشمال إلى سسبي، في أرض عبري - دلقو النهرية، بالجنوب (الشكلين رقم ٦٣ ورقم ٦٤)<sup>(٥٢)</sup>. إن الحد الشمالي بالنظر لكل

الأغراض العملية هو التخوم المصرية - النوبية الخالدة: أى الشلال الأول. أما الحد الجنوبي، كما هو معتاد، فغير محدد بصفاء؛ لا يعكس شيئاً أبعد من الحد الذى يجرى استطلاعاً. ومع ذلك، يحتمل أننا في ختام الطوف نجد الحد الجنوبي لنفوذ بلانة إما في أرض عبرى - دلقو النهرية أو في الطرف الأدنى من أرض دنقلا النهرية، حيث يبدو أعلاها منتمياً لثقافة تنقسي المعاصرة ولو أنها مميزة وسيجرى وصفها لاحقاً .

مدى ثقافة بلانة وأهميتها، في النوبة السفلى متفقاً، مثبت ببقاياها الجائزية وحدها. من بين ما يزيد زيادة خفيفة على ١٥٠ موقعاً معروفاً لبلانة الآن، أكثر من أربعة أخصاسها جبانات (٥٢). ربما تعزى ندرة المواقع السكنية إلى عدة عوامل: المسح الإعتباطى، الشخصية غير البارزة بمستوى بادل لمبانى بلانة، والحقيقة القائلة بأن عديداً منها بنيت من فوق هياكل مسيحية لم تُفحص بدورها فحسباً منهجياً بانتظام. في بطن الحجر وحدها نجد شيئاً يشبه نسبة سليمة من المواقع السكنية والجائزية (٥٤)؛ إنها ليست مثبتة عن إقامة كثيفة، لكنها تنبئ فحسب عن عوامل تصادفية نتج عنها حفظ أفضل حالاً للمواقع في هذه المساحة.

مواقع بلانة - في القرى والجبانات معاً - أصغر بقدر ملحوظ وأشد تبعثراً من قبور الفترة المروية. وفي حين أن معظم الجبانات المروية تحوى على الأقل ثلاثين قبراً، فإن أرضيات دفن كثيرة في الفترة البلانية بها أقل من إثني عشر قبراً. أما أكبر عدد من قبور بلانة التي تم حفرها في أى موقع واحد فيبلغ ٤٩٥ في جبانة أرقين بالقرب من وادى حلفا (٥٥). مع هذا، يبدو محتملاً أن بعض المدافن التي لم تُنقب جزئياً أو بدرجة كبيرة قد تكون أوسع من ذلك مرات عديدة (٥٦). قليل جداً من مدافن بلانة الأكبر حجماً هي مواقع 'خالصة'؛ يشمل أغلبها أيضاً قبوراً من الفترة المروية أو المسيحية، أو الإثنين. وفي المساحة التي تحيط مباشرة بالشلال الثاني، على سبيل المثال، كانت هناك ثلاث عشرة جبانة من فترة بلانة إحتوت كذلك قبوراً مروية، وخمس وعشرون جبانة إحتوت أيضاً على قبور مسيحية، وسبع عشرة جبانة إحتوت فقط قبوراً بلانية (٥٧). هذه الحالة تشير إلى كل من المدة الموجزة نسبياً التي استغرقتها الفترة البلانية وإلى حجم السكان الصغير في معظم المستوطنات .

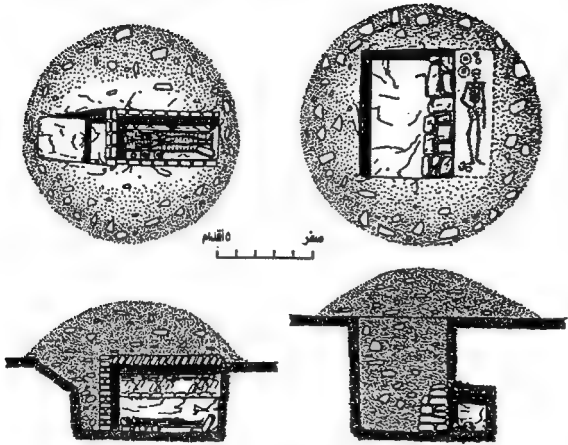
إلى مدى بعيد وُجد التركيز الأثقل لقبور بلانة في المساحة التي تقع تماماً شمال الشلال الثاني؛ أى، الأرض التي تحيط بما يبدو أنه كان المركز السياسى لأزمان بلانة، في أو بجوار القرية الحديثة التي تحمل نفس الاسم (٥٨). وهناك تركُّز ثانٍ في الشمال البعيد، بضاحية مركز قصر إبريم الإدارى القديم، الذى فيما يظهر بوضوح إحتفظ بمكانة سامية الأهمية في أزمان ما بعد مروية (٥٩). وراء المحرق، في مقاطعة الدوديكاسخيون السابقة، مواقع بلانة أصغر بجلاء وأقل عنها في المنطقة الأبعد جنوباً. العدد الكلى لقبور بلانة الذى اكتشفه المسح الأثارى الأول بين شلال ووادى السبوع كان ٤١٨ لا أكثر - وهو أقل من عدد القبور التي تم الكشف عنها بالقياس إلى أى فترة تاريخية أخرى.

في الجنوب، لا نعلم شيئاً حول توزيع قبور بلانة وراء حد الإستطلاع المنظم منهجياً في شلال الدال. وبإمكاننا أن نرتقب، أيأ كان ذلك، أن موقع بلانة أشد تعدداً بمرأل في بطن الحجر من المواقع المروية (٦١). البين أن عودة السكان إلى هذه المنطقة الجافة جرى حدوثها في الفترة ما بعد المروية، بدلاً من قرن أو قرنين قبل ذلك كما جرى لعودة السكان في النوبة السفلى. بل إنه كان هناك مركز إدارى هام، أو على الأقل إقامة لاسرة ثرية للغاية، في فركا، بالقرب من الطرف الأعلى لبطن الحجر (٦٢). حوالى خمسة عشر ميلاً بعيداً صوب منبع النهر، تعد الجبانة القديمة الكبيرة التي لم تحفر بعد في جزيرة صاى أبعد موقع معروف في الجنوب لثقافة بلانة (٦٣). وهناك معثورات وجدت عشوائياً لفخار من أماكن بعيدة في الجنوب، على أن مراكزها لم تثبت بوضوح .

تختلف قبور بلانة عن قبور الفترة المروية في قالب بنائياتها الفوقية بشكل رئيس. بدلاً عن هرم







شكل رقم ٦٥  
أنواع القبور في خزانة بلانة

من الطوب أو مصطبة، كان السطح النمونجي الذي يُعَلَّم القبور طوال أزمنة النوبة ما بعد المروية مدفناً تلياً يشبه القبة، منخفضاً، يذكر بما يبعث على العجب بمدفن كرمة التلي من قبل ٢.٠٠٠ سنة سابقة (قارن الفصل الثامن). هنالك بعض الدلائل على أن هذا الشكل من بنايات القبور السقفية تبناه من قبل عامة مروى منذ زمن معتبر قبل السقوط النهائي للأسرة الكوشية<sup>(٦٥)</sup>، وبقي الأهرام مستخدماً بين الطبقة الحاكمة وحدها. في النوبة السفلى، مع ذلك، يميز المدفن التلي الفترة ما بعد المروية؛ فلا يصحب وجوده الفخار المروى، أو تماثيل با، أو الألواح التذكارية<sup>(٦٦)</sup>.

كان المدفن التلي البلاني المؤلف يتراوح ما بين ١٢ إلى ٤٠ قدماً في القطر، وربما يرتفع إلى علو أقصاه ١٥ قدماً. يمكن أن تبلغ المدافن التلية للملوك والنبلاء نسباً أكبر من ذلك بكثير، كما سترقب فيما بعد. كانت هنالك غرفة قربان ملاصقة أو زخرفاً سطحياً بالمرتفع القائم على تراب القبر في القبور العادية. مثل الفترة المروية، تبدو قبور وفيرة كأنها افترقت لأى نوع من البنايات السقفية؛ وفي بعض الأماكن مدافن كاملة ليست فيها مدافن تلية<sup>(٦٧)</sup>.

في ترتيباتها السفلية المخبوة تحت الأرض، تُبين قبور بلانة النوعية ذاتها لأنماط الغرف كما القبور المروية. وبالرغم من ندرة القبور الكهفية فالتقسيم الثنائي الرئيس بين قبور الغرف المسقوفة وقبور المخبأ ثم ما يعقب ذلك من تقسيم إضافي لقبور المخبأ إلى طراز نهاية المخبأ وطراز جانب

المخبا، يبقى مُحافظاً عليه طوال فترة بلانة (قارن الشكل رقم ٦٥). ومهما كان الأمر، فإن الأجزاء النسبية للنوعين الرئيسيين معكوسة: تعم مقابر المخبا البسيطة بتفوق زائد على القبور المسقوفة إبان الفترة ما بعد المروية. إن تحديثاً إضافياً بالإمكان أن يُرى في إعادة الأخذ بالوضع الضيق للجسد في الدفن، وإستعادة توجيه الميت صوب الجنوب في مكان التوجه التقليدي ناحية الغرب في الأزمان المروية. والغالبية العظمى للجنازات المنحشرة موجودة في قبور المخبا؛ ربما أنها تمثل شيئاً يتعدى العلامة الطبيعية لهذا النوع المصغوف من غرف القبر بعبارة أصح. أما الأجساد في قبور الغرف فهي في أغلب الأحيان ممدودة على ظهرها، كما الأزمان المروية. وظلت ممارسة لف الميت بكفنٍ عادية طوال فترة بلانة.

طبيعة القرايين الجنازية في قبور بلانة هي من طبيعة الأنواع العامة الموجودة في القبور المروية. لكنها مخفضة بقدر معتبر في العدد والنوعية. إن كميات من الفُخار محلى الصنع، الرخيص، هي أشد امتعة القبر شيوعاً. والمواد الأخرى، عدا الخز، نادرة كذا البضائع المجلوبة فهي ليست كثيرة بشكل إستثنائي. عثر على أسلحة من نوع واحد، أو غيره في حالات حسنة الوفرة؛ إنها تشمل رؤوساً حديدية لحرا ب وسهام، جعاباً للسهم من الجلد ذات رسم دقيق أخاذ<sup>(٧٨)</sup>، أحجبة للاقواس من الجلد، وأقراصاً حجرية للثبالة.

الغالبية العظمى من جبانات بلانة لا تحوى إلا قبوراً متواضعة نسبياً من النوع الذى وصف قبل قليل. أما القبور شبه القبابية الأكبر والأعطى زينة فهي ظاهرة في مواطن قليلة لا غير وهي: قصر إبريم<sup>(٧٩)</sup>، بلانة وقسمطل<sup>(٧٠)</sup> جمى<sup>(٧١)</sup>، وفركة<sup>(٧٢)</sup> (الشكل رقم ٦٤). هنا كانت تلال ترابية مرتفعة باللغة الكبر، ينافس أكبرها في الحجم المدفن التلى العظيم في كرمة (الفصل الثامن). هذه القبور الملكية النبيلة، التى سيجرى وصفها بتفصيل أوفى لاحقاً، هي الصروح البنائية التى ما أخرجت فترة بلانة مطلقاً سواها.

غياب معمار الصرح واحد من أشد الملامح المميزة التى تثير الدهشة في فترة بلانة. ما كان هناك إنعدام في البناء بالخجر وحسب، لكن المعابد الأقدم و/أو القصور التى كانت مشيدة من قبل في جبل عدا وفي مینارتي أثناء إزمان مروية متاخرة دُمرت عمداً<sup>(٧٣)</sup>. يبدو هذا الأمر كأنما كان موضوع سياسة أكثر منه حادثاً عن حرب، ذلك أن التطور الإجتماعى والثقافى للقريتين لم يُصَب بإضطراب في جوانب أخرى (انظر "الأيدولوجية والديانة في الفترة ما بعد المروية"، بادناه).

القليل الذى نعرفه عن الحياة اليومية في إزمان بلانة يأتى بصفة أساسية من بقايا مدن وقرى قليلة أُسست في إزمان مروية لكنها استمر شغلها لوقت متأخر. بين هذه كانت كارانوق، قصر إبريم، وادى العرب، أرمينا الغربية، جبل عدا، ومينارتي<sup>(٧٤)</sup>. لم يكن في تلك الأماكن أى انقطاع ذى معنى في مسيرة التطور الإجتماعى والثقافى المتواصل بين الأزمان المروية وما بعد المروية. أما أوصى الصور كملاً وتصويراً للحياة اليومية فربما تاتى من مینارتي، قرية تقع على جزيرة في النيل تحت الشلال الثانى بالضبط (الشكل رقم ٦٤). لقد كانت موطناً للإقامة بلا انقطاع من إزمان مروية إلى نهاية العصور الوسطى (٢٠٠ - ١٤٠٠ م تقريباً)؛ إن ثلاثة من مستويات طبقاتها الأرضية البالغة ثمانية عشر تُنسب إلى فترة بلانة.

نحو ما شاهدناه في الفصل الثانى عشر، إشمطت المستوطنة المروية الأصلية في مینارتي على نواحٍ من المباني العامة (معبداً أو قصراً، تجمعاً للسوق، ومعصرة نبيذ) يحيط بها زوج من مساكن "فخمة" في متانة، وجمع من منازل رخيصة البناء. قبل نهاية الفترة المروية، كانت معصرة النبيذ خربة أنفاً ومملوءة بالنفاية. ولم يعض وقت طويل، حتى تحطمت القرية تحطماً بالغا بفعل فيضان دمر أحد جوانب تجمع السوق وعديداً من منازل المزارع بأطرافها. لابد أن هذا تزامن في وقت قريب جداً في نهاية الفترة المروية، حيث أنه لم يعثر على مزيد من الفُخار المروى بعد الفيضان. إن قصة التطور

اللاحق في القرية أفضل ما تحكى عن طريق وصف مختصر لمستويات طبقات الأرض التي تريض فوق البقايا المروية، وكانت مصحوبة بفخار يلانى مألوف:

المستوى ١٦... كان الأول من ثلاث مستويات للمجموعة المجهولة، ومُعَلَّمًا ببنام كثيف الإعادة. لم تكن الترميمات والمباني الجديدة كاسحةً كمثل سابقتها، لكنها كانت لا تزال متينة البناء، ولم تكن هناك مفارقة جذرية عن الرسم السابق. تمت صيانة الجانب الشرقي من السوق الذي كان تحيطه حشّة البناء، وشُيّد إلى جنوبيه منزل "فخم" جديد، جزء منه فوق البقايا المدفونة [لمعصرة النبيذ] المروية. أيًا كان، فإن المعبد المروى (٩) كان قد دمر عمدًا بالنار وسوى بالأرض، وترك الجزء الملاصق من التل الترابي خاليًا. ونحو ما جرى في السابق، حُدّ افتراضياً موقع لمساكن المزارع العادية على الأراضي المنبسطة المجاورة حيث، تدمرت في نهاية المطاف بسبب تعرضها للفيضانات فلا يكاد يوجد لها أثر.

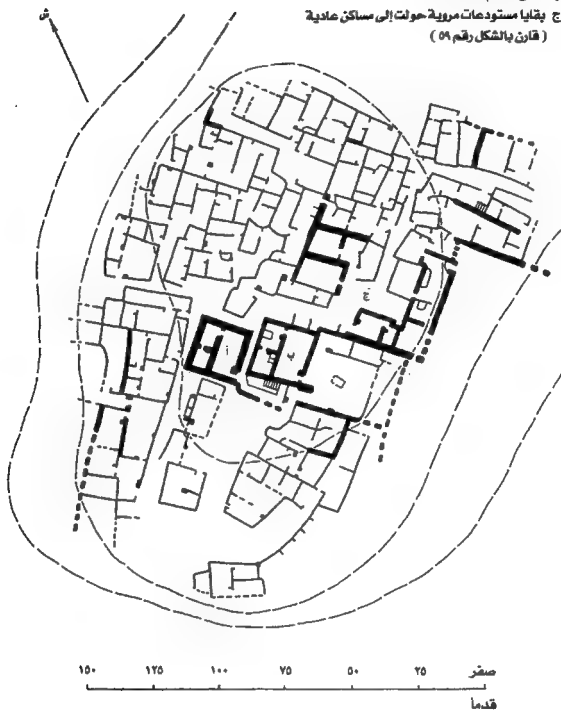
المستوى ١٥ ب (قارن الشكل رقم ٦٦) على منوال ما سيُرى في الحال، يُبرز رسم القرية التخطيطي في هذه النقطة مفارقة جذرية عن الأزمان السالفة. لقد كانت المباني الأقدم، ذات الحيطان الفليطة محاطةً بشكل مفاجئ للغاية ومحشدة بالفعل بجمع وثيق من المنازل حشّة البناء، خفيفة الجدران التي غُطت تقريباً أى فضاء توفر علي التل الترابي (الصور ١٩ - ١٠). بمطالعة المنظر الخارجي، ... ربما تُثير التغييرات اقتراحاً بوصول سكان جدد أقل انزواً وعلماً. جماعة لا تملك مساكن يتنقلون إلى قرية مهجورة. مع هذا، فإن التعاقب غير المنقطع لتطور الفخار والإقامة المتواصلة لمنازل أقدم عهداً لا يؤيدان مثل هذا التاويل. تفسير أقوى احتمالاً هو أن نيلاً مرتفعاً أجبر مزارعي مينارتي أخيراً على التخلي عن ديارهم في الجروف التي تغمرها المياه من وقت لآخر وأن يحتشدوا من فوق أرض أعلى ارتفاعاً كانت تتراكم تدريجياً حول المباني المركزية. إنَّ هذا التطور استبق في الحدث المعركة الطويلة في مواجهة الفيضانات المتوالية التي كان عليها أن تشغل القرية خلال النصف الأول من الفترة المسيحية.

المستوى ١٥ ب هو أول مستوى في مينارتي تمثله بنايات مأهولة بخلاف المباني العامة. المنازل نفسها يحتمل أنها أقيمت على اختلاف يسير من مساكن المستويات التي وُجدت قبلها، يظل الرسم بأكمله ملهماً بمدينة وادى العرب<sup>(٧٥)</sup>، بكتلة مساكنها خفيفة الجدران المائلة إلى عدم الانتظام والمحيطه بالمباني واسعة الشئات سمكة الحيطان. في مينارتي لا تزال النواة الأصلية [لمجمع السوق] المروى القديم قيد الإستعمال، بالرغم من أنها دُفنت وبُنى من فوقها مرات كثيرة للغاية، بحيث يصعب التعرف عليها. أما منزل المستوى ١٦ "الفخم" فقد ظل كذلك مستخدماً، وبُنى إلى جانبه طولاً مبنى يكاد يُماثله رسماً، لكن حيطانه أغلظ سمكاً كان [هذا] فيما يبدو آخر هيكل بناى مسقوف، ومتين البناية شُيّد في مينارتي لقرن أو يزيد. خلال الفترات المتأخرة للمجموعة المجهولة تنظر العين تدهوراً معمارياً مضطرباً، تصبح المساكن غير منتظمة وغير متينة شيئاً فشيئاً. وبما أن المنازل "الفخمة" و [مجمع السوق] سقطا في حالة من عدم الرميم فقد امتلات بالفضلات أولاً ثم بُنيت فوقها هياكل بنائية منبسطة السقف، خفيفة الجدران.

المستوى ١٥ أ. تراكتت رمال عصفت بها الرياح عميقاً حول منحدرات التل الترابي الدنيا، على الجانب الغربي بندق، مُسَبَّبة إنداء وانكماش بعض الجدران. تنبئ كميات الفخار كله التي وُجدت مدفونة في الرمل في هذا المستوى أنه ربما كان هناك تَحَكُّلٌ مؤقت وغير متوقع لجزء من القرية. عندما أُعيد شغلها كانت هناك إعادة إجلال وترتيب مُقدرة للتقسيمات الداخلية، غير أنه لم يكن هناك مبنى جديد ذو أهمية ولم يُجر تغيير جوى في رسم القرية. إن المسكن الأظهر جودة والأقوى متانة من بين المنزلين "الفخمين" بقى مستعملاً، لكن الأقدم إنهار جزء منه ولم تُعد صيانتة

كل مستويات المجموعة المجهولة الثلاثة في مينارتي ... تعرض التركيبة المألوفة لفخار المجموعة المجهولة. ليس هناك إتجاه تطوري واضح المعالم من الأول إلى الآخر. مع ذلك يفترض عدد الرسوم التصويرية للصليب المنقوشة في فوانيس الفخار في المستوى ١٥ أ، إضافةً إلى وجود قوانين نذور مستوردة، إن المسيحية إعُتقت آنفاً من قبل بعض سكان القرية في هذا الوقت، مع أن الكنيسة لم تُشيد حتى نصف قرنٍ على الأقل فيما بعد<sup>(٧٦)</sup>.

أ مسكن "فخم" حول إلى مستودع لتخزين التبن  
 ب مسكن "فخم"  
 ج بقايا مستودعات مروية حولت إلى مساكن عادية  
 ( قارن بالشكل رقم ٥٩ )



شكل رقم ٦٦  
 قرية في فترة بلانة، مينارتي

عملية مشابهة جداً للتدهور المعماري يبدو أنها تبوّأت مقعداً بكارانوق، وأرمينا، وجبل عدا، بالرغم من أن تعاقب طبقات الأرض السطحية لم يُحصَ بنفس التفصيل في هذه المواقع الثلاثة.

لقد نُقِيت مواقع سكنية قليلة أُسست بصورة مبدئية في أزمان بلانة. إن أكبرها كان في جزيرة دبروسة، بضعة أميال شمال مينارتي (الشكل رقم ٦٤). لم يصدر الموقع أى فخار مَرُوي، لكن ترتيب مبانيه مماثل تماماً لصارخاً للمستويات المَرُوية المتأخرة والبلانية المبكرة في كارانوق، وأرمينا، ومينارتي. وقد أُحيط بمنزل من النوع "الفخ" غليظ الصيطان تبتلّه بالفعل بنايات هشة محتشدة، ثم التعرف بها مرة ثانية على مزج لفرقتين إحداهما حجرة كبيرة والأخرى غرفة صغيرة (٧٧).

وُجد منزل من فترة بلانة في منطقة الشلال الثاني أصغر من أى دور للإقامة جرى توصيفها للتو، يظهر أنه يمثل الإقامة المعزولة لعائلة بمفردها - نوعاً من الإقامة النادرة جداً في النوبة طوال الفترة التاريخية (٧٨). وعلى بُعد قريبٍ من المنزل رقعة لدفن العائلة تحوى قبرين لا أكثر (٧٩).

خاصية معينة في بناء المنازل يبدو أنها تصاحب التحلل المعماري لأزمان بلانة المتأخرة تتمثل في الإستعمال الدائم لبناء حجريّ شديد الخشونة، يتكون من بلاط رملي حجريّ صغير وغير منتظم يُعزّز في خلطة ثقيلة من الطين. يتم وضع البلاطات أحياناً على نمط صفوف متقابلة الإتجاهات، مع تبديل الأطواف بجعلها مائلة في إتجاهات متعارضة (٨٠) لا يبدو هنالك أى تناسق في إستعمال الحجر نظير الطوب: بعض المساكن مبنية بأجمعها من الحجر، بعضها بالطوب والأخر من خليط للإثنين غير منتظم بدرجة عالية. ظل استعمال بناء الحجر الخشن حياً حتى مدخل الفترة المسيحية المبكرة، لكنه سرعان ما اندثر بعدها .

إن صورة للحياة اليومية مختلفة جداً عن التي تعيشها القرى العادية خرجت قبل بُرهة وجيزة من الحفريات في قصر إبريم. ومع أن جزءاً صغيراً من الموقع انتهى فيه التنقيب إلى المستويات الأدنى، فإن قدراً كافياً كُشِفَ عنه الغطاء ليُبين حضور مدينة من مساكن مبنية البناء تنتظم في مربعات متلاصقة على طول شوارع مستقيمة تقريباً. رسم القرية نفسه ربما يُكوّن فصلاً من إرث الفترة المَرُوية، كما كانت أسوار التحصينات المحيطة كذلك (قارن الفصل الثاني عشر)، لكن المساكن التي شملها التنقيب حتى هذا المدى يُعرف على هُويّتها من فخارها وغيره من المحتويات أنها تنتمي إلى بلانة ولا تنتمي إلى فترة سابقة لها (٨١). هي مربعة بالتقريب في رسمها ومكوّنة من أربع إلى ثماني حجرات على الطابق الأرضي: منازل عديدة لها فيما يظهر طابق أعلى علاوة على ذلك. الجدران مُشيدة بحجر متين، سُويت تسويةً ناعمة ودهنت بجير أبيض، يحمل بعضها آثاراً لزينة مرسومة باللون الأزرق، والأصفر والأحمر. معظم المداخل مثبتة بجنبات موحدة رأسياً وأفقياً بغطاء مرسل بعناية من الحجر الرملي. إن وجهاً يتعلّق بمساكن قصر إبريم التي يندر الأخذ بها في المعمار للنوبى هو وجود قاعدة بنائية تصل إلى عمق يمتد من ستة إلى ثمانية أقدام تحت مستويات الطوابق. كثير من المنازل مزودٌ بإضافة لذلك بغرف أسفل الأرض مبنية بعناية كطابق فرعى للتخزين مغلقٌ بأغشية من الخشب. هذه الملامح، إذا وضعت مع بعضها إلى جانب الغياب العام للآلات وترتيبات المعيشة، تبعث فكرة مفادها أن منازل قصر إبريم ذات الحجم الكبير ربما كانت قد صُممت كمستودعات لتأمين تخزين الحبوب والبضائع أوضاع منها مساكن للحياة اليومية. وضع القلعة المُعلّى ربما جعلها مكاناً غير مريح للحياة والعمل على أساس منتظم، لكنه في نفس الوقت كفل حمايةً مثالية من كل من عصابات النهب الكُضارية ومن رطوبة النيل ومشكلة النمل الأبيض المائلة. الأهمية المتواصلة لقصر إبريم المتحدرة خلال التاريخ ربما ترجع في الحقيقة بدرجة معتبرة إلى دوره كمركز للتخزين وشحن البضائع (٨٢). وكيفما كان الحال، يشير العثور على كميات ضخمة من خرائب الإقامة (٨٣) بين مساكن بلانة إلى أن قدراً طيباً من الحياة اليومية كان سائراً في قصر إبريم، على الأقل في بعض المواسم .

يبدو منطقياً أن يُستدل بأن منازل مشابهة للمساكن في قصر إبريم ربما كانت موجودة في مستوطنة واحدة أو مستوطنتين على الأقل في النوبة السفلى. إن حضور جُبانات كبيرة جداً للمجموعة المجهولة في جيرة فرس وجبل عداً تفرى لإعتبار هذه الأماكن بيوها مراكز "حضرية" في فترة بلانة، مثلاً كانت عليه في الأزمان الأولى والمتأخرة معاً. مع ذلك، أدى الإخفاق في إجراء حفر منظم الخطة أو الإجراء إلى الأسفل من مستويات الإقامة المسيحية لحرماننا من أى معرفة عن الترتيبات الميائية في فرس وجبل عداً أثناء أزمانٍ ما قبل المسيحية<sup>(٨٤)</sup>.

واحد من المصنوعات النوبية القليلة التي يبدو أنها ازدهرت بتوسع في فترة بلانة كان صنع الفُخار. إنه يُبين، بأى شكل كان، إفتراقاً يكاد يكون كاملاً عن التقاليد في أزمان مَروية، مبنياً كذلك إندثاراً نهائياً لأى أثر دال على نفوذ مصرى قديم. إن افتقاد أى علاقة للتواصل بين الفُخار المَروى وفُخار "المجموعة المجهولة" كان واحداً من العوامل التي طال اعتبارها دليلاً على غزو "المجموعة المجهولة" (انظر "العصر المظلم" و "المجموعة المجهولة"، بعاليه).

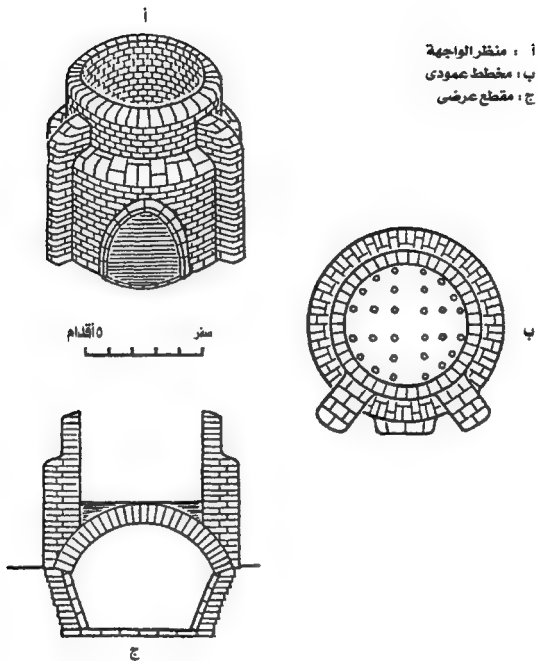
لقد أضحت النفوذ الرومانى، الذى تَبْدَى آنفاً في بعض الفُخار المَروى الأخير، غالب السيادة بصورة مطلقة في فترة بلانة تكاد كل الأواني النوبية تُصنع محاكاةً للأشكال المصرية التي عاصرتها، والتي كانت هي نفسها مأخوذةً بنوع التيرا سيقيلاتا واسع الإنتشار في الإمبراطورية الرومانية في مراحلها المتأخرة. إنها في غالبيتها كُؤوس، وقداح، وأباريق حمراء، إما من غير زخرف أو بأبسط رسوم "متناثرة" أو "منقوطة"، ويمكننا أن نتعرف من خلالها على التحلل النهائى لتقليعة غصن العنب الإغريقية (الصورة ١٩ - ج).

يقرب فُخار بلانة قريباً لصيقاً من فُخار مصر البيزنطية، ويختلف إختلافاً شديداً عن سابقه الفُخار المَروى، حتى أنه يمكن أن يعد بشكل معقول مستورداً من الشمال. مع هذا، فقد كنا حسنى الحظ بقدر كافٍ لَنُثَبِّن على الأقل واحداً من المصانع التي كان يصنع فيها، في ديرة شرقى، على مسافة قصيرة شمال وادى حلفا. هنا كان تجمعٌ لستة قمانن أسطوانيين من الطوب، كل واحدة منها مقسمة إلى غرفة حرق سُفلى وغرفة حرق عليا، مفتوحة بأعلاها، تحرق فيها الأواني. وتحمل فتحات عديدة في الأرضية الهواء الساخن من الغرفة السُفلى إلى العليا (الشكل رقم ٦٧). كان موقع القمانن بعيداً عن الأبواب وقریباً من ضفة النهر؛ وكانت محاطة بأرضيات مُعدة للتشغيل حيث يفترض إجراء تشكيل الفُخار بالعجلة، وتجفيفه، وتلوينه. على دائرة الموقع طبقات سميكة من الرماد والاف الشقوق و "المصنوعات التالفة"، يرجع تاريخها كلها إلى فترة بلانة المتأخرة والفترة المسيحية الأولى<sup>(٨٥)</sup>.

إعتباراً لغياب الهياكل المروية السُفلى في ديرة، والإفتقاد إلى التواصل بين التقاليد الخزفية المَروية وما بعد المَروية، يبدو منطقياً إقتراح أن مصنع وصناعة ديرة أسسا من قِبل صانعى فُخار مهاجرين من مصر البيزنطية بعد الإنكماش الذى حاق بالصناعة المَروية الأشد قدماً. من ناحية أخرى، لا تظهر أواني الإستهلاك يدوية الصنع التي قامت النساء بصنعها إنعداماً في التناسق بين الأزمان المَروية وما بعد المَروية. على النقيض من ذلك، مستحيل أن تُميز أواني عديدة من الفترة المَروية عن الأواني من فترة بلانة الأولى. وفي نحو نهاية فترة بلانة وحدها كانت هناك سلسلة من تغييرات تدريجية شديدة البطء في مركز الفُخار اليدوى<sup>(٨٦)</sup>.

من الظاهر أن أواني الفُخار كانت هي السلع التفاخرية الوحيدة من نوعها التي تمتع بأى قدرٍ منها قوم بلانة. وهى توجد بكميات كبيرة نوعاً ما بالجُبانات وحدها، بل إنها توجد مُتَخَلِّطاً عنها على أرضيات المساكن. والواضح أن وسائل الإنتاج واسع النطاق التي جرى تشغيلها من ديرة كانت مصطلتها منتوجاً زهيداً للغاية، من ثم يُسِيرُ على الإبدال .

أما الحديد فكان بالتأكيد صناعات أخرى من فترة بلانة، مع أنها غير وفيرة بأى حال سواء في



شكل رقم ٦٧  
قمينة لصنع الفخار مزدوجة الغرف من النوع المستعمل في بلانة وأزمان مسيحية



المنازل أو في القبور. لأول مرة في النوبة السفلى بدأت مواد ثقيلة متعددة ومصنوعة من الحديد في الظهور. في قسطل وبلانة خناجر، وسيوف، وحراپ شائعة، كذا يستخدم الحديد لعمل شكائهم الخيل، والكراسي، وأواني الطهي، وقوائم للطبخ بأرجل ثلاث. أخرجت المدافن الملكية ومثلها في ذلك قبور أقل أهمية عديداً من الفؤوس، والمعاول، والمناشير، والملاقط، والمطارق، والأزاميل، والقناديم، وقاطعات المعدن، والكماشات، وأدوات أخرى. إن كثيراً منها له جعاب مقلقة، على خلاف أدوات الثقافة المروية<sup>(٨٨)</sup>. بعض بضائع الحديد التي تزيد دقة مما وجد في المدافن الملكية يفترض أنها مستوردة بالرغم من أن أصل شكائهم الحصان البلانية المتميزة يظل سراً إلى هذا اليوم<sup>(٨٩)</sup>.

صناعة أخرى في الأزمان البلانية مثبتة بمعثورات قليلة مربها إلى المصايدة هي صنع السلال. إن جبانة بجوار الشلال الثاني أخرجت سلتين محفوظتين حفظاً جيداً جيداً بالملاحظة. والأقوى إثارة سواء بسواء ما عُثر عليه، في طرف نفس الجبانة، من مخبأ فيه أربعة وثلاثون سلة لحمل الأشياء 'يفترض' أنها كانت تُستعمل في أعمال حفر القبر ودفنه<sup>(٩٠)</sup>. ظاهر للعيان أن الوسائل الفنية لإزالة التراب في النوبة القديمة كانت مماثلة للتكنيكات التي يستخدمها عالم الآثار اليوم (انظر الصورة ٣ ب).

أغلب السلع المُصنَّعة الأخرى التي توجد في بعض الأحيان في قبور بلانة مماثلة، أو لصيقة الشبه، بما وُجد مثلها عليه في قبور الفترة المروية. وبإستثناء الخز، فإنها بدرجة عالية أقل عمومية عنها في أزمان أولى.

في معظم أرجاء النوبة، تعطي البقايا الأثرية لثقافة بلانة الإنطباع بمجتمع زراعي لا مركزي، أفقر لكنه أقوى اكتفاءً بذاته من مجتمع الأزمان المروية بالرغم من أن فوارق الثروة مرئية من أسرة لأخرى من قرية لأخرى، لا توجد طبقة وسطى متميزة بشكل بارز للمرة الثانية، مع ذلك، يمثل قصر إبريم إستثناءاً جزئياً لهذا التعميم. فمن البقايا المادية التي وُجِدت في المساكن ورواسب النفايات البلانية يبدو واضحاً أن السكان المقيمين في إبريم تمتعوا بمستوى معيشي عال في وضع ملحوظ وكانوا يُدُون دققاً من السلع التفخارية بما لا يوجد له مثيل في مواقع القرى الأخرى أو القبور العادية. بين هذه: تنكاثر بوجه خاص أنواع مختلفة من أشغال الخشب المزخرف والأدوات الخشبية. إنها من الوفرة بما يدعو للإفتراح أنه ربما كانت هنالك صناعة للأعمال الخشبية في الموقع. فاعداً لا حصر لها من مغازل، ومكوك وموازن النول، ومثلها كذلك منسوجات قطنية ما بين مُجَرَّد من الرسم ومُزَخَرَف، تثبت شهادتها كذلك الوجود المتواصل لصناعة النسيج، بينما تلهم أصناف غير محروقة من الفُخار بالإمكانية القوية بوجود قمينة فُخار بالقرب. إن قصر إبريم ربما كان يقبل حسن المركز الصناعي العظيم وعلى حد سواء ممكن التخزين للنوبة ما بعد المروية<sup>(٩١)</sup>.

### المدافن الملكية ونظام بلانة الملكي

بالقدر الذي كان عليه حال أي صفة بالأزمان ما بعد المروية، لدينا بينة عنها أساساً في شكل قبور أكبر وأغنى عطاءً مما كان لعامة المواطنين. وُجِد مثل هذه القبور في أربعة أماكن: قصر إبريم في الشمال، وفركة وكوشة في الجنوب، وفي جُمى وفي بلانة وقسطل، تقف في مقابلة بعضها البعض حوالي خمسة وثلاثين ميلاً شمال الشلال الثاني (الشكل رقم ٦٤)<sup>(٩٢)</sup>. القبور في قصر إبريم وفركة أخاذة في حجمها وثروتها، لكنها اكتسحتها جبانات بلانة وقسطل الوفيرة مع أنها أقل حضارة. هذه تمثل أوج إنجازات الفترة البلانية، وبنائاتها الصرحية الوحيدة بحق. تنتصب قائمة دون رفيق بين بقايا زمانها تماماً كما تفعل المدافن التكية العظمى في كرمة من قبل ٢٠٠٠ عاماً سلفت. إنها في الحقيقة التمثال الرمزية الوحيدة لسلطة الدولة التي بمقدورنا أن نذكرها في عصر ما بعد مروى.

جَبَانَتَا بِلَانة وقسطل التوامان تنتصبان مباشرةً قُبالة بعضهما بعضاً، على ضفتي النيل الغربية والشرقية، في وسط واحدة من أغنى المقاطعات الزراعية في النوبة السفلى. ومع أن أكبر مدافنها التكية تتلو في الحجم مدافن كرمة التكية وحدها، فإنها لا تملك شيئاً من الظهور البارز للمدافن الملكية الكوشية الأولى. لقد كانت التلال الترابية القبابية، المنخفضة، محتجزة بالرمال المترسبة ومغطاة بالشجيرات في كثافة مما جعلها في الأزمان الحديثة تؤخذ دائماً عن طريق الخطأ على أنها تكوينات طبيعية. هذه الحالة ساعدت، بحق، على حفظ قبور بِلَانة وقسطل من النهب المستمر الذي عانت منه قبور الأهرامات في بُتة ومروي. إضافة إلى ذلك، فإن الوضع غير المنتظم للغرف الداخلية، في حالات قليلة، بُهِت منه نُهاب الآثار بنجاح؛ فُتَرِكت حِجرات مَلأى بالكنوز كما هي على حالتها لعالم الآثار. بالتالي، أُخْرِجت جَبَانَتَا هذه الفترة التي تعد أقل حضارة ولا تحسن كتابة، على غير المألوف، أغنى معثورات أثرية وُجِدت على الإطلاق في النوبة. مثل قبر توت عنخ آمون الذي حفظته المصادفة في مصر، التي تمنحنا دليلاً - هو تقريباً الدليل الوحيد الذي نملكه - على شروق أعظم على قدم المساواة وربما صاحبت قبور أزمانٍ أسبق عمراً وأشد رخاءً .

كان اكتشاف قبور بِلَانة - قسطل وتنقيبها الإنجاز الباهر للبعثة الأثرية الثانية للنوبة (١٩٣). وُصِفَت ظروف هذا الكشف في بلاغةٍ من ي. ب. امري:

تبعاً لممارسة إستطلاعنا المعتاد للتقنا طريقنا في تكوينٍ ممتد بين كُتبان وشجيرات هذا البلد غير الجذاب فيما يقرب عليه، في بحثٍ عن مؤشر على بقايا قيمة. لقد كنت أنا نفسي أستطلع المساحة الأتربة إلى النهر وأنجول حول المساحة الواقعة جنوب القرية تماماً. فسرعان ما وقفت مرمى البصر على كتلةٍ مختلطة من التلال الصغيرة المغطاة جزئياً بالشجيرات. عندما دنوت بالقرب منها إتَّخَذت شكلاً أكثر دائرية وانتظاماً، ولكنني إلى حين تسلفي لإحدى قممها كي أحصل على رؤيةٍ أفضل للمصحراء المحيطة، ما كان لي أن أقدر انتظام شكلها لأعتبر إمكانية كونها مدافن تكيةٍ من صنع الإنسان [قارن الصورة ١٩ ب].

في هذا العصر، عندما يكون عالم الآثار مُعَاناً بالتصوير الجوي، سوف تتضح حالاً الشخصية المصطنعة لمرتفعات بِلَانة: بيد أن رؤيتها هذه، كما فعلنا، من مستوى أرضي مكسر وغير متساوٍ للغاية، ما كانت بأي حال منظورة. حقيقةً كانت بعثة جيولوجية سابقة لنا لعامين من قبل قد أعلنت أن المرتفعات رواسب طبيعية لمضى النهر، عُصِف بها وتعرضت للعراء لتكويناتها المستديرة. ولم نكن، في بعثة أثريةٍ مثل بعثتنا، في موقعٍ يُمكننا من أن نحضر معنا عبيداً من مراجع الكتب، من ثم إعتدنا، بنتائج طبية على العموم، على سردٍ وِفْقَ المنشور عن إستطلاع المبدئي للنوبة السفلى الذي أعده إنابةٌ عن مصلحة الآثار في ١٩٠٦... فحسنا كتابه القيم، لكننا تركنا أشد حيرةً مما كنا عليه من عبارته القائلة بأنه 'بالنسبة لعالم الآثار، فالبلد هنا غير جاذبةٍ للإهتمام، ولم يجد الكاتب أي آثارٍ لاي مواقع أثرية، فيما عدا ما تضمنته شقوق قليلة من قُحار الرومان والعصور الوسطى من وجود قرى في ذلك الزمان' (٩٤).

إن الحفر سرعان ما عكس الطبيعة الحقّة لمرتفعات بِلَانة وقسطل :

... بنهاية نوفمبر كنا قد اكملنا قطعاً كبيراً في شكل ٧ في المرتفع وعلى جانبه الشرقي نزلنا إلى مستوى الأرض. إن رأس سردابٍ ينحدر للأسفل صوب الغرب إنكشف في الحال فبدأنا بالنزول التدريجي نحو مدخل القبر. كانت أول مواد ظهرت إلى النور راسين لفاس من الحديد، وكانا محفوظين بإتقان لدرجة أنهما لا يزالان محتفظين بلون الحديد أسود الزرق الذي غادر لونه سديانة الحداد. . وكان معثورنا الثاني، في رأس الدهلين، مادة معدن ثقيل أصابتنا بالحيرة في وقت إكتشافها، رغم أننا ضحكنا على الإقتراح الذي تبادر إلينا بأنه ليست هناك أداة حديثة يمكن أن تمثلها أقوى من صفاد الأيدي الذي يستخدمه الشرطة! إن التلميع عجّل بإظهار أنها كانت مصنوعة من فضة صلبة، لكن خصائصها الحقيقية لم تُدرك حتى وجدنا مواد مشابهة لها مؤخراً في معرض قيامنا بعملنا. لقد كانت في الحقيقة شكمية حصان ربما برهنت على أقسى وأدق كبح لأشد حيوانٍ مثير للمناعب ... في الوقت الذي لم تكن لدينا فيه فكرة عن الغرض من هذه الأداة الغربية، جاء إكتشاف في اليوم التالي لهيكل حصان لا بد أن

الشككية جاءت منه ليُبين لنا ما هي. إننى لا أستطيع أن أقول أيهما أصابنا بدفشة أكثر: تبين الغرض الحقيقي لهذه الاداة التي تثير الاستطلاع أم الجواد نفسه. ولم يكن حتى نزلونا أسفل السرداب وإزالتنا الغطاء عن مزير من هياكل الخيل، والحصير، والجمال، أننا أدركنا أهمية وقيمة هذه الكتلة المختلفة من بقايا الحيوان وقيمتها. إن سيد القبر أخذ جماله معه لتخدمه في الحياة الأخرى كما كانت تترك في الحياة بالانتظار أو في حظيرة خارج محط إقامته. بعد هُنيئة بلغنا فناً صغيراً في سفح السرداب أمام باب القبر. هنا وجدنا بقايا ما كان يوضوح الجياد المفضلة للسيد، حيث أن بعضها له سروج خشبية مطهمة بالفضة وزينة فضية تتكون من سلاسل ذات أقراص مسطحة أو مقوسة تقوياً خفيفاً تتدلى منها زينات إلى أسفلها وأقراص. مع بقايا الخيل وجدنا هياكل سبابسها الذين يُعنون بها في الدار الآخر. إن كل الحيوانات كانت مقتولة بساتور الذبح، لكننا لم نجد علامات للعنف على البقايا البشرية، ويمكننا فقط أن نستنتج أنهم جرى تخديرهم أو تسميمهم قبل ملء مدخل القبر دفناً<sup>(٩٥)</sup>.

أجرى الاكتشاف الأول لقيور بلانة وقسطل في نوفمبر ١٩٣١. وخلال المواسم الثلاثة التي أعقبته، مضى المكتشفون يُحققون شيئاً مثل ١٨٠ قبراً في الموقعين، ربما منها أربعون مما يمكن اعتباره "ملكياً" على أساس حجمها وثرانها. ملاحظ هذه القبور الأكبر كانت تقريباً موحدة، في كل من بلانة وقسطل، وقد وُصفت هكذا من امرى:

قُطع ممر هائل في الطمي المتصلب يؤدي في الأسفل إلى قُبو كبير، وسلسلة من حجرات بالطوب مبنية في هذا التجويف، معها فناء مفتوح على صُغر بداخله يفتح الممر المائل. في بعض حالات كانت كل غرفة طويلة مبنية في تجاريف منفصلة، موصولة بممرات قصيرة كانفاق إلى داخل الطمي المترسب. إن سقف كل حجرة كان مقوساً أسطوانى الشكل، وفي القبور الأكبر كان للأبواب اعتبار حَجَرِيَّة.

من الواضح أن أسياح هذه القبور يعتقدون الإعتقاد المصرى القديم القاضى بالبقاء المادى بعد الموت لكل الأشياء الحية والجامدة، ذلك أنهم دفنوا مع أمواتهم نبيذاً وطعاماً، وأثاثاً، وأدوات طهى، ومجوهرات، وأسلحة والأدوات والمواد التى تصنع بها، لكنهم في محل الأوشايت [تماثيل الخدم الصغيرة] خاصة المصريين، ضحوا بعبيدهم وحيوانهم .

كانت إحدى الغرف في العادة محجوزة لأباريق النبيذ وأقداح الشرب، وغرفة أخرى مكرسة لأدوات الطهى البرونزية والفضية، والفوانيس، والمجوهرات، والأسلحة، والمعدات. في القبر ٨٠ في بلانة، على سبيل المثال، وجدنا حراباً وقوساً مصحوبة بمعدات لصنع المعدن وحديد صُلباً. في القبور الأكبر حُجرت غرفة منفصلة لدفن الملكة، التى كانت بلا أدنى شك قد ضُحى بها، مع وصيفاتها. لكن في القبور الصغيرة وُضعت الملكة التى ضُحى بها إلى جانب شريكها .

وضع الملك في الغرفة الأشد قريباً من المدخل الرئيس للقبر، والواضح أن طرحة كان أخر عمل قبل القفل النهائي. كان جسده موضوعاً على تابوت خشبى ذى أرجل وُضعت تحته أوانى برونزية فضية لإستعماله المباشر. أُبْس عبائه الملكية، ووضعت أسلحة لحمايته مستندة على قدم أرجل التابوت، وعلى رأس التابوت إنطرحت أجساد عبد من الذكور وثور ضُحى بهما. وترك كرسي من الحديد مُثَنياً إلى جانب أرجل التابوت بشكل دائم .

عقب ذلك يقفل المدخل إلى القبر بالطوب والصُجَر، ويضُحى في الفناء والسرداب بجياد، وجمال، وحمير، وكلاب السيد ومعها سياسها وربما جنوده. أما الحيوانات فُكُنت وهى مُكورة بالجصتها والسروج؛ والكلاب في بعض الحالات ليافات ومقودات. ولات الضحايا البشرية حُفنها إما بحُر الرقاب أو بالحقن، وقُتلت الحيوانات بساتور الذبح .

أخيراً، ملئت الحفرة والسرداب ورفُع كل ترابى عظيم فوق القبر: في حالات كثيرة نُكُنت في النُكَل قرايين أسلحة، ومجوهرات، وزهريات، والعاب، وغير ذلك. وفي بلانة كانت معظم النُكَل الترابية مغطاة بطبقة من حصى صخرى مُخَطَط .

الوصف المختصر الذى قُفَل لتوه لا يحمل سوى نُبذة يسيرة عن هائل الثروة وأنواع القرايين

المختلفة التي عُثر عليها في القبور، بوجه خاص في بلانة (قارن بالصورة ١٩ - د). إن التقرير التعريفي للمقننين يصف جواهر، وأسلحة، ومعدات للخيل، وأواني فضية، وصناديق صغيرة، وعدداً من تشكيلة عظيمة من أواني البرونز، وعدة، وأدوات للتجميل، وألعاب، ومناضد برونزية، وكراسي ذات أرجل ثلاث وكراسي منمنية، وفوانيس ومباخر، وأعمال جلدية، وأواني حجرية، وزجاج، وآلات للوزن، ومنسوجات، وقُضار<sup>(٩٧)</sup>. وبإستثناء الفُخار، يظهر أن معظم هذه المواد مستوردات من مصر البيزنطية. أما فوانيس ومطاسات البرونز، والصناديق المطهية بالخشب والعاج، وكثير من الأشياء غير ذلك فيمثل صلةً وشيجة بالقرابين التي وُجدت في القبور المروية المتأخرة في كارانوق وفرس، وقد وُصفت في الفصل الأخير. جاءت من نفس المصادر إفتراضياً. مع ذلك، وكما يجوز أن يكون متوقعاً، تَبَيَّن المواد المجلوبة من فترة بلانة نفوذاً مسيحياً كبيراً أشد مما تُبينه أزمان سالفة. إن التقليلات الوثنية، والهلمينية غالبية الأثر، غير أن الصليب دائماً ما يبرز جنباً إلى جنب معها. هذا المزيج من التقليلات الوثنية والمسيحية يجعل في الإمكان إرجاع تاريخ جمع الأشياء المجلوبة التي وجدت في قبور بلانة وقسطل إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين<sup>(٩٨)</sup>.

علادة على الغلبة السائدة للنفوذ الإغريقي والبيزنطي، لا ينفك قليل من المواد التي وُجدت في بلانة وقسطل على طِيعَة للتقاليد الفنية والأيدولوجية للأزمان المروية والفرعونية. على رأس تلك المواد تيجان الفضة التي عُثر عليها في أو بالقرب من رؤوس عشرة من جنازات بلانة. هي إستدارات عريضة من الفضة المضروبة، مرصعة السطح بالجواهر الثمينة ومُزدانة بكل أنواع الشعارات الملكية والمقدسة من عصور مندثرة. بين التقليلات المقدسة تمثلات لحورس، وإيزيس، ورأس كبش يحتمل أنه يرمز إلى آمون أو (أقل احتمالاً) خنوم الإله النوبي القديم، وثعبان أورابوس مع أجنحة وبدونها، وعين الواثشت القدسية التي تظهر دائماً كتقليلة زخرفية في أزمان فرعونية ومروية. يوجد تاجان كذلك مرفوعات بأشكال بشرية تلبس تاج أتياف المعمول على هيئة الريش والذي كان واحداً من الرموز التقليدية للسلطة الفرعونية<sup>(٩٩)</sup>.

أكثر ثلاثة تيجان مَفصَّلة من بلانة تتشابه كلها عن قرب في الصوغ. فهي دائرية عريضة، يطل من حافتها العليا رأس كبش قضى مكملاً الرسم جانبياً. إن الحيوان نفسه مَنجُجٌ بِعُرفٍ جليل في أعلى طاسته مرصعاً بالجواهر من رياش أتياف (الصورة ١٩ - ف). الإهتمام الخاص بهذه التيجان عيناها يقع في تمثُلها اللصيق للغاية أطواق الرأس الملكية المعبية في رسومات المعابد والمدافن الملكية في مَرُوى والنقعة<sup>(١٠٠)</sup>. ونظراً للنهب الكامل على وجه التمام الذي حاق بالمدافن الملكية الكوشية، لم يعثر أبداً على تيجان حقيقية للفترات النَّبْتِيَّة والمروية، لكن رسومات المعبد والقبر يفترض أنها تعطيها تمثيلاً دقيقاً بمستوى معقول. هكذا تعد تيجان بلانة الصلة المرئية الوحيدة للتواصل الأيدولوجي بين ملكيات الأزمان المروية وما بعد المروية.

وبالرغم من أن إمري اعتبر أن "... المدفن التلّي للمجموعة المجهولة هو السليل المباشر للآهرام المروية، مع إخفاء مدخل السلم المدرج تحت سقف البناء ..." <sup>(١٠١)</sup>، فإن التماثلات بين جنازات كوش وبلانة الملكية عامة كلها بالتقريب أظهر منها محددة. يقينا أن الأسرتين تقاسمتا رؤية عامة للحياة الأخرى ومكانهما فيها، غير أن الإستعدادات المعينة التي يعدانها من أجلها تختلف في عدد من الجوانب الهامة. فالتلّي الترابي المقبَّب، وهو البناء الفوقي المعياري لكل المدافن في فترة بلانة، قريب المقارنة بمدفن أزمان كرمة التلّي لمدنى بعيد من أي مما بُني في مدة الـ ٢٠٠٠ عام الداخلة بينهما<sup>(١٠٢)</sup>. لربما ذكر، إضافةً لهذا، أن أكبر مدفن تكي في بلانة، ويبلغ قطره ٢٥٣ قدماً وعُلوه ٤٠ قدماً<sup>(١٠٣)</sup>، يفوق وتُسمَّى أي هرم من الأهرامات الترابية المرتفعة في بلانة بالحصا الأبيض<sup>(١٠٤)</sup>، وهي عادة كانت أيضاً شائعة الإنتشار في أزمان كرمة (مع ذلك، لم تُرَقَّب في قسطل أو في أي جَبانة أخرى لفترة بلانة).

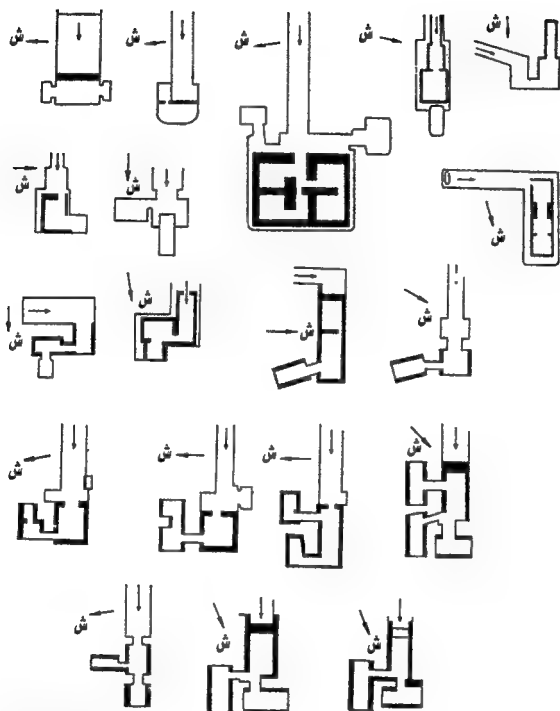
أسفل الأرض، تمثل قبور بلانة وقسطل الملكية القبور الكوشية الأولى إلى الحد الذي كانت فيه سلسلة من غرف موصولة بعضها البعض يُتقدم إليها عن طريق سرداب طويل، منحدراً من الشرق. من الجانب الآخر، فإن الترتيب الحقيقي للغرف في بلانة وقسطل كان متنوعاً وغير منتظم بوجه ملحوظ؛ في حالة منفردة فحسب أتبع الرسم البسيط بعدد مستقيم (وهو فيما يبدو استرجاع مصغر لصفات المعبد الكوشي) الذي كان خاصية مميزة للقبور في نَبْتَة ومُرُوى. أما أغلب ترتيب مشترك فتكون من حُجيرة جنازية تفتح مباشرة على عتبة مدخل الفجوة، وغرفة للقرابين عبر طرفها الأبعد، وغرفة أخرى للقرابين تفتح من خلال جدارها الشمالي (انظر الشكل رقم ٦٨). أيّاً تم ذلك، كانت هنالك إنحرافات عديدة عن هذه الخارطة، وفي الحقيقة لم يتماثل قبران من قبور بلانة وقسطل في تصميم الشكل؛ فكما ذكرنا آنفاً، كان ذلك ناجماً بدرجة ما في حالات قليلة. إن خاصية غير متوقعة لبقور بلانة - قسطل هي وضع الجنازة الرئيسة في أقصى غرفة خارجية، بدلاً عن الغرفة الداخلية كما في كل المدافن الملكية الأولى .

يمكن تمنع عمليتين إضافيتين في قبور بلانة، تهيئان صلة بالماضي، وتعلقان بجنازة السورير والضحية البشرية. إن كلاهما حدث إلى حد ما في الفترة المروية، لكنهما، مثل عدد بالغ من طقوس بلانة الجنازية غيرهما، يتربسان بتحديد أوثق خطي ثقافة كرمة ما قبل الأزمان الفرعونية. جمهرة كبيرة من الموتى الملكيين في بلانة يبدو أنها أُسجِيت على أسرة عنقزير من طراز حديث (١٠٧)، فمعظمهم كان مصحوباً بإثنين أو ثلاثة على الأقل من الخدم الذين ضُحى بهم. أما أعلى عدد من ضحايا البشرية التي يمكن التعرف عليها بتحديد في أي قبر واحد فكان سبعة عشر (١٠٨) - رقماً أصغر بكثير من ٣٠٠ ضحية أو نحوها التي وجدت في بعض قبور كرمة، لكنها لاتزال أكبر لحدر بعيد من عدد الضحايا التي عُثر عليها في أي قبر بالفترة الجائلة بينهما .

من الجلي أن سوابق الممارسة الجنازية للبلانية، وعلى وجه الخصوص الممارسة الجنازية الملكية، لا توجد بصورة مطلقة في الفترة المروية السابقة (١٠٩). وبينما هنالك بعض المتواصلات الواضحة، تبدو وجوه عديدة من مركب الدفن ما بعد المروى ممثلة لإفتراق متعمد عن التقليد، وإحياءاً لممارسات ما قبل عهود الفرعنة، الأقدم زمناً. ربما جاز لنا في هذه المجموعة المصنفة أن نلاحظ بعناية إحلال المدفن التلي، عوضاً عن أهرامات الطوب أو الحجر، والتخلي عن ترتيب شكل المعبد المستقيم لغرف الأقبية السفلية، والإختفاء شبه الكامل لفن الزخرف والنقوش المطهّمة. إن هذه ربما لا تعني ما يعدو اندثار بناء الحجر، وفناني الصياغة والنقش، والخطاطين في أزمان مُتقَرّة؛ وفي ضوء بيانات أخرى، مع هذا، يبدو جائزاً أن شيئاً أكثر من محض تحلل ثقافي كان في الحُسبان. إن ملامح معينة من حضارة بلانة يبدو أنها تعلم عن رفض متعمد لتقليد عريق النشأة، سوف يُعتبر ماله من شأن لاحقاً (الأيولوجية والديانة في الفترة ما بعد المروية"، بأدناه).

أما أن بعض القبور في بلانة وقسطل كانت قبوراً لملوك وملكات حقيقة يصعب أن يصيها شك. إننا نتعرف فيها على عديد من رموز المكانة الملكية الخالدة: مدافن تليّة هائلة، ضحايا بشرية وحيوانية متعددة، ثروة طائلة من القوابين، والبسة رأس ملكية محلاة بالشعارات الملكية والمقدسة. إلا أنه يصدق مع هذا أن معرفتنا بملوك بلانة، كما هي بالنسبة لأسر نوبية متعددة قبلهم، تبدأ وتنتهي بجباناتهم. وفيما خلا استثناء واحد أجديراً بالملاحظة (سيجري اعتباره فيما بعد) ما تركوا سجلاً آخر عن أنفسهم، ومضت حياتهم ومنجزاتهم غير مذكورة من جبرتهم المتعلمة. هكذا لا نستطيع أن نُسَمي بوجه مستيقن حاكماً بلانياً واحداً، ولا نعلم شيئاً عن أصولهم، وعلاقتهم ببعضهم البعض، والإقليم الذي حكموه، أو مدة أسراتهم زمنياً. إن السوالف السياسية لحكمهم غامضة مثل ما عليه السوابق الثقافية لبقورهم. في كلمات تريقر "تقف بلانة وقسطل في فراغ تاريخي" (١١٠).

إعتقد المنقبون الاصليون لبلانة وقسطل أن المقبرتين مئكتا تطوراً متعاقباً، فالقبور في قسطل



تشير الأسهم بين القرب  
إلى اتجاه الدخول . لاحظ  
الإختلاف الواسع في  
التصميمات والتوجهات.

مقياس  
١٠ ٢٠ ٤٠  
قدم

شكل رقم ٦٨

تصميمات لغرف دفن سفلية ، القبور الملكية في بلانة وقسطل

أقدم من قبور بلانة<sup>(١١١)</sup>. وفي وقت قريب، اقترح تريقر أن الموقعين ربما كانا قيد الإستعمال في آن واحد، إذ أن القرايين الجنائزية متماثلة بدرجة كبيرة في كل من المكانين<sup>(١١٢)</sup>، فإذا كان ذلك صحيحاً، فإننا مواجهون بسرٍ إضافي: لماذا اختار بعض الحكام الدفن على الضفة الشرقية للنيل، واختار البعض الآخر الدفن على الضفة الغربية؟ ليس بوسعنا أن نكون على ثقةٍ إيجابية نحو افتراض أن الجبانيتين لم تكونا جبانيتين لأسرٍ متنافسة قبضت زمام الحكم على الجانبين المتقابلين من النهر، بالرغم من أن هذا الفرض يبدو غير محتملٍ بالنظر إلى التماثل اللصيق لطبقات سطح الأرض في الجبانيتين.

يشور تعقيد إضافي من الحقيقة التي مؤداها أن جبانات بلانة وقسطل لم تكن محجوزة للإستعمال المطلق للعائلة أو العائلات المالكة. فقد كانت المدافن الثكنية العظمى محاطة بأعدادٍ من قبور تصغرهما بمدى، معظمها يبدو كأنه ما كان بأي طريقةٍ مختلفاً عن القبور العادية التي يمكن العثور عليها في أي جبانة في نفس الفترة. (هنا ثانية كانت التقاليد الجنائزية لبلانة وقسطل موازيةً بشكل أشد قريباً لتقاليد كرمة منها للفترات الكوشية الداخلة بينهما). إحتوت الجبانة في بلانة على ١٢٢ قبراً وفي قسطل على واحد وستين قبراً؛ في كل مكان هنالك حوالي عشرون قبراً بارز الكبر والغنى يجوز أن تُرى على أنها ملكية. وُجد عشرة أفراد، في سبعة قبور، يلبسون تيجاناً، لكن هذه كانت بالطبع محفوظةً بمحض المصادفة. إن عدداً أكبر من التيجان يعدو ذلك عدداً ربما جرت سرقة من الناهمين. في الجانب الآخر، كما أشار إلى ذلك تريقر، ما كانت القبور الغنية واسعة الرقعة ولا التيجان الفضية بالضرورة متضمنةً لملاك حكماء عهوداً؛ فإن بعض الأفراد المتوجين في الحقيقة ملكات شريكات في الملك، وربما كان آخرون أمراء وأولياء للعهد الملكي<sup>(١١٣)</sup>. ولما لم يكن لدينا طريق مؤكد لتمييز قبور الملوك الحاكمين عن أعضاء الأسرة الملكية التابعين لهم، لا نستطيع أن نعرف العدد الحقيقي للحكام الذين دُفِنوا في بلانة وقسطل أو مدة أسرتهم المالكة.

أما مدى التواريخ التي في معظم الأحيان تُعَيَّن لثقافة بلانة فيمتد من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ ميلادية<sup>(١١٤)</sup> إلى حد بعيد تعد هذه بعيدةً وقبيليةً لحدِّ الزمان - المدة الزمنية ما بين الإختفاء النهائي المحتمل للحكم المروى والإعتناق العام المحتمل للمسيحية. لربما تكون هذه التواريخ منطقياً على المدة التي استغرقتها ثقافة بلانة ككل، لكن يجدر بنا ألا نفترض بالضرورة أن أسرار بلانة، كذاتية سياسية خاصة، كانت معاشية على امتداد الزمن لثقافة بلانة سواء في الزمان أو المكان. لقد أشار تريقر إلى أن بعض أنواع فخار "المجموعة المجهولة" المتأخرة الذي قدم بوفرة في المساكن والجبانات العادية في النوبة السفلى لم يوجد بأي من المدافن الملكية؛ نتيجة لهذا، يعتقد أن المدى الزمني الذي تمثله الجبانات الملكيات ربما كان قصيراً للغاية<sup>(١١٥)</sup>. فإذا كان الأمر كذلك، فربما كان لا يزال هناك ملوك نوبيون متأخرون ينتمون إلى الفترة ما قبل المسيحية، ما عثر على قبورهم أبداً.

إننا نعلم كيفما جرى الحال أين دُفن ملوك بلانة وما فُتِّنا بلا فكرة أين عاشوا. فبأنه لا توجد بقايا سكنية مهمة في الجيرة المباشرة للمدافن الملكية، لكن كلاً من فرس وجبل عداً ليس على بُعد شديد، وكلاهما اقترح "عاصمةً" لمملكة بلانة<sup>(١١٦)</sup>. فإذا كانا كذلك فربما أننا لن نعرف الحقيقة أبداً، ذلك أن كلا الموقعين إختفى تحت مياه النيل بما حملاً ما قبل المسيحية وهي غير محفوظة في قسطل كبير منها<sup>(١١٧)</sup> مع هذا هنالك سائحةً ثانية أن قصر بلانة أو أحد قصورها - ربما يرى الثور في قصر إبريم، رغماً عن مسافته التي يُظن إعتبارها بعيدة عن الجبانات الملكية. إن القلعة الكبرى كانت بلا جدال مكاناً يحتل الدرجة الأولى من الأهمية، تنطق بقاياها التي تم حفرها بحياقٍ تكاد تكون "ملوكية" في أسلوبها بأقوى مما تظهره القلاع في أي مستوطنة معروفة أخرى في الفترة ما بعد المروية<sup>(١١٨)</sup>.

على نفس النوال، تعد الحدود الإقليمية للسيادة البلانية غير مؤكدة. لقد افترض دائماً أنها

بطريقة أو أخرى متضمنة في توزيع قُضار "المجموعة المجهولة" (١١٩)، على أنه لا يوجد أساس حيوي لمثل هذا الافتراض. إن شبكات التجارة في الأزمان التاريخية تجاهلت باستمرار التخم السياسية، وقد أوردنا أمثلة وافرة في التاريخ السابق للنوبة نفسها. ومع أن البينة عليها غير مباشرة، فإن النصوص التاريخية لفترة ما بعد المروية توحى بأن حدود سيادة بلانة تضاربت في الحقيقة وفقاً للسلطة والحفظ التي تمتع بها الأفراد الحاكمين. وفي الشمال النائي للنوبة، لم تنشأ سيطرة فاعلة حتى تم الإخضاع لعدوٍ مضنٍ (انظر "إشكالية النصوص التاريخية"، أدناه).

لا بد من تكرار القول أن قبور بلانة وقسطل هي البقايا الوحيدة من النوبة ما بعد الفترة المروية التي تحمل إقتراحاً بسلطة ملكية. في قصر إبريم، وجمي، وفركة، مع ذلك، تجمعات بين القبور كانت تبدو في حجمها، وتعقيدها، وثروة قرايينها، وسيطة لما بين القبور الملكية وقبور المواطنين العاديين (١٢٠). يكاد مُستيقناً أنها تمثل طبقات لنبلاء محليين أولى بأس. إن تجمع قبورهم على مدى أجيال متعاقبة يحمل على الاعتقاد بأن قوتهم كانت وراثية، من ثم مستقلة في جزء منها على الأقل عن قوة الملك. وسواء كانوا ولائاً لملك بلانة، أم أنهم حكموا عموديات مستقلة صغيرة، فربما لا نعلم حقيقته أبداً. وقد عُثر على رسالة في قصر إبريم في ١٩٧٦ تلمح بالإحتمال القائل أنه، على الأقل لوقتٍ ما، كان هنالك ملكان صغيران أو ما يزيد على ذلك يحكمان في وقت واحد أجزاء مختلفة من وادي النيل (انظر "إشكالية النصوص التاريخية"، فيما سيلي). إنها كما يتفرض تريقر "أطال لكم من الأسرار التي ناضلت من أجل السلطة في هذا الزمن، ترقد مدفونة تحت مياه بحيرة ناصر" (١٢١).

### المعتقدات والديانة في العهد ما بعد المروية

إبان عصور الأسرار، ليس في النوبة وحدها بل في العالم القديم كله، كانت الكنيسة والدولة شيئاً واحداً متماثلاً؛ وعلى نفس الوتيرة كانت الأيدولوجية السياسية غير منفصلة عن الديانة الرسمية. لقد قامت المؤسسات الدينية المعقدة في القدم لتحفظ النظام بين الإنسان وأخيه الإنسان بقدر ما حافظت على النظام بين الإنسان والآلهة. وعندما نهض الحزب السياسي، أذاب نفسه في أتون صراع للسيطرة على المؤسسة الدينية. صعدت أسرار جديدة عندما استولت شيع متمردة فيما بين الدولة على رموز القداسة؛ وقامت دول وريثة عندما قبضت على زمام الأمور جماعات خارجية أقل حضارة. كدولة وريثة لمصر الفرعونية، قدمت إمبراطورية كوش لآلاف عام نموذجاً ماثوراً للمجتمع السياسي الإمبريالي القديم. إن ملكاً مقدساً كان يُدعم سياسياً من جانب عُصبة كهنوتية تحكم فساداً وإنانية، ويؤازر أيدولوجياً بتشكيلة معقدة من الرموز المُبالغَة - أثرية، وفنية، وغيبية، وطقوسية.

لقد شدد امرى وكيروان، اللذان اكتشفا سوياً قبور بلانة تأكيداً عظيماً على الرمزية الطقوسية لتيجان بلانة أنها تتضمن توأماً لأيدولوجياً بين الملكيات المروية وما بعد المروية (١٢٢). وما من شك بمستطاع إلا قليلاً أن هؤلاء الملوك الذين لا توجد أسماء لهم في العصر المظلم ما بعد المروية قد أسسوا بالفعل مطلبهم للحكم على قوائم نفس التقويض الإلهي كما فعل أسلافهم المرويون والنبتيون؛ إلى ذلك المدى لا بد أن مملكة بلانة تم التسليم بها كدولة وريثة لكوش (ولا يشترط بالضرورة أن تكون الدولة الوريثة الوحيدة). إلا أنه ما هو حقيقى أيضاً مع ذلك أن المتناسقات الأيدولوجية بين الفترات المروية والبلانية تكاد أن تكون منحصرة في التيجان الملكية وجوانب أخرى معينة من الممارسة الجانزية الملكية. فإذا نُظر إليها برؤية أوسع، فإن أوجه التباعد الأيدولوجي بين الفترتين لهما أشمل تعدداً وأقوى ظهوراً بدرجة عالية مما يكتنف الأوجه المتناسقة.

تحت الإمبراطورية الكوشية، كان القبر الملكي واحداً وحسب من تعابير رمزية عديدة للسلطة السياسية. المعابد، والقصور، وفن النقش، والألواح المنحوتة، والتقاليد والأساطير التاريخية،



والطقوس المعقدة عبّرت عن هيبة الدولة ودعمتها كذلك، بما لا يقل عن تمجيدها لآلهة الدولة. ما من واحد من هذه التعبيرات يمكن التعرف عليه بشكل محدد في البقايا الأثرية لثقافة بلانة. إن غياب أي نوع من معمار الصروح واحد من أشد الملامح بروزاً ومجلية للعجب في النوبة ما بعد المروية؛ إختفاؤها يعنى بالضرورة أيضاً نهاية الزخرف الصروحى. البيانات الوحيدة المشتقة من الحجر التى يمكن أن تعرف بالتاكيد ضمن فترة بلانة هى مداخل الأبواب إلى بعض الغرف الجنائزية الملكية (١٢٣). العتبة الفوقية في واحد منها على الأقل كانت مزدانة بأشكال لأوريوس المصنَّح جانبية المنظر (١٢٤)، على أن التمثل والحفر النُحَتي مَرويين بطريقة مألوفة للغاية بما يوقظ فكرة أن الكتلة البنائية سبقت ازالتها من معبد أقدم عمراً .

التمثيلات المدركة الوحيدة للعبادات في فترة بلانة تجئ أيضاً من المدافن الملكية. إن الأعظم شأناً بينها شخوص حورس، وإيزيس و (ربما) آمون التى تظهر على التيجان الملكية؛ كانت هذه المعبودات دون شك من بين محروسات العائلة المالكة (١٢٥). تبدو بضعة معبودات مصرية تقليدية أخرى أو الأشكال الملكية كأمزجة غالبية على بعض البسة الراس، والسروج والصناديق المملّمة الموجودة في الجُبانات الملكية (١٢٦)، لكن أهميتها ربما كانت زينة أكثر منها أيولوجية. نفس الشيء لابد أنه يسرى بالتاكيد على للمعبودات الإغريقية - الرومانية الوثنية التي تزين أشكالها كثيراً من أوائل البرونز والفضة التي وجدت في القبور (١٢٧). فمثل الحكام الأشموينيين بفارس في أزمان سلقت يبدو ملوك بلانة كانهم تعهدوا بالرعاية تدوفاً للفن الإغريقى، بيد أنه ما من دليل أنهم كانوا يُجلون الهة الإغريق .

لعل فن الكتابة لم يندثر جملةً واحدة في نهاية الفترة المروية. لقد وُجدت شقوق من الرسم الكتابى المروى في البردى بكاداس النفاية ما بعد المروية في قصر إبريم (١٢٨)، والمخ قريبيت إلى أن رسالتين بالأبجدية النوبية القديمة (التي كانت قيد الإستعمال في القرن الثامن) يبدو أنها أخذت من مسبوقات مروية (١٢٩). غير أن تينة الكتابة شحيحة خلال فترة بلانة. ما وُجدت الواحاً ولا كسور فخار ملون في مواقع المساكن والقبور عدا نقش تذكارى مفرد دون شك إتيانها للفترة بأجمعها بين نهاية الحكم المروى ومقدم المسيحية للنوبة. لقد كان مكتوباً على حائط معبد كلايشة الذى يفوقها قدماً بمراحل، فيما يبدو من القرن الخامس المتأخر أو بواكر السادس (١٣٠)، ويفصل الإنجازات العسكرية لملك بعينه يدعى سلكو (١٣١). أما النص الحرفى فكان إغريقية ممعنة في قلة الصقل فكُر أنها من عمل كاتب مسيحي، إذ أن مرجعها الوحيد للمعبودات جاءت بعبارة "الإله منَحَني النصر" (١٣٢). لسوف يذكر الكثير عن هذا وغيره من مدونات نُصية لفترة بلانة في صفحات لاحقة (انظر إشكالية النصوص التاريخية). الإعلان العسكري لسلكو يبين أن الكتابة لا تزال قادرة على دفع مصالح الدولة في الفترة ما بعد المروية سوى أنه في عصر يكاد يكون أمياً لابد أن أهميتها أضحت بالضرورة ضئيلة. الواضح أن ملوك بلانة لم يواصل إنشاؤهم الكتابى خدمتهم طويلاً؛ فقد تحتم على سلكو أن يستعير نظام الكتابة الذى كان جارياً وقتها في مصر .

إن إختفاء غلبة من الفنون السامية للحضارة في النوبة ما بعد المروية يمكن، وفي بعض الأحيان أمكن بالفعل، أن يُعزى إلى الفقر البسيط والتحلل الثقافى (١٣٣). فالإنكماش الذى وقع بتجارة العالم عقب تفتت الإمبراطورية الرومانية كان له بالتأكيد أثره على حظوظ النوبة؛ عكس ذلك في الندرة النسبية للسلع المستوردة بين عامة الناس، في إنحطاط حضورية المجتمع البادية، وفي إختفاء طبقة وسطى بارزة. غير أن الملوك المنفونين في بلانة وقسطل ما كانوا يبرأى صاف. فلئن كانت الخزنة الملكية لم تعد قادرة على إقامة صروح بالصخر المقطوع، لا يزال حقاً أن المدافن التكية العظيمة في بلانة وقسطل، بأقيمتها السفلية المركبة، تمثل بذلا بدرجة أعظم من العمل والإنفاق وأعتى مما تمثل أهرامات الطوب الأخيرة في مروى. أما التغيير في شكل الهياكل الفوقية للمدافن الملكية فيكنى

شرحه بافتراض مؤداه أن الهرم توقف عن أن يكون رمزاً ذا معنى، كما اقترح تريقر (١٣٤).

وجوه جمة لثقافة بلانة ومجتمعها، مثل إحلال المدفن التلي محل الأهرامات، لا تقتض تطلأ ثقافيا بمستوى بالغ يعادل الرفض المتعمد للتقليد المروى. في ضوء ذلك، لابد أن يرى مؤكداً الغياب الكامل للمعابد والقصور. إن الملوك الذين شيّدوا مدافن بلانة إمتلكوا بلا جدال الثروة والخبرة للضوريين لبناء هياكل عامة متواضعة نسبياً من النوع الذي ازدانت به المستوطنات التي تقف في جبل عدا (١٣٥)، ومينارتى (١٣٦)، وربما بوهين (١٣٧)، وقد هجر المعبد النبتى القديم والمروى في قصر إبريم وملى جزءاً منه بالنفاية (١٣٨). بل إنه حتى في ترتيب غرف قبورهم السفلية يبدو بشكل بارز أن ملوك بلانة تجنبوا بوعى قالب المعبد المروى، الذى كان يعاد إخراجها دائماً في المعابد الملكية الكوشية الأولى (قارن الفصل الحادى عشر). أخيراً، يصعب الإرتياب بأن ملوك بلانة كان بمقدورهم أن يحتفظوا بإنشاء كتابى وفنى بالإنفاق الملكى إن كان متفقاً مع أغراضهم؛ بل إن إخفاقتهم في القيام بهذا لابد أن يجرى تاويله كإعكاس لعدم الإكتراث أو الجفاء بأرجح مما يُد عجزاً.

إجمالاً، ربما يتضح أن حكام الأزمان البلانية إستعادوا التقاليد الملكية لكوش القديمة في حين تخلوا أو كبتوا أى شئ مصاحباً بتقاليد كهنوتية. تركيب السلطة المعقد والتممايز في الأزمان الكوشية الذى (كما شأهنا في الفصل العاشر) كان في بعض الأحيان مصدرأ للنزاع بين الدولة، يبدو أنه أقتلع من أساسه تحبيذاً لعودة الحكم الفردى. مرة أخرى، تصب كل أيولوجية الدولة تركيزها على شخص الملك الإلهى، فأصبح مدفنه تعبيرها الرمزى الرئيس وربما الوحيد. بعد ٢,٠٠٠ عام عادت حضارة كوش الأسرية إلى نقطة أصلها؛ لقد نكست على عقبيها من إمبراطورية إلى زعامة مطلقة السلطان.

المتوازيات المتعددة في صراحة بين ثقافتى كرمه وبلانة، على التوالى في مطلع عصر أسرات النوبة ونهايته، ربما تعكس شيئاً يفوق المصادفة التاريخية. إن التواصل الوثيق ليس في الشكل وحده إنما كذلك في الحجم بين أكبر المدافن الملكية في بلانة وقريناتها في كرمه، وبنفس القدر في تغطية المدفن التلى بطيقة من الحصا البيض متبذراً الإحياء المتعمد لرمز قديم للسلطة الملكية، تماماً كما أحيأ الحكام النوبيون الأوائل من قبل ١,٢٠٠ عاماً شكل الهرم الذى انطمس زمناً طويلاً في مدافنهم الملكية الخاصة (قارن الفصل العاشر).

من الممكن أن القبر ذا التلى الترابى بئثاره، حجراً كان أم حصا، بقى مستعملاً منذ أزمان كرمه في غرب السودان، وإن إعادة إدخاله في وادى النيل في الفترة ما بعد المروية راجعة إلى أثر المهاجرين (انظر بخاصة "التاريخ ما بعد المروى في الجنوب"، بادناه) مع ذلك، جدير بالذكر أن حركات العود للمقديم شخصته المراحل الأخيرة لحضارات غفيرة (١٣٩). وعندما يصبح الثقل المتراكم من التقاليد عبئاً تنوء به إدارة شؤون الحياة اليومية، يصير من الضروري أن يُبسّط، إما برفض الجديد أو بنبذ القديم. هكذا الأيدولوجيات، سياسية أو دينية على حد سواء، يضطرم إوارها على الدوام من قبل حركات تخليصية، وقومية، مستعيدةً للقديم من جهة، ومن طرف حركات تحديثية من جهة أخرى. في المعتاد أغلب الأحيان تسبق الأولى فتفسح الطريق للثانية. وكما سندرك في الفصل التالى، كان هذا هو تعاقب التطورات في النوبة. كما كان ديدناً خلال أكثرية من العالم القديم. في الألفية الأولى الميلادية. إن حضارة بلانة المستعيدة لخطى القديم، والتى تظهر للوهلة الأولى مثل خطوة للخلف صوب العصر القبلى، هيأت السبيل بحق لكل من المسيحية والإسلام. العوامل المحددة التى جاءت بهذه الأيدولوجية الإنتقالية الغربية إلى الوجود في العصر ما بعد المروى ستناقش بتفصيل أوفى لاحقاً (انظر "إشكالية النصوص التاريخية").

تبدو الديانة الخاصة في النوبة وكأنها ما أصابها سوى أثر قليل من التغيرات الأيدولوجية للفترة ما بعد المروية. وكما هى دائماً، ظلت الطقوس الجنائزية بؤرة رئيسة للنشاط الدينى. التغيرات التى

لحقت بممارسة دفن الجناز التي احتلت مكاناً في أزمان بلانة لم تكن ذات نسق رئيس، وقد أثرت بالدرجة الأولى على الأرض الفوقية والملاحم الخارجية للقبور. أما تبني مدفن تكي من التراب في مكان أهرام من الطوب فربما كان تطلعاً نحو التساوى بتقليد ممارسة أنشئت سلفاً في الجنوب في أزمان مَروية متأخرة (١٤٠)، أو ربما الهب طموحها بمستوى أشد مباشرة نموذج المدافن الملكية. إختفاء مناضد القرايين، وتماثيل با، واللوحات الجنازية كلها بالطبع متصلة بإختفاء صناعة الكهنوت. وفي أسفل الأرض، من الناحية الأخرى، بقي ترتيب الغرف الجنازية، وأجساد الموتى، والقرايين متماثلاً لمدى بعيد كما في أزمان سابقة .

وجه آخر للديانة الخاصة إنتقل به من أزمان مَروية إلى بلانة كان عبادة إيزيس في فيلة (قارن الفصل الثاني عشر). أهميته المتواصلة مثبتة بنصوص تاريخية متعددة من مصر، وسُناقش بعضها لاحقاً في محتوى آخر. من هذه المصادر نتعلم أن عبادة إيزيس كانت مصنوعة، لمنفعة معتنقيها المخلصين، النوبيين، ربحاً طويلاً بعد أن صارت مصر إلي المسيحية رسمياً (بما في ذلك فيلة نفسها). إن مرسوم ثيودوسيوس الأول (٣٩٠م)، الذي قضى بإغلاق كل المعابد الوثنية في كافة أرجاء الإمبراطورية، لم ينفذ في فيلة (١٤١)، وبدا أن مساعي جرت مؤخرأً لكبت عبادة إيزيس أثارت إشتباكات مسلحة بين نوبيين ومصريين. أخيراً، في ٤٥٢ ميلادية، وقّعت معاهدة سلمت بحقوق الديانة التقليدية للنوبيين في فيلة. طبقاً للمؤرخ بريسكوس "... سوف يكون لهم وفقاً للعادة المألوفة عبور حر لمعبد إيزيس. ويكون لزاماً على المصريين مسؤولية القارب النهري لأخذ تمثال الإلهة. لأن متخلفي الحضارة في فترة معينة أخذوا التمثال لأرضهم الخاصة، وبعد أن استعملوه لغرض إفتاء ديني، أعادوه إلى الجزيرة. لأن مناسباً لماكسيمينيوس (الفصل الروماني في مصر ) أن يرم المعاهدة في معبد فيلة" (١٤٢). ظلت هذه الإتفاقية نافذة المفعول لحوالي مائة عام، حتى أغلقت المعابد الوثنية واحدة في زمن جستنيان (١٤٣).

لقد عُثر على رموز مختلفة يُعتقد أنها مصاحبة لتقديس - إيزيس في المدافن الملكية وفي جَبانات أخرى من فترة بلانة (١٤٤). من الموجبات أيضاً دُمى فخارية أنثوية، حوالى خمس بوصات في علوها عموماً، وُجدت في مواقع سكنية بلانية متعددة، بالرغم من أن شيئاً منها لم يُعثر عليه في قبر بعد. إن التطويع الجامد للشكل، بلباس رأسها دقيق التفاصيل، وديها المرفوعتين، والميدالية المرسومة على الجبهة، والميدالية المتدلية على الصدر، تُلهم بنوع ما من تمثيل الكهانة، مع أنها ليست مدركةً على الفور كأي عبادة معروفة (١٤٥). ويجب الإقرار بأن الشكل ذا المجلس المهيّب الذي يكاد لا يتخذ وجهاً معيناً، لا يمثل الشكل التقليدي لإيزيس، فربما أنها في الحقيقة بعض معبودات الببوت مثل فستا. بعض الأشكال مصنوعة من طين صلب لامع مائل للإحمرار يجعل منها بلا خطأ منتوجات من أسوان (انظر الفصل الثاني عشر)؛ تبدو أخرى صنعاً نوبياً. مع ذلك، فإنها حقيقة تشير الإستطلاع أن أياً من هذه الأشكال لم يُعثر عليه في موقع مصري؛ فكل الأصناف المعروفة مؤكدة النسب تجئ من النوبة. وبما أنها فيما يمكن الأخذ به تمانم وثنية، يبدو معقولاً أن يُفترض أن المصنوع منها في مصر كان صنعه صراحةً من أجل التجارة النوبية .

بمنوال ما يمكن توقعه، يبدو نفوذ المسيحية ظاهراً في تزايدٍ أواخر فترة بلانة. لقد جُلبت فوانيس للإبتهال حاملة أسماء قديسين وشعارات مسيحية واستُعملت في بيوت نوبية، صنّعت علي غرارها مُكَلدات مطية، ورسوم تصويرية للصليب محفورة على أواني فخارية أخرى (١٤٦). إن شيئاً من ذلك لا يعني بالضرورة أن أي نوبي في فترة بلانة إنتهج الإيمان الجديد نشطاً؛ إنها تعني فحسب أن الصليب ورموز مسيحية أخرى أضحت الآن جزءاً من ديانة الدولة في مصر وإنها تكتسب جذباً وجدانياً معيناً وسط النوبيين بالمثل. وكما تمنع كيروان جيداً:

ما من فواصل محكمة الإسداد .. إنشطرت بها أنيان القدم، وفي مصر وُجدت معتقدات وممارسات وثنية

بما في ذلك ... عملية التحنيط مسيحيين، مخلوطة في مزيج غريب ومحير. إن الاكتشافات التي أجريت في القبر ٢ في بلانة ربما تُبين بجلاء معتقدات متعايشة مماثلة أو خرافات بين النوبيين الأقل حضارة. في إحدى غرف الجناز كان يرقد إلى جانب بعضهم البعض صليب ذهبي، وجعران، وأربعة قطع ملفوفة من معدن لقد برهنت قطعة الذهب على أنها /حاجبة، تيمية للحب في إغريق الفاسقة، تنزع لإيزيس. وكانت القطع الباقية مصنوعة من الرصاص وربما كانت مكتوبة كذلك، لكنها لا يمكن أن تُبسّط. إن تائم من هذا القبيل، من الذهب إذا كانت صالحة، ومن الرصاص إذا كانت شريرة، كانت تُبس في حجاب صغير يُعقد من العنق. محتمل أن المواد الأربع كانت كلها في مرة من المرات مودعة في حجاب كهذا، مانحةً تائماً كافياً للأحياء والأموات<sup>(١٤٧)</sup>.

بين التيارات الأيدولوجية التي كانت في الخارج أثناء النوبة ما بعد المروية، يجب أن يقام بعض الذكر لعشق العنب. وسواء كان تقليداً باخوسياً عالي التطوير أم لم يكن فذلك أمر غير جازم، لكن البقايا الأثرية لا تترك شكاً فيما يتعلق بالإستهلاك الثقيل للنبيذ في أزمان بلانة. لقد كانت الحانات و/أو أقبية النبيذ وجوهاً بارزة لمستوطنات مثل سيالة، وقصر إبريم، ومينارتي (قارن الفصل الثاني عشر)<sup>(١٤٨)</sup>. وكانت كميات الآنية الإغريقية [الأمفورة] وأباريق الشرب المكسرة التي تكسدت بين هذه الميكنة وحولها باعثةً على الدهشة. يمكن إضافة أن النفاية المترسبة لم توجد بالحانات وحدها وإنما في كافة مستويات الإقامة في بلانة وقصر إبريم ومينارتي لا تقل شيئاً عن كونها هائلة: الخزائب الباقية من هذه الفترة التي تمتد لمانتي عام تقدم تليلاً لما يقارب ثلث المترسب الكلي في مينارتي<sup>(١٤٩)</sup>، وما يبلغ النصف من المترسبات في قصر إبريم<sup>(١٥٠)</sup>. في كلا الموقعين كانت المساكن في فترة بلانة مملوطةً بمعنى الكلمة من الأرضية إلى السقف بكل نوع من فضلات الإقامة، روثاً، وعُشباً، وفضلات من الطعام، ومعدات وأواني مكسورة أُستغنى عنها، إضافةً إلى أعداد وفيرة من أواني فخارية كاملة يبدو أنها كانت قد قذف بها أرضاً بلا اكتراث. هذه الأحوال لا تعكس ببساطة تحويل المباني من مساكن مأهولة إلى نفايات منبوذة، إذ أنها أُعيدت أرضياتها واستُعيدت الإقامة بها من فترة لأخرى من فوق الفضلات المتراكمة. في حالات كثيرة كان ضرورياً أن تُغلى الجدران بسبب عمق المادة المتراكمة بينها. وفي حين أن علاقة سببية لا يمكن بالطبع أن تستبان، من المفري أن تُرى علاقةً وأصله بين عادات لمعيشة غير أبهة بالنظافة وبين الشرب الثقيل لأزمان ما بعد مروى، لربما يُربط ما بين الاثنين وما بين الصدا الذي أصاب أيدولوجيات أشد إلهاً.

بقي على قيد الحياة قليل جداً من النفوذ المروى أو القديم بالنسبة للفنون الدنيوية في فترة بلانة. إن الفخار، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، كان على تبعية كلية لقواعد ورسوم رومانية وبيزنطية، حيث اختفى التقليد المفضل للأزمان المروية دونما أثر. أما الملوك أنفسهم، رغمًا عن البساطة القديمة لمدافنهم التكية، فقد اظهروا تدوقاً مشهوداً للفن الإغريقي - الروماني في إختيارهم للمواد التي تدفن معهم. هذا المركب الأيدولوجي، الذي يطالع في الحال رجعات إلى الخلف وخطوات إلى الامام، خاصةً في كل مكان للعصر غير المستقر بين نهاية حضارة قديمة والبداءات الجديدة التي تمثلها المسيحية والإسلام. إن الموقف في النوبة عند هذه النقطة الحرجة في التاريخ أوجزه مثلاً كيرون كما يلي:

مقدسين للآلهة المروية القديمة وما فتئوا يمارسون أوضاعى الطقوس الوحشية التي مارسها أسلافهم، أقام الملوك النوبيون ... في تمام بتيجانهم المجوهرة والفضية، دولةً على النموذج البيزنطي، مستخدمين الإغريقية على أنها لغتهم المكتوبة، مستوردين لمصنوعات الفن من مشاغل الاسكندرية وانطاكية، ومؤخراً بدخول المسيحية مقدين لدرجة تكاد تبلغ تقليداً أعني الاحتفال التفصيلي للبلاط الملكي البيزنطي<sup>(١٥١)</sup>.

### إشكالية النصوص التاريخية

إننا عشر وثيقة تاريخية جرداء تشير صراحةً إلى النوبة والنوبيين في العصر ما بعد المروى

(١٥٣). إنها بإستثناء واحد أو إستثنائين، أعمال مصريين، وإغريق، ورومان؛ معظمها يحوى إشارة عابرة وأحياناً غامضة لا غير للأحداث في الأراضى الجنوبية. كجموعة، تحتفظ النصوص بتناقضات وخفايا مهمة، من المستحيل أن يجرى التوفيق بينها بشكل مطلق أو فيما بينها وبين السجل الأثرى. إن تعليقاً موسعاً عن المدونات التاريخية ما بعد المروية سوف لا يكون له محل في الصفحات الحاضرة؛ ساقم هنا بتلخيص محتواها بأوجز كلمات، وأن أشير إلى حلٍ ممكن لبعض المشكلات التى تثيرها، لا يشملها كلها .

لا يقدم كُتاب الأزمان القديمة في مراحلها المتأخرة ذكراً لمروى أو كوش؛ إنهم يتحدثون بدلاً من ذلك عن شعبيين نوبيين في النوبة السفلى، اليلميين والنوبيين، الذين لم نسمع عنهم من قبل. بالتقريب يتفق كل الأساتذة المحدثين على تعريف اليلميين بقبائل البجا اليوم والمدجو أو مدجائ القدم (قارن الفصل السابع) . بدو تلال البحر الأحمر الذين يعادون الظهور في فترات زمنية طوال التاريخ النوبى (١٥٣). أما أصول النوبيين فهي أعقد إشكالية، وقد اشتقها كتاب مختلفون من النوبة العليا (١٥٤)، وغرب السودان (١٥٥)، ومن ليبيا أو حتى شمال غرب إفريقيا (١٥٦). وطبقاً لمؤرخ القرن السادس بروتكيوس (١٥٧) (الذى كتب طويلاً بعد الحدث)، جابوا إلى النوبة السفلى بدعوة من الإمبراطور ديو كلتيان [ديوقليتانس]، الذى كان يأمل أنهم سيكونون منطقة عازلة بين مصر الرومانية واليلميين المحاربين (١٥٨).

بتفهم كافر، صرف دارسو التاريخ ما بعد المروى إهتمامهم الرئيس في مساع لتعريف ثقافة بلانة ومملكتها مقرونة باليلميين أو بالنوبيين. فكل الجماعتان لهما اتباع (١٥٩)، على أنه يتحتم الإقرار بأن إرجاع ثقافة بلانة بشكل مطلق لآى أناس بمفردهم تُثير إشكالات تفوق ما تعالجه. إن جواباً معيئاً من حفاة الواقع يُحيط بكل مجادلة باليلميين والنوبيين، ذلك أنها تتجاهل تجاهلاً كبيراً السؤال الذى يتعلق بما حدث للسكان المرويين المنعمين الذين عاشوا في رخاء بنفس المنطقة منذ وقت قصير. إن الواحد يجوز أن يفكر أن الشعبيين قد أخبروا بظهورهما وحاربا معاركهما على مسرح خال (١٦٠)، بالرغم من أننا نعلم من السجل الأثرى أن هذا كان بعيداً عن الصحة .

لعلنا إذن، نوجز لغز النوبة ما بعد مروى بملاحظة متفحصة مؤداها أن المؤرخين يبنون عن شعبيين، اليلميين والنوبيين، في حين تكشف الآثار عن ثقافة واحدة؛ علاوة على ذلك، يترك كل من التاريخ والآثار في جهل عن مصير المرويين السابقين سكاناً وثقافة.

فى الوقت الراهن، أغلب حل محتمل للمشكلة (أو بالأرجح الأقل إستحالة في الحدث) هو أن تعرف ثقافة بلانة وملكيته بصفة أساسية مع النوبيين، وفى نفس الوقت يُسلم بأن هؤلاء يحتل أن يكونوا هم السكان المرويين السابقين في النوبة السفلى كمرحلة متأخرة من التطور، تحت إسم جديد. بهذه الطريقة، لا نظل ملزمين بالإعتقاد بـ "هجرة نوبادية" واسعة النطاق في الفترة ما بعد المروية (١٦١) . وهو حدث لا تقدم له الآثار أى إثبات حقيقى - ونملك أيضاً جاهزاً للمتأسسات الثقافية بين الفترات المروية والبلانية. يمكننا كذلك أن نذكر أنه من قبل قرن أو قرنين فحسب وقعت بالفعل هجرة جماعية كبيرة للنوبة السفلى: "الإندفاع نحو الأرض" في الأزمان المروية المتأخرة التى أعقبت إدخال ساقية الرى (قارن الفصل الثانى عشر). فى هذه الهجرة الباكرة، إن وقعت بأى مكان، يوجد المحل المنطقي للنظر إلى مقدم النوبيين وبالمصادفة تقديم الحديث النوبى إلى الإقليم حيث يوجد فى الوقت الحاضر (١٦٢). لربما جاء القادمون الجدد من مكان ما غرب السودان حيث لا تزال هناك "جزراً" من الحديث النوبى حية باقية (١٦٣)، أو لعلهم حضروا من المقاطعات النهرية صوب منبع النهر، حيث توجد بيئة هناك أيضاً على وجود متحدثين نوبيين في أزمان مبكرة للغاية (١٦٤). أى حالة كانت، فقد جلبوا معهم للنوبة السفلى اللغة التى كان عليها أن تتطور إلى اللهجات النوبية الحاضرة اليوم (قارن الفصل الثالث). بوصولهم للشمال، أصبحوا رعايا للصفاة الحاكمة الناطقة بالمروية التى

كانت تحتل المنطقة أنفأ لأهداف إستراتيجية، هكذا حتى نهاية الإمبراطورية الكوشية بقيت المروية لغاً للحكومة والطوقس، واللغة الوحيدة المكتوبة، مع أنها ربما لم تكن مفهومة للدهماء متحدثي النوبادية .

لماذا، إن كانوا قد بلغوا النوبة السفلى في الأزمان المروية، لا نسمع أبداً عن النوبيين يمثل ما سمعنا قبل القرن الخامس: <sup>(١٦٥)</sup> إن الإجابة يجب أن تكون أن نوبياد كمصطلح عرقي ولغوي لم يكن لها، في مبدأ الأمر، منلول سياسي. ولما أضحي المهاجرون، بعد وصولهم إلى النيل، رعايا لإمبراطورية كوش ومحافظة أكين <sup>(١٦٦)</sup>، فإنه تحت هذه الأسماء أيأ ما كانت لم نسمع عنهم في أزمان مروية. ما كان إلا من بعد إنكسار إمبراطورية كوش، عندما ظهر النوبيون في النوبة السفلى كقوة سياسية مستقلة، أن المؤرخ أصبح ملزماً لأن يطلق عليهم إسمأ خاصأ بهم. أما الإسم الذي دونه المؤرخ فيفترض أنه الإسم الذي دعوا أنفسهم به دائماً. وبعد حين قليل أضحي إسمأ رسمياً لأول مملكة مسيحية، نوبادياً .

لكيما تدفع المسألة خطوة إلى الأمام، أظن أنه من ناحية مرتعهم الأصلي كان هؤلاء الناس بدأوا أقل حضارة. أذعنوا، عندما وصلوا النيل، ربما على مضض، لسلطة كوش التي كان يمثلها موظفون رسميون وحاميات سبق إنشائها في النوبة السفلى. مثل البدو في كل مكان، تبثوا سراعاً الفنون الالكيفة والتقاليد الاستعمالية لسكان الوادي المقيمين، إلى الحد الذي صارت فيه مساكنهم وقبورهم غير مميزة عن مساكن البروليتاريا المروية وقبورها في أي جزء من أنحاء الإمبراطورية. مثل البدو أيضاً، مع ذلك، ربما أنهم عابثوا بالريبة أو بالعداء العلني الصريح الجوانب التي كانت أشد تعقيداً أو هتقوة للحضارة الكوشية. من ناحيتها أظهرت الدولة المروية إهتماماً قليلاً ببث التعليم الأيدولوجي لرعاياها الجدد، فكانت قنوعة بالتعبير عن سلطانها في الشمال بمعان دينوية أساساً (قارن الفصل الثاني عشر). هكذا، لما تداعت الإمبراطورية الكوشية، لم يبدل النوبيون في النوبة السفلى جهداً ليُبقوا على الحياة تقاليدهم الكتابية، والفنية، أو الأيدولوجية. إنما أطاحوا بقدر واسع أو كلياً بالكتابة المروية، وفن الصياغة نحاً أو نقشاً، ومعمار الصروح، ومراسم الدولة، وكل شيء يحتمل أنه اقترن في أذهانهم بكهفوت بالوطاغوت .

من العناصر التي كُونت ذات مرة "التقليد العظيم" لكوش <sup>(١٦٧)</sup> أبقى على مؤسسة الملكية المقدسة وبعضاً من شعاراتها الرمزية فصبب. بل إن حكام بلانة في مقابهم الملكية، مع ذلك، نبذوا بعض تقاليد كوش الدهرية. وبهذه الطريقة أضحي النوبيون بحق مسؤولين عن الإندثار النهائي لكثرة عظيمة من الفنون السامية للحضارة، وإن لم يجر ذلك بالطريقة المرئية والمزلزلة التي تُنسب إليهم أحياناً <sup>(١٦٨)</sup>. إن طريقتهم كانت ببساطة دولة وريثة أقل حضارة ذات ملامح بدائية بشكل إستثنائي <sup>(١٦٩)</sup>.

من كان ملوك بلانة؟ بينما كانت كتلة السكان النوبيين في النوبة السفلى في الأزمان البلانية متحدرة بما يشبه اليقين من سكان أزمان مروية، فإن إمكانية أن الحكام أنفسهم يمثلون موجة مندفعة جديدة من الهجرة إلى الجنوب أو الجنوب الغربي لا يمكن أن تستبعد كلية. وبالنظر إلى ما أخبرنا به للتو حول النبد الأيدولوجي، يصعب علينا أن نفترض أنهم سليلية الصفوة الحاكمة القديمة للأزمان المروية. لربما أنهم إنبعثوا من بين صفوف السكان النوبيين الذين سبقت إقامتهم في الشمال، ولكن في مثل تلك الحالة يجدر بنا أن نتوقع وجود تواصل أيدولوجي وثقافي أقوى تناسقاً بين الفترات المروية وما بعد المروية مما عليه الحال بالفعل. على الإجمال، يبدو المفهوم القائل بأن حكام بلانة يمثلون صفوة أقل حضارة وصلت حديثاً (وربما أنها أسدت ضربة قاضية للنظام الشانخ في الشمال) أفضل تحليل لكل من التغيرات السريعة التي حدثت بالنسبة للطوقس الجنائزية التي قاموا بإدخالها وللملامح شديدة "الزنوجة" التي ظلت منسوبة إليهم دائماً <sup>(١٧٠)</sup>. إلى ذلك المدى ربما أمكننا أن نواصل تسليمنا ببعض الصحة في فرضية "غزوة المجموعة المجهولة" القديمة .

يبقى دور البلميين موضعاً للإعتبار. إن هؤلاء المتاصلين في تلال البحر الأحمر، الممتلكين جذّة الجمال والمقدرة العسكرية السائرة معها، يبدو أنهم أسسوا موطناً قدم لهم في الدويكاسخيون حتى في ظل الحكم الروماني. في النهاية كانت غاراتهم الناهبة وعجز الرومان عن إحتوائها، هي التي نتج عنها التخلي عن المحافظة الثانية وإنسحاب التخوم الإمبريالية إلى أسوان في عهد ديوكليتيان. ترك البلميين في إمتلاك لا شريك فيه لأثنى مقاطعة للنوبة في الشمال حيث كان واضحاً أن جماعات منهم إستقرت بها وأخذت في الحياة طويلاً للفلاحة ليس مختلفاً بالضرورة عن جيرانهم النوبيين. بهذا يجب إحتماً أن تُنسب البقايا الأثرية للثقافة بلانة للجماعتين بدلاً من إرجاعها برمتها إلى أي واحد منهما بمفرده. لقد كان النوبيديون، بتشجيع من الرومان، يسنون الحرب على البلميين من وقت لآخر، سوى أنه لما يزيد عن قرن كانوا غير قادرين على نزعه من مواقعهم الحصينة في الشمال. في تلك الأثناء تقاسمت جماعات من النوبيديين والبلميين في بعض الأحيان قضية مشتركة في مواجهة عصر المسيحية حديثاً؛ إن عدايمهم إستقرت فيما هو ظاهر مساعي بذلت لكبت ديانة إيزيس وإعادة تكريس معابد فيلة كنائساً. أما عندما كُفّل حق الأقوام النوبية للجاري للعبادة كوثنيين في فيلة، سنة ٤٥٢ ميلادية، فقد توقفت هجوماتهم لما يزيد عن خمسين عاماً .

والى القومان النوبيان قيامهما بشن الحرب على بعضهما البعض حتى حقق سلكو، وهو ملك نوبادي معين، ربما في القرن السادس، نصراً نهائياً على خصومه. هذا الحديث موثق في نقش واحد لأزمان ما بعد مروي يعود إلى أصل نوبى لا شك فيه. وهو مكتوب بإغريقية موغلة في اللانصوية على جدران معبد لكلايشة، وثقراً كما يلي :

أنا، الملك سلكو، ملك نوباديا وكل الأثيوبيين، ذهبت إلى تلميس وتغيس مرة تحاربت مرتين مع البلميين ومنحنى الإله النصر. وبعد المرة الثالثة، مرة واحدة جامعة، قهرتهم ثانية وجعلت نفسى سيّداً على منبهم. لقد أسست ملكي هناك بقواتي لأول مرة. وقد توسلوا لى وعقدت السلم معهم. وأقسموا لى بحق ألهتهم ووثقت بقسمهم أنهم كانوا رجالاً شرفاء. ثم قفلت راجعاً إلى بلادى العليا. وعندما أصبحت ملكاً لم أتبع ركاب ملوك آخرين لكننى [سرت] متقهما عليهم .

أما ما يخص أولئك الذين نامضوا معهم، فإننى لم أذن لهم بالإقامة في موطنهم الخاص مالم يُجْلُونى ويدفعوا لى الجزية. ذلك أننى في البلاد السفلى أسدّ وثي أنا في البلاد العليا.

لقد تحاربت مع البلميين من برم (قصر إبريم) إلى تلاليس (شلال؟) مرة واحدة نهائية، وحاربت الآخرين جنوب نوباديا. أغرت على أراضيهم ودمرتها لأنهم تصارعوا معى .

إن سادة الأمم الأخرى الذين يتحاربون معى، لا أسمح لهم بالجلوس في الظل إنما خارجاً في الشمس، ولا يمكنهم أن يأخذوا شربة ماء في مساكنهم الخاصة؛ أما أولئك الذين يقاومونى، فإننى أقضى على نسانهم وأطغاهم<sup>(١٧١)</sup>.

كانت حملات سلكو إضافةً إلى ذلك موضوعاً لرسالة مشهودة أشهرت في قصر إبريم عام ١٩٧٦م. كُتبت بإغريقية أقل حضارة، إما من طرف ملك النوباديا إلى ملك البلميين أو (أشد إحتمالاً) عكس ذلك. فيها يشكو الكاتب بشئ من الإسترسال من إنتهابات سلكو، ويستنجد بغوث نظيره في الملك لدرة الدأعى. هنا دليل لا مجال للخطأ فيه على تواجد حاكم بلعى وآخر نوبادى في وادى النيل، كذلك تحالف، مؤقتاً على الأقل، بينهما .

اللغة إغريقية؛ والأسلوب المسترسل مبالغتهً مجوجة لا جدال في أنها أسلوب حكام مصر وكوش القدماء. كتابة سلكو لهذا، مثل كثير غيرها في الثقافة النوبية المعاصرة، علامة - إنتقالية، تطالع خلفاً وأماماً مرة واحدة. ولعلها كانت الأخيرة لإعلان مثل ذلك يمدد النفس بلا حياة، مما أملاه ملك غريبى بلى شكل من الأشكال .

## كانت كتابة سلوك مصحوية بتمثيل للملك :

... راكباً على جواد رشيق بهي الرداء تتدلى زينة حول عنقه ومحازاة الأرداف، يقبض في يده اليسرى على رمح دقيق للصنع، يقترب به عدوه، الذي يبدو للعيان مرعاً في الغيار. في هذه الأثناء يحوم فوق رأسه [رمز] للنصر بجناحين، لا يتوجه بفصن شرفه روماني إنما بلباس رأس شديد الغراية مصنوع من شعارات مصرية؛ قرون الإله الكيش خنتوم، وحزمة إيزيس من الذرة الشامية، وريش معات، وأورايوس الشعبان الملكي. ألبس الملك على طراز أباطرة الروم المتناخرة درعاً قصيراً من المعدن يبلغ ركبتيه، ودرعاً رومانياً يرف من خارج كتفيه (١٧٢).

لعله من غير الضروري أن يُضاف أن تاج سلوك، كما هو مضروب في كلايشة، يمثل عن قرب بعض التيجان التي وُجدت بالفعل في قبور بلانة (١٧٣).

إن عبارة "منحني الإله النصر" فُسرَت في بعض الأحيان لتعني أن سلوك كان مسيحياً، على أن هذا كاحتمال هو أكبر بس لمكتوبٍ مسيحي (أو يهودي) قام بتوظيفه (١٧٤). أما لباس الرأس الملكي، بمنظومته الغنية بالشعارات الفرعونية، فإنه يدل على الأرجح بأن الملك لا يزال تابعاً لبعض تقاليد كوش الدينية العريقة. مع هذا، لما يمضي وقت طويل، حتى جرى تحويل أحد خلفائه على العرش إلى المسيحية، وبلغت أسرة بلانة الوثنية الأقل حضارةً نهايتها و "بنهايتهم" يقول إمرى "نزول آخر معتقدات وتقاليد مستميتة لمصر الفرعونية" (١٧٥).

## التاريخ ما بعد المروى في الجنوب

التاريخ ما بعد المروى للنوبة العليا، للمدى المحدود للغاية الذي يمكننا أن نستبصره فيه، يبدو أنه يعيد في قالبٍ أبعد تطرفاً قصة الإفقار الثقافي والتبسيط الأيدولوجي الذي تابعا ملاحظته بدقة في الشمال. إن وثيقتنا التاريخية الوحيدة للفترة ما بين سقوط كوش ومقدم المسيحية هي لوح عيزانا، الذي مضت مناقشته في بداية هذا الفصل ("إضمحلال مروى وسقوطها"). هذا المنحوت يُوحى بأنه عندما بلغ الملك الأكسومي النيل، حوالي ٢٥٠م، وجد أرضى السهل التي كانت فيما مضى مروية، في حوزة النوبا سلفاً. كان هؤلاء فيما هو مفترض النوباى الذين وصفهم اراتوسنين وكتاب آخرين في وقت مبكر القدم على أنهم يعيشون غرب النيل (١٧٦). إن الاسم يلهم بأنهم كانوا أقارب للنوبادين؛ ولعل القومين نبعاً من أصل مشترك في الغرب. في مرتعهم الجديد، ورثةً للمرويين، أظهر النوبا استعداداً للفنون الأسمى للحضارة أقل من أبناء عمومته الشماليين. وفيما هو باد، كما ينادى مكتوب عيزانا، كانت بيوتهم من عشب، وسرعان ما جعلوا مدن المعابد المصنوعة، والنقعة، ومروى تنهاوى خراباً. إن بقاياهم الأثرية الوحيدة المعروفة تلال ترابية مرتفعة، مشابهة عموماً لقبور ثقافة بلانة في الشمال، مبعثرة على طول وادي النيل وعبر أراضى السهل من سنار في الجنوب إلى تنقسي في الشمال (الشكل رقم ٦٣) (١٧٧). وفي هذه المدافن التكية يعن شيتيك النفر:

توجد قبور بآلال ترابية مرتفعة فوق مساحات ممتدة للغاية في أواسط السودان وشمالاً، لكنها ليس وفيرو باى مكان كما هي على الضفة الشرقية للنيل في منطقة الخرطوم، في اتجاه الشمال حتى الممتدة على الأقل. إنها تقع في الغالب، في جماعات ذات أحجام متفاوتة، على بُعد مباشر من الأرض المزروعة، في أول ظهور لمصراع الخصا. كبرى وصغرى (بعضها مجرد تلة مريئة) لابد أن عندما الإجمالي بلغ الألف عبيدة. أما سطح التلال الترابية فوق القبر فهو عادة من الحصبا، مقدماً في تماثل كثير نفس مظهر الأرض المحيطة؛ لكنه حيثما توفر الحجر بالقرب منها تُغطى بكتل صغيرة، من ناحية التسلسل الزمني، يحدد زمنها تلك الفترة، التي لا يعرف عنها إلا القليل، مباشرة من بعد إختفاء المملكة النوبية. تصبح القبور بذلك معاصرة لثقافة "المجموعة المجهولة" في الشمال البعيد؛ جرى تضمين أن قام بعملها "النوبا" الذين أشار إليهم عيزانا أكسوم أنهم كانوا ممتلكين للمنطقة عندما اجتازتها قواته (١٧٨).



تتراءى المدافن النكية للنوبة العليا متمائلة جداً من مقاطعة نَبْحة إلى سنار، وقد أدى ذلك إلى افتراض أنها تمثل مجموعة ثقافية واحدة عادةً ما توصف بثقافة تنقسي<sup>(١٧٩)</sup>، على أثر واحدة من أبرز مجموعات المدافن النكية (انظر أدناه). يجب الإعتراف، مع ذلك، أن عدداً قليلاً للغاية من هذه الهياكل المثيرة للإهتمام نُقِبَ عنه مطلقاً، وأن الافتراض بشأن التوحد الثقافي في كافة أنحاء النوبة العليا مؤسس بشكل موسع على تماثل المدافن النكية. هنالك، إضافةً إلى ذلك، الحقيقة الملهمة بأن توزيع المدافن النكية النوبية في النوبة العليا يتساقط بشكل عام مع التوزيع المعروف لفخار علوة - الفخار يدوى الصنع المتميز الذي وجد في بعض قبور تنقسي. إن فخار علوة لهذا السبب يُعد في بعض الأحيان تشخيصاً إضافياً لثقافة تنقسي<sup>(١٨٠)</sup>.

أقدم نماذج معلومة عن المدافن النكية في النوبة العليا هي التي عُثِرَ عليها في الجبانات المشتركة (أي غير الملكية) في مروى، التي نقبها قارستق إبان السنوات الأولى من القرن العشرين<sup>(١٨١)</sup>. هذه الحفريات بلغ عنها بمستوى غير مكتمل لدرجة أنه من المستحيل أن يُصاغ إنطباع دقيق عن القبور ومحتوياتها. وقد ظل هناك حواراً معتبراً حول الترتيب السليم للتسلسل الزمني لمجموعات القبور المختلفة<sup>(١٨٢)</sup>. يبدو مع ذلك، أن بعضها احتوى فخاراً ملوناً لُفَ من مروى في حين احتوى بعض آخر فخار علوة يدوى الصنع وحده؛ بناءً على هذا يُستدل أن جبانات مروى يقع مداها الزمني بين أزمان مَرَوِيَّة وما بعد مَرَوِيَّة. إن مقدم فخار علوة، الذي ظهر أولاً فيما يسمى بالجبانة الوسطى، يفسره كيروان على أنه يتضمن وصول النوبا<sup>(١٨٣)</sup>. وحيث إنه لم يتم التبليغ عن أنواع الغرف أو مواقع الجنازات بأي تفصيل، مع ذلك، من غير الممكن أن يعرف ما إذا كان ظهور فخار علوة قد تم في نفس الألوان مع تغيرات أخرى في ممارسة الدفن.

جانباً عن القبور الكائنة في مروى، المدافن النكية الوحيدة في النوبة العليا التي أُلِغَ عنها بلاغاً كاملاً<sup>(١٨٤)</sup> مدفنان تليان عظيمان للغاية في تنقسي، بمنطقة نَبْحة. إن الموقع موصوف كما يلي من شيني:

هنالك بعض ١٧٠ مدفنًا نكياً بأحجام مختلفة في الحقل الرئيس، و٣٠ إلى ٤٠ أزيد منها مجموعة على مسافة قصيرة إلى الجنوب الشرقي. إن المدافن النكية كانها كلها مُنْبِدة من أرض راسبية غرينية؛ أما الشكل الخارجي فيبدو أصلاً على أنه مُغطى بطبقة من الحصباء. كثير منها له كذلك مسحة خشنة من الحجارة حول الحافة ويمكن تقسيم المدافن النكية، أساساً وفق الحجم، إلى ثلاثة شعب رئيسية:

(أ) مدافن عالية جداً (علو ٦ إلى ١٠ أمتار [٢٠ إلى ٣٢ قدماً]). هنالك ستة منها ... وهي كلها تبدو أصلاً أنها كانت قبابية، مع أن بعضها بات فاقد الشكل. إن عبيداً منها له قبور ثانوية، مُغطاه باكوام حجرية، فيما يظهر متأخرة زمناً، على الأرداف. هذه القبور العالية كانت إفتراضياً مدافن للزعماء الأكثر أهمية.

(ب) مدافن متوسطة الحجم (علو ٢ - ٤ أمتار [٦ - ١٢ قدماً]). واحد من هذه الشعبة مشيد بكسور الطوب الأحمر. كثير منها له فجوة صغيرة في المركز، ربما بسبب النهب ... أو لعلها انهيار غرفة القبر. في بعض الحالات، للفجوة أبعاد كبيرة لدرجة أنه ربما كانت وجهاً بئانياً. ليس هناك خط واضح المعالم على أساس الحجم بين هذه الشعبة والتي تليها.

(ج) مدافن منخفضة ومنخفضة للغاية. إن بعض القبور المنخفضة لها رؤوس منبسطة. تقدم صورةً جانبية مثل الصحن المقلوب لها دائماً قطر كبير بالنسبة إلى ارتفاعها. إن الوفير من القبور شديدة الانخفاض يبلغ حد ارتفاعات على الأرض من الصعب إدراكها، وعلامتها رقعة دائرية من الحصى. ليس لها مطلقاً فجوات في المركز<sup>(١٨٥)</sup>.

بما يكفي لإثارة الإهتمام، وُضِعَت جَبانة تنقسي عبر النيل مباشرةً من الجبانة الكوشية القديمة في الكرو (الفصل العاشر). هذا الوضع مجموعاً مع الحجم الإستثنائي لبعض قبور تنقسي النكية، قاد المنقبين إلى أملٍ لعلهم يلاقون بالصدفة مدافن ملكية في الأيام الأواخر مائلةً للمدافن في بلانة.

هذا الأمل، مع ذلك، لم تصبه خيبة كاملة. فالهيكل الفرعى تحت واحد من القبور الأكبر حجماً برهن على أنه حفرة كبيرة مربعة، في قاعها غاصت أربعة قبور مستطيلة عادية. إن ثلاثة منها كان ظاهراً أنه لم يستعمل أبداً. وكان الدفن في الثالث منتهياً بإتقان فلم يبق منه إلى القليل. نجا هدفن ثلثي ثان ذو اتساع عظيم من الذهب، لكن هيكله الفرعى لم يكن شيئاً يعدو قبراً عادياً جانبي المخبأ من النوع الشائع في كل من الثقافة المروية وثقافة بلانة. إشتغل على دفن ضيق لجنازة، تبدو لائش، مقرونة بأربع أواني من فخار علوة، وعدد من العقود، وخاتمي فضة<sup>(١٨٦)</sup>. في الكم والنوعية يشابه أثار هذا القبر لأقصى الحدود، بشكل سلبي، عدداً عظيماً من الجنازات العادية في النوبة السفلى .

إذا كانت قبور تنقسي مدافن لملوك أو زعماء، كما يُقترح بحجم المدافن الثكلى، فإن حكام النوبة العليا ما بعد مروى لا بد أنهم كانوا فقراء بحق. رغم هذا، هنالك مجموعة من مدافن ثكلى أكبر حجماً بجوار شندى، لم يتم تحقيقها بعد. إن المدافن الثكلى العظمى هنا تبلغ ١٠٠ إلى ١٢٠ قدماً في القطر، متشابهة في التشييد لمدافن تنقسي. أما أكبر خمسة منها فهى تقع بين مسورات قوسية الشكل محاطة بحيطان منخفضة، من حجر خشن - ملمحاً ما جرت ملاحظته بانتظام حتى ذلك الحد في أى مكان آخر. في كل حالة للمسور توجه شمالى - جنوبى، مع وضع المدفن الثكلى في الطرف الجنوبي<sup>(١٨٧)</sup>.

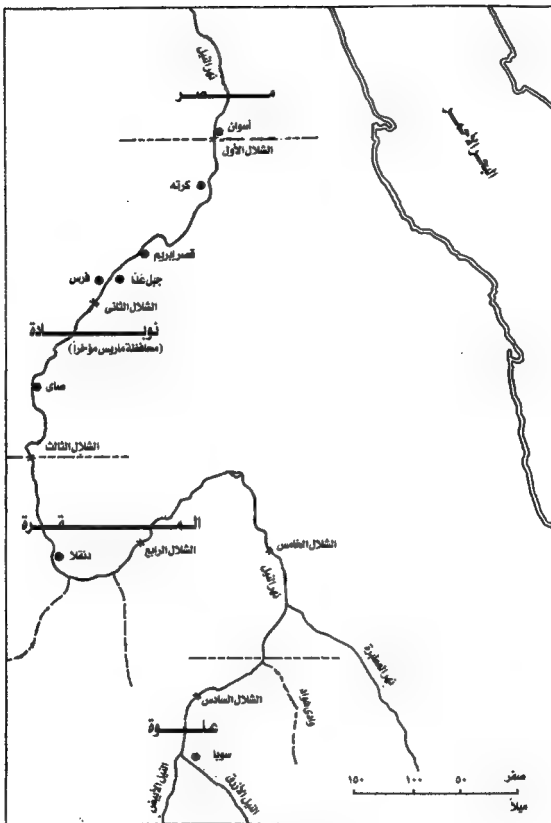
لا يخبر أياً من قبور تنقسي أو شندى بالضرورة عن القصة الكاملة للتطورات السياسية في الفترة ما بعد المروية. وعندما نهضت ملكية مسيحية في وسط السودان نحو نهاية القرن السادس، ما كانت عاصمتها (وهى فيما هو واضح مركز حضرى لا غير) قائمة بأى من الأماكن التى جرت مناقشتها آنفاً بخلاف سوبا، ليس بعيداً عن ملتقى النيلين الأزرق والأبيض (الشكل رقم ٦٩). هنا، ربما، يجدر بنا أن نبحث بالمثل عن مركز القوة للفترة السابقة مباشرة. وفي الوقت الراهن، تظل منطقة سوبا غير مستطلعة بدرجة عالية .

يبدو بئناً أن الممارسات الجنائزية لثقافة تنقسي، مثل ممارسات الثقافتين المروية والبلانية، لم تكن موحدة بالمرة. إن واحداً من إثنتين من المدافن الثكلى التى نقتبت في تنقسي إحتوى جنازة منشجرة الدفن، في حين تتراعى القبور في التشكيل الجنائزى الثانى (من شكلها) كأنها أعدت لجنازات ممتدة. عُثر على دفن تنقسي منحسر في عُشارة<sup>(١٨٨)</sup>، وفي مروى كانت الجنازات نوع تنقسي ممدودة وراقدة على أسرة، على خطى الممارسة الكوشية القديمة قدم الدهر<sup>(١٨٩)</sup>.

الهوية غير المميزة لمتاع قبور تنقسي تجعل من التاريخ الدقيق أمراً شبه مستحيل. إن بعض العقود التى وُجدت في تنقسي من نوع يعتبر تشخيصياً من أعراض فترة بلانة في الشمال، ولكنه بالطبع يؤرخ القبر الفردى الذى وُجدت فيه وحده<sup>(١٩٠)</sup>. فخار علوة، المنتج المميز الوحيد الذى عُثر عليه في قبور تنقسي، متساقط عن قرب مع تقليد الفخار اليدوى الخالد في السودان، لكنه جانباً عن حدوثه في المدافن الثكلى يكاد لا يعرف شئ عن زمان أو مكان صناعته. إنه يبين نسباً مقدراً مع بعض الأوانى التى لا تزال تصنع في وسط السودان اليوم<sup>(١٩١)</sup>.

بما أن الفخار اليدوى المروى لا يبدو موجوداً في نفس الزمان مع فخار علوة، ربما باستطاعتنا أن نأخذ آخر نهاية للفترة المروية كنقطة بعدية لثقافة تنقسي. وبدرجة نوعاً ما أقل ثقة، لكنها لا تنفك معتبرة الإحتمال، بمستطاعنا أن نغزو هذه الثقافة إلى مجئ النوبا كجماعة أقل حضارة. لا يمكننا، مع ذلك، أن ننشئ أى نوع من التاريخ لبداية ثقافة تنقسي ونهايتها على أساس المعرفة الراهنة. المدافن الثكلى، وفخار علوة، ولذاً الأمر، عادات الدفن الوثنية<sup>(٩)</sup> ربما بقيت حية لزمان تحدر إلى باطن ما ندعوه إسمياً بالفترة المسيحية في إناء وسط السودان .

(٩) بمعنى عبايتها إلهة أصناماً - المترجم.



شكل رقم ٦٩  
الممالك الثلاثة للنوبة المسيحية

## ملخص تفسيري

لقيت الأسرة الفرعونية وحضارتها الأخيرة في كوش حتفها في النهاية في القرن الرابع الميلادي. إن الظروف التي تكتنف إختفاهما النهائي غامضة، بيد أن إنكماش تجارة العالم وإغارات جماعات أقل حضارة من شرق النيل وغريه، وضغط المملكة الأكسومية في الحبشة ربما كانت جميعها عوامل مساهمة. يجمود أسرتها الحاكمة، بدا أن الإمبراطورية الكوشية تهاوت إلى مجموعة من الزعامات الصغيرة. إستحوذ رجال قبيلة النوبا من الغرب على أقسام واسعة من أراضي السهل المروي؛ وفي ظلهم عادت للوراء ثقافة النوبة العليا ومجتمعها إلى الأحوال البدائية للعصر القليل.

الإقتراح الوحيد بدولة وريثة لمُروى موجود في بلانة بالنوبة السفلى، فهنا، مجموعة من مدافن ملكية أقل حضارة وثراء تعطى الدليل على نظام ملكي قوى ثابر على البقاء من فوق أجيال عديدة. وبمعنى ما، عَدَّ ملوك بلانة بجلاء أنفسهم ورثَ الكوش، ذلك أنهم تبَنوا بعض الشعارات الملكية الكوشية. إلا أن دولتهم إفتقدت تماماً الأيدولوجية المعقدة وبناء السلطة المتمايز في أزمان نُبتية ومُروية. لقد كانت ملكية مطلقة تمثل بصورة أقرب إلفة عصر الأسرات الباكر.

أصول الملكية البلانية غير معلوم. إن الحكام ربما كانوا جماعة أقل حضارة محدثة الهجرة من الجنوب أو الجنوب الغربي، أقاموا حكمهم على نظرائهم النوبيادين المقيمين من قبل في النوبة السفلى. وربما كانت مساحة هيمنتهم صغيرة مبتدا الأمر، إذ أن المقاطعات النوبية الأقصى شمالاً سقطت تحت سيطرة رجال قبائل البلبيين من الصحراء الشرقية إبان إنسداد الستار على الفترة المُروية. إن قرناً أو ما يزيد عليه من العداوات المتقطعة أنهى بالإتزام والإخضاع النهائي للبلبيين، وأصبحت مملكة بلانة، التي عُرفت مؤخراً بنوباديا، القوة للسياسية الوحيدة في النوبة السفلى. وقت تحولها إلى المسيحية، في منتصف القرن السادس، إمتدت تخومها من فيلة إلى أرض عبري - دلقو النهرية .

ثقافة النوبة السفلى، بين الأراضي التي سادها ملوك بلانة وربما كذلك ما وراها، كانت مُركباً من متبقيات مُروية وتأثيرات بيزنطية مصرية. رغمًا عن ذلك، إستغنى النوبياديون القبليون البسطاء عن الكتابة، والفن، والمعمار الصروحي، وغيره من فنون كوش وبيزنطية ذوات المستوى الرفيع. كان سكانهم، أيضاً، أصغر عدداً وأشد شتاتاً من الأزمان الأولى، وتعطى قبورهم بُنيةً على ارتقاء عام في الرخاء. أما المراكز الحضرية للأزمان المُروية فيبدو أنها اجتازت نكوصاً جزئياً، واختفت بالفعل الطبقة الوسطى المحصورة. إن التقسيم الإجتماعي الوحيد الذي يمكننا ملاحظته في فترة بلانة هو التقسيم القديم بين الحكام والمحكومين .

محرومةً من الفنون الأسمى للحضارة الكوشية، في حين أنها احتفظت بالفنون الأقل حضارة (محببة لها أحياناً)، تقدم ثقافة بلانة متشابهات عصبية الأسرار لثقافة كريمة التي سبقتها ب ٢,٠٠٠ عام سالفة. كلاهما ثقافات إنتقالية، تدل بالتوالي على بداية عصر حكم الأسرات ونهايته في النوبة. قد يُظهر ذلك كأنما دارت حضارة الأسرات الحاكمة في السودان دورة كاملة، إنتهت حيثما بدأت (١٩٣)، خلا أن النوبة ما كانت في القرن السادس الميلادي في حالة الرُجعي إلى عصر قبلي. بدلاً عن ذلك، هيأت الثقافة أزمان بلانة المُبسطة أبنية للسلف سبيلاً لبداية إيدولوجية جديدة، ولعصر النوبة في العصور الوسطى.

## **الجزء الثالث**

### **حضارات القرون الوسطى**



## الفصل الرابع عشر

### بداية جديدة

### تصوير النبوة

الشرق الأدنى، مهد الحضارات الأولى، أنجب كذلك الأيدولوجيات الدينية العظيمة في العصور الوسطى. إلا أن ظروف الإيجاد كانت مختلفة إختلافاً شحيح الأعماق - بل إنها متعارضة تعارضاً مباشراً لا رجعة فيه - في الحالتين. ما نهضت الإيمانيات الموحاة للمسيحية والإسلام وريثة تعاليم دينية بالية لمصر ودول الحوض، ولكنها في مناهضة مضادة لها. كلمات كروير، المكتوبة على وجه التحديد لتصف ظهور الإسلام، موصولة الأثر بمطلع إنتشار المسيحية على حدر سواء :

إنبعث الإسلام في عين منطقة ذلك الأتون الأول لكل الحضارات السامية - في الأرض الشرق أدنية. لثورة العصر الحجري الحديث، لأول زراعة ومن وملوك وحروف. لكنه نهض في زمن كانت فيه البواعث الثقافية البتانة قد رحلت منذ وقت طويل خارج ذلك الأتون، وقد بدأت تتحرك وراء اليونان بل وراء فارس؛ غير أنه زمناً كان لا يزال فيه الشرق الأدنى مشدراً بهشيم مفروض عنوة وغير متلائم إفتراضياً من الحضارة الإغريقية والإيرانية - هشياً كان قد أضحي منذ بعد طويل أشد ثقلًا ومواتاً مع كل جيل ما عاد هناك فيما هو ظاهر أي أمل ... لحضارة عظيمة جديدة خلاقة بحق ... كي تنبعث في هذا الشرق الأدنى، بين مجتمعات مصر، وسوريا، أو ما بين النهرين المتهرئة، المتعبة، والمسهوكة. فلو وقع مثل ذلك لكان من شأنه، فيما يجرى عليه القول، أن يحرق ثانية رماذ ذلك الماضى. على أنه كانت هناك سائحة حضارة مصوبة، قادرة على استعادة الخطى .. تلطيح جانباً بالنير الثقافى الدخيل وتنشئ مجتمعه الحر - دونما فن، دونما استطلاع معرفى أو مبالغة فكرية، دونما كثير من التطلعات المعادة في الحضارات - ولكنها مشبوبة في ذاتيتها الجديدة ...<sup>(١)</sup>.

لثلاثة آلاف عام لحقت أسرة بأسرة وإمبراطورية بإمبراطورية، كلاً يتقبل - أو يستولى على - التفويض الإلهى من سلفه؛ كل يسع ليبنى ويتوسع من فوق إرث الماضى، حتى فُقدت في آخر المطاف مصادر التقليد التى عاش فيها الناس وماتوا في بُعد القدم. إن "الديساتير" التى حددت العلاقات بين الناس والتهتم كانت محفوظة في نصوص قديمة ذات معان نصف منسية وأصل منسى تماماً؛ واعتمد الملوك والأباطرة بطرح الرُحى نفسه على معلمين أبحاراً وكهاناً كان يوسعهم إكتشاف مصادر جبروتهم وتأييلها .

عندما شارفت الحضارات القديمة على منتهاها، أصبح قانتها الروحانيون أكثر عناءاً وأشد إكتراثاً بمساعى إسترجاع الماضى المفقود. في مصر، قلد آخر فراغة مستقلين في الفترة الضاربة الأساليب الأدبية والفنية للدولة القديمة بوعى. وفى بلاد ما بين النهرين، أمر إمبراطور شلدونى بحفر معبد لأسلافه كان قد طال عليه النسيان، أملاً أن يستعيد بعض المعرفة عن طرائقهم. وفى فلسطين، حثَّ خُلف من الأنبياء من أشعيا إلى ياقول على العودة إلى الشرائع الحازمة على بساطتها في الأزمان الرعوية الماضيه. هذه الحركات السلفية كانت كلها، بشكل أو آخر، محاولات للتجديد الدينى، بيد أنها في النهاية عانت المصير المحتوم لإتبعات الطابع القومى المتعصب. إن رموز الماضى، وإن يمكن إسترجاعها، فقدت معناها أنفاً في لجة تعقيدات العصر السالف .

فى كل مكان في العالم الماثور، وفوق كل شئ في الشرق الأدنى، ترك تاكل الأيدولوجيات القديمة فراغاً رمزياً وروحياً ما كان يوسع الدنيوية الهلينية أن تملأه. أضجت النتيجة إزدهاراً لأديانات تظهيرية لملا صفوى، في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية وما وراء حدودها. لقد منحوا تبسيطاً

ثورياً للتعاليم والطقوس، على أنها تركزت بأجمعها تقريباً في تقديس لبعض عبادة مالوفة أزماناً سالفة: إيزيس أو ميثرا أو أحد أرباب المعبد الأولمبي (\*) .

كانت المسيحية منذ البداية تعليماً أكثر جذرية، فهي بمفردها من بين ديانات القدم الطائفية عرضت قطعاً كاملاً عن الماضي. إن إلهاً جديداً غير معروف من قبل (عدا لليهود)، غير ممسوس بفساد وتفسخ الأولمبيين، تحدث. وكانت رسالته مُبلّغة من خلال المؤسسة الكهنوتية لكنها عبر ناطق شخصي من بين وسط البروليتاريا، عبارة محكمة في لغة يومية لا يُجادل معناها. ولهؤلاء الذين كان بمقدورهم أن يقبلوا الرسالة، أصبحت لثلاثة آلاف عام من التقليد المتراكم غير ممكنة التطبيق. لقد جرى غسلها، رمزياً، في شعيرة التعميد البسيطة .

لابد أن يد الماضي الميتة كان وزنها ثقيلاً غالب الثقل على بروليتاريي الحضر في الإمبراطورية الرومانية، ذلك أنه اكتسبت المسيحية اتباعها الأوائل بينهم. أما الفلاحون، وهم بحكم الموروث لا يابهون بالتغيرات الأيدولوجية الأرضي، فقد وصلوا إشباع رضائهم بطقوس دهماء وشية لقرون قادمة (٢). كانت الطبقات الثمينة معادية بما هو مُستنتج في بداية الأمر لتعاليم إجتثاث بدا أنها تهاجم الموروث المقام في كل ذرة منه، غير أنه بين ظهراني وقت قصير أصبحوا هم كذلك على وعي بالإمكانات التحررية للشرعة الجديدة. فإذا كانت المسيحية قد وهبت الفقير فرصة ليهرب من نوء الماضي، فإنها منحت الغنى ذا لباس سائحةً ليعيد ضم قوته ومكانته على أساس جديد أوسع شمولاً. في مدى ثلاثة قرون من تأسيسها كانت الشرعة الجديدة مقبولة ومحتملة في كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وفي مجئ أربعة قرون كانت ديانة الدولة الرسمية للإمبراطورية نفسها. إن الإسلام وحده، وسط حركات التاريخ الثورية، تمتع في وقت قصير بنجاح مقارن كهذا النجاح.

لعل في الإمكان المجادلة بأن المسيحية، إذا تمت إقامتها ديانةً رسمية للدولة في روما وبيزنطة، لم تعد حركةً ثورية. إلا أن هذا ينسحب على معنى سياسي ضيق وحسب. فلئن لم تعد الشرعة الجديدة ذات إجتثاث سياسي، فإن قوتها الثورية في المحيط الأيدولوجي كانت، كيفما اتفق الأمر، مضاعفةً بمظاهرة الدولة الرومانية لها. إن ذلك التدمير الذي أوقع بصروح وشرائع مُهجلة زماناً كموضوع لسياسة بيزنطية متعددة تجاوز ببُعده أي تخريب وإنتهاب الحقته بها خشود ثورية. بالنظر إلى خرائب حضارات الشرق الأدنى السابقة زماناً، يُشده الواحد مرة وراء مرة بمدى التدمير وإزالة الملامح الخارجية الذي ضربه المسيحيون والمسلمون الأوائل على الصروح التي بقيت على قيد الحياة أحياناً لألاف السنين، إلى أن وصلت أزمانهم. وخلافاً لأي من أسلافها، لم تكن للإيمانيات، الجديدة، الملتزمة بالشرعة والمناهج، حاجةً لأن تمتلك أو تحافظ على الرموز الأيدولوجية للماضي. أطيح بالمعايير المعمارية، والرموز الفنية، والأدبية، بما حملت سواء بسواء .

حالما أضحت الشرعية الرسمية لروما وبيزنطة، بات انتشار المسيحية لتعم بروليتاريتهما الخارجية المتطلعة لإرتياد أفاقها أمراً بلا مهرب. تسربت إلى النوبة في ظل ملكية بلانة معتقدات الدهماء المسيحية من قبل، وكانت تُسمى تذوقاً للفرن البيزنطي، كما شاهدنا في الفصل الثالث عشر . فلما تم تقييم الإيمان الجديد بصورة رسمية من طرف الميشرين في منتصف القرن السادس، بدا أنه كان مُقبلاً بسرعة من الحكام ورعاياهم على السواء من أسوان إلى ملتقى النيلين. بالرغم من أن كلاً من الدوافع ومن نجاح المؤمنين المتشددین الأوائل يجوز أن يُعزى جزئياً إلى اعتبارات سياسية (انظر أدناه)، فإنه بمعنى أوسع يعكس الإنتصار السريع للمسيحية جنوبي أسوان فيما هو محتمل أن يكون رغبة من النوبيين في اللحاق بالعالم المتحضر .

صاغ مقدمة المسيحية تحولاً أيدولوجياً في النوبة ليس له قرين منذ أن قدمت الحضارة نفسها. إن أثرها كان الأعظم في كل شيء لأنه، كما يرقب كراوفوت " كانت النوبة واحدة من بلدان العالم

(\*) المعبد الأولمبي كان في اعتقاد الإغريق للقدامي مريضاً جامعاً لكل الآلهة - المترجم.



القديم القليلة التي بُنيت المسيحية دون أن تكون قد عُركت تحت نظام القانون الروماني<sup>(٣)</sup>. لقد تاكل جوى الأديان القديمة في عالم البحر الأبيض المتوسط الدنيوية الهلينية - الرومانية قبل أن تطيح بها المسيحية، سوى أنه في الترخوم النائية للحضارة لم يتبدل "عصر عقلي" ماثور بين عصور الإيمان القديمة والوسطى. ما جات المسيحية للنوبة رد فعل على دنيوية ماثورة أو كشرعة ترغمها عليها إمبراطورية مجاهدة جديدة، لكنها جات إحلالاً دعت إليه الحاجة لتقاليد الفراعنة باطلة المفعول. كذا في كافة إحتياجات التاريخ النبوي لا يمكننا أن نُجلى إنكساراً أشد حدة في إستمرارية التقليد الموروث من ذلك الذي يفصل عصر حكم الأسرات من العصر الوسطى .

اثر المسيحية التحولي واضح في وجوه عديدة للحضارة النوبية في العصور الوسطى. والأقرب حالية وظهوراً أن المدفن الصُخري الملكي، الذي ظل ٢.٥٠٠ عاماً التعبير الأعلى للسلطة البشرية المقدسة، توقف بليل عن أن يكون رمزاً ذا معنى. وفي حين أننا وضعنا أيدينا على قبور كافية تؤثت تفسيراً مبرراً لكل ملك نوبي من كشتا إلى سلكو، لم نجد مكان الدفن لحاكم واحد إبان الفترات المسيحية والإسلامية. والحصيلة لغز تاريخي مثير للفرابة - فإننا نعلم عن ملوك نوبيين في الفترات ما قبل المسيحية بصفة رئيسة من خلال صروحهم الجنائزية، ولا يكون لدينا دائماً مدون آخر عن وجودهم، في حين أنه في الفترة الوسطى تأتي معرفتنا الوحيدة عن الملوك من مصادر وثائقية، ولا نستطيع أن نعثر على بُينة أثرية لهم .

إن الملك الذي اشتهر مجده في فن، ومعمار، وأدب العصور الوسطى كان واحداً سماوياً، ما كان دنيوياً. وكما نعلم من المثال المناظر في أوروبا الغربية، لا يدل مثل هذا التطور بالضرورة على أي تقليل لسلطة الحاكم الزائل. لكنه، مع ذلك، يتضمن أنه لم يعد إلهاً. بالرغم من أن حكمه ربما يظل مُكرماً بهالة من القداسة. لقد كان عيسى المسيح موصوفاً بجلاء لا مكان فيه لسؤال، بإسمه، كأخر فرد توحد فيه إنسان وإله، فكان من بعده فصل الملكوت الإنساني والقدسي نهائياً وإجمالاً. ذلك الفصل هو الذي جعل من التمايز الأيدولوجي بين الكنيسة والدولة والذي أضحي الإنجاز المتزوج للعصور الوسطى أمراً ممكناً .

الفصل ما بين الكنيسة والدولة له أثر المُحرر عليهما. لقد توقفت الحكمة والقانون عن أن يكونا حقاً خالصاً للآلهة، منذئذ صار الناس أحراراً في خوض التجارب مع الأشكال السياسية والتشريعية دونما انتظار لتنزيل مقدس أو تعرض لمخاطر غضب إلهي. أفسح واهبو القانون القدماء الطريق لشُراع القانون في القرون الوسطى. وأصلوا التوسل لإستسقاء مباركة السماء، لكنهم لم يعودوا طالبين قداسة شخصية أو وحيأ مباشراً ونتيجة لذلك ترعرع جسداً من قانون وضعى دنيوى من صنع الإنسان جنباً إلى جنب القانون الكنسى لأزمان أولى. لقد تلقى أصوله من الدساتير الدنيوية للإغريق، وربما أنه اخذها على وجه الدقة من قانون دات لداريوس الأعظم<sup>(٤)</sup>، إلا أن تطوره الكامل كان عليه أن ينتظر الطلاق الرسمي بين الحكم والدين. متى حدث ذلك، أصبح تقنين القانون الدنيوى وتطوير قضاء وضعى مستقل واحداً من المشاغل الأسيرة لحضارة العصور الوسطى .

في نوبة العصور الوسطى والت الحكومة القيام بوظائفها بقدر متسع دونما أى استعانة بمعينات كتابية مثلما كانت عليه في كل الأزمان. حصاد ذلك هو أن النظرة القانونية التي هى سمة شديدة التمييز للغرب في العصور الوسطى، وبشكل مماثل في العالم الإسلامى، أصبحت أقل صفاءً للحيان في بلاد النيل. على أنه يمكن أن يُرى بروزاً مفهوماً لقانون من صنع الإنسان في المقارنة بين وثيقتين إنصُدرتا إلينا، واحدة من نهاية العهد القديم والثانية من باكورة العصور الوسطى. هاتان هما معاهدة فيلة النافذة في ٤٥٣م (وقد جرى وصفها في الفصل الثالث عشر)، والمعاهدة المسماة بالبط التي أعلنت في دنقلا بعد مائتى عام بالضبط .

إن كلاً من معاهدة فيلة ومعاهدة دنقلا قُصد منهما حكم العلاقات ما بين النوبيين وجيرانهم

المصريين. جدير بالذكر، مع هذا، أن النوبيين في فيلة كانوا راغبين بداية الأمر في إبرام إتفاقية لتسرى طوال حياة القنصل الروماني العام الذى أملى شروطها وكفى<sup>(٥)</sup>. في هذا كانوا مهتدين كأساس بقاعدة القدم القانونية، أن عمل قانون كان دائرة مطلقة للأهلة لا يخضع لتغيير. إن المعاهدات والمراسيم ليست لها قداسة في ذاتها؛ إنها تستمد أى قداسة تمتلكها كيفما كان حالها من مُعلنها. لذا فإن القوانين الدائمة الوحيدة كانت تلك التى أنزلت مباشرة من الآلهة الخالدة؛ بينما أن نفاذ كل القرارات الملزمة الأخرى انتهى بنهاية مؤلفيها. بُدِّد أنه في نقلا بعد مائتى عام لاحقة ظل النوبيون مُتَّفِذين معاهدة لم تتخط حياة من صاغوا مواردها بخمسة قرون فحسب، لكنّها حدّدت تحديداً بعيداً مصير مجرى العلاقات الخارجية النوبية في العصور الوسطى. (سوف تناقش بتفصيل يعظم عن هذا كثيراً بأذناه؛ انظر "النوبة المسيحية والعالم الإسلامى"). إن مُبرمى البقطة ادّعى التفويض الإلهي المعتاد، لكنهم لم يدّعوا قداسة شخصية أو تنزيلاً مباشراً. وعلي ذلك، فقد تم قبول حكم الإنسان على الأقل من حيث المبدأ في النيل .

حادثة صغيرة نسبياً في القرن التاسع كان لها معقبات تاريخية كبيرة توفر دليلاً إضافياً على نفوذ القانون الديني على عقلية النوبيين. لقد باع بعض النوبيين في ضاحية أسوان أراضيهم إلى مشترين مصريين من المسلمين، في خرق لكل من إتفاقية البقطة والقاعدة القانونية السائدة في القرون الوسطى التى تُفَتّي بأن كل الأرض ملك للتاج فلا يمكن تحويلها إلا بِخُتم الملك. عُبر في النوبة عن هذا المبدأ بفرضية قانونية هي أن كل رعايا الملك كانوا عبيداً له وكيفما قُضى الأمر، فإن الملك النوبى في القرن التاسع لم يُجَرّد هي المشترين من مشتراهم ببساطة ويعاقب بانعى الأرض قرب أسوان؛ بدلا عن ذلك رفع استئنافاً للخليفة العباسى للمساعدة في استعادة ملكيته. أرجع الخليفة الأمر إلى قاض إسلامى، حكم بأنه وفقاً لمبادئ القانون الإسلامى لا يمكن للنوبيين أن يُعدّوا قانوناً عبيداً لملكهم، لذلك فإن البيع نافذ. وإلى الحد الذى علمناه، لم يتحدّ الحاكم النوبى أو خلفته هذا القانون<sup>(٦)</sup>.

تنبئ تصرفات الملك النوبى عن ضعف سياسى أقوى من كونها احتراماً خارق العادة للقانون. وما يثير الإهتمام ويكس الحقائق، مع هذا، أن قبول قرار القاضى الإسلامى في هذه الحالة المحددة ألزم الملك بأن يقبل إضافة إلى ذلك السابقة القانونية التى أنشأها القرار. مُذاك صارت النوبة السفلى مفتوحة للإستيطان أمام المسلمين - وهي حالة تم منعها في تحديد بمقتضى معاهدة البقطة - وأصبح من الضروري أن يُضفى وضعاً سياسياً خاصاً على المقاطعة الشمالية. هذا التطور سوف يجري إعتباره بشكل أكثر إستكمالاً في الفصل الخامس عشر؛ إنه مُقتطف هنا بسبب الضوء الذى يلقيه على العقلية النوبية في العصور الوسطى .

لئن كان الفصل ما بين الكنيسة والدولة قد حرّر الحكم من تقييدات الفُرْمَت الدينى، فإنه حرّر الدين بالمثل من ربة التوث بالتكالب المتهاات على خدمة حكام دنيويين يسعون للتمتع بمذااتهم وشهواتهم الخاصة. وبذا مع نمو الكنيسة والدولة جانباً عن بعضهما بعضاً، شبت الكنيسة ومجتمع العبّاد في قرب معاً. إن هذا القيام بين جُلَى في البقايا الأثرية للنوبة في العصور الوسطى. فبينما كانت معابد العصر الأسرى موضوعة في بعض الأحيان بعيداً عن مراكز السكان، موضع بلوغ في أى حالة لنخبة من الصفوة ليس إلا، كان موضع الكنائس مبسوطاً في أو إلى جانب كل قرية مُهمّة. الظاهر بشكل بارز أيضاً، أن الكنائس تم توسيعها، أو أن بنايات جديدة إضطلع بها، ليس لتمجيد ملوك أو أساقفة لكن لتسكين تجمعات دينية نامية. حاصل هذا أن العدد الإجمالى لكتنائس نوبية لاتزال باقية (أكثر من ١٢٠ في النوبة السفلى ووطن الحجر وحدهما)<sup>(٧)</sup> أكبر من ضعف عدد الهياكل الدينية في كل الأزمان الأولى مجتمعة .

الطبيعة الخارقة للعادة للإيمان المسيحى صاغت تحولاً إضافياً واحداً في الحياة النوبية.

فلمدى ثلاثة آلاف عام وما يزيد لم يذهب رجل أو امرأة ممن يحترمون أنفسهم إلى الدار الآخرة غير مصطحبين بأفضل ما عنده أو عندها من ممتلكات دنيوية. بمجيئ المسيحية إختفى ذلك الإعتقاد وممارسته بليل، بالرغم من أنه كان سيُبحث على نطاق صغير في دفن الأساقفة وغيرهم من اعيان الكنيسة. بوجه عام، مع ذلك، تشتهر جنائز الفترات المسيحية والإسلامية ببساطتها وإفتقارها للقرابين. إن المبالغة معروضة، بئى حال ما وجدت عليه، في بناء الهياكل الفوقية للقبور، لكن أكبرها وأشدّها تفصيلاً يعد متواضعاً حينما يقارن بالأهرامات والمدافن الثكية لعصور حُلت من قبل. وإذا كان إعتناق المعتقدات المسيحية قد فعل أى شئ آخر، لهذا السبب، فهو أنه أرسى نهايةً لصناعة نهج القبور الخفية الشريفة، التى لقرون جرى توظيفها كترتيبٍ خُشن لنظام إعادة التوزيع في النوبة (قارن الفصل السادس).

لا يجب أن يُفترض أن إعتناق أيولوجية جديدة جذرياً له أثار غير مباشرة هامة في مسرى الحياة النوبية. بينة الإتساق الثقافى بين فترات بلانة المسيحية أقوى في المحيط المادى عنها باى نقطة إنتقالٍ أخرى في التاريخ النوبى. لقد وأصلت مدن وقرى مجرى نمائها المنظم (أو غير المنظم أحياناً)، مع أنه في كل حالة بالتقريب أبرزت كنيسة مظهرها عاجلاً أم آجلاً على طول جانبي المساكن. تبدو الحياة الإقتصادية والإجتماعية غير متأثرة بالمة الجديدة، بقدر متساو، لم تُس الفنون مباشرة بآثارها. على أنه مهما سار الحال عليه، فقد كان كل تعبير رمزى للثقافة النوبية بحلول أعلى العصور الوسطى يعكس اشتغالاً بكمٍ ورموزٍ مختلفة جذرياً عن تلك التى شَخَصت ملامح الحضارة في عصر الأسرات .

### تحول النوبيين

كانت مصر واحدة من أوائل منابت المسيحية. وطبقاً للرواية أسس الكنيسة المصرية الرسول مرقس، الذى كان يعظ في الإسكندرية في الجزء الأخير من القرن الأول. وبينما لا توجد بينة مُخرصة لتؤيد هذا النبا المتناقل جيلاً عن جيل، كانت المجتمعات المسيحية بالتأكيد تُنوع في القرن الثانى ليس بالإسكندرية وحدها إنما في الأرياف المحددة بها <sup>(٨)</sup>. كانت مصر بحق واحدة من المحافظات الرومانية القليلة التى تجذّر الإيمان الجديد بها وسط الفلاحين بما يكاد يماثل تجذره وسط سكان المدن <sup>(٩)</sup>. وكان على الإسكندرية نفسها أن تنجب عدداً غير معتاد من علماء اللاهوت وأطباء الكنيسة الأوائل، بينهم كلمنت، وأرقين، والقديس أنثيسوس، والقديس سيريل .

وعلى الرغم من نجاحاتها المرموقة، كانت الكنيسة المصرية مُضطربة منذ البداية بحركات إرتدادية وإنفصالية. إن معظمها تطور إسمياً من فوق مسائل لاهوتية تصعب على الإدراك، لكنها في قاع الأمر كانت متأصلة دائماً في شعور متعمق معاد للإغريق يتقاسمه أغلب السكان المصريين الأصليين <sup>(١٠)</sup>. تضاعفت حدة المشكلة بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية لبيزنطة، عند ذاك مأل الشعور القومى في مصر باستمرار ليؤثّق صلته بالحركات الدينية الانفصالية. "لذا كان طبيعياً" يقول بيلُ إنه عندما كانت القسطنطينية ... مرتدةً كما كانت تحت الإمبراطور الأريوسى <sup>(١١)</sup> قسطنطين، كان على مصر أن تكون كاثوليكية؛ وعندما كانت القسطنطينية كاثوليكية، كان على مصر أن تكون مرتدةً <sup>(١٢)</sup>.

تصاعد الشعور المعادى لبيزنطة في المحافظات الشرقية للإمبراطورية إلى ذروة في المجادلة الخليقيديونية في القرن الخامس الميلادى. كانت هذه بالإسم مناظرة لاهوتية حول ما إذا كان ليسى

(٨) "نسبةً إلى أريوس وتظهره في اللاهوت المسيحي خاصةً أن ذات الإبن ليست من نفس الوهية الخالق، ولكنه مخلوق كوكيل لنطق العالم". نحو ما جاء في قاموس ويستر - المترجم.

طبيعتان إنسانية إلهية منفصلتان أم ما إذا كانت صفاته الإنسانية والإلهية مُطعمة في طبيعة واحدة. عملياً، أذابت المناظرة نفسها إلى صراع شيعي بين عناصر هيلينية والعناصر المعادية لها بين الكنيسة. أيد القساوسة الإغريق بوجه عام، في القسطنطينية وكافة أنحاء المحافظات الشرقية، الطبيعة الثنائية أو المذهب الملكاني، الذي يُنسب إلى عيسى طبيعتين منفصلتين. واصطف في مواجهتهم القسس من أبناء سوريا، وأرمينيا، ومصر، الذين اتَّبَعُوا الطبيعة الوندانية أو مذهب اليعقوبية، متمسكين بأن عيسى كانت له طبيعة واحدة فحسب .

حكم المجلس الخلقيدوني في ٤٥١م بأن "المسيح من نفس الوجود الألوهي مع أبيه فيما يتعلق بطبيعته القدسية، ومن نفس الوجود معنا فيما يتعلق بإنسانيته"، وأنه "جُعِلَ معلوماً لنا في طبيعتين" (١٢). لهذا تم حل المسألة رسمياً في صالِح الملكانيين وضُمَّت جماعة الوندانيين إلى القائمة الطويلة من المذاهب المحكوم عليها بالفسق. أيّا كان ذلك، لم تُقبل القرارات الخلقيدونية أبداً من أغلبية المسيحيين من أبناء المحافظات الشرقية. وكما يتأمل شور "إن مثابرة المرتدين (القائلين بأن عيسى له طبيعة واحدة) على البقاء يمكن شرحها فقط كتعبير عن الإستهياء السياسي والحواف القومية من ناحية المحافظات، أثّرت رياحه بمصر في ذكرى ضياع السبق من كرسي أسقفية الإسكندرية (مدينة الإسكندر الأكبر) لأسقفية القسطنطينية ... ما كانت فكرة توحيد طبيعة المسيح ألوهياً وإنسانياً في مبدأ الأمر أكثر من مُطية، أوجدت على غموض لاهوتي لتبرير إنفصالاً مثلاً من قبل" (١٣). لقرنين من بعد خلقيدون كان هنالك تنافس نشط وغنيّف بعض الأحيان للسيطرة على مناصب الكنيسة وممتلكاتها في مصر وسوريا، على نحو ما كان جارياً هناك في أوروبا الشمالية إبان حروب الإصلاح. ما كان أيّا من المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ألوهياً وإنسانياً من (اليعقوبيين) أو المؤمنين بالطبيعتين من (الملكانيين) قادراً في النهاية على أن يفوز باليد العليا، وفي عاقبة الأمر تركت صراعاتهما وعداوتهما المتبادلة المحافظات الشرقية فريسة سهلة للفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي .

في مصر القرن السادس وفقاً لـ هـ. أى. بِيْل :

... الكاثوليك أو حزب الملكانيين، معتمدين على موازنة الحكومة الإمبريالية ومن ثم نهياً لإعراض أغلب الناس، ما تمتعوا إلا يسيراً من الرفعة وما أمروا إلا مألّ قليلاً. أما الوندويون أو اليعقوبيون، يُشايِعهم الرهبان الجهلاء، الذين كانوا مُعادين للثقافة اليونانية بكل أشكالها، فقد كانوا عاجزين تماماً عن القيام بأي مساهمة هامة لفكر العصر. هكذا فإن مصر، التي كانت عاصمتها، الإسكندرية، في القرنين الثاني والثالث كُرسياً للمدرسة الشهيرة لتعليم المسيحيين الجدد قبل نُكُل عضويتهم بالكنيسة بل إنها بنفس القدر أخرجت من أنثسيوس في القرن الرابع شخصاً رئيساً في التاريخ الكنسي، باتت تُسمّى أسقفياً معزولاً (١٤).

في مواجهة هذه الخلفية من تناحر الملل، وربما بمستوى أكبر من ذلك بسببها، اضطلع القيام بتحويل النوبة إلى المسيحية في القرن السادس. احتقل ببدء المسعى الإمبراطور البيزنطي العظيم جستنيان كجزء من سياسة عامة لنشر الإنجيل وراء التخوم الإمبريالية. "إن عهد جستنيان موسوم ليس بمسعى مفصل لإبخال عديد من الشعوب الوثنية على حدود الإمبراطورية بين نيافة الكنيسة وحسب - حركة مؤبّدة، بالتالي، إلى توسيع حدود الإمبراطورية المسيحية - إنما إضافةً إلى ذلك بمحاولة جمة النشاط لمسح آخر أثرٍ باقٍ للديانات القديمة من ظهر الأرض" (١٥).

كانت أول حركة لجستنيان في مصر هي أن يأمر بالإغلاق النهائي لمعبد إيزيس في فيلة، وإزاحة تماثله الوثنية إلى القسطنطينية (١٦). بعد وقت قصير أُعيد تكريس المعبد كنيسةً للقيس إستيفان (١٧). كما رأينا في الفصل الثالث عشر؛ فإن محاولة مماتلة من قبل قرن مضى استتفرت النوبيين للتدخل المسلح، منتهيةً إلى معاهدة فيلة التي كُفّل بمقتضاها حق الجنوبيين في العبادة

كوثنيين في معبد إيزيس. إن المدى الذي تقدمته العاطفة المسيحية وسط النوبيين خلال القرن التالي ربما يحكم عليه من حقيقة أن الإغلاق النهائي لمعبد إيزيس، في وقت ما حوالي ٥٤٠م، جرى قبله فيما يبدو دونما معارضة (١٨).

إغلاق المعبد في فيلة كان متبعاً، إن لم يكن على قدم المساواة مسبقاً درجة خفيفة، بنشاط تبشيري أشد حالياً ورايحية وسط النوبيين لجمعهم مسيحيين. إن العروض التي لا تزال باقية لبعثات التبشيرية الأولى إلى النوبة، والتي تم حفظها في عدد من التواريخ الكنسية، ما هي بصفافية على إطلاقها أو متناسقة على التمام بالنسبة لمجرى الأحداث، لكنها تتفق بأجمعها في تقرير أو تضمين ما مفاده أن تحول الأقوام الجنوبية - حكاًماً ورعايا على السواء - كان مكتملاً بنهاية القرن السادس. لعلنا نتعطف نحو صرف هذه الإدعاءات بإعتبارها تهويلات متدنية لولا البُنية الأثرية في الجبانات النوبية، التي بإمكاننا أن نستجلي بها إختفاءً سريعاً يكاد أن يكون كاملاً لممارسات الدفن الوثني في القرن السادس المتأخر .

أفضل وأوفر تقرير مفصل عن النشاط التبشيري الأولى في النوبة هو تقرير الأسقف المعاصر، يوحنا الأفسوسى (٩)، طبقاً لسرده لم يجرى الحافز على تحويل النوبيين من جستنيان ولكنه جاء من زيجته المبهرجة ذات النفوذ ثيودورا. يؤكد سرد الأسقف يوحنا، كما أوجز صياغته جاد الله، النص الآتى:

كان جوليان، وهو قس مقتدر (كان في السابق صاحباً، يرافق ثيودوسيوس، بطريرك الإسكندرية القبطي، عندما كان في المنفى بالقسطنطينية)، ممثلثاً برغبةٍ عارمةٍ ليُنصر النوبيين، سكان نوباديا. نقل رغبته للإمبراطورة ثيودورا، النصير الأعظم للطائفة اليعقوبية التي تنادى بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح في عهد جستنيان. تقبلت ثيودورا المشروع المقترح بحماس مُستعَرٍ وطلبت من جستنيان أن يرسل جوليان كمبشر لنوباديا؛ لكن الإمبراطور الذي كان يصون مراسيم خليفته، لم يكن ليقر يعقوبياً من أنصار الطبيعة الواحدة كوكيل للتصميم؛ وهكذا أرسلت بعثة (ملكانية) منافسة بإسم جستنيان. بالرغم من ذلك، أحبطت ثيودورا عمل هذه البعثة بإصرارها بالوعيد أن حاكم مصر العليا البيزنطى سيكون عليه أن يعبس بعثة الملكانيين حتى يبلغ جوليان محله المقصود. وصل جوليان النوبة عام ٥٤٢م تقريباً ورحب به في شغف وإعجاب النوبياديين الذين دانوا بالله المسيحيين: قائلين "إنه هو الإله الحقيقي وليس هناك آخر جانبه". إن العبارة تُبين أنه كانت هناك إستجابة جاهزة؛ أما كلماتها فربما تعكس بوضوح قطيعة ما بين أصحاب الطبيعة الواحدة والخلقيدونيين (الثُلاثين) فيما يختص بطبيعة المسيح. وقد علمهم جوليان المسيحية وحذّرهم من الخلقيدونيين بحيث أنه عندما بلغت البعثة الإمبريالية المضادة نوباديا لم تتجرأ أن تنجح .

ثم أن جوليان عاد إلى القسطنطينية بعد عامين من العمل الشغوف وخلفه ثيودور، أسقف فيلة، الذي صان ومُثّن عمل جوليان. رجع ثيودور إلى فيلة عام ٥٥١ تقريباً ووالى العمل لاونجينوس، وهو رجل مقتدر آخر وجعل أسقفاً للنوبة .

بسبب معارضة الملكانيين لاقى لاونجينوس مصاعب مضنية للإفلات من القسطنطينية، ما تمكن من الزوغ منها إلا بالتخفى ليبلغ ميدهان عام ٥٦٩ تقريباً . قام لاونجينوس بالفعل بعمل تبشيري رفيع المستوى في نوباديا . فقد مُدَّهَب للنوبيين تعليمًا يانعاً من إيمان وممارسات الكنيسة القبطية، وعين القساوسة وبنى لهم كنيسة. بعد ستة أعوام قضاهما مع النوبياديين، ولعميق ثقتهم وشقاوتهم، غادر لاونجينوس إلى مصر ليشارك في إنتخاب البطريركية الوحيدة .

لكن لاونجينوس رجع إلى نوباديا في ٥٧٨م تلبيةً لرجاء ملك علوة، الذي تطلع لجعل بلاده مسيحيةً نحو ما صارت إليه نوباديا التي كانت لعلوة معها علاقات صداقة. بيد أنه عندما سمع البطريرك الملكانى أن لاونجينوس كان في سبيله لتعليم الوحودية في هذا المحيط الجديد، خلّعه من منصبه، وأرسل أسقفين ملكانيين إلى ملك علوة ليخبراه بخلع لاونجينوس ولتحذير الملك من أنه خلاف الأساقفة الملكانيين ما كان لاونجينوس قادراً على القيام

بشعائر التعميد الكنسية أو تعيين القسوس. لكن ما جرى أنفاً في نوياديا، تعرض الملكانيان لإحباط محاولتهما بسبب إصرار ملك علوة على أن لونجينوس وحده الذى أجرى من قبل مراسم تعميد النوياديين في الكنيسة، لزام عليه أن يُعمد في الكنيسة أهل علوة. إتجه لونجينوس نحو علوة في ٥٨٠م، ولأن المقررة لم تكن صديقة كان عليه أن يتخذ دريا ملتفاً عبر أرض البلميين التي عانى فيها صعوبات جمة. في رسالة مثيرة للإهتمام من ملك نوياديا إلى ملك علوة نقراً: 'إلا أنه بسبب المكاند الخسيسة من ناحية هذا الذى يقيم بيننا (أي، ملك أرض المقررة الداخلة بينهما)، فأبنتى أرسلت أبى القديس إلى ملك البلميين، مرتجياً أن يبله هناك بطرق بعيدة داخل البر' لكن مقررتنا سمع بهذا أيضاً، ووضع أناساً على المشارف بكل مرعات مملكته، في كل من الجبال والسهل ...

لقد مُنح لونجينوس ما يستحقه ترحاباً عظيماً في علوة 'وبعد أيام قلائل من التعليم، تم تعميد الملك نفسه وكل نبلائه: في وقت لاحق من مدار الوقت، عُمد شعبه بالمثل. هناك قابل كذلك أحباشاً معينين يتبعون هاليكارناسوس المرتدة (التي تدعى أن جسم المسيح كان غير قابل للتحلل) وصُحح إعتقادهم' (٢٠).

سرد يوحنا الأفسسوسي ملئاً بالتفاصيل التي تثير الفكر فيما يختص بطبقات سطح الأرض ومناخ النوبة، مما يُضفى جواً من المصداقية على القصة ككل. وهى تمدنا أيضاً بأول معلومات سياسية يُعتمد عليها حول النوبة منذ زمن الإمبراطورية الكوشية. لقد كان هناك، فيما يظهر، ثلاث ممالك منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض بين أسوان وملتقى النيلين: نوياديا في الشمال، المقررة في الوسط، وعلوديا أو علوة في الجنوب. يمكننا أن نتعرف في نوياديا بما يشبه اليقين على المملكة العظيمة للنوبة السفلى التي جرت مناقشتها بتفصيل في الفصل الثالث عشر. أما علوة، بعيداً في الجنوب، فكانت بوضوح مملكة النوبا التي كانت قد أنشئت في أعقاب إنهاء القوة المروية في أراضي السهل؛ وهى مذكورة أولاً (برغم ذلك كمدينة أبرز منها مملكة) في لوح عيزانا (الفصل الثالث عشر). المقررة مع هذا إسم غير معروف لنا مسبقاً، ولو أن قوماً نوبيين يُدعون المقريرين مذكورين في وقت أسبق بمدى طويل من جانب بطلمي<sup>(٣١)</sup>. إن المملكة في زمن يوحنا الأفسسوسي لابد أنها كانت متركزة في أرض دنقلا النهرية، وربما أن حكائما الأوائل فيما يمكن تصوره أهم الأفراد المدفونين تحت المدافن التكية الكبرى في تنقسي، على أن فقد الجنائز نفسها يصعب أن ينبى عن مكانة ملكية (قارن الفصل الثالث عشر). إنه لإحتمال متساو على الأقل إن بقايا المقررة ما قبل المسيحية مدفونة تحت موقع مدينة دنقلا العجوز المتناثر، الذى أنطلق مركزاً سياسياً للنوبة في العصور الوسطى، وسوف يناقش بتفصيل أوسع لاحقاً .

مما يجدر نكره أن يوحنا الأفسسوسي لم يقل شيئاً حول المجهودات الإنجيلية في المقررة، مملكة معادية بشكل ظاهر لكل من نوياديا وعلوة. إن المعلومات المفقودة بمدنا بها مؤرخ معاصر آخر، يوحنا البيكلارومى وهو ملكانى، أكد أن المقررة تحولت إلى الإيمان الثانى في ٥٦٩ أو ٥٧٠ م<sup>(٣٢)</sup>. وكان صامتاً، من الجهة الأخرى، فيما يتعلق بكل من نوياديا وعلوة. يبدو محتملاً بما فيه الكفاية أننا مواجهون هنا بالتقارير المتحيزة لإثنين من المُرُوجين ملتهبى العاطفة، أحدهما وُحُودى والآخر ملكانى، يهمل كل واحد منهما لإنتصارات طائفته الخاصة في حين يتجاهل إنتصارات منافسها. بسكوتهما البليغ، تبدو تواريخ يوحنا الأفسسوسي ويوحنا البيكلارومى من الناحية الفعلية مؤيدة بعضها بعضاً. ويمزج معلوماتهما معاً نحصل على التعاقب التقريبى التالى للأحداث:

- (١) تحول نوياديا إلى مسيحية وُحُودية تائراً بالمبشر جوليان زامناً ما حول ٥٤٣م. من بعد ذلك بفترة قصيرة، كانت بعثة ثنائيين ملكانية منافسة غير ناجحة.
- (٢) تحولت مملكة المقررة، التى كانت بادية العداء لنوياديا، إلى مسيحية ملكانية حوالى ٥٧٠ م.
- (٣) حوالى نفس الزمن، ربما مدفوعة للحاق بالمقررة، كانت هناك محاولة غير ناجحة لتحويل مملكة علوة الجنوبية لدعوة الملكانيين.

(٤) حوالي ٥٨٠ م، حُولت علوة بنجاح للوُحودية من قبل لونجينوس المبشر (٣٣).

لعل المؤرخين الكُتسبيين الاثنيين تجاهلا أو شَوْها عديداً من التفاصيل، لكنهما تركا بلاشك ما مفاده أنه كان هنالك تفجر قيم للنشاط التبشيري في النوبة منتصف القرن السادس، كان فيه كلٌّ من الوُحوديين والثُنائيين نشطاً. ليس من الصعب أن يتعرف، كذلك، علي أن الدوافع التي عَجَلت بإنجاز هذا الجهد الإنجيلي كانت سياسية بقدر ما أنها دينية. فكما حدث لأكثر من مرة آنفاً، سعت المل المتنافسة في مصر لتقوية نفسها في مواجهة بعضها بعضاً عن طريق تأمين الدعم من النوبيين. وكانت النتيجة ما يقرب من التنافس والإندفاع غير الرشيد لجلب بركات الإنجيل للممالك الجنوبية (٣٤).

أما أن دوافع الملوك النوبيين في تقبل الإيمان المسيحي كانت بالمثل سياسية في جزء منها فيمكن الإستدلال عليه من حقيقة أن حكماً نوبيين متنافسين، وفيما يبدو على عدا، يتراءى أنهم تخيروا انتماءات طائفية متنافسة. لعلهم كذلك راوا ساحة لتقوية أنفسهم في مواجهة جيرانهم عن طريق التحالف من جهة مع هيئة السلطة الكنسية السائدة بمصر، ومع الإمبراطور بيزانطين من الجهة الأخرى، كيما كانت تفصيلاتهم الطائفية، مع ذلك، فإن كل الحكام النوبيين للعصر ما بعد المروى لابد أنهم استشعروا الحاجة لتأسيس أيديولوجي جديد. إن رموز كوش الملكية التي نُظِل مفعولها، ولا يزال يتعلق بها ملوك النوبة السُفلى (قارن الفصل الثالث عشر)، كانت تفقد معانيها في زيادة مضطرة بالنسبة لكتلة رعيتهما، في حين أن عبادة إيزيس المحبوبة يبدو أنها لم توفر دعماً أو مجازاة معينة للملكية بمثل ذلك. إعتناق المسيحية لم يوفر فحسب عروةً أيديولوجية بين الحكام والرعايا، لكنه منْ عليهما معاً شرعية واحتراماً جديدين في أعين جيرانهم الخارجية. فللمرة الأولى لما يتعدى القرنين، إُسْرِجعت النوبة إلى داخل التيار الأيديولوجي الرئيس للآزمنة السارية.

التفاصيل المحددة لعملية التنصير، بطبيعة الحال، غير مسجلة. لقد اقترح كيروان أن انتشار المسيحية في النوبة كان تدريجياً، وأنه قد تأثر "... بالواعظ المتجول بالهدايا أو الخطابة، "حكي القصص" مثل غراميات الشرق ... والحقيقة، أن اللاهوت الذي عُلِّم بهذه الكيفية محتمل لأنه لم يكن من أنقى نوع، وإنه، بلاشك، إستصحب لمسة محلية اللون ليصير أشد تقبلاً للجمهور" (٣٥). من الجانب الآخر فإن المؤرخين الكُتسبيين، يوحنا الأفسوسي ويوحنا البيكلارومي، قد يبدو أنهما يوعزان بأن المبشرين الأوائل كانوا سفراء بمقدار ما كانوا إنجيليين (٣٦)، وأنهم بدأوا مساعي تبشيرهم من القمة، مع الملوك النوبيين. إستدلالاً على الأقل تُوج هذا العمل بالنجاح منذ اللحظة التي جرى فيها تعميم الملوك: ومن ثم، إن عاجلاً كان أم لاحقاً كان تحول الهيئات الأدنى للمسيحية أمراً محتوماً.

إن كلاً من المنطق وعلم الآثار يظهران في سرد مؤرخي الكنيسة. فبينما كانت النوبة السُفلى مخترقةً بالتأكيد بمعتقدات الدهماء المسيحيين زمناً طويلاً من قبل تحولها الرسمي، يبدو من غير المحتمل أن رعايا مملكة مطلقة السلطان مثل بلانة يتأتى لهم الإحتضان الصريح لإيمان يُدين كثيراً من الممارسات التي ترتبط بالنظام الملكي البِلاني. إن بُينة الجَبانات النوبية، كذلك، توحى بأن الإنتقال من الوثنية (٣٧) إلى المسيحية في نهاية القرن السادس كان سريعاً لأقصى حد ومتقناً، لربما انطلق لذلك نتيجة لمرسوم رسمي. وفي حين أن أغلب جَبانات بلانة في النوبة ظلت قيد الإستعمال إلى دخول أزمان مسيحية، فإن القبور الوثنية والمسيحية المودعة بها ليست متداخلة فيما بينها بمستوى دال الأهمية. في معظم الحالات يمكن رسم صف حاد ومتوال بين مجموعتي القبور، يتسق بالطبع مع سعة الجَبانة في اللحظة التي يكون الإيمان الجديد فيها قد جرى تبنيه (٣٨).

يظهر أن أول مبنى لكنيسة في النوبة أقيم في قصر إبريم، التي كانت بالتأكيد مركزاً إدارياً

(\*) أي دُعَاءاً للنصرانية - المترجم.

(\*\*) بمعنى عبادة الأصنام وأشخاص الملوك - المترجم.

رئيساً إن لم تكن بالفعل مقراً ملكياً. لقد شُيدت بإعادة ترميم وتشكيل لجزم من المعبد الطوبى القديم الذي كان قبل ألف عام سلفت قد بناه تهارقا (قارن الفصل العاشر). التاريخ الحقيقي للإلحاق الكئسى غير مدون، لكن علم الآثار يبين أنه كان في وقت ما انفكت فيه أنواع مألوفة من فخار بلانة مستعملة أوفر من أنواع مسيحية محددة .

بأي ما اتفقت عليه حالة الظروف السياسية، كان الإنتشار النهائي للمسيحية في النوبة محتوماً منذ اللحظة التي أصبحت فيها الديانة الرسمية للدولة في مصر. فعلى مدى التاريخ وضع القطر الشمالي معيار الحضارة للنوبة، ما من أيولوجية نمت هناك أبداً، من عبادة الفرعون إلى طائفة ناصر، وأخفقت نهاية المسعى في أن تسود في النوبة على حد سواء. بطول نهاية القرن السادس فإن جذب المسيحية الأيدولوجي، الذي ما كان مقترناً لأكثر من قرنين مع تحضر مصر وثقافتها فحسب، إنما بأمجاد روما وبيزنطة التي لاتزال أعظم شأنًا، لابد أنه كان قوياً بحق على كاهل الشعوب وراء الترخم الإمبريالية. ربما لذلك السبب كان الإعتراف النهائي للإيمان الجديد من ناحية ملوكهم مباركة وراحة لجمهرة النوبيين، الذين أبدوا أنفأ عطفات شديدة نحو المسيحية<sup>(٢٧)</sup>. إن هذا على أقل تقدير هو ما يليهم به الاختفاء السريع والكامل لأثر متبقية لحضارة وثنية في نوبة القرن السادس.

### خصائص المسيحية النوبية

الخلاف الديني الذي نتج عن تحول نوباديا والمقرّة إلى مذاهب مسيحية متنافسة ما كان ممكناً أن يتشبث بالبقاء لمدة طويلة، ذلك أنه في وقت ما من القرن السابع فُتحت نوبادياً أو أنها استوعبت من جارها الجنوبي (أنظر بأدناه) . بعد ذلك حتى نهاية العصور الوسطى كان هنالك، على الأقل نظرياً ، مملكة نوبية شمالية واحدة لا غير، تمتد من أسوان إلى ضاحية جردى. محصلة ذلك كان يجدر بها أن تكون نصرًا للمسيحية الملكانية عبر انحاء المملكة حديثة التوحد - تطورا إقترحه في الحقيقة مؤرخان متاخران أوتيشيوس والمقرزي. إن كل واحد منهما أكد أن الكنيسة النوبية كانت "أصلاً" ثنائية، وأن تحولها للدعوة الوُحودية جاء في وقت متأخر، بعد أن برزت الكنيسة القبطية الوحودية على أنها الطائفة المسيحية السائدة في مصر تحت ظل الحكم الإسلامي<sup>(٢٨)</sup> . كيفما جرى الحال ، فهناك بُنية وافرة تثير فكرة أن كنيسة نوباديا والمقرّة المضمومة كانت وُحودية منذ البداية، بالرغم من إنتماء المقرّيين الملكاني السابق<sup>(٢٩)</sup>.

الإنتماء المذهبي والسياسي للكنيسة النوبية الباكرا مسألة جدال طويل، تحاوره العلماء لأكثر من جيل. لقد أشير إلى بُنية متنوعة - معمارية<sup>(٣٠)</sup> ، وأدبية<sup>(٣١)</sup> إضافة إلى بُنية تاريخية - لصالح كل من الإنتماء الثنائي والوُحودي. أما التحقيقات الأشد قرباً في الزمان فقد أظهرت، مع هذا، أنه ما من بُنية منها نهائية<sup>(٣٢)</sup> . كان الحوار بين الطائفتين في قاعه سياسياً أقرى منه مذهبياً، ويبدو الآن أنه لم تفصل بينهما اختلافات تعبدية صارمة. نفس المباني، ونفس الشعائر ونفس الصيغة الأدبية واضح أنها يمكن أن تخدم أغراض الطرفين معاً . بالتالي فإن أمراء وأساقفة طموحين أو إنتهازيين يمكن أن يُغيروا جانبهم بلا تردد وفقاً لمهب الرياح السياسية. في هذا الخصوص يجدر ذكر أن مشايعة المقرّة في الأصل للمذهب الثنائي ربما ألهمها بشكل رئيس المعاداة الموجهة نحو نوبادياً الوحودية، ولذلك أصبحت غير ذات بال أي وقفة سياسية بعد إزالة المملكة الشمالية. في هذا الوقت، إضافةً إلى ذلك، كان الوُحوديون يكسبون بصفاء اليد العليا في مصر ، في حين ترتضى القبطية البيزنطية . لذلك فإن ما قد وقع ليس ممكناً وحسب بل إنه من المنطقي أن تتبنى المقرّة منتصرة، كموضوع للفعالية السياسية، إيمان نوبادياً المهزومة في الوقت الذي كانت فيه المملكتان متحدتين. لسوف يقال الكثير في هذا الموضوع عندما نناقش التنظيم اللاحق للكنيسة والدولة في نوبة العصور



## الوسطى (الفصل الخامس عشر) .

أياً ما كانت عليه هويتها الأولى، كانت الكنيسة النوبية بالضرورة وُحدوية وقبطية بعد القرن السابع. أضحت هذا التطور مصيرياً عندما خرج الوُحدويون منتصرين تحت ظل الحكم الإسلامي في مصر. بعيداً عن مقاومة الغزاة العرب في القرن السابع، رحب مسيحيو مصر والشرق الأدنى في حالات عديدة بهم مُحررين من العناء البيزنطي. إن المحافظات البيزنطية التي سقطت سقوطاً فورياً لجيوش الإسلام كانت، بحق، تلك التي أضعفها وقسمها النزاع الطائفي على وجه الدقة، وكانت كتلة سكانها وُحدوية معادية لبيزنطة . مكافأةً لولائهم دُعِمَ المسيحيون من أهل مصر والشرق الأدنى وشُجعوا في ظل الخلفاء الأوائل، في حين أن طائفة الملكان المؤيدة لبيزنطة إضطهدت وكُتبت من وقت لآخر <sup>(٢٤)</sup> . هكذا حققت الوُحدوية تحت الإسلام السيادة بين المجتمع المسيحي التي أنكرت عليها تحت بيزنطة؛ لقد أنجزت، مع هذا، على حساب وضعية الأقلية في الإمبراطورية الإسلامية. ونتيجة لذلك كانت وحدات الكنائس الوُحدوية المستقلة التي تمتع في مصر، وسوريا وأرمينيا في حُطى فتوحات المسلمين بالضرورة تنظيماً بطريركياً <sup>(٢٥)</sup> مُغلَقاً على ذاته الأبوية ، ومفتقداً للنظرة العالمية للمسيحية الغربية .

في مصر، إكتسبت الكنيسة القبطية ، برئاسة بطريركية الإسكندرية الوُحدوية، سيادة شبه مطلقة بين المجتمع المسيحي بحلول القرن الثامن. لقد كانت بالضرورة كنيسة قوميةً مصرية، محدودة في رؤيتها وتوظف اللغة القبطية، المتحدرة في موروثها من حديث الفراعنة، في طقوسها التعبدية. بل إنه قبل الفصمة النهائية عن القسطنطينية طورت أنفاً معاييرها المعمارية والفنية المميزة، التي امتزجت فيها تأثيرات من أيام فرعونية مع أخرى من اليونان وبيزنطة <sup>(٢٦)</sup>.

بهذه الكنيسة البطريركية المصرية بشكل أساسى التحق النوبيون المسيحيون بعد العصور الوسطى الأولى ، إن لم يكن من البداية <sup>(٢٧)</sup> . وبالرغم من أن النوبة لم تلاق مصير مصر السياسى ، وقد قاومت ما يقرب من ألف عام الإحتواء لجوف الإمبراطوريات الإسلامية ، تركت فتوحات المسلمين لمصر والشرق الأدنى المملكة الإفريقية مقطوعة عن بقية العالم المسيحي. ولما أزيل النفوذ السياسى والأيدولوجى للقسطنطينية، لم يعد هناك مَعْدَى من أن تقع الكنائس الأهلية لكل من النوبة والحبشة بين مدار الوُحدوية الإسكندرانية . هكذا من القرن الثامن على الأقل وما تلاه سَلَمَ النوبيون بالبطريك القبطى زعيماً روحياً، وعُيِّن أساقفتهم من الاسكندرية. إن كثيراً من القساوسة والرهبان في الأقطار الجنوبية يحتمل أنهم كانوا من أصل مصرى، وقد خدمت النوبة في فترات معينة كملجأ للأقباط الفارين من الإضطهاد في مصر <sup>(٢٨)</sup>. أما الفن، والمعمار، والأدب في نوبة العصور الوسطى فكله استحدثاء غير أصيل لنفوذ مصر القبطية السائد، مع أن الكنيسة النوبية إحتفظت حتي النهاية بملامح مميزة تُعَيِّن ذاتيتها، كما سيُذكر لاحقاً.

يبقى مما يضاف أنه حتى الفتح الإسلامى لم يُضغِّح حد نهائى للمجادلة الخلقيدونية. وبينما كان الأساقفة الأرثوذكسيون المعترف بهم ملكياً والمقيمون في فرس، عدا استثناءات قليلة ربما، وُحدويين يبدو أنه وجد، على الأقل في الورق، كرسى أسقفى ملكانى منافس في تايفا. أما أنه شغل أبداً أم لم يتم ذلك فغير صاف <sup>(٢٩)</sup>. تدقيقاً في فرس، رغم ذلك، هنالك تبديات بنفوذ ملكانى إلى وقت متأخر حتى القرن الحادى عشر <sup>(٣٠)</sup>. لقد أثار بيير فانتنى إنتباهنا إلى حقيقة أن الخليفة الحكيم (١٠٢١ هـ)، الذى كان إبناً لجارية ملكانية إغريقية، كان يُحابى الملكانيين وسمح لهم بالذهاب إلى سوريا والنوبة، في حين كان الأقباط ممنوعين من مغادرة مصر. ويخبرنا ميكانيل السورى، وهو كاتب وُحدوى في القرن الثانى عشر، أن بطاركة الإغريق وأساقفتهم الخلقيدونيين قاموا بقلقة سوريا، وفلسطين، ومصر وتضليلهم، على صعيد واحد يضم النوبيين والأحباش، كلما عنت لهم سائحة <sup>(٣١)</sup>.

(٥) أي إجتماعياً أبوياً – المترجم.

وفيما كان عليه الحال في قرون سابقة، ليست التينة على نفوذ ملكاني في نوبة القرن الحادي عشر مما لا يجادل بشأنها، على أنه يبدو مؤكداً على الأقل أن الكنيسة النوبية لم تكن متحررة كلياً من مجادلات مؤشعية ساخنة<sup>(٤١)</sup>.

في الأغلب، إن لم يكن في كل تاريخها آنذاك، ما كانت النوبة المسيحية ملتحة بكنيسة الغرب العالمية إنما التحقت بالكنيسة الأهلية الأسيرة و (طبقاً للمرسوم الخلفيدوني) الخارجة عن القانون. هذه الحالة تركت النوبيين محرومين من السند السياسي الخارجي، كما أنها تؤكد خضوعهم النهائي للإسلام. طوال العصور الوسطى لم يبد مسيحيو أوروبا اهتماماً بالأخوة الإثريقية، وقاوم النوبيون والأحياش قرناً وراء قرن إحاطة الإسلام بهم دونما مساعدة من الغرب. ولما باتت الكنيسة النوبية أخيراً على حافة الإنهيار، في القرن الخامس عشر، ذهبت رجاءاتها للعون أدرج الرياح بلا مجيب، ليس من قبل روما وحدها، ولكن بنفس القدر من مصر والحيشة المجاورتين والمتعاطفتين إقتراضاً<sup>(٤٢)</sup>. كانت الكنيسة الحبشية أفضل حظاً، ذلك أن إهتماماً تجارياً متنامياً في المحيط الهندي إستجلب البرتغاليين إلى شرق إفريقيا في الوقت المناسب لإبعاد إنقضااض الهجوم الإسلامي الكاسح، وليحفظ إستقلال هذا الموقع النائي كأخر معقل حر للمسيحية الوحودية .

## المدونات الكتابية

بالرغم من أن كتلة الشعب النوبي ظلت أمية في كل الأزمان، فإن معرفة الكتابة يحتمل أنها كانت أوسع إنتشاراً في العصور الوسطى منها في أي وقت قبلها أو بعدها. اللسان الأهلي (النوبة القديمة) كان يكتب خلال معظم الفترة المسيحية، وكذا وظفت الإغريقية والقبطية إلى حد ما في النصوص المكتوبة. واستعملت العربية في التراسل مع التجار والمقيمين المسلمين في النوبة السفلى. إن قصاصات من مخطوطات ورق البرشمان النفيس شائعة التواجد في الكنائس والأديرة مثلما توجد في إعتياد مكتوبات سطحية على تلوين وطول. تحمل شواهد القبور دائماً صيغة جنازية مَفصلة. وهناك أدب أقل شكلية تمثله رسوم تصويرية تخدش أسوار الكنائس والمسكن، وشقوق فخارية مكتوبة لا حصر لعددها .

إذا كانت القراءة والكتابة في نوبة العصور الوسطى أوسع ذيوماً وانتشاراً عنها في أزمان سالفة، فإن دورها الوظيفي، مع هذا، لا يبدو وساعه مصاحباً لها. النصوص الباقية، رسمية وغير رسمية، في معظمها ذات طابع ديني؛ إنها تخبرنا نذراً قليلاً عن الحياة اليومية أو ما يتعلق بالتاريخ الدنيوي. لسوف يظهر طوال العصور الوسطى أن التبادل السلعي والحكم أدياً جزءاً كبيراً من مهامهما دون انتفاع بالكتابة. وعلى حد التكافؤ لم تجد دعاية الدولة تعبيراً مكتوباً، كما كان عليه حالها تحت الإمبراطورية الكوشية وما تواصل في عهد سلكو (الفصل الثالث عشر). الفصل الأيدولوجي ما بين الكنيسة والدولة في نوبة العصور الوسطى ليس مشهوداً عليه في أي مكان بأصفي من حقيقة أن الملوك المسيحيين، رغمًا عن قوة بأسهم، لم يشيدوا أي صروح كتابية فيما نعلم. لقد بقي الفن الكتابي بجلاله في أيدي المؤسسة الدينية لمدى بعيد، ما عاد مستعملاً لتمجيد قوة موقوتة.

بالنسبة للتعميم الماضي، كما تعميمات عديدة أخرى، يبدو أن قصر إبريم يمثل حالة إستثنائية. إن القلعة العظيمة، التي كانت من قبل نقطة شحن رئيسية في أزمان ما قبل المسيحية (قارن الفصل الثالث عشر)، تولت بدرجة أعلى إبان العصور الوسطى أهمية تجارية وسياسية أعظم. لقد كانت مركزاً لتبادل سلعي شديد النماء، وكانت إضافة إلى ذلك مقراً لمسؤول الدولة النوبي ("الإبارش"<sup>(٤٣)</sup>) المناط به بصفة محددة إدارة العلاقات مع مصر المسلمة. لقد غلّت الحفريات في قصر إبريم كميات هائلة من المادة المخطوطة - أوفر في الحقيقة مما جادت به كل المواقع الأخرى مجتمعة - على جلود

الضمان أو العنز والبردى، والورق، والجلد. مصاحبةً للعدد والنوعية المعتادة من النصوص الدينية، تبدو مادة قصر إبريم كذلك محتويةً على عدد كبير من الوثائق التجارية والقانونية. الوثائق التي تعنى شئوننا محلية خالصة مكتوبة بالنوبة القديمة، بينما النصوص ذات الصلة بمعاملات مع مصر أو مع مصريين مكتوبة بالعربية<sup>(٤٤)</sup>. معظم المعثورات من النصوص الحرفية من قصر إبريم لايزال واجباً ترجمتها أو تحليلها؛ من ثم يجب أن يضيفوا لصورتنا عن الحياة اليومية والتبادل السلعي إضافةً غنيةً للغة، على الأقل في هذا المركز الحضري الواحد. لا يبدو أن النصوص مع ذلك مما ينطوي على محتويات تاريخية دقيقة بالتحديد. كالعادة، يجيئ إيماننا بالأحداث والشخصيات التاريخية النوبية في العصور الوسطى في أكبر أجزائه من مصادر خارجية .

مع انشطاره نثراً، يظل السجل التاريخي للنوبة في العصور الوسطى أتم إستكمالاً، وأغنى إنباء بمستوى أعلى بمراحل من أي فترة سابقة. هذا الظرف يرجع غالباً إلى الإستقصاء الفكري والطلعة العريقة التي ميزت زمناً مجتمع الإسلام العليم. إن فتح العرب مصر، الذي أعقب باقلاً من قرن مسيحية النوبة، ترك الممالك الإفريقية مستقلة سياسياً لكنه إقتصادياً وثقافياً قام بتوجيهها نحو العالم الإسلامي. مذاك وما تلاه كانت العلاقات النوبية للصيقة تجرى مع الأقطار المسلمة بلا منازع، ومن ثم جاءت معرفتنا بالشخصيات في فترة العصور الوسطى وما وقع من أحداث بناءً على تقارير المؤرخين والجغرافيين العرب في الغالب. لقد كانوا سعداء، أفضل علماً وأقل تحيزاً من معظم رواة الأزمان السابقة. ولأنهم كانوا بأنفسهم ورثةً لحضارة صحراء "حديثة النعمة"، فقد كانوا أقل ميلاً من سابقيهم للنظر بإستعلاء إلى الإفريقيين لإعتبارهم أدنى مكانة أو للثناء عليهم تشدداً بأنهم متوحشين مسرورين<sup>(٤٥)</sup>. في سرورهم غير العاطفية والتي تتسم بالإستقامة إكسسى النوبيون، يكاد لأول مرة في التاريخ، شخصية أخوة إنسانية: عاديين، لا تتخطاهم العيون .

جاء، ينطق إهتمام علماء الغرب بالنوبة في العصور الوسطى في وقت قريب بشكل غير عادي. فقد كرس بذج في عمله الرائد عن التاريخ السوداني، الذي كُتب في بداية هذا القرن، أكثر من عشرين صفحةً لشأنية أو تسعة قرون من هيمنة النفوذ المسيحي<sup>(٤٦)</sup>. وتُركت البقايا الأثرية الوفيرة جيدة الحفظ للنوبة المسيحية غير محققة من المسح الأثري الأول، متى كُشف النقب عن أن القبور المسيحية كانت خاليةً من القوابين<sup>(٤٧)</sup>. لقد اعتُقد، فيما هو ظاهر، أن الكنائس ومواقع المدن لا تحمل شيئاً جديداً تخبر عنه: توصيفهم "أقباطاً" أنبأ بكل شئ حولهم<sup>(٤٨)</sup>. بل إن رايزنر العظيم يبدو غير ذي إهتمام بالبقايا الأثرية للنوبة المسيحية، مع أنه كان المحقق الرائد في كل فترة تاريخية أخرى من ثقافة المجموعة الأولى إلى ثقافة المجموعة المجهولة .

لقب الرائد في الدراسات النوبية المسيحية يعود إلى معاصر رايزنر. ف. ل ١. قريفيث الذي حقق في باكورة القرن العشرين عدداً من الكنائس والبقايا المسيحية الأخرى في ضاحية فرس<sup>(٤٩)</sup>. وحوالي نفس الزمن إفتتح كذلك الدراسة اللغوية للنصوص النوبية في القرون الوسطى<sup>(٥٠)</sup>. ومع أن مناهجه الميدانية كانت بشكل ملحوظ غير مُحكَّمة، يستحق قريفيث حمداً جزئياً لإهتمامه باليقظ تجاه حقل متجاهل بلا عدل. إن العبقري المنظم للدراسات المسيحية كان مع ذلك عالماً في الجيل التالي، أوقو مونري دي فيلار. مُستَحسناً بجهده الذاتي في غالب الأمر، كلف أثناء المسح الأثري الثاني (١٩٢٩-١٩٣٤) ليقوم بمسح تحصيلي للبقايا الأثرية ليس في المنطقة المهددة مباشرة وحسب، ولكن في طول النوبة بأسرها من أسوان إلى الخرطوم. لقد سمح هذا التدبير للمسح الجارى في إنتظام، بإشراف امرى وكيروان، بأن يكرس جهده بوجهٍ كلي لبقايا الفترات السابقة. إنه لما ينبغى ذكره (ويشكل خاصية) مع هذا أن مونري دي فيلار لم يُؤدِّ فعليةً بائٍ أموالاً للتنقيب، وكان جرد الصروح

(\*) يجب التنبيه إلى رفض المؤلف مبدئياً لكل من السلوكين : انظر بوجه خاص الفصل العشرين ، دروس النوبة - المترجم.

المحصص<sup>(٥٠)</sup> الذي جاء محصلةً لجهوده مؤسساً يكاد بكتيته على ملاحظات ممنهجة على السطح<sup>(٥١)</sup>. لمدى كبير للغاية، كان على التنقيب المنظم إجرائياً للبقايا المسيحية أن ينتظر حملة الإنقاذ في الستينيات .

تابع مونري دي فيلاد تحقيقاته الميدانية بمسح يساويها تمحيصاً لمواد المصادر الكتابية العربية، والقطيعة، والمأثورة من القدم. من مراجع متقطعة لا حصر لعددتها إستجمع، بأوسع قدر ممكن، تاريخاً ووصفاً سياسياً للنوبة في العصور الوسطى. يبقى عمله *قصة النوبة المسيحية*<sup>(٥٢)</sup>، بعد ثلاثين عاماً، المحاولة الوحيدة من نوعها التي اضطلع القيام بها، وخدمت كنقطة إنطلاق لكل الدراسات اللاحقة. إن حفريات السنوات الراهنة أضافت في الحقيقة نذراً قليلاً لصورة مونري التاريخية<sup>(٥٣)</sup>، ذلك أن إستطلاع المؤلف للمصادر الوثائقية كان متقناً بجهود مير. لقد ساهم علم الآثار مساهمة ضخمة في المعرفة الثقافية والإجتماعية عن النوبة في العصور الوسطى منذ أيام مونري دي فيلار، لكنه حول تاريخ المنطقة أخيراً من الجديد هوئاً، وما يتلو من سردٍ مأخوذٍ لذلك السبب بتوسيع كبيرٍ جداً من صفحات مونري أو من مصادرٍ إكتشفها بنفسه .

### النوبة المسيحية والعالم الإسلامي

ما مضى حين على إزعاج النوبة لعقيدة مصر، كما وُصف في الصفحات السابقة، حتى كان القطر الشمالي مكتسحاً مقهوراً من لدن غزاة يحملون إيماناً جديداً. علّمت بداية السقوط البيزنطي في مصر بغزو وإحتلالٍ ساساني (فارسي) للقطر بين ٦١٦ م - ٦٢٩ م. تقدمت الجيوش الفارسية طبقاً لبعض المصادر إلى تخوم النوبة، أو حتى ورائها<sup>(٥٤)</sup>، رغم أنه لا توجد بيّنة أثرية على حضورها. ومن بعد طردهم فيما لا يعدو حقبةً من الزمان جاء الهجوم العربي العاصف الذي كال نهايةً حاسمة للحكم البيزنطي، ولكل الأغراض العلمية للحضارة القديمة، على نهر النيل بدئ فتح مصر في عام ٦٢٩، سبعة أعوام فحسب بعد وفاة محمد<sup>(٥)</sup>. ما كانت إلا مقاومةً هينة عدا الإسكندرية، وعُصدت قضية العرب بشكل معتبرٍ من قسم كبير من السكان الأقباط. وبعد تسليم الإسكندرية في ٦٤٢ م أصبحت للمقاصد العملية في أيدي العرب، كما ظلت أبداً منذ ذلك الحين<sup>(٥٥)</sup>.

إن القائد العربي عمرو بن العاص لم يكمل إخضاع مصر حتى وجه انتباهه للجنوب فجدّرت قوة فرسان من ٢٠.٠٠٠ رجل إلى باطن النوبة، ولكن بُعِد توغلها إلى بُعْد دنقلا، بين الشلالين الثالث والرابع، لتقيت مقاومةً لم يلاق مثلاً أي جيش عربي آخر في القرن الأول من التوسع الإسلامي. كانت معركة دنقلا الأولى تُكالا على الفاتحين، الذين أجبروا على التفاوض والإنسحاب. ومما يستحق الذكر أن رواة العرب، الذين دُونوا هذا الحدث، كانوا على وجه الخصوص مبهورين بالفعالية القاصمة للنبالة النوبيين<sup>(٥٦)</sup>؛ لقد ظلت النوبة محفلاً يُرْذَمي لُرْماة نبالها منذ ماضٍ يعود إلى الدولة [الفرونية] الوسطى .

هجوم آخر أشد تناسقاً شُنَّ على النوبة في ٦٥١ - ٦٥٢ م. مرةً ثانية تقدم الفاتحون إلى دنقلا، حيث وقع التحام آخر عنيف. طبقاً لشاعر عربي لم ترَ عينى مثل يوم دُنْطَلْ والخيل تغدو بالدروع مُثْقَلَةً<sup>(٥٧)</sup>. أُطلقت القذائف على أسوار المدينة النوبية، وهُدِمت كنيستها الرئيسة أو دُمرت .

كانت معركة دنقلا الثانية بشكلٍ جلي غير حاسمة عسكرياً، وانتهت بهدنة جرى التفاوض حولها. أما المعاهدة التي بلغها الطرفان ويدعوها المؤرخون العرب *البقَط* (فيما يظهر من pakton الإغريقية) فقد فُسرت بتأويلاتٍ شتى في أنها جزية مفروضة ومعاهدة للتبادل السلعي بين قوتين ذاتي سيادة<sup>(٥٨)</sup>. أما الشروط، وفقاً للجغرافي المقرئ، فكانت:

(٥) نبي الإسلام محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام - المترجم.

عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته. عهد عقده علي الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة أن عبدالله بن سعد بن أبي سرح جعل لهم أماناً وهُدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاؤهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة [الدهماء، أي المسيحيين واليهود].

إنكم معشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلعم، على أن لا نحاربكم، ولا ننصب لكم حرباً، ولا نفروكم، ما أقمتم على الشروط التي بيننا وبينكم .

[تحديداً] على أن تدخلوا بلادنا، مجتازين غير مقيمين فيها، وتدخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيها. وعليكم حفظ من نزل بلادكم أو يطرقها من مسلم أو معاهد، حتى يخرج عنكم .

وإن عليكم رد كل أبق خرج إليكم من عبيد المسلمين، حتى تردوه إلى أرض الإسلام. وعليكم رد من لجأ إليكم من مسلم محارب للمسلمين، وأن تخرجوه من بلادكم إلى أرض الإسلام ولا تستميلوا عليه [لتعينه]. ولا تمنعوا منه [الرجوع].

وعليكم حفظ المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مُصلياً. ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن يصرف عنه. وعليكم كسسه، وإسراجه، وتكرمه .

وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون راساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم. تدفعون ذلك إلى وإلى أسوان. وليس على مسلم دفع عدي عرض لكم، ولا منعه منكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان.

فإن أنتم أويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً، أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعت شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين راساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سوء حتى يحكم الله بيننا . وهو خير الحاكمين.

وعلينا بذلك أن عهد الله وميثاقه ودمته، ودمه رسوله محمد صلعم ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدبنون به من ذمة المسيح ودمه الحواريين ودمه من تعظمونه من أهل دينكم ومملكتكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك. (١٠)

بمقتضى شروط البق، تبدو النوبة ممنوحةً شيئاً يعدل مكانة مملكة عميلة للإمبراطورية الإسلامية لحد بعيد مثلما استعلى علي نوباديا مرةً كمملكة عميلة لروما (١١). أما إذا ما كان ما رُتب يمثل إنتصاراً للتوبيين أو للعرب فإنه ظل هدفاً لمساجلة طويلة. من جانب واحد كان الطهر السياسي والديني مكفولاً مدى الحياة؛ وفي الجانب الآخر أُطبق على التوبيين بتعويض سنوي مُثقل ٣٦٠ من الرقيق، دُفع عن الإذلال يكس الجامع في دنقلا وإنارته. إن حسابات أخرى للمعاهدة، مع ذلك، تتحدث عن تبادل بضائع متساوية القيمة كان علي التوبيين أن يقوموا بتسليمها عندما يُسلمون عبيدهم لأسوان .

يُورد علي خليفة حميد بن هشام البجيرى، أن الشروط المعقودة للسلم مع التوبيين تكونت من ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق إلى سقيفة المسلمين، وأربعين لوالى مصر، وأن عليهم أن يستلموا في المقابل ألف أردب من القمح، ولعماديتهم ثلاثمائة أردباً منها؛ نفس الكمية من الشعير تُعطى، بالإضافة إلى ألف كتير من النبيذ للملك، وثلاثمائة كتير من النبيذ للمناديب، مصحوبةً بمهرين من أفضل نوع، تليقان بالأمراء. فوق ذلك، من الأصناف المختلفة للكتان والقماش مائة قطعة (١٢)، ومن النوع المسمى كوياني أربعة قِطع للملك وثلاثة للرسل المبعوثين، ومن النوع المسمى باكتري ثمانية قِطع، ومن الصّلام خمسة قِطع، وعلاوة على ذلك جبة للملك من القمصان المسماة علای باكتار، عشرة قِطع، ومن أجود نوع من القمصان عشرة بالمثل، كل واحد منها يساوى ثلاثة من النوع العادى (١٣).

معاهدة البق، كافلة كما فعلت لسيادة أمةٍ غير مسلمة، لم يكن لها سابقة في التاريخ الأول

للإسلام. وحيد بين شعوب العالم، أبعد النوبيون على صعيد واحد من دار الإسلام (مسكن المؤمنين) ومن دار الحرب (شكلاً، مسكن العدو)، الطائفتان اللتان قُسم في داخلهما باقي العالم<sup>(٦٤)</sup>. يسبب طبيعتها المفارقة، كان معنى المعاهدة مثاراً للجدل حتى من ناحية الفقهاء العرب المعاصرين. طبقاً ل فوراند، "... مع أنها دُعيت صلحاً من البعض، فهي لا تقع ضمن تلك الطائفة كما هو مفهوم عموماً. فالكلمة صلح عادة تَضْمَن معناها أن المسلمين إحتلوا بلداً وإنهم كانوا في موقع الأمر والنهي ... ماسداً أياً من هذه الظروف في ذلك الوقت؛ فالحقيقة، أن النوبة لم تكن قد أُحضرت مطلقاً تحت سيطرة المسلمين خلال قرون الإسلام الأولى. كانت المعاهدة حالة خاصة جداً؛ لم تكن معاهدة أو عهداً بالمعنى المألوف. لقد اعتُبرت في راجع الأمر "هدنة" ... أو كإداة "للتحيد" أو "المصالحة"<sup>(٦٥)</sup>.

كيفما جاز وضعها القانوني، فإن المنطق وراء البقطة يبدو صافياً بما فيه الكفاية. المعاهدة نفسها تملن إهتمام العرب الرئيس بالنوبة مصدراً للرقيق. ولما كان أياً من المسلمين أو المسيحيين الذين يعيشون تحت وصايتهم (الدهماء) مما لا يمكن إسترقاقه، كانت هناك منفعة تُجني من الحفاظ على نوبة مستقلة ولكنها مُحيدة سياسياً خارج حكم الإسلام. ولبعض فقهاء العرب المتأخرة مجادلة أن المعاهدة أضفت على النوبيين في حقيقة الأمر وضع الدماء، لذلك كان أخذ الرقيق منهم غير أخلاقي، بيد أن القضية تمت معالجتها بإفتراض أن النوبيين أنفسهم كانوا يأسرون الرقيق من جيرانهم الوثنيين<sup>(٦٦)</sup>.

لم تبق معاهدة البقطة نافذة وحسب لكنها حددت مصيراً لمدى عظيم مجرى العلاقات الإسلامية - النوبية لستمائة عام. مبتدأ الحال أن النوبة تُركت في سلام طوال القرون عندما كانت جيوش الإسلام تجتاح شمال إفريقيا، وإسبانياً، وإمبراطورية بيزنطة المتناقصة دوماً، وآسيا الوسطى. كانت أسوان وحدهما بحق الترخم الثابتة التي اعترفت بها رسمياً الإمبراطورية الإسلامية أبداً في نفس الوقت، أُنشئت عملية تأسيس العلاقات الاقتصادية بمقتضى شروط الإتفاقية إهتماماً مصرياً مستمراً في الأرض الجنوبية. إن الصعوبات التي ثارت بين النوبة المسيحية وجيرانها الإسلامية كانت في أغلبها محصلة لعجز النوبيين أو رفضهم لمقابلة شروط البقطة، بالتالي تشخص المعاهدة في عمق في تاريخ دبلوماسية القرون الوسطى.

يستحق الذكر أن مدونات العرب للحملات النوبية لا تذكر شيئاً عن مملكة نوباديا الشمالية. لقد زحف الغزاة للجنوب مباشرة إلى دنقلا<sup>(٦٧)</sup>، مدينة لاتملك عنها معرفة سابقة، لكنها كانت واضحة خلال ذلك الزمن كعاصمة لمملكة المقررة. إن المعاهدة التي تفاوضوا بشأنها كانت إلزامية على "عظيم النوبة ولجميع أهل مملكته ... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة"<sup>(٦٨)</sup>. فالملك المقرى كان لذلك محسوباً كبير على كل النوبيين الشماليين.

ضمت المؤرخين العرب فيما يتعلق بنوباديا قد يبدو بما لا يمكن تخيلته موحياً بأن المملكة الشمالية كانت قد توقفت عن الوجود سلفاً كوحدة سياسية مستقلة بحلول منتصف القرن السابع<sup>(٦٩)</sup>. من الجانب الآخر جادل مونري دي فيلار<sup>(٧٠)</sup> وآخرون<sup>(٧١)</sup> بأن إخضاع نوباديا من قبل المقررة أخذ مكاناً في زمان متأخر، تحت حكم الملك المقرى مركوريوس، الذى يدعو مؤرخو القبط "قسطنطين الجديد". هو في كل حالة أول ملك مقرى يُذكر اسمه في كتابات تركسية للنوبة السفلى، يرجع تاريخها إلى ٧٠٧ و ٧١٠ م<sup>(٧٢)</sup>. منذ ذلك الوقت وما أعقبه من زمن إشتقت كل الأطراف العلمية أنه كانت هناك مملكة نوبية شمالية واحدة، تمتد من أسوان وتبعد جنوباً حتى الشلال الخامس على الأقل، بدينقلا مقرراً ملكياً وحاضرة رئيسة (الشكل رقم ٦٩)<sup>(٧٣)</sup>.

لا يبدو أن المملكة المتحدة لنوباديا والمقررة كان لها إسم معين؛ إنها تُدعى أحياناً بإسم محافظتها المنيع، المقررة، وأحياناً أخرى بإسم حاضرتها، دنقلا. إستمرت منطقتها الشمالية

موصوفة على وجه منفصل من ناحية كتاب عديدين بالإسم القديم نوباديا أو، في أزمان متأخرة، كمحافظة ماريس (٧٤) متما سترقب في وقت لاحق (الفصل الخامس عشر)، احتفظت المنطقة الشمالية بهوية عرقية ووضعية سياسية خاصين بها تحت هيمنة المقررة .

هنالك أسطورة أنه في عام ٧٤٥م، أي بعد مائة عام بعد البقظ، غزا جيش نوبى من ١٠٠,٠٠٠ رجل مصر وأجبر الحاكم العربى على إطلاق سراح بطريك الإسكندرية، الذى كان قد أودعه في السجن إنفاً (٧٥) . إن القصة يُحتمل أنها من نسج الدعاية المصرية المسيحية، لا ندعمها بينه يعتمد عليها، لكنها تدعو بالفعل للتأثير بأن البطارقة الأقباط ربما أنهم نظروا إلى النوبة للدعم السياسى ، بمقدار ما كانت الكنيسة البيزنطية مُجبرة للتوجه إلى قيصر روسيا عقب الفتح التركى للقسطنطينية. وسواء كان حقيقياً أو مُتخيلاً ، محتمل أن التهديد بغزو نوبى أعطى المسيحيين المصريين فعالية سياسية معينة في موقفهم الذى كان من غير ذلك فاقداً للسلطة في ظل نظام الحكم الإسلامى (٧٦).

فى ٧٥٨م كتب حاكم مصر العباسى الجديد إلى الملك فى نُقبلا يتذمر من إخفاق النوبيين فى إيفاء بعض التزاماتهم بموجب البقظ. مقرونه بمظالم أخرى إتهم المصرى أن إنتهاكات إرتكبت فى مقاطعة أسوان من البلميين (الجا) ، والواضح أن النوبيين إعتبروا مساطين، وفق المعاهدة ، عن السلوك الحسن لجيرانهم الصحراويين بالمثل. إن وجود رسالة الحاكم كان غير مرتاباً فيه حتى عام ٢٨٩١م عندما رأت الرسالة نفسها النور فى قصر إبريم. كان من المُتبين أنها تم تقديمها من ملك دنقلا إلى الإبارش فى قصر إبريم بإعتباره موظف الدولة صاحب أقرب إختصاص مباشر. ثم وُضعت نهاية الأمر فى قُبو للتخزين رفق وثائق أخرى بالقبطية، ربما كان أحدها مُسودة لرد الإبارش. ومع أن الوثائق القبطية فى حالة مشطرة وغير مكتملة، تكاد رسالة الحاكم أن تكون مُتقنة الحفظ، وهى حتى حينه أكبر نموذج ظل باقياً للكتابة العربية من تاريخ باكراً كمثل ذلك الوقت. مخطوطة على قطعة من البردى عرضها ثلاثة أقدام وفوق الثمانية أقدام طولاً، تشمل تسعة وستين خطأ فى نص صافٍ جميل الصنعة. إن المراسم (بما فيها اسم الملك لسوء الحظ ) مفقودة (٧٨).

وقع أحد أعظم الأحداث قيمة وأهمية فى تاريخ الدبلوماسية النوبية فى مطلع القرن التاسع. إنقسم الرأى ثانية ما إذا كان الناتج يمثل نصراً أم هواناً للنوبيين. فخلال فترة من الإضطراب الدينى والاضطهاد الموجه للأقباط فى مصر، توقف ملك المقررة لأسباب مفهومة عن تدبير الجزية السنوية المقررة بالبقظ. ولدى تنهاى الموقف إلى علم الخليفة المعتصم فى بغداد، بعث رسالة لا يطلب أداء الجزية فحسب بل إعادة الدفع لتعويض أربعة عشر عاماً ، ما يربو على ٥٠,٠٠٠ من الرقيق. ولما كان الملك النوبى غير قادر على مقابلة مثل هذا الطلب الثقيل، فقد بعث بإبنة، الملك جورج الأول فى وقت لاحق، إلى بغداد ليقاوض بنفسه الخليفة . لقد كان ، إلى المدى الذى أدركناه، أول أمير نوبى يظهر فى بلاطٍ خارجى منذ تنوتامون، وريث تهارقأ (الفصل العاشر).

إن السفارة النوبية إلى بغداد، مثل حملات دنقلا ومعاهدة البقظ، مشهورة فى الأدب العربى، ومشار إليها فى عدد من روايات مختلفة (٧٩). مع ذلك فإن كل المؤرخين الذين ذكروا الرحلة يقولون إنها كانت مكلفة بالنجاح. فقد خلصت إلى معاهدة ثنائية بعدم الإعتداء وعدم التدخل، كافلة لأمن تخوم المسلمين (مصر العليا) وتخفيض البقظ (٨٠) . وسط التنازلات المحددة التى يبدو أن الأمير جورج حصل عليها الإفراج عن سجناء نوبيين معينين، وموالة ما انقطع من دفع مصرى لسبل مقابل الرقيق النوبى ، ويند أضيف أن التبادل يجب أن يُجرى كل ثلاثة أعوام بدلاً عن كل عام (٨١) . إضافة إلى ذلك، فإن الخليفة " أعطاه هدايا وفيرة، وأعادته إلى وطنه بالتشريف والتكريم (٨٢) . هنالك إمكانية، مع هذا ، أن جورج قام برحلة ثانية إلى بغداد فى ظروف أقل سعادة، كسجين عسكرى عقب هزيمة مُنى بها من المصريين. إن مصدر هذا النبا غامض؛ ويجوز أنه رؤية إسلامية غيورة معادية للنوبيين منذ الزيارة الأولى وكفى (٨٣).

القرون التي تلت السفارة النوبية إلى بغداد شهدت أوج القوة السياسية النوبية المسيحية، لكنها كانت زمناً من الضعف والقفلة فيما بين مصر . نتيجة لذلك يبدو أن الهدنة التي أنشئت من قبل تحت الببط وأعيد التأكيد عليها في بغداد إنتهكت في معظم الحالات مكرراً من النوبيين أكثر من المصريين. بعد الإطاحة بسلطة العباسيين في ٨٦٨، غاصت مصر في جوف فترة طويلة من التاجع السياسي . إن الأسر الطولونية والأخشيديّة قصيرة الأجل قلما كانت قادرة على أن تحكم بفعالية في المحافظات، وبوجه خاص في مصر العليا. أغلبية المصريين في مصر العليا فيما هو جازز ما انفكوا أقباطاً في هذا الزمن، لذلك ربما كانوا يشهد تعاطف مدفوعين بين نحو النوبة المسيحية منهم صوب حكومات المسلمين على فسادها وطمعها في وطنهم نفسه. منح ضعف الحكومة المركزية على كل حال لكل من النوبيين النهرين والبجا ساحة لإستئناف الإغارة من وقت لإخر على مصر العليا والواحات، يدينهم من قبل أزمان ما قبل المسيحية (الفصل الثالث عشر) . وبعد إغارة مفاجئة كانت مثلاً لتلك الإغارات ، في ٩٦٢م ، يبدو أن جزءاً واسعاً من مصر العليا إعتبر دافعاً الجزية لمملكة المقررة فترة بلغت عدة سنوات (٨٤).

في ٩٦٩م ، عندما تقلدت الخلافة الفاطمية السلطة في مصر، كانت الببط مرة أخرى واجبة السداد. في هذه المرة كان الدور على المصريين لعمل مقدمات دبلوماسية . فأرسل جوهر، الحاكم الفاطمي جديد التعيين في القاهرة، مبعوثاً خاصاً برسالة للملك النوبي ، يرجو منه في أدب إما أن يعتنق العقيدة الإسلامية وإما أن يوالى دفع الجزية. " حال وصوله البلاط الملكي في دنقلا، إستقبل الملك سفير المسلمين بأدب جم. ثم التقى الملك كل أساقفة مملكته وعلمائها ليجتمعوا بالسفارة المسلمة. بعد نقاش مفتوح ، قرأ الملك على الجمعية دعوة إلى جوهر ليقبل الإيمان المسيحي. إن الشهادة الشجاعة للنوبيين المسيحيين لأبد أنها بهرت المسلمين بشكل معتبر، ذلك أن جوهر إمتنع عن القيام بأي تخلاعات عسكرية في النوبة" (٨٥) . إننا لا نعلم، ما إذا كانت الببط قد استؤنفت أم لا؛ فهي لم يرد ذكرها ثانية في المدونات العربية لثلاثمائة عام. لقد كانت العلاقات بين الممالك النوبية ومصر الفاطمية، في كل الحالات، صافية على العموم.

كانت الإطاحة بحكم الفاطميين في ١١٧١م من صلاح الدين الأيوبي، الشهير في المدونات الغربية بسلادين، نذيراً لعداوات مُجددة في الجنوب. قام جيش نوبي بأسر أسوان وسبيلها وكان يتقدم شمالاً، أما في بحث عن الغنائم نهياً أو دعماً لقضية الفاطميين، حتى بلغت الكلمة السامع أن صلاح الدين يتهيأ لهجوم مضاد. عند ذلك تراجع النوبيون إلى عقر دارهم، حيث احاط بهم المصريون متعقبين لهم، ووقعت معركة غير حاسمة.

إتخذ صلاح الدين في العام التالي إجراءً أقوى تناسقاً في مواجهة النوبة. إن اهتمامه بالأرض الجنوبية، وفقاً لتقرير واحد، حرك دوافعه إعتبار أنه ربما يتقهقر عليها كقاعدة لعملياته إذا أُجبر على مغادرة مصر، سواء كان ذلك من جهة الصليبيين أو من أعدائه المسلمين<sup>(٨٦)</sup>. بالتالي ، أرسل أخاه، شمس الدولة، على رأس تجريدة عسكرية إستولت على قلعة قصر إبريم في النوبة السفلى واحتلتها - نفس النقطة القوية التي استولى عليها الروماني برونوس قبل ألف عام سلفت (الفصل الثاني عشر) . إن سرد " أبو صالح" المعاصر يشير إلى أن الغزاة أخذوا الجمع المستحيل ل ٧٠٠.٠٠٠ سجين ، تم بيعهم جميعاً كرقيق، وإنهم قتلوا ٧٠٠ خنزيراً. أما الكنيسة الرئيسة في قصر إبريم فقد حُوت مؤقتاً إلى جامع، وسُجن الأسقف وعذب . مع ذلك، فإن تجريدة عسكرية إلى دنقلا اقتنعت شمس الدولة بأن البلد كان غير منتج ليخدم كقاعدة سياسية أو عسكرية، وصرف صلاح الدين النظر عن أي طموحات إضافية في ذلك الإتجاه . ثم سُحبت القوة المحتلة من قصر إبريم، وساد السلام في النوبة لمائة عام أخرى<sup>(٨٧)</sup>.

بدأت الصراعات التي كانت آخر المطاف خاتمةً لمصير المسيحية في النوبة وقتاً قصيراً بعد ١٢٦٠ ، عندما استولى المماليك البحرية على حكم مصر. في ذلك الزمن كانت المملكة النوبية





الشمالية مغلقة في ذاتها بإضطرابات أسرية، وكان دور للمصريين للمرة الثانية ليصطادوا في مياه سياسية عكرة. إضافة إلى ذلك، كان التوبيون المسيحيون مهدين الإن على طول جنبهم الصحراوي من بدو الأعراب الذين تدفقوا إلى داخل تلال البحر الأحمر خلال القرن الماضي، وكانوا في وقت لاحق قد تسربوا مخترقين مملكة نُقلًا نفسها. ثابر الممالك، عسكرياً معتدين على سياسة نحو الجنوب أشد نشاطاً بمستوى يزيد عما قام به أي أحد سابقاً لوجودهم، وتُكَلِّب تدخلهم المتواصل في الشؤون النوبية بعد القرن الثالث عشر ميزان القوى لصالح العنصر الإسلامي المتنامي في السكان . تلك القصة ، بأي قدر كانت، تنتمي إلى عصر آخر، ولسوف يجري حسابها في فصل متأخر (الفصل السادس عشر). وقبل أن نعتبر إضمحلال المسيحية النوبية وسقوطها، علينا أن نتوقف مُنِيخَةً فُتْلَقِيّ نظرةً تمتد نحو "العصر الذهبي الثاني" الذي تمثله حضارة الفترة الوسطى.

## الفصل الخامس عشر

### التاج والصليب

### حضارة النوبة المسيحية

غُنيّا في الفصل الأخير بمكانة النوبة في العالم الأكبر للعصور الوسطى - وهو عالم سادته المواجهة بين المسيحية والإسلام ستة قرون. علينا الآن أن ننقل مجهرنا إلى البوصلة الأضيق للأحداث والأحوال فيما بين حدود النوبة. هنا كما جرى من قبل، يُشخّ السجل التاريخي، إلا أنه في هذه الحالة يهّب علم الآثار هبةً كبرى لأسعافنا. إن النوبة تخوض غمارها بلا قرار وصوفاً موجزةً في إثارة، تركها لنا كتاب العصور الوسطى (انظر أدناه) ملحقةً بسجلٍ غنى منوع المادة، وقد بدا بشكل نهائى إبان الحقبة الأخيرة في تلقى التنبه الذى يستحقه. نتيجةً لذلك يصير إمامنا بالحياة اليومية في فترة العصور الوسطى أوثق كمالاً منه في أى زمن سابق أو متأخر.

إن أزيد من ربع المواقع الأثرية يبدأ تاريخاً من الفترة المسيحية<sup>(١)</sup>. تشمل هذه ما يفوق المائة كنيسة عدداً، مراكز حضرية عظيمة مثل قصر إبريم، وفرس، ودُنُقلا العجوز، عشرات من المدن والقرى الأصغر، قلاعاً، وأديرةً، ومواقع صناعية، ومدافن بالطبع. معظم هذه البقايا محفوظة بفضل عمرها الشبابى أحسن من بقايا الحضارات الأولى؛ وقد وُجدت بعض الكنائس وعديد من المساكن النوبية صالحة بالفعل. برز أنفاً ذلك التحقيق المنظم بمنهجية للآثار المسيحية، الذى كان قد بدئ بجدية بالغة في ١٩٦٠م، كإنجاز باهر لحملة إنقاذ أسوان الثالثة والأخيرة، مُعوضاً عن أشد حالة بادية من فقدان في الحملتين السابقتين التنقيب الحفرى متواصل في المساحة جنوب النهر من خزان أسوان، بالإضافة إلى قصر إبريم، وتمنح دراسة التاريخ والآثار النوبية في العصور الوسطى كل وعده مبشر بالولوج إلى حقل جديد على دوام من الجهد العلمى<sup>(٢)</sup>. إن أمر تطويره صار بلا ريب مُستثاراً بأعظم كشاف أثرى مثير في أجيالنا: ألا وهو الرسومات الحائطية في فرس (انظر "الدين والكنيسة"، أدناه، والصور ٢١ - ١ إلى ج).

لِزمن طويل يحتمل أن مجرد الكم والنوع لبقايا الآثار المسيحية شكّل كإحداً لتحقيق يُنظم بمنهجية. علاوة على ذلك، كانت مسألة وضع التواريخ والتسلسل الزمني دائمة الحضور. في النوبة دائماً، يمكن تأريخ حفنة مبانٍ لا أكثر من الفترة المسيحية بالدليل المباشر<sup>(٣)</sup>، أما الأغلبية العظمى فلا يمكن تحديد مصيرها سوى لفترة تمتد ثمانية أو تسعة قرون ما بين دخول المسيحية واختفائها النهائى. في الحقبة المنصرمة، أيأ ما اتخذ وضعها، عكست دراسات لطبقات المسح أجريت على الفُخار<sup>(٤)</sup>، والمعمار<sup>(٥)</sup>، والرسم<sup>(٦)</sup> تعاقباً تطورياً يُعدُّ بفصل عناصر المتشابك الأثري العَصبي. فأغلب المواقع يمكن تأريخها الآن بين قرن أو قرنين على أساس بقاياها الأثرية والخرفية، ويمكن تقسيم الفترة المسيحية بأكملها أفرعاً إلى مراحل باكورة، ومتأخرة، ونهائية<sup>(٧)</sup>. هكذا مستبصراً عبر منظور تطوري، لا يدوم ما ظل يقدمه فن فترة العصور الوسطى ومعمارها من بلبلّة في الأساليب والممارسات بمنظماً بدت عليه الحالة في إحدى المرات.

البقايا المادية للعصور الوسطى النوبية نحو ما هي دائماً عليه، غنية الإعلام بظروف الحياة المعيشية اليومية. إن البضائع المتداولة التي ظلت باقيةً تمنحنا مقياساً بلا تدقيق للتجارة وتموجاتها، إضافة لذلك يخبرنا رسم المدن والقرى، الذى يمكن إبرازه بصفاً يفوق مراحل ما أدرك في العصور

الوسطى بالآزمان السالفة، قدراً عظيماً من الأحوال الإجتماعية ومتغيراتها<sup>(٨)</sup>. في المحيط الأيدولوجي نحصل كذلك على نظرة ثاقبة نحو باطن الحياة الدينية لتلك الآزمان، إذ إن ثقافة العصور الوسطى النبوية كانت ثرة في الرمزية الدينية إلى حد إقصاء كل أنواع الرمزية الأخرى. لهذا السبب عينة فإن السجل، مع ذلك لا يتيّس شيئاً عن التاريخ السياسي الديني، ومن هنا يجب علينا أن نواصل الاعتماد على البينة النصية المنشطرة وغير المرضية دائماً كما تُحذرت إلى علمنا .

### عروض معاصرة للنوبة في العصور الوسطى

مع أن صورتنا عن الحياة اليومية في العصور الوسطى لا بد أن تؤسس إلى حد بليغ على البينة الأثرية، بوسعنا أيضاً أن نستمدّها من ثلاثة سرود لمراقبين معاصرين: العُمري، وابن سليم الأسواني، وأبو صالح "الأمني". إن أيّاً من تلك السرود، مع ذلك، لم تحدر إلينا في صيغتها الأصلية كاملة. مغامرات العُمري والوصف الجغرافي الذي كتبه ابن سليم معروفين لنا من مقتطفات في جغرافية القرن الخامس عشر للمقرّيزي<sup>(٩)</sup>، بينما مؤلف أبو صالح كنائس وأبرية مصر وبعض أقطار مجاورة يظل باقياً في نسخة من القرن الرابع عشر غير مكتملة وشديدة الخرق<sup>(١٠)</sup>. حتى في هذا الشكل المتعرق ، برغم ذلك، يوفر المؤلفون (وعلماء متأخرة لا خصّر لهم كانوا قد نسخوا بوضوح عنهم) البصيص الأصلي الوحيد الذي تملكه عن الأحوال في النوبة بالعصور الوسطى، فبالقيمة التاريخية لتقاريرهم لا يدركها ثمن .

كان العُمري صُلوكاً غريباً يغلب أن يكون على غرار المغامرين العسكريين الأمريكيين غير النظاميين الذي انشاعوا العرب في جمهوريات أمريكا الوسطى قبل مائة عام خلت. غزا النوبة على رأس ما يرقى إلى جيش خاص في الجزء الأخير من القرن التاسع، بهدف السيطرة على مناجم ذهبها المخزون. وسواء أكانت المناجم بالفعل منتجة في هذا الوقت، أم أن العُمري فعلت به ما فعلت أحاجي ثرواتها في الأيام الخوالي، فامر غير مُستيقن. أقام نفسه على كل حال في الجبال فوق أبو حمد، بالقرب من الشلال الخامس، ولعدة سنوات أبقى في عزم دولةً مستقلة بالفعل، جانباً بقوة السلاح وجانباً بالمداخلات المستمرة مع كل من دنقلا وعلوة. وبعد مسيرة حافلة بالمصالح المتعددة مكتظة بالخيانة والأخطار أزاحه أخيراً الملك المقرّي، وأغتيل في النهاية. إن قصة مغامراته، كما أعاد روايتها المقرّيزي، قصيرة في تفاصيلها الوصفية، لكنها تضيف مسحةً من الألوان والحركة الإنسانية لعصر نامٍ غير معروفٍ عداها<sup>(١١)</sup>.

كذلك محفوظاً في مقتطف للمقرّيزي ووصفٌ للنوبة مكتوباً في نهاية القرن العاشر من ابن سليم الأسواني. وقد كان مسنولاً مصرياً إضطلع حوالي عام ٩٧٠ بمهمة دبلوماسية للحاكم الفاطمي في القاهرة لدى البلاط الملكي في المقرّة، كما أشير إلى ذلك في الفصل الرابع عشر. على الرغم من إخفاق مساعى الدبلوماسية يبدو أن ابن سليم كان مراقباً واسع الأفق عطوفاً: إن وصفه (كما رواه المقرّيزي) يعكس تقديراً مُعتبراً لجاذبيات النوبة وفضائل قومها. يكتب عن مقاطعة دُنُقلا.

ما رايت في النيل مكاناً مثل هذه الضفاف العريضة. لقد قَدَرْتُ أن النهر ينساب من الشرق إلى الغرب في رحلة لخمسَةِ أيام (يصف هذا المنحنى العكسي فوق دُنُقلا - أنظر الشكل رقم ٥). إن الجزر تنقطعها وبينها تجري المياه غير أرضٍ خصبة تلاصق بها بعضها بعضاً قرى ذات مباني حسنة وبيوت للحمام، وقرى وقطعان، ثمن معظم إمدادات مدنيهم من أطيار النقيط، والنوى، والبيغاء وطيور خلافة أخرى. معظم قصور زعيمهم في هذه المحافظة. لقد كنا ذات مرة ... معه حينما مررنا عبر قنوات ضيقة في ظل الأشجار النامية على كل من الضفتين . يقال أن التماسيح لا تؤذي الناس أبداً هنالك. ولقد رايت أناساً يقطعون سباحةً أنحاء عديدة من هذه المياه. ثم تأتي صفد بقال، مقاطعة ذات ضفافٍ ضيقة، تمتلئ الجزء الأول من بلادهم، عدا أنه توجد بها جزر خلافة وعلى مسافة أقل من

يومين إرتحالاً حوالى ثلاثين قرية ذات بنايات جميلة وكنائس، وأديرة ووفرة من أشجار النخيل، والعنب، والحدائق، والحقول ومراع كبيرة ترعى إبل حسنة المنظر جيدة النشأة. إن زعيمهم يتردد على زيارتهم هنا، لأنها في جنوبها تقع على حدود عاصمتهم مدينة دُنُقلا<sup>(١٧)</sup>.

إبن سليم واحد من المؤلفين القلائل الذين تولوا تزويدنا بأبما أنباء عن المملكة النوبية الجنوبية علوة. مع هذا، فإنه يتضمن ما يقرر أنه زار المملكة القديمة بشخصه، وتقتقد تصوره نغمة المصادقية فيما يبدو واضحاً للغاية في وصفه للمقرة. فقد وصف ملك علوة بأنه أغنى من ملك المقرة، يأمر صهوراً أزيد وجنوداً أكثر. وإن سوبا، عاصمة المملكة الجنوبية، كانت مُزدانة بمبان كثيرة رائعة، وكنائس مطهمة بالذهب ومجملة بالحدائق، ولها ضاحية تقع جانباً للمسلمين<sup>(١٨)</sup>. هذه الإدعاءات التي يرجح أنها خيالية لم تحصلها البقايا الأثرية غير الفارغة لسوبا (مع أنها غير محفورة بعد في معظمها)<sup>(١٩)</sup>؛ إنها توحى بأن معلومات المؤلف ربما كانت قد أخذت من سرود لمسافرين مهولاً فيها، أحيط بها علماء أثناء إقامته في دُنُقلا.

آخر مصدر هام لنا عن النوبة المسيحية في أيامها هو أبو صالح. خلا النسخة الواحدة الباقية لعمله لا يُعرف أى شئ أبداً كان عن المؤلف؛ إن فقرات في نصه تومئ إلى أنه كان عضواً في المجتمع الأرميني في مصر<sup>(٢٠)</sup>. ثمانية فقط لا أكثر من صفحاته المرقمة البالغة ١١٢ مكرسة للنوبة<sup>(٢١)</sup>، وليس مستيقناً أنه زار المنطقة بشخصه. بالرغم من ذلك، تثبت معظم معلوماته ما أورده ابن سليم. والواضح أن أبو صالح كان داعية مسيحياً مترمناً، فهو يصف كلاً من دُنُقلا وسُوبا كاماكن للعجائب، مليئة بالكنائس الجميلة ذات الثراء. إن أقيم معلوماته، وربما أشدها بعثاً للثقة، تنطوى طبيعة سياسية، وسوف تناقش في القسم القادم.

## تنظيم دول القرون الوسطى

تسمع لنا عادة بقايا الصروح من الحضارات النوبية الأولى أن نستخرج شيئاً حول الأحوال السياسية الجارية أثناءها، ولو لم تخبرنا شيئاً عداها. في الجهة الأخرى تكاد الآثار لا تسهم بشئ في جانب إدراكنا للتنظيم السياسي في العصور الوسطى. دينية مطلقة وأخوية رمزية هذه الفترة لدرجة أنه، إن لم يكن لدينا شئ آخر لياخذ بيدنا، فلسوف نخلص كاحتمال إلى أن النوبة كانت في قبضة طغيان لنخبة دينية. كما كانت بلا شك في معنى واحد. مع ذلك، فإن التعايش المشترك مع ملكية دينوية مثبت بمستوى كافٍ بمصادر وثائقية إن لم يكن بسجل أثرى<sup>(٢٢)</sup>. القليل الذي نعلمه بتفصيل حول تنظيم دول العصور الوسطى يأتي أساساً من نفس المراقبين الغرباء ولو أنهم متعاطفون، نستقى منهم معرفتنا بالتاريخ المعاصر (قارن بالفصل الرابع عشر).

إبان وقت تحويلها للمسيحية كانت النوبة، كما شاهدنا مسبقاً، مقسمة إلى الممالك المستقلة الثلاثة، نوباديا، والمقرة وعلوة. بعد وقت قصير، وتحت ظروف غير مدونة، اندمجت المملكتان الشماليتان في نوع من الكونفدرالية التي كانت فيها المقرة غالبية. إن الحكم المتحد انتمى إسمياً إلى الملك المقري، الذي كان مقره الرئيس في دُنُقلا العجوز. إمتد سلطانه من أسوان إلى ضاحية أبو حمد، ومن الممكن أنه امتد أبعد من ذلك إلى الجنوب بشكل مُعتبر (الشكل رقم ٦٩).

القاعدة الأيدولوجية والقانونية الملكية النوبية يبدو أنها كانت مختلفة قليلاً من القاعدة التي كانت عليها دول أخرى في العصور الوسطى. لقد كانت السلطة الموقوتة للملك، نظرياً، مطلقة، يعتبر رعاياه عبيداً له. المالك الوحيد لأراضي المملكة، يفرض الإيجارات ويلغيها كما يشتهي. أما إذا كانت السلطة الملكية مقيدةً عملياً بأى نوع من المجالس الحاكمة فأمر غير مؤكد؛ ما هنالك إثبات على وجود هيئة يعينها مؤسسة رسمياً في الوثائق المعاصرة<sup>(٢٣)</sup>. مع ذلك، فإن المجمع الخاص من

"الأساقفة والعلماء" الذى دُعِيَ بأكمله ليناقد سفارة ابن سليم (انظر الفصل الرابع عشر) يظهر أنه قام بوظيفة مجلس تنفيذى غير رسمى على الأقل.

طبقاً لأبو صالح كان للملك سلطات دينية ودينية بالمثل: إن بوسعه أن يدخل دائرة العبادة في الكنيسة ويحتفل بالشعائر كائى قسيس. إلا أنه، يسحب هذا الإمتياز إذا كان قد سفك دماً بشرياً<sup>(١٩)</sup>. الظاهر في جوانب أخرى أن سلطة الملك في المحيط الدينى كانت تبعد عن أن تكون سلطة مطلقة، ذلك أنه لم يكن بمقدوره (بخلاف الملوك الكاثوليك في أوروبا الغربية) أن يُعَيِّن الأساقفة في دائرة حكمه. يسعون من قبل بطريرك الإسكندرية، الذى كان يُعد أعلى من الملك في الشؤون الدينية.

يشير كتاب عرب إلى الملك النوبى الأعلى أنه "ملك المقرّة والنوبة" أو "الملك العظيم" في بعض الأحيان. هذه المسميات وصفية بجلالة، لا تخرج في المراسم الملكية الرسمية. وتتحدث مصادر قليلة إلى جانب ذلك عن الملك النوبى بأنه يحمل اللقب الوراثى كاميل أو كاييل، لكن هذا بدوره غير مُدَوَّن في وثائق أهلية. أما تلك النصوص النوبية التى تقدم إشارة ما عن هذا النظام الملكى فهي مفتقدة بشكل بارز للمراسم المُسرفة للأيام السالفة؛ إنها تستعمل ببساطة اللقب الإغريقى باسيلويس ("ملك") أو بَيْلُها النوبى "أور" (٢٠).

وفقاً لمونري دى فيلار تكونت الشعارات الملكية من عرش، وشمسية خفيفة وتاج<sup>(٢١)</sup>. من هذه تعرف العرش والشمسية فحسب من عُروض تاريخية موضع الريبة نوعاً ما. على الجانب الآخر تصور بعض رسوم الكنيسة النوبية التى وُجدت منذ وقت وجيز في فرس حكماً حقيقيين في مظهرهم الخارجى الملكى<sup>(٢٢)</sup>. رُسم الملوك ملتحفين بجلابيب مطرزة بثراء مُتوجين بعصابات من ذهب مُحلاة بالجوهر (الصورة ٢١ - ١). إن نوع كل من الأرواب والتيجان بينظنى بما لا خطأ فيه - يوحي بدرجة عالية كأنما الفنانين كانوا ملهمين تقاليع معاصرة للرُخرف الحائطى أشد منها نماذج حقيقية<sup>(٢٣)</sup>.

يبدو واضحاً من عدد المُونوات أنه في نوبة العصور الوسطى الباكسة إنتقلت الوراثة الملكية من أب إلى ابن بالتقليد المسيحى المعتاد<sup>(٢٤)</sup>. بعد القرن الحادى عشر، مع ذلك، يمكننا أن ندرك رجوعاً يشير الغربة لتقليد أعمق منه قدماً. لقد قيل أنه عادةً وسط النوبيين، عندما يموت ملك ويترك ابناً، وابن أخت كذلك، يحكم الأخير بعد خاله، بدلاً من الإبن، غير أنه إذا لم يكن هنالك إبن للأخت، فإن إبن الملك نفسه يحلّفه حينذاك<sup>(٢٥)</sup>. ووفقاً لابن خلدون، الذى تَوَنَّن نفس العادة، كانت تلك قاعدة الوراثة الامومية التى أدت لإسلام النوبة بالجملة بعد أن بدأت النساء المسيحيات يتزوجن مهاجرين مسلمين (انظر الفصل السابع عشر)<sup>(٢٦)</sup>.

يقيناً كانت دنقلا العجوز أهم إقامة إن لم تكن المقرّ الملكى الوحيد طوال العصور الوسطى. لقد كانت مدينة كبيرة الحجم منتشرة على طول قمة رابية منخفضة تعلو النيل مباشرة، على شاطئه الشرقى. مع أنه ليس هناك دليل على استيطان هنا قبل الفترة المسيحية، فإن موقف دنقلا العجوز كان بشكل إستثنائى نافعاً من زاوية الزراعة، ذلك أنه يقع مباشرةً في إتجاه مجرى النهر جنوباً من حوض لتى، أحد المناطق القليلة في النوبة التى يمكن فيها ممارسة رى الحياض الطبيعى. إلا أن مدى أثر هذا العامل في اختيار دنقلا كمقر ملكى غير معروف. أما أطلال المدينة، التى تغطى مساحة من عدة مئات من الأقدنة، فبدت على الأقل تتلقى تنبيه علماء الآثار؛ وربما تُصيف بعضى الوقت علماء وفيراً إلى معرفتنا عن التنظيم الدنىوى في النوبة إبّان العصور الوسطى<sup>(٢٧)</sup>. إن مبنى مزخرفاً واسعاً، محدّدة ملامحه منذ قدم بانها كنيسة، يُعتقد الآن من ناحية المتّقين أنه كان مقراً ملكياً، مع أن هذا لم يُؤيد بعد بدليل إيجابى<sup>(٢٨)</sup>. أُعيد تكريس المبنى كجامع في القرن الرابع عشر، طبقاً للوحة مخطوطة لاتزال منظورة في واحدة من الحجرات<sup>(٢٩)</sup>.

جانباً عن دنقلا نفسها، ما من مراكز حضرية هامة معروفة عن المقرّة، مع أن هناك عديداً منها

في المقاطعة الشمالية لنوبياديا (الشكل رقم ٧١). كيفما كان الحال، فقد بلغ أبو صالح أن عدد الملوك في النوبة ثلاثة عشر، حكموا كلهم الأرض تحت سيادة ... الملك العظيم<sup>(٢٠)</sup>. قد يكون هؤلاء إقطاعيا ملوكاً محميين حكموا محلياً أجزاء مختلفة من وادي النيل. إن وجود مملكة واحدة من هذا القبيل قد أثبتت بمعثورات في قصر إبريم منذ وقت قريب .

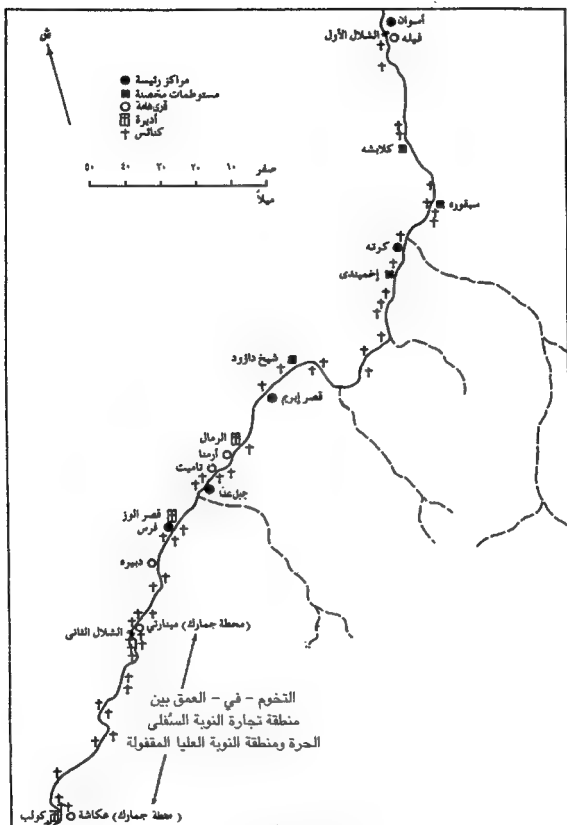
بعد اتحادها بالمقرّة كانت منطقة نوبياديا المستقلة سابقاً لا تزال محتفظةً بخصائص هوية ومكانة سياسية خاصة بنفسها. في وثائق عربية متأخرة يشار إليها عادة على أنها محافظة ماري، من كلمة قبطية للجنوب<sup>(٢١)</sup>. لقد كانت محكومة، من القرن الثامن وما بعده، من قبل نائب ملكي خاص يحمل اللقب الإغريقي إبارش<sup>(٢٢)</sup>. يُشار إليه مكرراً من كتاب العربية بلقب "سيد الجبل"، بالرغم من أن معثوراً قريباً كشفه في قصر إبريم يحمل على الاعتقاد بأن اسمه يمكن عده بالمثل "صاحب الخيل"<sup>(٢٣)</sup>.

يبدو أن الإبارش كان بالضرورة والياً على النوبة السفلى. إن مكانته يجوز لذلك أن تُقارن بمكانة بسّني المروى، الذي فيما كان ظاهراً حكم نفس المنطقة كنائب للبكر (قارن الفصل الثاني عشر). جَلَى أن الإبارش كان بوسعه أن يؤدي عدداً من الوظائف الملكية التقليدية، مثل تأسيس الكنائس وصلواتها الإحتفالية. (صُورَ في رسم حائطي في زمن متأخر جداً وُجد في عبد القادر ممسكاً بنموذج الكنيسة ببيده)<sup>(٢٤)</sup>. إضافة لذلك، يبدو أن الإبارش كان مسؤولاً على وجه التحديد عن سير العلاقات مع مصر المسلمة؛ حقيقة إن هذه الوظيفة يجوز أن تفسر الظهور والأهمية اللاحقة لمكتب إبارشي منفصل. وطبقاً لإبن سليم، فإنه "... واحد من حكامهم الأساسيين، لأنه قريب جداً من إقليم المسلمين. حيثما ارتحل مسلم إلى هذا البلد، وكانت بحوزته تجارة للبيع، أو هدية للملك أو للحاكم، يتسلمها الأخير كلها، ويرجع القيمة عبيداً؛ غير ماذون لأى واحد، مسلماً أم غيره، أن يقدم نفسه بشخصه للملك أبداً"<sup>(٢٥)</sup>.

دليلٌ إضافي على صفقات الإبارش التجارية أُلقي عليه الضوء، منذ عهد قريب مضى وسط المراسلات التي وُجدت في قصر إبريم. طبقاً للمنتخب هناك "... سبع رسائل بُعث بها إلى الإبارش من مسؤول بالقصر الفاطمي يمتلك سفناً في ميناء عيذاب على البحر الأحمر وله كذلك عمل تجارى ممرّكز في قوص. يبدو أنه تصرف كوكيل للحكام النوبيين، يُرسل إليهم بضائع مختلفة ويشترى عبيداً لحسابهم، إلخ. إن الرسائل... تحتوي تفاصيل عديدة تثير الإهتمام عن التجارة الجارية بين مصر والنوبة..."<sup>(٢٦)</sup>.

كان الإبارش في القرن التاسع مُعيناً ملكياً بناء على إفادة ابن سليم. لكن كُتاباً لاحقين تضمنت كتاباتهم بالعربية أن المنصب كان وراثياً. يبدو على صغير واحد إنه في الفترة المسيحية المتأخرة كان الدفاع عن التحوم الشمالية واحداً من مسؤوليات الإبارش الرئيسة؛ لقد كان بتعبير آخر منوطاً به تسيير دفة علاقات خارجية من نوع آخر<sup>(٢٧)</sup>.

وسط رسوم الكنيسة في فرس وعبد القادر عدد من تمثيلات الإبارش<sup>(٢٨)</sup>. إنها موصوفة بنفس التقاسيم المنمّطة والمظهر الثرى كرسوم الملوك والأساقفة على نفس الجدران. مهما سار من ذلك بمقدورنا أن ندرّك في لوحاتهم علامة إبارشية مميزة واحدة على الأقل: غطاء رأس بزّوج وأحمر أو اثنين من القرون البارزة، أحياناً يعطى هامة هلال. إن أصول هذه الأداة وقيمتها جرت مناقشتها بإستفاضة<sup>(٢٩)</sup>؛ يعتقد ميخالوفسكى أنها استعارها النوبيون من الفرس الساسانيين<sup>(٣٠)</sup>. ووفقاً لرأيه يجوز أن يلبس التاج ذا القرون ملوكاً كما يفعل إبارشة<sup>(٣١)</sup>، لكنه مُثبت على وجه أفضل بدرجة عالية في حالة الآخرين. (رغماً عن ذلك في أزمان ما بعد المسيحية ليس التيجان المقرّنة عدد من الملوك في أنحاء متفرقة من السودان)<sup>(٣٢)</sup>. إضافة إلى غطاء رأسه وصف الإبارش في عبد القادر وهو يلبس رداءً مزركشاً في أجزاء عديدة منه بالنسر البيزنطي المزدوج<sup>(٣٣)</sup>. رمزاً لسلطة غير متوقّعة للغاية في



شكل رقم ٧١

النوبة السفلى في الأزمان المسيحية المأثورة



"بينت كشوف أجريت عما قريب في قصر إبريم أن الإبارش لم يكن هو السلطة المدنية الوحيدة في النوبة السفلى. إن عدداً من الوثائق من أواخر القرن الثاني عشر لا تعطى الأسماء للإبارشة وغيرهم من موظفي الدولة الآخرين فحسب، لكنها بالمثل تقدم أسماء "ملوك دوتاو" (٤٤). كانت هذه فيما يفترض ضمن ملوك دُتقلا الذين تولوا الحكم وأشار إلى وجودهم ضمناً إبن سليم (انظر أعلاه). الموقع الدقيق لدوتاو غير معروف، لكن المفترض أنها اشتملت المنطقة المحيطة بجبل عدا، التي كان اسمها في القرون الوسطى (فيما هو ظاهر) دو أو داو (٤٥). إن وجود هذه المملكة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عُرف من معثورات وُجِدَت مكرراً (٤٦)، لكنها تُظَر إليها دائماً على أنها دولة صغيرة خرجت إلى الوجود بعد تفكك المقرّة (قارن الفصل السادس عشر). واضح الآن بشكل أو آخر أنه كان هنالك نظاماً ملكياً لدوتاو قبل وقت طويل من الإضمحلال النهائي لدنقلا.

من الصعب أن نعلم من التينة الشحيحة التي أمكن توفرها، ماذا كانت عليه العلاقة بين الإبارشة والملوك التابعين. في الوثائق التي تذكر الإثنيين، يبدو إسم الملك ممنوح السبق، لكن ربما أن هذه مراسم متفق عليها ولا تعكس بدقة سلطاتهم المقررة. كان الإبارش بالطبع النائب المباشر للملك العظيم في دنقلا؛ وبهذه الكيفية لعله كان مسؤولاً عن الإشراف على عدد من الممالك المحمية. ربما يحفل بالمعاني، أن الإبارش لا الملك هو الذي يحمل لقب "نوباديا" بذا يظهر أنه يُكَدّ سلطة الملكية الشمالية المستقلة التي سادت فيما مضى. في غياب بَيِّنة أكثر مباشرة يبدو منطقياً أن يفترض أن الإبارش كان مشرفاً عاماً، لكنه كان مسؤولاً بتحديد دقيق عن تسيير العلاقات الخارجية، في حين أدار الملوك المحمين شؤون الحكم اليومية في عمودياتهم المعنية .

يقوم بخدمة كُثر من الملوك في دنقلا والإبارشة في الشمال حُشم في قصور مختلفة تناهت القبابهم إلى علماً على أنها دوميسستكوس، وبروتودوميسستكوس، وميريون، بروتوميزوتروس، وبريميكريوس. كل هذه الألقاب إغريقية، مألوفة من العصر البيزنطي في مصر وشمال إفريقيا (٤٧). إن الوثائق النوبية المجزأة التي ذُكرت بها لا تمنحنا لسوء الحظ دالة فيما يتعلق بوظائفها، وليس باستطاعتنا بالضرورة أن نفترض أنها كانت مماثلة لما كان بمصر أو بيزنطة (٤٨). مثل معظم "البروليتاريين الغرياء" كان النوبيون قابليين بأعلى قابلية لتبني رموز السلطة، شفاهياً وحسبياً على السواء، ولو لم يدركوا معانيها، وربما كان التمثل المتخيل بين البلاط النوبي والبلاط البيزنطي تظاهراً اصدق منه أمراً حقيقياً (٤٩). أيأ ما كانت الحال عليه، فإن مثابة الألقاب الإغريقية على البقاء، واستخدام الإغريقية لغةً للمراسم، وأداة التسرّ المزدوج التي بدت على رداء الإبارش (كما وُصفت في عبد القادر) تشهد كلها بالسلطان الذي لا يزال معلقاً بمؤسسات بيزنطية طويلاً بعد انهيار سلطة بيزنطية في الشرق الأدنى .

أما "عاصمة" نوباديا أو ماريس فقد أدلى معظم كتاب العربية على أنها كانت في فرس. كانت هذه بالطبع أهم كرسي أسقفى للنوبة السفلى، كما تشهد به في جزالة البَيِّنة الأثرية (انظر أدناه). إقترحت فرس كذلك مقرأً للحاكم المدني (٥٠)، لكن حجم التراسل إلى الإبارش ومنه ما عُثر عليه في قصر إبريم يجعل من الأرجح احتمالاً أن قصر إبريم كان مقره الرئيس (٥١). في نصوص أخرى، مع ذلك يتنوع ربط الإبارش بثلثيميس (٥٢)، وجبل عدا (٥٣)، وجزيرة ميكائيل (مينارتى) (٥٤)، بمكان غير معروف يسمى بوساكا (الشكل رقم ٧١) (٥٥). ولما كانت وظائف الإبارش في المقام الأول (بخلاف مهام الملك) عملية أكثر منها رمزية، يبدو ممكناً أن مقره كان واحداً متحركاً، ليس متجسداً بثبات في أي محل واحد. بعد القرن الثالث عشر، عندما قاست فرس تداعياً مرعباً، بدا هنالك أن الكرسي الرئيس لكل من الإبارشة والأساقفة كان بلا شك في قصر إبريم (٥٦).

لم نَقم معاهدة البقط تمييزاً سياسياً أو إقتصادياً بين أجزاء مختلفة من النوبة؛ لقد منعت

إستيطان المسلم من أسوان إلى تخوم علوة (انظر الفصل الرابع عشر). في زمن ابن سليم، مع ذلك، تبدو النوبة السفلى مفتوحة لإستيطان المسلمين. ومع أن خلفية هذا التطور بعيدة عن الصفاء، يحتمل أنه نتج عن الحكم القانوني، الذي تمت مناقشته في الفصل الرابع عشر، والذي قضى بأن النوبيين في النوبة السفلى لم يكونوا عبيداً لملكهم وإنما لذلك أحراراً للتصرف في أراضيهم لأي من اختاروا<sup>(٥٧)</sup>. يبدو أن هذه فتحت الباب لإستيطان المسلمين بين الشلالين الأول والثاني، كما لا يشهد بذلك سرد ابن سليم وحده إنما بعدد من شواهد القبور العربية التي رأت النور في أجزاء كثيرة من النوبة. إن كلاً من هذه مما يمكن تأريخه يقع في الفترة الزمنية بين ٨٣٢ و ١١٣٧ م<sup>(٥٨)</sup>.

ليس هناك شيء في السجل الأثري لينبئ عن وجود مجتمعات مسلمة منفصلة في النوبة السفلى. ربما كان أغلب المستوطنين في زمن ابن سليم تجاراً أو حرفيين إتحذوا الإقامة بين المدن المسيحية الكبيرة. وقد يظهر أن بعض المساجد أنشئت، رغم أن إياها منها لم يتم التعرف عليه أثرياً<sup>(٥٩)</sup>. يُبلغ ابن سليم أنه في النوبة السفلى سارت التجارة بحرية بين النوبيين والمسلمين، وكان المال متداولاً. في الجانب الآخر بقيت المنطقة وراء الشلال الثاني مغلقة أمام الإستيطان العربي والتبادل السلعي العربي على السواء:

في الشلال الأول للنوبة (أ: الشلال الثاني للنيل) تقع المدينة المُسمّاة تاكوا، على أرض منبسطة، حيث تتوقف مراكب النوبيين الصاعدة من القصر في العادة. إن المراكب لا تجرّو على المرور عبر هذه القرية، وليس من مسلم، أو أي شخص آخر، بقادر على أن يصعد النهر بُعيد الجنوب، دونما إذن من صاحب الجبل. من هنا إلى مقس العليا رحلة ستة أيام. توصل الشلالات كل الطريق صاعداً. هذه هي أسوأ أجزاء النوبة التي رأيتها... النهر متقطع دوماً بمساقط سريعة وجبال نائمة... تنتمي المقاطعة إلى إقليم مارس، ويحكمها صاحب الجبل أما الحامية في مقس فهي محكومة حكماً صارماً من ضابط أسره زعيم النوبة العظيم، لدرجة أنه عندما يعبر الزعيم العظيم نفسه ذلك الطريق، يقف الحاكم إلى جانبه.

لا يُتداول مال ولا دينار هنا؛ إنها تستعمل في الحركة التجارية صادراً ووارداً مع المسلمين شمال الشلالات فحسب؛ غير مُصنّجة ببيع أو شراء جنوب الشلالات تجارتهم محدودة بالمقايضات المتبادلة للبقر، والرقيق، والإبل، والحديد والحبوب. لا يتابع أحد سيره إلا بإذن الملك؛ ومخالفة هذا الأمر جزاؤها الموت. حاصلأ لهذا النظام من المنع لا تصل إستخبارات أبداً عن تحركاتهم...<sup>(٦٠)</sup>

قد يبدو من وصف ابن سليم أن مُقس العليا كانت نوعاً ما بالقرب من الحد الجنوبي لبطن الحجر. يضيف أبو صالح أنباء أخرى أنها كانت تقع إلى جوار بُيع ساخن<sup>(٦١)</sup>، يجعل من الممكن أن يتم تعرف حدسي على قرية عكاشة الحديثة، التي يُلصقها النُبُع الساخن الوحيد في النوبة<sup>(٦٢)</sup>. يتحدث ابن سليم عن المكان كنقطة لحامية، في حين يصفه أبو صالح بدقة أفضل تحديداً كمحطة جمركية: "ما من أحد يؤذن له بالمرور بجانب سكان هذا المكان دون أن يفحص ولو كان ملكاً، فإذا واصل أي واحد إندفاعه ورفض أن يُجرى عليه التفتيش، قُضى عليه بالموت"<sup>(٦٣)</sup>.

إن وجود محطات جمركية في كل من تاكوا ومُقس العليا، في الحدود السفلى والعليا لبطن الحجر بالترتيب، تفترض أن هذه المنطقة الجافية خدمت كنوع من التخوم في العمق بين المنطقة الحرة للنوبة السفلى وباقي مملكة دنقلا (قارن الشكل رقم ٧١). إننا نذكر نهاية الأمر أنها كانت محمية لنفس الغرض منذ ثلاثة آلاف عام سلفت، بالرغم من أن المصلحة السياسية كانت آنذاك نابعة من الجانب الآخر. سياسة الملك النوبي في العصور الوسطى، أنه "لا يجزّو مسلم، أو أي شخص آخر، على صعود النهر ناحية الجنوب، دونما إذن من صاحب الجبل"<sup>(٦٤)</sup> تقيم مناقضة مذهلة تهكماً على إعلان سمعة من سنوسرت الثالث: "... يمنع أي زنجي أن يعبرها، عبر النهر أو بالبر... فيما عدا زنجي يكون عليه أن يأتي ليتاجر في أيكن، أو مبنعتاً" (قارن الفصل السابع)<sup>(٦٥)</sup>.

صورة العلاقات النوبية مع المسلمين التي تخرج من صفحات ابن سليم وأبو صالح واحدة مألوفة من التصالح السياسي والإقتصادي. سواء بالرسم المخطط أو من خلال العجز السياسي، كان الملك النوبى ملزماً بحفظ منطقة عازلة في النوبة السفلى مانوئاً بينها بتداخل حر بين النوبيين والمسلمين. إن الإشراف على هذه الحركة التجارية كان بجلاء المسؤولية الكبرى للإبارش. في نفس الوقت، وتعويضاً لسياسة التخوم المقترحة، إتخذت تدابير صارمة ورداعة لتحول دون تسرب النفوذ الإسلامى إلى جوف الأجزاء الجنوبية من المملكة المسيحية<sup>(٧٦)</sup>.

مهم أن يلاحظ أن التمييز السياسي بين المنطقة العازلة للنوبة السفلى وباقي مملكة دُنُقلا لا يتماشى مع التمييز الجغرافى بين ماريس (أو نوباديا) والمقرّة الذي أقامه معظم الكتاب العرب. وطبقاً لابن سليم الذى كانت معلوماته الجغرافية دائماً دقيقة وصريحة، تقوم الحدود بين ماريس والمقرّة في مكان ما إلى الجنوب من جزيرة صاى وفى ضاحية لشلال عظيم، لا يمكن أن يكون سوى الشلال الثالث (الشكل رقم ٦٩)<sup>(٧٧)</sup>. المؤلف كان يصف بوضوح حدوداً عرقية ولغوية أكثر منها واحدة سياسية، بطريقة أو أخرى؛ يتحدث عن سكان ماريس والمقرّة كاقوام مختلفة تنطق لغات مختلفة<sup>(٧٨)</sup>، لكنه لا يذكر أى محطات جمركية أو منشآت عسكرية على التخوم بينهما. يستحق الذكر إضافة لذلك أن حدود اللهجات الحديثة بين النوبيين متحدثي المحسية ومتحدثي الدنقلوية قريبة من التخوم التي عرفها ابن سليم<sup>(٧٩)</sup>. من هذا وأمثلة عديدة أخرى، يبدو بصفاء أن المسميات التي أعلمها علماء عرب في العصور الوسطى لها قيمة وأهمية عرقية ولغوية أشد منها سياسية<sup>(٨٠)</sup> طوال العصور الوسطى تضاربت التخوم السياسية تبعاً لثروات الحكام ككفراد؛ ما لقيت حدوداً دواماً سوى الحدود الثقافية .

لعل المملكة النوبية الجنوبية تمثل إستثناءاً جزئياً عميقاً للتعميم الذي مضى ذكره. إن المسعودي تحدث عنها كتاباً للمقرّة<sup>(٨١)</sup>، علي أنه يتفق كل كاتب آخر أن علوة كانت دولة مستقلة، كما هو متضمن بياناً في معاهدة البقط (الفصل الرابع عشر). جانباً عن حقيقة وجودها، مع هذا، لا تُخطر شيئاً يؤثّق به حولها. الأوصاف الباقية من ابن سليم<sup>(٨٢)</sup> وأبو صالح<sup>(٨٣)</sup> ليست مصادفة كلها؛ إنها تحتوي في وضوح مزجاً من الحقيقة والخيال. يبدو أنها تعود إلى ذلك الجناس من أدب البديع الذى ينمو بدوام ملحوظ حول ممالك نائية ذات شهرة قليلة في غياب معرفة موثوق بها .

وفقاً لابن سليم كانت المسافة أبعد من دُنُقلا إلى تخوم علوة مما كانت عليه من دُنُقلا إلى اسوان (أى فوق ٥٠٠ ميل)<sup>(٨٤)</sup>. غير جائز أن تكون هذه هي الحالة، لأنها تضع ولقد الغى المهدي الضرائب المثقلة للنظام التركي - المصري تخوم علوة بعيداً إلى جنوب ملتقى النيلين، حيث تقع حاضرة مدنها كما نعلم. وعلى أساس معلومات أخرى، مع هذا، يعتبر كبروان أن الحدود الشمالية لعلوة كانت في مكان ما بالقرب من خرائب مروي (الشكل رقم ٦٩)<sup>(٨٥)</sup>، في حين يضعها أركيل أبعد بمسافة صوب الشمال<sup>(٨٦)</sup>. يبدو محتملاً أنه ما كانت هناك في الحقيقة تخوم سياسية ثابتة بين المقرّة وعلوة؛ فالإقليم الصحري غير المنتج بين الشلالين الرابع والخامس سوف ينصب منطقة عازلة طبيعية ذات أثر، لربما أن سكانها الأقل لم يكونوا مسالمين بشكل متسق لآى من المليكين (إنه في هذا المكان بدقة كان العمرى قادراً على إقامة دولته المتمردة في القرن التاسع، كما أشير مسبقاً). وربما كانت التخوم العلنية لعلوة التي أشار إليها ابن سليم حدود لهجة أخرى<sup>(٨٧)</sup>.

بناءً على تقرير ابن سليم "زعيم علوة شخص أعظم من زعيم المقرّة، وله جيش أقوى، وبلده أزيد إمتداداً وخصوبة"<sup>(٨٨)</sup>. فإذا كان هذا صحيحاً بجذافيره، لابد أن المملكة شغلت معظم ما يشكل أواسط السودان اليوم. وبصرف النظر عن ذلك، وجدت بقايا أثرية منبئة بإقامة مسيحية حتى اللحظة في مساحة محدودة للغاية من ملتقى النيلين وحسب، فما يحده شمالاً يبلغ عن مواقع مسيحية الفينة والأخرى لُبُعَر يصل جنوباً حد سنار على النيل الأزرق، بل ومن غرب السودان<sup>(٨٩)</sup>، لكن شيئاً منها لم يثبت بالأدلة ما طرحته هذه المقولات وفق ما جرى العرف عليه. (فى هذا الجزء من القطر هناك ميل

غير محظوظ الطالع لتصنيف أى خرائب حمراء الطوب بأى عصر كانت على أنها "مسيحية" أو "كنيسة" على حد سواء). إن عدد مثل هذه البقايا ليس كافياً في أى حالة ليشير إلى حجم سكانى كبير كان مستقراً بها. فإذا كانت علوة بحق قد امتلكت أقاليم شاسعة إلى جنوب وغرب عاصمتها، لابد أنها كانت مسكونة بالقوام من رعاياهم البدو أساساً (وربما كانوا غير مسيحيين) <sup>(٨٠)</sup>.

مهما كانت البينة إستدلالية في كليتها، يبدو من الممكن أن يخلص إلى أن علوة كانت في مقامها الأساسى دولة لتجارة الرقيق، كما كانت وريثتها مملكة الفونج في العصور الوسطى المتأخرة (الفصل الثامن عشر). إن تجاور أقاليم أعلى النيل وكريهان <sup>(٨١)</sup> الوثنية الشاسعة وفر فرصاً أوسع بمدى بعيد لإغارات الإسترقاق عما كانت تتمتع به المقرّة، المحاطة على ما هى عليه بقسط وافر من الصحارى غير المأهولة بالسكان. وصف ابن سليم يشير أيضاً لفكرة أن أعداداً كبيرة من التجار المسلمين كانت تقيم في حاضرة مدن علوة: <sup>(٨٢)</sup> بإفتراض أن مصالحهم كانت على الأقل موجهة جزئياً نحو الإتجار الدهرى بالعاج والرقيق لأمدر غير محصور أخيراً، إن العلاقة الودودة بشكل غريب التى يبدو أنها كانت موجودة بعد عام ١٢٥٠ بين الملوك المسيحيين الجنوبيين <sup>(٨٣)</sup> وسلاطين المماليك (قارن الفصل السادس عشر) يمكن أن تكون قد دفعت بمصلحة تجارية قوية لا غير، هى ثانية في الرقاء أغلب الاحتمال .

ما بين الإقليم الذى يُنسب بأكمله إلى مملكة علوة، كانت بقايا مدينتها العاصمة سوبا هي البقايا الأثرية الوحيدة التى تحمل أى أهمية أو قيمة رأت الضوء لنوها <sup>(٨٤)</sup>. لقد أقيمت على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، حوالى ثلاثة عشر ميلاً في إتجاه النهر جنوباً من ملتقاء مع النيل الأبيض (أى من موقع الخرطوم الحديث). كانت سوبا بشكل واضح مكاناً ذا حجم مُعتبر، لأن خرائبها تمتد لما يفوق بالتقريب ميلاً مربعاً وتشمل حوالى مائة قبر تلى منفرد <sup>(٨٥)</sup>. كيفما جرى حالها لا يوجد شئ يوحى بالشروق والرخاء مما وصفه ابن سليم. أما سطح الموقع فهى مُغطى في كثافة بشقوق متناثرة من الطوب الأحمر، لكن التنقيب الذى أُجرى على أكبر قبرين تليين في سوبا خلال ١٩٥٠ - ١٩٥٢ كشف عن هياكل بُنيت من اللبن ليس إلا، لا تحمل أى منها خصائص صروحية <sup>(٨٦)</sup>. ومن الأربعمائة كنيسة في وصف ابن سليم <sup>(٨٧)</sup>، خرجت واحدة لا غير للنور، بمخلفات قليلة جداً من بقاياها. أما ما يبقى غير ذلك مما نأمل في تعلمه عن المملكة الجنوبية وعاصمتها فينبغى عليه الإنتظار لإستطلاع أترى عميق وأشد منهجية ونظاماً .

## الديانة والكنيسة

يهبنا علم الآثار صورة غنية ومفصلة عن الجوانب النسكية والتعبيرية للديانة النوبية في العصور الوسطى (انظر "الفن والأدب الدينى"، بأدناه)، لكنه لا يملك أضيف من ذلك ليخبرنا عن التنظيم الإدارى للكنيسة بما يتعدى مالىه عن تنظيم الدولة. في هذه المساحة لا تزال ملزمين بالإرتكان على بينة وثائقية وشحيحة وغير مرضية نوعاً ما .

تبعاً لكتائب مصرية في القرن الثامن كانت الكنيسة النوبية يترأسها رئيس متروبولى، يُعينه بطريرك الإسكندرية، الذى يتولى مسؤولية مباركة الأساقفة والقسس في كافة أنحاء البلدان الجنوبية <sup>(٨٨)</sup>. إن لقب "متروبولى" مرتبط بأسماء خمسة من أساقفة فرس، ومن هذا افترض في بعض الأحيان

(٨٠) لا يعنى وصف الأقاليم المذكورة "بالوثنية" أنها بالضرورة لم تكن حاوية لديانات إفريقية تزمن بنظام أخلاقي كريم بما فيه الإعتماد بالإله الواحد. وما يؤكد المؤلف في هذه النقطة يركز بالتحديد على إستغلال نوه تلك الأقاليم وعذريتها من قبل القوى المسيحية والإسلامية على السواء لتفوقها العسكري وقناعتها الأيدولوجية، وهي في رأينا ما اعتمدت عليه تلك القوى لمواصله عملية إسترقاق الإنسان الذي حُك حراً في تلك الأقاليم في خرق واضح لحق التعاضل السلمي ومقتضى التعاليم السماوية والأخلاقية السمة - المترجم.

أن أساقفة فرس كانوا في الحقيقة أولى سبْقاً في الكنيسة النوبية <sup>(٨٨)</sup>. مع ذلك، فالملاحظ أن اللقب الذي يدعيه هؤلاء الأساقفة كبار القسس كان "الأسقف المتروبولي لفرس"، وليس "الأسقف المتروبولي للنوبة" أما إضافة كلمة واحدة إضافية للقبهم المعتاد فيجوز أنها مسألة تتعلق بأسلوب مُفضل ليس إلا، لا ترتب أي مكانة علوانية خاصة .

إستدلالاً على أقل تقدير، هنالك الكثير لإقتراح أن الكنيسة النوبية لم تكن أبداً منظمة على أساس مستقل من الإشراف الكنسي الباترياركي الخارجي أو على أساس قومي، مثل كنيسة أثيوبيا. ليس هنالك إنعاء محدد بالسبق على الآخرين في الألواح الجنائزية لأي من الأساقفة، وبممكننا أن نذكر أنه لم يكن هناك لقب كنسي يقارن بلقب أبونا الحبشي <sup>(٨٩)</sup>. والحقيقة، أن غياب أي ذكر لرؤساء دينيين في اللوح التذكاري للأسقف وجه مثير للتنبيه لا سيما وقد ذكر بعضهم بوجه خاص ملوكاً أو إبارشة معاصرين <sup>(٩٠)</sup> لعلنا نميل إلى أن نستنتج من هذا أن الأساقفة النوبيين كانوا معينين من التاج، تتبعاً للتقليد الأوروي، بيد أن كل مصادرنا الكتابية تصر أنهم كانوا يُسمَّون من قبل بطريك الإسكندرية <sup>(٩١)</sup>.

من البينة المتوافرة يبدو ادعى إطمئناناً أن نخلص إلى أن الأساقفة النوبيين كانوا يُعَيِّنون أفراداً من البطريرك، وكانوا مُسالمين بشكل منفصل له بأرجح من مساطتهم لواحد من جمعهم الذاتي. إن هذا بأي حالة كانت يتماشى مع السيرة الممركزة تقليدياً للكنيسة القبطية المصرية <sup>(٩٢)</sup>. ما كان هنالك، لذلك، شيء مثل كنيسة نوبية بالمعنى العضوي: كان النوبيون ببساطة أعضاء بالكنيسة اليعقوبية (القبطية) في مصر، غير مُميزين عن أقرانهم الدينيين في القطر الشمالي. يكاد منذ البداية، مع هذا، أن النوبيين المسيحيين طوروا تقاليد فنية وكتابية خاصة بهم، حتى أنه بإمكاننا الحديث عن كنيسة نوبية بمعنى طقوسي شعائري إن لم يكن بمعنى كنسي .

طبقاً لسيرة واحدة كان هنالك ثلاثة عشر كُرسياً أسقفياً في النوبة: سبعة في مملكة المقررة وستة في مملكة علوة. إن قائمتهم تحدرت إلينا من تاريخ للقرن السابع عشر لكنيسة الإسكندرية، والأصل مخبوء <sup>(٩٣)</sup>. كان ذلك العمل قد جرى تكوينه زمناً طويلاً بعد الإخفاء النهائي للمسيحية في النوبة، ولابد لذلك أنه استُجمعت أطرافه من مصادر أقدم منه بمراحل. من الأسقفيات السبع التي أودعت بالقائمة الخاصة بالمملكة النوبية الشمالية، فإن المذكورة منها في كرنا، قصر إبريم، فرس، صاي، وبنقلا تأيد وجودها بمعثورات أثرية أو نُصية <sup>(٩٤)</sup>. أما وجود الكرسيين الشماليين الآخرين، وكل الموجود منها في مملكة علوة، فيظل غير مؤكد .

إفتراضاً تمتع أساقفة فرس وبنقلا تفضيلاً معيناً في المحيط الديني بحكم إقامتهم بالقرب من مقاعد السلطة الموقوتة <sup>(٩٥)</sup>. على الأقل، يمكننا أن نستدل على ذلك من النسب الجليلية لكاتدرائيتهم (انظر بادناه). في الوقت الراهن نعلم كثيراً عن أساقفة فرس وأنشطتهم بقدر يفوق ما نعلمه عن أي من الأسقفيات الأخرى، والفصل في ذلك يعود إلى الإكتشافات غير العادية والجهود المضنية للبعثة الأثرية البولندية في فرس بين ١٩٦١ و ١٩٦٤ <sup>(٩٦)</sup>. منقُضين على مصطنع هائل لقرن ثلثي برز في وسط قرية فرس الحديثة. كان يُعتقد على العموم أنه كان ثلاً من طبقات، وجد البولنديون بدلاً منه الكاتدرائية والقصر الأسقفيين القديمين، كلاهما لم يمس به سوء بدرجة كبيرة. لقد تم دفنها في الرمال حتى رؤوس السقوف تقريباً أثناء القرن الثالث عشر، حينما كانت حضارة النوبة المسيحية ما فُتنت في كمال ازدهارها. وُجدت على جدران كاتدرائية فرس رسوم ملونة تبلغ ١٦٩ رسماً، نسبة عالية منها محفوظة حفظاً متقناً وتمثل أرقى مجموعة لفن حائطى من إفريقيا المسيحية. من بينها لوحات لأربعة عشر أسقفياً، علاوةً على لوحات لملوك وإبارشة أشير إليها آنفاً. إلى جانب الرسوم مئآت من المخطوطات والرسوم التصويرية شاملة لقائمة من سبعة وعشرين أسقفياً شغلوا كرسي فرس. وضعت الواح جنائزية لبعض الأساقفة إلى داخل حيطان الكاتدرائية، وبعض من أعدادها مدفون في

القبور الواقعة على طول المبنى. يُعتقد أن مبنى واسعاً من طابقتين يلاصق الكاتدرائية من شقها الشمالي كان هو القصر الإسكويالي الأسقي<sup>(٩٧)</sup>.

التماثلات التصويرية للأساقفة في فرس لا يمكن أخذها كلوحات حقيقية، ذلك أنهم مثل الملوك والإبارشة صُوروا بتقاسيم وثياب مُنمطة. مع ذلك، يحتمل أنها تؤثت صورة دقيقة بشكل معقول للمظهر الأسقي الخارجي. صُوِّد كل الأساقفة في مظهر ثري بجلباب داخلي ورداء خارجي، ووشاح مزخرف للمنتصب يتدلى من الأكتاف (الصورة ٢٦ - ب). يثير العجب أنه لا يظهر صليب على الصدر أو عصا للأسقف بأي من اللوحات، حيث أن الصليب والعصا وُجدوا في قبور الأساقفة في فرس وقصر إبريم<sup>(٩٨)</sup>. خلافاً للملوك والإبارشة، يُرى أساقفة فرس إما بلا غطاء للرأس أو مُتزين بشال (غطاء كنفياً) أبيض اللون رفيع الصنعة ولا شيء غير ذلك. إن كلاً منهم يحمل في يده اليسرى كتاباً مقدساً مُعَن الزخرفة، ويُدَى علامة المباركة بيده اليمنى<sup>(٩٩)</sup>.

أما القُسس من الدرجات الأدنى فغير مُمَثّلين في الرسوم بفرس أو أي مكان آخر. من بينة شواهد القبور يبدو أنهم يحملون اللقب الاغريقي بروسبيتورس. هنالك كذلك مراجع نصية وفيرة للقُسس المرافقين (الديكونوس)، وبضعة من رؤساء القُسس مُساعدى الأسقف في الإحتفالات والادارة، و"كربت أقل وقُسس مساعدين"، و"قُسس صفار". وتكونت أنظمة الأديرة من الرهبان ورؤساء الأديرة<sup>(١٠٠)</sup>.

إذا كان التاريخ الكنسى ليوحنا الأفسوسى مُصدّقاً، فإن أول كنيسة نوبية شُيّدت من قبل المبشر لونيغينوس حوالي ٥٧٠ م (أنظر الفصل الرابع عشر)<sup>(١٠١)</sup>. وعلى سبيل الإفتراض كانت امرأة غير ذى شأن أقيم على عجل ولم تبقَ على قيد الحياة. يشير الإهتمام أن يذكر، مع هذا، أننا نجد في النوبة السُفلى بقايا لبنانيّتين تبدوان في شبه شديد للغاية منازل عادية جرى تكييفها للإستعمال الكنسى بإضافة تعديلات معمارية بسيطة<sup>(١٠٢)</sup>. لا يمكن تاريخ أيّ منهما بدقة، لكنهما ينتميان بلا شك إلى القرن الأول والثاني من الفترة المسيحية.

في وقت سريع للغاية من بعد دخول المسيحية رسمياً، إتخذ معماريون كنُسيون على تدريب حُضوراً لأنفسهم في النوبة. إن بعضاً من أكبر الكنائس وأشدها زينة في القطر تم بناؤها حقاً أثناء القرنين الأولين بعد نصرانية النوبة. وربما كانت أول واحدة منهم هي الكاتدرائية الأسقفية في قصر إبريم، التي ظلت طوال العصور الوسطى أرقى نموذج للمعمار الكنسى جنوب اسوان<sup>(١٠٣)</sup>. فقد بنيت خلاف أي كنائس أخرى في القطر بحجر مُشكل بعناية، ويعرض رسمها التصميمى بعضاً من الخصائص المتفردة التي سرعان ما جاءت لتمييز معمار الكنيسة النوبية<sup>(١٠٤)</sup>.

مثل أغلب كنائس الشرق المسيحى، إستمدت الكنيسة النوبية قالبها المعمارى الأساسى من هندسة الكنيسة الإغريقية - الرومانية القديمة بدأً عن هياكل دينية سابقة لقد كانت مبنى على شكل مستطيل طويل نسبياً، موجهة شرقاً غرباً، ومقسمة بأعمدة داخلية إلى داخل قاعة مركزية وجانبين مشققين من نفس العرض تقريباً. أما المذبح وغرفة العبادة فموقعهما في الطرف الشرقي من القاعة التي تمتد بإمتداد حائط نصف مستدير. في الكنائس النوبية كانت القاعة تصف مستديرة مُحُرَّزَة فيما بين بنيان مستطيل غير مكتمل الداخل (الشكل رقم ٧٢)، حتى أن شكلها لا يبدو ظاهراً من خارج المبنى. أما المساحة المخصصة للعبادة (وتسمى الهيكل في الكنائس القبطية) فقد وُضعت جانباً عن باقى بناية الكنيسة عن طريق "قوس نصر" يستند على أعمدة حَجَرية، وترمز إلى بوابة الجنة. على كل جانب من محل العبادة، بالاطراف الشرقية من جانبي الكنيسة المفصولين عن القاعة، غرفٌ مقلّدة صغيرة لخدمة الإجتماعات والدروس ولأغراض أخرى مختلفة تتعلق بالقساوسة. كل هذه الترتيبات كانت متمشية مع *النسائير الرسولية* مرسوم القرن الرابع: دُعُ البناء طويلاً مع رأسه إلى الشرق، وعلى جانبيه طرفه الشرقي عُرف خدمات القساوسة، بذا يكون كالسفينّة. في الوسط فليكن

عرش الأسقف موضوعاً، وعلى جانب منه دُرُج رئيس القساوسة ليجلس؛ أترك القسيس ليقف بالقرب من رأسه، بجلباب مضموم؛ لأنهم مثل الملاحين وريانية السفينة<sup>(١٠٥)</sup>.

كانت الكنائس النوبية الأولى غير متميزة من الكنائس في مصر، وربما كانت مبنية من قبل معماريين مصريين. كثير منها من حجر مُنمَّع السطح بلا تدقيق أو بمركب من الحجر والطوب الطيني (قارن الصورة ٢٠ - ب). للكنائس الكبيرة سقوف من الخشب، منبَسطة دائماً تقف على أعمدة ركانزية، بينما كان للمباني الأصغر عروش طوبية. إن الطريقة الأخرى للسقف، التي أصبحت عالمية بعد القرن الحاضر، جعلت من الضروري إستعمال بناءات جانبية فاصلة في محل الأعمدة، حيث أن السقف غير المتعادل الذي يستخدم في النوبة (المدعو بالعرش المائل) يقتضى قاعدةً متينة للغاية<sup>(١٠٦)</sup>.

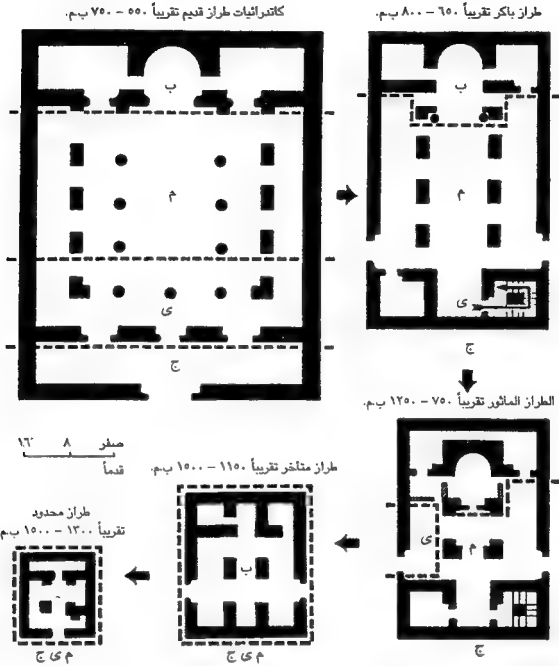
بمجيء القرن الثامن إكتسبت الكنيسة النوبية عدداً من الخصائص المعمارية المتميزة التي كان عليها أن تظل قيد الإستعمال لعدة قرون. إن أشدها خروجاً عن المألوف كان ممراً ضيقاً في الطرف الشرقي من المبنى، يجري وراء القاعة نصف المستديرة ويصل ما بين حُجرتي الأركان (الشكل رقم ٧٢). بالرغم من أن هذا الشكل ربما كان موجوداً منذ البداية في قصر إبريم، فهو غير موجود بطريقة غير ذلك في النوبة قبل مجيئ القرن الثامن. هنالك نماذج قليلة جداً معروفة من أماكن أخرى في العالم، وتبقى الأصول القيمة للممر الشرقي وأهميتها شيئاً من الأسرار<sup>(١٠٧)</sup>.

توسيع المساحة المخصصة للعبادة لتشمل جزءاً معتبراً من القاعة المركزية تطور آخر تواصل للقرن الثامن وقرن متأخرة. اضحى هذا ضرورياً لأن القاعة الشرقية نصف المستديرة، حيث كان المذبح يُوضع فيما مضى، أصبحت وقتذاك مشغولة بصقوف من كراسي لآداء الشعائر، لذلك كان على المذبح أن يحل محلها نحو الغرب البعيد في الكنيسة. في نفس الوقت صارت المساحة المخصصة الآن للعبادة، والتي وُضعت فيما سبق جانباً عن الجمع عن طريق "قوس نصر" رمزي، مغلقة طبيعياً وراء حائط يخفيها يعادل الإيكونوستاسيس في الكنيسة الاغريقية، أو الحجاب كما يدعى بالقطيطة. هذا الحاجز العضوي بين القسوس وجمع المصلين، وتوسيع محل العبادة على حساب جسم الكنيسة، يشهد بالشخصية الصنفوية المتزايدة للطقوس الأرثوذكسية كما تطورت في العصور الوسطى المتأخرة.

المساحة المتوافرة لإستعمال المصلين خُفِضت تخفيضاً إضافياً بإشتقاق حجرات صغيرة بالأركان الغربية من الكنيسة (الشكل رقم ٧٢). أدخلت هذه فيما يبدو كتوازن معماري لحجرات الركن الشرقي خالقةً أثراً لصليب وُضع من اعلي فوق مربع يظهر في الأرضية المسطحة للمبنى. إن واحدة من حُجرات الركن الغربي تحمل عادةً سلماً للسقف؛ في حين أن وظيفة الحُجرات الأخرى لم تكن أبداً صافية. ومتى تم بناء خطة وضع الصليب - في - المربع، نقل المدخل المؤدى إلى المبنى من الطرف الغربي إلى الجانبين الشمالي والجنوبي.

إن أشد الكنائس المسيحية أخذاً للإنطباع مما ظهر إلى النور حتى الآن هي الكاتدرائيات الأسقفية في قصر إبريم، وقرس، وبُنُقلا، وبنياة ربما كانت كذلك كاتدرائية في جبل عدا. هذه الهياكل إحتوت معظم الخصائص المعمارية للكنائس النوبية الصغرى، لكنها كانت بارزةً لحجمها وفوق كل شئ لحقيقة أن القاعة الكبرى كانت مردوفة على كل جانبٍ بشقين جانبيين بدلاً عن الشق المعتاد.

مع أن رسمها العام ظل كما هو عليه، يبدو أن كنائس النوبة أصبحت أصغر وأقل تطلعاً جيلاً عن جيل بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر. إن متوسط حجم الكنائس الأولى (باستبعاد الكاتدرائيات) كان حوالي ٦٥ قدماً في ٣٢ قدماً؛ بحلول القرن الثالث عشر إنكمشت هذه الأبعاد إلى حوالي ٤٨ قدماً في ٣٠ قدماً. خُفِضت السقوف بالتالي؛ وفي الكنائس الأقدم، كانت السقوف الخشبية



تتضمن الاسهم الفليضة تعاقب التطور الخاص بالتسلسل الزمنى  
 ب البېما ، اى المذبح ، ( الحرم ) ، مقتصرة على القس وحدهم  
 م جزء الكنيسة المخصص للرجال  
 ي جزء الكنيسة المخصص للنساء  
 ج جزء الكنيسة المخصص للنائنين

## شكل رقم ٧٢

تصاميم الكنائس النوبية مبنية للتطور المعماري خلال الزمن



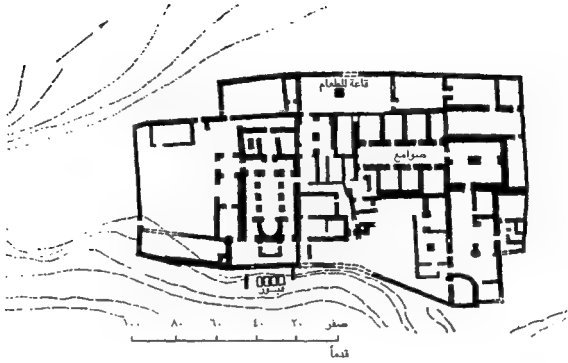
الأصلية تُستبدل تدريجياً بسقف طوبية معقوبة. وجعل هذا من الضروري إسقاط أعمدة الحُجر الضخمة التي كانت ملصحة لكنايس قديمة غفيرة، واستبدالها بفواصل من ركائز مبنية. أما الأعمدة التي صُرف عنها النظر فتُوجد في بعض الأحيان خارج الكنيسة أو، في حالة واحدة، مدفونة تحت الأرض.

مرور السنين جاء بنفس الحُمولة المثقلة من الرمال تدورها الرياح على الكنايس كما فعلت بمساكن النوبة. خلاف المنازل، مع ذلك، لا يمكن ترميم الكنايس أو إعادة بنائها بالرخيص. عوضاً عن ذلك، أُدخلت دفاعات معمارية متنوعة، تُعتمد الحيطان ومُنّت بهياكل بارزة، واستُبدلت الأعمدة الخشبية بالحُجر أو الطوب. ومع زحف مستوى الرمال المتراكمة للأعلى أصبح ضرورياً كذلك سد النوافذ الأصلية، على وجه الخصوص بالجدران الشمالية والغربية، وأن تقطع نوافذ جديدة على مستوى أعلى. ثم جُعل الإرتداد المتواصل ممكناً بتشديد أسوار تحفظ الرمل تحيط بالمداخل. بعضى الوقت أُغلقت المداخل الشمالية (في جانب مهب الريح) لكنايس وافرة وأبطل استعمالها، بينما بلغت المداخل الجنوبية عن طريق دهاليز منحدرة أو مدرجات سلالم لزم تطويلها في كل جيل. سنواتها الأخيرة، كانت الكنايس في عبدالله نرقى<sup>(١٠٨)</sup> وفي مينارتى<sup>(١٠٩)</sup> للأغراض العملية كلها مبان تحت الأرض تُبْنى عن طريق مدرجات لسلالم تنحدر من مستوى عال مثل سقفها الأصلية. أما ثقل الضغط المتواصل المضروب على الجدران الخارجية باطنان من الرمال المتراكمة فقد كان بالتأكيد خطيراً بدرجة هائلة، وقاد في نهاية الأمر إلى التخلي عن هذه الكنايس زمناً طويلاً من قبل نهاية الفترة المسيحية. لهذا العامل يُزجى علماء الآثار اليوم حمدهم للحفظ الإعجازي لرسومات الحائط في مثل هذه الكنايس كما في عبد الله نرقى، وفرس، وسونقى (أنظر "الفن والأدب الدينى").

عندما كان العديد من الكنايس النوبية القديمة في القرن الثالث عشر يستسلم للرمال المحيطة بها، أُدخل قالب جديد وبسيط بشكل جنى من الكنايس. لقد لهم به فيما هو ظاهر نوع من "كنايس الكيولا [القبابية]" الصغيرة في اليونان والأناضول. إن الكنايس النوبية المتأخرة مربعة بالتقريب في رسمها، تصل مقاييسها بصعوبة لأبعد من ٣٠ قدماً في الجانب، وتوترج بسقف مركزي طويل يرتكز على قاعدة مستديرة في أن واحد<sup>(١١٠)</sup>. احتفظت بالتقسيم الثلاثي الأساسى للكنايس القديمة، لكنها تخلصت تقريباً من كل الطرائف المعمارية مثل الممر الشرقى، والقاعدة نصف الدائرية، وموقع العبادة المنفصل، وأحياناً واحدة أو كلاً من حُجرتى الركن الغربى.

الإفتقاد إلى أيكونوستاسيس أو الحجاب، ليخفى محل العبادة عن نظر جمع المصلين، ربما يُجادل به من أجل العودة لنظام أدق صفوية وعمومية في الكنيسة النوبية المتأخرة. مع ذلك إن كان لنا أن نحكم من مواقف موازية في اليونان، يبدو أقوى احتمالاً أن العكس كان صحيحاً. إن مبنى الكنيسة برومته أضفى الآن مكاناً للعبادة، لا يستطيع إرتياده سوى القُسس وقليل من الأعضاء المميزين عن الجمهرة. يحتمل أن القسط العام من الصلاة يُحتفل به خارج الأبواب، ويقرأ الدرس من مدخل باب الكنيسة، كما هو اليوم في كنايس الحبشة. الفجوة المتسعة بين القساوسة وجمهرة المؤمنين التي يبدو أنها كانت بادية طوال تاريخ الكنيسة النوبية - يجوز أنها ساهمت في الإضعاف النهائى للمسيحية وإخفائها في النوبة في العصور الوسطى المتأخرة (قارن الفصل السادس عشر).

بعد القرن السابع يُبين التطور المعماري للكنيسة النوبية أثراً ضئيلاً جداً من مصر. فكل من رسم الصليب - في - المربع للفترة المسيحية القديمة، وكنيسة الكيولا ذات السقف القبابي المستدير على قاعدة مستديرة في الفترة المتأخرة يبدو أنهما وفدا مباشرة من الشرق الأدنى، لا يوجدان في مصر. على الوجه الآخر لم تدخل ملامح مميزة ليعينها للمعمار القبطي المصري إلى النوبة مطلقاً. فرغماً عن قرباتهم المذهبية مع الإسكندرية كان النوبيون بشكل واضح على اتصال بمجتمعات مسيحية أخرى سواء بسواء، قادرين على امتصاص تأثيراتهم مباشرة. هذا الظرف يتبدى كذلك في



شكل رقم ٧٢  
مخطط لدير نوبي، قصر الوز

فهم الديني (انظر بأذهانه). وهناك مدونات متعددة لحجاج نوبيين في الأرض المقدسة، وربما كان عبر ذلك الممشى من الإتصال وُجدت التأثيرات الفنية طريقها من سوريا وفلسطين إلى النيل العالي<sup>(١١١)</sup>.

مثل المعابد التي سبقتها، تبدو بعض الكنائس النوبية الباكرا وقد بُنيت بإهتمام أكبر من أجل وضع طبيعي بارز يتعدى مجاورة المستوطنات. في سنوات لاحقة، مع ذلك، كانت هناك دائماً علاقة طبيعية لصيقة بين الكنيسة والمجتمع. إن كاتدرائيات فرس وقصر إبريم العظيمة وقلة من الكنائس الأخرى وُضعت في مراكز مدنها، لكن الموضع الإعتيادي للكنائس كان في أطراف المستوطنة. كان هذا ضرورياً في حالة إحاطة المبنى بجبانة، كما وقع ذلك فعليا في معظم الحالات. الكنائس والمساكن بُنيت دائماً في تجاور وثيق، لكن الكنيسة لم تكن أبداً على صلة حقيقية بالمباني الدنيوية. ولعلها مع ذلك كانت تصل بزوايا عبادة تدور حول فلك الكنيسة، ومقر لقساوسة، أو منشأة رهبانية.

في حين أن كل مستوطنة نوبية لاي تبعية كانت لها كنيسة واحدة على الأقل، كان للندن الكبيرة وعلى حد السواء بعض القرى غير المهمة نسبياً ما يبلغ خمسة أو ست كنائس<sup>(١١٢)</sup>. لا يبدو عدد الكنائس في كل مجتمع شديد الإرتباط بحجم السكان؛ ولعله يعكس كإحتمال أكبر وجود تقسيمات عرقية أو عائلية بين المجتمع. تشعب الكنائس بارز على وجه الدقة في الفترة المسيحية الأخيرة، عندما كانت مجتمعات مبعثرة تجذب بعضها بعضاً للحماية، لكنها بشكل واضح رغبت في صون شخصية تجمعاتها المستقلة. كذلك فإنه يصدق القول أن عدد الكنائس في جملتها الكلية. وفي نسبتها إلى حجم السكان معاً، كانت أعظم لمدى بعيد في النوبة السطلى منها بأي مكان آخر (قارن الشكل رقم ٧١)، منبئة (كما تفعل تلك مؤشرات أخرى) أن قوة الكنيسة وثروتها جرى تطورهما أساساً في الشمال، على حدود مصر.

شهادة مؤلفين مثل ابن سليم<sup>(١١٣)</sup> وأبو صالح<sup>(١١٤)</sup> قد توصى بأن الأديرة كانت وجهاً بارزاً للمنظر النوبي في القرون الوسطى. ربما لهذا السبب، ولأن حركة الأديرة كانت متطورة بمستوى عالٍ في مصر القبطية، كان هناك ميلاً لإضفاء صفة الدير على أى موقع تقريباً يكون نواة لقرية في الفترة المسيحية. إلا أن التينة الأثرية المحددة على وجود الأديرة شحيحة لأقصى حد<sup>(١١٥)</sup>. ثلاثة منشآت فحسب يمكن التعرف عليها أديرة بتأكيد فعلي: في الرمال<sup>(١١٦)</sup>، وقصر الوز<sup>(١١٧)</sup> في النوبة السفلى، وفي وادى غزالى بالقرب من الشلال الرابع<sup>(١١٨)</sup>. وفي كل حالة تجد كنيسة مركزية داخلية بين جمع متلاحم من المباني المتلاصقة، والكل محاط بسور مُحْكَم الإحاطة. في قصر الوز، طليعة الأديرة النوبية التي حُققت تحقيقاً كاملاً، بالإمكان أن يُعرف على تجمع من غرف الرهبان الصغيرة، وقاعة مركزية للطعام ومطبخ، ومحلات للشغل (الشكل رقم ٧٣)<sup>(١١٩)</sup>.

فى ضاحية عكاشة، في بطن الحجر (الشكل رقم ٧١) بقايا لعدد من مبانٍ مجمعة بداخل سورٍ لعلها تشكل مجتمعات رهبان مُصَغَّرة. إن تقارير مفصلة عن هذه المواقع لم تتوافر بعد<sup>(١٢٠)</sup>، على أنه يصفو من كونها مشيدةً بطريقة محكمة التكامل ومن مسورها الخارجى أنها ليست قرى فلاحة عادية (انظر "المدن، القرى والمساكن"، بأنناه)، كما أن ترتيبها ومواقعها لا تنبئ بوظيفة عسكرية. وفي إثنتين على الأقل من المواقع القريبة من عكاشة كانت هناك كنيسة بين الأسوار<sup>(١٢١)</sup>، مع أنه في حالات أخرى ليس هناك أثر يمكن إيجاده، لكنيسة. إذا كانت هذه المستوطنات التي تكاد أن تكون طلمساً أديرة في الحقيقة، فإن تركيز حفنة منها بين مساحة لا تعدو بضعة أميال قد يقترح أن عكاشة كانت في الحقيقة مكاناً مقدساً، ربما بسبب ربيعها الحار. إن الموقع يعود تاريخها أساساً إلى الفترة المسيحية الماثورة (القرون من التاسع إلى الثاني عشر)، كما هي الحال بالنسبة للأديرة التي اختُبرت بمستوىٍ أوثق في قصر الوز وغزالى.

ما من دير في النوبة يُقارن في الحجم أو المظهر بأى حال من الأحوال بالمنشآت الرهبانية العظيمة في مصر<sup>(١٢٢)</sup>. جدير بالذكر أيضاً أن كنائس الرهبان في الرمال، والوز، وغزالى ذوات رسم تصميمى نوبى أشد منه مصرياً. إلا أن النصوص الكتابية ومثلها شواهد القبور التي تقاطرت إلينا من هذه الأماكن قبطية بقسطنطين وأفر<sup>(١٢٣)</sup>، وهى لغة لم تكن مستعملةً معظم الأحيان من السكان النوبيين الأصليين (انظر "الفن والأدب الدينى")<sup>(١٢٤)</sup>. لذلك فإننا نُترك في بعض من الشك عما إذا كان رهبان النوبة يجزى تجنيدهم من السكان المحليين أم أنهم كانوا في المقام الأول لاجئين من مصر. إن عددهم على كل حال لا يبدو أنه كان كبيراً وربما لم يلعبوا دوراً في الحياة الاقتصادية والدينية بمثل أهمية ما أدته أديرة مصر وأوروبا. إضافةً إلى مجتمعات رهبنة منظمة ربما كان هناك نساك إنفراديون يعيشون في كهوفٍ وخرائب هنا وهناك: إن محل السكن لواحد من هؤلاء تم التعرف عليه أثرياً<sup>(١٢٥)</sup>. يزدان بمجموعة غير عادية من النصوص الدينية والسحرية وستجرى مناقشتها لاحقاً.

الرهبانية النوبية، على النحو الذى كانت عليه، تبدو كأنها بلغت أكمالٍ إزدهارها في الفترة المسيحية وتدهورت سريعاً بعد ذلك. ليس مستيقناً أن أياً من المجتمعات المسورة التي تمت مناقشتها حتى الآن كانت مأهولة بعد القرن الثاني عشر. من الجهة الأخرى يمكننا أن نستبصر، في الفترة المسيحية الأخيرة، إحصاءات مجتمعات رهبنة صُغرى كانت معزولة عن العالم المحيط بها بدرجة أقل تشدداً. في مينا رتى وُجدت قاعة كبيرة لتناول الطعام مجهزة برسوم دينية، ومحاطة بجمع مما يبدو أنه كان غرقاً صغيرة، غير أن المجمع السكنى ككل لم يكن متميزاً بصفاء عن الجزء الدنيوى الملاصق له من القرية<sup>(١٢٦)</sup>. وفي تاميت، أيضاً، يبدو أنه كانت هناك مستوطنة رهبانية أو على الأقل دينية معلقة بصافة قرية للفلاحة العادية<sup>(١٢٧)</sup>. إن أسباب تدهور الرهبانية النوبية، وما يترتب كحالة من العلاقات الودودة للمجتمعات المترهنة والدنيوية، ستعالج بتفصيل أكمل في محتوى عصر النوبة الإقطاعي (الفصل السادس عشر).

معظم الكنائس النوبية تتجاور من الشرق ببجانة، وفي بعض الأحيان من الشمال والجنوب. لقد كانت هناك إضافة إلى هذا جبانات مسيحية عديدة (بما في ذلك معظم الكنائس التي لا تزال مستعملة من أزمان سالفة) لم تكن مرتبطة بكنيسة. حوالى نصف المواقع الجنائزية المعروفة في النوبة السودانية يرجع تاريخها كليا أو جزئياً إلى الفترة المسيحية (١٢٨).

في أوضاعها السطلية تحت الأرض معظم القبور المسيحية بسيطة لأقصى حد ممكن. إن حفرة القبر لا تعدو كونها فجوة رئاسية ضيقة يُوضع الجسد عليها بظهره، ورأسه إلى الغرب، دونما غطاء فيما عدا طويات خشنة "مائلة" ربما فوق الرأس. يُلف الجسد بغطاء، وفي بعض الأحيان تترك حبات صغيرة قليلة من المجوهرات الشخصية فوقه، إلا أنه لا توجد قرابين جنائزية. الإستثناءات الوحيدة لهذا التعميم يبدو أنها تمثلها جنازات أعيان كنسيين، كانوا يُدفنون أحياناً في مظهر إحتفالي، تصحبهم شعارات منصبيهم وقارورة أو قوارير تحوى الماء المقدس فيما هو مفترض (١٢٩). إن وضع هذه الأنية يغرى بفكرة استمرار الممارسة الجنائزية التقليدية في أزمان مصرية وبلانية. كُشف الغطاء عن جنازة قبل وقت وجيز بالقرب من كولبنارتى (بافتراض أنها كذلك لمسؤول بالكنيسة) مدفونة على عنقريب محفوظاً حفظاً تاماً (١٣٠). وهو بقاء مذهل أو إحياء لعادة نوبية قديمة قدم الدهر اعتقد ذات مرة أنها اختفت في بداية الفترة المسيحية (١٣١).

إضافة إلى الجنازات المنفردة أحرز قبر العائلة المسقوف، المؤلف منذ أزمان سالفة، شعبية محدودة في الفترة المسيحية. في هذه الغرف يرقد الأموات المنفردة أحياناً مثل ألواح الخشب إلى عدد يبلغ خمسة عشر أو عشرين، ورؤوسهم تتجه دائماً ناحية الغرب. وفي كل مرة يُعاد فيها قفل القبر يترك فانوس الإبتهالات مناراً في داخل الباب المؤدى للقبر مباشرة، على الطرف الغربى.

أكثر غطاء للقبر المسيحى شيوياً مستطيل مشغول من الطوب يوضع على الحافة. في طرفه الغربى يوجد في العادة "صندوق" مكون من طويتين مستقيمتين وطوية ثالثة عبر قمته يوضع عليها فانوس الإبتهالات. أنه كان يشعل حيثما أقيمت صلاة على الميت. مع ذلك، فإن كثيراً من القبور المسيحية الفقيرة، المودع منها في الجبانات الأصغر والأشد نائياً على الأخص، ما كان لها غير غطاء خشن من بلاط الحجر. في الجانب الأقصى المقابل كانت هنالك هياكل بنائية فوقية من الطوب جزلة التفصيل شيدت في المقابر الملاصقة لبعض الكنائس الأعلى أهمية. أخذت هذه الهياكل تشكيلة واسعة من الصيغ: مُسطحاً مرتفعاً مستطيلاً محاطاً بصليب مرفوع الجانب، أو مُسطحاً مرتفعاً في شكل صليبي، أو غرفة مربعة صغيرة على رأسها قبة. كثير منها مغطى بدهان أبيض أو ملون، وبعضها له شاهد قبر مقوس موضوع إلى داخل وجهه الغربى. أما أبعاد الهياكل البنائية الفوقية فكانت محدودة عموماً بطريقة أو أخرى طبقاً لما يلاحظها بالقبر الكامن تحتها، ما كان منها ما يدنو ولو عن بعد من حجم أو شكل المدافن النكية ما قبل الأزمان المسيحية (الفصل الثالث عشر). (١٣٢)

شواهد القبور من الفترة المسيحية متعددة نسيباً، تؤثت نصوصها جسداً هاماً من الأدب النوبى في القرون الوسطى (انظر بانداه). وكيفما اتفق الحال عليه، فإن بضعة منها وُجدت في الموقع الأصلي بما يثير الدهشة. معظم القبور المسيحية يبدو أنها أهملت بعد فترة مختصرة نسبياً، وكان هنالك ميل من مقيمين متأخرين في الجوار لنزع البلاطات المريحة ووضعها لإستعمالات أخرى. ربما عُثر على شواهد قبور وأفرق كمقايض للأبواب وتعبيد الطرق لا كعلامات على القبر. في بعض الجبانات وُجدت كذلك البناات الفوقية وقد جرت تسويتها بنظام بعد فترة معينة، وأعيد شغل الفناء بجناز جديدة مُحفحة (١٣٣) على الجملة، تتنادى اليينة بأن الطقوس الجنائزية لعبت دوراً أقل في ديانة العصور الوسطى عنها في أى وقت مضى منذ بداية الفترة التاريخية.

## الفن والأدب الدينى

يبدو الزخرف في الكنائس النوبية الأولى كأنه محصور في إستعمال المنحوت من الحروف الكبيرة، والأعتاب القائمة فوق فتحات البناء وجواف السقوف، من الحجر والخشب معاً<sup>(١٣٤)</sup>. إن قليلاً جداً من هذه بقيت متينة، حيث أنه بعد القرن الثامن أستغنى عن مثل تلك الملامح. أما الأصناف التى وصلت إلينا فهي مماثلة للغاية لزخرف الكنيسة المسيحية الأولى؛ وهى مُشكلة بعناية لتصبح أنماطاً نباتية مفصلة من أصل إغريقى، مع صليب أو طائر سلام مزخرف من وقت لآخر وحسب دلالة على اثر المسيحية<sup>(١٣٥)</sup>.

محتمل أن الحروف الكبيرة وعتبات المياني المنحوتة للكنائس النوبية الأولى كانت مرسومة بالمثل، على أنه لا يوجد إقتراح بشئ مثل زُخرف حائطى. في بداية القرن الثامن، مع ذلك، ظهر أسلوب فنى مسيحي خالص جديد في شكل رسومات حائطية ملونة في لمعان مستلهماً من ألوان الماء ولوحات من بيزنطة. سرعان ما أصبحت، وبقيت طوال العصور الوسطى، أسمى تعبير فنى للحضارة النوبية المسيحية. تناقصت بعد ظهورها الزخرفة المنحوتة بسرعة في شعبيتها، كما فعلت طوال الشرق للمسيحي حوالى نفس الوقت .

التطور العالى لرسوم الكنيسة في النوبة إبان القرون الوسطى مُنبت بقطع من دهان ملون لامع وبقياء لرسوم تشكيلية تطل من وقت لآخر ويمكن العثور عليها في عشرات الكنائس المهجورة في أرجاء القطر. بيد أنه حتى حقبه مضت لم تعرف سوى بضعة أمثلة رسم معزولة على الأرجح بقيت بما يشبه شكلاً معروفاً<sup>(١٣٦)</sup>. حتى هذه كانت محطمة بما يدعو للحنن، حيث أنها سبق أن عُرِضت ليس فقط لتخريب عناصرها وتدميرها وإنما لتبديل في ملامحها من قِبَل معتدين يجهلون قيمتها، فيما ألهم به الخوف من العين الشريرة أو لتحريم المسلمين للتمثيلات. ثم جاء إكتشاف كاتدرائية فرس، مهجورة ومعملة بالرمال في أوج المسيحية النوبية، بزخرفها الملون الذى ما انفك متيناً لحد كبير<sup>(١٣٧)</sup>. وقتاً قصيراً بعد ذلك أُجريت كشوف من نفس النوع، رغم أنها لكتائس أصغر بكثير، في عيد الله نرقى<sup>(١٣٨)</sup> وفى سونقى<sup>(١٣٩)</sup>. معاً تُكوّن الرسوم في هذه الكنائس الثلاثة داراً لنفائس من فنون القرون الوسطى لا يوجد لها مثيل مواز في إفريقيا المسيحية. إن إكتشاف رسوم فرس، بوجه خاص، لابد أن ينسب على أنه العثور الأثرى الباهر لهذا الجيل .

لئن كان إكتشاف رسومات فرس (التي تُدعى بصييت ذائع ولو أنه غير صحيح ألواناً مائية) أفضل للكشوف حظاً لحملة الصروح النوبية، فإن حفظها ونقلها من حيطان الكاتدرائية كان إنتصارها الفنى الأعظم. وبرغم أن المبنى نفسه غاطس الآن تحت بحيرة ناصر، فإن ما لا يقل عن ١٦٩ لوحة تمت إزاحتها بنجاح من حيطانه، وهى مُقسمة الآن بين المتحف القومى في وارسو ومتحف آثار السودان في الخرطوم<sup>(١٤٠)</sup>. مثل معظم الكنائس النوبية أعيد زُخرف كاتدرائية فرس من فترة لآخرى مما نتج عنه تراكم لرسومات كل لوحة من فوق الأخرى. مهارة فنى المتاحف البولنديين أعانتهم على إزاحة الطبقات المتعاقبة للوحات كُلاً على حدة، وبذا أُجلى تاريخ تطورى بأجمعه لفن الكنيسة النوبية (قارن الصورة ٢١ - ج).

من المستحيل أن يُعَدَّل بالكلمات لإبقاء حق رسومات فرس. ولحسن الحظ أعيد إخراج بعض من أجودها الآن بالألوان في عدد من الكتب الشائعة<sup>(١٤١)</sup>. ولكيما يتم تقديرها على وجه التمام، ومع ذلك، يجب أن تُشاهد الرسومات في وضعها الأصيلى توجهات للألوان اللامعة بين مناظر طبيعية من رمل صفراوى . بُنى موحدة الإيقاع بوجه عام. (بعض هذا الانطباع ينقله رسمٌ مبين في صفحة الغلاف الملونة لمؤلف ميخائيلوسكى المسمى فرس، كاتدرائية في رمال الصحراء<sup>(١٤٢)</sup>). وسط أعظم مناظر مذهلة لرسومات فرس الحائطية، منظر علوه ثمانية أقدام وطوله عشرة أقدام يصف الشبان اليهود الثلاثة في القرن المتلهب، يحميهم الملاك المُقرب ميكائيل<sup>(١٤٣)</sup>. أما الأشكال المتدثرة بأرواب

مزدانة فمشغولة أساساً بالأزرق، والنهبي على خلفية لهبٍ أحمر متصاعد).

منظران مهمان آخران متمثلان في فرس: ميلادية موسعة شديدة التفصيل (جُدَّت فيها، لأول مرة بأى وثيقة معروفة، شخصية الرعاة المصاحبيين بأسمائهم<sup>(١٤٤)</sup>) ومنظر للصلب. إن أغلب الرسومات الباقية لوحات مثالية، تشمل أشكالاً لمريم العذراء، والملائكة المقربين، ورسول وشهداء مختلفين، والملوك النوبيين، إبارشة وأساقفة تمت الإشارة إليهم أنفاً (الصورة ١٢١ ب). والأشكال مُرافقة في أغلب الحالات بكتابات مرسومة تُعرِّفها بالاسم.

مكتنتا الإكتشافات في فرس، وعبدالله نرقى، وسونقى من إعادة تركيب الأشكال التى رُسمت في عددٍ عظيم من الكنائس الأخرى، ما بقيت منها الآن سوى أشرطة قليلة. إنها تتوافق جمعاً في الأسلوب والرمزية الفنية، مع أن الرسومات في الكنائس الصغرى قلما تواكب نوعية وموسوعية ما في فرس. كنتيجة لذلك، يمكننا الآن أن نتحدث بعبارات عامة عن مدرسة نوبية لفن الكنيسة بالقرون الوسطى.

خلافاً للكنيسة البيزنطية، لا يبدو أن الكنيسة النوبية كانت تلتزم مشروعاَ مُخططاً بإملاء صارم للزخرف الحائطي<sup>(١٤٥)</sup>. رغباً عن ذلك تقع نفس الأشكال أو ما يشبهها في نفس المكان بعدد كبير من الكنائس. فالقاعة الرئيسة يشغلها شكل مركزي للعذراء والطفل<sup>(١٤٦)</sup> يحيط بجنبهيهما الحواريون<sup>(١٤٧)</sup>، في حين أن نصف القبة التى تتوج القاعة (ملمع وُجد في الكنائس الأولى وحدها) يطغى عليه رأس واكتاف ماردة للمسيح وقد مُنح الهيمنة على العالم<sup>(١٤٨)</sup>. في إعتياد شديد، يوجد منظر للميلاد في الشق الشمالى من القاعة<sup>(١٤٩)</sup>، وشكل قائم للملاك المقرب ميكائيل على رأس الشق الجنوبي من القاعة<sup>(١٥٠)</sup>، ورأس للمسيح برموز لكتب الإنجيل الأربعة على طول الحائط الجنوبي<sup>(١٥١)</sup>. أما القديسون الفرسان فلون فنى شائع آخر؛ وفي وسطهم يسعنا أن نتعرف على الشكل المعروف للقديس جورج وهو يطعن برمحه الوحش الخرافى<sup>(١٥٢)</sup>.

تمثل أربع فترات على الأقل تطور الأسلوب الفنى في رسومات فرس الباقية على قيد الحياة. وصفها ميخائيلوفسكى بأنها التعبير بالأحمر والأزرق متوسط الألوان (القرن الثامن الباكر إلى منتصف التاسع)، والتعبير بالابيض (منتصف التاسع إلى باكورة القرن العاشر)، والتعبير الأحمر - الأصفر (القرن العاشر)، والتعبير متعدد الألوان (في القرنين الحادى عشر والثانى عشر)<sup>(١٥٣)</sup>. هذه التوصيفات تعكس تفضيلات لونية متغيرة، إلا أن هناك تغيرات هامة كذلك في الأسلوب والرمزية الفنية. فالأسلوبان المبكران تشخصهما ألوان مخففة شفافة في الغالب وإستعمال مُقيد للزخرف المفصل. أما الأشكال، طبقاً لويتزمان، فتميزها سمات "... خطوط مستقيمة تميل إلى بسط الأشكال بينما انها في نفس الآن كانت نُسبها التى هى نوعاً ما الأثقل ظُهوراً تتبادر إلى الذهن بالتركيب الضخم لأجسادها، موضعاً بأقدامها الكبيرة التى تكاد تكون مُصليبة، ورؤوسها المربعة الثقيلة. كانت وجوههم مُصممة بخطوط كانتها هندسية ويتعين مهولة الكبر ذات نظرة ثابتة بلا تعبير"<sup>(١٥٤)</sup>. إن الفترات المتأخرة مُشخصّة بألوان لامعة وتفصيل فاحش الزينة في معالجة الأرواب، والأجنحة وغيرها من الصامخ. أما تقاسيم الوجه فهى بدرجة مُقدّرة أبرز إنسانية وحياة منها في الأساليب الفنية السابقة.

إلى أقرب ما نستطيع الإنباء به، يحمل نفس التتابع لتطور الأساليب الفنية خاصيةً دالة على كل الكنائس النوبية، بالرغم من أن التعبير متعدد الألوان يبدو مكتمل التطور في فرس وحدها. بإمكان أخرى واصل التعبير بالأحمر - الأصفر شعبيته حتى نهاية الفترة المسيحية. إن بعض الكنائس المتأخرة للغاية، كنائس عبد القادر، تعرض أسلوباً شديد التبسط متديناً إلى حد ما غير ممثل في فرس وربما تطور بعد التخلي عن كاتدرائية فرس<sup>(١٥٥)</sup>.

(\*) مريم ابنة عمران وإبناها المسيح عيسى عليهما السلام - المترجم.

سيطرة الأثر القبطي على الرسوم النوبية ظاهر للعيان. كذلك يمكن ملاحظة أغلب الكتابات المصاحبة لها باللغة القبطية، تتنادى بإحتمال مؤداه أن الرسامين كانوا صناعاً مصريين إسْجُلِبُوا لغرض زخرفة الكنائس النوبية. لقد عملوا افتراضياً من كتاب منسوخ، حيث أن هناك تشابه مُعْجَم في تفصيل (مع إنه ليس تاماً بالمرّة) بين الرسوم في الكنائس بكافة أرجاء القطر. ولو كان الأمر كذلك، فإن فن النوبة الحائطي ليس تقليداً مخلصاً للفن المسيحي المعاصر لمصر ببساطة؛ إنه يختلس أيضاً تأثيرات من فلسطين وسوريا، وبيزنطة<sup>(١٥٥)</sup>. أضيفت له مسحة محلية وواقعية خالصة من تصوير الحكام والأساقفة الوطنيين بلامع داكنة<sup>(١٥٦)</sup>، تبايناً مع الوجوه البيضاء للعائلة المقدسة، والقدسين، والملائكة المقربين، وبالتقريب كل الأشكال الموصوفة الأخرى. في الفن، كما المعمار، يبدو أن النوبيين كانوا قادرين على تمثيل تأثيرات من مصادر مختلفة ودمجها، مع إضافة لمساتهم الخاصة إليها .

مشكلة الكتابة في النوبة في القرون الوسطى واحدة متزايدة التعقيد<sup>(١٥٧)</sup>. في الوقت الذي أدخلت فيه المسيحية ما كان هنالك، كما رأينا، لغة مكتوبة مؤسسة. كانت المروية لكل الأغراض العملية مبنية، والإغريقية، مع أنها استُخدمت في بيانات من ملك أو ملكين ما قبل المسيحية، أنها لم تكن مدركة من النوبيين الأهليين .

كانت لغة الكنيسة المصرية الأولى هي الإغريقية، وأصبحت اللغة الشعائرية للنوبة بالمثل بعد إدخال المسيحية. ومع انتقال الكنيسة المصرية من الإغريقية إلى القبطية بعد انشقاقها النهائي عن بيزنطة، كيما جرى ذلك، لا يبدو أن الكنيسة النوبية اتبعت الخطى. بقيت الإغريقية قيد الإستعمال، رغمًا عن أن صنعتها تزايدت قلّة في الصنّف والنحو، طوال العصور الوسطى. النصوص الإبتهالية الإغريقية معروفة منذ تاريخ يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر<sup>(١٥٨)</sup>، وأغلبية شواهد الجور النوبية مكتوبة إضافة إلى ذلك بالإغريقية. بعد القرن السابع، مع هذا، هنالك نصوص وكتابات إضافية بكل من القبطية والنوبية القديمة - اللغة الأصلية للنوبة مكتوبة بالأبجدية القبطية<sup>(١٥٩)</sup>.

أشار جاكوبيلسكي أن نصوص القرون الوسطى في النوبة تقع بصفاء في مجموعتين، مجموعة تحوى الإغريقية والنصوص النوبية القديمة ومجموعة أخرى تشمل النصوص القبطية<sup>(١٦٠)</sup>. تظهر الإغريقية والنوبية القديمة دائماً واحدة فوق الأخرى في نفس المخطوط، وتبين الأخطاء النحوية المعتادة في المقالات الإغريقية أثر اللغة النوبية<sup>(١٦١)</sup>. في الجانب الآخر، نادراً ما توجد القبطية المكتوبة في صُحبة اللغات الأخرى، ونصوصها عموماً خالية من الأخطاء النحوية. من هذه يخلص جاكوبيلسكي إلى أن الوثائق بالإغريقية والنوبية القديمة معاً كانت عملاً لنوبيين وطنيين، في حين أن النصوص القبطية كانت مكتوبة من مصريين أقاموا في القطر. إن امتناع النوبيين عن الإلتصام إلى إخوانهم المصريين في الانتقال من الإغريقية إلى القبطية ربما يفسر حقيقة أن الإغريقية كانت قد اكتسبت مكانة سامية ذات خصوص في النوبة ليس لأنها لغة للشعائر فحسب، لكن لأنها كانت لغة البلاط لنوبياديا والمقرّة (قارن الفصل الرابع عشر). هكذا يحتمل أن النوبى المتعلم في العصور الوسطى وظف النوبية القديمة في معترك الحياة اليومية والإغريقية للتراسل والكتابة الرسمية، تماماً كما تُستخدم النوبية الحديثة والعربية اليوم على الترتيب. في الوقت نفسه ربما يتضح أن القساوسة المصريين في النوبة أصروا، بوصاية أبوية مألوفة على استخدام لسانهم القبطى. يجدر ذكرًا في هذا الشأن أن أساس كاتدرائية فرس العظيمة في ٧٠٧م جسدت ذكره بلوحيين متوازيين، واحد بالقبطية والآخر بالإغريقية<sup>(١٦٢)</sup>. كافتراض يمثل هذا تصالحاً بين البلاط الناطق بالإغريقية والقساوسة الأقباط وهو ما يبدو وقتها أمراً سائداً في فرس .

الفوضى اللغوية في نوبة القرون الوسطى اعتُبرت في بعض الأحيان بيئة على مناهضة مستمرة بين اليعاقبة الجُوحُوديين والملكانيين الثنائيين (قارن الفصل الرابع عشر)<sup>(١٦٣)</sup>، لكن هذا الإعتبار غير

مُبرر بالأدلة. فكل اللغات الثلاث فيما هو واضح كان لها وضع رسمي يُمكنها إفتراضياً من أن تُستعمل في الشعائر، كما أمكن للعربية بعد القرن الرابع عشر. وفي الأماكن التي كان للمصريين بها مواقع السلطة، كما في الأديرة في فرس إحتمالاً، ربما مُنحت القبطية الأفضلية لأكثر المخطوطات أهمية<sup>(١٦٤)</sup>. غير أنه في الأمكنة الأخرى كانت الإغريقية والنوبية القديمة أوسع شيعاً في الإستعمال. رغم ذلك، وُجدت شواهد قبور قبطية من وقت لآخر في أنحاء عديدة من النوبة، لعلها شهادة بعدد القساوسة المصريين أو أثرهم وسط القسوس النوبية.

بقيت حياً خمسة كتب نوبية فحسب من الفترة المسيحية<sup>(١٦٥)</sup>، رغم أن صفحات سائبة في أشتار صغيرة توجد دائماً. إن أدب العصور الوسطى محفوظ، أيأ كان ذلك، على حُطى نسقٍ ما في أشكال متعددة أخرى. نشر جاكوبيليسكي قائمة مصنفة لبقايا النصوص التي عُثِر عليها في فرس، تعطى فكرة عن مدى تنوع الأدب الدينى في القرون الوسطى:

نقوش منحوتة في الحجر: نصوص ووثائق تأسيسية ذات طبيعة رسمية. ٦: ألواح محفورة، ١٧: نصوص هويتها تذكارية ٧: رسوم تصويرية على كتل أو عناصر معمارية، ١٢: توقيعات بأحرف لأسماء. ٨.

نقوش على دهان بنايات مكتوبة بحبر أو محفورة: فصول من رسوم حائطية، ٦١: كتابات تحيى ذكرى مؤسس الرسومات (إهداءات) ١٢: أجزاء من صلوات غير متبوعة بتوقيعات الزوار، ٤٠: نصوص دينية وسحرية: مجموعة من مخطوطات قبطية عام ٧٣٨ م مكتوبة على جدران الناسك قروتو من الراهب ثيوفيلوس: قوائم بأسماء القساوسة، ٦: توقيعات لأشخاص زارو المبنى - رسوم تصويرية تشمل أسماء مسبوقة أو غير مسبوقة بإبتهال قصير، ٨١: أسماء مفردة بدون القاب - أغلبها أسماء لقديسين، ٦٤: أجزاء من قوائم لمأدب متحركة أو فهرس أبجدي بتقويم زمني، ٢: تواريخ مفردة - شهراً، يوماً أو إعداداً، ٩: مخطوطات مدرسية، الأبجدية، قائمة بحروف متحركة، عينات كتابية، ٦: توقيعات بأحرف أسماء ٣٠: أجزاء من رسوم تصويرية غير معروفة، ٩٢: حروف مفردة، ٤٤.

نقوش على الفخار: شقوق فخارية مكتوبة، ١٠: رسوم تصويرية على أواني، أسماء أو توقيعات بأحرف لأسماء ٥٠: كتابات على أختام، ٢: كتابات باللون الأبيض على طوب يحوى أسماء القديسين، أُنجزت لأسباب غير معروفة لنا، ٥.

قطع من مخطوطات على ورق بارشمان مصقول. ورقة من النوتوكيا بالإغريقية مع مداخلات بالنوبية القديمة: بقية من ورقة لمخطوط شعائر بالإغريقية: قطع صغيرة لحوالى ٥٠ ورقة من مخطوط قبطى (الجزء الأيسر الأدنى محفوظاً من كتاب، محتوياته غير معروفة)<sup>(١٦٦)</sup>.

إضافة إلى المعثورات في فرس، أُنرى جسد البقايا النصية النوبية في القرون الوسطى بدرجة قصوى في الحقبة الماضية بالعثور على كتاب الإنجيل مخطوطاً بالنوبية القديمة في سرّة (فيما يبدو مماثلاً لولاحد نشره قريثيث منذ سنوات مضت)<sup>(١٦٧)</sup>. وكتاب للصلاة بالقبطية من قصر الوز<sup>(١٦٨)</sup>، ومجموعة غير عادية من الوثائق الدينية، والقانونية والإدارية من قصر إبريم<sup>(١٦٩)</sup>. هذه المعثورات الجديدة لم تحلل بعد ولم تنشر بتفصيل.

الأمثلة الباقية حية من الأدب النوبى في القرون الوسطى غامرة التدين في خصائصها. تحتوى النصوص المطولة تعاليم مكتوبة (الإنجيل بصورة جوهرية)، وحياة القديسين وأقوالهم، وصلوات، وتشكيلة من صيغة شعائرية، معظمها مشهور من عالم المسيحية الأولى<sup>(١٧٠)</sup>. ومثل قدر عظيم من الأدب في القرون الوسطى يبدو أنها تتراوح في حرية بين الهموم الدنيوية والأخروية، وبين مدرجات أخلاقية عليا، وفنشية<sup>(\*)</sup> طقوسية بدائية. مع ذلك، يصعب التعرف على ملامح أى شئ نوبى على وجه التحديد وسط هذا المزيج المتناظر بالمعنى الحرفى للعبارة.

(\*) الفتشية هي ظاهرة التمسك بالأشياء - المترجم.



ربما أن أصفى فكرة عن محتوى الأدب النوبى ونوعيته في القرون الوسطى محمولة في كتابات "الناسك قروتو" بمقرية من فرس. هنا في القرن الثامن إتخذ راهب لخلوة صومعته مقاماً في غرفة خارجية لمدفن صخري من الدولة الجديدة: شرع عبر السنين في تزيين جدرانها بسلسلة من كتابات توفر رؤية متفردة إلى باطن ما رآه رجل بشأن معنى المسيحية. إن قريفيت، الذى نسخ الكتابات قبل ستين عاماً سلفت، أعطى الوصف القالى للناسك قروتو:

أكثر تذكرا يؤثر الإهتمام تركه لنا الناسك سلسلة من النصوص القبطية التى رسمها على حيطان بيضاء. الطلاب في شفق مربعة مثل صفحات كتاب هائل التكبير. الأول على الحائط الشمالى هو " المنسك النابسيني " (٥)؛ والبقية إلى الحد الذى بقيته على قيد الحياة تنسب قصصاً وأقوالاً منيرة للقديسين، على نحو ما كان سارياً في مجموعات كبيرة بالإغريقية، والسورية المرتكزة على الأرمية، والقبطية؛ لكنها لا يظهر أنها تتفق مع تلك التى تضمها أى مجموعة معروفة. إن ٤ ، ٥ ، ٦ فحسب يمكن أن يُعرف عليها في مجموعة سورية، توجد هناك على حد سواء في صيغة مختلفة للغاية. تواصلت هذه السلسلة على الحائط الجنوبي. فرقم ٤٢ في منتصف هذا الحائط صلاة للناسك نفسه، " فيوفيلوس، هذا الأقل من بين كل الدهبان، الذى كتب هذه الكتابات على مسكني " ، مؤرخة في العام ٧٣٩م. على هذه الصلاة تتبع سلسلة من نصوص تعويضية قوية مثل التى بكتاب في مجموعة ليدن. تحتوى بدايات للأنجيل الأربعة مكتوبة في دوائر، تبلغ نهاية الحائط؛ شاغلة الركن غير المنتظم وبداية الحائط الغربى إلى شمال الباب ، رسالة المسيح إلى الملك أبقاريوس ملك إديسا، وقائمة شهداء سياست الأريين، وبعبارة دائرية باللاتينية شائعة الخطأ ( معنونة هنا " أسماء مسامير المسيح " ، أسماء الثامن السبعة لافسوس، إلخ، يعقبها صليب واضح مزدان (٧٧).

النصوص الجنائزية المكتوبة على شواهد قبور نوبية مسيحية تمثل طبقة خاصة من أدب القرون الوسطى. تحتوى في العادة عشرة أو ما يزيد من السطور طولاً، تشكيلة معتبرة من الصبغ، والأوسع انتشاراً منوعة من نص بيزنطى مشهور، " المدح العظيم " (٧٢). إن عينة مألوفة للغاية من دبيرة تُرجمت كما يلي من كروم:

عيسى المسيح، نور الحياة. عبر هدى الرب، حاكم الخلق، هو الذى قال لأم، أول إنسان، " أنت من تراب ، وإلى التراب ستعود ثانية " . على هذا المنوال ذهب المتوفى بيتر عامل الكنيسة للراحة الأبدية - الإبن الروحى لأبا جورج، أسقف قُرتا - في اليوم السابع من شهر أبيب في عام ٧٤٥ (٧٣). وليعطى الرب الخير العطوف الراحة لروحه في الملكوت السماوى، ويرقد على صدر إبراهيم وإسحق ويعقوب، في جنة السرور، حيث يتبدد البكاء والعزن والنحيب، وليجعل ميكائيل الملك المقرب في الطيبة ليرعى عظامه؛ وليجعله سامعاً لذلك الصوت المبارك الذى سيقول " تعال ، أنت أيها المبارك من أبى ، ولتُورث الملكوت الذى هُيئ لك منذ أن وُضع العالم " . لأنك أنت الراحة والمعيد لخادمك، بيتر عامل الكنسية، وإليك نرفع الثناء، وإلى الأب والإبن والروح القدس، الآن وإلى الأبد وأباد الدهور. آمين (٧٤).

## المدن، القرى، والمساكن

في الشمال على الأقل، كان المجتمع النوبى أوسع حضرياً عنه خلال أى فترة سابقة إحتمالاً. مستوطنات قصر بريم، وجبل عدأ، وفرس ربما بلغ تعدادها عدة آلاف من السكان، وكانت هناك قرى عديدة سكانها يعدون بالمئات. في النوبة العليا، ربما كانت حواضر المدن دُنُقلاً وسويوا كبيرة لا تزال، غير أنه في هذه المقاطعات بئنه قليلة على الإستيطان الحضري بعيداً عن العواصم نفسها.

المراكز الحضرية الكبرى كالعادة كان التحقق منها أقل منهاجاً ونظاماً وكانت أقل ما تم فهمه بين تعابير الحضارة النوبية في القرون الوسطى. لم يُضطلع بعد بالتنقيب حفراً في دنقلا، وسويوا،

(٥) عادات وشعائر تتصل بالمجلس الكنسي النابسيني تبدأ ب "إنتي أؤمن بالله واحد" تعود إلي عام ٣٢٥م - المترجم

وقصر إبريم<sup>(١٧٥)</sup> على نطاق عريض في حين أن فرس وجبل عداً أُهديتا الفيضان مع كتلة بقاياها بلا تحقيق . وينظره مسطحة لا تعقب فيها، تحمل كل هذه المستوطنات إلى مدى بعيد نفس الإنطباع كما تحمله المجتمعات الأوربية في القرون الوسطى : زحاماً غير متجانس ودون تخطيط للمساكن يغلب أن تكون غير متينة البناء تتجمع حول واحد أو ما يزيد عليه من البنايات المصروحية. إن المدن الشمالية، على سبيل إقتراسي، كانت النواة لإزدهار التجارة التي وصفها إين سليم<sup>(١٧٦)</sup>، بيد أننا لم نتعرف على سوق خاصة أو مساحة لمحات التشغيل بين بقاياها .

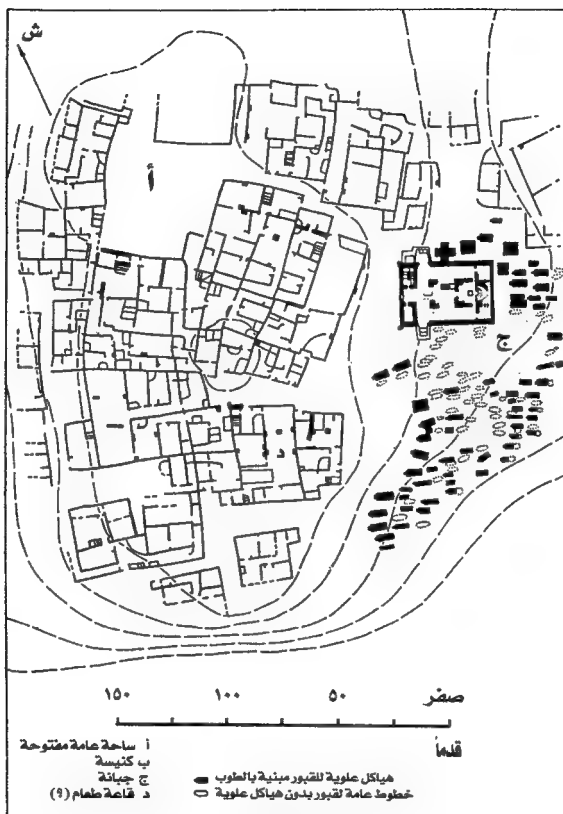
مع أنها أصغر في الحجم، كانت القرى العادية للنوبة السفلى كثيفة الحضرية دائماً كما كانت المدن الكبرى. [ولكن القرى] عدا حالات قليلة، اختلفت [عن المدن] بمستوى رئيس في جانب الإقتاد لأي نواة يمكن إدراكها لمبان عامة أو مربع للسوق. الأمثلة على مثل تلك القرى التي تم التحقق منها في معرض حملة الإنتقاذ القريبة كانت في أرمينا<sup>(١٧٧)</sup>، وتاميت<sup>(١٧٨)</sup>، ودييرة غرب<sup>(١٧٩)</sup>، ومينارتي<sup>(١٨٠)</sup>، وكاسانارتي<sup>(١٨١)</sup>، كل هذه الأماكن يبدو كأنها كان في المقام الأساسى مجتمعاً فلاحياً يعد سكانه ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ إنسان. ما كانت هناك خطة مركزية أو نواة لأي من القرى؛ المساكن مجمعة في تلاحق إلى "أحياء" غير منتظمة وهي مفصولة بازقة متعرجة، في ضيق. وما بقيت الملامح المعمارية ثابتة لأي قدر من الزمان، فقد أضيفت حجرات أو مساكن جديدة دورياً للتجمعات القائمة، بينما جرى تفريع القُدامى، وحُولت من إستعمال الإنسان إلى الحيوان، أو نُحِلت عنها للرمال المجتاحة. نتيجة لذلك ليس ميسوراً بصفة دائمة أن يُخبر أين تنتهى وحدة سكنية وأين تبدأ أخرى .

كل من المجتمعات المسماة بأعلاه احتوت على الأقل كنيسة واحدة، عُيِّن موقعها على طرف المستوطنة. كانت مينارتي إضافة لذلك مقراً لمستوطنة صغيرة للرهبنة، بالرغم من أنه، كما ذكر آنفاً، ما كان ذلك وضعاً مميزاً بحدّة عن الشق النيوبي للقرية. يترأى علاوة على منشآتهم الكنسية أن قرى وفيرة احتوت بناية أو بنايتين خدمتا بعض الوظائف العامة. في أرمينا كانت هناك مجموعة من الحجرات تفتح إلى باطن فناء مركزي، لعله يمثل حوانيت<sup>(١٨٢)</sup>، وفي مينارتي ربما كانت هناك حانة لبيع النبيذ في الفترة المسيحية الباكورة<sup>(١٨٣)</sup>. وفي القرية الأخيرة كان هناك بالمثل، على الأقل لزمنٍ ما، مرحاض عام في موقع مركزي<sup>(١٨٤)</sup>.

قرية مينارتي، على خلاف المواقع الأخرى المذكورة إلى هذا الحد، كانت مؤهلة طوال فترة القرون الوسطى بأكملها، وتكون طبقات أرضها السطحية الأثنى عشر<sup>(١٨٥)</sup> نوعاً من الكون المصغر الذي نستطيع أن نتتبع فيه الأقدار الإجتماعية والإقتصادية للنوبيين المسيحيين من البداية للنهاية<sup>(١٨٦)</sup>. كانت المدينة قد أسست بالفعل في أزمان مَرُوية متأخرة، على جزيرة من الرواسب الطمئية المنبسطة التي تقع تماماً أسفل الشلال الثاني وقد وُصف تاريخها الأول إلى حد ما في الفصلين الثاني عشر والثالث عشر .

في الوقت الذي كانت فيه المسيحية فيه قد جرى إدخالها إلى النوبة، شكلت قرية مينارتي تكساً من المساكن الصغيرة دوئما أي مبان عامة. بعد ذلك سرعان ما أُضيفت كنيسة، مع ما يبدو أنه كان مرحاضاً عاماً، إلى الجانب الشرقي من المجمع إلا أنه لم يُرصد تغيير آخر في خطة القرية أو المساكن. باكورة الفترة المسيحية، مع ذلك، إرتفع مستوى فيضانات النيل إرتفاعاً معتبراً<sup>(١٨٧)</sup>، ودمرت المنازل في مينارتي تدميراً شديداً ومتكرراً بفعل الماء العالي. لقد سعى السكان زمناً ما لحماية أنفسهم بدعم وأحياناً بمضاعفة كثافة حيطان منازلهم التي يرجع أنها كانت هشة؛ ثم يبدو أنهم استكانوا، ما شيدوا من المساكن لقرن أو أكثر إلا الأزيد هشاشة. أبقي على الكنيسة في صونٍ لكن المرحاض لم يُعدّ بناؤه أبداً بعد تدميره بفيضان عارم على وجه دقيق .

أثناء الفترة المسيحية الماثورة، ربما نهاية القرن العاشر، كان هناك "تجديد حضري" ذو سعة في مينارتي التي شهدت إعادة بناء القرية بأكملها خلال سنوات معدودة. إن المساكن الجديدة لم تكن



الشكل رقم ٧٤  
 قرية من الفترة المسيحية القديمة ، مينارتي

بنايتها متينة، تزامنت على بعضها البعض كما كان حالها في السابق (الشكل رقم ٧٤)، لكنها على المستوى الفردي كانت أبسط فناء من أى إقامات نوبية ماضية عدا المنازل "الفخمة" للصقوة المروية (قارن الفصل الثانى عشر). كذلك أُعيد بناء كنيسة القرية مرة ثانية. أما أن النوبيين يتولون مشروعاً مخططاً لبناء مكثف مثل ذلك فامر يُفترض أنهم كان لهم سبب للإعتقاد بأن عهد الفيضانات العالية قد ولى، وأن القرية في حقيقتها لن تدمر ثانية بمستوى خطير بمياه الفيضان .

فى الفترة المسيحية الأولى يصعب التعرف على أى خطة سكنية نوبية ذات تميز، سواء في مينارتى أو مستوطنات أخرى. في قرية مينارتى التى أُعيد بناؤها من جديد في الفترة الماثورة، مع ذلك، يمكننا أن نميز عقلياً خطة سكنية بشكل أو آخر استُخدمت للمجتمع بأكمله بالإضافة إلى مواقع أخرى في نفس العهد. المساكن مبنية من طوب مصفوف بأجمعه في "أطواف" (طولية)، حتى يكون سمك الجدران موحداً بشعاني بوصات، مساوية لعرض طوبة واحدة. كانت السقوف كلها خفيفة الوزن لإقامتها من أعمدة الشجيرات البرية أو حصائر من العشب الجاف. كل منزل وحدة مستطيلة أو مربعة، متوسطة حوالى ١٦ قدماً على الجانب، ولها مدخل واحد من الخارج. أما المدخل فيفتح داخل "غرفة للضيافة" رحبة تشغل ما يماثل نصف المساحة الكلية للمنزل. وهي دائماً ما تكون لها نافذة واحدة أو نوافذ مربعة صغيرة توضع عالياً في الجدار، إضافةً إلى باب الدخول. بنيت (مصطبات) مرتفعة بسطح الدار من الطين في مواجهة واحد أو ما يتعداه من الجدران الطويلة، لتخدم كامئة للجلوس في النهار وكأسرة في الليل. وراء الغرفة الرحبة الامامية واحدة أو أزيد من الحجرات الصغيرة التى كانت تستخدم أساساً لتخزين وإعداد الطعام؛ وتحتوى مجموعة كبيرة منها على قبو أسطوانى كبير من الطين لتخزين الحبوب. ويكل من الحجرات الامامية والخلفية في العادة جُور فخارية رخيصة مدفونة في الأرضيات بالأركان، يمكن أن توقد بها نيران الفحم للتدفئة .

يكل منزل ممر ضيق يتخذ من الحجرة الامامية على طول جانب الحجرات الخلفية، ينعطف زاويةً يُعنى وينتهى إلى مرحاض في ظهر المنزل. هنا على قمة مرتفع مبنى من أعمدة خشبية تم وضع مرحاض خرفى. تسمح "حفرة تنظيف" من خلال الحائط الخارجى خلف المنزل بالإزالة الدورية للفضلات المتراكمة. إن هذا الإكتراث "بتصريف المياه الداخلية" يمثل واحداً من أشد التطورات أخذاً للنفس في معمار السكن النوبى في القرون الوسطى؛ إنه ليس موجوداً بمستوى متماسك في أى فترة أخرى في التاريخ قبل الأزمان الحديثة .

إعادة بناء قرية مينارتى في أزمان مسيحية ماثورة تبعته فترة استقرار طويلة كانت خلالها التعديلات المعمارية الجوهرية منصبةً في طبيعة دفاعية لمواجهة الرمال المتراكمة. إن المتاريس وأسوار صد الرمال بُنيت هنا وهناك. وفي مساكن عديدة عندما كان ضغط الزوايح على الأسوار الخارجية عظيماً بقدر يُبطلُ مفعوله برفع مستوى الأرضيات الداخلية قدماً أو قديمين. جعل هذا بدوره من الضرورة كما هو معتاد رفع مستوى السقف بإضافة بضعة أطواف أخرى من الطوب على رؤوس الأسوار. إن مبنى واحداً في مينارتى رُفِع بالفعل ثلاث مرات بهذه الكيفية، حتى أن أسواره عندما أزيلت للأساس الأصلي، بلغت فعلياً علو طابقين إرتفاعاً .

بحلول منتصف القرن الثانى عشر كان معظم القرويين في مينارتى فيما يبدو قد تركوا الكفاح نهائياً ضد الكثبان الزاحفة حولهم. هُجرت مساكنهم وخلال وقت قصير نسبياً تزلزلت عروشها، وقد وُجدت متينةً في حالات عديدة من قِبَل علماء الآثار. أما إلى أين مضى الناس خلال هذه الوقفة الزمنية فسؤال عويص، عدا أنه عقب إكتمال عملية إرتفاع الرمل بوقت قصير، قاموا هم (أو بعض جماعة جديدة غيرهم) بإعادة شغل الموقع، وشُيدت مساكن جديدة على قمة المرتفع الترابى دائم . الإرتفاع في القرية. لقد إتبعوا دائماً محاذاة المباني القديمة، باستعمال رؤوس الأسوار المدفونة أساساً.

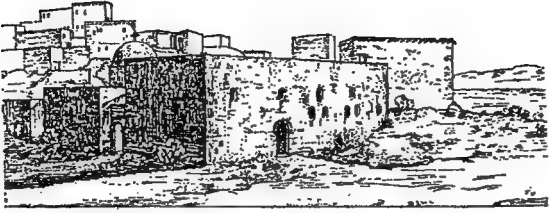
المساكن التي بُنيت في مينارتي من القرن الثاني عشر وما بعده من نمط مألوفة وفي أرجاء النوبة أثناء الفترة المسيحية المتأخرة. إنها مشابهة في الحجم ورسم الأرضية التخطيطي للمنازل المسيحية الماثورة، مع نفس التجميع للصجرات الأمامية المتسعة، والفرقة أو الغرف الخلفية الصغرى، والممر ذي الدرجة القائمة، والمرحاض. مع هذا، فإن البناء الهش للفترة الماثورة حلت محله أسوار أقوى بمستوى بالغ، عادة قديمين وأحياناً ثلاثة أقدام سمكاً. إن السقوف الخشبية الخفيفة لأزمان أولى أفسحت الطريق لسقوف طوبية معقودة واستغنى عن النوافذ الخارجية. أما حجرة التخزين الداخلية في بعض المساكن فلم يعد لها مدخل في مستوى الأرض، لا يتاح الوصول إليها إلا بالسقف عبر سلالم فوقية .

إنها حقيقة مثيرة للعجب كيف أن المساكن المسيحية المتأخرة بمنازلها في مينارتي، على غير مساكن الأزمان الأولى، لم تكن مشيدة أبداً في وصل بُنائِي حقيقي. في حالة واحدة، بُنى منزلان إلى جانب بعضهما البعض يتلاصق جعل المسافة بين أسوارهما من الضيق بحيث لا يجتازهما رجل، ورغم ذلك فإن مبدأ التلاصق الفعلي بدا أنه جرى تجنبه. في قرية أخرى، كاسانارتي، كانت المساكن المسيحية الأخيرة متلاصقة طبيعياً، غير أنه لم يتقاسم أي اثنين منها سوراً عاماً<sup>(١٨٨)</sup>. في هذا الجانب تمثل المبانى في حى مدينة حديثة . كل مسكن مكتفٍ بذاته هيكلياً لكنه ملاصق لجيرته من كل ناحية بنائية. بالمقارنة، كانت المنازل المتلاصقة في الفترات الماثورة والتي تسبقها قديماً في مينارتي تتقاسم دائماً حائطاً أو حائطين عامين. وفي حين أن من الصعب جداً تأويل الأهمية والقيمة لهذا التغيير، هنالك على أقل تقدير لإقتراح بأن الحس المجتمعي القوي الذي يبدو واضحاً في الفترة المسيحية الماثورة كان يندثر مفسحاً المجال لسلوكيات أشد إنفرادية .

المنازل ذات البناية المتينة مثل القائمة في مينارتي وكاسانارتي ظهرت في كل أنحاء النوبة الشمالية في الفترة المسيحية الأخيرة. لقد كانت، بمحض الصدفة، أفضل عدة تتحمل الزحف الرملي بدرجة أعلى مما كان أسلافها عليه، من الواضح أن اعتبارات دفاعية من نوع آخر كانت مشمولة في تصميمها. وبانقضاء الوقت أصبحت بشكل متزايد مُصنَّعة صعبة الإرتداد، تزود أحياناً بأقبية أو غرف مخفية بعناية فائقة. هذه المباني تدل ضمن دلائل عديدة على انشغال مسبق بالدفاع ظل متنامياً، ووجد تعبيره الأوفى في عصر النوبة الإقطاعي. بالتالي فإن الاعتبار الأوفى للمساكن المسيحية المتأخرة وتطورها سيبقى محفوظاً على أفضل الوجوه حتى الفصل القادم .

نمط المسكن المسيحي الماثور ورسم القرية التخطيطي الموجودين في مينارتي أُعيد العمل بهما في إختلافات يسيرة ليس إلا، في ديبيرة غرب<sup>(١٨٩)</sup>، وأرمينا غرب<sup>(١٩٠)</sup>، وأماكن أخرى. هذه المستوطنات ذات التلاحم الكثيف لم تكن، مع ذلك، النمط الوحيد للقرية النوبية في الفترة الماثورة. لسبب ما كان جارياً في نفس الوقت نزوحاً عظيماً من السكان إلى داخل المقاطعة الصخرية الجافية في الشلال الثاني وبطن الحجر. فوق جزر كثيرة كانت فيما مضى غير مأهولة مسبقاً، إلى المدى الذي يسعنا الإخبار عنه، تناثرت أكواخاً ومنازل في القرنين الحادى عشر والثاني عشر. إن الهياكل البنائية في معظم الحالات غير متقنة وغير منتظمة مقارنةً مع منازل مينارتي الفسيحة، مُشيدةً تكاد في معظمها من حجر محلى خُشن المقطع. تتجمع بعض الأحيان في تلاحق، لكنها أحياناً بالغة البعثرة بطريقة غير منتظمة على حوافي جبال جزر الشلالات ومنحدراتها. في أماكن جمة يبدو عدد مثل هذه المساكن خارجاً عن كل النسب بالنظر للموارد المحلية، على أن بقايا الفخار المزخرف وغيره من السلع الفاخرة الموجودة بينها لا تعكس مستوى معيشياً منخفضاً بجلاء<sup>(١٩١)</sup>.

إن الأسباب التي يمكن أن تفسر الهجرة المفاجئة إلى منطقة الشلال في وقت سلام ورخاء غير ظاهرة على الإطلاق. فلعن إنفجاراً سكانياً في النوبة جعل تدليل أراضى جديدة أمراً ضرورياً، مع هذا لا نجد توسعة أو تضاعفاً للمستوطنات في الأجزاء المفضلة على سواها في القطر. لقد إقترحت



الشكل رقم ٧٥

### إعادة هنية لبناء قرية تاميت النوبية في القرون الوسطى

مرة أن مواقع الشلال قُصد بها أساساً أن تكون ملاجئ من فيضان الماء في زمن غير معتاد من ارتفاع النيل، وإنها لم تكن مصممة لإسكان دائم (١٩١٢). هذه الفرضية تجد بعض التأييد لأن مستويات النيل كما دُوتت في مصر كانت عالية بشكل إستثنائي في الحقيقة طوال القرن الثاني عشر (١٩١٣): أيأ جرى الأمر، يجب أن يُذكر أيضاً أن مستعمرات الاكواخ وُجدت في صورة مبدئية في مواقع محلية بالجزر أكثر منها على المرتفعات المحمية بنفس القدر شرق النيل وغربه. وقد تخطر فكرة الدفاع العسكري بصفاة كتفسير، سوى أنها لا تتسق مع التطور المعاصر لقرى مثل مينارتي وأرمينا. وفي أزمان مسيحية متأخرة، عندما أصبح الدفاع هماً يئاً للمسيحيين النوبيين، هُجرت معظم مستوطنات الاكواخ بالجزر في الحقيقة. إن تاريخ هذه المستوطنات كان لذلك موجزاً بالمقارنة، ويبقى سبب نمانها واحداً من أسرار النوبة العديدة التي لم تكشف بعد. كانت المستوطنات المسورة غير شائعة في القرون الوسطى الأولى في النوبة. ومع أن المراكز الإدارية الكبرى في قصر إبريم، وجبل عدا، وفرس كانت مُحصنة في أزمان مَرُوية، فإن هذه المستوطنات في الفترة المسيحية تَخُطت بنموها أسوارها المحيطة بها بنفس الطريقة التي توسعت بها قلاع أوروبا في القرون الوسطى لحد بعيد. في قصر إبريم وجبل عدا تكس من مساكن أشتاتاً تهبط بعيداً أسفل المنحدرات تحت حيطان القلعة. لم تكن قرى رغدة مثل أرمينا أو دبيرة ومينارتي موضع دفاع أبداً؛ في معظم النوبة كانت الأديرة وحدها محاطة بالأسوار، مقصوداً روحياً أشد منها دفاعاً طبيعياً في مواجهة العالم. ما أصبح تسوير المجتمعات الدنيوية وجهاً عاماً حتى مجئ العصر الإقطاعي .

حسبما سار أمرها، كانت هناك مستوطنات قليلة مسورة في النوبة حتى في الفترة المسيحية الأولى، يختلف رسمها التخطيطي وبنائها اختلافاً ملحوظاً عن تلك التي وُجدت في القرى العادية بالقرون الوسطى. أبرز هذه وضوحاً في الشمال البعيد كلابشة (١٩٤)، سبورقة (١٩٥)، شيخ داود (١٩٦)، وإخمندي (١٩٧). في كل من هذه الأماكن ساحة مربعة أو مستطيلة متسعة بدرجة بالغة بين سور حجري هائل، مدعم بمتاريس وزوايا أبراج خارجية (الشكل رقم ٧٦). كان الدخول عن طريق بوابة واحدة مُحصنة أو بوابتين مُحصنتين. بين ذلك في صفاة، يشير الترتيب المنظم وهو مؤجد للمباني إلى تخطيط مركزي يتناقض بحدّة مع خطة البناء خبط عشواء للقرية النوبية المالوفة. وفي إخمندي (١٩٨)، وشيخ داود (١٩٩) تشغل كنيسة مكاناً مركزياً بين المجمع السكني (٢٠٠).

تبدو كل المستوطنات المسورة في النوبة السُفلى كأنها أُسست في الفترة المسيحية أو في وقت قصير بعد بداية الفترة. اقترح المنقبون أن الأسلوب المعماري للتحصينات كان من أصل سورى أو فلسطيني، وقد واكب إدخاله إلى النوبة دخول المسيحية نفسها (٢٠١). في إخمندي، كتابة مهداة



الشكل رقم ٧١  
تصميم لمجمع مسيحي مُحصَّن، إخمينيدي

لإحياء ذكرى تشير إلى أن المسور بُني لحماية الإنسان والحيوان<sup>(٢٠٢)</sup>. هذا، وحقيقة أن المستوطنات المحصنة شمال النوبة تقع كلها بالقرب من نهاية طرق القوافل الصحراوية (كمثال وادي العلاقي)، تعزى لزعم مفاده أنها ربما كانت قد بنيت أساساً إستراتيجيات<sup>(٢٠٣)</sup>. ما من منشآت كهذه وُجدت في أجزاء أخرى بالنوبة .

### الضنون الدنيوية

من ثقافة المجموعة الأولى إلى ثقافة المجموعة المجهولة، جاءت معرفتنا بفنون النوبة المادية بشكل رئيس من محتويات القبور. بمقدورنا أن نعتز فيها على نماذج حية غير ممسوسة بسوء لمعظم الأشياء التي كانت قيد الإستعمال اليومي، من أدوات المطبخ المتواضع إلى أثاث لأفئس المترفات غلواً. في القرن السادس، مع ذلك، وضع تبنى المسيحية حداً لممارسة دفن القرايين المادية مع الميت. إمامنا بالفنون الدنيوية للعصور الوسطى، كما كانت عليه، يجرى من مواد منسية أو مستغنى عنها وُجدت على أرضيات المنازل، وفوق كل شيء في أكاداس الفضلات. هذه السلع بوجه عام في حالة منكسرة، قلما تحتوى ممتلكات قيمة. المواد المعدنية من جميع الأنواع نادرة على الأخص، لأن شقوق البرونز والحديد يمكن دائماً بالتقريب أن يتم وضعها لبعض إستعمال عملي، فلم يستغنى عنها.

لا يُثير عجباً، بالنظر إلى سيرة بقاياها المادية، أن الفترة المسيحية في النوبة كانت تُعد لوقت طويل واحدة متخلّفة في إقرار (٢٠٤). فإن كان لدينا اليوم رأى مختلف للغاية، فمردّه في جزءٍ معتبرٍ لمعثورات قليلة من منازل أوجدها الحظ إذ تُخلّى عنها لسببٍ أو آخر مع قسطٍ كبيرٍ من مخزونها المادى في الموقع الأصلي، ثم إنها لم يُعدّ شغلها ثانية على الإطلاق. معثورات عديدة من هذا النوع إكتُشفت في مينايرتي، تطل إلى الآن مصدرنا الرئيس للمعلومات حول الثقافة المادية النوبية في القرون الوسطى (٢٠٥). إضافةً إلى ذلك آمدنا الفرز والتدوين المنهجي بمواد من أكاداس الفضلات معياراً كميّاً غير دقيق للثروة المادية. وما ندركه الآن نتيجةً لذلك هو أن الفترة المسيحية الماثورة كانت عهداً للرخاء لا يسبقه رخاءاً سوى العهد المروى .

إن نولاً كبيراً من الإمداد المادى النوبى المعتاد في القرون الوسطى تكون من منتجات مصرية الصنع. تواصل إستجلاب البرونز، والزجاج، والفخار المصقول، ومواد الترف من عاج وأبنوس من الشمال بشكلٍ كلى، واستوردت السلع المستهلكة من الفخار والحديد بكمياتٍ كبيرة في نفس الوقت على الأقل إلى داخل النوبة السفلى. في أزمان تبلغ هذه المستودات ما يصل إلى ٥٠ في المائة من إجمالى المخزون المادى للمواقع النوبية الشمالية. مع ذلك ازدهرت صناعات عمل الفخار الوطنية المألوفة، والنسيج، وتجارة الحديد كلها خلال معظم الفترة المسيحية، وكانت منتجاتها ممثلة بوفرة في مجموعتنا الأثرية .

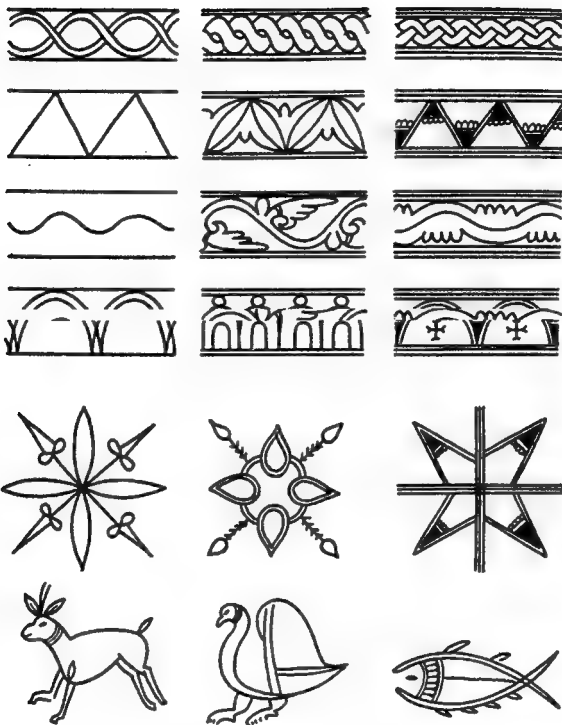
إستمر الفخار النوبى في الفترة المسيحية الباكورة في تقليد التقاليع المنكّرة التى كانت سائدة في مصر البيزنطية (٢٠٦). إن الكؤوس والزجاجات الشعبية في أزمان بلانة فتحت المجال بمستوى متزايد للصحن ذات القواعد والجبر مفتوحة الفم، على أنه كان هناك تفضيل متواصل لأوانى حمراء غير مخططة في التقليد الرومانى العام. وحوالى القرن التاسع أياً كان رسمها، انتعشت صناعة الفخار النوبية فجأةً مع سلسلة كاملة من الأشكال والرسومات الجديدة. إختفت تقريباً الأوانى الحمراء، غير المخططة؛ وحلّت في مكانها كل أنواع القداح، والزهريات والقوارير بزخرف ملون، شديد التعقيد تجمع أشكالاً متكررة هندسية، ونباتية، وحيوانية (الشكل رقم ٧٧). يُبين التعليم الفنى المسيحى الماثور تمثلاً أقرب بدرجة عالية لأزمان مروية بكثير مما يبينه لى شئ في القرون الخمسة المتداخلة بينهما .

إستلهم الإبداعات الفنية المسيحية الماثورة لا يوجد في الفخار المصرى المعاصر، الذى كان بگلّيته أثناء ذلك الوقت تحت النفوذ الإسلامى. يبدو أنه جاء من الزخرف الحائطي للكنائس على الأرجح إذ كان وقتها في بداية إزدهاره (انظر "الفن والأدب الدينى"، بأدناه). إن الحواشى الزخرفية المفصلة التى تعرف بالصفيرة والإستعمال الثر للزينة الهندسية التى تشيع في زخرف الفخار ورسم الكنيسة معاً ربما أنها جذبت إستلهاهما النهائى من الرسومات المصغرة وتبيان المخطوطات القبطية والبيزنطية (٢٠٨). الترفع والتدقيق الأقصى للتنفيذ في تصميم الفخار المسيحى الماثور يعرض بحق أن المصممين ربما كانوا قد تلقوا تدريبهم كمعلمى خطوط .

رغمًا عن أنها تقنياً وفنياً على سواء يتخطاها الفخار المروى، تمثل الأوانى المسيحية الماثورة بائى جال واحداً من أعلى المنجزات الفنية للنوبيين القدماء. وفترتها وتنوعها ينبئان أنها ربما كانت مُنتجةً في مراكز مختلفة عديدة، إن واحداً من أهم المصانع ، وموقعه فرس، إكتُشف في السنوات الأولى من القرن العشرين (٢٠٨). ونقب عام ١٩٦٠ بمستوى أوفى كمالاً (٢٠٩). إنه، للذى أعلمه، أكمل نموذج لمصنع فخار لاستيفاء التحقيق عنه في أى مكان في العالم القديم .

يظهر فخار فرس على أنه في الأصل منشأة لاديرةٍ أسست في وقت مبكر للغاية في الفترة المسيحية. كان الفخار في البدء يُنتج على نطاق صغير، وربما ليمد الحاجات الحائلية للرببان، بين حجرة أو حجرتين وُضعتا جانباً لذلك الغرض. ثم، بعد أن دُمر الموقع تدميراً شديداً بفيضان أو





### الشكل رقم ٧٧

رسوم فخار نوبية مسيحية :

رسوم مسيحية باكرة علي اليسار ؛ مسيحية مأثورة في الوسط ؛ مسيحية متأخرة علي اليمين ( ماعدا الأشكال الحيوانية في الصف الأسفل ، وهي مسيحية مأثورة )

عاصفة مطرية، يبدو أنه أُعيد العمل به كمصنع ليس إلا. استبدلت القمائن الصغيرة الكائنة داخل المبنى بأنواع بالغة الضخامة، مزودة الغرفة أسطوانية كما هو معهود أنفاً في أنحاء أخرى من القطر في أزمان بلانة (قارن الشكل رقم ٦٧). إن خلط الأحواض وغيرها من أدوات صنع الفَخَّار أقيم في حجرات الدير السابقة؛ ويمضى الوقت غُطيت الجدران بشقوق طينية وأثار أخرى لطبع الأيدي على الأسطح. في قمة إنتاجها شملت مصانع فَخَّار فرس أربعة قمائن كبرى على الأقل خارج المبنى، كل واحدة حوالي سبعة أقدام في قطرها، وقمائن صغيرة عديدة بين المبنى .

أول منتجات صنعت في فرس كانت أواني حمراء سطهاء من الأشكال المسيحية المألوفة الأولى وحالما تحول المكان إلى مصنع خالص البساطة، بطريقة أو أخرى، بدا أنه تخصص مبدئياً في إنتاج أنية الأمفورا الإغريقية. ولما يمض وقت طويل بعد ذلك حتى بدأ تصنيع الأواني المسيحية المزخرفة الماثورة برقيها، وظلت فَخَّاريات فرس لقرن ربما واحدةً من المراكز التي تتزعم إنتاجها. زهريات وقداح رفيعة المستوي، جميلة الزخرف وُجدت في أنحاء المبنى بكل أوضاع التصنيع، وشملت الفضلات بين واحدة من القمائن بقايا ما يزيد على ٢٠٠ إناء كان بيّتها أنها دُمّرت عندما انكسبت أرضية القمينة أثناء عملية الحرق .

توقف الإنتاج في فرس في القرن العاشر أو الحادي عشر. إن التخلي عن المصنع كان مفاجئاً وغير متعمد، كما تشهد بذلك الأواني الكثيرة مكتملة الصنع جزئياً والمتروكة في كل أرجاء الموقع، مزخرفة بأكملها ومهيأة للحرق بالقمينة. أما الذي أحدث ريكاً في هذا الموقف فسوف لن نعلمه أبداً؛ ربما كان مرد الأمر إلى انهيار آخر القمائن إنتاجاً في الموقع. ويتوقف الإنتاج في فرس أصاب الخسوف صناعة الفَخَّار النوبي لقرن أو ما يزيد عليه؛ فلم تكن الأواني يؤالى صنعها في مصانع أخرى متعددة بوجه خاص، وافتقرت الزخارف المأخوذة من الطبيعة الإتيقان الرفيع لأرقى منتجات فرس. لزمن ما بيعت بالفعل مقايضة، على الأقل في النوبة السفلى، مقابل مصنوعات مستوردة بشمن رخيص من أسوان .

في الفترة المسيحية المتأخرة إنتعشت صناعة الفَخَّار المحلي مرة أخرى، واستعادت قدراً معتبراً من نوعيتها الجيدة ونوعها الزخرفي. إن الإبداع الرئيس للفترة المتأخرة كان تحكماً أوثق في حرارة الحرق وأجوانه التي تاذن بإنتاج أواني ذات ظلال متنوعة برتقالية وصفراء، علاوة على المصنوعات الحمراء والبيضاء التي كانت واسعة الإنتشار في الأيام الخوالي. مرة ثانية أضحي الزخرف الملون تفصيلاً متطوراً، لكن الأشكال التمثيلية لم تُبعث من جديد. الشكل الزخرفي لفَخَّار مسيحي متأخر عادة ما يكون مستطيلاً هندسياً في بساطة يزدان على الأرجح بأي طريقة ممكنة بمنحنيات مقوسة، وبارزة، وبالنقطة، وما إلى ذلك من رسوم الأطراف (الشكل رقم ٧٧). إن الدرجة العالية للمعيارية المعروضة في المصنوعات المسيحية المتأخرة تُوعز بأنها كانت تُنتج في مصنع واحد، لكن موقعه لم يُكتشف بعد .

ما لعب الفَخَّار المستطيل إلا دوراً صغيراً في المخزون المادي للتوبيين المسيحيين الأوائل منهم والماثورين إن تقليد المصريين للصناعة الحمراء السطهاء التي أظهرت نفسها أولاً في الفترة المروية، تواصل إستجلايه بكميات صغيرة حتى منتصف القرن الثامن. ثم، ربما في نفس الوقت مع النهوض السريع والمفاجئ للإنتاج المحلي، كاد إستيراد الفَخَّار المصري أن يتوقف خلال الجزء الأسبق من الفترة الماثورة. وبعد توقف الإنتاج في فرس عادت المصنوعات الشمالية بقوة لقرن أو ما يعادله، لتضمحل ثانية مع إنتعاش صناعة الفَخَّار النوبي في أزمان مسيحية متأخرة .

شهد القرنان التاسع والعاشر مفارقة جديدة في الحقل الخَرْفي: الإزدهار الأول لصناعات الأواني الإسلامية المصقولة. بمرور الوقت، كان على منتجاتهم أن ترتقى وسط أرفع الإنجازات الفنية للحضارات الإسلامية (٣١٠). ورغم أن الأغلب شهرةً من الأواني المصقولة كان يُصنع في بلاد

ما بين النهرين وفارس، كان مركز هام يقوم بإنتاج الأواني اللامعة في الفسباط، المَعْلَم السابق للقاهرة الحديثة<sup>(٢١١)</sup>.

بدا الفَخَّار المصقول من الفسباط في الظهور في النوبة إبان القرن العاشر<sup>(٢١٢)</sup>، ولم يكن غائباً أبداً من مواقع الفترة المسيحية الأخيرة. إن الشقوق ذات الألوان اللامعة من أزرق، وأخضر، وأصفر ويُنَى تنتصب بحدّة في وسط مصنوعات نوبية في غالبيتها العظمى حمراء وبيضاء. أوائل الأواني المصقولة إما إنها كانت من لون واحد أو مزخرفة بأشكال ملونة بسيطة لها دائماً مظهر غامض و "سارح" - حالة لا مَقْدَى منها عندما يُستعمل صاقلٌ رصاصي. أما إحلاله بصاقلٍ قَلْوَى بعد القرن الحادي عشر فقد جعل من الممكن إجراء زخرفة ملونة أعلى دقة. وفي الفَخَّار المجلوب من الفترة المسيحية المتأخرة نجد أشكالاً هندسية ونباتية رفيعة التشكيل. مع ذلك، فإن بعض مصنوعات الفسباط المتميزة بمستوى رفيع وأشد إرضاءً للذوق الفني عبارة عن أوانٍ من لون واحد لها رسوم عربية مخططة تحت مادة الصقل .

رغمًا عن شعبية الفَخَّار المصقول في العصور الوسطى الأخيرة، لا يبدو أن صناعته اضطلع بها سواء في مصر العليا أو النوبة بالمرّة. وإلى المدى الذي نستطيعه من الإخبار، جاءت كل الأواني اللامعة التي نجدها في المواقع النوبية المسيحية المتأخرة من الفسباط أو حتى من خارج أبعده منه. لا يثير غراباً أن هذه الأواني لم يكن أبداً كبيراً؛ يحتمل أنها كانت وسط أغلى سلع التفاحش ثمناً في النوبة في القرون الوسطى .

يبدأ في يد تطوّر الفَخَّار المصقول سار إحياء صناعة الزجاج في الشرق الإسلامي<sup>(٢١٣)</sup>. لقد كانت الأواني الزجاجية من الأنواع الرومانية شائعة الإنتشار في النوبة السُفلى المروية، لكنها اختفت تقريباً في فترات بلانة والمسيحية الأولى. ثم بدأت في الظهور من جديد بكمياتٍ حوالى نفس الوقت الذي ظهر فيه الفَخَّار المصقول. وسط معظم الأواني إنتشاراً كانت هناك زجاجات تجميل صغيرة، ولكن وُجدت إضافةً إلى ذلك أكواب، وكؤوس، وزجاجات متنوعة. أشمل الأساليب الفنية للزخرفة التي يمكن التعرف عليها للنسيج الزجاجي (خيوط زجاجية ملفوفة بألوان متعارضة)، والتلون، والزخرف القاطع، وكل أنواع الوسائل الفنية لنقل الزخرفة إلى سطوح كبيرة. لا غرو، أن مجموعاتنا الزجاجية من النوبة المسيحية تتكون بشكل رئيس من قطع ملونة صغيرة، غير مستطاع دائماً أن تدرك منها أنواع أصلية للأواني أو أشكال زخرفية. حوالى ٣٠٠٠ من الشقوق الزجاجية وُجدت في مستويات الإقامة العليا (أي المسيحية الأخيرة) في قرية مينارتي. ويُعتقد أن الأغلبية العظمى من الأواني جرى تصنيعها في الفسباط، الذي يتساوى أهميةً كمركز تصنيعي للزجاج والفخار المصقول<sup>(٢١٤)</sup>.

ما كانت المواد المعدنية موجودةً كاشياء عامة في المواقع النوبية المسيحية، لأسباب ذُكرت أنفاً. كان البرونز مستعملًا إلى حد ما للقداح الصغيرة ولأنواع صغيرة مختلفة من المعدات وأدوات الزينة؛ أغلب أدوات البرونز وجوداً في المواقع النوبية في القرون الوسطى هي مرابيد مزخرفة رفيعة كانت تستعمل لتظليل العين بالكحل. ويحتمل أن يعود تكاثرها إلى الصدفة فشكلها الذي يشبه الإبرة يجعل من الميسور فقدانها أو صرف النظر عنها. السلع البرونزية في المواقع النوبية كلها من أنماط مصرية مشتهرة، كاد صنعها في الخارج أن يكون مُستقناً. أما الحديد، الذي كان يُصنع محلياً فيما هو مفترض، فقد كان يُستخدم للمعدات الزراعية والخناجر وأدوات الزينة مثل الصلّبان المعلقة على الصدر من وقت لآخر.

وُجدت خِرَق من ثياب مغزولة في المواقع النوبية المسيحية بوفرة، ومعظم الجنازات المسيحية ملفوفة بكفن من الكتان. إن أغلب بل ربما كل منسوجات الكتان المستعملة من طرف النوبيين لعلها كانت صناعةً مصرية؛ ونعلم من سرد ابن سليم (المقتطف أنفاً) أن بضائع الكتان كانت من بين المواد الرئيسة التي تستلم مقابل القن بمقتضى معاهدة الميظ<sup>(٢١٥)</sup>. كيفما كان ذلك، فقد وُجدت في

مبارتي وغيرها من الأماكن بقايا لكثرة عظمة من أودية الصوف المغرول. هذه الجاليب ليست لها نظائر معروفة في مصر، ولعلها كانت من صنع محلي. يعرض معظمها أنماطاً واضحة من الخطوط العريضة والضيقة في ألوان لامعة تشكلاً؛ ولوأحد أو إثنين منها رسومٌ مركبة في تفصيل موسع (٢١٦). ما لقطة أى علامة على قص أو حياكة؛ لقد كانت فيما هو ظاهر أودية مستطيلة أو بطانيات. ويقدّر مثير للإستطلاع، هنالك بينة قليلة على النسخ المتواصل للقطن في أزمان مسيحية (قارن الفصل الثاني عشر).

الصناعات البلدية الأخرى في النوبة المسيحية هي تلك المألوفة لنا من كل العصور: صنادل الجلد وسيوره، كل أنواع السلال والحصائر، القداح الخشبية، معدات المساحن الحجرية، وأدوات الزينة للمناسبات في حجر وصدف رفيع. إنتاج الحصائر من مشتقات النخيل والصنادل، يبدو أنه كان صناعة متخصصة في المواقع المسيحية المتأخرة في أتيرى وكولبارتي، حيث عُثر على كميات هائلة من الحصير في فضلات الإقامة (٢١٧).

### المجتمع النوبي واقتصاده في القرون الوسطى

بالرغم من غنى بقاياها الأثرية، لا تزال نهج بعض الملامح التي تُعتبر أشد أساسية للحضارة النوبية في القرون الوسطى. فكما لاحظ تريقر بدقة في المقام المناسب تماماً.

... من الميسور أن نفالي في تقدير المدى الذي نعرفه عن التاريخ الثقافي للمنطقة وأن نقلل تقديرنا لغاقد المعطيات التاريخية الذي نتج عن بناء السد العالي. أسباب هذا صافية وفي الغالب مُدركة. إن علماء آثار قليلين ممن عملوا في النوبة السفلى وصلوا هنالك بأهداف محددة في ذهنهم: كان مرامهم أن يتقنوا مادة أثرية بأعلى نسبة ممكنة قبل أن تغمر المياه المنطقة. وفي الوقت الذي قادمهم بحثهم إلى صياغة مسائل أدق تفصيلاً لتاريخ الثقافة النوبية، لم يعد العمل الميداني ممكناً. بسبب هذا، أصبح كثير من العمل الأثري الذي أُنجِز في النوبة السفلى مكرراً أظهر منه موجهاً نحو المسائل، وتتعدى كمية المادة التي جمعها لدرجة عظيمة أهميتها القيمة (٢١٨)

الفجوة في معرفتنا تضحي بادية عندما نحاول أن نضع بشكل ملائم قطع المعلومات الوفيرة التي نملكها في تفصيل إلى داخل صورة كلية للمجتمع النوبي في القرون الوسطى. من جانب واحد، يتحدث ابن سليم وكتاب عرب آخرون عن النوبيين أنهم كانوا عبيداً لملكهم بالقانون (٢١٩). لربما كان هذا عبثاً حقيقياً ناء به كاهلهم، أو ربما أنه لم يزد عن توهم بقانونيته كسمة مميزة للقرون الوسطى، إحتضاناً لمبدأ "السيد المطلق" (٢٠) الممثل في شخص الملك. إن غياب الرموز التقليدية للسلطة - مدافن ملكية، وصروحاً، ونقوشاً منحوتة - يتركنا في شك من مدى الثقل الذي كان نوء الدولة بالفعل يضغط به على السكان النوبيين وفي نفس الوقت يجرمنا إختفاء القرايين الجنائزية مما كان حتى هذه اللحظة واحداً من مقاييسنا الأوسع تناسقاً وثبوتاً في تجربة التمايز الاجتماعي والإقتصادي. نترك لنحكم على الحالة الاجتماعية والإقتصادية للنوبيين في القرون الوسطى بصورة رئيسة على أساس مساكنهم والفضلات الموجودة فيها وحولها. هنا بوسعنا أن نرقب مينةً موحدة تثير الدهشة وسط المساكن في أي مجتمع واحد، لكن باختلاف معتبر من قرية إلى أخرى، كأنما الرخاء كان شأنًا جمعياً أبرز منه وضعاً فردياً أو عائلياً.

بوجه عام تحمل البقايا الأثرية للنوبة في القرون الوسطى إنطباعاتاً بمجتمع رخاء لكنه في نفس الآن حراً وعلى مساواة بما يبعث على العجب، جامعاً فيما يبدو أرقى الملامح لأزمان ما قبل الحضارة وأزمان حضارية. يجوز، مع ذلك، أن السجل الأثري مخادع في هذا الخصوص. إن الفرق

(\*) المقصود حق النوبة في أخذ الملكية الخاصة للإستعمال العام بمقتضى الحكم الأعلى لسلطة السيادة علي كل الأراضي الواقعة في دائرتها - المترجم.

في الرتبة والقوة لا تحتاج لأن تعكس في مغالاة الظهور المادي، على وجه التدقيق في عصر معروف بشواغل الأضورية. تطور التصنيع والتجارة يجادل بوجود طبقة "وسطى"، على الأقل في النوبة السفلى، حتى ولو لم يكن لدينا بينة أثرية مباشرة .

إلى مدى ما نستطيع الإلمام به، في المسرح الباكر للقرون الوسطى، يتوسط ترتيب اجتماعي ما بين الملكية وطبقة الفلاحين التي لم تتغير، ويبدو ممثلاً في القساوسة. هنا نملك توازياً مرئياً مع أوروبا الغربية، حيث كان النفوذ الإقتصادي والسياسي للكنيسة قوياً بحق في بداية العصور الوسطى. لم يكن هذا ببساطة موضوعاً لعلاء أيدولوجي؛ إنه يعكس الحقيقة القاضية بأنه بعد إنكسار شبكة المجتمع القديم كانت الكنيسة دائماً ما تُترك على أنها الهيئة المنظمة الوحيدة بثروة وسلطة منيعة للشغل بأنواع عديدة من العمل الجماعي المنظم الذي كان جارياً ذات مرة على أيدي حكومية أو خاصة. إلا أنه مع ذلك لم يكن الموقف في النوبة قابلاً للمقارنة في كليته، ولا نستطيع أن نقبل بدهة الاقتراح القائل بأن القساوسة النوبيين احتكوا كذلك الأدوار التقليدية للطبقة الوسطى. ماذا كان في الحقيقة، دور الكنيسة النوبية وأثرها في الشؤون الدينية؟ هل كان جمع الضرائب المحلية مفوضاً أساساً للقسس؟ هل كانوا مستغرقين، إدارياً أو مالياً، في تنظيم الإنتاج والتجارة؟ لسوء الحظ لا يمدنا علم الآثار ولا التاريخ بإجابات مباشرة. أفضل ما نتخذه أن نعتبر ما نعلمه عن الإقتصاد النوبي في القرون الوسطى، وأى دور كان بمقدور الكنيسة وفق إستعداداتها أن تلعبه .

واضح من البينة التاريخية والأثرية أن الفلاحة على نطاق صغير تواصل إمدادها لقوام المعيشة في النوبة في القرون الوسطى (٢٢٠). ما من شيء ينبئ بأن المحاصيل أو الوسائل كانت مختلفة عن سابقتها في أزمان سلفت، بالرغم من أن نمو السكان وتوسع المستوطنات يشير إلى أن حجماً واسعاً من أرض جديدة أدخل في الفلاحة أثناء الفترة المسيحية. كان ذلك صادقاً بحق في مناطق الشلالات، التي ربما امتصت جزءاً مقدراً من إنسياب السكان الجارف من النوبة السفلى. هنا كانت الحاجة إلى أسوار للصد ضخمة من الحجر لتحمي الموارد الغرينية الشحيحة كيلا تُحمل بعيداً من الفيضانات الدورية؛ كانت كل بطن الحجر طويلاً وعرضاً محاطة بتلك الأسوار التي بُنيت أصلاً فيما يبدو في الفترة المسيحية (٢٢١). رعى الفلاحون النوبيون البقر والأغنام بأعداد صغيرة كما كانوا في السابق، وظهرت عظام خنازير بكميات لأول مرة في مواقع الفترة في القرون الوسطى (٢٢٢).

إفتراضياً كان كل من الأديرة النوبية محطياً بمقاطعات من الأرض كافية في وفرة لدعاه. جانباً عن ذلك، مع هذا، لا نملك بينة قاطعة سواء بإيجار إقطاعي أم بأعمال إقطاعية في الفترة الأولى من القرون الوسطى. نمط المستوطنات والحقول يقترح بشكل أرجح أن معظم الأرض كانت قطعاً عائلية صغيرة تتركس لمحاصيل الإعاشة، كما هي اليوم. إلى المدى الذي انتفعت فيه الدولة والكنيسة من الزراعة، لذلك، لابد أنه تم أساساً من خلال جبي الضرائب على الأرض (ربما كذلك على الحيوانات وآلات الرعي) أعلى منها عبر أعمال مباشرة. لا نعلم لسوء الحظ شيئاً عن أنظمة الضرائب في النوبة خلال القرون الوسطى. كل الأرض تعود نظرياً للملك، لكن ما إذا كانت الكنيسة تفرض ضرائب صغرى بانتظام إضافة إلى الجبانة الملكية، أو ما إذا كان الحق المنحصر لفرض الضرائب على أراض معينة ممتوحاً لمنشآت كنسية (كما كانت عليه الحال في أوروبا وكذلك الحبشة المجاورة) (٢٢٣)، فما بمستطاعنا قوله. يمكننا التمعن فقط في أن الرخاء المعروض بالكنائس النوبية الأولى لابد أنه كانت له بعض قاعدة في الإقتصاد المحلي، وأن نضمن أن القساوسة ربما خدموا كمحصلي ضرائب لأنفسهم وللملك معاً، أو أنهم كانوا يستعملون إكراميات ملكية في صيغ أخرى .

كما ذكرنا آنفاً، ليس هناك شيء يفيدنا بأن أديرة النوبيين كانت مراكز أعمال تصنيعية وتجارية بأي شكل يُقارن ببعض الأديرة المصرية والأوروبية. مع ذلك، كان كل دير مُتُكَبِّاً فيما هو مفترض على إنتاج أنواع مختلفة من البضائع المصنعة مما يحتاجه الأعضاء أنفسهم، وهناك دليل على أن

المنتجات على الأقل في بعض الحالات كانت تصدر وراء الأسوار. نستعيد ذكر أن مصنع الفخار في فرس بدا ما يبدو أنه كان ديراً؛ ورغم أنه بعد زمن توقفت المبانى عن أن تكون لها أى وظيفة دينية، لا يوجد سبب يمنع بقاء العمل موضوعاً تحت إدارة كنسية. لربما أن الأرباح جُنبت لصالح واحدٍ من كنائس فرس المتعددة، أو للدير القريب من قوز الور<sup>(٢٢٤)</sup>. هذا الإنتساب المستمر علّه يشرح المتوازيات للصيقة بين زُخرف الفخار المسيحي الماثور وزُخرفة الكنيسة .

المع الكتاب العرب ذكراً في مناسبات لحدائق العنب، وعلى الأخص في الجزء الجنوبي من النوبة السفلى. لقد ذكرنا كذلك أن صناع الفخار في فرس تخصصوا لوقتٍ ما في إنتاج الأمفورة بكميات تجارية، وهي ما كانت إلا للنيذ. ليس بحوزتنا معلومات أخرى حول إنتاج النيذ النوبى، لكن تربية العنب عمل يتطلب قدراً معتبراً من الجهد الجماعى، لذلك السبب ترافق بانتظام مع الأديرة في كل من مصر وأوروبا<sup>(٢٢٥)</sup>. لذا فهناك بعض إمكانية بيهيمة أن حدائق العنب في النوبة كانت بالمثل واقعة تحت إدارة الأديرة، لأنها كانت بتدفق مركزة في المساحة التي كانت الأديرة مُمثبة بها على أفضل الوجوه .

فيما عدا حالات لفخار مزخرف، واستدلاليّاً حالة النيذ، نملك بيّنة ضئيلة جداً على تصنيع متخصص أو تجارة داخلية في النوبة في القرون الوسطى. صنع السلال، والحصائر والفخار اليدوى يبدو من الصعب شغله في التبادل السلعي التجارى، على الأقل حتى الفترة المسيحية المتأخرة. في معظم الأمر أنها كانت تُنتج من النسوة لإستهلاك البيت في كل جزء من القطر. أما الاتجار بالحديد، وأعمال الجلود، والتجارة، وصنع الأوانى للإستعمال بالساقية فالمفترض أنها كانت مهناً أدق تخصصاً، عدا أنه لبد أن ممارسين وُجدوا لهذه المهن في كل من المراكز السكانية ذات الأهمية الأعظم. نجد هذا مثبتاً بتحديدٍ في حالة أوانى الساقية؛ ويقايا القمائن التي ما أنتجت شيئاً غيرها وُجدت في أماكن كثيرة<sup>(٢٢٦)</sup>. ليس من سببٍ ليفترض أن مثل هذه الأعمال كانت منظمة أو مُدارة سواء من الكنيسة أم من الدولة، مع أن الضرائب كانت تُجبى منهما افتراضياً بواحدٍ من الوكالتين أو الإثنين.

ظاهر من بيّنة أثرية ومن بنود معاهدة البقظ معاً أن التجارة العالمية كانت عاملاً هاماً في الإقتصاد النوبى في القرون الوسطى، مثلما كانت عليه في كل الفترات الرّخية في التاريخ النوبى. أياً كان أمرها، فإن كلاً من حجم ونوعية السلع المستوردة تضارب بشكل معتبر من قرن لآخر. كان الطلب النوبى المتزعم في الفترة المسيحية الأولى، كما في أزمان بلانة، فيما يبدو هو الحصول على النيذ<sup>(٢٢٧)</sup>. وبسبب ندرة السلع المستوردة بخلاف أمفورة النيذ يتوقع أن تعطى مواقع العصور الوسطى الأولى إنطباعاً بالفقر علّه لم يكن مسوغاً على سبيل الإجمال؛ ولربما يصير من الأصوب أن يقال أن النوبيين في ذلك الوقت فضلوا سلع الترف المستهلكة على السلع غير المستهلكة .

بعد القرن الثامن كان هناك تخفيضٌ صارم في حجم استيراد النيذ، ربما لأن الخليفة المعتمد على وجه التحديد منع إدخال النيذ في مقايضات البقظ<sup>(٢٢٨)</sup>. (حوالى نفس الوقت بدا الإنتاج واسع النطاق للأوانى الإغريقية الأمفورة في فرس، مما يبنى بإمكانية قيام النوبيين بتربية العنب ليعوضوا الخسارة في تموينهم الخارجى)<sup>(٢٢٩)</sup>. تبدو التجارة الخارجية كانتا بقيت في جُزء منخفض أثناء الجزء الأسبق من الفترة المسيحية الماثورة، خلال وقت كانت فيه المصنوعات النوبية الوطنية في اكمل إزدهارها. ثم، مواكبة لتوقف صناعة الفخار في فرس، بدا الفخار والزجاج المستجلب يفيض على النوبة. وبين ١٠٥٠ و ١١٥٠ كانت أوانى رخيصة، مصنوعة على نطاق واسع في أسوان، شائعة وسط النوبيين في النوبة السفلى مثلما كانت المنتجات المحلية. إنها حقيقة مثيرة للإهتمام أن هذه المصنوعات وُجدت بغزاره أكثر في النوبة عنها بمصر، ملقية بإمكانية تصنيعها أساساً للسوق النوبى. وبعد القرن الثامن عشر إنخفضت أعدادها نوعاً ما، لكن مكان الأوانى المزخرفة احتلتها جزئياً

المصنوعات المصقولة من مصر السفلى. أما أواني الطهى المستجلبه من أسوان فظلت شعبية حتى نهاية الفترة المسيحية<sup>(٣٢٠)</sup>. الأقل عامية وما قُتِيَ ظاهر الوجود في البقايا الأثرية للنوبة المسيحية سلع تهاجر من البرونز، والعاج، والابنوس، كلها فيما هو واضح صناعة مصرية. كذلك فإنها مذكورة بشكل غالب في السروود التاريخية، وأحياناً موجودة أثرياً، أنواع من بضائع إسلامية مغزولة.

إلى المدى الذى يسعنا تحديده، لم يكن للكنيسة يد في تجارة النوبة العالمية. إن سرود ابن سليم وكتاب آخرين لا تترك شكاً في أن التجارة المستوردة في النوبة السفلى كانت متزعمة بأيدي رجال أعمال مسلمين، كان مسموحاً لهم بعد القرن التاسع بالترحال والإقامة بحرية في الجزء الشمالي من القطر. (كافتراض كان هؤلاء الأفراد هم الذين تركوا لنا شواهد القبر العربية الموصوفة في قسم سابق<sup>(٣٢١)</sup>)، إضافةً إلى عدد عظيم من وثائق التبادل السلعي العربية التى عُثِرَ عليها في قصر إبريم<sup>(٣٢٢)</sup>. تحت رعايتهم طورت النوبة السفلى إقتصاداً نقدياً، ربما لأول مرة في تاريخها. وفي الجانب الآخر بقيت التجارة فيما وراء الشلال الثانى بشكل مطلق إحتكاراً ملكياً وطبقاً لابن سليم، كانت لا تزال سائرة بجمعائها بالمقايضة. لربما يفسر لنا هذا جزئياً لما كانت السلع المستوردة تادرة جداً جنوب الشلال الثانى غير ما كانت عليه في النوبة السفلى.

السلعة الرئيسية التى تُبادل بها النوبة النوبيذ المصري، والفخار، ولسلع التهاجر كانت هي العبيد. كيف ويمن كانت تجارة الرقيق تنظم، وأى دور لعبت في الإقتصاد النوبى في القرون الوسطى، تقع هذه ضمن أهم الأسئلة التى لم يُجب عنها بعد في التاريخ النوبى الأخير. كان عدد ٤٠٠ عبد المقرر سنوياً في البقطة يتكون أساساً من أسرى الحرب بوضوح، حيث أنه في القرن التاسع شك النوبيون من أن عدم قدرتهم على الحصول على عدد كافٍ من السجناء كانت تلزمهم بدفع أبنائهم للإسترقاق<sup>(٣٢٣)</sup>. لسوف يكون مثيراً للإهتمام بحق أن يُكَلِّم من كانوا ضحايا لغزو الرق النوبى في القرون الوسطى. إن مملكة علوة المسيحية تقع بين دنقلا وأرض الإسترقاق التقليدية في جنوب السودان، لذا فإنه من المحتمل أن المقيمين كانوا قادرين على الإنعطاف في ذلك الإتجاه كمورد للرقيق. والأقوى احتمالاً أن العبيد كانوا يستحصلون إما من قبائل في تلال البحر الأحمر أو من الشعوب الزنجية في كردفان ودارفور، غرب النيل. وفي أى حالة، لابد أن نطاق العمليات الحربية كان ذا اعتبار، مما يثير فكرة (كما تفعل بنود معاهدة البقطة) أن صفقات الرقيق لم تكن عملاً تجارياً للدولة فحسب، بل لعله كان القوام الإقتصادى للتاج النوبى في القرون الوسطى. مع هذا، يخطر بالبال كذلك إنه كان هناك قدراً مُعِيناً من صفقات الرق الخاصة، على الأقل في النوبة السفلى<sup>(٣٢٤)</sup>.

في المحيط الإقتصادى الخالص، ربما كان لمعاهدة البقطة أثر على مجرى التاريخ النوبى بأقوى مما كان لإدخال المسيحية. فإذا لم يكن النوبيون من قبل غزاة رقيق متمرسين، فإن ضرورة تسليم عدد سنوى مقرر من ٤٠٠ إنسان سرعان ما أدارهم نحو ذاك الإتجاه. نتيجة ذلك بلغت تبعيتهم المنغلقة على بيئتهم النهرية نهايتها. ومع سير القرون أُجبروا على ركوب أنواع أكبر فأكبر، في نظر أبعد فأبعد خارج مجالهم، لسلعة يُحتاج لها ليس فقط من أجل تجارة للترف، إنما لتأمين إستقلالهم المتواصل عن السلطان الإسلامى. بنهاية العصور الوسطى، عُرف النوبيون بأنهم السماسرة الرئيسيون لتجارة الرقيق في النيل، وتحولت إجمالاً أعداد عظيمة من الرجال الأقوياء من الفلاحة إلى غزو الرقيق كمصدر حيوى للمعيضة في القرن الخامس عشر كان هناك أنفأ نوبيين يعقدون صفقات الرقيق في القاهرة<sup>(٣٢٥)</sup>، وكان الانفجار الهائل للرق الذى أعقب الفتح المصرى للسودان في ١٨٢٦ في قسطنطينية منظماً وموجهاً من نوبيين دنائلة<sup>(٣٢٦)</sup>. توقفت النوبة، تحت وطأة هذه الظروف، من أن تكون محافظة إقتصادية متميزة. إن تاريخها الأخير لا يمكن فهمه إلا على أساس تداخل متنامٍ مع بقية السودان<sup>(٣٢٧)</sup>.

أى ملخص للخصائص الإجتماعية والإقتصادية للحضارة النوبية في القرون الوسطى لابد أن

بيداً، كما حدث دائماً في الماضي، بالتمييز بين النوبة السفلى والنوبة العليا. في الشمال يبدو أننا نستبصر مجتمعاً واقتصاداً على حرية نسبية، مكوناً من حكومة (ممثلة في الإبارش إضافة إلى الملوك المحميين)، ورجال الأعمال الخاصة (ومعظمهم مسلمون) والفلاحين النوبيين. ربما أن الكنيسة أدت بعض وظائف الحكومة المحلية، كذلك شغلت على نطاق ضيق بالتصنيع والتجارة. في النوبة العليا، من الجانب الآخر، يمكننا أن نستبصر حتى هذا المدى التقسيم الهرمي بين الحكام والمحكومين فحسب، مع حكومة محتكرة للتجارة الخارجية مستمدة ربما بدخولها الرئيسية من هناك. إن أي دور لعبته الكنيسة في مشروع النوبيين في النوبة العليا لم يبق مجالاً للتحديد؛ أما الآن فيكفي أن يلاحظ أن كنائس النوبة العليا لم تكن بالتقريب متعددة جداً أو غنية للغاية نحو ما كانت عليه الكنائس في الشمال .

### ملخص تفسيري

شهد افتتاح العصور الوسطى، في تعاقب سريع، حادثين لهما أهمية وقيمة بالغان للتاريخ النوبي. الحادث الأول هو إدخال المسيحية في الجزء الأخير من القرن السادس؛ والحادث الثاني هو سقوط مصر والاقطار المجاورة لجيوش الإسلام في أقل من مائة عام لاحقة. هذا احتضنت النوبة إيمان الغرب المتحضر في تمام الوقت الذي ستُقطع فيه بعيداً عن بقية العالم المسيحي بالهجوم الإسلامي الكاسح، مكرمة طوال العصور الوسطى بالحفاظ على حياد إتقاني في بعض الأحيان أثناء المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب .

صاغ مقدم المسيحية تحولاً أيديولوجياً في النوبة ليس له مواز منذ مجئ الحضارة نفسها. خلال بضعة أجيال بل سنين قليلة استغنى عن تقاليد الفراعنة، التي لمدة ٢.٥٠٠ عاماً إنتصبت كأنها محكات بسيطة لإختبار مصداقية الحضارة، لصالح توجهات رمزية جديدة كأنما بلبل، إنتشرت مدافن ملكية ومعابد، وإعلانات للتمجيد المُغالي فيه، وفن للتطهيم، واثاثاً جنازياً، وإعتقاداً في قدسية الملوك، وحلت محلها تعاليم جديدة في العقيدة، والفن، والأدب.

ما كانت مسيحية النوبة في القرون الوسطى إيماناً كاثوليكياً كغرب أوروبا لكنها مسيحية ذات الوصاية الأبوية والنظرة المذكية على الداخل للكنيسة القبطية المصرية. لقد اعتُبرت مُرتدة من قبل روما والقسطنطينية معاً، وبعد القرن السابع كانت الكنيسة في مصر مضطربة إضافة إلى ذلك لتقبل وضعية ديانة الأقلية بين إمبراطورية الإسلام. برغم هذه القيود برهنت المسيحية أنها مصدر خصب للإلهام الكتابي والفني؛ طوال العصور الوسطى استُمدت كل التعابير الرمزية للحضارة النوبية تقريباً من إيمانها المسيحي. كان ملك السموات في الأيدولوجية النوبية في القرون الوسطى جباراً قوياً إلى حد أنه من الصعب أن توجد معلومات كثيرة عن الملوك الدنيويين وقعاتهم .

تبدو الحياة الاجتماعية والإقتصادية للنوبة على أنها نمت في نعمة يوماً مقاطعة خطيرة أثناء الجزء الأول من الفترة المسيحية. إن الملكية التي كانت قد أنشئت في النوبة السفلى في فترة بلانة ثابرت زمناً بعد إدخال المسيحية، ثم استوعبت في باطن دولة أكبر كانت عاصمتها في تُفَلا. أما مركز الجذب السياسي فقد قفل هكذا رجوعاً إلى النوبة العليا، لكن المنطقة الشمالية ظلت في مقدمة التطور الإقتصادي والثقافي حتى نهاية العصور الوسطى .

مملكة المقررة المسيحية بعاصمتها في تُفَلا، تمسكت بالبقاء على الأقل حتى القرن الرابع عشر. إمتدت تُخومها من أسوان في الشمال إلى ما وراء الشلال الخامس ربما في الجنوب. ووراءها في أراضي السهل في أواسط السودان، كانت مملكة أخرى، علوة التي لا تعلم عنها إلا شيئاً قليلاً. ظلت النوبة السفلى تحت إدارة المقررة حتى نهاية العصور الوسطى. بيد أنها بعد القرن التاسع مُنحت



وضعية خاصة كنوع من منطقة التجارة الحرة بين النوبة المسيحية ومصر المسلمة. هنا كان التجار الأجانب يؤمن لهم بالسفر والإقامة، والسلع تُبادل بحرية، والنقود متداولة. والحاصل، أن النوبيين في النوبة السفلى يبدو أنهم تمتعوا بمستوى معيشي عالٍ بدرجة معتبرة عما لقيه جيرانهم الجنوبيين. حياة المدينة كانت أشد تطوراً في الشمال، الكنائس أعطى تعدداً وأغنى، وفن القرون الوسطى وأدبها يبدو كذلك وقد بلغ ذروة رقيها في النوبة السفلى. في تلك الأثناء، كانت النوبة العليا في مباشرة أمضى وربما قهراً أعتى محكومة بملكها، وظلت التجارة إحتكاراً ملكياً. على الجملة، تبدو النوبة السفلى كأنما شهدت شيئاً مثل إحياء الحضارة الحضرية لأزمان مَروية، في حين أن النوبة العليا كانت تتميز بخاصية بلاطٍ ملكي، على غرار ما كان عليه حالها عصوراً سالفة كثيرة .

الفتح الإسلامي لمصر في ٦٤٠ - ٦٤٢ كانما تبعه مباشرة غزوٌ للنوبة. ومع ذلك، لم يكن المسلمون قادرين على كسب موطأ قدم في الجنوب، وبعد بضعة إجراءات حاسمة تم التوصل إلى هدنة، *البقط*، وظلت نافذة ٦٠٠ عاماً. بمقتضى بنودها كان على النوبيين أن يسلموا مصر عدداً مقررأ من الرقيق، وأن يستلموا بالمقابل سلعاً متنوعة مصنوعة مصرية .

كان لمعاهدة *البقط* أثر هائل على التاريخ النوبي اللاحق. لمدى ٦٠٠ عام حررت النوبة من تهديد الفتح الإسلامي، بذا جعلت الحضارة الرّخية من المُسألمة أمراً ممكناً بقدر كبير في الفترة المسيحية الماثورة. في نفس الوقت جعلت العلاقات التجارية مؤسسية مع العالم الإسلامي، وربما ساهمت في رخاء كل من مصر والنوبة. في النهاية، كيفما اتفق ذلك، شجعت النوبيين وربما أجبرتهم على الإنعطاف أكثر فأكثر من مساعيهم الزراعية والإقتصادية التقليدية إلى غزو الرقيق، وهكذا فتحت عهداً جديداً في التاريخ النوبي سوف يناقش بتفصيلٍ أوفى في فصول أخيرة .



## الفصل السادس عشر

### العصر الإقطاعي

### إضمحلال الأنظمة الملكية المسيحية وسقوطها

أوج حضارة القرون الوسطى، كما وُصفت في الفصول الأخيرة، يمثل واحداً من أنصع الصفحات تالفاً في التاريخ النبوي. ابن سليم، وأبو صالح، ومراقبون آخرون تركوا لنا صورةً عن الممالك الرُخية حسنة النظام، التي كانت تعيش عموماً في علاقات جيدة مع بعضها بعضاً ومع جيرانها المسلمين. ثم بغتةً، سقط ظلٌّ على المنظر. لمائة عام بعد أبو صالح يصمت التدوين التاريخي؛ وعندما تُستأنف القصة، مؤخراً في القرن الثالث عشر، تتمخض تلك التي تصادف أعيننا عن نوبة مُبيلة بما يدعو للحنن. إحتجبت مملكة علوة بأجمعها عن النظر، بينما كانت المقررة تترنح في وضوح نحو السقوط. توفر لنا المصادر العربية الأخيرة سجلاً إكتئابياً كانه متواصل لمدخلات أسرية وحروب شيعية، ثُوِجت في ١٢٢٣ ببلوغ أمير مسلم لعرش بُنقلا التاريخي. خلال حقبة وجيزة تحللت المملكة النوبية الشمالية، التي كانت قد حافظت على تكاملها منذ ما قبل الأزمان المسيحية إلى مجموعة من عُموديات متحاربة. مشابهاً لهذا، كتب ابن خلدون، المؤرخ الأعظم للعصور الوسطى، فقرةً ملائمة عن حضارة النوبة المسيحية باكراً في القرن الرابع عشر:

مُزقت مملكتهم إرباً إرباً وأخذ عرب جهينة ملكية بلادهم. ما كان ممكناً أن تتنشق حكومة أو أن تنشأ سياسة ملكية بسبب الخراب الذي منع قيام أى اتحاد بين الأمراء وقسمهم شيعاً في ذلك الوقت. وما من أثر لسلطة ملكية بقى في البلاد، فالناس الآن أصبحوا بدواً، يتبعون خطى الأمطار كما يفعلون في شبه الجزيرة العربية<sup>(١)</sup>.

أسباب مختلفة كانت موضعاً للتفكير في شأن الإضمحلال فالإندثار النهائي للممالك النوبية. انحنى ابن خلدون باللائمة المُطبقة على البدو، أناساً يُحَقَّر من مكانتهم كإدعاء بالوراثة للحضارة والتعليم<sup>(٢)</sup>. وأشار كتاب آخرون للزوع القتالي المتزايد لمصر تحت حكم المماليك، أو للإنتهايات التي ارتكبتها النوبيون المستعربة بين محافظة ماريس الشمالية أو للتصرف المجموع لهذه العوامل مختلفة للإسلام. يتفق كل الكتاب بالتقريب، كيفما اتفقوا، أن مصير الممالك النوبية كان قد خُتم منذ أن أحيط بهم وأخترقوا من شعوب مسلمة؛ ومنذ زمن ابن خلدون أخذ الظل الذي غسق فيه تاريخ النوبة الأخير على وجه العموم بأنه ظل الإسلام.

البُنية للموجودة الآن، بما في ذلك قدرٌ عظيم مما خرج إلى النور في السنوات العشرة الأخيرة<sup>(\*)</sup>، تنبئ بأن هذا الرأي التقليدي للتاريخ ما بعد المسيحي للنوبة ليس دقيقاً في إجماله. إن النصوص التاريخية تُلقى ضوءاً خافئاً في تقطع وحسب على آخر قرون للفترة المسيحية، وربما لا نعرف أبداً بدقة متى ولماذا تخلّى النوبيون عن الإيمان الذي دافعوا عنه بقوة ومراس لما يزيد على سبعمئة عام. الذي يبدو ظاهراً، مع هذا، هو أن نفوذ إيمان منافس ما كان إلا واحداً من عدة عوامل مهلكة كانت عاملة في النوبة في القرون الوسطى الأخيرة. ظاهر أيضاً أن الديانة المسيحية ظلت باقيةً زمناً طويلاً بعد سقوط النظام الملكي المسيحي، على الأقل في الشمال، بينما الذبّة على ممارسة الإسلام كدين شائع الانتشار لم توجد حتى تاريخ كان لا يزال متأخراً. تأكيداً ما كان هنالك أبداً نزال سياسى بين الإيمانين، أما الرأي التقليدي بعلاقة سبب - و - نتيجة بين مجئ الإسلام وإخفاء

(\*) (١٩٦٦ - ١٩٧٦) - المترجم.

المسيحية فهو مغالاة في التبسيط بشكل مُعتبر. يبدو أفضل، في الحقيقة، أن تُقدر العمليتان كلًا على حدة. في هذا الفصل سوف نغني بالأحداث والعمليات التي قادت إلى الإبعاد النهائي للنوبية المسيحية، وفي الفصل الذي يليه نُقدّر انتشار الإسلام في الفترة ما بعد المسيحية.

لا نترك الدقائق المعاصرة إرتياباً في أن الممالك النوبية في القرون الوسطى كانت في حالة من الفوضى دهرًا طويلاً قبل أن تُهدد تهديداً خطيراً من الخارج، أسباب إنهارها ما كانت في جزء منها إلا خارجيةً فحسب. كانت الممالك، بحلول القرن الثالث عشر، تتعدى ستمائة عام عمراً، وكانت فيما بدا للعيان تبدأ في عرض علامات الشيخوخة السياسية. الكنيسة النوبية، بدورها، أمست وجيدة قُصية بمدى متزايد عن الشؤون اليومية وفقدت جزءاً كبيراً من رجائها الشعبي، نحو ما رأينا في الفصل الخامس عشر. في هذه الأثناء أضعف دعمها الخارجي بالإضطهادات التي شنت بحق الكنيسة في مصر تحت نظام المماليك. أخيراً، علينا أن ندرك الحجم المتنامي من تجارة القوافل عابرة الصحراء في غرب إفريقيا، التي يحتمل أنها اقتطعت في العمق من حصة النوبة المتناقصة ابتداءً من التجارة في الذهب، والعاج، والرقيق.

في نفس الوقت الذي كانت تتآكل فيه المصادر التقليدية للقوة والسلطة، يمكننا أن نستبصر في نوبة القرون الوسطى المتأخرة نفوذاً متزايداً لأيدولوجية جديدة ما كانت مسيحية ولا إسلامية. كانت هذه هي روح الإقطاع العسكري الذي كان، بحلول القرن الثاني عشر، قد صاغ أنفاً تحولاً واسعاً في مجتمعات أوروبا والشرق الأدنى. ومع أنه دائماً ما كان يشكل سبباً مشتركاً مع الدين، فإن النظام الإقطاعي في قاعه كان واحداً دينوياً؛ سلطة الصفوة العسكرية الطاغية ما توسدت كتاباً مقدساً لكنها قامت على تركيب معقد من الالتزامات القانونية والتعاقدية. كان غناؤها، علاوةً على ذلك، للأمن والنظام في هذه الدنيا، ما لخالص في الآخرة. ولما حان الوقت ليتقاسم ذلك العناء قسم كبير من عالم القرون الوسطى، اتاحت مجتمعات الأزمان السابقة الممرضة في الكنيسة - و - المسجد مكاناً لمجتمعات العصور الوسطى المتأخرة وهي تتمركز وراء أسوار القلاع.

رغمًا عن أن البنية إستدلالية بإسهاب، يبدو مؤكداً أن تحولاً أيدولوجياً من هذا النوع اتخذ مكاناً في مجتمع النوبة في القرون الوسطى المتأخرة. محتمل أن إستلهاً جاء أصلاً من الحروب الصليبية - البلاء العظيم الذي انصهرت فيه واتقنت التقنية العسكرية والأيدولوجية الحربية التي احتدمت في العصور الوسطى (٣). من هنا انتشر نفوذهم، بمضى الوقت، فوق معظم العالم الحضاري. لم يتول النوبيون دوراً مباشراً في الحروب المقدسة، ولا نستطيع أن نعرف بوجه قاطع أين كان تعاطفهم واقعاً؛ لكن من الصعب أن نرتاب أنهم كانوا مراقبين حذرين للصراع وكانوا على أثر منه عالٍ.

ربما كان الحادث المحدد الذي أشعل نمو نظام إقطاعي في النوبة هو غزو شمس الدولة للنوبة في عام ١١٧٢ - نفسه ناتجاً متفرعاً عن الحروب الصليبية (قارن الفصل الرابع عشر). لقد كان أول عملية حربية متناسقة ضد النوبيين لمدة تكثر على خمسة قرون، ويبدو أنه أيقظ فيهم إكتراثاً بامنهم الجماعي لم يكن بادياً على الإطلاق في الفترة المسيحية الفائتة. تماماً حوالى نفس هذا الزمن يمكننا أن نربح أول ظهور للمساكن المسيحية المتأخرة ذات البناء الممتين، والتوجه الدفاعي (الفصل الخامس عشر، ومن بعد ذلك تطوراً متزايداً وتوسعاً مُفصلاً للمعمار العسكري على حساب المعمار الكنسي. في نهاية العصور الوسطى تخطت القلعة كلاً من الكنيسة والمسجد كرمز للسلطة لمدى ليس له مواز في أي قطر أوروبي أو في الشرق الأدنى.

علينا، إذن، أن نُرَبع جانباً التوصيفات التقليدية "مسيحية" و "إسلامية" وأن نسمي فترة القرون الوسطى النوبية المتأخرة كعصر إقطاعي. لقد بدأ بالفعل قبل الإختفاء النهائي للمسيحية النوبية، واستمر طويلاً من بعد. ما كان إلا في تدرج، أثناء الفراغ الذي خلفه انهيار كنيسة منظمة أن تقاليد الإسلام قامت بتكوين أساس لرؤية النوبيين للعالم. وفي هذه الأثناء لم يكن المقطع

اللّحنى المصاحب لحضارتهم مُرَوِّدُ به من المسيحية أو من الإسلام، إنما بروج العصر الإقطاعي الدنيوية الحربية. ولأنّ أصغى مؤشّر لهذا التطور يوجد في البقايا الأثرية للنوبة في القرون الوسطى المتأخرة، سنقدّر دلائلها أولاً.

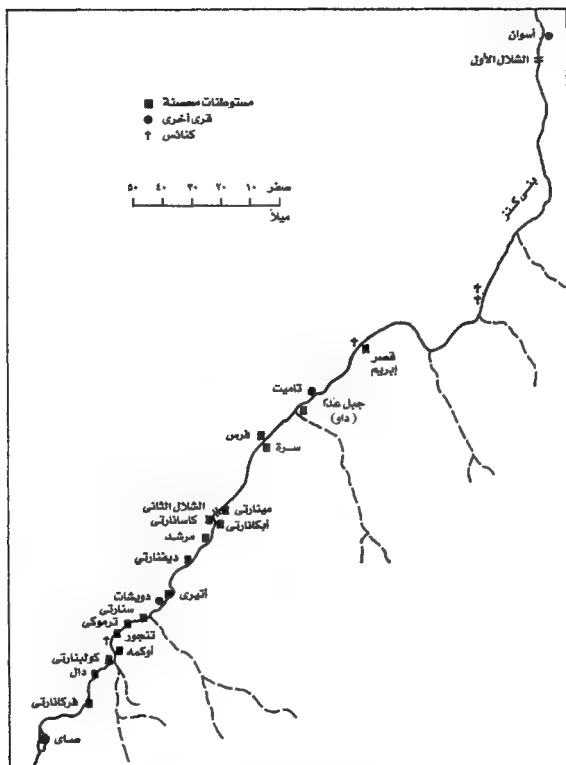
### المعطيات الأثرية

نعلم عن آثار العصر الإقطاعي أقل مما نعرف عن أي فترة سابقة منذ الفترة النبتية. فما رُصد في أي حُفلة من حُفلات الإنقاذ للنوبة أي بندر للتحقيق عن بقايا "إسلامية"، وكثيراً من المواقع التي تدل على إستعداد على الإنشاء نتج عن ذلك تخطيها. وفي المواقع العظيمة متعددة المراحل مثل قصر إبريم وجبل عدا، وفي بعض القلاع الفرعونية التي أعيد شغلها في العصور الوسطى، مُنح إهتمام علماء الآثار الأكبر بشكل مفهوم لبقايا الفترات الأولى. أما فترات العصور الوسطى فقد جرت معالجتها بإيجاز غالباً. هنالك، على أي حال، قلة واضحة في مواقع القرون الوسطى المتأخرة في النوبة السفلى، حقيقةً سوف نناقشها مناقشةً ضافية في لحظة.

الصورة نوعاً ما أسطح في بطن الحجر، حيث أن المواقع المتأخرة متعددة ومحفوظة جيداً على سواء. معظم معرفتنا بالتطورات الأثرية في العصر الإقطاعي تأتي بحق من هذه المساحة، وعلى وجه الدقة من مجموعة من المواقع كان قد نُقّب عنها خلال السنوات الأخيرة من حُفلة إنقاذ السد العالي. جنوب الدال تكاد لا توجد لدينا، كلها لا تزال تنتظر تنبيه علماء الآثار إليها. التعميمات المعمولة في هذه الصفحات يجوز لذلك أن تُطبّق بثقة على النوبة السفلى وبطن الحجر وحدهما.

الفترة المسيحية المتأخرة بشكل واضح للغاية شهدت واحدة من الإنتقالات السكانية الكبرى في التاريخ النوبي. في النوبة السفلى مواقع المدن أكبر لكنها في آن واحد أقل تعدداً لحد ملحوظ عنها في أي وقت منذ إعادة شغل المنطقة لآلاف عام سابقة. من مستوطنات الفترة المسيحية الماثورة والمبعثرة عريضاً، حفنة فقط تُبين علامات على الإقامة بعد القرن الثاني عشر. ربما أن نسبة مرتفعة من سكان النوبة السفلى النوبيين تركوا المقاطعة مرة واحدة؛ أما الذين مكثوا مقيمين فتمعنوا معاً في بضعة أماكن مُحمية. ناتج ذلك فيما يمكن أن يقال إن المجتمع النوبي في النوبة السفلى بلغ قمة تحضره تحت ظروف غير أكيدة من العصر الإقطاعي.

لا يضم مخطوط عربي من القرن الثالث عشر في قائمته ما يزيد على سبع مستوطنات كبرى بين الشلالين الأول والثاني: عمادة، داو (جبل عدا؟) قصر إبريم، أديندان، فرس، سرّة (؟) ومينارتي (الشكل رقم ٧٨) من هؤلاء، فإن فرس، التي كانت مرةً عاصمة المحافظة، في حالة إنتقاص محزنة، إمتلات كاتدرائيتها بالرمال ونقلت وظائفها الكنسية فيما يبدو إلى قصر إبريم<sup>(٩)</sup>. بقيت مينارتي كما كانت غالباً من قبل مستوطنة في جزيرة صغيرة على قدم الشلال الثاني، مع أنها الآن مُستثمرة بوظائف إدارية هامة. سرّة كانت مجتمعاً جديداً، تلتف بين أسوار قلعة الدولة الوسطى التي طال هجرها<sup>(١٠)</sup> إنها لا تعرض أقل من أربع كنائس، كلها ذات صيغرٍ من النوع المسيحي المتأخر، مُبنية بأن مجموعة من المستوطنات التي بُعثرت من قبل قد تجمعت سوياً للحماية لكنها اختارت أن تحتفظ بخصائصها الكنسية المنفصلة. قلاع قصر إبريم وجبل عدا في قمم الجبال بقيت المراكز الرئيسة للقوة والسلطة، كما كانت بشكل مُتقطع منذ أزمان مَرُوية. إن كلا منهما مذكور بطريقة متكررة في وقائع الأحداث السياسية والعسكرية السنوية للعصر الإقطاعي. في هذه الأمكنة، كما في سرّة، قد يظهر أن سكاناً مدنيين جاؤوا بحجم كبير يتجمعون للحماية بين الأسوار المُحصنة القديمة وتحته. إحتوى جبل عدا في نهاية الفترة المسيحية سبع كنائس على أقل تقدير<sup>(١١)</sup>، وأربع في قصر إبريم<sup>(١٢)</sup>. جدير ذكراً، من الجانب الآخر، أنه خارج المجتمعات التي سُميت للتو ما كان أكثر من ست كنائس من



الشكل رقم ٧٨  
 النوبة السفلى ووطن الحجر في العصر الإقطاعي

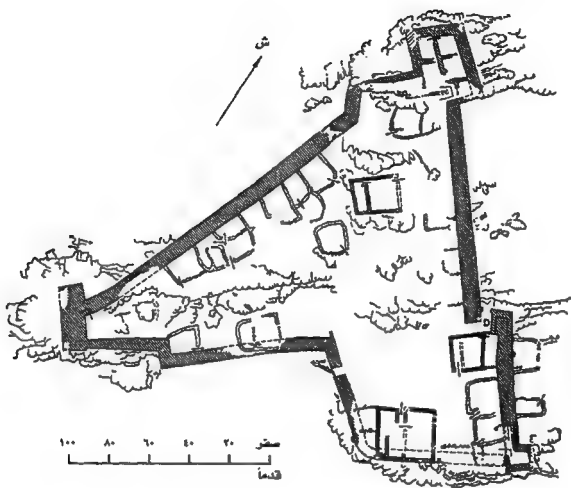
النوع المسيحي المتأخر الموسوم (قارن الفصل الخامس عشر) لوجود في النوبة السفلى باجمعا<sup>(٩)</sup>.

في بطن الحجر تواجهنا صورة مختلفة للغاية. هذه المنطقة الصخرية الجافية، التي لم تُدعم أبداً من قبل لم تمتد كونها أكوأخاً صغيرة متناثرة، تبرعت ببقايا كبيرة وصغيرة معاً لمجتمعات مسيحية متأخرة. إن المسح الإستطلاعي الأول من جُمى إلى الدال (الشكل رقم ١١) سجل أزيد من ١٥٠ موقعاً للفترة المسيحية المتأخرة، تشمل حوالي ٦٥ في المائة من كل المواقع التي أتى عليها<sup>(١٠)</sup>. أكبرها لا يدنو في الحجم من المراكز الحضرية العظيمة في قصر إبريم وجبل عدا، ولكنها تتخطى لمدى بعيد أى شئ رُؤى في السابق في بطن الحجر. لا يمكن أن يوجد سوى شك هين أن هذه المنطقة الفقيرة المعزولة، التي تجانبها طرق القوافل الرئيسية في العصور الوسطى، خدمت كملجأ أساسى للسكان الفارين من الاضطرابات السياسية في الشمال.

مَعْلَم بارز للمستوطنات المسيحية المتأخرة في كل من النوبة السفلى وفي بطن الحجر هو ملامحها الدفاعية. كثير منها يحمل في الحقيقة تمثلاً صارخاً للمدن الجبلية لأوروبا القرون الوسطى المتأخرة: مستوطنات في وضع يزحم جوانب القمم الجبلية وأعالها. لقد كانت طبقات الأرض السطحية في بطن الحجر، بجزرها النهرية المتعددة، بتدقيق، ملائمة تماماً لتطور مثل هذه المجتمعات، أكثر من إثني عشر واحداً منها يمكن أن يُشاهد بين جُمى والدال. واحد من أشدها ظهوراً للعيان كان دينارتي، جزيرة قريبة بالقرب من صرص مساكنها تتعلق بكل تنوء، وكتلة متناكلة مما يتوفر على جوانب قمة جبلية كانها راسية (الصورة - ٢٢ - ١). تتوج القمة كنيسة صغيرة<sup>(١١)</sup>. وفي الشمال غرض ظهور مماثل للقلع الجبلية في جبل عدا وقصر إبريم (الصورة ١٦ - ب).

كما ذكرنا في الفصل الخامس عشر، كانت المجتمعات المسورة للفترة المسيحية السابقة هي اديرية ربما بضعة فنادق صغيرة لراحة القوافل في الشمال. في الفترة المتأخرة شُيدت أحياناً أسوار محيطة حول مجتمعات دينوية كإضافة، على أن استعمالها لم يتبين أبداً بشكل منهجي. في سرّة، ربما على نطاق مُصَغَّر في بعض قلاع الشلال الثاني، نفع المسيحيون المتأخرة أنفسهم بالأسوار المحيطة التي لاتزال شامخة، ما أجروا عليها سوى ترميمات طفيفة. خلال الأيام الفرعونية، في جبل عدا وقصر إبريم أُبقيت التحصينات المروية مُصانة، مع أن عديداً من السكان المدنيين كانوا ملزمين بالإلتفاف حولها. مع ذلك، في بطن الحجر، أحاط عدد من المجتمعات المسيحية المتأخرة بنفسه بأسوار حصنة قوية. خلاف الحصون الفرعونية والمروية، كانت تحصينات فترة القرون الوسطى في العادة غير منتظمة للغاية في رسمها، عاكسة للطبيعة المتكسرة لأرض المنطقة ومقترحة كذلك أن الأسوار التي تحيط بالمستوطنات كانت دائماً تبنى في وقتٍ يعقب بناء المستوطنات. إن واحداً من أفضل النماذج حفظاً ودلالة على مثل ذلك المجتمع يقع في جزيرة سونارتي، حيث سور اثنا عشر منزلاً أو ما يزيد على ذلك داخل سور ضخم من حجر جاف<sup>(١٢)</sup>. إن المسور، الذي كان مثلاً بلا تدقيق في التصميم، له استحكامات بارزة في الزوايا تخترقها بوابة مزدوجة في تحصين (الشكل رقم ٧٩) فوق عامل العزلة وما وراءه، مع ذلك، يبدو أن معظم النوبيين ما اعتمدوا في الحماية كثيراً على الدفاعات الجماعية يمثل ما اعتمدوا على الطبيعة المحصنة لمساكنهم الفردية. هذه أيضاً ربما تقول شيئاً عن شخصية مجتمع القرون الوسطى في فترته المتأخرة، التي سنعود لها فيما بعد.

لاحظنا مسبقاً في الفصل الخامس عشر، أول ظهور لنوع المسكن النوبي المتأخر، ذلك فيما يبدو في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر. في قالبه الأقدم كان يختلف قليلاً عن المسكن المسيحي الماثور، عدا تشبيده الأشد متانةً واستقلاله الهيكلي عن البنايات المحيطة. كانت مكوناته الأساسية حجراً كبيرة في المقدمة، يُدخل عليها عن طريق باب مُفرد من الخارج، وحجرة صغيرة واحدة أو ما يتعداها خلف الحجرة الكبيرة، وممرأ ضيقاً في شكل سُلّ يقود وراء الحجرات الصغيرة



الشكل رقم ٧٩  
تصميم لمجمع منور مسيحي متأخر، صنارتى



إلى محاضرات في ظهر البيت .

بالرغم من أن هذا القالب الأغلب تبسّطاً لـ "وحدة السكن" في الفترة المسيحية المتأخرة بقي شعبياً حتى إسدال الستار على الفترة المسيحية، فإن أنواعاً أكبر وسعاً وأعطى تقصيلاً أبرزت وجودها كذلك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. بُنيت بعض المنازل دون مدخل جانبي إلى حجراتها الداخلية، ولا يمكن بلوغها إلا عن طريق سلم أو درج من السقف. علينا أن نفترض في هذه الحالات أن الحجرات الداخلية لم تؤثر أي وظيفة عملية في الأنشطة اليومية، لكنها قصد بها أول ما قصد التخزين الآمن لأغلى ممتلكات الأسرة، بما في ذلك ربما مخازن حيوبها. كانت "خزائن" في شكل جنيني. وجود مثل هذه الغرف عني، بالطبع، أن وصولاً آخر نوعاً ما للسقف كان كذلك ضرورياً، سواء بين المنزل أو خارجه. إفتراضياً كانت سلالم متنقلة تستعمل لهذا الغرض. ولما كانت المنازل المسيحية المتأخرة معروشة بسقوف طويلة وغيرة، قادرة على دعم أي ثقل من الأوزان، يبدو محتملاً أنه بمضى الوقت صار قدرٌ عظيم من نشاط الحياة اليومية يجري على السطوح. يوحي بهذا في كل الحالات النموذج الموزلي للبويلو<sup>(٩)</sup> في أمريكا الشمالية .

خطوة منطقية أخرى كانت إضافة طابق علوي. إننا لا نعرف متى برز ظهور الوحدة السكنية ذات الطابقين لأول مرة، ولكن أثناء القرن الرابع عشر كان لمثل تلك المباني أن توجد في معظم المستوطنات الكبرى للنوبة الشمالية. ربما أنها بُنيت في الجنوب بالمثل، على أن البينة من هنا مفقودة حتى الآن إن أرقى مجموعة حفظاً من الوحدات السكنية ذات الطابقين وأكملها دراسة تقع في الجزء الجنوبي من بطن الحجر، في مجتمعات جزيرة كولبنارتى ودال<sup>(١٣)</sup>. في كل من هذين المكانين بضعة مبانٍ تغلب عليها بنايات من طابقين شديدة التناثر، تعلو كالأبراج من فوق تجمع لمنازل من طابق واحد تحط بها. إنها تتفاوت في الحجم بشكل معتبر، لا يتماثل إثنان منها رسماً، لكن بنايات الطابقين كلها تعرض نفس الملامح الحيوية أعيد شكل الرسم البنائي للبيت المسيحي المالوف، بحجرة أمامية، وحجرة أو حُجرات خلفية، وممر، ومرحاض بالنسبة للطابق الأعلى، بينما الطابق الأرضي جرى تفريغه لحفائر تخزين مسقوفة. الرسم العام لهذه المباني دائماً ما يكون متأهلاً ويبدو مصمماً ليُربك أي واحد غير معتاد الإلفة بالدار. الخاصية المحددة لكل المساكن ذات الطابقين في كولبنارتى، على الأقل إثنان منها في الدال، هي إدخال قُبوس على الطابق الأرضي وهو مخفي بكساء بين سمك الجدران المتلاصقة لدرجة أن وجوده يكاد يكون مستحيلاً كشفه. وجهٌ قريب الشبه بهذا وُجد كذلك في منزل من طابقين في قصر إيريم<sup>(١٤)</sup>. إن التفاصيل المعمارية الدقيقة للرسم التخطيطي وموقع هذه الأقبية المخفية ليست متماثلة في أي من الحالتين: كل واحدة تمثل ممارسة متفردة في المهارة الإبداعية .

الوصول الخارجي الوحيد لأي من هذه البيوت ذات الطابقين في كولبنارتى ودال يتم عبر مدخل في مستوى الطابق الأعلى، يفترض بلوغه عبر سلم متحرك. أما غرف الطابق الأرضي، مع أنها دائماً طويلة كالتى في الطابق الأعلى، فلا يمكن إدراكها إلا عن طريق سلالم أو مُدرج فوقى بأعلى الأتناء السكنية. أحياناً تكون كل الحجرات بأسفل الدار موصولة بعضها ببعض، حتى يمكن بسلم مفرد أن يتاح الوصول لها جميعاً؛ في حالات أخرى قد تكون هناك غرفتان أو ثلاثة غرف غير موصولة أو مجموعات من الغرف؛ كل واحدة تتطلب سلمها من الأعلى. إضافة إلى الحفر الرئيسية المدفونة في الطابق الأرضي، تشغل أقبية صغيرة الفراغات المائلة بين سقوفها المعروشة بالطوب (قارن الشكل رقم ٨٠)، وهذه بدورها تُبلّغ عن طريق سلالم أو مدارج من الأتناء السكنية بالأعلى .

الشخصية الدفاعية للمعمار السكني المسيحي الأخير واضحة بما فيه الكفاية، ويبدو أنها تجد تعبيرها الأكمل في وحدة المساكن ذات الطابقين. من فوق الإعتبارات العملية للأمن وما وراءها، مع

(٩) إيدي قبائل الهند - الحمر - المترجم.

ذلك، من الصعب أن يتهرب من الإنطباع القاسى بأن هذه المباني تمثل لونياً معمارية متطورة على التمام كانت قد فصلت جزئياً لمصلحتها الخاصة. تفترض هذا بوجه خاص المنازل في كولبنارتى ودال، بإختلافاتها المتواليّة ذات التعمد في وضوح على أمر ما كان مقرراً. تمثل كل واحدة مرساة محدّدة في أصالة خلاقة في نطاق حدود ممتدة بشكل جامد. يبدو محتملاً كذلك أن المباني في بطن الحرج العليا وربما في أماكن أخرى كانت تعمل جماعة من المعمارين المهنيين. ربما كانوا يوبيّنون أو، كما في فترات أخرى عديدة من التاريخ النوبى، مهاجرين من مصر: يبدو مُستيقناً في كل حالة أنها استمدت قليلاً من إستيحاءها من معمار القلاع المعقد والمتميز بالمهارة في العصر الإقطاعى الأوروبى وفي الشرق الأدنى .

المساكن ذات الطابقين التى تقع في أماكن مثل سرّة<sup>(١٦)</sup>، كولنارتى، ودال، تناثرت وسط بناءات أقل متانة تفوقها كثرة، ويحتمل أنها تمثل ببساطة مساكن "قزمة" لفترة القرون الوسطى المتأخرة. أول ظهور من جديد للمسكن كرمز للمكانة منذ الأزمان المروية . في بعض القرى الصغيرة في منطقة الشلال، مع ذلك، يُقدَّر تفسيرٌ مختلف نوعاً ما. في مينارتى<sup>(١٧)</sup>، وأبكائنارتى<sup>(١٨)</sup>، وكاسانارتى<sup>(١٩)</sup>، وعدد من الأماكن في الجنوب البعيد<sup>(٢٠)</sup> ما كان هناك سوى هيكل واحد من طابقين، فسيح الأرجاء على نطاق أكبر من أى بناءة أخرى في القرية، ويشغل موقعاً سامق الأهمية بوجه خاص. مثلاً بارزاً كان "الدار الصماء" الذى ساد القبور الثكنية المرتفعة في مينارتى أثناء أزمان مسيحية متأخرة: تقدر بحوالى خمسين قدماً في الجانب، وأسوارها الخارجية تعدو الثلاثة أقدام سُمكا. الرسم البنائى متناه، له غرف مخبوءة وعدد من الغرف المسقوفة لا يمكن الدخول إليها إلا بعد صعود السقف عبر سلسلة من الممرات المتعرجة<sup>(٢١)</sup>. يبدو من غير الممكن أن مثل هذه المباني قُصد منها أن تكون إقامات خاصة فحسب، رغم أنها كذلك كانت حتماً. المحتمل أنها قامت بنبور إضافى، مع ذلك، دوراً للجوء كل المجتمع وبضائعهم وقت المحن - حيث يكفل الثبيل المحلى الحماية لجيرانه الفقراء وربما التابعين له. هنا، من ثم، يمكننا أن ندرك الأساس للقلعة النوبية، ولنظام إقطاعى ربما على قدم المساواة .

لم يرقّ بناء الحصون في النوبة الشمالية أبداً إلى مستوى مهم ذى قيمة وراء مرحلة "الدار الصماء"، فيما عدا قلعة العرب<sup>(٢٢)</sup> ربما في فرس، وهي بناءة مسورة تاريخها غير مؤكد شُيّدت مباشرة على قمة الكاندرائية المغطاة بالرمال<sup>(٢٣)</sup>. في أماكن أخرى تواصل اعتماد الإقطاعيات الكبرى للأزمان المسيحية المتأخرة وما بعد المسيحية على التحصينات المروية جيدة الحفظ في جبل عداً وقصر إبريم، بينما تنعت الإقطاعيات الأصغر بنوع المساكن المتسعة ذات الطابقين التى وصفناها للتو. في الجنوب، مع ذلك، كانت هناك تفصيلات معمارية إضافية. في كولبنارتى واحد من أكبر "وحدات المساكن" ذات الطابقين، ربما كان بداية مقاماً سكنياً وحسب، جرى تكبيره إلى قلعة حقيقية بالإضافات المتتالية لغناء مسنور كبير، ويُرّج بفنحات بارزة<sup>(٢٤)</sup>. خلاصة هذه التعديلات أنها كانت أوسع من أى مبنى في المنطقة المحيطة، وتحكمت في الريف لأميال طويلة (الصورة ٢٢ - ب). أُجريت تحولات مشابهة في واحد من المساكن ذات الطابقين في دال، بضعة أميال إلى جنوب كولبنارتى .

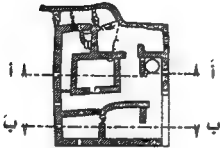
معظم القلاع "والدار الصماء" للنوبة الشمالية شُيّدت على جزر أو على أراض عالية تطل على النيل في بروز. إن مواقعها الإستراتيجية تشير إلى أن واحداً من وظائفها الهامة كان عليه أن يتبع نقطة ذات نفع تُراقب منها حركة المرور على طول النهر وضافه. ربما أن هدف البنائين في البداية كان دفاعياً خالصاً، غير أنه في مسار الزمن جاءت القلعة النوبية - مثل القلعة الأوروبية - لتلعب دوراً أشدّ عدوانية. فبعد انهيار ممالك القرون الوسطى تبدّل كثير من إقطاعىي النوبة المحليين "أسياداً ناهبين" يعيشون بشكل مُترعَم على الجزية التى ينتزعونها من التبادل السلعى السائر عبر مقاطعاتهم. إن معاقبتهم الجزائرية حينذاك أدت دور نقاط لتحكم مسلح منها يهددون، وإذا دعت الضرورة،



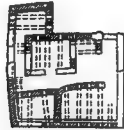
المرتفع القروي



مقطع ب - ب



تصميم الأرضية العليا في المستوى أ

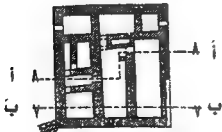


تفاصيل أخشاب السقف وأعلى الأسوار

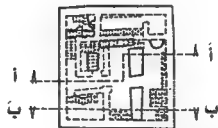


المرتفع الشمالي - الشرقي

مقطع أ - أ



تصميم الدور الأرضي



تصميم الأقبية والمستودعات تحت الطابق الأعلى وصف الطوابق تحت الطوابق مشار إليه حيثما يكشف عنه في الحضر.

صفر ٥ ١٠ ٢٠  
قدا

الشكل رقم ٨٠

تصاميم ومساعد قلعة في القرون الوسطى المتأخرة ، كولبنارتى

يهاجمون المراكب والقوافل العابرة. تُشير هذه الفكرة بوجه خاص قلعة كولبنارتى، التى تعج بالفثحات وتعرض واجهة ناحية النهر رهيبة التوعد (الصورة ٢٢ - ب). الإستلهاهم بشأن هذه التطورات يجوز أنه جاء بصحة تامة من قلاع السيد الراهب في الراين والدانوب، التى تحمل تمثلاً معتبراً لها بعض قلاع النوبيين<sup>(٢٤)</sup>. وسيقال ذكراً مفصلاً عن هذه المرحلة من تاريخ النوبة السياسى في الفصل القادم.

بلغ بناء القلاع النوبى اكمل نمائه في المنطقة بين الشلالين الثالث والرابع: قلب مملكة نُوُقْلا القديمة. في أماكن مثل خناق، والخندق، وبخيت<sup>(٢٥)</sup>، والكاب، والكرو<sup>(٢٦)</sup> هنالك أكوام من قطع الطوب والحجارة الصغيرة لمسافة شاسعة، تفوق كبراً بمراحل أى شئ في الشمال، ويتمثل بالتأكيد قمة التعبير لعصر النوبة الإقطاعى. إنها جميعاً تحتوى مُسُورَات بارزة وأبراجاً ظاهرة، لكن المعرفة المُفصَّلة لمعمارها علاوة على تاريخها عليها أن تنتظر تنقيباً منهجياً في نظام. أما بالنسبة للحاضر فما من قلعة من قلاع النوبيين في النوبة العليا مُسحت بعناية سواءً سواء .

يُرجع الأثر القلاع النوبية في النوبة العليا إلى فترة الفونج (ما بعد المسيحية)، عندما حققت بلا شك أقصى تطورها وأهميتها يبدو مُستيقناً، رغم ذلك، أن أصولها تعود إلى أزمان مسيحية، لأنه على الأقل في حالتين هنالك كنائس بالجوار يبدو أنها من نفس عمر التحصينات<sup>(٢٧)</sup>. يستحق النقل، في هذه الصلة، سرد مملكة علوة الذى تركه في القرن السادس عشر الميشرف فرانسيسكو الفارس: "إن كنائسهم كلها في قلاع قديمة عتيقة تمتد هناك في طول أرجاء البلد، وعلى وفرة ما يوجد بها من قلاع، يكون لديهم كثرة من الكنائس"<sup>(٢٨)</sup>.

البُنية التى اِقْتطعت اللحظة قد توحى بأنه في النوبة العليا استمرت الكنيسة في الازدهار إبان الجزء الباكر من العصر الإقطاعى، وتمتعت على سبيل الإفتراض بحماية النبلاء الإقطاعيين. لم تكن هذه بشكل مُوحد هي الحالة في الشمال. فهنالك في النوبة السُفلى وبطن/الحجر إضمحلال ظاهر مواكب في البناء الكنسى، إفتراضياً في حالة جزئية، بسبب الإشتغال المتنامى بالمعمار العسكرى. كانت الكنائس المسيحية المتأخرة على أفضل تقدير صغيرة على بساطة في رسمها التصميمى (الشكل رقم ٧٢)، وأصبحت كذلك على ما هي عليه بشكل متزايد بمرور الزمن<sup>(٢٩)</sup> في نفس الوقت الذى جرى فيه تقديمها، تُخفى عن أغلب الكنائس الأقدم عمراً وأوسع تفصيلاً علاوة على ذلك، وتُركت لتَهيط في الخراب، كما كان عليه تقريباً حال كل الأديرة المعروفة. بعض الكنائس متأخرة التشييد في النوبة، في ديفينارتى وعبد القادر، يمكن أن تُوصف بأنها صغيرة وحسب؛ في شكلها الأصلى نادراً ما بلغ قياسها ما يعلى على ١٦ قدماً في الجنب، وما كان بوسعها أن تحمل أزيد من اثنتى عشر شخصاً<sup>(٣٠)</sup> في كل من هذه الكنائس أفسح الترتيب التقليدى لثلاث غرف شرقية (قارن الفصل الخامس عشر) الطريق لغرفة عبادة مفردة بزوايا قائمة - وجهاً، يعود كل الطريق قافلاً للكنائس النموذجية في القرنين السادس أو السابع الميلادى<sup>(٣١)</sup>.

ملمحٌ جديرٌ بالملاحظة للعديد من الكنائس النوبية المتأخرة هو فصلهم الطبعى عن المجتمع. فكما شاهدنا آنفاً في فصل آخر كانت معظم الكنائس النوبية بعد القرن السابع موضوعة على حافة المستوطنات، لكيما يُسمع بفضاء لنمو الجبانات. عدد كبير من الكنائس التى شيدت بعد القرن الثانى عشر، مع ذلك، كانت مزلة لمدى بعيد من أقرب مسكن، وكثير من الكنائس المتأخرة في جبل عدا<sup>(٣٢)</sup> وقصر إبريم وُضعت بعيداً بالمثل من المستوطنات، في حين أن كنائس الفترة الأولى كانت تقف مباشرة في منتصف المدينة الكنائس التى خدمت مجتمعات الجزيرة مينارتى<sup>(٣٣)</sup> وكسانارتى<sup>(٣٤)</sup> في نهاية الفترة المسيحية كان موضعها على الضفة الغربية للنيل، ليس على الجزر بمن فيها من أعضاء الإبرشيات<sup>(٣٥)</sup>. في كواب وكولبنارتى<sup>(٣٥)</sup> بنفس المستوى، كان وضع الكنائس المتأخرة على بُعد من القرى غير ضرورى. من الناحية الأخرى كانت المدن الجبلية ديفنارتى وأتيرى<sup>(٣٦)</sup> يُتوج كل

(\*) الوحدات الفرعية للكنيسة - المترجم.

منها بكنيسة صغيرة شُيّدت على أعلى قمة راسية في الجزيرة، تجمعت المساكن حولها وتحتها. قد يبدو أن بعض المسيحيين المتأخرين رغبوا في التجمع لأقرب ما يمكن حول كنيتهم، في حين حاول الآخرون فصل أنفسهم عنها. هذه الإستجابات المتفاوتة لها بعض القيمة والأهمية الإجتماعية، وسوف نناقش بإسراع في صفحات قادمة ("مغيّب للمسيحية" بأننا).

كما أومأت مرات عديدة من قبل في هذا الكتاب، أعتقد أن معمار الصروح ربما يتيح دائماً واحداً من أشد المؤشرات حساسية للنظرة الذاتية والرؤية الكونية لقوم ما. يصح هذا على العصر الإقطاعي بما لا يقل عن الأزمان السالفة. إن "وحدات المساكن" المستقلة في متانة، و "الدور الصماء" والقلاع ربما وجدت مسوغاً لها في أحوال سياسية مباشرة، لكنها ربما كانت تنبش القدر السبب المناظر للأثر الذي يحدثه تحليل مجتمع سياسى مركزى متحلل. في كل الظروف لابد أن تشاهد، في أوسع معنى، كتعبير عن روح زمانها. لقد اقترحت مسبقاً أن "الوحدة السكنية" ذات الطابقين تمثل لونية معمارية موسعة التفاصيل في نفسها، وأن القلعة الحقيقية تعلم عن خطوة إضافية في عين الاتجاه بنهاية الفترة المسيحية كانت قد تخطت كلية الكنيسة كوسيط سعى من خلاله بُناة النوبة وحكامها للتعبير عن مهارتهم الإبداعية الخلاقة. لقد تنافست القلعة دائماً مع الكاتدرائية كإظلي رمزٍ لخصرها في أوروبا القرون الوسطى المتأخرة؛ وفي النوبة انتصبت القلعة بلا منافس. هنالك على الأقل أهمية وقيمة ذات معانٍ روحية في الحقيقة التي تقضى بأنه عندما أضحت كاتدرائية فرس الرائعة مملوءة بالرمال، ما بُنيت فوقها كنيسة أخرى بل بنيت قلعةً حصينة (٣٧)، وفي حين أنه في مينارتي كانت "الدار الصماء" المروعة للفترة المسيحية النهائية مشيدةً برسم متماثل فوق بقايا الدير الذي اجتاحتها الرمال ما كان الإيمان المسيحي ميتاً من الناحية الرسمية، إذ أن "الدار الصماء" كانت مزخرفةً تزدان بنص إبتهالات مسيحية (٣٨)، بيد أن الروح الأخروية التي غذت الأرواح والهمم المعمار في الفترة الباكورة من القرون الوسطى كانت قد ماتت بالتأكيد (٣٩).

لئن كان معمار الصروح يوفر معياراً لتطلعات شعب، فإن تطور الفنون الأدنى يعكس بمزيد من الدقة الأحوال الإجتماعية والإقتصادية يوماً بيوم. وقبل ترك نية علم الآثار، يجدر بنا أن نقدر في اختصار الفخار وبقايا مادية أخرى للفترة المسيحية المتأخرة وما بعد المسيحية. صناعة الفخار الأهلية، كما رأينا في الفصل الخامس عشر، تمتعت بإحياء رئيس في القرن الثاني عشر عقب خسوفها المؤقت في الفترة المسيحية الماثورة في مراحلها الأخيرة. لقد واصلت إزدهارها لما لا يقل عن قرن، ولربما بلغ الخُزف الفاخر بالفعل قمة وفرة في هذا الزمن، مع أن الأنواع والأشكال لم تستعد أبداً المستوى الرفيع في الفترة القديمة، إننا لا نعلم أين كانت تقع مصانع الفخار (أو حتى بإحتمال أقوى، مصنع مفرد، بالنظر إلى المعمارية العالية للمصنوعات المسيحية المتأخرة)، لكن منتجاتها موزعة في نطاق واسع على كل المنطقة من الشلال الرابع إلى أسوان. يقترح هذا عملية لشبكة مجهزة التنظيم واسعة الإنتشار على غرار ما يمكن أن يزدهر في أزمان السلم وحدها. أما السلع المستوردة مثل الزجاج، والمصنوعات المصقولة والبرونز فكانت شائعة أيضاً بشكل ملحوظ على الأقل في مينارتي، بين حوالي ١١٥٠م و١٢٥٠م. الواضح أن هذا القرن الإفتتاحي للعصر الإقطاعي (الذي نفتقد عنه المدونات التاريخية إطلاقاً) كان واحداً من رخاء إقتصادي متواصل واستقرار إجتماعي، حتى لو كانت الاديرة والكنائس تضعف سراعاً. إن إكتساح شمس الدولة في ١١٧٢ (الفصل الرابع عشر)، مع أنه ربما يكون هو الحادث الذي وضع النوبة على الطريق المؤدي للإقطاع، يبدو غير ذي أثرٍ دائم على التجارة المزدهرة مع مصر.

بعد ١٢٥٠ تغيرت الصورة بسرعة. هناك تناقص متزايد في كل من نوعية الفخار النوبي المصنوع بالعجلة. كثير من أواني الفترة المسيحية النهائية (كما وُصفت في مكان آخر في القرن أو القرنين الأخيرين للمسيحية النوبية) (٤١) كانها لخشونتها ونقلها رسمٍ لوحش خرافي، تنفقد لاي من

الظلال اللونية السابقة شكلاً وزخرفاً. الإفتقاد الأقصى للمعيارية في هذه المصنوعات بنى أيضاً بأن عدداً من المصانم المنافسة كانت تتسابق فيما تبقى من سوق التفاح، ما كان هنالك طابع فني مقبول عموماً<sup>(٤٢)</sup>. عملية الإضمحلال بلغت ذروتها إما وقتاً قصيراً من قبل أو من بعد الفترة المسيحية، عندما أُخلى فن صناعة الفخار بالعجلة عن الساحة مرةً واحدة<sup>(٤٣)</sup>. مُذاك حتى اليوم الحاضر أصبح الطلب على الفخار المصنوع محلياً مُؤنّاً بالمنتجات اليدوية للنسوة النوبية، كما كان حاله في أزمان ما قبل التاريخ. صانعات الفخار من النساء يبدو في البداية أنهن بذلن بعض الجهد ليعوضن إختفاءً مصنوعات الترف المعمولة بالعجلة؛ إن منتجاتهن في الفترات المسيحية النهائية وأوائل ما بعد المسيحية كانت مزخرفة في تفصيل أوسع عنها في أي وقت قبل ذلك أو أثناءه<sup>(٤٤)</sup>. مع ذلك وينفس القدر، سرعان ما تُخلى عن هذا الترف اليسير لصالح مصنوعات مستهلكة بشدة للقرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة. أخذ الناس الذين انتجوا ذات مرة المصنوعات المروية والمسيحية الماثورة رقيقة المستوى بفخار لسد الحاجة ما كان تقنياً أو فنياً متفوقاً في الجودة على الفخار الذي صنعه أسلافهم فجر التاريخ .

يُتساوى قدرأ في إستحقاق الملاحظة إختفاء كافة أنواع السلع في العصر الإقطاعي الأخير. من المواد المبينة بالقائمة التي أستُعيدت من موقع القرون الوسطى المتأخرة في كولبارتي أقل من ١٠ بالمائة كانت من صنع خارجي، ويحتمل أن يعود تاريخ معظمها إلى ماضٍ وجيز للغاية (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر). في وسط شقوق الفخار غير المودع بالقائمة كانت نسبة المواد المستجلبه لا نهائية النسبة: قليلاً فوق ٦٠٠ من الشقوق لما يزيد عن ٢٠٠٠٠<sup>(٤٥)</sup>. يبدو، إذن، أن كلاً من التصنيع والتبادل السلي جئ بهما بالفعل إلى وقفةٍ عن طريق القلاقل السياسية والزحزة الإقتصادية في العصر الإقطاعي. ما كان بوسع النوبيين أن يحصلوا على سلع مصنوعة من الخارج، أو أن يقدموا المنتجات الراقية من الصناعات المحليين. تساقط التخصص الإقتصادي إلى لا شيء ونكصت النوبة على عقبيها لشئ قريب جداً من الإقتصاد المعيشي لأيام موعلة في القدم .

### العصر الإقطاعي في مصر

مع أن علم الآثار يقدم، فيما اعتقد، صورة دقيقة عن الأحوال الإجتماعية والثقافية المتغيرة في نوبة القرون الوسطى المتأخرة، علينا بالطبع أن نتجه صوب بُنية التاريخ للحصول على مدوّن لأحداث محددة تؤدي صاعداً إلى ضُمور وُزواء ممالك القرون الوسطى السَّجل التاريخي مطبق الصمت في القرن باكملها ما بين ١١٧٢ و١٢٦٨، كما أبصرنا. تقترح الآثار أن هذا كان زمناً لسلام ورخاء متواصل، وربما لذلك السبب أخفقت النوبة في جذب لحاظ المراقبين الأجانب. ثم، بين ١٢٦٨ و١٢٢٣ ، نملك مدوّنأ مفصلاً غير عادى لقعقة جحافل عسكرية وصففتها في ملكة دنقلا. مصادرنأ كلها مصرية؛ ويعود غنى معلوماتهم عن الأحداث في القطر الجنوبي إلى حقيقة أن هذا الزمن بلغ نصف قرن لما كاد أن يصير تخبلاً مملوكياً في شؤون الشمال. إماماً بخلفية هذا التطور علينا أن نقدّر بإيجاز المنظر السياسي المعاصر في مصر .

الأسرة الأيوبية في مصر التي أسسها صلاح الدين (سلادين) في ١٢١١، عارضها النوبيون في البداية، كما رأينا في الفصل الرابع عشر. إن تدخلهم في مصر العليا، لموازنة الخليفة الفاطمي المنافس ظاهراً، إستفز حملة شمس الدولة التاديبية التي بلغت ذروتها بإسْر وغنم قصر إبريم<sup>(٤٦)</sup>. وعندما أحكم الأيوبيون قبضتهم على مصر، مع هذا، بدأ النوبيون في صلح عجول معهم، إذ أنه ليس هناك تدوين إضافي للعداوات من أى طرفٍ منهما خلال ما تبقى من حكم الأيوبيين قصير العمر. كان الحكام الذين خفوا صلاح الدين في كل حالةٍ ضعفاء للغاية مستغرقين في شؤون ديارهم دون أن يلجأوا في مغامرات عسكرية في الجنوب .

أُغتيل آخر سلاطين الأيوبيين في ١٢٥٠م على يد أفراد من حراس قصره، المماليك المرعبيين. فرقة من قوات النخبة التي خدمت حرساً خاصاً لشخص الحاكم، وكانوا في الحقيقة عبيده قانوناً. جُنِّدت صفوفهم بشراء أطفال الرقيق، وجُلِّهم من السكان الأتراك المسيحيين من جنوب - شرق آسيا، الذين كانوا وقتها قد استجلبوا جنوداً مكروسين كمسلمين متعصبين - احاطت "جويوش أرقاء" من هذا الطراز بالحكم وقامت نظرياً بحماية لمتوالية عظيمة من حكام المسلمين في العصور الوسطى؛ وبنظامهم العسكري الموثوق وإفتقادهم للروابط الخارجية سرعان ما بلغوا أقوى تكوين لأشد قوات حربية. يعول عليها زمانهم بأساً ومراساً. لا غرو أنهم أضحو دائماً السلطات الفعلية في ممالكهم، قادرين على تنصيب السلاطين وعزلهم كما يشتهون، أو قبيض زمام السلطة بنفس القدر لأنفسهم، كما فعل مماليك مصر في ١٢٥٠.

كان على "الملوك الأرقاء" أن يحكموا مصر لما يقرب من ستمائة عام أولاً كحكام مستقلين، ثم بعد ١٥١٧، ولادة لإقطاع مأمور من الإمبراطور العثماني. وبالرغم من أن عديدين منهم نالوا لقب سلطان، لم يحقق المماليك أبداً نظاماً ملكياً ثابتاً. لقد ظلوا، كما بدأوا، نوعاً من حكم بلا زعيم لطغمة عسكرية باغية يذهب الحكم فيها للأقوى برضاء عفوى أو إحتكاماً للسلاح. إستمر تجنيد صفوفهم أساساً عبر شراء العبيد أغلب مما تجريه الورثة، ذلك أن مجتمعهم كان منغلَقاً على الرجال، محرماً عليهم من الناحية النظرية التزوج خارجه. في كلمات مؤرخ أوروبي :

اللقب الوحيد للملكية وسط هؤلاء النبلاء، هو اليأس الشخصي وإمرة أكبر عدد من التابعين في غياب تأثيرات أخرى كان مبدأ الورثة من غير شك مُتَّبِعاً، بل إننا نجد عائلة واحدة ... تصون تعاقبها على العرش أجيالاً عديدة؛ على أنه كقاعدة كان وارث السلطة الملكية أقوى سيد في زمانه شكيمه. تعتمد قبضته على العرش غالباً على قوى انبعاثه وتصالحه مع النبلاء الآخرين. إن وقائع سيطرة المماليك ملأى بمواقف لسيد عظيم ينتقص سلطة السلطان الحاكم إلى ظلم، ثم ينقض من فوق جسده المقتول على العرش. معظم هؤلاء السلاطين لاقوا حتفاً عنيفاً على أيدي امرأه يمتدقون الحكم، إرتكزت سلامة الحاكم في ذلك الوقت أساساً على عدد حراسه وشجعائهم (٤٧).

بينما كان أقوى نبلاء المماليك يتولون حكماً هشاً في القاهرة، كان نبلاء أقل شأنًا يقيمون بجانب الحكومة أو في تحدٍ لها بمرآكز إقليمية في أنحاء المملكة، محتفظين فعلياً بحكم مستقل عونا بما يملكون من جيوش العبيد (٤٨). فترة سيطرة المماليك، على الأخص قبل ١٥١٧، تمثل بلا ريب قمة العصر الإقطاعي لمصر نفسها. كان هذا نموذج الحكم الذي أمسك به القطر الشمالي قبالة النوبيين في العصور الوسطى المتأخرة، لا يبدو مثاله مفقوداً بينهم.

يمثل نبلاء المماليك روح الإقطاع العسكري. مُدْرَبين جنوداً محترفين، لا يعلمون فناً سوى فن الحرب، إذ كان لهم إدراك قليل بفن إدارة الدولة وتقدير هين للتجارة. كانت إنجازاتهم الدائمة الوحيدة، مشكورة ومنكورة على حد سواء، في ميدان المعركة. طردوا في الشمال آخر الصليبيين من شرق البحر الأبيض المتوسط، وكذلك أداروا للخلف نهائياً قبائل المغول البدوية، كلاهما أثناء الخمسين عاماً الأولى من حكمهم. خلال نفس الفترة، مع هذا، خاضوا الحروب الدائمة على بعضهم بعضاً وانطلقوا بها لتحقيق أي هدف آخر يريح عدوانهم، بين حدودهم وما وراءها على صعيد واحد. بل إن السلطان في القاهرة عندما أجبرته إعتبارات التحسب والحدز ليتخذ سياسة وفاقية تجاه جيرانه، قلما كان قادراً على ضبط المخاطرة العسكرية لمن كان أقل شأنًا ونظاماً وأشد مشاكسةً من النبلاء.

وسط الضحايا الأوائل لجبروت المماليك كان المسيحيون المصريون الذين اضطهدوا بقسوة بالغة وأبصروا كثيراً من كنائسهم تُحرق وتتهب. غير أن قبائل البدو العربية ، التي كانت نفسها ذات مرة زادة لصفوة مصر العسكرية، لم تجر أحوالها حسناً إلا بصعوبة تحت حكم المماليك. إستبعدوا من أي قسمة في الحكم وغنائم الحرب، وحُمِلوا إضافةً لذلك ضرائب مثخنة ليدعموا حملات المماليك

في سوريا. فلما ثارت القبائل التي استقرت في مصر العليا ورفضت أن تدفع ضرائبهم، شُنَّ الهجوم عليهم وضيق عليهم الخناق حتى أُجبر كثيرون منهم على الهجرة جنوباً، على تلال البحر الأحمر غالباً، إلى داخل ما يعرف الآن بالسودان. مقيمين فيما بين تخوم مملكة دنقلا وعلى حدها، استمروا في تهديد الأمن لكل من النوبة ومصر العليا<sup>(٤٩)</sup>.

قبيلة "عربية" مثيرة للمتابع على وجه الخصوص خلال فترة الممالك كانت بنى كنز. إن أسلولهم يمكن تتبعها إلى هجرة قسم من قبيلة ربيعة من شبه الجزيرة العربية إلى مصر العليا باكورة العصور الوسطى بحلولهم في تلال البحر الأحمر، تزواجوا وتكاثروا مع البجا المحليين من قبيلة الحدارية، الذين تَوَحَّدوا معهم تماماً بمضى الوقت. مدوا سيطرتهم مع نمو أعدادهم ونفوذهم، على الأقل بشكل متقطع، على أسوان وأجزاء متقابلة من وادي النيل. إن قائد هذه القبيلة العربية - البجاوية المركبة كان قد سَلَّم به على العموم كحاكم لأسوان بحكم الواقع في أزمان الفاطميين. استُمد قسماً وافراً من سلطة بنى كنز من استعذابهم للتحكم في طريق القوافل بين مصر العليا وميناء البحر الأحمر عيذاب، الذي كان إبَّان العصور الوسطى نقطة عبور النقل البحري الرئيسة للشحنات من المحيط الهندي، وكان أيضاً الميناء الأكبر لسفر الحجيج إلى مكة<sup>(٥٠)</sup>.

في ١٠٠٦ م أعان الشيخ حاكم بنى كنز الخليفة الفاطمي في القبض على غريم سياسي، وعلى هذه الخدمة كافأه بلقب "كنز الدولة". أصبح اللقب وراثياً، يتقلده كل قائد لاحق للقبيلة. لقد كان عبر ذلك الحدث أن القبيلة ككل عُرفت ببني كنز (وبدقة أشد بنو لکنز)، أو أحفاد كنز الدولة<sup>(٥١)</sup>.

أثناء الفترة الفاطمية في فترتها المتأخرة ترسَّخ بنو كنز بمضام في مصر العليا ليُتحدوا سلطة الحكومة المركزية وشُنَّ هجوم بحقيهم في ١١٠٢ نتج عنه أسر وإعدام كنز الدولة آنذاك. إن العداوات انفجرت ثانية في ١١٧٤ عندما ولى الأيوبيون كمنتصرين جُدد واحداً من أفرادهم حاكماً على أسوان متجاهلين الإدعاء التقليدي لکنز الدولة. عَجَل بنو كنز بقتل الحاكم الجديد؛ فأرسل صلاح الدين رداً إنتقامياً حملة كبرى سافت المُصفاة خارج أسوان وقتلت قائدهم. لربما عابت غلبة عظيمة من اللاجئين إلى مرتعها التقليدي في تلال البحر الأحمر، لكن جمعاً حاشداً منهم ممن فضلوا الحياة الجلوسية المستقرة في وادي النيل إنسحبوا إلى جزء النوبة المجاورة، مباشرة إلى جنوب أسوان. كانت هذه المقاطعة، كما شاهدنا في الفصل الرابع عشر، مفتوحة قانوناً للإستيطان من ناحية المسلمين منذ القرن التاسع<sup>(٥٢)</sup>. تزواج بنو كنز سريعاً مع السكان النوبيين المحليين وبمضى الوقت أصبحوا من النوبة جزئياً في اللغة والثقافة، مع أنهم احتفظوا بإيمانهم الإسلامي. نتاج هذا المدمج العرقي هو النوبيون الكنزيون (الجمع كُنُوز) الذين في الأزمان الحديثة شغلوا أقصى الجزء الشمالي للنوبة، بين أسوان والمخرقة<sup>(٥٣)</sup>.

بعد غلبهم في ١١٧٤ واتسحابهم إلى داخل النوبة لم يلعب بنو كنز دوراً إضافياً في الشؤون المصرية لما يقارب القرنين. إن طموحاتهم في الشمال كانت خادمة مؤقتاً، إذ أنهم هبوا ثانية بقوة في القرن الرابع عشر، كما سنلاحظ لاحقاً. في هذه الأثناء، مع ذلك، أصبحوا في وضوح قوة بحسب حسابها في مرتعهم الجديد. لا نملك سجلاً للأحداث التي وقعت في النوبة خلال معظم القرن الثالث عشر، إلا أنه بنهايته أضحت إقليم بن كنز في الشمال ما يبدو أنه كان عمودية مسلمة شبه مستقلة<sup>(٥٤)</sup>، وقائدها، كنز الدولة، شخص ذو أهمية في المملكة النوبية ككل. لربما كان بقدر متساو قد تكلد في بعض الأحيان منصب الإبراش (صاحب الجبل)<sup>(٥٥)</sup> التقليدي، مع أن هذا غير مُثبتُ بصفاء قبل القرن الرابع عشر<sup>(٥٦)</sup> لقد كان في كل الأحداث القائد المُسلم به للعنصر المُسلم المتنامي بين مملكة المقرّة. لا يزال الادعى أهمية، أنه هو وأسرتهم أصبحوا حلفاء بالزواج مع البيت الحاكم في دنقلا نفسها. علامة مؤكدة على أن الولاء الديني لم يعد ذا أهمية فائقة في المحيط السياسي<sup>(٥٧)</sup>. إن تحالفاً بين ملوك مسيحيين يزادون ضعفاً وإقطاعيين مسلمين تابعين لهم يزادون قوة في الشمال كان تنازلاً يَبِينُاً للفعالية السياسية.



هكذا كان الموقف السياسي الفوضوي في النيل إبان زوال القرن الثالث عشر. كان المسرح مُعداً لصراع القوى وسط ثلاثة غرماة رئيسين: البيت الحاكم في دُفلا، وسلاطين الممالك، وبنى كنز. ومع أن صراعهم كان سينشب ويدمر أخيراً المجتمع السياسي المسيحي للنوبة، ما كان أياً منهم مدفوعاً باعتبارات دينية في المقام الأول، كان ملوك دُفلا متلهفين بأى وسيلة للإحتفاظ بقبضتهم الضعيفة على السلطة، أقرب إلى تصافاً بعرضهم في النهاية مما التصقوا بإيمانهم؛ والممالك كانوا معادين للمسيحيين وللعرب على حد سواء، يتارجحون بلا قرار بين سياسة لنزع النوبة من المسيحيين وأخرى لحماية مصر العليا من بنى كنز، وعلى مشارف إغتنام أى سانحة لتوسيع مصالحهم كان بنو كنز، على أهبة الإستعداد ليتحالفوا مع أى من الطرفين لذلك الغرض<sup>(٥٨)</sup>. لما أصبحت روح الإقطاع منتصرة، أضحت مسألة الإلتزام الديني كأنها عَرَضية .

### ضمور المقررة وسقوطها

يمكننا أن نتجه الآن لإعتبار الأحداث المحددة التى أخذت بمملكة المقررة المسيحية إلى حتفها. تَجِي أنبأونا من أربعة مصادر رئيسة: النويرى (المتوفى ١٣٣٢)، الذى يحتوى كتابه في عموم المعرفة سرداً لحملات الممالك العسكرية في الجنوب<sup>(٥٩)</sup>، مُقْضَل (تقريباً ١٣٤٠)، الذى كتب سيرة ذاتية عن سلطان الممالك قلاوون، واحداً من الممثلين الرئيسيين في الأحداث المتحركة<sup>(٦٠)</sup>، ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)، الذى نُقِلَ مسبقاً عن سره للموات النهائي للممالك المسيحية<sup>(٦١)</sup>، والمقرريزى (١٣٦٤ - ١٤٤٢)، الذى كتب عدداً من الأعمال الهامة عن التاريخ والجغرافيا المصرية<sup>(٦٢)</sup>. إن المؤلفين الإثنين الأخيرين كانا بين أشهر العلماء في عصرهم، ولكن التاريخ الذى تركوه لنا يبدو أنه ينتمى غالباً إلى اللونية الرومانسية التاريخية للقرن الوسطى: جولة لا حد لها من المعارك، والمذابح، وديانس البلاط المفجعة. إن غزارة الأشخاص والأحداث - بصرف النظر عن التباسات متكررة عميقة - تكاد تجعل من غير الممكن تصفية صورة متناسقة بوجه كلى للشخصيات والحوادث من صفحاتها. مجردة إلا من ضرورياتها، وفي تجاهل لتناقضات عديدة، يبدو أن قصة ضمور المقررة وسقوطها تجرى على النحو التالى<sup>(٦٣)</sup>:

في ١٢٦٨، أرسل ملك نوبى معين يدعى داؤود، الذى تبوأ الملك منذ وقت قريب بخلع خاله لأمه، بعة إلى مصر ساعياً للإعتراف به من السلطان المملوكى، بيبرس. رد السلطان بجفاء نوعاً ما مطالباً بإستئناف حالى لدفعية البقظ، التى كانت فيما هو ظاهر قد سرى إهمالها زمناً طويلاً. لم يبدِ الملك النوبى إستجابة مباشرة لذلك الطلب؛ وبعد أربعة سنين (فى ١٢٧٢) عَبرَ عن ضجره بمهاجمة ميناء البحر الأحمر عيذاب ونهبها، وكانت واحدةً من مرتكزات رضاء مصر التجارى. فأرسل الحاكم المملوكى لمصر العليا قوةً تأديبية للنوبة السفلى أسرت عدداً كبيراً من السجناء بما في ذلك صاحب الجبل، الذى أُعدم فيما بعد في القاهرة .

وفى ١٢٧٥ ظهر في القاهرة أمير نوبى اسمه شكند، ساعية آخر لعرش دنقلا، ليسأل عن عون الممالك لخلع خاله داؤود. فرحب السلطان فيما هو ظاهر بهذه الدعوة للتدخل في شؤون النوبة السياسية، وأمد شكند بقوة ذات حجم. دخلت الحملة النوبة السفلى في يناير ١٢٧٦، وبعد معارضةٍ ما تم إحتلال قلعة داو (جبل عدا)<sup>(٦٤)</sup> وجزيرة مينارتى. في هذه النقطة رعى صاحب الجبل الجديد غنمه مع الغزاة، مقسماً يميناً من الإخلاص المتواصل لسيده الإقطاعى الأمير الخارج شكند وضم قواته الخاصة للقوات التى وفرها المصريون. يفترض كذلك أن بنى كنز انضموا إلى القوة المبتدعة في هذا الوقت، إن لم يكونوا فعلوا ذلك حقيقةً منذ البداية .

تابعت الحملة سيرها للنوبة العليا، حيث وقع اشتباك حاسم قبالة دُفلا في أبريل ١٢٧٦. سُحقت القوة المدافعة ولاذ الملك داؤود هرباً للأبواب في الجنوب (إفترضاً آنذاك، كما كانت من

قبل، أنها المقاطعة الشمالية على تُخوم مملكة علوة)، تاركاً معظم عائلته وراه سجناء في أيدي المماليك. وتُصَبَّ شكندة من ثم ملكاً للمقرة، لكن الثمن الذي فرضه المماليك مقابل دعمهم كان سحيقاً. أقسم الملك الجديد يميناً بالولاء والطاعة لسلطان المماليك مما جعل النوبة بالتالي دولة تابعة لإمرة مصر. مُنح الشعب النوبي الخيارات الثلاث التي كانت تُشهر تقليدياً أمام سكان الأقاليم المفتوحة: أن يعتنقوا الإسلام، أو يُخننوا بالسيف أو يدفعوا ضريبة عين سنوية (الجزية) صاغرين لأربابهم. بإختيارهم البديل الثالث، دفع النوبيون مذاك للقاهرة ضريبة سنوية ديناراً عن كل مواطن بالغ. ووافق الملك نفسه أن يرسل سنوياً ثلاث زرافات وخمسة نمور إنثاء ومائة من الإبل الهجين، وأريعمان ثور. إضافة إلى هذه الجزية إفترض أن البنود المنتظمة *للبق* سوف تبقى كذلك نافذة. أهم من كل ذلك، أن محافظة ماريص (سابقاً نواديا؛ أي النوبة السفلى وبطن الحجر) سُلِّمت لإدارة المماليك المباشرة، يعود ريعها للقاهرة ويبقى صاحب الجبل بالتالي مأموراً إقطاعياً للسلطان بدلاً عن الملك النوبي (٦٤) مع هذا، لا يبدو أيّاً من هذه الشروط موالى النفاذ لأي قدر من الزمن .

بعد تنصيب شكندة على العرض انسحبت المماليك إلى القاهرة، أخذت معها عدداً من الأمراء النوبيين رهائن، وبعضهم كان ممن تحق له المطالبة بالعرش. أما الملك الهارب داوود نفسه فوصل في يونيو ١٢٧٦، بعد أن أسر وأرسل سجيناً مقيداً بالأصفاد من ملك الأبواب (علوة) الذي كان يرتجى اللجوء في أملاكه .

ما تمتع شكندة فيما واضح بفضل المماليك زمناً طويلاً، ذلك أنه، وقتاً ما بعد صعوده للعرش، إغتاله قاتل لحساب السلطان المصري، وأخذ العرش ملك إسمه براك. برهن بدوره على عدم رضا أربابه الأسبيين عليه، فخلع وقُتل من حملة جُردت عليه. إنتقل العرش بعد ذلك إلى أمير بعينه يدعى شمامون، الذي ربما كان واحداً من الرهائن المأخوذة إلى القاهرة في ١٢٧٦.

بدا شمامون رجل أزماته - مكرراً لا مبدلاً له، وفي النهاية قادراً على ضرب المماليك بنفس لعبتهم من الدسائس السياسية - إثنى عشر عاماً أو تزيد نازلهم لعبة الخفاء والظهور، متحدياً سلطتهم عن بعد ومتراجعاً بحكمه خارج المرمى كلما أرسلت قوة لتأنيبه. خلعت جيوش المماليك مرتين (معانة من كنز) وهرب إلى الأبواب، في حين نُصَّب ابنُ أخت له مكانه. عاد في كل مرة إلى سُقلاً حالماً غاب الغزاة عن الأبصار أمناً، ونجح في استعادة عرشه. بعد عودته الثانية في ١٢٩٠ قام شمامون بمبادرة سلام وخضوع للسلطان مرسلاً هدية كبيرة من العبيد وواعداً بإستئناف *البق*. قنع الحاكم المملوكي، الذي كان آنذاك مستغرقاً في سوريا ولابد أنه كان متعباً من لعبة الخفاء والظهور باهظة الكلفة غير المثمرة في النوبة، فتركها على ما بلغت، ولم يضايق شمامون ثانية. لا يعرف شيئاً عن سنوات حكمه الأخيرة أو عن مصيره النهائي .

في ١٢٠٤ بدأت بحذافيرها من جديد قصة ملتوية من الخيانة والمكائد. ظهر ملك معين يسمى أمي، كان في هذه الأثناء قد خلف شمامون في بلاط السلطان، ساعياً للعلن ضد متمرّد. أعيد بدوره إلى السلطة بنجاح بمعاونة جيش مملوكي، واغتيل بدوره بعد بضعة سنين تالية. كان أخوه ووريثه، كرنيس (٦٥)، آخر ملك مسيحي للمقرة ممن نملك معرفة عنه لا ليس فيها .

لبلوغه العرش مباشرة، ذهب كرنيس بشخصه إلى القاهرة، أخذاً معه هدية كبرى إضافة إلى - الجزية المنتظمة ومؤيداً يمين الولاء للسلطان. لدى عودته للنوبة، مع هذا، إستأنف اللعبة القديمة من تحدي السلطة والمروق عليها. جرد الحاكم المملوكي كالعادة جيشاً لخلعه وتنصيب أمير نوبي آخر، برشمبو، في مكانه. في هذه الحالة، مع ذلك، كان الوريث الوصي على عرش دنقلا مسلماً، بعد أن تحول للإسلام بينما كان يعيش رهينة في القاهرة. وعندما علم كرنيس بخطة السلطان، قام بإقتراح معارض بصيب بالذهول. فقد أرسل ابن شقيقته، الذي كان أيضاً كنزاً للدولة، إلى القاهرة برسالة يقترح فيها أنه إذا كانت نية السلطان أن يُنصَّب مسلماً على العرش النوبي في مكان كرنيس، فإن

الوراثة يجب أن تذهب مذهباً سليماً إلى كنز الدولة، الذي كان مستحقاً لها طبقاً لنظام التوريث الأمومي النوبي (قارن بالفصل الخامس عشر).

حتى هذا المبلغ إتخذ بنو كنز بوجه عام ناحية الممالك في النوبة، مشتركين في الحملات بحق كل من داوود وشمامون. بغض النظر عن ذلك كان السلطان الناصر دامية بما يكفي لإدراك أنهم مثلاً على الأقل تهديداً لمصالح الممالك في النوبة بمقدار ما فعل الملوك المسيحيون الخارجيون عن الطاعة. إن الاقتراح القاضي بأن عرش النوبة يجب أن يذهب إلى كنز الدولة، القائد الوارث لبني كنز، كان لذلك أمراً غير مرحب به لدى السلطان، فاجابه بإفضاء كنز الدولة إلى السجن. ثم خرجت القوة التي جُردت لدنقلا كما حُطط أصلاً، ونُصب برشميو ملكاً في حينه. هرب كرنيس صوب نبع النهر إلى الأبواب، كما فعل إثنان من أسلافه، وهناك في عودته أُسر وأرسل إلى القاهرة سجيناً.

مع كرنيس بالحبس في أمان وبرشميو مُنصباً على عرش دنقلا، أحس الحاكم المملوكي فيما هو جلي بأن الأمور في النوبة باتت مسيطراً عليها بإحكام، فارتضى أن يطلق صراح السجين كنز الدولة بناء على وعد قطعه بأن يعود إلى أسوان ويهتم بشؤونه الخاصة<sup>(١٦)</sup>. ما خرج أمناً من القاهرة، مع ذلك، حتى اتجه قائد بني كنز مباشرةً للنوبة. أعلن في داء ملكاً من السكان المحليين (لعلهم كانوا غالباً من خاصة أتباعه بني كنز)، ومن هناك سار إلى دنقلا. أُغتيل برشميو نتيجةً لدسانسه من بعض أهله، وأخذ كنز الدولة العرش.

من هذه النقطة وما تلاها امسى النوبيون المطالبون بالعرش دُمى لا أكثر في النضال من أجل السيطرة على مملكتهم؛ وكان المتعاركون الحقيقيون هم الممالك وبني كنز. لقد رأى السلطان مرة ثانية مطامحه في المملكة الجنوبية مهددة، مرة أخرى أحس أنه مضطر للتدخل. أرسل أبرام، شقيق كرنيس وكان مسيحياً فيما هو ظاهر، على رأس جيش مملوكي ليضلع ابن خاله كنز الدولة. بوصوله دنقلا، كان، وفقاً لبعض السُرود، معترفاً به في الحال على أنه الحاكم الشرعي من قبل ابن خاله، الذي تنحى طائماً<sup>(١٧)</sup>. إن أبرام كيفما كانت الحال لم يثق بسلفه المخلوع وزج به في السجن، قاصداً أن يعيد إرساله إلى القاهرة، لكن الموت غير المتوقع للملك الجديد بعد ثلاثة أيام من ذلك أبطل هذا الحدث. وما وجد كنز الدولة فيما يرى العيان صعوبةً لتولي العرش من جديد.

أصبح الأمير كرنيس الآن آخر سهم في يد السلطان. أطلق سراح الملك السابق، وفي ١٣٢٣، أُعيد إلى النوبة في مسعى واحد أخير لإستعادة العرش نهائياً من كنز الدولة ابن الأخت نفسه الذي كان قد أوصى هو بنفسه أن يخلفه في الملك من قبل ثمانية أعوام سلفت. هذه المرة لم ينتظر كنز الدولة ليحرب بخاله، لكنه هرب مرة أخرى إلى الأبواب، ونُصب كرنيس مجدداً دونما معارضة. إن ابن أخته، مع ذلك، إستعار ورقة من كتاب شمامون؛ ما غادر الغزاة دنقلا حتى ظهر بها من جديد، وطرد كرنيس، مستعيداً في الحال عرشه. قفل الملك المخلوع عائداً إلى أسوان، حيث قبع منتظراً بلا جدوى تعزيزات الممالك. لننقل كلمات يوسف حسن: "ما جاء العون المنتظر أبداً؛ والحقيقة أنه في مناسبات نادرة وحسب تدخل الممالك بالمرّة في الشؤون النوبية ثانية. إن أسباب هذا التعبير المفاجئ غير واضحة ومع أن الممالك الآن تركوا النوبة لتواجه مصيرها الخاص في ظل بني كنز، فقد كانوا هم الذين لعبوا دوراً رئيساً في إضعافها بما لا رجعة فيه"<sup>(١٨)</sup>.

بلغ كنز الدولة العرش إعْتبر على وجه إتفاقي معلماً لنهاية الحكم المسيحي في النوبة الشمالية، لذلك تعرف سنة ١٣٢٣ أحياناً كبداية للحكم الإسلامي<sup>(١٩)</sup>. هذا التأويل لم يعد مسوغاً سواء بمعنى ضيق أو عريض. فمن ناحية واحدة يتضح، كما سنرى للحظة، أن أجزاء من النوبة السفلى بقيت تحت حكم أمراء مسيحيين غير مهمين لمدة ١٥٠ عاماً أخرى. وفي الناحية الأخرى، توقفت المقرّة بمعنى أوسع من أن تكون مملكة مسيحية في العصر الإقطاعي آنفاً. إن الحقيقة التي مؤداها أن المسلم يمكنه أن يصعد إلى عرشها بموافقة معظم رعاياها، دونما عودة للفتنة الداخلية

الخطيرة، هي أفضل برهان على صحتها. كانت المقررة في القرن الرابع عشر ملكية دينوية معظم أتباعها من المسيحيين، وواقع كذلك أن حكامها كانوا يتخذون الإيمان المسيحي حتى ١٢٢٣. غير أن الحلف الصيق، القديم بين الكنيسة والدولة كان ميتاً؛ شككده، شمامون، وكرنيس ليسوا مرسومين على أى حيطان لكنائس أو معروفين في نصوص تكريسية حداة وخمأة للدين. (٧٠)

إن تاريخ المقررة تحت حكم المسلمين قصير وغامض معاً. كنز الدولة أو أحد أحفاده كان بشكل جليّ لا يزال على العرش في ١٢٤٩، حيث أن العُمري، الذى كتب في ذلك العام، وصف النوبة بأنها بلد مسيحي يحكمه ملوك مسلمين من عائلة بنى كنز (٧١). بين كذلك أن المملكة كانت تابعة لسلطان مصر، ولربما كان ذلك الوصف صادقاً نظرياً أبرز منه وضعاً حقيقياً (٧٢). بحلول عام ١٢٦٥، مع ذلك، تبدو الصورة وقد تغيرت ثانية. في ذلك العام جاءت إلى مصر سفارة من ملك نوبى غير مسمى تسعى لعون ضد قبائل عربية معينة كانت تغزو المملكة نهياً وتخريباً، تشمل، فيما يبدو، بنى جعد، وبنى عكرمة، وبنى كنز. إن ظروف هذه البعثة ونتائجها على حد سواء، كما أشار إليها المقريرى (٧٣)، تستحق إعتباراً للحظة، حيث أنها تلقى الضوء الوحيد الذى نملكه على متواليه لأحداث في فترة زمنية حرجة في التاريخ النوبى .

زمننا ما قبل ١٢٦٥ كان هنالك فيما يبدو ثورة أخرى من ثورات القصر النوبى التى لا تنتهى في دنقلا، وفيها - نحو ما يقع دائماً في التاريخ النوبى - خلع ملك حاكم وقُتل على يد ابن أخته. إن مسعى ابن الأخت دعمه بنو جعد، قبيلة عربية إستقرت في أعداد كبيرة بمنطقة دنقلا. عندما نُصّب على العرش، بأى كيفية كانت، إنقلب الملك الجديد على حلفائه الآخرين وذبح معظم قادتهم. بعد هذه الفعلة الخيانية وجد موقعه في دنقلا غير قابل للدفاع، فانسحب هو وأفراد بلاطه صوب الشمال إلى داو (جبل عدا)، تاركين عاصمتهم والمقاطعة الجنوبية تحت رحمة بنى جعد. إن العرب يبدو أنهم تدبروا نوع الإنتقام الذى وسعهم فعله بنهب المدينة وتدميرها عقب رحيل الملك. وفى الشمال، ألقى الملك نفسه مهدداً من بنى كنز وحلفائهم بنى عكرمة حتى أن وضعه أصبح بصعوبة أفضل أماناً عما كان عليه في دنقلا. لقد حدث في هذه اللحظة، أنه قرر أن يلتجئ إلى السلطان للعون .

أما الممالك، فالبادى أنهم نسوا دروس جبل من قبلهم، إذ قبلوا هذه الدعوة الإضافية ليتدخلوا في الشؤون النوبية. وكان للحملة التى جردوها في حينه طبقاً لحسن ثلاثة أهداف كبرى: إعادة الملك النوبى إلى عرشه في دنقلا، ومعاقبة بنى كنز وبنى عكرمة، وإقامة سطوة الممالك من جديد في النوبة (٧٤). إن الهدف الثانى وحده بين هذه الأهداف هو الذى تحقق . فقد شنت فرسان الممالك بنجاح بنى كنز وبنى عكرمة وأسروا قادتهم، بذا أزاحوا التهديد الحالى عن داو، بيد أنهم لم يتخذوا تقدماً أبعد من ذلك نحو الجنوب. قرر الملك النوبى أن يبقى حيثما هو بدلاً عن محاولة إسترجاع عاصمته المخربة والمقاطعة المعادية التى تحيط بها، وكان قراره مؤيداً من القائد المملوكى، الذى رجع مذاك إلى مصر .

الأجزاء الجنوبية من المملكة، عاصمتها ولُب أرضها التقليدية، تُخلى عنها هكذا للعرب المشاكسين، وتوقفت المقررة كمجتمع سياسى عن الوجود. منذ ذلك الوقت وما أعقبه ما كان لها أن تعرف حكومة عدا الأسياذ الناهيين، حتى أن رحالة أوروبياً لما يزيد عن قرن بقليل بعد ذلك كان بإمكانه أن يكتب: "... على الطريق الذى يؤدى إلى محافظة النوبة وراء النيل أناس سيئون، نهايون، قتلة، ومعظم هؤلاء في محافظة النوبة" (٧٥).

إن سرد المقريرى لهذه الأحداث بعيد عن الوضوح. توحى جوانب من القصة، برغم ذلك، أن حكام المقررة الآخرين - الذين لم يُذكروا بالإسم في أى مكان - ربما صباوا للإيمان الذى ما فتئ مستخدماً من الأغلبية العظمى لرعاياهم. أما إنهم لم يعوبوا أعضاء لبنى كنز فأمر بيّن. تجدد العراك الأسرى بين خال وابن أخته (وهو حدث منتظم في الأزمان المسيحية المتأخرة بسبب قاعدة الوراثة

الأمومية) يشير أيضاً بأن التورث الأمومي ربما تم إحيائه، وهو ما يصعب وقوعه في ظل نظام إسلامي. أخيراً، ربما يكون تراجع الحكام إلى داو، وقرارهم بالبقاء فيها، مرتبطاً بحقيقة أن هذا كان هو كرسي دولة دوتاو المسيحية الوريثة، التي سيقال المزيد عنها في الوقت الحاضر .

العلاقات بين الملوك النوبيين وسلاطين الممالك، التي برهنت على أنها غير مريحة لكل منهما، لم تصل تماماً نهايتها. في ١٢٩٧ أعيدت القصة القديمة مرة واحدة أخرى: جاء ناصر وهو ملك نوبي معين (عاصمته غير مذكورة) إلى القاهرة يبحث عن مساعدة في مواجهة ابن عم خارج عليه <sup>(٧٦)</sup>. قابله السلطان بالتكريم والتشريف وأمر حاكم أسوان بإعانتته، لكن يحتمل أن هذا الأمر أدركه الجانبان كمجاملة جوفاء. في هذا الزمن أحال بنو كنز أسوان والمقاطعة الدائرة حولها إلى حالة من الفوضى، وأجبر الحاكم نفسه على الالتجاء للنوبة في العام الذي سبق ذلك لا غير. بهذا الجزء من الأحداث التي يغلب عليها زيد القول يأتي التاريخ المدون للنوبة في القرون الوسطى إلى نهاية حتى مقدم الحكم العثماني لاحقاً بما يزيد على قرن من الزمان .

### خلفاء المقررة

بسقوط المقررة بلغ العصر الإقطاعي في النوبة محله على اكمل وجه. إن القوة التي كان يباشرها ملك مفرد من قبل مقسمة الآن بين ثلاث جماعات على الأقل: العرب النوبيين بنو كنز في الشمال، ودولة دوتاو الوريثة بالقرب من الشلال الثاني، ورجال القبائل العربية الذين تولوا السيطرة على إقليم دنقلا.

كما شاهدنا لفئة مضت، إن قائد بنو كنز إعتلى عرش المقررة في ١٢٢٢، لكنه فقدته فيما يظهر مرة ثانية في الوقت الذي انهارت فيه المملكة أربعين عاماً لاحقاً. منذ ذلك الزمن وما جَد بعده لا نسمع عن كنز الدولة بالإسم مجدداً، لكن الصافي أن سلطة بنو كنز لم تكن بأي حال من الأحوال منتهية. من بعد تسليمهم (فيما يبدو) سهماً ما في حكومة مسؤولة، نكصوا على أعقابهم لدور النهب والسلب في الأزمان الغابرة. طوال تاريخهم كانوا طبعاً واختياراً فرقة مقاتلة أقل تحضرأً <sup>(٧٧)</sup> مقصودهم في العادة أن ينتهبوا أكثر من أن يحكموا .

سواء لعب بنو كنز أي دور إضافي في الشؤون السياسية النوبية بعد هزيمتهم في داو عام ١٣٦٥ أم لم يفعلوا فامرٌ غير مستيقن، على أنه من الواضح بعد ذلك الزمان وُجه إعتداؤهم بصورة غالبية في مواجهة مصر العليا وحكامها المماليك. أربع مرات بين ١٣٦٥ و ١٤٠٣ هاجموا أسوان ونهبوها بمفردهم، وحيناً آخر في تنسيق مع قبائل أخرى، مرتكبين فظائع يكيل عليها المماليك الصاع اضعافاً مضاعفة. بنهاية القرن الرابع عشر نجحوا في إنزال منطقة أسوان إلى حالة من الفوضى: كانت سيطرة المماليك الفاعلة تجتاز نهايتها، مُزق التبادل السلعي علي الطريق الصحراوي إلى عيذاب تماماً، وغاص ميناء البحر العظيم شيئاً فشيئاً في الخراب. ابتداءً من ذلك إلى ما تلاه حتى مجئ الأتراك في ١٥١٧ كانت مصر العليا والجزء الملاصق لها من النوبة السفلى بكل النوايا والمقاصد مقاطعة إقطاعية لبنى كنز وحلفائهم <sup>(٧٨)</sup>. من الصعب أن يجرى وصف مجتمعهم السياسي كدولة أو حتى كعمودية، بالنظر إلى شخصيته الإنتهائية بالضرورة، لكنها في كل الحالات كانت واحدة من وريثة المقررة.

جنوب بنو كنز، وعلى خفية من نظر العالم الخارجي بسببهم، كانت مملكة دوتاو المسيحية في الظل، وربما صاحبته ممالك منشطرة أخرى تتأثر على البقاء زمناً ما <sup>(٧٩)</sup>. إن تفاصيل تاريخهم ربما لا تعرف أبداً؛ فإن علمنا الوحيد بوجودهم يأتي من مراجع عابرة، بضعة نصوص نوبية متأخرة، مؤيدة إلى حد ما بليليل أخرى. أما المراجع المعروفة عن دوتاو وحكامها، وكلها باللغة النوبية القديمة، فهي الآتية:

١ - نص ديني غير مؤرخ، مكتوب على ورقة بارشمان مصقولة، تحوى وسط المراسم عبارة «التيت... كونه ملك دوتاو». إن مكانها الأصلي غير معلوم. (٨٠)

٢ - وثيقتان وجدتتا في الموقع المصري إدفو في مصر العليا، مؤرختان في العام ١٣٣١، تذكران سايتي بعينه، ملكاً لدوتاو .

٣ - رسوم تصويرية في أربعين خطاً على حائط معبد مشفق من الصخر في حورمحب جوار جبل عدا (الذي في الأزمان المسيحية كان مزخرفاً ومهيئاً ليكون كنيسة)، تبدأ: «باسم الأب والإبن والروح: أنا، ياؤول، ملك ملوك دوتاو، الذي له كتب هذا النقش في غار أبيماكو (القدّيس الراعى للكنيسة في جلاء)». باقى النص غامض، لكنه يبدو قائمة من مسؤولين دينيين والتزاماتهم (٨٢).

٤ - رسوم تصويرية مجموعة في نفس الغرفة تذكر ملكاً يدعى كودلانيل، لم تُسم مملكته، وفيما يبدو وجه باستعادة واحد من الرسوم الملونة في كنيسة الغار، وملكاً اسمه تينوسى إيلانات، الذي ابتعث سفارة إلى كنيسة الغار. ولما كان ياؤول الذي ذكر أنفاً يدعو نفسه «ملك ملوك دوتاو»، ربما يستدل أن تينوسى كان مليكاً تابعاً. وربما كان كودلانيل ملكاً على دوتاو أو مليكاً تابعاً (٨٣).

٥ - رسالة وجدت في جبل عدا عام ١٩٦٦ يصفها المتّكّب بأنها «... وثيقة من جلد رفيع المستوى من القرن الخامس عشر المتأخر، مؤرخة في عهد حكم ياؤول ملك دوتاو، تذكر قائمة طويلة من مسؤولي البلاط والقساوسة بالطريقة المتبعة. ظهر وسطهم مركى أسقف قصر إبريم وقسيس آخر، أورتيقادي، الذي يُعاد ذكر اسمه منسوخاً في شقٍ من وثيقة مماثلة وُجدت في واحدة من غرف التخزين في القصر» (٨٤). نص هذا المعثور الأخاذ لم ينشر بعد، لكن التاريخ المبين أنه ١٤٨٤ (٨٥) - ما يزيد على ١٥٠ عاماً بعد الإخفاء المفترض للحكم المسيحي في النوبة!

٦ - لمدى بعيد فإن أهم حرز للمعلومات حول دوتاو مما خرج إلى النور حتى الآن مودع في مجموعة من لفائف الجلد أميط عنها اللثام في قصر إبريم عامي ١٩٦٤ و١٩٦٦. في هذه الحالة أيضاً، جدير بالنقل عرض المكتشف:

يمكن تقرير أن الوثائق كلها مسيحية، حيث تبدأ كل واحدة بإستهلال بالثالوث المقدس. الكل يظهر أنه يحتوى أسماء ملوك مختلفين لملكة دوتاو مصحوبةً بأسماء مسؤولين ومناصبهم الملحقة بهم. ومما ينطوى على إثارة خاصة للإهتمام أن بعض الوثائق مؤرخة بصفاء. إن فحصاً إضافياً ربما يكشف عن تواريخ أخرى. في حين تقترح تحقيقات حاضرة أن هذه اللفائف الجلدية تغطي فترة قرنين.

... آخر اللفائف تحمل التاريخ ١٤٦٤. ذكر الملك ياؤول أنه حاكم دوتاو، جبل عدا الحديث ... آخر لفيفة من إبريم إلى جانب ذكرها للملك ياؤول تحتوى أيضاً إسم مرفس (٨٦) أسقف أو باباس (متروبولي) إبريم وفى لفيفة إبريم أسماء مدونة لخمسة أشخاص آخرين يقلدون مناصب عالية.

التواريخ المؤكدة الأخرى التي يمكن قراستها على لفائف أخرى هي ١٣٣٤ و١٢٨٧ و١٢٨١. أما اللفيفة المؤرخة لعام ١٣٣٤ فتدون أن ملك دوتاو كان سايتي الذي أثبتت إسمه مصادر عربية لفيفة ثانية، غير مؤرخة، تُعين كذلك عهد حكمه. في ١٢٨٧ كان ملك دوتاو جورج سيمون. تنتمي لفيفة أخرى كذلك لزمانه، لكن هذه الوثيقة وُجدت في حالة تالفة في الموضع الذي يتوقع أن يقع فيه التاريخ واللفيفة المؤرخة الأخيرة، ١٢٨١، تذكر ملكاً لدوتاو يبدو أن اسمه ب (ي) ارل. وللفيقتان أخريتان لا يمكن تحديد تاريخهما بعد، تنتميان لعهد ملك اسمه دايفيد. في كل من هاتين اللفائفين يظهر اسم إبريم في شكله القديم «فريم» المعمول به في القرون الوسطى باسم أسقفها، شال. في ثلاثة من اللفائف كان اللقب باباس، وربما يعادل متروبولي، بادياً. هكذا نثر على شنودا في عهد دايفيد، وكوسمس في عهد سيمون، ومرفس في عهد ياؤول (٨٧).

٧ - لما مضى يجب أن تُضاف الآن سلسلة من وثائق ورقاً وجلداً وجدت في قصر إبريم عام ١٩٧٤. على أساس فحص أولي للغاية يبدو أنها تقارير قانونية و/أو إدارية، على وجه العموم شبيهة

بتلك التي عثر عليها في ١٩٦٤ و ١٩٦٦. وسط الأسماء المذكورة إثنان أو ثلاثة من ملوك دوتاو: موسيس جورج، وجورج (الذي يجوز أو لا يجوز أنه كان فرداً مختلفاً عن الأسماء المذكورة سابقاً)، وبازل، مصحوبين بإبارشة، وأساقفة، ومسؤولين رسميين. إن أكبر وجه غير متوقع في هذه الوثائق التي وجدت هو تواريخها، التي تتراوح من ١١٤٤ إلى ١١٩٩<sup>(٨٨)</sup>. إننا نعلم الآن لأول مرة أن دوتاو كانت في الوجود مسبقاً - إفتراضياً كتابعة للمقرة - في وقت كانت فيه مملكة تُنقلا لا تزال في علو قوتها (قارن الفصل الخامس عشر).

٨ - اسم ياؤول (الذي يظهر كانشط ملوك دوتاو، ويقدر متساو آخر من نملك عنه معرفة) وجد أيضاً قبل وقت وجيز في نحت مكرس لكنيسة في تاميت<sup>(٨٩)</sup>، وربما كذلك في فرس<sup>(٩٠)</sup>.

مع أن اسم دوتاو غير وارد من ناحية أي مؤرخ معاصر، هناك بضعة مراجع غير مباشرة مُسلم بغموضها بالنسبة للوجود المستمر لممالك مسيحية في النوبة الشمالية بعد ١٢٢٢. فالعمري، الذي كتب بعد عام ١٣٤٢، يذكر «الروم» [مصطلحاً يستخدمه العرب لوصف عموديات «رومانية»، أي مسيحية]<sup>(٩١)</sup> في النوبة وراء الشلال<sup>(٩٢)</sup>. إن سرداً حبشياً للحج إلى بيت المقدس بين ١٣٢٧ و ١٣٢٩ يتحدث عن الملك المسيحي سبعاوول الذي حكم في النوبة في ذلك الوقت<sup>(٩٣)</sup>. وأخيراً كتاب معرفة كل الممالك الذي كتبه راهب أسباني مجهول في وقت ما بعد ١٣٦٠ لا يتحدث وحسب عن ملك نوبى في دنقلا (!) لكنه علاوة على ذلك يقلد تماماً حلة المزرعنة بالأوسمة والقلائد تُحليها<sup>(٩٤)</sup>. أيأ كان ذلك، يقدر بصفة عامة أن هذا مصدرأ لا يوثق به لحدرقصى<sup>(٩٥)</sup>.

من هذه المراجع القليلة المتناثرة يمكننا أن نستنبط محددات يسيرة وحسب عن تاريخ وهوية دوتاو، إن «المملكة» (ربما أن عمودية كلمة أفضل منها) ظلت باقية لثلاثة قرون ونصف تقريباً، من وقت ما قبل ١١٤٤ إلى زمن ما عقب ١٤٨٤. شملت على الأقل ثمانية ملوك: موسيس جورج، بازل، ب (ى) ارل، جورج سيمون، دألييد، سايتى، التيت، وياؤول. إليهم ربما يجب أن نضيف كذلك أسماء جورج، وكودانيل، وربما كان هناك ملوك تابعون علاوة عليهم. ما كان الحكام مسيحيين فحسب، لكنهم عدوا أنفسهم رعاة للكنيسة وُحَماتها، في توافق مع تقاليد العصر ما قبل الإقطاعى. حقيقةً، يدعو الإفتقاد إلى التمايز بين المسؤولين الدينيين والمدنيين في نقوش ياؤول إلى أنه في سنوات مغيب المسيحية النوبية ربما أعيد توحيد الكنيسة والدولة من جديد في هيئة واحدة. يجوز في أي حالة أن تعتبر دولة دوتاو، وربما أنها اعتبرت نفسها، وريثة الشرعية الوحيدة للمقرة المسيحية.

المدى الإقليمي لدوتاو لا يمكن إلا تخمينه. إن المملكة بلا شك كانت مركزية في الجزء الجنوبي من النوبة السفلى، لربما كانت عاصمتها أو واحدة من عواصمها في جبل عدا. أما إنها امتدت شمالاً حتى قصر إبريم فجلى للعيان من معثور المخطوطات العديدة التي وُجدت هناك، ومن ذكر أساقفة إبريم بين حاشية الملك. وإلى الشمال من قصر إبريم لا توجد فيما يكاد بقايا معروفة لفترة القرون الوسطى الأخيرة؛ كانت هذه هي المنطقة التي خربت تماماً من قبل بنى كنز فيما هو واضح، وربما لأن جمع من سكانها بالهرب جنوباً، كما رقبنا في مطلع هذا الفصل. في الجنوب، تلهم الدلائل المتعددة على بقاء متأخر للمسيحية في بطن الحجر<sup>(٩٦)</sup> بإمكانية إفتراض أن هذه المنطقة ربما كونت جزءاً آخر من إقليم دوتاو.

يعتقد ميليه أنه اكتشف بين القلعة الرابضة في قمة المرتفع بجبل عدا بقايا قصر لملوك دوتاو<sup>(٩٧)</sup>. كان هذا مجتمعاً من مباني طوبوية صروحية مرتبة في شكل U<sup>(٩٨)</sup>، يواجه طرف فتحته الفناء المركزى للقلعة. وشكّلت كنيسة إحدى طرفى نهاية المنحنى، تلاصقها بصورة مباشرة بنايات أخرى للمجمع. معظم هذه كانت مهدمة للغاية بحيث لا تأنى بأى إعادة لتكوين تفصيلي،

(٩٥) منحني مطلوب - المترجم.

التعرف عليها كقصر ضرب من التخمين. مع هذا، فإن الرسوم التصويرية ذات التنوع في غار حُورمحب المجاور إضافة إلى وثيقة الجلد التي الملح إليها سابقاً تشير إلى أن جبل عدا كان موقعاً ذا أهمية بين المملكة.

في النوبة الحديثة تدل الكلمة تاو في آخر الأسماء على "تحت" أو "أسفل"، وتطلق دائماً على أسماء الأمكنة يبدو لذلك منطقياً أن يعتقد أن دوتاو تعني "البلد أسفل دو"، أو ربما بتشكيل أدق "العمودية المحكومة من دو" - التي لابد أن تكون بتأكيد داو المذكورة في المخطوطات العربية<sup>(٩٨)</sup>. وبالنظر إلى التدايعات المتعددة لكل من الإسمين مع جبل عدا يبدو أشد احتمالاً أن دو، داو، وجبل عدا<sup>(٩٩)</sup> - شئ واحد لنفس المكان الواحد<sup>(١٠٠)</sup>، بالرغم من أن محاولات بُذلت كذلك لتعرف داو بالثر<sup>(١٠١)</sup>، وبشيخ داوود<sup>(١٠٢)</sup> بل بقلعة دو الفرعونية في أرض عبري - دلقو النهرية<sup>(١٠٣)</sup>.

لقد اقترح مؤيد دي فيلار<sup>(١٠٤)</sup> وميخالوفسكي<sup>(١٠٥)</sup> أن أسرة ملوك دوتاو أسسها إبارشة النوبة السفلى، الذين أعلنوا إستقلالهم عن دنقلا بعد تنويع كنز الدولة في ١٣٣٢. هذه نظرية لم تعد صالحة بالنظر إلى المعثورات القريبة من قصر إبريم، التي لا تبين فقط أن دوتاو كانت ماثلة في الوجود زمناً طويلاً قبل إضمحلال المقرّة، ولكنها كذلك تذكر الملك والإبارش بالاسم كإفراد مختلفين. علينا لذلك أن نفترض أن ملوك دوتاو الأوائل كانوا مأمورين لِنَقْلا وإبارشها، مع أن الملوك المتأخرة يفترض أنهم أعلنوا إستقلالهم. معثور آخر من قصر إبريم يبين أنه كان لا يزال هناك إبارش (أو على الأقل مسؤول يُخاطَب بالعربية على أنه "صاحب الجبل") في القرن الثالث عشر المتأخر أو الرابع عشر الباكر<sup>(١٠٦)</sup>. بعد ذلك لا نسمع ما يعلوا على ذلك نكراً عن منصب إبارشي منفصل، ربما لأن ملوك دوتاو المتأخرة أعلنوا إستقلالهم من المقرّة وولايتها. جدير بالذكر مع ذلك أنه في ١٣٦٥ إنسحب الملك الحاكم نفسه من دنقلا إلى داو، حيث أقام مقرّه مذكاً. وطبقاً لسرد المقرّيزي، عقد إبان وصوله داو سلاماً مع ملّة كانت مقيمة بها من قبل<sup>(١٠٧)</sup>. يبدو لذلك ممكناً أنه بعد ١٣٦٥ تمثل أسيرة دوتاو إستمرارية ليست قاصرة على الخط الإبارشي لكنها تواصل للأسرة التقليدية الحاكمة للمقرّة نفسها.

خزى بالملاحظة في زحام الظروف السياسية الفوضوية للعصر الإقطاعي، أن دولة دوتاو الرقيقة إستطاعت أن تحافظ على البقاء لما يبلغ القرنين دونما مضايقة فيما تراه من جيرانها المسلمين ناحية الشمال وإلي الجنوب. إن بقاها قيد الحياة يمكن أن يعزى إلى صدق التاريخ والجغرافيا. وفيما يظهر فإن بني كنز، بعد طردهم من دنقلا، كانوا مستغرقين تماماً في مسعى لإعادة سيطرتهم على مقاطعة أسوان، التي يفزعونها بإستمرار أو يحتلونهم بشكل متقطع. هكذا كونت عداوة بني كنز المستحكمة عازلاً يحول دون التوسع الجنوبي للمصريين المماليك، وكان بادياً وراء ذلك الستار من الحماية غير المقصودة أن دوتاو بقيت على قيد الحياة. في هذه الأثناء كانت الملكية في دنقلا وهي جُتّاح موجة بعد موجة بهجرات العرب، أضعف لأقصى حد من أن تقرر إدعائها التاريخي للنوبة السفلى. أضحى رواق النيل الآن مقعداً خلفياً، مُتخلفاً من ناحية التجارة الرئيسة ودروب الهجرة ويمثل لذلك مصلحة هوباً لأى قوة خارجية. لقد كان في تلك المؤخرة السياسية والثقافية أن المسيحية النوبية عانت نهائياً موتها البطئ، رغم أننا يحتمل ألا نعلم أبداً بالظروف التي رزحت تحتها. إن ياول هو الملك الأخير لدوتاو الذي نملك عنه معرفة ما: ظاهر أن أى أثر لمملكة أو لأى إيمان مسيحي منظم على حد سواء كان قد اندثر عندما ضم الأتراك العثمانيون النوبة السفلى في باكورة القرن السادس عشر (قارن بالفصل الثامن عشر)<sup>(١٠٨)</sup>.

التاريخ السياسي للنوبة العليا بعد تراجع البلاط من دنقلا لا يمكن إلا أن يُصوّر تخميناً. لقد كان هناك ثانياً ملك في دنقلا إبان القرن السابع عشر - مأموراً للفونج - معدوداً ككافرى قادة



الحرب<sup>(٩)</sup> العديدين في أرض دنقلا النهرية (قارن الفصل الثامن عشر)، خلا أنه ما إذا كانت هذه الملكية وريثاً مباشراً للملكية المقررة أم ما إذا كانت قد بعثت في تاريخ متأخر فأمراً غير معلوم. وفي غياب بيّنة أخرى ليس لنا خيرة سوى أن نقبل كلمة ابن خلدون "ما كان ممكناً قيام حكومة ملكية بسبب الخراب الذي منع أي اتحاد بين الأمراء" وقصمهم إلى شيع ...<sup>(١٠٩)</sup>. إنه لبيد أن النوبة العليا لزمن معتبر كانت تحت رحمة عصابات حرب ناهبة من نفس شاكلة بنى كنز.<sup>(١١٠)</sup>

## نهاية علوة

تاريخ المملكة النوبية الجنوبية مستور في كل الأزمان (قارن الفصل الخامس عشر)، ومصيرها النهائي مضاعف كذلك. ندر أن نسمع اسمها مذكوراً في السرد التاريخي التي اقتطعت أنفاً في هذا الفصل: إنها تتحدث من وقت لآخر عن ملك الأبواب، لا عن ملك علوة. والأبواب كانت فيما كان مأثوراً مقاطعة الخوم الشمالية لعلوة (الفصل الخامس عشر)، إلا أننا لا نعلم ما إذا عني ذلك أن "ملك الأبواب" يجب أن يقرأ مرادفاً "ملك علوة" أو ما إذا كانت المملكة قد تمزعت من قبل عموديات إقطاعية. وفقاً لاسبولدنق<sup>(١١١)</sup>، "الحفريات في سوبا تسفر هيوماً بالغاً في الثقافة المادية لعاصمة علوة خلال القرن الثالث عشر<sup>(١١٢)</sup>". أخطر جغرافياً في القرن الثالث عشر هو الحوراني أن عاصمة النوبة الجنوبية إنتقلت من علوة إلى "وابلولة"<sup>(١١٣)</sup>. في حين أن معاصره، المبعوث المملوكي علم الدين سنجار، وجد أنه كان عليه أن يتعامل مع تسعة أفراد حاكمين أثناء مهمته في علوة<sup>(١١٤)</sup>. كانت ممالك النوبة الجنوبية قد دالت إلى هذا الدرك، لا إلى فوضى، إنما إلى أجزائها المكونة لها.

لأبد أن علوة، التي شملت مقاطعتها بعضاً من أغنى الأراضي الرعوية في السودان، كانت مخترقة بكثافة أكبر من المقررة ومهددة بمستوى أخطر من ناحية القبائل البدوية الراحلة التي جاءت السودان بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر. كانت أقوى القبائل التي استقرت في الأقاليم الجنوبية جهينة وقريش. وكلاهما أقوام من الحجاز هاجروا أنفاً إلى مصر العليا في أزمان الفاطميين ثم، تحت ضغط الممالك إنتقلوا صوب الجنوب سعياً للمراعي الأخضر. طبقاً ليوسف حسن:

لم يأت المهاجرون في شكل رُحْل يغزّون إنما فرقاً صغيرة متعاقبة ... إن النمط العام لهذا التسرب ربما كان واحداً مسالماً، غير أن الظهور البادي للصدام المحلي والقتال القبلي كان أمراً محتوماً. في مساعيهم للسيطرة على أراضي المرعى، ربما أن البدو فيما يجوز تصوره دفعوا الغُصبة الأصلية خارجاً أو غزوا الأراضي النهرية الغنية. إن حضورهم على كل حال في مملكة علوة لأبد أنه والى ضغطاً على الحكومة - لا يُعلم عنه إلا القليل. كانت دولة علوة مبدأ الأمر قادرة على الدفاع عن نفسها وإجبار جماعات صغيرة من العرب لتحترم سلطتها. ومع ذلك، بالزيادة في أعداد العرب المهاجرة وتكوين روابط قبيلة كبيرة، إختل الميزان جبرياً...<sup>(١١٥)</sup>.

لم تكن الموجة البدوية هي المهدد الوحيد الذي كان على حكام علوة أن ينازلوه. فقد بدا كذلك أنهم كانوا على علاقة متريبة دائمة مع حكام المقررة، بصورة جائزة نتيجة لحملات البرق المقرية في إقليمهم<sup>(١١٦)</sup>. فوق هذه المشاكل وما وراءها، مع هذا، كان على حكام علوة أن يواجهوا خطراً جديداً غير معتاد من قبل: القوة الناهضة للقبائل السوداء إلى جنوبيهم وغربهم<sup>(١١٧)</sup>. لقد كان في جزء على الأقل من هذا الاتجاه أن الدمار حاق بهم أخيراً.

هنالك ملاحظتان لا غير مهمتان تتعلقان بعلوة في القرن الثالث عشر. في أوائل القرن الرابع عشر بلغ كاتب اسمه الدمشقي أن ملك علوة أقام بمكان اسمه كوشة. غرباً من النيل بعيداً، حيث كان يحصل على الماء من أبار تحت الأرض. لربما ينبئ هذا بأن الملك كان قد طرد من دياره التقليدية

(٩) أي الذين يحكمون مجتمعات مدنية بالقوة العسكرية - المترجم.

على النيل من العرب الغزاة؛ مع ذلك، فإن رواية الدمشقي غير مؤسسة على معلومات أصلية وقيمتها موضع للتساؤل<sup>(١١٨)</sup>.

يرقد ماثور سوداني مثابر السقوط النهائي لعلوة ومدينتها العاصمة سوبا لهجومات مجتمعة من العرب البداة وسلاطين الفونج السود، الذين سُمعنى بهم في تفصيل مطول في الفصل الثامن عشر. تاريخ الفونج *سجل أحداث الفونج* صار مكتوباً متأخراً في القرن التاسع عشر من تصنيف للوثائق وتقاليد شفاهية سابقة له في الوجود بمراحل<sup>(١١٩)</sup>؛ إن سرداً للإحاطة بعلوة يشكل فصلها الافتتاحي. وتبدأ القصة بالكلمات الآتية، بعد الإستهلال العادي:

منسوباً في التواريخ التي رأيته أن الأول من ملوك الفونج الذين مكثوا بالقوة الملكية كان الملك عمارة دنقس، مؤسس مدينة سنار في ٩١٠ هـ [١٥٤٠ م]. قبل ذلك التاريخ أطاح الفونج بالنوبة وجعلوا مدينة سوبا حاضرتهم؛ في تلك المدينة كانت بنايات جميلة وحدائق ودار ضيافة يشغلها المسلمون. [يتبع ذلك من وصف لسوبا في أزمان مسيحية أخذ بوضوح من وصف ابن سليم، كما هو محفوظ في المقرئ<sup>(١٢٠)</sup>]. ثم يتواصل النص: [دعنا الآن نعود إلى موضوعنا. فأعلم أن عهد عمارة دنقس بدأ بتجميعه الناس حوله وتوالوا يتزايدون وكان يقيم معهم في جبل مويه، الواقع غرب سنار. هناك جاءه عبد الله جماع من عرب القواسمة ... قرر الفونج شن الحرب على ملوك سوبا وقرى. لذلك هب عمارة وعبد الله جماع بجيشهما، حاربوا ملوك سوبا وقرى ومنهمم بالهزيمة ونجحهم. بناء عليه إتفقا سوياً أن عمارة يجب أن يصير ملكاً في محل ملك علوة، أي سوبا، حيث أنه كان الأعظم، وأن عبد الله جماع يجب أن يصير في محل ملك قرى. إستمر عمارة وعبد الله كالاشقاء، لكن رتبة عمارة تأخذ السبق على رتبة عبد الله إذا كانا معاً في نفس المكان<sup>(١٢١)</sup>.

بقراءة تسلسل الأحداث الزمنية ما بين السطور، يبدو كأنما أقاليم علوة التي كانت ممدودة مرة إلتهمت بالتفول البدوي حتى لم يبق منها شيء سوى المقاطعة النهرية بالقرب من ملتقى النيلين؛ ثم قرر العرب والفونج الإجهاز على المملكة المضغضعة وتقسيم أقاليمها المتبقية بينهم .

إن صعود عمارة دنقس، الأول من السلاطين السود لسنار، مشهود تاريخياً<sup>(١٢٢)</sup>. مع ذلك القى العلم الحديث الريبة على الأثر الماثور بأن عهده بدأ إطاحة بعلوة. فالمعتقد الآن أن هذا كان عمل العرب وحدهم، وإنهم بدورهم أخضعوا من الفونج في تاريخ لاحق. إستحوذ المنتصرون بعد ذلك لتاريخهم الخاص إنجاز سلفهم الباهر<sup>(١٢٣)</sup>. وسواء كان ذلك قصة حقيقية أم لم يكن، رغماً عن كل شيء، فإن النسخة التقليدية للحكاية كما أخبر بها في *سجل أحداث الفونج* مثيرة للإهتمام بسبب موسقتها لدعاية الدولة. إن السلاطين السود فيما هو مرثى قدروا إكساب حكمهم الشرعية بتعريف مملكتهم في سنار كدولة وريثة (بحق الفتح) لعلوة. ولما كان الفونج أنفسهم لم يحكموا أبداً من سوبا، يُعهد الوصف الممتد لقوة المدينة وثروتها في أزمان المسيحية، الذي يُستهل به تسلسل الأحداث الزمنية، مفهوماً كمحاولة وحسب لعكس بعض مجدها لفاتها. يبدو، بالتالي، أن إسم علوة وسمعتها - أيا كان التاريخ الحقيقي لسقوطها - لا يزال باعثاً على الإحترام والسلطة في القرن السادس عشر، لذلك فإنه يهم حتى في نهاية القرن التاسع عشر .

تقليد ما يختلف تنوعاً حفظه العرب العبدلاب (كما اشتهر مدمروا سوبا على أثر أيام قائدهم الذي ينسب له الإسم) يؤكد أن آخر أحياء عقب هجوم العرب فروا من سوبا وقاموا بوقفه أخيرة في حصن في قرى، نحو أريعين ميلاً إلى الشمال<sup>(١٢٤)</sup>. وعلى أساس هذا الفصل من الرواية تعرف هـ. شيتيك على مجمع في قمة تل يغلب عليه تحصين خشن على مدخل شلال السبلوقة، بالقرب من قرية قرى الحديثة، على أنه "آخر معقل مسيحي في السودان"<sup>(١٢٥)</sup>. جانباً عن المصادقية موضع المسألة بالنسبة لهذا الموقع، مع ذلك، يبعد *سجل أحداث الفونج* من أن يكون واضحاً في شأن دين علوة وقت الإطاحة بها. إن الذكر الوحيد للمسيحية جاء في تلك الجزء من النص الذي أخذ من سرد ابن سليم السابق له بزمان طويل. ولما كان الإتصال بالإسكندرية قد توقف في القرن الرابع عشر:

(انظر أدناه) يبدو ممكناً للغاية أن علوة ربما كانت قد نُمِرت بقوة حكم مسلم، غير معروف للعالم الخارجي، رديحاً بعيداً من قبل سقوطها النهائي .

شهدت مدينة سوبا آخر مرة كمجتمع مأهول في ١٥٢٣، عندما مر خلالها رحالة يهودي جسر اسمه دافيد ريوني في طريق إيباه على النيل من الحبشة إلى القاهرة. لقد وجد المكان في خراب وسكانها الأحياء يعيشون في "ساكن خشبية"، يصعب أن تكون أي شيء غير روكيب (١٢٦). في قرون متأخرة أصبح اسم سوبا إستعارة للخراب الكامل في وسط العرب السودانيين (١٢٧)، وسنرى أنه في زمن وشيك مثل ١٩٢٠ عُرف أعضاء من قبيلة الهمج، التي كانت مرةً من رعاياها، بحلفهم اليمين باسم "سوبا وطن ابائي وأمهاتي، التي تستطيع أن تجعل الحجر طقواً والقطن بذرة تالف" (١٢٨).

## مقاييس المسيحية

لقد اقترح أنه عندما انتقل عرش المقررة من أيدي مسيحية إلى مسلمة في ١٢٢٣، أصبح الإخفاء النهائي للمسيحية النوبية محتوماً (١٢٩). يجوز أن يعتبر هذا صحيحاً في عرض معنى، لكن الصلة بين الحديثين ما كانت بأي حال مباشرة أو حالية. إن علينا أن نستعيد الذكر فالمجتمعات المسيحية ثابتة على البقاء قرونًا في ظل حكم المسلمين في أقطار أخرى، بما في ذلك مصر بشكل ملحوظ، وإنه واضح الآن أنها فعلت ذلك لبرهة في النوبة بالمثل. ما من وقتربة بيّنة على عداوة صريحة نحو المسيحية من ناحية الحكام النوبيين المتأخرة أو رعاياهم. أما أخريات الكنائس النوبية فإنها لا تُظهر علامات على السلب والإحتقار، عكس ذلك، كان العديد منها في منطقة الشلال الثاني محفوظاً حفظاً يتسم بالجودة عندما غابها الأوروبيون لأول مرة في القرن التاسع عشر حتى أنه بدا من غير المتصور أنها كان لابد أن تهجر لمدة تبلغ ٥٠٠ عاماً سالف (١٣٠). ربما أنها لم تكن مهجورة. أضيف إلى ذلك، إنه ليست هناك بيّنة محددة، خارج مراكز إدارية كبرى مثل قصر إبريم وبنقلا، لممارسة الإسلام حتى تاريخ قريب للغاية (قارن الفصل السابع عشر). من مجموع ١٥٠ كنيسة معروفة في النوبة (١٣١) تحول أقل من دسنة منها إلى مساجد في أي وقت، وما من مبانٍ مسجدية لها قدم سحيق في هذه المنطقة. في مقابل هذه البيّنة يبدو صافياً أن المسيحية لم تُستَكن للضغط الخارجي للإسلام لكنها استكانت نتيجةً لضغطها التنظيمي والروحي الخاص بها .

لقد رقبنا من قبل كيف أنه في الفترة المسيحية المتأخرة كانت الكنيسة المسيحية قد أصبحت بشكل متزايد عاكفة على نفسها، بمعزل عن الشؤون اليومية، وإن قسماً عظيماً من قوتها الأيدولوجية تاكل بالروح الدنيوية للعصر الإقطاعي. الكنيسة والملكية كانا لا يزالان نظرياً هما المركزان التوامان للدولة، لكن علاقتهما الوثيقة متبادلة الدعم في أزمان أولى كانت تجاز نهاية. كان الملوك فوق كل شيء مصابين بروح الإقطاع، وحينما أُلزموا في متأخرة القرون الوسطى ليجدوا عوناً سياسياً في مواجهة غراماتهم لم يتجهوا ناحية الكنيسة النوبية إنما إلى سلاطين المماليك. في الجانب الآخر من الصورة، كان بمستطاع الدعم الأسمى لحكام مثل شكندة، وشمامون، وكرنيس أن يمثل فائدة ضئيلة للكنيسة. من فوق كل هذه الظروف وباعلاها، كان الضعف المميت للكنيسة النوبية أنى سار الأمر، يمكن في إخفاها في إقامة تطوير لتنظيم محلي فعال أو لجذور ثقافية متينة (١٣٢).

على العموم، كانت المجتمعات المسيحية التي وقفت على أفضل وجه في ظل الحكم الإسلامي هي الكنائس الأهلية المستقلة عن الخارج مثل الكنائس في مصر، وسوريا، وأرمينيا. إن مفتاح بقائها حياً هو التضامن والانضباط التنظيمي مما مكّنها من وقت لآخر من بذل وزنٍ سياسى عظيم القدر حتى في وضعها كاتلية. لا يقوم تضامن هذه الكنائس على تنظيم والتزام ديني فحسب، إنما يرتكز

على تيار جارف من القومية العرقية على قدم وساق: كل يحفظ بوعي المآثر المحلية فنا وكتابةً للأزمان ما قبل الإسلامية .

ما تمتعت الكنيسة النوبية بأى من هذه الفوائد. لم تكن لها جذور محلية، ثقافية كانت أم تنظيمية. كان أساقفتها وقساوستها الأعلى مصريين في الغالب، معينين من الإسكندرية، وبينها ما كان هنالك زعيم معترف به يمكنه أن يستجمع المؤمنين لينوذ عنهم الحكومات المعادية والإستعمار الأجنبي. بقدر متساو كان الفن الدينى، والأدب، والشعائر أجنبية. الشئ الوحيد النوبى بشكل مميز للكنيسة "النوبية" كان لونيته المعمارية، إلا أنه حتى تلك الخاصة توقفت عن أن تكون صادقةً بعد أن تهاوت الكنائس المستطالة شبه الدائرية العظيمة لتوقف إستعمالها واستُبدلت بكنائس الكبولا المتواضعة في الفترة المسيحية المتأخرة. في كل حال يصعب أن تكون هذه المباني الرقيقة الزهيدة التي تخلو من المباهج قادرةً على الخدمة كرمزٍ تجميعي فاعل للعاطفة الدينية المشبوبة .

مؤسسة بهذا الشكل، ما كان للكنيسة النوبية إطار عضوى ينبعث من ذاتها؛ كانت قائمة بصورة مطلقة إما على الكنيسة الأب في مصر أو على الملكية النوبية. وخلال معظم تاريخها كانت مدعومة بنشاط الإثنيين، لكنها، في متأخر العصور الوسطى، عندما سحب مصدرا الدعم منها في وقت واحد، كانت غير قادرة على أن تقف بمفردها. مهم أن يُعترف، أياً كان ذلك، بأن فقدان الدعم الخارجى لم يقع مرة واحدة، أو في كل أنحاء القطر في نفس الوقت. إن منطقة الشمال القصوى وقعت تحت سيطرة بنى كنز المعادين للمسيحية في القرن الثالث عشر؛ ذهب عرش دنقلا لمسلم في ١٢٢٣؛ بينما في منطقة الشلال الثانى بقيت عموديةً مسيحية على قيد الحياة حتى زمن متأخر من القرن الخامس عشر.

لا نعلم على سبيل الدقة متى أو لما فقدت الكنيسة النوبية الإتصال بالإسكندرية على حد التكافؤ. الأحوال السياسية المضطربة في النوبة والإضطهاد الشديد في مصر ربما كانا عاملين مساعدين. فوق كل شئ، مع هذا، لابد أنها الفوضى التي أحدثها بنو كنز، خصوصاً بعد عام ١٢٦٠، تلك التي حالت دون قيام إتصال فعال بين المجتمعات المسيحية إلى الشمال والجنوب من إقليمهم.

مدوناً في تاريخ البطريركيات القبطية أنه بعد ١٢٣٥ لم يُبحث قس من الإسكندرية إلى النوبة، وتركّت الكنيسة النوبية لتدبير شؤونها بنفسها (١٢٣). يبدو هذا مفهوماً بقدر كافٍ نظراً للأحوال السياسية الفوضوية في مصر، ومن الممكن كذلك في النوبة، في ذلك الزمان. أياً ما قضى الأمر، ربما كان إنقطاع العلاقات مؤقتاً ليس إلا، وربما انطبق على الأقسام الأسقفية وحدها في النوبة العليا (حيث أن المؤرخين القبط دائماً يميزون بين محافظات الماريس والنوبة، أو بالضرورة النوبة العليا والسفلى). على أى حال نملك الآن بُينة على وجود صلة بين النوبة السفلى والإسكندرية في تاريخ متأخر بحساب معتبر. إن أسقف فرس وقصر إبريم كان يُحتفل بتنصيبه في مصر إلى وقت متأخر حتى ١٣٧٢؛ ووجدت وثائق تنصيبه مدفونةً إلى جانبه في قبره في قصر إبريم (١٣٤). وفى الوقت الحاضر تمثل آخر دليل لنا يُحدد الإتصال بين الكنيسة النوبية وآخر بطريرك لها .

أما إنه لاتزال هناك كنيسة منظمة في النوبة السفلى لمائة عام لاحقة فتشهد بصحته ووثائق مقرونة بأسماء الملك ياقول وملوك آخرين لدوتوا (انظر أعلاه). إن قدراً وفيراً من هذه قوائم يُنسب لمسؤولين دينيين، يعلو وسطهم إسم أسقف إبريم. لا نستطيع أن نتأكد أن تعيينه كان معترفاً به أو حتى معروفاً في الاسكندرية؛ يبدو ممكناً على الأقل أنه بعد فقدان الإتصال بمصر إستوعب ملك دوتوا المسؤولين الدينيين ممن تَبَقُوا في داخل حاشيته وتولى الإشراف العالى على كنيسة أهلية قصيرة الأجل. ما كان من دعم فعال لهذا الأثر الأخير للكنيسة النوبية في كل الأحوال متاحاً إلا من الملكية المحلية، وليس من الخارج. إفتراضاً لذلك إندثرت الكنيسة والملكية معاً في نهاية القرن الخامس عشر؛ فما من ذكرٍ لأى منهما بلغ سمعاً بعد عام ١٤٨٤.

نهجاً بالرجوع إلى ما مضى من وقائع، واضح أن الممارسة المنظمة للمسيحية زوت في أجزاء مختلفة من النوبة أزماناً مختلفة ولأسباب مختلفة في حالتها. لابد أنها كانت قد اختفت أولاً في الشمال البعيد، تحت القهر المباشر لبنى كنز. إن هذا منبأ به في كل الحالات بخصائصها المشهود بصحتها تاريخياً وبغياها بقايا مسيحية متأخرة شمال قصر إبريم. المنطقة الثانية التي يذهب إليها يفترض أنها شريط دنقلا النهرى. هنا ربما توقف الإتصال بالإسكندرية في القرن الثالث عشر، حتى أن الكنيسة ثركت دون دعم عدا ما تقدمه ملكية ضعيفة ومنقسمة، وهو ما مضى تحت سيطرة مسلمة في ١٢٢٢. وفي نطاق مقاطعة دوتوا، بين المنطقتين اللتين مر ذكرهما تابرت المسيحية المنظمة على البقاء ١٥٠ عاماً أخرى. هنا أيضاً فُقدت الصلة بالإسكندرية في نهاية المطاف، لكن الإيمان التقليدي بقي حياً تحت رعاية حكام أمليين ربما وضعوا أنفسهم على رأسه. في مملكة علوة الجنوبية ليس لدينا معرفة محددة عن مدة المسيحية، غير أن هناك بيئة (سوف تُناقش في الوقت الراهن) فهنا بالمثل بقي الإيمان حياً إلى ما يقارب نهاية القرن الخامس عشر.

إخفاة كنيسة منظمة لم يعن بالتأكيد الإبعاد الفوري لإيمان النوبة في القرون الوسطى. طوال القرن الرابع عشر وعلى نفس المنوال في باكورة القرن الخامس عشر وأصل المؤرخون وصفهم لأهل منطقة دنقلا أنهم مسيحيون<sup>(١٣٥)</sup>، رغم أنه يبدو غير محتمل أن تنظيهم الكنسى كان لا يزال حياً في هذا الزمن، بنهاية القرن الرابع عشر، مع ذلك، كتب ليو أفريكانوس إنهم كانوا قد فقدوا إخلاص الإنجيل ونوره؛ لكنهم يحتضنون بالفعل مفاصد لا نهاية لها من الأديان اليهودية والمحمدية<sup>(١٣٦)</sup>. إن كاتباً عربياً في نفس الفترة وجد حالتهم بنفس القدر غير مرضية من وجهة نظر محمية؛ فقد وصف دنقلا بأنها "مفرقة في حيرة وطلان"<sup>(١٣٧)</sup>. وكتب كذلك المبشر الفارس في ١٥٠٤ "الناس ليسوا مسيحيين، ولا موريين"<sup>(١٣٨)</sup> وبينما كنا نحن في بلد برستر جون [أى إمبراطور الحبشة] مسيحيين<sup>(١٣٩)</sup>. ويضيف الفارس مقرأً "بينما كنا نحن في بلد برستر جون [أى إمبراطور الحبشة] جاء ستة رجال من ذلك البلد [علوة] كسفراء للبرستر، سائلين له أن يرسل معهم قسيسين ورجالاً ليعلموهم. ولم يختار أن يرسلهم ..."<sup>(١٣٩)</sup>. قرناً لاحقاً لا يزال، وجد زائر إيطالى لمصر العليا مستولته من النوبيين (أو الأحباش؟) يعيشون بالقرب من دير إسنا الغرب. كانوا ما انفكوا يمارسون شعائر المسيحية الخاصة بالعميد، والزواج، والدفن، لكنهم نسوا ما يقارب كل الأسس الأخرى لإيمانهم الموروث من أسلافهم<sup>(١٤٠)</sup>. هذه ونصوص غيرها تعطينا صورة لزم من مرتبك وغير مؤكد لإنتقال ديني، أثناء ما كان للنوبيين سوى أنقص وقار لى إيمان.

تلقى رسالة اكتشفت من واعظ فرانسيسكى في إيطاليا ضوءاً إضافياً على البقاء المتأخر للمسيحية في النوبة لقد كتبت من مبشر متنسك للكاردينال بلوجا في عام ١٧٤٢، وتحوى المقال الآتى:

أياماً قليلة مضت تلقيت من خادم، بربرى، معى في المنزل، نبأ سبب لى دهشة عظيمة. هو: إنه في قريته، وتدعى تنقوس، وهى على جزيرة في النيل، في مملكة النوبة، لا يزال هناك بعض مسيحيين، بالرغم من أنهم تحولوا متاعب حمة، وإضرابات، وحروب من الأتراك، لإجبارهم على اعتناق المحمية، فإنهم، حتى على حساب حياتهم، عاشوا دائماً كمسيحيين ولا يزال في قبضتهم دير (من غير رهبان)، فيه كنيسة جميلة مزينة برسوم ملونة حائطية على قماش<sup>(١٤١)</sup>.

هذا هو دليل محدد للمسيحيين في النوبة، بالرغم من أنه بعد جيل وصف جيمس بروس في

(\*) حرص مفكر الكنيسة في القرون الوسطى على وصف الإسلام "بالمحمية" وذلك على سبيل إنكار الوصل الإلهي الأعلى الذي أنزل الإسلام على رسوله الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم. وكثيراً ما يرد مع ذلك كيل من السباب على نحو ما حواه وصف أفريكانوس للأديان المذكورة في عبارته "بالمفاصد" - المترجم.

(\*\*) العرب والبربر والأفارقة الآخر الذين فتحوا أسبانيا في القرن الثامن الميلادي، وأقاموا دولة الأندلس وحضارتها التليدة - المترجم.

النوبة العليا "عهداً لفرانسيسكيين متدينين، كى يتولوا سلوى الصابئين، أو المسيحيين المضطهدين في النوبة عندما يكون بمستطاعهم إيجادهم" (١٤٢).

العديد من النصوص الواردة سابقاً تعطى إنطباعاً بموقف ليس غير مألوف في أزمان الصراع الدينى: مجموعة سكانية مقسمة بين أتباع مخلصين للإيمان السالف وأتباع غيورين على الإيمان الجديد، مع وجود العنصر الأكبر ربما من بين كل العناصر الأخرى ممسكين عن الإلتزام القوى بأى من الجانبين في إنتظار التطورات (١٤٣). يحتمل أن الإنقسام أخذ مكاناً دائماً على طول خطوط القرى، كما يجرى اليوم وسط الفلاحين في أراضى البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى. البينة الأثرية يبدو أنها تتيح بعض التأييد لهذا. أما تلك القرى التى تجمعت في قرب شديد حول كنائسها، مثل ديفينارتى وأتيرى (١٤٤)، فربما تمثل جماعات مسيحية مستعمية. إن هؤلاء الذين كانت كنائسهم نائية للغاية، مثل مينارتى وكاسانارتى، ربما تصادف وقوعهم تحت سيطرة عناصر مسلمة، أو يجوز ببساطة أنهم رغبوا أن يحرروا أنفسهم من الرباط الوثيق بالكنيسة في حالة الهجوم من رجال قبائل عربية أو نهاباً مماليك. أما أولئك الذين ما كانت لهم كنيسة، أو الذين سمحوا لكنائسهم أن تهوى في الخراب، فيفترض أنهم صائبون إعتقوا الإسلام على الأقل إسمياً .

حالة الكنائس النوبية الباقية حية ترفد بضعة دلائل إضافية للموقف الدينى في نهاية العصور الوسطى. كثيرٌ من المباني، على الأخص في منطقة الشلال الثانى، حشد الآن (أو كان حتى وقت قريب) في حالة جدية بالملاحظة من الحفاظ (١٤٥)، والواضح بجلاء أنه بصفة عامة كانت معاملتها تتم في إحترام خلال القرون منذ أن تخلى عنها. جائز أنه أرتجى لفترة ما أن القساوسة سوف يرجعون إليها يوماً ما؛ حتى عندما تلاشى ذلك الأمل لابد أن بعض البركة ما انفكت تلصق بالمباني باعتبارها الصروح المدركة للناظرين لإيمان وحضارة نصف - منسية.

في الماضى القريب خدمت كنائس كحظائر للحيوان، لكن هذا الوضع يحتمل أنه كان تصادفاً أكثر منه تعمداً، فليسوف تلجأ الأغنام النوبية إلى أى مبنى مفتوح. أما المعاملة الوحيدة للكنائس في تعمد ويتسبب بما يهز المشاعر غضباً وبيعاً على الأسى فكانت موجهة لحيطانها: عُبت بالعيون وأحياناً بتقاسيم الوجه، ليس فقط في الأشكال الإنسانية وإنما في رسوم الحيوان بالمثل. لقد فُسر هذا بأنه تحوطٌ من العين الشريرة وإستجابةً لتحريم المسلمين للأشكال التصويرية على السواء؛ في كل حالة وُجد هذا الرأي مؤحداً من طرفٍ من النوبة إلى طرفها الآخر. (من هنا الأهمية الفنية القصوى لتلك الكنائس مثل عبدالله نيرقى، وفرس وسونقى التى دُفنت في الرمال قبل أن يتمكن من العبث بملامحها). جدير بالذكر، مع هذا، أنه فيما عدا هذا النمط من تسوئ الوجه الخاص بمحيطته لمدى بعيد، ما كانت هنالك محاولة لإيذاء الرسوم أو تغطيتها، وفيما عدا الكنائس في قصر إبريم والجنوب الأقصى ليست هناك علامات بالكنائس أو إستعمال لها كمساجد (مما يتطلب تعديلات معمارية مدركة في سهولة وتحديد). الخطوط الكتابية العربية متعددة على حيطان الكنائس المهجورة، غير أنها ليست بأوفر من الإغريقية، والقبطية، والنوبية القديمة التى كُتبت عندما كانت لا تزال مستخدمة. وفي الاحتمال أن كتابة الأسماء والتواريخ في الكنائس مؤثر يدل على تواصل إحترامها بما يفوق أى فرض عكسه.

كنائس نوبية قليلة تظهر علامات على استعمالها مساكن عادية في سنواتها الأخيرة (١٤٦). لقد إقترح أن شاعليها كانوا محض قاطنى كهوف، على أنه توجد بينة بأن بعضاً من هؤلاء الساكنين في آخر الأيام بنلوا مساعى لصون المباني (١٤٧). لذلك أفكر أنه من الممكن في الأيام الأخيرة للمسيحية النوبية أن صغار القساوسة المحليين، وربما أحفادهم من بعدهم، إستحوذوا على الكنائس من أجل حمايتها وربما ليبقوا بعضاً من الآثار الأخيرة للعبادة المسيحية على قيد الحياة (١٤٨).

## ملخص تفسيري

شهدت العصور الوسطى الأخيرة التفكك التدريجي لحضارة النوبة في القرون الوسطى. إن إستقرار الممالك المسيحية ورخائها قُوض ثم دُمّر في النهاية بتطورات بين حدودها وفيما وراءها على السواء. أكدت روح متنامية من الإقطاع العسكري، مستلهمة ما في أوروبا والشرق الأدنى المعاصرين، تواجدتها في بروز قلاع ومعمار عسكري، وفي نهوض إقطاعيات محلية يتزايد إستقلالها، وعراكات أسرية بين البيوت الحاكمة. في أثناء ذلك إستقر العرب البداة، وقد قُسرُوا خارجاً عن مصر بملاحقة من المالك، أعداداً متضاعفة على طول الجنبات الصحراوية والممالك النوبية وفي أماكن منتشرة على النيل نفسه سواءً بسواء، مبطلين على الدوام أي سيطرة فعالة من الممالك. كان لسلاطين الممالك في مصر طموحات سياسية لمصالحهم في الجنوب، وفاقم تدخلهم المتوالي بين ١٢٧٥ و ١٢٦٥ المشاحنات الأسرية بين مملكة المقرّة. تحت هذا التركيب المتجمع من الضغوط وأوجه الضعف تحللت المملكة النوبية الشمالية في آخر القرن الرابع عشر، وما بقي من قوتها تناهت دويلات رقيقة ومحاريبون بداة.

الموقف في النوبة الشمالية بعد انهيار المقرّة يذكر بأوروبا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية. كان جزء من السلطة في قبضة دويلات وريثة صغيرة حاولت أن تحفظ سلطة الإمبريالية المطلقة إبان تلاشيتها، في حين كانت هناك أقاليم أخرى لا تعرف قاعدة غير عصابات الحرب متدنية الحضارة ويتداعى الأمن الداخلي تناقصت التجارة كأنما للاشي، إختفت طبقة التجار، وعادت البلاد القهري للإقتصاد الزراعي المعروف من الأزمان الأولى. شيئاً فشيئاً خرج مجتمع إقطاعي مألوف لفلأحين زراع يتجمعون حول قلاع أسياذ محليين مثّلوا حمايتهم الوحيدة وحكومتهم اللوطيدة. مصير المملكة الجنوبية لعلو في الجانب الآخر كان لمدى واسع قريب الشبه بالإمبراطورية الرومانية الشرقية: نُزع إقليمها بعيداً عنها من ممالك أدنى حضارة حتى لم يبق منها شيء سوى مخلفات كالحجر تحيط بالعاصمة، وكانت تلك مكسحة بهجوم أخير نهاية القرن الخامس عشر.

ظلت المسيحية الإيمان الرسمي للممالك النوبية حتى القرن الرابع عشر، لكنها منذ ذلك الوقت أفسحت الطريق للإقطاع العسكري بوصفه روح زمانها الهادية. إزدادت الكنيسة عزلةً عن الشؤون اليومية وفي نفس الآن أضعفت وأفقرت بالقلقل السياسية للعصر الإقطاعي. والكنيسة المصرية مثل ذلك إستضعفت تحت نظام الممالك القهري فما كان بوسعها أن تشكل لأي مدى ومن بُعد قوة حادية ومحمية من الخارج. وهكذا عندما سقطت أجزاء متتالية من النوبة في ظل حكم مسلم، سواء تم ذلك عبر توريث أسرى أو من خلال إجتياح عربي، جُردت الكنيسة من دعمها التقليدي الضروري من الملكيات ومن الإسكندرية معاً. مع غياب مثل هذا العون بلغت الممارسة المنظمة للكنيسة نهايتها. لقد ثابرت على البقاء لمدة أطول في الجزء الجنوبي من النوبة السفلى تحت رعاية دولة خلافة نصرانية صغيرة عاشت إلى نهاية القرن الخامس عشر.

حتى من بعد إختفاء كنيسة منظمة بقيت المسيحية على قيد الحياة قرناً أو إثنتين كديانة شعبية وسط جماعات محافظة بعينها. طوال القرن السادس عشر كانت هناك فيما هو محتمل جيوباً لا تزال ربما لمسيحيين أوفياء إسمياً، كما تواصلت إفتراضياً جيوباً لمسلمين مُخلصين، بين سكان ما كان لمعظم أعضائهم إلتناء ديني قوى. لكن الحضارة الرعدة وخلافة النوبة المسيحية لعلها لم تعد كونها إرثاً يُذكر مُتَمّاً. إن مجتمعا السياسي، وأيدولوجيتها، وفنها، وأدبها، ومعارها أمسوا على منوال واحد خامدين. وإلى جوف هذا الفراغ الثقافي والروحي دخلت عقيدة الإسلام، تماماً مثلما كانت المسيحية نفسها: دُفعت إلى داخل الفراغ الأيدولوجي الذي تركه تحلل الحضارة الفرعونية من ألف عام سابقة.





## الفصل السابع عشر

### سندان الإسلام الهجرات العربية وتعريب النوبيين

في أول عمل له عن النوبة، ارتأى رايزنر أن "... تأريخها يصعب أن يزيد على عرض لإستعمالها أو لتجاهلها من مصر، ويجري إثراؤها أو إفقارها بتغير النيل والمناخ" <sup>(١)</sup>. بينما ذلك الرأي يكاد لا يسدى عدلاً لمساهمات النوبيين الخاصة بتاريخهم، فإنه لحق بالرغم من ذلك أنه منذ الأزمان الأولى حتى نهاية العصور الوسطى يمكن أن تروى قصة تطورهم الثقافي بإتساع شديد فيما يتعلق بنفوذ جيرانهم الشمالية مرةً واحدة لاغير، ولوقت قصير، يدخل الصورة "طرف ثالث" بالفعل، عندما يجوز أن الغزاة الأكسوميين وجهوا ضربة قاضية للإمبراطورية المروية (الفصل الثالث عشر). إلا أن الأحباش سرعان ما عادوا لحصنهم الجبلي، ما ظهروا أبداً على النيل ثانية. إن أقوام أرض الهامش <sup>(٢)</sup> البدائيين علي شتاتهم وقد كانوا أقرب جيران مباشرين للنوبيين لم يعملوا مساهمة مهمة ذات قيمة لتاريخهم؛ مثلوا لسكان الوادي تهديداً متقطعاً وحسب، ويقدر ذلك مثلوا مصدراً لإستغلالهم. وقد كان بوسع النوبيين في المعتاد أن يسودوا عليهم ويرهبونهم من خلال عددهم الأعلى وحضارتهم الأسى، وكان هؤلاء أنفسهم يسودهم المصريون ويرهبونهم دائماً.

أنهى ذلك الموقف إلى الأبد في آخر العصور الوسطى بظهور "طرف ثالث" لم تذهب ربحه عنهم. فمع أنهم جاءوا أساساً عن طريق مصر، ما كان رجال القبائل العربية الذين تدفقوا عبر تلال البحر الأحمر ثم غريباً يقطع أراضي المرعى السوداني مصريين ولا نوبيين؛ كانوا - بحق - الأعداء المروثين لكل شعوب الوادي المستقر. غير أنه في معظم الأمر كان هؤلاء البدو الأميون هم الذين صاغوا آخر تحول رئيس في التطور الثقافي للنوبيين. فلئن كانت جيوش الممالك هي مطارق الإسلام، فإن قبائل العرب التي جاءت لتحيط بالنوبيين في الجنوب والشرق، والغرب، كانت هي السندان الذي صُهر عليه مجتمعهم ما بعد النصرانية.

مجئ العرب وضع نهايةً للأبد للمكانة الشامخة التي تمتع بها النوبيون بين جيرانهم الأفارقة. إكتسح الغزاة أراضي النيل الداخلية في سرعة خاطفة، يحتون غالبية السكان المبعثرين آنفاً، حتى زادت أعدادهم حجماً معتبراً بمضى الوقت عن أعداد المقيمين في الوادي. كذلك إمتلك العرب روحاً قتالية ودرجةً من الحراك إفتقدهما النوبيون. بالتالي اختل ميزان القوة العسكرية، لأول مرة في التاريخ، بعيداً عن الشعوب النهرية لصالح قبائل السهل والصحراء التي أحاطت بهم. النوبيون عاشوا بذلك، بمعنى أو آخر، رعايا في كتف أقوام أرض الهامش بوصفهم أشد قوة وبأساً.

ولئن كان التفوق العددي للنوبيين قد أنهى بمجئ العرب، فإن تفوقهم الأيدولوجي أنهى بالمثل بمجئ الإسلام. إن عمليات التعريب والإسلام يجب ألا تخلط بالرغم من أنها في النوبة سارت يداً بيد <sup>(٣)</sup>. (وهي عادة مختلطة في أذهان النوبيون أنفسهم، كما سنرى الآن). حول العرب موقف النوبيين بأعدادهم الأعلى؛ وبدل الإسلام موقفهم بطريقة أغنى تنوعاً واستدامة بإرتجائه الأسى للناس مكتوا

(\*) الهامش الحضري والثقافي لأرض الداخل التي كانت أكثر حضارةً جلوسيةً مستقرة - المترجم

طويلاً خارج مشارف الحضارة. هكذا، بينما كانت هجرات بدوية على نطاق واسع محصورة في السودان الشرقي (أرض النوبة الداخلية من الساحل) إجتاح الإسلام تلك الأرجاء في نهاية العصور الوسطى عبر إفريقيا شبه الصحراوية من البحر الأحمر للأطلنطي.

إن حضارة الإسلام القتالية في أصولها، تجدد إحيائها بدلاً عن تقويضها بالروح الإقطاعية. تبع الإبعاد الناجح للصليبيين والمغول من الشرق الأدنى موجةً من التوسع الإسلامي لم يسبقها إلا التوسع الذي أجرى أنفاً في القرن السابع. ما في النوبة وحدها، إنما عبر إفريقيا بأجمعها إنتقل اتباع الإيمان المبعث من جديد جنوباً فوق آثار القوافل الصحراوية إلى باطن أراضى السهل الغنية التي تمتد وراءها ولو أنها متخلفة ثقافياً. سواء كانوا بداءة من مصر أو جنوداً، أو تجاراً، أو معلمين من المغرب (شمال - غرب إفريقيا)، إخترقوا جوف مناطق لم يرق رسل حضارة بزيارتها أبداً من قبل. إضافةً إلى ذلك أحضروا معهم نوعاً مستخصاً من التقليد الحضاري: حضارة مصنوعة من سكان الصحراء ولأجلهم. ما فرضت تعلماً ولا كتابة، إنما اقتضت إشهار العقيدة وتأييدها ليضع التزامات يسرى<sup>(٣)</sup>. كذلك ما فرضت خُصوعاً لكنيسة منظمة، بتاح التماسك الإجتماعي بغير ذلك عن طريق قرابة تُحكي بالعشرة وتظل الصق منها ألفاً بكثير (أنظر أدناه).

حيثما كانت المسيحية والحضارات الأولى، بطبيعتها الكامنة، غير قادرة على التوسع ما وراء السكان المستقرين في حوض البحر الأبيض المتوسط ووادي النيل، إنتشر الإسلام كناراً في هشيم وسط رجال قبائل الحزام السوداني. كان أول تقليد حضاري في التاريخ يوفى في إختراق أرض الهامش الإفريقي: شعبياً لآلاف السنين كانوا مُتخطين من التيارات الكبرى في التاريخ، يُسامون خسفاً ويُستغلون من جبرتهم الشمالية، الآن أصبحوا جزءاً من عالم جديد<sup>(٤)</sup>. بدأ قُضى على شموخ النوبيين الثقافى القديم قدم الدهر في جوف إفريقيا: وجدوا أنفسهم آخر الأمر محاطاً بهم من حضارة منافسة، ولئن لم تكن اسمى تقدماً من حضارتهم، فقد كانت أفضل تكيّفاً مع كل من بينتها وأزمانها.

توسع الإسلام في باطن أرض الهامش الإفريقي أنهض كأنما لغوره سلسلةً من إمبراطوريات قصيرة العمر ولكنها قوية ما وجدت قبلها سوى زعامات لا وزن لها، زماناً يسيراً. بدأت الحركة الإمبريالية في غرب إفريقيا، وزحفت تقطع للقارة بالتدرج شرقاً. مالى وسونغاي، وريثا غانا القديمة، إحتلا في تقدم أقساماً أكبر من الأراضى المغصورة بالنيجر: كانيم ثم بورنو أديا الظهور في حوض تشاد<sup>(٥)</sup>؛ أما سلطنات دارفور والفونج فقد ورثت قوة النوبة المسيحية: وفي الحبشة قامت إمبراطورية القالا قصيرة الأجل لتتحدى سؤدد الامهرا المسيحية طويلة الأمد. كل هذه كانت دولاً إفريقية غير عربية، لكنها جميعاً استمدت عنفوانها الأيدولوجي من دين الإسلام الذي أدخل حديثاً. لقد كانت أيدولوجيتهم في البداية عبادةً صفوية أنشأت عن طريقها الطبقات الحاكمة حقها الإلهي لتحكم رعيتهما الوثنية بين ظهراني قبائلها الخاصة والقبائل المحيطة التي غنموا إخضاعها على قدم المساواة<sup>(٦)</sup>. وفيما بعد، كان لموجة من حركات التطهير أن تخلص إلى إسلام الرعايا بالإضافة إلى الحكام، وإلى قهر ممارسات وثنية معلومة، مع هذا، يعرض إسلام إفريقيا الوسطى والغربية إلى هذا اليوم عنصراً أصلياً وثنياً<sup>(٧)</sup> قوياً<sup>(٨)</sup>.

من نواحي كثيرة يوازي تاريخ 'إمبراطورية السهول' تاريخ كوش من قبل ٢٠٠٠ عاماً سالفه.

(\*) ربما قصد المؤلف ممارسات وطقوس قديمة لا تتفق بالضرورة مع بعض تفاسير الأديان السماوية، ولكنها تواصلت كجزء أصيل من ثقافة المجتمع وقيمه الروحانية. ومثال ذلك الأديان الإفريقية السابقة لرسالات التوحيد المعروفة. إن دراسات أنثروبولوجية متمعة في علم إجتماع الأديان المقارن ربما تُفصّل عن أوجه الإلتقاء بين معتقدات إفريقيا القديمة والحديثة ومن ذلك الإيمان بالخالق الواحد الأحد الذي دعا له في وادي النيل إختنازن واحترام المرأة والعائلة - المترجم.

جمعت كل واحدة منها سحر الجذب الأيدولوجي لإرث حضارى مجلوب، رخاءاً تجارياً مشتقاً من تجارة الذهب، والعاج، والأرقاء، وقوة عسكرية منبثقة من بأسهم الذاتى في القتال. كانت كل واحدة منها دولة ذات حضارة أدنى على تخوم الحضارة، يعتمد وجودها على صون التجارة مع ممالك حوض البحر الأبيض المتوسط بقوتها الأشد. فإذا كان تاريخ إمبراطوريات القرون الوسطى موجزاً بما لا حد له بالنسبة لتاريخ كوش، فهو يرجع في جزء منه إلى أنه مامن واحدة منها تمتعت باحتكار الحضارة التى امتلكها النوبيون من قبل، لكن بما يعدو ذلك لأنها كانت ستحتاج بقوة الإمبرياليين الأوروبيين وهم أعظم قوةٍ لمدى بعيد.

ما كانت النوبة، إذن، بمحضها إنما [طالها التغيير] في نطاق إفريقيا شبه الصحراوية بأكملها تلك التى تحولت بالموجة الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة. وما عادوا ببساطة نقطة خارجية لحضارة البحر الأبيض المتوسط في ظلام أرض الهامش الإفريقي، وجد النوبيون أنفسهم شطراً من لوحة جديدة مستجمة الألوان لحضارة سودانية شائعة في تقدم يقطع القارة. إن دين الإسلام الجامع، والحكاية المتقاسمة للسلالة العربية، وتصاحب العضوية في نظام قبلى بعرض المنطقة، إجتعت معاً لتسوى الفرق الثقافى الكائن بعمر الدهور بين الفلاحين النهرين والبدو الصحراويين، ولتخرج حساً لمجتمع بينهم ما وُجد له مثيل منذ ما قبل الأيام الفرعونية. فمن العصور الوسطى حتى أزمان حديثة، رُبط مصير النوبيين بدرجة أقل بالمصريين مقارنة بالشعوب السودانية التى تحيط بهم.

يجوز لذلك أن يُرى إسلام النوبيين في عبارات عامة كجزء من عملية واسعة باتساع القارة. ومع ذلك، فقد اختلفت في جوانب هامة عن إسلام الأفارقة بالآواسط والغرب. تبدو العملية الحقيقية للتحويل الدينى والثقافى في جوانب عديدة أقرب للعملية التى وقعت أثناء للموجة الأولى للتوسع الإسلامى في داخل الأراضى المسيحية للشرق الأدنى. فالنوبيون، مثل المصريون والسوريين من قبلهم، ما كانوا وثنيين يتوقون للقبول في باطن العالم ذى الحضارة ولكنهم أتباع إرث قديم وفي بعض الوجوه أكبر تقدماً من إرث أساتذتهم المرشدين. يضاف إلى ذلك أن الوكلاء الأوائل لتبديلهم ما كانوا مبشرين ولا أهل علم إنما كانوا أرباباً بدويين في أمية؛ التبديل في معظمه ما كان عملية إيدولوجية مثلما كان وحدة إجتماعية وسياسية. على نهج ما قال تريمينغهام "البدوي العربى، الذى يندر أن يكون متعصباً والمجرد تماماً من الحماس التبشيري المشبوب، لا يبذل جهداً لتجنيد الإيمان الدينى. كان إنتشار الإسلام في مجراه العام سائراً من خلال النفاذ، والتزاوج، وسياسة إستراتيجية لكسب الزعماء وقادة الجماعات (تشمل تدابير إرغامية)، والتجارة، وامتلاك العبيد. وكملت الأيام الأولى للفتح الإسلامى الأساسى، كان من شأن التحول للإسلام أنه يجعل من يعتقد تابعاً موصولاً بنظام العرب القبلى" (٨).

في إيجاز، كانت عملية الإسلام في النوبة، كما في مصر والشرق الأدنى في تاريخ سابق، موثقةً بما لا فاكك منه بالتحريب. يلاحظ أى. م. لويس أن "... التجربة المباشرة، لأول مرة، للإسلام العربى ... كان لها أثر عظيم الشأن بادر للعيان بسهولة في ترابط الإسلام الوثيق بالهوية العربية. فالسودانى [الشرقى] أشد من أغلب مسلمى الشعوب الافريقية الأخرى، يعتقد أن من يكون مسلماً لابد أن يكون عربياً. إنه هذا التمثل العميق للإسلام والانتماء لثقافة العرب ومجتمعهم ما يُعبر عنه بالإدعاء العام لسلسلة النسب العربى والسريان الغالب [لغة] العربية" (٩).

معظم مسلمى غرب إفريقيا كذلك يدعون سلالة عربية، لكنهم ينزعون لذلك على أساس شجرة نسب فردية بدلاً من أنساب قبلية أو روايات للهجرة. وبهذه الكيفية لا يتعارض إدعاء التحدر من سلف عربى بالضرورة مع العضوية في قبيلة غير عربية أو مع التحدث بلغة غير عربية (١٠). في الجانب الآخر يدعى السودانيون بمن في ذلك النوبيون أو البجا الذين لا يتحدثون العربية على حد سواء، أنهم

عرب على أساس قبلي أقوى منه فدياً. لذلك يجوز أن يقال إنه في حين يدعى السوداني الغربي أنه عربي، /صطناعاً، لأنه مسلم، فإن السوداني الشرقي يدعى وقيمتها أنه مسلم لأنه عربي، الإسلام دينه القبلي. إن أهمية هذه الرؤية الغربية للملامح الإسلامية وقيمتها سوف تناقش في تفصيل أدق كمالاً عبر صفحات لاحقة (انظر "الإرث النسبي") بآناها).

### الهجرات العربية

على الرغم من أنه، كما سنرى، لم يستقر بدايةً كثرُ بالفعل ما بين ظهري النوبة، فقد كانت الهجرات العربية بصرف النظر عن ذلك واحدةً من أهم الحركات السكانية في التاريخ النوبي لأنها غيرت بشكل دائم التوازن الأيكولوجي بين الصحراء والأرض المزروعة ولأنها أدت إلى آخر تحول رئيس في الثقافة النوبية. علينا أن نؤمن لذلك، بتفصيل أدق نوعاً ما من فصول سابقة، الظروف التي جاءت بتلك الأقوام التي لا يهدأ لها قرار ولا تدعن لسلطان إلى السودان كان في مرةً خالياً. خلاف الهجرات الماضية في المساحة ذاتها، لم تنهب هجرات البدو غير مدونة من مراقبين معاصرين. فالعديد من تحركات القبائل من خلال مصر مذكورة من أمثال ابن خلدون والمقريزي اللذين أوردت سرورهما في الفصل الماضي. فوق شهادة هذين الشاهدين موضع الثقة الكبيرة وما وراءها، ثروة - بل ضخام - من الإرث الشعبي يتعلق بالهجرات العربية، ذلك أن فصول الهجرة موثقة بانساب محفوظة بإخلاص مع معظم القبائل السودانية. ولأسباب سوف تظهر فيما بعد (انظر "الإرث النسبي")، فإن هذه الكتلة من الشهادة المختلطة في تعارض تبدو بعيدة بعض الأحيان عن النتائج الثابتة، تكاد في تركيبها الداخلي وخطها العام لا تصلح خاماً لإستعمال المؤرخين<sup>(١١)</sup>. مع هذا، أجرى تحليل مُحصص إنتقائياً للتاريخ الشعبي السوداني قبل نصف قرن مضى من السير هارولد ماكمايكل الراحل قبل وقت وجيز، ومن دراساته خرجت صورة متماسكة سليمة عن التحركات القبلية السودانية. إن مؤلف ماكمايكل الرائد تاريخ العرب في السودان أصبح الخط القياسي لكل الدراسات التاريخية اللاحقة، وسوف يتبع بتوسع هنا<sup>(١٢)</sup>.

يؤكد تقليد سوداني عريق أن قبائل معينة - هاجرت مباشرةً بعبور البحر الأحمر من شبه الجزيرة العربية إلى السودان<sup>(١٣)</sup>. إن عدد الرجال والحيوانات الذي يمكن أن يؤدي عبوراً كهذاً صغير، كيفما جرى، بالضرورة<sup>(١٤)</sup>. والواضح أن الكتلة الأعظم من هجرة البدو جاءت إلى النوبة وأراضى السهل الموصولة عن طريق مصر. تبدأ قصتنا لهذا مثل كل تطورات متحولة في التاريخ النوبي، في القطر الشمالي.

تحدثاً عاماً، لم يلعب البدو دوراً هاماً في التاريخ المصري. إن الصحارى التي لا حياة فيها والممتدة بعيداً عن جنبات النيل، لم تمنح معيشةً حتى لأشد الناس والحيوان تقشفاً. المرتفعات الأعلى لتلال البحر الأحمر، والشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط، والواحات في الصحراء الغربية وحدها هي التي أتاحت وطناً ملائماً للبدو الرعويين، عدا أن هذه الأقوام أزماناً ما قبل الإسلام كانت على العموم قليلة جداً وثنائية عن النيل ليكون لها أي أثر نافذ الأهمية على سكان الوادي. ألحقت كذلك جماعات بدوية نفسها من وقت لآخر بتخوم الوادي المزروع، لكنها في النهاية يجري استيعابها دائماً في بوتقة المزارعين /فلاحين وتفقد عاداتها الرعوية وخصائصها القبلية.

كان فتح العرب لمصر في ٦٤٠ - ٦٤٢، يواكب في حدوثه، أول هجرة بدوية كبرى لوادي النيل. فالجيش الغازي كان مكوناً بنسبة عظيمة للغاية من رجال القبائل، أخذوا عياناً دون تمييز من أغلب القبائل شبه الجزيرة العربية. بحلول عام ٦٤٢ يقال إنهم بلغ عددهم بالتقريب ٢٠.٠٠٠ رجلاً<sup>(١٥)</sup>. وهذا هو الرقم الذي يُعطى عادةً كحجم للجيش المسلم الذي غزا النوبة بلا نجاح في ٦٤٢ (الفصل الرابع عشر)<sup>(١٦)</sup>. غير ممكن أن يقال كم من هؤلاء المهاجرين إستقر بمصر بعد الفتح، إلا أنه من المحتمل أن الغالبية فعلت ذلك. تضاخمت أعدادهم أثناء القرنين التاليين من خلال الهجرة. طبقاً لـ

ماكمايكل "المناسبات الزعمية للهجرة المقيمة كانت وصول حكام جدد. كل واحد يحميه جيش مرافق من أى عدد إلى ٢٠٠٠٠ رجلاً، عديدون منهم لم يرجعوا أبداً إلى سورية أو بلاد العرب. إن نسبة من هذه الحشود المتدافعة كانت قُرساً، وإتراكاً وقبائل أخرى، غير أن الأغلبية كانوا عرباً مالوفاً أن يكونوا أعضاء من قبيلة الحاكم نفسه" (١٧). إضافة إلى هذه الزيادات المنتظمة، أغرى أعضاء من قبيلة قيس عيلان ليستقروا في مصر السفلى ثقلاً مضاداً لتنفيذ الأقباط بتمردهم المتزايد. بعيداً عن تدعيم أمن الحكومة المركزية، مع هذا، أصبح رجال القبائل أنفسهم نواةً دائمة للعصيان (١٨).

بداية الأمر لم يذهب معظم العرب في مصر للحاق بالجماعات البدوية التي كانت مقيمة من قبل في تلال البحر الأحمر والواحات الغربية، إذ أنه على خلاف البدويين الأوائل لم يكونوا ملزمين بإقامة وأدهم كليا أو حتى بأنشطة رعوية أساساً. نُشروا كقوات حماية غير نظامية في محافظات مصر السفلى والوسطى، على غرار ما نُشرت عليه جماعات عربية في المناطق المفتوحة من سوريا والعراق. مكّنهم هذا من رعى حيوانهم، كما كانوا يفعلون على طوال الأطراف وفوق الحقوق المحصودة في وادي النيل، برضاء *الفلاحين* أو من غيره. الأشد أهمية، مع ذلك، أنه مكّنهم من فرض ضريبة على *الفلاحين* أنفسهم. العرب في مصر، مثل جماعات بدوية أخرى عديدة قبلهم ومنذ أيامهم، عاشوا طفليين أكثر منهم رعويين.

ولترسيخ فعاليتهم وحراكمهم العسكري، مُنح العرب في مصر والمحافظات المفتوحة الأخرى من إمتلاك الأرض أو الإشتغال بالفلاحة (١٩). هذه السياسة قصيرة النظر كانت تبرهن إضرارها بالنظام المدني. فما كان العرب على استعداد دية ولا إرثاً للدور العسكري الذي عُين لهم متى انقضت حروب الفتوح؛ كانوا لا يرضون حرم مشاكسين ليؤدوا الخدمة كحمايات إقليمية ولا يمكن للغاية أن يعتمد عليهم ليخدموا كقوات لرعاية الديار. في نفس الوقت حال النهي عن إمتلاك الأرض دون إستقرارهم في حياة مفيدة بين إعطاف المحافظات المفتوحة، وحكم عليهم عملياً بالعودة لشريعة الغاب اللاقانونية بالسلب والنهب أزمان ما قبل الإسلام ولو تمثّوا غيرها.

بعد ثورة العباسيين في ٧٥٠ (٢٠) وجد العرب دورهم العسكري منزوع المبادرة بمستوى متزايد من جيوش لأرقاء من أصل فارسي وتركي. الناتج كان مسلسلاً طويلاً من العصيان العربي الذي سلخ رجال القبائل من الحكومة مدى بعيداً وقد كانوا أعانوا على خلقها. أخيراً، في ٨٢٤، إستهل الخليفة المعتصم حكمه بإصدار أمرٍ إلى واليه في مصر بإزالة أسماء كل العرب من سجل المعاشات وأن يُوقف دفع رواتبهم. كانت تلك بحق نقطة تحول في تاريخ العرب في مصر. إختصاراً ما كانت ثمة حاجة لخدمتهم كمحاربين: لقد استبدلوا بعبّيد عساكر أتراكاً... (٢١). وبلغت إزاحة العرب ذروتها في ٨٦٨ عندما قام واحد من حكام مصر الأتراك، ابن طولون، بخلع ولاته للخليفة وأسس أول الأسر التركية الحاكمة في مصر.

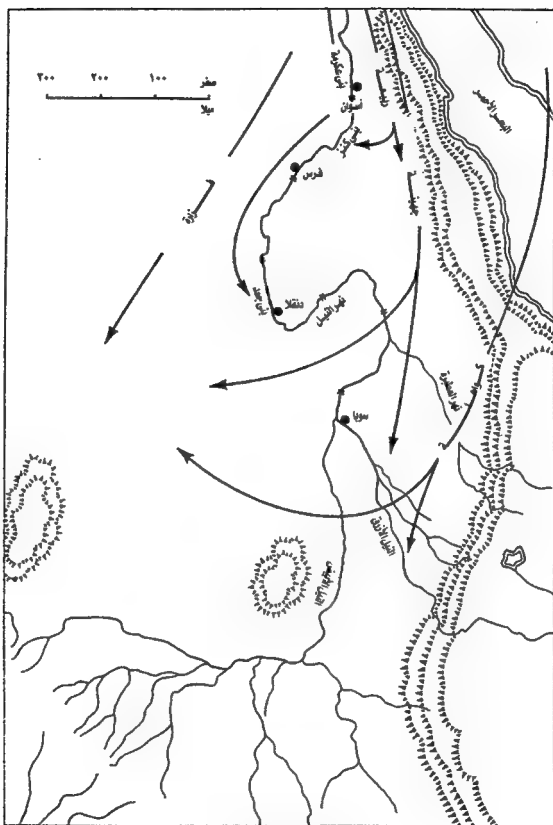
بما لا يثير عجباً بدأ عديد من العرب المصريين ساخطين منزوعة أملاكهم في النزوح بعيداً عن وادي النيل إياباً إلى الحياة البدوية في أزمان سالفة. تبع بعضهم النيل لمنطقة أرحب حرية نسبية في مصر العليا؛ وانتقل آخرون غرباً يقطعون شمال أفريقيا؛ يجتاحون ويستعربون مصادفةً رصيفاً من قبائل البربر الأصلية؛ وما فتئ آخرون يلتحقون بالبعث في التلال الشرقية وعلى طول ساحل البحر الأحمر "إنها حقيقة أخاذة، لكنها غير مدعومة بالبرهان"، يقول ماكمايكل "كان ميل كل أسرة متعاقبة حكمت مصر ودرجة متزايدة الايُّدُ الأعراق، أي البدو، تشكيلاً لجزء متكامل من الدولة بما يتعدى اعتبارهم كعنصر للخطر والقلق المتزايدة على حدود البلاد، يُستعملون متى رُغب في إستخدامهم إنما يجب ألا يُمنحوا أبداً وزناً أكبر مما كانوا يملكونه من قوة للإبتراز" (٢٢). وبعد ما لم يتخط ثلاثة قرون من بزوغ نور الإسلام، وجد البداة أنفسهم في الورا حيثما كان مبدؤهم: بروايتاريا خارجية. مذاك حتى أزمان حديثة إنصرفت طاقاتهم بصورة أساسية كقوة مُحَرِّبة إلى ما بين الإمبراطورية التي

اعانوا أنفاً على بنائنا وفي قبالتها.

نحو ما رأينا في الفصل الرابع عشر، أقام تجار عرب وربما مقيمون آخرون في أقصى جزء شمالي النوبة قبل أيام بني كنز (قارن الفصل السادس عشر). وإلى الحد الذي تقدر فيه الهجرة واسعة النطاق، مع ذلك، كان الطريق جنوباً على طول النيل مسدوداً بالعداء العلني من الممالك المسيحية (المدعومة بميثاق معاهدة /البقطة) وبمصادر النوبة السُفلى وبين الحجر الرعوية الشحيحة على حد سواء. المفتاح الحقيقي للإختراق الجنوبي كان تلال البحر الأحمر فما هنا انطلق أول إختراق عربي.

بداية القرن التاسع عشر كانت معظم قبائل البجا التي عاشت في تلال البحر الأحمر لاتزال وثنية، مع أن قلّة كانت قد تبنت المسيحية إسمياً، وآخرين، على الأخص في المقاطعات الساحلية، ربما كانوا اعتنقوا عقيدة الإسلام من قبل<sup>(٣٣)</sup>. وإلى رجال القبائل الإغارة على مصر العليا عندما طرحت السانحة نفسها، وفي ٨٣١ اضطُبع بحملة تاديبية بحقهم من الخليفة المعتصم. كان هذا طبقاً لبوسف حسن هو الحدث الحاسم في فتح تلال البحر الأحمر لإستيطان العرب<sup>(٣٤)</sup>. غلبت البجا وأجبرت على توقيع إستسلام يعترف بالخليفة سيداً مطاعاً عليهم ويدفع جزية سنوية. إحتوت الإتفاقية جملةً من نفس الغروض كما فعلت معاهدة /البقطة مع النوبيين<sup>(٣٥)</sup>، خلا أنها كانت إستسلاماً أحادياً ما كفل شيئاً للبجا مقابل خضوعها. ثم مُنع رجال القبائل من أن يدخلوا مدن مصر وقراها، ولكن لم يكن هناك بند، كما في حالة النوبة، في مواجهة المصريين أو الأعراب الداخلين والمقيمين في بلاد البجا. وتبعاً لحسن "بالموافقة على دفع الجزية عوامل البجا كقوم مفهولين. وعندما اعترف كُنُتُون [عماد زعماء البجا] بالولاية العباسية وأمسى مأموراً لها، وجد الأعراب المنتصرون الفرصة ليمدوا من نفوذهم الخاص، في الوريق على الأقل، بعيداً صوب الجنوب حتى بادى. كانت مكاسب العرب لذلك من الضخامة بمكان وعملت المعاهدة رأس حربة لفتح البلاد لنفوذ العرب. أضحى الأعراب أحراراً في التنقل حول المنطقة أو الإستقرار بها؛ وأمنت مصالحهم التجارية، وحرّيتهم الدينية، وسلامتهم الشخصية جميعها بهذه الإتفاقية"<sup>(٣٦)</sup>. تمّ يضيف ماكمايكل إن "النتيجة الرئيسة في مصر كانت توقف الإغارات على حدودها الجنوبية، وبالنسبة للبجا إكتساب كل السيطرة القبلية بخبرة عربية طاغية"<sup>(٣٧)</sup>.

في حين أنه يصعب أن يفرد حدث تاريخي معين كبداية لحركة سكانية كاسحة، ليس ثمة شك أن العهد الذي أعقب مباشرة حملة المعتصم ومعاهدته شهد حركة ذات نطاق واسع للأعراب إلى داخل بلاد التلال شرقاً وجنوباً من مصر. مرة ثانية طبقاً لحسن، كانت حمى الذهب واحدة من البواعث الزعيمة لهجرة العرب الباكرة، لقد كان خلال هذا العهد أن المغامر الخُمري أسس دولته المارقة في منطقة التمددين فوق أبو حمد (الفصل الخامس عشر)<sup>(٣٨)</sup>. إن المستوطنين العرب والنفوذ العربي إنتشروا إلى الجنوب تدريجياً على امتداد إقليم البجا برمته إلى بُعْدُ بلغ حدود الحبشة؛ تحولت القبائل الأصلية إلى الإسلام من خلال العمليات العادية للتزواج والتحاليف، كما كان على النوبيين أن يصيروا إليه فيما بعد. أما الجماعتان العربيةتان اللتان شملتتهما هذه الحركة في المقام الأول فهما زُبيعة وجُهينة - وكلاهما في الأصل قبائل من الحجاز إستوطنت مصر العليا قبل هجرتها إلى الجنوب<sup>(٣٩)</sup>. لوقت ما حكم البجا أعضاء من القبيلتين نخبةً طاغيةً من الخارج<sup>(٤٠)</sup>؛ ومع ذلك تعايشت زبيعة مع رعاياها في نهاية الأمر لتُكون بني كنز (قارن الفصل السادس عشر) وربما قبائل بجاوية مهجنة أخرى، فقدت إسمها وملامحها الأصلية. ربما امتزج كذلك بعض أعضاء جُهينة مع البجا، لكن الجزء الأعظم من هذه القبيلة الكبيرة المتماسكة بشكل إستثنائي تمسك بخصائصه ولغته المنفصلين، واستأنف سيره فيما هو بادٍ من بلاد البجا إلى المراعى المفتوحة وراء النيل (قارن الشكل رقم ٨١).



الشكل رقم ٨١  
الهجرات العربية الرئيسية في القرون الوسطى

من القرن التاسع إلى الرابع عشر إنحصر إستيطان العرب ونفوذهم في المنطقة الكائنة شرق النيل؛ أى بالضرورة بلاد البجا. واصلت الممالك المسيحية قيامها كحاجز في مواجهة هجرة البدو المتجهة غرباً. وتكاثر الضغط عليها في ثبات مع هجرات العرب المستمرة، ثم أصبح قاسياً بعد أن بدأ المماليك سياسة مضايقتهم للبدو في مصر. وانداح جزء من الحاجز المسيحي عندما اخترق النوبيون الشماليون ودمسجوا مع بني كنز، على أن طريق النيل بقي غير صالح للهجرة على نطاق واسع، ولم يعقب إستعراب الكنزي تدفق غزير. أقفلت الطريق إلى الغرب من محافظة بُنْغَلَا، ليس النوبة السُفلى، وعندما تقطعت الأسباب بالمملكة النوبية العليا في القرن الرابع عشر المتقدم فترة، إنفجرت أبواب الفيضان مفتوحة على مصراعها.

يعزو التاريخ الإطاحة بـدُنْغَلَا إلى تركيبة من المماليك، وبني كنز، وبني عكرمة (قسم صغير من عرب قبيلة قيس عيلان التي كانت قد انتقلت إلى مصر العليا وتظاهرت دائماً مع بني كنز وبني جعد (وهم بدورهم فرع من بني عكرمة، إستوطن أرض الهامش الحضري والثقافي لـدُنْغَلَا) <sup>(٢١)</sup>). سيكون مذكوراً أنه عقب هجوم غادر على بني جعد انسحب آخر حاكم نوبي من دُنْغَلَا، تاركاً المدينة والمقاطعة المحيطة بها في أيدي الأعراب. على أن المنتفعين الحقيقيين من الإطاحة سوف يبين أنهم كانوا جُهينة. فطبقاً لابن خلدون كانوا هم الذين اكتسحوا المملكة إلى أقصى مشارفها، وتقسّموها بالتالي عموديات متحاربة <sup>(٢٢)</sup>. كذلك كانوا هم أساساً الذين تحركوا، في أعداد متزايدة أبدأ، نحو الغرب بقطع أرض دنقلا النهرية الخاضعة حديثاً إلى جوف مراعى كردفان ودارفور التي ما استعملت إلا قليلاً. نتج عن هذا، أن كل بدو البقر والإبل تقريباً في السودان الحديث يدعون سلفاً جُهينياً. وفي الجانب الآخر إختفى بنو كنز، وبنو عكرمة، وبنو جعد من التاريخ.

متباطئة، بعد أن استعمر غرب السودان، بدأت موجة نهائية من هجرة البدو مباشرة من مصر إلى كردفان ودارفور، في أعقاب القوافل في غرب النيل الذي كان سيصبح مشهوراً بدرب الأربعين "طريق الأربعين يوماً". بعض المهاجرين على طول هذا الطريق كانوا من البربر المصريين (الهوارة)؛ وآخرون أعضاء من قبائل فزارة التي ربما منكت فرعاً مبكراً من قيس عيلان. هذه الهجرة الغربية المتأخرة كان لها أثر هام يلاحظ وإن لم يكن مباشراً على موقف النوبيين، إذ أنها افتتحت إقليماً غنياً في جذوة لصيد الناس رقاً. محصلة لذلك فإن الحملات البشرية التي اجتازت ذات مرة شمالاً عبر الممالك النوبية، جالبة الرخاء لحكامها مباشرة أو غير مباشرة، إرتحلت الآن بدلاً منها على الطريق الصحراوي وهو ما سيطلق عليه الأوروبيون "درب الأربعين الشهير" <sup>(٢٣)</sup>.

بالرغم من أن البدو استمروا في دخول السودان بلا نظام حتى القرن التاسع عشر <sup>(٢٤)</sup>، كانت الموجة الرئيسة لهجرة العرب فيما هو محتمل منقضية بحلول القرن السادس عشر الميلادي <sup>(٢٥)</sup>. لقد أتتبت بفقره تُمَثِّل نكاد لا نعلم عنها، لسوء الحظ، شيئاً. وفي هذا الموضوع إما أن التواريخ القبلية صامتة أو مُضَلَّعة عمدًا، متجاهلة المساهمة الأهلية لثقافات السودان الحالي اليوم أو، فيما عدا ذلك: صارفة لها كنتاج بالمصادفة التي لا دلالة لها لتزواج العرب مع عدد صغير من نسوة الوطنيين <sup>(٢٦)</sup>. يضاف إلى هذا، أنه ما من مراقب خارجي ترك لنا تدويناً متسلسلاً للأحداث في النوبة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. والحاصل، أن القليل الذي نعلمه عن الفترة الحرجة للإستعراب لا يد أنها بلغت بدرجة عالية عن طريق الإستدلال المنطقي بناءً على الأحداث العامة. في الصفحات القادمة سوف نقدر ثلاثة وجوه لعملية التمثيل: أولاً، التداخل الإجتماعي والثقافي للأعراب والأهالي الأصليين؛ ثانياً، "الإستعراب الروحي" للنوبيين، وهو أمر لا يعود للتغيير الثقافي لكنه رؤية لذات أعيد تعريفها؛ ثم ثالثاً إنتشار الإسلام، الإيمان الذي أصبح القاسم العام الأصيل لكل اقوام السودان شمال المدارين.



## إستعراب النوبيين

كما إبان ترمينغهام، إن التمثل الثقافي والعرقى الذى أخذ مكاناً بعد هجرات العرب كان عملية ذات طريقتين، تشمل في جانب إستعراب السوداني الأصلي وفي الجانب الآخر "تأصيل المهاجرين" (٣٧). كانت الغالبية العظمى من القادمين الجدد بدءاً، يُقَرَّبُ الأثر الثقافي الذى قاموا ببنه بين الأقوام السودانية من وأحر منتظم. من ناحية أخرى عرض السكان الأصليون الذين تم اكتسابهم تشكيلةً من الثقافات واللغات متفاوتة الأثر على الفاتحين بقدر متماثل. إضافة إلى ذلك كانت هناك اختلافات بيئية صغيرة فيما بين موطن العرب الجديد سرعان ما أوجبت عليهم أن يتكيفوا مع عدد من الأحوال المحلية. وقد نتجت من خلال عملية التمثل بالتالى صورةً مشكلة جديدة من الأقوام والثقافات لا تزال باقية على حالها إلى اليوم الراهن. إن قاسمها المشترك الأعظم هو العقيدة الإسلامية وحدها: حيثما نفذ العرب، إنتصر دينهم على كل المنافسين. كذلك أصبحت اللغة العربية شائعة الإنتشار في تضاعف، مع أن أناساً مثل النوبيين الشماليين والجا لم يخرجوا عليها فحسب لكنهم إستوعبوا عدداً من المهاجرين الناطقين بالعربية سابقاً في مجموعات لهجاتهم الخاصة.

رغمًا عن أن السكان الحديثين في السودان المستعربة (٣٨) يعدون أنفسهم أعضاء لما يتعدى مائة قبيلة فردية (٣٩). يمكن التعرف على خمس تقسيمات ثقافية و/أو لغوية كبرى بينهم. ساحل البحر الأحمر والمرتفعات تستمر مشغولةً بقبائل بجا غير متمثلة أو متمثلة بشكل غير مكتمل، ما انفك معظمها يتحدث لهجات حامية موروثة من السلف. كانوا منتظمين وما زالوا، فرقاً صغيرة مبعثرة، بدلاً من إتحدات قبلية عظيمة مثل بدو العرب (٤٠). على طول النيل من أسوان إلى الدبة (على أسفل المنحنى العظيم فوق دنقلا) يظل النوبيون غير المتمثلين، حولوا للإسلام لكنهم يحتفظون بلغتهم الإفريقية والمزاج الزراعى للحياة الذى اتبعوه منذ أيام الفراعنة. وعلى اتجاه مصب النهر من حيثما وُجد النوبيون الحقيقيون إلى مسافة تصل ملتقى النيلين الأزرق والأبيض ما يدعى بقبائل الجعليين. إنهم مع إدعائهم شجرة نسب عربية خالصة (٤١) في الحقيقة نوبيين مستعربة أغلب تكوينهم مع مزيج صغير فحسب من الدم العربى الأصيل (٤٢). معظم قبائل الجعليين كذلك تواصل حياة الفلاحة النهرية لأزمان ما قبل الإسلام، بالرغم من أن قلة تبنت وجوداً شبه بدوى في هامش أرض النيل وفى جنوب كردفان.

شرقاً، غرباً، وإلى الجنوب من الجعليين قبائل لا حصر لها من بدو الإبل يتبعون حياة رعوية شبيهة ببلاد العرب، وهم بين جميع السودانيين من يملكون أعظم إبداعاً شرعى لأن يكونوا عرباً حقيقيين. فمثل بداوة شبه الجزيرة العربية يتجولون فوق مقاطعات شاسعة في هجرات جماعية، عظيمة (٤٣). ويدعى كل بدو الجمال بالتقريب جُهينة أسلافاً لهم. أخيراً، في أراضى العشب الجنوبية لكردفان ودارفور، غرب النيل، تطورت جماعة خاصة من البدو. قبائل البقارة - تعيش على البقر بدلاً من الإبل، والأغنام والضأن. أغلب البقارة أيضاً يدعون تسلسلاً من نسب جُهينة، على أن هذه القبائل إستوعبت كذلك أقواماً أصليين بأعداد كبيرة، مثلما أن طابع رعيهم الخاص إفريقى أشد منه عربياً (٤٤).

الجماعات الخمس المذكورة أنفاً تشغل كل الصحراء وأراضى السهل في السودان الحديث، فيما عدا بعض الجيوب القبلية في الغرب البعيد. الغالبية العظمى من السودانيين اليوم تنتمى للجماعات الثالثة، والرابعة، والخامسة، أى للجعليين والبدو متحدثى العربية. إنهم شائعوا الإنتشار لدرجة أن أسماء الجعليين وجُهينة صارت بوجه خاص مصطلحات نوعية عملياً للمزارعين النهرين والبدويين بالترتيب، وفقدت أى دلالة ذات قيمة قبلية محددة (٤٥). إلى الجنوب من الجماعات الخمس تبقى قبائل الغابة والسافانا زنجية خالصة، وثنية (٤٦) سابقاً والآن مسيحية في الغالب، غير متأثرة

(\*) يُرجى الرجوع إلى الهوامش السابقة حول مفهوم اللوثية - المترجم.

بمستوى بالغ بالغنفوذ العربي. هؤلاء الناس ما جُنبوا إلى ثأيا صلة فعلية مع الشمال المستعرب حتى مجئ التوسع المتجه جنوباً غارات لطلب الرقيق في القرن التاسع عشر، وماهم بجزء من قصتنا، مع ذلك، ظل تمثلهم هدفاً رئيساً وإشكالاً دائماً للحكومات السودانية الحديثة (قارن الفصل التاسع عشر).

ولأن هذا الكتاب في وضعه السليم تاريخ للنوبة أبرز منه تاريخاً للسودان<sup>(٤٦)</sup>، سوف يقتصر عناؤنا في الصفحات التالية على استعراب النوبيين والجعليين، النوبيين السابقين. بل إنه بالنسبة لهؤلاء الناس لا نستطيع أن نصف عملية التمثل بأي تفصيل، ذلك أن سردنا التاريخي الوحيد عنها هو سرد ابن خلدون: "أفخاذ عديدة لقبيلة العرب جُهيئة إنتشرت في أنحاء بلادهم واستوطنت هناك. إن ملوك النوبة حاولوا، في البداية، طردهم بالقوة. أخفقوا، فغلبوا وسألهم وحاولوا كسبهم إلى جانبهم بمنحهم بناتهم أزواجاً. هكذا تحللت مملكتهم، لأنها صارت لأبناء جُهيئة من أمهاتهم النوبيات في إتساق مع ممارسة الوراثة غير العربية بالأخت وأبنائها"<sup>(٤٧)</sup>. ونحو ما ذكرنا مُسبقاً (الفصل السادس عشر)، لا يمكن أخذ هذه المقالة المنقولة دائماً تفسيراً لسقوط الممالك النوبية المسيحية. من الجانب الآخر يحتمل أنها تعطي نظرة صحيحة إلى باطن عملية التعريب اللاحقة، موحية بأنها كانت بادئ ذي بدء عملية إجتماعية وليست أيولوجية إلا بدرجة ثانوية فحسب.

في غياب معلومات تاريخية تفصيلية يمكننا فقط أن نحكم على عملية التعريب بحساب ناتجها النهائي: أي، أن باستطاعتنا أن نرصد الدرجات المتفاوتة للإستعراب وسط النوبيين الحاليين اليوم والنوبيين السابقين، ونحاول أن نلها بالنظر إلى اختلافات في البيئة والتجربة التاريخية.

النوبيون الكنوز في الضاحية المباشرة لأسوان هم بلا ريب أول من يصيب بأثر الهجرات العربية، حيث أنهم كانوا إضافة إلى ذلك أول نوبيين تحولوا بتأكيد للإسلام. قصة إختراقهم بالداخل ودمجهم النهائي مع قبيلة بني كنز العربية - البجاوية أخبر به مسبقاً (الفصل السادس عشر). بالرغم من الدور التاريخي الكبير الذي لعبه بنو كنز، لابد أن العنصر العربي كان في وسطهم صغيراً نسبياً، إذ أنه ابتلع نهاية المطاف في حوق السكان الأصليين. يبدو، أيضاً، أن صلة نشطة وتمازجاً إنحصرت بين النوبيين الشماليين والأعراب في الفترة الأولى من الهجرات العربية، بين القرنين التاسع والرابع عشر. متى أفتتحت بلاد البجا، تبع معظم البدو مراعى جبال البحر الأحمر في تفضيل على وادي النيل غير المنتج بأعلى أسوان. معزولين بهذه الصورة من حركات العرب الأخيرة، عاد الكنازيون بشكل متزايد قبيلة نوبية خالصة. ويجب أن يذكر، مع ذلك، أنه في العهد الحديث إستوطنت كماعات خارجية معينة - عرب العقيلات والعبادة المتحدثين بالعربية - وسط الكنوز دون أن يتمثلهم<sup>(٤٨)</sup>.

الكنوز، الذين تختلف لهجتهم عن لهجة النوبيين المحس من إلى جنوبيهم يحتفظون بحس قوى صفاتهم القبلية. يدعى معظمهم سلالة ربيعة الموروثة لبني كنز<sup>(٤٩)</sup>، التي تملك قاعدة شرعية مع أنها مضخمة في الحقيقة التاريخية. أياً كان ذلك، يظهر أن بعض الكنازيين تبناو إدعاء التسلسل في النسب إلى العباس، عم النبي، وهو نسب شائع لكل قبائل الجعليين (انظر أدناه)<sup>(٥٠)</sup>.

من بين كل النوبيين ظل متحدوا المحسية، الذين يمتد أقليمهم من المحرق في الشمال إلى ما يقرب من كربة في الجنوب، الأقل تأثراً من الناحية المباشرة بالهجرات العربية. ما كان بلدهم الجافي مُتجنباً بمفرده من كل حركات السكان الرئيسة في العصور الوسطى وحدها، إنما من خلال وقائع الجغرافيا، يُفضل موطنهم من المراعى المأهولة بشريط صحراوي عريض أكثر مما عليه أي جزء آخر بوادي النيل (الشكل رقم ٩) كما يقول حسن "... لم يُجذب أغلب المهاجرين الصحاري النوبية ولا بالشريط الضيق للاراضى المزروعة على طول النيل. طرّقوا ارتباطاً بعيداً. إن عدد الذين امتزجوا بالنوبيين شمال نقلاً لا يكن من الكبر بما يكفي لتحويل السكان إلى سكان يتحدثون العربية. أما الذين استوطنوا فكان عليهم أن يعلموا تقنيات الزراعة وأن يكتسبوا لغة الفلاحين المستقرين، التي

كانت ... نوبية، وفي وقت سريع فقدوا هويتهم<sup>(٥١)</sup>. لقد أمعنا النظر من قبل في منطقة المحس النوبية عاشت فيها الممارسة المنظمة للمسيحية حياة أطول عمراً (الفصل السادس عشر)، وإنه وسط محس بطن الصّجر توجد أوضاع متبقّيات مسيحية<sup>(٥٢)</sup>. في العصر ما بعد المسيحي، علاوة على ذلك، ما حكم النوبيون من العرب، إنما حكمهم الأتراك المعينون من النظام العثماني في القاهرة.

ليس للنوبيين المحس حس متطور ذو مضاء بالقبيلة. إنهم يتحدثون عن أنفسهم بشكل إتفاقي يُجمل إلتئامهم في ثلاث مجموعات: المحس الأصليين، والسكوت والغديجا، لكن هذه في الحقيقة كلمات جغرافية تشير إلى أجزاء مختلفة من وادي النيل. لقد كان هناك توثيق قليل تاريخياً لزيجات العرب المتداخلة حتى أن محساً كثيرين يُدعون إلتزامهم بسلالة مسلمة من الأتراك - أربابهم المستعمرين السابقين، من دون الأعراب<sup>(٥٣)</sup>. خلافاً لذلك، تدعى الجماعة ككل تحديراً إما من جُهيّنة أو من الخارج، وفقاً لتسبين يبدو كلاهما نائياً<sup>(٥٤)</sup>.

في لُغْنٍ مُخَبِّرٍ برغم حقيقته، فإن المحس في بعض الجوانب أفضل إسلاماً، مع أنهم أقل النوبيين إستعراباً. من فترة باكرة - ربما بسبب بعض تقليد مطول نُقل من أزمان مسيحية - وضعوا قيمة عالية للتعليم، وفي الفترة الحديثة الأولى أخرجوا عدداً غير عادي من جماعة الفكي<sup>(٥٥)</sup>، أو المتفقهين في الدين. طبقاً لماكمايكل "في بعض تاريخ مبكر، ربما حوالي زمن تأسيس مملكة الفونج، ترك بعض المحس وطلهم في إدعاءات مفترضة لعصبة نبيلة وقدرأ معيناً من التعليم ونصبوا أنفسهم رجال صلاح بين خليط حابل ونابل وعلى أشد الجاهالة من الأعراب، والفونج، والنوبة في الجنوب. بذاً نهضت مستوطنات المحس في الأراضي النهرية السفلى للنيل الأزرق وحول الخرطوم ..."<sup>(٥٦)</sup>. بعض هذه القرى لا تزال تستمد دخلاً وثيراً مما يدعوه تريمينفهام "متاجرة الفكي"<sup>(٥٧)</sup>. هؤلاء النوبيون المهاجرة أصبحوا مستعربين حتى النخاع، فقدوا حديثهم الأصلي، والآن يعدون أنفسهم أعضاء فيما يقارب إثنتي عشرة "قبيلة"<sup>(٥٨)</sup>. مع ذلك فإنهم يحتفظون بأثار معينة من أصلهم الشمالي، مثل ممارسة تغطية القبور بحصا أبيض (الممارسة النوبية الخالدة لثقافات كرمة وبلانة) وترك فداد من الماء بجانب القبور<sup>(٥٩)</sup>.

الدانقاة (حرفياً أهل دنقلا)، إمتداداً بلا تدقيق من الشلال الثالث إلى الدبة، هم الأقصى جنوباً من الجماعات النوبية الباقية على قيد الحياة. يظهرون نفوذاً عربياً أقوى بمراحل من جبرتهم الشمالية ولذلك السبب صنّفهم ماكمايكل<sup>(٥٩)</sup> وهولت<sup>(٦٠)</sup> وسط قبائل الجعليين بدلاً عن تصنيفهم برابرة (المصطلح الجماعي الحديث الذي يستخدم اليوم للمتحدثين بالنوبية) بالرغم من أنهم يحتفظون بلهجتهم الأهلية

لقد رأينا أن الإطاحة بمملكة دُنقلا في القرون الوسطى تم إنجازها بتجمع من القبائل العربية وبنى كنز العرب - النوبيين. منذ ذلك الوقت يعيش الدانقاة في إحتكاك وثيق ومتواصل مع العرب. لزمن طويل كانوا خاضعين سياسياً لنخبة عربية طاغية، بالرغم من أنه بعضى الوقت تزواج زعماء العرب مع الأهالي، وفي المقاطعات الشمالية عادوا إلى استعمال اللغة النوبية. إضافة إلى حضور أرباب عرب، كانت أرض دُنقلا النهرية ملاصقة من الجنوب والغرب لمراع هامشية محتلة منذ انهمار العرب من الكبابيش والهواوير، الأوائلة من فرع جُهيّنة<sup>(٦١)</sup> والأخيرين قبيلة بربر مستعربة<sup>(٦٢)</sup>. نتيجة لذلك كان هناك، على الأقل موسمياً، سكان بداية على اعتبار في منطقة دنقلا، مثلما كان الحال عليه في كل المقاطعات النوبية بالجنوب البعيد. أخذ بعض الدانقاة أنفسهم لحياة بدوية أو على غرار

(٥١) نُقَدِّمنا بجمع كلمة "الفكي" التي إستخدمها المؤلف، مبشرين لها "جماعة الفكي" مرادفاً بشكل عام لكلمة "الفيقي" و "جماعة الفيقي": و "الفكي" مصطلح شائع في العربية العامية السودانية بمضامينه الإجتماعية والدينية التي تدل على مكانة "الفيقي" أي الشخص الذي تلقى في علوم الدين بالدراسة في معاهد دينية؛ وكثيراً ما يُتميَّز بينه وبين "الفكي" الذي يتلقى إلمامه بالدين من شيخٍ سوفي يقيّنه أكثر من معهد ديني معروف. - المترجم.

البدواة، وانتقل بعضهم إلى الجنوب الغربي داخل كردفان، حيث صاروا اليوم، رعاة ومزارعين على حد سواء<sup>(٧٣)</sup>. في وقت الصق قريباً تسربت أعداد وفيرة من أفراد الدناقلة إلى داخل غرب السودان سعياً وراء التبادل السلعي وتجارة الرق<sup>(٧٤)</sup>.

الدناقلة كجماعة ليس لهم حس بالتضامن العرقي، لكنهم بدلاً من ذلك يعدون أنفسهم أعضاء لعدد من قبائل "عربية" مختلفة كل واحدة منها حتى القرن العشرين لها ملك خاص أو ملك صغير<sup>(٧٥)</sup>. على نهج الإفتراض، كان هؤلاء أحفاداً للنخبة العربية الطاغية التي أنشئت بأصالة في الأيام اللاحقة بالمملكة المسيحية. لقد كان ملك قبيلة البديرية هو الذي في القرنين السابع عشر والثامن عشر أقام بدنفلا العجوز كأخو وريث للملك المسيحيين (قارن الفصل الثامن عشر)، بالرغم من أنه في الحقيقة كان مأموراً لحكام أشد قوة في الجنوب<sup>(٧٦)</sup>. قبائل دنائلة أخرى إلى جانب البديرية هي الطريفية، والحكيما، والجوابرة<sup>(٧٧)</sup>. والأخيريون، في الأصل فرع من بني عكرمة<sup>(٧٨)</sup>، يقال إنهم جرى نفيهم من مرتع سابق في النوبة السفلى من ناحية الأتراك، بالتالي، أضحوا أفضل القبائل رخاءاً في منطقة دنقلاً<sup>(٧٩)</sup>. كل قبائل الدناقلة، مثل أبناء عمومتهم الجعليين المستعرة، يدعون تحدرًا من العباس، عم النبي<sup>(٨٠)</sup>.

ما من شرح مرضٍ قدم بعد للتوزيع الخارج عن المؤلف للجهات النوبية الحديثة: أي، العلاقة القريبة للكنزى والدنقلاوى ومسافتهم القصيرة عن اللغة المحسية الداخلة بينهما (قارن الفصل الثاني). إن الاختلافات النزيرة نسبياً بين الكنزى والدنقلاوى يعتقد أنها ترجع لما لا يزيد عن ٥٠٠ عام<sup>(٨١)</sup>، في حين أن مفارقة هذين الإثنين للمسيحية (التي هي أقرب كثيراً للنوبة القديمة في العصور الوسطى) يعود تاريخها بمنهج التسلسل الزمني - اللغوي إلى الجزء الباكر من الفترة المسيحية<sup>(٨٢)</sup> ناتجاً لكل هذا، تبدو بعض حركة الناس حول إقليم المحس ضرورية لتعلل حضور لهجات قريبة الصلة إلى شماله وجنوبه. أما أخذ تدوين مثل هذه الهجرات من بني كنز، وبني جعد، والجوابرة، فيغرى بالقول لأن يقترح أن واحداً أو آخر من هذه الجماعات العربية المنشوبة نقلت غرس اللغة الشمالية إلى داخل أرض دنقلا النهرية. مع هذا، يعتقد ميليه أن "فترة تدخل الكنز في الشؤون الداخلية لدنقلا في القرن الرابع عشر حسنة الإثبات تاريخياً ويبدو أنها كانت مختصرة للغاية دون أن يكون لها تأثير بشكل دائم على لغة تلك المنطقة"<sup>(٨٣)</sup>. علاوة على ذلك، تشير بينة ابن سليم بصفاة إلى أنه كان هناك فرق في اللهجة بين سكان ماريس (النوبة السفلى ويطن الحجر) ولهجات المقرّة (النوبة العليا) في وقت مبكر يعود إلى القرن العاشر<sup>(٨٤)</sup>. في نفس الوقت لا تثير النصوص النوبية القديمة الحية ما إن كان يوجد فرقاً في اللهجة مقارناً بين مقاطعات النوبة السفلى المعروفة اليوم التي تتحدث بالكنزية وتلك المتحدثة بالمحسية. ويوضع هذه الظروف في الاعتبار ربما علينا أن نقرر إمكانية أن أوجه الشبه بين الكنزى والدنقلاوى لا ترجع إلى هجرة المتحدثين بالكنزية صوب الجنوب إنما إلى نقل لهجة دنقلا غرساً صوب الشمال لفرس في نهاية العصور الوسطى. ودون محاولة لحل المسألة نهائياً، من المحتمل أنه من المأمون على الأقل إفتراض أن الحركات السكانية المتعددة بين النوبة الشمالية وأرض دنقلا النهرية المشهود بها في الفترات المسيحية الأولى وفترات ما بعد المسيحية لها شأن بتأسيس و/أو صون علاقة لغوية قريبة بين المنطقتين<sup>(٨٥)</sup>.

بإتجاه منبع النهر من الدبة لا يوجد متحدثون بالنوبة على قيد الحياة على طول النيل، بالرغم من أن معظم القبائل النهرية إلى بعد كالخرطوم جنوباً - ما يسمى بقبائل الجعليين - معروفة بأنها مكونة بصورة أساسية من نوبيين مستعرة. هذه الأقوام استسلمت تماماً للعاطفة العربية نحو اللامركزية السياسية، وهي الآن تستجيب لما يتخطى أربعين اسماً قليلاً على اختلاف<sup>(٨٦)</sup>. في تتبع لإتجاه منبع النهر من الدناقلة النوبيين الحقيقيين، أهم قبائل الجعليين هي الشايقية، والرباطاب، والمناصير، والميرافاب، والجعليون الأصليون<sup>(٨٧)</sup>. كل هذه الجماعات تتقاسم شجرة نسب عامة، تقص تسلسلها

من العباس عن طريق إبراهيم جَعَل، جدهم المسمى بعينه (٧٨). وفقاً لحسن تَخرج إستنتاجان نوا أهمية وقيمة من تحليل عصبية الجعلى: الأول هو المحاولة المقصودة لتجاهل الشريحة الفرعية النوبية التي طغى عليها المهاجرون العرب. والثاني ميل علماء الأنساب لعمل قياس موحد للعلاقات الداخلية بين هؤلاء النوبيين المستعربة وأن يصلوها بأنجمها لأصول جماعات الجعلى - العباسى. والحقيقة أن غالبية المهاجرين ما كانوا عباسيين لكنهم أعراب من تركيب مختلط<sup>(٧٩)</sup>.

إن استعراب الجعليين ربما كان راجعاً بأوسع معنى إلى خضوعهم لأرباب عربياً وإلى انصالاتهم للصليبة بعض الشيء بأقوام بدوية متنوعة: علي أنه يجب ألا يفترض أن عملية التمثل أخذت مكاناً في كل ناحية بنفس الوتيرة أو تحت نفس الظروف. أرض أبو حمد يجوز أنها اختُزقت واستُعربت جزئياً حتى من قبل سقوط الممالك المسيحية ذلك لأن هذه المنطقة الصحيرية ما كانت مأهولة بدرجة رقيقة فحسب بالسكان. لكنها تقع بالقرب من طريق الهجرة عبر تلال البحر الأحمر أكثر من أي جزء بعيد من النيل باتجاه مصب النهر (الشكل رقم ٨١). أضف إلى ذلك، إن مناجم الذهب التي كانت مسرحاً لنشاط عربي جَم في القرنين التاسع والعاشر لا تقع إلا على مسافة قصيرة منها (٨٠).

صوب منبع النهر شمالاً من أبو حمد، كان استعراب المنطقة حول الشلال الرابع متأثراً بقسرس لعله ما كان بلا دراية من محاربى الشايقية الضواري، نخبة عربية طاغية سيعاد سرد انشطتها بتفصيل أوفى في الفصل القادم. إن جباياتهم الغليظة على كاهل المزارعين النهرين أجبرت عديداً من النوبيين على الهجرة شمالاً لدُفلاً، في حين كانت البقية التي لا زالت حية من الضعف بحيث لا تملك أن تنشئ هوية منفصلة ثقافياً أو لغوياً<sup>(٨١)</sup>. أما نوبيوا مقاطعة بربر، فوق الشلال الخامس، فكانوا خاضعين لعرب العبدلاب أرباب القتال بالمثل<sup>(٨٢)</sup>، لكنهم أنفسهم كانوا بمستوى أعظم أكثر عدداً ورخاء من نوبيي أرض أبو حمد النهرية. بقيت في وسطهم جيوب من الحديث النوبي إلى وقت متقدم كالقرن السابع عشر.

يبدو محتملاً أن السكان النوبيين لمملكة علوة - الذين ربما كانوا دائماً صفوة حاكمة صغيرة - قتلوا أو تم نفيهم انفاً لدى بعيد بأمر الفاتحين الفونج أو "العبدلاب"، كما هو متضمن في سجل /حدث/ الفونج (الفصل السادس عشر). وعلى كل حال كان جبل حَجَر العسل الذي يقع شمال قُري في زمن مملكة الفونج، محسوباً من الناحية التقليدية باعتباره التخوم الجنوبية للنوبة<sup>(٨٣)</sup>. مع ذلك، هنالك عدد من قبائل جعلية غير هامة في شمال الجزيرة ربما كان لها أصل نوبي جزئي<sup>(٨٤)</sup>.

## الأثر النسبي

إلى أي مدى متقن تحولت نظرة النوبيين بمجئ الأعراب يجوز أن يحكم عليه من سرد تاريخهم الذي أعطوه للمكتشف السويسري بورخارت في ١٨١٣: "طبقاً لتقاليدهم الخاصة يستمد النوبيون الحاليون أصلهم من العرب البدو، الذين غزو البلاد بعد إشهار الشريعة المحمدية، القسم الأعظم من السكان المسيحيين ... فروا أمامهم أو قتلوا؛ قلة ... إعتنقت دين الغزاة"<sup>(٨٥)</sup>. هذا الإرث الشعبي شائع الإنتشار، الذي يبقى سائراً حتى اليوم الحاضر، رمز للإستسلام النوبي للعرب الغزاة. ما أصبحوا مسلمين وحسب، لكنهم في رأيهم الخاص، عرب إلى جانب ذلك. ذهب كل ذكرى الأمجاد الشريعة للماضى النوبي؛ إن وَرَثَة بعضى وملوك القرون الوسطى بدلاً من ذلك يستمدون سلالتهم السالفة من قبائل أدنى حضارة بلغوهم عبوراً من وراء البحر الأحمر<sup>(٨٦)</sup>. في إنتقالهم من عالم المسيحية إلى عالم الإسلام ما احتضنوا مصيراً جديداً فحسب إنما تاريخاً جديداً. بل إن الأشد أخذاً بالمجامع إقلاهم على أعقابهم، بعد قرون من النظام الملكي والإمبراطورى، إلى نسق قبلى من

التنظيم الذي يثوب كل الطريق رجوعاً إلى أيام ما قبل فرعونية.

إن التاريخ الشعبي للنوبيين الحديثين إذا اعتُبر بحرفيته بطلاً مبين، فاللغة، والثقافة، والخصائص الطبيعية كلها تقرنهم بما لا جدال فيه بمسيحيي القرون الوسطى، الذين حقيقةً ما طُرد معظمهم ولا قُتلوا من العرب الغزاة. بالقرن نفسه، ما في الجعليين المستعربة إلا مزيج قليل من الدم العربي الأصيل<sup>(٨٧)</sup> والنوبيون المحس الذين شكلوا مصادر بورخارت الرئيسية ليس لهم أثر محسوس إلا بصعوبة. غير أن إدعاء النوبيين بالسلالة العربية أيأ كان ليس زعماً ومجرد هوى ببساطة، ذلك أنه، إذا ما اعتبر سليماً، نسب اجتماعي أقوى منه وصلاً بيولوجياً إنه ميثاق عضوية النوبيين في المجتمع الإسلامي<sup>(٨٨)</sup>. ولكيما تُؤمن أهميته، يجب إعتبار ملامح خاصة للنظام الاجتماعي الإسلامي.

كل من مسيحية القرون الوسطى وإسلام القرون الوسطى كان مشبعاً بحس مجتمعي، كل منهما كان نسفاً اجتماعياً وسياسياً واحداً دينياً. كان التماسك الاجتماعي يسان للمسيحيين من خلال مؤسسة كنسية عالية التنظيم. إشتمل التحول إلى المسيحية ما يعلو على التقسيم بملخص شخصي؛ وفوق كل شيء آخر فقد عني تقبل سلطة الكنيسة ونظامها<sup>(٨٩)</sup>. هكذا كان محتوماً أنه عندما لا يعد الحفاظ على كنيسة منظمة مقدوراً في النوبة، فعلى الإيمان المسيحي أن يزوى معها. وفي الفراغ الروحي الذي أعقب هذا، كان محتوماً أيضاً أن النوبيين كان لزاماً عليهم أن يتجهوا لإيمان الإسلام المنافس. ما كانت آنذاك مكتسحة بأمر شديد السهول شبه الصحراوية وحسب، لكن حضارة الإسلام - بوجه متفرد علي نحو ما مثلها البدو الرحل الذين كانوا أتباعها الزعيمين - كانت ملائمة بشكل مثالي للأحوال المنشطرة والمفكرة ثقافياً في العصر الإقطاعي.

مع أن الإسلام "ما كان قابلاً دينياً سلطوياً يمثله أنه نظام اجتماعي"<sup>(٩٠)</sup> وقد ظل كذلك، فهو لا يملك كنيسة منظمة ويفتقد دولة فاعلة معاً، يجوز للمتعم الذي يؤمن بأصالة، أن يتاح حساً بالمجتمع يقرب من الكفاية عن طريق تقليد ديني معين وعضوية في هيئة منتظمة من العابدين. أما بالنسبة للبدو الأمي وجمهرة الفلاحين الذين شكلوا دائماً كتلة المجتمع الإسلامي، بشكل أو آخر، فقد كان التماسك الاجتماعي يحفظ منذ البداية من خلال مبدأ تنظيمي أقدم بآناً: مبدأ القرابة. إن نسيجاً معقداً من الأنساب الأصلية منها والمختل، تقرن كل مسلم من السنغال إلى جافا وتجعلهم كلهم أحفاداً للنبي وصحبه الأوائل<sup>(٩١)</sup>. المجتمع الإسلامي لذلك، في عبارات أنثروبولوجية نظام عشائري قطاعي في سعة. هذه القاعدة المنظمة، التي لم يُسكّم بها إبدأ في الفكر السياسي الأثوذكسي<sup>(٩٢)</sup>، وبصرف النظر عن ذلك، واحدة من الموروثات الجائلة في بلاد العرب ما قبل الإسلام والمتواصلة إلى حضارة الإسلام<sup>(٩٣)</sup>.

نظام العشيرة القطاعية للعرب هو أول ابن عم لنظام اليهود، كما أُرسي في سفر التكوين<sup>(٩٤)</sup>، يؤدي نفس الوظيفة، شبكة مبنية بعناية من القرابة توحد كل القبائل بشبه الجزيرة العربية، محددة بدقة درجة علاقتهم بعضهم بعضاً وبالتالي كيف يجب عليهم أن يسلكوا الواحد تجاه الآخر. هذا المبدأ الممنهج وصف بأنه "نظام بلا حكومة" أي، أن القرابة الكلية تأخذ مكان مؤسسات الحكم الرسمي<sup>(٩٥)</sup>. أينما أصبحت قبيلة من الضخامة بحيث لا يمكن أن تحكم بمثل هذه القاعدة غير الرسمية، تنفطر إلى كيونة قبائل أصغر تحتفظ بعلاقة قريبة من خلال إمتلاكها لشجرة نسب مشتركة. الأنساب القبلية لذلك

(٩٥) أي الفكر المحافظ في الغرب الذي يُضَمع معايير السياسية إنطلاقاً من تطورات المجتمع الصناعي والحضري في أوروبا والولايات المتحدة، فلا يرى بينها وبين نظم الدولة والمجتمع في الشرق وما يحكم من قواعد إجتماعية (مثل العصبية والأنساب العرقية والإجتماعية) أثراً مقارناً: إن إقرار الأستاذ ويليام آدمز بهذه النظم وإشارته القوية إلى المفكر ابن خلدون في أكثر من موقع في كتابه هذا تدل علي تقييره العميق للخصائص الثقافية ومميزاتها الإجتماعية والدينية المختلفة - المترجم.

(٩٦) في التوراة - المترجم.

هي الدساتير غير المعرفة (وغير المكتوبة دائماً) للعرب ونظائرهم من الأقوام المنظمة. عن هذه التقاليد لاحظ ماكمايكل بتمعن أنه "... رغم أن عديداً من المزاعم لعلماء النسب يجوز أن تكون غير جائزة الحدوث بوصفها بيانات لغوية للحقيقة، إلا أنها ذات فائدة معتبرة إذا تم إدراك معانيها بمعنى تصويري - إذا أخذت، بعبارة أخرى، على أنها روايات قصيرة ذات معنى" (٩٥).

في أزمان ما قبل الإسلام حُصر نظام العُصبة العربي في قبائل شبه الجزيرة العربية. ولما كان جمع غير منها قد انشطر انشطاراً من سبط سلالة عامة بحق، يحتمل أن أنسابهم كان لها معيار معين من الحقيقة الموضوعية التاريخية. بعد موجة الفتوحات الإسلامية، مع ذلك، ألحقت كل أنماط الشعوب غير العربية بالولاء للقبائل العربية المختلفة التي سادتهم بالقوة، وامتلكوا بمرور الزمن أنساب أربابهم. أضف إلى ذلك، أن العرب تزوجوا في حرية مع كل رعاياهم من السكان ولما كان السلف العربي الواحد كافياً لفرض النسب العربي، أضحي التمييز بين المسلمين العرب وغير العرب محتجباً كاصعب ما يكون. كان هذا صحيحاً على وجه التدقيق بعد أن بات استخدام اللغة العربية عاماً في كل أنحاء الإمبراطورية، بيد أنه على صعيد واحد لم يكن الإحتفاظ بلغة غير عربية رادعاً لإدعاء السلالة العربية، كما يمكن أن يرى في حالة النوبيين. القصة في مثل هذه المواقف دائماً واحدة: الأسلاف "الأصليون" كانوا عرباً، لكن الحديث والعادات الأخرى غير العربية إكتسبت خلال تزاوجهم مع نسوة وطنية (٩٦).

في ربوع دار الإسلام (العالم الإسلامي) حملت الهوية العربية منافع عملية وروحية. تحت الخلافة الأولى حكم العرب من فوق رعاياهم غير العرب بحجمهم الأكبر، نخبة عسكرية طاغية، معفاة من الضرائب وتتمتع بإحتكار لغنائم الحرب. وعلى صعيد واحد بعد أن تولى الفرس والأتراك وغانف الحكومة والحرب بقسط وافر، أيام الخلفاء العباسيين، ما فتئت السلالة العربية تلقى مكانة نبيلة بين شرائع المجتمع العالية في إسلام القرون الوسطى (٩٧). غير أنه ليس كافياً أن يقترح أن كل المسلمين يدعون نسباً عربياً من أجل هذه المنافع. إن البدو وجماعات الزراع، على أخص ذكر، يدعون كذلك تجدرأ عربياً لأنه بين المجتمع الإسلامي ليس هنالك نظام عشائري آخر معترف به سوى النظام العربي، والعضوية في مثل هذا النظام هي، بالنسبة لهم، القاعدة الضرورية للتفاعل الإجتماعي. عمق إحساس المسلم في هذا الموضوع عبر عنه بفصاحة في مقدمة لشجرة نسب عربية سودانية مما دونه السير هارولد ماكمايكل:

هذه شجرة نسب تعطى أصول العرب: إذ أن حفظ مثلها وحراستها شيء إلزامي بسبب تدوين علاقات الدم التي تحتويها. هدف حفظها ليس إحداث مقارنات تنبأها بالأنساب: ذلك أنه، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "... أنتم تعلمون من أنسابكم وصلكم". يقول بعض المتعلمين إن عمر ربما سمع ذلك من النبي ... لكن معرفة أنساب الأشخاص الذين لا قرابة بينك وبينهم مما لا طائل وراءه ... والحديث التالي للنبي ... عن واحد كان ضليعاً في الأنساب يحمل ذلك المعنى: "العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر".

لكن إذا كرس إنسان نفسه لدراسة مالا يهيمه فإن عمله غير ذي تقوى: يحدث هذا في أوقات الحب والمودة المتبادلة: عدأ أنه في هذه الأيام الحاضرة من الكراهية والفيرة المتبادلة فإن دراسة الأنساب إلزامية، حيث أنه في نهاية العمر سوف يسود إستعمال الكتي الجارحة، وسوف لن يعالج الإشكال إلا بطرائق الأنساب. إنَّ فإن حفظ الأنساب له نواحيه، فليس من الواجب تجاهلها، ومن يفعل ذلك منهم فهو مارق، بسبب خطر الإضطراب الذي أحدث وسط الناس، والقلقة التي أدخلت في أفئدة الأمم المختلفة. هكذا تكون دراسة الأنساب ضرورية لأن مراقبة علاقات الدم إلزامية بمقتضى سلطة النص القانوني والإجماع ...

الناس موثوق بهم فيما يخص أنسابهم؛ وإى إنسان مهما كان ما بلغه من أبيه أو سلفه من أمر يتعلق نسباً، يكون بحق أياً ما يبينه له ذلك النسب (٩٨).

كما تنبئ المقالة الواردة سلفاً، سعى محمد نفسه لأن يكبت ميذا العصبية وأن يخلق عوضاً عنها مجتمعاً من المؤمنين دوناً تمييز إجتماعي؛ ووفقاً لتعاليمه "ليس في الإسلام أنساب" (٩٩)

لكنه إلى جانب ذلك يحسب أنه قال "تعلم من نسبك ما يكفى لوصلك بأقاربك" (١٠٠). إنه المبدأ الأخير ذلك الذى أثار إستجابة متعاطفة للكتلة الأمية من أتباعه. وهكذا أنشئ النظام الإجتماعى الإسلامى ببئر اقل لشريعة النبي وبسط نظام العصبية العربية الذى سعى النبي أنفأ لتجميعها! وحيث أن صيرورة المرء مسلماً تعدد، للمجتمع ما عدا الصفوة المتعلمة، موضوعاً للإنتماء أقوى منها موضوعاً للإيمان، يأخذ النسب العربى قصب السبق حتى على انتهاج الإيمان (١٠١)، تماماً مثلما أخذت السبق عضوية الكنيسة في مسيحية القرون الوسطى فوق الإلتزام الشخصى. إنه من أجل مثل هذه العضوية الإسلامية تنكر النوبيون، للمرة الثانية في تاريخهم، لماضيهم الشرعى تحبيذاً للإنتماء مصطنع بقدر كبير.

حفظة الإرث النسبى في السودان هم جماعة الفكى - رجال يعلمون نظرياً في الفقه أو اللاهوت، لكنهم في الحقيقة دائماً يتاجرون بالنسب (١٠٢). إن عديداً من الأنساب القبلية السودانية الأقدم والأوسع إنتشاراً يقال إنها قد جُمعت أصلاً من السمرقندى، وهو فقيه مهاجر (إفتراسياً من اسيا الوسطى، كما ينبئ إسمه) حقق نفسه ببلاط الفونج بسنار في القرن السادس عشر (١٠٣). أخرج هنا بناء على طلب الأنساب النبيلة على الفونج وقيائل أخرى من الذين جرى تبديلهم وكانوا يشتبهونها بشغف ولهفة. ينسب للسمرقندى من المتشككة المحدثين فصل تقليد الأصل العباسى لقيائل الجعليين (١٠٤)، ربما إضافة إلى ذلك الإدعاء بمبالغة للفونج بانهم انحدروا من عصبه للنبي (١٠٥). وفي الأيام المتأخرة ادعى عدد كبير من جماعة الفكى أنهم توصلوا إلى مخطوط السمرقندى، أو إنهم يستحضرون أجزاء عريضة منه، بالرغم من إنه ما من نسخة معلومة لهذا العمل موجودة الآن (١٠٦).

حيازة مخزون وفير من معرفة الأنساب سواء كانت محفوظة بالذاكرة أم في شكل مخطوط مصان بغيره، ربما تُوظف وكأنها سلعة تتاجر بها عائلة من جماعة الفكى لأجيال عديدة (١٠٧). يملك قسم واسع للغاية من السكان السودانيين بالفعل أنساباً، أو أشطاراً من أنساب مكتوبة، أخرجت لهم من جماعات الفكى. هذه مستخرجات نظرية من أعمال أكبر منها في حوزة الفكى، على أن المحاولة لتتبعها قياساً بالوثائق الأصلية نذر أن تكون ناجحة (١٠٨).

بينما أن حيازة نسب عربى ضرورة للمشاركة الكاملة في المجتمع الإسلامى، فإن أهميتها إجتماعية أرجح من كونها سياسية بحتة. ما من إلتزام دائم بأى قبيلة بعينها أو بفرع منها متضمناً لحيازة نسب ما. إنها لغز محير للنظام القبلى العربى (ولمعظم النظم القبلية البدوية الأخرى) لدرجة أنه، بالرغم من أن ميذا التضامن المعروف وحده هو مبدأ علاقة الدم، "فالقبيلة" هي في الحقيقة سلم سلطوى لين العريكة لجماعات مترافقة طوعياً ذات قرابة متوهمة إلى مدى بعيد. "القيائل" بطون مكونة من "قيائل فرعية"، و "أفخاذ" "أقسام" و "أقسام فرعية" و "أقسام فرعية" "لفرقان" وهم جرا (بتفاوت في المصطلح وعدد مستويات التنظيم من جماعة لأخرى)، كلها تدعى سلفاً وأحد، لكنها بأجمعها معقودة معاً في الحقيقة بلا أى قوة سوى قيادتها التى تسحرها بجذبتها الأيدولوجى (١٠٩). ينتقل الأفراد والأسر بإستمرار جيئاً وذهاباً من قسم لآخر: أقساماً تنتقل من قبيلة لأخرى. لقد شُخص كنيسون في بلاغة هذه العملية من الحركة الدائبة وسط عرب البقارة الحديثين في غرب السودان.

عملية الإنتفصام، فالهجرة، وإعادة التوطن التى بعثت التوزيع الحالى لجماعات القارة نشطة كذلك بين قيائل بمفردها. إن أقساماً تنشق، تنتقل إلى جزء جديد من المنطقة القبلية، وتقيم أخوة مع أقسام تقرب منها عن بعد! ويعتبرون في الحال ذوى قرى لجبرتهم الجديدة. تنتقل العشائر في حالة سخطها من عمومية لأخرى؛ الصلوات تنتقل لتعلق بعمومية أخرى أو بعشيرة أخرى في نطاق عموميتها الخاصة. أخيراً يذهب الأفراد من مناسبة لأخرى يلتحقون بصُرات أخرى (١١٠).

يسير بلا مقال أن النظام القبلى العربى ظل، ولا يزال، غير مستقر لأقصى حد. لمدى مقدر فإن هذا ميكانيزم تكيفى وضرورى لأناس يعتمد بقاؤهم أحياء على أمطار غير مؤكدة. كلما جفت



المرامى المعتادة في جزء من البلاد وأزهر النوار في مراع جديدة أخرى، ذابت تجمعات قديمة وتكونت جديدة غيرها. وفي حين أن بعض القبائل تمكنت من الاحتفاظ باسم قبلي وحس بالهوية عبر مئات السنين في مثل هذه المتغيرات الطبيعية. الشاقة، لم تنش قبائل عديدة خلالها لما يتخطى بضعة أجيال. إن قسماً أو حتى جماعة صغرى، تحت رعاية قائد قوى المراس، يجوز في أى وقت أن تنش عن قبيلتها القديمة لتكوّن النواة التي تلتف حولها قبيلة جديدة، كل أعضائها يدعون لاحقاً قائدهم الأصلي كسلفهم المسمى. بهذه الكيفية تظهر أسماء قبيلة جديدة في مفاجأة وسرعة من فترة لأخرى في تواريخ الأنساب. في نفس الوقت فإن قبائل كانت من قبل مستقلة إنخفضت في حجمها ونفوذها بسبب تقلبات بيئية أو قيادة ضعيفة ستلحق نفسها بما لا يحصى عنه كاقسام لبعض جماعة أكبر منها وأشد قوة، ولسوف تخفى أسمائها القبلية. هذا الجذر والمد المتواصل يعطى النوعية اللامتناهية للتاريخ القبلي للبدو؛ كذلك تعال الموجات الدورية للهجرة الكاسحة والمنازعات المنبعثة من أراضي السهل.

ربما بسبب إهتراز إستقارهم، لا يوجد مصطلح معيارى لمستويات التنظيم المختلفة بين النظام القبلى العربى بمبالمغتهم العربية المألوفة، لكنه يجوز أن يوصف أى منهم في أى وقت واحد أو آخر بأنه "قبائل". إن المسح الموسوعى لماكمايكل يقدم قوائم لما يزيد عن مائة قبيلة "عربية" في السودان وحده (١١١)، أغلبها له أقسام مسماة فردياً بما لا حصر له، كل واحدة منها يمكن بالمثل أن تدعو نفسها قبيلة، إلا أنها كلها كذلك تدعى عُضوية أو تحدرأ لا يتعدى إثني عشر قبيلة كسلف لها. هكذا عندما تنطق المدونات التاريخية بتحركات "قبائل" عربية وفتوحاتها، لا يمكننا أبداً أن نستيقن ما إذا كانت هجرات كاسحة فحسب هي المشمولة بذلك أم أنها إعادة لتوزيعات سكانية صغيرة

خلاقاً للعرب الحقيقيين ما كان النوبيون أبداً شعباً بدوياً، ومن الزمن الذى تقلدوا فيه حضارة الفراغة حتى مجئ العرب لم يكونوا شعباً قبلياً. كان مبدأ القرابة لديهم قد فتح الطريق زمناً طويلاً لمبدأ الإنعاز للحكومات المركزية، وقد كانوا رعايا على أيامهم مثملاً كانوا حكاماً لبعض الإمبراطوريات الشهيرة. بيد أنه عندما احتضنوا نظام العصبية العربى، من أجل هوية إسلامية، إحتضنوا إلى جانب ذلك بالضرورة النظام القبلى العربى. لوقتاً ما في الفترة الحديثة الأولى ما عرفوا حكومة رسمية بأعلى من الحكومة التى وفرها النظام القبلى، بل إنه بعد ظهور أنظمة ملكية أرسخ ثباتاً من جديد (قارن الفصل الثامن عشر) واصلوا التفكير في أنفسهم كرجال قبائل بأشد مما عدوا أنفسهم رعايا أو مواطنين، على غرار ما يقوم به معظمهم في الحقيقة إلى اليوم الحاضر (١١٢). بذلك تكسوا على أعقابهم نظرياً إلى نظام من الحكم، ولانوا عملياً برؤية للنفس، قريبة بمستوى يأخذ بالأذهان من تلك التى نسبناها إلى ثقافة المجموعة الثالثة (قارن الفصل السادس) (١١٣).

## إنتشار الإسلام

كان تريمغهام قد كتب قائلاً:

القادم أول مرة للسودان، وقد قرأ بعض مراجع نمونجية عن الإسلام يجتنح لأن يوقن بأن ديانة الناس هي ما يعمله القرآن والشرع إن المسجد هو العادة هو أبرز شئ يراه وهذا يجعله يخفق في فهم أن هذا ما هو بمركز دينهم الوحيد، أو رمزه الأهم إن رمزاً أعلى أهمية وأبلغ قيمة يتبدى إيماناً حول السودان ويتبعثر بغزارة أعظم من المسجد هو الضريح ذو القبة البيضاء لولى ما، يجوز أن يُعد الأول رمزاً للنظام والآخر رمزاً للإيمان الحى (١١٤)

قباب الصالحين خاصة (أى المدافن ذات القباب) ليست مجرد مراكز لطرق شعبية لا حصر لها، برغم ذلك، إنها إضافة إلى هذا صروح تاريخية مشروعة للرجال الذين جلبوا بداية معرفة الإيمان الإسلامى (تمييزاً لها عن عضوية المجتمع العربى) إلى باطن تيه السودان الروحى. وإذا كان هؤلاء

المبشرون الرواد المذكورين في بعض الأحيان بدرجة أفضل ومُجَلِّين بأصالة أكثر مما يُدْكَر إليه والنبي البعديين نوعاً ما ومُجَلَّلان وتقام الدعوة [أصلاً] لهما، فإن هذا لما يتماشى مع الطبيعة الخالدة للديانة الشعبية. كما يقول هيللسون "... الفرد، في نزوعه ليعلم ويخلص، يتطلب وسيطاً بين نفسه وبين إله لا يمكن الدنو منه ولا يمكن أن يرى، وإنها لحقيقة أن الأنبياء والأولياء، والصالحين يُبصرون كوسطاء ... مما يمنحهم فضيلةً من نوع خاص، ويشرح القوة التي لا تقاوم التي يجتاحون بها عقول أتباعهم وأفعالهم" (١١٥).

تماماً مثلما أن إرثاً نسبياً يدون مجيء العرب للسودان، فإن جسماً عظيماً آخر من الأدب الشعبي يدون إنتشار الإيمان الإسلامي. يحتوي هذا على عدد غير محصور من سيرة الأولياء والصالحين الذين حملوا منذ البداية تعاليم النبي للسودان، والذين تحدث منهم روحياً كل معلم الدين اللاحقين. هذه بدورها موروثات نسبية من نوع ما، تدون بعناية أسماء المعلمين الذين تتلمذ أول مبشرين على أيديهم إضافةً إلى تسجيل قائمة بحوارهم. إن للتعليم النبيل، لا أقل من العصبة النobile، شجرة للنسب وسط الأقوام الأمية (١١٦)، يقال أن "الواحد الذي يدرس من غير شيخ لا يستطيع أبداً أن يصبح عالماً حقيقياً" (١١٧) (كلا اللغزين يشير في هذه الحالة لأساتذة علماء دينيين).

من حسن الطالع أن الجسم الهائل من الموروث الشعبي الذي يحيط بحياة الأولياء قد جمع إلى جانب ذلك ودُوِّن - ليس عن طريق دارس أوروبي في هذه الحالة إنما من فقيه سوداني متعلم في أوائل القرن التاسع عشر، محمد وضييف الله. إن كتابه طليقات وضييف الله (١١٨) المعروف إتفاقاً لجميع ل ٢٦٠ سيرة حياتية كانت جارية في السودان في زمانه (١١٩). "قيمة الكتاب" يقول ماكمايكل "ليست لمجرد أنه يخبر الواحد لمن بُنيت أغلبية القباب التي تبرشم السودان، وإنما لأن الواحد يجنى بعض الرؤية الغامضة في باطن أساليب الحياة والتفكير وحديث أهل البلد في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فالكثير من معتقداتهم وعاداتهم وخرافاتهم وأفكارهم العملية يماط عنها اللثام ... (١٢٠).

#### وضييف هيللسون :

إن دراسة هذه المعتقدات والعادات ليست ذات قيمة تاريخية وحسب، لكنها تملك إثارة الحقيقة لهؤلاء الذين يجهلون لهم حياة أفكار عرب السودان في الوقت الراهن. صحيح أنه منذ أيام وضييف الله نهضت طبقة متعلمة شكَّلت أفكارها الدينية في الأطار التي أمدتها بها عالم المسلمين الحديث: ... ورغماً عن أن المتعلمين يشنون الحرب في مواجهة "خرافات" بني جلدتهم الريفيين غير المتعلمين، ورغم أن فيضاً من أشياء جديدة وأفكار جديدة قد تدفق إلى داخل القطر منذ أيام محمد علي، فإنها لا تزال حقيقة أن العالم الفكري والعاطفي لأبطال وضييف الله ما انفك عائشاً وسط الأغلبية الأكبر... (١٢١).

*الطبقات* غير عادى بما يجعله جديراً بالملاحظة ليس لمحتوياته وحسب لكن لأنه مكتوب في عربية عامية سودانية - مفارقةً ما سُمع مثلها من فقيه كان عالماً في مطلع القرن التاسع عشر (١٢٢). يكون الكتاب الأساس لكل معرفتنا بالتقريب عن إنتشار الإسلام في السودان، مثلما أن تجميع ماكمايكل لموروثات الأنساب يشكل القاعدة لمعرفةنا عن إنتشار العرب.

السير الحياتية في *الطبقات* يعتقد أنها تغطي الفترة من حوالي ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ (١٢٣). مع هذا، هناك موروثات أخرى، أشد غموضاً تحكي عن معلمين دينيين في السودان إبان فترة لا تزال أقدم. رجل عابد من اليمن، غلام الله بن عائد، يقال إنه استوطن بُتُقلاً في القرن الرابع عشر المتأخر لأن المدينة كانت "عائمةً في تخبط ويطلان" (١٢٤). شَيْدُ جامعاً ودرَسَ القرآن والعلوم الدينية. وفي القرن التالي، وبحسب موروث آخر، إستقر معلم إسمه حمد أبو دنانه في مقاطعة بربر (بالقرب من الشلال الخامس) في وقت ربما كانت فيه تلك المنطقة لا تزال خاضعةً لمملكة علوة المسيحية (١٢٥). ما من شئ يؤيد التواريخ المنسوبة إلى هؤلاء المعلمين الإسلاميين الأوائل، أو حتى لحقيقة وجودهم (١٢٦). إن نفوذهم على أي حال لا يبدو أنه كان كبيراً، وتفتتح *الطبقات* بعبارة أنه قبل زمن الفونج (أي قبل القرن السادس عشر) "... لم تزدهر مدارس العلم ولا لقراءة القرآن يُقال إن الرجل ربما يطلق زوجته

ويتزوجها آخر في نفس الوقت دونما فترة للعدة، حتى جاء الشيخ محمود العركي من مصر ودرّس الناس ليطبّقوا القوانين ... (١٢٧).

محمود العركي الأول في الشيوخ المثبتين تاريخياً (١٢٨) من الذين ظهرت سيرتهم الحياتية في طبقات ود ضيف الله. وبعد أن درّس في مصر رجع إلى موطن أهليته السودان ليؤسس مدرسة للقانون الديني الشريعة الإسلامية في منطقة الجزيرة، بين النيلين الأزرق والأبيض (١٢٩). حوالى نفس الوقت جاء إبراهيم الولادى، الذى درس أيضاً الشرع في مدرسة في الجزيرة (١٣٠). في وقت متأخر من القرن السادس عشر أقام الشيخ تاج الدين البهاري سبع سنوات في بلاط الفونج بسنار، وإليه يرجع الفضل في نقل غرس الطريقة القادرية إلى السودان (أنظر بادناه) (١٣١). في نفس العصر جاء للسودان صوفي آخر يُدعى فقط بالتمسماني (رجلاً من تلمسان، شمال غرب إفريقيا) ليدرس باقة من العلوم الدينية (١٣٢).

أخذ إسلام السودان مكاناً في زمن كانت فيه الصوفية أو الطرق الغيبية في قمته بالعالم الإسلامي (١٣٣). الصوفية، مثل المسيحيين الأوائل وبعض طوائف البروتستانت الأخيرة، أمنت بالخلاص من خلال التحلّي الروحي بدلاً عن دراسة النصوص المكتوبة؛ يعيرون دائماً التعلم المألوف والكتابة على حد سواء. إلا أنه بعد القرن الثاني عشر كان المتصوفة أنفسهم مشدودين الوثائق بالأزهر. تجمّعوا طوائف لأحد لها، لكل واحدة منها طريق أو "نَهْجٌ للإستشارة" محفوظ بعناية يتكون من تركيبة من النواهي الإحتفالية والأذكار أوراداً مكتوبة، بعضها بالغ التعقيد. الطرق الصوفية الأوثق إلفةً لغير المسلمين هي التي تمارس وهباً للنفس في إغراق حسي غير معتاد مثل القطع بالسيف، والمشى على النار، والرقص المستهام "الدراويش الدائرون" (١٣٤).

ما كان للطرق الصوفية حتى القرن التاسع عشر تنظيمٌ شكلي للغاية (١٣٥)؛ كانت العضوية موضوع قضاء لفترّة من التلقين على يد شيخ معترف به تلقى بدوره تدريباً من شيخ سابق له، في صف يمتد إلى الوراء إلى مؤسس الطريقة نفسها. كل شيخ يجمع حوله جماعة من المريدين، واحداً منهم (دائماً ابنه) يرث نثار بركته المتفردة بعد موته، في حين ينتشر الآخرون ليقبضوا مدارس جديدة وينشروا طريق القوم إضافةً إلى ذلك. الهيكل التنظيمي للحركة الصوفية أو أفنقاده هكذا يمثل عن قرب نظام العصبية العربي. في الصوفية، كما بين القبائل العربية، هناك إنقسام وإستجماع يسريان في توالٍ للطوائف (١٣٦).

خلال مؤسسة المدارس المحلية مثل التي وصفناها قبل هنيئة نُشرت معرفة الإسلام وممارساته في السودان إلى مدى واسع بعد القرن الأول لنشاط التبشير (١٣٧) بالدعوة. على أنه كيفما اتفق، لم يكن المعلمون الدينيون الأوائل متصوفة؛ ولقد ذكرنا من قبل أن بعضهم كانوا يعلمون القرآن والشرع. في إتساق مع هلمسون:

... أغلب تيارات الفكر التي قحمت في أزمان متفرقة زناد الرأى الإسلامى وجدت قنأةً إلى داخل هذا التخلف الغائى لعالم المسلم،... إن العلماء والأولياء الذين ملأوا مرحلة الطبقات يعكسون في سلوكياتهم وأنماطهم المختلفة تشكيلةً من المذاهب الروحية والفكرية التي ظلت موضوعاً للدراسة التوجيهية والمناظرة في الإسلام. ليس مستغرباً بالنظر إلى عزلة البلاد وتخلّف درجة التعليم أن انعكاس ذلك ضئيل لأقصى حد، وأن الرؤية الثاقبة في تعمق من العلماء والمتصوفة. إنتصت إلى المستوى الذى تتطلبه الدراسة الضحلة والإدراك الساذج (١٣٨).

بالرغم من المدى الذى بلغه التدريس السلفى، يبدو مع ذلك أن التكثف الصوفى غير العادى الذى يبدو بجلاء للعيان في إسلام السودانيين الحديث (أنظر أدناه) كان غالباً مسيطراً منذ البداية، إنه لجدير بالذكر أنه بنفس القدر كان بعض من أرفع جماعة الفقهاء علماء، وفقاً لمرجع وضيف الله، مدفوعين ليدرسوا بالأحلام والرؤى لا ليعلّموا بكلمات النبى. يقتطف هلمسون ثانية "... إنها خاصية للعصر وللبلد إنه حتى قادة التعليم النظامى يعيشون في عالم من الرؤى والأحلام ويلقون بثقلهم على الأوراد التى طبيعتها الحيوية لا تختلف عن إنكارها [الصوفية] " (١٣٩). نتيجة لذلك، فإن الجدل

الراسخ في غنف أحياناً بين المتصوفة والمؤسسة الدينية السلفية الذي أقضى مضاجع أجزاء أخرى في العالم الإسلامي لم يتطور أبداً إلى مدى محسوس في إسلام السودان. "أهم وجه لهذا الإسلام"، يقول تريمينفهام "كان المزيج المتجانس للفقه، و/التصوف، أى تكيف الشريعة [المتشددة] مع الصوفية [المتسامحة]". إننا لا نجد ذلك العنت الذي يشخص قادة المسلمين في نيجيريا الشمالية. لقد كان رجال الدين مرة واحدة وفي نفس الوقت فقهاء [عالَمين بالشرع] وفقراء [عارفين بالله] (١٤٠).

معظم معلمى الإسلام السلفيين نالوا تدريبهم في مصر، بينما جاء دعاة التصوف على نطاق عريض من منطقة الحجاز في شبه الجزيرة العربية (١٤١). أياً كان ذلك، فسرعان ما اوضحت طرق الصوفية، متى نقل غرسها للسودان، كغيلة بنفسها في حين أن معرفة متقدمة للقرآن والشرع لا تزال تتطلب فترة من الدراسة بالخارج، حيث لم تتطور أبداً في السودان مؤسسات للتعليم العالي تقارن بجامعات مصر، ودمشق، وبغداد. تعين هذه الحالة بلاشك على شرح الغلبة الجامعة لجانب الإسلام الصوفي، المعاكس للفكر في السودان.

لعله جرت ملاحظة أن القرن الأول للإنتشار الإسلامى النشط في السودان (القرن السادس عشر) يواكب بدايات هيمنة الفونج (قارن الفصل السادس عشر والفصل الثامن عشر)، وأن معظم مراكز التعليم المؤسسة في إقليم الفونج، تقع جنوب مجرى النهر من ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. يبدو واضحاً أن حكام الفونج، في قلقهم لإضفاء الشرعية على ملامحهم الإسلامية، شجعوا ومولوا هجرة المعلمين الدينيين ليقبوا معهم، حتى أن الإنتشار المبذنى للتعليم الإسلامى في السودان يمكن بالفعل أن يؤول فضله إلى هؤلاء الذين أسلموا حديثاً (١٤٢). وإلى الحد الذى بقيت فيه السلطنة، كانت المراكز الرئيسية للتدريس الدينى دائماً في إقليم الفونج، بوجه خاص على طول النيل الأبيض، حيث إلى عام ١٦٨٤ (وهو عام كارثة مجاعة وجفاف) ما كانت هنالك مدارس دينية أقل من سبع عشرة (١٤٣).

المدارس /الصوفية تقدم متوازيات مرئية لمنشآت الأديرة في العالم المسيحى. كلاهما متصور في جزء منه كمهرب من فساد الحياة اليومية، إلا أنه في العصر الإقطاعى أصبحت في مرات عديدة مراكز لعمل دينوى متسع.

بطرائق جمة أقحمت الدنيا نفسها [في حياة] أولئك الذين يهروا معاصريهم بقوتهم الروحية [يقول للسون]. إن الثروة تهطل عليهم في شكل أراض يهبها ملوك وحكام، أو هدايا معسولة يجلبها المؤمنون. وعلى الرغم من أن النوع الحازم ربما يرفض كل القرابين لا يتورع آخرون عن فرض رسوم منتظمة للمعالجات وتماثيل الأصحبة. أما حشود المريدين التى تحيط بصاحب الهالة فيجب الحفاظ عليها على حساب شيخهم، ومع أن الزوار ربما يحضرون هدايا، فإن راحتهم ستكلف غالباً. في عصر من الإقطاع سوف تشكل قرية العابد الصالح ... دولة مستقلة صغيرة، فلقد ابصرنا من قبل كيف كانت الدامر في القرن الثامن عشر محكومة بالفعل بأسرة من الأولياء (١٤٤). إن ملوك سنار والحلفاية، وأرباب الأسر الصغيرة بوفرتها في القطر، تقاسموا تماماً المخاوف الخرافية مع العامة. نسجم كثيراً عن الإحترام الذى أظهره للولايا وما أغنوا عليهم من هدايا (١٤٥).

بسبب مطالبهم الإقتصادية المعتمدة، لابد أن المدارس الدينية الكبرى حصرت في المقاطعات النهرية التى تحظى بمستوى أعلى من الرخاء - وفى بقعة تلك التى يمكن لهم أن يتمتعوا فيها برعاية الموكوك المحليين وجمابيتهم. أما خارج سيطرة الفونج المباشرة في الجزيرة فإننا نسجم عن مثل تلك المدارس على طول النيل من شندى إلى دنقلا حيث تقع أغليبيتها؛ مساحات كانت حتى القرن السابع عشر تحت هيمنة الفونج. يبدو من غير المحتمل جداً أن التلقين الدينى كان بوسعه أن يزدهر بنفس المقياس في ظل الأحوال المفقرة وقوضوية الحكم التركى شمال الشلال الثالث (الفصل الثامن عشر). وفى الحقيقة ما بصورتنا موروثة أياً كانت تتصل بإنتشار الإسلام في هذه المنطقة الشمالية سوى أن رواداً للإيمان مجتهدين، وإن كانوا غير ذى صيت، لابد أنهم كانوا هنا يعملون على قدم المساواة، ذلك أنه في تاريخ باكر بما يثير الدهشة بدأت جماعة /الفكى النوبية المحسية في الظهور في الأراضي الواقعة تحت سلطان الفونج (١٤٦).

الوثائق العديدة باللغة العربية التي عثر عليها في قصر إبريم<sup>(١٤٧)</sup> تفصح عن درجة عالية من الكتابة بالعربية إبان إنسداد الستار على الفترة المسيحية وأثناء العصر ما بعد المسيحي مباشرة، لربما ن خاطر بتخمين مفاده أنه في هذا المركز الحضري عريق النشأة في الشمال اكتسب المحس إبداع العلم الذي كان سيجعل لهم خطوة ونفعاً في المناطق الأمية إلى الجنوب البعيد. وليس من غير المتوقع أن أعضاء من الطبقة المستنيرة النوبية، التي كانت قد جُردت منذ وقت قريب من أي وظيفة مهنية بسبب إختفاء المسيحية المنظمة، ربما اتجهوا للتعليم الإسلامي وإلى أملاك سلطان الفونج السوق الوحيدة الباقية لمهاراتهم المهنية. لقد كان التعليم الديني دائماً مسلكاً للإرتقاء الإجتماعي للمحرومين في العالم الإسلامي<sup>(١٤٨)</sup>، وكان دوراً تاهل النوبيون لشغله بشكل مثالي بحكم خبرتهم الطويلة بالتقاليد الكتابية. فإذا كان هذا التخمين الخفيف صحيحاً، ربما يمثل قصر إبريم حلقة الوصل - الوحيدة المعروفة - ما بين التعلم والكتابة في العصرين المسيحي والإسلامي.

### سيرة الإسلام السوداني

الديانة الشعبية للإسلام كما توجد اليوم في السودان ربما تختلف في تفاصيل صغيرة فحسب عن التي كانت سائدة في زمن ود ضيف الله. إنها توالى وقوعها تحت سيطرة عناصر الصوفية غير السلفية وفي أحيان المعادية للسلفية. إن أهم ملامحها المعرفية لا يزال الإعتقاد في الأولياء والكرامات؛ يبقى بناؤها التنظيمي الرئيس كما هو للشيوخ الذن لا حصر لعددهم ومدارسهم.

الإعتقاد في الأولياء - خاصة الأفراد الواصلين الذين بمقدورهم الإنتقال جيئاً وذهاباً بين عالم البشر وعالم السماء والتوسط بين الإثنين - يجوز إعتباره المرتكز الجوهرى للصوفية. كل الشيوخ وأتباع مدارسهم يُحسبون أهلاً للورع والإصلاح. إنهم مغمورون بالبركة، صفة للمباركة المقدسة يمكن أن ينقل جزء منها للآخرين بكلمة أو لمسة، وتنسحب في العادة على خلفهم<sup>(١٤٩)</sup>.

وكما يقول هلسون:

أهم منصب دينوي يتقلده الولي هو أن يلقي بالنفع الروحي على أولئك الذين يتصلون به، نتيجة لا تتحقق بالوعظ أو التدريس، أو بنموذج حياة عابدة تقية، إنما من خلال (البركة) الكامنة فيه، التي تباشر نفوذاً على ما يحيط به. إنه يزار من المريدين هادفين لأن ينالوا حظاً من هذا الأثر... ورغم أنه يجوز أن يمنع عوناً مادياً كعلاج وصانع للمعجزات، فإن الراحة الروحية لحضوره هي التي يسعى لها بشغف حواريه والهاجئون إليه<sup>(١٥٠)</sup>.

قوة الولي تغدو مؤكدة لحواريه عبر أداء الكرامات. إن قسماً طيباً من طبقات ود ضيف الله تكتظ في الحقيقة بذكر الكرامات التي قام بها الشيوخ، وهي تتضمن سير حياتهم على اختلافهم. في هذا الصدد يشابه الكتاب عدد كبيراً من السير المكرمة للمسيحيين (مثل مسلمين آخرين)، والكرامات المذكورة قريبة الشبه بحق بتلك التي بهرت وأستهوت عالم المسيحية في القرون الوسطى<sup>(١٥١)</sup>.

يفنى عن الحديث أن يقرر أن القوى الإعجازية للأولياء، تلك مدى عريضاً فيما يراه العادة [يقول هلسون]، وتشمل كما هي معرفة أفكار الرجال المخبوة وأحداث المستقبل، القوة فوق الحيوانات والجمادات، القدرة على التحليق في الهواء والمشي على سطح المياه، فن العلاج بالصلاة والتعاويذ؛ بل إعادة الموتى للحياة. هذه القوى عادةً ما تمارس لأغراض نفع البشر، لكنها يجوز أن تستخدم لتنزل العقاب بالموتورين الحاقدين الذين يحمل بهم مرض أو موت مفاجئ...<sup>(١٥٢)</sup>

تبعاً لواحد من تقاليد الصوفية الأكثر تعقيداً تُذكر ثلاث طوائف للأولياء. "الدرجة الأدنى هي أن الولي باستطاعته أن يطير في الهواء، وأن يمشى على الماء ويتكلم عن أشياء خفية. والدرجة الوسطى أن الإله منحه القوة الخلاقة بحيث يمكنه أن يقول لشئ "كن" فيكون. والدرجة الأعلى هي درجة القطب [حرفياً "القطب الشمالي"، أو بكلمات أخرى شيخ كل الأولياء]<sup>(١٥٣)</sup>. إن أسمى السير المكرمة تؤكد بالفعل أن القطب قد حقق وجوداً سماوياً متصلاً بالله مباشرة<sup>(١٥٤)</sup>.

تحيا بركة الولي بعده في الأماكن التي عاش فيها وعلم بها، ويأتمنى درجة إستثنائية في المكان الذي دفن فيه<sup>(١٥٥)</sup>. لا جرم لذلك أن كل هذه الأمكنة تصبح أضرحة للتعبّد، وربما أن الحجيج الطائف عليها هو أهم صفةً للديانة الشعبية في السودان. طبقاً لترمينفهام:

قد لا يكون الناس متأكدين دائماً من فعالية بركة جماعة الفكي الأحياء، لكنهم لهم إيمان أعمى بشيخهم الولي المتوفى، الذي يناغمونه في المألوف "شيخنا" على الدوام كلما كان حياً. يفترض في الحقيقة أنه في غفوة ويبين نفسه للناس في الأحلام والخضمرات الروحية. إن مقدراته ليبارك أو لينزل البلاء كأنها تقي بكل جزء من حاجة الإنسان. قوته تشهد عليها الكرامات التي تترى لا لمنفعة أسلاف الواحد من الموتى فحسب، إنما لأسرته الحية بالمثل. من غير الممكن أن يدير واحد شؤونه إدارةً سليمة دون عوته...<sup>(١٥٦)</sup>.

أبق الضرائح تفصيلاً وسعة هي بنايات القباب التي تغطي أماكن دفن الشيوخ المشهورين تاريخياً (الصورة ٢٣ - ب). ورغماً عن أن السودان الشمالي بكلمه مبرشم بهذه البنايات، فإنها تزداد عدداً بالأضرحة الأبنى التي لا تزال أضخم عدداً ويمكن أن تكون بناءً طينياً بسيطاً، بسقف أو دونه أو بلا شيء وقد لا تعدو حلقة من حجارة مكومة بطريقة بدائية. بعض تلك الضرائح المتواضعة يقال إنها قبور، في حين أن عدداً أعظم يحى ذكرى أمكنة شاع فيها أن الولي ذهب للنجوع أو عرض كرامة، أو ربما أعم حدوثاً من كل ذلك، إلى مكان يُظهر فيه نفسه في حلم<sup>(١٥٧)</sup>. الأضرحة الأبنى أغلب ما تكون في قمم الجبال أو في رؤوس صخرية تطل على النيل، يكشف عن حضورها شتات من أعلام خشنة الصنع (معمولة من أي خرقة قماش مربوطة إلى عصا) يتركها زوار أتقياء. بعض هذه الأماكن يحتمل أنها كانت قبلة للزيارة والتعبّد منذ أزمان قبلية قديماً؛ إن سيرة تقواهم يعاد تأويلها مع مجئ كل جماعة جديدة من العباد.

القباب وضرائح أخرى تكرم كغرف للعبادة حيث يثوب إليها لجوء الهاريون من الثار أو من العدالة. وفقاً مع رأى تريمينفهام:

الولي، أيضاً، يحمي أشياء موضوعة على قبره حرزاً لها. فالمحاريث يتركها الفلاحون الذين تنتثر مزروعاتهم من الذرة فوق مساحة عريضة. لقد ذكر ماكمايكل أنه رأى أدوات مثل خيام الشّعَر، والقداخ، وحجارة السحن، التي خلفها أعراب على قبر حسن ود حسونة إلى حين عودتهم في نهاية الموسم. وما فتئ التجار الذين يذهبون إلى مصر يتركون فوانيس بضائعهم على قبر أبو حمد على نحو ما جرى عندما مر بهم كالليود في ١٨٢١. شعير، قصاصات أطافر، وسنونا ما أكثر ما تترك لتمنع الآخرين من أخذها لأغراض السحر. أما التراب أو الأحجار التي تؤخذ من قبورهم فإنها كذلك تحمي. تلصق عادة بأحد الأعمدة كساقية غير مستعملة لتمنع سرقتها. إن أعظم قسم يمكن أن يعتمد لأغلب الناس يُحفَل به في قبر شيخهم، بينما لا يحفلون بالقرآن لقسم حنث به<sup>(١٥٨)</sup>.

يأخذ التعبّد في ضرائح الأولياء عادةً شكل زيارات فردية، يمكن أن تؤدى في أي وقت، مع أن بعض المناسبات أشد نفعا من غيرها. مثل هذه الزيارات ممكنة لغرض عمل النذور، أو لسؤال الشيخ طلباً محدداً. في كل حالة تؤدى أذكار متنوعة، تعتمد صيغتها أكبر اعتماد على طريقة الشيخ نفسه. قرابين الطعام، والهدايا، والبخور تترك في عود دائم على القبر. إضافة إلى هذه الصور من التقرب هنالك إحتفالات عامة تجرى في إنتظام في بعض من أشهر القباب في السودان تحيي ذكرى ميلاد الولي أو يوم وفاته. هذه حفلات لقرى كبرى أو لإقليم على سواء مقارنة بإحتفال يوم لقيديس راع في المدن الأوروبية في القرون الوسطى<sup>(١٥٩)</sup>.

إن مقياساً للأهمية لطرائق الشيوخ وسط النوبيين في اليوم الحاضر يُقترح في المقالة التالية من دراسة تمت قبل وقت وجيز لقرية دهميت:

في مقاطعة الكنوز بدهميت ما يقرب من ١٥٠ ضريحاً لها أهمية مختلفة، بين سكان مقيمين يقولون عن ألف وخمسائة شخص. بعض هذه الضرائح، التي لا تتعدى من الناحية الطبيعية كوماً من الحجارة، كانت موضعاً للتنبه من قبل عائلة، امرأة بمفردها، أو بالمثل أطفالاً في بعض المرات، يقولون كبارهم بتحميل أنشطة الطريقة كنوع من اللهو. [إن أهم طريقة [صوفية] تخص القبيلة كلها، بينما للطرق أقل شأنًا ترتبط بعشائر صغرى ذات عضوية محدودة

تنقل [عن الطريقة الشائنة] بمراحل (١٦٠).

جانباً عن الإحتفالات السنوية في قبور شيوخ معينين، يحتفل معظم الذكر العام مكاناً في "مساجد" تنتمي للطرق الدينية المختلفة، تسمى *جوامع الزاوية* إن من النادر جداً أن تميز هذه [الزوايا] بمنازل أو ملاعب أخرى للمعمار الشعائري؛ يغلب أن تكون مسورات بسيطة من الطين أو العشب الجاف [القرش]، بسقف أو بدونه. لا تؤدي فيها صلوات الجمعة وحدها إنما الأوراد (الذكر) التقليدية للطرق التي إليها تنتمي (١٦١).

إيمان ديني آخر للصوفية لعب دوراً مختصراً لكنه دراماتيكي يلهب المشاعر والدوافع في تاريخ السودان، هو الاعتقاد بالمهدي أو المنقذ المنتظر، الذي سيعيد الإستقامة للعالم في أيام ما قبل يوم الحساب. الإعتقاد في المهدي مذهب بوجه قاطع لطائفة الشيعة الإسلامية، الخارجية، الذي يزدهر بتزعم في إيران، لكنه مثل عدد من مذاهب الشيعة الأخرى جرى استيعابه، بشكل ما في صيغة ماثلة عنه، إلى باطن علم الساعة في الطرق الصوفية (١٦٢). ظل الإيمان بالمهدية شائعاً وسط الناس في إفريقيا شبه الصحراوية، في الفترة التي تزيد قليلاً عن قرن بين ١٧٧٦ و ١٨٩٨. اجتاحت موجة من دول النمط المهدوي عبر التخم الجنوبية للصحراء في الغرب إلى الشرق (١٦٣). وفي التاريخ المدون للسودان ما كان به سوى اثنين فحسب أعلننا نفسيهما مهديين، أولهما كان غير موفق بدرجة عالية (١٦٤)؛ إلا أن الإجماع الذي التفت به السودانيون من كل الطوائف والخلفيات حول لواء المهدي محمد أحمد في ١٨٨١ يبين كيف كان الإيمان الكامن في المهدي المنتظر متجذراً بعمق. إن قصة مهدي محمد أحمد سوف تسرد في الفصل القادم.

في القرن التاسع عشر، في مواكبة لإنشاء حكومة مركزية تحت محمد علي (الفصل الثامن عشر)، كانت هناك حركة ركازة وسط الطرق الدينية في السودان. جمهرة من الطرق القديمة، ذات الأصل إختفت في ذلك الوقت، بينما تكونت وحدات أخرى جديدة إقليمية ودولية بقدر متساو (١٦٥). واليوم تنتمي أغلبية السودان لما لا يزيد عن اثني عشر طريقة، يعود أصل ما يزيد عن نصفها إلى القرن التاسع عشر (١٦٦). الأغلبية الغالبة للنوبيين تنتمي للميرغنية أو الطريقة الختمية، التي أسسها في طليعة القرن الماضي محمد عثمان الميرغني من مكة. يبدو نجاحه وسط النوبيين وسودانيين شماليين آخرين كأنه نتيجة في جزء منه لزواجه من إمراة دنقلاوية، ومن خلفته أولئك الذين حكموا الطريقة إلى الأزمان الحديثة (١٦٧). طبقاً لترميمغهام "إن الطريقة صارمة جداً في إصرارها على قدسية العائلة لذلك ترفض أن تاذن لاتباعها بنسبة أنفسهم إلى أي طريقة أخرى أو أخذ أي دور في مناسكها على قدم المساواة" (١٦٨).

تشكيلة متنوعة من المعتقدات الوثنية وما قبل الإسلامية، رغم أنها لا تقرها الطرق سلفية كانت أم صوفية بصورة رسمية، تشكل كذلك جزءاً من الديانة الشعبية في السودان. بين هذه الإعتقاد بالسرير الأسود، والحين الشريرة، والإقتران بالجن وأرواح أخرى. هناك صيغ عديدة. معظمها روحانية بمستوى عال - إزاحة أو طرد هذه التأثيرات الشريرة خارجاً (١٦٩). في قرية دهميت وُجد إعتقاد نشط في الأرواح التي تقيم في النيل، ويمكن أن يبتهل لعونها في شؤون الحياة اليومية عن طريق ممارسين متخصصين أصبحوا بشكل مؤقتة ممتلكين لأرواح النهر. هذه المعتقدات والممارسات تزعمت أوساط نسوة القرى (١٧٠). إن بقايا من نمط آخر لا تزال حية هي الممارسات الإحتفالية التي تقام لإجتياز المناسبات الحياتية، وهي ممارسات عالية التطور تصاحب في دقة غير عادية الأختة، والأعراس، والجنازات، التي تؤسس مناسبات التقاليد الإحتفالية المهيمنة علي الحياة النوبية والسودانية الحديثة (١٧١).

جنباً إلى جنب مع الديانة الشعبية بثرائها وتعددتها توجد، كما في كل أنحاء العالم الإسلامي،

الطريقة الدينية السلفية<sup>(٥)</sup> ورمزها المسجد عوضاً عن قبر الشيخ. على رأسها بالإتفاق الشائع (رغم أنه ليس متصديراً بامر رسمي) *العلماء* أو أساتذة التوحيد، الذين يمكنهم أن ينصحوا الحكومة في الأمور الدينية والقانونية. بدرجة خفيفة، وإن كانت لا تزال عالية التعليم، طبقة من المسؤولين هم *القضاة* الذين يرأسون محاكم الشرع الديني. هؤلاء الأفراد يوجدون في المدن الكبرى وحدها. مع ذلك، فكل المدن الكبرى والصغرى ويضع القرى على حد سواء لها مسجد يلتزم مذاهب السلفية ويسيره على الأقل أربعة موظفين: إمام ليقود صلاة الجمعة المنتظمة، وواعظ، ومؤنن يرفع الأذان للصلاة، وخادم<sup>(١٧٢)</sup>. تسمى المساجد المعهودة جامعاً "أماكن للإجتماع" تمييزاً لها عن مساجد الزاوية للطرق الصوفية. معظم هذه شيدت في السودان في نطاق القرن الحالي، جزئياً على حساب الحكومة، ونحو ما يرقب تريمفهام "لا يحس السوداني العادي أنه في داره عندما يكون فيها بمثل ما يحس في جو النادي الديني بالزاوية"<sup>(١٧٣)</sup>.

إن أدنى خطوة على سلم الطريقة الدينية السلفية تمثلها جماعة *الفكى*، يكتب معظمهم بصعوبة، ويقومون أودهم بتدريس القرآن في مئات لا تحصى من مدارس القرى غير الرسمية.

في مختلف أرجاء السودان، في حوش، تظلل راكوبة، أو تحت شجرة في السوق، يمكن أن تشاهد حلقات من الأولاد حول فكى يجلس مستقيماً على عنقريه يرث الجميع في نعمة واحدة، يراوحون الإيقاع جبةً وذهاباً، يكررون الآيات بلا نهاية حتى يحفظوها. يملئ *الفكى* من الذاكرة وتنسخ الآيات على ألواح خشبية بقلم مسنون مغموس في حبر محلول من رماد محروق، وصمغ، وماء. القرآن لمعظم السودانيين معصوم: إنهم لا يدرسون معنى اللغة لأن الترتيل نفسه عمل مُشرف<sup>(١٧٤)</sup>.

التأكيد المستمر على استخدام اللغة العربية الفصحى (وهي غير سهلة الإدراك لمحدثي اللهجات الحديثة) في كل التلقين الديني يُعِين على شرح السبب لما كان لجوانب الإسلام السلفية شفيع قليل في السودان.

ما كان هنالك بأغلب السودان حتى وقت قريب تعليم آخر سوى تعليم فكى القرية. في مساجد قليلة بالمدن الكبرى يمكن لأولاد في سن الثانية عشرة وما فوقها أن يتقدموا بناءً على القرآن إلى دراسة التوحيد والشرع الديني، وقد قدم الجامع في أم درمان خلال سنوات قريبة تدريباً متقدماً مبنياً على نموذج التدريب في جامعة الأزهر بالقاهرة<sup>(١٧٥)</sup>. الخريج في مثل هذا التدريب يمكنه أن يشارب على احتراف مهني كإمام أو قاضٍ، وسوف يأخذ مكانه في كل الظروف وسط الصفوة المحدودة التي تكاد أن تكون مقفولة على طبقة حضرية من المسلمين السلفيين<sup>(١٧٦)</sup> وهم الذين يمكنهم بعض معرفة أصيلة بالموروثات الأولى لإيمانهم، يحضرون "مساجد الجمعة" تفضيلاً لها على *الزاوية*، وأنكارهم محدودة "بالأعمدة الخمسة" (إشهار الشهادة، الصلاة، إيتاء الزكاة، الصوم والحج) كما وضعها محمد نفسه. هؤلاء الأفراد، وحدهم وسط السودانيين المسلمين، يمكنهم أن ينجزوا محاولة أصيلة ليلاحظوا في دقة متطلبات دين ملتزم بالمذاهب، رغم أنه قلما تم ذلك بثبات مطلق<sup>(١٧٧)</sup>.

من بين جماعة الصفوة الملتزمة بالمذاهب من المسلمين يشكل النوبيون نسبة عالية غير عادية، ويعود شطر من ذلك إلى احترام دهرى للتعليم، وشطر آخر لأن عدداً كبيراً منهم يشتغل بالتجارة، وفيها تعود سمعة التقوى بالنفع على صاحبها<sup>(١٧٨)</sup>. يقول تريمفهام عنهم "إنهم مسلمون متعصبون، لكن إسلامهم يفتقد التعمق ما لم يستتر بالسمات الأخرى غير الدينية لحركة مثل *المهدية* أو بولعهم بالتجارة"<sup>(١٧٩)</sup>. وراء حدود المدن، مع ذلك، تواصل كتلة النوبيين، مثل سودانيين آخرين، تفضيل محافل الطرق للصوفية بالإنها الصارخة وتعلقها الخاص بأحاديث النبي والعلماء.

(٥) بمعنى الملتزمة بالمذاهب الأرثوذكسية المحافظة - الأخذ بأراء الفقهاء والقضاة ممن تلقوا علوم الدين في المعاهد والجامعات الرسمية مُكَّبين لأنهم ومراجعتهم على شيوخ الإسلام الشعبي الذين تقودهم جماعة الصوفية في أغلب الحالات - المترجم.



## المعطيات الأثرية

ستون عاماً ماضية، سَوَّحَ رايزنر قراره بالأ يتحرى بقايا الفترة المسيحية بملاحظة أن كلمة واحدة لا غير يمكن أن تقال: النوبة المسيحية يبدو أنها اختلفت قليلاً عن النوبة المسلمة الحديثة<sup>(١٨٠)</sup>. هذا الحكم كان حديسياً بقسطٍ وافرٍ في وقته، حيث أن قلة شديدة من مواقع أي من الفترتين كانت قد فُحصت فحوصاً كافياً، لكنه حكم تقاسمه جيلان من خلفاء رايزنر. إن المضمون الباعث على اعتبار أن الإثنولوجيا (أي معرفتنا بالنوبيين المحدثين) يمكن أن تطلعنا على كل ما نحتاجه للتعرف على الحياة اليومية في أزمان القرون الوسطى حال دون أي أداء لتحقيق منهجي مُنظَّم لمواقع المدن المسيحية حتى زمن حملة إنقاذ السد العالي، وقد تواصل كبحة لتحقيق مواقع ما بعد المسيحية إلي اليوم الحاضر. البقايا القليلة للغاية التي تم التعرف عليها للفترة الإسلامية وتصادف وجودها في مجرى حملة الإنقاذ في الستينيات جرى تخطيها على وجه العموم لكونها وجيزة جداً ومألوفة للغاية لتصوير دالة بالمعلومات، بينما تواصل مواقع القلاع في النوبة العليا إثارتها المهيبة للإنطباع إنتظاراً للتحقيق، كما تفعل تقريباً كل المواقع الأخرى في هذه المنطقة التي طال تجاهلها.

تُسَّحُّ المواقع التي يمكن التعرف عليها لفترة ما بعد المسيحية في النوبة السُّفلى للغاية لدرجة أنني ذات مرة اقترحت أن جزءاً كبيراً من هذه المنطقة تُخلى عنه مرة واحدة بعد سقوط الممالك المسيحية<sup>(١٨١)</sup>. وبينما أرغمت مذاك على تعديل هذا الرأي المتطرف نوعاً ما، فإن البينة على تداع كبير في السكان لا تزال غير خاطئة. وهي كذلك ظاهرة الآن، رغمًا عن ذلك، حتى إن بعض النوبيين الذين مكثوا في الشمال نكسوا إلى حالة من الحياة بدائية للغاية بحيث أنها تركت قليلاً جداً مما يجده علماء الآثار.

ثلاثة مواقع تبين دليلاً محدداً على الإقامة المستمرة في فترة ما بعد المسيحية هي قصر إبريم، وجبل عدا، وفسر - المراكز الحضرية الكبرى للشمال منذ أزمان مرويّة. قصر إبريم وجبل عدا كانا محتلين بعد القرن السادس عشر بحاميات تركية (مكونة بالفعل من خليط لقوات بلغانية ومن الشرق الأدنى - انظر الفصل الثامن عشر)، وتُعزى بصفة عامة حظائر الطوب والحجر المتفرقة التي تكون المستويات الأثرية الأعلى في الموقعين لهؤلاء الدخلاء<sup>(١٨٢)</sup>. بيد أننا نعلم من البينة التاريخية أن حاميات التخوم العثمانية هذه نذّر أن يُخَفَّف حملها أو يُبدل طاقمها<sup>(١٨٣)</sup> نتيجةً لذلك ما طال عليها الوقت حتى أضحت نوبية، والطراز العام لمعمارها السكني (إذا كانت المباني في قصر إبريم وجبل عداً تابعة لهم حقيقة) نوبى لا تخطئه العين. إنه لمن سوء الطالع أنه لم تجر دراسات مفصلة بعد عن البقايا ما بعد المسيحية في إبريم وجبل عدا وهي مما كان سيسمح بالمقارنة بالمواقع ما بعد المسيحية التي تم تحقيقها قبل مدة قليلة في بطن الحجر (انظر أدناه).

في فسر لا يوجد تدوين لحامية تركية، ولابد أن يفترض لذلك أن المسؤول غير المنتظم الذي كان قد بُنى على قمة الكاتدرائية التي دُفنتها الرمال مع قصر الأسقف كان من عمل النوبيين. لقد نسب المنقبون هذا الهيكل لفترة "عربية" من غير تاريخ مبين<sup>(١٨٤)</sup>، لكن الحقيقة أنه يضم في داخله كنيسة وديراً متأخرين للغاية، في شكل رُزّي، شيداً على قصر الأسقف السابق<sup>(١٨٥)</sup>، تلهمني أن أصلهما يعود إلى الفترة المسيحية المتأخرة. إن المسور (المسمى "بالقعة" من قريفيث<sup>(١٨٦)</sup> وميخاؤلفسكى<sup>(١٨٧)</sup>) استمر بلا شك مشغولاً باستمرار إلى القرن التاسع عشر، وأُجريت على تحصيناته الخارجية ترميمات وتعديلات مُعادة<sup>(١٨٨)</sup>. وبين الجزء الغربي من القلعة إثنا عشرة غرفة طوية، ربما تمثل أربعة أو خمسة منازل<sup>(١٨٩)</sup>، يُذكر جمعها للصيق إلى مدى بالغ بالمعمار السكني المسيحي الماثور (قارن الفصل الخامس عشر) أقرب من أي شيء في الحاضر القريب مع أنها بتأكيد تعود إلى تاريخ متأخر أقدم من ذلك.

عدم الإقتران بحالة معرفتنا الراهنة عن النوبة ما بعد المسيحية هو الذي قادني في ١٩٦٩ لأن

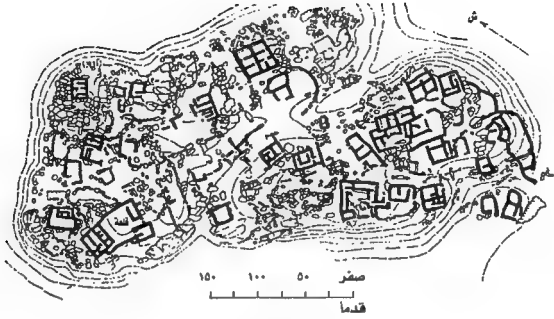
أنظم بعثة بالغرض العاجل للتنقيب عن بقايا هذه الفترة (١٩٠). الموقع الذي تم اختياره كان في كولبنارتى، بطن الحجر، مستوطنة أسست في الفترة المسيحية المتأخرة التي وصفت آنفاً بشئ من التفصيل في الفصل السادس عشر. وعلى قدم وساق مع التنقيب الرئيس نقب عن حوالى إثني عشر موقعاً من المواقع السكنية الأخرى في جزيرة كولبنارتى، وطُرحت ملاحظات موسعة على موقع مدينة عريض كان مسيحياً متاخراً ولما بعد المسيحية في دال، بضعة أميال في اتجاه جنوب النهر. إن أباً من هذه المواقع ما كان ممكناً تأريخه بشكل مستيقن، ومع ذلك أمكن القيام بالمهمة من خلال دراسة طبقات سطح الأرض والتسلسل الزمني للتعرف على تعاقب التغيرات العمرانية والسكانية التي تمت من القرون الوسطى المتأخرة إلى الحاضر (١٩١). إلى الحد الذي تآذن لنا فيه معرفتنا المحدودة جداً بمواقع أخرى لأن نعقد مقارنة، تبدو هذه التغيرات كأنها نموذج لإقليم متسع لا لنمط محلي وحسب.

في كولبنارتى، تواصل شغل مساكن الوحدة الضخمة للفترة المسيحية المتأخرة مادامت في حالة يمكن للحياة أن تجرى فيها، إلا أنه عقب الفترة المسيحية كان بالساحة عدد من التعديلات في المساكن ذات الطابقين من أجل الراحة. شقت مداخل للطابق الأرضى خلال الجدران، مُزيلة الضرورة الشاذة للنزول إلى الغرف التحتية عن طريق ممرات مدرجة من الأعلى (انظر الفصل السادس عشر)، كذلك فتحت منافذ إلى داخل الأقبية التي تحتل المسافات بين السقوف المعروشة. تدريجياً بإضطراد كلما نُقّص الجهد المنظم للصيانة وفى نهاية المطاف (ربما قبل القرن الثامن عشر) تخلى عنها جميعاً فيما عدا المنزل الواحد ذى الطابقين الذى كان قد توسع بدرجة متقدمة إلى قلعة، كما وُصف في الفصل السادس عشر (قارن كذلك الصورة ٢٢ - ب). كانت القلعة محفوفة الصيانة كمقر لحاكم عسكري محلى وقواته بالدار، واستمرت محلاً للإقامة على الأقل بشكل متقطع حتى بداية القرن العشرين.

لم تتشيد كثرة من المنازل الموحدة ذات البناء المتين سابقة الذكر بعيد نهاية الفترة المسيحية (١٩٢). صحيح أن الرسم المجهود بنائياً للغرفة الأمامية الكبرى، والحجرة الصغرى خلف الدار، فالمر، والمرحاض (قارن الفصلين الخامس عشر والسادس عشر) قد تولدت رداً، ولكن المنازل المتأخرة في كولبنارتى بُنيت بناءً خفيفاً نوعاً ما بغير انتظام، بمزيج من الطوب والحجر دائماً (١٩٤). الجدران خفيفة وأحياناً منحنية بشكل ملحوظ، ما كان بالإمكان أن تدعم بغير سقف خفيف من الأعمدة والعشب الجاف (لاحظ الجدران العديدة المنحنية في غير انتظام كما يبينها الرسم البياني لقرية كولبنارتى، الشكل رقم ٨٢). إن هذه المبانى، إفتراضياً، مثل البيوت النوبية خلال معظم فترات التاريخ، شُيّدت من طرف سكانها المعنيين، ليس بأيدي بنائين محترفين، نحو ما كانت عليه مساكن الوحدة المسيحية واضحة للناظرين.

في فترة ما قبل الأزمان الحديثة حدث تبسط لا يزال أقوى راديكالية في المعمار السكنى النوبى. إن تصميم مسكن الوحدة بإستقامته الداخلية أفسح الطريق لأخشن قطاطى من غرفتين فيها غرفة واحدة يقتصر أن يشغلها الأعضاء الذكور للعائلة والأخرى للإناث. في هذه الحظائر على وجه التمام وجد بوركهارت غالبية النوبيين يعيشون في ١٨١٣ (١٩٥)، وفى قرى مقاطعات بربر وشندى ظلت شائعة إلى اليوم الحاضر. في كولبنارتى ومواقع أثرية أخرى في بطن الحجر ليس هناك شكل موحد لهذه الهياكل؛ بعضها مبنى من الطوب، وبعضها أكوام من الحجر الجاف، والبعض الآخر مركب من الإثنين، ويمكن أن تكون الحجرات مستطيلة أو مستديرة. تكاد لا توجد بينها أبداً أرضية صلبة الحشوة أو أى معالم مبنية عليها مثل المدفأة أو المصطبة.

تحديثاً لم يدم طويلاً في البناء كان إستعمال طوب عريض رقيقاً للغاية، طوله غير الطول المعروف، يوضع طويلاً على نحو ما يطرح عليه البلاط الحجرى. المنازل المشيدة على هذا الطراز



شكل رقم ٨٢

### قرية من فترة القرون الوسطى المتأخرة ، كولبنارتى

رصدت في عدد من المواقع في *بطن الكجر* العليا، يعود تاريخها بأجمعها فيما يبدو إلى فترة وجيزة نسبياً بين القرنين السادس عشر والثامن عشر (١٩٦). إنَّ تحديدًا أقرب بدرجة بالغة من ذلك كان ظهور الجالوص أو بناء طوب طيني جار (\*) بدلاً عن الطوب الطيني المألوف منذ وقت سابق بعيد. ومع أن الجالوص كان رهن الإستعمال في غرب إفريقيا أسبق من ذلك بمراحل (١٩٧)، لا يبدو أن ظهوره في النوبة سبق القرن التاسع عشر (١٩٨). إنه مادة البناء القياسية في كافة أرجاء السودان اليوم، بالرغم من أن الكنوز النوبيين في مصر يتمسكون بإستخدام البناء باللبن على قديمه كما مضى. كانت أول بيوت الجالوص وجدناها في كولبنارتى لا تزال قطاطى من حجرتين: أما المسكن ذو الفناء الفسيح للنوبيين المحدثين فيبدو في الحقيقة منحصرأ في صفوفة النوبيين حتى القرن العشرين (١٩٩).

بقايا السكن في كولبنارتى تتحدث عن نمط عبر ثابت للغاية من الإقامة في الفترة المسيحية. وفي حين أنه ليس من غير الشائع أن نجد مواقع لقرى من فترات سابقة كانت مستوطنة لعدة قرون، لم يكن أى من الإثنى عشر موقعاً سكنياً أو يزيد مما جرى تحقيقه في كولبنارتى مأهولاً باستمرار منذ أزمان القرون الوسطى إلى الحاضر. في الجانب الآخر، أظهر عديد منها ثبته على الإقامة بها لأكثر من فترة فوق المرة الواحدة. إن القرية الرئيسية التى تقف في ظل القلعة تبدو كأنها مهجورة (عدا القلعة نفسها) زمنأ ما بعد ١٦٠٠ - عقب تبسيط معمار مسكن الوحدة ومن قبل ظهور قطية الحجرتين أو الطوب النئى منبسطاً، رقيقاً. بالفعل فيما تلا ذلك تبدت قطاطى قليلة في حالة مزرية للغاية بين الخرائب القديمة، غير أنها ما كانت أبداً واقرة بقدر كافٍ لتصبح مجتمعاً سارياً، ومعظمها يُظهر تاريخه لمدى بعيد أنه يرجع إلى ماضى قريب.

بعد التخلي عن قرية كولبنارتى الرئيسية تشتت السكان فيما هو ظاهر إلى عدد من المستوطنات الصغرى التى كانت قد برزت في الوقت ذاته. بعضها كان مبنيًا من قبل وهجرت مرة أنفأ: أما البعض

(\*) في اطواف - المترجم.

الأخر الذي بُني من جديد فكان عليه أن يهجر ثم يعاد شغله من بعد في وقت متأخر من الفترة ما بعد المسيحية. هذا النمط من الإقامة المنقطعة يبدو وجهاً منتظماً للمواقع التي تم تحقيقها في منطقة كولبنارتى<sup>(٢٠٠)</sup>. لعل ذلك يعود في جزء منه إلى التدهور السريع في منازل بائسة البناء وإلى تلوث المواقع الحية بالحيشرات الضارة والجوارح وروث البهائم، لكننا نحتاج لأن نتذكر كذلك ما تمنعته بورخارت من أنه في القرن التاسع عشر كانت القرى الفقيرة جارية الخراب باستمرار، وسكانها في شتات، نتيجة للجبايات الجشعة من الحكام "الأتراك"<sup>(٢٠١)</sup>. موصولاً بذلك في هذا المقام، ربما أن التخلي الذي يقارب الكمال لقرية كولبنارتى الرئيسية بعد القرن السادس عشر يعكس رغبة السكان المحليين لنقل أنفسهم بعيداً عن المجاورة المباشرة للقلة ومحتليها.

معظم المواقع في "فترة الشتات"، التي أعقبت التخلي عن قرية كولبنارتى الرئيسية، كانت واقعة على رؤوس جبال عالية بشكل إستثنائي أو على جزر منفصلة صغيرة. ما كان حتى حوالى بداية القرن التاسع عشر (في الآن نفسه مع إدخال معمار الجالوص) أن المستوطنات بدأت في الرجوع إلى داخل الجروف المنخفضة أو الأقرب بلوغاً بالقرب من النيل، حيث تم إنشاء معظم منازل كولبنارتى في الأيام الراهنة.

بين مركب التغييرات المعمارية والديمغرافية التي أخذت مكاناً في كولبنارتى إبان الفترة ما بعد المسيحية من غير الممكن أن يُعرف على أى شئ ينسب في تحديد إلى مجئ العرب أو الإسلام، مالم يكن تصميمياً للمساكن ذات الغرفتين. ليس هناك مسجد يمكن التعرف عليه أو زاوية بين البقايا الأثرية (وهو ما يصعب أن يشير الدهشة بالنظر إلى السمات التي لا يسهل وصفها لهذه الهياكل)، والبنية الواضحة المفردة لممارسة الإسلام تحتوى على ثلاثة شقوق فخارية. منقوش عليها بالعربية آيات من القرآن، يمكن أن تؤرخ إلى القرن التاسع عشر<sup>(٢٠٢)</sup>. بالنسبة للبقية، لا تعكس التغييرات التي جرّت في كولبنارتى إختفاء المسيحية ولا مجئ الإسلام، إنما تعكس مواصلة وتكثفاً في الفقر والاضطراب الاجتماعي للعصر الإقطاعي وحسب.

إنطباع الفقر وعدم الاستقرار الاجتماعي الذي تعطيه مواقع القرى النوبية ما بعد المسيحية تدعمه بقاياها المادية الضئيلة. هنالك غياب كانه كلى للسلع الفاخرة من أى نوع، على نقيض وفرة الزجاج، والبرونز، والفخار المزخرف، والأقمشة الملونة للفترة المسيحية المتأخرة (قارن الفصل السادس عشر). إنكمش إنسياب البضائع المجلوبة إلى ما يقرب من لا شئ، وتوقف الانتاج المحلي للفخار المزخرف. مصنوعات العصر ما بعد المسيحي هي الأقل إثارة للإهتمام مقارنة بأى فترة في التاريخ النوبى؛ إنها محصورة في أوان سطحية حمراء وسطحية سوداء. أغلبها سميك، وثقيل، وهى غير متساوية الشكل.

تنتظر علماء الآثار في النوبة العليا سوانح وافرة لتوسيع المعرفة الشحيحة عن نوبة ما بعد المسيحية التي جُئيت في كولبنارتى. صورة الأحوال الثقافية والاجتماعية فيما يمكن الحصول عليه في بعض مواقع المدن الكبيرة، وعلى سبيل الدقة في مقر إقامات المكوك الإقطاعيين، يجوز ألا تكون محبطة للغاية كذلك التي طرحتها بقايا القرية في بطن الحجر. دُفناً العجوز، مثلاً، كانت لا تزال أقوى مركز سياسى هام في النوبة العليا، ومقر لك البديرية، في نهاية القرن السادس عشر (مع أن الزائر الفرنسي بونسييه وصف المنازل بأنها سيئة البناء والشوارع نصف مهجورة ملأى بالكوام من الرمل<sup>(٢٠٣)</sup>). الحفريات هنا لم تتخط ما وراء الكنائس الباهرة لعصر سابق<sup>(٢٠٤)</sup>. إن المواقع المغربة حقاً في النوبة العليا ما بعد المسيحية هي القلاع العظيمة لمكوك الدناقلة والشايقية، تبقى إلي هذا اليوم بين أكثر البقايا المعمارية أخذاً بالجماع في السودان، وقد تم تجاهلها طويلاً من الأثريين.

منحنا بعض القنبة أنفاً في الفصل السادس عشر، لقلاع النوبة العليا التي يبدو أنها تؤرخ من الفترة المسيحية المتأخرة. ولا تزال هناك في ديار الشايقية حصون عُنّ أنها تنتمى لزمن أخير.

ورغم أن شيئاً منها لم يُحقق بعد بتفصيل، يمنحها كراوفورد ما يلي من وصف عام :

تلك التي رأيتها منها متميزة للغاية ولها، جانباً عن طرق البناء، سمة مميزة واحدة: إن الأبراج على هامش السور ليست بأبراج بقدر ما هي مساكُن مضمومة معاً بذلك السور. يبرز ظهورها الفريد بخفة أمام السور: لها ما يزيد على طابق واحد؛ حجمها كبير بالنسبة للسور الذي بنيت عليه؛ وهي مستطيلة دائماً. بين السور بقايا لما يبدو أنه كان منزلاً مشابهة. يماثل باقي الرسم البنائي تماماً المنزل ذو الفناء الحديث الذي يمكن أن يرى في أي مدينة بين شندى وروبر. الحصون ببساطة بيوت محصنة ذات فناء، ويتبقى أن تربط بهذه البيوت نوعياً. غير أننا لا نعلم تدقيقاً كيف تطورت البيوت ذات الفناء في المنطقة الجنوبية إلى قلعة في بُتقلا (٢٠٥). وبالبينة الحاضرة، يمكن للواحد أن يقول فحسب، إن أيأ من هذه الحصون لا يبدو أنه بُني حتى ما بعد الفترة المسيحية: إن تاريخاً متأخراً مثل القرن الثامن عشر جائز بنفس الإحتمال لبعضها (٢٠٦).

## النوبة في نهاية العصر الإقطاعي

بما أن هذا الفصل معنى قبل كل شيء بثقافة النوبة في العصر ما بعد المسيحي، يبدو سليماً أن تجرى خلاصته بمقتطف مستمد من مجلة للمكتشف ج. ل. بورخارت، المكتوب في ١٨١٢. هذه الوثيقة المؤرخة قاصية وعلمية بمستوى مرموق وتحتوي أول وصف تفصيلي للنوبة والنوبيين منذ زمن ابن سليم (الفصل الخامس عشر). ورغم أنها ما كانت سوى طليعة لسلسلة من سرود الرحالة المتميزين مما أخرج في باكورة القرن التاسع عشر (٢٠٧) فإن وثيقة بورخارت هي الوصف الوحيد الذي يسبق الانقلابات الجذرية بإعتبارات الاجتماعية والثقافية التي هوت بها جيوش محمد علي [علي البلاد] (انظر الفصل الثامن عشر) (٢٠٨). إنها لذلك تمنحنا لمحة متفردة للحياة في النوبة أثناء الأعوام الأخيرة للعصر الإقطاعي.

كتب بورخارت (٢٠٩):

... النوبة مقسمة إلى جزئين، يدعيان وادي كنوز وادي النوبة ... يمتد الأول من أسوان إلي وادي السُّبُوع، والآخر يشتمل على البلاد بين السبوع والتخوم الشمالية لُنُقلا. إن سكان هذين الجزئين يُقسمون بلغتهم، لكنهم يظهرون في السلوك شيئاً واحداً.

شحن من البغضاء تسرى بين الكنوز وجيرانهم الجنوبيين النوبة [أي المحس]: إن الأخيرين يتهمون السابقين بالطمع وسوء النية، في حين ينعث الكنوز النوبيين بأنهم أرقاء فاحشين، يحيون مثل أهل السودان. وما أكثر ما تنشُب المشاهدات والعراك الدموية بالتالي بين سكان القرى المتجاورة ...

السكان على ضفاف النيل، من الشلال الأول إلى تخوم بُتقلا، لا يحرثون حقولهم بعد أن ينحسر غمر المياه عنها جانباً، كما يفعل في مصر، فالمياه فوق الشلال لا ترتفع أبداً بقدر كافٍ لتغمر الشاطئ. أمكنة معينة حيث الأرض المزروعة أعرض من المعتاد ... هنالك قنوات تنقل الماء صوب الحقول على جانب الجبل، لكن الماء الكائن بها غير عالٍ بما فيه الكفاية، كما مصر العليا، ليروي الأراضي المنخفضة بالقرب من التلال. الرى في النوبة لذلك يجرى كلية عن طريق السواقي، تُروى بهم الحقول بعد أن ينحسر النهر مباشرة. تزرع أول بذرة للذرة، ويُحصَد محصوله في ديسمبر ويُنَازِر: ثم تروى الأرض ثانية، ويُنَازِر الشعير؛ وبعد حصاده تزرع الأرض للمرة الثالثة لمحصول الصيف أحياناً (٢١٠). الشعير يباع مقابل الذرة أو يُكَل أخضر في الحساء. يعانى الحصاد معاناة عظيمة من التخريب الذي تلحقه به أسراب هائلة من العصافير. لا تفلح دائماً الجهود الموحدة لكل الأطفال في القرية لجعلها بعيداً. إن دودة صغيرة تصعد سيقان النبات ما أكثر ما تدمر حقولاً بأكملها من الذرة والشعير. التبغ مزروع في كل مكان؛ إنه يحتفظ عند تجفيفه بلونه الأخضر، ويمثل بالضبط ما يوجد في الجبال على الجانب الشرقي للبحر الميت. يشكل التبغ الترف الرئيس لكل الطبقات، التي تدخنه أو تمتصه، خلطاً بالعطرون، وضعاً بين اللثة السفلى والشفة.

المساكن النوبية مبنية بالطين أو من حجارة بلا تمعين. فالتى من الحجر، كما تأملتها من قبل، تنتصب عامة في منحدرات التلال، وتتكون من بنايتين مستديرتين على انفصال، إحداهما يشغلها الذكور والأخرى إناث العائلة أما بيوت الطين فهي بوجه عام منخفضة للغاية حتى أن الواحد لا يستطيع أن يقف مستقيماً القامة فيها؛ السقف مغلف بسيفان الذرة التى تبقى حتى يأكلها البقر، في حين تطرح غصون النخيل تقاطعاً معها. المساكن في الدر، والأخرى التى يملكها السكان الأغنياء في القرى الكبرى، متينة البناء، لها مساحة كبيرة في المركز بها وحدات سكنية تحيط بكل المكان، وفواصل بين بيوت الرجال والنساء. الأوانى المستهلكة في المنزل النوبى تتكون من حوالى نصف دسنة من الجرار الفخارية، من واحد إلى قدمين قطراً وحوالى خمسة أقدام في الارتفاع يحفظ بها كل تموين العائلة: بعض الصحن الخزفية، طاحونة يدوية: طورية؛ وعصى دائرية قليلة يلقى فوقها النول.

إلى الشمال من الدر اللباس عادة قميص من الكتان لا غير، تلبسه الطبقات الأغنى أزرق اللون، أو الجلباب الصوفى لفلاحى مصر العليا: غطاء الرأس مطوقة بيضاء صغيرة من الكتان تلف حولها أحياناً خرق قليلة كالعمامة. يمشى الأولاد والبنات الصغار عراة: النساء يربطن أنفسهن بقطع من الكتان أو جلباب فضفاض من الصوف الأسود؛ يلبسن أقراماً في الأنتين وأساور من الزجاج بالمعصمين، واللائى لا يستطيعن أن يشترين الأسورة يصنعنها من العشب الجاف يثهدل شعرهن ضفائراً طويلة على العنق، وعلى الجزء الخلفى من الرأس يلبسن زينات مفقولة من الزجاج أو الحجارة تجميلاً وتماث على السواء. تلبس الطبقات الأغنى حجولاً من النحاس أو الفضة حول القدمين جنوب الدر، بصورة رئيسة في سكوت والمحس، يسير الفتيان عراة على التمام فيما عدا الأجزاء الجنسية، التى يغطيها الرجال بإزار صغير. شعر الناس في المحس كثيف جداً لكنه ليس خشناً أو بلا نظام. يلبس كل الفتيان قرطاً واحداً، إما من فضة أو من نحاس، في الأذن اليمنى وحدها، ويحمل الرجال من كل الطبقات في العادة مسبحة تتدلى حول العنق، لا يزيلونها أبداً عنهم: كذلك يربطون حول ساعد واحد، فوق الكوع، عددًا من الأحذية مغطاة بالجلد حوالى ثلاث أو أربع بوصات عرضاً، تحتوى كتابة غيبية وصلوات، تباع لهم من جماعة الفكى.

قلما يسير النوبيون بلا سلاح؛ ما أن يشب غلام عن الطوق حتى يصبح أول مسعاه أن يشتري خنجرًا مائلاً، على قصر، يلبسه الرجال ربطاً بأعلى الكوع الأيسر، تحت القميص، يشهرون على بعضهم بعضاً عند أدنى عراك. أينما سار النوبى من قرية إلى أخرى يحمل عصا طويلة ذات ثقل يجلل الحديد إحدى طرفيها، أو رمحاً ودرقةً صغيرة الرمح يقرب في الطول من خمسة أقدام، بما في ذلك رأس الحديد؛ وللدراقات أحماد متنوعة بعضها مستدير له في المركز مصدم؛ والأخرى تناهز الدرع المقدونى القديم، مستطالة الغالب، أربعة أقدام طولاً ولها أطراف مقوسة، تكاد تستر الجسم كله. هذه الدروع، التى يبيعها عرب الشايقية، مصنوعة من جلد فرس البحر، وهى حائل دون طعان الحراب أو ضراب السيوف إن هؤلاء الذين بمستطاعهم حيازتها يمتلكون كذلك سيفاً مثل السيوف التى يحملها فرسان العصور الوسطى رسماً؛ نصله مستقيم له طول وعرضه بوصتان تقديراً، ذو مقبض كالصليب شكلاً. أما الغمد، من أجل الثقيلة السائدة، فهو أعرضُ قرب الحافة عنه في القمة. هذه السيوف من صنع ألماني تباع إلى النوبيين من تجار مصر بأربع إلى ثمانى دولارات للقطعة (٢١١). السلاح الناري غير منتشر؛ تملك الطبقات الأغنى أعواد كبريت بطيئة الاشتعال. الذخيرة نادرة جداً وذات قيمة عالية؛ لذلك يفعل الرحالة خيراً إذا حملوا معهم بضع عبوات، هدايا رحيبة القبول. وعندما تركت معسكر محمد كاشف [أحد الحكام الإقليميين] في تيناره، جرى ابن أخته خلفى مليون على الأقل ليحصل على عبوة ذخيرة واحدة منى، وأخبرنى أنه أطلق الوحيدة التى لا يملك غيرها خلال ابتهاجات اليوم السابق.

لقد أوردت سابقاً الأظفحة المعقاة للنوبيين خبز الذرة شائع لأقصى حد من غير ملح يصنع. علي صاج أو لوح حديد رفيع يعد، وبين أعراب البدو يستعمل، غير أنه بسبب أن العملية الكلية للطحن، والمعجن، والخبز لا تشغل ما يتعدى عشر دقائق، يمكن بسهولة أن يفترض أنه لا يخبز أبداً بإتقان. الذرة التى يستعمل أثناء اليوم تسحقه النسوة في الصباح الباكر، لأن النوبيين لا يحتفظون أبداً بوجبة في مخزن. وفي سكوت والمحس يصنع الخبز أقراصاً مستديرة شديدة الرهافة، توضع فوق بعضها بعضاً عندما تقدم في الوجبات. أما لحم الحيوان فتأخذ ما يتذوقه النوبيون: بل إن الحكام لا ياكلونه في كل يوم يشبع نبيذ البلع في القرى الكبيرة؛ إنه ليس غير سارٍ في

التدقيق رغم أنه حلو وتخفيف جداً يُشرب بأى كمية مقدرة. يصنع النوبيون إضافة إلى ذلك خمرأ معصوراً اسمه بوظة، يمثل الجعة كثيراً. يستخرج من الذرة أو الشعير، على أن الأجود يستحضر من الشعير. وهو ذو لون حمى ومغزى للغاية. في القاهرة وفي كل مدن مصر العليا وقراها هناك حوانيت لببيع البوظة، يقوم عليها النوبيون بلا منازع كميات عظيمة من النبيذ والخمر تقطر من البلح وتبشرب في الدر، حيث تبايع في حوانيت تدار لهذا الغرض، وحيث الطبقات العليا مخمورة حتى الثمالة كل مساء (٢١٢). يستخرج نوع من العصير الحلو أو العسل من البلح يؤدي للأغذية دور الحلوى وفيما عدا أشجار البلح وقليلاً من حدائق العنب التي شاهدها في الدر، ليست هناك أشجار للأغذية في النوبة.

الرجال في النوبة عموماً في خلقة حسنة، اقوياء مفتولوا العضلات، ولهم ملامح دقيقة؛ يقلون في طولهم الطبيعي نوعاً ما عن المصريين. ليست لهم شوارب وما بهم سوى لحى صغيرة، يبتونها تحت الذقن وحسب ... في المرور على طول وديان النوبة يقع لي دائماً أن أذكر أن حجم السكان وشكلهم كان منسجماً بوجه عام مع عرض تربتهم الصالحة للزراعة؛ حيثما كان السهل عريضاً والغلات ... في ظروف أيسر بالمقارنة، تجدهم أطول قاماً وأقوى عضلات وصحة؛ لكنهم في المقاطعات الصحيرية حيث لا يزيد السهل عن عشرين أو ثلاثين ياردة في العرض لهم هيئة هزيلة علي فقر، يظهرون في بعض الأماكن كأنهم هياكل عظمية تمشي.

النساء جميعهن علي خلق حسن، ومع أنهن لسن وسيما، فإن لهن على المعموم طمعة حلوة وسلوكيات مرضية للغاية؛ لقد رأيت جميلات بينهن ... لكنهن في إعياء يتداعى منذ السنوات الباكسة بسبب العمل المتواصل، كل عمل المنزل متروك لهن بينما الرجال في شغل مطبق يفحصون القرية من كل نساء الشرق أولاء الواثي في النوبة هن الأعظم فضيلة؛ هذه هي أسماى ما يمتدح إذ أن صاحبتين كانت في مصر العليا، حيث الشهر لا يعرف حدوداً، وكان متوقفاً أن يكون لها اثراً ما عليهن (٢١٣).

يحصل النوبيون علي زيجاتهم من الوالدين: المهر الذى يدفع عادة بين الكونز يبلغ إثني عشر مذهباً، أو ستة وثلاثين قرشاً (٢١٤) يتزوجون في معاودة مع عرب العباد، الذين يطلع بعضهم القرية منهم، الفتاة العبادية مهرها ستة جمال. تدفع هذه لآبيها، الذى يعيد دفع ثلاثة منها لابنته كى تصير ملكية لها ولزوجها. فإذا وقع طلاق، تذهب نصف قيمة الجمال الثلاثة للزوج. النبوى غيور لأقصى حد على شرف زوجته، ولاخف إرتباب في تنصلها من ولاتها نحوه يحملها في الليل إلى جانب النهر، يفتح صدرها بخنجره، ويقذف بها إلى غور الماء كتصير طامعاً للتماسيح، كما يصطلحون على ذلك. حالة من هذا النوع حدثت مؤخراً في أسوان (٢١٥).

عامة النسوة اللاتي يُقابلن بالآلاف في كل جزء من مصر، لا يتحكم وجودهن في النوبة عدا في الدر [عاصمة المحافظة في زمن بورخارت]. وأولئك لسن مواعظات أصليات لكنهن إمامات حرور وكن، لتركهن مشردات، يدفعن أنفسهن لهذه المهنة الرذيلة ليكسبن عيشهن. إن الاستعدادات الفاجرة [أى تكاح الفلمان] التي جعلها الممالك شائعة في مصر، حتى في أواسط أدنى الفلاحين، مُمسكٌ عنها بإستزهاب في النوبة بإستثناء الكشاف [موظفوا الدولة الحاكمين - انظر الفصل الثامن عشر] وأقاربهم، الذين يسعون لمحاكاة الممالك في كل شئ حتى أسوأ رذائلهم مبعثة على الإستهجان.

المغازل الصغيرة ما أغز ما تشاهد في بيوت النوبيين؛ بها تنسج النساء أغطية صوفية وأقمشة قطنية شائعة للغاية بصنعها مخصصاً. ومن أخصان شجرة النخيل يشكلن إضافة إلى ذلك حصائرأ، وأقداحاً صغيرة للشرب، وأطباقاً كبيرة عليها يقدم الخبز في المائدة؛ ومع أن هذه المواد مصنوعة في جمعائها باليد، فإنها جعلت بطريقة بدعية للغاية بحيث أنها تأخذ مظهر المصنوع بالآلات. والمذكورة بعاليه هي المصنوعات الوحيدة في النوبة؛ كل شئ عداها مجلوب من مصر.

الألة الموسيقية التي رايتها في النوبة كانت نوعاً من الطميرة (عود) المصرية بخمسة أوتار، ومغطاة بجلد غزال ... (٢١٦) البينات مولعات بالفناء والأجواء النوبية حافلة بالأنغام (٢١٧).

لعبة الشطرنج عامة في الدر، وتلك المسماة بياضاً ما أدومها لعبة كذلك.

وجدت النوبيين عموماً ذرى إلفة حانية، ليس لديهم ذلك الإستعداد للسرقة الذى يعد خاصية للمصريين - على الأقل أولئك إلى الشمال من أسبوط. النشل حقيقة يكاد لا يُعرف بينهم، وأى شخص يبدن في مثل هذه الجريمة سينفى من القرية عن طريق تصويت سكانها بالإجماع (٢١٨). لم أفقد ولو اتفه المواد قيمة خلال رحلتي عبر البلد، بالرغم من أننى اتام دائماً في الهواء الطلق أمام المنزل عندما أستجمع قبيلتي ليلاً (٢١٩). إنهم على العموم مضطايين تجاه الغرباء، لكن الكنوز وأهل سكوت أقل ممارسة لذلك من السكان الآخرين. حب الإستطلاع يبدو أنه أشد الخصائص غلبة في شخصيتهم، يسألون ضيفهم بوجه عام ألف سؤال عن المكان الذى جاء منه، والعمل الذى جاء به إلى داخل النوبة.

لو لم تكن الحكومة طاغية إلى أقصى حد [قارن الفصل الثامن عشر] ربما أصبح النوبيون جيراناً خطرين على مصر، ذلك أن روحهم أعلى جرة واستقلالاً من المصريين، ويلتصقون في شغف بترابهم الوطني. تذهب أعداد كبيرة منهم إلى مصر سنوياً، حيث يعملون على وجه العموم حاليين، ويُفضلون على المصريين تقديراً لأمانتهم. بعد بقائهم هناك لست أو ثمانى سنوات يرجعون إلى وادى أهاليهم بالملكية الصغيرة التى أدركوها، رغم أنهم يعلمون جيداً أن ألران الترف الوحيدة التى يمكنهم توقعها [في القرية]، مقابل ما يوجد منها في مصر، هى خبز الذرة وقميصاً من كتان. إن أولئك الذين لا يسافرون إلى مصر يصعب بالمرء أن يذهبوا وراء مشارف قريتهم، ذلك أن النوبيين عامة ليس لهم ميل نحو المخاطر التجارية لاقبت في إيريم رجلين عجوزين أكدا لى انهما مازارا الدر أبداً، مع أنها تبعد مسافة خمس ساعات فحسب. هؤلاء النوبيون الذين أقاموا في مصر وبوسعهم التحدث بالعربية وهم مسلمون ملتزمون بكقاعدة عامة، ويقومون صلواتهم يومياً، علي أن الصلاة الوحيدة التى يعرفها الآخرون بصورة عامة هى هتاف قوى «الله أكبر» [الإله أعظم قوة]. قليلون يقومون بالبحر لينك في طريق سواكن.

قُدِّرَت كل سكان النوبة، من أسوان إلى الحدود الجنوبية للمحس، في إمتداد لقطر طوله حوالى خمسمائة ميل ومتوسط عرضه نصف ميل، بمئة ألف نسمة (٢٢٠).

على النقيض من الفقر والقمع اللذين كانا في كل مكان ظاهرين في النوبة الشمالية، صادف بورخارت مركزاً لسوق مزدهر في شندى، ليس بعيداً عن خرائب مروي القديمة. في وصفه المزدلف لوتاً في إستنبصار للسوق، مسترسلاً فيما يقارب المائة صفحة (٢٢١)، يؤثت صورة لجانب مختلف للغاية عن حياة القرون الوسطى في السودان. (إسم "النوبة" لا يمكن لأى مدى أبعد من ذلك أن يطبق فنياً على هذا الجنوب البعيد، حيث أن قبيلة الجعليين الذين كانوا عماداً لسكان شندى توقفوا عن التسليم بأى سلالة نوبية لهم في زمن بورخارت) وبسبب طول الوصف الأصلي، من الأفضل أن ننقل هنا ملخصاً فصيحاً لآلان مورهد:

البياسط الأخضر هنا علي كل من جانبي النهر ما هو بعريض جداً ... وراء بضع مئات من الياردات لا يرى شئ سوى نتوءات بارزة في جمود لصفر مسود في سهل شاسع من الرمل والحصا، يتراعى السراب في حرارة منتصف النهار، وكثيراً ما تجتاح سحب عظيمة من الجراد والعواصف الخائفة أجزاءً من البلد. لربما يفكر الواحد، لذلك، أنه لم يكن هناك إغراء شديد لبني الإنسان كي يقيموا هنا. إلا أن بورخارت وجد المنطقة مأهولة بالسكان، وشندى نفسها، بحوالى ستة آلاف مقيم، كانت أكبر مدينة في وسط السودان.

بنظرة صافية كان هناك سبب خاص لما كان على أناس غفيرة للغاية أن تختار الحياة في هذا المكان غير الجذاب، والإجابة، نحو ما اكتشف بورخارت سريعاً، تكمن في سوق شندى. لقد كان سوقاً كأنه من نسج الخيال بالنسبة لمكان شديد الصغر كهذا المكان. في فضاء مفتوح يقلب المدينة ثلاثة صفوف من القطاطى المنصوية، هنا كل جمعة وسبت، على بعد آلاف الأميال من أى جزء في العالم للواحد أن يدعو حضارياً، يمكنك أن تشتري أشياء مثل التوابل وخشب الصندل من الهند، وكحلأ لسواد جفون العين، وأدوية، وسيوفاً وعدى ألمانية، وسروجاً ووضائع جلدية من كردفان، وورقاً للكتابة وعقوداً من جنوا والبندقية، وقماشاً، وفخاراً، وسلاط من كل نوع، وصابوناً من مصر، وقطناً، وملحاً، وذهباً إثيوبياً. كان هناك مبيع حتى للقرود المدربة لعمل الحيل، وحصون شندى الخشبية، مطروقة ومسودة بوضعها على النار، شهيرة كانت (٢٢٢). السوق كذلك كان ذائع الصيت لبيعه خيول نغلا، والإبل



وحیوانات أخرى لتحمل هذه البضائع قاطعةً بها الصحراء.

أما الأجنحة حيث معظم التجارة معروضة، فقد كانت بائسة، رتازين صغيرة مقاييسها ستة أقدام طولاً وأربعة أقدام عمقاً بحصائر من العشب سقفاً ما كانت تحوي وسائل لإغلاق هذه الأجنحة - في غياب المسامير تعقل الأبواب معاً بحبل - وهكذا في كل ليلة يُكُوم التجار بضائعهم ويأخذونها ليبيتهم في المدينة. إن أموالهم (بشكل رئيس هي الدولار الإسباني، لكن أي عملة تؤدي الغرض) يقومون بفنائها في الأرض، على صعيد واحد يصطنع أغني الرجال ضنك الفقر في الحياة بغرفة واحدة، ينامون على التراب ويلبسون ما لا يزيد على إزار. ما كان للسوق أسعار محددة (رأى بورخارت أن العسامة كانت تبدو كاقرب ما تكون عليه غشاً لا مراء فيه)، تأخذ المقايضة محل النقود مجدداً، والشجار مستمر. كانت لشندى زراعة قليلة، والحرف المحلية ما كانت شيئاً يثير مبلغ العجب. "التبادل السلمي" يقول بورخارت كان إكسبير حياة المجتمع، ولا ينظر الناس أبداً إلى مدى أبعد من حانوت البوظة أو خلايا البغايا لردائهم. إلا أن ذلك كان جواً مفعماً بالحياة، والتجار، الذين يتراوحن بين الأشد عروية إلى الأحلك زنوجة، من المحمدانيين (\*) بالعمائم والأرواب إلي الوثنيين العرايا، كانوا خليطاً عجيماً من القبائل، والأناس من شمال شرقي إفريقيا. في الحرارة والغيار يجلسون على أقدامهم أمام أجنحة معروضاتهم، يسامون منذ فجر الصباح إلى وقت متأخر من الليل، هنالك دائماً وصول لقافلة جديدة، وأخرى تشرع في الرحيل ثانية إلى باطن الصحراء

أما الذي أكتشفه هنا، في الحقيقة، فكان طرق النيل المتقاطعة العظيمة. فالنهر في هذه النقطة يجري بالقرب دُونه من الطرف الجنوبي للبحر الأحمر، وإذا كان الطريق مفتوحاً لشبه الجزيرة العربية والهند، والشرق الأقصى. إلى الغرب قادت طرق القوافل، محافظة بكبر قدر ممكن على سيرها في نطاق غطاء حزام المطر وجنوب الصحراء، من واحة إلى واحة، إلى بحيرة تشاد وتمبكتو. أتاح وادي النيل نفسه طريقاً إلى مصر في الشمال، ويمكن الوصول إلى إثيوبيا بالآثر الذي ناد عبر الممتدة إلى قنذار. في طريقة غريبة لكنها محتومة تتجمع هنا كل مواضع النهر. الغزوات، والمغريرون من أجل الرقيق وقوافل التجار وحجيج مكة - عرفتهم شندى جميعاً لألف عام، ومثل سوقها ما انفك صُرة أصيلة للماضي كانت هناك أسواق أخرى صوب النهر نحو مجراه جنوباً وإلى أسفل هذا الجزء من النيل، لكن شيئاً منها ما كان مهماً كهذا، ما منها من مُد اتصالاً لهذا الحد، ما منها من كان له تقليد متصل كهذا أو كان قادراً على أن يعكس ما به يمثل تلك الكثرة. لقد كانت، في ناحية، عالماً مصغراً للنهر...

ختاماً يمكننا أن نرقب أن الفارق بين هاتين المقاتلتين من بورخارت هو إلى حد بعيد كالفارق الذي يعيش اليوم، في أذهان النوبيين - بين أنفسهم - وبين جيرانهم "العرب" إلى الشمال والجنوب، في جانب واحد النوبيون الفقراء لكنهم على استقامة موقرى النفوس؛ وفي الجانب الآخر "الأعراب" شائخين ومفسدين.

### ملخص تفسيري

من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر تدفق العرب جنوباً من مصر إلى السودان، أولاً على طول تلال البحر الأحمر ثم غرباً إلى النيل وما وراءه، يدمرون في العملية البقايا الأخيرة للممالك المسيحية المستضعفة من قبل. غير مجيئهم بشكل دائم التوازن الإيكولوجي بين الصحراء والزراع: من القرون الوسطى إلى أزمان حديثة طغى عدد من رجال القبائل في أرض الهامش على المزارعين بامتداد النيل، وسيطروا عليهم بصفة عامة سياسياً. وبالرغم من أن عديداً من المهاجرين العرب واصلوا مثابرتهم من أجل وجود بدوي في السودان، إستوطن آخرون أرياباً للنوبيين وجماعات سكانية مستقرة أخرى، توحدوا معهم إمتزاجاً بالتدريج.

بخضوعهم للعرب الفاتحين، وتحلل مجتمعهم السياسي إبان القرون الوسطى، صار النوبيون متميزين بالإختيار والضرورة للنظام القبلي العربي. وبمضى الزمن إستعرب النوبيون تجاه النهر جنوباً (\*) أي المسلمين أتباع النبي محمداً عليه أفضل الصلاة والتسليم - المترجم.

من ثقبلاً، وهم الذين كانوا تحت حكم عربي مباشر وعلى صلة دائمة مع أعراب البدو، إلى حد فقدان لغتهم الوطنية ذات الأصالة وكل ذكرى لأصولهم القديمة، رغباً عن أنهم ظلوا متمسكين بحياة الفلاحة الجلوسية المستقرة لما قبل الأزمان الإسلامية. كما يبصرون أنفسهم وفي عيون جيرانهم توقف هؤلاء الناس من أن يكونوا نوبيين. عدا أن الترتيب الاجتماعي لنظام العشيرة العربي كان من الذبوع بحيث أن النوبيين الذين يعيشون في إتجاه النهر شمالاً من ثقبلاً، وقد أبقوا على لغتهم الأصلية وكانت لهم خبرة مباشرة قليلة بحكم العرب، بلغوا مع مضي الوقت حد التفكير في أنفسهم كعرب ورجال قبائل. في أزمان وأمكنة أتاح النظام القبلي العربي الحكومة الوحيدة التي يعرفونها، بل إنه بعد ظهور حكومات أشد مركزية ظلت رؤيتهم للوجود بالضرورة واحدة قبلية، وما فتئت كذلك إلى هذا اليوم في بعض الوجوه.

أصبح النوبيون بصيرورتهم "عرباً" إلى ذلك "مسلمين بالإلتحاق" كتوع من أنواع الحديث، بيد أن معرفتهم الجوانية بدينهم الجديد، الذي اكتسبوه بطريقة رئيسة من البدو الأعراب غير المتعلمين، كان صعباً أن يعتمد إلى ما وراء إعتناق الإيمان. ومثل ما يبين وصف بورخارت، كان ذلك لا يزال صحيحاً في بداية القرن التاسع عشر. للنوبيين وما يقرب من كل أقوام السودان الأخرى لأن يكون المرء مسلماً فذاك يُضمّن كونه عربياً؛ لقد كان إلتناء [للعرق] أرجح منه إيماناً بالعقيدة.

إلى المدى الذي كان أي نشاط ديني حقيقي متواجداً فيه لدى سودان ما بعد المسيحية، ما كان ذلك عملاً لأعراب البدو ولكنه ترك لحفنة من معلّمي الدين الاتقياء الذين دعاهم إلى داخل القطر سلاطين الفونج. كانوا في الغالب الأعم ممثلين للطرق الصوفية الغيبية، وكان نوع الذكر الذي غرسوه هو ما حملته طوائف لا حصر لعددتها، الإعتقاد في الأولياء والكرامات، التي دائماً ما ارتبطت بالصوفية، وتظل خاصة لإسلام السودانيين اليوم. المدارس التي أسست من الدعاة الأولى كانت بصورة متزعة في إقليم الفونج بالجنوب، لكنه مع تشعب الحركات أنشئت مدارس أخرى شمال مجرى النيل إلى مسافة كُتبلاً، وفي غرب السودان. عبر وكالة هذه المدارس وشيوخها القائمين برئاستها أضحي نوبيون كثر منتسبين لولادة أو أخرى من الطرق الغيبية، واكتسبوا على الأقل معرفة أولية بطريقها الخاص أو "نهج استنارتها". إننا لا نعلم شيئاً عن التعليم الديني في النوبة الشمالية، غير أنه في تاريخ باكر يثير الدهشة بدأت جماعة الفكى نوبية محسية في الظهور أعداداً معتبرة في الأراضي الخاضعة للفونج.

رغباً عن أن تبنى الإسلام ونسب العرب المصطنع غيرا جذرياً نظرة النوبيين لأنفسهم، فإن ذلك لم يؤثر بالمثل على نظرتهم للعالم من حولهم على غرار ما فعل تبنيهم للمسيحية قبل ألف عام سالفه. فكما رقبنا أنفاً، إن الكونيات بالنسبة لمسيحية القرون الوسطى وإسلام القرون الوسطى متشابهة بالضرورة، بتأكيدها على الأولياء والمعجزات، وحجيجها وتبائتها المتنوعة، وتوقعها لمخلص قادم. علاوة على ذلك كانت الظروف الدنيوية للنوبيين متأثرة في صعوبة بدينهم الجديد أو بمجيء العرب على قدم المساواة. الأرباب الجدد ما فعلوا سوى نقل بذرة لنظام إقطاعي أقدم باعاً كأنما كان على حد سواء منشطراً، وخبر النوبيون مواصلة الفقر والإنشاق السياسي الذين كانا قائمين قبل وقت طويل من مجيء العرب. لكل هذه الأسباب يبدو مشروعاً، بالرغم من الإفتقاد إلى تواصل معروف، أن تعتبر الفترات المسيحية والإسلامية معاً لكونها أقامت وفقاً للقرون الوسطى بُعد تعريفه أعرض إتساعاً (٢٢٤) - طوراً لم ينته حتى مطلع القرن العشرين، وفي بعض الجوانب ما انتهى بعد.

## الفصل الثامن عشر

### عودة للولاية

### السودان في ظل حكم الفونج، والأتراك والمصريين

القول المأثور بالنسبة للعرب، "ليس هناك تاريخ؛ هنالك سيرة حياة فحسب" <sup>(١)</sup> كأنه حق بأحرفه . إن ثقافتهم، مثل ثقافات معظم شعوب الشرق الأدنى، موجهة نحو أشخاص الناس بمستوى غير عادي. الحركات الدينية، والملل السياسية، ومدارس القانون حتي الحكومات والإمبراطوريات، لتتطور حول مناطق جغرافية أو أفكار مجردة لكنها ترتقي حول ارتقاء الأثر الجاذب للسحر الأيدولوجي لشخصيات فريدة. بنفس القدر، تبدي الأعمال التاريخية لمفكرين متعمقين وناقدين أمثال ابن خلدون والمقرئزى نكهة قوية للسيرة الحياتية، بينما التواريخ الشعبية للحشود الأمية لا تعدو إلا قليلاً كونها متشابكاً من أشجار النسب والسير الذاتية للأولياء. هذا الدفق الموروث، كما رأينا في الفصل السابق، يمكن أن يساهم مساهمة هائلة، ولو بصورة غير مباشرة، في فهمنا للتاريخ الثقافي، بالرغم من أن قيمتها زهيدة لكاتب السيرة التاريخية المعهود.

من وجهة نظر التاريخ السياسي، تظل الفترة ما بين حوالي ١٥٠٠م و ١٨٠٠م إلى هذا اليوم واحدة من أشد العصور ظلاماً في التاريخ النوبي <sup>(٢)</sup> . بين النوبيين، إختفى كل من فن الكتابة وتأمين تاريخهم الخاص وفي صحبته الإيمان المسيحي، ما كان حتى القرن التاسع عشر أن اللغة العربية المكتسبة حديثاً عمل بها لأي مدى لنصوص غير دينية. إضافة إلى ذلك، عقب الزبارة الخاطفة لدايفيد روبيني في ١٥٢٢ <sup>(٣)</sup> (قارن الفصل السادس عشر) لم يقطع زائر أجنبي البلاد المعزقة نزاعاً، على افتقارها، لمائة وخمسين عاماً، بل اعتُبر المرور عبر النوبة السفلى و بكن الحجر في القرن الثامن عشر من الخطورة الشديدة حتى أن حفنة من الرواد الأوروبيين الذين صعدوا للحبشة <sup>(٤)</sup> فضلوا مشاق طريق القوافل الصحراوية على ضراوة مكوك النوبيين والجعليين <sup>(٥)</sup> . ما كان حتى عام ١٨١٣ أن بورخارت الشجاع بهيمته العالية قام بأول صعود من أسوان إلى دنقلا، وترك لنا بمحض المصادفة أول وصف تفصيلي للنوبيين وبلادهم منذ زمن ابن سليم <sup>(٦)</sup> . لذلك يقع على عاتقنا إعادة بناء التاريخ السياسي للنوبة بدرجة غير معتادة في الفترة المباشرة لما بعد المسيحية، إسهاباً من الإستنباط والإستدلال .

يبدو واضحاً أنه، فيما عدا الجنوب القاصي (انظر أدناه)، ما كان هنالك خلفاء حاليون لسلطة الممالك النوبية المسيحية. كان الدفع الكلي للتطور السياسي في الجزء السالف من العصر الإقطاعي (بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر) واحداً من اللامركزية المتزايدة. الأنظمة الملكية في القرون الوسطى أضحت مستضعفة حتى في نطاق الفترة المسيحية بنهوض الإقطاعيين المحليين، وهؤلاء بدورهم أطيح بهم وحلّ محلهم النظام القبلي العربي الذي كان ولا يزال أشد لامركزية وإفتقاراً للسلطة الحاكمة. كما رقب المهدي في بلاغة "عندما نظلت قبائل العرب السودان كانت أولاً غير قادرة على منح الأقاليم المفتوحة حكومة مركزية من أي نوع . بدلاً من ذلك تقسمت البلاد فيما بينها، وحصيلة لذلك، كان النوع الوحيد من الحكومة التي قامت في السودان هو المشيخة العربية التقليدية التي تقوم على القبيلة" <sup>(٧)</sup> .

لقد أوردنا أنفاً في الفصل السابع عشر عدم الثبات السياسي لأقصى حد للنظام القبلي العربي السائد بين جماعات أعراب البدو. وعندما استوطن العرب الفاتحون وتزوجوا مع رعاياهم النوبيين، كيقما تم ذلك، كان مما لا مهرب منه أن عليهم أن يكونوا تجمعات "قبيلة" أرسخ ثباتاً ودواماً وقد كانت - على غير ما عليه تجمعات البدويين - موثوقة عن قرب ومستديمة بالنسبة لأقسام محددة من وادي النيل. هكذا كانت "قبائل" الجعليين والنوبيين وما انفكت إلي اليوم. إن القادة، أيضاً، كان باستطاعتهم أن يوطدوا مواقعهم وأن يحققوا درجة من الحكم الرواقي بصفتهم الطاغية التي نادراً ما يؤذن بها لزعماء البدو. صار شيوخ القرن السادس عشر موكوكاً في القرن السابع عشر: أرباباً لأسر محلية حكموا أقاليم صغيرة يعون جيوش مهياة مكونة دائماً من العبيد - وعاشوا عن طريق إستخراج الجباية أساساً من رعاياهم الزراعيين ومن القوافل العابرة. (إن لقبهم تحريف لمليك، الكلمة العربية لـ "ملك") بذا ورت موكوك الجعليين والنوبيين، أو إنهم أحيوا في تعبير ابلغ سلامة، نوع السلطة التي كانت تباشر من الإقطاعيين المحليين في أزمان مسيحية متأخرة ومثل أسلافهم إتخذوا الحصن تعبيراً رؤساً لسلطتهم.

بحلول القرن السابع عشر كان وادي النيل شمال سوبا ( أي ملتقى النيلين الأزرق والأبيض) مجزأ بين موكوك مما لا حصر له: قرى، وشندى، وبرير، زيادة على مدينة الدامر الدينية المستقلة، في المنطقة التي تعلو الشلال الخامس، موكوك الشايقية الأربعة في عمري، ومروى، وكجبي، وحك، ومقاطعات دفار، وأبكر، وجزيرة تنقسي، ودنقلا العجوز، والخندق، وخناج وجزيرة أرقو في أرض دنقلا النهرية (لقائمة متكاملة من موكوك الجعليين والنوبيين، و "قبائلهم" التابعة لهم أنظر الشكل رقم ٨٢). إلى الشمال من الشلال الثالث ما كان هنالك موكوك مثل هؤلاء؛ كانت المنطقة محكومة بموظفين مسؤولين عنهم الأتراك يدعون الكشاف، سنعرض تاريخهم بتفصيل أوفى مؤخرًا (انظر الحكم العثماني في الشمال). مع هذا، ما كان وراء الكشاف السلطان العثماني إلا إسمياً: كان حكمهم غير مميز عن حكم الموكوك عملياً. لثلاثة قرون كان على هذه الإقطاعيات الصغرى - الكشاف في الشمال و الموكوك في الجنوب - أن تزود الإطار الثابت دون سواء للحكومة في وادي النيل. حافظ بعض من أقوى الموكوك على مواقعهم تحت الأنظمة الإستعمارية للقرنين التاسع عشر والعشرين؛ وألغى آخرهم في ظل الحكومات الثورية في الستينات.

كان موكوك الجعليين أولاً وفوق أي اعتبار آخر قادة عسكريين يمارسون سلطة مدنية بالقوة. إن أولئك الذين كانوا في الجنوب (في قرى وشندى) حكموا أجساماً كبيرة من قوات الرقيق، بينما كان حكام الشايقية أعضاء لصفوة محاربة تدعمهم بعيدة كل البعد عن الزراعة والتجارة. من خلال حروبهم المميتة خرج بالتدريج نظام سلطوي متسلسل بين الإقطاعيات المختلفة: عادت إلى السودان حكومة مركزية طرازاً ما. وفي منطقة دنقلا، طبقاً لتقليد نوبى لعدة قرون كانت النوبة محتلة من ... أعراب في حرب متواصلة بعضهم ببعض، إكتسب ملوك دنقلا من إوارها نفوذاً واسعاً يحقهم حتى بات بمقدورهم أخيراً أن يفرضوا عليهم دفع الجزية<sup>(٨)</sup>. وقع فيما هو واضح نفس هذا النمط من الأحداث في برير وشندى. بنهاية القرن السادس عشر كان هؤلاء "الموكوك العمدادين" خاضعين بدورهم لسلطة لا تزال أعلى، مودعة في سلاطين سنار السود (انظر أدناه). غير أن نوع الحكومة المركزية التي قاموا بتحقيقها كانت صرخة نائية عن الإدارة الدينية الحازمة للملكيات المسيحية السالفة إتشاقاً مع ما كتب كراوفورد:

الإدارة كانت ... مرتخية، والحكام النهرين التابعون، متى حصلوا على مناصبهم، كانوا يتكون لحالهم. إن علينا، في دراسة تاريخ هذه المناطق، أن نحرر عقولنا من الخطأ بالنسبة لكل تصورات أوروبية حديثة عن الحكومة. كان مفهوم الوصاية غير معلوم تماماً؛ تمارس السلطة السياسية غاية واحدة لمنفعة أولئك الذين أمسكوا بزمامها (بالقوة أو بالإتحاد الوثيق) دونما اعتبار لمصالح الرعية. القانون والنظام في صون لأنه، بدونها، تتعرض قواعد الجزية للخطر، لا يحس الحاكم الأعلى بمسؤولية أخلاقية نحو خير رعاياه. إن نظام القرابة في إنجلترا القرون الوسطى كان قائماً على نظرية سياسية معاملة ...<sup>(٩)</sup>

## الجدول السابع

### مدونة زمنية للزوار الأجانب للثوبة والسودان ، ١٥٢١ - ١٨٢٢

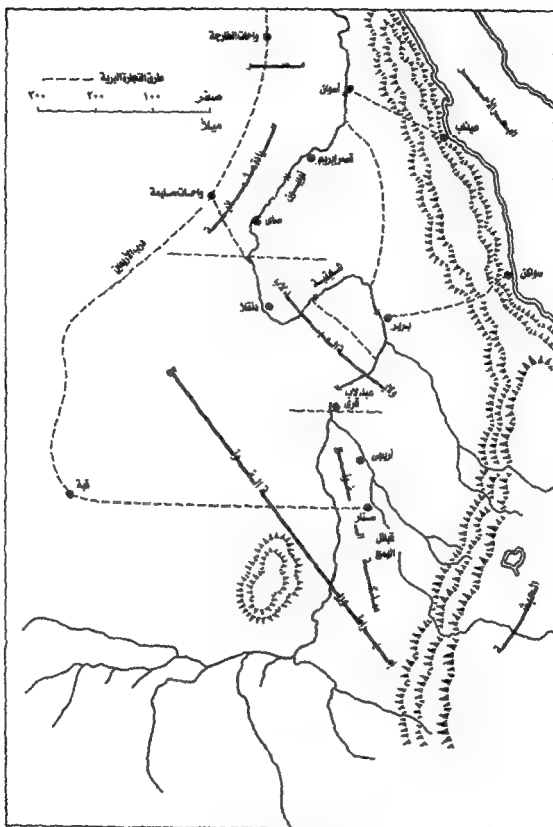
السنة	الزائر	خط السير	الغرض	التقرير المنشور
١٥٢١-١٥٢٢	ديفيد رويني	سواكن إلى الحبشة (٤) براً إلى سنار؛ وعن طريق النيل إلى مصر	تجاري؟ دبلوماسي؟	(لا شيء)
١٦٧٢-١٦٧٣	إيفلياكلي	طريق النيل إلى الحبشة؛ عاد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر	تجاري؟ دبلوماسي؟	رحلات إيفلياكلي (بالتريكية)، المجلد العاشر (إستانبول، ١٩٢٨)
١٦٩٨-١٧٠٠	بونسيه ويريفون	طريق الواحات الغربية ، مصر إلى دنقلا؛ طريق النيل إلى سنار؛ براً إلى الحبشة؛ عاداً إلى مصر عن طريق البحر الأحمر	طبي رسولي	بونسيه ، رحلة إلى إثيوبيا (لندن ، ١٧٠٩ )
١٦٩٨-١٧٠٨	البعثات الفرنسيسكانية	نفس الطريق إلى إثيوبيا مثل بونسيه ويريفون؛ عاد أعضاء عديدون إلى مصر دروباً مختلفة في أوقات مختلفة	رسولي طبي	كرب Hoher und Fruchtbärer Palm Baumdes Heiligen Evangelij (انسيرج ، ١٧١٠)
١٧٠٤-١٧٠٥	لأنوار دو رول	طريق الواحات الغربية، مصر إلى دنقلا؛ طريق النيل إلى سنار (قُتل في سنار ١٧٠٥)	دبلوماسي	(لا شيء)
١٧٣٧-١٧٣٨	فردريك نورن	طريق النيل، أسوان إلى در وإياباً	كشفي	رحلات في مصر والثوبة (لندن: ١٧٥٧)
١٧٦٩-١٧٧٣	جيمس بروس	طريق البحر الأحمر إلى الحبشة؛ عاد إلى مصر عن طريق سنار، وبربر، وطريق الصحراء الشرقية إلى أسوان	كشفي	رحلات لاكتشاف منابع النيل (انفريه ، ١٧٩٠)
١٧٩٣-١٧٩٦	ي ج بروني	طريق الواحات الغربية (درب الأريعين)، مصر إلى دارفور وإياباً	كشفي	رحلات في إفريقيا ، مصر ، وسوريا (لندن ، ١٧٩٩)
١٨١٣	توماس لي	طريق النيل ، أسوان ، إلى قصر إبريم وإياباً	كشفي	وقائع رحلة في مصر (لندن، ١٨١٧)
١٨١٣	جبل بورخارت	طريق النيل، أسوان إلى دنقلا وإياباً	كشفي	رحلات في الثوبة (لندن، ١٨١٩)
١٨١٤	جبل بورخارت	طريق الصحراء الشرقية، أسوان إلى بربر؛ طريق النيل إلى سنار؛ براً إلى سواكن والبحر الأحمر	كشفي	رحلات في الثوبة (لندن ١٨١٩)
١٨١٦-١٨١٧	ج. بلزوي	طريق النيل، أسوان إلى الشلال الثاني وإياباً	كشفي	وقائع لعمليات واكتشافات حديثة في مصر والثوبة (لندن ، ١٨٢٠)
١٨٢٠-١٨٢١	واد يفتون وهنري	طريق النيل، أسوان إلى جبل البركل وإياباً (في رفقة جيش إسماعيل باشا)	كشفي	سرد لزيارة إلى بعض مناطق إثيوبيا (لندن ١٨٢٢)
١٨٢٠-١٨٢٢	فردريك كوايود	طريق النيل ، أسوان إلى سنار؛ قطع النيل الأزرق إلى الحدود الحبشية (مرافقاً جيش إسماعيل باشا)	كشفي	رحلة لمروى والنيل الأبيض (باريس ، ١٨٢١)
١٨٢١-١٨٢٢	دي بلقوند	طريق النيل، أسوان إلى سنار وإياباً (في صحبة جيش إسماعيل باشا)	كشفي	يوميات رحلة لمروى (أفطرم ، ١٩٥٨)



على رأس الهرم السياسي في ما يعد السودان المسيحي تبوأ الحكم سلاطين الفونج السود في سنار. كانت الأرض التي ملكوا عليها سلفاً مباشراً صغيرة نسبياً وواقعة بعيداً إلى الجنوب من الممالك والإمبراطوريات النوبية السابقة. اقليمها العمدية منطقة الجزيرة (الجزيرة، الواقعة ما بين النيلين الأزرق والأبيض) والمشارف العليا للنيل الأزرق وروافده، على الحدود لما يعرف الآن باثيوبيا (أنظر الشكل رقم ٨٤). إن مدينة سنار، التي اختاروها عاصمة لهم، تقع على النيل الأزرق بما يزيد على ١٥٠ ميلاً من ملتقاها بالنيل الأبيض: توصلت بما يقرب من التمام مع الحد الجنوبي المعروف للآثر المروى في أزمان سالفة (قارن الفصل الحادي عشر). في أوج قوتهم في القرن السابع عشر، بطريقة أو أخرى، مارس سلاطين الفونج هيمنة غير حازمة على وادي النيل في الشمال إلى مبلغ الشلال الثالث ومن البحر الأحمر شرقاً إلى كردفان في الغرب (الشكل رقم ٨٤). إن مدى الأراضي الواقعة تحت سلطانهم مازاد عليها سلطان في أزمان سابقة سوى إمبراطورية كوش في ذروة علاتها. كان الفونج أرباباً إسميين لكل قبائل الجعليين النوبية السابقة، والنوبيين الدناقلة، وقبائل عديدة بدوية من البجا والعرب، ولعدد كبير جداً من الأقوام السود الأصليين في أعلى النيل وكردفان.

أصول مملكة الفونج، طبقاً لسجل أحداث الفونج، تم سردها في الفصل السادس عشر. حول هذا الأثر ينسب أنه في بداية القرن السادس عشر تجمع الفونج وعرب العبدلاب للإطاحة بالباقايا الأخيرة لمملكة علوة المسيحية، التي تقسم إقليمها فيما بينهم، وتقلد الفونج السبق بسبب قوتهم العسكرية الأعلى (١٠). مع هذا توحى الدراسة العلمية الحديثة بأن سجل أحداث الفونج في جزء منه كان اصطلاحاً لخبراء الدعاية من الفونج المتأخرة، وأن الإطاحة بعلوة أنجزت بالعبدلاب وحدهم (١١). لقد كانوا، فيما يظهر، تحالفاً عريضاً لقبائل جُهينة الذين جمعوا معاً بعدد الله جماع "الجامع" عنه، الذي ينسب إسمه الأخير في رجحان بالأصول المعددة لأتباعه (١٢). بعد انتصارهم على علوة كَوَّن العرب أنفسهم بوتقةً في قبيلة جديدة وتبنوا عبد الله جماع سلفهم المسيحي، لقد عرفوا مذاك بالعبدلاب "أحفاد عبد الله" (١٣). وفقاً لموروثهم القبلي الخاص (١٤) كانوا هم، بدلاً عن الفونج، الذين "ورثوا تاج الملوك [النوبيين] المجوهر" (١٥). هذا الكلمات تشير إلى أن شيوخ العبدلاب إعتبروا أنفسهم الخلفاء الشرعيين لحكام علوة، والورثة لكل الأقاليم والجزيرة التي ادعتها في السابق المملكة المسيحية. لقد كان إفتراضاً من أجل نفس النسب السياسي أن سلاطين الفونج في وقت متأخر حازوا على تقليد العبدلاب موروثاً لهم (قارن الفصل السادس عشر). العبدلاب مع ذلك لم ينشئوا رئاستهم في العاصمة المسيحية القديمة في سوبا، حبَّذوا بدلاً منها قرية قرى، مسافة قصيرة إلى الشمال من التقاء النيلين الأزرق والأبيض.

يبدو، إذن، أن بدايات حكومة مركزية في ما بعد السودان المسيحي لا بد أن ترجع ليس إلى الفونج إنما إلى التحالف القبلي العربي للعبدلاب. إن خروجهم (وافتراض إطاحتهم النهائية بعلوة) يعتقد أنه يؤرخ من الجزء الأخير للقرن الخامس عشر (١٦) بالرغم من أن تاريخاً دقيقاً غير ممكن (١٧). بعد أن امتلكوا المملكة المسيحية الجنوبية ذات القدم، يبدو محتملاً أن العبدلاب بدأوا في توسيع إقليمهم إلى الشمال، مخضعين أقساماً من مملكة المقررة السابقة إضافة إليه. لسوف لا نعلم أبداً فيما هو محتمل إلى أي حد كانت فتوحاتهم سائرة عندما قام الفونج بغزو مملكتهم من الجنوب أو الغرب، بداية القرن السادس عشر. إنتهت فترة موجزة من العداوات بين القومين فيما يظهر عبر إشتياك حاسم في أريجى، عام ١٥٠٤، كان فيه القادمون الجدد منتصرين (١٨). بعد ذلك أضحي العرب وكل دائرة نفوذهم تابعين للفونج، الذين أضحووا في سنوات قادمة موسعين إضافة إلى ذلك الإقاليم التي استولوا عليها بالقوة. إن المقترح الآن أن المعركة التي وقعت في ١٥٠٤، والمذكورة في سجل أحداث الفونج كهجوم مشترك على سوبا من الفونج والعبدلاب (الفصل السادس عشر)، هي



شكل رقم ٨٤  
الأملاك العثمانية والفونجية في القرن السابع عشر



في الحقيقة الإشتباك الذي اعترض فيه الفونج من العبدلاب إنتصارهم المسبق على سوبا<sup>(١٩)</sup>.

أصل الفونج ظل، ويستمر كذلك، مصدراً للجدال. ما التعبير بواحد عرقى. ليس هنالك شئ مثل قبيلة الفونج أو اللغة الفونجية<sup>(٢٠)</sup>. لقد كانوا، على الأرجح، طائفة حاكمة بالوراثة ورعاياها جماعة من قبائل أصلية غير عربية في أعالي النيل الأزرق، وتوصف عادة بالهَمْج كصفة جماعية<sup>(٢١)</sup>. بحلول الوقت الذي احتك بهم فيه أجانب لأول مرة كان الفونج مسلمين أنفاً، يتحدثون العربية ويدعون نسباً أموياً، مع أنهم لا يشتهرون لمحة لسلالة عربية في مظهرهم الطبيعي. كانوا يحق يعرفون تقليدياً بالسلالطين الزرق<sup>(٢٢)</sup>، ويبدو جائزاً أن سلالتهم كانت أكثر سلالة إفريقية خالصة من بين كل الجماعات التي تولت السلطة في السودان. مع هذا، في غياب البينة الأثنولوجية واللغوية يتنخر كل أمل في إكتشاف أصلهم القبلي المحدد. لقد بلغ جيمس بروس، الذي زار سنار في ١٧٧٢، أن ملوك الفونج تحذروا من رجال قبائل الشلك في النيل الأبيض<sup>(٢٣)</sup> إقتراحاً ليس غير وأعد بالنظر إلى طبيعة الشلك الملازمة للقتال وحقيقة أنهم الصق قبائل زنجة في السودان قرىاً من الشمال ووقوعاً في تأثير العرب. ورغم هذا، أرجع كُتّاب مُتأخرة الفونج أصلاً إلى دارفور في الغرب<sup>(٢٤)</sup> ومن سفوح الجبال الحبشية في الشرق<sup>(٢٥)</sup>، وفيما بينهم ينسبون هُـم أنفسهم سلالتهم إلى عائلة النبي مباشرة<sup>(٢٦)</sup>. أياً كانوا، يبدو أنهم انتقلوا إلي داخل الجزء الجنوبي من الإقليم الذي كان أخضع قبل وقت وجيز من قبل العبدلاب، وإنهم وضعوا أنفسهم على رأس تحالف لقبائل الهمج التي شكلت الاتباع الأساسيين للفونج وكانت رعايا سابقة الولاء لعلوة<sup>(٢٧)</sup>، حتي أن قيام الفونج بالمناضلة لقضيتهم ضد العرب ربما يمكن عده إستعادة بدلاً من تحطيم للموقف السياسي الذي وجد مُسبقاً في ظل المملكة المسيحية.

إنها لمفارقة تاريخية أن أول ملك للفونج، عمارة دنقس، مثبت ثبناً تاريخياً جيداً بسبب عرض بطولاته في "سجل أحداث الفونج"<sup>(٢٨)</sup> ولأنه تصادف أنه كان على العرض عندما اجتاز المغامر دافيد روبني السودان في ١٥٢٢<sup>(٢٩)</sup> - آخر زائر أجنبي لقرن ونصف ويترك عرضاً لأسفاره. وبعد عمارة، من الجانب الآخر، نعلم بصعوبة شيئاً يتعدى أسماء سبعة حكام من بعده، كان تعاقبهم غير ذى قطع بنفس المستوى<sup>(٣٠)</sup>. إن الملك الخامس، بكين، وحده موصوف بئى شئ من الوصف في "سجل الأحداث": "كان واحداً من أعظم ملوك الفونج. أعاد تنظيم الإدارة على أمثل وجه ممكن، وجعل قوانين مثبتة لا يمكن لواحد من الناس كلهم في مملكته أن يتخطى حدودها؛ وعلى كل مقاطعة بمملكته عين زعيماً، وفي حالة أن يرغب في الجلوس أمامه أعطى ترتيباً محدداً للحضور لدى جلوسهم في ديوان المجلس؛ ولم يتوقف عن تكريس نفسه لتنظيم أركان مملكته حتى توفي في (١٥٧٧م) بعد حكم دام خمسة عشر عاماً"<sup>(٣١)</sup>. هذه الصورة لإدارة ديوانية تتكامل في حزم لاتدعمها المعرفة التي بحوزتنا عن إمبراطورية الفونج في تاريخ لاحق.

مدون أفضل تماسكاً وأشدّ تفصيلاً لتاريخ الفونج يُستهل بحكم الملك عدلان، في فاتحة القرن السابع عشر. في ذلك الوقت إستن العبدلاب العصيان المسلح ربما لغير المرة الأولى<sup>(٣٢)</sup> - بقيادة شيخهم عجيب المانجك<sup>(٣٣)</sup>. أخذت جذوة العصيان بنجاح، قُتل عجيب، وذُبح أفراد من أسرته خارج إقليهم إلى داخل بُنقلا، منطقة ربما كانت أنفاً تحت سيطرة العبدلاب. إقتفى أثرهم ملك الفونج، لكنه عندما بلغ بُنقلا واجتازها خلعت قواته، وعين خلف له. بعد ذلك أجرى تفاوض من أجل إتفاقية بين الفونج والعبدلاب نُصّب بمقتضاها ابن الناصر عجيب في مكان أبيه، وحكم هو وكل خلفائه ليس شيوعاً على العبدلاب وحدهم إنما كولاة، بالإنابة عن الفونج، على كل قبائل العرب، والبجا، والجعليين في الجزء الشمالي من الإمبراطورية. بدأ أعيد تسليم العرب بالفعل الجزء الأكبر من الإمبراطورية التي اعترضها الفونج منهم قبل قرن مضى، شريطة أن يحولوا جزءاً معيناً من جزيتها للحكام في سنار. هذا التصالح العملي برهن فلاحاً كافياً ليظل نافذاً لأكثر من ١٥٠ عاماً، وقد أثار

قيامه تقليداً للتعاون اللصيق لا شك فيه بين الفونج والعبدلاب مُحَرَّراً في "سجل أحداث الفونج". تاريخ الإتفاق الأصلي وضع على اختلاف في ١٦٠٧ - ١٦٠٨<sup>(٢٤)</sup>، ١٦١٠<sup>(٢٥)</sup>، و ١٦١١ - ١٦١٢<sup>(٢٦)</sup>.

أثناء القرن السابع عشر، نتيجة لتعصيد العبدلاب، ضمن عوامل أخرى، بلغت إمبراطورية الفونج أوسع مداها. كان العبدلاب مسؤولين بقدر كبير عن إخضاع البدو من العرب والبجا شرق النيل. وعن حالهم كتب جيمس بروس:

مقر أمير [العبدلاب] ... كان في قرى، مدينة في الحد الفاصل بالفعل للأمطار المدارية. إن هذا موقعاً أحسن إختياره على أفضل وجه لكونه كان جبابة لا مهرب منها. يمسك بكل العرب الذين يملكون القطعان، والذين، بسبب حياتهم بين الأمطار في بلاد كلها ذات تراب خصيب، كانوا كل عام، حوالي شهر مايو، مضطرين هرباً من ذبابة التسي تسي للمسار، على نحو مستعاد، كيما يطولوا غدوهم نجوعاً في الصحراء الرملية التي تخلو من الأمطار المدارية. . . . وقف زعيم [العبدلاب] بجيش عرمرم من فرسان خفاف لا يفقه شئ، في طريق رجوعهم إلى مراعيهم حتى يدفعوا أعلى قدر من الجبابة في ذلك الديون واجبة السداد إن كان منها شئ<sup>(٢٧)</sup>.

حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر كانت كل المقاطعات النهرية شمال ملتقى النيلين، إلى بُعد كالنلال الثالث، تدفع بنفس المنوال جبابةً للفونج من خلال توسط العبدلاب. ليس مؤكداً متى وعلى يد من ضمننت هذه المقاطعات الشمالية لإمبراطورية الفونج؛ لربما كانت تشكل من قبل جزءاً من دائرة سلطة العبدلاب في الوقت الذي كانوا فيه قد هزموا من الفونج أو ربما جاز أنها أخضعت مباشرة من الفونج في تاريخ لاحق<sup>(٢٨)</sup>. لقد خرج الشايقية في النيل الأوسط أحراراً في نهاية القرن السابع عشر (انظر أدناه)، على أنه في زمن زيارة بروس في ١٧٧٢ كان ملك دنقلا يُسمى من حكام الفونج<sup>(٢٩)</sup>. إشتملت الجبابة من دنقلا أكبر ما إشتملت على خيل<sup>(٣٠)</sup>، إشتهرت بها المنطقة منذ أيام الأوائل من ملوك نَبْتَة (انظر الفصل العاشر).

بينما تولى العبدلاب الشمال وأداروه، وَجَّه السلاطين الزرق عزمهم ناحية الغرب في عهد حكم بادى الثاني ("أبو ذن") وخلصت حملة ناجحة في كردفان إلى إخضاع قسم من منطقة جبال النوبا. لربما كانت الحملة مضطلعة بها في المقام الأول من أجل الرق؛ أمست منطقة جبال النوبا في كل الحالات، وظلت طويلاً، أرضاً مفضلة لصيد المستعبدين. وفقاً لهولت "أحضر بادى معه سجناء عديدين إقام لهم مستوطناً في قرى حول سنار. شكل السجناء وأحفادهم، وقد تضاعفوا كُثُراً بالإغارة والشراء، جيشاً من العبيد لحماية العاصمة وحاكمها. هذه النقلة في القاعدة العسكرية لحكم الأسرة، من عصابة لمحاربين أحرار، هم صفوة الفونج الطاغية، إلى قوات عبيد تعتمد مباشرة على الملك، ولها ما يوازيها في دول إسلامية أخرى، وبصورة ملحوظة في الإمبراطورية العثمانية نفسها"<sup>(٤١)</sup>.

الرغم من أنه كانت ستجرى فتوحات متأخرة وعلى وساع في الغرب تُعلم أول حملة لكردفان المد العالي لتوسع الفونج الإمبريالي. في نفس الوقت تقريباً أفلح الشايقية عصياناً مسلحاً، وفي القرن الذي تلاه إنشقت الأقاليم الناطقة بالعربية والنوبية في الشمال واحدة بعد الأخرى. وفي نهاية أيامها (عام ١٨٢٦م) أضحت مملكة الفونج تحالفاً سودانيا جنوبياً، يمتد بشكل رئيس شرقاً لأعلى النيل وغربه، بدلاً عن إمبراطورية تمتد أعلى النهر العظيم وأسفله.

إدارة إمبراطورية الفونج في أوج أيامها وصفها تريمينغهام على النحو الآتي.

هذه المملكة كانت تحالفاً عريضاً مُحَاكاً بغير شُدِّ بدلاً من أن تكون دولة. ما كان بها تركيز على السلطة ولا مؤسسات عامة. الأرض وحدها بين النيلين كانت مباشرة تحت حكم سنار، إذ أن الفونج إحتفظوا بحكام إقليميين ملوكاً تابعين وأذنوا لكل المؤسسات الأصلية أن تستمر كما كانت. مارس سيد سنار سلطته من خلال الإحتفاظ بحق إختيار خليفة لواليه، وفرض الجبابة. الرابطة إذن كانت في غاية الضعف وكثيراً ما يرفض واليه الجبابة. ملك

سنار، مع هذا، كان يصون جيشاً جحفاً على استعداد من عبيد النوبا (١٤.٠٠٠ مشاة و ١.٨٠٠ على الجياد في زمن بروس)، وخلال الأيام الرخبة لمملكته كان بمستطاعه أن يفرض سيادته. في ١٦١٠، كمنثال، أجرى وإلى العبدلاب عصياناً مسلحاً وقُرم وقُتل، ولكن ملك الفونج أعلن اسم ابنه ... في محله.

الفونج أعطوا هؤلاء الملوك التابعين لقب *مانجل* (أو *مانجلك*). وبعد وفاة *المانجل*، يحضر المرشعون لسنار يكيون لبعضهم بعضاً. فإذا اختير منهم واحد دشنه الملك بمنحه *الككر* أو مقعداً للحكم<sup>(٤٧)</sup>، و *الطاقي* أم قرنين أو شطأ رأس في هيئة قرنين<sup>(٤٨)</sup>، و *عمامة*، و *سيفا*، وأحياناً قلادة ذهبية.

[شيخ] العبدلاب، كسيد مطلق على قبائل "العرب" شمال ارجي، يعين بنفسه الزعماء التابعين له، ويدشنهم بالطاقي. يكتب شقير: "عندما يموت واحد من هؤلاء *المكوك* تجتمع القبيلة كلها معاً، تختار مكاناً ليراسها، وتذهب به لشيخ [العبدلاب]. ثم يحلق الشيخ رأسه، متوجاً له ب *الطاقي* ذات القرنين وهي محشوة بالقطن، ويجلسه على المقعد المسمى ب *الككر*. ثم يخاطبه بلفظ "مك" قائلاً "يورك فيكم"، ويقبل *المك* يده ويدعو له. ثم يأمر الشيخ بضرب *النحاس* (طبل قبلي)، بدأ يشهر تعيينه *كمك* على قومه"<sup>(٤٩)</sup>.

الفونج، مع هذا، مارسوا حكماً مباشراً في الجزيرة نفسها على كل القبائل، بما فيها العرب. كان هناك وزير [رئيس وزراء]، اقارب *للك* لهم سلطة إضافة إلى ذلك ... في زمن بروس كان قانون لا يزال سائداً أن الملك يمكن أن يُعرض للموت شرعاً من رعيته أو عبيده، بناء على مجلس يعقده الضباط العظام. إذا قرروا أنه ليس في مصلحة الدولة أن يُعهد إليه بالحكم لأي فترة تالية<sup>(٥٠)</sup>، إن سيد دار الملك، المدعوسد *القوم*، له واجب القيام بقتله<sup>(٥١)</sup>.

ليس مؤكداً متى ومن أي جهة تحول حكام الفونج بدايةً لإعتناق الإسلام. إن سرد دايفيد روبيني يتضمن بصفاء، مع أنه لا يقرر ذلك صراحةً، أن عمارة دنقس، أول ملك مسجل، كان مسلماً سابقاً في زمن زيارة روبيني (١٥٢٢)<sup>(٥٢)</sup>. وبعد قرن ونصف أكد جيمس بروس (الذي يعد قصه ذو الخمس مجلدات عن أسفاره للحبشة المصدر لغفرة من معلوماتنا حول الفونج) أن السلاطين الزرق أصبحوا مسلمين "من أجل التجارة مع مصر"<sup>(٥٣)</sup>. يقترح موروث آخر أن عمارة دنقس إعتنق الإيمان الإسلامي لكي يحول دون غزو مملكته من السلطان العثماني سليم الأول، الذي ضم مصر والنوبة السفلى في نفس الوقت تقريباً الذي سُبست فيه هيمنة الفونج في الجنوب (أنظر "الحكم العثماني في الشمال"، أدناه).

القصة أنه بعد أن فتح سليم، سلطان تركيا، مصر في ١٥١٧، أرسل جيشاً داخل النوبة ... وكذلك أنشأ قواعد في سواكن ومصوع، بدأ هدد إستقلال البجا والحبشة أخذ عمارة [دنقس] حذراً من هذا كمهديد على مملكته وأرسل رسالة يبين فيها إنه إذا كان سليم يفكر في شن *الجهاد* [الحرب المقدسة] عليه، فإن واجباً عليه أن يعلم إنه هو وقومه عرب ومؤمنين حقاً. دليلاً على ذلك أرسل جداول للنسب رسمها واحد يقال له *السمرقندي* وهو مسؤول عن معظم الانساب المُخْتَلِقة في السودان [قارن الفصل السابع عشر]، ليبهرن أن الفونج إنتموا إلى بني أمية<sup>(٥٤)</sup>.

كما أبصرنا في الفصل السابع عشر، إنه ما إن تحول حكام الفونج إلى الإسلام حتى فتحوا سريعاً أبواب مملكتهم لمعلمي الدين الإسلاميين. حاصلًا لذلك كان إنتشار المعرفة الإسلامية أمضى سرعةً بمراحل في الجنوب الذي تحول حديثاً من مقاطعات الجعليين والنوبيين التي يسيطر عليها العرب. وعلى خلاف السلاطين والمسلمين الأوائل في غرب إفريقيا، يبدو الفونج كمنال لم تكن لهم رغبة في الإحتفاظ بالإسلام كدين الطبقة الحاكمة وحدها<sup>(٥٥)</sup>.

على الرغم من مدى هيمنتهم الإسمية في الشمال، ظاهر أن الفونج ما كانوا في المقام الأساسي معنيين بالمقاطعات النهرية وجبايتها. كان عناؤهم إمبراطورية تتاجر بالرفيق كما بالتأكيد كانت السلطنات في الغرب البعيد - مالي، سونغاي وبورنو - التي ربما كانت تطلعاً لهم. جدير بالذكر أنه بينما كان الفونج قانعين بتسليم السيطرة المباشرة للمقاطعات الشمالية الإسلامية لولاتهم العبدلاب،

كانوا حريصين على إبقاء الجنوب الوثني في قبضتهم المباشرة. وفي حين مد العبدلاب دائرة سلطانهم على أعراب البدو وعلى البجا، ركز الفونج لا أحد سواهم تيقظاً على أرض كريفان التي كانت قابلة للاسترقاق. يبدو محتملاً على نفس الصعيد أنَّ الميزة العسكرية التي تمتع بها الفونج بالنسبة لجيرانهم العرب كانت ترجع في جزء إلى إمتلاكهم جيوشاً من العبيد، وإلى تناولهم الأقرب لأقاليم اصطياد المستعبدين التي يمكن إستحصال التعويضات منها.

## عصيان الشايقية المسلح وتداعى الفونج

من التجمعات القبلية المختلفة التي ظهرت في النوبة ما بعد المسيحية لم يلعب أحد دوراً تاريخياً أشد بروزاً من الشايقية الذين يمتد إقليمهم من الشلال الرابع إلى الدبة، في سفح المنحني العظيم للنيل (الشكل رقم ٩). إنهم أقصى شماليين من قبائل الجعليين المتحدثة بالعربية والجيران الملاصقين للنوبيين الدنقلاويين. مثل قبائل الجعليين الأخرى هم اليوم جماعة متجانسة لمدى بعيد، نتاجاً لدمج عدد صغير من الفاتحين الغرباء مع عدد يفوقهم كبراً من رعاياهم النوبيين. يبدو، لهذا، أنه في زمن الفونج لم يكن دمج الحكام والرعية قد أخذ مكاناً بعد: كان كبار القادة العسكريين للشايقية صفوة عسكرية يلوثون بعداً صارماً عن الفلاحين النهرين، لا يستسيغونهم ويرعبونهم من وقت لآخر.

أصول القادة العسكريين للشايقية كانت موضوعاً لتخيل يماثل بالتقريب مآلاته أصول الفونج من ترديد. وصف ماكمايكل الشايقي المألوف بأنه "مُخَضَّر أصغر السحنة" و "دائماً ما يصعب تمييزه من تركي "مولد" (أي مولود في السودان...)"; على هذا الأساس كان يميل لأن يشترك أصولهم من قوات الحامية (وأغلبها من أصل بلقاني وأناضولي) المرابطة بأمر العثمانيين في النوبة الشمالية (انظر أدناه)<sup>(٩١)</sup>. مع ذلك قبل قرن سابق وصف الرحالة وادينغتون الشايقية بأنهم "سواد حالكة، بارق، صافٍ" اقترح ترمينغهام أصلاً بجاويأ لهم<sup>(٩٢)</sup>، وكتاب آخرون قنعوا بالحديث عنهم كأناس تكثف وجودهم الأسرار<sup>(٩٣)</sup>. إن السر الذي يحيط بهم ينبعث من حقيقة أنه، لحد عظيم البعد عن أقوام أخرى استوطنت بوادي النيل، استطاعوا أن يحفظوا نظاماً لأعراف صفوة محاربة، بالإضافة إلى العادات الضاربة أيام عرب البدو. ويقول عنهم مورهد إنه "كان هناك بعض الهيجان في دمائهم ... هو الذي جعلهم ينهضون فوق كل القبائل المحيطة، وفي بأسهم ومظهرهم كانوا في كل ذرة بمثابة كان الممالك عليه، للהלح يثيرون. عاشوا على استلاب المجتمعات المستوطنة على طول ضفاف النهر، وقد قيل أنهم قادرون على حشد عشرة آلاف محارب، ألفان منهم ركوباً على الأقل. في كافة أرجاء هذا الجزء من السودان كان اسمهم مثلاً دالاً على القرصنة والدمار"<sup>(٩٤)</sup>.

وصف بورخارت الشايقية في ١٨١٣ في جزالة معهودة:

هؤلاء الناس المختلفة في حرب متواصلة مع بعضهم البعض، ويقوم شبابهم بحملات النهب إلى مسافة دارفور في الغرب ووادي حلفا في الشمال. يقاتلون بأجمعهم على ظهور الجياد، في معاطف مدرعة يبيعها لهم تجار سواكن وسنار. الأسلحة النارية غير شائعة بينهم، أسلحتهم الوحيدة كانت رمحاً، ودرقة، وسيفاً، يرمون الرمح مسافة عظيمة بمهارة فائقة، ويحملون دائماً أربعة أو خمسة رماح في اليد اليسرى عندما يحملون على عود. يمتلكون كلهم فحولاً من خيول ثقلاً ويشتهرون بخيالتهم كما كان الممالك في مصر: يديرون جيادهم لتقوم بقفزات عنيفة بأرجلها الخلفية بينما هي تعدو. تشبه سروجهم الرسوم التي شاهدها في الحبشة، ومثل خيالة الحبشة يضعون الأصبع الكبير وحده في الركاب.

الشايقية قوم مستقلون على وجه الإتيان ويملكون ثروة عظيمة من الذرة الشامى والبقر؛ مثل الأعراب البداة في بلاد العرب لا يدفعون نوعاً من الجزية لزعمائهم، الذين لا تعادل قوتهم بأي حال من الأحوال قوة زعماء دنقلا. وهم مشهورون تحميداً لكرم ضيافتهم، شخص ضيفهم أو صاحبهم مبدل. وإذا حاز المسافر صديقاً بينهم، ونهب

في الطريق، تعاد له ممتلكاته، ولو أخذها الملك.

مثل الشايكية كما الجنود، رجال غير متعلمين، ينفخسون في الإستعمال المعهود للنبيذ والخمر المصنوعة من البلع. وسلوكيات سناهم يقال إنها سائرة عن المألوف<sup>(٥٦)</sup>.

لهذا التشخيص الموجز أضاف وادينغتون:

فُرأى لا يهايون شيئاً في الهجوم، يركبون حتى يلاقوا وجوه عدوهم في استهتار وإنشراح قلبي، كأنما لحفل، أو في خبر، كأنها مقابلة بين أصدقاء إستطال تباعدهم، ثم يُحيون "السلام عليكم" - سلام الموت، يرافق الرمح ويتبع التحية من فورهما: تمنح الضربات القاتلة وتتقبل بكلمات الحب على الشفاه. هذا التهوين من شأن الحياة، هذا التهكم على أعظم ما يخيف، إختصوا به نفوسهم - القوم الوحيدون الذين لهم السلاح العاياً والحرب رياضة، الذين بين أعدائهم لا يسعون لشئ سوى اللهو، وفي الموت لا يهايون شيئاً سوى الراحة الأبدية<sup>(٥٧)</sup>

رأيان إضافيان منذ وقت قريب عن الشايكية يستحقان النقل. في زمن متأخر من القرن التاسع عشر كان الجنرال غوردون مضطراً لأن يعتمد إلى حد ما على إخلاص الشايكية في محاولته سيئة الطالع ليدافع عن الخرطوم في مواجهة المهدي (انظر "المهدية"، أدناه)، إلا أنه وجدهم موضعاً لإختبار متواصل. في مجلاته المنشورة بعد موته شكاً مراراً وتكراراً من نفاقهم وفسادهم<sup>(٥٨)</sup>، وفي إحدى اللحظات إنفجر صارخاً "هؤلاء الشايكية! لسوف أظاھرم وأصهر إحتمال الرجل بإيلام أشد من أي أناس آخرين في العالم بأسره، ليس هذا فحسب، بل في الكون"<sup>(٥٩)</sup>. أخيراً، في باكورة القرن العشرين رُقب ماكمايكل أن "الشايقي جانباً عن أي قبيلة أخرى في السودان لكونه أوفر مغامرة، وأشد إشتجاراً، وبوجه الدقة، أعطى إستعداداً ليؤدي الخدمة كمقابل مرتزق تحت أي مخدم. إن الشايقي المألوف مُحضّر أصفر السحنة، معروق ويقتظ، سكير عرييد، مغرم بالرهان، وكاذب بالميلاد"<sup>(٦٠)</sup>.

بالرغم من إنه أصبحت تقليعة أن ترجع الشخصية القتالية لهيجان ما خارجاً عن المألوف في دماهم، فإنهم في الحقيقة يبدو أنهم كانوا قابلين للطاعة في البداية بقدر كاف. خضعوا لقرن ونصف دونما معارضة مارقة لولاية العبدلاب والفونج، لا نسمع عنهم شيئاً سابقاً لعصيانهم المسلح الناجح في الجزء الأخير من القرن السابع عشر، وإنجزت بطولاتهم القتالية العظيمة - والضارية - كلها في دائرة أجيال قليلة من بعد ذلك. يبدو محتملاً لذلك أن عسكرية الشايكية الهبها النموذج الناجز للفونج والعبدلاب، وليست هجرة جاءت متأخرة لبعض جماعة محاربة إلى داخل إقليمهم. إن الفارق الذي أزعج الشايكية جانباً عن قبائل الجعليين الأخرى هو نفس الفارق الذي فصل الإسبارطيين من أقرابهم الأغاريق، وفصل شين من الدول المجاورة لها في الصين القديمة. لقد كان نتاجاً للجغرافيا وانتهاز السوانح، ليس للوراثة. إن كبار القادة العسكريين للشايكية ربما كانوا في الواقع ما يقرب من نوبيين خالصين، على الرغم من استعلائهم المعلن على النوبيين الخاضعين لهم؛ أما الإدعاء بأنهم عضواً متميزين عن كانوا واقعين تحت سيطرتهم فقد طرحته برتابة أغلب جماعات الصفوة الموروثة أزماناً سالفه. وهناك تقارير أن الشايكية تحدثوا بالفعل لهجة نوبية قبل القرن التاسع عشر<sup>(٦١)</sup>.

تضم منطقة الشايكية أرض الهامش الأصلية لنبئة (الفصل العاشر): المقاطعة المثمرة التي تقع مباشرة على الشلال الرابع في اتجاه مجرى النهر شمالاً. رغمًا عن ثروتها الزراعية كانت هذه المنطقة تحت حكم الفونج طريقاً مسدوداً، تتخطى من طرق التجارة الرئيسية التي عقدت الصلة بين الأجزاء الشمالية والجنوبية للإمبراطورية (الشكل رقم ٨٤)<sup>(٦٢)</sup>. نتيجة لذلك كانت دخول المقاطعة من ريعها خفيفة على وجه الإحتمال، وربما كان أكثر أثربا العبدلاب والفونج بتأمينها خفيفاً في نسبتة. من ناحيتهم لابد أن مكوك الشايكية طالعوا بعين حاسدة الجبايات الطائلة التي كانت الأقوام المجاورة لهم قادرة على استخراجها من حركة القوافل، والتي كانوا هم أنفسهم محرومين منها

لموقعهم الجغرافي غير المرغوب فيه. وعلى أي حال، إتحُد مكوك الشايقية في الجزء الأخير من القرن السابع عشر بشكل موقوت لتأكيد إستقلالهم عن سيطرة الفونج. لربما أنهم جُراهم على ذلك إنقسام بين الفونج أنفسهم<sup>(٦٣)</sup>، على أن يطش عدواتهم كان موجهاً ضد الولاة العبدلاب. وكان العبدلاب طبقاً لموروثهم الخاص الذي يصيب بالحيرة نوعاً ما قد هُزموا في معركة بجزيرة دولقا. أرسل الشايقية بعدها كلمةً بنصرهم لسنار، مطالبين ببناء عليه بخلع مانجل العبدلاب من ولايته عليهم، والاعتراف بواحد من شيوخهم في مكانه - طالبين بالتالي تأكيد إستقلالهم<sup>(٦٤)</sup>. ذلك فيما يبدو ضمن لهم بحكم الأمر الواقع إن لم يكن رسمياً. وُضع تاريخ عصيان الشايقية المسلح على اختلاف بين ١٦٦٠<sup>(٦٥)</sup> و ١٦٩٠<sup>(٦٦)</sup>.

لقد كان الشايقية الذين استقلوا حديثاً غير قادرين على صياغة نوافٍ ثابتة للقوة في النيل الأوسط. لو فعلوا ذلك لكان بإمكانهم قطعاً أن يحلوا محل العبدلاب كأرباب للمنطقة كلها من الشلال الثالث إلى ملتقى النيلين. مع ذلك، لمصداقية الموروث البدوي للأعراب المتعلق باللامركزية السياسية بالضرورة، إنشقوا إلى المكوكة الأربعة المستقلة في عمرى، ومروى<sup>(٦٧)</sup>، وكجيبى، وحكن. كل من هذه أضحت قاعدة لعمليات عسبة محاربة أدنى حضارة في شبه قريب من بنى كنز خلال أيامهم القديمة (الفصل السادس عشر). مثل بنى كنز، فضل الشايقية حياة الضراوة على مسؤوليات حفظ السلام؛ خارج إقطاعياتهم الصغيرة كانوا قنوعين بترك سيطرة لإدارة إسمية في أيدي العبدلاب، وأن يستخرجوا نوع جباياتهم الخاصة بالقوة والإرهاب. في القرن الذى أعقب إستقلالهم، لذلك، تددت القوة العسكرية للشايقية بحجم كبير في الحروب بين بعضهم بعضاً وفي إغارات السلب بحق المقاطعات المحيطة، بدلاً عن توسيع أو توليد مكانتهم. "مثل هذه هي نتائج نيل الإستقلال الشريرة والتخريبية بأكملها". يكتب كرافورد<sup>(٦٨)</sup>. ولغزارة إنتهاكات الشايقية وقسوتها الموهلة في منطقة دنقلا هاجر في القرن الثامن عشر عدد عظيم من النوبيين غرباً إلى ربوع كردفان<sup>(٦٩)</sup>. بيد أنه لم تنته هيمنة الفونج على دنقلا تماماً حتى ١٧٨٢<sup>(٧٠)</sup>. في سنوات أخيرة وجه الشايقية علاوةً على ذلك عناهم لأبناء عموماتهم الجنوبيين: كلاً من الجعليين الأصليين الذين يقيمون في شندى والعبدلاب في قرى أحسوا بضربات مهاجمتهم اللاذعة في نهاية القرن الثامن عشر<sup>(٧١)</sup>. مع ذلك، لم ينشئ الشايقية أبداً حكماً موطداً على الأقوام المجاورة لهم؛ كان حكمهم ببساطة مرتعاً للصياد يزداد إتساعاً على الدوام.

مكوك الشايقية هم الذين بنوا الحصون النوبية الأكبر والأشد أخذاً للإنطباع في النوبة العليا، فيما وصف مسبقاً في الفصل السابع عشر. وكما تمنعها كابلليود في ١٨٢٦، كانت بمستوى بارز للغاية سلالة لقلا مسكونة<sup>(٧٢)</sup>. كل مك من مكوك الشايقية يبدو أنه كان يتباهى في دائرة نفوذه الصغيرة، بقلعة عمادية وحصون فرعية عديدة<sup>(٧٣)</sup>. الأخيرة من هذه وأكبرها يعتقد أن تاريخها يعود إلى القرن الثامن عشر - نزوة أيام الشايقية وقمة قرون العصر الإقطاعي النوبى<sup>(٧٤)</sup>.

كان الشايقية بشكل رئيس هم الذين جعلوا من إسم النوبة مثلاً تسير به الركبان وسط المسافرين في العهد ما بعد المسيحي. كتب الأخ توماس القانجيتي<sup>(٧٥)</sup> في وقت باكر يعود إلى العشرينات من عام ١٥٢٠ يقول "... على الطريق الواقع وراء النيل .. هناك أناس سينون، نهايون، قتلة، ويوتغرون في محافظة النوبة عنهم في أي مكان آخر"<sup>(٧٥)</sup>. مائتان وخمسون عاماً بعد ذلك كان على بروس أن يعلم أنه وراء سنار، بالسير شمالاً، ما كانت هنالك "حماية إلا من السماء"<sup>(٧٦)</sup>. وحتى هزيمتهم على يد إسماعيل باشا في ١٨٢٠ (انظر أدناه) واصل كبار القادة العسكريين للشايقية التمتع - فيما يبدو حرفياً - بسمة النهابين والقتلة. قبل الهزيمة التي ألحقت بهم مباشرة، وفقاً لواندينغتون "من أنتم سوى أمة من الناهيين؟ قال لهم تركي، أثناء بعض المفاوضات. "نهايين" كانت الإجابة الغاضبة: "نهايين، إذن، ولندا! ونهايين سوف نموت!"<sup>(٧٧)</sup>.

(٥) نسبة إلى قانجت - المترجم.

بينما كان الشايقية يكتسحون مناطق نفوذ الفونج الأخيرة في الشمال، إنشق العبدلاب أنفسهم أحراراً من أربابهم لهذا الزمن المديد في ١٧٧٠<sup>(٧٨)</sup>. بهذين الحدين بلغ كل رمز لتحكم الفونج على قبائل الجعليين والنوبيين في السودان الشمالي نهايته. في ١٧٧٦ خلع السلطان الأزرق نفسه من وزيره الهمجى، ومذاك أصبح ملوك الفونج الباقون دعى لكبار المسؤولين من الهمجى، كما يبلغ هولت:

السنوات الأربعون الأخيرة ... للتاريخ، مليئة بتعارك المتنافسين على مقابيل الحكم، تجمعات لا متناهية للصهوة الطاغية من الفونج وزعماء العبدلاب، حروب مصغرة وكل اغراض الزعزعة السياسية. حكام الهمجى سرعان ما ذهبوا على طريق سادتهم الفونج. الحاكم الرابع، ناصر... سلم إدارة الشؤون للأرباب دفع الله وأغرق نفسه في البذخ. انضم إلى عصيانٍ ضده إثنان من أشقائه؛ فُبِض عليه وقُتِل في ١٧٩٨ كعمل ثأرى من خاله ... مع أن أخاه وخلفه إستعاد النظام، فقد تولى السلطة خمس سنوات لا غير، وبعد موته اكتمل ميول أسرة الهمجى الرامية إلى الفرقة والشتات أهواها من جديد<sup>(٧٩)</sup>.

السنوات النهائية لحكم الفونج تظهر كأنها تعيد في تفصيل حزين قصة اضمحلال المقررة وسقوطها (الفصل السادس عشر). في ١٨٢١، إستسلم آخر ملوك للفونج يحمل اللقب دونما مقاومة لجيش إسماعيل باشا، وبلغ الحكم الإستقلالى في السودان نهايته.

### الحكم العثماني في الشمال

إذا كان القرنان السادس عشر والسابع عشر ظلامياً نسبياً في النوبة الجنوبية، فإنهما كانا في الشمال ظلاماً دامساً. في زمن ما عقب فتحهم لمصر عام ١٥١٧م بسط الأتراك العثمانيون منطقة سلطنتهم جنوب مجرى النهر إلى مدى بلغ الشلال الثالث، غير أنه يبقى مغيباً، كيف ومتى و. لذلك الأمر - لماذا أتخذ هذا. مصدر كل معلوماتنا حول الحكم العثماني في الشمال هو بالفعل الموروث الشعبى الذى جمعه بورخارت في ١٨١٣، والذي يمكن إقتطافه هنا:

قبيلتا الجوابرة والغربية ... إستحوذا على البلد من أسوان إلى وادى حلفا، ومن ثم مدا سلطتهما على عدد عظيم من القبائل الصغرى التى استقرت على ضفاف النيل في فترة الغزو العام، وبينها كان الكتوز... إن الجوابرة وقد كادوا يُخضعون الغربية، أرسل الأخيرون سفارة إلى السقطنطينية في عهد السلطان العظيم سليم، يسعون لعون في مواجهة أعدائهم، وأقبلوا في استدراار قوة منتظمة من عدة مئات من الجنود البوسنيين تحت قيادة قائد إسمه حسن قوصى، عن طريقهم دُفع بالجوابرة وأهل دُنقلا خارج النوبة (السُفلى)، إلى البلد الأخير<sup>(\*)</sup>، وإلى هذا اليوم يُرجع سكان دُنقلا الأوسع ثراءً أصلهم إلى قبيلة الجوابرة.

شيد الجنود البوسنيين القلاع الثلاث، أو بالأحرى أصلحوا المباني القائمة، في أسوان، وإبريم، وصاى؛ وأولئك الذين قاموا بحماية القلاع إستحصلوا امتيازات معينة لأنفسهم ولأحفادهم بما ينبغى أن يكن ليتواصل إحتلال القلاع والإقليم الملاصق لها. واحد من هذه الإمتيازات كان إعفاءً من كل نوع لضريبة الأرض، التى كان سليم وقتها قد أمر بفرضها لأول مرة في طول أنحاء الأراضى التابعة له؛ ولأنه كان يعتقد أن البلد غير قادرة على تهينة غذاء كافر للجنود، عين لهم معاشاً سنوياً بالمثل من خزانة سليم في القاهرة. كان راتب حامية إبريم أربع حافطات، مساوية الآن لـمئة جنية، فقط، لكنه يحتمل أن قيمته آنذاك كانت أربعة أضعاف تلك الجملة. كذلك جُعلوا مستقلين عن باشوات مصر. وفي حين كان للباشوات (أى الولاة العثمانيون) كل نفوذ في مصر فإن المعاشات ستدفع، إلا أن العماليك يحتجزونها عموماً. حكم حسن قوصى النوبة بقواته، وهم فرسان أساساً، بينما كان حياً، دائب الحركة من مكان لآخر. دفع جباية الميرى سنوياً إلى باشا مصر، غير أنه في جوانب أخرى كان مستقلاً عنه. أحفاد مثل هؤلاء الجنود البوسنيين ممن تزاولوا من قبائل الغربية والجوابرة لا يزالون يشغلون المقاطعات التى عينها لهم أسلافهم، في أسوان، وإبريم، وصاى، ويوالون التمتع بالحصانة من الضرائب والتبرعات من أى نوع

(\*) أى دُنقلا في سياق النص - المترجم.

كانت. يدعون أنفسهم كاللادشي، أو أهل القلاع، لكنهم مميزون عن النوبيين بإسم عثمانيلي (أتراك). لقد نسوا منذ زمن طويل لغتهم الأصلية، لكن ملامحهم لا تزال دالة على أصل شمالي، ولون سمحتهم بني خفيف في حين أن سمحة النوبيين تكاد تكون سوداء. إنهم مستقلون عن حكام النوبة، الذين يُغيرون منهم لأقصى حد، ودائماً ما يقارعونهم حرياً مفتوحة. يحكمهم اغواتهم، الذين ما فتئوا يتباهون بالفرمانات السلطانية التي جعلت منهم مسؤولين أمام السلطان وحده<sup>(٨٠)</sup>.

في سرد بورخارت ليس هناك تاريخ معين للغزو العثماني للنوبة. أياً كان ذلك، وحيث أن إسم السلطان سليم (سليم العاتي) مذكور صراحة يفترض أنه حدث في وقت ما بين فتحه لمصر في ١٥١٧ وموته في ١٥٢٠. يبدو التاريخ الأخير مثبناً بشكل إتفاقي من مؤرخين لبداية الحكم العثماني في النوبة<sup>(٨١)</sup>. يقترح هولت، مع ذلك، أن الضم إحتمل مكاناً جيلاً من بعد، في عهد سليمان الجليل (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، وكان موصولاً بالتغلغل العثماني في منطقة البحر الأحمر<sup>(٨٢)</sup>. حتى لو كان الأمر كذلك، فالسؤال لماذا يتجشم العثمانيون المتاعب والتكلفة لإخضاع مساحة تلك القلة الشحيحة من الموارد وذلك الدخل الضئيل وحمايتها، متروك بلا تفسير. النوبة السُّلُفي في القرن السادس عشر ما تحكمت في طرق التجارة الرئيسية إلى البحر الأحمر أو أي مكان آخر.

غاب بشكل واضح للغاية من التاريخ الشعبي الذي دونه بورخارت أي ذكر لدوتاو أو بني كنز - الوريثين الحاليين لقوة المقرّة التي، كما رأينا في الفصل السادس عشر، كانت لا تزال حية فاعلة في القرن الخامس عشر. ربما لن يعرف أبداً ما إذا استكانا مسبقاً للغربية والجوابة، أم أن الأتراك أنفسهم تولوا الإجهاد عليهما بالضرورة القاضية.

موروث شعبي آخر يؤكد أن تقدم العثمانيين إلى داخل النوبة جرت مقاومته إما من الفونج أو من العبدلاب. فقد دار قتال في حنك، على مسافة قصيرة شمال كرم (لا يخلطن هذا مع مكوكية الشايقية في حنك، بعيداً بالجنوب)، هزم فيه المدافعون بلا منازع. أقام الأتراك بعد ذلك قبة في الموقع إحياءاً لذكرى إنتصارهم، وهذه باتت معلماً للحدود بين دوائر نفوذ الفونج والعثمانيين<sup>(٨٣)</sup>. إسم السلطان سليم مذكور كذلك في عرض واحد لمعركة حنك، غير أنه مرة ثانية فإن تاريخ معركة حنك وتوثيقها التاريخي غير مؤكدين<sup>(٨٤)</sup>. يبدو أن إرتياباً قليلاً يدور في الجانب الآخر ذلك أن الحدود بين أقاليم الفونج والعثمانيين بُنيت في مكان ما بضاحية حنك، التي تتماثل كذلك مع الحدود القديمة بين نوباديا (ماريس) والمقرّة، ومع حدود اللُّهجات بين نوبيي المحس والنداقلة، والحدود الإدارية الحديثة بين مقاطعات نبقلا وحلفا.

الحكم العثماني في مصر الذي استمر نظرياً في ١٥١٧ حتى ١٩١٤، ما كان أبداً أزيد من حكم إسمي، وفي النوبة لابد أنه كان في نفس الوقت أشد من ذلك إسمية. في القطر الشمالي كان المماليك المستهترون قد أخلى سبيلهم ليتابعوا إدارتهم الفوضوية للشؤون اليومية (قارن الفصل السادس عشر)، لا يدفعون سوى جباية سنوية صغيرة للقسطنطينية<sup>(٨٥)</sup>، وفي النوبة كان الكشاف يجهدون لتقليد المماليك في كل شيء، حتى في أسوأ رذائلهم إثارة للإستحجان، وفقاً لبورخارت<sup>(٨٦)</sup>. تماماً كما أمسك المماليك عن دفع الجباية للسلطان العثماني متى أحسوا قوة كافية، كذلك إحتجز الكشاف دائماً الجباية دون المماليك<sup>(٨٧)</sup>.

لقب الكشاف يقال إنه من أصل مملوكي<sup>(٨٨)</sup>. منح في مصر لمحصولي ضرائب قليلي الشأن نسبياً كانوا مسؤولين لسلطات إقليمية تعلق عليهم على اختلاف<sup>(٨٩)</sup>. وفي النوبة من الناحية الأخرى يبدو الكشاف وكأنهم ظلوا المسؤولين المدنيين الوحيدين الذين جرى تعيينهم أبداً، وكانت مسؤوليتهم العلنية مباشرة لدى باشا مصر (أي والي العثماني). كانوا يحكم الواقع حكماً للبلد؛ إختلف موقفهم عن موقف الممكوك في الجنوب المترامي في شيء واحد هو أنهم كان عليهم أن يتعاضدوا مع قوات الحامية التي لم تكن تحت إدارتهم المباشرة. أول الكشاف كانوا إفتراضاً أتركا، والبانيين، أو



بوسنيين. مع ذلك، يبدو المنصب وراثياً منذ البداية (كما كانت معظم المناصب الإدارية الإقليمية في الإمبراطورية العثمانية)، وسرعان ما أصبح *الكشاف*، من خلال التزاوج، غير مميزين عن رعاياهم. ما كانت لهم فيما يظهر إقامة دائمة، وما كان عددهم ثابتاً. تقلد المنصب في زمن بورخارت ثلاثة أشقاء كلهم مقيمين إسمياً في البر، لكنهم قضوا معظم وقتهم يرتحلون حول مناطق نفوذهم بغرض جبي الضرائب والجزية.

الحاميات العثمانية العسكرية، مرة ثانية في إتباع لبورخارت، كانت مستقلة عن *الكشاف* ومسؤولة لدى السلطان العثماني نفسه. مثل *الكشاف*، يبدو أن قوات الحامية كانت موضوعة في البلد في مستهل نظارة السيادة ثم تركت تديم بقاها بالتزاوج. هي بدورها صارت نوبية بمرور الوقت، مع أنها احتفظت بمرور أصلها الشمالي. وبالرغم من أن القوات الأصلية معروفة إتفاقاً بأنها بوسنية، يبدو أنها اشتملت على عدد كبير للغاية من الجنسيات الأخرى إضافة إلى البوسنيين. تتحدث الموروثات النوبية الحديثة عن بوسنيين، ومجريين، والبابانيين، وأتراك، وشراكسة<sup>(٩٠)</sup>، تركية مالوفة بدرجة كبيرة لحامية حدود عثمانية. وفي تاريخ قريب مثل ١٩٥٢ أصر سكان جزيرة المجراب، بالقرب من وادي حلفا، أنهم كانوا من أصل مجرى (مجر - أب تدل على "أحفاد المجرين"<sup>(٩١)</sup>). هذه الأقوام الشمالية المتنوعة كانت ولا تزال موصوفة من ناحية جماعية بالخوز (من خوز التركية، وهو إسم يصف أصلاً قبائل البدو التركية في آسيا الوسطى<sup>(٩٢)</sup>؛ يدعى نوبيون معاصرون كثر أنهم سلاثلهم<sup>(٩٣)</sup>).

لم تكن القوات العسكرية في النوبة الشمالية منحصرة بتلك الموجودة منها في قصر إبريم وصاى، الوارد ذكرها في عرض بورخارت مع أنها يمكن أن تكون الوحيدة التي تصان على حساب العثمانيين. يظهر أنه كانت في المنطقة قوة ما في جبل عدا حتى القرن الثامن عشر<sup>(٩٤)</sup> وفي فارس حتى التاسع عشر<sup>(٩٥)</sup> وكانت بها قطعاً حاميات صغيرة في كولبنارتى<sup>(٩٦)</sup> ومواقع حصون أخرى في بطن الصجر. مع ذلك، ربما أن هذه كانت مصونة من *الكشاف* من أجل أغراضهم الخاصة. في زمن بورخارت، كما سنرى في لحظة، فقد كان *الكشاف* قوة خاصة من حوالى ١٠٠ جواد.

طراز الحكومة التي أتاحها *الكشاف* في النوبة الشمالية كان غير مختلف بآى شكل له مغزى عن *المكوك* إلى جنوبهم أو الممالك في الشمال. كانوا شديدي الغدر بالغرباء وفي حرب دائمة مع بعضهم بعضاً لدرجة أنه ما من زائر أجنبي أفلح في التغلغل إلى دوائر نفوذهم بعمق بالغ حتى القرن التاسع عشر. إن واحداً حاول أن يفعل ذلك كان فردريك لويس نوردين، ضابط بحرية ديمقراطي تصور عام ١٧٣٧م أن من الممكن أن يطمع إلى النزول لأسوان حتى الشلال الثاني<sup>(٩٧)</sup>. فما وصل إلا مسافة لا تبعد عن البر<sup>(٩٨)</sup> (حوالي ١٢٠ ميلاً جنوب أسوان بالتقريب)، حيث لأسابيع عديدة أخذ بالفعل سجيناً بينما ابتز *الكشاف* ومن كان في صحبته كل شيء بجزوته أو كادوا بعضاً "هدايا" وبعضاً جزية. وعندما اعترض نوردين بأنه كان يسافر تحت حماية "السنفور الأكبر" (باشا) مصر، بلغه الكاشف "إننى اسخر من قرون السنفور الأكبر؛ إننى أنا نفسى هنا سنفور أكبر وسوف ألقك أن تحترمنى كما يجب"<sup>(٩٩)</sup>. ولما علم أن الحاكم خطط لقتله متى استولى على آخر ممتلكاته، كان نوردين سعيداً بالهروب إلى أسوان: "... وعندما اجتازوا الأماكن المختلفة على النهر كان الناس في كل مكان يتعجبون إذ يجدوا أن المسافرين كانوا لا يزالون أحياء، وإنهم فروا من أيدي حاكم البر"<sup>(٩٩)</sup>.

ما كان الموقف بأفضل منه بعد نصف قرن عندما حاول أوروبى مغامر غيره، ي. ج. براونى خوض السودان لأول مرة<sup>(١٠٠)</sup>. لقد إكتشف إنه "لسنوات عديدة ظلت ثقلاً، والمحص وكل حدود النيل إلى مسافة سنار... مسرحاً للخراب الطويل والمذابح الدموية، لا تملك حكومة مستقرة، لكنها ممرقة دائماً بالانقسامات داخلية وهي خائفة القوى من جراء الإغارات المفاجئة للشايكية وقبائل عربية أخرى"<sup>(١٠١)</sup>. محصلة لذلك إضطرت براونى لتفادى طريق النيل برومته فسافر على طريق الواحات

الغربية، درب الأربعين، إلى كردفان ودارفور، ليصير مصادفة الأول وربما الأوروبي الوحيد الذي قطع أبداً ذلك الدرب الشهير بدرب العبيد (قارن الفصل السابع عشر) <sup>(١٠٧)</sup>. إن وصف براونى للحركة التجارية على درب الأربعين مثير للدهشة: لقد إرتحل هو نفسه مع قافلة من ٥٠٠ جمل، قُدرت قيمة حمولتها ١١٥.٠٠٠ جنيه إسترليني <sup>(١٠٨)</sup>. كانت السلع المحمولة للتجارة تشبه لمدى بعيد السلع التي كان بورخارت سيصادفها بعد سنوات قليلة في السوق بشندى (الفصل السابع عشر). يبدو محتملاً بحق أن نسبة عالية من البضائع في قافلة براونى كانت متجهة لأسواق وسط السودان بمعدل يزيد على اتجاهها نحو اصقاع كردفان ودارفور شبه الخالية؛ أما إنهم كان عليهم أن ينتقلوا عن طريق الصحراء الغربية غير المطروق إلخافاً في تفضيل له على النيل، فربما أنه ابلغ بينة دالة لنا على الفوضى السياسية والإقتصادية المطنية بحياسة الكشاف و مكوك الشابية.

مع أن بدايات الهجرة النوبية إلى مصر يمكن أن تعود إلى تاريخ وجيز أنفاً، يبدو أن نمط الهجرة السنوية المنتظمة - الذى كان على أهمية كبرى في الماضى القريب - صار قائماً بثبات في العصر العثماني. إن توهم وجود حكومة عامة (السلطة العثمانية) وحقيقة وجود دين واحد (الإسلام) ربما شجعت النوبيين ليزداد إحساسهم بأنهم في دارهم بالقطر الشمالى أقوى من أى وقت آخر منذ الأيام الأخيرة للفراعة، في الوقت نفسه كانت ضرائب الكشاف والدمار الذى حاق بالتبادل السلعي يهين كل إغراء لمغادرة بلادهم. نجد في كل حالة، بحلول القرن السابع عشر، أن النوبيين موصوفين بسيطرتهم على تجمعات عمال البناء، والغفراء، وسماسرة الرق في القاهرة. وعندما وصل عملاء نابليون في نهاية القرن الثامن عشر (انظر أدناه) وجدوا كذلك النوبيين أغلبية بين حراس الجمارك، وخدام البيوت، وعمال الحقل <sup>(١٠٩)</sup>. بعد سنوات قليلة كان على بورخارت أن يكتب أنه "تذهب أعداد كبيرة منهم إلى مصر سنوياً، حيث يعملون بصفة عامة بوابين أو حمالين، ويفضلون على المصريين تقديراً لأمانتهم" <sup>(١١٠)</sup>. مع هذا، يظهر أن الهجرات الإجمالية للماضى القريب لم تبدأ حتى وقت متأخر في القرن التاسع عشر، عندما توحدت النوبة ومصر بحزم ولو أنه توجد موقوت تحت نظام محمد على (انظر أدناه) <sup>(١١١)</sup>.

يبدو ملائماً إختتام هذا الجزء بمقالة من بورخات مرة ثانية، واصفاً النظام الإستعماري كما رصده في ١٨١٣. إنه يوفر بالمصادفة وصفنا التفصيلي الوحيد لنظام الضرائب الذى يحتمل أنه ساد من أيام الفراعة حتى القرن العشرين:

... في الوقت الحاضر يمكن أن يُقال إن الحالة السياسية للبلد إسمياً على الأقل، هي نفس ما كانت هي عليه عندما امتلك حسن قوصى. الحكام الحاليون، أحفاده، حسين، وحسن، ومحمد <sup>(١١٢)</sup>؛ أبوه كان اسمه سليمان، وقد نال سمعة ما من جبروت حكمه. لقب الكاشف، الذى تقلده الإخوة الثلاثة، يمنح في مصر لحكام المقاطعات. يدفع الإخوة جباية سنوية حوالى ١٢٠ جنيهًا لخزانة باشا مصر، بدلاً عن ميرى النوبة الذى يُسأل عنه الباشا [إستانبول]. في زمن المماليك قلما كانت هذه الجباية تدفع، غير أن محمد على ظل يتسلمها بانتظام في الثلاث سنوات الأخيرة. للكشاف الثلاثة ما يقرب من مائة من الخيالة طوع خدمتهم مكونين في الأساس من أقاربهم أو عبيدهم. هذه القوات ليس لها راتب منتظم؛ تعطى لهم الهدايا في المناسبات، ويعمدون في الخدمة عندما يقوم أسيادهم برحلة وحسب. الرِّز هي مقر زعامة الحكام، لكنهم يتحركون في حركة دائبة لغرض الضرائب وجببها ممن يخضعون لهم، والذين لا يدفعون لهم إلا عندما تدنو قوتهم المتوقعة. أثناء هذه الرحلات القصيرة يرتكب الكشاف صنوفاً من الظلم الفاحش حيثما وجدوا أنه ما من أحد ليقاومهم، وهي الحالة المألوفة. يتفاسم عائد الدخل بالتساوى بين الأخوة الثلاثة، بيد أنهم جميعاً جشعون، يقررون من بعضهم بعضاً لأنى درجة، وينهب كل واحد منهم خلسة باكثر قدر ما يستطيعه. إننى أقدر ربحهم السنوى بحوالى ٢٠٠٠ جنيهًا لكل واحد، أو من ٨ الأثر إلى ١٠.٠٠٠ جنيه على الإجمال. ما منهم من ينفق فوق ٢٠٠ جنيه في السنة. تتكون ثروتهم العمايدة من الدولارات [الإسبانية] والعبيد. في سلوكياتهم يؤثرون الأعمال المتكبرة وتصرفات العنجهية التركية، لكن ملابسهم، الذى هو أسوأ مما يود

الجندي التركي أن يقدّره، يكشف عن خطئ هذا الجور المصطنع من الوفاق.

الطريقة المتبعة لتقدير الدخل في النوبة لا تؤسس على امتداد مُعَيّن للأرض، مثل الفدان السوري أو المصري، لكنها تقدر من كل ساقية يوظفها الأهالي. يتفاوت معدل الضريبة في أماكن مختلفة، لذا تدفع كل ساقية سنوياً في وادي حلفا ستة من الضمان السمين وستة ... مقاييس من الذرة. في المحس يأخذ المليك، أو الملك، على كل ساقية ستة من الضمان، وأردبين (٢٦ بوشلاً) من الذرة، وقمصاً من الكتان. كذلك يأخذ الحكام على كل نخلة كوميّن من البلع، أيّاً ما كانت الكمية المنتجة، ويفرضون رسماً على كل المركبات التي تحمل البلع في الدرّ. إن نظام الضرائب بأكمله شفاهي وغير منظم لأقصى درجة، والقرى الفقيرة ما أسرع خرابها من جرّائه لعجزها عن مقاومة الجبايات المفروضة عليها، في حين يسدّد الأغنياء جباية أدنى بمراحل نسبياً لأن الحكام يخشون من دفع السكان إلى أعمال المقاومة المصرية. يستخرج الكشاف دخلاً مُعْتَبَراً إلى جانب ذلك من مكتب قضائهم، إدارة للقضاء لا تعدو مجرد أداة للتجارة.

بالرغم من أن حكام النوبة إبتزوا كميات جمة بالوسائل المختلفة التي ذكرت آنفاً، إلا أن طغيانهم يمارس وحسب بحق ملكية رعاياهم، الذين لا يضرّون أبداً ولا يقتلون فيما عدا حالة المقاومة العنيفة، التي لا تحدث بغير معاودة. فإذا هرب نوبي كان سيبتز منه مال، تسجن زوجته وأطفاله الصغار حتى يعود. وفيما يلي وسيلة غريبة إبتدعها حكام النوبة، لإبتزاز المال ممن يَدَّعِي لحكمهم. يطلبون للزواج ابنة أي فرد ثري إن كانت في عمر مناسب، ينذر أن يجسر الأب على الرفض، يحس أحياناً أنه اتخذ بالشرف، لكنه سرعان ما يفلس من قبل زوج ابنته القوي، الذي يبتز منه كل قطعة من ممتلكاته بإسم الهدايا لإبنته. تزوج كل الحكام بهذه الكيفية من النساء، فيما يكاد بكل قرية لها مكانة؛ لحسين كاشف فوق الأريعين ابناً عشرون منهم تزوجوا بالأسلوب نفسه (١٠٨).

### عودة الإستعمار المصري

في ١٧٩٨ حلّ نابليون بونابرت في الإسكندرية يصحبه - أو سرعان ما تبعه - جيش لم يكن جنوداً فحسب بل إداريين، وماليين، ومهندسين، وبنفس المنوال علماء وفنانين. كان قصدهم أن يجهّزوا مصر مستعمرة فرنسية، أن ينقلوا الغرور المباركة لعصر الإستتارة والثورة للترية الشرقية، وعن طريق عرضي لتهديد المركز البريطاني في الهند هذه المغامرة الخيالية بطيشها لم تدم أطول من ثلاث سنوات، ما حققت شيئاً لفرنسا في النهاية، لكنها كان لها الأثر الدائم في إيقاف مصر مما كان سيدعوّه محمد علي "نوم العصور" (١٠٩)، وفي وضع القطر علي طريق للحداثة قرناً متقدماً على بقية العالم العربي (١١٠).

أهم نتيجة، ولو أنها غير مرئية، للإحتلال الفرنسي كانت نهوض قوة محمد علي، الذي كان سيصبح أقوى شخص في التاريخ المصري منذ صلاح الدين. ولد في اليونان، من أبوين تركيين أو البانيين (١١١)، في عام ١٧٦٩، وجاء إلى مصر في ١٧٩٩ مع تجريدة من قوات البانية أرسلت من السلطان العثماني في مسعى لا جدوى وراءه لطرد الفرنسيين. ما من شيء معروف عن سيرته للعامين أو الثلاثة أعوام التالية، لكنه في الفوضى السياسية التي أعقبت رحيل الفرنسيين عام ١٨١٠ كان قادراً على تولي قيادة أغلب القوات العثمانية في البلاد وأن يمنع عودة المماليك للسلطة، وقد كان الفرنسيون أجروا نفيهم من القاهرة ومصر السفلى. في ١٨٠٥ كانت في إمرته قوة من حوالي ١٠.٠٠٠ رجل، معظمهم البانيون، قوياً بما يكفي لخلق الباشا العثماني واحتلال محله في رئاسة الدولة. تعيينه والياً تأيد من القسطنطينية في العالم التالي. وفي ١٨٠٨ هزم في يَسْر قوة بريطانية صغيرة كانت قد أرسلت ضده، وشدد قبضته تشديداً عاتياً على القطر ضمن هذه العملية. مع ذلك، لم يكن توطيد أركان حكمه مكملاً مادام المماليك يواصلون حيازة مصر العليا. إستضاف عدة منات منهم في ١٨١١، بأسطاً وعود الصداقة، ليحضروا حفلاً في القاهرة. وفي ختام الإحتفال إنقض

جنوده على الضيوف وذبحوهم كأن لم يبق إلا واحد. في نفس الآن شُن هجوم على نبلاء المماليك المتبقية في مصر العليا، وكان منهم حوالي ٣٠٠ رجل لا غير هربوا في آخر المطاف، برفقة زوجاتهم وخدمهم إلى جوف النوبة<sup>(١١٢)</sup>. لقد إقتفى أثرهم إلى مسافةٍ تقتصر إبريم حينما فر الباقون، من بعد هزيمة لاحقة، إلى منطقة دُنُقلا. هنا أقاموا مدينة حائطية عُرفت في مبتدئها بالأردى (من التركية كمعسكر) لكنها في وقت آخر حلت محل دُنُقلا العجوز، العاصمة الإدارية للنوبة العليا<sup>(١١٣)</sup>. إنها دنُقلا الحديثة اليوم، تبعد سبعين ميلاً بالتقريب صوب إتجاه النهر إلى الشمال من مسميتها التاريخية على الضفة المقابلة (غرباً) للنيل.

في الحقبة التي تلت قضائه على المماليك، كان محمد على مشغولاً بإعادة تنظيم الدولة في مصر ويحملة ضد طائفة الوهابيين الثائرة في شبه الجزيرة العربية. مع هذا لم ينس وجود أعدائه في دُنُقلا: كما قال مورهد عنه إنه كم يسامح عدواً أبداً مهما كانت ذريعتة<sup>(١١٤)</sup>. وفي ١٨٢٠ شن حملة في داخل النوبة بقيادة ابنه الأصغر إسماعيل باشا، الذي كان غرضه المستقر أن يطرد آخر من بقي من المماليك وأن يسحق قوة الشايقية الهدامة. كيفما تم ذلك، فالصافي أنه منذ البداية كان الباشا ينظر إلى ما وراء هذه الأهداف المباشرة: حاجته إلى عبيد يُجنّدون لجيوشه الجديدة.

كان محمد على وأتباعه عثمانيين، إن لم يكونوا على وجه التحديد أتراكاً؛ تحدثوا التركية مثل المماليك بدلاً من العربية، وتحت إدارتهم بقيت التركية لغة لجماعات الصفوة التي تحكم مصر والسودان حتى وقت متأخر في القرن التاسع عشر. كانت القوة التي غزا بها إسماعيل باشا النوبة علاوة على ذلك قوامها الخليط المعتقد من شعوب البلقان والشرق الأدنى الذين شكلوا الجيوش العثمانية. لهذا السبب عرف الغزو والنظام الإستعماري الذي تلاه وسط السودانيين دائماً بالتركية<sup>(١١٥)</sup>. نظام الأتراك. غير أنه لا بد أن يُفهم هذا التوصيف في معنى عرقي وحسب، لا بمعنى سياسي إذ أن ضم النوبة إضطلع به محمد على بمبادرته الخاصة ولأغراضه الخاصة، وليس كما كانت بعض حروب (الأخرى) بمباركة السلطان العثماني. ومع أن محمد على وخلفاؤه صوروا أنفسهم دائماً ولاية للقسطنطينية، ما كان السودان أبداً يعد فتحه معدوداً كجزء من مناطق النفوذ العثماني باستثناء المعنى الأسمى نفسه الذي كان يحق بمصر ذاتها. كان موظفوه المسؤولون يعينون من القاهرة، ليس من القسطنطينية، وكان بالتأكيد مستعمرة مصرية كما أيام الفراغة. إننا لنا ما يسوع ذلك عندما نتحدث عن الجيش الغازي كجيش مصري، وعن النظام الذي تلاه كإدارة مصرية، مع أن المصريين الأصليين بالميلاد كانوا كمّن لم يلعب دوراً فيه<sup>(١١٦)</sup>.

دخل إسماعيل النوبة في ١٨٣٠ بقوة تقارب ٤.٠٠٠ رجلاً يقود حقيقة أول قوة نارية فاعلة بما لم يسبق أن شوهد مثله أبداً في البلاد الجنوبية من قبل<sup>(١١٧)</sup>. كانت الأسلحة النارية بين النوبيين من الندرة بحيث تكاد تكون أسلحة إحتفالية؛ الشايقية وصفوف الفونج النظامية ما فتئت تقاوت بالحراب والرمح<sup>(١١٨)</sup>. حاصل هذا أن الغزو المصري يصعب أن يحسب أكثر من إستعراض بالنصر. سلم الكاشف حسن في النوبة السفلى، بدون مقاومة للغزاة، وهو واحد من الإخوة الثلاثة المذكورين في سرد بورخارت منذ بضعة سنين خلت، بينما هرب أخوة حسين إلي كردفان. وسلم قائد الحامية "البوسنية" في صاي بالمثل<sup>(١١٩)</sup>. كما فعل الملك العمادي للدناقلة. قليل من المماليك في الأردى (مؤخراً دنُقلا الجديدة) كذلك إستسلم، حين انسحبت الفرقة الكبرى جنوباً إلى شندي، لتلحق لجوياً بكم الجعليين.

تالياً جاء دار الشايقية، وهنا، كما هو متنبأ به، كانت ملاقات المقاومة الحقيقية الوحيدة للحملة. في معركتين أبلى فرسان الشايقية بكل النزق والشجاعة الجسورة التي ما أشد ما ألهمت إعجاب وانبغثون (انظر أعلاه)، لكنهم مرقوا إرباً بنيران حملة البنادق المصريين دون أن يُلحقوا بأعدائهم أي خسارة جسيمة. وبعد المعركة الثانية سلم واحد من مكّي الشايقية العماديين، بينما هرب الثاني

جنوباً إلى دار الجعليين. استأنفت الحملة من ثم إلى بربر، التي استسلمت دونما مقاومة، وإلى شندي، حيث كان آخر من في الماليك إضافة إلى مك الشايقية الهارب مخفيين تحت حماية نمر، مك الجعليين. بعد فترة من التفاوض استسلمت شندي بدورها: أعيدت أسرة الماليك إلى مصر، ليخضعوا إلى الأبد من التاريخ<sup>(١٢٠)</sup>. بينما الحق الشايقية مصيرهم بالغزاة. صحبوا بقية الحملة من القوة المصرية غير نظاميين، وظلوا إلى نهاية القرن التاسع عشر ملحقاتاً عسكرياً مهماً للنظام المصري في السودان، وإن لم يُعتمد عليه.

بينما تابع الجيش سيره جنوباً استسلم شيخ العبدلاب بدوره، وصار الطريق مفتوحاً إلى سنار. نهيا وإلى الهجم محمد ودعدلان ليقاوم، لكنه اغتيل من فرقة منافسة قبل وصول المصريين. فلما ظهر الجيش أخيراً، خرج آخر سلطان من الفونج، يادى السادس، بشخصه يقدم خضوعه. مُنح هو أسرته معاشاً، ظل مصوناً حتى الإطاحة بالحكم المصري في ١٨٨١. وحينما دخل المصريون سنار في اليوم التالي دهشوا إذ وجدوها في حالة من الخراب المستحكم، والقصر الملكي الرائع ذات مرة أمسى اطلالاً. هكذا انتهى آخر نظام ملكي مستقل في النيل: بعد ٣٠٠٠ سنة عاد الفراغة<sup>(١٢١)</sup>.

كان فتح اسماعيل تقريباً بلا دماء، وسياسته نحو قادة السودانين تصالحية في البدء على وجه العموم. إن إعادة فرض يد قوية ربما كان إغاثة مَرَحِباً بها بالنسبة لعدد من السكان النهرين عقب تخطيط القرن السالف<sup>(١٢٢)</sup>. مع ذلك، ما كان يتبدد ذلك الوهم مستغرقاً في الزمن فقد ظل محمد على في مصر يُلح على ابنه كي يرسل المزيد من العبيد - جهداً غالباً في صعوبة حيث أن أسرى قليلين للغاية تم أخذهم - وارتأى مستشارو إسماعيل الماليين طريقاً للخلاص من الإشكال بفرض ضريبة تكاد تؤدي إلى إفلاس ملاك الرقيق والحيوانات الأليفة. ولما لم يكن هناك بالتقريب عملة متداولة في السودان، كان المتوقع أن يكون واجب دفع الضريبة عبيداً، وهذا مما يُرضى مطالب القائد<sup>(١٢٣)</sup>. نتج عن هذه السياسة، أن السخط انتشر بسرعة خاطفة في أرجاء المقاطعات النهرية.

رجع إسماعيل إلى شندي صوب نهاية عام ١٨٩٢، ضيفاً على مك الجعليين، نمر، الذي كان قد خضع له مسبقاً. قدم الباشا آنذاك طلباً هائلاً لمضيفه للمال والعبيد: إستجاب نمر بأن أشعل النار على مقره ليلاً، نتيجة مؤذاهما أن القائد المصري وأغلب حاشيته ذهب ربحهم. كانت هذه هي الإشارة لمقاومة عامة عنيفة ضد المصريين عمت طول الأنحاء بوسط السودان. أجليت معظم الحاميات التي أُقيمت حديثاً في الجزيرة طرداً عنها أو قُشرت على التراجع إلى ودمدني، حيث كان الغزاة قد أنشأوا أنفاً قيادتهم العسكرية. برغم هذا، كانت المقاومة العنيفة بدرجة كبيرة حركة تلقائية بلا تنسيق، ما أفلح قادتها أبداً في الإتحاد سوياً. ولم تكن المقاطعات الشمالية متأثرة بالعصيان المسلح، شدد الحاكم في بربر قبضته، وظل الشايقية على ولائهم لأربابهم الجدد. وفي عام من الحملات الماهرة أفلح القائد الثاني المصري، محمد خسرو، في إخضاع لوب العصيان المسلح في مراكزه الواحد تلو الآخر، وعاد السلام للأرض - سلام الموت، كما وضعه مورهد في عبارته<sup>(١٢٤)</sup>. كانت حملة التهينة مقرونة بفظائع وجشية ومناظر بهيمية لأشلاء الضحايا بدلاً رهيباً معوضاً للفنح الأصلي الذي خلا من الدماء؛ فُدر أن ٥٠.٠٠٠ سودانياً قُتلوا انتقاماً لمقتل إسماعيل فيما أدلى بذلك الجميع.

## النظام الإستعماري

في مصر يذكر محمد على كطاغية باغياً لا يرحم، إلا أنه كان إلى جانب ذلك مُصلحاً عصرياً وضع البلاد على طريق القرن العشرين. في السودان بالوجه الآخر ما كان حكمه مستتيراً خيراً من الفراغة، مندفعاً كان بنفس الطمع الإستهلاكي للذهب والعبيد. على أن عودة السيطرة الإستعمارية المصرية بعد ٣٠٠ عام من الحكم المستقل، نغعت السودان في جانب واحد ذي أهمية: فقد وضعت حداً لتخطيط النظام الإقطاعي. خُلع الممكوك بإستهتارهم أو تركوا يؤدون وظيفة

إحتفالية بقدر جلى، في حين تركزت السلطة الحقيقية في قبضة إدارة ديوانية تركية - مصرية جامدة. إن حضور جيش كبير على أهبة الإستعداد، مع حاميات في كل من المدن الكبرى، كان رادعاً فاعلاً دون إستئناف للحرب القبلية.

على رأس الحكومة الإستعمارية حاكم عام (حكمدار)، أقام بعد ١٨٢٥ في العاصمة الإدارية الخرطوم التى أنشئت حديثاً في ملتقى النيلين الأزرق والأبيض. وضعت كل واحدة من المحافظات الأصلية الأربعة بُتقلاً، بربر، سنار، وكردفان تحت حكم حاكم مديرية (مدير) أقام في أكبر مدينة في محافظته، بينما أقام نائب الحاكم (المأمور) تقليدياً في ثانى المدن حجماً. قسمت المديريات بدورها إلى مقاطعات أصغر يحكمها كشاف (منصب خُلق الآن في كل أنحاء القطر، بدلاً من الشمال وحده كما في أزمان مضت)، وتحت الكشاف شيوخ القرى وجماعاتها (١٣٧). ما من حاجة للقول أن أيأ من هذه المناصب ما كان وراثياً، بمثل ما كان عليه منصب الكشاف في الأيام السابقة للمصريين. للحاكم العام السلطة المطلقة يعين ويعزل مديري المديريات، ولهؤلاء سلطة مماثلة على الكشاف، وهلم جرا نزولاً (١٣٧).

إحتوى جيش الإحتلال في السودان في البداية ١٠.٠٠٠ من المشاة و٩.٠٠٠ خيالة فرساناً (١٣٨). نُصبت وحدات الجيش في الخرطوم وعواصم المديريات؛ إضافة إلى ذلك طُلب من كل كاشف أن يقيم قوة من أربعين رجلاً تحت تصرفه (١٣٩). كانت القوات النظامية مسؤولة مباشرة أمام القائد العام المصري في القاهرة بدلاً عن المسؤولين المدنيين في السودان. لكننا منذ البداية جعلت كتلة القوات من رقيق سود أسروا أو شروههم أنفاً في البلاد، لكن الضباط كانوا أتراكاً، والباقيين وجنسيات عثمانية أخرى، تضاف إليهم قلة من جنود أوروبية محظية. إن الإستعمال الدائم للتركية لغة للقيادة، علاوة على أنها مقتضى الكتابة للرتب الأعلى، أغلق بإحكام صفوف الضباط دون كل من السودانيين والمصريين الأصليين (١٤٠). وإلى جانب القوات النظامية نشطت جماعة من غير النظاميين الذين ما كانوا خاضعين تقريباً لى نظام على الإطلاق، واجباتهم الزعيمة جمع الضرائب والإغارة بهدف الرق (١٤١). وسط هؤلاء كان الشايقية في الطليعة دائماً.

النظام التركى - المصرى حكومة إستعمارية نموذجية على أوفر شكل، ما كان بأى معنى حكومة من الشعب أو له. كبار المسؤولين كانوا كلهم أتراكاً أو جنسيات عثمانية أخرى، كما كان متطلباً إستعمال التركية لغة رسمية للحكومة؛ وبعد ١٨٦٠ إنضم إليهم بضعة أوروبيين غربيين بالمثل. أما الثلاثة وعشرين حاكماً عاماً الذين تولوا الحكم بين ١٨٢٦ و١٨٨٥ فشمولوا ٨ شركاسة، ٥ أتراك، ٢ أكرد، ٢ أغاريق، البانيا، مصرىاً نوبياً وأربعة من أصل غير مدون (١٤٢)، وربما كانت رتب مروضيهم مُشكلة بالمثل. أما الموظفون الكتبه ومحصلوا الضرائب الملحقون بالحكومات المركزية والمديريات فكانو كلهم بالتقريب أقباطاً مصريين، على منوال معظم الموظفين الماليين في مصر (١٤٣). شارك السودانيون في الحكومة بصفة رئيسة في المستويات الأدنى، شيوخاً للقرى أو القبائل. وفي السنوات الأخيرة للحكم التركى - المصرى تنامى إضافة إلى ذلك نظام للمحاكم المحلية لإدارة قانون الشريعة (أى قانون المسلمين الموروث) شارك فيها سودانيون (١٤٤). عدا ذلك كانت القوانين الوحيدة للأرض هى النظم الإدارية التى حكمت الموظفين المدنيين والجيش، وهذه بالطبع مصممة من حكام الإستعمار المطلقين الذين يسيرونها (١٤٥).

إنْتقد النظام التركى - المصرى في السودان بعنف من الأوروبيين لمظالمه وقمعه. ترك طبيب أو صيدلى إيطالى عمل في البلاد أثناء الأربعينات من عام ١٨٤٠م سرداً مفصلاً بالرائة عن جشع محصلى الضرائب (١٤٦). أما الأحوال التى لاقاها السير صمويل بيكر عندما أصبح حاكماً على ميرية من بعد حقتين تاليتين فقد أضحت أنكى وبالأ. وفقاً لبدج في إيجانٍ لعرض بيكر :

سوء الحكم، والإحتكار، والإبتزاز، والقمع كانت صواحب للحكم التركى. إن بُتد القاهرة عن السودان كان له

أثر سبب على شخصية المسؤول المصري كل مسؤول نهب؛ والحاكم ابتز من كل جانب، وخشاً جويوه اعتراضاً لكل حركة تجارية ليحصل على الرشاوى. شملت خيانة الأمانة والفسخ المسؤولين من اعلامهم إلى ادناهم، كل ينهب بقدر درجته. جمع الجنود الضرائب، وبالطبع، حصلوا على ما تعدى المستحق. حاصللاً لذلك إكتفى الأهالي بإنتاج حاجتهم وحسب. أما انقل ضريبة وأفدحها ظلماً فكانت على السواقي، التي اعتمد عليها الرخاء الزراعى للقطر فر المستوطنون الجدد من قطع محاصيل الضرائب الذى انقض عليهم من ركابه، وبذا بقيت أراض شاسعة من البلاد غير مزروعة<sup>(١٣٧)</sup>.

وفي كلمات كتب بيكر أن :

الوجه العام للسودان وجه للبؤس، ليس هناك ملمح مفرد من الإغراء ليعوض أوروبا عن مساوئ المناخ المهلك والتجمعات الكاسية ... وفي ظل الأحوال الكائنة ليست للسودان قيمة، فهو لا يملك قدرات طبيعية ولا أهمية سياسية؛ على أنه، كيفما اتفق الحال، هناك سبب عجل أولاً باحتلاله من المصريين، وهو لا يزال نافذاً إلى اليوم الحاضر. إن السودان يمد بالعبيد، فمن غير تجارة النيل الأبيض تكاد الخرطوم تنمى عن الوجود؛ وتلك التجارة هي الخطف والقتل ...<sup>(١٣٨)</sup>.

مع كل نواقصه يدعو للريبة ما إذا كان الحكم التركى المصرى قد اشتهر بأنه أضل فساداً أو أبغى قمعاً من معظم الأنظمة التي سبقته، أو إنه ذلك الأمر أفجش سوءاً من أنظمة إستعمارية عديدة أخرى أقيمت في إفريقيا حوالى نفس الزمن. ربما أن الأوروبيين أثجرت حفيظتهم على وجه الدقة بالحقيقة التي مؤداها أن السودان لم يكن من الناحية الفنية مستعمرة على الإطلاق، إنما جزءاً متكاملأ من مصر<sup>(١٣٩)</sup>، لكن هذا التمييز ما عنى شيئاً لمحمد على. إن ملوك القرون الوسطى وأباطرتها إعتادوا أن يحكموا كل رعيتهم بالطريقة التي حكم بها الأوروبيون المتأخرة مستعمراتهم: دونما اعتبار لرضا المحكومين، وفي إعتبار نذير للغاية لرفاهيتهم. ولم يكن نظام محمد على أول نظام للقرون الوسطى في السودان، وما كان الأخير تماماً...

أعطى ريتشارد هيل صورة أفضل إتراناً بطريقة ما للحكم التركى - المصرى مما قدمه كتاب سابقون:

مثل كل الأنظمة السياسية في الأرض كان للحكم التركى المصرى نقاط قوة ونقاط ضعف. إن من منافعها في الحالة التي كان عليها الزمن تحرره من الإعتدال على التقارير، حراكه. تكونت الهيئة الكتابية بأجمعها للحاكم العام أحمد باشا أبو ودان من خمسة أمراء ... ونقطة الضعف كانت الإقتقاد إلى اتصال فاعل بين الحكومة والمحكومين. لم تكن هناك آلة إستشارية في السودان المحتل عاملاً بفلسوب مجالس السودانيين التي عبرها تستطيع الحكومة إذا رغبت، أن تتشاور مع دافعى الضرائب. بغض النظر عن ذلك وسيلة واحدة إستطاعت بها الحكومة، بمعنى سلمى، أن تحس بنهب الشعب؛ كان ذلك بالسماح بحق الإلتماس المرفوع ضد الظلم المدعى عليه. لم يكن حق رفع الإلتماس للحاكم في السودان منظمأ بأحكام كالأجراءات البرلمانية لكنه كان منصبأ غير رسمى يتدفق تلقائياً بالسخط الشعبى. إن الراوى ينسب كيف أن عباس آغا، حاكم بربر، أُرِج عن منصبه بالإلتماس شعبى. دنو هنا من فجوة عميقة تفصل المفهوم العثمانى - الإسلامى لطبيعة الحكم عن المفهوم الأوروبى الغربى... إن شعباً مسلماً سوف يتحزب معاً لغرض تقويم ما يُعتقد أنه عوج غير محتمل أو إستجابة لنداء بالدفاع عن الإيمان ... لقد وجدوا بشكل معاوير أنه من الصعب أن يتحدوا من أجل مزيد من التوحد، كأهداف إيجابية، وعلى سبيل الدقة تلك التي تشتمل نظاماً جماعياً موطداً.

تقبل السودانيون في وادى النيل الحكم التركى - المصرى بعد أن بيّن التشفى الدموى لعصيان ١٨٢٢ - ١٨٢٥ المسلح أنه لا جدوى للمقاومة. كل الحكومة كانت قوة خارجية، شفافية في طبيعتها، لا ترتكن إلى قانون مكتوب؛ إن الذى لا يمكن تلافيه يجب تحمله. لقد كانت على الأقل حكومة مسلمة على نهج طرازها السائد، وقد تعلم القادة الدينيين والتجار كيف يجنون ربحاً من الطافوت الجديد<sup>(١٤٠)</sup>.

التوغل المصري الأصلي في احشاء السودان كان قد احتل ما كان بالضرورة أقاليم قديمة للعثمانيين والفونج: المقاطعات النهرية إلى مسافة إتجاه النهر جنوباً حتى سفوح الجبال الحبشية على النيل الأزرق ونقطة ليست بعيدة جنوب الخرطوم على النيل الأبيض، بالإضافة إلى مديرية كردفان الغربية. التوسع ما وراء ذلك إلى الجنوب كان مسدوداً، كما ظل منذ زمن لا بداية له، بسبب الاستعصاء العنيف للشك وقبائل نياية أخرى والإنتشار الشاسع لمستنقعات السود. بقي ساحل البحر الأحمر بمينائيه التوأمين سواكن ومصوع من الناحية النظرية تابعين مفصولين للإمبراطورية العثمانية، وفي الغرب البعيد كانت دارفور محكومة بسلطة مستقلة. هذه الحالة من الشئون [الإدارية] ثابرت على البقاء لما يقرب جيلين، بالرغم من أن الإقليم الدائر حول كسلا، شرق العظيرة، إنتزع من قبيلة الهدنوة البجاوية في ١٨٤٠ (الشكل رقم ٨٥)<sup>(١٤١)</sup>.

المرحلة الثانية العظمى لتوسع الإمبريالية في السودان بدأت في الستينات من عام ١٨٦٠م خلال وقت أطول بقليل من حقبة زمنية تضاعف تقريباً الإقليم الواقع تحت سيطرة المصريين من خلال إضافة ما أصبح في وقت متأخر مديريات كسلا، ودافور، وأعالى النيل، ويصر الغزال، والإستوائية<sup>(١٤٢)</sup> عبر هذه الفتوحات والأراضي التي تم ضمها بلغت حدود السودان المصري ما هو بالضرورة رسمها الحالي (الشكل رقم ٨٥). التحكم في ساحل البحر الأحمر آل إلى مصر رسمياً من السلطان العثماني في ١٨٦٥<sup>(١٤٣)</sup>، لكن المديريات الأخرى أضيفت، وما كان أغلبها عن طريق مبادرة الحكومة بمقدار ما تم خلال الأعمال الجزيئة التي أنجزت في بغي وبلا هواده أو رحمة من خاصة تجار الرقيق، والذين كانوا بعد ١٨٦٠ الحكام غير المتصيين رسمياً على جنوب السودان.

### أوج تجارة الرقيق

توفير الأرقاء لأراضي البحر الأبيض المتوسط كان مرتكزاً أساسياً لإقتصاد النوبة الخارجي منذ أيام الفراعنة، لكن حركة التجارة بلغت أوجاً في الحجم والضراوة معاً أثناء الحقب الأخيرة للقرن التاسع عشر. بإلغاء الرقيق في الولايات المتحدة (١٨٦٥) والبرازيل (١٨٧١) أصبحت الإمبراطورية العثمانية وأقطار أخرى في الشرق المسلم آخر سوق إجمالي للعبيد. هكذا بينما انكمش نشاط صيد المُسترقين وتوقف بالمرّة أخيراً في المنحنى الأطلنطي بإفريقيا، أدار المستعبدون تنبهم لأقاليم جديدة في الشرق. كانت مصادر المياه في النيل الأبيض ومناطق البحيرة في شرق إفريقيا آخر مخزون إحتياطي عظيم لم يطرق بعد لصيد الإنسان، ما هنا احتل الانفجار النهائي لنشاط صيد الرقاب مكاناً في الجزء الأخير من القرن للتاسع عشر. وكان منظمو هذه التجارة أمراء على التجار - أغلبهم عرب لكنهم يضاف إليهم بعض أوروبيين - خلقوا "إمبراطوريات للغاب" بالفعل، وقانوناً موجهاً نحو أنفسهم في مناطق تمتد وراء سيطرة أية حكومة حضارية. للخرطوم وزنجبار أمسياً أركاناً رئيسة لعملياتهم .

بعد فتح السودان بقليل كتب محمد علي إلى حاكمه العام "أنت تعلم أن مبتغى كل جهننا وهذا الاتفاق هو أن نحصل على الزوج. أرجو أن تظهر جم النشاط لإمضاء رغباتنا في هذا الأمر الجسيم"<sup>(١٤٤)\*</sup>. هذا التوجه كان من شأنه أن يدشن للعرض لستين عاماً قادمة من الحكم التركي - المصري في السودان. وهو يكشف أيضاً، مهما كانت مشاريعه الإدارية التي قام بها إلي ذلك اليوم، إن أفكار الباشا العسكرية كانت بإتقان تام حليفة القرون الوسطى. ما كان يريد العبيد للتبادل السلمي والكسب، إنما كأساس لجيش جديد (النظام الجديد) كان يأمل به أن يوسع من قوته في كافة

(\*) يمكن مقارنة ذلك بما أورده شبيكة في مؤلفه *السودان عبر القرون*، ص ١١٧ : « إن المقصود الأصلي من هذه التكاليف الكثيرة والمتعب الشاقة هو الحصول علي عدد كبير من العبيد » - المترجم.



أنهاء الشرق الأدنى. إن حكاماً آخرين أرقى إنسانية حاولوا أن يعكسوا هذه السياسية وأن يكبتوا تجارة الرقيق، خلا أنه كان قد فات الأوان آنذاك؛ فالقوات التي بعث فيها محمد علي الحركة ما عاد لجم زمامها أمراً ممكناً.

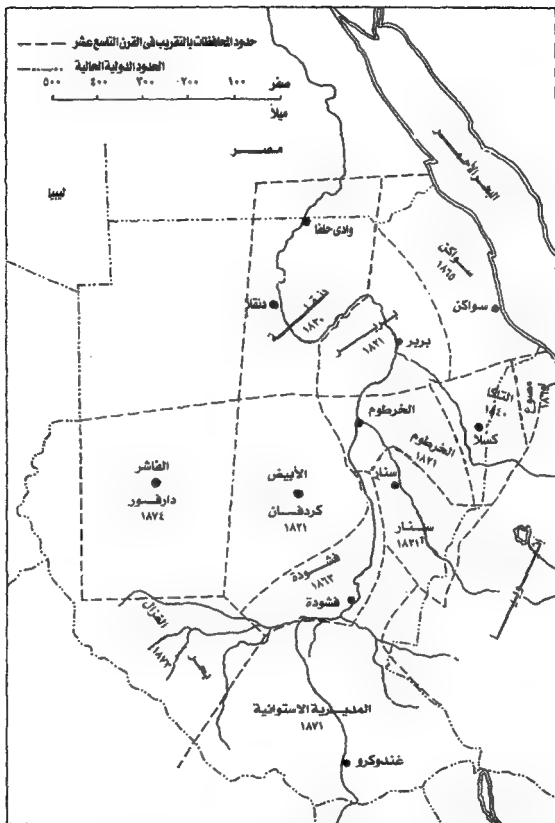
كانت الإغارة للرق في البداية، عملية حكومية في المقام الأول، بمثابة الدعم العمادى لنظام محمد علي. إضطلع خورشيد، أول حاكم عام، بحملات للرق كل عام تقريباً بين ١٨٢٦ و ١٨٣٢، وتواصل التقليد من خلفائه على نطاق أصغر<sup>(١٤٥)</sup>، معانيين من الشايقية في حالات كثيرة. أصبح استمرار تجارة الرقيق الحكومية، مع هذا، يشكل حرجاً للحكام الآخذين بحضور الغرب الذين رُغوا للعرش بعد موت محمد علي في ١٨٤٩. (واصل أحفاده حكم مصر، أولاً باشوات عثمانيين ثم ملوكاً مستقلين مؤخراً، حتى الإطاحة بالملك فاروق في ١٩٥٢). أنهى محمد سعيد، الثانى من خلفاء محمد علي، الإتجار الحكومى بالرق في ١٨٥٤<sup>(١٤٦)</sup>، على أنه في ذلك الوقت كانت المبادرة في نشاط الرق قد استقرت آنفاً في أيدي أصحاب الأعمال الخاصة، عرباً وأوروبيين معاً، الذين هرعوا إلى السودان بعد إلغاء الإحتكارات التجارية لدولة محمد علي في ١٨٤٣<sup>(١٤٧)</sup>.

الحملات التركية - المصرية الأولى للرق كانت في كردفان وجنوب الجزيرة أشد نجاحاً، وهي نفس المناطق التي استمد منها الفونج في السالف معظم عبيدهم. ومهما كان من أمر ذلك، فإن الجمع ما بين الأسلحة النارية الحديثة والمركبات الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر جعل من الممكن كسر الحاجز المزودج لمحاربى الشلك ومستنقعات السدود، وأن تفتتح الأرض التي لم تطرق من قبل للرق في أعالي النيل وروافده. تمخض عن هذا التطور "إندفاع نحو الذهب" خاصة من صيادى الرقاب في جنوب السودان.

أفلحت عام ١٨٣٩ والأعوام التي تلتها أساطيل صغيرة من القوارب النهرية تحت إمرة سالم قبودان في إمتطاء النيل الأبيض إلى مسافة خمس درجات من خط العرض الشمالى، حيث أقاموا محطة خارجية في ضاحية ما عرف لاحقاً بالعاصمة الإقليمية للاستوائية، طبقاً لهولت:

رغم أن حملات سليم قبودان فشلت في إدراك آمال محمد علي لإكتشاف منبع النيل والمعادن التي كان هو مطمئناً إلى أنها لا بد أن توجد هناك، فقد فتحت الطريق لتجار الخرطوم منعت القيود الحكومية وصولهم أعالي النيل باده الأمر، لكن إلغائه في ١٨٥٣ إستجلب خلايا من التجار من أوروبا، ومصر، والسودان المصرى نفسه. لم يتفعلوا في المجرى الرئيس للنيل نفسه وحسب، حيثما مثلت غندو كرو أنائى جنوب لهم، ولكنهم إخترقوا المنطقة الغربية لبحر الغزال زيادة على ذلك (قارن الشكل رقم ٨٥). وما كانت حالة من التجارة تتبع العلم ... فالتجار لا تطالهم الإدارة، كما لا تعينهم حكومة مستقرة. لكل عميد وكلاؤه وخدمه، جيشه الخاص من الاتباع المسلحين، وقد جندوا بقسطنطين وافر من دناقلة الشمال وشايقيته. ولكل محطات المحصنة (الزرائب)، تسويرات محاطة بسيج شوكى، تؤدي لهم وظيفة مقر الرئاسة، مستودعات لشحن بضائعهم، ومواقع لحاميات ساعة الحاجة. جأوا في الأصل بحثاً عن العاج، لكنهم انقلبوا بلا تبصر إلى مستعبدين للبشر. الحاجة كانت إلى الأرقاء جوارى ومعالين، ثم قوات من عبيد ... عادة ما تعمد جيوشهم الخاصة. أنشأوا مع الزعماء والقبائل المحلية تحالفات ضارية شاذة، وولجت الحرب القبلية الداخلية باب الإغارة على الرقاب. مطلع الأمر، كان موقف "الخرطوميين" هشاً، لكنهم في النهاية منحتهم الأسلحة النارية والتنظيم السيادة على الزعماء القليلين. كان أشدهم بأساً أمراء التجار، يحكمون مساحات عظيمة حكماً فعلاً، في تلك الأثناء، كان السوق المعد للعبيد في الشمال قد أحالهم من مزاوله عمل هامشى مربح إلى السلعة الرئيسة لتجارة الخرطوميين<sup>(١٤٨)</sup>.

نظام الخديوى إسماعيل، الثالث من خلفاء محمد علي (١٨٦٢ - ١٨٧٩)، مُشتهر في السودان بجهود أكبر بما لم يسبقه مثيل وبأعلى نفقة للسيطرة على وحش تجارة الرق الذي خلفه جده. إن المساعى الأولية لكبح حركة التجارة بالمرسوم، والضرائب للتأديبية، وضبط السفر على أعالي النيل الأبيض برهنت كلها على إخفاقاتها التام، وفي النهاية لم تجد الحكومة بُدأ من مد تحكمها المباشر على



شكل رقم ٨٥  
مديريات السودان التركي - المصري ، مع تواريخ حيازتها

مناطق عمليات صيادي البشر<sup>(١٤٩)</sup>. لقد كان بذلك الأسلوب أن محافظات أعالي النيل (أصلاً فشودة)، والإستوائية، وبحر الغزال أضيفت نوعاً ما بامتعاظ إلى مناطق نفوذ الخديوى بين ١٨٦٣ و١٨٧٣. أما المديرية الغربية البعيدة دارفور، وهى مقعد سلطنة قديمة في طول من الإستقلال، فقد فتحت بالمجان إنبابة عن الخديوى عام ١٨٧٤ عن طريق واحد من أقوى أمراء التجار، الزبير رحمة منصور، لأن سلطانها لم يكن قادراً على كفالة أمن قوافل عبديه<sup>(١٥٠)</sup>. أثر هذه الأرضى التى تم ضمها كاد أن يضاعف مساحة السودان المصرى، إلا أنه لم تكن هنالك زيادة متمشية مع ذلك في القوات العسكرية. حاصلاً لذلك أصبحت برهاناً على استحالة حفظ النظام في الأقاليم الجديدة، وكان لحاله الفوضى المطلبة لغياب القانون التى سادت هناك أثر على ثبات النظام في الخرطوم على حد سواء.

في يأس من تركيع "الخرطوميين" بأى من معيته، لجأ إسماعيل في السنوات الأخيرة من حكمه لتعيين حكام أوروبيين للمحافظات السودانية الجنوبية، أرفدوا بما كاد أن يكون صكاً مفتوحاً لمعالجة الرق بأى كيفية تباح لهم. إثبات من أوسع هواء شهرة كانا السير صمويل بيكر والجنرال شارلس غوردون - كلاهما رجل قوى الشكيمة مستقل الراى والتصرف، تصوراها بعثة كانها خلاصية بروج الصليب لإيقاف تجارة الرق<sup>(١٥١)</sup>. وقد وُفقا خلال عقد عملهما (بيكر من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٤ وغوردون من ١٨٧٤ إلى ١٨٨٠) في إنشاء تدبير معين من النظام في المديرية الجنوبية، عدا أنه كان بثمن مخيف. إن العاصفة التى هاجت فوق السودان أشهراً قليلة بعد رحيل غوردون (أنظر أدناه) كانت تماثل على الأقل بعثاً لعناصر تجارة الرقيق التى كان قد أنهك قواها بفارائته المتكررة عليها مثلما كانت إنفجاراً ضد مفاسد ولا مبالاة الحكم التركى - المصرى<sup>(١٥٢)</sup>.

وقف النوبيون، الكنوز والمحس في تدقيق، بعنائى عن معظم هذه التطورات في الجنوب، فمع أنهم كانوا الفرائس الأولى للغارات المصرية في داخل السودان، توقفوا هم ويلدهم دون أن يكتبروا أى إكتراث ذى بال بجيرانهم الشماليين طالما أن قاعدة العمليات المصرية قد أنشئت جنوب النهر بعيداً عنهم. وفي بعض الجوانب كانوا في الحقيقة المستفيدين الأكبر من نظام محمد على. كان حكم الكشاف الأخيرين، مع كل قمعه، بلا ريب مفضلاً على كشاف العصر العثمانى، السادة - الناهبين؛ إضافة إلى تحرر النوبيون من تهديد الشايقية ومن الممالك اللاجئين الذين قاموا بقمعهم مؤقتاً. في السودان الذى جرت تهدنته حديثاً كان التعليم والكتابة اللذين طمح إليهما النوبيون منذ وقت طويل أغلى قيمة عملياً عنهما في العصر الإقطاعى، وكانوا قادرين على الصعود إلى داخل مراتب الطبقات الكتابية والتجارية المتنامية. أعداداً عظيمة منهم هُزعت إلى مصر بحيث اشتد الطلب عليهم خداماً في المنازل لكل من النخبة التركية والجماعات السكانية الأجنبية بحجمها الكبير الذى تعاضل في القاهرة والإسكندرية<sup>(١٥٣)</sup>. أخيراً، وجد الدنقلاويون والجلعليون سوانع خاصة في تجارة الرق، إن إمبراطوريات الغاب التى أضحت مديريات لبحر الغزال والإستوائية كانت باكبر قدر من صنعهم<sup>(١٥٤)</sup>.

### المهدية: ختام لعصر القرون الوسطى

لقد أوردنا من قبل (الفصل السابع عشر) أن توقع المهدى، أو المخلص القادم، شائع في معظم طوائف الإسلام الغيبية التى تشعبت في كثرة لا متناهية بالسودان وبلدان مجاورة. في تاريخ إفريقيا المسلمة كان هنالك مهديون عديدون ادَّعوا مهديتهم، بما في ذلك مؤسسو الأسر الفاطمية والموحدية في الشمال<sup>(١٥٥)</sup>. ورتل كامل من دول دينية منذ وقت وجيز في المنطقة شبه الصحراوية<sup>(١٥٦)</sup>. كان مفهوم المهدية متأخراً في وصوله للنيل الأعلى، سوى أن المهدى السودانى، محمد أحمد بن عبد الله، هو الذى جعل كلمة "مهدى" معروفة حول العالم في نهاية القرن التاسع عشر.

محمد أحمد كان دنقلاوياً، إبناً لصانع مراكب، وقد ولد في مكان ما في الجزء الشمالى من

مديرية دنقلا في العام ١٨٤٨. إن القصة الملهمة التي تحفل بالأحداث في سيرته أخبر عنها في فصاحة بليغة - على وجه الدوام - آخرون <sup>(١٥٧)</sup> سيجري تفصيل عرضها هنا؛ وإنني لا أستطيع أن أفعل أفضل من نقل سيرته الذاتية في صرّة بقلم ريتشارد هيل:

إثر تركه مدرسة لتعليم القرآن في أم درمان ذهب إلى الجزيرة أبا، على النيل الأبيض، حيث كان أبوه وقتها يبنى المراكب؛ شاباً يافعاً بدأ في تكوين شخصيته بالدراسة والتأمل العميق. الحق نفسه مبكراً بالطريقة الإسماعيلية<sup>(\*)</sup> وأصبح تلميذاً للشيخ محمد شريف نور الدائم ... في خلاف مع أستاذه ولعدم رضائه على دينونه ترك [داره] مع بضعة أتباع وعاش بالجرار. في ١٨٧٥ نقل ولاءه الديني للشيخ القرشي ود الزين في الطريقة السمائية حوالي ١٨٨٠ جال كردفان ووجد حالة البلد غير متوافقة مع معتقده الدينية التي كانت تتقدم الآن نحو مرحلة التدخل السياسي؛ كانت القبائل البدوية خارج النفوذ المباشر للحكومة المصرية يمتازها السلب والنهب والحرب الناشئة بينها، والفقر يعمر غليظاً من سوء إدارة الحكومة التي كان حكمها أشد فساداً في الذمة، إرتشاء وعجزاً منه قمعاً متعمداً. إن محاولات الحكومة الخائرة لكبت تجارة الرق إستفزت الحقد والرغبة في التشفي بين طوائف بلر كان اقتصاده مؤسساً على الرقيق؛ كان السكان المحترقين للخروج علي السلطة في وسط السودان ناضجين لمغامرة دينوية بعصيان مسلح في تنسيق ظل منكر عليهم الإتيان به منذ تأسيس حكومة أجنبية قبل ستين عاماً سلفت من قبل. [محمد أحمد] مثل الأمل الظاهر بلا ثانٍ لتحقيق وحدة السودانيين وحريتهم. أعلن في مايو ١٨٨١ مهمة السماوية وأمر الناس بقتال الأتراك الكفرة كخطوة أولى لتقديم مجتمع مظاهر قائم على المذركات الإسلامية. جمع تعليمه من عناصر موجودة في الحركات الوهابية والسنوسية، بما في ذلك عودة الإسلام في شكله الأول، ومعارضة البدع والتأثيرات الأجنبية، وتحريم كل من زيارة الضرائع وتبجيل الأولياء والموسيقى والتبغ. إن عنصر الصوفية القوي في تعليمه كان مذهباً لمشاعر شعب يتقبل موروثه الصوفي <sup>(١٥٨)</sup>.

ترك خلع الخديوي المصري إسماعيل في ١٨٧٩ واستقالة غوردون كحاكم عام بعد أشهر لاحقة، السودان في حالة من الهيجان السياسي. دُمِر أياً كان إنطباع القوة والثبات الذي استطاع النظام التركي - المصري أن ينقله بهاتين الواقعتين؛ فالوقت كان ناضجاً لحركة إستقلالية. وكيفما مضى ذلك، ما كان منتظراً بأي حال في الزمان أن ذلك سوف يأخذ صبغة حركة دينية ألفية الحدوث؛ إن فلاح المهدي في توحيد السودان وتحريره يمكن أن يُعزى في قياس كبير إلى المحاولات الخائرة لحكومة الخرطوم دون فعل لكبت حركته <sup>(١٥٩)</sup>.

تجريد مبدئية لمواجهة المهديين في ١٨٨١ نتج عنها تراجعهم من الجزيرة أبا إلى جبال النوبا في جنوب كردفان، مساحة قاومت طويلاً سلطة الحكومات القائمة. هنا جند المهدي لقضيته قبائل البقارة البدوية، التي كانت ستوفر الدعم العسكري الأساسي لنظام المهدي طوال تاريخه الوجيز. كان لهم إكثارات قليلة بالمنطقات الدينية للحركة، لكنهم استهوتهم مغامرات الجهاد (الحرب المقدسة) ضد الحكومة الإستعمارية، لتكنهم من استئناف حياة السلب والنهب في الأزمان السالفة. وبعد إنتقال المهديين لكردفان صُدّت بحسم حملتان أرسلتا للقضاء عليهم، يدفع كل نجاح بمكانة محمد أحمد إلى المقدمة ويبدو مزيداً لشرعية مهمة السماوية.

بعد هزيمة الحملة التائيدية الثانية أخذ المهدي لأول مرة مبادرة بالهجوم محاصراً وأسرّاً عاصمة المديرية الأبيض والحامية التي تلتها أهمية في بارة عام ١٨٨٢. نتيجة لهذا الفلاح وقعت كل كردفان في يده. إن نقطة التحول الحقيقية في سيرة المهدي جاءت بعد بضعة أشهر عندما أبيت عن بكرة أبيها حملة مصرية من ٧,٠٠٠ رجل بقيادة القائد البريطاني ويليام هكس. اقنعت أنباء هذا الإنتصار الغالبية العظمى من السودانيين أن المصير ملقى مع المهدي، وأن كل رمز للتحكم

(\*) السجادة الإسماعيلية أنشأها الشيخ إسماعيل الأولي الكردفاني وانتشرت في أجزاء من الشمالية وكردفان والخرطوم وهي لصيقة الصلة بالطريقة الختمية التي كان راعيها الولي محمد عثمان الميرغني أستاذاً تلمذ عليه الشيخ إسماعيل نفسه قبل أن يستقل بسجادة الصوفية. أما للشيخ نور الدائم فقد كان قِيماً على الطريقة القادرية - المترجم.

المصري تبخر خارج حاميات المدن الكبرى في قلب البلاد. أما حكام المديريات في دارفور ويحر الغزال فقد وجدوا أنفسهم محاصرين حالاً من قوات المهدي ومقطوعين عن أي دعم من العاصمة؛ أُجبر كلاً منهما علي الإستسلام خلال أشهر قليلة من هزيمة مكس. في هذه الأثناء، إستجمعت قبائل البجا في مديرية البحر الأحمر لقضية الثوار من جانب قائد الهندوة المهيب، عثمان تقة. وفي ١٨٨٤ انتقل هجوم المهدي، الذي كان قد بدأ نموه تلقائياً خاطفاً في أراضي الهامش، إلى مجرى النيل الرئيس؛ حوصرت بربر وأسرت في منتصف مايو، وقُطع الإتصال بين الخرطوم ومصر مؤقتاً. وجدت الحاميات المصرية الآن نفسها معزولة بلا أمل ومحاصرة في بلد بدأ قبل سنتين فقط تحت سيطرتهم الجازمة.

لقد ساهمت السياسة المترددة دون قرار حاسم لبريطانيا العظمى في تلاشي الحكم التركي - المصري في السودان بمقدار كبير، حطت قوات بريطانية رجالها بمصر في ١٨٨٢، لنقطع دابر حركة أحمد عرابي الوطنية العسكرية في ظاهر الأمر ولكيما تعيد سلطة الخديوي محمد توفيق، الذي خلف إسماعيل في ١٨٧٩. وكان هدفاً أبعد مدى أن يرتب بيت المالية المصري في نظام وأن تؤكد الدفعية المستمرة للديون الخارجية الضخمة التي أحدثها إسماعيل. أصبح المراقبون الماليون البريطانيون الذين بعثوا للقاهرة حكاماً للبلاد بحكم الموقع، وظلوا كذلك إلى وقت موغل في القرن العشرين<sup>(١١٠)</sup>.

الإحتلال العسكري لمصر، الذي مكث حتى عام ١٩٢٤، أعطى بريطانيا مسؤولية معينة لحماية المصالح المصرية في داخل الديار وخارجها. عني هذا، بين أشياء أخرى، حماية المصالح المصرية في السودان. بيد أنه كان المديرون الماليون في القاهرة ورؤسائهم في لندن يتمتعون بما هو مفهوم عن التصديق بإعتمادات لعمليات عسكرية في السودان البعيد يمكن خلاف ذلك أن تسد للاندنيين الأوروبيين. "هكذا" كما يرقب هولت "قاد تجمع مغلّ المنطق الحكومة البريطانية بسبب إعتبارات سياسية، ومالية، وأخلاقية لا لتفادي التورط في المسألة السودانية، ولكن علاوة على ذلك لتراجع مساعي الحكومة الخديوية لإتخاذ عمل ناجز في المديريات المُهددة"<sup>(١١١)</sup>. لقد كان محصلة لهذه السياسة غير الحازمة أن المصريين سمح لهم بتجنيد قوة هكس المبعوثة عسكرياً ذات المصير التعس على مسؤوليتهم الخاصة، لكنهم لم يمنحوا نصحاً ولا دعماً في المغادرة بالرغم من أن القائد نفسه كان بريطانياً.

بلغ التردد البريطاني دون قرار حاسم نحو السودان تَوَجُّه بإعادة تعيين غوردون حاكماً عاماً في ١٨٨٣ - مهمته الثالثة والأخيرة للبلاد المحاصرة. كانت مهمته الرسمية "متصورة" على الأقل في لندن، على أنها لترتيب انسحاب منتظم للحاميات المصرية المتبقية من السودان، ومن ثم تسليم القطر لحكم المهدي دونما وقوع في حرج إستسلام رسمي. غير أنه كان، فيما عهد عن شخصيته، مشغولاً بمجموعتين بما يجب ترتيبه "واحدة تتحدث عن إستعادة حكومة طيبة، والثانية إعلان سياسة الإخلاء"<sup>(١١٢)</sup>. وفي نزق شديد أعلن الثاني من هذين الهدفين على الناس كأنما ساعة وضع قدمه في السودان، جاعلاً بذلك أي رجاء يُنتظر من سلطة النظام التركي - المصري أمراً مستحيلًا. إلا أنه مع هذا بات حاكماً عاماً مقيماً في الخرطوم حتى حُلِّق إلى أقصى وجهة نظر معارضة، لكي "يسحق المهدي" كما عبّر بكلماته الخاصة<sup>(١١٣)</sup>.

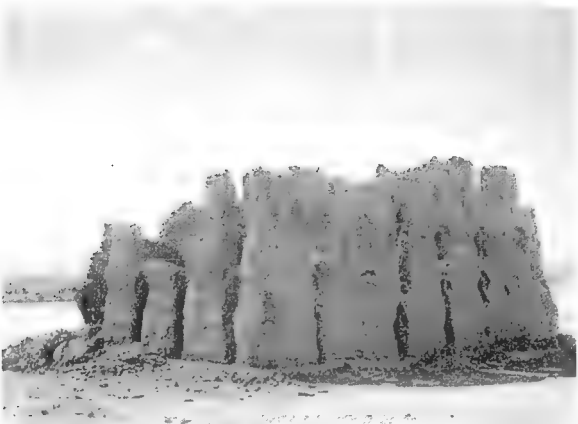
على سعيد الواقع، كان الإفتقاد إلى عون من القاهرة ومن لندن قد جعل من غير الممكن لغوردون تنفيذ أي من البدائل التي كان قد تأملها. إن هزيمة المهدي وإستعادة حكومة طيبة لم يتأملاً في الخارج أبداً بطريقة جادة، بل إن الأمر المتعلق بالحاميات المخلصة التي كانت لا تزال باقية لتقاتل خلاصها خارج القطر كان سيقتضى قدراً من الدعم الخارجي ما كان آتياً. ترك غوردون بلا خيرة سوى التعلق بالخرطوم مع بقية قواته المالية، زانداً الشايقية المرتاب في ولائهم أبداً عبر النهر في الحلفاوية، في حين كانت نيران العصيان المسلح ملتهبة تشتعل في أي مكان آخر بكل

أنحاء البلاد. إحتلت القوات المهديّة مكاناً قوياً في أم درمان، بقطع النيل الأبيض من الخرطوم، في سبتمبر ١٨٨٤، ووصل المهديّ بشخصه ليأمرهم في الشهر التالي. مذاك كان غوردون والعاصمة تحت الحصار.

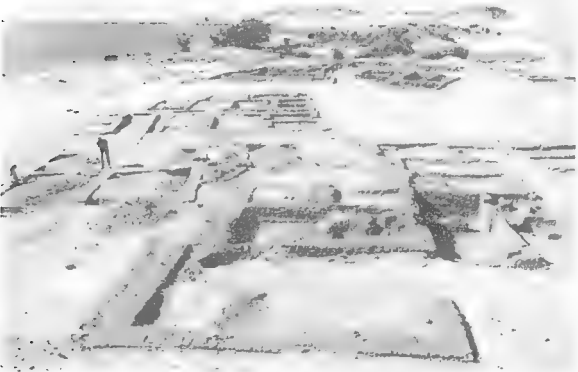
قصة أعوام غوردون الأخيرة في الخرطوم أخبر بها في أسى عميق على صفحات مجلّاته الخاصّة (١٦٤)، التي كانت ترسل بما يشبه المعجزات بإختراق خطوط المهديّ حتى شهرين قبل السقوط النهائي للخرطوم، وقد أعيد سردها من مؤلّفين بارزين أمثال السير ونستون تشرشل (١٦٥) وآلان مورفيد (١٦٦). يوماً إثر يوم أخذ الحاكم مكانه على سقف القصر يرقب النهر من أجل إشارة من بعثة الإنقاذ التي كان يطلب إرسالها بالبحر. كانت بعثة إنقاذ بريطانية قد نظمت بحق مؤخراً في ١٨٨٤، نتيجةً لضغوط الصحافة إلى حد كبير، لكنها بدأت سيرها في تباطؤ عبر إقليم غير مألوف وحافل بالعداء. مثل كل العمليات البريطانية تقريباً في إفريقيا حتى القرن العشرين كانت تعتمد بشكل مبالغ على نقل النهر، وأعاقت شلالات النيل باستمرار تقدم البعثة. ما وصلت القوة الرئيسيّة أبداً لأبعد من الممتعة جنوباً، قبالة شندي، غير أنه من هنا أرسلت باخرتان صغيرتان رأساً للإستكشاف وبعد اجتياز الشلال السادس والجريان بين قناصة المدفعية ووحداتها ونيران البنادق من ضفتي النهر وصلتا على مرمى نظر الخرطوم في ٢٨ يونيو ١٨٨٥، لا لشئ إلا ليجدا أن المدينة قد سقطت منذ يومين سابقين. كان قصر الحاكم في خراب، وغوردون ميتاً. عادت كل البعثة بالتالي القهقريّ تتبع أثر خطاها المثقلة بالخوّر من حيثما جاءت، متخليّة ليس فقط عن مواقعها المتقدمة بل عن الأقاليم جنوب وادي حلفا التي ما كانت ساقطة من قبل في أيدي الثوار. صار المهديّ الآن سيّداً على السودان المصريّ بجمعه بإستثناء ميناء البحر الأحمر سواكن الذي بقي في أيدي بريطانية. غير أن هذا الذي هو أشهر قائد سوداني لم يكن ممنوحاً سوى فترة زمنية موجزة ليتمتع بثمار نصره. فخلال ستة أشهر من سقوط الخرطوم كان هو إلى جانب ذلك متوفى، فيما يظهر بالتيفود (١٦٧)، في عمر السابعة والثلاثين (١٦٨).

الدولة التي أوصى بها المهديّ خلفائه لم تحقق إلا أشد تنظيم أصوليّة. كان مشحوناً هو وأتباعه بفكرة إعادة خلق الدولة الإسلامية الأولى، نفسه كأنه النبيّ محمّداً بصحابته المأثورين، الخلفاء الأربعة. لذا كان على "مجلس وزراء" محمد أحمد أن يتكوّن من أربعة خلفاء، ورثة الأربعة الراشدين "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ". واحد من هذه المواقع منح إلى قائد الطريقة السنوسية في ليبيا، التي كان المهديّ نفسه تابعاً اسمياً لها، لكن الشيخ أمسك عنه ونتج عن هذا أن المنصب لم يملأ قط. مواقع "الخلفاء" الثلاثة الآخرين قدمت مكافأة، ربما عن طريق عرضيّ يبدو ذا صلة، لممثليّ للعناصر الثلاثة التي كانت قد وفرت الدعم العماديّ للمهديّ: أصحاب الرؤى الدينيّة الأصليّة الذين اجتاحت نفوسهم مهمته، ورجال الأعمال الدانقلّة والجعليين الذين كانوا أقل إكتراناً بتعاليم المهديّ من معاودة أنشطتهم في تجارة الرق، ورجال قبائل البقارة الذين كان طموحهم الزعيم أن يستأنفوا الحياة الضارية للأيام الإقطاعيّة (١٦٩).

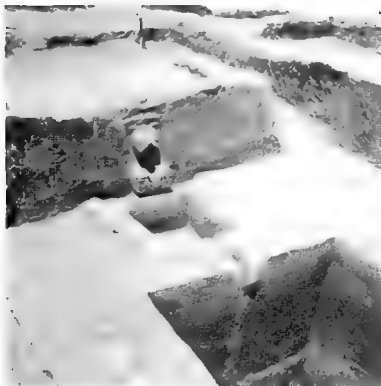
إضافةً إلى الخلفاء بَرَز في الحكم مسؤولان مهمان لاغير في الحكومة المركزيّة، رئيس بيت المال ورئيس القضاء. ولقد ألغى المهديّ الضرائب المثقلة للنظام التركي - المصريّ في صدق مع إتراماته الدينيّة ورجع إلى نظام خفيف نسبياً كان مفروضاً من النبيّ. ربح الحكومة يتخرج جُلّه من غنائم الحرب، لأن دولة المهديّة كانت في الأساس دولة محاربة، وكانت نية القاندين المعلنة أن يُشَنّ الجهاد حتى يخضع كل العالم للإيمان الحقيقيّ للإسلام الأول. هكذا اعتبر حكام الأقاليم في الأساس عسكريين بدلاً منهم ضباطاً إداريين، ولقبوا أمراء (أمرون) بدلاً من منيرين (يراقبون). ما كان هناك، فيما لا حاجة لقوله، قانون مسلم به سوى قانون القرآن والشريعة؛ ما حكم المهديّ من خلال آلة القانون لكنه حكم بمشوراتٍ لها قداسة، كما فعل محمد نفسه.



(١٥) أ - القلعة ، المروية في كارانوق



(١٥) ب - موقع لقرية مروية في الشوكان



(١٦) أ - معصرة خمر مروية ، مينارتى

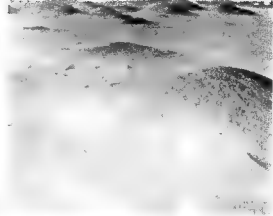


(١٦) ب - لوحة حجرية تحمل نقشا باللغة المروية

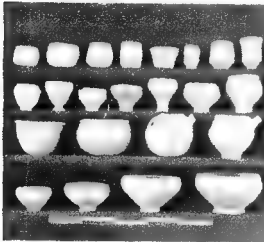




أ



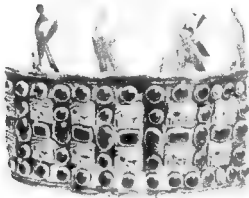
ب



ج



د



هـ



و

(١٧) أ - بقايا قرية من الفترة البيلانية، ميتارقي

ب - المدافن التالية في قسطل قبل التنقيب

ج - آنية فخارية نموذجية من بلانة

د - محتويات حجرة القرايين في بلانة

هـ - تيجان بلانة المجوهرية



(١٨) أ- بقايا قرية مسيحية نوبية ، دبيرة غرب



(١٨) ب - خرائب كنيسة نوبية من العصر الوسيط ( القرون الوسطى )



(١٩) أ- رسم حانطلي لملك نوبى في حماية العذراء ، فرس  
ب- رسم حانطلى لأسقف نوبى ، فرس



ج - رسم حانطلى في فرس يبين شدراك ، ميشيل ، وأبيدنتو



(٢٠) أ - موقع قرية دفاعي من العصور الوسيطة المتأخرة ، ديفنارتي



(٢٠) ب - قلعة من العصور الوسيطة المتأخرة ، كولبنارتي



(٢١) أ - قبور من فترة ما بعد المسيحية ، جبل عدا



(٢١) ج - قبة المهدي  
في أم درمان



(٢١) ب - قبة هي مشو،  
بالقرب من كريمة



(٢٢) أ - إغراق وادي حلفا القديمة



(٢٢) ب - منظر لشارع في خشم القرية ( حلفا الجديدة ) ١٩٦٥

وفاة المهدي غير المتوقعة، وقتاً طويلاً من قبل أن تُكون أي أداة فعالة للدولة قد جرى تنظيمها، خلقت لا عجب اضطراباً بين أتباعه. تحرك أعضاء من أسرته ومن عنصر الدناقلة - الجعليين للإستيلاء على مواقع السلطة على أنها حقهم الطبيعي، عدا أنه في ثورة الحرب التي تمخضت عن ذلك أصبح بادياً للعيان أن القوة العسكرية الحاسمة في البلاد آلت لقبائل البقارة، الذين كان يمثلهم الخليفة عبد الله محمد تورشين. بعد اعتبار عاقل في حكمة عملية لأفضل مصالحهم أذعن *الخلفاء* الآخرون إليه، وتولى عبد الله بالتالي لقب *خليفة المهدي*. وكان عليه بهذا أن يرأس الدولة المهدية حتى الإطاحة بها نهائياً في ١٨٩٨م.

أثناء السنوات الخمس الأولى من حكمه كان عبد الله كأنه في حرب مستمرة، جزئياً إخضاع عناصر متمردة بين أركان حكمه وجزءاً آخر في التطبيق الجارى لسياسة الجهاد التي كان قد أعلنها المهدي. إن مديرية دافور الغربية (التي كانت توجهاتها الثقافية والجغرافية صوب حوض تشاد أقوى من اتجاهها نحو النيل) كانت قد صارت في قلقة منذ ضمها في ١٨٧٤، ومكث على تلك الحالة في ظل *المهدية* ومن ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧ كانت عصابات مسلحة أو متآمراً بها تتوصل وتجول على نحو متواصل حيث أن سلاطين دارفور المخلوعين كان يحاولون استرداد إستقلالهم. أضف إلى ذلك أن الحرب تواصلت على الحدود الحبشية، على خطى نمط مألوف من الإغارة ومردودها بالمثل مما كان قد بدأ في أزمان الفوتج نتيجة لطبيعة التخوم غير المحددة بوضوح بين سكان الهضاب المرتفعة والمنخفضات. في نقطة ما إندفع جيشٌ سوداني إلى جوف الإقليم الحبشي مسافئاً لبَغت غندار، العاصمة القديمة، لكنه كان غير قادر على الإحتفاظ بموقعه في الأرض الجبلية غير المالوفة له. قصاصاً على ذلك، زحف الأحباش، يقودهم الإمبراطور نفسه، إلى السودان عبر نهر العطبار. بداية الإشتباك سلك المدافعون إتجاهاً غير أنه في نهاية المعركة قتلت رصاصات طائشة الحاكم الحبشي، وفي الحال إنسحبت قواته، مقدمة (في صحة) النزاع من أجل الورثة في وطنها علي ما عداه. موقف الحدود تم تثبيتته بعد ذلك بالضرورة كما كان في السابق (ويبقى كذلك اليوم) بإغارات أشتاتاً من كل الجانبين دون إشتباكات كبرى.

أعلى أعمال عبد الله العسكرية طموحاً وأفرغها خُلواً من الحكمة في نفس الوقت هي غزوه لمصر في ١٨٨٩ بقيادة *الأمير ود النجومي*. سارت قوة الجيب المرقعة غزواً على طول الضفة الغربية للنيل متجنباً نقطة التخوم المصرية وادى حلقاً، حتى تقاطع معها وأبادها جيش مصري بالقرب من توشكا(\*)، النوبة السفلى، إستوطن قليل ممن بقى على قيد الحياة في منطقة هزيمتهم؛ وكان إحقاقهم ما زالوا يعيشون بها ساعة تهجير النوبة في الستينات من عام ١٩٦٠.

الطموحات التوسعية لدولة المهدي إنتهت بالهزيمة في توشكى. بعد أربع سنوات من الحملات العنيدة، لم تحقق زيادة ذات قيمة أو معنى في مناطق النفوذ التي ورثها *الخليفة* من سابقه. أيأ ما صار الأمر إليه فإن الطور العسكري شدد بقدر معتبر من قبضته علي البلاد، كما يتم دائماً للحكام المطلقين. لقد كان قادراً على خلق عدد من قادة الجيوش ذوي الإستعداد للمروق عليه، بما في ذلك تعيينات عديدة أمضاها المهدي أصلاً، وأن يحل محلها رجالاً من ذويه. إن المجاعة والأمراض المعدية التي سقطت البلاد في براثنها خلال ١٨٨٩ و ١٨٩٠ إضافةً لذلك أضعفت أعداءه باكثر مما حافت به، حيث أن عبثها الأعظم أحست به بشكل رئيس القبائل النهرية التي كانت ساحطاً علي نظامه برفض متصاعد. وفي ١٨٩١ أحس *الخليفة* بقوة كافية ليقوم بتصفية الأعضاء المتبقيين من أسرة المهدي وأتباعه الأوائل كان بعضهم يتآمر مسبقاً للإطاحة به، لكنهم أغرى بهم ليستسلموا في ظل وعبر بالعفو عنهم واسترجاع القايهم ومعاشهم. ثم إنه بصرف النظر عن ذلك، سَجِن عديون منهم أو نَفَّذ فيهم الإعدام خلال عام.

(\*) توشكي في أدب المهديّة السودانية - المترجم.

في السنوات الأخيرة من حكمه بدأ عبد الله يعرض الأعراض المألوفة لهذه الأحداث العظيمة التي تنطبق على الطفلة. نحو ما يتمعن هولت "تحولت الدولة الدينية للمهدية الأولى إلى طغيان دينوي كان يتبدى أمام الناظرين" (١٧٠). بل إنه عندما أصبحت قوته أرسخ أمناً انسحب الخليفة شيئاً فشيئاً من الإصلاص برعيته إلى داخل المياني المسورة التي كان قد شيدها في أم درمان، حيث كان يُحاط ببطانة من الطامعين المتحذلقين. هنا صار يرتاب مضاعفاً في أولئك المحيطين به وفي آخر سنواته خلع وقتل عدداً من كبار مسؤوليه المخلصين وقتل عدد آخر، وبعضهم كان مرافقاً له منذ أيام المهديّة الأولى. تُعطي الأوامر بصورة غير رسمية لرجال بلا رأي ما يزيكهم شئ سوى طاعتهم العمياء لزعيمهم. مثل طفلة كثيرين غيره، عاش عبد الله في النهاية في عالم من الخداع والسناس كان لدرجة بعيدة من صنعه الخاص، ما كان يعلم من يُصدق أو لِمَنْ يُودع ثقته.

إن ثمن عزلة عبد الله عن رعاياه كان يكشف عن وجوده عندما أخذ البريطانيون بعد فوات الأوان في الأخذ بشار غوريون وإعادة فتح السودان. وإنجاز ذلك الهدف زحف جيش إنجليزي - مصري تحت قيادة السير المهيب هيربرت كتشنر جنوباً من وادي حلفاً في مارس ١٨٩٦. لم يكن النوبيون الشماليون أبداً أتباعاً مخلصين من قبل للخليفة، والبنافلة صاروا منذ فترة طويلة لا يعترفهم ضلال نحو نظام حكمه الذي يسيطر عليه البقارة؛ دعم كل من الجماعتين الغزاة صراحة. أما القادة المعسولون من بطانة الخليفة، وقد سلّهم الإفتقاد إلى أوامر محددة من أم درمان ولعدم قدرتهم على اتخاذ أي مبادرة بأنفسهم، فقد تراجعوا موقعاً وراء آخر دون إبداء مقاومة. في فكرة وحدها كان هنالك إشتباك، ليس لأن المدافعين إختاروا أن يقوموا بهية إنما بسبب أن معسكرهم أحيط به قبل أن يتمكنوا من الهروب. وكانت النتيجة خسارة لحوالي ألف رجل، مقابل إثنين وعشرين للبريطانيين. أكملت بعد ذلك إعادة مديرية دنقلا دونما مقاومة إضافية (قارن الشكل رقم ٨٦) (١٧١).

كان كتشنر حريصاً على ألا يعيد خطأ أسلافه، وهو محاولة نقل الرجال والمؤمن عبر مشاق شلالات النيل. بدلاً عن ذلك اضطلع بالإنجاز الباهر المتمثل في تشييد خط سكة حديدية يخترق الصحراء من وادي حلفاً إلى أبو حمد - إمتداداً لا ماء فيه لمسافة تزيد على ٢٠٠ ميلاً. بدأ أوقف سير العداوات ضد الخليفة لعام كامل بينما كانت الخطوط الحديدية تُدفع بلا تراجع حثيثاً بقطع الصحراء. لقد كانت القوة الغازية تستنزف بهذا العمل الشاق اضعاف مما تتاله من حرابى السودانيين. في هذه الأثناء إستولت فرقة سريعة كانت قد أرسلت جنوباً على النهر من مروي على مدينة أبو حمد، حيث كان مقرراً للخط الحديدي أن يلتقى النيل ثانية، بعد أقل مقاومة ليس إلا. في نقطة هذه النكسة لم تحل قوات المهديّة المقاطعة حول أبو حمد وحسب ولكنها أخذت عاصمة المديرية بربر، مفتاح الاتصال مع سواكن والبحر الأحمر. راقب الخليفة في أم درمان هذه الأحداث كأنها كان مشلولاً بمقدم نيمسيس إله القصاص الاغريقية، لا يعطى أوامر سواء كانت بمقاومة الغزاة أو لتقوية قواته المتبقية في الشمال.

نهاية أكتوبر ١٨٩٧ أكمل خط السكة الحديدية إلى أبو حمد، وأعيد إنشاء الإتصال بين بربر وسواكن قبل نهاية العام، في ذلك الوقت وحده، عندما صار العدو متمعقاً في إقليمه، ومؤنه وإتصالاته مؤمنة، انهض الخليفة نفسه للعمل. جرد جيشاً ليقاطع البريطانيين في ملتي عطبرة والنيل؛ هزم فيما كان، للغزاة، أشد إشتباك جسمائاً في الحرب بعض ٥٦٠ فرداً منهم قتلوا، في حين شتت الجيش المدافع ١٢.٠٠٠ رجل دونما أثر. قتل حوالي ٣.٠٠٠ واخترق الآخرون في الأحرار.

بعد معركة عطبرة دام تأخير طويل آخر حينما انتظر البريطانيون التعزيزات وطقساً أبرد، بينما الخليفة يحاول ينأس أن يستجمع ما بقي من إمبراطوريته للمقاومة في خندق آخر. إستأنف كتشنر تقدمه في سبتمبر، واحتلت معركة الحملة الفاصلة مكانها على مسافة قصيرة شمال أم درمان، حيث كانت قوات الخليفة قد تكثرت أنفاً للدفاع عن عاصمتها. وفي يوم من القتال الشديد مُزق إرباً جيش



من ٥٢.٠٠٠ رجل، سلح أغلبهم بالحرايب والرماح، بقوة تقرب من نصف حجمه فيما كان على ونستون تشرشل، الذي لعب دوراً كمالاً في الجيش البريطاني، أن يدعو تشجيع الفروسية في عالم الحرب<sup>(١٧٢)</sup>. فقد البريطانيون والمصريون قليلاً فوق ٢٠٠ رجلاً، مقابل ١١.٠٠٠ من المدافعين. وفر الخليفة نفسه من ميدان المعركة، ليتوفى بعد عام في هبة أخيرة لا طائل وراءها بأعلى النيل الأبيض، غير أن معركة أم درمان كانت علامة لنهاية الدولة المهدية في السودان. وبمعنى أشمل كانت علامة إلى جانب ذلك على نهاية عصر القرون الوسطى.

في فصول سابقة وصفنا ثقافات كرمة وبلانة على أنها تمثل نقاط إنقذار كبرى في التاريخ النوبي، بين العصور القبلية والأسرات وما بين الأسرات والوسطى على التوالي. كان كل واحد منها حركة سلفية، تحاول أن تخلد أو أن تستعيد الأحوال الثقافية لأزمان سالفة من جديد، إلا أن كل حركة هيأت الأرض في طرائق هامة إستشرفت العصور الجديدة التي كان عليها الحضور. تماماً بنفس الطريقة يمكن أن تعد الدفقة الأيدولوجية للمهدية دالة على الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في السودان (إنه لمثير للإستطلاع ربما رمزياً أن كل واحدة من هذه الحركات الإنتقالية قصيرة الأجل كان لزاماً إحياء ذكراها بصروحها الجنائزية أساساً. فقه المهدى المزدانة في أم درمان (الصورة ٢٢ - ج)، رغم أنها من الصعب أن تكون في مستوى واحد مع مدافن كرمة وبلانة التالية، هي رغماً عن ذلك، أكبر صرح جنائزي تم بناؤه في البلاد منذ عصر الأسرات).

كان عزم المهدى لا يلبس لإحياء إسلام القرن السابع الجماعي في صورته الأولى، وأن يزيل أغلب المماركات الثقيلة التي لا تتزحزح عبر السنين عن الحضارة، إسلامية كانت أم دينوية، في مرحلتها المتأخرة. بأى معيار يقيس التعقد كان نظامه رجحاً غير أنه كان فضلاً عن ذلك، وبأسلوب حديث أخذ بالنفوس، وطنياً. وفي هذا الخصوص هي الأرض للأيدولوجية السائدة في القرن العشرين. أبعد درجة بكثير من المصريين الذين سبقوا أو البريطانيين اللاحقين، حاول المهدى أن يظهر نفاية الإقطاع والقبلية وأن يوحد أقوام السودان المتعددة في تطلع مشترك ومصدر واحد. ما من غير الملائم أنه يعتبر "أبو الإستقلال" من طرف سودانيين حديثين علي ما لهم من قناعات سياسية مختلفة<sup>(١٧٣)</sup>.

### ملخص قصير

بلغ العصر الإقطاعي الذي كان قد بدأ في أزمان مسيحية متأخرة ذروته في العصر ما بعد المسيحي. أضيفت اللامركزية القصوى للنظام القبلي العربي إلى النظام الإقطاعي الذي كان قد أنشئ من قبل على النيل وطُعمت به. من هذه التركيبة من التأثيرات قام، في القرن السابع عشر، عدد لا حصر له من الموكوك الذين سيطروا وفي بعض الأحيان روعوا عدداً مضاعفاً من العموديات الصغيرة منطلقين من معاقهم الحصينة على طول النهر.

إلى المدى الذي عادت فيه حكومات مركزية للظهور من بعد سقوط الممالك المسيحية، إكتسبت في ارتخاء بلا ثبات شكل إتحادات إقطاعية مضمومة بقوة السلاح. إن الأكبر والأطول بقاءً كان إتحاد سنار، الذي استجمع أصلاً من عرب العبدلاب لكنه سيطر عليه مؤخراً سلاطين الفونج السود في سنار، على النيل الأزرق. في أوج باسه مارس إتحاد سنار هيمنة صعبة غير مُيسرة علي كل قبائل الجعليين والعرب تقريباً جنوب الشلال الثالث، إضافة إلى قبائل سوداء عديدة في جنوب السودان. مع ذلك، بعد القرن السابع عشر إنشق عدد كبير من الأقوام الشمالية أو جرى تشتيتهم بقوة من موكوك شايقة النيل الأوسط المستقلين في ضراوة في النهاية ما امتدت سلطة الفونج شمالاً لآبعد من ملتقى النيلين. أما الشمال الأقصى للنوبة فكان إسمياً تبعية عثمانية، لكنه في الحقيقة كان



شكل رقم ٨٦

إعادة غزو السودان، ١٨٩٦ - ١٨٩٨

محكوماً بكشاف وارثن على استقلال، ضوا، مثل المكوك القانمين إلى جنوبيهم.

بلغ العصر الإقطاعي نهايتها بإعادة فرض الحكم الإستعماري المصري في ١٨٨٢، وما بلغت القرون الوسطى نهايتها بعد. وعقب قمع وحشي لبداية عصيان مسلح بدا في مواجهة سلطتهم، ألغى المصريون نظام الحكم القبلي، لا سيما وسط الأقاليم النهرية، وأنشأوا في محله حكومة ديوانية متركزة يظاهرها جيش قوى على أهبة الإستعداد. إستجلب النظام الإستعماري معياراً من النظام والإستقرار للسودان الذي مرّته الحروب، لكنه ما كان سالكاً لمنفعة المحكومين أو تحقيق مشاركتهم لأي مدى. الدوافع التي جاءت بالمصريين إلى السودان في ١٨٢١ هي نفسها التي عجلت بالفرانعة لفتح البلاد قبل ٢٠٠٠ عاماً سابقة: شيق العبيد والذهب.

لكن كانت تجارة الرق مبرراً لإحتلال المصريون للسودان، فقد كانت بالمثل سبباً لبطلانه. كان في الأصل عملاً حكومياً، إنتقلت التجارة بشكل متزايد إلى راحة أيد خاصة بعد ١٨٤٢. حمل أمراء التجار من الخرطوم أنشطتهم إغارة لإسترقاق الرقاب بعيداً ما وراء سلطة الحكومة، إلى مجاهل أعلى النيل الأبيض، حيث اشتقوا إمبراطورياتهم في الأعراس. وعندما سعت الحكومة الإستعمارية في وقت لاحق لكبح عملياتهم، وجدت أن قوتهم كانت أعظم من قوتها. إن الحملة الخائبة للتحكم في تجارة الرق خلال الستينيات من عام ١٨٦٠ والسبعينات منه إستغرقت قسماً معتبراً من السكان السودانيين، الذين اعتمد رخاؤهم على الرق، وقوضت إلى جانب ذلك الثقة في سلطة النظام الإستعماري. هكذا، عندما أعلنت الحركة الألفية للمهدى في ١٨٨١، إجتذبت أتباعاً ليس من المؤمنين حقاً فحسب، إنما من عناصر عديدة كانت قلقة للتحمر من جور المصريون، أو إنها ساورها شك ببساطة في مقدرة المصريون علي حكم البلاد. خلال عامين من تأسيسها إشتعلت حركة المهدية في أتون عصيان (\*) وطني مسلح، وفي نطاق عامين آخرين طردت آخر أجنبي وأصبحت دولة وطنية.

أسست حركة المهدية على مبادئ إصلاح ديني، غير أنه عقب موت موجدتها في ١٨٨٥ صارت، تحت حكم الخليفة عبدالله، طغياناً دنيوياً يسيطر عليه بدو البقارة. فقد التأييد الشعبي وسط الأقاليم النهرية تدريجياً، وعندما غزا جيش إنجليزي - مصري السودان في ١٨٩٦ لاقى مقاومة ضئيلة حتى أوغل عميقاً داخل البلاد. معركتان دمويتان وخائرتان عام ١٨٩٨ دمرتا آخر القوات المهدية وأنهتا النظام.

كانت دولة المهدية في نفس الآن آخر نظام في القرون الوسطى وأول دولة وطنية حديثة في السودان. كانت دينية بعزم لا مرأ فيه تهدف إلى لا يقل عن استعادة المجتمع الإسلامي الأول للنبي، بيد أنها كانت كذلك أول نظام يوحد سكان السودان على اختلافهم في قضية لأيدولوجية وطنية. يمكن لذلك أن تُعرف المهدية بأنها واحدة أخرى من نقاط التحول الكبرى في التاريخ النوبي، التي تفصل العصر الوسيط عن العصر الحديث.

(\*) لم يشأ المؤلف أن يصف حركة المهدية بأنها ثورة، كما المحنا إلى ذلك في تقديمنا للكتاب. (انظر المقدمة)

- المترجم



## خاتمة

### الفصل التاسع عشر

#### إرث الغرب

### النوبة والسودان في القرن العشرين

نظرياً، إستعداد النصر بأن درمان الهيمنة السياسية المصرية على السودان. خُططت الحملة لإعادة الفتح ومُولت <sup>(١)</sup> من بريطانيا العظمى، وسيُرها في الميدان ضابط بريطانيون، لكن اضطلع بها باسم مصر. في خاتمتها أعلنت سلطة الخديوي على كل أنحاء السودان، وخفق العلم المصري مرة ثانية فوق الخرطوم وعواصم المديريات. بصرف النظر عن هذا أنجزت الحملة بدرجة أعلى سعياً وراء مصالح بريطانية أكبر منها مصرية، وكان صافياً منذ البداية أن البريطانيين قصدوا البقاء.

سياسياً، كان موقف المنتصرين خارجاً عن المألوف <sup>(٢)</sup>. القى الرأي العام البريطاني عموماً اللوم لنهوض المهدي على فساد النظام الإستعماري المصري ولا ميلالاته في آخر القرن التاسع عشر <sup>(٣)</sup>، إلا أن بريطانيا تدخلت لتسترجع نفس السلطة التي أُدبِت على ذمتها الخزية. تحت هذه الظروف كان الرجوع إلى *الحالة القائمة* ما قبل ١٨٨١ خارجاً في صفاء عن دائرة السؤال. بدا أن بريطانيا، بعد أن استرجعت السودان للإدارة المصرية، يجب أن تبقى الآن في السودان لكيما تحمي السودان من المصريين. وجهة النظر هذه عبر عنها بوضوح اللورد كرومر حقبة من الزمان بعد إعادة الفتح: "إن شرع الحكم الذي أجهز على حشود الدراويش <sup>(٤)</sup> في أم درمان أعلن على العالم أن إنجلترا - أو، ليكون الأمر أصوب بشكل جازم، أن مصر، تحت الوصاية البريطانية - قد أنببت بالواجب المؤفر لإدخال نور الحضارة الغربية في مسؤولية وسط شعب السودان الذي حُكم بمرارة <sup>(٥)</sup>."

كيفما جرى الحال، فإن تأكيداً لا مواربة فيه بالسيادة البريطانية، كان سيلقى مقاومة ليس من مصر وحدها لكن من القوى الإستعمارية الكبرى الأخرى، وربما كان سيلهب موقفاً أوروبياً متوتراً من قبل. طريقة نوعاً ما خداعة المظهر للخروج من هذه الصعاب وُجدت في إتفاقية الحكم الثنائي لعام ١٨٩٩، تولت بمقتضاها مصر وبريطانيا العظمى سيادةً مشتركة على السودان. عن هذه الإتفاقية يكتب هولت:

الحدود الشمالية للإقليم الذي اعتُمت حديثاً، وُصفت في الإتفاقية بأنها "مديريات معينة في السودان كانت على عصيان مسلح ضد سلطة صاحب السمو الخديوي". تكتبت على خط العرض ٢٢ درجة شمالاً. مطالب الخديوي اعترف بها إضافةً إلى هذا في البنود التي مؤداها أن "العلمين البريطاني والمصري سوف يستعملان معاً، كلاً على اليابسة والماء، في كل أنحاء السودان"، أن إجراء تعيين الحاكم العام وإحالتها يجب أن يكون بمرسوم خديوي (لكن فقط بمبادرة من الحكومة البريطانية)، وأن قرارات الحاكم العام، التي لها قوة القانون، يجب أن يخطر بها رئيس مجلس الوزراء المصري، بالإضافة إلى المنسوب البريطاني في القاهرة.

هذه الأحكام جانباً، أبعدت الإتفاقية عمداً كلاً من السلطات المصرية والدولية من السودان. كذلك تجاهلت

(\*) إن المقصود "بالدراويش" الثوار السودانيون الذين أسسوا دولة الحرية الوطنية ودافعوا عنها في مواجهة الإستعمار الأجنبي في نهاية القرن التاسع عشر - المترجم.

تكتيكياً الإدعاءات الباهتة للسُلطان العثماني كوصى على السودان. ما كان التشريع المصري يطبق على السودان مالم يصدر ذلك على وجه التحديد من الحاكم العام. ما من امتيازات خاصة، كالتى آلت للأوروبيين في مصر في ظل قوانين حماية الإستثمارات الأجنبية، تصدر في السودان. إختصاص المحاكم المختلفة إستبعد، وما من ممثلين قنصليين يسمح لهم بالإقامة في السودان من غير الموافقة المسبقة للحكومة البريطانية.

في نطاق السودان، يعهد للحاكم العام بالقيادة العسكرية والمدنية العليا، وهو مسمى الحكومة البريطانية. ورغم أن الاتفاقية أطلقت صمغاً عن أمر الجنسية، فإن كل الحكام العموميين من ١٨٩٩ إلى ١٩٥٥ كانوا رعايا بريطانيين من المملكة المتحدة. بسلطات تنفيذية كاملة، جمع الحاكم العام ... سلطة كاملة يشترع القرار. إن مادة بالاتفاقية وضعت السودان تحت قانون الأحكام العرفية لفترة غير محددة<sup>(٥)</sup>.

هكذا كان الحاكم العام الإنجليزي - المصري فعلاً، الأخير في متتالية من الولاة الذين حكموا القطر بصورة متقطعة منذ أيام الفراعنة.

يمضى هولت ليرقب أن :

إنفاقية الحكم الثنائي لم تكن دستوراً للسودان: كانت في بساطة تمنح إعترافاً رسمياً بالموقف الكائن عشية إعادة الفتح. الاسم مضلل: ما خلقت الاتفاقية بأى معنى حقيقى حكماً ثنائياً حقيقياً، سيادة مقرونة على السودان، لكنها أعطت إعترافاً رسمياً فحسب للإدعاءات التاريخية للخبديوى، في حين احتفظت بوحدة ذاتية كاملة بالتقريب لمسؤول ترشحه الحكومة البريطانية. ما كانت موضع سؤال بجدية من القوى الأوروبية. ولم يرض عنها المصريون أبداً، وقد أحسوا في سخطٍ كبير، أنهم إستغلوا في حقوقهم. فمتى خرجت مصر من نوء الحكم البريطاني، لم يعد في الإمكان إلغاء زيف الحكم الثنائي، ومن نهاية الحرب العالمية الأولى وما تلاها [صارت] بمستوى متضاعف مازقاً حرجاً لمجالس الوزراء البريطانية المتعاقبة وإدارة السودان على حد سواء ...<sup>(٦)</sup>

### الحكم البريطانى فى السودان

فى ظل الحكم الثنائى، كانت إدارة المديريات والمقاطعات بادئ بدء مسترجعة بشكل أو آخر عبر الخطوط التى كانت قد أنشئت فى أزمان ما قبل المهدية. المسؤولون الإداريون الأعلى كانوا بلا تغيير بريطانيين، بينما كانت المراتب الوسطى والدنيا (حيث الطلاقة فى العربية ضرورية من أجل إتصال فاعل مع المحكومين) مشغولة بالمصريين أو باللبنانيين عموماً<sup>(٧)</sup>. ويسبب متشابهاً التركيب الإدارى، والحضور المتواصل لأعداد من المسؤولين المصريين، يشار إلى فترة الحكم الثنائى فى بعض الأحيان من السودانيين بأنها "التركية الثانية". بحجم متساو قد يمكن أن يُشمل المسؤولين ذو الجنسية البريطانية بلقب "تركى" بهذا يجعلون صلتهم بالنظام الإستعمارى ما قبل المهدية بالتالى أمراً مشروفاً<sup>(٨)</sup>.

فى مستهل الأمر، وحقيقة لأغلب تاريخه، يُشخص النظام البريطانى فى السودان بأبوة خيرة إن لم تكن نوعاً ما متعاطفة. خلق نظاماً من المدارس العامة، أساساً بقصد تدريب موظفى الخدمة المدنية فى الدرجات الأدنى، لكنه كان مُسلماً به أن فترة طويلة من الحماية الإستعمارية تُخلط قبل أن يتمكن السودانيون الكائنون فى أول عتبات السلم من تولى الإدارة على شؤون بلادهم. فى هذه الأثناء حكم الحاكم العام بالمراسيم، وشرع فى تطوير البلاد وتحديثها إلى الحد الذى تسمح به مواردها المتواضعة. ضمت المديريات المختلفة بعضها إلى بعض، حزمياً أشد من الماضى، بشبكة من السكك الحديدية والبواخر، وأكمل خط سكة حديدية من عطبرة إلى البحر الأحمر فى ١٩٠٥، فأرشد القطر أول توصله الفاعل للتجارة البحرية، منهياً إعتماده التاريخى على النيل وعلى مصر. إنجازات مذكورة أخرى فى المحيط المادى الملموس كانت إتمام عدد من مشاريع الخزانات والرى، وعلى وجه الخصوص مشروع الجزيرة الذى وضع تحت الزراعة مساحة كبيرة للغاية بين النيلين الأزرق

والأبيض، جنوب الخرطوم.

أول سنوات الحكم الثنائي كانت وقتاً من السلم والتقدم النسبي، مع أنه لأطول من حقبة زمنية أقلقت راحتها حركات مجهضة من طراز المهدي في وسط السودان. قمع آخرها في ١٩١٢<sup>(٩)</sup>. زمناً ليس طويلاً بعد ذلك، برغم هذا، بدا الإضطراب السياسي في تأكيد وجوده صيغةً جديدة أقرب شبهاً بالقرن العشرين، عبر أيولوجية الحركة الوطنية في السودان، كما في أمكنة أخرى في عالم الإستعمار. إذ كان مقدم التعليم العام قد خلق أمالاً وتوقعات ما كان الحكام المستعمرون في وضع للوفاء بها. أضحى خريجو كلية غوردون للذكارية في الخرطوم، الذين استوعب معظمهم موظفين صغاراً في الحكومة، قوة منشقة بمرور الوقت تطالب بقسمة أعظم في حكم البلاد. ولأنهم رأوا ألا أمل في الوقوف لمجابهة البريطانيين من غير عون خارجي، إتجهوا بوجه عام لمشايعة قوى وطنية كانت تتحدى السلطة البريطانية في مصر في نفس الوقت. بدأ فإن انبعاث القومية العربية الذي أعقب الحروب العالمية الأولى، والذي قاد في النهاية إلى إلغاء الحكم الإستعماري البريطاني في مصر عام ١٩٢٢، كانت لها عقابيل بعيدة الأثر في السودان. شكلت نوى لمنظمات وطنية في الخرطوم، وباتت عناصر في الجيش السوداني منسلحة الولاء<sup>(١٠)</sup>.

في نوفمبر ١٩٢٤ أعتقل السير لي ستاك، حاكم عام السودان، من عربي قومي في أحد شوارع القاهرة. أتاح هذا الحادث للسلطات البريطانية الذريعة لأخذ إجراء ردعي بحق الوطنيين في الخرطوم وضد المصريين الذين اعتقد أنهم كانوا وراءهم في الآن نفسه. طلب الجنرال النبی، قائد القوات البريطانية في مصر، الإنسحاب القوي لكل وحدات الجيش المصري من السودان، وسرعان ما تلاها الموظفون المدنيون بالمثل. في هذه الأثناء تمت محاصرة وحدة متمردة في الجيش السوداني وأُبعدت في الخرطوم<sup>(١١)</sup>. منذ ذلك الوقت وما أعقبه فصل جيش السودان ككل من جيش مصر وجعل على وجه الحصر فرقة سودانية يأمراها ضباط بريطانيون. بأحداث ١٩٢٤ أنهى كل رمز للمشاركة المصرية في حكومة الإدارة الثانية، مع أن توهم الحكم المشترك ظل باقياً ثلاثين عاماً أخرى.

كتدبير حيطي في مواجهة نمو إضافي للوطنية، تبنى البريطانيون بعد عام ١٩٢٤ ما كان يدعى بسياسة "التحويل" في السودان. كان هدفها أن تقلص ظل الحكومة الديوانية وأن تنمي في مكانها نوعاً ما من الحكم غير المباشر الذي بدا أنه يعمل بكفاءة في مستعمرات إفريقية أخرى<sup>(١٢)</sup>. بدلاً من بناء خدمة مدنية من الأهالي المتعلمين، كان على السلطة السياسية أن تعاد ما أمكن ذلك للزعماء القبليين والمشايخ.

بالتطبيق الفضائي متوالى التقدم للتدابير التخويلية في المقاطعات حيثما كانت الأحوال مناسبة، ويتأكد أن الوكالات الأهلية التي كان عليها أن تكون مسؤولة عن إدارة هذه التدابير تتقاضى جزاءً وافر المستوى ليمتحنها قدرها المطلوب من المكانة والتوفير، يجب أن يكون ممكناً ليس لتقوية نسج المؤسسة الأهلية فحسب، لكن، بينما أنها تصون هيئتنا الإشرافية بقوة سليمة، تخفض بالتدريج عدد نواب الأمير، والكتبة، والمحاسبين والملحقين الديوانيين المشابهين في المقاطعات الخارجية<sup>(١٣)</sup>.

في نفس الوقت أوقفت بعض الدورات التدريبية للموظفين الإداريين أقل رتبة، وتركت المنشأة التعليمية التي كانت قد شُيّدت بجهد جهيد في سنوات سالفة لتخو. تبرم مدير سابق للتعليم في السودان، في عام ١٩٣٥، من أنه "بعد القلائل التي بلغت ذروتها بقتل ستاك، دعت الإدارة المحلية البريطانية، وبالرغم من ولاء السودانيين المتعلمين للحكومة التي هيأت لهم الفرصة، فإن المشهد المرّوع للرأي يمكن أن يعرض إداريين شباناً يبحثون في جدر عن قبائل مفقودة وزعماء مختفين، يحاولون أن يبعثوا من القبور نظاماً إجتماعياً تلاشي إلى الأبد"<sup>(١٤)</sup>.

ويضيف هولت:

المفسرون لهذه السياسة من "الإدارة الأهلية" أو "الإدارة غير المباشرة" للبريطانيين لابد أنهم صُدموا عندما سمعوا عنها مقارنةً ببداة الخليفة عبد الله للبقارة، أربعين عاماً مسبقاً، ككلامها نتاج لإخفاق الثقة. إنقلب الحاكم في الحالين على آخر رعاياه تقدماً مَن ظلوا بغض النظر عن كل شئ حيويين لأداء آله الدوائية، مُرتبياً إستخدام عناصر أقل مراًساً لتكون الآداة والمعين لسلطته<sup>(١٥)</sup>.

في ظل الحكم "التخويلي" بقي السودان هادئاً من الناحية السياسية خلال العشرينيات والثلاثينيات المتأخرة للأعوام ١٩٢٠ و١٩٣٠، لكن الوطنية السودانية أعادت تأكيد نفسها مع إنفجار الحرب العالمية الثانية. باكورة الحرب أخذ الجيش السوداني (الذي عرف فيما بعد ١٩٢٤ بقوة دفاع السودان) جانباً في الحملة الناجحة لطرد الإيطاليين من الحبشة، ويحتمل أن إحساساً بالقوة العسكرية والفخر ساعدا على إحياء الوطنية. أرسلت في ١٩٢٤ جماعة تدعى مؤتمر الخريجين العام، مكونة من خريجي كلية غوردون التذكارية والمدارس الثانوية، قائمة إلى السكرتير الإداري البريطاني تحتوي عدداً من مطالب سياسية، أهمها حق تقرير المصير حالاً من بعد إنتهاء الحرب<sup>(١٦)</sup>.

كانت رسالة الخريجين مرفوضة بإزدراء لا مساومة فيه من السلطات البريطانية، فكان أثر ذلك أن يولد فرقة عميقة في صمود بين صفوف الوطنيين. إن أولئك الذين كان مهمهم الرئيس أن يتحرروا من التسيطر البريطاني في تاريخ مبكر شدوا وثاقهم بالمصالح المصرية، مثلما فعل وطنيو العشرينات من قبل، وقرنوا قضية الوحدة النهائية، أو على الأقل الإتحاد السياسي، مع مصر. وفي مواجهتهم تراوح مدى أولئك الذين آمنوا بأنه، في ضوء التاريخ والجغرافيا، مثلت مصر تهديداً إمبريالياً مستمراً أقوى مما فعلت بريطانيا. كان هدفهم أن يعملوا من أجل إستقلال تام في نهاية القصيد، حتى لو كان معناه تقبل الحكم البريطاني في تواصل ليصير من الممكن تطوير مؤسسات مستقلة للأمة. هذه الجماعة الأخيرة وجدت تشجيعاً من السلطات البريطانية في سكوت حتى أضحي واضحاً أن التطلعات الوطنية بشكل أو آخر لا يمكن تجاهلها. هكذا باتت الجماعتان الوطنيتان الرئيسيتان في السودان معرفتين بلا وعى بمصطلح القوتين المتنافستين اللتين كانتا إسمياً تتقاسمان حكم بلادهم. لم يعد من ثم السؤال هو ما إذا كان الوطنيون سيكسبون الجولة في النهاية، إنما أي جماعة وطنية تفوز.

بمضي الوقت كانت الجماعتان الوطنيتان قد تبلورتا إلى بوتقة أحزاب سياسية منظمة. العلة المؤيدة للمصريين عرفت أصلاً بالأشقاة "الأخوة" ومؤخراً بالحزب الوطني الإتحادي، بينما كان الحزب الأقوى تائيداً لبريطانيا ولا يزال يسمى حزب الأمة. لقد بقيتا حركتين سياسيتين عماديتين في السودان نزولاً إلى الوقت الراهن، بالرغم من أنهما بالضرورة أصبحتا غير نشيطتين في أزمان الحكم العسكري. وكما يجوز أن يتوقع، يستمد الحزب الوطني الإتحادي تأييده الأقوى من السكان النهرين في الشمال، بمن في ذلك النوبيين (على الأقل حتى صاروا في سخط وغبن من مسألة التهجير عقب إنطلاق السد العالي)، في حين يستمد الأمة قدراً واسعاً من تأييده من نفس القوى المناهضة للمصريين التي دعمت المهديّة قبل ثمانين عاماً مضت. إن هذا مؤشراً على النفاذ المتواصل للدين في الحياة العامة السودانية فالحزبان الرئيسان تحالفا بمستوى لصيق مع إثنين من أكبر الطوائف الدينية في البلاد، *الختمية* و*الأنصار*<sup>(١٧)</sup>.

مبدأ تقرير المصير النهائي للسودان إرتبط رسمياً بحكومة العمال التي اعتلت السلطة في بريطانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية. على أنه بطريقة أو أخرى، عطل التحقيق الفعلي للإستقلال حقبةً زمنية نتيجة للفرزاع المستمر بين بريطانيا ومصر وبين الشيع السياسية المتنافسة التي يظاهرونها في السودان. إن البريطانيين، يدعمهم حزب الأمة، إقترحوا إنشاء حكومة ذاتية بالتدرج، مما يؤدي في نهاية الدرج إلى خلق سودان مكتمل الإستقلال؛ مثل كل هذه التدابير كان معارضاً من المصريين والشيع الإتحادية في القطر. مخفقين دون بلوغ إتفاقية مع شركائهم المصريين في



الوصاية على الحكم، إتخذ البريطانيون إجراء منفرداً عام ١٩٤٨ لإقامة جمعية تشريعية ذاتية ومجلس حاكم للسودان. عارض المصريون هذا الإجراء بقوة، وقاطع الإتحاديون إنتخاب الجمعية الذي أعقب ذلك؛ ومحصلة لهذا، إنتخبت جمعية تشريعية ومجلس تنفيذي بعدد كبير من أعضاء حزب الأمة<sup>(١٨)</sup>.

توالى مفاوضات الحكم مجهزة بين بريطانيا ومصر لثلاث سنوات أخرى بعد تكوين الجمعية التشريعية الأولى. كان إصرار مصر أن الحكم البريطاني في السودان والإدارة البريطانية لجنال السويس مسائل متصلة لا بد أن يجرى التفاوض بشأنها جمعاً عقبة كؤوداً دون أى تسوية نهائية. بلغت الأمور قمته في ١٩٥١ عندما إتخذ المصريون بدورهم خطوة إنفرادية، بإعلان بطلان إتفاقية الحكم اللثاني واقترحوا أن يُضفى على الملك فاروق لقب "ملك مصر والسودان"<sup>(١٩)</sup>. إستنكرت حكومة السودان سريان مفعولية هذا الإجراء، وفي إبريل ١٩٥٢ أصدرت الجمعية التشريعية دستوراً للحكم الذاتي للسودان، قضى بإيجاد رئيس للوزراء، ومجلس للوزراء، وتشريع من ديوانيين للقضاء، بينما بقيت سلطات عسكرية ودبلوماسية مختلفة في قبضة حاكم عام يعينه البريطانيون. ما كان متوقعاً أن موافقة مصرية على هذا التدبير سيأتي أوانها، على أنه بعد أقل من ثلاثة أشهر من إصداره أطيح بالملك فاروق علي يد طغمة<sup>(٢٠)</sup> عسكرية، وأزيل من الوجود واحد من العقوبات الرئيسة لتسوية المسألة السودانية.

الحكومة المصرية الجديدة التي ترأسها اللواء محمد نجيب، لم توافق فحسب على فصل مسألة السودان عن مسألة جنال السويس، لكنها قبلت مبدأ المصير للقطر الجنوبي. بعد ذلك كانت سياسات بريطانيا ومصر بالضرورة متوازنة، مع أنها متعارضة لا تزال: كل أمة ترغب أن ترى السودان مستقلاً مادام نفوذ الأخرى ليس طاغياً. بعد تراوغ إضافي بدرجة عظيمة من أجل تعزيز المراكز وقَّع، لذلك، على إتفاق إنجليزي - مصري في فبراير ١٩٥٢، نظر صوب تكوين حكومة ذاتية إنتقالية للسودان يعقبها في تاريخ لاحق نظام وطني، كامل الإستقلال. كان شكل الحكومة الإنتقالية بالضرورة هو الذى استصدر تنفيذه بقانون قبل عام مسبقاً، لكنه تم بتعديلات معينة رمت إلى تقيد سلطة الحاكم العام. لقد افترض أن تتولى الحكومة السلطة لثلاث سنوات، وخلال ذلك الزمن يؤسس دستور دائم ومؤسسات للحكم من الجمعية التشريعية نفسها<sup>(٢١)</sup>.

عقدت الإنتخابات في الجزء الأخير من عام ١٩٥٢، وياشرت حكومة السودان الجديدة الحكم في اليوم الأول من عام ١٩٥٤. ظهرت نتائج الإنتخابات كنسخة لبريطانيا، حيث أن الحزب الوطني الإتحادى الموالي لمصر أحرز أغلبية صافية، وشُكل مجلس الوزراء التنفيذى لذلك من أعضاء الحزب الوطني الإتحادى علي وجه الحصر. سعى المصريون ليحسبوا من مكسبهم بحملة دعائية نشطة رمت لتحقيق وحدة نهائية للسودان مع مصر، بيد أن أنشطتهم ونفوذهم المقتضى قاد إلى عنف عام من الشيع المعادية للمصريين في الخرطوم وغيرها، وكشفت للحكومة خطر حرب أهلية تكمن بطبيعة الحال في سياسة موالاة المصريين بشكل صريح للغاية<sup>(٢٢)</sup>. وعندما عُزل اللواء محمد نجيب، في نوفمبر ١٩٥٤، عن قيادة الطغمة المصرية من جانب العقيد جمال عبد الناصر، سُحق أى أمل مما كان لا يزال متعلقاً بالوحدة. نجيب نصف سودانى، نال قسطاً من التعليم في السودان أنفاً، وكان محبوباً لاقصى حد في القطر الجنوبي، إن سقوطه غير المحتفى به سبب الإمتعاض والسخط بين العناصر الموالية للمصريين في السودان<sup>(٢٣)</sup>.

لقد عزم رئيس حكومة الحزب الوطني الإتحادى الإنتقالية، الذى ربما رأى مركزه السياسى ينزلق في رفقة القضية الوحودية، أن يدفع في إتجاه الإستقلال الكامل ليقع في تاريخ أسبق من الذى جرى تحديده في الإتفاق الإنجليزى - المصرى. في أغسطس ١٩٥٥، حث الجمعية التشريعية لأن

(\*) لم يُسم المألف ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر علي طاغوت الملكية والإقطاع بما يتعد مفهوم الطغمة العسكرية؛ أنظر تعليقنا الناقد لذلك الراي في مقدمة النوبة - المترجم.

دعوا لإنسحاب كل وحدات الجيش البريطاني والمصري من البلاد، وكان هذا بالفعل منجزاً قبل نهاية العام. تلى ذلك، أن القوات اللتان لازالتا تتقاسمان حكم السودان إسمياً سئلاً لعمل إستفتاء ليحدد المصير مرة واحدة على الإطلاق لمسألة الإستقلال أو للوحدة مع مصر. ولما كانت النتيجة بشكل مكثف في صالح إستقلال تام، أجاز البرلمان في ٢٢ ديسمبر قراراً يعلن فيه السودان مستقلاً من فوره. إنعقد دستور إنتقالي دعا بالتالي لإستمرار الآلة البرلمانية القائمة، مع نقل سلطات الحاكم العام للجنة عليا من خمسة سودانيين أعضاء. تم هذا الإجراء قبولاً بلا معارضة، وربما بإرتياح من القوتين اللتين كان حكمهما زمناً طويلاً مصدرراً لإطلاق الراحة والحرج لكل منهما. في ١ يناير ١٩٥٦، أنزل العلم البريطاني والعلم المصري من سارية قصر الحاكم في الخرطوم، ورفرف عالياً علم جمهورية السودان في محلها.

ما بقي الحكم البريطاني في السودان لما يزيد على خمسين عاماً - قصراً أشد، لمدى بعيد من أي فصل سابق للسيطرة الإمبريالية في تاريخ البلاد. بصرف النظر عن ذلك فإن التحولات الثقافية التي احتلت مكاناً من خلال ذلك النصف من القرن يجوز أن تكون مماثلة في عظمتها لأي ما صاغ الفراعنة أو السلاطين في أزمان سابقة. هنالك بالتأكيد تقدم مادي وتقني أكبر في النصف الأول من القرن العشرين عما كان موجوداً خلال الخمسة آلاف عاماً الماضية. ومع أن نظرة القرون الوسطى لا تزال تغص بها وجوه كثيرة في الحياة السودانية، فإنه كيفما مضى الحال صحيح بالمثل أنه تحت الحكم البريطاني كانت رموز حضارة القرون الوسطى ومؤسساتها مستبدلة بحزم، وبكل الإحتمالات، نهائياً برموز ومؤسسات الوطنية الدنيوية الحديثة.

في قالب واحد أو آخر، وتحت رعاية بعينها أو بغيرها، كان مجى الحضارة الفنية الغربية إلى السودان مما لا متعدي منه. أخذت بطريقة حيوية نفس عمليات التحديث، والعلمانية، والتطور المادي مكاناً في كل مقاطعة مستعمرة في إفريقيا، إضافة إلى بلدان مثل الحبشة، وإيران وتركيا التي ما كانت أبداً مستعمرات. إلى ذلك المدى كان البريطانيون وكلاء لا غير لإمبريالية ثقافية كانت أقوى منهم هم أنفسهم. إن القالب المحدد الذي أخذته الحضارة الغربية في السودان هو، مع هذا، بريطاني بما لا جدال فيه. إنه لأشد إدراكاً ليس في المحيط المادي وحسب إنما في المحيط المؤسسي: في النظام التعليمي، والمؤسسات الحاكمة، وفوق كل شيء في نظام القضاء الذي يُعد إرث الحكم البريطاني. سواء برهنت هذه [التطورات] أنها وراث باق، أم أنها سوف تتخطى أو تحول إلى قوالب أشد لغة وأصالة، فهذا مما لا يزال باكراً جداً ليقال عنه شيء. بعد حقبة زمنية ونصف أصبح فيها النفوذ البريطاني الإقتصادي والسياسي أقل وزناً بالقياس إلى النفوذ الأمريكي أولاً ثم النفوذ الروسي، ما انفك صحيحاً أن الإرث الثقافي البريطاني يظل مستأسداً بين التأثيرات الغربية قاطبة في السودان.

## السودان منذ الإستقلال

بالرغم من أن سبعة وخمسين عاماً من الحكم البريطاني جلبت تقدماً تقنياً جباراً، فإنه يصح بأي حال مما كان أن التقدم في السودان أخفق في مواكبة التقدم في بقية أنحاء العالم. هكذا، بما يخالف العادة، وجد القطر نفسه في زمن الإستقلال أدنى درجة في النماء مقارنة بما كان عليه منذ قرن سابق. لقد هبط تطوره ليس فقط بمعايير الأمم الصناعية الغربية، إنما بالمقارنة بالعديد من جيرانه الأقارب على حد التكافؤ. إن الإيرادات الخارجية لا ترتقي لما يزيد على ٥٠ مليون جنيهات سنوياً، وقد استخرجت في غالبيتها الأعم من تصدير القطن طويل التيلة، سلعة واجهت سوقاً متضارباً ومستقبلاً غير جازم<sup>(٣٣)</sup>. تصل شبكة من البواخر وخطوط السكك الحديدية الخفيفة (متبينة من السكك الحديدية العسكرية أصلاً عام ١٩٩٨، وما فتئت تشغل أطوال الخطوط التي فضلها ككتشنر)

عواصم المديريات الرئيسية، غير أنه لم تكن هنالك خطوط فرعية، ولم تكن الطرق الممهدة موجودة باستثناء المديريات الجنوبية. يبقى ما يتعدى ثلث القطر وأهله دون وسائل للنقل الحديث وتسهيلات الإتصال. خارج المدن الرئيسية والمدن الصغرى لم تكن هناك بالفعل مدارس، وندت الأمية في المقاطعات الريفية من ١٠٠ في المائة. إن تنمية إحساس بالهوية الوطنية والهدف القومي أحبطت معنوياتها بهمة سياسة "التحويل" في العشرينات والثلاثينات من عام ١٩٢٠، عدا بين الفئة المتعلمة، حيثما وُجِدت رؤية قبلية أو محلية لتمسود (٢٤). كل هذه المشكلات غائمة، مع ذلك بالقياس إلى المشكلة المتواصلة والتي تبدو بلا حل للجنوب غير المتمثل [لثقافة الشمال].

المديريات الثلاث لأعلى النيل، ويصر الغزال، والإستوائية إحتوت حوالي ربع مساحة السودان وسكانه زمن الإستقلال (٢٥). خلاف بضع إستثناءات كان السكان وثنيين أو مسيحيين عنهم مسلمين، لا يتحدثون عربية ولهم قليل مشترك مع جيرانهم الشماليين. كما رأينا في الفصل الثامن عشر، كانت المديريات الجنوبية قد ضُمت إلى السودان في أواخر القرن التاسع عشر، خلال الأعمال المنافية للقانون من تجار الرق بصورة أقوى من أي سياسة حكومية مقصودة. وفي ظل المهدي رجعوا إلى وضعهم القديم من أجل كل الأغراض العملية للإستقلال، لكنهم أُعيد فتحهم مع بقية أنحاء البلاد في ١٨٩٨ (٢٦).

سياسة البريطانيين تجاه السودانيين الجنوبيين في مواجهة الشماليين، عكست بكل دقة سياستهم تجاه الشماليين في مواجهة المصريين. بعد أن أعادوا فتح الجنوب باسم سودان موحد، أقاموا حماية للجنوبيين من السودانيين الشماليين. نتيجة لهذا، كانت المديريات الجنوبية تُحكَّم منذ البداية تماماً كأنما كانت مستعمرة منفصلة. خلال الحقبة الزمنية الأولى للحكم الثنائي حُرِّم دخول كل من المصريين والسودانيين المسلمين إلى الجنوب الوثني؛ كان الجنوب يحكم بصفة مطلقة بضباط بريطانيين في مقاطعات وشرطة محلية، بعون جمعيات تبشيرية متنوعة وتشجيعها وقد كان ماثوناً لها أن تدعو لإعتناق المسيحية في حرية بالمديريات الجنوبية. أخذت مدارس البعثات التبشيرية مكان مدارس الحكومة، وكانت الإنجليزية لغة للتدريس. الجنوبيون القليلون الذي أكملوا مقررات المدرسة الثانوية كانوا يبعثون لتدريب إضافي في كلية ماكيري في يوغندا بدلاً عن كلية غوردون، مثل السودانيين المسلمين من المديريات الشمالية (٢٧). هكذا شيد حاجز من الدين واللغة على طول جانب الحواجز العرقية (٢٨) والثقافية المعاشة مسبقاً التي فصلت السودانيين شمالاً وجنوباً. كانت السياسة البريطانية، دونما شك مدفوعة بإعتبارات غريبة، لكنها لم تكن مصحوبة بأي برنامج عملي لتنمية جنوب مستقل يكون قادراً على تنمية نفسه. لذا فإن أثرها النهائي كان من شأنه أن يجعل التكامل السياسي للشمال والجنوب غير مكفول، في نفس الوقت الذي ما من حلٍ سياسي آخر جرى التأمل فيه أبداً بجدية.

في تاريخ لاحق مثل عام ١٩٤٤، كانت المديريات الجنوبية مستبعدة من التمثيل النيابي في المجلس الإستشاري للأعيان السودانيين الذي أنشئ في ذلك العام ليعين الحاكم العام (٢٩). مع المدد المساعد سريعاً للوطنية، بصرف النظر عن ذلك، كان التزاماً على السلطات البريطانية بعد مضي الأوان، أن تواجه المشكلة فيما يجب أن تتخذ حول الجنوب. عُقد مؤتمر جوبا في ١٩٤٧، وأعطى فيه عدد من قادة القبائل الجنوبية تأييدهم لقاعدة الوحدة الوطنية (٣٠). في العام التالي، عندما دُعيت أول جمعية تشريعية للإعتقاد معاً، شملت أعضاء جنوبيين للمرة الأولى. أدخل تدريس اللغة العربية في المدارس الأولية في الجنوب عام ١٩٥٠، وبعد ذلك الوقت صار الطلاب من المديريات الجنوبية يبعثون ليكملوا تعليمهم العالي في الخرطوم بدلاً من يوغندا (٣١).

كما ألت إليه الأمور، كانت الجهود البريطانية نحو تكامل السودان في جنوبيه ضئيلة ومتأخرة للغاية. ما كانت كتلة الجنوبيين بعد على استعداد لتقبل حكم العرب في مكان البريطانيين عندما

أصبح ظاهرة، في ١٩٥٥، أن إستقلالاً كاملاً لم يكن بعيد الحدوث. في أغسطس ١٩٥٥ تمردت الفرقة الإستوائية للجيش السوداني، متوقعة إستلام دعم بريطاني صوب إنشاء جنوب مستقل عن السودان. ما كان الدعم المتوقع قادماً؛ أمر المتمردون من الحاكم العام بأن يلقوا أسلحتهم، وفعلوا ذلك بعد مقاومة قصيرة في إختصار. في هذه الأثناء، مع ذلك إنتشر العصيان المسلح في الأعراس، حيث تصاعد دخانه في مستويات منتظمة على إختلاف ثم التهبت نيرانه مُذاك (٣٢).

صواباً أم خطأ؛ إعتبرت الجمعيات التبشيرية مصدراً دائماً للفرقة والعداوة في جنوب السودان من ناحية الحكومة الوطنية. فكان واحداً من أول إجراءات الحكومة السودانية المستقلة حديثاً أن تستولى من المبشرين على سير عمليات كل المدارس في الجنوب، وأن تدخل العربية على أنها لغة التدريس العامة. هذا التحرك أخرج إضطراباً إضافياً، أجهجه (طبقاً لحكومة الخرطوم) المبشرون أنفسهم. وبعد سنوات عديدة من الصعوبات المتزايدة وإختلال الحياة المدنية، كان المبشرون الأجانب عام ١٩٦٤ مبعدين تماماً من مديريات أعالي النيل، وبحر الغزال، والإستوائية. إنلغ عصيان مسلح علناً بصورة عامة يكاد من فوره، وكان خشناً على وجه الدقة في الأعوام ١٩٦٥ - ١٩٦٨ (٣٣).

منذ ١٩٥٦، وعدت كل الحكومات المتعاقبة التي جاءت إلي السلطة في الخرطوم (انظر أدناه)، من بين أشياء أخرى، بحل للمشكلة الجنوبية. إلا أنه حتى الآن ما من أحذر ظل راجباً ليكمل ذاتية فدرالية أو إستقلالاً تاماً بناء على الشروط، التي يطلبها القادة الجنوبيون الأشد تطرفاً نتاجاً لذلك، ما انفكت فترة من السكنية والتفاوض تتبع دائماً عقب إنشاء كل نظام وطني جديد باستئناف للعداوة في الجنوب عاجلاً أم آجلاً (٣٤). إن إتفاقية تمنع تدابير مقدرة من الحكم الذاتي للمديريات الجنوبية وقّع عليها رغم ذلك في مايو ١٩٧٢.

لا غرو، أن العدد الكبير من المشاكل التي ورثتها حكومة السودان من سابقتها الإستعمارية أسهم في خلق حالة من عدم الثبات السياسي في الشمال علاوةً على الجنوب. بقيت الحكومة البرلمانية الديمقراطية، التي خطت أولى خطواتها سنة ١٩٥٦ لأقل من ثلاث سنوات، تواترت خلالها أحلاف مراجعة بإستمرار لشعب وولايات في الشمال. وفي نوفمبر ١٩٥٨ أطيح بالنظام البرلماني من طفعة عسكرية رأسها الفريق إبراهيم عبود، ولسبع سنين قادمة كان السودان محكوماً بمجلس عسكري أعلى. أستعيدت الحكومة البرلمانية بعد إنتفاضة شعبية في ١٩٦٤، لكن النظام الجديد برهن علي أنه غير مستقر مثلما كانت الحكومة المستقلة الأولى من قبل، ومرة ثانية توالى تقلبات نهائية للقوة والمركز، تولى فيها الحزب الشيوعي السوداني لأول مرة دوراً نشطاً. في مايو ١٩٦٩، أمسكت بالسلطة طفعة عسكرية أخرى، وعطلت المؤسسات البرلمانية شوطاً ثانياً. اتاحت الأنظمة العسكرية، بصفة عامة، إستقراراً ووجهة أكثر مما حققته الأنظمة الديمقراطية، بيد أنه ما من أحذر منهما كان خالياً بوجه كلي من الإنشقاق والمحاولات الانقلابية.

تنافسات القوى الكبيرة لا ريب أنها لعبت دورها في إستدامة الإضطراب السياسي في السودان. في عهد الإستقلال كانت الحكومة قد أعلنت سياسة الحييدة الصارمة في الشؤون الدولية، لكنها رغمًا من ذلك إنزلقت بلا وعي وبما لا محيص منه إلى ساحة سياسات الحرب الباردة. إن منحة من العون الأمريكي الكاسح خلقت إنقساماً سياسياً حاداً بين البلاد في عام ١٩٥٨؛ وكانت أحد العوامل التي أسهمت في سقوط الحكومة البرلمانية الأولى (٣٥). صدّق على إتفاقية العون بلا تأخير، ومع أن الحكومة الديمقراطية سقطت بعد وقت قصير من ذلك، فإن النظام العسكري الذي خلفها صار واحداً من أكبر متلقي العون الأمريكي في إفريقيا. حتماً، أصبح نظام عبود مرفقاً في العقل الشعبي بالمصالح السياسية والإقتصادية الأمريكية. لذا، رجعت الحكومة المدنية التي بلغت السلطة عقب الإطاحة بعبود في ١٩٦٤ إلى مواقع أقوى حيدةً في حزم، وحُجِم النفوذ الأمريكي بشدة. حرب السويس عام ١٩٦٧ جاءت بقُطعة كاملة للعلاقات مع الولايات المتحدة، وانعطف للسودان، مع بقية

الأمم العربية، للكتلة الشيوعية لعونها الدولي الأكبر. بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠ أنشئت علاقات دبلوماسية مع معظم الأمم الشيوعية، وملا الفنيون الروس والعون الفني الروسي الفراغ الذي كان قد أحدثه غياب الأمريكيين. خلال نفس الفترة، رغمًا عن ذلك، واصلت الشيعة الموالية للمصريين تقبلها للدعم والتشجيع من القاهرة، وأدى إلى صعوبات وإنقسامات سياسية متزايدة. وعندما أعلنت الحكومة العسكرية سياسة للإتحاد الوطني مع مصر، في ١٩٧٠، إنطلقت محاولة لإنتقال عسكري اعتُقد أن الروس كانت لهم يد فيها. تحصيلاً لذلك إضمحل النفوذ الروسي بدوره في حدث أثناء الماضي القريب .

### إندثار النوبيين السودانيين

النوبيون والسودانيون من سلف نوبي لعبوا دوراً نشطاً وأحياناً قيادياً في تطوير الأمة السودانية الحديثة. كما شاهدنا في الفصل السابع عشر، بدأ دخول الإسلام الإستيعاب التدريجي للنوبيين إلى باطن مجتمع سوداني جامع في العصور الوسطى إبان مراحلها المتأخرة. ومع بداية القرن العشرين لربما أن نصف الناطقين في مرة بالنوبية فقدوا أنفاً لغتهم القديمة وكل ذكرى لورتهم الثقافية المنفصلة، بالعين حدأً من التفكير عن أنفسهم كعرب بيساطة. هذه العملية من التمثل العرقي، ضاعفت منها على الإجمال أحداث القرن العشرين. أسهمت أربعة جوانب على الأقل من الحكم الإستعماري البريطاني في إنهيار الحواجز الثقافية في السودان:

١ - زاد النقل والمواصلات المتحسنة من مساحة التلاصق العرقي/ الثقافي - الداخلي - بتسهيل حركة الناس في نطاق السودان ومابين السودان ومصر على السواء. نتاجاً واحداً، زاد حجم هجرة العمل النوبي (قارن الفصل السابع عشر) بضخامة في القرن العشرين. الغالبية العظمى من المهاجرين، كما في الماضي، ذكوراً مفردين، يعود معظمهم آخر المطاف إلى أرض أجدادهم وعائلاتهم. تواترت رغم ذلك هجرة معتبرة لعائلات بأكملها إلى الخرطوم وأم درمان: متى استوطنوا، يُبتلع القادمون الجدد في مجتمع الحضر السوداني الجامع<sup>(٣٦)</sup>.

٢ - تطور نظام تعليمي للدولة، بدئاً تحت الحكم الثنائي وتوسع بمقدار معتبر منذ الإستقلال، رحب به النوبيون على وجه الخصوص، بتقليدهم الطويل في إحترام التعلم والكتابة. منذ الخمسينات من عام ١٩٥٠ توجد مدارس أولية تديرها الدولة ليس في مدن النوبة وحدها إنما في أغلب القرى الكبيرة، وقد بلغ أن نسبة الأطفال الذين يذهبون للمدرسة بالفعل كانت أعلى منها بأي جزء آخر من القطر. لأول مرة تدرس اللغة العربية بانتظام منهجي تحت رعاية الدولة ما للأطفال وحدهم ولكن للبنات بالمثل - تحديثاً جذرياً للتعليم السوداني وربما يُحدث مفعولاً زائداً ليزيل الانفصالية اللغوية للنوبة أقوى من أي تطور آخر في القرن العشرين<sup>(٣٧)</sup>.

٣ - خلق إدارة ديوانية وطنية مبتدأة للمرة الثانية تحت الحكم الإستعماري وموسعة بدرجة كبيرة منذ الإستقلال، مكّن النوبيين من صنع إستخدام فاعل للتعليم الذي كان قد منح لهم في مدارس الدولة. في الخمسينات من عام ١٩٥٠ قدر أن ٤٠ في المائة من موظفي الخدمة العامة في السودان كانوا من سلف نوبي<sup>(٣٨)</sup>. ما جرى توظيفهم بمناطقهم الأصلية وحدها لكن في كل مديرية بالبلاد، وفي أعداد غفيرة في العاصمة. كثيرون كانوا برفقة عائلاتهم. غير محتمل أن غالبية هؤلاء الأفراد ستؤبى إلى محافظتها القديمة أبداً: لقد توقفوا عن أن يكونوا نوبيين لكل الأغراض العملية والتحقوا بمراتب صفوة السودان الحضرية على صغرها ولو أنها متنامية.

٤ - الأيدولوجية الوطنية، التي نهضت في باكورة القرن العشرين بصورة رئيسة وسط طبقة المثقفين بتعليم الغرب وموظفي الخدمة العامة، أصابت النوبيين مقدار ما الحقت بأى أناس في

السودان. وكرد فعل على الوصاية الأبوية والقبيلية التي رعت نموها سياسة "التحويل" البريطانية، فإنها ترمي إلى تعويض الخصائص العرقية الانفصالية التي تعلق بها تقليدياً النوبيون وكثير من الأقوام السودانية الأخرى بإحساس من الهوية الوطنية. معيار لإنشغال النوبيين الراهن بالشؤون والحركات الوطنية يمكن العثور عليه في حقيقة أن معظم مجالس الوزراء السودانية منذ الإستقلال احتوت أعضاء نوبيين، وكان رئيس الوزراء الثاني للسودان المستقل نوبياً.

### النوبيون في مصر

ثبتت إتفاقية الحكم الثنائي سنة ١٨٩٩ الحدود بين مصر والسودان على خط الطول إثنتين وعشرين درجة شمالاً، بضعة أميال في إتجاه النهر نحو مصبه من الشلال الثاني. مرة أخرى، كما كان دائماً في الماضي، وجد النوبيون في النوبة السفلى أنفسهم تحت حكم مصري مباشر مفصولين سياسياً من بنى جلدتهم إلى الجنوب. هذا التقسيم الإعتباطي، الذي لا يزال متشبثاً بالبقاء إلى اليوم الحاضر، لا يتسق مع أى تقسيم عرقي في دائرة السكان النوبيين: بدلاً من ذلك، يجزئ الجماعة الناطقة بالمحسية بالنسوى بين مصر والسودان بشكل غير محدد إن علاقتهم لصيقة من الثقافة، واللغة، والعائلة تواصل توحيدها الناس في شمال الحدود وجنوبها، وحتى وقت الإخلاء في ١٩٦٤ (انظر بانداه) إستمر التزاوج جينة وذهاباً بينهما. جانباً عن ذلك، أثر تهجير ١٨٩٩ ولا مناص في المصائر السياسية والاجتماعية للنوبيين المصريين والسودانيين بشكل مختلف. الجماعة الشمالية - التي تشمل حوالي ربع واحد من جملة السكان الناطقين بالنوبة في ١٩٦٤ - ما كانت خاضعة لأى من التطورات الإستعمارية أو الوطنية التي وصفت في صفحات سالفة من هذا الفصل، ولا مرتت بنسب عملية التمثيل العرقي كما جرى للنوبيين الشماليين.

مع أنهم مواطنون مصريون إسمياً، خضع النوبيون الشماليون خلال أغلب فترة القرن العشرين لإستعمار من نوع خاص، ليس منبعثاً من الخطوط إنما من القاهرة. في مصر فؤاد وفاروق لم تكن هناك حكومة ذاتية محلية أعلى من مستوى القرية: المقاطعات والمحاكمات كانت محكومة، كما السودان، من موظفين معينين للدولة ومسؤولين للحكومة الوطنية وحدها. ما كان حتى عام ١٩٦٠ أن تدبيراً من الحكم الذاتي منح للمحافظات المصرية، رغم أن الحكام لا يزال تعيينهم يتم من القاهرة (٣٩). طوال القرن العشرين كانت النوبة المصرية بأجمعها قد أدخلت ضمن محافظة أسوان، التي تشمل كذلك مساحةً معتبرة ماهرة إلى الشمال من الشلال الأول وسكانها غير نوبيين (٤٠). حصداً لذلك وجد النوبيون المصريين أنفسهم جماعةً أقلية حتى بين ظهراني محافظتهم الأصلية (٤١).

بالرغم من أن النوبيين الذين هاجروا إلى الاسكندرية والقاهرة يشكلون عنصراً هاماً في سكان الحضر المصريين (٤٢)، ظل النوبيون الريفيون الذين مكثوا بين إقليمهم القديم أناساً متجاهلين ومستغلين خلال معظم القرن الحاضر، مثلما كانوا في أزمان سابقة. ومن أجل إنتاجية زراعية مضاعفة في الشمال دُمرت بلادهم قطعة قطعة بالخزانات المتعاقبة في أسوان دونما أى جهد لكسب رضائهم. بذلت بعض محاولة لتعويض المقيمين عن فقدان مزارعهم وحدائق نخيلهم، ولخلق مصادر جديدة من المعيشة بين النوبة، لكن تنمية تسهيلات الحكومة وخدماتها إلى جنوب أسوان لم تواكب أبداً التنمية الجارية في بقية أنحاء القطر (٤٣). في بعض الجوانب يمكن أن تقارن مكانة النوبة المصرية في القرن العشرين "باحتياطي الأمالى" في إفريقيا الجنوبية: كانت متروكة بقدر الإمكان لوسائلتها الذاتية، ينظر إليها حكامها المستعمرون في الغالب الأعم كمخزون احتياطي للعمل المهاجر. تحت كاهل هذه الظروف لا يدعو للدهشة أن مؤسسات الحكم القبلية بقيت على قيد الحياة غير ممسوسة بالتقريب وسط النوبيين عما هي عليه بين جيرانهم المصرية (٤٤).

النوبيون في مصر، خلاف أقرائهم في السودان، أقلية شلالية إضافية إلى أنها أقلية عرقية، تختلف بشكل مرئي في مظهرها عن الأغلبية القوقازية. لآلاف السنين كان "النوبي" و "العبد" مترادفين فعلياً في العقل المصري<sup>(٤٥)</sup>. هذا الدمج أذنب بلا شك لمدى معتبر في العصر الحديث<sup>(٤٦)</sup> ويتمتع النوبيون الآن بحراك إجتماعي وإقتصادي مقدر في إطار المجتمع المصري الحضري<sup>(٤٧)</sup>. إنهم، مع ذلك، لم يتمثلوا في جوف الأغلبية السكانية كما هم في السودان. وسواء جاءت هذه الحالة ناتجة عن بقاء الدمج الموروث<sup>(٤٨)</sup>، أو أنها ترجع إلى الانفصالية العرقية للنوبيين أنفسهم<sup>(٤٩)</sup>، فذلك من مواضع الجدل. جدير بالذكر أن السودان في تعبير أوسع عمومية، وكيفما جرى الأمر، كان وما انفك إناءاً للصهر، ذا تاريخ طويل من تمثل أقوام الأقليات، بينما العكس في مصر صحيح: الفوارق العرقية والدينية إنعطفت نحو التشبث بالبقاء من فوق فترات طويلة للغاية من الزمان لأي سبب كان، ما لعب النوبيون دوراً هاماً في الحياة الوطنية لمصر منذ زمن تهارقا، وما تمثلهم بجارٍ بطريقة ظاهرة في بوتقة أغلبية السكان.

### برنامج التهجير

ليس هناك جانب من حضارة القرن العشرين كان له أثر أقرب مباشرة وفورية على النوبيين من تعاقب الخزانات التي توالى بناؤها في أسوان بالرغم من أنها شيدت تحت رعاية مصرية (وفى وقت متأخر، روسية) فإن التصور الأصلي لخزانات أسوان كان بريطانيا<sup>(٥٠)</sup>، وأثارها الإجتماعية والسياسية لا بد أنها في المدى الطويل تُحتوى في إطار تراث الحكم البريطاني للنيل. لفترة تعلق السبعين عاماً دُمِر أو جُعِل غير صالح للحياة السكنية حوالي ٦٠ في المائة من إقليم النوبة<sup>(٥١)</sup>، وألزم حوالي نصف الناس الناطقين بالنوبة من الباقين على قيد الحياة بإيجاد مساكن جديدة ما بين موطن ديارهم التقليدية أو خارجها. إنه لما يدعو للريبة ما إذا كان أي من الفيضانات التي غشيت النوبيين في أزمان أولى يمكن مقارنته بما لحق بمجتمعهم وإقتصادهم من تدمير.

بُنِيَ الخزان الأولي في أسوان عام ١٨٩٨، تابعاً بصورة مباشرة لحملة إعادة الفتح في السودان. مع هذا، فإنه حتى مضي قرن لاحق. عندما أُجِري توسيع الهيكل الأصلي، لم يَزْحَزْ إقتصاد النوبة ومجتمعها بشكل خطير بالمياه المحجوزة. كذلك كانت آثار التوسيع الثاني، الذي أكمل في ١٩٣٤، أعنف خطورة فقد احتجز الماء إلى مسافة التخوم السودانية وغمر معظم حدائق النخيل التجارية إضافة إلى أفضل المقاطعات المزروعة رخاءاً في النوبة السفلى.

مع مراعاة نقلات السكان الكبرى التي جعلت ضرورية بالغمرتين الإثنتين الأوليين للنوبة السفلى، ما أنشئ مشروع مخطط في نظام للتهجير خارج المنطقة وإعادة التوطين [يمكن أخراً في نفس الوقت. شجعت الحكومة المصرية النوبيين بأقصى ما في حوزتها ليبقوا في نطاق مرتعهم الأصلي؛ نُصِبَت مشاريع رى جديدة لتجذب للفلاحة الأراضي الواقعة على طول هامش الخزان. علاوة على ذلك كان السهل المغمور من قدم الفيضانات قابلاً للفلاحة أثناء فترة منتصف الصيف القصيرة عندما يفرغ خزان أسوان (انظر الفصل الثاني). تحت هذه الظروف إختارت أغلبية النوبيين المصريين أن تعيد بناء قراها على طول شواطئ الخزان الجديد، أما في ضاحية أراضيهم السابقة أو بالقرب من مشاريع الرى<sup>(٥٢)</sup>.

بالرغم من محاولات الحكومة لتخفيف عناء النوبيين، فإن الغمرات الفيضانية خلال عامي ١٩١٢ و١٩٣٤ خفّضت بقدر عظيم القابلية الإنتاجية لبلادهم وتنتجت عنها نقلات ديمغرافية ذات اعتبار. كانت هنالك بعض هجرة فيما بين النوبة، إلى المنطقة التي تقع مباشرة أسفل الشلال الثاني والتي لم تكن متأثرة بالغمرات الأولى. بهذه الطريقة وجدت مستوطنات النوبيين الكنوز دياراً جديدة وسط المحس،

في كل من النوبة المصرية والسودانية. أضف إلى هذا أن عدداً كبيراً من العائلات هاجر بأسلوب دائم إلى مدن مصر السفلى<sup>(٥٢)</sup>، بينما في حالات قليلة حاولت عائلات نوبية مهاجرة أن تؤسس قرى زراعية جديدة على أراض قاموا بشرائها إلى شمال أسوان<sup>(٥٤)</sup>، أيًا كان ذلك، فإن أعلى أثر ديمغرافي يعادل أهمية الغمرات الأولى وقيمتها إلى مدى بعيد كان زيادة هائلة في حجم هجرة العمال الذكور<sup>(٥٥)</sup>. من حوالي ١٩١٠ حتى تدميرها النهائي في الستينات من عام ١٩٦٠ كانت قرى النوبة المصرية مأهولة بالنساء، والأطفال، والشيوخ بشكل رئيس؛ الغالبية العظمى من الرجال القادرين كانوا لجبرة الظروف مضطرين للبحث عن حياة في أجزاء أخرى من القطر<sup>(٥٦)</sup>. إن أرقام التعداد لرقعة النوبة المتحدة بالكنتزة تعكس نسبة للجنس بما يتعدى امرأتين لكل رجل واحد طوال الفترة من ١٩٢٠ وما تلاها<sup>(٥٧)</sup>.

دمر السد العالي نهائياً كل سعة إنتاجية تركت من الغمرات السابقة للنوبة المصرية. في هذه اللحظة ما خطرت فكرة للسماح للسكان بالإقامة بين أرض أسلافهم: ٤٨,٠٠٠ إنسان ظلوا على ظهر الحياة عقب الغمرات الأوائل أعيد توطينهم جمعاً على أرض مستصلحة جديدة إلى شمال أسوان. وبالرغم من أن الأرض التي منحت لهم كانت قابلة لأن تكون أكثر إنتاجية من الأرض التي أخذوها أنفأ، رأى النوبيون في وضع مفهوم تجريد ملكياتهم النهائي من موطنهم بالقلق والإستياء. فرنسا وكندا، اللذين درسوا عملية التمسكين وأثارها الإجتماعية، كتبوا في عام ١٩٦٦ أنه.

مواجهين بضرورة التخلي التام عن موطنهم، كانت سلوكيات النوبيين نوعاً ما متغايرة. لقد بينوا دائماً أن أرضهم الأصلية كانت "مباركة". اعتبروا المناخ، والأرض، والماء أرفع قيمة مما وجدوا بأي مكان آخر في وادي النيل، واعتقدوا أن قراهم، التي كانت حرة نسبياً من التدخل الخارجي، تملك أعلى مستويات للحياة المسالمة، والطهر، والأمانة، والأمان الشخصي في مصر. من الناحية الأخرى كانوا على وعي تام بالمساوئ المادية والإجتماعية التي نتجت عن عزلتهم وضجروا من عدم قدرتهم على المشاركة الكاملة في التغييرات الثورية التي تأخذ مكاناً في أمكنة أخرى في مصر. في حين وضع أن أغلب النوبيين يتقاسمون هذا التغيير إلى درجة ما، كان السلوك نحو إعادة التوطين متفاوتاً. كما قد يتوقع، كان الناس الذين تمتعوا بأشد من إقتصادي أقل حماساً نحو التحرك. وبين هؤلاء قلة من المزارعين الموسرين إضافة إلى أصحاب حوانيت، وملاك مراكب، وموظفي الحكومة<sup>(٥٨)</sup>.

عملية تهجير النوبيين المصريين أجريت بين أكتوبر ١٩٦٣ ومايو ١٩٦٤. كان الإخلاء قد وُصف على النحو التالي من الصحفي توم ليتل:

إخلاء النوبة المصرية كان [نسبياً] عملاً منظماً لأن مخططي الجمهورية العربية المتحدة، الذين افترضوا منذ البداية أن السد العالي سوف يُبنى وفقاً للجدول الزمني المحدد ولم يبدؤوا وقتاً يمدون الفكر حوله، بدأوا عملهم في ١٩٦١. إختاروا موقع التوطين هلاًلاً من الأرض حوالي أربعين ميلاً في الطول على حدود النيل في منطقة كوم أومبو، التي تبلغ تقريباً خمساً وثلاثين ميلاً شمال أسوان. ما كان هناك كلام لا معنى له حول إستشارة النوبيين في الأمر؛ إنه فقط عندما أعدت العملية بتفصيل عظيم دُعي أهل القرى ليناقشوا تصميم المساكن التي سيجري بناؤها ولكيما يعاينوا إن كان هناك شيء أمضى من ذلك يمكن عمله ليقابل رغباتهم في حدود الإطار العام للخطة. كان الرسم التخطيطي للمساكن على النمط المستعمل في النوبة، كل دار لها مبان محاطة بأسوار عالية، يجعل جانباً واحداً منها للوصول إلى الغرف عبر أبواب منفصلة. وواحد منها بُني كنمط للنوبيين ليختبروه. ما كان مطلباً سوى تعديلات بسيطة ليكون مناسباً لحاجاتهم.

منطقة التهجير سُميت النوبة الجديدة وأعطيت كل ثلاثة وثلاثين قرية إسم القرية القديمة التي سيأتي منها شاغلوها، مع إضافة صفة "جديدة" إليها. وأنشئت القرى كذلك بنفس الترتيب كما كان الحال في النوبة، حتى تكون دابود الجديدة في الشمال الأقصى للهلال وفريج الجديدة في الجنوب



البعيد، بالضبط كما كانت فريج القديمة بالقرب من تخوم السودان.. بهذه الطريقة كانت العلاقات بين قرية وأخرى إضافة إلى تجمعات العائلات في القرى محفوظة. وفي بعض الأحيان كانت أقوى من ذلك بتلاصق كل قرية جديدة مع جيرانها.

شُيدت المنازل من حجر، دونما أى خشب بالسقوف حتى لا يخربها نمل الأرض وحشرات أخرى، وبذا صارت أصلب تحملاً من بنات اللين التي حلت محلها. تتكون من وحدات لغرفة واحدة إلى أربع غرف، كل واحدة في حصى دارها بنيت على الطراز النوبي، مواجهة للشمال لتلتقي النسيم البارد. ما كان ممكناً دائماً أن تجعل منازل الأقرباء في تلاصق حميم مع بعضها بعضاً لكن جهداً بذل لإجراء ذلك لأقصى حد ممكن. إقتلعت الحكومة أشجار النخيل وأعادت غرسها في الموقع الجديد كيما تحفظ بعض القيمة الإقتصادية من المساحة القديمة ولكيما تُضفى جواً من النضج على الجديد. لكنها كانت بالضرورة قرى المخططين، حيث كان أقصى إستعمال وأوفره قد تم بعناية فائقة منذ البداية للفضاء المتاح ذى الأهمية العظمى، والنتيجة النهائية ... تنظيم هندسي، ما كان رغم كل الجهود، يحمل تمثيلاً ظاهراً للنوبة.

كان المخططون، وقد بدأوا بصحراء عذراء قادرين على توفير خدمات لا تزال كثرة من القرى تفتقدها في مصر. وكاننا افتقدنا النوبيون كلية في وطنهم. زودت كل قرية بمدرسة أولية ووحدة للصحة العامة، وبيت ضيافتها، وسوقاً ومخبزاً، وميداناً للرياضة ومسجداً. أما الماء فمفسر بأنابيب للقرى ووصلتهم الطرق بالدروب الرئيسة. هنالك، زيادة على ذلك، خدمات إقليمية موجهة من الرئاسة الإدارية للنوبة الجديدة، المعروفة بمدينة ناصر، شاملة لأربعة مراكز ريفية متعددة من النوع المائل في أماكن أخرى بمصر (فيها تدريب زراعى وفنى، وإشراف صحى وخدمات ريفية أخرى موفرة تحت سقف واحد)، ومستشفى مركزية، ومدارس ثانوية ولتدريب المعلمين، ومراكز للشرطة. تعدت تكلفة تشييد النوبة الجديدة ١٣ مليوناً من الجنيهات المصرية بقليل ... (٩٩).

إشكال لم تضع حساباً له السلطات المصرية بشكل كافٍ كان تحطيم تجمعات القرابة الورثة في عملية التهجير. ننقل للمرة الثانية من فرنسا وكيندى:

كانت الجيرة في النوبة القديمة تتكون قسماً كبيراً من تجمعات طليعية للقرابة الوثيقة. في النوبة الجديدة تجاهل تخصيص المساكن الجماعات الإجتماعية والقرابية الكائنة وكان مؤسساً فحسب على حجم وحدة الأسرة المقيمة الواردة في تعداد ١٩٦١. شيدت أربعة أحجام من المساكن الجديدة، ولتسهيل التشييد، جمعت المساكن من نفس الحجم مع بعضها بعضاً. تجمعات العائلات حسب الحجم لم تسبب إنهاء الجيرة والقرى القديمة بين كل مقاطعة فحسب لكنه كذلك عزل معظم الأعضاء القدامى للمجتمع الأرامل أو الأزواج المسنين الذين أمتلك أبناؤهم مساكنهم الخاصة خصص لهم قسم المنازل الصغيرة للمجتمع الجديد. هكذا صعب دائماً لأقاربهم الصغار، الذين يعيشون في قسم المنازل الكبيرة، أن يقوموا بتقديم المساعدة المستحقة للكبار عُرفياً. لا يزال هذا سبباً للجار بالشكوى مع أنه، بالرغم من لوائح الحكومة التي تمنع بيع المنازل ونقل ملكيتها، أجريت الموازنات لإحضار الأقارب إلى بعضهم البعض في بعض الأماكن (١٠٠).

لا جرم، أن العام الأول في محيطهم الجديد كان عاماً شاقاً للنوبيين المصريين. لم تكمل كل التسهيلات الموعودة في القرى الجديدة عندما تحرك إليها أول السكان، وشريحة لا غير من الأرض التي حددت لإستعمال النوبيين هي التي وُضعت تحت الرى. التتمية الزراعية التامة لمقاطعة كوم أمبو كانت بالضرورة ملزمة بالإنتظار لإكمال السد العالي نفسه. في الوقت نفسه نفق عدد غفير من الحيوانات الأليفة التي استجلبت من المنطقة المغمورة لإنعدام العلف. تهجير النوبيين مصحوباً بتدفق ضخم للسكان الذين حضروا بناء السد العالي أثقل الإقتصاد المنتج لمصر الجنوبية وأدى إلى ارتفاع خاطف السرعة في الأسعار مما هدد بنفاذ مال التعويضات الذي دفع من قبل للنوبيين قبل أن يكون بإستطاعتهم النهوض على أقدامهم إقتصادياً. أخيراً، في الحالة المزاجية القلقة والغاضبة التي

شخصت الأشهر الأولى لتوطيئهم تنظم النوبيون من كل شئ تقريباً في بيئتهم الجديدة التي افتقرت من البيئة التي اعتادوا عليها<sup>(١١)</sup>.

بعد عام بدأ ان الصورة تتغير. وطُن النوبيون المصريون أنفسهم بطاقتهم الحيوية في إمتلائها المجهود ليحققوا أفضل ما يمكن إنجازه لحالتهم الجديدة، معيدين حينما كان ملانماً أحوال حياتهم الأنفة. واحد من هومهم الأولى كان تحويل مساكنهم الجديدة المنعطة على أساس إنتاج جمعى إلى شئ أوضح تعبيراً عن فرديتهم، على ما كان عليه البيت النوبى في الماضى تقليدياً. ونحو ما تمعن فرنيا وكندي:

وسط أظهر تحولات بادية للعيان مما حاكه النوبيون في مشروع التوطيئ الجديد [نسجل] ما وقع في مظهر المساكن جماعية الصنع وتركيبها بنفس القدر. قلما تكون في النوبة الجديدة جيرة بها بعض منازل لم تُغير بشكل جنزى من خلال وضع صحنون الصينى من فوق الأبواب، كما في النوبة القديمة، ودهن الخارج للطين لخلق واجهة يمكن أن ترسم فوقها رسوم نوبية تقليدية المصطبات المرتفعة، والمرتفعات الطينية في إنخفاض وقد كانت جارية على طول الجانب الأمامى لكل المساكن النوبية القديمة، أضيفت كذلك من أناس عديدين ممارسة تنكر، يضع رجل مقياساً عاماً وسرعان ما يحذو حذوه ملاك البيوت الأخرى على امتداد نفس الشارع.

إن تغييرات هيكلية داخلية أقل ملاحظة لكنها أعلى تكلفة صُممت لتفصل أحياء سكن الإنسان من الحيوان لتزيد المساحة المرسورة، وتنظم مساحة المعيشة بفعالية ومتعة أعظم. مهم بصورة متفرقة للنوبيين أن يوسع الفضاء لإراحة الضيوف<sup>(١٢)</sup>.

الحياة الإحتفالية الغنية للنوبة القديمة، بتأكيدا على الزيجات، والجناز، والموالد (الإحتفالات بيوم الولي)<sup>(١٣)</sup>، نقلت إلى داخل المستوطنات الجديدة، حيث تمخضت عنها إشكالات إجتماعية ومالية غير متوقعة. لننقل مرة إضافية من المصادر ذاتها:

في النوبة الجديدة، بمسافة لم تعد حاجزاً، زاد المألوف الثقافى لحضور إجتماعى - عريض زيادة واسعة من حجم المناسبات الإحتفالية إن الحدود الإجتماعية في نطاق المستوطنة لا تزال كذلك في عملية من التحديد، على أنه بسبب سهولة التنقل ووقت الفراغ الزائد، لم تعد المشاركة حتى من أشخاص يعيشون أميالاً من المناسبة أمراً غير عادى. لقد وضعت محاولة الوفاء بتطلبات الضيافة التقليدية مصحوبة بهذه الأنشطة حملاً مالياً يكاد أن يكون مستحيلاً على المضيفين، أضف إلى هذا أنها خلقت مشكلات لاحقة. إنه لشيء واحد أن تقدم الشاي لـ ٢٠ أو ٣٠ شخصاً لكنه شئ مختلف للغاية أن تقدم منعمشات لعنات الأشخاص<sup>(١٤)</sup>.

جرت إستجابة النوبيين لهذه المشكلة بتخفيض تعقيد الإحتفالات حجماً ودرجة، علاوة على عدد المناسبات الإحتفالية. هكذا أصبح من المقرر رسمياً أن إحتفال الموالد إلزام على مستوى المجتمع العريض بدلاً من أن يكون واحداً عادياً، بالإضافة إلى ذلك قيد عدد الموالد إلى واحد في العام لكل مجتمع<sup>(١٥)</sup>. هذا التطور الأخير جزء من نمط عام للتغيير الإجتماعى صارت فيه الإلتزامات التي تقوم على الإقامة تدريجياً صاحبة السبق على الإلتزامات المؤسسة على القرابة - ملصاً شائعاً ومتوقع الحدوث في عملية التحضر<sup>(١٦)</sup>.

تهجير النوبيين المصريين ولد إشكالات إجتماعية أخرى لم تعالج معالجة كاملة بعد. بالنسبة للرجال، ويقدر أكبر للنساء، تشمل الحياة في النوبة الجديدة زيادة غير منتظرة في وقت الفراغ، الذى لم يوجد له بعد مخرجاً هادفاً. ما عاد بها أى عدد من الحيوانات ورقع الحداثق لتحفظ فيها، والإمداد البسيط للماء المستهلك للمعيشة، الذى كان ذات مرة عملاً يومياً رتيباً بصفة رئيسة للنسوة النوبية، يتدبر الآن بعطف قفل لا غير. إن هذه الظروف هي التى قادت إلى الزيادة المذكورة سالفاً في حضور المناسبات الإحتفالية، ومثل ذلك زيادة في معاودة الشرب والسلوك غير اللائق وسط الرجال اليافعين<sup>(١٧)</sup>.

لقد كان توقع الحكومة المصرية أن النوبيين الذين أُعيد توطينهم سوف يتحولون في نهاية الأمر إلى مزارعين للسكر التجاري، مكرسين على الأقل ٤٠ في المائة من أرضهم لإنتاج قصب السكر للمصانع في كوم أمبو<sup>(٦٨)</sup>. رغم ذلك، فإن النوبيين ليس لهم تقليد في الفلاحة النقدية المكثفة، وقد أبانوا حتى هذا المدى ميلاً قليلاً لشغل الفتحة الإقتصادية التي خصصت لهم. قام العديدون منهم بتأجير أرضهم الجديدة على أساس مقاسمة المحصول لجيرانهم /الفلاحين المصريين واستأنفوا نمط العمل المهاجر للكسب الذي كان صفة دالة على أزمان قديمة.

عن المستقبل المحتمل للنوبيين المصريين، تكتب فرنيا وكيندي :

إذا كان النوبيون سيبقون بما يتعدى الإسم فإنهم يجب أن يسمدوا القيم والأعراف الأساسية التي تشكل أرضية ذلك الجزء من الثقافة النوبية الفريدة. هذه القيم والموروثات العمادية هي نتاج لحياة القرية، مهما كانت معدلة بمعدل عال بسبب تجارب المهاجرين الحضرية. بصفاء، ما عادت النوبة الجديدة مجموعة من القرى لكنها في تلاصق وثيق تشبه ضاحية كبيرة شبه حضرية في تجانس. فهل تستطيع قيم القرى أن تصمد تحت وطأة ظروف كهذه؟ يبدو ذلك غير محتمل. إلا أننا رأينا أن الخطوات الأولى قد اتخذت مسبقاً لإعداد دمج الإحتفالات والأنشطة الأخرى على أساس ترتيبات سكنية جديدة بدلاً عن وحدات القرية والقرابات القديمة. القيم الريفية التقليدية ربما أمكن الحفاظ عليها فقط إذا أضحت الجيرة الجديدة هي المعادلات الوظيفية للقرى القديمة. مع ذلك، فإن التشابهات المقارنة بين هذا الموقف وعمليات التحضر العامة تقودنا إلى افتراض أن القيم والعادات القديمة، لابد أن تنفس الطريق وأن نوعاً ما من الحل المتوافق سوف يبرز إلى الوجود<sup>(٦٩)</sup>.

### تهجير النوبيين في السودان

على خلاف مشروعات خزان أسوان السابقة، أصاب السد العالي السودان كما أصاب مصر. مائة ميل من الإقليم السوداني سوف تدمر في نهاية الشوط، بما في ذلك وادى حلفا المدينة الميناء، وعدد لا يحصى له من القرى الكبرى، جملة سكانها بعض من ٥٣,٠٠٠ إنسان<sup>(٧٠)</sup>. العدد الكلي للنوبيين الذين جُردت ممتلكاتهم بالسد العالي تصبح هكذا ما يزيد قليلاً على ١٠٠,٠٠٠ إنسان (٤٨,٠٠٠ بمصر و٥٣,٠٠٠ في السودان)، أو ما يقرب من نصف السكان الناطقين بالنوبية الباقين على قيد الحياة (قارن الفصل الثاني).

إن إقامة وطن للسودانيين، التي صارت مسؤولية لحكومة السودان، كانت عملاً أعقد وأشد صعوبة من التهجير في مصر. لم تُشاور السلطات السودانية في التخطيط المبكر للسد العالي، لذا كانت غير قادرة على مواجهة النوبيين بخطة مسبقة الإعداد لتوطينهم عندما أعلن التدمير المحتوم لديارهم. كان واضحاً، مع ذلك، أن فقر منطقة النيل الأوسط أعاق عملية التوطين إجمالاً في أي مكان في الضاحية المباشرة للنوبة القديمة، وأن حركة طويلة جداً ربما تتطلبها [صعوبة الحالة]. وعلى أي حال، فإن تجريد ٥٣,٠٠٠ إنسان من أملاكهم كان جريماً به أن يخلف معقبات إجتماعية وسياسية خطيرة في قطر كانوا فيه خلال فترة ممتدة من القرن العشرين قوة سياسية خصبه. كانت مسألة التهجير النوبى موضوعاً سياسياً ساخناً في الستينيات المبكرة من عام ١٩٦٠، وواحد أعان في آخر المسألة على قلب النظام العسكري للجنرال عبود (أنظر "السودان منذ الإستقلال" بأعلاه)<sup>(٧١)</sup>.

ما كان المراد من السد العالي في أسوان أن ينقل أي منفعة مباشرة للسودان، ولبعض السنين كان بناؤه معارضة في نجاح من حكومة السودان<sup>(٧٢)</sup>. وفي ١٩٥٨، مع ذلك، وصل نظام الفريق عبود إلى إتفاقية مع مصر صدقت بتشديد السد العالي مقابل تعويض مقداره ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، والأقيم أهمية، تحرير مخصصات لماء الرى بين القطرين. منذ ١٩٢٩ كانت مصر مستحقة بمقتضى إتفاق واحد وعشرين مرة ما يأخذه السودان من مياه النيل<sup>(٧٣)</sup> : في ظل إتفاقية ١٩٥٨ زيدت الحصة

السودانية إلى ربع واحد<sup>(٧٤)</sup>. هذا المد الجديد وعد عياناً بياناً بنفع عظيم على المدى البعيد للسودانيين، مع أنه ليس عائداً للنوبيين بالتحديد. فهم، مثل قرابتهم المصرية، مالوا للإحساس بأن مصالحهم قد ضُحِي بها، دون رضائهم من أجل آخرين.

توم ليتل في بلاغة شخْص الصعوبات التي اكتنفت [تهجير] النوبيين السودانيين وتوطيتهم:

السودانيون سوف لا يقبلون حتمية مصيرهم، يعتقدون في عناد أنه حتى وقت متأخر سوف لا يُبْنَى الخزان أو إنه بمعجزة ما سوف يُنْقَذون في لحظة ما. "ماذا يجري الآن، يا محمد؟" - "الجميع مع الله"، ومحمد يهر كَتَفِيَة ويشير إلى التل الرملي في الورا ليقتراح أنه سوف يُسَلَق وَيُنَى. "ولكن ذلك التل سوف يكون تحت الماء، يا محمد!" - "الله رحيم". في الحقيقة، لا يؤمن محمد أن مدينته سوف تترك لتزوى تحت مياه نيله وكان منساقاً لأن يردد مع حلفاويين كثر، إلى متأخر حتى ١٩٦٢، إنه فيضان أو بلا فيضان، سوف يبقى إلى جانب النهر.

هؤلاء الحلفاويين الذين واجهوا وإقنعت الموقف كان يتم التعرف عليهم في سهولة بسبب غضبهم، ولما كان هذا الغضب سوف يتضاعف في صفاء كلما كانت الحقيقة تدرج رويداً رويداً، سعت حكومة السودان لتهدئ من ثائرة الرأي [العام] مُقَدِّماً بتشكيل لجنة لتحديد أين سيقام توطيت النوبيين وأعدة بانهم سوف لا يُقَسَّرون على الذهاب لأي مكان معاكس لرغبتهم. كان هذا خطأ، لأن كل واحد علم أنهم سوف يختارون التحرك لاقصر طريق على النيل ما أمكن ذلك، مما عني، بالنسبة للمواقع ذات القابلية، إقامة للتوطين بالقرب من الخرطوم.

كانت للحكومة أنفاً خطط لتبني خزاناً على نهر العطبرا، ٨٠٠ ميلاً جنوب حلفا، في مكان يسمى خشم القرية، ومن وجهة نظر الحكومة كان هذا ساحة طيبة لإستصلاح الأرض حول الخزان بفلاحين متعربين. مقصرة بسبب منحهم موقعاً بعيداً عن أي نهر، كانت خشم القرية مكاناً أقل ما يكون إجمالاً أن يختاره النوبيون لأنفسهم، لأنها لم تكن بعيدة المسافة وحسب عن أقاربهم الذين كانوا في مدن السودان ومصر [قارن الشكل رقم ٨٧] ولكنها كانت مختلفة إلى أي درجة ممكنة عن ديارهم. العطبرا نهر موسمي، جاف لجزء من العام، ثم إنه عاصف بماء فيضان جارف نحو النيل، ومنطقة خشم القرية تجتاحها أمطار مدارية عنيفة. لقد كانوا معتادين على عواصف تهب على النيل وعلى رياح قوية، بيد أنه مقارنة بالفراغ الموحش لأراضي العطبرا ذات الشجيرات المتناثرة بدت حلفا جنة. رغم هذه الاعتراضات، قررت الحكومة أنهم سوف يستقروا في خشم القرية<sup>(٧٥)</sup>.

الهب القرار بشأن خشم القرية إستياء النوبيين من حكومتهم لمدى أبعد، وأدى لوقت ما إلى إضطرابات سياسية في وادي حلفا والخرطوم<sup>(٧٦)</sup>. إن هذه الإضطرابات سرعان ما سكنت، لكنها تلتها أشكال أشد عناداً من المقاومة السالبة التي تواصلت لعدة سنوات. كما رقب ليتل، رفض عديد من النوبيين ببساطة أن يقبلوا حتمية تجريدهم من أملاكهم. ويتفكير متوالٍ حافل بالأمانى تصوروا أن المصريين، ولو بعون الروس، سوف لا يمكنهم أبداً أن يكملوا مشروعاً طموحاً بهذا القدر مثل السد العالي؛ الماء المحجوز سوف يسرع بالتسرب خارجاً من خلال التربة النوبية ذات المسام الرملية الحجرية؛ معدل التبخر العالي سوف يمنع تراكم مخزون ضخم؛ أو على صعيد واحد، ببعض معنويات أقوى تخيلاً، الإسرائيليون سوف يحضرون ويفجرون الخزان حالة إكتماله<sup>(٧٧)</sup>.

في هذه الأثناء كان هؤلاء النوبيون الذين واجهوا المستقبل بواقعية أكثر منقسمين بحدة في تقديرهم له. في وجه من الوجوه أوقفت الحكومة بوعدها، ما من نوبي سيحاذي توطيته، رغماً عن أنفه: وكل واحد يختار بدلاً لتهجيرهم في خشم القرية، له أن يقبل تعويضاً نقدياً عن [إغراق] داره وأرضه وما حوت. ثم يصير حراً في أن يعيد توطنه، على نفقته الخاصة، حيثما يرغب؛ حتى لو أراد أن يمكث بين النوبة وأن يأخذ فرصة على طول الشواطئ الجرداء للبحيرة الجديدة إذا كان إلى ذلك مائلاً. نتيجة لهذه الخيرة إنبعث إنقسام حاد بين "المحالفين"، الذين رأوا أفضل أمل لهم في السير خُطًى واحدة مع خطة الحكومة للتهجير، و "المعترفين - المتشددين" الذين كانوا حريصين على مقارعة الحكومة والبقاء في النوبة مما كان الثمن. في لحظات قليلة قبلت قرى بأكملها التوطين؛ في أغلب



الحالات إنفجر إنقسام حاد وفي بعض الأحيان إنقسام مرير ما بين "المتحالفين" و "المتطرفين" - المتشددين" بين ظهراني نفس القرية. مركزان معنيان بدقة لمعارضة التهجير كانا قرى أرقين الكبيرة على الضفة الغربية ودغيم على الشرق<sup>(٧٨)</sup>. أحس "المتطرفون" - المتشددون" أنه إذا قدم النوبيون جبهة متحدة في مواجهة الحكومة فربما أمكنهم بذلك إجبارها على جب القرار الخاص بخشم القرية؛ لذا فقد مالوا لإعتبار "المتحالفين" خونة للقضية النوبية. إن الصدوع التي أحدثت في مجتمع النوبيين ذاك الوقت لم تلتئم تماماً ولو من بعد.

في عام ١٩٦٤ تظاهرت مياه النيل المحتجزة لأول مرة إلى داخل الاقليم السوداني، وما صار ممكناً تجاهل حتمية التهجير غادر أول قطار وادي حلفا في رحلة الـ ٨٠٠ ميل إلى خشم القرية في يناير من ذلك العام، حاملاً كمسافرين ١.١٧٥ مقيماً من قرية التخوم فرس<sup>(٧٩)</sup>. طوال العامين التاليين تابعت القطارات تدحرجها، أحياناً بما يصل إلى ثلاث مرات في الأسبوع<sup>(٨٠)</sup>، حتى نضبت المنطقة إلى الشمال من الشلال الثاني من الجميع عدا "المتطرفين" - المتشددين. تباطأت خطى التهجير بشكل معتبر بعد ١٩٦٦، جزئياً بسبب إرتفاع مياه النيل نفسها بسرعة أقل وجزءاً آخر مرده إلى عدد السكان الصغير الذي كان سينقل من بطن المجر، على أنه بمجيء عام ١٩٧١ ما كانت سوى بضعة قرى بالقرب من مدخل الخزان مأهولة لا تزال على التمام.

رغمًا عن أن حركة قطارات التهجير أصبحت حدثاً مألوفاً في وادي حلفا، لم تتوقف أبدأ المناجات الدامعة والتوبيعات الأخيرة التي صاحبت الرحيل من أن تكون منظراً مؤثراً. إن عمق إحساس النوبيين تجاه وطنهم الخالد عبّر عنه شاعر مجهول، قبل أن يغادر خشم القرية، رُئي جدران داره المهجورة بهذه المناحة:

مفارقاً أرض أبائي - ولنسماها عاشق،

روائح للدار عبقاً من حدائق.

غادرتها والدعم ملء العين دافق؛

هجرت قلبي وما عندي واحداً غيره.

ما يبارأتني أنا تخليت عنه،

قضاء القدر؛

فما أتعسه مصيري.

وداعاً<sup>(٨١)</sup>.

تصميم مشروع خشم القرية له تمثيلات سطحية عديدة "للنوبة الجديدة"، موطن النوبيين الذي أعيد موقعه في مصر، وربما استلهم في جزء منه. المساحة الكلية التي خصصت لإستعمال النوبيين تغطي حوالي ١٨٠.٠٠٠ فدانا. في مركزها مدينة سوقاً ومركز إداري يسمى وادي حلفا الجديدة، بينما على مسافات مختلفة منه القرى المنصوبة من جديد، كل واحدة تحمل إسمها الأصلي مع إضافة "الجديدة"، وتحمل بالتقريب نفس العلاقة الجغرافية لوادي حلفا كما النوبة القديمة. هذه القرى الجديدة، مثل مصر، هي قرى المخططين مكونة من كتل مترابطة على سواء من مساكن مصنعة قطعاً بالإسمنت المصبوب (قارن الصورة ٢٤ - ب)<sup>(٨٢)</sup>. وسعة كل قرية وفق رسمها البنائي حوالي ٢٥٠ عائلة<sup>(٨٣)</sup>.

رد الفعل الإبتدائي للنوبيين السودانيين لمساكنهم الجديدة كان قريب الشبه جداً من أقربائهم

في مصر :

أول منظر لمنطقة التوطين كان مواتاً غير مضياف للحفاويين، وهم الذين اعتادوا حدائق النخيل الخضراء

الغنية والضفاف الصخرية، وجزر النيل الصغيرة والتلال الرملية تندرج قافلة عليهم عالمهم الخاص وقراهم التي تخرج من بعضها، كأنما انشقت عنها الأرض. تركهم منظر اليابسة المسطحة في انبساطها بلا حماية والقري المستطيلة النظامية، بشوارع مستقيمة، وبرج الماء والمرح المركزي، إفتقدت التمرج الحى الذى اعتادوا عليه كانت قرية قديمة لخشم القرية مربية بسكانها الأصليين، لكن منطقة توطين [النوبيين] كانت غير مأهولة، ومثل مقاطعة سكنية جديدة شاسعة حيث لم يجد شئ وقتاً لينمو، كانت غير إنسانية كثيفة المنظر (٨٤).

فى خشم القرية، كما فى "النوبة الجديدة"، تُوقع أن النوبيين يصيرون مزارعين تجاريين. خصص لكل عائلة ١٥ فداناً لتزرع عليه قمحاً، وقطناً، وفولاً سودانياً في دورة سنوية، وكرست ٥ أفدنة لكل محصول مدة أى سنة معينة (٨٥) مع ذلك خلال السنة الأولى بعد إقامة التوطين أبدى النوبيون اهتماماً حقيقياً بزراعة القمح وحده إذ أنهم عاملوه ليس كحصول نقدي إنما كحصول معيشى (٨٦). نصف المساحة المقصودة لا أكثر زُرعت قطناً، وترك العمل المضنى لرعايته ولقبطه بقدر كبير للعرب المحليين ومهاجرين عمالاً من غرب السودان. القُشر لا غير من المساحة المحددة زرع بمحصول الفول السوداني غير المألوف (٨٧). في سنوات تالية كانت هناك بعض الزيادة في حجم الزراعة وانتظامها؛ خلا أنه نشأ ميل متنامي بنفس القدر لدى النوبيين لتأجير أراضيهم الزراعية لمقاسمي المحصول المحليين، يلوون من ثم على أعقابهم في بحث عن العمل بالأجر في الخرطوم وغيرها. ليس من يقين في السودان يزيد عما في مصر أن النوبيين الذين أقيم استيطانهم سوف يقتنعون بقبول الفتحة الاقتصادية التي عينت لهم.

إلى الآن ما درس عالم الأصول الإنسانية تكيف النوبيين السودانيين مع محيطاتهم الجديدة. يبدو مما يمكن التنبؤ به أن بعض التكيفات المادية - في تعديل المساكن على وجه الدقة - الذى رُصد في "النوبة الجديدة" سوف يعاد في خشم القرية (٨٨). من الناحية الأخرى لم تشمل عملية تهجير النوبيين السودانيين (\*) زيادة مواكبة لها في التحضر، كما في مصر. يضاف إلى ذلك، أن النوبيين في خشم القرية يبدون أنفسهم الآن في خضم أقوام أشد منهم بدائية وحياة تقليدية بدرجة مؤكدة بدلاً من أن يكون الحال أخف من ذلك (٨٩). لهذه الأسباب يبدو جائزاً أن التكيفات الاجتماعية والإحتفالية التي احتلت مكاناً وسط النوبيين المصريين سوف لا تكرر في السودان (٩٠).

النوبيون السودانيون، خلاف أبناء عمومته المصريين، لم يشاهدوا بالضرورة البقية الباقية من أرض أجدادهم. صوب إتجاه النهر جنوباً من دال يواصل المحس شغل قراهم الأصلية، كما يفعل كل الدنفلاويين إلى جنوبهم. بل إن منطقة الخزان ليست مهجورة على إطلاقها، لأن تواصل التجارة على طول النيل حيوى للمصالح التجارية في كل من مصر والسودان، وكمحصلة فإن الميناء والسكة الحديدية في وادى حلفا أعيد بناءهما أنفاً على طول شواطئ الخزان الجديد. بدءاً بعام ١٩٧٠ كان المكان مدينة تلملم أكوأخا في حركة دائبة تموج بما يتخطى ٢٠.٠٠٠ مقيم عدداً، يعملون جزئياً في تشييد ميناء جديد ومنشآت حكومية وجزئياً في تسيير حوانيت صغيرة متنوعة، وخدمات للنقل، وفندق يحشر نفسه حشراً بلا إعداد مسبق. أناس كثيرون، أيضاً، ينتظرون ببساطة إحياء التبادل السلعى (بما في ذلك التجارة الممنوعة) مع مصر - مصدراً رئيساً للحياة المعيشية للطفلاويين زمنياً طويلاً "المتطرفون - المتشددون" الذين رفضوا التهجير لخشم القرية أقاموا قرى جديدة بأكملها في أطراف ميناء المدينة الذى استتب نواره، ويوجد إضافة لتلك عدد وفير من العائدين الذين قاموا بتأجير أرضهم الزراعية المخصصة لهم في خشم القرية لنوبيين آخرين أو لعرب، وعادوا إلى موطنهم. حتى هذا البعد إستقام إختلاط إجتماعى قليل بين "المتطرفين - المتشددين" والعائدين؛ والظاهر أن عداوات فترة التهجير وإقامة التوطين سوف لا تُنسى سريعاً.

نتيجة ما كان منها مناص للسد العالى والمشروع المخطط لإقامة التوطين تهجيراً هى إحياء

(\*) أو ما تبتعث من توطين، وفقاً لدراسات متواصلة ومعارضة شعبية لم تتوقف من ناحية النوبيين أنفسهم - المترجم.

الإنفصالية النوبية<sup>(٩١)</sup>، ربما على دائرة أوسع مما كان كائناً منذ نهاية الفترة المسيحية. ذكر جيسر أنه حتى النوبيون الذين هاجروا من قبل جيلاً أو جيلين انغافاً يصرون الآن لولا الخزان، لما ترك رجل قريته<sup>(٩٢)</sup>. أضحى خزان أسوان، رمزياً، سوء الحظ الجماعي للأمة النوبية، الذكرى التي ربما تعين على توحيدهم في المستقبل مثل ذكرى سوء الطالع التي وَحَدَت اليهود بالمثل، والأرمن وأقليات مسلوية أخرى. يحس النوبيون في كل من السودان ومصر بأنفسهم مختانة من حكوماتهم الوطنية، فتنصلوا بدرجة بالغة في كل من القطرين من القضايا الوطنية. كان النوبيون المصريون يأملون علناً، إن لم يكن بخيال سقيم، في دعم إسرائيل في حين تخلى النوبيون في السودان بقسط وافر عن عواطفهم السياسية الموالية للمصريين زمناً مضى، وتحدثوا برغبة لا تتحقق عن عودة الوضع الإستعماري. هذه العواطف يحتمل أن تُنكس على الأقل في الوقت الراهن عملية التمثيل الثقافي التي ظلت سارية منذ نهاية العصور الوسطى.

بمعنى أعرض، وبأى صورة كانت، لا يستطيع واحد أن يقول ما إذا كان النوبيون سوف يفلحون في صون هوية عرقية وإغوية إنفصالية تحت الظروف المتغيرة للقرن العشرين. أخذاً للأثر المحقق للتوازن بشأن الإتصال الجماهيري والحضارة الفنية الغربية، ربما يبدو خمودهم النهائي كاقوام منفصلة حتماً - على الأقل للمراقبين الغربيين. إن "الضميات" التاريخية، رغماً عن هذا، قابلة لأن تكون مضلة للفكر. إنني أرتاب أنه إبان زمنهم كان إتباع الحضارة الفرعونية، والمسيحية، والإسلام مما يعدونه أمراً محتوماً. ويقدر متكافئ سوف يزعم النوبيون تماماً ونهائياً لأيدولوجيات عالمهم. بطريقة ما، ولوقت ما، كانوا على حق إلا أن انتصاراتهم لم تعن خمود شعب نوبى منفصل ومدرَك لذاته.

إن ثقافة القرن العشرين الكاسحة يمكن أن تغلح حيثما أخفقت أيدولوجيات سالفة، لكن هذه نتيجة ما أنجز بلوغها بَعْدُ. ولئن كان واجباً على النوبيين أن يستكينوا في النهاية، بشكل أو آخر، فإن راوى هذه الصفحات يُؤمل بإرتجاع في أن ماضي إنجازاتهم، بكل ما به من إعتبار، سوف لا يُنسَى من خليفاتهم وورثتهم.



## الفصل العشرين

### دروس النبوة<sup>(١)</sup>

لقد تعلمت، في معرض كتابة هذا المؤلف، درساً يحتمل أن يكون مألوفاً لأغلب الزملاء: إن أفضل طريق لدراسة التاريخ هو أن نكتبه. بدأت هذا العمل قبل ثلاث سنوات مضت بالتزام مقعم إنني فهمت التاريخ النبوي وعرفت ما أريد أن أقوله عنه؛ أجد الآن أنني قلت وفكرت في أشياء جمة لم تدخل رأسي أبداً عندما جلست أولاً لأكتب. ناظرًا للوراء، يبدو كأنما ثلاثة أعوام من التفكير والكتابة وسعت من مداركي على الأقل بقدر ما فعلت بي عشر سنوات كانت سابقة لها من التنقيب الشاق. جزءاً من هذا أعزوه إلى ملاقاتي لمصادر جديدة وغير مألوفة مسبقاً، وجزءاً آخر بسبب إعادة التفكير بوعي في أفكار قديمة، وجزءاً للإستحياءات غير المنتظرة التي تظهر مصاحبة دائماً لمحاولة وصل أفكار الآخرين.

يصعب أن تكون تجربتي واحدة فريدة؛ إنني لاحظ أن كتاباً عديدين للتواريخ الشمولية قد ختموا بفصل - إن لم يكن كتاباً كاملاً - لأفكار بعديّة تعبر أوضح من أي شيء آخر الحكمة المتراكمة في عملية الكتابة نفسها. مثلاًن متميزان يحضران على الفور ذهني هما مؤلف جراهام كلارك جوانب ما قبل التاريخ<sup>(٢)</sup>، وهو فيما يقول نتاج لكشف لاحق لكتابه عالم ما قبل التاريخ: فاصل عام<sup>(٣)</sup>، ومؤلف ويل وأريل ديورانت دروس التاريخ<sup>(٤)</sup>، وهو المقدمة ل قصة الحضارة، مجلداتهما العشر الصروحية. كل من هذه مجلدات كاملة من الأفكار البعيدة. فإن كانت دروس النبوة لا تبرر معالجة ممتدة للغاية كهذه، فإنها على الأقل تستحق، فيما أوّمن به، فصلاً نهائياً في هذا الكتاب.

ما يأتي بعد هذا وثيقة شخصية أولاً وقبل كل شيء، إذ أن التاريخ، فيما أدركه، يقع في عين المراقب إلى حد كبير. من الصعب أن أمل أن أي قارئين سوف يتأملان الحقائق التي قدمتها ويأخذان منها نفس النتائج التي خلصت إليها. بيد أنني لم أكن لأكتب الكتاب إذا لم أكن قد اعتقدت أن بعض الدروس التي وانتني بها النبوة هي على الأقل دروس ملائمة لهم بالمثل. يصدق هذا على سبيل الدقة في حالة زملائي دارسي ثقافات أصول الإنسان الثقافية<sup>(٥)</sup>، الذين يخاطبهم هذا الفصل بصفة أساسية. إنني أحس بمستوى كافر طبعياً أنه أياً ما كان منطقياً لائق الدلالة بالنسبة لي فهو على الأقل بالنسبة لهم كذلك. وبإمكانني أن اتحدث في ثقة أقل حول ما يجب أن يتعلمه علماء آخرون من دراسة التاريخ النبوي. وربما يمكن لعلماء التاريخ والمصريّات أن يجدوا بعضاً من دروسي قبيحة قديمة [لا جدة فيها لهم، ولسوف يبتسمون من الفكرة المائلة في أن علماء الأصول الإنسانية بدأوا أخيراً بالإعتراف ببعض الحقائق التاريخية التي كانوا [هم] على علم بها رداً طويلاً. إنني أمل بفرض النظر عن ذلك أن يجدوا جميعاً، إضافة إلى العامة ذوي الإهتمام، بعض ما يغذي للتفكير في مناقشة هذه الصفحات الختامية.

(١) أي الأشرير ياروجيين للشافيين - المترجم.

## تشوهات نظرية الهجرة

أول درس تعلمته في النوبة، وقد دفعني دفعاً متقدماً لأكتب هذا الكتاب، أن نظرية الهجرة لم تعد كافية كتفسير عام للتغيرات التي دارت في مسرح التاريخ النوبي بأكثر مما هي كافية لتاريخ معظم أجزاء العالم الأخرى. إنني أشير في نظرية الهجرة إلى تلك المدرسة من الشرح التاريخي التي تنسب بثبات حدوث تغيرات ثقافية واجتماعية كبرى، تقدمية كانت أم رجعية، إلى مجئ أقوام جديدة. مثل هذا الرأي بشأن التاريخ اعتقد أنه إرث لماضينا ما قبل العلمي وربما بقدر متساوٍ ماضينا القبلي. إنه يحتوي في كل الأحداث وجهة نظر بدائية مغلوطة عن العالم، فيها علاقة ثابتة غير متحركة بين الناس وثقافتهم. بذا، يمكن للتغيير الثقافي المتعمق أن يأتى عندما يحل قوم محل آخرين وحسب.

تجاوز المجادلة في أن نظرية الهجرة لم تتظاهر أبداً بوعى كتنظيرة عامة للشرح الخارجى. إلا أنها كانت لاتفق بوضوح صاف مع الرؤية العرقية في أواخر القرن التاسع عشر والقاتلة بأن نظرية الهجرة باتت واحدة من مرتكزات علماء الآثار ومؤرخى ما قبل التاريخ الأوائل غير المسلم بها، وأن إرثها ما انفك باقياً معنا ننظر حيث نشاء. لأمريكا الجنوبية، لأمريكا الوسطى، للجنوب الغربى الأمريكى، للصين، للهند، لبلاد ما بين النهرين، لمصر، أو لأوروبا. نجد أن تغيرات ثقافية مفاجئة وفيما تبدو عليه خاطفة أرجع حدوثها في اللحظة الأولى إلى هجرات أو غزوات. وفي مساحات مثل الصين، والهند وبلاد بحر إيجة تدعم نظرية الجماعات السكانية المتعاقبة؛ إنه افتراض يدمى لعالم الآثار أو المؤرخ في ميادين كثيرة، مع ذلك. سوى أنه مع توفر المعرفة بدقة وتفصيل، عادة ما نجد أن التوصلات الثقافية بين فترات متعاقبة في التاريخ تبدأ في العلو من فوق الإنقطاع، حتى إنه في النهاية تؤيد فرضية قابلة للإختبار العلمى عن الهجرة أو الغزو، مشكلات تتخطى ما تعالج. طوال القرن العشرين ظلنا نراجع بالتدريج عن نظريات الهجرة في أجزاء كثيرة من العالم، وإننى لاقترح أنه حان الوقت فلفظنا بذلك في النوبة سواءاً بسواء<sup>(٥)</sup>.

إن رايزنر العظيم، الذى ربما سيبقى مشروع تسلسله الزمنى للتاريخ النوبى ماثلاً لكل الزمن (قارن الفصل الثالث)، كان كذلك الرجل المسؤول لحد بعيد عن تقديم نظرية الهجرة كواحدة من مرتكزاته المركزية. وعندما اكتشف لأول مرة بقايا الإقامات المتعاقبة التي كان قد أعطاها توصيفات "المجموعة الأولى" و "المجموعة الثانية" و "المجموعة الثالثة"، وهلم جرا، عرفها بشكل ألى كاقوام مختلفة<sup>(٦)</sup>. ليس على أساس أى معايير موضوعية، لكن بسبب أنه لم يحدث له أبداً أن يحلل الفوارق الثقافية بنى تعابير أخرى. هكذا على استعداد، ما وجد رفيقاه التشريحان إليوت سميث ودوقلاس دبرى أى صعوبة في إكتشاف الاختلافات السلالية بين الهياكل البشرية للجماعات النوبية المتنوعة<sup>(٧)</sup>، وبدا أن نظرية الجماعات السكانية المتعاقبة تجد تاييداً مستقلاً. لقد بقيت معنا منذ ذلك الوقت، وهى تُردد بوقار في الكتب الصادرة عن التاريخ النوبى متحدرة نحو مؤلف امرى مصر في النوبة<sup>(٨)</sup>، وشاملة له، وهو واحد من أواخرهم ومن أجودهم.

رغمًا عن شعبيتها المتواصلة، وجُدت نظرية الهجرة بما لا يمكن الإرتكان عليه كشرح عام لحقائق تاريخ النوبة الثقافية. هنا، كما هو مؤكد على قدم المساواة في أنحاء أخرى من العالم، مأل تراكم يئمة جوهريه بصفة عامة الفجوة في السجل التاريخي شيئاً فشيئاً، وقد أرفدنا إنطباعاً كلياً بالتواصلات الثقافية من عصر لآخر وهى لدرجة عالية تزيد على الإنقطاعات التى تقع من فترة لأخرى. إن التغيرات التى فُكر ذات مرة أنها مفاجئة خاطفة وثورية بنفس القدر في طبيعتها يمكن أن ترى الآن كتطورات تدريجية وطبيعية، وإحتمال أجل أنها محصلة لانتشار ثقافى أو إرتقاء تطورى محلى أقوى من أى حركة عظيمة لجماعات سكانية. إضافةً لذلك فإن إعادة الإختبار لمجموعات ميكانيكية بشرية نوبية باكرة، إلى جانب مادة جديدة بكمية وفيرة، قد أبان أن الاختلافات العرقية المفترضة بين سكان نوبيين متعاقبين أسطورية غالباً<sup>(٩)</sup>.

ما عاد هنالك، اليوم، أى سبب مقنع للإعتقاد بأن النوبيين الحديثين كانوا أناساً مختلفين عن نوبيي القدم أو أى فترة متداخلة بينهما. على النقيض من ذلك، إننى أرى أن كل شئ يشير إلى أنهم نفس الناس. إن كون أعدادهم تضاخت بالهجرة الداخلية، قتالاً كانت أم سلماً، من الشمال ومن الجنوب، لمما هو مسلم به؛ أما أن الغرياء قاموا من مناسبة لأخرى وأحياناً جذرياً بخلطة العمليات المنتظمة للتطور الإجتماعى والثقافى، فأمراً ظاهراً بالمثل. غير أن خيوط التواصل الثقافى من عصر لآخر مأكنة هناك ليراهما الجميع. إنها تتيح سداة النسيج القائم من تحت الأساس لبُسطا من التاريخ النوبى يمتد من أزمان ما قبل التاريخ إلى الحاضر.

### إتتمائية نموذج تطورى

يحضرنى هذا لدرسى الثانى الرئيس، وهو أن فواصل الخطوط الأساسية للتاريخ النوبى تُفهم على أفضل وجه في محتوى إرتقاء تطورى ثقافى. وبينما توجد تحريفات محلية في نسبة مرتفعة، فإن المراحل المعقدة التى أقرنا بها للتطور الثقافى لما قبل التاريخ والتطور التاريخى في كافة أرجاء العالم القديم أعيد إخراجها بإخلاص في النيل الأوسط. إن صناعات حجرية غير متخصصة في العصر الحجري القديم الأسفل وعصره الأوسط تفسح الطريق تدريجياً لصناعات ذات تخصص، متكيفة محلياً في العصر الحجري القديم الأعلى، أدوات ومساحن للطعام مصغرة تظهر في نهاية العصر الحجري، وأخيراً (فى النوبة بعد فوات الأوان بمرحلة) يجرى ظهور إنتاج الغذاء، والحياة الجلوسية، والفخار. في هذه الأثناء تتنامى حضارة العصر المعدنى في مصر حوالى ٢٢٠٠ قبل الميلاد، وسرعان ما يسقط ظلها على المسرح النوبى مدة الـ ١.٥٠٠ عاماً التالية تقدم توليفة ماثورة من الإحتواء السياسى، والإقتصادى، والأيدولوجى، منتهية بضم النوبة كمستعمرة مصرية في ١٥٨٠ قبل الميلاد.

إن عملية إرتقاء التطور الثقافى لا تقف بإنشاء حضارة العصر البرونزى، مع أن الواحد يجوز أن يفكر في يسر على هذا النحو من قراءة المراجع الأولية لعلم الأصول الإنسانية. مثل هذه الكتب تحكى دائماً قصة الإنسان في تفصيل عظيم من العصر الحجري القديم الأسفل حتى خروج الحضارات الأولى، ثم تنسحب كلية من فوق الـ ٥.٠٠٠ سنة الأخيرة كأنها تقول لقد عشنا في سعادة مذاك. في مراجعتى للتاريخ النوبى، مع ذلك لاحظت أنفاً أن توجيهات معرفية كبرى شغلت مكاناً مُستعاداً بعد نهوض الحضارة. بصورة أبدى ملاحظة بين فترات حكم الأسرات والعصور الوسطى. هذه بدورها اعتقد أنها جزء من مجرى الإرتقاء التطورى الذى لا يمكن عكس مجراه. وسوف اعود إلى هذه النقطة فيما بعد، عند مناقشة أهمية الأيدولوجيا.

### محددات النظرية الحتمية

إذا كان النمط الكلى للتاريخ النوبى، كما اعتقد، أفضل ما يدرك من زاوية رؤية إرتقائية، فإنه لما يصدق كيفما مضى الحال أننى لا أستطيع أن أجد تأكيداً لأى وجهة نظر مُضيقاً لحتمية الإرتقاء التطورى. فليس التحدى والإستجابة لتوينبى<sup>(١٠)</sup>، ولا فرضية الرى من ويتفوقل<sup>(١١)</sup>، أو نظرية الطاقة ليلسلى هوابت<sup>(١٢)</sup>، أو حتمية تقنية البيئة الجارية هذه الأيام لعلماء بيئة الإنسان الثقافية<sup>(١٣)</sup>، يبدو أنها توفر تفسيراً يقرب من الكفاية لنشأة حضارة النوبة وتطورها اللاحق.

إعتراضاتى على نظريات الحتميين بشأن إرتقاء التطور من نوعين. الأول، إننى أرى تطورات

(\*) أى علماء الإيكولوجى الأثريولوجيين - المترجم.

إرتقائية متعددة في المحيط المعرفي تظهر لى عالمية ، لا تنعكس للوراء، كما الدفعات المتقدمة في التقنية والثقافة المادية، إلا أنني غير قادر على إرجاعها إلى أى سببية خارجية. إننى أستطيع فقط أن أعلمها بالنسبة لعملية ما غير متبدلة من النضج الفكري، مثل الذى كان يستبصر منذ وقت طويل من لدن بعض التطورين الأوائل من علماء الأصول الإنسانية<sup>(١٤)</sup>. لسوف أعود إلى هذه النقطة لاحقاً. ثانياً، لقد وجدت أن مفهوم البيئة، كعامل محدد للمصير في التاريخ الإنسانى، يصعب إجراؤه عملياً في حالات محددة نحو ما يعاني منه مفهوم الثقافة. في كل من الحالتين كان علماء الأصول الإنسانية قابلين لعزل قطاعات صغيرة من الواقع للتحليل مع أنها ليست ذات معنى كانساق.

كيف يمكننا أن نعرف البيئة التي حددت المصير الثقافى والإقتصادى للنوبيين. في البداية ما كانت أزيء من صحراء قاحلة لا تهطل عليها الأمطار يقطعها شريط ضيق من الإخضرار، قادر على دعم بضعة مئات من الناس على تركيب ملائم من إنتاج الغذاء وجمع الطعام. لكن من اللحظة التي سلت فيها أول فروع مصرى نظرة شيقة للإملاك في إتجاه الجنوب، ميكراً في الدولة القديمة، جاءت البيئة النوبية أيضاً لتشمل السكان والدولة المصريين. توسعت البيئة المتحركة في مصير النوبيين بالإتعداد الداخلى المتدرج للحضارات القديمة، حتى أنها بمضى الوقت إحتوت كل عالم البحر الأبيض المتوسط . بل إنه من قبل تسليم الشعوب الجنوبية لذاتيها السياسية، إنداح الطلب على الذهب، والعبيد والعاج في أماكن نائية ليحز أثراً أبلغ على الخطوط الإقتصادية والإجتماعية للنوبيين بأعلى مما كان للإرتفاع السنوى لنهر النيل أو نزوله.

في وقت كانه فجر التاريخ، في كلمات أخرى، توقف النوبيون عن الإلتناء إلى تلك التشكيلة من الأقوام المستقلة بذاتها إجتماعياً وإقتصادياً الذين ندعوهم "قبليين" والذين لهم وحدهم تصح تماماً نظرياتها عن بيئة الإنسان الطبيعية. إلا أن النوبيين لم يصبحوا على الأقل بعد ١٥٠٠ عاماً أخرى، حضاريين بأصالة. وفي الفترة القصيرة التي أعقبت ذلك أصبحوا أعضاء لتلك الطبقة من الجنس البشرى التي لا يملك لها علم الأصول الإنسانية إسمأ سليماً، لكنها كانت معروفة للعالم القديم بأنها أدنى حضارة<sup>(١٥)</sup>. إن هؤلاء أناساً، إسمياً لا يكتبون، يحيون وراء تخوم الحضارات القديمة، لكنهم إلى درجة فائقة عاشوا في ظلها السياسى، والإقتصادى، والأيدولوجى. بمرور الزمن كانوا متأثرين بالمقدار نفسه "بالموروثات العظيمة"<sup>(١٦)</sup> للآدم الحضارية مثملاً كان الفلاحون الذين أقاموا بينهم؛ وعندما حدث ذلك أصبحوا ما أطلق عليه توينبى إسم "البروليتاريا الخارجية"<sup>(١٧)</sup>. وإلى مدى ما تعيننا النوبة فإنه مفهوم نافع لأقصى حد. في حس أضيق لمدى ١.٥٠٠ عام، وبمعنى أوسع لمدة ٤.٠٠٠ سنة، كان النوبيون هم "البروليتاريا الخارجية" لمصر، وكان القطر الشمالى وسكانه أهم عوامل حتمية في بينهم. هكذا، يجب على أى نظرية تسعى لتفسير التاريخ الثقافى للنوبيين بالنظر إلى التغيرات الجارية للتكيف أن تكثر إكترائاً بالغاً بتكيفهم ليس مع بيئتهم الطبيعية الخاصة إنما بالموارد الذي يحجبها من الشمال.

### تماسك الإنتشار

هذه تنقلنى إلى الدرس الرابع للتاريخ النوبى، وهو أن ما يقرب من كل التطورات الثقافية العظمى خلال ٤.٠٠٠ عام الأخيرة وصلت النوبة عن طريق مصر. فإذا لم يعد ضرورياً، كما جادلت من قبل، أن يجري تأويل التحولات الواردة في التاريخ النوبى على أساس الغزوات، فإنه بصرف النظر عن هذا من غير الممكن أن يتم ذلك دونما رجوع متواصل للنفوذ الخارجى.

مارفن هاريس، عالم بيئة الإنسان الثقافية، نبذ في إحتقار الإنتشار على أنه "لا مبدأ له"<sup>(١٨)</sup>. إن

الواحد ربما يسعه بالمثل أن يدعو في مشروعية التجارة بأنها "لا مبدأ لها" فكل من التجارة والانتشار في الحقيقة ينموان بشكل متنبأ به للغاية في ظروف التلاصق بين أنظمة اجتماعية واقتصادية معقدة ومتمايزة. إن أي واحد لا يمكنه أن يتنبأ، بـ/أو، بوجود التجارة والانتشار بمستوى عال ما بين حضارة وجيرانها الأدنى حضارة لابد أن يكون جاهلاً بشكل غير عادي بمقائق التاريخ.

إنني أستطيع أن أجد تبريراً في التاريخ النبوي ليس فقط لمبدأ عام للانتشار، إنما لنظرية الانتشار محددة بمستوى عال: هي *kulturkreis - lehre* أو "نظرية دائرية الثقافة" للإنثولوجيين<sup>(\*)</sup> الألمان والنمساويين<sup>(\*\*)</sup>. التعديلات التي ارتكبت باسم هذه النظرية من مؤيديها النظريين قادت إلى إبطالها العام في حقب زمنية قريبة، ولكنني أرى أنه في أثناء العملية ربما غاب عنا شيء هام<sup>(\*\*\*)</sup>. نظرية دائرية الثقافة ليست ملائمة في الحقيقة للعالم النقي لإنسان ما قبل الحضارة الذي هو عزيز لخيال علماء أصول الثقافات الإنسانية الأمريكيين منهم والبريطانيين مثل الألمان، لكنها لها مصداقية مقدرة لتفسير الانتشار في عالم مقسم ما بين أناس حضاريين وجيرتهم الأدنى حضارة. مثل هذا العالم كان الكونية<sup>(\*\*\*)</sup> القديمة التي انتمى لها النوبيون ومعظم اقوام العالم القديم الأخرى، في أعقاب تأسيس حضارة العصر البرونزي في مراكزها الأولى<sup>(\*\*\*\*)</sup>.

المتاعب التي تنطوي عليها دائرية الثقافة ونظريات إتفاقية أخرى في الانتشار ليس في أنها عرّفت الانتشار خطأ كمصدر رئيس للتغيير الثقافي، إنما لأنها لم توفر أي أساس حقيقي لتفسيره والتنبؤ به. هذا يرجع إلى أن نظريتنا التاريخية عن الانتشار تجاهلت بشكل مُتّرد الأبعاد الاجتماعية والسياسية للتلاصق الثقافي. لقد صوّر علماء الأصول الثقافية أفكاراً وتأثيرات ثقافية أنها تنتشر مثل مجموعة كثيرة جداً من الأمراض المعدية من قوم لآخرين<sup>(\*\*\*)</sup>، دونما اعتبار للإرادة الواعية للمناحين أو المتلقين. غير أنها مفارقة تثير الغرابة أن دراستنا عن الانتشار كعملية مستمرة في العالم الحديث - أي ما ندعوه بالتثقيف [التبني الثقافي] - قد منحت دائماً تنبهاً أولياً للمركز الاجتماعي والسياسي، والجبريات الرابضة، التي يقع التلاصق الثقافي والانتشار فيما بينها<sup>(\*\*\*\*)</sup>. "الثقافات لا تتلاقى، لكن الناس الذين هم حملتها يتلاقون"<sup>(\*\*\*\*)</sup>، كما ظل يؤكد دارسو التبني الثقافي، وإنه لما جرى الإقرار به بمستوى عريض أن العلاقات الاجتماعية والسياسية بين الناس الذين يتلاقون بالفعل سوف تحدد إلى مدى كبير من له نفوذ على من، وبأي طرائق. كل علماء الأصول الإنسانية الذين شهدوا الذوبان التدريجي للمجتمعات القبلية في العالم الحديث تأتي لهم الإدراك أنه عندما تكون جبريات إقتصادية، سياسية أو أيديولوجية حاضرة - وهي نادرة ما تكون غائبة إذا ما احتك الإنسان الحضاري بالإنسان القبلي - فإن أنواعاً معينة وإتجاهات معينة من التغيير الثقافي ستكون قابلة للتنبؤ على وجه الإطلاق .

يبدو لي أن نفس النموذج من التحليل سوف يمكننا من فهم جملة من إنتظامات الانتشار الثقافي في الماضي. راديكاليو اليوم ربما يوهون أن يفكروا أن الظاهرة التي يطلقون عليها إسم "الإمبريالية الأيدولوجية"، والإستعمار الحديث، وما شاكل ذلك، هي خطايا تتعلق في تفرّد خاص بالحضارة الصناعية الغربية، لكن المؤرخ يعلم أفضل من ذلك. إن الكونية القديمة كان مسيطراً عليها لآلاف عام من قبل مراكز حضارية قليلة ذات ضغط عالٍ، إستأسدت وأرعبت جيرانها الأدنى حضارة التي فرضت بدورها الطغيان والإرهاب على الأقوام التي كانت لا تزال أوغل بدائية في أراضي الهامش النائية. في ظل هذه الظروف بقي الإبداع الثقافي بالفعل محصوراً في حدود ضيقة في أمكنة قليلة طوال فترات طويلة جداً من الزمن، ومالت التأثيرات الحضارية لتشع نحو الخارج في إتجاهات قريبة على طول دروب بالية تماماً، كما هو متضمن في مفهوم دائرية الثقافة. قطعاً لا تبين منطقة في الكرة

(\*) علماء أصول الثقافات وتحليلها - المترجم.

(\*\*\*) الكونية القديمة تعني العالم المعروف في فترة زمنية محدودة - المترجم.

الأرضية هذه الظاهرة أفضل مما تفعل النوبة، التي منذ زمن الدولة المصرية الجديدة عكست في إخلاص، عاجلاً لم أجلاً، كل ابتداء ثقافى تقريباً كان قد جرى إدخاله من الشمال الحضارى، في حين رفضت رفضاً واسعاً بواث وأفدً من إتجاهات أخرى.

## واقع الدورات

درس آخر علمتنى له النوبة هو أنه، مع مراعاة الإتجاه الإرتقائى التطورى العام للتاريخ، تقع أحداث دائرية متوالية الوقوع لا يستطيع أى قدر من النظرية الحتمية أن يُجلى عنها ما يشوبها من غموض. فالحقيقة القاضية بأن التاريخ يعيد نفسه حقاً من وقت لآخر سوف تاتى دونما عجب لعلماء التاريخ، برغم أن قلة منهم قد هيات تفسيراً مرضياً لها. لطماء الأصول الإنسانية، مع ذلك، بإيمانهم الذى لا تحده حدود في نظرية السببية المُطردة<sup>(٥)</sup> كانت فكرة الدورات التاريخية دائماً غير مواكبة. أى كان ذلك فإن الأحداث متوالية الوقوع في التاريخ النبوى متعددة للغاية وبيادية للعيان بحيث لا يمكن تجاهلها. إن مثلاً إجمالياً يتمثل في ثقافات كرمة وبلانة، والأولى تُعلم عن الإنتقال بين عصور حكم الأسرات والعصور الوسطى، ومع أنها مفصولة بمدة ٢.٠٠٠ عاماً من الزمان، فإنها تملك سمات مشتركة فيما بينها أعطى مما تملك مع أى ثقافة في الفترة الداخلة بينهما. فإنها تملك سمات الإعادة الدورية لتصورات في الفن والأدب؛ والمقدمات والإختفاءات اللاحقة لإنجازات إستعمالية نافعة مثل الكتابة وصنع الفُخار على العجلة؛ ويقدر متساو الظهور المعاد بشكل غيبي، كل يضع مئات من السنين، لسمة محددة جداً ومتميزة مثل جنازة السرير. إنها مثبتة أولاً في فترة كرمة، حوالى ١٧٠٠ ق. م.، ووجدت أخيراً في نهاية الفترة المسيحية ٣.٠٠٠ عام بعدها<sup>(٦)</sup>، غير أن فترات زمنية طويلة بينها لا يعلم خلالها عن وجود جنازٍ بالأسرة.

ليس كل متواليات الأحداث في التاريخ النبوى عسيرة على الشرح. فمن عام ١٥٨٠ ق. م. وما بعده إعتد رشاء البلاد بدرجة عالية على تصدير السلع الفاخرة كما جرى بالنسبة لإنتاج الغذاء المحلى، وكان النوبيون لذلك تحت رحمة دورات العمل بنفس الطريقة التى نحن عليها اليوم. وعندما أرادت شعوب البحر الأبيض المتوسط الذهب، والعاج والعبيد، وكانت تستطيع أن تدفع أثمانها، ذاعت النوبة طعم الرشاء؛ ولما كان الأجانب فقراء للغاية أو أخرويين للغاية فلم يكتروا بمثل هذه المباحج، أو عندما خربت عصابات السلب والنهب خطوط الإمداد، عانى النوبة. فترات الرشاء موسومة بإنجازات صروحية في الفن والمعمار، والأدب، إضافة إلى الإستقرار السياسى؛ أما فترات الإفقار فممثلة بالعصور المظلمة التى توالى على النوبة. تعيد الدورة نفسها كل بضعة قرون طوال الفترة التاريخية بأجمعها.

هناك دورات إجمالية واسعة النطاق في المحيط السياسى والإقتصادى. إمتداد الإستعمار المصرى الناهض بين ٢.٠٠٠ و ١.٥٠٠ قبل الميلاد، بانداً بعصر من الإستطلاع تحت ظل الدولة القديمة، شارعاً في تأسيس إحتكار تجارى مسلح تحت الدولة الوسطى، وبالغاً ذروته في الإخضاع السياسى وإقامة الإقتصاد الزراعى تحت الدولة الجديدة، يمثل واحداً من تلك الدورات. خطوة فخطوة، سبق التوغل الإستعمارى في إفريقيا من القوى الأوروبية في العصر الحديث.

الدورات الإقتصادية يمكن أن تكون أمعن قابلية للشرح في الحال بالنسبة للطلب المتضارب لسبع معينها. خلا أن الطلب المتضارب نفسه نادراً ما يفهم بمقتضى شروط منطقية بوجه كلى.

(٥) بصيغة عامة ترمز "السببية المطردة" إلى تطور المجتمع من مرحلة إلى أخرى بما يشبه الخط المستقيم الذي يضم مجرى التقدم في كل متصل - المترجم.

(٥٥) بمعنى أن أسباب نشأتها وتطورها تعتمد أساساً على ظواهر أخرى، فتتبع لها الدورات الإقتصادية - المترجم.

فدائماً ما يكون انعكاساً لتغيرات أساسية وعميقة الجذور في توجه القيم. في هذه الحالات لا تعد الدورات الاقتصادية محض ظواهر تبعية<sup>(٥)</sup> لكنها تحي طبعاً لتحولات أيولوجية أقيم منها أهمية.

علماء الأصول الإنسانية الذين كانت دراساتهم في الماضي نخيوية وعالية العقلنة معاً، كانوا قادرين عموماً على تجاهل الدورات الأيولوجية في تأويلهم لما قبل التاريخ. مع هذا فإن أساتذة في كل عصر وفي كل جزء من العالم من الذين حاولوا أن يفهموا تاريخ الإنسان الحضاري كان عليهم أن يجدوا مكاناً ما في مشاريعهم لمعادوات التاريخ. النظريات الدائرية كانت شائعة وسط فلاسفة الإغريق الأوائل<sup>(٦)</sup>؛ أعيد إحيائها في العصور الوسطى من علماء مسلمين<sup>(٧)</sup>، وكثرة من نفس الأفكار جعلت محبوبة في الغرب من فيكو<sup>(٨)</sup> وميغل<sup>(٩)</sup> في الفترة الحديثة المبكرة. في عصرنا نحن إسبنغر<sup>(١٠)</sup>، وسوروكين<sup>(١١)</sup>، وتوينبي<sup>(١٢)</sup> طوروا جميعاً مشاريع تاريخية تلعب فيها دورات أيولوجية متوالية الحدث دوراً مركزياً. في هذه الأثناء، قام فلاسفة صينيون وهنود بتطوير نظرياتهم الدائرية الخاصة وواصلوا تطويرها<sup>(١٣)</sup>.

غيبية معينة تغمر كل النظريات التي تتعلق بدائرية التاريخ الكبرى. بوعى أو بدون وعى تبني مؤلفوها في تنظيرهم للحضارة إستعارة العضو الحي، الذي نصبت له مقدماً دورة مستقلة عن أي سببية خارجية<sup>(١٤)</sup>. إن مثل هذا التصور يتسحيل أن يتوافق بصفاء مع وجهة النظر التقليدية لعلم الأصول الإنسانية التي ترى في الثقافة آلية للتكيف. على أنه ليس هناك في دائرة علمنا بدرجة عالية من الموضوعية نموذج عام يمكننا أن نجده لتفسير تغيرات دائرية غير متكيفة؛ فلكي نفهم هذه بأى حال علينا أن نستدين وجهة نظر رفاقنا في العلوم الإنسانية.

من النظريات الدائرية التي ظلت مطروحة للنقاش من علماء القرن العشرين، أرى أن بيترم سوروكين هو الأقرب لتفسير المتواليات التي أدركتها في التاريخ النوبي. تصور سوروكين بفكره تضارباً ثابت الحدوث بين ما دعاه ثقافة "مثالية" وثقافة "حسية" في مراحل إنتقالية قصيرة الحياة أسماها "أيولوجية" و "مختلطة"<sup>(١٥)</sup>. ودون جس في حشايها هذا المشروع، وبينما نحجم عن بعض غنّته، أرى أن ما يجسمه سوروكين بالفعل تاريخاً لبندول بين القيم المادية "الحسية" والمناهضة للمادية "المثالية". لهذا يمكنني أن أجد تأييداً كافياً في أنماط التاريخ النوبي. إننى أراها في التضاربات الراجعة من فترة لأخرى في حجم ومعرضات القبور، في الحجم المتضارب لتجارة الترف، وفي الإبدال المنتظم الذي يدعو للدهشة ما بين زخرفة بسيطة وأخرى دقيقة التفصيل في الفخار<sup>(١٦)</sup>. أراها كذلك في الظهور الدوري للمسكن كرمز للمكانة، وقد جرى ذلك للمرة الأولى في الدولة الجديدة، للمرة الثانية في المروية المتأخرة، وللمرة الثالثة في الفترة المسيحية الأخيرة، وللمرة الرابعة في القرن العشرين. في الفترات القصيرة عاش النوبيون دائماً في أبسط الأكواخ، لا تتطلب بيتهم إلا قليلاً غير ذلك بحق.

### الدور المركزي للأيدولوجية

ربما كان هناك وقت فكرت فيه، كما يفعل ماديو الثقافة المحدثون "إننا ما ناكل" (كما وصفها الألمان في حصافة)؛ أى أن تلك الطرائق المتبعة لجعل الحياة تحدد بقدر كبير مساحات أخرى من السلوك الثقافي بل والإعتقاد الدينى سواء بسواء. بأقل تقدير ممكن ربما أننى أجادل، مع علماء الاجتماع ومع علماء مدرسة الأصول الإنسانية البريطانية، "إننا ما نفعل". غير أن دراسة التاريخ النوبي كشفت لى بصفاء، إلى المدى الذى أعنى فيه شخصياً، أن المهم في شأن الإنسان ليس هو ما ياكله أو يفعله، لكنه ما يتفكره. فوق ذلك، إننى غير قادر فوق ذلك علي أن أرى فكراً يحدد لأي مدى

(٥) بمعنى أن أسباب نشأتها وتطورها تعتمد أساساً علي ظواهر أخرى، فتنبع لها الدورات الاقتصادية - المترجم.

بخطر حسن أم سيئ: ينشأ الإنسان، سواء كان ذلك بغذائه أو بالنظام الاجتماعي الذي فيه يولد.

بإعادة النظر في التاريخ الذي ضمته هذه الصفحات، يبدو لي أن ما كان ياكله النوبيون وما كانوا يفعلونه طوال تاريخهم تحدد مصيره لدرجة بعيدة بالزاميات بيئتهم المقيدة وقد ظلت باقية على حالها ضرورة متشابهة جداً من القدم إلى أزمان حديثة. في فنهم، ومعمارهم، وقبورهم، وصيغ أخرى مختارة من تعبيرهم الذاتي أرى مع ذلك تغيرات متعمقة تنعكس فيما كانوا فيه يفكرون: تغيرات ليست لها أي علاقة بمعيشة يومية أو بانشطة إجتماعية. قصة تلك التغيرات هي القصة الرئيسة في ذهني لإرتقاء التطور الثقافي النوبي، القصة التي حاولت أن أحكيها في هذا الكتاب.

لأخذ سلسلة من الأمثلة الإيضاحية، يبدو صافياً لي أن التغيرات التي صاحبت إدخال المسيحية في القرن السادس الميلادي ما كانت ببساطة موضوع إبدال لنسق من الرموز بآخر. إنها شملت في نفس الوقت إعادة تعريف متعمق للكون ومكان الإنسان فيه. فلنعتبر بضع متباينات موحية: منذ إدخال الحضارة حتى نهاية الفترة الوثنية شيد كل ملك نوبي قبراً ملكياً موسعاً كرمز لسلطته، إلا أننا لم نعثر على الصرح الجنائزي لملك واحد في الفترات المسيحية أو ما بعد المسيحية.

أعلن الملوك النوبيون من بنغخي إلى سلكو أعمالهم في نقوش ملأى بالمبالغة، واصلين أنفسهم مباشرة بالآلهة، ما من ملك في الفترات المسيحية أو المتأخرة ترك لنا مثل هذا النقش.

طوال فترة حكم الأسرات إحتقلت النوبة فنّها ومعمارها وأدبها بمجد ملوك دنوبيين، مع إنزال الآلهة لمركز أقل منهم؛ وطوال القرنين الوسطى إحتقل الفن النوبي ومعمارهم بملك سماوي، مع ذكر نادر للحكام الموقوتين.

إلى وقت متأخر مثل ٤٥١ بعد الميلاد كان النوبيون غير راغبين في الخلوص إلى معاهدة مع الرومانيين تظل نافذة فيما بعد حياة مؤقعيها (٣٧)، إذ كان صنع القانون الدائم هو الشأن المطلق حصراً على الآلهة. وبعد مائتي عام من دخول المسيحية إستتوا معاهدة بقيت نافذة لـ ٦٠٠ عام (٣٨).

أخيراً، من أزمان ما قبل التاريخ حتى مجئ المسيحية ما ذهب نوبي للدار الآخرة غير مصحوب بأجود ممتلكاته الدنيوية؛ ثم في خلال جيل إختفت ممارسة دفن المتاع الجنائزي مع الميت إلى الأبد.

ليس من الضروري أن تُفحص مطولاً هذه التغيرات لنقترح أن إعادة توجه معرفي شاسع المساحة يفصل العصر الوسيط عن حكم الأسرات. في الفترة السابقة كانت المتعلقات الإنسانية والإلهية معقودة عن قرب عبر شخص الملك، والكهنوت وأيدولوجية مشتركة، وبعد زمن المسيح (آخر فرد جُمع فيه الإنسان والإله) كان المحيطان مفصولين أيدولوجياً. قانون دنوبي، مجالس دنوبية، ديانة ما وراء المألوف والمعروف، والفصل ما بين الكنيسة والدولة تلا ذلك بما لا مهرب منه. ما من واحدة من هذه التغيرات أُلحِق بها استثناء بائٍ تحول ذي مغزى في الظروف المادية للحياة.

الانتقال من حضارة الأسرات إلى حضارة العصور الوسطى أفضل حالة مثبتة لإعادة التوجه المعرفي في التاريخ النوبي، لكنها يصعب أن تكون الوحيدة من نوعها. إحتل تغيير ثوري مساو لها إفتراضياً مكانه عندما تخطت أيدولوجية الفراعنة المعقدة إنقراض أزمان ما قبل التاريخ. لا تزال هُوة أيدولوجية أخرى تفصل الإيمان المباشر للعصر الوسيط عن الظنية العقلانية للغرب الحديث، لكن تلك الهوة لم يخطها النوبيون عبوراً كاملاً بعد.

حقيقة الإرتقاء التطوري المعرفي كانت ظاهرة رديحاً مستخرقاً في الزمان للمؤرخين والإنسانيين (٣٩). لقد أخذت على الضمان كذلك من قبل التطوريين الأوائل، ووجدت تعبيرها الأكمل في



نظريات ليفي برون (٤٠). منذ زمن بؤاس، مع ذلك، أصبح من غير السائد أن يقترح أن نظرة العالم للإنسان البدائي واحدة تشابه النظرة إلى الطفل بالمقارنة مع نظرتنا. بدلاً من ذلك عانينا معاناة عظيمة لنبين أن معتقدات البدائيين عقلانية كمعتقداتنا، سواء كان ذلك بمعايير منطهم الخاص أم بمعايير منطتنا. هذا التكريس للإتجاه المعرفي لنسبية الثقافة<sup>(٤١)</sup> تركنا بلا وسيلة هادفة لتأمل التغيير الأيدولوجي، يمكننا أن نراه كنوع من النزعة الأسلوبية وحسب، كما فعل لوي بطريفة واضحة<sup>(٤٢)</sup>.

توجد إستثناءات بالطبع للتعميم السابق. كان ماركس قادراً على وضع إرتقاء التطور الأيدولوجي وضعاً تلقاً في داخل إطار عقلاني يجعله خادماً طبعاً للإستغلال الإقتصادي<sup>(٤٣)</sup>، وفي هذا يبدو أنه يرن صداه، على الأقل بنغم خافت، من أتباعه التطوريين الجدد. والأشد إستنارة، فيما أرى، تفسير إرتقاء التطور المعرفي الذي حاوله روبرت ردفيلد في مؤلفه *العالم البدائي وتحولاته*<sup>(٤٤)</sup>. إنه ينظر إلى التغييرات الارتقائية التطورية للفترة التاريخية في المقام الأول من خلال منظور عالمي متغير ينهض من بيئة فنية متزايدة صنعتها الحضارات، لكنه يتفادى الحتمية الضيقة للماركسيين. كذلك يعترف بأن الأيدولوجيات التي صنعتها شعوب حضارية - "موروثات عظيمة"، كما يدعوها في عمل آخر<sup>(٤٥)</sup> - لها قوة ذاتية على الحد بسحر جاذب بساطة بفضل إرتباطها بجماعات صفوية، وهي في النهاية أقرب ما تكون للكفاية لتؤكد تغلبها على أيدولوجيات أكثر بدائية. الأفكار التطورية الارتقائية الرئيسة لردفيلد تبدو لصيقة بأفكار ماكس فيبر، الذي تصور عالماً عقلانياً يسير في تقدم<sup>(٤٦)</sup>. أفكار مشابهة عبّر عنها كذلك كلايد كلوكهوهن في مقالة مستبصرة عن "النظام الأخلاقي في المجتمع المعتمد"<sup>(٤٧)</sup>. هذه النظريات هي، في الوقت الراهن، بعيدة خارج النطاق المتفق عليه لعم تاريخ الأصول الإنسانية، لكنني أرى أن علم الأصول الإنسانية سوف يلحق بها عندما يطبق مدخله الإرتقائي التطوري لدراسة المجتمعات التاريخية، كما ينبغي عليه أن يفعل في خاتمة المطاف.

## أهمية الأسلوب

الدرس السابع والآخر الذي كان على تعلمه في النوبة هو الأهمية التي تحدد مصير العنصر الأسلوبية في مجالات الثقافة. هذه في حسب ما ليست أدل من إعادة مكررة للدرس السابق، لأن الأيدولوجية والأسلوب موثوقان معاً عن قرب.

إلى المدى الذي أستطيع فيه تقسيم المسلسل المتواصل للتاريخ النوبي إلى بوثقة مراحل ذات معنى، فهو يقوم بصورة متزعمة على أساس تواصل الأسلوب وإنقطاعه عنه في الجوانب الوظيفية للثقافة. إنني أرى توأماً في الأسلوب مواضيع مثل أشكال وزخرف الفخار، والتصرف في الميت، وأفضلية أنواع معينة من رموز المكانة، تجرى عبر كل الفترات ما قبل التاريخية الأخيرة من العصر الحجري الجديد إلى ثقافة المجموعة الثالثة؛ أرى تصوراً مختلفاً وأوسع تفصيلاً للغاية لطرن أدخلت في وقت واحد مع الحضارة الفرعونية، وظلت ثابتة ٢.٠٠٠ عاماً من بعد؛ أشاهد تعويضاً إجمالياً لطرن جديدة مرة ثانية في بداية الفترة المسيحية؛ وأخيراً، مع أن هذا بدرجة أقل اصطخاباً، أرى إعادة توجيهية هامة في الأسلوب مع مجيئ الإسلام. هذه "الأساليب الأقفائية"<sup>(٤٨)</sup>، كما اقترحت أنفاً، مرتبطة بموجهات أيدولوجية متميزة، لكنها ليست لصيقة بالإرتباط بتطورات إجتماعية أو إقتصادية. وبصرف النظر عن ذلك فإنني أعتبر الإنتقالات الأسلوبية والمعرفية، التي حددتها أنفاً، نقاط تحول حقيقية في التاريخ النوبي.

لعلماء الأصول الإنسانية، يظل الأسلوب مساحةً غير واضحة المعالم للثقافة لمدى بعيد. إن المتفردة<sup>(٤٩)</sup> مثل روث بنديكت سلموا بأهمية المركزية في الأنساق الثقافية<sup>(٤٨)</sup>، لكنهم مالوا لمعاملته

(\*) نسبية الثقافة - تعني هنا النظرة المساوية إلى الثقافة دون ربطها بمحدود أو مبرور حضاري معين - المترجم.

(\*\*) المتفردة هم علماء ينحون إلى تفريد الثقافة في المجتمعات - المترجم.

كشئ غيبى لا يقبل التغيير - نوعاً من محور راسخ تدور حوله بقية الثقافة. إن ١. ل. كروير وحده حاول أن يعالج الأسلوب كمتغير تقاس به الثقافة تجريبياً على سبيل المقارنة<sup>(٤٩)</sup>.

إذا كنا قادرين إقتراراً كبيراً على تجاهل الأسلوب في التحليلات الأنثروبولوجية، فذلك لأننا لا نحاول أن نعرف الأنساق الثقافية بمفردات ثقافية. نجعلها متغيرات تابعة لأنساق إجتماعية. بدلاً عن ذلك، نضع تعريفاً لما نعتقد أنه وحدات إجتماعية مترابطة - عُصباً، قبائل، وما شابه ذلك - ونسمح لحدودها الإجتماعية لتقف أيضاً كحدود ثقافية إضافة إلى ذلك. وعندما نتحدث عن "ثقافة نافاهو" لا نعتبر ما إذا كنا نشير لمعتقدات أو لسلوك تتفرد به نافاهو<sup>(٥٠)</sup>؛ إننا ببساطة نقوم بتوصيف أى سلوك يكون ملائماً لأعضاء مجتمع نافاهو، سواء أكان ملائماً للهوى أو للأوت، أو الأنجلو أمريكيين أم لم يكن.

بين أوساط مجتمعات العالم المعقدة من النادر أن يكون ممكناً تحديد الأنساق الثقافية بحدود دقيقة للغاية لتصوير مشاركة في عملية التمدد مع الأنساق الإجتماعية. لقد حاولنا أن نقوم بذلك التحديد في حالات قليلة بدراستنا للشخصية الوطنية<sup>(٥١)</sup>. لكن المفهوم لم يكن له سوى نفع إستعمالي ضئيل فيما عدا دراسة مجتمعات مطوقة العزلة كالجاپان<sup>(٥٢)</sup>، أو تلك البلدان مثل فرنسا حيث تم التعبير عن الرؤية الذاتية الوطنية بمصطلحات ثقافية<sup>(٥٣)</sup>. في الغالب الدائم نجد أن الأنساق الثقافية تتقاسم بشكل عريض في الزمن والمسافة في أوساط أناس من أصل متعدد. فإذا كان لمفهوم الثقافة أن يكون له نفع متواصل الإستعمال في الفترة التاريخية فسوف لا يتأتى له ذلك، من ثم، إلا من خلال تطبيقه على تصورات معترف بها من الإعتقاد والسلوك اللذين يبقيان عبر الزمن، مستقلين من أى نسج مثبت إجتماعياً كان أم سياسياً. وبإيجاز، لابد أن نعرف الثقافات بحساب عناصرها الخاصة المؤسسة لها، وليس بحق من تصادف تقاسمهم لها من أناس في أى وقت من الأوقات.

سوف يقر معظم المؤرخين بأن تصورات الإعتقاد والسلوك التى تتفق إلى أقرب درجة مع مفهوم علماء الأصول الإنسانية للثقافة في الفترة التاريخية هي تلك التصورات الإجمالية التى ندعوها حضارات. وإلى المدى الذى يُحمل فيه علمنا الطبيعى المقارن للإنسان نقلاً من العالم البدائى إلى الحضارى، فإنه يكون قد نُقل في طابع دراسات مقارنة للحضارات كانساق ثقافية كلية. هذا الحقل ما طُرِقَ ارتياده من علماء الأصول الإنسانية ولكن رواده كانوا علماء للتاريخ وفلاسفة، بيد أنهم جميعاً من إسبنغلر إلى توينبى أوجبوا ديناً ثقيلاً من المشاريع المخططة لعلم الأصول الإنسانية.

إلى هذا اليوم بذلت حوالى عشرة أو أكثر قليلاً من الجهود لكىما تُعد وتُقارن كل حضارات العالم، في الماضى والحاضر<sup>(٥٤)</sup>. ما من اثنين منهما أعملاً بالضبط نفس المعايير في تعريف الحضارات وتمييزها، غير أن هناك مساحات كبيرة من الإتفاق بين الجميع. جانباً عن هذه الجهود المتسقة في منهج المقارنة، أجريت مع ذلك مقارنات حدسية بين الحضارات وأدركت من كل واحدة تقريباً، تماماً كما المقارنات بين الثقافات البدائية. وعندما نلاقى، في مرجع لعلم الأصول الإنسانية، عبارة تشتمل على مقارنة للمتناقضات ما بين حضارة المصريين والسومريين، فإنها لا تدعو لإندهاش أشد مما تحدثه مقارنة للإختلاف بين أوماها وأراباهو<sup>(٥٥)</sup>. على أنه في حالة الحضارات فإن ما نقارن فريقه ليس أنظمة للسلوك المحدد إجتماعياً، إنما تصورات معرفية وأيدولوجية أجلى ملامحها تميزاً أسلوبية ذات طراز. وهذا هو السبب في أن الأسلوب يشغل مكاناً مركزياً في كل مشروع مقارن للحضارات بالتقريب<sup>(٥٦)</sup>.

(\*) نافاهو Navajo والهوبى Hopis والأوت Utes من قبائل الهند الأمريكيتين في الولايات المتحدة الأمريكية؛ والبروفيسور أدمز معروف بأنحاء عن بعض تلك القبائل وإهتمامه بحقوقهم الحالية - المترجم.

(\*\*) قبائل من الهند الأمريكيتين في الولايات المتحدة - المترجم.

بكل ماله من أثر تحديدي فاصل ليس الأسلوب المتبطن للحضارة بمستديم أو غير قابل للتغيير. وتاماً مثلما أن كل تحليل وظيفي [سنكرونى] يصف الأحداث على عوامنها دون إكترات لما سبقها من تاريخ لابد أن يفسح مكاناً للأسلوب عندما يطبق على الثقافة، لابد أيضاً لى تحليل يتناول لتغيير الثقافة عبر الزمن أن يتأمل حتمية التغيير في الأسلوب. دراستنا عن الديناميات الثقافية حتى الآن، على غرار مجموعة وفيرة من عملنا التحليلي، تُشخص بالعقلانية المتزايدة. وفي نماذجنا يجب أن يُسبب التغيير إلى الأهداف سواء كان إنجازاً لأهداف جديدة أو الإنجاز الأفضل تجويداً لأهداف قديمة. مع هذا فإن تغيير الأسلوب، مثل الأسلوب نفسه، لا ينتمى لأهداف خارجية. أنه تغيير يجرى لمصلحته الخاصة: تغيير سببه أن الإمتاع الجمالى لى خبرة يتضاعل بال تكرار. لا يعلم أحد لما يسير الحال على هذا المنوال، خلا أنه واحد من أشهر الملامح وأقواها تمسكاً بعدم التغيير في عقليتنا. إن الذين يفسرون الأحداث بغاياتها وأسبابها النهائية ربما أنهم سيجادلون أنها قدرة مبنية من الداخل لتضمن الجمود عن حالة الإنسان.

بينما يمكن للأساليب ولابد لها أن تتغير برسم ما، فإنها على وجه العموم منحصرة بين حدود الإمكان الوظيفي والتقبل الأيدولوجي. هذا هو السبب في أن تغيير الأسلوب ندر أن يسير في إتجاه واحد بلا توقف أو نهاية محددة في نفس الإتجاه. عاجلاً أم آجلاً يُبلغ حدّاً من التحمل، يوقف تارجح البندول، وتبدأ حركة في إتجاه آخر. هنا فيما يبدو لى، يمكن التفسير لعدد كبير من الدورات التي تبدو لا عقلانية ما في السلوك وحده إنما في الاعتقاد، فيما المحدث إليه مسبقاً. التضاربات بين المادية واللامادية، بين الإهتمامات الدنيوية واللائيوية، بين عصور من الإيمان وعصور من العقل، حتى بين النظام والانظام، يمكن أن تشاهد في أوسع معنى على أنها تارجحات لبندول أيدولوجي الطراز<sup>(٩٥)</sup>. القيم القديمة يصيبها الملل، ويُسعى لإتجاهات جديدة.

إن الدورات الأيدولوجية والأسلوبية يجب ألا تخط مع مراحل الإرتقاء التطورى. إنها حرة خالية من التضاربات بين حدود دائمة نسبياً، وربما تعيد الحدوث تارة أخرى أو ثالثاً ويأخذ التطور الثقافي مكاناً عندما تتبدل حدود التضارب نفسها جذرياً. تغيير التطور الإرتقائي في الأيدولوجية يشمل ما اعتقده تغيرات دائمة وغير منعكسة للوراء في التوجه المعرفي: تعاريف معادة للكون تنهض من إمّرة ناجحة في تزايد على الكون. إنها مراحل نمو في النضج الجماعى للفكر الإنسانى.

## تلخيص واسترجاع

ترحالى القصير باختراق التاريخ النبوى لابد أن يظهر لكثيرين، كما بدا لى، إشهاراً لبراءة خالية من الحكمة والمراس: قطعاً من ناحيتى، ومن ناحية علم الأصول الإنسانية فيما هو محتمل كذلك. لقد ذهبت إلى النوبة أبحث عن إنسان بدائى، لأن ذلك هو ما يبحث عنه عالم الأصول الإنسانية دائماً في أركان العالم البعيدة. وما وجدته عوضاً عن ذلك كان طفولة الحضارة ومرافقتها. هذه مراحل لإرتقاء التطور الإنسانى، يوفر لها علم تاريخ الأصول الإنسانية فهماً قليلاً. وبشأن من التعاطف والرؤية العقلية تربطنا بالشعوب الأصلية لمناطق العالم الهامشية، سوى أنها تبدو مستبعدة لكل هؤلاء الأقوام البدائيين الذين لم يعودوا كذلك والذين عاشوا أو كانوا فيما أعتقد يعيشون في قبضة ما، لا نزال نعدّها أنظمة طغيان قديمة.

بطريق واحد أو بغيره، تكاثفت كل الدروس التي تعلمتها في النوبة لتبين محدودية النظرية التاريخية في علم الأصول الإنسانية. ما وجدت مكاناً في مدخلنا للديناميات الثقافية طويلة المدى لى شى يشرح بما فيه الكفاية التحولات التي طرات على حالة الإنسان منذ ٣٠٠٠ قبل الميلاد - أى، منذ أن توقفت الثقافة عن أن تكون تلاوفاً بصفة أساسية مع الطبيعة، وأصبحت في صفة متزايدة تكييفاً للإنسان مع نفسه. ما نملكه نحن أصلاً وتقليداً هو علم طبيعى<sup>(٩٦)</sup>، ومعظمنا مُحبون للطبيعة بالميل

الشخصي فضلاً عن ذلك. إننا لا ندرك حقيقة الإنسان عندما لا يظل عائشاً في تظاهر قريب مع عالم الطبيعة، لأن هذا بالنسبة لنا حالة "غير طبيعية". بدلاً من الترحاب بالفرصة السانحة لدراسة الحضارة لكونها الناتج الضروري الذي لا غنى عنه للعمليات التطورية الإرتقائية التي تولينا تخطيطها نحن بأنفسنا، فإننا دائماً ما نتجاهلها أو حتى ندينها ك تدخل صارخ يجئ بين الإنسان والطبيعة.

بينما علم الثقافات الإنسانية وعلم إجتماع الأصول الإنسانية، في القرن العشرين، صنعا جهوداً واعية لتحركا بعيداً عن إستغراق منحصر تماماً في البدائي، وأن يطورا نماذج لدراسة الفلاح والمجتمعات الحضرية على صعيد واحد، فإن علم تاريخ الأصول الإنسانية ظل باقياً مُكْبِياً يكاد محصوراً في دراسة الإنسان الأصلي. لقد زواجنا في خيالنا (وحاولنا أن نعيد التركيب من بينتنا الأثرية) نوعاً من ديمقراطية واضحة لقبائل: عالماً مشتركاً في تساو بشكل أو آخر وسط أرتال من جماعات أصلية لا حصر لها، يعيشون جمعاً في إنسجام قريب مع الطبيعة، ومعظم الوقت، مع بعضهم بعضاً. فإذا كان مثل ذلك العالم قد برز حقيقة في الوجود أبداً، فقد جاء إلى نهاية في ٢٠٠٠ ق. م. بظهور الحضارات الأولى. إن ما خرج في مكانه كان سلسلة من هياكل القوة المتفرعة - عالماً مجزأ بين قلة من "الملوك الحضاريين وعدد ضخم من "معدمين" أدنى حضارة. القوة الإقتصادية، والسياسية والأيدولوجية أضحت، ولألفية بقيت، مُركزة في أيد قليلة، في حين انتشر ظلها فوق نصف المعمورة. فقط في الأركان الأتاني عزلة في العالم القديم، وراء حدود الكونية المعلومة، بقي على قيد الحياة إنسان بدائي مستقل الذات في أصالة (٥٧).

المطلوب لفهم تاريخ ثقافة النوبة ومعظم ما تبقى من العالم القديم، إضافة إلى جزء معتبر من العالم الجديد، علم في الأصول الإنسانية للحضارات. ولسوء الطالع لم يوجد بعد ميدان منظم كهذا. أشار رواد شجعان مثل كروبر (٥٨)، ورفيلد (٥٩) وستيوارد (٦٠) إلى الطريق، لكن قلة من علماء الأصول الإنسانية إلى هذا الحين أحسوا ميلاً لإتباعهم. إن تحدى إختيار الحضارات ومقارنتها كانساق ثقافية كلية، يبدو أنه يقع وراء قدرة منهجيتنا التقليدية. تحصيلاً لذلك حصرنا فحصنا في قطاعات من الحضارات المصغرة التي اصطنعت حدودها إصطناعاً مُقيداً الجاليات الحضرية، والقرى في الوسط الغربي، وما شاكل ذلك. في حين تركنا المقارنة الشمولية لأقران أقل تردداً مثل إسبنفلر، وسوروكين، وتوينبي، وهيئة متعاطفة من حُورهم المتأخرة (٦١). وباستعمال نفس منهج المقارنة الذي ندعى بعض الأحيان أنه شأن مميز لنا (٦٢)، يدفعون أينما نخوفنا حتى الآن من الولوج إليه.

يدعو للتفكير إنه بمالا يزيد عن قرن مضى كانت هناك أنظمة معترف بها من علم الآثار وعلم أصول الثقافات وتحليلها، إلا أنه لم تُمضَ دراسة للأصول الإنسانية. إن أوصافاً جمة في إمتياز الثقافات البدائية وتفصيلها تمت كتابتها، لكنها افتقدت أى وجهة نظر متميزة نظرياً أو [مبنية على] مفاهيم منظمة. بدلاً من ذلك، أخذ مؤرخون إجتماعيون من هيرودوتس إلى كومت الثقافة البدائية أخذ اليقين على أنها محض حضارة صكت صغيرة. ما كان حتى اكتشاف قلة من الأنثولوجيين النظريين - باخوفن ومين، ومورقان وماكلينان (٦٣) - لمبدأ القرابة أن علم الأصول الإنسانية ولد من رحم دراسة الأصول الثقافية. إن ما اكتشفوه حقاً هو أن الثقافة البدائية مختلفة معرفياً ومادياً على قدم المساواة عن الحضارات، تتبع قوانين من صنع نفسها ملائمة لعالم من صنع نفسه.

لفترة ١٠ عاماً كنا في شغل نكتشف مؤشرات القياس للثقافة البدائية ونستطلعها، مضيفين في مضاء العملية مقدراً هائلاً لمستودع الفهم الإنساني. إن العالم اليوم يتجه بلا تردد إلى علم الأصول الإنسانية ليحمده بنظرات فريدة تستجلي عقل الإنسان البدائي. يبدو، مع هذا، أننا في خطر من استنفاد وجود الإنسان البدائي، وإننا نتجه بالضرورة نحو دراسة مجتمعات أشد تعقيداً. على أنه يبدو أننا نسينا درس طفولتنا: أن هناك فرق نوعي كما أنه كمي بين الثقافة البدائية والحضارة. فإن لم تكن الثقافة البدائية ببساطة حضارة في صلب صغير، فإن الحضارة مؤكدة ليست في بساطة ثقافة

بدائية في صك كبير. وإلى الوقت الذي نعيد فيه تعلمنا لذلك الدرس سنكون ممتلكين لعلم آثار وعلماء  
لثقافة الأصول الإنسانية للحضارات، ولكننا سوف لا يكون لدينا علم للأصول الإنسانية للحضارات.

لئن كنا نحن علماء تاريخ الأصول الإنسانية سنحوز أبدأ على علم طبيعي مقارنة لكل البشر،  
ليس للإنسان البدائي وحده، فعلى أن نمنح تتبعها جاداً إلى مواضيع مثل إقتصاديات السوق،  
ومجتمعات الشرائع الطبقية، والمجتمعات السياسية ذات الإدارة الديوانية والإقطاعية، والمنشآت  
العسكرية، وأيدولوجيات الدولة، وكل وجوه الحضارة التعددية الأخرى التي صرفناها زمناً طويلاً  
للغاية كتأثيرات مفسدة تهدد وتدمر العالم البدائي الغالي في تخيلنا. علينا أن نضيف التاريخ إلى ما  
قبل التاريخ، والا ناذن لقصة إرتقاء التطور الثقافي أن تنتهي في مولج الحضارة.

﴿ انتهى الكتاب بعمر الله سبحانه وتعالى ﴾

المترجم





## هوامش

---





## المقدمة

- ١- قارن كيز، مصر القديمة  
Ancient Egypt (Chicago, 1961), p. 316.
- ٢- المراجع الأساسية عن اثيوبيا (النوبة) توجد في :  
Book II: 29-30-, 104, 137-40, 152; Book III: 17-25, 97, 114; Book VII: 69-70.  
ولتطبيق حول رأى هيروودوتس عن الإثيوبيين أنظر ساف - سودر برج في :  
Erani, Vol. XLIV (1946), pp. 68-80.
- ٣- الأوديسا  
Odyssey I : v, 23.
- ٤- الأوديسا II: 2-4
- ٥- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (آخر طبعة صدرت مؤخراً هي طبعة بيروت ، ١٩٥٦ - ١٩٦١؛ سبع مجلدات).
- ٦- أسفار في النوبة. (London, 1819) Travels in Nubia
- ٧- رحلة إلى مروي والنيل الأبيض  
Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826-7; 4 vols.)
- ٨- رحلات في إثيوبيا. (London, 1835) Travels in Ethiopia
- ٩- Denkmäler aus Ägypten und Äthiopien (Berlin, 1849-53; 12 vols.)
- ١٠- السودان المصري  
The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 511-12.
- ١١- أنظر رايزنر في : المسح الأثري للنوبة  
Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), pp. 5-6.
- ١٢- قارن برزستد ، تاريخ مصر  
A History of Egypt, 2nd ed. (New York, 1909), pp. 13-14.
- ١٣- المسح الأثري للنوبة، تقرير الأعوام ١٩٠٧ - ١٩٠٨  
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910) Vol. I, p. 348.
- ١٤- لتاريخ أكثر تفصيلاً وقائمة شاملة للمصادر الخاصة بالعمل الأثري في النوبة أنظر الفصل الثالث.
- ١٥- لندن ، ١٩٦٥.
- ١٦- يمثل كتاب تورجنى سودربرج، المصريون والنوبة، (Lund, 1941) Ägypten und Nubien إستثناءً ظاهراً  
لرأى علماء المصريين في النوبة. ولسوء الحظلم يترجم هذا العمل أبداً إلى الإنجليزية، وظل أمداً طويلاً نافذ الطبع.
- ١٧- لمناقشة ممتدة لهذا المدخل في التاريخ، أنظر أدمز في :  
Antiquity, Vol. XLII (1968), pp. 194-315
- وتريقر Beyond History : The Methods of Prehistory (New York, 1968)
- ١٨- قارن إليوت سميث في المسح الأثري للنوبة :  
Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), pp. 21-7.
- ١٩- مطبوعات جامعة يل في الأنثروبولوجيا، أنظر خاصة العدد ٦٩، ص ٤٦.
- Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 46.
- ٢٠- أنظر تقديم المحرر في مجلة الآثار المصرية :  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 59 (1973), p. 2; Vol. 60 (1974), pp. 1-2.
- وأنظر بلملى وأدمز في نفس المجلة :  
Vol. 60 (1974), pp. 212 - 38.

## الفصل الأول

*المصادر الأساسية* : أقيم هذا الفصل بشكل موسع على الملاحظة والخبرة الشخصية. أما أهم مرجع كتابي لجأت إليه فهو بريور:

The Republic of the Sudan (London, 1961).

١- شيلي "Ozymandias of Egypt"

٢- المقصود أن الرسم الهيروغليفي الدال على كوش مسبق في إنتظام يرسم آخر يفترض، من السياق، أنه ينم عن الاحتقار أو التهوين.

٣- يجب مع ذلك، ملاحظة أن المبالغ التي أنفقت على الآثار لا ترقى إلا إلى جزئية فقط من نفقة تشييد السد العالي.

٤- إن الشلال الأول ليس حقيقةً بالحد الشمالي لتوطين النوبة . فهناك أعداد معتبرة من النوبيين تعيش الآن ، مثلما عاشت من قبل دائماً ، في وحول مدينة أسوان وفي المساحة التي تقع مباشرة شمالها. ومع هذا ، ظل هؤلاء الناس خلال معظم تاريخهم مغموين ثقافياً وسياسياً بالمصريين المقيمين بين ظهرانهم، ومن ثم فالأكثر معنى أن يتحدث عن منطقة أسوان كجزء من مصر عنها جزءاً من النوبة.

٥- أخذت المعلومات عن المناخ النوبي من بريور بصفة رئيسة:

The Republic of the Sudan (London, 1961), pp. 38-51;

انظر كذلك كتاب جمهورية السودان :

Sudan Alman 1959 (Khartoum, 1959), pp. 82-3.

٦- بريور، نفسه 112، p. (n. 5)

٧- في بتيرو، كسين ، واليركوتر، الشرق الأدنى: الحضارات الأولى

The Near East : The Early Civilizations (London, 1967), p. 279.

٨- باب "الخلق" . Genesis xli.

٩- لويو ، الموجز في نهر النيل

A Short Relation of the River Nile (trans. Wyche; London, 1791), pp. 36-7.

١٠- تريقر، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلي :

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publication in Anthropology, No. 69

(1965), p. 20.

١١- أُستقيت المعلومات عن النبات بشكل رئيس من بريور، نفسه، (الهامش رقم ٥) ص ٦٢-٧٣، ومن لبيون :

Land Use in the Sudan, World Land Use Survey, Regional Monograph No. 4 (London, 1965). pp.

19-42.

١٢- للحصول على معلومات مفصلة عن النمتى واثره على الإنسان انظر لويوس:

Sudan Notes and Records, Vol. XXXV (1954), Part 2, pp. 76-89.

١٣- أنظر امري، مصر في النوبة

Egypt in Nubia (London, 1965), p. 127.

١٤- لوكاس، مواد المصويين القدماء وصناعاتهم

Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), p. 236;

وأنظر ساف - سوديرج :

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 87.

- ١٥- لخريطة عنها أنظر فيركوتر في كوش  
Kush VII (1959), p. 129.
- ١٦- لمناقشة أبعد مدئ عن تعدين الذهب المصري أنظر ساف - سوديرج، نفسه، (الهامش رقم ١٤) ص ٢١٠-٢١٤، وفيركوتر، نفسه (الهامش رقم ١٥).
- ١٧- قارن امرى ، نفسه 129، p. (n. 13).
- ١٨- أنظر بورخارت للنص المترجم للإتفاقية ، المسماة بالبقط :  
Travels in Nubia (London, 1819), pp. 511-12.

## الفصل الثاني

- المصادر الأساسية : بُني هذا الفصل في جزء معتبر منه على الملاحظة الشخصية. وتشمل مراجع كتابية هامة  
بريور The Republic of the Sudan (London, 1961)، توتهل، محرراً، الزراعة في السودان Agriculture in Sudan  
History and Settlement in the Sudan (London, 1948)، تريقر، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى  
Lower Nubia,  
Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965)  
ومقالات كرونبرج في كوش : 11-302، Kush XI (1963)  
Kush XII (1964), pp. 282-90, Kush XIII (1965), pp. 205-12  
ومساهمات عديدة في فرنسا، محرراً،  
Contemporary Egyptian Nubia (2 vols.; New Haven, 1966).
- ١- قارن الفصل الأول، هامش رقم ٤.
- ٢- قارن ما كميكل، تاريخ العرب في السودان  
A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), Vol. II, pp. 324-31.
- ٣- لوصفر للمقاييس السلالية للنوبيين الحديثين أنظر فرنسا، مساهمات لانتروبولوجيا الفيوم، سيناء، السودان،  
وكينيا  
Contributions to the Anthropology of the Faiyum, Sinai, Sudan, Kenya (Berkeley and Los  
Angeles, 1952), pp. 194-205.
- لقد أُجريت مسح أشد كثافة للمقاييس السلالية من طرف البعثة الشيكوسلوفاكية في النوبة خلال الأعوام ١٩٦٥ -  
١٩٦٧، على أنه لم ينشر منها سوى تقارير أولية. أنظر بوجو خاص إسترومال في مجلة  
Current Anthropology, Vol. 9 (1968), pp. 540-41
- وكذلك في البرنامج البيولوجي العالمي، بيولوجيا الإنسان في إفريقيا.  
International Biological Programme, Biology of Man in Africa (Warsaw, 1968), pp. 179-90.
- وفي مؤتمر الأنثروبولوجي المكرس لآلس هرنليكا  
Anthropological Congress Dedicated to Ales Hrdlicka (Prague, 1971), pp. 465-71.
- ٤- لمناقشة أكثر فنياً عن اللغات وعلاقاتها أنظر تريقر في مجلة التاريخ الإفريقي  
Journal of African History, Vol. VII (1966), pp. 19-25.
- ٥- لوصفر تفصيلي للسكان الحديثة، مكملاً برسوم أرضية متعددة، أنظر جاريتز في فرنسا وجريستر، النوبيون في مصر  
Nubians in Egypt (Austin and London, 1973), pp. 49-60.
- ٦- حول زينة المسكن النوبي أنظر خاصة ونزل.  
House Decoration in Nubia (London, 1972).

وطبقاً لرأى المؤلف إن هذا الضرب من الزينة، الذي لا يوجد له شبيه وسط السكان غير النوبيين في السودان، كان مستخدماً إستعمالاً عاماً من عام ١٩٢٧ حتى تهجير النوبيين في الستينيات (المرجع نفسه، ص ٢٥). ويبدو أنه مشتق في مفاتيح الأمر من غرب إفريقيا، حيث توجد زينة مقوسة وملونة من الطين بمستوى أدنى تفصيلاً. أنظر إنقستروم.

Notes sur les Modes de Construction au Sudan, Statens Etnografiska Museum, Smärre Meddelanden, No. 26 (Stockholm, 1957).

وأنظر كيرك - قرين - مساكن مزخرفة في مدينة شمالية  
Decorated Houses in a Northern City (Kaduna, 1963).

٧- لوصف مفصل لأقفال الأبواب المقوسة أنظر مريل في  
Sudan Notes and Records, Vol. XLV (1964), pp. 29-34.

٨- للمزيد عن بيوت النوبيين والسودانيين الحديثة أنظر فتحي في فرنسا، محرراً، النوبة المصرية المعاصرة، روستم، ولي  
Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. I, pp. 72-6; Rostem in Nubia, Cahiers d'Histoire Égyptienne, Vol. X (1917), pp. 201-8; and Lee in Landscape, Vol. 18 (1969), pp. 36-9.

٩- كل من الخطة العامة وطريقة البناء الموجودة في مساكن المحس والدناقلة تبدو مشتقة من غرب إفريقيا، التي عرفت منذ وقت سابق بكثير: أنظر إنقستروم، نفسه (هامش رقم ٦).

١٠- ونزل ، المرجع نفسه (هامش رقم ٦) ص ٢٠-٢١.

١١- للمزيد عن تطور القرية، أنظر لي في مداولات جمعية الجغرافيين الأمريكيين  
Proceedings of American Geographers, Vol. I (1969), pp. 80-84.

١٢- مطبوعات جامعة إل في الأنثروبولوجيا No. 69 (1965), pp. 19-21. ووصف أكثر تفصيلاً عن فلاحه النوبيين الحديثة أنظر دفع الله في  
Sudan Notes and Records, Vol. L (1969), pp. 63-74.

وتوجد معلومات إضافية منذ عام ١٩٢٧، بما في ذلك إحصاءات عن الفدادين المزروعة أنواعاً متنوعة من المحاصيل في فيلد، مرجع سابق (هامش رقم ٣)، من ١٦٩ - ١٨٠.

١٣- مقتطف من بورخارت، أسفار في النوبة (London, 1819), p. 137.

١٤- المعلومة من بريور، جمهورية السودان (London, 1961), p. 141. وتوتهل ، محرراً ، الزراعة في السودان (London, 1948), pp. 627-31, 745-8.

١٥- مقتطف من بريور، المرجع نفسه (هامش رقم ١٤)، p. 142.

١٦- دفع الله، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، p. 69.

١٧- ما قبله ، 4-73 pp. ، وللمزيد من المعلومات الفنية عن إنتاج البلع أنظر فيلد، ما قبله (الهامش رقم ٣)، pp. 174-9.

١٨- قارن بريور ، نفسه (هامش رقم ١٤)، p. 140.

١٩- ما قبله (هامش رقم ١٢)، pp. 21-2.

٢٠- جمهورية السودان، مسح وادي حلفا الإجتماعي والإقتصادي ، تقرير عن الدخل والمنصرف وتعداد الحيوان.  
Report on the Income and Expenditure Survey (Including Results of a Livestock Census) (Khartoum, 1963), p. 54.

٢١- لوصف تفصيلي لهذه المراكب وبنائها أنظر هورنل في  
Sudan Notes and Records, Vol. XXV (1942), pp. 1-36.

٢٢- دنقلا الجديدة أو دنقلا العرشى، معروفة اليوم عادة بدنقلا، في بساطة، وهي تقع حوالى سبعين ميلاً أسفل النهر من المدينة القديمة وعلى الضفة المقابلة للنهر. وليست لها علاقة تاريخية حقيقية مع دنقلا المعجوز، التي ألت

إلى خرائب.

- ٢٣- أنظر جمهورية السودان ، تعداد السكان في ريفي وادي حلفا والمدينة  
Population Census in Wadi Halfa Rural Area and Town (Khartoum, 1960), pp. 36, 85.
- ٢٤- لوصف تمثل الأقليات في النوبة الحديثة أنظر كرونبرج في كوش  
Kush XII (1964), pp. 282-5.
- وأنظر رياض في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨)، Vol. II, pp. 335-8.
- ٢٥- قارن ساف - سودبرج : 18 . Aegypten und Nubien (Lund, 1941), p. 18.
- وأركيل، 42 . A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 42.
- ٢٦- في تحت الفرعون مرمر بالقرب من أسوان: أنظر قارنر، مصر الفراغة  
Egypt of the Pharaohs (New York, 1961) p. 99.
- ٢٧- تريمفهام ، الاسلام في السودان  
Islam in the Sudan (London, 1949), p. 11.
- ٢٨- للمزيد حول تاريخ البجا أنظر بول  
A History of the Beja Tribes of the Sudan (Cambridge, 1954).
- ٢٩- أنظر رياض في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. II, pp. 325-39 .
- ٣٠- ما قبله، 31-326 pp : تريمفهام ، نفسه (هامش رقم ٢٧)، p. 15 .
- ٣١- تريمفهام، نفسه (هامش رقم ٢٧) p. 17 .
- ٣٢- أنظر رياض في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. II, pp. 327-8 .
- ٣٣- أنظر كرونبرج في كوش Kush XIII (1965), p. 212 .
- ٣٤- أنظر جمهورية السودان، المرجع نفسه (هامش رقم ٢٣) p. 50 .
- ٣٥- أنظر عبد الرسول في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. II, pp. 340-51 .
- ٣٦- الشاهي في كنيسون وجيمس ، محررين ، مقالات في إثنوغرافيا السودان .  
Essays in Sudan Ethnography (London, 1972), pp. 87-104.
- ٣٧- قارن ساف - سودبرج، المرجع نفسه (هامش رقم ٢٥) ، 7 - 26 pp .
- ٣٨- فرنيا، نفسه (هامش رقم ٨) ، 9-8 pp ، بيب  
Egyptian Guilds in Modern Times, Israel Oriental Society, Oriental Notes and Studies, No. 8  
(1964), pp. 2-15.
- ٣٩- المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٨) ، 2 . p . والمزيد عن هجرة النوبيين المصريين للعمل أنظر إنستكر في  
فرنيا ، نفسه (هامش رقم ٨) ، 100-142 pp .
- ٤٠- أنظر جمهورية السودان ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) ، 85 p .
- ٤١- ما قبله (هامش رقم ٢٤) ، 8-287 pp . ولوصف مقارن لمجتمع الهجرة النوبية في مصر، أنظر فرنيا وقرستر  
، المرجع السابق (هامش رقم ٥) ، 44-36 pp .
- ٤٢- أنظر ما كميكل ، المرجع المذكور سابقا (هامش رقم ٢) ، 2-341 Vol. I, pp .

## الفصل الثالث

المصادر الأساسية : لكيما أجرى مسحاً للمصادر التاريخية الخاصة بكل الأزمان إعتمدت إعتماداً ثقيلاً على  
واليس بدج ، السودان المصري The Egyptian Sudan (London, 1907). هناك ، مع ذلك ، مراجع أكثر كمالاً  
لأزمان بمفردها . والأشد تحميصاً من المسوح عن المواد المكتوبة بالهيريغليفية المصرية القديمة حول النوبة يوجد

- في ساف - سوديرج (Ägypten und Nubien (Lund, 1941) . أما وولى ويراندال - ماك إيغر ، كارانوق المقبرة الرومانية - النوبية ، Karanog, The Romano - Nubian Cemetery, النوبية ، University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. III (1910), pp. 99-105.
- فهو كتاب يحتوي كثيراً من أهم الفقرات التي خطها مؤلفون ماثورون فيما يتعلق بالنوبة . وأما كتاب فاننيزي ، حفريات فارس ، مساهمة في تاريخ النوبة المسيحية، The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), pp. 49-143,
- فيشتمل على أفضل مسح لمصادر القرون الوسيطة ، أوروبية وعربية على السواء. ولملخص للعمل الأثرى إرتكزت كثيراً على امرى، مصر في النوبة ، Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 35-120.
- أنظر كذلك كيننق إسترجاع النوبة Nubian Rescue (London and New York, 1975).
- London, 1907 (2 vols.). -١
- ٢- للإطلاع على مسح محصص للنصوص الهيروغليفية الخاصة بالنوبة أنظر بريسق، مدونات مصر القديمة، قارن الفهرست الجغرافى، المجلد الخامس، ص ٧١-١٠٤ (Ancient Records of Egypt (5 Vols.; New York, 196)
- أنظر أيضاً بورت وموس في شأن النصوص والنحت والرسوم الهيروغليفية المصرية القديمة Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs, and Paintings, Vol. II (Oxford, 1952).
- ٣- لتوضيح عن منحوت جير، طالع أركيل في تاريخ السودان A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 39.
- ولتفسير للأمر أنظر تريقر، التاريخ والاستيطان في النوبة السفلى History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 73.
- إن نحتاً أقدم يعود إلى عهد حكم حور - أما ، سلف جير، ربما يتعلق بالنوبة ، غير أن ذلك غير محقق. أنظر ساف - سوديرج، المصريون والنوبيون Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 7.
- ٤- لكن فلننظر الى ساف - سوديرج، المرجع السابق (هامش رقم ٣) ، pp. 42-53 ، وفيشر في كوش Kush IX (1961), pp. 44-80
- ٥- قارن ساف - سوديرج، المرجع السابق (هامش رقم ٣)، pp. 141-75 يعتبر المؤلف أن مدونات الحملات في النوبة بعد زمن تحتمس الثالث لا يمكن أخذها على عواهنها ، ولكنها مجرد إدعاءات تقليدية كان كل فرعون يحس بأنه لزام عليه القيام بها .
- ٦- هذه النحت واردة بلهجة الكارى الإغريقية. ويأتى أكثر الأمثلة شيوعاً في الجنوب من بروز صغير بجوار الشلال الثاني ؛ أنظر سايس في مداولات جمعية آثار الكتاب المقدس Proceedings of the Society for Biblical Archaeology, 40th Series, 6th Meeting (1910), pp. 262-3.
- ٧- أنظر خاصة الكتاب الثانى، والثالث، والسابع Book II: 29-30, III: 17-25, VII: 69-70.
- ٨. 1, 2, VII:

١١- فى ديدنورفيوس (Leipzig, 1870) pp. 332f Historical Graeci Minores

١٢- تحرير نيبهر (Bonn, 1829) p. 466

١٣- I: 19-20.

١٤- النص الاصلى وترجمة له فى يدج ، السودان المصري ، المجلد الثانى

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, pp. 308-11.

١٥- التاريخ المسيحى (Trans. Payne - Smith; London, 1860), pp. 325f Ecclesiastical History

١٦- مجلة (ed. Mommsen; Berlin, 1894), pp. 207-20 Chronicle

١٧- مجلة (Patrologiae Greco - Latina, ed. Migne, Paris, 1863, Vol. CXL), pp. 1122-3 Annals

١٨- التاريخ المسيحى Ecclesiastical History

(trans. Chabot; Paris, 1905), Vol. II, p. 300; Vol. III, p. 226.

١٩- كتاب العبر ويديان المبتدا والخبر ، المجلد الخامس ، ص ٤٢٩.

٢٠- لترجمة للنص انظر بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 498-521.

٢١- Prairies d'Or (trans. Meynard and Courteille; Paris, 1863).

٢٢- مسالك الابصار فى ممالك الامصار

(trans. Gaudefroy - Demombynes; Paris, 1927).

٢٣- ترجمة Evetts and Butler (Oxford, 1895)

٢٤- جيوفانى فانتينى، من ملة كيبونى فى الخرطوم ، مستغرق حاليا فى بحث عويص عن المراجع المتأخرة عن النوبة فى القرون الوسطى وإلى الآن تخضعت عملية فحص الارشيف الفرنسيسكى فى القاهرة ومجموعات الفاتيكان عن اكثر من مائة رسالة ووثائق اخرى تتناول بشكل او اخر النوبة . إن بعض اول ما جنى من هذا البحث

نشرت فى فانتينى ، حفريات فرس ، مساهمة فى تاريخ النوبة المسيحية ، The Excavations at Faras, a

Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970) pp. 125-43.

٢٥- الفارس ، سيرة البعثة البرتغالية للحبيشة

Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia (trans. Lord Stanley ; London, 1881)

لويو ، رحلة إلى إثيوبيا

A Voyage to Ethiopia (trans. Johnson; London, 1735)

بايز ، تاريخ إثيوبيا (Oporto, 1945) Historia da Etiopia

٢٦- رحلة إلى إثيوبيا خلال السنوات ١٦٩٨ ، ١٦٩٩ ، ١٧٠٠

A Voyage to Ethiopia Made in the Years 1689, 1698, and 1700 (London, 1709).

٢٧- Höher und Fruchtbärer Palm - Baum des Heiligen Evangelij (Augsburg, 1710).

٢٨- رحلات لإكتشاف منبع النيل

Travels to Discover the Source of the Nile (Edinburgh, 1790).

٢٩- أسفار فى النوبة Travels in Nubia (London, 1819)

٣٠- سرد لزيارة بعض أنحاء إثيوبيا

Journal of A Visit to Some Parts of Aethiopia (London, 1822).

٣١- رحلة إلى مروي والنيل الأبيض

Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826)

٣٢- سرد لرحلة إلى مروي Journal d'un Voyage à Méroé

- مرجريت شيني ، محررة ، (1958) No. 4 Sudan Antiquities Service Occasional Papers ، محررة ،
- ٣٣- رحلات في إثيوبيا (London, 1835)
- ٣٤- Denkmäler aus Ägypten und Äthiopien (Berlin, 1849-53)
- ٣٥- لعرض مفصل لها أنظر بدج، المرجع نفسه (هامش رقم ١٤) Vol. I, pp. 55-504
- ٣٦- أنظر رو في مجلة الأنثروبولوجيا الأمريكية  
American Anthropologist, Vol. 63 (1961), p. 1380.
- ٣٧- قانون المسح الأثري للنوبة ، تقرير ١٩١٠ - ١٩١١  
Archaeological Survey of Nubia. Report for 1910-1911 (Cairo, 1927), pp. 176-7.
- ٣٨- أنظر رايزنر ، المسح الأثري للنوبة ، تقرير ١٩٠٧ - ١٩٠٨ .  
(Cairo, 1910), Vol. I, pp. 96-102.
- ٣٩- أنظر ما قبله : 17-73 ، 14، pp.
- ٤٠- رايزنر ، المسح الأثري للنوبة 5-6، Bulletin No. 3 (Cairo 1909), pp.
- ٤١- نفس المرجع (هامش رقم ٢٨) pp. 313-48
- ٤٢- المطبوعات الرئيسة عنها وعن غيرها من البعثات النوبية مضمنة في هوامش الفصول ٤-١٩
- ٤٣- أنظر الهامش رقم ٤٢ .
- ٤٤- أكسفورد 1912 Oxford
- ٤٥- Vols. V-VI, 1923
- ٤٦- بترخيص من دوز دنهام : Boston, 1960 and 1967
- ٤٧- بوسطن ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ و ١٩٦٣ . أنظر كذلك المجلد المعنى تكليف دنهام ، معابد البركل The Barkal Temples (Boston, 1970)
- ٤٨- لميجر عن عمل البعثة في السودان وقائمة بالمراجع للنتائج المنشورة أنظر دنهام في كوش Kush III (1955), pp. 70 - 74
- ٤٩- امرى ، المدافن الثلية الملكية في بلانه وقسطل  
The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938).
- ٥٠- امرى وكيروان ، الحفريات والمسح بين وادي السبوع وأديندان  
The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1953).
- ٥١- عنينة Aniba (Cairo and Glückstadt, 1935, 1937)
- ٥٢- القاهرة ، ١٩٣٥ ، ١٩٥٣ .
- ٥٣- للاطلاع على المطبوعات الرئيسة لهذه البعثات ، أنظر هوامش الفصول ٧ - ١١ .
- ٥٤- التقارير الأولية نشرت في كوش  
Kush IX (1961), pp. 17 - 43 ; X (1962), pp. 10 - 75 ; XI (1963), pp. 10 - 46 ; XII (1964), 216 - 50; XIII (1965), pp. 145 - 76; XIV (1966), pp. 1 - 15.
- ٥٥- أنظر هوامش الفصول ٩ - ١٥ حول نتائج هذه البعثات التي نشرت إلى تاريخه .
- ٥٦- لمناقشة اكمل عن المضامين المتعلقة بدور الآثار الإنقاذي في دراسة التاريخ أنظر آدمز في أكرمان هوايت و  
ورثيفتورن ، محررين ، البحيرات الاصطناعية ، مشكلاتها وأثارها البيئية  
Man - Made Lakes, Their Problems and Environmental  
Effects, American Geophysical Union, Geophysical Monograph  
Series, Vol. 17 (1973), PP. 826 - 35.
- ٥٧- في ١٩٧٠ شرعت مصلحة آثار السودان ، يعون من فريق من علماء الآثار الذين وفرتهم الحكومة الفرنسية ،



في إستطلاع منظم للمنطقة الواقعة جنوب دال - وكان ذلك بالضرورة مواصلة في إتجاه الجنوب للمسح الذي كان قد بدأ مع مشروع الانقاذ من السد العالي . ولم تنشر بعد نتائج هذا العمل.

٥٨- كُرس مجلد منفصل (المجلد الثاني) ، مع مجلد مصاحب بالبيانات ، للبقايا التشريحية .

٥٩- إليوت سميث ، المسح الأثاري للنوبة Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), p. 25

٦٠- لمناقشة عن المكانة التي تحتلها العنصرية في نظرية القرن التاسع عشر الإجتماعية والتاريخية أنظر إستوتونق، العنصر، الثقافة والتطور

Race, Culture, and Evolution (New York, 1968)

وهاريس ، نهوض النظرية الأنثروبولوجية

The Rise of Anthropological Theory (New York, 1968), pp. 80 - 107

٦١- بطراوي ، تقرير عن البقايا الأدمية

Report on the Human Remains (Cairo, 1935), p. 160

٦٢- المجلدات Vol. LXXV (1946), pp. 81 - 101 ; Vol. LXXVI (1946), pp. 131 - 56.

٦٣- مجلة المعهد الملكي للأنثروبولوجى Journal of the Royal Anthropological

Institute, Vol. LXXVI (1946), p. 131

٤٦- مخرجى ، راو ، وتريفور ، سكان جبل مويه القدماء (السودان)

The Ancient Inhabitants of Jebel Moya (Sudan) (Cambridge, 1955), p. 85

٦٥- قرين

Dentition of Meroitic. X - Group, and Christian Populations from Wadi Halfa, Sudan, University of Utah Anthropological Papers, NO.85 (1967);

أيضاً قرين في مجلة التطور الإنساني

Journal of Human Evolution, Vol. I (1972), pp. 315 - 24.

٦٦- فافن نيلسن ، البقايا الأدمية ، مطبوعات البعثة الإسكندنافية المشتركة للنوبة السودانية

Human Remains, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 9 (1970).

أسست هذه الدراسة على رسالة دكتوراة المؤلف وهي أكثر تفصيلاً عن الهيكل البشرى النوبى عبر ٤,٠٠٠ عام

The Nubian Skeleton through 4,000 Years (Odense, 1970).

٦٧- فافن نيلسن ، البقايا الأدمية (المراجع السابق ، هامش رقم ٦٦) ، ص ٨١ .

من ناحية أخرى يشخص إسترومال الهياكل البشرية لثقافة المجموعة المجهولة التي تم حفرها منذ وقت قريب بواسطة البعثة الشيكوسلوفاكية للنوبة على أنها "شديدة الزنجية"، بالرغم من أنه ينظر إلى ذلك باعتباره متواصلاً منذ الأزمان المروية . أنظر

Festschrift für Professor Dr. Sallir (Stuttgart, 1968), pp. 84 - 92

والمؤتمر الأنثروبولوجى المكرس لآلس هربليكا (Prague, 1971), pp. 541 - 7

ولتقدير عام للمدخل العنصرى لتاريخ السكان النوبيين ، أنظر فان جرفن ، كارلسون و أرميلاقوس في مجلة التاريخ الافريقى

Journal of African History, Vol. (1973), pp. 555 - 64.

٦٨- فافن نيلسن ، البقايا الأدمية (المراجع السابق ، هامش رقم ٦٦) P. 81

Koninklijke Nederlands Akademie van ٦٩- نيبس في

Wetenschappen, Proceedings Series C, 73 NO. 5 (1970), PP. 433 - 68

٧٠- المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٦٣).

٧١- توجد مناقشة أكثر تفصيلاً عن هذا الموضوع في الفصل ١٢ .

٧٢- مولد بريطانيا The Birth of Britain (New York, 1956), p. 47

٧٣- لنقاش أبعد مدًى عن هذا التمييز الهام ، انظر تريقر ، ما وراء التاريخ :

مناهج ما قبل التاريخ

Beyond History: the Methods of Prehistory (New York, 1968).

## الفصل الرابع

المصادر الأساسية : تعتمد في هذا الفصل اعتماداً كبيراً للغاية على فرد وندورف ، محرراً ، ما قبل تاريخ النوبة،  
The Prehistory of Nubia (2 vols ; Dallas, 1968) مجلدين

وبدرجة أقل تعتمد على أ . ج . أركيل ، الخرطوم القديمة

Early khartoum (London, 1949)

Shaheinab (London, 1953)

والشهبان

١- سانفورد وأركيل ، إنسان العصر الحجري القديم وادى النيل في النوبة ومصر العليا

Paleolithic Man and Nile valley in Nubia and upper Egypt, Chicago

Oriental Institute Publications, NO. 17 (1933).

٢- كانت البعثة المشتركة لما قبل التاريخ هي المجموعة الرئيسية ، وهي ممولة إبتدائياً من جامعة كولومبيا وفيما بعد من قبل متحف نيومكسيكو وجامعة ساوثرن ميثوديست ، وشملت أساتذة من مؤسسات أوروبية عديدة بالمثل . أما البعثات الأخرى التي عملت في مواقع نوبية ما قبل التاريخ فهي بعثة النوبة من جامعة كلورادو ، وبعثة المتحف القومي لكندا ، والبعثة الإسكندنافية المشتركة ، وبعثة يل لما قبل التاريخ .

٣- ظل هناك تحقيق أشد إقناعاً عن بقايا العصر الحجري في مصر : انظر هابس ، مصر الأوغل قدما

Most Ancient Egypt (Chicago, 1964), esp. pp. 43 - 146

ومع ذلك ، وجد وندورف ورفاقه تواصلاً قليلاً ما بين صناعات ما قبل التاريخ في مصر وتطيرها في السودان ،

انظر Science, Vol. 196 (1970), p. 1168

٤- في ١٩٦٦ - ١٩٦٧ قامت البعثة المشتركة لما قبل التاريخ ، التي اضطلعت بأكبر مسح لما قبل التاريخ في منطقة خزان أسوان ، بعمل ميداني ممتد في أرض دنقلا النهرية . ومع ذلك ، وُجدت مواقع قليلة جداً ومقارنة للمواقع التي عثر عليها في أرض وادى حلفا . انظر ماركز ، شاينر وهابس في مجلة الأنثروبولوجيا الرائنة

Current Anthropology, Vol. 9 (1968), pp. 319 - 23 .

٥- حرره فرد وندورف (Dallas, 1968). ولتقرير إضافي عن العمل الذي أجرته البعثة المشتركة لما قبل التاريخ ،

انظر ماركز ، المواقع ما قبل الفخار الملون

Preceramic Sites. Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia

Publications, Vol. 2 (1970).

٦- المتبني الرئيس لهذا الرأي هو كارل بتزر : انظر بتزر و هانسن ، الصحراء والنهر في النوبة

Desert and River in Nubia (Madison, 1968), pp. 436 - 43.

٧- قارين ماك بيرني ، العصر الحجري في شمال إفريقيا

The Stone Age of Northern Africa (Harmondsworth, 1960). pp. 70 - 81.

٨- بتزر و هانسن ، المرجع نفسه (هامش رقم ٦) 7 - 453 pp. دي هينزلان و بيبي في وندورف ، محرراً ،

مساهمات في تاريخ ما قبل النوبة

Contributions to the Prehistory of Nubia (Dallas, 1965), pp. 53 - 5.

Geographical Journal, Vol. 134 (1968), p. 1

١٠- أنظر ماك بيرى ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٧) 94 - 128 pp.

١١- ما قبله .

١٢- معلومة شخصية من روى ل . كارلسون . وللإطلاع على أوصاف مفردة للصناعات النوبية في العصر الحجري الأوسط أنظر وندورف ، محرراً ، ما قبل تاريخ النوبة ،

The Prehistory of Nubia (Dallas, 1968), Vol. II, pp. 1043 - 4.

وإروين ، ويت و إروين ، تحقيقات جامعة كولورادو عن مواقع العصر الحجري القديم في السودان ، إفريقيا

University of Colorado Investigations of Palcolithic and Epipaleolithic

Sites in the Sudan, Africa, University of Utah Anthropological Papers, No. 90 (1968), pp. 56 - 73.

١٣- قارن وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) 54 - 1044 pp.

١٤- ما قبله 59 - 1041 pp.

١٥- لمناقشة حول هذه المسألة أنظر ملارز في أنثروبولوجيا العالم

World Anthropology, Vol II (1970), pp. 84 - 6.

١٦- قارن 'الفخار والتاريخ' ، في الفصل الخامس من هذا المؤلف .

١٧- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) 7 - 1054 pp.

ومع ذلك ، لاحظ فيليبس منذ وقت قريب تشابهاً شديداً بين مواقع معينة للعصر الحجري المتأخر في مصر العليا وليبيا . أنظر الأنثروبولوجيا الراهنة

Current Anthropology, Vol. 13 (1972), pp. 587 - 90.

١٨- أنظر ساندفورد و أركيل ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١) 37 - 43 pp.

١٩- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) 46 - 940 pp.

وقد افاد ريد قبل مدة قليلة عن وجود حجارة للطحن ذات عمر مقارن في كوم أمبو بمصر العليا : أنظر أوكو و ديمبلي ، تاليف النبات والحيوان وإستغلالهم

The Domestication and Exploitation of Plants and Animals (Chicago, 1969), p. 363.

٢٠- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) 53 - 1048 pp.

٢١- أنظر ما قبله 95 - 954 pp : هوز وآخرين في مجلة الطبيعة ، المجلد ٢٠٣

Nature, Vol. 203 (1964), pp. 341 - 3.

و ساكس في براون ، محرراً ، مداخل للأبعاد الإجتماعية في الممارسات الجنائزية

Approaches to the Social Dimensions of Mortuary Practices, Memoirs of

the Society for American Archaeology, No. 25 (1971), pp. 39 - 57.

٢٢- قارن وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) 4 - 991 pp.

٢٣- ما قبله 35 - 1028 pp ، أنظر كذلك هوز وآخرين ، المرجع السابق (هامش رقم ٢١) وقرين

و أريملافوس ، سكان وادي حلفا في العصر الحجري الوسيط

The Wadi Halfa Mesolithic Population, Research Report No. 11,

Department of Anthropology, University of Massachusetts, 1972.

٢٤- شايلد ، ماذا حدث في التاريخ

What Happened in History (Harmondsworth, 1942).

٢٥- قارن ريد ، المرجع السابق (هامش رقم ١٩) 4 - 362 pp.

٢٦- قارن ما قبله p. 361.

- ٢٧- أنظر كلارك في بريدود وويلي ، محررين ، عروض في إتجاه الحياة العنصرية  
Courses toward Urban Life, Viking Fund Publications in Anthropology,  
No. 32 (1962), pp. 11 - 16.
- ٢٨- قارن تريفر في مأكول ، بينيت ، وبتلر ، محررين ، تاريخ شرق إفريقيا  
Eastern African History, Boston University Papers on Africa, Vol. III (1969), pp. 84 - 5 ;  
هورد و ليكلانت في مقالات علمية  
Etudes Scientifiques, September - December 1972, pp. 41 - 56.
- ٢٩- قارن ماك بيرني ، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 230 - 47  
٣٠- قارن كلارك ، المرجع نفسه (هامش رقم ٢٧) p. 15 . هورد و ليكلانت المرجع نفسه (هامش رقم ٢٨)  
pp. 43 - 5.
- ٣١- التقرير المحدد عن هذه الاكتشافات هو أركيل ، الخرطوم القديمة  
Early Khartoum (London, 1949).
- ٣٢- يذهب أ . ج . أركيل مدى أبعد من ذلك ، فيقترح أن الفخار لربما أنه قد أُخترع لأول مرة وأخرها من سكان  
الخرطوم القديمة ، ومنهم انتشر إلى أنحاء العالم الأخرى .  
Kush V (1957), p. 11  
أنظر كوش
- ٣٣- أركيل ، نفسه (هامش رقم ٢١) pp. 31 - 5  
٣٤- ماك بيرني ، المرجع نفسه (هامش رقم ٧) p. 242  
٣٥- قارن أركيل ، تاريخ السودان  
A History of Sudan, 2nd ed.  
(London, 1961), p. 28.
- ٣٦- كلارك ، نفسه (هامش رقم ٢٧) p. 14  
٣٧- ما قبله 14 - 11 pp.
- ٣٨- قارن ماك بيرني ، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 244  
٣٩- التقرير المحدد عن العصر الحجري الجديد في الخرطوم هو أركيل ، الشهبان  
Shaheinab (London, 1953).
- ٤٠- ما قبله 72 - 70 pp.
- ٤١- قارن تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) pp. 87 - 8  
٤٢- أركيل ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٩) pp. 20 - 77  
٤٣- ما قبله ، 7 - 106 pp : أوتو في كوش pp. 108 - 15 (1963), Kush XI  
٤٤- وندورف ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 1054  
٤٥- ما قبله 90 - 768 pp. إن مواقع إضافية عن العصر الحجري الجديد في الخرطوم مما قامت بحفرها البعثة  
الإسكندنافية المشتركة مضمّنة في نورستروم ، مواقع العصر الحجري الجديد والجماعة - ١  
Neolithic and Group - A Sites,  
Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications,  
Vol. 3 (1972), pp. 136 - 9, 212 - 20  
٤٦- ما قبله 777 p.  
٤٧- نفسه 768 p.  
٤٨- نفسه 27 - 611 pp. قام بالكشف الأصلي لثقافة عيكة ووصفها و . هـ . مايز : أنظر مجلات  
London News, 13 November 1948, pp. 566 - 7 ;  
Sudan Notes and Records, Vol. XXIX (1948), p. 129 ;

Kush VI (1958), pp. 131 - 41, and Kush VIII (1960), pp. 174 - 81.

, Kush VI (1958), pp. 142 - 3

أنظر كذلك شوفرى فى كوش

وبالما دى سيسنولا فى كوش Kush VIII (1960), pp. 182 - 237 . وللمزيد عن مواقع عبيكية أنظر نورديستروم ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٤٥) pp. 220 - 22 .

٤٩- وندورف ، نفسه (هامش رقم ١٢) p. 1053 .

٥٠- نفسه p. 627 .

٥١- نورديستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ٤٥) p. 16 . عشر فى أرض نقلا النهرية عامى ١٩٦٦ - ٦٧ على صناعات يحتفل أن تكون ذات صلة ، بالرغم من أنها لم تعرف على أنها عبيكية من ناحية المكتشفين . أنظر ماركز ، شايفر و هايس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) .

٥٢- لمناقشة عن فن الصخر الصحراوى ومنتسباته أنظر بخاصة ماك بيرنى ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 258 - 72 ، وهورد و ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 19 - 78 .

٥٣- هذه كانت البعثة المختصة بالصك من أكاديمية برلين للعلوم . وللإطلاع على سرود مبنئية لأعمالها أنظر هينتز فى كوش Kush XI (1963), 93 - 5 ;

Kush XII (1964), pp. 40 - 42, Kush XIII (1965), pp. 13 - 16

وقد صارت الرسوم الصخرية النوبية منذ وقت قريب موضوعا لعدد غير عادى من الدراسات الأخرى: قارن بايتاك و إنجلماير

Eine Frithdynamische Abri - Siedlung mit Felsbildern aus

Sayala - Nubien, Österreichische Akademie der Wissenschaften,

Philosophisch Historische Klasse Denkschriften, 82 (1963); Engelmayer,

Die Felsgravierungen im Distrikt Sayala - Nubien, Teil I, Die

Schiffsdarstellungen, Österreichische Akademie der Wissenschaften,

Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 90 (1965) ;

أنظر أيضاً هليستروم و لانتيل ، رسومات الصخر

The Rock Drawings, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese

Nubia Publications, Vol. I (1970) ;

و المارقو و المارقو

Estudios de Arte Rupestre Nubio, Comité Español de Excavaciones en Extranjero, Memorias de

La Misión Arqueológica en Egipto, X (1968).

وكل ما ذكر أنفا مؤسس على دراسات ميدانية تجرى لأول مرة . وتوجد تشكيلة من المصادر الثانوية فى ريش

Die Felsbilder Nubiens (Graz, 1967)

أما دنبار فهو مرجع أقدم عن الرسومات الصخرية فى النوبة السفلى

The Rock - Pictures of Lower Nubia (Cairo, 1941) .

٥٤- أنظر تريقر ، التاريخ والاستيطان فى النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in

Anthropology, No. 69 (1965), p. 63.

لإيضاحات عن العديد منها أنظر إنجلماير ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) .

٥٥- لإيضاحات وبعض الوصف ، طالع مايزر فى مجلتى

Illustrated London News, 13 November 1948, pp. 556 - 7,

Kush VI (1958), pp. 131 - 41.

- ٥٦- قارين ماك بيرنى ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) 4 - 263 pp.
- ٥٧- أنظر ماينز في Kush VI (1958), pl. XXXIV
- ٥٨- ماينز في كوش Kush VIII (1960) p. 177 وبالنظر إلى النتائج المستحصلة من وندورف (مرجع سابق ، هامش رقم ١٢ ، p. 1053)
- يبدو محتملاً أن التواريخ تقترب كثيراً من ال ٤٠٠٠ عنها في ٧٠٠٠ عام قبل الميلاد .

## الفصل الخامس

*المصادر الأساسية :* عن الأوصاف الثقافية للمجموعة الأولى (الأفق ١) كان إستنادى الكبير على أركيل ، تاريخ السودان

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 37 - 45,

امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 123 - 34 وتريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 70 - 79 .

وهناك توليفة هامة ظهرت منذ كتابة هذا الكتاب فى نورستروم ، مواقع العصر الحجري الجديد والجماعة - ١ Neolithic and A - Group Sites, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications Vol. 3 (1972), pp. 17 - 32 .

١- رايزنر في المسح الأثرى للنوبة Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), p. 5

ورايزنر في Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 319 .

٢- قارين وندورف ، محورا ، ما قبل تاريخ النوبة

The Prehistory of Nubia (Dallas, 1968), Vol. II, p. 1053 .

٣- امرى ، مصر في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965)

٤- قارين تريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 169 - 74 .

٥- ميلز في كوش Kush XIII (1965), pp. 1 - 10

وايضاً ميلز في تبادل شخصى للمعلومات .

٦- تبادل شخصى من ج . فيركوتر .

٧- أنظر الهامش رقم ١ .

٨- ويلر ، حضارات وادى الاندوس وما وراءه

Civilizations of the Indus Valley and Beyond (London, 1966), p. 61 .

٩- وندورف ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) .

١٠- أركيل ، تاريخ السودان A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 35

وللإطلاع على وصف لانتاج الفخار ذى الرأس الأسود فى الأزمان الحديثة أنظر رايزنر في مجلة مركز البحوث الأمريكى في مصر

Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. V (1966), pp. 7 - 10 .

Revised Edition of Volumes I and II, Fascicle 38 (Cambridge, 1965), pp. 11 - 17 .

١٢- رايزنر ، المسح الأثاري للنوبة

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 320 .

١٣- يجب أن يُشار أيا كان الأمر إلى أن أقدم قبور لثقافة المجموعة الأولى تحتوى دائما أواني سوداء الرأس من النوع المصري إلى جانب النوع النوبي . أما المذكورة أولاً فالمفترض أنها تحصل عليها في التجارة مع حاجيات أخرى من صنع مصري وجدت في نفس القبور .

١٤- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 160 .

١٥- ماقيله ، 2 - 71 pp . ويعتقد تريقر أن هذه ربما كانت مستوطنة ثرية بشكل غير عادي ؛ وإربما أنها كانت مقراً لإقامة ، "زعيم" ، (معلومة في تبادل شخصي) .

والوصف الأصلي المنشور عن الموقع لرايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) ، 18 - 215 pp .

١٦- لقائمة جزئية عنها وقائمة بالمراجع الخاصة بالمصادر المنشورة أنظر تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 74 - 169 pp . وقد اكتشفت مواقع إضافية عديدة من قبل مصلحة آثار السودان ومسوح البعثة الإسكندنافية المشتركة في النوبة السودانية ؛ أنظر التقارير الأولية لأيمز و ساف - سوبيرج في كوش

Kush IX (1961), pp. 7 - 10 ; Kush X (1962), pp. 10 - 18, 76 - 105 ; Kush XI (1963), pp. 10 - 69 ;

Kush XII (1964), pp. 19 - 39 ; Kush XV (1973), pp. 225 - 9 .

أنظر كذلك بايتاك وإنقلماير

Eine Fruhdynastische Abri - Siedlung mit Felsbildern aus Sayala - Nubien, Österreichische

Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 82 (1963), pp.

14 - 17 .

Neolithic and A - Group Sites, Scandinavian

وأنظر نوردستروم ،

Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 3

(1972), pp. 17-32, 134-6, 140-58, 172-80, 183-9, 190-212, 230-33, 235-9.

١٧- مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 77 . إن وصفا أطول للموقع يعود إلى لال في

Fouilles Nubie (1961 - 1963) (Cairo, 1967), pp. 104 - 9

١٨- قارين جريفيث في الإصدارية السنوية لجامعة ليفربول في الآثار والأنثروبولوجي

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. VIII (1921), p. 4 .

تجدد إضافة بأن الغالبية العظمى لمواقع السكن في ثقافة المجموعة الأولى ربما أنها دُمّرت بفعل التعرية أو طمرها الطمي ، وبذلك فسوف لن نعلم ما إذا كانت المواقع القليلة الباقية مماثلة لتلك الفترة الزمنية ككل .

١٩- لال ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 106 .

٢٠- أركيل الشهبان Shaheinab (London, 1953), pp. 15 - 18

٢١- قارين تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 67 - 8 .

٢٢- أقدم ذكر مكتوب للحيوان الفلاحي وارد في حجر باليرمو الشهير ، الذي إدعى فيه أن الفرعون سنفرؤ عاد من حملة في الجنوب بمسحبة ٧,٠٠٠ سجين و ٢٠٠,٠٠٠ "أبقاراً كبيرة وصغيرة" . (بريستند ، مدونات مصر القديمة

Ancient Records of Egypt, New York, 1962, Vol. I, p. 66).

ومع ، ذلك يشير النص إلى زمن متأخر بشكل معتبر أكثر من أي بقايا معروفة عن ثقافة المجموعة الأولى ، وربما أن ذلك يعود فيما هو مفترض إلى جماعة مختلفة من النوبيين .

Fouilles en Nubie (1961 - 1963) (Cairo, 1967), p. 131

٢٣- بيتروفسكي

٢٤- ما قبله p. 130 .

٢٥- دراسات بتزر عن الفترة شبه الغرينية في الصحراء لا تدل على أنه كان هناك أى سقوط للأمطار بدرجة هامة في النوبة السفلى بين ٥٠٠٠ و ٢٣٥٠ قبل الميلاد 'إن أغلب الصحراء الليبية ربما كانت بلا حياة كما هي اليوم' .  
(Environment and Archaeology, Chicago, 1964, p. 452 ;

قارن كذلك خريطة الأمطار 451 p. .

٢٦- قارن نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) 4 - 23 pp. .

Kush XIV (1966), p. 61

٢٧- كارلسون في كوش

لقد شخّص المؤلف الموقع بوصفه من العصر الحجري الجديد ، ولكنه يعده معاصراً لثقافة المجموعة الأولى في ناحية الشمال ؛ قارن 62 p. .

٢٨- أنظر تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) .

٢٩- ورد في راينز ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) 52 - 18 pp. .

٣٠- في الجبانة رقم ٧٩ بجوار جرف حسين ، فيما يذكره فيرث ، المسح الأثاري للنوبة ،

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1908 - 1909 (Cairo, 1912), Vol. I, pp. 127 - 52 .

٣١- مرجع سابق (هامش رقم ٢) 125 p. . ولمناقشة أطول عن عادات الدفن في ثقافة المجموعة الأولى أنظر نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) 8 - 27 pp.

Kush XIV (1966), p. 124

٣٢- كوش

٣٣- مرجع سابق (هامش رقم ٤) 5 - 74 pp. . الوصف الأصلي لهذه القبور يوجد في فيرث ، المسح الأثاري

للنوبة 12 - 204 pp. Archaeological Survey of Nubia, Report for 1910 - 1911 (Cairo, 1927),

٣٤- في مجلة الآثار المصرية 129 p. Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 30 (1944),

٣٥- قارن إيفانز - بريتشارد ، النوير 6 - 172 pp. The Nuer (Oxford, 1940)

Source Book for African

هامبلي ، مرجع للأنتروبولوجيا الأفريقية

Anthropology, Part II, Field Museum of Natural History,

Anthropological Series, Vol. XXVI (1937), pp. 552 - 4 .

٣٦- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 83 - 67 pp. .

Diospolis Parva

٣٧- اقترحت الطريقة أصلاً من بتري في 4ff . Egypt Exploration Fund, Excavation Memoir No. XX (1901),

Egypt of Pharaohs

٣٨- قارن قارندر ، مصر الفرعنة

(New York, 1966), pp. 389 - 90 .

اقترحت مراجعات إضافية في منهج التاريخ المسلسل من كيمر في

Archaeologia Geographica, Vol. 6 (1957), pp. 69 - 78 .

Kush X (1962), p. 52

٣٩- قارن نوردستروم في كوش

لدراسة محصنة فنياً وطوبغرافياً عن فخار 'ثقافة المجموعة الأولى' أنظر نوردستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) 94 - 33 pp. .

٤٠- قارن تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 75 p. .

٤١- بالرجوع إلى الجدول الثاني ، يتضح أن كل إرجاع للقبور إلى 'ثقافة المجموعة الثانية' تقريباً أجرى في الحقيقة خلال الموسمين الأوليين للمسح الأثاري الأول .

Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch - Historische ٤٢ -

Klasse Denkschriften, 62, Band 3 (1919) .

Kush XII (1964), p. 29

٤٣- قارن ساف سوديرج في كوش

Kush XIV (1966), pp. 69 - 124

٤٤- كوش



- ٤٥- ما قبله 6 - pp. 95 .
- ٤٦- قارن تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 79 .
- كراينلق و آدمز ، محررين ، City Invincible (Chicago, 1960), p. 142
- ٤٧- هذا الرأي هو رأيي الشخصي وهو خلاف ذلك الرأي الذي طرحه سميت في إعادة تقويمه "ثقافة المجموعة الثانية" (مرجع سابق ، هامش رقم ٤٤) . إن ما خلص إليه هو أنه ليست هناك قبور نوبية يمكن تأريخها يقينا إلى الفترة ما بين الأسرة الأولى والأسرة السادسة ، وأن ما يسمى بقبور "ثقافة المجموعة الثانية" يحتمل أنها تنتمي إلى فترة ما قبل الأسرات (معلومات في تبادل شخصي) .
- ٤٨- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) 2 - pp. 331 .
- ٤٩- للبيئة المتعلقة بهذه المسألة انظر آدمز في Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p. 17
- ٥٠- بالرغم من ذلك ، عثر امرى على نسب قليلة من الفخار النوبي (ثقافة المجموعة الثانية) في موقع المدينة المصرية في بوهين ، وهي تعود بتقدير مأمون إلى الأسرتين الرابعة والخامسة . انظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 114 .
- ٥١- يعتقد نورديستروم الآن أنه قد وجد صلة إنتقالية في الفخار القادم من بطن الحجر ؛ انظر كوش Kush XIV 8 - pp. 67 (1966) ، وأيا كان الحال إعتقد نورديستروم الرأي التقليدي القائل بأن "ثقافة المجموعة الأولى" في النوبة السفلى إختفت في زمن الأسرة المصرية الأولى ؛ انظر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) p. 31 .
- ٥٢- هذا ما يؤمن به الآن نورديستروم (ما قبله) وساف - سودريج (تبادل شخصي) .
- ٥٣- اقترح هذا من ناحية تريفر (تبادل شخصي) ؛ قارن كذلك نورديستروم المرجع السابق (هامش رقم ١٦) p. 32 .
- ٥٤- ساف - سودريج Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 19 - 20
- ٥٥- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) Vol. I, pp. 149 - 50
- ٥٦- ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) p. 21 .
- ٥٧- تريفر ، تبادل شخصي .
- ٥٨- انظر آدمز في مجلة التاريخ الافريقي Journal of African History (in press)
- ٥٩- قارن تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 79 .
- ٦٠- وينيفرد نيدرر تعتقد أنها قد عثرت مع ذلك على نحوت مصرية سابقة - خطوط تصويرية خاصة بالملك العنبر الذي لم يكشف سره بعد ، في الزمن المتأخر ما قبل الاسر - في نفس الضاحية ، إلا أن ذلك الأمر شديد الصعوبة . انظر مجلة مركز البحوث الأمريكي في مصر
- Journal of American Research Center in Egypt, Vol. VI (1967), pp. 87 - 91 .
- ولتعقيب معاكس من إنج هوفمان انظر Bibliotheca Orientalis, Vol. XXVII (1971), pp. 308 - 9 .
- ٦١- نقل "منحوت" الملك جبر في معرض سيرة حملة الإنقاذ بالسد العالي وهو الآن في المتحف القومي في الخرطوم.
- ٦٢- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 73 . لتوضيحات عن "منحوت" جبر ، انظر أركيل في مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 36 (1950), p. 28
- وأركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 39 . إن نسبة النص إلى الملك جبر غير مستيقن منه تماما ؛ انظر نورديستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) p. 32 .
- هيلك في : Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo ,
- و باند 5 - pp. 83 (1970) 26 ، و هوفمان ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٠) . ومع هذا ، فمن المقبول نسبة الامر إلى تاريخ أسرات قديم .

٦٣- تريقر (مرجع سابق ، هامش رقم ٤ ، p. 160) يقدر أن أقصى حجم للسكان في النوبة السفلى في ثقافة المجموعة الأولى يبلغ ٨,٠٠٠ نسمة .

٦٤- طالع ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 7 - 8 ، سميت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) p. 119 .

٦٥- لموجز سريع عن النص أنظر بريسند ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)

Vol. I, pp. 65 - 6 .

ولمناقشة ، أنظر ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 9 - 10

وأنظر سميت ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٤٤) p. 119 .

٦٦- موصوف في امرى ، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٣) pp. 111 - 14 .

٦٧- تبادل شخصي من طرفى . ب . امرى .

٦٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 111 . لقد أخطرنى دايفيد أوكونور الذى يدرس فخار مدينة المملكة القديمة أن 'إختبارى المبدئى ، غير المتعمق بعد ، يبيننى أن المادة يوجد لها نظير فى ثقافة المجموعة الأولى ، على أفضل الوجوه ، وحتماً لا يوجد شيء من الأشطار 'الباكرا' المعطوة عن ثقافة المجموعة الثالثة' (تبادل شخصي)

٦٩- أنظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 129 و تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤)

pp. 80 - 81 .

٧٠- أنظر سمبسون ، حيكما - نفر ومادة الأسرات من توشكى وأرمنا

Heka - Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna.

Publications of the Pennsylvania - Yale Expedition to Egypt, No. 1 (1963), pp. 49 - 50 .

إنقلابك في Annales du Service des Antiquités des l' Egypte, Vol. XXXVIII (1938), pp. 369 - 90 ,

و مرى في المجلة الجغرافية Geographical Journal, Vol 94 (1939), pp. 97 - 114

٧١- لمناقشة عن هذا النص ذى الأهمية البالغة ومعانيه المحتملة أنظر بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 519 - 26,

ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 11 - 30 ،

إدبل Inschriften des Alten Reiches, V (Ägyptologische Studien Ed. Otto Firkchow, 1955),

و كاديش في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 22 - 33,

و ديكسون في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 44 (1958), pp. 40 - 55

## الفصل السادس

المصادر الأساسية : للحصول على أوصاف ثقافية إعتمدت ، كما هو معتاد ، بصفة رئيسة على أركيل، تاريخ

السودان، AHistory of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 46 - 54

امرى ، مصر فى النوبة Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 133 - 71

وتريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 6

(1965), pp. 84 - 99 .

ولمناقشة حول المسائل المتعلقة بالتسلسل الزمني أجس بالعرفان خاصة نحو

مانفرد بايتاك Studien zur Chronologie der Nubischen C - Gruppe, Österreichische Akademie der

Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 97 Band (1968),

ونحو دافيد أوكونور لرسالته الدكتوراه غير المنشورة ، المادة النوبية الأثرية منذ الأزمان الأولى إلى الثانية الوسيطة . دراسة تحليلية

Nubian Archaeological Material of the First to the Second Intermediate

Periods : an Analytical Study (Cambridge University, 1969) .

١- المسح الأثري للنوبة. (Cairo, 1910), Vol. Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907 - 1908 .  
I, p. 335 .

٢- قارن أركيل ، تاريخ السودان . 46 . p. (London, 1961), 2nd ed. A-History of the Sudan,

٣- أنظر ، مثلاً ، بيتس ، الليبيين الشرقيين

The Eastern Libyans (London, 1914),

امري و كيرون ، الحفريات والمسح بين وادي السبوع وأدينان

The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, p. 4,

أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) 49 - 50 pp. ، وبايتاك

Ausgrabungen in Sayala-Nubian 1961 - 1965, Österreichische Akademie der Wissenschaften,

Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 92 Band (1966), pp. 38 - 42 .

٤- فيرسيفس ، المعالكة القديمة في النيل

The Ancient Kingdoms of the Nile (New York, 1962), pp. 100 - 102 .

٥- قارن نورستروم في كوش Kush XIV (1966), pp. 63 - 8

٦- قارن تريقر ، التاريخ والاستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69

(1965), p. 87 .

٧- ما قبله .

٨- لمناقشة مطولة عن نصوص أونى و حركوف وما تحمل من مضامين لدراسة التاريخ النوبي أنظر خاصة ساف -  
سوديرج ،

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 11 - 30,

يويوت في نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية

Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. LII (1953), pp. 173 - 8,

Ägyptologische Studien, إيدل في فيرشو ، محرراً ، دراسة المصريات

Institut für Orientforschung, Veröffentlichung No. 29 (1955) pp. 51 - 75,

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 22 - 23, كاديش في مجلة الآثار المصرية ،

Orientalia, Vol. 36 (1967), pp. 133 - 58 إيدل في ، الشرق

بايتاك ، دراسة التسلسل الزمني للجماعة - س النوبية

Studien zur Chronologie der Nubischen C-Gruppe, Österreichische Akademie der

Wissenschaften, Philosophisch - Historische Klasse Denkschriften, 97 Band (1968), pp. 144 - 8,

و أوكونور ، المادة النوبية الأثرية منذ الأزمان الأولى إلى الثانية الوسيطة :

(Cambridge University, 1969, pp. 207 - 11) دراسة تحليلية (رسالة دكتوراه غير منشورة

٩- بيدو مؤسساً بشكل جيد أنه في الغالب ، ولكن ليس جميعاً بالضرورة ، كانت الأراضي التي زارها أونى و  
حركوف في النوبة السفلى . ولمناقشة حول مواقعها المحتملة أنظر ساف - سوديرج ، مرجع مذكور أنفا (هامش

رقم ٨) ،

- إيدل في مجلة الشرق  
Orientalia, Vol. 36 (1967), pp. 133 - 58  
ويكسون في مجلة الآثار المصرية  
Journal of Egyptian Archaeology,  
Vol. 44 (1958), pp. 40 - 55 .
- ١٠- تريفر مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 81 .  
١١- أنظر الهامش رقم ١ .  
١٢- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 79 .  
١٣- قارن امرى ، مصر في النوبة 129 ، pp. 112-14 Egyptin Nubia (London, 1965),  
١٤- لدراسات عن التسلسل الزمني الداخلي لثقافة المجموعة الثالثة أنظر فيرث  
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1909 - 1910 (Cairo, 1915), pp. 13 - 20,  
إشتايندورف ، عنبة  
Aniba I (Cairo and Glückstadt, 1935), pp. 5 - 10  
تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 90 - 106 .  
بايتاك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، و أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) .  
١٥- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 97 - 8 .  
١٦- ساف - سودبرج في كوش  
Kush XI (1963), p. 58  
١٧- سوينورن في نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية  
Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. LXIII (1965), pp. 161 - 7 .  
١٨- راندال - ماك إيفر و وولى في مجلة أريكا  
Areika, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. I  
(1909), pp. 1 - 18 .
- ١٩- ساف - سودبرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 130 - 32  
سوينورن ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 165 .  
٢٠- ساف - سودبرج ، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ١٦) .  
٢١- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 97 - 8 .  
٢٢- قارن إشتايندورف ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) ، pls. 56,57,65 .  
٢٣- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 97 .  
٢٤- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 137 .  
٢٥- إيفانز - بريتشارد ، النوير  
The Nuer (Oxford, 1940), p. 16  
٢٦- قارن ماك بيرنى ،  
The Stone Age of Northern Africa (Hammondsworth, 1960), p. 243 .  
وكذلك بنتر ، البيئة وعلم الآثار  
Environment and Archaeology (Chicago, 1964), pp. 449 - 53 .  
٢٧- تينابل شخصي من روى ل . كارلسون .  
٢٨- قارن إيفانز - بريتشارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومقالات أخرى  
Social Anthropology and Other Essays (Glencoe, Ill., 1964), p. 193 .
- ٢٩- قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 48 - 9 .  
٣٠- قارن الهامش رقم ٢٤ .  
٣١- لدراسات عن التطور الزمني لقبر "ثقافة المجموعة الثالثة" أنظر إشتايندورف ، المرجع المشار إليه أنفا (هامش رقم ١٤) ؛ امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 135 - 68 ؛ تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 90 - 106 ؛ بايتاك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ؛ و أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 102 - 42 .  
٣٢- توجد رؤوس البقر في أكثر الحالات مقرونة "بالقبر الجامع" ، وهو ، على الرغم من أنه مماثل في نوعيته لقبور ثقافة المجموعة الثالثة ، فإنه فيما يبدو من فعل أجاناب دخلاء في النوبة السفلى خلال الفترة الوسيطة الثانية (أنظر

## الفصل الثامن) .

- ومع هذا ، فإن بعض قبور ثقافة المجموعة الثالثة التي لايرقى إليها شك هي أيضاً مصحوبة برؤوس بقرية .  
٣٣- لأمتلة عنها أنظر على وجه الخصوص إشتايندورف ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) ،  
pls. 8 - 14 .  
٣٤- قارن أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) 20 - 219 pp .  
٣٥- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) 137 p .  
٣٦- لصياغة مبسطة للنص أنظر بديج ، السودان المصري  
The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 518 - 19 .  
٣٧- ما قبله 520 p .  
٣٨- نفسه 2 - 521 pp .  
٣٩- قاردين ، مصر الفرعنة Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), p. 99  
٤٠- أنظر الهامش رقم ٩ .  
٤١- تريفير ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) 160 p .  
٤٢- قارن سيرفس ، وجوه جانبية في الاثنولوجيا  
Profiles in Ethnology (New York, 1963), pp. xxiv - xxix .  
٤٣- لمناقشة عن الأنظمة العشائرية القطاعية أنظر خاصة المرجع نفسه ، pp. xxi - xxiv ،  
ميدلتون و تيت ، محريين ، قبائل بلا حكام  
Tribes without Rulers (London, 1958), pp. 1 - 31 .  
و أوتدريج ، ثقافات و مجتمعات إفريقيا  
Cultures and Societies of Africa (New York, 1960), pp. 51 - 2 .  
٤٤- هذا المصطلح الموحى صاغه ماير فورتنز : قارن  
The Web of Kinship among the Tallensi (London, 1949) .  
٤٥- أنظر ميدلتون و تيت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٣) 16 - 18 pp .  
٤٦- إيفانز - بريتشارد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) 4 - 193 pp .  
٤٧- ما قبله 203 p .  
٤٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) 139 p .  
٤٩- فيشير في كوش Kush IX (1961), pp. 44 - 80  
٥٠- عن هذا الجزء من النص طالع بديج ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) ، 22 - 520 pp .  
٥١- مثال ذلك أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) 60 p ، ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ،  
pp. 83 - 7 .  
٥٢- لسرود مفصلة طالع ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) 80 - 54 pp .  
٥٣- قارن أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) 17 - 216 pp

## الفصل السابع

- المصادر الأساسية : لوصف للمخلفات الأثرية للنشاط المصري في النوبة إعتمدت جُل الاعتماد على امرى ، مصر  
في النوبة Egypt in Nubia (London, 1965) ،  
وبخاصة 58 - 141 pp ، 101 - 14 pp . وحول النصوص التاريخية وتفسير البقايا الأثرية كان مصدرى الأساسى  
ساف - سودريج ، المصريون و النوبيون

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 63 - 116 .

ورسمت صورتى للمملكة المصرية الوسطى أساساً من جون ويلسن ،

The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951), pp. 125 - 53 .

ويوجد مرجع جديد تم طبعه تكليف تريقر ، النوبة في ظل الفراعنة

Nubia under the Pharaohs (London, 1976), pp. 40 - 81 .

١- لمناقشة ثقافات مصر ما قبل الأسرات أنظر بوجي خاص هيز ،

مصر الأزل قديماً  
Most Ancient Egypt (Chicago, 1964)

بومقارنيل ، مصر ما قبل الأسرات

Predynastic Egypt, Cambridge Ancient History, Revised Edition of Volumes I and II, Fascicle 38  
(1965) .

٢- يقول التاريخ المصرى التقليدى أن القطر تم توحيدهِ أولاً بمن يدعى الملك مينس : أنظر بخاصة امرى ،

Archaic Egypt (Hammondsworth, 1961), pp. 21 - 37 ، ولمناقشة لما كان على أكثر احتمال المجرى

الحقيقى للأحداث أنظر بخاصة كيصر فى

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 81 (1956), pp. 87 - 109 .

٣- قارين ويلسن ، وآخرين ، فى كارلنق و آدمز ، محجرين ،

City Invincible (Chicago, 1960), pp. 124 - 64 .

٤- قارين تريقر ، التاريخ والإستيطان فى النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69

(1965), p. 79 .

٥- دراسة التاريخ 194-337 (New York, 1962), Vol. 5 A Study of History, pp.

٦- بروس تريقر (تبادل شخصى) يقترح أن فراعنة المملكة القديمة ، بدأ بسنفرى ، ربما ثابروا على سياسة متعمدة  
لطرود أو إستبعاد السكان الاصليين للنوبة السفلى لكيما يقوموا بأعمالهم التعدينية فى أمان ، ولكن الدلائل على هذه  
المسألة غير كامل . والذى يبدو من وجوه كثيرة هو أن غياب سكان اصليين - كسوق للبضائع المصرية وكمصدر  
للعمل على السوا - سيشكل خسارة أكثر منه نفعاً للمصريين .

٧- مصر الفراعنة 100 (New York, 1966), p. Egypt of the Pharaohs

٨- نشرة متحف (بوسطن) للفنون الجميلة

Bulletin of (Boston) Museum of Fine Arts, Vol. XXVII (1929), pp. 66 .

٩- أنظر "السجل النصى" ، الفصل الخامس .

١٠- للنصوص الملائمة أنظر بريستد ، مدونات مصر القديمة

Ancient Records of Egypt (New York, 1962), Vol. I, pp. 161 - 7, 204, 296 ; Vol. II, pp. 5, 27 - 35,  
50, 327 - 9, 334 - 6 ; Vol. III, pp. 169 - 8 ; Vol. IV, pp. 80 - 81, 357 - 8 .

ولمناقشة ، أنظر على وجه الخصوص ساف - سودريج ،

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 7 - 10, 57 - 79, 141 - 75 .

١١- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 160 .

١٢- لمناقشة معدوبة أنظر بخاصة ساف - سودريج ، مرجع سابق ،

(هامش رقم ١٠) pp. 230 - 34 .

١٣- أنظر خصوصاً المرجع نفسه 13 - 210 pp. ، وفيركوتر فى كوش :

Kush VII (1959), pp. 133 - 53 .

١٤- قارين امرى ، مصر فى النوبة  
Egypt in Nubie (London, 1965), p. 129

- هينتز في كوش  
Kush XIII (1965), pp. 13 - 14 .
- بتروفسكى في حفريات النوبة 40 - 134 (1967) (Cairo, 1967), pp. 134 - 40  
Fouilles en Nubie (1961 - 1963) (Cairo, 1967), pp. 134 - 40
- سميسون  
Heka - Nefer and the Dynastic Material from Toshka and  
Arminna, Publications of Pennsylvania - Yale Expedition to Egypt No. 1 (1963), pp. 50 - 53 .
- ١٥- قارن ويلسن ، ثقافة مصر القديمة  
The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951), pp. 143 - 4, 215 - 18 .
- ١٦- كيز ، مصر القديمة 14 - 313 (1961) (Chicago, 1961), pp. 313 - 14 .  
المزيد عن المناقب أنظر إنقلابك في
- Annales du Service des Antiquités de L'Égypte, Vol. XXXIII (1933), pp. 65-74 and Vol.  
XXXVIII (1938), pp. 369 - 90 .
- ليتل في  
Annales du Service des Antiquités de L'Égypte, Vol. XXXIII (1933), pp. 75 - 80 .
- موراي في المجلة الجغرافية 114 - 97 (1939) (Geographical Journal, Vol. 94 (1939), pp. 97 - 114
- روفي  
Annales du Service des Antiquités de L'Égypte, Vol. XXXVIII  
(1938), pp. 391 - 6, 678 - 88 .
- ١٧- أنظر سميسون (هامش رقم ١٤) op. cit. , pp. 48 - 50 .
- ١٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 112 - 13 .
- ١٩- امرى في كوش 17 - 116 (1963) (Kush XI (1963), pp. 116 - 17 .
- ٢٠- قارن ادمز في كوش 75 - 62 (1962) (Kush X (1962), pp. 62-75  
Kush IX (1961), pp. 33 - 8, Kush X (1962), pp. 62-75
- لقد اقترح في حقيقة الأمر أن الهياكل المائلة في بوهين هي على الأرجح قمامان لصنع الفخار أكثر منها أفران  
لصهر المعادن (شيشى ، تبادل شخصى) .
- ٢١- كان هذا فيما هو واضح إلتطاع المنقب ، وهو ليس مما يظهره عدّ الشظايا الحقيقية . وعليقا لدايفيد أوكونور  
(في تبادل شخصى) ، الذى يدرس فخار بوهين للنشر ، فإن شظايا ما يسمى بشقوق ثقافة المجموعة الثانية من  
مدينة المملكة القديمة تمثل عينة مشابهة تماما لأنواع ثقافة المجموعة الأولى ، بدون أن تكون محتوية على الألوان  
المبرقشة ، بزخرفها (قارن الفصل الخامس) .
- ٢٢- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 120 .
- ٢٣- فيرث ، المسح الأثارى للنوبة Archaeological Survey of Nubia, Report for  
1908 - 1909 (Cairo, 1912), Vol. I, p. 24 .
- لوكاس،  
Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), pp. 236 - 239 .
- يعتقد دافيد أوكونور أن المستوطنة الأصلية في كويان أنشئت أثناء المملكة القديمة ، إلتراضاً من أجل الحصول  
على ترسبات النحاس والذهب في وادى العلاقي ، أنظر  
Nubian Archaeological Material of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical  
Study (Unpublished doctoral dissertation, Cambridge University, 1969), p. 207 .
- ٢٤- هينتز ، مشار إليه انفا (هامش رقم ١٤) .
- ٢٥- بتروفسكى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 134 - 5 .
- ٢٦- قارن امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 114 ، رو ، مذكور انفا (هامش رقم ١٦) .
- ٢٧- لمناقشة عنها أنظر فاندبر La Famine dans L'Égypte Ancienne (Cairo, 1936)
- و بل في المجلة الأمريكية للأثار  
American Journal of Archaeology, Vol. 75 (1971), pp. 1 - 26 .

- ٢٨- أنظر ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 112 .
- ٢٩- أنظر فيشر في كوش Kush IX (1961), pp. 44 - 80 .
- ٣٠- قارن ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 126 .
- ٣١- لمناقشة أنظر ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 57 - 61 .
- ٣٢- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 141 - 2 .
- ٣٣- كل قلاع الشلال الثاني ، عدا إثنين ، نُقبت في الجزء الباكر من القرن العشرين بواسطة متحف بوسطن للفنون الجميلة . ولملخصاً عن هذا العمل أنظر دنهام في كوش :
- Kush III (1955), pp. 70 - 74
- ورايترز في Kush VIII (1960), pp. 11 - 24 .
- ولتقارير محددة أنظر دنهام و جنسن ، سمعة كومة ، قلاع الشلال الثاني Semna Kumma, Second Cataract Forts, Vol. I (Boston, 1960)
- وبدنام ، ادونارتي ، شلفاك ، مرقسة Uronarti Shalfak Mirgissa, Secod Cataract Forts, Vol. II (Boston, 1967) .
- ٣٤- قارن ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 84 - 5 .
- سميث في كوش Kush XIV (1966), pp. 228 - 9
- وفيركوتر ، مرقسة Mirgissa I (Paris, 1970), pp. 20 - 22
- ٣٥- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 148 - 9 .
- ٣٦- ما قبله ، p. 143 .
- ٣٧- أنظر قائمة الرمسيسيوم في قارينز ، على وجه الأخص Journal of Egyptian Archaeology, Vol. III (1916), pp. 184 - 92
- وبورخارت Altägyptische Festungen an der Zweiten Nilschnelle, Leipzig, Veröffentlichungen der Ernst von Sieglin - Expedition, No. 3 (1932) .
- ٣٨- هذا الاسم ، وهو غير مكتمل الذكر في قائمة رمسيسيوم ، يبرز في السطح في معرض حفريات مستجدة في جنوب سمنا ، أقصى القلاع المصرية موقعاً في الجنوب . أنظر زيكاو في مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 58 (1972), pp. 83 - 91 .
- ٣٩- لتعريف بأسماء قلاع الشلال الثاني المختلفة ، أنظر خاصة ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 80 - 98 .
- فيركوتر في كوش Kush VIII (1965), p. 66 ونودست في كوش
- ٤٠- Kush XIV (1966), pp. 174 - 6 وأنظر سميث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) p. 230 .
- ٤١- أنظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 148 - 9 .
- ٤٢- أنظر راندال - ماك إيفر و ولى ، بوهين Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. VII - VIII (1911) .
- ٤٣- من المحتمل أن يتأخر مجيء التقرير المحدد عن هذه الحفريات بسبب الوفاة المفاجئة للبروفسور امرى في مارس ١٩٧١ . أما التقارير الأولية فتوجد في كوش Kush VII (1959), pp. 7 - 14 ; VIII (1960), pp. 7 - 10 ; IX (1961), pp. 81 - 6 ; X (1962), pp. 106 - 8 ; XI (1963), pp. 116 - 20 ; XII (1964), pp. 43 - 6 ;
- وفي مجلة الآثار المصرية Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 44 (1958), pp. vii - viii ; 45 (1959), pp. 1 - 2 ; 47 (1961), pp. 1 - 3 ; 48 (1962), pp. 1 - 3 ; 49



3 - 2 . (1963) .

٤٣- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 149 .

٤٤- لأوصاف مختصرة شائعة وبرسومها التخطيطية عن قلاع الشمال الثانى في غالبيتها انظر المرجع نفسه pp. 143 - 9 . وإعتبار أكثر تفصيلا عن قواعد الهندسة المصرية العسكرية كما تمثلها القلاع انظر لورنس في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 51 (1965), pp. 69 - 94 .

انظر كذلك كمب فى أوكر ، ترينقهام و دمبلى ، محررين ،

Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 651 - 6 .

٤٥- كُتب وصف امرى لبوهين كأكبر قلاع الشمال الثانى (مرجع سابق ، هامش رقم ١٤ ، p. 148) قبل أن يكشف الحفر عن الحد الكامل لقلعة مرقسة .

٤٦- لسرود أولية عن الحفرات في مرقسة انظر ويلر Kush IX (1961), pp. 87 - 179

ومقالات كتبها فيركوتر في كوش Kush XII (1964), pp. 57 - 62

Kush XIII (1965), pp. 62 - 73 ; Bulletin de la Société Française d'Égyptologie, No. 37 - 8 (1963), pp. 23 - 30 ; No. 40 (1964), pp. 4 - 12 ; No. 43 (1965), pp. 7 - 13 ; No. 49 (1967), pp. 5 - 11 ; No. 52 (1968), pp. 7 - 14 ; Revue d'Égyptologie, Vol. 15 (1963), pp. 69 - 75 ; and Vol. 16 (1964), pp. 179 - 91 .

اما الاول من بين تقارير عديدة يعمل على أن تصدر محددة فهو فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) .

٤٧- لتقرير ، انظر رويس في كوش Kush XII (1964), pp. 54 - 6

٤٨- انظر بدوى في كوش Kush XII (1964), pp. 47 - 53

وفي مجلة الآثار Archaeology, Vol. 18 (1965), pp. 124 - 31

وفي مجلة مركز البحوث الأمريكى في مصر Journal of American

Research Center in Egypt, Vol. V (1966), pp. 23 - 7 .

٤٩- انظر دنهام ، Uronarti Shalfak Mirgissa,

Second Cataract Forts, Vol. II (Boston, 1967), pp. 115 - 40 .

٥٠- للتقرير المحدد عن هاتين القلعتين انظر دنهام و جنسن ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣)

٥١- لتقرير عن الحفرات التجريبية في هذا الموقع انظر فيركوتر في كوش

Kush XIV (1966), pp. 125 - 34 .

ولم تُرفع التقارير بعد عن حفرات أشد تكثيفا من قبل المعهد الشرقى بشيكاغو .

٥٢- للتقرير المحدد ، انظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٩) pp. 3 - 114 .

٥٣- لأوصاف موجزة شائعة ورسوماتها انظر امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 150 - 52 .

٥٤- للتقرير الخاص بالتقيب في هذه القلعة انظر امرى و كيروان

The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, pp. 26-44 .

٥٥- قارن امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 107 - 10 .

٥٦- انظر فيركوتر في Bulletin de la Société Française d'Égyptologie, No. 43 (1965), pp. 10 - 11 .

وخاصة فيلا في عرض المصريات

Revue d'Égyptologie, Vol. 22 (1970), pp. 171 - 99 .

٥٧- مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 153 .

٥٨- ما قبله

- ٥٩- ساف - سوديرج ، تبادل شخصي .
- ٦٠- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 68
- ٦١- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 153
- ٦٢- لمناقشة سطوة في هذا الموضوع انظر فيلا ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٦) ، 9 - 198 pp.
- ٦٣- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 175
- ٦٤- قارن رايزنر في كوش  
Kush III (1955), pp. 26 - 69
- ٦٥- انظر ادمز و نورستروم في كوش  
Kush XI (1963), p. 23
- ٦٦- انظر هينتز في كوش  
Kush XII (1964), pp. 40 - 41
- ٦٧- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 149
- ٦٨- كما يقترح اركيل : انظر  
A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961). p. 60
- ٦٩- كل من ساف - سوديرج (مرجع سابق ، هامش رقم ١٠ ، 91 - 89 pp)  
وفيركوتر (مرجع سابق ، هامش رقم ٣٤ ، 3 - 171 pp) يعارضان بشدة هذا الرأي ، معتقدين أن قلاع الشلال  
الثاني لعبت دوراً هاماً في الدفاع عن حدود مصر الجنوبية وحماية التجارة النهرية على قدم المساواة .
- ٧٠- إقتراح سبق أن طرحه رايزنر في  
Sudan Notes and Records, Vol. XII (1929), pp. 150 - 51
- و ساف - سوديرج في المرجع المذكور انفا (هامش رقم ١٠) p. 91
- ٧١- غير وارد كتقرير كامل مطبوع بعد : لتقارير أولية انظر فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) 8 - 67 pp  
وفي  
Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des  
Séances de L'Année 1966, pp. 278 - 9
- ٧٢- المرفأ الرئيس ومنطقة التخزين في بوهين يبدو أنها كانت في كور ، ثلاثة أميال جنوباً . لتقرير عن الحفريات  
هنا ، انظر سميت ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) .
- ٧٣- انظر فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) 9 - 68 pp و فيلا في فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤)  
14 - 204 pp.
- ٧٤- إفتراض في العادة من المحتوى أن هيح إسم آخر لسمنة : قارن بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) ، Vol. 1, p. 294 ، ويلسن ، مرجع سابق ، (هامش رقم ١٥) p. 137 ، و امري ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 157 .  
ومع هذا يجادل ذلك التفسير من ناحية فيركوتر الذي يصور هيح في مكان ما بين مرقسة و بوهين . انظر Revue  
d'Égyptologie, Vol. 16 (1964), pp. 187 - 8
- ٧٥- مأخوذ من امري ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 157
- ٧٦- سنوات قليلة لاحقة شيد سنوسرت "مسلة جنوبية" اشد عنفاً ، انظر لترجمتها المرجع المذكور من قبل ، pp. 157 - 8
- ٧٧- قارن ميادئ الاقتصاد السياسي  
Principles of Political Economy, 5th ed. (New York, 1923), Vol. I, pp. 258 - 9
- ٧٨- انظر سميت في مجلة الآثار المصرية  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXXI (1945), pp. 3 - 10
- ٧٩- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 95
- ٨٠- لمناقشة عن هذه المسألة انظر ، بين مراجع أخرى ، ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 20 - 14 ، بيكسون في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 44 (1958), pp. 40 - 55

- و إيدل في الشرق  
 ٨١- آثار هينتز جدلاً حول هذه النقطة : أنظر  
 Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 91 (1964). pp. 79 - 86 .  
 أما بريس ، مع ذلك ، فقد بيّن صلة لغوية محتملة بين إسم "يام" القديم وإسم "كرمة" الحديث : أنظر  
 Altorientalische Forschungen, Vol. I (in press)  
 وتوجد مناقشة أكمل حول موضوع كرمة في الفصل القادم .  
 ٨٢- إعتبر رايزنر أن بدو الصحراء الغربية كانوا يشكلون أقوى مهدد تجارة مصرالنهرية ، أنظر المرجع المذكور  
 أنفا (هامش رقم ٧٠) p. 146 .  
 ٨٣- أنظر الفصل السادس .  
 ٨٤- للمناقشة أنظر ساف - سودربرج ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) 5 - 83 pp. ، ولتقرير المُتَقَبِّ كاملاً  
 طالع إشتايندورف ،  
 Aniba II (Cairo and Glückstadt, 1937), pp. 6 - 16 .  
 ٨٥- للمناقشة أنظر ساف - سودربرج ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) 9 - 85 pp. ، ولتقرير المُتَقَبِّ أنظر  
 امرى و كيرون ، المذكور أنفا (هامش رقم ٥٤) .  
 ٨٦- أنظر قريفيث في  
 University of Liverpool Annals of  
 Archaeology and Anthropology, Vol. VIII (1921), pp. 80 - 82 and pl. XVI  
 ٨٧- أنظر بخاصة نوبستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) 8 - 172 pp. .  
 ٨٨- يعتقد ساف - سودربرج أن قلاع فرس وسرة قصد منها إدارة شئون السكان النوبيين لأنه لا يستطيع أن يرى  
 أى سبب ظاهر آخر لوجودها (مرجع سابق ، هامش رقم ١٠ ، p. 85) ، على أن هذا الاعتقاد لاتدعمه بيئة أثرية  
 صلبة . وهناك جبانة ذات حجم لكثافة المجموعة الثالثة تجاور فرس ، وجبانة أصغر كثيراً فى صاحبة سرة ،  
 ولكن ، فى كل حالة ، كانت هناك تركزات سكانية أكبر حجماً ، أميلاً قليلة نحو الجنوب .  
 ٨٩- قارين بوجي خاص لورنس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) .  
 ٩٠- فى هذا التفسير ، أدين فى الأساس ل جون ويلسن : أنظر خصوصاً المرجع السابق (هامش رقم ١٥) pp. 4 - 141 .  
 ٩١- ويأخذ علماء كثيرون فى المصريات وجهة نظر مختلفة تماماً عن المملكة الوسطى .  
 ٩٢- أنظر إنقلابك ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) و رو ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) .  
 ٩٣- ليثل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) ، موراى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) .  
 ٩٤- سميسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) 53 - 50 pp. . لقد إقترح أن الأرقام ربما تمثل عدد الساعات التى  
 عملها الرجال أكثر منها عدداً للرجال والحيوانات (تريقر فى تبادل شخصى) .  
 ٩٥- رو فى . p. 91 - 188  
 Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Vol. XXXIX (1939), pp. 188 - 91 .  
 ولو كاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) 41 - 240 pp. .  
 ٩٥- لو كاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) 239 p. .  
 ٩٦- ما قبله ، p. 236 .  
 ٩٧- قارين كيرنى فى  
 Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 33 (1947), p. 56  
 بتروفسكى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) ، p. 135  
 ٩٨- أنظر جُنْ فى  
 Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Vol. XXIX  
 (1929), p. 11 .  
 ٩٩- قارين ساف - سودربرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) 9 - 86 pp. .  
 ١٠٠- أنظر فيركوتير فى كوش  
 Kush VII (1959), pp. 133 - 4  
 ١٠١- أنظر شيتيك فى كوش  
 Kush V (1957), pp. 47 - 8

إن مناجم الذهب في دويشات قامت مصلحة آثار السودان بالتحقيق في شأنها بشكل أكثر إكتمالاً عام ١٩٦٦ ، ولكن لم يظهر تقرير بعد عن هذا العمل .

١٠٢- مأخوذ من قارنتر ، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 166 . وفي هذا المحتوى لابد أن "مصر" تشير إلى كل الاقليم الذي يعده الفرعون مشروعاً له ، بما في ذلك النوبة السفلى إفتراضاً . وليس هناك إقتراح أن النوبيين حكموا أى جزء من مصر المعلومة خلال الفترة الوسيطة الثانية .

١٠٣- قارن ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 128 - 9 :  
ساف - سوديرج في كوش Kush IV (1956), pp. 59 - 60

١٠٤- أنظر هامش رقم ٧٨ .

١٠٥- قارن ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 126 - 8 .

١٠٦- أنظر خصوصاً امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 102 , 167 .

١٠٧- أنظر آدمز في Antiquity, Vol. XLII (1968), pp. 207 - 8

١٠٨- عن التينة المتعلقة بالحرق في سمّة ، أنظر دونهام و جنسن ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 6 .

١٠٩- لا يعتقد ساف - سوديرج أن الحاميات سُحبت ، ولكنها إمتلكت بالتدريج بعد أن قطع عنها الإمداد من مصر ، أنظر المرجع السابق (هامش رقم ١٠) pp. 126 - 7 .

١١٠- قارن نوبستد ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 183 . ويؤمن المنقّب بأن قلعة دور جنارتى شُيّدت وشُغلت تماماً في المملكة الجديدة (نفسه ، p. 186) ، ولكنى أعتبر خصائصها الهندسية مع البنية المشار إليها في التو موحية بأنها في الأصل بنيت في المملكة الوسطى ، ثم أُعيد إنشاؤها بقدر كبير (بعد مضي فترة من الاحتلال النوبي المطوق لها) في المملكة الجديدة .

١١١- أنظر بدوى في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. V (1966), pp. 23 - 4

١١٢- ساف - سوديرج في مجلة الآثار المصرية

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (1949), pp. 50 - 58

١١٣- ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢) p. 55

بارنز في كوش

١١٤- قارن ، المرجع نفسه ، pp. 52 , 56 .

## الفصل الثامن

المصادر الأساسية : العمل الرئيس في وصف كرمة لايزال هو المجلدان "حفريات في كرمة"

"Excavations at Kerma", Harvard African Studies, Vols. V - VI (1923)

وهما لجورج ١ رايزنر . ومنذ وقت قريب وقع في اليد وصف تأليفى لمبارك الريح عن مشكلات ثقافة كرمة في تاريخ السودان القديم مراجعة في ضوء حضارة السودان القديمة كعملية متواصلة ،

The Problems of Kerma Culture of Ancient Sudan Reconsidered in the Light of Ancient Sudan Civilization as Continuous Process (unpublished doctoral dissertation, Humboldt-Universität zu Berlin).

ولاعتبار الأهمية العظيمة تاريخياً لكرمة إعتدلت أيضاً على ساف - سوديرج

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 103 - 16,

Studien zur chronologie der Nubischen بايتاك

C-Gruppe, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch

Nubian Archaeological Material of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical Study (unpublished doctoral dissertation, Cambridge University, 1969) .

١- بريز يعتقد الآن أنه قد بين علاقة لغوية بين "كرمة" الإسم الحديث ، و "يام" الإسم القديم : انظر Altorientalische Forschungen, Vol. I (in press) .

٢- رايزنر ، 'حفريات في كرمة' "Excavations at Kerma" , IV, Harvard African Studies, Vol. VI (1923), pp. 323 - 5 .

٣- المرجع نفسه ، 30 - 329 pp : فيركوتر في Mélanges offerts á Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 209 - 10 .

٤- انظر أوكونور Nubian Archaeological Materil of the First to the Second Intermediate Periods : an Analytical Study (unpublished doctoral dissertation, Cambridge university, 1969) p. 139 .

٥- 'حفريات في كرمة' "Excavations at Kerma" , III, Harvard African Studies, Vol. V (1923), p. 71

٦- قارن جنكر Bericht über die Grabungen der Akademie der

Wissenschaften in Wien auf den Friedhöfen von EL-Kubanieh-Nord, Winter 1910 - 1911, Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 64, Band 3 (1920), p. 29.

٧- 'حفريات في كرمة' "Excavations at Kerma", Harvard African Studies, Vols. V and VI (1923) .

٨- قارن ساف - سودريج ، Ägypten und Nubien (Lund, 1941), p. 103 .

٩- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 32 .  
١٠- نفسه ، 39 p .

١١- هذا بالضرورة هو موقف ساف - سودريج (مرجع سابق ، هامش رقم ٨ ، 16 - 103 pp) .  
ومع هذا ، يؤمن مينتز أن كرمة كانت في المقام الأول إقامة نوبية ملكية أكثر منها نقطة تجارية : انظر Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol 91 (1964), pp. 82 - 5 .

١٢- قارن رايزنر ، المرجع السابق (هامش رقم ٥) 5 - 24 pp : ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) 16 - 115 pp : أركيل ، تاريخ السودان .

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 68 .

١٣- طالع تريقر ، History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 95 .

١٤- إقترح هذه الوظيفة أنفا ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، 105 p .

١٥- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) 61 - 528 pp .

١٦- نفسه ، 65 p .

١٧- نفسه ، 69 p .

١٨- نفسه ، 66 p .

١٩- في المدفن التالي : انظر المرجع نفسه ، 81 p .

٢٠- نفسه ، 79 p .

٢١- هذا مناقض لإقتراح رايزنر (نفسه 17 - 116 pp) ، ولكنه يبدو أكثر منطقية على أساس بدهي.

٢٢- نفسه ، p. 265 .

٢٣- يشير ساف - سوديرج إلى أن راينزر كان يعتبر في الأصل قوم كرمة نوبيين  
(Bulletin of the Museum of Fine Arts, Vol. XIII, 1915, pp. 29-36, 71-83)

ولم يتم تبني نظرية هويتهم المصرية إلا مؤخراً . وللتعرف على التعبير الكامل للرأي المذكور أخيراً أنظر راينزر ،  
المرجع السابق (هامش رقم ٢) 9 - 554 pp .

٢٤- جنكر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) ؛

جنسكر Die Nubische Ursprung der Sogennanten Tell el-Jahudiye-Vasen, Akademie der  
Wissenschaften in Wien, Philosophisch-Historische Klasse Sitzungsberichte, 198, Part 3 (1921)

ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، 13 - 111 pp .

٢٥- أكثر من مائة تمثال كامل أو كقطع مكسورة عُثِرَ عليها وسط القبور "الملكية" في كرمة : أنظر راينزر ، مرجع  
سابق (هامش رقم ٢) 9 - 554 pp .

٢٦- للجديد حول الجدول الدائر عن كرمة أنظر هينتز ، المرجع السابق (هامش رقم ١١) ؛

الريح ، The problems of Kerma Culture of Ancient Sudan Reconsidered in  
the Light of Ancient Sudan Civilization as a Continuous Process (unpublished doctoral  
dissertation, Humboldt-Universität zu Berlin) ،

و آدمز في :

Ägypten und Kusch, Schriften zur Geschichte und Kultur des Alten Orients, Zentralinstituts für  
Alte Geschichte und Archäologie der Akademie der Wissenschaften der DDR, Vol. 13 (1976), pp.  
38 - 48 .

٢٧- أنظر الهامش رقم ٢ .

٢٨- أنظر الهامش رقم ٢٤ : كذلك هينتز ، المرجع المشار إليه أنفا (هامش رقم ١١) .

٢٩- في النوبة تجد الأسوار في بناء مستقيم بشكل غير عادي والزوايا قائمة في صحة ملامح دالة على الهندسة  
الفرعونية : وهي بوضوح مفتقرة إلى البناء الطوبى كما يمارسه أهالي النوبة .

٣٠- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) 130 p . لقد عبر عن هذه الأفكار أصلاً جنكر في  
Studies Presented to F. Ll Griffith (London, 1932), pp. 297 - 303

٣١- هينتز (مرجع سابق ، هامش رقم ١١) يذهب إلى أبعد من ذلك ، منكرًا وجود أى من الأعمال المصرية التجارية  
في كرمة . وفي رأيه أن المصريين الوحيديين الذين ربما كانوا مقيمين في كرمة هم صناع في خدمة الحاكم النوبى

٣٢- راينزر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) 126 p .

٣٣- اقترحت هذه الامكانية أولاً من ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) 115 p ، ثم من هينتز بتشدد  
أكثر ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) 84 p .

ويعتقد أوكونور (مرجع سابق ، هامش رقم ٤ ، 79 p) أن الترميمات الموصوفة في لوح إنتف ربما أنها نفذت في  
قلعة الحدود المصرية في إلفانتين (أسوان) .

٣٤- إن وصف راينزر بتفاصيله الدقيقة الذى أعاد فيه صياغة التسلسل التطورى للمدفن التلى العظيم (مرجع سابق  
، هامش رقم ٥ ، 21 - 116 pp) مفتوح للمقارنة على عدد من الحجج التى لا يمكن التوسع فيها هنا . أنظر آدمز ،

مرجع سابق (هامش رقم ٢٦) 7 - 45 pp .

٣٥- راينزر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) 86 p .

٣٦- دُعيت هذه الفكرة من قبل بواسطة ساف - سوديرج ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٨)

16 - 110 pp ، وفي كوش 61 - 59 pp (Kush IV (1956) ،

وهينتز المرجع السابق (هامش رقم ١١) .

- ٣٧- في تقريره ، أشار في تماسك إلى الجزء الجنوبي من الجبانة على أنه الجبانة "المصرية" وإلى الجزء الشمالي أنه الجبانة "النوبية" مع التسليم بأنه لا يمكن رسم خط فاصل محدد بينهما .  
رايزنر مرجع سابق (هامش رقم ٥) ، pp. 61 - 121 .
- ٣٨- قارن بوسنر في كوش  
Kush VI (1958), p. 55
- ٣٩- أنظر ميلز و نورديستروم في كوش  
Kush XIV (1966), pp. 8 - 10
- ٤٠- إكتشفت من مصلحة آثار السودان بين ١٩٦٦ ، ١٩٦٩ ، وهي مواقع لم يعلم عنها بعد في تقرير منشور .
- ٤١- بوسنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٨) pp. 39 - 68 ؛  
هينتز ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 83 - 5 .
- ٤٢- أنظر قرأتين في فيركوتر وآخرين ، مقالات في مصر والسودان القديم  
Études sur l'Égypte et le Soudan Anciens, Cahier de Recherches de l'Institut de Papyrologie et d'Égyptologie de Lille (1973), pp. 143 - 84 .
- ولتقرير ميدنى سابق أنظر فيركوتر في كوش  
Kush VI (1958), pp. 148 - 51
- ٤٣- أتاحت لى سائحة لفحص كثير من المادة المجلوبة من أكمة ، ميدانياً عام ١٩٦٩ .
- ٤٤- تبادل شخصى مع أندريه فيلا .
- ٤٥- ميلز و نورديستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٩) ، pp. 10 - 11 .
- ٤٦- ساف - سوديرج في كوش  
Kush XV (1973), pp. 230 - 31
- ٤٧- فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) ؛ فيلا في فيركوتر ،  
Mirgissa I (Paris, 1970), pp. 223 - 305 .
- ٤٨- آدمز و نورديستروم في كوش  
Kush XI (1963), pp. 19 - 21
- ٤٩- راندال - ماك إيغر و وولى ، بوهين
- Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. VII-VIII (1911), pp. 133 - 5 and pls. 49 - 52.
- ٥٠- إشتايندورف ،  
Aniba I (Cairo and Glückstadt, 1935), pp. 196 - 201
- ٥١- فيرت ،  
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1910 - 1911 (Cairo, 1927), pp. 50 - 98, 128 - 9 .
- ٥٢- أنظر هامش رقم ٤٧ للمراجع .
- ٥٣- أنظر الهامش رقم ٤٨ للمراجع .
- ٥٤- أنظر ساف - سوديرج ، مجلة الآثار المصرية  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (1949), p. 55 .
- ٥٥- قارن بخاصة ساف - سوديرج في كوش  
Kush IV (1956), pp. 54 - 61
- ٥٦- قارنر ،  
Egypt of the Pharaohs (New York, 1966) p. 166 .
- وأنظر الفصل السابع ، الهامش رقم ١٠٢ .
- ٥٧- لقائمة بالمواقع التي وجدت بها القبور الجامعة في مصر نفسها أنظر ساف - سوديرج ،  
المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 136 - 7 .
- ٥٨- عن القبور الجامعة في النوبة السفلى أنظر بايتاك  
Studien zur Chronologie der Nubischen C-Gruppe, Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 97 (1968), pp. 117 - 23, 179 .
- ٥٩- جنكر ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 33 ، امرى و كيروان  
Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, p. 5 ,

كيروان 9 - 107 pp. Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXV (1939),  
امرى  
Egypt in Nubia (London, 1965), p. 135

٦٠- أنظر وينرايت ،

Balabish, Egypt Exploration Society, Excavation Memoir 37 (1920), pp. 42 - 52 ,

ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) 40 - 138 pp. .

بايتاك ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) .

أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 42 - 37 pp. .

٦١- ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) ، 139 p. .

٦٢- أوكونور ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 9 - 28 pp. .

٦٣- أنظر بخاصة بولاني ، داهومي وتجارة الرقيق

Dahomey and the Slave Trade (Seattle, 1966) .

## الفصل التاسع

المصادر الأساسية : أهم مصدر مُنفرد لفترة حكم المملكة الجديدة في النوبة لايزال

ساف - سودريج 141 - 245 pp. Ägypten und Nubien (Lund, 1941)

ولقد اعتمدت أيضاً ، كما فعلت في سابقة ، على أركيل

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 80 - 109 .

Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 172 - 207

امرى

History and Settlement in Lower Nubia,

وتريق

Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 106-14 .

Nubia under the Pharaohs (London, 1976)

ومطبوع حديث ، تريقر

١- ويلسن ، ثقافة مصر القديمة (Chicago, 1951) Ch. VII

إن أصل الهكسوس وطبيعة حكمهم في مصر كان أمراً يظل مثاراً للجدل . ولعرض لأكثر نظرية مقبولة عموماً اليوم

أنظر ساف - سودريج

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 37 (1951), pp. 53 - 71 .

The Hyksos (New Haven, 1966)

ولوجهات نظر أخرى ، طالع فان سترز

وعروض من أبهل و بوريو في

Journal of Near Eastern Studies, Vol. 28 (1969), pp. 127 - 33

٢- ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ١) ، 68 p. . يشير المؤلف إلى أن هذا النص ليس عائداً إلى

نص أصلي ولكنه محفوظ في قصة شعبية ترجع إلى أزمان متأخرة وتحمل نغمة شديدة العداء للهكسوس . أما

النصوص المعاصرة فهي لاتفيد بأن الجفوة بين المصريين والهكسوس كانت من الشدة بمثلما توحى به الدعاية

المتأخرة .

٣- نفسه 71 p. .

Egypt in Nubia (London, 1965), p. 173

٤- قارين امرى

٥- أنظر أركيل في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 36 (1950), pp. 36 - 9

A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 89

و أركيل

Ägypten und Nubien (Lund, 1941), pp. 155 - 75

٦- قارين ساف - سودريج



- ٧- لمناقشة عن مدن - المعابد المصرية في النوبة أنظر كعب في اوكو، تريمنغام، ويمبلي، محررين،  
Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 651 - 6, 666 - 7 .
- ٨- تبادل شخصي من ريكاردو كامينوس .
- ٩- لم يكن رمسيس أول فرعون مصري يمثل نفسه بهذه الضخامة البانخة : فقد سبقه (دون أن يماثله في نفس المستوى بحق) أمنحتب الثالث في الأسرة الثامنة عشرة .
- ١٠- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 5 - 194 pp.
- ١١- بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 90 - 91
- ١٢- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 9 - 198 pp.
- ١٣- لتحليل أكثر تفصيلاً عن توزيع الاستيطان في النوبة السفلى أنظر تريقر  
History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69  
(1965), pp. 152 - 4 .
- ١٤- لمناقشة العلاقة بين المعبد والمدينة في مصر والنوبة القدماء أنظر كعب ، مرجع سابق  
(هامش رقم ٧) 76 - 657 pp.
- ١٥- قارن كيز ، Ancient Egypt (Chicago, 1961), p. 325
- يبدو محتملاً مع ذلك أن غنية كانت بشكل معتاد مقراً لإقامة نائب الوالي في النوبة السفلى. أنظر رايزنر  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. VI (1920), pp. 84 - 5
- ١٦- رايزنر في . Bulletin of the (Boston) Museum of Fine Arts, XXVII (1929), p. 74 .
- ١٧- هينز في كوش Kush XIII (1965), p. 13
- ١٨- فيركوتر في Kush VI (1958), p. 155
- ولسرد لمخلفات المملكة الجديدة في صاى أنظر فيركوتر وآخرين  
Études sur l'Égypte et le Soudan Anciens, Anciens, Cahiers de Recherches de l'Institut de  
Papologie et d'Égyptologie de Lille (1973), pp. 9 - 38
- ١٩- أنظر فيرمان في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXIV (1938), p. 153
- شيف جيورجيني في كوش  
Kush IX (1961), pp. 183 - 5, 197 .
- ٢٠- قارن فيرمان في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXV (1939), p. 143 .
- ٢١- هذان الموقعان ظلا تحت التفتيق سنوات عديدة من ناحية بعثة من جامعة بيزا .  
للقارير الأولية أنظر شيف جيورجيني في كوش  
Kush IX (1961), pp. 181 - 209, Kush X (1962), pp. 152 - 69, Kush XII (1964), pp. 87 - 95, Kush  
XIII (1965), pp. 112 - 30, and Kush XIV (1966), p. 244 - 61 .
- وقد صدر الآن مجلدان محددان عن معبد صلب : شيف جيورجيني ،  
Soleb I (Florence, 1965), and Soleb II (Florence, 1972) .
- ٢٢- فيرمان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) 153 p.
- ٢٣- للمزيد عن الرسومات التخطيطية ولامح هذه المدن أنظر كعب ، مرجع سابق ،  
(هامش رقم ٧) 5 - 651 pp.
- ٢٤- أنظر شيف جيورجيني في كوش Kush X (1962), pp. 152 - 61
- ٢٥- قارن أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 91 - 3

٢٦- لتقارير أولية أنظر فيرمان في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXIV (1938), pp. 151 - 6,

Vol. XXV (1939), pp. 139 - 44, Vol. 34 (1948), pp. 3 - 11,

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 37 (1951), pp. 5 - 11 . وشيني في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 34 (1948), p. 11 فيرمان في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. V (1918), pp. 90 - 100 رايزنر في

and in Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 66 (1931), pp. 76 - 81.

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IV (1917), pp. 215 - 27. رايزنر في

٢٠- لتقارير محدثة عن موقع كاوة أنظر ماكدالم

The Temples of Kawa, Vol. I (Oxford, 1949) and Vol. II (Oxford, 1955).

٢١- أنظر جاكبي - قويدون وآخرين في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), p. 106 and pl. XXIII .

٢٢- لريما أن ثويري سبقه في تولى منصب الوالي أبوه سا - تايث : أنظر حبشي في كوش

Kush VII (1959), pp. 45 - 62

٢٣- لقائمة شاملة ومناقشة عن ولاية كوش أنظر رايزنر في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. VI (1920), pp. 28 - 55, 73 - 8 .

٢٤- تويني A Study of History, Vol. 2 (New York, 1962), pp. 112 - 18

٢٥- سميسون يفسر هذه الفقرة لتعني "صانع الصندل" : أنظر

Heka-Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna, Publications of the

Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. I (1963), p. 5 .

٢٦- أركيل مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 98 - 100 . ولمناقشة أكمل حول إدارة الولاية أنظر رايزنر ، مرجع

سابق (هامش رقم ٢٣)، pp. 84 - 8 ، وساف سوديرج ، مرجع سابق

(هامش رقم ٦)، pp. 177 - 84 .

٢٧- في النص المقتطف من أركيل (هامش رقم ٢٦) .

٢٨- أنظر دابيفيز و قارندر ،

٢٩- سميسون ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 2 - 18 .

Kush VIII (1960), pp. 25 - 44

٤٠- ساف - سوديرج في كوش

Kush XI (1963), pp. 159 - 74

٤١- امري ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 205 - 6 .

لتقرير المتّيب عن هذه المقبرة أنظر إشتايندورف

Aniba II (Cairo and Glückstadt, 1937) pp. 242 - 7.

٤٢- مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 111 - 12 .

Kush VIII (1960), pp. 38 - 44

٤٣- ساف - سوديرج في كوش

لمناقشة أكمل عن خيرة النوبة خلال فترة المملكة الجديدة أنظر ساف - سوديرج ،

مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 206 - 30 .

٤٤- ساف - سوديرج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 200 .

٤٥- طبقا لساف - سوديرج (تبادل شخصي) فإن دخول الشادوف غير مؤكد ببرهان محدد حتى في مصر قبل

الأسرة الثامنة عشرة المتأخرة .

٤٦- كيز ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 208 .

- ٤٧- للمزيد حول الدور الاقتصادي وأنشطة المعابد المصرية انظر كيمب ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٧) 657 - 76 pp.
- ٤٨- دافيز و قارنر ، مشار إليهما سابقا (هامش رقم ٣٨) .
- ٤٩- قارنر Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), p. 270
- ٥٠- ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 168 .
- ٥١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 95 .
- ٥٢- قارن ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 226 - 30 .
- ٥٣- مقتطف من امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 184 . ولناقشة اكمل أنظر
- ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 206 - 11 .
- ٥٤- لو كاس ، Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), p. 258 .
- ٥٥- أنظر فيركوتير في كوش Kush VII (1959), p. 130
- ولناقشة اكمل أنظر ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 210 - 66 .
- ٥٦- فيركوتير ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٥) .
- ٥٧- أنظر المرجع نفسه 8 - 147 pp.
- ٥٨- مقتطف من امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 193 .
- ٥٩- بيروفسكي في Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 136-40.
- ٦٠- نفسه .
- ٦١- لو كاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٤) pp. 261 - 2 .
- ٦٢- فيركوتير ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٥) p. 140 .
- ٦٣- لتقرير أولى أنظر ميلز في كوش Kush XIII (1965), p. 7
- أنظر كذلك دون ،
- Notes on Mineral Deposits of the Anglo-Egyptian Sudan (Khartoum, 1911), p. 17 .
- ٦٤- راندال - ماك إيغر و وولي ،
- Areika, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vol. I (1909), p. 13 .
- ٦٥- كوش Kush XII (1964), p. 31
- ٦٦- أنظر ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 187 - 9 :
- جنس Ermenne, Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch- Historische Klasse Denkschriften, 67, Band I (1925), p. 37 .
- ٦٧- ساف - سودريج ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) .
- ٦٨- أنظر الشكل رقم ١٢ : أنظر كذلك موخريجي ، ود و تريفور
- The Ancient Inhabitants of Jebel Moya (Sudan) (Cambridge, 1955), p. 85.
- ٦٩- لقد راجعت هذه المسألة بإستئالة أكثر في
- Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 105 - 8 .
- وللدفع التي رفعها ساف - سودريج ، ملخصا الحجج المحيطة كلفرضية التمثل الثقافي ، أنظر
- Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, XVII, Supplementa I (1969), pp. 12-20
- وفي كوش
- Kush XV (1973), pp. 237 - 42
- ٧- للتوثيق الخاص بهذه المسألة أنظر آدمز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) ، p. 106 .

هامش رقم ١ .

٧١- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) 9 - 178 pp .

٧٢- قارن بوجه خاص ساف - سوبيرج فى كوش

Kush XI (1963), pp. 59 - 64 and Kush XII (1964), pp. 31 - 7 .

وعلى سبيل المقارنة يفترض فيركوتر أن "جبانة المملكة الجديدة فى مرسعة التى تحتوى على أكثر من ٥٠٠ قبر - حفر منها ٢٣٧ قبرا - كانت فقيرة للغاية بالتأكيد .

فاحيانا لا يوضع بين القبر سوى إناء واحد ؛ (تبادل شخصى مع فيركوتر) .

٧٣- أنظر آدمز فى

Antiquity, Vol. XLII (1968), p. 203

كروير فى 15 - 808 pp. (1927), Vol. 29 American Anthropologist,

٧٤- أنظر هامش رقم ٦٥ .

٧٥- أنظر تريفر قريفيث عن جبانة صنم فى

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. X (1923), esp. pp. 73 - 90

٦٧- البعثة الإسكندنافية المشتركة ، الجبانة رقم ١٨٥ . ولتقارير مطبوعة أنظر الهامش رقم ٧٢ .

٧٧- أنظر الهامش رقم ٦٨ .

٧٨- فافن نيلسن، Human Remains, Scandinavian Joint

Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 9 (1970), pp. 86-7.

٧٩- ما قبله ، P. 86 .

٨٠- نفسه، P. 87 .

٨١- لربما يذكر أنه لا توجد بيئة دالة على الإستعمار المصرى بين كاوة ، بالقرب من الشمال الثالث، وجبل البركل بالقرب من الشمال الرابع مباشرة.

٨٢- المسح الأثرى للنوبة ، Archaeological Survey of Nubia,

Report for 1910- 1911 (Cairo, 1927), p. 28 .

٨٣- أنظر الهامش رقم ٧٠ .

٨٤- هذه الفجوة الظاهرة فى السجل الأثرى أشار إليها أول الأمر فيث

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1909 - 1910 (Cairo, 1915), pp. 21-3.

ثم أيدھا قريفيث

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XI (1924), pp. 115-17.

ولربما كان مفترضاً فى البداية أن غياب بقايا أثرية من الألفية الأخيرة قبل الميلاد يمكن أن يرجع إلى إستطلاع غير منظم منهجياً، إلا أن المسوح المكثفة فى الحقبة الأخيرة لم توفق فى إيجاد أي مظاهرات من نفس الفترة ولمناقشة

أنظر آدمز فى

Mélanges Offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 21-2,

وفي Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), pp. 10-11

٨٥- فيث : مرجع سابق (هامش رقم ٨٢).

٨٦- أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) 9 - 68 pp .

٨٧- بورتر وموس ، Nubia, the Deserts, and outside Egypt,

Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, VII (1962), pp. 150-51.

ولمناقشة أنظر فيركوتر فى كوش 9 - 132 pp. (1966) Kush XIV

٨٧- فيركوتر فى كوش 4 - 133 pp. (1963) Kush XI

- دى هينزلين في كوش 10 - 102 (1964) Kush XII , pp. 102 - 10  
 تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) p. 31 .  
 بل في American Journal of Archaeology, Vol. 79 (1975), pp. 260-65.  
 ٨٨- لمناقشة حول هذه النقطة انظر بتر في  
 (Mainz) Akademie der Wissenschaftlichen und der Literatur, Abhandlungen der Mathematisch -  
 Naturwissenschaftlichen Klasse, No. 2(1959),  
 وفي Bulletin de la Société de Géographie d'Égypte, Vol. XXXII (1959), pp. 43-87  
 وفي Science, Vol. 175 (1972), pp. 1073-4  
 انظر كذلك تريقر في دنكلر، محرراً ،  
 Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), p. 355.  
 ٨٩- قارين رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) p. 53 .  
 ٩٠- انظر أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) P. 108 .  
 ٩١- توينبي ، مرجع مذكور انفا (هامش رقم ٣٤) .  
 ٩٢- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) pp. 53-5 .  
 امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 206-7 . ومن الناحية الأخرى ، يرتاب ديكسون فيما لو كان هناك أي  
 مصريين في النوبة العليا بعد الأسرة العشرين . انظر  
 Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), p. 131.  
 ٩٣- لريما أن معبدأ سابقاً لآمون شيدته تحتتمس الثالث أو الرابع ، انظر رايزنر ، مذكور انفا (هامش رقم ٢٨) .

## الفصل العاشر

- //المصادر الأساسية: الإطار التاريخي الأساسي للفترة النبتية لا يزال هو التسلسل الزمني للحكام الذى أعده رايزنر  
 منذ خمسين عاماً ماضية ، وقام بنشره في  
 Harvard African Studies, Vol. II (1918), pp. 1-64  
 Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 237-54,  
 Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), pp. 34-77, 157-60.  
 وتشمل مراجعات وتعقيبات لاحقة هامة أعمال دنهام ومكادام في  
 Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (1949), pp. 139-49,  
 Abhandlungen der Deutschen Akademie der  
 Wissenschaften Zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, und Kunst, No. 2 (1959),  
 وسايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1969), pp. 1-16.  
 ولتاريخ شعبى انظر بخاصة أركيل  
 A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 110-56  
 امرى Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 208-21  
 وشينى Meroe (New Yark, 1967), pp. 29-39  
 ١- ٢ الملوك 2 Kings xvii; 21 . وتعود الترجمة إلى جون ولسن  
 The Culture of Ancient Egypt (Chicago, 1951), p. 294 .  
 ٢- تبعاً لهايكوك (في تبادل شخصي) إن الفقرة تعد في الواقع جناساً في معنى كلمة "كوش" التي تجوز قراءتها  
 لتعنى "قصبية" أو الموطن الأصلي لحكام الأسرة الخامسة والعشرين .

- ٢- قارين قارندنر Egypt of the Pharaohs (New York, 1966), pp. 305-6, 317.
- ٤- فيما عدا الملكة نسيخونسو الغامضة نوعاً ما أجيالاً عديدة لاحقة. "مرة واحدة وحسب أستعيد اللقب وأنذاك كان الغرض إشباع إعتقاد إمراة بنفسها .. ، لمنحها منصباً تشريفياً ما كان يوسعها إبعاءه بالميلاد ؛ ( رايزنر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. VI, 1920, p. 53 )
- ٥- نفسه .
- ٦- قارين ديكسون في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), p. 131.
- ٧- وفقاً لحساب رايزنر ؛ أنظر Sudan Notes and records, Vol. II (1919), p. 246
- ٨- توينبي A study of History, Vol. 8 (New York, 1963), p. 1
- ٩- نفسه
- ١٠- المرجع السابق (هامش رقم ٨) Vol. 5, pp. 268-70
- ١١- قارين بريستد A History of Egypt, 2nd ed. (London, 1909), p. 545
- ١٢- هيرودوتس Herodotus II: 137-40
- قائمة الفرائعة جمعها أصلاً منثر وهي محفوظة في عدد من النسخ التي أعدها مؤرخون بعده؛ أنظر بدج قائمة الفرائعة جمعها أصلاً منثر وهي محفوظة في عدد من النسخ التي أعدها مؤرخون بعده؛ أنظر بدج A History of Egypt (London, 1902), Vol. I, pp. 126-46.
- ولموجز بالنصوص الهيروغليفية بدءاً بالأسرة الخامسة والعشرين أنظر بريستد Ancient Records of Egypt, Vol. IV (New York, 1962), pp. 885-934.
- ١٣- الإنجيل 2 Kings xix, 9
- ١٤- Harvard African Studies, Vol. II (1918), pp. 1-64, Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 237-54, Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), pp. 34-77, 157-60.
- ١٥- قارين دنهام و ماكادام في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 35 (Oxford 1949), pp. 139-49, ماكادام
- The Temples of Kawa, Vol. I (Oxford 1949), pp. 119-30,
- هـ . ف . س . سميت في كوش Kush III (1955), pp. 20-25
- هيننر Studien zur Meroitischen Chronologie und zu den Opfertafeln aus den Pyramiden von Meroe, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, und Kunst, No. 2 (1959),
- Meroe (New York, 1967), pp. 35-6, 58-61 شيني ، مروي
- وللمزيد من المناقشة الأكثر معاصرة أنظر هيننر في Meroitica I (1973), pp. 147-74.
- ١٦- هذا الاسم ، بالرغم من أنه كان مستخدماً إستخداماً منتظماً أثناء فترة المملكة الجديدة، قلما يظهر في النصوص التوبة الخاصة بفترة ما بعد العهود المصرية قبل المرحلة (المروية) المتأخرة
- ١٧- يظهر هذا الاسم في كل أعمال رايزنر التي نُشرت في حياته .
- ١٨- أنظر مناقشة لدنهام في American Journal of Archaeology, Vol. L (1946), p. 380
- وكذلك أنظر دنهام Sudan Notes and Records, Vol. XXVIII (1947), pp. 3-4
- ١٩- أنظر رايزنر في Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 35-67
- دنهام Sudan Notes and Records, Vol. XXVIII (1947), pp. 7-9

ويذهب على إلى حد يقترح فيه أن مروى كانت هي العاصمة الملكية لكوش منذ البداية ، في حين كانت نبتة مجرد عاصمة دينية : انظر "مدينة مروى وأسطورة نبتة" ، ورقة قرئت أمام المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الفلسفية السودانية ، الخرطوم ، ٢ أغسطس ١٩٧٢ . وفي الوقت الراهن لا تبدو البينة المؤيدة لهذا الرأي مُقْنِعَةً تماماً .

٢١- هينتز (تبادل شخصي) يشير ، مع هذا ، إلى أن المستوى الكتابي الرفيع الذي تعرضه لوحة بعنقى يمثل إنجازاً ثقافياً معتبراً . وللمناقشة أوسع انظر "فتح مصر" ، باناته .

٢٢- هايكوك (في تبادل شخصي) يعتقد أن إحياء الثقافة المروية بدأ في وقت أسبق من ذلك بمدى طويلة ، ولكن تاريخ معظم المخلفات الأثرية المروية تخميني إلى الحد الذي لا بد أن تظل فيه هذه المسألة باقيةً بلا قرار . وللمناقشة أطول انظر الفصل الحادي عشر

٢٤- إن لوحة لأمنحتب الثاني ، تحكي عن غزو سجين كان مطلقاً على سور نبتة ، يبدو أنها تشير إلى أنه كانت هنالك مدينة بعينها هي نبتة في عهد الأسرة الثامنة عشرة : انظر بريسند ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) . Vol. II, p. 313

إفتراضاً ، كانت تلك هي المستوطنة المصرية الواقعة تماماً تحت جبل البركل . ومع ذلك ، يبدو أقوى إحتماً أنه في أزمان ما بعد العهود المصرية يستعمل اسم نبتة لكل المقاطعة التي عُثر بينها على الصروح النوبية الملكية .

٢٥- هذه ترجمة حرفية للتوصيف الهيروليغيفي لجبل البركل : انظر دنهام

٢٨- تقدير رايزنر (المرجع نفسه) كان ثلاثين عاما لكل عهد ، ولكن هذا التقدير يبدو بشكل غير واقعي مرتفعاً : وبخاصة لأن الخلافة الكوشية كانت دائماً ما تنتقل من أخٍ لآخر من إنتقالها من أب لابن .

٢٩- لمراجعة ونقد لهذه النظريات المتنوعة انظر ديكسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) .

وفيها لم تعد النظرية مطروحة على سبيل مبدئي ولكنها موضوعاً كحقيقة معلنة .

٣١- انظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 3٠ : أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 114-15

امرى مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) p. 208 : شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥)

٣٣- نفسه ، pp. 112-15 : رايزنر مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 53-5 : امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣)

ومع هذا ، يقترح باركر (Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 93, 1966, pp.

- ويريز (Mitteilungen des Instituts für Orientforschung, Vol. XIV, 1968, pp. 166-75)  
 أن إسم الحاكم النوبى ربما كان باى أو بابي ، حيث يكون العنصر المتبقى صفة أضافها السَّاح المصريون .  
 ٣٥- قارن المراجع المشار إليها في الهامش رقم ٣١ .  
 ٣٦- بحوث عن صروح طيبة للأسرة الخامسة والعشرين الإثيوبية  
 Recherches sur les Monuments Thébains de la XXVe Dynastie dite Éthiopienne, Institut Français  
 d'Archéologie Orientale, Bibliothèque d'Étude, Vol. XXXVI (1965), pp. 322-9.  
 ٣٧- أنظر بريستيد (The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt (New York, 1959), p. 318.  
 ٣٨- مكتبة التاريخ Library of History III: 5-7  
 ٣٩- أنظر بوسنر ، A Dictionary of Egyptian Civilization (London, 1962), pp. 85-6 .  
 ٤٠- قارن هايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1968), p. 12.  
 ٤١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 126 .  
 ٤٢- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 11-14 .  
 ٤٣- أنظر ماكادام ، مشار إليه أنفا (هامش رقم ١٥) ؛ هايكوك في  
 Comparative Studies in Society and History, Vol. VII (1965), pp. 466-70,  
 شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 153 وتوجد مناقشة مطولة عن هذا الموضوع في بريس  
 'Matrilineare Erbfolge im Reich von Napata' (Meroitica 4, in press),  
 هينتز 'Meroitische Verwandtschaftsbezeichnungen' (MS)  
 ٤٤- لمناقشة أنظر ماكادام في Allen Memorial Art Museum Bulletin (Oberlin College), Vol. XXIII (1966), pp. 46-7;  
 ديسانجس في Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. XLVI (1968), pp. 89-104.  
 وشيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 153 .  
 ٤٥- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 28 .  
 أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 127 .  
 ٤٦- إسترابو ، Geography XVII, 1 : 54 ، بلييني Natural History VI:xxv, 8  
 أنظر كذلك أعمال الرسل Acts of the Apostles viii, 28  
 و ديسانجس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤) .  
 ٤٧- أنظر قريفيث Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IV (1971), pp. 159-73  
 و رايزنر في Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), p. 188-94  
 ٤٨- لمناقشة اشمل عن المؤسسات الملكية لكوش أنظر هوفمان  
 Studien zur Meroitischen Königtum, Fondation Egyptologique Reine Élisabeth, Monographies  
 Reine Elisabeth 2 (1971).  
 ٤٩- تشير النصوص الموجودة في كاوة إلى من يُدعى بـ الآرا على أنه سلف كاشتا ، ولكن لا يوجد شيء معروف  
 عن عهده أو قبیره الملكي . أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 121-3 . ورايزنر في  
 Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 98 (1970), pp. 21-3.  
 ٥٠- للبيئة المتوفرة عن كاشتا أنظر بريس ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٩) ، pp. 16-23 .  
 وليكلانت في Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 90 (1963), pp. 74-81.  
 ٥١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 121 .



- ٥٢- هذا التحالف ، متضمناً لنفس "الأخت" الملكية، منسوب أيضاً إلى كثير من فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين المتأخرة؛ أنظر بريستد، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 555-8 .  
ولمناقشة أطول أنظر ليكلانت ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٦) p. 354-85 .
- ٥٣- قارين هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 464 .
- ٥٤- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 121 .
- ٥٥- برايز (مرجع سابق ، هامش رقم ٤٩ ، p. 21) يعتبر أن كاشتا حكم منذ البداية كفرعون في طيبة ، مُوحداً للثوية ومصر العليا تحت حكمه الشخصي .
- ٥٦- سوف احتفظ طوال هذا النص بالصيغة المعتادة للإسم ، بالرغم من الإقتراح الراهن ، ولعله صحيح لباركر و برايز أنه يجب قراءته على أنه باي أو بايى . أنظر الهامش رقم ٣٤ .
- ٥٧- لترجمة سابقة أنظر بدج
- The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, p. 11-26.
- ولترجمة مصحوبة بتعليق أنظر بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) ، Vol. IV, pp. 406-44 ، ولتعقيب متأخر أنظر رايزنرفي
- Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol 66 (1931), pp. 89-100.
- ٥٨- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 541 .
- ٥٩- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 124 .
- ٦٠- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 545 .
- ٦١- ويلسن ، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 293 .
- ٦٢- لمثال آخر عن قروسية يعنى المبالغ في شأنها أنظر قاردينر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), pp. 219-23.
- ٦٣- أنظر كمثال عنتر في Aramco World Magazine, Vol. 21 (1970), pp. 26-31 .
- ٦٤- قاردينر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣) p. 342 . ويعطى مؤلفون آخرون تواريخ مختلفة إختلافاً يسيراً . ولمناقشة أطول عن التسلسل الزمني للفراعنة "الإثيوبيين" وعلاقاتهم أنظر بيتر في Journal of Near Eastern Studies, Vol. 32 (1973), pp. 24-5.
- ٦٥- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 551 .
- ٦٦- الإتيجيل 2 Kings xix, 9 ويعتبر ماكادام (مرجع سابق ، هامش رقم ١٥ ، pp. 19-20) إن السرد الإنجيلي "خطأ واضح" بسبب شباب تهرافا ولأن الفقرة تدل على أنه كان أنفاً ملكاً على مصر في هذا الوقت .
- ٦٧- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 553 .
- ٦٨- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pp. 219-20 . ولدراسة مفصلة عن الأسرة الخامسة والعشرين بالنسبة لأنشطتها العمرانية في مصر، أنظر ليكلانت، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) .
- ٦٩- أنظر دنهام و جنسن ،
- Semna Kumma, Second Cataract Forts, Vol. I (1966), esp. pp. 12-13.
- ٧٠- راندال ماك - إيفر و ويلي ، بوين
- Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia , Vol. VII (1911), p. 17.
- ٧١- برز معبد تهرافا في قصر إبريم أول ظهوره في معرض الحفريات التي كانت قائمة في عام ١٩٧٢ : أنظر يلملى و آدمز في
- Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 228-36
- Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 19-20. ويمللى في

- ٧٢- في جزيرة دبروسة (فيروز في كوش : (Kush X, 1962, p. 33 :  
 في فرس (مياخوفسكى في : (Kush XIII, 1965, pp. 179-80 :  
 بالقرب من غنية ليكلانت في  
 Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de l'Année 1970, p. 253  
 هامش رقم ١ .  
 وفي كلابشة هينتز في: Mitteilungen des Instituts für Orientforschung, Vol. VII, 1960, pp. 330-33 .  
 ٧٣- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 4-43 .  
 ٧٤- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) p. 218 وللنص الكامل وتعقيب أنظر بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. IV, pp. 455-7 .  
 ٧٥- بريستد ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. IV, pp. 458-65 .  
 ٧٦- أنظر امرى Arabic Egypt (Hammondsworth, 1961) pp. 38-104 .  
 ٧٧- أنظر رايزنر في Harvard African Studies, Vol. II (1918), pp. 45-6 .  
 ٧٨- شيف جيورجيني في كوش Kush XIII (1965), pp. 116-30 .  
 ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٢) pp. 249-52 . ويؤمن هايكوك (في تبادل شخصي) أن تهارقا ربما خلعه  
 عن العرش لتوتامون ثم نفى إلى صندا ، ومن ثم كان عليه أن يقنع بالمقبرة التي تبدو متواضعة مقيماً لها وفق  
 إستراتيجته هنا بدلاً عن بنائها مع الهرم الذي يكبر عنها كثيراً وقد كان أعدده لنفسه في نوري . وأساس هذا الاعتقاد  
 هو ما يُدعى 'باللوجة الحاملة' لتوتامون ؛ أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 8 .  
 ٧٩- امرى ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) pp. 220-21 .  
 ٨٠- ناهوم Nahum iii, 8-10 .  
 ٨١- فيما عدا ملكاً غامضاً لايزال دون إسم من الفترة النبتية المتأخرة (؟) : أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 3 .  
 ٨٢- لمناقشة تفصيلية لانشطتهم العمرانية أنظر يكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) . ولمناقشة اكمل عن  
 التفاصيل التاريخية للحكم النوبي في مصر أنظر فون زيسل ، الأثيوبيون والآشوريون في مصر  
 'Äthiopien und Assyrier in Ägypten', Ägyptologische Forschungen, Ed. Alexander Scharff, Vol. 14  
 (1944).  
 ٨٣- هذا الإيضاح المأثور للنصوص شبه - المفهومة للفترة النبتية المتأخرة : قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 153 : هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 9 . وهايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 476 .  
 إن هينتز ، مع ذلك ، يعتقد أن النساخ النبتيين نجحوا في إستعادة اللغة المصرية الأصلية إلى درجة من النقاء  
 تجعلها في صعوبة من إدراكها ، نظراً لغياب أمثلة مقابلة (تبادل شخصي) .  
 ٨٤- هايكوك (تبادل شخصي) يُعَيِّن له فترة حكم قصيرة ، تبدأ حوالي ٦١٠ قبل الميلاد .  
 ٨٥- لموجز أكثر تفصيلاً أنظر أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 143 .  
 وللأصل طالع ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 44-50 .  
 ٨٦- رايزنر (مرجع سابق ، هامش رقم ٧٧ ، pp. 22-3) يعتقد أن أسبلطه كان ابناً لآلاماني ، ولكن العلاقة الأخوية  
 مقبولة الآن عموماً . أنظر دنهام و ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 142 .  
 ٨٧- أو يحتل 'الأخت - الزوجة' لأسبلطه : أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 12 .  
 ٨٨- نفسه : أنظر كذلك أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 144 .  
 ٨٩- الجزء الثاني 161: II: ولمناقشة مفصلة عن الحملة أنظر سونرون و بويوت في  
 Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Vol. L (1952), pp. 157-207 .  
 ٩٠- قارن سيس في

Proceedings of the Society for Biblical Archaeology, 40th Session, 6th Meeting, 14 Dec. 1910, pp. 261-3.

٩١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 145-6 ؛ شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 32-3 ؛ سونرون و ديويوت ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٩) p. 203.

٩٢- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 146 ؛ شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) ، p. 31 ؛ هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. ١٠.

وقد عُثِرَ على رسومٍ مزخرفةٍ لكاشتا ، وشبكتو ، وتوتامون في أشياء صغيرة في جبانات مروي ، ولكن هذه بالطبع لا تقدم بُيئةً على الحضور الحقيقي للملوك . انظر دنهام

The West and South Cemeteries at Meroë, Cemeteries of Kush, Vol. V (1963), pp. 304, 362, 431, 441.

٩٣- انظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and anthropology, Vol. IX (1922), pp. 78-9.

٩٤- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 145 ؛ امري ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٣٢) p. 223 ؛ شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 33 .

٩٥- ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 50-72.

٩٦- طبقاً لهايوك (في تبادل شخصي) لا يُدْعَى ذلك صحيحاً من الناحية الفنية : إن النص يقرر أن أمان - نتي - يركي كان في الحاية والأربعين من العمر عندما أصبح ملكاً ، ولكن ذلك لم يكن بالضرورة منحوتاً في العام الأول من حكمه .

٩٧- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 37 .

٩٨- للنصوص والمناقشة انظر بدج ، المرجع السابق (هامش رقم ٥٧) pp. 75-103 .

٩٩- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 17 . ولمناقشة أكثر تفصيلاً عن الصحراء انظر وينرايت في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 33 (1947), pp. 58-62.

١٠٠- الثالث 17-25 III:

١٠١- قارين هينتز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥) pp. 17-20 ؛ شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 39 .

١٠٢- انظر هامش رقم ١٩ للمراجع .

١٠٣- انظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 8 لمناقشة أطول في هذه المسألة .

١٠٤- واردة في

Journal of Egyptian Archeology, Vol. IV (1917), pp. 213-27; Vol. V (1918), pp. 99-112; and Vol.

VI (1920), pp. 247-64.

إن التقرير المحدد ظهر منذ وقت قريب وحسب : انظر دنهام

The Barkal Temples (Boston, 1970).

١٠٥- التوجهات الخاصة بالإتجاه في مقالة نيتة تسبب قدراً عظيماً من الصعوبة لأن النيل هنا ينساب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي - تقريباً عكس سيره الطبيعي . وبما أن المصريين والنوبيين القدماء كانوا على وجه العموم يتخذون النهر نقطة اتجاههم الرئيسية ، تحرف صفوف المعابد والمقابر في نيتة دائماً عن الممارسة المعتادة بشكل ملحوظ . وبالمثل فإن ما يعرف إسمياً بالضفة "الغربية" للنيل - المكان المصري للدفن تقليدياً - يعادل هنا الضفة الشرقية من الناحية الفنية .

١٠٦- معابد أخناتون في طيبة وتل العمارنة ، التي بُنيت فوراً عقب إنتهاء حكمه ، كانت لاتزال أكبر ، مثلما كان عليه حال المعبد الجنائزي لرئيس الثاني (الرئيسيسيم) .

Journal of Egyptian Archeology, Vol. IV (1917), pp. 215-27

١٠٨- قارين ١٠٧-٩٩ Journal of Egyptian Archeology, Vol. V (1918), pp. 99-112

وفي المجلد الخامس Vol. VI (1920), n. 247-64

- أنظر كذلك دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٤) 7-13, 63-81 pp.
- ١٠٩- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 10 .
- ١١٠- جريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٣) p. 75 . بما أن تسانيل النذور /الاشبتي كانت تُصنع فقط للموتى الملكيين ، يقترح هايكوك (في تبادل شخصي) أنه ربما أن معبد صنم تم تحويله إلى غرفة جنازية لمن يدفنون في الجبانة الملكية القريبة من نوري .
- ١١١- جريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٢) 75-6 pp .
- ١١٢- نفسه p. 115 .
- ١١٣- نفسه p. 117 .
- ١١٤- أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 5 : شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 73 .
- ١١٥- جريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٢) 78-9 pp. سونرون و يويوت يجادلان مع ذلك أن ذلك كان عملاً للفرقة المصرية في عهد حكم بسمتيك الثاني ، أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) ، p. 203 .
- ١١٦- ماكادام The Temples of Kawa, Vol. II (Oxford), p. 15 .
- ١١٧- نفسه ، p. 208 .
- ١١٨- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) .
- ١١٩- أنظر جاكبي . قورودن وآخرين في Journal of Egyptian Archeology, Vol. 55 (1969), pp. 109-12.
- ١٢٠- نفسه ، 103-12 pp.
- ١٢١- أنظر هامش رقم ٧٨ .
- ١٢٢- شيني في Meroitic Newsletter No. 5 (1970), pp. 17-19 .
- ١٢٣- أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) p. 81 .
- ١٢٤- نفسه ، p. 37 .
- ١٢٥- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) 136-7 pp :
- فيركوتر في Mélanges Mariette, Institut Français d'Archéologie Orientale, Bibliothèque d'Étude, Vol. XXXII (1961), pp. 97-104.
- ١٢٦- أقترح هذا من هينتز (في تبادل شخصي) .
- ١٢٧- لموجز عن الصفريات أنظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) 7-10 pp :
- لقائمة بالمراجع أنظر دنهام في Kush III (1955), pp. 70-74 .
- ١٢٨- أنظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) p. 24 .
- ١٢٩- قارن جيمس The Archaeology of Ancient Egypt (London, 1972), p. 92 .
- ١٣٠- يوجد موجز يبلغ عن تطور الهرم الملكي الكوشي في ترتيب زمني في دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) pp. 121-32 .
- ١٣١- أنظر بخاصة شابمان و دنهام ، Decorated Chapels of the Meroitic Pyramids at Meroë and Barkal, Royal Cemeteries of Kush, Vol. III (1952).
- ١٣٢- بعد زمن بعثي ؛ وفي قبور المدافن التالية السابقة يبدو أنه ما كان هناك فصل بين الذكور والإناث .
- ١٣٣- للمصادر الأصلية أنظر الهامش رقم ١٤ .
- ١٣٤- قارن دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) ، 121-32 pp وخصوصاً الرسوم Charts I-III .
- ١٣٥- لمناقشة في هذه المسألة أنظر مقالتي في

وربوع من هايكوك في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 107-20, and Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1968), pp. 1-16.

١٣٦- المسطبة كتلة مستطيلة من البناء ذات جوانب مائلة ميلا خفيفا .  
١٣٧- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 115-16 . والتقوير المحدد عن هذه الجبانة هو دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥)

١٣٨- هذه موصحة في دنهام مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) . pls. IX-XX .  
ولكن لم يبدو أنها لم يجر وصفها في عمل مطبوع ، وأن النصوص لم تترجم أبداً .  
١٣٩- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) pp. 122-4 .  
١٤٠- بالرغم من أنها في هذه المنطقة فهي قنياً الصفة الشرقية : أنظر الهامش رقم ١٠٥ .  
١٤١- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 117 .  
١٤٢- التقارير المحددة لرايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) pp. 1-64 ، و دنهام  
Nuri, Royal Cemeteries of Kush, Vol. II (1955).

١٤٣- شيف جيورجيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٨) p. 129 .  
١٤٤- ما قبله ، p. 123 : ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٢) p. 252 .  
١٤٥- كما اقترح هايكوك ، أنظر الهامش رقم ٧٨ .  
١٤٦- شيف جيورجيني في كوش Kush XIV (1966), p. 259  
١٤٧- شيني (مرجع سابق ، هامش رقم ١٢٢) عثر على بناء مشيد من اللبن في مستويات هي الأكثر إنخفاضاً في مروي ، ولكنه وجد أيضاً حفراً . يفترض أنها معينة على هياكل بنائية من العشب أو لاعمال النظافة - في التربة التي شيدت عليها المدينة في البدء .

١٤٨- رايزنر في Journal of Egyptian Archeology, Vol. IX (1923), p. 37 .  
والتقرير المحدد لدنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٢) pp. 357-449 .  
١٤٩- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 148-50 .  
١٥٠- مرجع سابق (هامش رقم ١٤٨) .  
١٥١- قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. X (1923), pp. 75-6.

١٥٢- نفسه ، p. 87 .  
١٥٣- نفسه ، p. 88 .  
١٥٤- نفسه ، p. 89 .  
١٥٥- هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٠) p. 13 .  
١٥٦- هذه معبر عنها في صفاء في

Sudan Notes and Records, Vol. II (1919), pp. 35-67,

Sudan Notes and Records, Vol. XXVIII (1947), pp. 1-10 في  
١٥٧- قارين قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥١) pp. 73-90 .  
١٥٨- دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٦) pp. 5-6 ، وفي  
American Journal of Archaeology, Vol. L (1946), p. 385.

I: 29-30 - ١٥٩

١٦٠- أنظر الهامش رقم ١٥٨ .

١٦١- لقد اقترح كيمب أن هذا كان صحيحاً بالنسبة لمصر كذلك : وكانت أملاك المعبد نوعاً من "المصرف" الذي بوسع الفرعين أن يودع فيه "ودائع" ، ثم ليسجئها كما يشاء . أنظر أوكو ، تريمنفهام و ديمبلي ، محررين ،  
Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 657-76.

## الفصل الحادى عشر

المصادر الأساسية : أهم عمل شائع حول المواقع المروية والثقافة المروية ، وهو ما اعتمدت بشدة عليه طوال الفصل ، هو شينى

Meroe (new York, 1967)

ومما لا يزال هاماً لإعادة البناء التاريخى والتسلسل الزمنى المقالات الأصلية لرايزنر في  
Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), pp. 173-96

وفي Journal of Egyptian Archeology, Vol. IX (1923), pp. 34-77, 157-60  
ومن الأعمال الدراسية الراهنة ذات الأهمية هينتز

Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen,  
Literatur, und Kunst. 1959, No. 2,

ومايكوك في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 107-20.

١- الكتاب الثانى Book II: 89

٢- الثالث III: 18

٣- I: 33, III: passim

٤- I: 2; XVII: 53-4

٥- VI: 35

٦- لمخلصات موجزة للمصادر الماثورة حول مروى أنظر جاد الله في كوش

Kush XI (1963), pp. 207-8,

وشينى في Meroe (New York, 1967), pp. 13-22

٧- لنذكر لزيارات فعلية لمروى قام بها إغريق ورومان رحالة أنظر تومبسون و فيرجسون ، محررين  
Africa in Classical Antiquity (Ibadan, 1969), pp. 42-4

ومايكوك Lanmarks in Cushite History (MS), pp. 8-9

٨- وأطلق الإغريق إسم "المعمور" على مجمل عالمهم الذى كانوا يجسبونه مأهولا على امتداد أعمدة  
هرقل إلى الهند و السيريين

كروير The Nature of Culture (Chicago, 1952), p. 379

٩- للمزيد عن تحويل مصر إلى الإغريقية أنظر توينبى

A Study of History, Vol. 8 (New York, 1963), pp. 407-8.

١٠- بروس

Travels to Discover the Sources of the Nile (Edinburgh, 1790), Vol. IV, pp. 538-9

١١- أنظر قارستق ، سميس و فريفيث

Meroë, the City of the Ethiopians (Oxford, 1911), p. 26.

١٢- لترجمة لسرد فرلينى نفسه أنظر بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Col. I, pp. 307-20

إن الأصل مطبوع في فيرلينى

Cenni Sugli Scavidi Nubia (Bologna, 1837).

١٣- للإطلاع على سرد بذج لعمله انظر

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, pp. 337-56,

ولتعميق تأقنر انظر ماكادام في

Allen Memorial Art Museum Bulletin (Oberlin College), Vol. XXIII (1966), pp. 54-5.

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. III (1910), pp. ١٤-53-70; Vol. IV (1911), pp. 45-71; Vol. V (1912), pp. 73-88; Vol. VI (1913), pp. 1-21; Vol. VII (1914), pp. 1-24.

وهناك تقرير أطول نوعاً ما (مشار إليه في هامش رقم ١١) صدر في نهاية الموسم الأول .

١٥- شميني مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 77 .

١٦- انظر المرجع نفسه p. 28 . إن تقريراً أكثر معاصرة بالرغم من أنه مختصر للغاية حول حفريات مروي ظهر أيضاً في

Meroitic Newsletter No. 5 (1970), pp. 17-19

١٧- شابمان و دنهام Royal Cemeteries of Kush, Vol. III (Boston, 1952)

دنهام

Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957) and Vol. V (Boston, 1963).

١٨- انظر تقارير أولية لهينتز في كوش

Kush VII (1959), pp. 173-88; Kush X (1962), pp. 170-202; Kush XI (1963), pp. 217-26; in Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt-Universität zu Berlin, Gesellschafts - und Sprachwissenschaftliche Reihe, Vol. XI (1962), pp. 441-88; Vol. XII (1963), pp. 63-77; Vol. XVII (1968), pp. 667-84; Vol. XX (1971), pp. 227-46;

ومؤلف هينتز

Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es Sufra, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 1;

هينتز و هينتز في دنكلر ، محرراً ،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 49-70,

و بريز في

Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt-Universität zu Berlin, Gesellschafts - und Sprachwissenschaftliche Reihe, Vol. XXI (1971), pp. 247-56.

كذلك صدر المجلد الأول من سلسلة من التقارير المحددة ، منذ وقت قريب : انظر هينتز

Der Löwentempel, Musawwarat es Sufra, Vol. I, Part 2 (Berlin, 1971).

١٩- لقائمة تفصيلية عن جزء من المواقع المروية في النوبة السفلى انظر تريفر

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 186-97.

٢٠- جاد الله ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 196 .

٢١- لمناقشة شائعة عن اللغة المروية وكتابتها انظر شميني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 132-40 .

٢٢- بصفة رئيسية من خلال دراسة نصوص قليلة مكتوبة بلغتين ، وبسبب موازيات المنهج المصري في الكتابة .

٢٣- انظر قرينبرج

Studies in African Linguistic Classification (New Haven, 1955), p. 98

- و تريقر في Journal of African History, Vol. VII (1966), pp. 19-25  
ولمناقشة ممتدة للتاريخ والحالة الراهنة لدراسات اللغة المروية أنظر جاد الله ، مشار إليه سابقا (هامش رقم ٦) :
- هايكوك The Problem of the Meroitic Language (MS)  
و تريقر في Meroitica I (1973), pp. 243-349  
ولقد صدرت نشرة بعنوان Meroitic Newsletter  
منذ وقت قريب لتعين على مواكبة الدارسين المهتمين بالتطورات الجارية في مضمار دراسات اللغة المروية .
- ٢٤- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 132-3  
٢٥- ديودورس سايكليس I: 33  
إسترابو I: 2 و بليني VI: 36  
٢٦- قارن شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 16  
٢٧- American Journal of Archaeology, Vol. L (1946), p. 385  
قارن كذلك جاد الله ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 198-9  
٢٨- XVII: 1,2  
٢٩- لقوائم تفصيلية ووصف لمواقع البطانة أنظر كروفوت و جريفيث  
The Island of Meroë and Meroitic Inscriptions, Part I, Archaeological Survey of Egypt, Memoir 19 (1911), pp. 6-29,  
هوايتهد و أديسون في Sudan Notes and Records, Vol. IX, No. 2 (1926), pp. 51-8,  
وهيتنز في كوش Kush VII (1959), pp. 171-96  
٣٠- في أوكو ، تريمنهام و ديميلبي ، محررين ،  
Man, Settlement and Urbanism (London, 1972) pp. 639-45  
٣١- تبادل شخصي .  
٣٢- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IV (1911), p. 55.  
٣٣- قارن تريقر في African Historical Studies, Vol. II (1969), p. 44  
٣٤- دنهام (مرجع سابق ، هامش رقم ٢٧) يشير إلى توفر الخشب كميزة ظاهرة في مروي على نبتة ، ولكن في الحقيقة لا تنمو الأشجار في كثافة بكل من المنطقتين فيما عدا ضفاف النهر .  
٣٥- كورفورد  
Castles and Churches in the Middle Nile Region, Sudan Antiquities Service Occasional Paper No. 2 (1953) pp. 36-9  
٣٦- قارن شينيك في كوش Kush II (1954), pp. 94-5  
٣٧- موصوف وصفاً خلافاً من بورخارت في مؤلفه Travels in Nubia (London, 1819) pp. 277-361  
أنظر أيضاً مورهد The Blue Nile (New York, 1962) pp. 154-66  
٣٨- أنظر فيركوتر في كوش Kush VII (1959), p. 129, Map 2  
٣٩- لمناقشة عن إستئناس الجمل وإستخدامه في تجارة القوافل أنظر روينسون في  
Sudan Notes and Records, Vol. XIX (1936), pp. 47-69  
زورن A History of Domesticated Animals (New York, 1963), p. 353  
هورد وليكلانت في Étude Scientifiques, September-December 1972, pp. 85-9  
٤٠- قارن بوفيل  
The Golden Trade of the Moors, 2nd. Ed. (London, 1970), p. 17  
٤١- نفسه pp. 13-27



- ٤٢- قارن تريقر في ماکول ، بنيت ، وبتلر ، محررين  
 Eastern African History, Boston University Papers on Africa, Vol. III (1969), pp. 92-3,  
 وميليت Meroitic Nubia (New Haven, n.d.), pp. 31-2
- ٤٣- دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٧) ،  
 A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), pp. 148-9  
 أركيل  
 جاد الله ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) . pp. 198-9
- ٤٤- قارن شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 31 . وعلى نفس الصعيد يقترح على أن مروي كانت أنفا  
 العاصمة الملكية في زمن بعضي ، وإنها كانت دائماً أكثر أهمية سياسياً وتجارياً من نبتة . انظر الفصل العاشر ،  
 الهامش رقم ١٩ .
- ٤٥- نفسه .
- ٤٦- Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IX (1923), pp. 75-6
- ٤٧- قارن المرجع نفسه p. 36 .
- ٤٨- نفسه p. 37 .
- ٤٩- نفسه p. 35 .
- ٥٠- فيما عدا تقارير الحفر الأولية وبدون أي عناء لتفصيل الامر ؛ ولالإطلاع على مراجع انظر الهامش رقم ١٤  
 ولنقاش أحدث تخصيصاً للجبانة غير الملكية في مروي انظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 85-6
- ٥١- لموجز عن هذا التطور انظر دنهام
- ٥٢- رايزنر في Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), p. 185
- ٥٣- انظر رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) pl. IV
- ودنهام
- Royal Cemeteries of Kush, Vol. I (Boston, 1950), pp. 121-32.
- ٥٤- لموجز مفصل انظر دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٥١) .
- ٥٥- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) P. 136 .
- ٥٦- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) P. 181 .
- ٥٧- المقبرة رقم ١٢٢ في الجبانة الغربية : انظر دنهام
- Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957), pp. 203-4.
- ٥٨- انظر تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٩) p. 117 .
- ٥٩- مرجع سابق (هامش رقم ٤٦) p. 34 .
- ٦٠- نوعية اهرامات البركل موصوفة في المرجع نفسه pp. 56-63 .
- والتقرير المحدد عن الجبانة في دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) .
- ٦١- أو نالدا ماك ، كما تدعى في أكثر الأحيان ؛ قارن شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 74 . ولنناقشة عن  
 هذه السيدة وموقعها في التاريخ المروي انظر خاصة ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 42-72 .
- ٦٢- رايزنر ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٦) pp. 63-7, 75-6
- ٦٣- انظر ماكادام
- The Temples of Kawa, Vol. I (Oxford, 1949), pp. 74-5; Vol II (Oxford, 1955), pp. 19-20.
- ٦٤- نفسه ، p. 20 Vol. II (1955)
- ٦٥- دنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣) pp. 2-8 . والآن يرفض ماكادام أيضاً الأسرة المستقلة الثانية في نبتة  
 : انظر المرجع السابق (هامش رقم ١٣) ، pp. 61-6

Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, –٦٦  
Literatur, and Kunst, 1959, No. 2;

٦٧- قارن خصوصاً وثيق في

Mitteilungen des Instituts für Orientforschung der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu

Berlin, Vol. XIII (1967), pp. 1-44, Meroitica I (1973), pp. 127-44 . مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 205 .

٦٨- مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 205 .  
٦٩- لموجز عن الحالة الراهنة للنظرية وأهم المشكلات المتبقية فيما يتعلق بالخلافة المروية الملكية أنظر هينتز ،  
مرجع سابق (هامش رقم ٦٧) .  
٧٠- XVII: 53-4 .  
٧١- LIV: 5-6 .

٧٢- مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) 173a , pp. 33-42 .

٧٣- III: 6 . إن هينتز مع ذلك يعتقد أن إرقامنز يجب أن يُعامل على أنه أركا كما ماني ، الذي سبق إركاماني  
بـنصف قرن . أنظر

Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es Sufra, Abhandlungen der Deutschen  
Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 1,  
pp. 14-18

وهينتز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٧) .

٧٤- لعله كان يسبقه ملك معين يدعى أذكر أمون (أديخا لاماني) ، الذي لم ينشأ موقعه في الخلافة الملكية بعد .  
أنظر تريفر ، مرجع سابق ، (هامش رقم ١٩) pp. 120-21 .

٧٥- أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 41-2 . و هايكوك في Kush XIII (1965), pp. 264-6

٧٦- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. 159-60 . ومع ذلك لا يزال الحكام المتأخرين ناتاكمانى و أماني  
يُتَري يستخدمون الهيروغليفية المصرية في بعض نقوشهم غير الجنائزية ، قارن كروفوت و قريفيث ، مرجع سابق  
(هامش رقم ٢٩) p. 67-8 .

٧٧- مُفسراً من فيثيان - آدمز في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. VII (1914), pp. 15-21,

وقريفيث في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. IV (1917), pp. 159-73.

٧٨- أنظر هوايتهد و أديسون ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 51-2 . و pls. x-xi ، وهينتز في كوش  
Kush VII (1959), pp. 189-90

٧٩- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 96 . يلاحظ "أن تصوير إله الشمس يبين تماثلاً ظاهراً للغاية لجنس  
من تماثلات عبادة الشمس في هترا وغيرها من المواقع في غرب آسيا ، التي تعتبر Parthian وتؤرخ منذ القرنين  
الأوليين بعد الميلاد" .

٨٠- أنظر ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. vi-vii, 1-28 .

هايكون في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 107-20,

ويخاصة قريفيث

Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenus (Oxford, 1937), 2 vols.

٨١- مشار إليه في الهامش السابق رقم ١٤ .

٨٢- قارستق في

University of Liverpool Annals of Archeology and Anthropology, Vol. IV (1911), p. 51

- ٨٣- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 80 .  
 أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 162 .  
 ٨٤- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 79 .  
 ٨٥- نفسه ، p. 77 .  
 ٨٦- نفسه ، pp. 81-3 .  
 ٨٧- أنظر هامش رقم ٢٧ .  
 ٨٨- قارن هورد وليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp 80-83 .  
 ٨٩- المرجع المشار إليه أنفا (هامش رقم ٢٧) .  
 ٩٠- مع هذا ، برزت فى دائرة الضوء تفاصيل كثيرة عن المصنوعات المروية الحديدية نتيجةً لحفريات شينى حديثاً  
 فى مروي . أنظر شينى فى Meroitic Newsletter No. 5 (1970), p. 19  
 تاليليكوت فى  
 Bulletin of the Historical Metallurgy Group Vol. 4 (1970), pp. 67-72  
 ويليامز فى تومبسون وفيرجسون ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 67-72 .  
 ٩١- قارن تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 45 .  
 ٩٢- تقترح بيّنة شينى الآن أن صنع الحديد فى مروي ربما يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، أنظر  
 المرجع السابق (هامش رقم ٩٠) p. 17 .  
 ٩٣- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 49 . أنظر كذلك شينى The African Iron Age (Oxford, 1971), p. 97  
 ٩٤- للوصف أنظر بذج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) ، Vol. II, pp. 126-46 .  
 هوايتهد فى Sudan Notes and Records, Vol. IX, No 2 (1926), pp. 62-4  
 هينتز فى كوش Kush VII (1959), pp. 183-7  
 وشينى مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 88-92 .  
 ٩٥- لوصف مطول لهذا الهيكل أنظر كروس فى  
 Archäologischer Anzeiger, Jahrbuch des Deutschen Archäologischen Instituts (1964), pp. 834-68.  
 ٩٦- لوصف عام أنظر بذج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) ، Vol. II, pp. 146-51 .  
 هوايتهد ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٤) pp. 64-6 ، هينتز فى Kush VII (1959), pp. 183-7  
 وشينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 92-5 .  
 ٩٧- لقائمة بالتقارير المطبوعة إلى تاريخه أنظر الهامش رقم ١٨ وبين هذه يعد التقرير فى  
 Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit  
 قيماً على وجه الخصوص .  
 ٩٨- يؤرخ هينتز مع ذلك مبنى المعبد المركزى إلى عهد أرتاخ أمانى (تقريباً ٢٣٥-٢١٨ ق م) . أو ما قبل ذلك  
 أنظر دنكلر ، محرراً ،  
 Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit (Recklinghausen, 1970), p. 62  
 ٩٩- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp 93-4 .  
 ١٠٠- بيفان The House of Ptolemy (Chicago, 1968), p. 175  
 لمناقشة عن صيد - الأفيال البطلمى أنظر موراى فى  
 Geographical Journal, Vol. 133 (1967), pp. 24-33,  
 ديسانجس فى Actes du Quatre-Vingt-Douzième  
 Congrès National des Sociétés Savantes, 1967, Section d'Archéologie (Paris, 1970), pp. 31-50,  
 وهايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 5-6 .

- ١٠١- قارن كنك هايكوك في Sudan Notes and Records, Vol. XLIX (1968), p. 3
- ١٠٢- هينتز في كوش Kush VII (1959), p. 181
- شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 94 .
- ١٠٣- لمناقشة أشمل تفصيلاً أنظر هينتز في كوش Kush XI (1963), pp. 221-4
- ١٠٤- أنظر الهامش رقم ٢٩ .
- ١٠٥- شينى، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 95 ؛ وللتوضيح أنظر هينتز في كوش Kush VII (1959), pls. XLII-XLIII
- إن وصفا مطولاً للموقع يوجد فى كروفوت و قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 13-18 .
- ١٠٦- قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. 166-8 ، على. مرجع سابق (هامش رقم ٣٠) .
- ١٠٧- قارن هينتز في كوش Kush VII (1959), p. 196
- قارن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 164 .
- ١٠٩- التقرير الوحيد المطبوع حتى اللحظة أعده فيركوتر في Syria, Vol. XXXIX (1962), pp. 263-99
- وللمزيد من الوصف أنظر شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 87 .
- ١١٠- فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) p. 295 .
- ١١١- أنظر شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 97 ، وشينى
- Excavations at Soba, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 3 (1955), pp. 16-17.
- ١١٢- أنظر ديكسون في كوش Kush XI (1963), pp. 227-34
- ١١٣- كروفورد و أديسون
- Abu Geili and Saqadi & Dar el Mek, The Wellcome Excavations in the Sudan, Vol. III (1951), pp. 1-110.
- ١١٤- يعتقد هينتز مع ذلك أن المستوطنة والجبانة فى سنار تنتمى إلى قبيلة النوبة ، والتي تأثرت ثقافياً بمروي ولكنها لم تكن تابعة لها سياسياً ؛ أنظر
- Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 94 (1967), p. 82.
- وللمزيد من المناقشة عن النوبة وعلاقتها بمروي أنظر الفصل الثالث عشر .
- ١١٥- مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) ، p. 265 ، وأنظر بالمثل ديكسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢) p. 234 .
- ١١٦- أنظر بصفة مبدئية أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. 136-7, 173-6 . وكذلك هوفمان في
- Meroitic Newsletter No. 9 (1972), pp. 14-17.
- ١١٧- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠١) ، p. 4 ، وتريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٣) p. 25 .
- ١١٨- قارن شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 96 .
- ١١٩- أنظر ما قبله p. 98 . لقد ظل موقع جبل مويه مركزاً للجدل منذ لحظة حفره تقريباً ؛ وللمناقشة أنظر كول
- The Prehistory of East Africa (Harmondsworth, 1954), pp. 221-2.
- أما التقارير المحددة فهي التي أعدها أديسون ،
- Jebel Moya, The Wellcome Excavations in the Sudan, Vols. I-II (1949)
- ومراجعات لاحقة من نفس المؤلف في كوش
- Kush IV (1956), pp. 4-18.
- ١٢٠- IV: 5
- ١٢١- أنظر شينى ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 75 ، وكروفوت و قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) .
- pp. 7-8, 89

- ١٢٢- مرجع سابق (هامش رقم ١٠١) p. 15 .
- ١٢٣- أورده رايزنر في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. V (1918), pp. 99-112 and Vol. VI (1920), pp. 247-64,  
أنظر كذلك رايزنر في  
Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 66 (1931), pp. 76-100.
- ١٢٤- قريفيث في  
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IX (1922), pp. 75-6
- ١٢٥- أنظر ماكادام ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٣) Vol. II, pp. 114-15 and 231-7
- ١٢٦- الأهمية الكبيرة لهذا الفصل بناء على طبقات الأرض ، وهو أصلاً مقترح من ناحيتي في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 115-17
- جاءه مكرراً هايكوك (مرجع سابق ، هامش رقم ٧ ، 3-4 pp. : مرجع سابق ، هامش رقم ٨٠ ، 10-10 pp. :  
مرجع سابق ، هامش رقم ١٠١ ، 5-10 pp. ) .
- ١٢٧- لوصف هذه الأشكال ومناقشتها أنظر دنهام في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 33 (1947), pp. 63-5.
- ١٢٨- أنظر مايستر في  
Bulletin de la Société Française d'Égyptologie, No. 55 (1969), p. 10,  
ودنهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٧) p. 388 .
- ١٢٩- قارن ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 59 .
- ١٣٠- أورده شيف جيورجيني في كوش  
Kush XIII (1965), pp. 116-30 and Kush XIV (1966), pp. 259-60,
- وليكلانت في  
Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de l'Année 1970, pp. 246-76.
- ١٣١- أنظر شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 67-8 . وقد أفادني هايكوك (في تبادل شخصي) أن المعبد  
دُمّر أثناء بناء خط السكة الحديدية العسكرية في ١٨٩٦-١٨٩٧ . واكتُشفت آثاراً قليلة متراكمة بفعل التعرية من قبل  
فيلا في معرض مسيح إثاري أجري عام ١٩٧٢ : أنظر تقريره في Meroitic 3 (in press)
- ١٣٢- قارن هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠) p. 111 .
- ١٣٣- أنظر ميلز في كوش Kush XIII (1965), pp. 3-12
- إن جبانة مروية كبيرة في سمنة غرب ، حجرها المعهد الشرقي بشيكاغو ، لم يُصدر تقريرها بعد . ولذكر يسير لها  
أنظر ليكلانت في  
Orientalia, Vol. 37 (1968), pp. 120 and Figs. 34-5.
- ١٣٤- أنظر تريقر ، مشار إليه أنفا (هامش رقم ١٩) ، و ميليت ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٤٢) p. 190 و Fig. 3
- ١٣٥- ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. vii ،  
Meroitic North and South : a Study on Cultural Contrasts, Meroitica 2 (1976).
- ١٣٦- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 141-2 .
- ١٣٧- نفسه ، p. 145 .
- ١٣٨- دنهام  
The Egyptian Department and its Excavations (Boston, 1958), p. 135.
- ١٣٩- أنظر بدج ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 149 .
- ١٤٠- لترجمة كاملة أنظر هينتنز

Die Inschriften des Löwentempels von Musawwarat es Sufra, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, und Kunst, 1962, No. 1, pp. 25-32.

١٤١- مقتطف من شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 143 .

١٤٢- للمزيد حول تقديس أباداماك أنظر ليكلانت في

Les Syncrétismes dans les Religions Grecque et Romaine, Bibliothèque des Centres d'Études Supérieures Spécialisés, Travaux du Centre d'Études Supérieures Spécialisées d'Histoire des Religions de Strasbourg (1973), pp. 139-45,

وأنظر خاصة زابكاف ، أبادماك

Apedemak, Lion God of Meroe (Warminster, 1975).

١٤٣- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 145 .

١٤٤- نفسه ، p. 146 .

١٤٥- هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠) p. 111 .

١٤٦- قارن ديكسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢) .

١٤٧- لمناقشة عن التجارة المروية مع مصر أنظر روستوفزيف ،

The Social and Economic History of the Roman Empire, 2nd ed. (Oxford, 1957), Vol. I, esp. pp. 306-7.

١٤٨- XVII: 1 ؛ قارن كذلك شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 159 .

١٤٩- قارن كمب في أوكو ، تريمنفهام وديميلي ، محررين ،

Man, Settlement and Urbanism (London, 1972), pp. 657-61.

XVII: 1,2 - ١٥٠ .

١٥١- شيني ، تبادل شخصي .

١٥٢- لا أمك الموافقة على مايتضمنه رأي هينتز (في دنكلر ، محرراً ،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit, Recklinghausen, 1970, pp. 49-65),

ولا أوافق على الافتراضات التي تؤكد مباشرة رأي هايكوك (في Meroitica 2, 1976, p. 37)

و محمد علي (مرجع سابق ، هامش رقم ٣٠) والقاتلة بأن المواقع المروية في البطانة مختلفة بشكل ملحوظ عن المواقع الكائنة في شواطئ النهر ، ومن ثم لا بد أنها شيدت بواسطة الرعاة أو لهم . فبعيداً عن إستبعاد أي إحتمال إيكولوجي فيما يتعلق بالبيئة لا اعتقد أن المعلومة الأثرية الضئيلة والمتوفرة في البطانة ستؤيد هذا النوع من التعميم . ولمناقشة أطول أنظر مقالتي والمناقشة الدائرة حولها في

Meroitica 3 (in press)

١٥٣- مرجع سابق (هامش رقم ١٤٨) .

VI: 35 - ١٥٤

١٥٥- أنظر بالمثل ، الآن ، الرسوم الجانبية لمعبد الاسد في المصورات .

هينتز Der Löwentempel, Musawwarat es Sufra, Vol. I, Part 2 (1971), pls. 53-69.

١٥٦- وولي و راندال - ماك إيفر

Karanog, the Riomano-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxé Junir Expedition to Nubia, Vols. III-IV (1910), pp. 59-60 and pls. 26-8,

أنظر أيضاً شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 159 .

١٥٧- كارتر

- ١٥٨- قارن ميليت ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) pp. 39-40 .  
 ١٥٩- ما ورد أنفا مذكور في شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 111-13, 145-6 .  
 ١٦٠- نقلاً عن أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٤٢) p. 166 .  
 ١٦١- نقلاً عن فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) p. 299 .  
 ١٦٢- شيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 113 . والنص منقول من فيركوتر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) ، p. 293 .  
 ١٦٣- أنظر هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠١) p. 3 .

## الفصل الثاني عشر

المصادر الأساسية . في هذا الفصل إعتدت ، بمستوى أعلى ، على ن . ب . ميليت في رسالته غير المنشورة (النوبة المروية Yale University, 1968 وهي متوفرة في مايكرو فيلم الجامعة) من أي مصدر آخر بمفرده . وفي حين أظل على غير إستيقان من بعض قراءات المؤلف التخمينية للنصوص المروية ، أحس بأنه قام بأول محاولة ذات معنى ليرى النوبة السفلى المروية في منظورها الصحيح كياناً سياسياً وثقافياً شبه مستقل أكثر من النظر إليها كإمتداد شمالي لحضارة السهول ليس إلا . أما المصادر الهامة الأخرى مما نشر ، نحو ما أشير إليه في فصول سابقة ، فتشمل شيني ، مروي (New York, 1967) : تريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى ، منشورات جامعة يل في الأنثروبولوجيا Vol. 69 (1965), pp. 120-31 ومقالة هايكوك في مجلة الآثار المصرية Vol. 53 (1967) pp. 107-20 وقد أرسل لي هايكوك في عطف عدد من المخطوطات التي لم تنشر بعد ، إن أحدها (Landmarks in Cushite History) كان على وجه الخصوص قيماً لإدراك نشاط البطالمة في النوبة .

ويبقى مؤلف مونير دي فيلار

La Nubia Romana (Rome, 1941) المصدر القياسي عن النوبة الرومانية . ولتفاصيل ثقافة مروي المادية وممارستها الجنائزية في الشمال أخذت بتوسيع عن التقارير المنشورة في شأن جبانتي كارنوق و فرس المرويتين العظيمتين

Woolley and Randall-MacIver, The Romano-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. III-IV (1910). Griffith, University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XI (1924), pp. 141-78; Vol. XII (1925), pp. 52-172.

١- توينبي A Study of History, Vol. 8 (New York, 1963), pp. 407-8

٢- لمناقشة حول أمتداد البطالمة الزراعي أنظر روستوفتزييف

Rostovtzeff, A Large Estate in Egypt in the Third Century BC (Madison, 1922), pp. 3-5.

وأنظر بتزر في الجمعية الجغرافية المصرية

Butzer, Bulletin de la Société de Géographie d'Égypte, Vol. XXXIII (1960), pp. 6-17.

٣- أنظر بيغان

Bevan, The House of Ptolemy (Chicago, 1968), pp. 186-7.

٤- أنظر خاصة هايكوك

Landmarks in Cushite History (MS), pp. 4-12.

٥- ديسانجس في

Actes du Quatre-Vingt-Douzième Congrès National des Sociétés Savantes, 1967, Section

٦- أنظر لوكاس ،

Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed. (London, 1948), pp. 261-2.

٧- لمناقشة حول التعرف على أرقامينس على أنه أرقاماني ، أنظر الفصل الحادي عشر ، هامش رقم ٧٢ .

٨- قريفيث ، النقوش المروية ، الجزء الثاني

Meroitic Inscriptions, Part II, Archaeological Survey of Egypt, Memoir 20 (1912), p. 32.

وتريقر ، التاريخ والإستيطان في النوبة السفلى

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69

(1965), pp. 120-21.

وتكتب اسم الملك على اختلاف على أنه أآخر أمانى (قريفيث) وأديخا لاماني (هايكوك) .

٩- أنظر أركيل A History of Sudan, 2nd ed. (London, 1965), pp. 158-9

تريقر ، ما قبله (هامش رقم ٨) : إمري Egypt in Nubia (London, 1965), p. 225

شيني Meroe (New York, 1967), p. 41 و ميري Meroe (New Haven, n. d.), pp. 4-6

١٠- أنظر أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) ، p. 159

١١- (في تبادل شخصي) إعتقد هايكوك أن حارسيتف قادته مغامرته حتى شمال أسوان في إحدى حملاته العسكرية (حوالي ٤٠٠ ق.م.) ، إلا أن هذا الفرض غير واضح من لغة لوحه التذكاري . أنظر بدج

The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, pp. 76-82.

١٢- قانون راندال - ماك إيفر و وولي

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Cox Junior Expedition to Nubia, Vol.

XII (1911), pp. 125-8.

وقريفيث University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XI (1924), p. 118.

١٣- ديسانجس ، مرجع سابق (هامش رقم ٥) :

ميركوتر Mirgissa I (Paris, 1970), pp. 23, 171, 189

١٤- مونيدي فيلار (La Nubia Romana, Rome, 1941, pp. 34-5) رأى أن أعمال التحصن في جبل عداً وقصر

إبريم ذات أصل بلغمي ، ويبدو هذا الآن غير محتمل للغاية . أنظر مناقشة تحت عنوان " المحافظة المروية " بانهاه .

إن البنية التجريبية الوحيدة على الإحتلال البطلمي خرجت إلي النور حتى الآن في قصر إبريم هي كتلة حجرية

محفور عليها اسم "بطليموس" بشكل غير مصقول . أنظر بلغمي

Études et Travaux du Centre d'Archéologie Méditerranéenne de L'Académie Polonaise des

Sciences, V (1972), p. 19.

١٥- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) . يطابق ثلاثون سخوناً بمستوى مقارب المسافة من الشلال الأول إلى

الشلال الثاني (حوالي ٢٠٠ ميلاً) .

١٦- هايكوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٤) ، pp. 12-16 .

١٧- المرجع نفسه pp. 17-18 .

١٨- نفسه p. 17 .

١٩- هذه لم تأخذ مكانة فيلة كمركز تجاري وسياسي حتى مقدم الأزمان الوسيطة وفي عهد البطالمة كانت قرية

صغيرة تدعى ساميني ("السوق") .

٢٠- أنظر على وجه الخصوص بوسنر

A Dictionary of Egyptian Civilization (London, 1962), pp. 138.

٢١- أنظر بدج



The Nile, Notes for Travellers (London, 1902), pp. 456-65.

٢٢- ميليه ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٩) ، p. 5 .

٢٣- نفس المرجع p. 26 .

٢٤- نفسه pp. 26, 34 .

٢٥- أنظر خاصة مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118, (1938), pp. 19-22.

٢٦- قارن كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 97.

٢٧- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 159 .

٢٨- قارن بليلي ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 8-24 . إن القصة الكاملة لقصر إبريم يجب أن تنتظر سنوات عديدة لمزيد من التنقيب . لمناقشة عن البقايا المروية الأثرية على نحو ما هو متعرف عليه في الوقت الراهن ، أنظر " المحافضة المروية " ، بأنائه .

٢٩- أنظر ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) ، pp. 12-13 .

٣٠- أنظر بوجه خاص بيورسوك

Augustus and the Greek World (Oxford, 1965), pp. 42-61

و ديسانجس في Chronique d'Égypte, Vol. XLIV (1969), pp. 143-4.

٣١- أنظر مونير دي فيلار ، المرجع السابق ذكره (هامش رقم ١٤) ، p. 2 .

٣٢- أنظر ما قبله ، pp. 2-4 و كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), p. 24.

٣٣- إستقرايو 53-4 XVII.

٣٤- رصف في الفصل الحادى عشر . وللإطلاع على الرصف الأصيل وإيضاحات ما تم العثور عليه أنظر بوسانكيه في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IV (1911), pp. 66-71 and pls. XII-XVI.

٣٥- ورد أنفا (هامش رقم ٢٣) .

٣٦- VI: 35 .

٣٧- كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) pp. 24-5 .

٣٨- يُقْبَر عن وجهة نظر أخرى جامسون في

Journal of Roman Studies, Vol. LVIII (1968), pp. 74-5.

وقد إعتبرت أن طرد النوبيين من بسلسيس شكل تدبيراً كافياً للثغر ، وأن تقدم بترونيوس كان مدفوعاً بإعتبارات إقتصادية .

٣٩- كيروان في Geographical Journal, Vol. CXXIII (1957), p. 16 .

وأُمرى ، مذكور أنفا (هامش رقم ٩) p. 227 .

٤٠- راجع ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 24-6 .

٤١- كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٩) pp. 16-17 . ولمحاولة جرت لإستعادة تفاصيل بعثة نبرو ، أنظر

بريس في Meroitica I (1973), pp. 123-5.

٤٢- VI: 8, 3 .

٤٣- VI: 35 .

٤٤- من ناحية أخرى ، حاول هينتز أن يجد حلاً للاختلافات القائمة ما بين السريدين بإقتراح مفاده أنه فى الواقع

كانت هنالك بعثتان في عهد حكم نيرو ؛ واحدة في عام ٦٢ بعد الميلاد (قدم تقريراً عنها سنيكا) وواحدة أخرى في عام ٦٦ أو ٦٧ بعد الميلاد (بلغ عنها بليني). أنظر

Studien zur Meroitischen Chronologie und zu den opfertafeln aus Pyramiden von Meroe, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, and Kunst, 1962, No. 2, pp. 27-9.

أنظر أيضاً هينتز وديسانجس في Meroitica 1 (1973), pp. 140-41, 145.

٤٥- أنظر بويرسوك ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٠) p. 42 .

٤٦- طالع بوجه خاص مونير فيلار ، مذكور أنفا (هامش رقم ١٤) pp. 4-5 .

٤٧- كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 25 .

٤٨- ما قبله .

٤٩- ميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 26 .

٥٠- قارن ما قبله p. 27 . هامش رقم ٢ .

٥١- تريفر ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٨) p. 124 .

٥٢- منذ كتابة ما سبق تم حفر عدد من المنازل الرومانية في طابغا بواسطة معهد شيكاغو Oriental Institute of Chicago لكنها لم يُبلغ عنها بعد بتفصيل لتلخيص موجز للغاية عن التقارير الأولية أنظر سيئل في Fouilles en Nubie (1959-1961) (Cairo, 1963), pp. 83-4.

٥٣- آثار النوبة السفلى ١٩٠٦ - ١٩٠٧

Antiquities of Lower Nubia in 1906-1907 (Oxford, 1907), pp. 64-7.

٥٤- تريفر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) p. 126 .

٥٥- ما قبله p. 124 .

٥٦- قارن بما قبله ، كذلك أنظر ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 27 ، هامش رقم ٢ .

٥٧- لوصفر-تفصيلي أنظر مونير دي فيلار ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 5-32 .

٥٨- تريفر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 124-5 . ويعود الوصف الأصلي لرايزنر في Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. 1, pp. 72-3.

وللإطلاع على التقارير الأولية عن الحفريات في القلاع الرومانية في طابغا وكرتسي أنظر زابا في Fouilles en Nubie (1959-1961) (Cairo, 1963), pp. 46-51.

وفي Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 212-15.

٥٩- تريفر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 160 .

٦٠- ما قبله pp. 123-4 .

٦١- أنظر قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 122 .

وميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 31 .

٦٢- أنظر ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 29, 40 .

٦٣- قارن آدم في Kush XII (1964), p. 164 .

٦٤- قارن ميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 29 .

و هايكوك في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), pp. 109-10.

٦٥- أنظر بلملي و آدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 228-36.

٦٦- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 12, 17-18 .

٦٧- قارن بما قبله ، p. 18 .

ولمحاولة بزلت للتعرف على المدن التي ذكرها بليني أنظر بريس ، المرجع السابق (هامش رقم ٤١) .

- ٦٨- ميليه ، مرجع منكور أنفا (هامش رقم ٩) p. 29 .  
وهايكوك ، نفسه (هامش ٦٤)
- ٦٩- حسبما أعلم طرّح هذا الفرض أولاً فيث في  
Archaeological Survey of Nubia, Report for 1909-1910 (Cairo, 1915), p. 23.
- أنظر كذلك تريقر ، المرجع السابق ، (هامش رقم ٨) p. 123 .  
وادمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 119-20.
- ٧٠- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) p. 160 .
- ٧١- ليكلانت ، مع ذلك ، يعتقد أن الإحتلال المروي للنوبة السفلى لم يكن "أبداً غامراً" - أنظر  
Actes du Premier Colloque International d'Archéologie Africaine, Études et Documents Tchadiens, Memoire I (1969), p. 250.
- ٧٢- أنظر سينجر وآخرين  
A History of Technology, Vol. II (Oxford, 1956), p. 676.
- ويفترض ديودورس (I: 34) أن الساقية كانت مستعملة في كل مكان في دلتا النيل خلال ٦٠ - ٥٩ ق. م. ولكنه لا يذكر لها وجوداً في مصر العليا .
- ٧٣- أنظر مونير دي فيلار ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 43-6 .
- ٧٤- أنظر هامش رقم ٦٨ .
- ٧٥- قارن ادمز ، المرجع المذكور أنفا نفسه (هامش رقم ٦٩) .
- ٧٦- لقائمة شبه كاملة للمواقع المروية في النوبة المصرية أنظر تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 190-97 : إن هذه القائمة مع ذلك ناقصة لمدى بعيد بالنسبة للجزء السوداني من النوبة السفلى .
- ٧٧- ميليه ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 30-31 .
- ٧٨- قارن مونير دي فيلار ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 36 .
- ٧٩- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 121 .
- ٨٠- تُرك وصف لها من طرف الكاتب المتأثر فيلوسستروس ؛  
أنظر كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ٣٢) p. 26 .
- ٨١- إن الحفريات ، مع ذلك ، تواصل في قصر إبراهيم التي تظل باقية فوق مستوى الأماكن التي غمرتها بحيرة ناصر . وإلى هذا الوقت لم تسفر الحفريات عن تفاصيل كثيرة حول الإحتلال المروي للموقع .
- ٨٢- أنظر بلملي للإيضاحات ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 16-17 ، في .  
Illustrated London News, 11 July 1964, p. 52.
- و فرند في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pl. viii.
- ٨٣- أنظر هامش رقم ١٤ .
- ٨٤- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 47-50 .
- ٨٥- قريفيث في  
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pp. 25-8.
- ٨٦- ما قبله p. 24 .
- ٨٧- طالع ميخالوفسكي Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1962), pp. 74-9  
وكذلك Faras, Fouilles Polonaises 1961-1962 (Warsaw, 1965), pp. 39-45.
- ٨٨- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 46 .
- ٨٩- ما قبله pp. 50-52 .
- ٩٠- أنظر بلملي و ادمز ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٦٥) .

- ٩١- أنظر بلمللي في Illustrated London News, 11 July 1964, p. 53, Fig. 8.
- ٩٢- قارن بلمللي ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 18-19 . إن سرداً متخيلاً نوعاً ما للمنصة وأهميتها المحتملة يعود لفردن في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 30-59.
- ولإيضاحات عن المنصة أنظر ما قبله ، الصور رقم VII, XIII .
- ٩٣- أنظر وولي Karanog, the Town, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxé Junior Expedition to Nubia, Vol. V (1911), pp. 41-4.
- ٩٤- تحمل اسم أماني- يا شيباهي (أو يا سباخي أماني) ، الذي يُعتقد أنه كان واحداً من آخر ملوك الأسرة الكوشية الحاكمة (تقريباً ٢٨٣ - ٢٠٠ بعد الميلاد) . أنظر بلمللي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), p. 12 and pl. IV, no. 3.
- ٩٥- حاملة أسماء أماني ريناس و أكينيداد الشهيرة ، التي تظهر أيضاً في لوح مشهور من مروي (النفوش الملكية ، الفصل الحادي عشر) . إن اللوح المكسور في قصر إبريم يستعمل مرة ثانية كقطار حجري على أرضية الكاتدرائية . ولم تتم ترجمته إلى الآن ترجمة كاملة ، على أن وصفاً مختصراً له بإيضاح يوجد في بلمللي ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 19-20 .
- ٩٦- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 51 .
- ٩٧- تم التعرف على معابد مروية فيما يحتمل أنها كذلك في النوبة السفلى ، بوهين و مينارتي . وقد دُمِر كلٌ منهما تماماً في أزمان بعد العصر المروي بحيث لا يمكن التأكد من طبيعتهم الأصلية ووظائفهم على وجه يقين ، وللإطلاع على وصفهم أنظر راندال - ماك إيفر و وولي Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxé Junior Expedition to Nubia, Vol. VII (1911), pp. 125-6,
- وأنظر آدمز في Kush XIII (1965), p. 162
- ٩٨- للبيئة المعروفة عليها أنظر بخاصة قريفيث Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenos, Vol. I (Oxford, 1937), pp. 26-31, 112-22.
- ٩٩- المرجع نفسه (هامش رقم ٩) p. 29 .
- ١٠٠- قارن تريقر The Meroitic Funerary Inscriptions from Arminna West, Publications of the Pennsylvania - Yale Expedition to Egypt, No. 4 (1970), pp. 50-51.
- ١٠١- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) . لقد قام توروك منذ وقت قريب بتحليل أكثر تفصيلاً لبعض جوانب من نفس البيئة . إن ما خلص إليه يتفق بوجه عام مع النتائج التي خلص إليها ميليه ، بالرغم من أنه عرّف كثيراً من الوظائف على أنها للكهنة أكثر من كونها وظائف مدنية . أنظر Ägypten und Kusch, Zentralinstitut für Alte Geschichte und Archäologie der Akademie der Wissenschaften der DDR, Schriften zur Geschichte und Kultur des Alten Orients (in press).
- ١٠٢- ما قبله p. 37 .
- ١٠٣- نفسه p. 52 .
- ١٠٤- يقترح ماكادام أن العلاقة موضع الإنعاء ربما أنها وصانية أكثر منها قرابية ، وهي ما يضعف من حجة ميليه في هذه الناحية . أنظر Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 36 (1950), p. 45.

- ١٠٥- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 39-40 .
- ١٠٦- Philology and the Use of Written Sources in Reconstructing Early Sudanese History; Reflections on the Administration of Lower Nubia in Meroitic Times (MS), pp. 5-12.
- ١٠٧- تبادل شخصي .
- ١٠٨- نفسه .
- ١٠٩- انظر قريفيث " نقوش جنازية مروية من فرس ، النوبة " في  
Recueil d'Études Egyptologiques Dedicées a la Mémoire de Jean-Francis Champollion No. 21  
(Paris, 1922), pp. 565-600.
- ١١٠- تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٠٠) pp. 26-30 .
- ١١١- هايكوك ، المرجع السابق (هامش رقم ٦٤) p. 117 .
- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٠) p. 51 .
- ١١٢- ميليه ، المرجع المذكور سابقا (هامش رقم ٩) p. 46 .
- ١١٣- ما قبله pp. 44-5 .
- ١١٤- لتفسير مماثل على الأرجح عن الأصول والوظائف التي تتعلق بمركز البلمي انظر هايكوك ، المرجع السابق  
(هامش رقم ١٠٦)
- pp. 9-12 .
- ١١٥- ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 57-8 .
- وتريقر ، المرجع نفسه (هامش رقم ١٠٠) p. 50 .
- ١١٦- على وجه الخصوص قصر إبريم (بلملي ، مرجع سابق ، هامش رقم ٩١) ، جبل عدا  
(ميليه في 12 p. 1964, Vol III, Journal of the American Research Center in Egypt) ،  
ومينارتي (Adams, op. cit., n. 97, pp. 174-6)
- ١١٧- لمناقشة أكثر في هذه الرسالة انظر ميليه في  
Fernea, Ed., Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. I, pp. 59-77.
- ١١٨- فارين تريقر في  
Anthropologica, Vol. X (1968), pp. 96-7.
- ١١٩- وولي ، مرجع سابق (هامش رقم ٩٢) ، p. 6 .
- ١٢٠- تريقر (في تبادل شخصي) يعتقد مع ذلك أن المساكن الكبيرة ذات البناء الراسخ معلم عام على المستوطنات  
المتأخرة والأوسع مساحة ، وأن الفرق بينها والمنازل البسيطة العادية ربما يعكس إنقساماً على أساس الريف  
والحضر أرجح منه تمايزاً طبقياً .
- ١٢١- امري وكيروان  
The Excavations and Survey between Wadi es-Sebua and Adindan, 1929-1931 (Cairo, 1935), Vol.  
I, pp. 180-22 and Vol. II, pl. 17.
- ١٢٢- انظر خاصة تريقر  
The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania - Yale  
Expedition to Egypt, no. 2 (1967), pp. 35-70 and Fig. 23.
- ١٢٣- انظر كلاسنس في  
Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 80-82
- و جاكبي في  
Beiträge zur Ägyptischen Bauforschung und Altertumskunde, Vol. 12 (1971), pp. 121-31.
- ١٢٤- أُجرى الحفر بواسطة بعثة جامعة كلوراندو للنوبة عام ١٩٦٢ ؛ ولم تُشتر بعد .

- ١٢٥- أنظر آدمز ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٩٧) ، pp. 151-2 . وفي Chang, Ed., *Settlement Archaeology* (Palo Alto, 1968), pp. 182-4, 200
- ١٢٦- بالرغم من ذلك ، يعتقد تريقر (في تبادل شخصي) أن كل المساكن " الفخمة " في أرمينا كانت متأخرة في زمانها أكثر من المنازل الأخرى قاطبة . وفي مكان آخر (مرجع سابق ، هامش رقم ٨ ، p. 129 و هامش رقم ١١٨ ، مرجع سابق p.97)
- يصف المساكن " الفخمة " بأنها مشابهة لاماكن الإقامة المروية على وجه العموم ، ولكنها في الحقيقة أقل عدداً من المنازل العادية ، هشة البناء في مواقع عديدة في النوبة السفلى .
- ١٢٧- ربما يوجد بعض التأكيد على هذه النظرية في الحقيقة التي مؤداها أن الشوكان وجدت بها مجموعة مسلات نُقش عليها ما يدل بوضوح على خطط المساكن " الفخمة " . أنظر جاكوب ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٣) pp. 130-131 والصور 19-20 .
- ١٢٨- لوصف أكثر تفصيلاً عن هندسة المساكن المروية " الفخمة " أنظر ما قبله ، pp. 121-30 .
- ١٢٩- راجع آدمز و نورديستروم في Kush XI (1963), p. 26
- ١٣٠- قارين كروفورد و آديسون
- Abu Geili and Saqadi & Der el Mek, *The Wellcome Excavations in the Sudan*, Vol. III (1951), p. 10.
- لقد تمت ملاحظة هذا الوجه أيضاً في مروي (تبادل شخصي من ب. ل. شيني) .
- ١٣١- كروفورد و آديسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٠) : أنظر بخاصة Plan of Excavations (end paper).
- ١٣٢- آدمز و نورديستروم ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٢٩) pp. 26-8 .
- ١٣٣- ما قبله .
- ١٣٤- نفسه ، pp. 29, 41 .
- ١٣٥- قارين وولي ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٩٢) pp. 26-40 والصور 9-26 : آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، pp. 164-5 . وتريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٢) ، Fig 23 .
- ١٣٦- أنظر هامش رقم ١٢٥ .
- ١٣٧- آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، pp. 162-3 .
- ١٣٨- قروفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ٨٥) ، pp. 21-3 . والصور XIII
- ١٣٩- تريقر ، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 129-30 .
- ١٤٠- آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) ، pp. 163-4 والصور XXXIV
- ١٤١- لمناقشة طويلة أنظر آدمز في Kush XIV (1966), pp. 262-83 .
- ١٤٢- قارين أمري و كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢١) Vol. I, pp. 108-13 and Vol. II, pls. 15-16.
- ١٤٣- لتفاصيل مقارنة أنظر آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤١) pp. 264-5 .
- ١٤٤- أنظر فيركوتر في Kush VII (1959), p. 127
- ١٤٥- توجد معلومات وافية عن زراعة العنب في مصر البطلمية والرومانية أعدها بليني (بلينيوس) و أثينوس . أنظر ويلكنسون
- The Manners and Customs of the Ancient Egyptians* (New York, 1878), Vol. I, pp. 382-93.
- ولوكاس ، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 27-31 .
- ١٤٦- قارين آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤١) p. 268 و مونير دي فيلار (هامش رقم ١٤) pp. 40-43 .
- ١٤٧- آدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤١) pp. 277-8 .
- ١٤٨- أنظر ديرميرق و سالتير

- ١٤٩- إمري وكيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢١) Vol. I, p. 110 .  
أدمز ، المرجع السابق (هامش رقم ٩٧) . p. 151 .  
١٥٠- أنظر بورخارت . Travels in Nubia (London, 1819), p. 512 .  
إن حجم الكثير غير معروف .  
١٥١- كرومر  
Römische Weinstuben in Sayala (Unternubien), Österreichische Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 95 (1967).  
١٥٢- تريقر في Bibliotheca Orientalis, Vol. XXV (1968), p. 192 .  
١٥٣- كرومر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥١) ، pp. 114-17 .  
١٥٤- قارين تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٢) pp. 192-3 .  
١٥٥- آدمز و نورستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p. 39, p. 37 والشكل 6.b .  
١٥٦- فيما يبدو بُدئ في بناء المبنى في الفترة المروية ولم يكتمل البناء حتى السنوات الباكسة من فترة بلانة . وهكذا ، تكون كل الآثار المترسبة حوله من فخار " ثقافة المجموعة المجهولة " . أنظر بليلي و آدمز ، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٦٥) pp. 217-19 .  
١٥٧- للتوضيح أنظر المرجع نفسه ، pl. XLIV, no. 1 .  
ويليلي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), pl. XXII, no. 2 .  
وبالإمكان مشاهدة غصون العنب المتشابكة زخرفاً على أسفل الركن الشمالي ، المجاور لأرضية الحائط .  
١٥٨- بليلي ، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pl. XXIII, no. 4 .  
١٥٩- ما قبله ، pp. 14-16 . تقديم المحرر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), p. 1 .  
١٦٠- قارين بليلي و آدمز ، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) pp. 218-19 .  
١٦١- أنظر فيريرس في Kush X (1962), pp. 19-21 .  
١٦٢- إضافة إلى " الحمامات الملكية " الشهيرة الموصوفة بتفصيل في الفصل الحادي عشر ، تم إكتشاف حمامين صغيرين في مروي ومن الأوصاف النذيرة التي نشرت عنها لا يبدو أنها قريبة الشبه بالهياكل التي عُثِر عليها في فرس . أنظر قارستنت في University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. VII (1914), p. 11 .  
١٦٣- مترجماً عن مونير دي فيلار ، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) p. 36 .  
١٦٤- سايك في University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. IV (1911), p. 55; Dunham  
دونهام في American Journal of Archaeology, vol. L (1946), p. 385;  
جاء الله في Kusch XL (1963), pp. 198-9 .  
١٦٥- تريقر في African Historical Studies, Vol. II (1969), p. 45 .  
١٦٦- نفسه p. 46 .  
١٦٧- وينرايت في Sudan Notes and Records, Vol. XXVI (1945), p. 24 .  
١٦٨- إعتقد هايكوك على أساس إختبار شخصي قام بإجرائه أن البقايا المنصهرة في كاوة من النحاس أكثر منها بقايا لصناعة الحديد (تبادل شخصي) .  
١٦٩- تريقر ، نفس المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٦٥) p. 47 .  
١٧٠- قارين سينغر وآخرين ، مرجع سابق (هامش رقم ٧٢) pp. 56, 72 .

ويليامز في تومسون وفيرجسون ، 62-72، Africa in Classical Antiquity (Ibadan, 1969) pp.

وتايكوت في Bulletin of the Historical Metallurgy Group, Vol. 4 (1970), pp. 67-72.

يقترح دايغز ، من الناحية الأخرى ، أن آلة الصهر المروية ربما كانت على الأرجح فرنًا

أنظر West Africa before the Europeans (London, 1967), p. 239.

١٧٢- قارن شارلستون Roman Pottery (London, 1955), pp. 36-7 and pls. 78-80.

١٧٣- في دراستين سابقتين ( Kush XII, 1964, pp. 170-71 )

ودينكلر وآخرين في

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit [Recklinghausen, 1970], p. 121)

كتب أن المرافع النبتية المتأخرة والمروية الأولى في النوبة العليا مشخصة تكاد على وجه كلي بمصنوعات يدوية ، إذ أن عجلة صانع الفخار يبدو أنها توقفت إستعمالها في أزمان نبتية متأخرة . لقد كان هذا خطأ يقوم على فهم غير صحيح للموقع الذي شغلته الجبانات الخاصة " بالنوبة " (فيما بعد المروية) في مروى والمصنوعات من حيث التسلسل الزمني ، وهي الجبانات التي ما عثر بها على غير الفخار اليدوي . ولقد واثقت الفرصة مذاك لأفحص بنفسى مجموعة كبيرة من الفخار الذى يُجد فى المصنوعات ، ولارى وصف الفخار الذى قام بنشره البروفيسور أوتو (1-32) Zeitschrift für Archäologie, Vol. I, 1967, pp. ولقد تعرفت على أن معظم المواد تتكون من مصنوعات بالعجلة وغير مزخرفة وهي بالضرورة تواصل تقاليد لأزمان فرعونية . لمزيد من التفاصيل الشاملة لهذا الموضوع أنظر ادمز و أوتو في Meroitica I (1973), pp. 177-240.

١٧٤- بالنسبة للفخار الخاص بالمصنوعات أنظر على وجه الخصوص أوتو في

Zeitschrift für Archäologie, Vol. I (1967), pp. 1-32.

١٧٥- قارن ادمز ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) ، p. 171 في

Meroitica I (1973), pp. 177-219, 227-40.

وكذلك في Meroitica 2 (1976), p. 19.

ومع ذلك ، عثر على مصنوعات مشابهة للمصنوعات الخاصة بمروى والمصنوعات في المستويات الأسفل بقصر إيريم ، وهي لا تشبه بحق الفخار المروى من النوبة السفلى ، أنظر " المحافظة المروية " ، بأغلاء .

١٧٦- إن بعض التمثلات شديدة العمومية ربما تلاحظ بين الفخار المروى المزخرف وما يسمى بأصيص "الحدرة" المصنوعة في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد (قارن جوريني

Vasi di Hadra, Seminario di Archeologia e Storia dell'Arte Graeca Romana dell'Università di Roma, Studi Miscellanei, 8, 1964)

ومثل ذلك تماماً بعض الآنية الإغريقية - المصرية من نوكراتيس

(Petrie, Nukratis, Part I, Egypt Exploration Fund, Memoir No. 3, 1888).

وبالرغم من ذلك ، تعرض المصنوعات المصرية جزءاً صغيراً ليس إلا من التنوع المزعزعة التي وُجدت في الفخار المروى .

١٧٧- لدراسات مطولة في طبقات الأرض والتاريخ المتعلق بالفخار المروى في النوبة السفلى ، أنظر ادمز ، المرجع

السابق (هامش رقم ١٣) ، وفي Kush XV (1973), pp. 1-50,

وفي دنكلر ، محرراً ،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 111-22.

أنظر كذلك شيني ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 114-22 .

١٧٨- لتوضيحات مصنوعة بالألوان أنظر بخاصة وولى و راندال - ماك إيفر في



### المأقروفي

La Necropolis Meroitica de Nag Gamus (Masmas, Nubia Egipicia), Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de la Misión Arquelógica en Nubia, VIII (1965), pls. XXIII-XXVII ;

وتوجد توضيحات كثيرة أخرى في قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) الصور رقم XLI-LII .  
١٧٩- انظر الرسوم في آدمز خاصة، مرجع سابق (هامش رقم ٦٢) ، 147-52 pp. وشيني (هامش رقم ٩) ، مرجع سابق، 121 p.

١٨٠- قارين آدمز في

(تحت الطبع) Kush X (1962), p. 276, Kush XV (1973), p. 4, and Kush XVI

١٨١- آدمز و نوربستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p 26 .

١٨٢- آدمز في Kush X (1962), p. 64

عُثر على قمانين في المستوطنة المروية في وادي العرب ، على أن الحفارين اعتبروا أنهم ربما يعود وجودهم إلى تاريخ مسيحي. ومن التوضيح المنشور ، مع ذلك ، يبدو أنهم يتماثلون للغاية مع القمينة المروية في أرقين . انظر امري و كيرون ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢١) ، Vol. I, p. 110 and Vol. II, pl. 15 .  
ومن البَين في ضوء العثور على عدد من الآنية التي لم يُحسّن حرقها في قصر إبريم أن الفُخار المروي كان يُصنع هنا سواءً بسواء (مذكرات المؤلف الميدانية غير المنشورة) .

١٨٣- تبادل شخصي من ب . ل . شيني .

١٨٤- قارين كراوفورد و انيسون ، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٠) pp. 50-51 .

١٨٥- ديكسون في Kush XI (1963), pp. 232-4

١٨٦- قارين آدمز في Kush XVI (in press).

١٨٧- مذكرات المؤلف الميدانية ، غير المنشورة ولوصف عن الموقع انظر Kush XI (1963), p. 28 .

ولقد بلغ هايكوك (في تبادل شخصي) أن أعداد كبيرة من مثل هذه الأوزان عُثر عليها في مروي .

١٨٨- سنقر وآخرين في A History of Technology, Vol. I (Oxford, 1954), pp. 426-8, 443-5 .

١٨٩- لوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 170 .

١٩٠- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 166 .

١٩١- XIII: 28 .

١٩٢- لوكاس ، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 170 .

١٩٣- أركيل ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) p. 166 .

١٩٤- قارين وولي و راندال - ماك إيغر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) ، pp. 27-8, 245; pl. 108 .

١٩٥- شيني ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) ، p. 129 .

١٦٦- قارين آدمز و نوربستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p. 30

والصورة رقم III .

١٩٧- وولي و راندال - ماك إيغر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) p. 28 .

١٩٨- ما قبله ، p. 109 .

١٩٩- قارين ما قبله ، p. 61 وشيني ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 122-31 .

٢٠٠- انظر بخاصة وولي و راندال - ماك إيغر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) ، الصورة رقم 21-40 .

٢٠١- انظر قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، الصور رقم LIII-LXIV .

٢٠٢- مذكرات المؤلف الميدانية ، غير المنشورة .

- ٢٠٢- أنظر بخاصة وولي و راندال - ماك إيفر .
- ٢٠٤- قارن قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 144 والصورة XL :
- ساف - سويدريج في Kush XI (1963), p. 65;
- بيليسر و للتقواس في
- Las Necropolis Meroiticas del Grupo 'X' y Cristianas de Nag-el-Arab, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de las Misión Arqueológica en Nubia, V (1965), pl. XVIII.
- ٢٠٥- وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) ، الصورة رقم 35 .
- ٢٠٦- هايكوك (تبادل شخصي) يبلغ أن مثل هذه الحُجُول لا تزال مستخدمة في المناسبات من النساء في وسط السودان .
- ٢٠٧- قارن شيفني ، مرجع سابق (هامش رقم ٩) ، p. 130 .
- ٢٠٨- وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) ، p. 74 .
- لتوضيحات عن أنية الزواج التي وُجِدَت في مواقع مروية أنظر ما قبله ، الصور رقم 37-9 ، وقريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) الصورة LI :
- وساف سويدريج ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٤) ، الصورة XII :
- ليكلانت في
- Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Comptes Rendus des Séances de l'Année 1970, pp. 269-74, Figs. 13-18.
- ٢٠٩- أنظر ليكلانت ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٨) pp. 269-73 وفي
- Les Sycretismes dans les Religions Grecque et Romaine, Bibliothèque des Centres d'Études Supérieures Spécialisées, Travaux du Centre d'Études Supérieures Spécialisées d'Histoire des Religions de Strasbourg (1973), pp. 135-9.
- ٢١٠- ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠٨) p. 273 ، الشكل رقم 17 .
- ٢١١- بإستثناء بلورات طينية صغيرة تُستعمل في صنع حبات العقود ، وهي واسعة الإنتشار في مواقع نوبية مسيحية .
- ٢١٢- وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 74-5 .
- ولإيضاحات ملونة أنظر المرجع نفسه ، الصورة 40 .
- ٢١٣- قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، الصورة رقم LXI .
- ٢١٤- أنظر وولي و راندال - ماك إيفر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 69-72 والصورة 21-5 .
- ٢١٥- قارن تريفر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 186-97 .
- ٢١٦- وولي و راندال - ماك إيفر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) p. 81 .
- ٢١٧- نفسه 3 . p.
- ٢١٨- أنظر بخاصة ميليه ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 52 وفي
- Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. II (1963), pp. 154-64.
- ٢١٩- قارن قريفيث في
- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XII (1925), p. 64;
- Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. II (1963), p. 161; وفي
- ليكلانت ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠٨) pp. 247-57 .
- ٢٢٠- ميليه ، في النص المنقول ، الهامش رقم ٢١٩ .
- ٢٢١- شيف جيورجيني في Kush XIII (1965), pp. 129-30;

- ليكلانت ، المرجع الوارد أنفا (هامش رقم ٢٠٨) ، p. 253 .
- ٢٢٢- وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 14 .
- ٢٢٣- قارين ليكلانت ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٨) p. 249 .
- ٢٢٤- وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 81 .
- ٢٢٥- قريفيث ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 144-6 .
- ٢٢٦- آدمز و نورديستروم ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٩) p. 29 ؛
- آدمز ، في النص المنقول (هامش رقم ٦٣) وفي المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) ،
- والمرجع السابق (هامش رقم ٦٩) p. 118 .
- ٢٢٧- قريفيث في
- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. X (1923), pp. 73-171.
- ٢٢٨- قارين وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) ، p. 81 .
- ٢٢٩- قارين قريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، p. 146 والصورة XXXV ؛
- شيني ، مرجع سابق ، (هامش رقم ٩) p. 155 .
- ٢٣٠- تريقر ، المرجع السابق (هامش رقم ٨) p. 127 .
- ٢٣١- وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 27 ؛
- فيلا في Aksha II (Paris, 1967), pp. 332-3.
- ٢٣٢- قارين امري ، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 228 والشكل رقم 42 .
- ٢٣٣- وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 29 .
- ٢٣٤- نفسه p. 30 .
- ٢٣٥- آدمز و نورديستروم ، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٩) pp. 26-8 .
- ٢٣٦- وولي و راندال- ماك إيغر ، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 9-11 .
- ٢٣٧- للإيضاحات أنظر ما قبله ، الصور 11-14 ؛ وقريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) ، والصور رقم LXV .
- ٢٣٨- وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 9-10 .
- ٢٣٩- للإيضاحات أنظر ما قبله ، الصور 15-17 .
- ٢٤٠- نفسه . p. 8 .
- ٢٤١- أنظر ما قبله ، الصورة رقم ١ .
- ٢٤٢- للإيضاحات أنظر خاصة ما قبله ، الصور 1-10 ؛ وقريفيث ، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) الصور .
- LXVI-LXVII
- ٢٤٣- بويسنر ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) p. 266 .
- ٢٤٤- وولي و راندال- ماك إيغر ، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٨) p. 46 .
- ٢٤٥- نفسه pp. 10-11 .
- ٢٤٦- الأمثلة المعروفة من الجنوب على الأشهر تُنسب إلي الجبانة المروية في صندقا (ليكلانت، مرجع سابق، هامش رقم ٢٠٨، 259).
- ويعتقد المؤلف أن تماثيل "ب" الوارد ذكرها هنا كانت في الأصل موضوعاً في دهلين خاص (سرداب) فيما بين هرم المدفنة .
- ٢٤٧- على الأقل في نقوشهم المنحوتة بالهيريوغليفية المصرية . إن النقوش الملكية باللغة المروية، إلى الحد الذي يوسعنا فك حلاسمها، يبدو أنها تُوظف ألقاباً مختلفة على الأرجح .

## الفصل الثالث عشر

المصادر الأساسية : بالنسبة للآثار الخاصة بثقافة بلانة أخذت غالباً من امرى

The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938; مجلدان)

ومن مؤلفه المتأخر Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 57-90, 232-47

ولتفسير إضافي للآثار الباقية من ثقافة بلانة أدين على وجه الخصوص لتريقر

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), pp. 131-40,

ولمقالين لنفس المؤلف في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), pp. 171-28

Journal of Near Eastern Studies, Vol. 28 (1969), pp. 255-61. وفي

وفي معالجاتي للنصوص التاريخية اعتمدت بشكل مركز على عدد من المقالات نشرها ل . ب . كيروان ، وبشكل بارز في :

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), pp. 69-105; Sudan Notes and Records, Vol. XX (1937), pp. 47-62; Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 23-37; The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 457-65.

١- شيني Meroe (New York, 1967), p. 52

٢- نفسه ، p. 52 :

ميليه Meroitic Nubia (New Haven, nd.), pp. 35-6

٣- Studien zur Meroitischen Chronologie und zu den Opfertafeln aus den Pyramiden von Meroe, Abhandlungen der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin, Klasse für Sprachen, Literatur, und Kunst, 1959, No. 2, p. 31.

٤- جبانات كوش الملكية The Royal Cemeteries of Kush, Vol. IV (Boston, 1957), p. 7

٥- قارن كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XX (1937), p. 53

و تريقر

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications in Anthropology, No. 69 (1965), p. 131.

٦- المرجع السابق (هامش رقم ٥) .

٧- جونز و مونروي A History of Ethiopia (Oxford, 1955), p. 22

٨- انظر كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 70 and in the Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 171-2.

ومع ذلك ، ليس هناك إلى الآن تأكيد اثنارى يدل على وجود أدوليس فى الأزمان ما قبل اكسوم .

٩- للترجمة ، انظر شوف

The Periplus of the Erthraean Sea (New Yew York, 1912).

١٠- للترجمة ، انظر ماك كريندل

Christian Topography of Cosmas, an Egyptian Monk (London, 1897).

١١- كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 69, and in the Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 169-71;

جونز و مونروي ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 22-3 .

١٢- أركيل A History of the Sudan, 2nd. Ed. (London, 1961), p. 180.

١٣- ماك كرينل ، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 371 .

١٤- منحوت عزيزانا (أنظر بآناه) يبين أنه في أوج قوتهم كان للاكسوميين نفوذ معتبر على جيرانهم البجا، بالرغم من أنهم في أزمان سابقة وأخرى لاحقة كانوا في حرب متواصلة تكاد مع القبائل البدوية أو أحدها أنظر خاصة كيروان في University of Liverpool Annals of Archaeology, Vol. XXIV (1937), pp. 70-71,

و بول A History of the Beja Tribes of the Sudan (Cambridge, 1954), pp. 45-6.

١٥- أنظر جونز و مونروي ، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 24 .

١٦- مأخوذاً من ترجمة بدج في A History of Ethiopia (London, 1928), Vol. I, pp. 252-8.

لقد اخترت هذه الترجمة أساساً بسبب إيجازها. إن ترجمة إنجليزية أكمل وأفضل من النواحي الفنية توجد في كيروان

Kush VIII (1960), pp. 163-5

وقد أخذت عن الأصل الألماني تأليف ليمان في

Miscellanea Academica Berloinensa, Vol. II, Part 2 (1950), pp. 97-127.

١٧- أنظر كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) p. 163 وفي

The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), p. 461.

١٨- خرج إلي النور لوح آخر لعزيزانا يحمل شعائر مسيحية في أكسوم ١٩٦٩ : أنظر كيروان في

The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 460-62.

ومن الظاهر أنه سرد جزئي لنفس الحملة التي وصفت في اللوح الأشهر .

١٩- XVII: 1, 2 .

٢٠- IV: 5 .

٢١- كما هو متضمن في أعمال مؤلفين ماثورين آخرين .

٢٢- لتعليق طويل عن نحت إيزانا وأهميته الطبوغرافية والتاريخية أنظر هينتز في

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 94 (1967), pp. 79-86

و كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٨) .

٢٣- قارن شيني في Kush III (1955), pp. 82-3

٢٤- في كوش VII (1959), p. 190

٢٥- كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٦) pp. 171-2 .

ويعتقد كيروان الآن أن مؤلف منحوت أدوليس لربما يكون ملك عربي : أنظر

The Geographical Journal, Vol. 138 (1972), pp. 175-6

٢٦- أنظر الدورف The Ethiopians (London, 1960), pp. 55-7

٢٧- لمناقشة هذه النقطة أنظر "الإيدولوجيا والدين في العهد ما بعد المروي"، بآناه .

٢٨- أنظر كيروان في Mélanges offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), p. 121.

٢٩- إمري Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 232-4

لمناقشة عن البلميين تأسيساً على مصادر معاصرة أنظر ريفيلو

Mémoire sur les Blemmyes, à propos d'une Inscription Copte, Mémoires Présentés par Divers Savants à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Vol. VIII, Part 2, Series 1 (1874), and in

- ٣٠- لقد تم تأكيد ذلك الآن بكل تأكيد بالعثور على سند نصي من قصر إبريم (يتم وصفه في الفصل الرابع عشر)، وفيه يتم الحديث عن الجيا والليمين كشيء متبادل .  
انظر كذلك كيروان ، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 69-76 .
- ٣١- قارن ما قبله : pp. 70-71 . وهامش رقم ٥ .
- ٣٢- دي بلو برسكيو : I : xix . ولترجمة المفردة المتعلقة بإنسحاب الرومان من الدوديكاخون انظر امري ، المرجع المذكور انفا (هامش رقم ٢٩) p. 235 .
- ٣٣- كيروان ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٨) ، p. 122 .
- ٣٤- هايكوك في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 53 (1967), p. 119
- تريفر في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 55 (1969), p. 126
- ٣٥- الوصف مُبتدأ من رايزنر في Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), p. 6
- ٣٦- Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. 1, p. 345.
- ٣٧- Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 5 (Cairo, 1910), p. 12
- ٣٨- بطراوي في Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. LXXV (1946), Part II, pp. 81-101 and Vol. LXXVI (1946), Part II, pp. 131-56,
- مخرجي، راو و تريفر  
The Ancient Inhabitants of Jebel Moya (Sudan) (Cambridge, 1955), p. 85
- جرين في Detention of Meroitic, X Group, and Christian Populations from Wadi Halfa, Sudan, University of Utah Anthropological Papers, No. 85 (1967);
- ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 193 ؛  
دوين برنور في تبادل شخصي .
- ٣٩- كيفما كان الحال، لا يزال غير واضح إلى حد بعيد للغاية ماذا تعني الزنجية "Negroid" فيما يختص بالتشريح الهيكلي للإنسان .
- ٤٠- قارن فاغن نيلسن Human Remains, The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubian Publications, Vol. 9 (1970), p. 81;
- إسترومال في Anthropologie und Human-genetik; Festschrift zum 65. Geburtstag von Prof. Dr K. Saller (Stuttgart, 1968), pp. 84-92; and Strouhal in Anthropological Congress Dedicated to Ales Hrdlicka, 30th August-5th September 1969 (Prague, 1971), pp. 541-7.
- ٤١- بطراوي في Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. LXXVI (1946), Part II, p. 145.
- ٤٢- قريفيث في University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XII (1925), p. 70.
- ٤٣- جنكر في

Ermenne, Bericht über die Graungen der Akademie der Wissenschaften in Wien auf den Friedhöfen von Ermenne (Nubien), Akademie der Wissenschaften in Wien, Philosophisch-Historische Klasse Denkschriften, 67, Part I (1925), p. 85;

مترجما في تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 133 .

٤٤- أنظر ادمز في Kush XII (1964), p. 172;

٤٥- ادمز في Kush XIII (1965), p. 176

وتريقر

The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition in Egypt, No. 2 (1967), pp. 79-83;

ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 193 .

٤٦- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 132 .

إستخدّم كيروان مصطلح " حضارة بلانة " لأكثر من عشر سنوات من قبل

(Bulletin de la Société de Géographie d'Égypte, Vol. XXV, 1953, pp. 103-10)

لكنه لم يقترح ذلك المصطلح ليبدل على " جماعة الثقافة المجهولة " .

٤٧- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 136-7 .

٤٨- مثلاً ما نقل عن كيروان في الهامش رقم ٥، و٨، و١٦، وما نقل عن امري

في Egypt in Nubia (op. cit., no. 29), pp. 232-45

The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938), Vol. 1, pp. 5-24.

٤٩- أنظر الهامش رقم ٣٢ .

٥٠- ظل عمله على قيد الحياة في موجز أعدّه فوتيوس، لاغير . أنظر النص الأصلي لهذا العمل في وولي و راندال .

ماك إيغر

Karanog, the Romano-Nubian Cemetery, University of Pennsylvania Musuem, Eckley B. Coxé Junior Expedition to Nubia, Vol. III (1910), p. 103;

ولترجمة جزئية أنظر امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) p. 236 .

٥١- للنسخة الأصلية للنص أنظر وولي و راندال - ماك إيغر، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) pp. 103-4 .

ولمناقشة أنظر كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 103-4 .

٥٢- قارن تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 53 .

٥٣- لقائمة كاملة عن مواقع بلانة في النوبة المصرية أنظر ما قبله، pp. 186-7 .

وللإعلام بموجز لعلامات المواقع في النوبة السودانية أنظر ادمز في كوش Kush X (1962), p. 12 .

و ادمز و نورستروم في Kush XI (1963), pp. 13-16

و ملز في Kush XIII (1965), pp. 3-12.

٥٤- قارن ملز، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) .

٥٥- أنظر بيلسر و لنقوراس

Las Necópolis Meroiticas del Grupo "X" y Christianas de Nag-el-Arab, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, V (1965), p. 35.

٥٦- مثلاً الجبانات الكبرى في بلانة وقسطل، وسيجرى وصفها الآن، والجبانة في جزيرة صاي

(فيركوتز في Kush VI, 1958, pls. XLIX-L

٥٧- إسفنأداً على وثائق غير منشورة للمسح الأثاري للنوبة السودانية .

قارن كذلك ادمز في

- Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p. 17, and in Antiquity, Vol. KLII (1968), p. 207.
- ٥٨- لم تتضح مساحة المستوطنة البلانية فيما بين الحدود السودانية - المصرية والشلال الثاني حتى تم مسح الأرض في ١٩٦٠-١٩٦٥. وفي وقت سابق، كتب امرى أن "التركيز الأعظم للمدافن يقع حول مقاطعة إبريم". انظر The Royal Tombs of Ballana and Qustul (Cairo, 1938), Vol. I, p. 18.
- ٥٩- فيما تم إضاحه بجفريات ١٩٧٢-١٩٧٤ : انظر بيلمى و آدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 212-38.
- وصف قصر إبريم أوليمبودوروس في القرن الخامس الباكر باعتباره موقعا منيعا للبيمين : انظر كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 77-80.
- ٦٠- انظر الفصل الثالث.
- ٦١- قارن ميلز، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢).
- ٦٢- بمثابة تشهد عليه مدافن بلانة التلية بانخة الثراء. والحجم في فركة : انظر كيروان في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), pp. 191-8, and The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939).
- ٦٣- انظر فيركوتر، في النص المنقول (هامش رقم ٥٦) : باتس و دونهام في Harvard African Studies, Vol. viii (1927), P. 117;
- وكيروان The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939), pp. 28-9.
- ربما تكون هناك جبانة بلانية صغيرة على بعد أميال قليلة صوب الجنوب البعيد في واو : انظر كيروان، مرجع سابق (بإعلاه) p. 29.
- ٦٤- قارن كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), p. 30;
- وتريفر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 133.
- ٦٥- فارستق وآخرين Meroë, the City of the Ethiopians (Oxford, 1911), p. 30;
- دونهام في Archaeology, Vol. 6 (1953), p. 94
- ٦٦- قارن تريفر، مرجع سابق (هامش رقم ٣٤)، p. 120.
- ٦٧- نفسه.
- ٦٨- انظر ميليه لأفضل إيضاح عن واحد من هذه الجعاب في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. II (1963), p. 155.
- ٦٩- قارن امرى و كيروان .
- The Excavations and Survey between Wadi es-Sabua and Adindan (Cairo, 1935), Vol. I, pp. 268-77.
- ٧٠- امرى، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨).
- ٧١- باتس و دونهام، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٦٢) pp. 69-96.
- ٧٢- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣).
- ٧٣- ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 193-4.
- و آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٤٤).
- ٧٤- للوصف والتوثيق انظر "حياة المدينة والقرية"، الفصل الثامن عشر.
- ٧٥- امرى و كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) pl. 17, pp. 108-22.
- ٧٦- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٤٥) pp. 153-5.
- ٧٧- فيوروس في Kush X (1962), p. 30.
- هوز في Kush XII (1964), pp. 180-83.
- ٧٨- الموقع 5-S-24 : انظر آدمز و نورستروم، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢)، p. 30 and p. 27, Fig. 4.



٧٩- الموقع S-23-5 وهو غير مذكور فيما تم نشره .

٨٠- أنظر داندال - ماك إيفر و وولي

Buhen, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Coxe Junior Expedition to Nubia, Vols. VII-VIII (1911), p. 125 and pl. 68.

٨١- تعرف ميليه على منازل مشابهة في جبل عَدَا على أنها تنتمي إلى الفترة المروية، ولكن هذا الأمر موضع للجدال . أنظر هامش رقم ٨٤ .

٨٢- في أزمان ما بعد بلانة كانت البضائع تُخزن، ليس في منازل مينية بشكل خاص للتخزين، وإنما في حفر عميقة محفورة في الرواسب المتراكمة لأزمان سائلة .

إن عشرات من هذه الحفر وُجِدَت في كل مكان بالموقع : وقد اضطربت من جرائها حقيقة الطبقات الصخرية بالتقريب في كل الأمكنة. وفيما تبدو يعود منشؤها إلى كل فترات الإحتلال من المسيحية الأولى إلى الوسيطة المتأخرة. أنظر بلملي و آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) .

٨٣- لمناقشة أكثر تفصيلا أنظر "الأيديولوجيا والديانة في العصر ما بعد المروي"، بانداه .

٨٤- تُسبت منازل كثيرة عثر عليها ميليه في جبل عَدَا إلى الفترة المروية أكثر منها إلى فترة بلانة فيما ارتأى ميليه نفسه، ولكنني أرى أن ذلك الأمر ربما يرجع إلى تأويل غير صحيح للطبقات الفخارية. أنظر ميليه في

Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. XI (1967), p. 58.

٨٥- لمناقشة أطول حول فخار بلانة أنظر آدمز في Kush XV (1973), pp. 1-50.

٨٦- أنظر آدمز في Kush X (1962) pp. 66-70.

٨٧- لمناقشة حول تطور الفخار النوبي الودي، أنظر آدمز في نكلر

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 114-15, and op. cit.

مرجع سابق (هامش رقم ٨٥) pp. 35-6.

٨٨- تريفر في African Historical Studies, Vol. II (1969), pi 49.

٨٩- قارن امري، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 69 .

٩٠- أنظر آدمز و نورديستروم، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) p. 31 .

والصورة رقم IVb .

٩١- الوصف قائم على ملاحظات المؤلف الميدانية غير المنشورة. وللتقرير الأولى أنظر بلملي و آدمز، مرجع سابق

(هامش رقم ٥٩) .

٩٢- للتوثيق أنظر هامش رقم ٦٩-٧٢ .

٩٣- التقرير المحدد لامري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨) :

أنظر كذلك امري

Nubian Treasure (London, 1948).

٩٤- امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) pp. 58-9 . والمرجع المشار إليه هو

Antiquities of Lower Nubia in 1906-1907 (Oxford, 1907)

٩٥- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 63-7 .

٩٦- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 25-6 .

٩٧- قارن المرجع نفسه pp. 182-399 . أنظر كذلك امري Nubian Treasure (London, 1948)

Vanished Civilizations (New York, 1963), p. 77

٩٨- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨)، p. 180 . كيروان (في تبايل شخصي) يفضل الآن تاريخا ما بين

القرنين الرابع والسادس الباكر .

٩٩- لأوصاف وإيضاحات مفصلة أنظر امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 182-6 . والصور 32-6 .

- ولإيضاحات ملونة أنظر كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 62-3 .  
ولمناقشة الأهمية التصويرية والثقافية لتيجان بلانة أنظر تريقر في  
Journal of Near Eastern Studies, Vol. 28 (1969), pp. 225-61.
- ١٠٠- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 182 .  
١٠١- نفسه 26 p. .  
١٠٢- قارن دونهام، مرجع سابق (هامش رقم ١٥) pp. 93-4 .  
١٠٣- المدفن التلي رقم ٣ في بلانة : أنظر امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 78 .  
١٠٤- الجبانة الكبرى رقم III : أنظر رايزنر في Harvard African Studies, Vol. V (1923), p. 81 .  
١٠٥- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 26 .  
١٠٦- أنظر خاصة تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) pp. 121-2 . والصورة XXIX .  
١٠٧- نفسه ، 122 p. .  
١٠٨- ما قبله ، 123 p. والهامش رقم ١ .  
١٠٩- لميزنر من النقاش في هذه المسألة أنظر ما قبله : وكذلك تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٩٩) .  
١١٠- مرجع مذکور أنفا (هامش رقم ٢٤) p. 128 .  
١١١- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 180-81 .  
١١٢- مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) p. 125 .  
١١٣- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٩٩) pp. 258-61 .  
١١٤- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 56 .  
١١٥- المرجع السابق (هامش رقم ٢٤) p. 125 .  
١١٦- قارن كيروان في باكون، Vanished Civilizations (New York, 1963), p. 77 .  
١١٧- يؤمن ميليه مع ذلك أن الحفريات في جبل غدا كانت كافية للتوصل إلى أن الإقامة الملكية لم تكن قائمة هنا :  
أنظر النص المنقول (هامش رقم ٨٤) .  
١١٨- أنظر " آثار الثقافة البلانية " ، بتعلاه .  
١١٩- أنظر كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 59-60 .  
١٢٠- للتوثيق أنظر هامش رقم ٦٩ ، ٧١ ، و ٧٢ .  
١٢١- مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) p. 128 .  
١٢٢- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) pp. 22-3 : و كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 60 .  
١٢٣- امري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨)، p. 25 والصورة 27, B, D .  
١٢٤- نفسه ، للصورة 27, B .  
١٢٥- ما قبله pp. 182-6 والصورة 32-6 .  
١٢٦- نفسه ، الصور 42, 48, 63, 67, 69, 86, 109 .  
١٢٧- نفسه ، الصور 57, 62, 65, 68, 98, 102 .  
١٢٨- قارن بلعلي و انمز، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) p. 226 .  
١٢٩- قريفيث ،  
The Nubian Texts of the Christian Period, Abhandlungen der Königlich Preussischen Akademie der Wissenschaften (1913), p. 73.
- أنظر كذلك ميليه في فرنيا
- Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. 1, pp. 5-6.
- ١٢٠- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) pp. 84-5 .

١٣١- رسم صخرى آخر في معبد كلابشة، وإعلان باللغة المروية من ملك إسمه خراما داي، يعتقد ميليه أنهما يعود تاريخهما إلى الفترة ما بعد المروية المباشرة، على أن ذلك الإعتقاد يكاد بكلية أن يكون تضييماً .

انظر ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 203-12, 269-304 .

١٣٢- نقلاً عن امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 239 .

١٣٣- قارن أركيل، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٢) pp. 170-71 :

كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 60 .

١٣٤- تريقر، المرجع السابق (هامش رقم ٢٤) p. 120 .

١٣٥- ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 193-4 .

١٣٦- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٤٥) .

١٣٧- راندال - ماك إيفر و وولي، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠) pp. 125-6 .

والصور 68, a .

١٣٨- مذكرات المؤلف الميدانية، غير المنشورة .

١٣٩- قارن توينبي A Study of History, Vol. 6 (New York, 1962) pp. 49-97 .

١٤٠- انظر هامش رقم ٦٥ .

١٤١- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) p. 76 .

١٤٢- نقلاً عن امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) p. 238 .

١٤٣- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 89-90 .

١٤٤- قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pp. 49-50 and pl. XXXVII;

امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 136 و الصورة 27, D .

١٤٥- لم ينشر وصف كامل أو إيضاح لهذه المواد بعد، حسبما أعلم . ولذكر مختصر أنظر هيو، المرجع السابق (هامش رقم ٧٧) p. 181 . ' وإيضاح لنوع مماثله على الأرجح أنظر وولي و راندال - ماك إيفر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) الصورة 109 .

١٤٦- آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٤٥)، p. 155 . لابد من ذكر شاهد لقبر مكتوب في صورة أولية بالإغريقية وقد وُجد في جبل البركل عام ١٩١٦ . إعتقد رايزنر أنه جاء من جبانة قريبة من العصر المسيحي، بالرغم من أنه لم يُعثر عليه بالفعل في الموقع . واللفظ العاشر لم يُنشر أبداً ببيان رسمي عن الشاهد أو الجبانة . انظر لتقرير أولي رايزنر في Harvard African Studies, Vol. I (1917), pp. 197-8 :

The Barkal Temples (Boston, 1970), pl. LIX, A. وإيضاح انظر كذلك دونهام

وليبنة أخرى على المسيحية في ازمان بلانة انظر دونا دوني في

Mémoires de l'Institut d'Égypte, Vol. LIX (1969), pp. 26-7

١٤٧- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) p. 127 . وُصِف الأحجية بآرب في

Momigliano, Ed., The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford, 1963), p. 121

١٤٨- انظر الفصل الثاني عشر، هامش رقم ١٥١ و هامش رقم ١٦٠ .

١٤٩- قارن آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٤٥) p. 150 .

١٥٠- مذكرات المؤلف الميدانية غير المنشورة .

١٥١- كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) p. 60 .

١٥٢- لموجز عن الفقرات المثورة التي تتعلق بالنوبة انظر وولي و راندال - ماك إيفر، المرجع السابق (هامش رقم

٥٠) 99-103 pp.

النقل الكامل للمصادر الرئيسة توجد في هذا العمل . وللمزيد من المصادر والتعليقات أنظر بصفة خاصة كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) .

١٥٣- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) 69-76 pp. : و مونير دي فيلار

Storia Della Nubia Cristiana, Pontificium Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938), pp. 25-6;

و بول، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٤) . قارن أيضاً هامش رقم ٣٠ .

١٥٤- امري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨) 23 p.

١٥٥- زايلارز في ؛ Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Vol. XXV (1928) ;

Sudan Notes and Records, Vol. XIII (1930), pp. 137-48

ومناقشة أجراها هيلسون في

و كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) 55-60 pp.

١٥٦- مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٣) 39, 89-91 pp.

١٥٧- دي بللو بريسيكو xix : I.

١٥٨- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) 61-2 pp. و Kush VI (1958), pp. 70-71

كتب نفس هذا المؤلف في تبادل شخصي أكثر مما كتب قاتلاً "إن بروكيبوس يمكن أن يكون مؤرخاً غير موثوق به . فسرده مفتتات . ولربما قام ديوكليتيا بانسحاب جزئي بصورة رسمية من الحدود منكما أجرى ذلك في أمكنة أخرى . إلا أن تقدم قبائل أقل حضارة بزعامة قادتهم لحماية الحدود - وهي عملية مخاطرة - ربما يعود تاريخها إلى القرن الرابع المتأخر أو حتى الخامس ... إنها لم تكن لتصدر إلا كقرار مركزي ."

١٥٩- ب. امري هو المبتدع الرئيس لنظرية البلميين ' قارن المرجع السابق (هامش رقم ٥٨)، 5-24 pp.

والمرجع السابق (هامش رقم ٢٩) 244-5 pp. . إن معظم الأسانذة الآخرين يذهبون نحو نوادة في رأيهم . الحالة عندهم تناولها على أعلى درجة من التفصيل ل. ب. كيروان في مقالات متعددة (المرجع السابق، هامش رقم ٨، ٢٨، ٤٦، ٦٣ و ٦٤) .

١٦٠- قارن امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩)، 231 p.

كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) 55 p.

١٦٠- قارن امري، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) 231 p.

كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) 55 p.

١٦١- قارن على وجه الخصوص كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) 56-62 pp.

١٦٢- هذا الغرض لم ينشأ من ناحيتي . لقد اقترح بشكل مختلف نوعاً ما بواسطة ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) 59-71 pp.

١٦٢- قارن هيلسون، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٥٥) .

١٦٤- قارن بريزي في

Études et Travaux du Centre d'Archéologie Méditerranéenne de l'Académie Polonaise des Sciences, Vol. VIII (1973), pp. 156-62.

١٦٥- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) 53 p.

١٦٦- قارن ميليه، مرجع سابق (هامش رقم ٧) 58-61 pp.

١٦٧- قارن ريدفيلد

The Primitive World and its Transformations (Ithaca, 1953)

وبخاصة الفصل الثالث .

١٦٨- مثلاً، ما أجراه راينز و إليوت سميث : أنظر هامش رقم ٣٦ .

١٦٩- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) p. 60 .

١٧٠- قارن بطراوي

Report on the Human Remains (Cairo, 1935), pp. 174-5.

إن من الضروري أن يؤكد، مع ذلك، أن الصفات التي افترض أنها زنجية لجنائز قسطل كانت إلى حد بعيد إنطباعاً ذاتياً، ذلك أن الحفظ الضعيف للبقايا الهيكلية حال دون القيام بتحليل متري دقيق (كيروان في تبادل شخصي) .

١٧١- نقلاً عن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 83-4 : انظر كذلك امري، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 239 .

وللحصول على النص الأصلي أنظر وولي و راندال - ماك إيغر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، pp. 104-5 .

١٧٢- كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ١٤) p. 85 .

١٧٣- نفسه ، هامش رقم ٥ .

١٧٤- قارن ما قبله ، p. 96 . إن كتاباً آخرين، بمن فيهم امري (المرجع السابق، هامش رقم ٢٩ ، p. 239) افترضوا أن سيلكو كان مسيحياً .

ولمناقشة أطول لهذا السؤال، أنظر كروس

Die Anfänge des Christentums in Nubien (Vienna, 1930), pp. 100-109.

١٧٥- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٨) p. 17 .

١٧٦- إسترابو 2، 1: XVII: بطلمي 5: IV: بليني (بلينيوس) VI: 35 .

١٧٧- أنظر تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 136 ، وشيني في

Kush II (1954), p. 84.

١٧٨- شيتيك في

Kush V (1957), p. 73

أنظر أيضاً كيروان في نفس المجلد pp. 37-41 .

١٧٩- قارن تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 136 .

١٨٠- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣ ، pp. 42-3 ، وتريقر، مرجع سابق (هامش رقم ٥) pp. 136-7 .

١٨١- أنظر فارستنت في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. III (1910), pp. 60-70.

و فارستنت وآخرين (هامش رقم ٦٥) pp. 29-33 .

١٨٢- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) pp. 42-3

والمراجع المشار إليه أنفا (هامش رقم ١٧٨)، p. 39 ، وشيني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣)، p. 84 .

١٨٣- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٣) p. 42 .

١٨٤- لتقرير أولي عن جبانة صغيرة في العهد ما بعد المروي في المصورت الصغراء أنظر هينتز في

Wissenschaftliche Zeitschrift der Humboldt-Universität zu Berlin, Gesellschafts-und Sprachwissenschaftliche Reihe, Vol. XVII (1968), p. 681.

ولتحليل للبقايا الهيكلية أنظر إسترومول في نفس المجلة Vol. XX (1971), pp. 257-66

إن الهياكل البشرية يقال إنها تعرض ملامح " زنجية ملحوظة " (نفسه) (p. 266) .

١٨٥- شيني، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٧) p. 68 .

١٦٨- ما قبله p. 73 .

١٨٧- أنظر شتيتك، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٨) pp. 73-7 .

١٨٨- مارشال وعبد الرحمن في Kush I (1953), pp. 40-46 .

١٨٩- قارن شيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٧) p. 84 .

١٩٠- نفسه .

١٩١- أنظر كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٦٢) p. 42 :

بنثلي و كراوفورد في Sudan Notes and Records, Vol. VII (1924), No. 2, pp. 18-28.

١٩٢- قارن دونهام، المرجع السابق (هامش رقم ٦٥) pp. 93-4 .

## الفصل الرابع عشر

*المصادر الأساسية* : المصدر الرئيس لتأريخ النوبة المسيحية، الذي نُقِلَ عليه إعتمادي في هذا الفصل وفصول

تالية هو مونير دي فيلار

Storia della Nubia Christiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana  
Analecta 118 (1938).

اما عملية تنصير النوبة فهي تناقش مناقشة مطولة في عمل سابق أعده كروس

Die Anfänge des Chritentums in Nubien (Vienna, 1930),

وفي مقالات لكيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology land Anthropology, Vol. XXIV (1937), pp.  
69-105,

Mémoires de l'Institut d'Égypte, Vol. LIX (1969), pp. 25-33. و دونالدوني في

و يناقش حول إتفاقية الببط وشانها أدين لمقال كتبه فوراند في Der Islam, Vol. 48 (1971), pp. 111-21.

١- كروير The Nature of Culture (Chicago, 1952), pp. 381-2.

٢- قارن مومبيليانو في المؤلف الذي حرره

The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford, 1963), pp. 18-19.

٣- كراوفورد في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII (1927), p. 14.

٤- قارن أولميسند History of the Persian Empire (Chicago, 1948), pp. 119-28.

٥- قارن كيروان في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), pp. 82-3.

٦- هنالك عدد من النسخ العربية في هذا الأمر . إن الأكمل هي نسخة المسعودي Les Prairies d' Or

وهي نسخة مترجمة . وكذلك مينارد و كورتيل (Paris, 1863), Vol. II, pp. 22-3.

و لمناقشة بالإنجليزية أنظر فوراند في Der Islam, Vol. 48 (1971), n. 117-18

٧- أنظر آدمز في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 126-33.

٨- أنظر بل Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt (Liverpool, 1953), pp. 78-84.

و شور في Harris, Ed., The Legacy of Egypt, 2nd ed. (Oxford, 1971), pp. 396-7.

٩- مومبيليانو، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 .

١٠- بل Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest (Oxford, 1948), pp. 112-16.

١١- نفسه p. 114 .

١٢- ما قبله p. 115 .

١٣- شور، المرجع السابق (هامش رقم ٨) p. 415 :

قارن كذلك بتمبر The Story of the Church of Egypt (London, 1897), p. 301.

١٤- بل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) p. 116 .

١٥- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 97 .

- ١٦- بروكيوس De Bello Persico I: xix, 27-36.
- ١٧- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٥) p. 96.
- ١٨- قارن كيروان في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), p. 31.
- ١٩- Ecclesiastical History, trans. Payne-Smith (London, 1860), Part III.
- ٢٠- جاد الله في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 39-40.
- ٢١- IV: II, 19
- ٢٢- أنظر مومسن في Monumenta Germaniae Historica, Auctores Antiquissimi, Vol. XI (Berlin, 1894), pp. 207-20.
- ٢٣- قارن كذلك ميناردوس في Nubie, Cahiers d'Histoire Egyptienne, Vol. X (1967), pp. 137-41.
- ٢٤- لمناقشة مستبصرة المضامين السياسية لعملية تنصير النوبة أنظر دونالدوني في Mémoires de l'Institut d'Égypte, Vol. LIX (1969), pp. 25-33
- ٢٥- كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٥) p. 103.
- ٢٦- تشخيص كيروان للتغيير في عادات الدفن باعتباره تدريجي وتطوري (ما قبله ، p. 103) غير مثبت بالبيئة المستحصلة من مسوح أثرية معاصرة في النوبة .
- ٢٧- لمناقشة أكثر في نفس النطاق أنظر ميخالوفسكي Faras, Centre Artistique de la Nubie Chrétienne (Leiden, 1966), pp. 7-9.
- ٢٨- أنظر كيروان The Oxford University Excavations at Firkā (Oxford, 1939), pp. 49-50.
- ٢٩- قارن ميخالوفسكي في دنكلر، محرراً Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 14-17
- و كروس في نفس المجلد pp. 71-86 ، و جاكوبسكي Faras III (Warsaw, 1972), pp. 35-6.
- ٣٠- قارن آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 121.
- ٣١- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 14 ؛ ويسل Chistentum am Nil (Recklinghausen, 1964), p. 234
- و جاكوبسكي ، المرجع السابق (هامش رقم ٢٩) ، pp. 140-43 .
- ٣٢- جنكر في Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Literaturkunde, Vol. 60 (1925), pp. 124-48;
- مونير دي فيلار في Aegyptus, vol. XII (1932), pp. 309-16;
- جاكوبسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) ، pp. 143-5 .
- ٣٣- أنظر كريس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) ، ساف - سوديرج في نفس المجلد ، pp. 238-9 ؛ و فان مورسل في نفس المجلد ، pp. 281-90 .
- ٣٤- أنظر جاد الله، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 41 .
- ٣٥- قارن شور، مرجع سابق (هامش رقم ٨) pp. 422-33 .
- ٣٦- جاد الله، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 41 ؛ قارن كيروان على نفس الصعيد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨)، p. 51 .
- ٣٧- جاد الله، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠)، pp. 41-2 ؛ جاكوبسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 14-15 .
- ٣٨- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٢٨) p. 50 .
- ٣٩- ميخالوفسكي، المرجع المذكور انفا (هامش رقم ٢٩) pp. 14-17 ؛ جاكوبسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 140-68 .

- ٤٠- ساف - سودريج، مرجع سابق (هامش رقم ٣٢) p. 239 .
- ٤١- قارين ما قبله : كذلك جاكوبيلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 140-68 .
- ٤٢- قارين ألفاريس
- The Prester John of the Indies, trans. Lord Stanely (Cambridge, 1961), 461.
- ٤٣- أنظر الفصل الخامس عشر .
- ٤٤- لتقارير أولية أنظر بلملي في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 3-4; Vol. 52 (1966), pp. 9-11; Vol. 56 (1970), pp. 12-17; and in Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 50-52; Plumley and Adams in Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1964), pp. 212-38;
- فرند في Byzantinoslavica, Vol. XXXIII (1972), pp. 224-9
- وفي Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 30-59
- ٤٥- بدج The Egyptian Sudan (London, 1907). Vol. II, pp. 288-308.
- ٤٦- عندما شُرع في المسح الأثاري الأول في عام ١٩٠٧ ، حفر وايزنر أكثر من ١,٦٠٠ قبر مسيحي في جَبانة بالقرب من شلال  
(Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908, Cairo, 1910, Vol. I, p. 96).
- إن هذا العدد ربما يتعدى جملة القبور المسيحية التي حُفرت في كل السنين مذاك الوقت .
- ٤٧- لتطبيق عن مسلك كثير من علماء المصريات تجاه البقايا ' القبطية ' أنظر دونالدوني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) p. 29 .
- ٤٨- مدوناً في  
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pp. 50-93; Vol. XIV (1927), pp. 57-116; and Vol. XV (1928), pp. 63-88.
- إن الحفريات الفعلية أُجريت في ١٩١٠-١٩١٢ .
- ٤٩- في Journal of Theological Studies, Vol. X (1909), p. 545 ff., and The Nubian Texts of the  
Christian Period, Abhandlungen der Königlich Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1913.
- ٥٠- La Nubia Medioevale, Vols. I-II (Cairo, 1935).
- ٥١- قارين امري Egypt in Nubia (London, 1965), pp. 55-6.
- ٥٢- Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938).
- ٥٣- قارين ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 17-18 .
- ٥٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) p. 70 .
- ٥٥- لسرمد أشد تفصيلاً أنظر لابين - بول
- A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901), pp. 1-15.
- ٥٦- وصف رماة السهام النوبيين "رماة الحق" أنظر شميني  
Medieval Nubia, Sudan Antiquities Service Museum Pamphlet No. 2 (1954), p. 4.
- ٥٧- أنظر ما قبله .
- ٥٨- قارين كراوفورد The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), pp. 51-3.
- ٥٩- نص من القرآن X: 109 .
- ٦٠- تتفاوت النسخ المترجمة تفاوتاً خفيفاً. والنص المشار إليه بأعلاه منقول من فوراند، المرجع السابق (هامش رقم ٦)



114-15 pp. إن الترجمة الإنجليزية الأسبق تعود إلى بورخارت  
Travels in Nubia (London, 1819), pp. 511-12.

- ٦١- بروكيبيوس De Bello Persico f: xix.  
٦٢- ن. ب. ميليه أفندي أنه "وجدنا قطعة من القطن عليها إسم البقظ بالعربية في [جبل] غدا، في إحدى المقابر التي يُعتقد أنها ترجع إلى نهاية القرن الثالث عشر" (تبادل شخصي).  
٦٣- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٠) p. 512. يساوي الأرب اليوم حوالى ست وحدات قياس أمريكية ؛ أما حجم الكثير من النبيذ فلم يتحدد مقداره أبداً .  
٦٤- أنظر فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 121 .  
٦٥- نفسه p. 113 .  
٦٦- ما قبله pp. 113, 116 .

٦٧- كانت دنقلا العجوز، عاصمة النوبة طوال العصور الوسطى، واقعة على الضفة الشرقية من النيل في حوالى نصف المسافة بين الشلالين الثالث والرابع . ولا يجب الخلط بينها وبين دنقلا " الجديدة " (دنقلا العرضي)، المركز الإداري الحديث الذى يقع حوالى سبعين ميلاً من المسرى على الجانب الآخر من النهر . وقد هجرت دنقلا العجوز في القرن التاسع عشر، بعد إنشاء المجتمع الجديد .

- ٦٨- على نحو ما هو وارد في الفقرة الأولى من المعاهدة، المنقولة أنفا .  
٦٩- كما جادل كيروان في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), p. 61.  
٧٠- مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) pp. 81-3 .

- ٧١- مثال ذلك ميخالوفسكي في : Kush XII (1964), p. 199 and n. 12 (هامش رقم ١٢) :  
جاكوبيلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩)، pp. 35-6 .  
٧٢- ميخالوفسكي، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٧١) :  
جاكوبيلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) p. 35-6 .  
٧٣- قارن كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 62 .  
٧٤- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 62 . مع ذلك، لا يُعد أصل الكلمات نوباديا و ماريس موضعاً للتبادل كشى واحد ؛ وللمناقشة أنظر "تنظيم الدول في العصور الوسيطة"، الفصل الخامس عشر .  
٧٥- أعيد ذكره في أبو صالح

The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries trans. Evetts and Butler (London, 1895), pp. 267-8.

- ٧٦- قارن ميناردوس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) p. 147 . هامش رقم ٥٩ .  
٧٧- قارن حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 92-3.  
٧٨- للنص الكامل والتعليق أنظر بلمل في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 241-5.  
٧٩- لمناقشة مطولة أنظر فانتيني في دنكار، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 41-8 .  
٨٠- نفسه p. 47 .

- ٨١- فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 120 .  
٨٢- ما قبله p. 119 .  
٨٣- قارن فانتيني في دنكار، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) pp. 41-8 .  
٨٤- لتسلسل زمني لهذه الأحداث أنظر مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) pp. 122-9 .  
٨٥- ميناردوس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣) p. 150 .  
٨٦- قارن لاين - ببول، مرجع سابق (هامش رقم ٥٥) p. 197 .

٨٧- قصة الغزو حكاها أبو صالح، المرجع السابق (هامش رقم ٧٥) pp. 266-7 .  
ولمناقشة أشد تفصيلاً انظر مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) pp. 196-8 .

## الفصل الخامس عشر

*المصادر الأساسية* : كان إعتماى كبيراً، كما أنفا، بشأن المعطيات التاريخية على مونير دي فيلار  
Storia Della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana  
Analecta 118 (1938).

وعلى قيمة عالية، كانت الغفرات التي سجلها المقريري وترجمت إيجازاً في بورخارت  
Travels in Nubia (London, 1819), pp. 493-543.

إن معظم الكشوف الأثرية التي تتعلق بالنوبة المسيحية من الحداثة بحيث أنها لم تُضمّن أى عمل عام ؛ وبالتالي  
صرت ملزماً لاستند على عدد كبير جداً من تقارير الحفريات الأولية المشار إليها في المذكرات الشخصية . إن كثيراً  
من التقارير الأولية التي أعدت مؤخراً جمعها دنكلر، محرراً، في

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970).

المؤلفات الخاصة بالتطور الثقافي في النوبة المسيحية وصناعة فخارها توجد في مونير دي فيلار  
La Nubia Medioevale (Cairo, 1935 and 1953).

وتوجد في عدد من مقالاتي :

Kush X (1962), pp. 245-88 ; Kush XV (1973), pp. 1-50; Kush XVI (in press); Journal of the  
American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 87-140;

Kunst und Geschichte Nubiens (أنفا) pp. 111-28. في . دنكلر، محرراً،

وفي مقالتي في Kush XII (1964), pp. 241-7

مقترح لتسلسل زمني شامل للفترة المسيحية .

١- للجدول انظر تريقر

History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publications Anthropology, Vol. 69

(1965), pp. 186-97;

ادمز في Kush X (1962), p. 12;

و ادمز و نورستروم في Kush XI (1963), p. 15;

و ميلز في Kush XIII (1965), pp. 3-12.

٢- قارن دنكلر، محرراً

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 7-10.

٣- لقائمة عنها انظر مونير دي فيلار

La Nubia Medioevale, vol. I (Chicago, 1935), p. 285.

٤- معظم الدراسات لى . وقد رفعت تقارير عنها بصورة جزئية في

Kush X (1962), pp. 245-88; Kush XV (1973), pp. 1-50; Kush XVI (in press);

وفي دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 111-28 . وعلى قدم الإستعداد، يجري الإعداد لمجلدين يحويان  
عملاً محدداً عن فخار النوبة المسيحية .

٥- ادمز في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 87-140.

و الإعداد جار في عمل محدد عن هندسة الكنيسة النوبية .

٦- قارن ميخالوفسكي في ويسل، محرراً

Christentum am Nil (Recklinghausen, 1964), pp. 79-92;

Faras, Centre Artistique de la Nubie Chrétienne (Leiden, 1966); وميخالوفسكي

وميخالوفسكي في دنكار، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 11-28 .

٧- لمناقشة حول خصائص الفترات الزمنية، كلاً على حدة، انظر آدمز في Kush (1964), pp. 241-7

وساف - سوبريرج في قارديرج

Late Nubian Sites, The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 7 (1970), pp. 14-21.

٨- أنظر بوجه خاص آدمز في جانب، محرراً،

Settlement Archaeology (Palo Alto, 1968), pp. 174-207.

أنظر أيضاً تريفر، المرجع السابق (هامش رقم ١) pp. 143-50 .

٩- كتاب المواعظ الاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحرير الضوى (القاهرة، ١٨٥٣-١٨٥٤) .

الفقرات من إين سليم مترجمة في بويرخارت

Travels in Nubia (London, 1819), pp. 493-521.

١٠- مترجمة بواسطة ايفيت و بتلر (Oxford, 1895) .

ولتعلق عن التاريخ المتعلق بالآديرة الباقية ومصادقيتها أنظر ما قبله pp. ix-xiii .

١١- أنظر مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938), pp. 109-15.

وليسرد بالإنجليزية أنظر ميناردوس في

Nubie, Cahiers d'Histoire Égyptienne, Vol. X (1967), pp. 148-9 ;

وحسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 52-6.

١٢- نقلاً عن تريمفهام Islam in the Sudan (London, 1949), p. 65

١٣- أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 194.

١٤- قارين شيني Excavations at Soba, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 3 (1955).

١٥- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. ix-x .

١٦- نفسه، pp. 260-77 .

١٧- المدى بالكامل الذي بلغه السجل الأثري غير معروف، بعد، إذ أن الجفريات ما بدأت إلا منذ وقت قريب في دنقلا العجوز، العاصمة المدنية للنوبة في العصور الوسطى . وهنا قد تظهر إلى النور قصور ملكية، ونقوش ملكية، وحتى مداخل ملكية .

١٨- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 169 .

١٩- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) p. 272 .

٢٠- قارين مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 172-4 .

٢١- ما قبله ، pp. 177-80 .

٢٢- أنظر خاصة ميخالوفسكي

Faras, Die Kathedrale aus dem Wustensand (Zurich and Cologne, 1967), pls. 38, 70, 94-5.

٢٣- أُسس وصِف أبوصالح لتاج الملك جورج (مرجع سابق، هامش رقم ١٠ ، p. 273) .

على مثل ذلك الرسم الحائطي للملك وإيس على ملاحظة مباشرة .

٢٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 175-7 .

٢٥- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 271-2 .

- ٢٦- للمناقشة أنظر تريمفهم، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) 2-71 pp.
- ٢٧- لتقارير أولية أنظر ميخالوفسكي في Kush XIV (1966), pp. 289-99
- وفي دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٧) 70-163 pp.
- و جاكوبسكي في دنكلر، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٧) 80-171 pp.
- ٢٨- ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) 165 p.
- ٢٩- قارن كراوفورد The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951) p. 35
- ولإيضاح أنظر أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ١٧) الصورة رقم 22, b.
- ٣٠- أبو صالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) 272 p.
- ٣١- بما يعني بالطبع جنوب مصر؛ إن ماريث كانت أبعد مقاطعة نوبية في الشمال.
- ٣٢- أسبق ذكر ورد عن الإبارش أودع نصاً تنكاريماً وجد في كاندراثية فرس، ويعود إلى ٧٠٧ م.
- أنظر جاكوبسكي في KLIO, Vol. 51 (1969), p. 500.
- ٣٣- بلمل في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), p. 14.
- ٣٤- للإيضاحات أنظر قريفيث في University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XV (1928), pl. XXXII,
- وشيني Medieval Nubia, Sudan Antiquities Service Museum Pamphlet No. 2 (1954), p. 12.
- ٣٥- مترجماً في يورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩) 494 p.
- ٣٦- بلمل في ميخالوفسكي، محرراً، Nubia Récentes Recherches (Warsaw, 1975), p. 106.
- ٣٧- أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) 191 p.
- ٣٨- أنظر قريفيث، مرجع مذكور سابقاً (هامش رقم ٣٤) وفي University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pl. LXI
- و ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) الصور 13, 92, 93, 95 b.
- ٣٩- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) 7-184 pp.
- و أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) 11-210 pp.
- ٤٠- مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) 44 p.
- ٤١- نفسه.
- ٤٢- قارن ماكمايكل A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), Vol. I, pp. 248-9;
- و كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩) 7-325 pp.
- ٤٣- قريفيث، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٣٤).
- ٤٤- إكتشفت الوثائق في جرة مدفونة أثناء قيام المؤلف بحفريات في قصر إبريم عام ١٩٧٤:
- أنظر بلمل في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 6-7.
- ولقد توفرت ترجمة أولية بتعظيم من البرفسور ج. م. بلمل، 7-6 pp.
- ٤٥- لمناقشة حول أصل الاسم من النواحي اللغوية أنظر "خلفاء المقررة"، الفصل السادس عشر.
- ٤٦- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، 8-187 pp: مبلية في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. VI (1967), p. 62.
- ٤٧- مع ذلك، تذكر الوثائق التي اكتشفت حديثاً في قصر إبريم (قارن هامش رقم ٤٤) مسئولين آخرين يحملون الألقاب نوبية تماماً: نونن وبابسا.
- ٤٨- لمناقشة في الأمر، أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، 91-189 pp.
- ٤٩- كيرون في Sudan Notes and Records, Vol. XX (1937), p. 60.
- ٥٠- إقترح ذلك من ميخالوفسكي، حفار "قصر الأسقف". أنظر

- ٥١- أنظر بلجلي، مذكور أنفا (هامش رقم ٢٣) : أيضاً بلجلي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) .
- ٥٢- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، p. 45 .
- ٥٣- ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٤٦)، p. 59 .
- ٥٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 140 .
- ٥٥- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، p. 262 .
- ٥٦- قارن بلجلي في Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 50-52, and op. cit. (هامش رقم ٢٢)، pp. 13-14 .
- ٥٧- هذا الأمر وصفه مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 169-70 ، وفوراند في Der Islam, Vol. 48 (1971), pp. 117-18 .
- ٥٨- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 118 .
- أدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧)، p. 236 : وشريف في Kush XII (1964), pp. 249-50; هولثور وآخرين في Studia Orientalia, Vol. XXVIII, No. 15 (1964), pp. 10-13; و حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 238, p. 43 .
- ٥٩- قارن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 93 .
- ٦٠- نقلاً من بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، pp. 494-5 .
- ٦١- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، p. 263 .
- ٦٢- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 136-7 .
- ٦٣- أبوصالح، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، pp. 262-3 .
- ٦٤- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩)، p. 494 .
- ٦٥- أمري، Egypt in Nubia (London, 1965), p. 157 .
- ٦٦- صانف ابن سليم بعض التجار المسلمين في دنقلا، ولكن دخولهم كان محدوداً بشكل دقيق . أنظر كاتريمير Mémoires sur L'Égypte (Paris, 1811), Vol. II, pp. 81-4.
- ٦٧- لمناقشة، أنظر كيروان في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XXI (1935), p. 60 .
- ٦٨- أنظر بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، p. 497 .
- ٦٩- قارن كيروان، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ٧٦) .
- ٧٠- مونير دي فيلار (مرجع سابق، هامش رقم ١١، pp. 135-9) أخفق في إدراك هذا الفرق لقيامه بوصف مفس العلياء، الحدود السياسية للمقاطعة المقفولة " للنوبيين في النوبة العليا، حدوداً بين نوبادة والمقرة .
- ٧١- قارن كيروان، المرجع السابق (هامش رقم ٦٧)، p. 62 .
- ٧٢- قارن بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، pp. 497-503 .
- ٧٣- المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، pp. 263-5 .
- ٧٤- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، p. 496 .
- ٧٥- كيروان، مرجع سابق (هامش رقم ٦٧)، p. 61 .
- ٧٦- أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، p. 194 .
- ٧٧- إن الوثائق النوبية القليلة التي استعديت من ضاحية سوبا ترحي بأن اللهجة التي تحدثوا بها كانت مختلفة من اللغة التي عُثر عليها في النصوص النوبية القديمة للنوبة السفلى . أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، Sudan Notes and Records, Vol. LIII (1972), p. 27 .
- ٧٨- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩)، p. 500 .
- ٧٩- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٣) : Vol. I, pp. 269-79 .

وأركيل في Kush VII (1959), pp. 115-19.

- ٨٠- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 152-6.
- ٨١- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٩)، p. 500.
- ٨٢- ليس على وجه التحديد ملوك علوة وإنما ملوك الأبواب، التي شكلت مقاطعة الحدود الشمالية لعلوة. قارن الفصل السادس عشر.
- ٨٣- إسم المدينة ذُوْنَه إين سليم على ذلك النحو. أما أبو صالح (مرجع سابق، هامش رقم ١٠، p. 263-4) فدعاها في بساطة "مدينة علوة".
- ٨٤- أنظر شيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٤)، p. 10.
- ٨٥- نفسه، pp. 18-27.
- ٨٦- المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، p. 263.
- ٨٧- قدمت كمعلومة بالصدفة في السيرة الخاصة بكبير الأساقفة اللبني، البطريق مايكل، وقد كتبها المدعو "القسيس جون".
- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 96, 160.
- ٨٨- نفسه، pp. 160-61 : ميخالوفسكي

Faras, Centre Arabistique de la Nubie Chrétienne (Leiden, 1966), p. 6 ;

و جاكوبيلسكي في Faras III (Warsaw, 1972), pp. 74, 84-99.

- ٨٩- قارن بخاصة جونز و مونري A History of Ethiopia (Oxford, 1955), pp. 35-6.
- ٩٠- قارن ميخالوفسكي في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢)، p. 13.
- ٩١- قارن المصادر المشار إليها في هامش رقم ٨٨ : وعلى نفس الصعيد قارن تريمينغهام، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، p. 64 ;
- كيروان The Oxford University Excavations at Firka (Oxford, 1939), pp. 49-51;
- وأبو صالح، المرجع السابق (هامش رقم ١٠)، p. 272.
- ٩٢- جونز و مونري، مشار إليه آنفا في النص (هامش رقم ٨٩).
- ٩٣- فانسلب Historie de L'Église de L'Alexandrie (Paris, 1677), pp. 29-30.
- أنظر الهامش رقم ١٥ في كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٩)، p. 25.
- ٩٤- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 162-5.
- ٩٥- طبقاً لبعض النصوص كانت أهم أسقفيات في النوبة قائمة في قصر إبريم، فرس، صاي، وندقلا. أنظر فيركوتر في Bulletin de la Société Française de l'Égyptologie, No. 58 (1970), p. 23.
- ٩٦- لموجز كامل عن معرفتنا الرائعة لأساقفة فرس أنظر جاكوبيلسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨).
- ٩٧- السورود الأريالية لحقريات فرس التي نُشرت إلى الآن تحوى سرود ميخالوفسكي في Kush X (1962), pp. 220-44 ; Kush XI (1963), pp. 235-56; Kush XII (1964), pp. 195-207; Kush XIII (1965), pp. 177-89; Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1962); Faras, Fouilles Polonaises 1961-1962 (Warsaw, 1965); op. cit
- (هامش رقم ٢٢) :

ومصادر إضافية مشار إليها في كامش رقم ٦ : و جاكوبيلسكي في Études et Travaux du Centre d'Archéologie Méditerranéenne de l'Académie Polonaise des Sciences, Vol. III (1966), pp. 151-70 ; in Mélanges offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 101-8; op. cit

(هامش رقم ٢٢) وفي دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 29-38 : و جاكوبيلسكي، المرجع السابق (هامش

رقم ٨٨) .

- ٩٨- أنظر ميخالوفسكي في Kush XI (1963), pp. 238-40 and pl. LVI  
بليلي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 3-4  
٩٩- لمناقشة وإيضاحات مفصلة عن عبادة الأساقفة أنظر ميخالوفسكي، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) pp. 45-6 والصور 86، 80-82، 57-9، 37 : و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 166 : و شيني، المرجع السابق (هامش رقم ٣٤) pp. 11-12 .  
١٠٠- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 166-7 .  
١٠١- Ecclesiastical History, trans. Payne-Smith (London, 1860), Part III, p. 257 .  
١٠٢- أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٥) pp. 101-2 .  
١٠٣- قارن كيروان في University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XXIV (1937), p. 101.  
للإيضاحات أنظر بليلي في Illustrated London News, 11 July 1964, pp. 52-3,  
و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣) Vol II ، الصور LVI-LX .  
إن حفريات أجريت منذ وقت قريب عكست ما يفيد أن كاتدرائية قصر إبريم وُجِدَت قبلها كنيسة شُيِّدَت في نطاق الأسوار المتساقطة في بعض الأجزاء ضمن المعبد المروي (قارن الفصل الثاني عشر) . ولتقرير أولي أنظر بليلي و آدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1974), pp. 228-36 .  
١٠٤- المناقشة التي تلي حول هندسة الكنيسة النوبية أُخذت كلها بالتقريب من مقالتي "التطور الهندسي للكنيسة النوبية، ٥٠٠-١٤٠٠م (المرجع السابق، هامش رقم ٥) . وتوجد بنفس المرجع قائمة شاملة ومسرد للكنائس النوبية، pp. 126-38 .  
١٠٥- أنظر فنيقان Light from the Ancient Past (Princeton, 1946), pp. 506-8.  
١٠٦- لمناقشة مفصلة للتقنية الهندسية للسقف النوبي أنظر سومرس كلارك  
Chstian Antiquities in the Nile Valley (Oxford), 1912, pp. 24-7.  
١٠٧- قارن مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣) Vol. III, pp. 3-8 .  
١٠٨- قارن كلاسنس في Fouilles en Nubie (1961-1963) (Cairo, 1967), pp. 83-4 ;  
فان مورسل في Spiegel Historiae, Vol. 2 (1967), pp. 387-92 ;  
ويخاصة شيندر في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 87-98 .  
١٠٩- أنظر آدمز في Kush XIII (1965), p. 167.  
١١٠- بينما هنالك سبب مقنع لتاريخ أغلبية كنائس الكبولا في نطاق القرن الثالث عشر أو ما بعده (قارن آدمز، المرجع السابق، هامش رقم ٥ ، p. 138)، ربما يبدو أنه على الأقل في مثال واحد، في سونقي تينو، يعود تاريخها إلى بداية القرن العاشر . أنظر فانتيني و دونادوني في Reniconti della Pontificia Accademia di Archeologia, Vol. XL (1967-1968), pp. 256-9 ;  
دونادوني في Cultura e Scuola, No. 36 (1970), p. 149 ;  
و دونادوني في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، p. 215 .  
١١١- أنظر ميناردوس، المرجع السابق (هامش رقم ١١) pp. 159-64 .  
١١٢- أكبر عدد للكنائس في أي مجتمع بمفرده كان في فرس غرب، التي كانت في يوم ما تشمل ما لا يقل عن عشرة مبانٍ (قارن آدمز، مرجع سابق، هامش رقم ٥ ، p. 129) .  
إن ثاني أكبر عدد، ويبلغ ثمانية من الكنائس، عُثِرَ عليهم في تاميت وهي مجتمع يقل أهمية نسبياً، ويقع حوالى ١٥ ميلاً شمال فرس . أنظر بريسكياني في Missione Archeologica in Egitto dell'Università di Roma, Tamit (1964) (Rome, 1967), pp. 27-38.

- ١١٣- قارن بخاصة بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 496 .
- ١١٤- مرجع سابق (هامش رقم ١٠) . يذكر المؤلف سناً من الأديرة النوبية بالإسم، ولكن واحداً منها لاغير (في وادي غزالي، بالقرب من الشلال الرابع) يمكن التعرف عليه في موقع أثري معروف .
- ١١٥- قارن مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣) Vol. III, pp. 61-2 .
- ١١٦- نفسه ، Vol. I, pp. 132-42 .
- ١١٧- إسكتالون في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), pp. 29-57, and Vol. 58 (1972), pp. 7-42.
- ١١٨- شيني و شيتيك  
Ghazali - A Monastery in the Northern Sudan, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 5 (1961).
- ١١٩- قارن خاصة إسكتالون في  
Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 58 (1972), pp. 7-42.
- ١٢٠- لسرود، أولية أنظر ميلز، مرجع سابق (هامش رقم ١) pp. 10-11 . دنكر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 267-71 :
- و مايستر في دنكر، المرجع السابق، (هامش رقم ٢)، pp. 181-8 .
- ١٢١- قارن مايستر، النص المذكور أنفاً (هامش رقم ١٢٠) . إن الموقع الثاني الذي شمل كنيسةً حفره جيمس كنوسناد عام ١٩٦٩، ولكنه لم يُنشر بعد .
- ١٢٢- قارن خاصة ميناردوس  
Monks and Monasteries of the Egyptian Deserts (Cairo, 1961).
- ١٢٣- قارن شيني و شيتيك، المرجع السابق (هامش رقم ١١٨) pp., 69-94 .
- ١٢٤- تظهر الشواهد القبطية بشكل غير منتظم في كثير من الجبانات النوبية، ولكنها في العادة تزيد عليها غالباً الشواهد الإغريقية .
- ١٢٥- هو "الناسك قروتو" الشهير في فرس : أنظر قريفيث في  
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIV (1927), pp. 81-91.
- ويبدو من آثارها أن واحداً على الأقل منها أو ربما كل القبور الصخرية الثلاثية في توشكا غرب كانت كذلك سكناً يمتلكه نساك مسيحيون : أنظر سيمبسون  
Heka a-Nefer and the Dynastic Material from Toshka and Arminna, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 1 (1963), pp. 13, 18-21.
- ولا تزال هناك صومعة صخرية بُلغ عنها في الزومة، بالقرب من كريمة (مونير دي فيلار، المرجع السابق، هامش رقم ٣، p. 251).
- ١٢٦- آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 228-31 .
- ١٢٧- إقترح هذا التركز غير العادي للكنائس في تاميت. أنظر بريسيكاني، مرجع سابق (هامش رقم ١١٢)، وخاصة الشكل رقم 2 .
- ١٢٨- وثائق غير منشورة للمسح الأثاري للنوبة السودانية .
- ١٢٩- أنظر ميخالوفسكي في  
Kush X (1962), pp. 234-5; Kush XI (1963), pp. 238-40
- واللوحة رقم LVI : بلعلي، النص المنقول (هامش رقم ٩٨) : و ميليه، المرجع السابق (هامش رقم ٤٦)، p. 60 .
- ١٣٠- أنظر آدمز في دنكر، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 149 .
- ١٣١- امري، مرجع سابق (هامش رقم ٦٥) p. 203 .
- ١٣٢- لمناقشة أطول حول المدافن النوبية المسيحية أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٣)



- ١٣٣- حدث ذلك في مينارتي : أنظر أدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) pp. 169-70 .
- ١٣٤- مناقشة زينة الكنيسة اللاحقة أخذت أساساً من أدمز للمرة الثانية، المرجع السابق (هامش رقم ٥)، وبخاصة p. 100 .
- إن قاموساً خاصاً بفن التصوير النوبي المسيحي تحت الإعداد حالياً من جماعة من الاساتذة البولنديين .
- ١٣٥- لإيضاحات الترويسات النوبية المنحوتة وأشياء غيرها،  
أنظر قريفيث في  
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pls.  
قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٥) . LXXVII-XXXIX, LI-LIII, LXII; pl. LXXVII .  
و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٣)  
Vol. II, pls. II-V, XII, XXI, XXIV, XXXII, XLII, LX, LXXVI, LXXXIII, LXXXV, LXXXVIII, XCII, XCIV, XCVII;  
ميخالوفسكي Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1965), pls. XIX-XXV;  
دي كونتسون Aksha I (Paris, 1966), pls. I, IV ;  
تريقر  
The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 2 (1967), pls. X-XI;  
قاريدرج، المرجع السابق (هامش رقم ٧) ، pls. 38, 44, 57 ،  
دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢)  
pls. 29, 36, 37, 73-112, 125-8, 130-33, 148-50, 196-7  
١٣٦- الأمثلة الأشهر هي التي عثر عليها قريفيث في كنيسة Rivergate في فرس  
(University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII, 1926, pp. 73-93 and pls. LIV-LXI)  
وفي عبدالقادر (قريفيث، المرجع السابق، هامش رقم ٣٤ ، pp. 63-80 والصور بالارقام XXXI-XLVI) .  
١٣٧- أكمل معاملة وإيضاح لرسومات فرس التي نُشرت إلى اليوم تنتسب إلى ميخالوفسكي، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) .  
أنظر على نفس الصعيد المصادر المشار إليها في الهامش رقم ٩٧ .  
١٣٨- فان مورسيل، جاكيه و شنيدر  
The Central Church of Abdallah Nirqi (Leiden, 1975);  
أنظر أيضاً مقالات شنيدر و فان مورسيل في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 87-107 .  
١٣٩- أنظر هامش رقم ١١٠ كمرجع .  
١٤٠- لأوصاف فنية وإيضاحات لعملية نزع الرسومات والحفاظ عليها أنظر جرزيفسكي في  
Bulletin du Musée National de Varsovie, Vol. VII (1966), pp. 81-9,  
قرستر في  
Unesco Courier, December 1964, pp. 19-22.  
١٤١- مثلاً ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨)، وفي دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 1-16 ؛  
قرستر Nubien-Goldland am Nil (Zurich und Stuttgart, 1964), pp. 129-38;  
هينتز

Civilizations of the Old Sudan (Leipzig and Amsterdam, 1968), pls. 138-45; Das Womnder aus Faras (Essen, 1969), pls. 1-21.

- ١٤٢- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) .
- ١٤٢- دانيال iii, 28 .
- ١٤٤ قُدمت أسماؤهم على أنها أرنياس ولكوتس : أنظر ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، p. 15 .  
إن إسم أرنياس يُجد لاحقاً في مشهد للميلاد في كولبنارتني (ملاحظات المؤلف غير المنشورة بشأن الجفر) .
- ١٤٥- قارن ويتزمان في دنكلر، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 335 .
- ١٤٦- للأملّة أنظر قريفيث في  
University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), pl. XXXIV,  
و ميخالوفسكي، مرجع مذكور آنفا (هامش رقم ٢٢)، pls. 40-42 .
- ١٤٧- يُجد مثال في حالة جيدة في سونتي، لكنه لم ينشر بعد (قارن فانتييني و دونادوني، مرجع سابق، هامش رقم ١١٠ ، p. 254) .
- وفي كنيسة في ديرة غرب مثال آخر ظلت بقاياه حية إلى وقت قريب (مونير دي فيلار، مرجع سابق، هامش رقم ٢، المجلد الأول p. 206) . ولسوء الحظ يبدو أنه لم يُصور فوتوغرافياً أو تؤخذ منه نسخة أبدأ .
- ١٤٨- تشمل الأملة التوضيحية قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ٢٤) pl. XLV :  
ميخالوفسكي مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pls. 63-9 : ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pl. I .  
وفان مورسل في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pl. 48 .
- ١٤٩- أفضل مثال توضيحي لميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، pl. 71 .
- ١٥٠- أملة هذا الرسم متعددة ومختلفة للغاية على وجه الخصوص . أنظر قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤)، pl. xxxix:
- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pl. 87-9 : فان مورسل في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pl. 40 .  
: أتمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pl. 121 :  
ودونادوني في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pl. 192 .
- ١٥١- أنظر قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ١٤٦) pl. LVIII : قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ٢٤) :  
ميخالوفسكي ، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) pl. 48 :
- pls. XXXIV-XXVI, XLII-XLIII
- : فان مورسل في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pls. 42, 46 .
- ١٥٢- ميخالوفسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 15 .
- ١٥٣- ويتزمان في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 327 .
- ١٥٤- قارن قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٢٤) pls. XXXI-XLVII .
- ١٥٥- لمناقشة مطولة أنظر ويتزمان في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، خاصة pp. 325-9 .
- ١٥٦- أنظر على سبيل المثال، ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، pls. 57, 59, 77, 79, 94, 95 .
- ١٥٧- لمناقشة عامة أنظر جاكوبلسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، pp. 29-98 ، وشيني في عبدالله، محرراً،  
Studies in Ancient Languages of the Sudan, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 3 (1975), pp. 41-7.
- ١٥٨- قارن ادمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٠)، p. 149 . لاحظ أن النقوش في كنيسة عبدالقادر الأكثر تأخرأ  
وُضعت بالإغريقية في مجملها (قريفيث، مرجع سابق، هامش رقم ٢٤ ، p. 67) .
- ١٥٩- تشمل أيضاً حرفين غير موجودين في القبطية أو الإغريقية، وربما اشتقا من الأبجدية المروية . أنظر قريفيث

The Nubian Texts of the Christian Period, Abhandlungen der Königlichen Preussischen Akademie der Wissenschaften (1913), p. 73.

١٦٠- مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 31-2 : مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) pp. 14-16 .

١٦١- لمناقشة إضافية في هذا الشأن أنظر بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦)، و أوتس في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 49 (1963), pp. 161-71.

إن المؤلف الأخير يرى (p. 164) "... إن مستوى الإغريقية في الحجاره [النوبية] رفيع جداً و [بعضه] يمثل بحق أرقى الأزمنة في تاريخ النقش الإغريقي . وينفس القدر ... يمكن مقارنة الأخطاء اللغوية للمجموعة بحجاره من نفس الفترة وُجدت في اسيا الصغرى، وسوريا، واليونان، أو مصر". بالمقابل، مع ذلك، أنظر زيلياكوس في

: Holthoer et al., op. crt. (n. 58), p. 14

"... لغة النصوص الإغريقية مفعلة و ركيكة، متأثرة بالهجا القبطي والنوبي ... وما يستبان من ذلك هو أن قاطعي الحجاره أو ناقضيها النوبيين لم يمتلكوا ناصية الإغريقية بشكل حقيقي". والأكثر من ذلك تعقيداً ما أحدثته سلسلة من الرسوم الصخرية وُجدت بالقرب من قصر إبريم عام ١٩٧٢ من أثر (قارن بلملي و آدمز، مرجع سابق، هامش رقم ١٠٣) إذ يبدو أنها مزيج من القبطية والنوبية القديمة في حالة أقل تحضراً . وإلى الحد الذي أعلمه لم تُصانف مثل هذه الخلطة أنفاً .

١٦٢- قارن جاكوبسكي في

Mélanges offerts à Kazimierz Michalowski (Warsaw, 1966), pp. 103-8, in KLIO, Vol. 51 (1969), p. 500,

والمرجع السابق (هامش رقم ٨٨) pp. 37-47 .

١٦٣- أنظر جنكر في

Zeitschrift für Ägyptische Sprache und Altertumskunde, Vol. 60 (1925), pp. 124-48

و مونير دي فيلار في

Aegyptus, vol. XII (1932), pp. 309-16

١٦٤- جاكوبسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 31-2 : فرند في

Byzantinoslavica, Vol. XXXIII (1972), pp. 224-9.

١٦٥- ثلاثة منهم نُشروا في قريفيث، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ١٥٩) . وقد اكتُشف منذ وقت قريب كتابان أخريان من سرة شرق وقصر الوز ولكنهما لم يتم وصفهما بعد بتفصيل . أنظر ملاحظات عن الإكتشاف في إسكانلون African Arts, Vol. II (1968), p. 65 and Fig. 4

و نويسناد في Kush XIV (1966), P. 171

١٦٦- جاكوبسكي في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) PP. 29-30 :

أنظر كذلك المصادر المشار إليها في هامش رقم ١٦٢ .

١٦٧- نويسناد، النص المنقول (هامش رقم ١٦٥) .

١٦٨- إسكانلون، النص المنقول (هامش رقم ١١٧) .

١٦٩- بلملي في

Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 4-5; Vol. 52 (1966), pp. 11-12; Vol. 61 (1975), pp. 6-7;

والمرجع السابق (هامش رقم ٣٦) : فرند، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) .

١٧٠- لمناقشة أطول عن الأدب النوبي في القرون الوسطى أنظر هايكوك، مرجع سابق (هامش رقم ٧٧) .

١٧١- قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ١٢٥)، pp. 82-3 .

١٧٢- لمناقشة حول هذه الصيغة وتفرعاتها النوبية أنظر خاصة جنكر، المرجع السابق (هامش رقم ١٦٣) و أوتس،

المرجع السابق (هامش رقم ١٦١) .

١٧٣- يجري حساب عصرنا من قبل الكنيسة القبطية ومعظم الكنائس الشرقية منذ وقوع الإضطهادات في حكم دقلتيان. ٢٨٠ بعد الميلاد، بدلاً من ميلاد المسيح . وبناء عليه تؤرخ وفاة بطرس الرسول في عام ١٠٢٥ بعد الميلاد طبقاً لسردنا الزمني .

١٧٤- نقلاً عن مايلهام

Churches in Lower Nubia, University of Pennsylvania Museum, Eckley B. Cox Junior Expedition to Nubia, Vol. II (1910), p. 19.

١٧٥- قصر إيريم لم يُغمر تماماً، ولا تزال الحفريات متواصلة هنا .

١٧٦- انظر هامش رقم ٦٠ .

١٧٧- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ١٣٥) ؛ ويكس

The Classic Christian Townsite at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 3 (1967).

Missions Archeologica in Egitto dell'Universita di Romà, -١٧٨

المرجع السابق (هامش رقم ١٢٧) .

١٧٩- شيني في

Kush XI (1963), pp. 257-63; Kush XII (1964), pp. 208-15; and Kush XIII (1965), pp. 190-94.

١٨٠- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) 40-2٠٥، والمرجع السابق (هامش رقم ١٠٩) .

١٨١- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) 40-218، pp.

١٨٢- انظر ويكس، مرجع سابق (هامش رقم ١٧٧)، pp. 17-21 .

إن هذا الاقتراح غير مؤيد من تريقر (تبادل شخصي) .

١٨٣- انظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٨)، p. 187 .

١٨٤- ما قبله ، p. 188 .

١٨٥- يعني ذلك أنه في العصر المسيحي . والعدد الإجمالي للطبقات السطحية في الموقع كانت ثمانية عشرة .

وليفتد بالتسلسل الزمني أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٩) p. 150 .

١٨٦- قارن مؤلفي " نمط الإقامة في هيئة مصغرة : الوجه المتغير لقرية نوبية خلال إثني عشر قرناً " (آدمز، مرجع

سابق، هامش رقم ٨) . إن المناقشة التالية مركزة إلى حد بعيد بناء على هذا المصدر .

١٨٧- هذه مثبتة بسجلات الفيضان السنوي ومستوياته المحفوظة في رويس، بالقرب من القاهرة، منذ عام ٦٢٢ بعد الميلاد وما تلاها .

انظر جارغيس في Journal of Cycle Research, Vol. 2 (1953), pp. 96-100.

١٨٨- أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 219 ، الشكل رقم ٣ .

١٨٩- انظر خاصة شيني في Fig 3 ، p.211 ، Kush XII (1964) .

١٩٠- قارن ويكس، المرجع السابق (هامش رقم ١٧٧)، الشكل رقم ١ .

١٩١- لمناقشة عن هذه المواقع أنظر بشكل خاص آدمز و نورستروم، المرجع السابق (هامش رقم ١) pp. 42-4 :

بريزيدو فيل

El Poblado Cristiano de la Isla de Abkanarti, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de la Misión Arqueológica en Nubia, VII (1965); and Gardberg

المرجع السابق هامش رقم (٧) pp. 47-52

١٩٢- آدمز و نورستروم، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 43-4 .

١٩٣- جارغيس، نقلاً عن النص (هامش رقم ١٨٧) .

Kalabsha, Centro per le Antichità e la Storia dell'Arte del Vicino Oriente, *Orientis Antiqui Collectio*, V (1965).

Sabagura, Centro per le Antichità e la Storia dell'Arte del Vicino Oriente, *Orientis Antiqui Collectio*, I (1962).

La Fortaleza Nubia de Chiekh-Daud, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, *Memorias de la Misión Arqueológica en Nubia*, IV (1964).

١٩٧- إستانكو في. *Acme*, Vol. XIII (1960), pp. 31-76.

١٩٨- نفسه ، الشكل رقم ٢ (فيما يلي 32 p).

١٩٩- بريسيدو فيليو، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٦)، الرسم اللاحق 10 p.

٢٠٠- المعبد الروماني الكبير في كلابشة، وقد حُوِّل إلى كنيسة في العصر المسيحي الباكر، وشغل مكاناً بارزاً ما بين مساجده المسمّورة. أنظر كورتو وآخرين، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٤) 44-5 pp.

٢٠١- إستانكو، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٩٧) 67-76 pp.

دونادوني في. *Mémoires de l'Institut de Égypte*, Vol. LIX (1969), p. 30.

٢٠٢- قارن دونادوني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠١) 29-30 pp.

وفي. *la Parola del Passato*, Vol. 69 (1959), pp. 458-69.

٢٠٣- تريقر، مرجع سابق (هامش رقم ١) 146 p.

٢٠٤- أنظر، مثلاً، رايزنر

Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. I, pp. 346-7;

فيرث. *Archaeological Survey of Nubia*, Report for 1910-1911 (Cairo, 1927), p. 33.

٢٠٥- أنظر بخاصة إدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٧) 236-8 pp.

٢٠٦- للمزيد من النقاش المطول عن التطور اللوني للفخار النوبي المسيحي أنظر المصادر المختلفة الواردة في الهامش رقم ٤.

٢٠٧- قارن ويتزمان في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) 338 p.

Ornements des Manuscrits Coptes du Monastère Blanc. وجانسم

رسالة دكتوراه لم تنشر بعد). (Rijksuniversiteit te Groningen, 1973).

ومع ذلك، يشير ميليه (في تبادل شخصي) أن حواشي "الصفيرة" لأشد تطوراً كلونية زخرفية في النوبة من بينزطة أو أي مكان آخر.

٢٠٨- أنظر قريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ١٤٦) 63-5 pp. والصور XLI-XLV.

٢٠٩- إدمز في كوش *Kush IX* (1961), pp. 30-43.

إن المناقشة التالية مأخوذة في تركيز من هذا المصدر.

٢١٠- للمناقشة أنظر خاصة لاين. *Early Islamic Pottery* (London, 1947) pp. 10-24.

٢١١- أطول مناقشة ممدودة حول فخار الفسطاط المصقول تعود إلى بهجت و ماسول

*La Céramique Musulman de l'Égypte* (Cairo, 1930);

قارن كذلك إسكانلون في ريتشارس، محرراً

*Islam and the Trade of Asia* (Philadelphia, 1970), pp. 81-95,

وكذلك في *Archaeology*, Vol. 24 (1971), pp. 220-33.

- ٢١٢- ليس شائعاً قبل أواسط القرن الحادي عشر ؛ وعلى أية حال، يَبَيِّن إسكانلون (مرجع سابق، هامش رقم ١١٧ ، p. 43) إن أول قُبْعٍ مصقولٍ في التوبة يمكن أن تَوَلَّى إلي القرن العاشر .
- ٢١٣- للمناقشة أنظر هاينز Glass through the Ages (Harmondsworth, 1948), pp. 52-4 وسميث Glass from the Ancient World (Coming, N. Y., 1957), pp. 227-32.
- ٢١٤- أجرى الفحص الإبتدائي وتحديد الخواص للزجاج الموجود في مينارتي السيد راى واينفيلد إسميث وتجرى دراسة مفصلة لهذه المادة في الوقت الحاضر . ولتحليل منشور لشظايا الزجاج من موقع نوبي آخر في العصور الوسطى أنظر هارنن في شيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٤) pp. 60-76 .
- ٢١٥- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٩) p. 512 .
- ٢١٦- حُدِّد النسيج عن طريق الخطأ على أنه قطن في تقرير أولى ' أنظر آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 238 .
- وُجِدَت كذلك معثورات مماثلة من قبل البعثة الإسكندنافية المشتركة على أنها منسوجة أساساً من وبر الجمال . أنظر برجمان Late Nubian Textile, Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia Publications, Vol. 8 (1975), pp. 10-12.
- ٢١٧- قارن آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 149 .
- ٢١٨- تريفر في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 347 .
- ٢١٩- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 169-70 ، و فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٥٧) pp. 117-18 .
- ٢٢٠- أنظر بخاصة تريفر في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 354-5 .
- ٢٢١- نفسه p. 355 : آدمز و نورديستروم، مرجع سابق (هامش رقم ١)، p. 42-4 .
- ٢٢٢- قارن تريفر في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 355 .
- ٢٢٣- قارن هنتينغفورد The Land Charters of Northern Ethiopia, monographs in Ethiopian Land Tenure, No. (1965).
- ٢٢٤- هذا مفترض من جاكوبسكي ؛ أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٨٨) p. 73 .
- ٢٢٥- لبينة على إنتاج النبيذ بإديرة مصر أنظر خاصة وينلوك و كروم The Monastery of Epiphanius at Thebes, Part I, Metropolitan Museum of Art Egyptian Expedition Publications, Vol. III (1926), pp. 1612.
- ٢٢٦- أنظر آدمز في كوش Kush X (1962), pp. 72-4 .
- و آدمز و نورديستروم، مرجع سابق (هامش رقم ١) p. 42 .
- ٢٢٧- لمناقشة أنظر آدمز في Kush XIV (1966), pp. 279-82 .
- ٢٢٨- فوراند، مرجع سابق (هامش رقم ٥٧) p. 120 .
- ٢٢٩- آدمز، النص المنقول (هامش رقم ٢٢٧) .
- ٢٣٠- لمناقشة عن التجارة في الفخار المستورد أنظر آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 118-21 .
- ٢٣١- "تنظيم دول القرون الوسطى" بعاليه .
- ٢٣٢- قارن على وجه الخصوص بللمي، مرجع سابق (هامش رقم ٣٦) .
- ٢٣٣- أنظر فوراند، المرجع المذكور سابقا (هامش رقم ٥٧) p. 116 .
- ٢٣٤- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١) pp. 45-7 .
- ٢٣٥- فرنيا Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966) Vol. I, p. 9 .
- ٢٣٦- تريمنغهام، نقلاً عن النص (هامش رقم ١٢) .
- ٢٣٧- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) pp. 42-50 .

## الفصل السادس عشر

**المصادر الأساسية :** هناك عدد من المختصرات لمعلومات تاريخية عن الفترة المتأخرة من المسيحية النوبية : ومن بينها مونير دي فيلار

Storia della Nubia Cristiana, Pontificio Institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Christiana Analecta 118 (1938), Ch. XXII,

وأركيل في IX Ch. (London, 1961), 2nd ed. A History of the Sudan.

وكلاهما جدير بالذكر . أما المعلومات التي قدمها الكتاب العرب في القرون الوسطى فهي ملخصة تلخيصاً جيداً في حسن وفي فانتييني

The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1976), pp. 59-143.

وتوجد معلومات إضافية في بدج The Egyptian Sudan (London, 1907), Col. II, Ch. XII. وبالنسبة لنظام الممالك في مصر ، اعتمدت في غالب الأمر على لاين - بول

A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1968), Ch. IX-X.

١- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت، ١٩٥٦-١٩٦١)، المجلد الخامس، ص ٤٢٩ . والترجمة مأخوذة من كراوفوت في 148 p. (1927), Vol. XIII Journal of Egyptian Archaeology.

٢- قارن كراوفوت، النص المنقول (هامش رقم ١) .

٣- قارن أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 196.

٤- أنظر قريفيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIV (1927), pp. 102-3.

٥- قارن بليلي في Illustrated London News, 11 July 1964, p. 51.

٦- لتقرير عن الحفر الأولي أنظر نوبستان في Kush XIV (1966) pp. 165-78.

٧- قارن ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt , Vol. VI (1967), pp. 60-61.

٨- هناك كنيسةان فقط موصوفتان في مونير دي فيلار

La.Nubia Medioevale, Vol. I (Cairo, 1935), pp. 108-20

إن الكنيسةان الأخريتان إكتشفا في معرض الحفر الجارى عام ١٩٦٦ و ١٩٧٢ :

أنظر بليلي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 10-11,

و بليلي و آدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 60 (1964), pp. 228-36.

إن من الممكن تماماً أن حفرأ متواصلاً يكشف النقاب عن كنائس إضافية في قصر إبريم .

٩- قارن آدمز في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. IV (1965), pp. 137-8.

١٠- ميلز في Kush XIII (1965), pp. 3-10.

١١- حُفر الموقع بواسطة اليونسكو - مصلحة آثار السودان في ١٩٦٦ ، لكنه لم يُبلغ عنه في عمل منشور . وعن

الكنيسة أنظر مونير دي فيلار La Nubia Medioevale, vol. I (Cairo, 1935), n. 230-31,

وآدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٩) . pp. 119-20.

١٢- ميين في خرائط عديدة على أنه سوسينارتي . ولسرور أطول عن الموقع أنظر شيتيك في

Kush V (1957), pp. 45-7 ;

قروسمان في

Archäologischer Anzeiger, Jahrbuch des Deutschen Archäologischen Instituts (1968), pp. 721-32 ;

و دنكلر، محررا،

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 265-6.

١٢- كان ذلك مودناً في أثناء حفرياتي في كولبنارت في عام ١٩٦٩ ، التي لم تُنشر بعد . لتقرير مختصر للغاية وأولى  
أنظر آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، p. 143 .

إن المواقع موصوفة هنا في الفعل الحاضر لأنها سوف لا يغيرها فيضان السد العالي .

١٤- بلعلي، المرجع السابق (هامش رقم ٨) pp. 9-10 .

١٥- قارن أركيل، النص المنقول (هامش رقم ٢)

١٦- نودستاد، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 169-70 .

١٧- آدمز في كوش Kush XII (1964), pp. 169-70 .

١٨- بريزيدو فيلو،

El Poblado Cristiano de la Isla de Abkanarti, Comité Espanol de la Unesco para Nubia, Memorias de La Misión Arqueológica en Nubia, VII (1965), pp. 12-13.

١٩- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 222 .

٢٠- مثال ذلك جزيرة تورموكي : أنظر قروسمان في

Archäologischer Anzeiger, Jahrbuch des Deutschen Archäologischen Instituts (1971), pp. 140-43.

٢١- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 232, Fig. 4 .

٢٢- قارن ميخالوفسكي

Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1952), pp. 173-81; Kush X (1962), pp. 242-4 ;

وفانتيني

The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), pp. 259-62.

٢٣- أنظر آدمز في دنكلر، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 144-6 .

٢٤- نفسه ، p. 150 : أركيل، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٣) .

٢٥- أنظر التقرير عن هذه القلاع الثلاثة وغيرها في منطقتها في كراوفورد

The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), pp. 30-52.

٢٦- حول هاتين القلعتين وغيرهما في المنطقة ما بين الشلالين الرابع والخامس أنظر

Castles and Churches in the Middle Nile Region, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 2 (1953).

٢٧- نفسه 4-31, 20-21 pp. .

٢٨- ألفا رس The Prester John of the Indies, trans. Lord Stanley (Cambridge, 1961), p. 461 .

٢٩- أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ٩) pp. 116-20 .

٣٠- نفسه 20-119 pp. . تم توسيع الكنيسة في عبدالقادر نوعاً ما مؤخراً بإضافة غرفة في كل جانب . وللإطلاع  
على خطة التوسعة أنظر قريغيث في

University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XV (1928), pl. XXV.

٣١- قارن آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ٩) pp. 119-20 .

٣٢- قارن ميليت في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. III (1964), p. 10 .

(كذلك الهامش رقم ٧) pp. 59-61 في المرجع السابق

٣٣- ليرما ان الكنيسة الاسبق في جزيرة مينارتي (أنظر آدمز في Kush XIII, 1965, pp. 165-8)



تم هجرها قبل نهاية العصر المسيحي . إنني افترض أن الكنيسة في عبد القادر، حوالى نصف ميل بعيداً عن الضفة الغربية، شُيّدت أساساً لمنفعة الأتباع في مينارتي، حيث أنه لا توجد مستوطنات لأميال بعيدة في أي اتجاه .

٣٤- قارن آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ١٧) p. 222 .

٣٥- آدمز في دنكار، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 146 .

٣٦- كلاً من هذين الموقعين جرى حفرهما بواسطة فريق اليونسكو ومصلحة آثار السودان بين الأعوام ١٩٦٦ و ١٩٨٦، ولكنهما لم يُنشر عنهما شيءٌ بعد . ولوصفر عن ديفنارتي سابق لحفرهما أنظر مونير دي فيلار، النص المنقول أنفا (هامش رقم ١١) . إن الكنيسة في اثثيري لم يكن متعرفاً عليها على هذا النحو حتى الوقت الذي تحقق فيه الحفر بالفعل .

٣٧- أنظر الهامش رقم ٢٢ .

٣٨- أنظر آدمز، المرجع السابق (هامش رقم ١٧) p. 232 .

٣٩- الشعبية البادية للقدسين الفرسان كرسم للزينة في الكنائس النوبية المتأخرة ربما يشار إليهما كبنية إضافية علي روح الإقطاع العنقادية . أنظر تريفيث، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠)، اللوحات رقم XXXIV-XXXVI, XLII-XLIV

و ميليت، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 61 .

٤٠- آدمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) pp. 237-8 .

٤١- قارن المرجع نفسه ، p. 247 .

٤٢- تطور الفخار المسيحي المتأخر قمت بوصفه بتفصيل أكثر في Kush XV (1973), pp. 1-50.

٤٣- فيما عدا الإنتاج الواسع للأواني التي تُستعمل في الساقية، والذي يبدو أنه تواصل حتى أزمانٍ حديثة .

٤٤- أنظر آدمز في دنكار، المرجع السابق (هامش رقم ١٧) p. 115 ، واللوحات 49-50 .

٤٥- مذكرات المؤلف الميدانية غير المنشورة عن الحفر .

٤٦- قارن شيني في حسن، محرراً،

Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), p. 46.

٤٧- لاين - بول A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1968), p. 244.

٤٨- نفسه p. 245 .

٤٩- لمناقشة عن هذا الجانب من سياسة الممالك أنظر عابدين في

Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 59-60;

حسن في Arabia, Vol. XIV (1967), pp. 27-8;

وخاصة حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 100-106.

٥٠- حول أصول بني كنز وتاريخهم الباكر أنظر ماكمايكل

A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), vol. I, pp. 148-51;

تريمينفهام Islam in the Sudan (London, 1949), p. 68;

و حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 58-60.

٥١- قارن حسن في Arabica, Vol. XIV (1967), pp. 23-4.

٥٢- إن المعلومة الخاصة بأن بعض بنى كنز كانوا نشطاء أنفاً في النوبة السفلى قبل تدفق السكان العام في ١١٧٤ تشهد عليها مجموعة من الرسائل التي يعود تاريخها إلى الفترة الفاطمية المتأخرة وهي ما ألقى الضوء عليها منذ وقت قريب في قصر إبريم . إن الرسائل معنونة إلى الإبراش من مجموعة من أمراء بنى كنز، وهي تتعلق بمستوطناتهم وأنشطتهم العملية في النوبة السفلى . أنظر بلمي وميخالوفسكي، محررين، في

Nubia, Récentes Recherches (Warsaw, 1975), p. 106.

٥٣- قارن تريمينفهام، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٥٠) ومساعد في

- ٥٤- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 150 : مسعد، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٥٣) : حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥١) p. 24 .
- ٥٥- أو 'رب الخيول' طبقاً لقراءة بلمي للقب الإبارش العربي .
- أنظر بلمي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 56 (1970), p. 14.
- ٥٦- قارن فانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 261 .
- ٥٧- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 150 .
- ٥٨- قارن نفس المرجع السابق
- ٥٩- نهاية العرب في فنون الأدب (القاهرة، ١٩٢٣) المجلد الأول .
- ولتعقيب عليه، أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 197-8 :
- وفانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 103 .
- ٦٠- التهج السعيد والدر الفريد، تحرير أ. بلوخ (ثلاث مجلدات، باريس ١٩٢٨-١٩١٩) . ولتعقيب عليه أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 198-9 . وفانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢)، p. 104 .
- ٦١- أنظر هامش رقم ١ ولتعقيب أنظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠)، p. 199 ، وفانتيني، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٢٢)، pp. 106-10 .
- ٦٢- عمله الرئيس عن فترة المماليك هو كتاب السلوك في معرفة دول المملوك (مجلدان، القاهرة، ١٩٢٤) ولتعقيب أنظر حسن المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، p. 201 . وفانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) pp. 112-19 .
- ٦٣- أعيد سرد هذه القصة من عدد من المؤلفين المحدثين، بمن فيهم بدج The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. II, 193-9;
- تريمنفهام، المرجع السابق هامش رقم ٥٠) pp. 69-72 : أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٣) pp. 196-200 :
- مسعد في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 124-6.
- أما أكثر نسخة مفصلة وربما الأكثر دقة باللغة الإنجليزية، والتي اعتمدت عليها في الأساس، فهي لحسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) pp. 106-23 .
- ٦٤- النص الكامل للإتفاقي التي وقع عليها شككده مُضمّنة في نويري، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩)، ما يلي ص ٢٥٩ .
- ولموجز عن البنود بالإنجليزية أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، pp. 109-10 .
- ٦٥- هذا هو الهجاء المعتاد للإسم كما يظهر في النصوص العربية . وفي النصوص النوبية القديمة يظهر على أنه كُدانيس أو كُدانيس .
- ٦٦- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) p. 119 .
- ٦٧- نفسه ، p. 120 .
- ٦٨- ما قبله ، p. 121 .
- ٦٩- على سبيل المثال أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 200 : مسعد، النص المنقول أنفا (هامش رقم ٦٣) ' شيني p. 7. Medieval Nubia, Sudan Antiquities Service Museum Pamphlets, No. 2 (1954),
- ٧٠- مع ذلك، وفي نقش غامض للغاية شبه إغريقي في أسوان يبدو إسم كرنبس موصولاً بالحكام السابقين والقدسيين في نفس الوقت. أنظر قريفيث
- Christian Documents from Nubia, Proceedings of the British Academy, Vol. XIV (1928), p. 134,
- و مونير دي فيلار
- Storia della Nubia Cristiana, Pontificio institutum Orientalium Studiorum, Orientalia Chrisiana Analecta 118 (1938), p. 164.

- ٧١- مسالك الأبحار في ممالك الأمصار، مترجماً، Gaudefroy-Demombynes (Paris, 1927), pp. 48-9.
- ولتطبيق أنظر فانتيني، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) 104-5 pp.
- ٧٢- تعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٨٩٤) ص ١٢١-١٢٢ .
- ٧٣- مرجع سابق (هامش رقم ٦٢) . ولفقرات مختارة مطولة بالإنجليزية أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) 197-8 Vol. II, pp. ١٢١-١٢٢ .
- ٧٤- المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 122 p.
- ٧٥- بلغ عن هذا المدعو توماس Brother Thomas of Ganget والذي عمل مع البعثة البرتغالية إلى إثيوبيا في العشرينات من عام ١٥٠٠ أنظر كراوفورد
- Ethiopian Itineraries, c. 1400-1524 (Cambridge, 1958), pp. 180-81.
- ٧٦- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٦٢) 198 Vol. II, p. ١٢٣ . وحسن، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) 123 p.
- ٧٧- قارن توينبي
- A Study of History, Vol. 8 (New York, 1963)
- وبخاصة 1-73 pp.
- ٧٨- لتفاصيل عن هذه المرحلة من تاريخ بني كنز أنظر بخاصة بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣) 197-9 Vol. II, pp.
- كذلك ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) 188-9 Vol. I, pp.
- ٧٩- يعتقد هايكوك أن هناك تينة أيضاً على بقاء المسيحية لفترة متأخرة جداً في المنطقة ما بين الشلالين الرابع والخامس (افتراضياً مقاطعة الأبواب القديمة) . أنظر
- Sudan Notes and Records, vol. LIII (1972), p. 20.
- ٨٠- تعريف
- The Nubian Texts of the Christian Period Abhandlungen der Königlichen Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1913, p. 52;
- و مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٧٠) 141 p.
- ولقد ظهر إسم يماثل التيت في واحد من النصوص التي عُثِرَ عليها في قصر إبريم عام ١٩٧٤، ويعرض لوصفة في فقرة لاحقة . وفي هذه الحالة يبدو أنه إسم العائلة الخاص بحاكم إسمه الأساسي جورج .
- ٨١- مرنير دي فيلار، النص المعقول أنفا (هامش رقم ٧٠) .
- ٨٢- قريفيث، المرجع السابق هامش رقم ٨٠) 64-5 pp. : مونير دي فيلار، مرجع مذكور أنفا (هامش رقم ١١) .
- Vol. I, p. 174
- ٨٣- قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٨٠). 166 pp. :
- مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ١١) 174-5 Vol. I, pp.
- ٨٤- ميلييه، مرجع سابق (هامش رقم ٧) 62 p.
- ٨٥- تبادل شخصي مع ن. ب. ميلييه .
- ٨٦- هذا هو بالتأكيد مركى الوارد في نص جبل عذّا (أنظر الهامش رقم ٨٤) .
- ٨٧- بليلي، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) .
- ٨٨- وُجِدَت الوثائق في جُرة مخنونة ومدفونة تحت أرضية أحد المنازل خلال حفريات عام ١٩٧٤ . أنظر بليلي في
- Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 61 (1975), pp. 6-7.
- إننى شديد الإمتنان للبروفسور ج. م. بليلي لكل جهده بذل لإخراج ترجمة أولية في الوقت المطلوب لإيداعها في هذه
- الطبعة .
- ٨٩- دونالدوني في

Missione Archeologica in Egitto dell'Università di Roma, Tamit (1964) (Rome, 1967), pp. 62-4.

والحصول على مراجع نصية أكثر غموضاً عن الملك جول، أنظر ما قبله 9-63، p.

٩٠- تبادل شخصي من إستيفان جاكوبيلسكي . ويبدو التشخيص مريباً في ضوء الإحتمال القاضي بأن كاتدرائية  
فرس كانت قد اجتاحتها الرمال في القرن الثالث عشر (أنظر الفصل الخامس عشر) .

٩١- قارن هريت

Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 (Ithaca, 1966), p. 15, no. 1.

٩٢- أنظر مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 221 .

٩٣- نفسه .

٩٤- أنظر ماركهام، محرراً

Book of the Knowledge of all the Kingdoms, etc. (London, 1912) p. 32 and pl. 14.

٩٥- قارن ما قبله، pp. ix-xii :

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 134 .

٩٦- قارن كرونبرج في Kush XI (1963), pp. 304-311;

وفي كوش Kush XII (1964), pp. 285-6

وادمز في دنكر، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 150 .

٩٧- ميلييه، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 61-2 .

٩٨- قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 103 .

مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 141 .

٩٩- إن هذا على أرجح إحتمال تعريب للإسم القديم عن طريق وضع لام التعريف المألوفة - الداو . مع ذلك، يشير  
بروس تريقر (في تبادل شخصي) أن المصن المروى أدا كان شيئاً مثل أدو، وهو ما يوجب باشتقاق مباشر من  
الإسم الحديث . وإذا كان لأدا أن تُقرن معرفتها بدأو، فإن فقدان الحرف أو إعادة ظهوره في وقت لاحق يظل غير  
معروف .

١٠٠- فيما اقترح قريفيث، مرجع سابق (هامش رقم ٤) pp. 103-4 .

١٠١- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 140 .

١٠٢- نفسه ، p. 141 .

١٠٣- أركيل، مرجع سابق (هامش رقم ٣) pp. 190, 197, 200 .

١٠٤- مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) p. 188 .

١٠٥- Faras, die Kathedrale aus dem Wüstensand (Zurich and Cologne, 1967), p. 44.

١٠٦- قارن بلملي، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) .

١٠٧- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, p. 197 .

١٠٨- أياً كان الأمر، هنالك تقليد أن المسيحية عاشت حتى وقت متأخر في طابغا بالنوبة السفلى ؛ وظل المكان  
معروفاً "بقريّة المسيحيين" في الماضي القريب (تبادل شخصي مع بروس تريقر) .

١٠٩- نقلاً عن كراوفورد، النص المشار إليه منقولاً (هامش رقم ١) .

١١٠- قارن مسعد، المرجع السابق (هامش رقم ١٣) p. 127 .

١١١- في Journal of African History, Vol. XIII (1972), p. 40

١١٢- شيني

Excavations at Soba, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 3 (1961), p. 76

١١٣- الحُراني

Monumenta Catographica Africae et Aegyptii, ed. Prince Youssouf Kamal (Leiden, 1926-53),

- ١١٤- عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (القاهرة، ١٩٦١) (١٤٤-5 pp. ١١٥- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) 9-128 pp. ١١٦- نفسه ، 31-130 pp. ١١٧- ما قبله .
- ١١٨- قارن مونير دي فيلار، مرجع سابق (هامش رقم ٧٠) 200-154 pp. كرافورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) 8-27 pp. :  
و حسن ، مرجع سابق (هامش رقم ٥٠) 198 p. .
- ١١٩- لمناقشة ناقده وترجمة كاملة أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 434-354 pp. Vol. II. ١٢٠- قارن ما قبله 358 p. .
- ١٢١- نفسه ، 9-358 pp. :  
تريمنفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 3-74 p. .
- ١٢٢- أنظر على وجه الخصوص ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠)، 3-431 pp. Vol. II. :  
و كرافورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢٥) 4-163 pp. ١٢٣- أنظر هولت في
- Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XXIII (1960), pp. 1-12;  
وفي Journal of African History, Vol. IV (1963), pp. 39-55;  
و حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 132 p. .
- ١٢٤- مترجمة من بن في Sudan Notes and Records, Vol. XVII (1934), pp. 59-83. ١٢٥- Kush XI (1963), pp. 264-72. ١٢٦- أنظر كرافورد، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٢٥) 137 p. .
- ١٢٧- نفسه 152 p. .
- ١٢٨- نفسه ، جاتاواي في Sudan Notes and Records, Vol. XIII (1930), p. 256. ١٢٩- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 126 p. :  
تريمنفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 78 p. :  
شيني، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩) 7 p. .
- ١٣٠- على سبيل المثال، راجع بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), p. 78; Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1926), Vol. III, pp. 258-61 ; كاليد .
- لينان دي بلفوند  
Journal d'un Voyage à Méroé dans les Années 1821 et 1822, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 4 (1958), pp. 3, 10-11.
- ١٣١- ادمز، مرجع سابق (هامش رقم ٩) 33-126 pp. ١٣٢- إن الأسباب الكامنة وراء إضمحلال المسيحية النوبية وإنثارها مناقشة بتفصيل أكثر في تريمنفهام، المرجع السابق، (هامش رقم ٥٠)، 80-75 pp. : و حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 8-124 pp. :  
و فاتتيني، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٢٢) 8-274 pp. ١٣٣- بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٦٣)، 306 p. Vol. II. :  
حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) 126 p. .
- ١٣٤- بلملي في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 3-4;  
ولترجمة كاملة وتعليق عليه أنظر بلملي

The Scrolls of Bishop Timotheos, Egypt Exploration Society, Texts from Excavations, Memoir 1, 1975.

١٣٥- مثلاً العمري، المرجع السابق (هامش رقم ٧١) : ابن بطوطة

Travels in Asia and Africa, trans. Gibb (London, 1929), p. 323;

البگوي، كتاب تلخيص الآثار وعجب الملك القهار (انظر فانتيني، المرجع السابق، هامش ٢٢ ، pp. 110-11).

١٣٦- أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ١٣) Vol. II, p. 307.

١٣٧- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٠) Vol. II, p. 35.

كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢٥) p. 27.

١٣٨- الفاريس، النص المنقول (هامش رقم ٢٨).

١٣٩- نفسه.

١٤٠- قارين مونير دي فيلار، المرجع السابق (هامش رقم ٧٠) pp. 124-5.

١٤١- فانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ٢٢) p. 141.

١٤٢- بروس

Travels to Discover the Source of the Nile, in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773 (Edinburgh, 1790), Vol. I, p. 98.

والتشديد وارد في النص الأصلي.

١٤٣- راهب إثيوبي إجتاز دنقلا عام ١٥٩٦ لا يزال يميز ما بين العناصر " النوبية " و " المسلمين " وسط السكان .  
انظر تريمفهام

The Influence of Islam upon Africa (London, 1968), pp. 23-4.

١٤٤- هنالك مسجد مهجور في أتيري، ولكن صفته الهندسية توحى بأنه بُني في وقت متأخر للغاية عن الكنيسة التي شُيّدت في نفس الموقع من قبل .

١٤٥- انظر الهامش رقم ١٣٠ .

١٤٦- وسطهم كنائس في أرمنيّا غرب (تريفق

The Late Nubian Settlement at Arminna West, Publications of the Pennsylvania-Yale Expedition to Egypt, No. 2, 1967, pp. 15-17);

جبل عَدَا (ميلي، المرجع السابق، هامش ٧ ، p. 61) :

جزيرة ميلي (ادمز و نورستروم في 34 (Kush XI, 1963) :

و كولبنارتي (ادمز في دنكلر، المرجع السابق، هامش ١٢ ، p. 146).

١٤٧- قارين تريفق، المرجع السابق (هامش رقم ١٤٦)، p. 115 and n. 26.

١٤٨- قارين ميلي، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 61.

## الفصل السابع عشر

المصادر الأساسية : المادة الرئيسية لهذا الفصل مأخوذة من ثلاثة أعمال إخاذة ومتعادلة القيمة تقريبا : ماكمايكل  
A History of the Arabs in the Sudan (2 vols., London, 1922);

حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967)

وتريمفهام Islam in the Sudan (London, 1949)

إن المرجعين الأولين لهما فائدة خاصة عن الهجرات العربية، والمرجع الثالث بالنسبة لانتشار أخذ السودانيين بالإسلام وطبيعته . وفي شأن ما ذُكر في النقطه السالفة استُغْدت للغاية من تعليق هيلسون عن الطبقات لود ضيف

- الله في Sudan Notes and Records, Vol. VI (1923), pp. 191-231
- إن الفقرات الممدودة للوصف الإثنوغرافي في نهاية الفصل منقولة من بورخارت
- Travel in Nubia (London, 1819)
- ومن بين كل الأوروبيين المختلفين الذين زاروا النوبة وكتبوا عنها في بداية العصر الحديث، تُعدّ وقفات بورخارت الصبغة والرقية بعفوية بمثابة رصيد إثنوغرافي، وهو يستحق أن يُعدّ من بين أعظم الدارسين لثقافة الشعوب في كل العصور.
- ١- Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-1908 (Cairo, 1910), Vol. I, p. 348
- ٢- لمناقشة من هذه النقطة، انظر تريمفهام، pp. 81-3، Islam in the Sudan (London, 1949)
- و حسن، The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 174-6.
- ٣- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 177.
- ٤- لعرض عام لدخول الحزام الإفريقي السوداني في الإسلام، انظر ا. م. لويس، محرراً، Islam in Tropical Africa (Oxford, 1966) pp. 4-96.
- ٥- لتاريخ شعبي مختصر عن هذه الإمبراطوريات انظر مرجريت شيني Ancient African Kingdoms (London, 1965).
- وهناك سرود تاريخية أكثر شمولاً لعدة إمبراطوريات كلاً على حدة.
- ٦- قارن تريمفهام في لويس، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 128.
- ٧- لمزيد من التفصيل انظر ما قبله pp. 127-9.
- ٨- تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 99.
- ٩- لويس، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 5.
- ١٠- قارن ادمز في Ethnohistory, Vol. 16 (1969), pp. 280-82
- ١١- قارن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 135-6، و كنيسون في حسن، محرراً، Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 186-96.
- ١٢- ماكمايكل، A History of the Arabs in the Sudan (2 vols., London, 1922).
- لمزيد من المعالجة المختصرة للهجرات العربية انظر تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 81-9؛ حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 135-81.
- هولت، A Modern History of the Sudan (New York, 1961), pp. 5-25
- و عابدين في Sudan Notes and Records, Vol. XL (1959), pp. 48-74
- ١٣- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 145, 162
- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 137-8, 161؛ و عابدين، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 58.
- ١٤- من الممكن أن أي هجرة لقريش لم تقع على الإطلاق. وبما أن سلف قريش (أي العضوية لقبيلة النبي نفسه) تتمتع بمرتبة رفيعة لامتثال لها في العالم الإسلامي، دائماً ما يدعيها أفراد بل قبائل يكملها لا تربطهم بقريش صلة تاريخ.
- ١٥- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 155.
- ١٦- نفسه، p. 156.
- ١٧- نفسه، p. 159.
- ١٨- قارن ما قبله، pp. 142-3, 160.
- ١٩- نفسه، p. 157.
- ٢٠- قارن لويس، The Arabs in History (New York, 1960), pp. 80, 84, 92-3
- ٢١- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 36.

- ٢٢- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 174 .
- ٢٣- تريمنفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 58-9 ، وبخاصة هامش رقم ٥ : حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 10-40 .
- ٢٤- المرجع المذكور انفا (هامش رقم ٢) p. 40 .
- ٢٥- لموجز عن بتودها، انظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 39-40 .
- ٢٦- نفسه ، p. 40 .
- ٢٧- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 167 .
- ٢٨- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 40-41, 50-62 .
- ٢٩- لنبد تاريخية عن قبائلهم، انظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 138-9, 148-51 .
- ٣٠- نفسه ، p. 167 .
- ٣١- لتاريخ قبائل المجموعات الأخيرة، انظر ما قبله . pp. 145, 187-8 .
- ٣٢- كانت مملكتهم ممزقة إرباً واستولى عرب جهينة على بلادهم : كراوفوت في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII (1927), p. 148 .
- ٣٣- لشيء عن تاريخها وجغرافيتها انظر شو في Sudan Notes and Records, Vol. XII (1929), Part I, pp. 63-72 .
- ٣٤- قارين حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 176 .
- ٣٥- نفسه ، p. 175 .
- ٣٦- قارين المرجع نفسه، pp. 135-6 : كذلك آدمز، النص المنقول (هامش رقم ١٠) .
- ٣٧- تريمنفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 82 .
- ٣٨- أى، الجزء الشمالي من القطر باستثناء الجنوب [بدياناته الخاصة به - المترجم] الوثني (المسيحي مؤخراً) .
- ٣٩- يوجد عندهم في ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I : انظر بخاصة قائمة المحتويات .
- ٤٠- تريمنفهام ، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 11 .
- ٤١- لمعرفة تقاليدهم النسبية انظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 197-236 .
- ٤٢- تريمنفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 17 .
- ٤٣- لخرائط تبين مسالك هجرة القبائل في غرب السودان انظر بريور The Republic of the Sudan (London, 1961), p. 150
- و هالاند في بارث، محرراً، Ethnic Groups and Boundaries (London, 1969), p. 60 .
- ٤٤- لمناقشة مطولة عن سلف البقارة انظر كتيسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١) .
- ولانثوغرافيا حديثة (في وصف ثقافة البقارة - المترجم) . انظر كتيسون Baggara Arabs (Oxford, 1966).
- ٤٥- قارين حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 136 ، هولت، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 6 .
- ٤٦- هناك عدد من للتواريخ العامة عن السودان، بما فيها أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961);
- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) :
- والمهدي A Short History of the Sudan (London, 1965)
- ٤٧- نقلاً عن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 127 .
- ٤٨- قارين رياض في فرنيا، محرراً، Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), vol. II, pp. 325-39 .
- ٤٩- انظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 249, n. 42 .



- ٥٠- أنظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 99-100 .
- ٥١- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 143 .
- ٥٢- أنظر كرونبرج في Kush XI (1963), pp. 304-311 وفي Kush XII (1964), pp. 285-6.
- ٥٣- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 84 .
- ٥٤- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 143-4 .
- ٥٥- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 341 .
- ٥٦- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 8 .
- ٥٧- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 342 .
- ٥٨- نفسه ، pp. 342-3 .
- ٥٩- نفسه ، pp. 198-200 .
- ٦٠- المرجع السابق (هامش رقم ١٢) p. 7 .
- ٦١- لنسيهم وتاريخهم أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢)، Vol. I, pp. 307-16. ولوصف، إثنوغرافي حديث أنظر أسد The Kababish Arabs (London, 1970).
- ٦٢- لنسيهم وتاريخهم أنظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 335-7 .
- ٦٣- نفسه ، p. 199 .
- ٦٤- نفسه ، p. 203 : تريمنغهام ، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 9 .
- ٦٥- تحريف سوداني لـ "ملك العربية وهي مستخدمة بشكل واسع لرؤساء القبائل الجلوسية [غير البدوية - المترجم] . ولزيد من التفاصيل أنظر الفصل الثامن عشر .
- ٦٦- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 201 .
- ٦٧- أنظر ما قبله ، pp. 201-3, 212-13 .
- ٦٨- طبقاً لحسن، مرجع سابق هامش رقم ٢) pp. 144 .
- ٦٩- قارن بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 133-4 .
- ٧٠- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 197 .
- ٧١- أنظر آدمز في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), p. 154 .
- ٧٢- تريقر في Journal of African History, Vol. VII (1966), p. 21 .
- ٧٣- ميليه في فرنسا، مرجع سابق (هامش رقم ٤٨) Vol. I, pp. 59-60 .
- ٧٤- أنظر بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 497 .
- ٧٥- لعرض نقدي للنظريات موضع الذاكرة عن اللهجات النوبية، أنظر تريقر، المرجع السابق (هامش رقم ٧٢) .
- ٧٦- قارن ماكمايكل، المرجع المذكور آنفاً (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 200 .
- ٧٧- تُستخدم كلمة الجعليين لتدل على نوع كل القبائل النوبية المستعربة وكذلك كمصطلح معين للقبيلة التي تشغل مقاطعة شندي الحديثة . أنظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 146 .
- ٧٨- أنظر ما قبله ، pp. 146-52 .
- ٧٩- نفسه ، p. 152 .
- ٨٠- أنظر ما قبله ، pp. 145-6 .
- ويعتقد هايكون من ناحية أخرى أن مقاطعة أبو حمد النهرية كانت واحدة من آخر ملاجئ النوبة المسيحية : أنظر Sudan Notes and Records, No. LIII (1952), p. 20.
- ٨١- قارن تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 89 ، وماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 216 .

- ٨٢- تريمغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 88 ؛ ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 234 .
- ٨٣- قارن هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 18 .
- ٨٤- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 221-2 .
- ٨٥- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) p. 133 .
- ٨٦- هذا الرأي العنطري تغدل نوعاً ما منذ نشر مجموعة من الأعمال الحديثة التي أشارت إلى أمجاد ما قبل الإسلام . وهكذا، يبدأ مخطوط عن تاريخ النوبيين خطه داؤد جباراً من وادي حلفا بذكر لتهارقا وشباكا، ولكنه يدور مباشرة لإعادة الإبداع المألوف بالسلف العربي . انظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢)، Vol. II, p. 325 .
- ٨٧- تريمغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 17 .
- ٨٨- لهذا الإستعمال قارن كنيسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، p. 192 . انظر كذلك عبدالرحيم في حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١)، pp. 228-32 .
- ٨٩- هاستينغز، محرراً، Encyclopedia of Religion and Ethics (New York, 1914), Vol. IV, p. 108.
- ٩٠- تريمغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 105 .
- ٩١- قارن ليفي The Social Structure of Islam (Cambridge, 1965), p. 461.
- ٩٢- نفسه ، pp. 53-7 .
- ٩٣- انظر خصوصاً روبرتسون سميث Kinship and Marriage in Early Arabia (London, 1903).
- ٩٤- للمزيد من المناقشة المرسلة انظر قلندر Saints of the Atlas (Chicago, 1969), pp. 41-9.
- ٩٥- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. 131, n. 2 .
- ٩٦- انظر على وجه الخصوص حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 57-68 .
- ٩٧- لمناقشة مفصلة انظر ليفي، مرجع سابق (هامش رقم ٩١) pp. 57-68 .
- ٩٨- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. II, pp. 16-18 .
- ٩٩- ليفي، المرجع السابق (هامش رقم ٩١) p. 56 .
- ١٠٠- انظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 205 .
- ١٠١- لمناقشة أكثر طولاً انظر أنمز، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 277-88 .
- ١٠٢- قارن ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) pp. 211-12 .
- ١٠٣- انظر حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 211-12 .
- ١٠٤- انظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, pp. 198-9 .
- ١٠٥- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 211-12 :
- انظر أيضاً حسن في Sudan Notes and Records, Vol. XLVI (1965), pp. 27-32.
- ١٠٦- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 211 .
- ١٠٧- لمناقشة عامة جيدة عن ذلك النمط من "تجار النسب" وسط السكان غير المتعلمين انظر قودي، محرراً، Literacy in Traditional Societies (Cambridge, 1968), وبخاصة pp. 11-20 .
- ١٠٨- انظر ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٢) Vol. I, p. v .
- ١٠٩- لوصفر سلس والمعي في تحليل النظام القبلي البدوي كما يجري يوماً بيوم، انظر بارث Nomads of South Persia (Boston, 1961).
- ١١٠- كنيسون Baggara Arabs (Oxford, 1966), pp. 11-12.
- العمودية والصرة أسماء شائعة للتفرعات المصغرة للقبائل السودانية . انظر على نفس الصعيد كنيسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١)، وحسن، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) .

- ١١١- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) Vol. I ؛ أنظر بخاصة قائمة المحتويات .
- ١١٢- قارن عبدالرحيم، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) p. 231 .
- ١١٣- لسرود عن نظام المصنّبة بين النوبيين المعاصرين أنظر هرزوق : Die Nubier (Berlin, 1957), pp. 106-7; كرونبرج في Kush XI (1963), pp. 306-9.
- كانلدار في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٨) pp. 181-217 ؛
- و فرنيا و قبرستر Nubians in Egypt (Austin and London, 1973), pp. 17-26.
- ١١٤- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 105 .
- ١١٥- هيلسون في Sudan Notes and Records, Vol. VI (1923), p. 195.
- ١١٦- قارن قودي، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٧) pp. 13-14 .
- ١١٧- هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 197 .
- ١١٨- تعني حرفياً "كتاب الطبقات"، وهو عنوان متفق عليه للأعمال من هذا القبيل لأن السير الحياتية تُصنّف في العادة وفقاً لمجال الممارسة الذي تمتلئه السيرة، مثال ذلك، الوزراء، القضاة، الفلاسفة، الشعراء، إلخ، بالرغم من أن هذا التقليد متبعاً بالذات من ود ضيف الله . أنظر هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥)، p. 191 .
- ١١٩- لتعليق وترجمة في أجزاء معتبرة للطبقات، أنظر ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧)، Vol. III, pp. 217-323 .
- إن الأكثر فائدة تعليق هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) .
- ١٢٠- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧)، Vol. II, p. 218 .
- ١٢١- هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥)، p. 194 .
- ١٢٢- لمناقشة عن هذه النقطة أنظر المرجع نفسه، p. 193 .
- و ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) Vol. II, p. 218 .
- ١٢٣- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) Vol. II, p. 217 .
- ١٢٤- نفسه ، p. 217 .
- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 100 ؛
- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 178 .
- ١٢٥- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 96, 223 .
- ١٢٦- قارن حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 178 .
- ١٢٧- نقلاً عن المرجع نفسه ، p. 179 .
- ١٢٨- في عالم الغرب يُعتقد عادةً أن هذه الكلمة تُكني لزعيم قبلي، ولكنها في الحقيقة تفيد عن أي نوع من القادة، مدنيين أم دينيين، يملك سلطة رسمية . وفي السودان تُطبق دائماً على الأولياء وقادة الطوائف الدينية أكثر من أي محتوي آخر .
- ١٢٩- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧)، Vol. II, p. 220 .
- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 179 .
- ١٣٠- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 220 ؛
- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 180 .
- ١٣١- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) Vol. II, p. 220 .
- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 180 .
- ١٣٢- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) Vol. II, p. 220 .
- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٧) p. 30 .
- ١٣٣- قارن جب ، Mohammedanism (New York, 1962), p. 162.

- ١٣٤- لمناقشة عامة حول حركة الصوفية، انظر ما قبله pp. 127-64 :  
 قزولم Islam (Harmondsworth, 1954), pp. 143-54  
 وبخاصة تريمنغهام The Sufi Orders in Islam (Oxford, 1971).  
 ١٣٥- قارن هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 228 .  
 ١٣٦- قارن تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 191-5 :  
 عبدالرحيم، مرجع سابق (هامش رقم ٨٨) p. 232 .  
 ١٣٧- لتفصيل عن إنشاء الطرق الصوفية في السودان، انظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 195-202،  
 وحسن، محرراً، Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 79-82.  
 ١٣٨- هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 195 .  
 ١٣٩- نفسه ، p. 199 .  
 ١٤٠- تريمنغهام في لويس، مرجع سابق (هامش رقم ٤) p. 137 .  
 ١٤١- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٧) pp. 100-101 : عابدين، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 63 .  
 ١٤٢- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 180-81 : هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) pp. 29-30 : عابدين، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 63 .  
 ١٤٣- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٢) p. 29 .  
 ١٤٤- الإشارة هنا تعود إلى وصف الدامر (بالقرب من مصب نهر عطبرة) الذي قدمه بورخارت عام ١٨١٣ : انظر  
 بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩) pp. 265-70 .  
 ١٤٥- هيلسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١٥) p. 227 : قارن كذلك جب، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٣) pp. 151-2 .  
 ١٤٦- تريمنغهام، مرجع سابق (هامش رقم ٧) p. 101 .  
 ١٤٧- انظر بلمل في Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 50 (1964), pp. 4-5  
 وفي ميخايلوفسكي، محرراً، Nubia, Recentes Re'cherches (Warsaw, 1975), pp. 106-7 .  
 ١٤٨- قارن لويس، المرجع السابق (هامش رقم ٤) p. 28 .  
 ١٤٩- لمناقشة عامة عن تقديس الأولياء وجوانبه المختلفة انظر تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 126-41 .  
 ١٥٠- هيلسون، المرجع السابق (هامش رقم ١١٥) pp. 218-19 .  
 ١٥١- قارن، المرجع نفسه، p. 218 .  
 ١٥٢- نفسه .  
 ١٥٣- نفسه، p. 219 .  
 ١٥٤- نفسه، pp. 219-20 .  
 ١٥٥- نفسه، p. 219 .  
 ١٥٦- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 141 .  
 ١٥٧- لمناقشة عامة عن الأنواع المختلفة من القباب والضرائح انظر ما قبله pp. 142-4 .  
 ١٥٨- نفسه، pp. 143-4 .  
 ١٥٩- لمناقشة مفصلة عن طقوس تقديس الأولياء في القباب، انظر pp. 144-8 : وفرنيا و قرستر، المرجع السابق (هامش رقم ١١٣)، pp. 33-4 .  
 ١٦٠- فرنيا و قرستر، مرجع سابق (هامش رقم ١١٣) p. 33 . وللدراسة الاصلية، انظر نديم في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٨)، Vol. II, pp. 219-37 .  
 ١٦١- تريمنغهام، المرجع السابق (هامش رقم ٧) pp. 122-3 .

- ١٦٢- لمناقشة عامة عن المهدي في السودان وغيره، أنظر ما قبله pp. 148-63 .
- ١٦٣- قارن تريمفهام في لويس، المرجع السابق (هامش رقم ٤)، pp. 128-9 ، و هو دكتور في حسن، محرراً،
- Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 109-27.
- ١٦٤- تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 150 .
- ١٦٥- هيلسون، مرجع سابق (هامش رقم ١١٥) p. 228 .
- ١٦٦- قارن تريمفهام، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٢)، pp. 217-41 .
- ١٦٧- نفسه ، pp. 232-4 .
- ١٦٨- نفسه ، p. 234 .
- ١٦٩- أنظر ما قبله، pp. 166-78 ، و كالندر و الجندي
- Life-Crisis Rituals among the Kenuz, Case Western Reserve University Studies in Anthropology, No. 3 (1971), pp. 11-16.
- ١٧٠- الجندي في فرنسا، مرجع سابق (هامش رقم ٤٨)، Vol. II, pp. 239-56 .
- ١٧١- لمناقشة، موطلة أنظر تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢)، pp. 180-84 .
- وعلى وجه الخصوص كالندر و الجندي، مرجع سابق (هامش رقم ١٦٩) .
- ١٧٢- لمناقشة عن الدين الأرثوذكسي [المحافظ - المترجم] في السودان، أنظر تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 115-25 .
- ١٧٣- نفسه ، p. 123 .
- ١٧٤- نفسه ، p. 117 .
- ١٧٥- نفسه ، pp. 121-2 .
- ١٧٦- قارن المرجع نفسه ، pp. 111-12, 122 .
- ١٧٧- نفسه ، pp. 123-4 .
- ١٧٨- نفسه ، p. 123 .
- ١٧٩- نفسه ، p. 9 .
- ١٨٠- رايزنر، المرجع السابق (هامش رقم ١) p. 347 .
- ١٨١- أنظر Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 52 (1966), pp. 152-5 .
- ١٨٢- قارن ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. III (1964), p. 11 ;
- ١٨٣- قارن بللي، المرجع السابق (هامش رقم ١٨٢) p. 53 .
- ١٨٤- أنظر ميخالوفسكي Faras, Fouilles Polonaises 1961 (Warsaw, 1962), pp. 173-81 ;
- فانتيني
- The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), pp. 257-62.
- ١٨٥- قارن فانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٨٤) p. 257 .
- ١٨٦- University of Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, Vol. XIII (1926), p. 57 .
- ١٨٧- ميخالوفسكي، مرجع سابق (هامش رقم ١٨٤) p. 173 .
- ١٨٨- فانتيني، مرجع سابق (هامش رقم ١٨٤) p. 257 .
- ١٨٩- أنظر ميخالوفسكي في الشكل رقم ١ ، ما يلي p. 222 في Kush X (1962)
- ١٩٠- لتقرير عن هذه الحفريات أنظر آدمز في دنكر، محرراً.

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 141-54.

- ١٩١- لتسلسل زمني عن شغل هذه المواقع أنظر ما قبله p. 151 .  
١٩٢- أنظر أمزني في Kush XII (1965), p. 233  
١٩٣- يشهد على صحة ذلك الأمر الحقيقة القائلة بأن آخر مساكن الوحدة إشتغل علي نصوص بالدعاء المسيحي، مكتوبة بالإغريقية .

- أنظر أمزني، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) p. 149 .  
١٩٤- ما قبله ، pp. 145-6 .  
١٩٥- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩)، p. 140 .  
١٩٦- أمزني، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) pp. 146-7 ، وهامش ١٢ .  
١٩٧- قارين إنقستروم

Notes sur les Modes de Construction au Soudan. Statens Etnografiska Musuem, Samarre Meddelanden No. 26 (Stockholm, 1957).

- ١٩٨- أنظر ما قبله p. 148 .  
١٩٩- كلاً من الرسم العام وفن الديكور الموجود في المنازل النوبية الحديثة يبدو مشتقاً من غرب إفريقيا، حيث عُرف منذ تاريخ أسبق بكثير ؛ قارين إنقستروم، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٧) . ولمزيد من التفاصيل عن بناء المسكن السوداني الحديث وأنماطه أنظر لي في

The Professional Geographer, Vol. XXI (1969), pp. 393-7

- وفي Landscape, Vol. 18 (1969), pp. 36-9;  
جارتنر في فرنسا وقرستر، المرجع السابق (هامش رقم ١١٣) pp. 49-60 .  
٢٠٠- أنظر أمزني، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٠) p. 151 .  
٢٠١- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦٩) pp. 137-8 .  
٢٠٢- أمزني، مرجع سابق (هامش رقم ١٩٠) p. 149 .  
٢٠٣- بونسيه

A Voyage to Aethiopia Made in the Years 1698. 1699, and 1700 (London, 1709), p. 14.

- ٢٠٤- أنظر ميخالوفسكي في Kush XIV (1966), pp. 289-99،  
ونكلر، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) pp. 163-70 ؛  
وجاكوبيلسكي في نكلر، المرجع السابق (هامش رقم ١٩٠) pp. 171-80 .  
٢٠٥- بالرغم من ذلك، فإننا حتى الآن غير قادرين على تتبع أي صلة ما بين فناء المسكن السوداني وخصون القرون الوسطى المتأخرة.

- ٢٠٦- كراويرت The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), p. 44.  
هايكوك، مع ذلك، يعتقد أن كل الحصون الكبيرة تقريباً شُيدت أساساً في الأزمان المسيحية : أنظر  
Adab, Journal of the Faculty of Arts (Khartoum University), Vol. I (1973), pp. 1-12.

- ٢٠٧- يشمل الآخرون واندغتون و هانبري  
Journal of a Visit to some Parts of Aethiopia (London, 1822), Cailliaud, Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826-7; 4 vols.)

- وهوسكنز Travels in Ethiopia (London, 1835).  
إن مجلة Linant de Bellefonds ، مع أنها نُجبت في ١٨٢٦ و ١٨٢٧ ، لم تُنشر حتى عام ١٩٥٨  
(Journal d'un Voyage à Méroé dans les Années 1821 et 1822, Ed. Margaret Shinnie, Khartoum, Sudan Antiquities Service Occasional Papers, No. 4, 1958).

أما تفاصيل رحلة إلى مصر والبلاد ما وراء الشلالات

Narrative of Journey in Egypt and the Country beyond the Cataracts

التي خطّها توماس لي (London, 1817) وقد بلغ قصر إيريم في عامي ١٨١٢-١٨١٣، فهي سبقت بالفعل رحلة بورخارت بأشهر قليلة، لكنها كانت معينة في الغالب بالقطر وأثارة أكثر من النوبيين .

٢٠٨- لسرد خاص بالظروف المعتبرة التي أحاطت برحلة بورخارت أنظر مورهد

The Blue Nile (New York, 1962), pp. 141-66

٢٠٩- الفقرة التي تلي مأخوذة من أماكن مختلفة من بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩)، pp. 132-48 .  
إن أجزاء كثيرة تناولت الإدارة الحكومية خُففت، لكنها سوف يشار إليها في الفصل القادم . وقد تمت مراجعة الهجاء والفواصل بقدر خفيف .

٢١٠- ممارسات الفلاحة بين النوبيين الحديثين تختلف قليلاً من وصف بورخارت : أنظر الفصل الثاني .

٢١١- التسليح الموصوف هنا مماثل بالفعل لما يزال محمولاً من أفراد بعض قبائل البجا، بالرغم من أن النوبيين تخلوا عنه منذ فترة طويلة .

٢١٢- وجد بورخارت فيما بعد أن هذه الممارسة شائعة في النوبة العليا على نفس الصعيد : أنظر المرجع السابق (هامش رقم ٦٩)، pp. 217-19, 269, 280.

٢١٣- ما انفك النوبيون يعترفون بفضيلة نسائهم . إن إكترائهم بهذا المستوى يُعطى عادةً كسبب لمفارقتهم زوجاتهم وبناتهم بالبيت عندما يغادر الرجال للعمل في الخارج حتى لا يفسدن بعادات القاهرة والخرطوم، المنطقة بلا قيد  
٢١٤- بأسعار التبادل الجارية اليوم يساوي ذلك ما يقارب الدولار الأمريكي الواحد، ولكن في زمن بورخارت لابد أن قيمتها كانت أعلى بكثير من ذلك . ويتراوح مهر الفتاة القروية اليوم إلى ما قيمته ٢٠٠ جنيهاً سودانياً .  
٢١٥- وقعت حادثة من هذا النوع في فرس في الستينات (تبادل شخصي مع أندرياس كروننبرج) .  
٢١٦- لايزال الطمبور الآلة الموسيقية الوحيدة الشائعة في النوبة .

٢١٧- معظم الأوروبيين يرونها على هذا المنوال ولاسيما بالمقارنة مع موسيقى مصر الريفية .

٢١٨- تظل هذه الصفة مصدراً لفخر النوبيين الحديثين، وهي تبين إستخدامهم المرغوب في مصر السودان .

٢١٩- جدير بالإشارة أيضاً أن بورخارت سافر دون أي صلاحية رسمية أو مرافق عسكري من أي طرف .

٢٢٠- يبلغ هذا حوالي نصف تقدير السكان الحديثين : أنظر الفصل الثاني .

٢٢١- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦٩) pp. 277-361 .

٢٢٢- مورهد، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠٨) pp. 157-60 ، قطوف من أماكن مختلفة .

٢٢٣- معظم الأسر النوبية في الستينات كانت تمتلك واحداً أو أكثر من هذه المواein .

٢٢٤- قارن كذلك هايكوك، المرجع السابق (هامش رقم ٨٠) .

## الفصل الثامن عشر

المصادر الأساسية : المصدر المحدد لسلطنة الفونج هو كراوفورد

The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951) –

عمل ذو قيمة تاريخية عظيمة بحيث يصعب إدراك أن المؤلف كان مدفوعاً لطبعه طبعاً خاصة، لعدم وجود إهتمام عام به، لعشرين عاماً خلت . إن مصدراً أقرب معاصرة هو أوفاهي و إسبولدنق

Kingdoms of the Sudan (London, 1974), Part I.

وتوجد معلومات طازجة في جيمس بروس

Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773 (Edinburgh, 1790), Vol. IV, pp. 429-561.

تأريخ الشايكية على الأفضل يوجد في كراوفورد، المرجع السابق.

pp. 43-52, 193-5;

هنالك كتاب أيضاً عن الشايكية (Nicholls, The Shaikiya; Dublin 1915) ولم أجد سائجة للاطلاع عليه. أما المصدر الأساسي للمعلومات عن النوبة السفلى تحت الحكم العثماني فهو سرد بورخارت Travels in Nubia (London, 1819), pp. 132-48

ومنه أقتطعت فقرات كثيرة في الفصل السابق. وعن الإستعمار العثماني - المصري هنالك ثلاثة مصادر: دهرين Le Soudan Égyptien sous Mehmet Ali (Paris, 1898); Hill, Egypt in the Sudan 1820-1881 (London, 1959);

وهولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), pp. 35-108.

وعن المهدية، أفضل المصادر تشمل ثيوبولد

The Mahdiya (London, 1951),

و هولت The Mahdist State in the Sudan 1881-1898 (2nd ed., Oxford, 1970).

١- أسندت في صيغ مختلفة إختلافاً يسيراً إلى كارلايل وإمرسون. أنظر بارلت Familiar Quotations, 14th ed. (Boston, 1968), pp. 577a, 605b.

٢- قارن كراوفورد The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester, 1951), p. 186,

و هولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), p. 18.

٣- أنظر كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 134-42 :

هيلسون في Sudan Notes and Records, Vol. XVI (1933), pp. 55-66.

٤- لتسلسل زمني عن زوار النوبة في بواكير العصر الحديث، أنظر الجدول السابع .

٥- قارن بدج The Egyptian Sudan (London, 1907), Vol. I, p. 22,

و شو في Sudan Notes and Records, vol. XII (1929), Part I, p. 64.

٦- Travels in Nubia (London, 1819).

ولإحياء ملموس لاسفار بورخارت ومغامراته أنظر مورفيد The Blue Nile (New York, 1962), pp. 141-66.

٧- المهدية A Short History of the Sudan (London, 1965), p. 35.

٨- بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦) p. 133.

٩- كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 65.

١٠- للمدونة الكاملة عن التسلسل الزمني للفونج "مدونة الفونج" أنظر ماكماكل

A History of the Arabs in the Sudan (London, 1922), Vol. II, pp. 354-438

١١- قارن هولت في

Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. XXIII (1960), pp. 1-12,

وفي Journal of African History, Vol. IV (1963), pp. 39-55;

أيضاً حسن The Arabs and the Sudan (Edinburgh, 1967), pp. 132-3.

١٢- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 18 :

وحسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 132.

١٣- أب، في آخر الكلمة، مضافاً إلى اسم جدر مؤسس أو جماعة قبلية، تدل على "سليل (هذا الفرد أو تلك

الجماعة)". وبالرغم من أن أب من أصل بجاري، تستخدم من معظم القبائل العربية والجليلين في وادي النيل وشرقه

. أنظر حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 142.

١٤- مترجمة من بن في Sudan Notes and Records, Vol. XVII (1934), pp. 59-83.



- ١٥- قارن حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١)، p. 133 .
- ١٦- قارن المرجع نفسه .
- ١٧- كراوفورد (مرجع سابق، هامش ٢ ، 4-332 ، 6-164 pp) يقترح تاريخاً أسبق في القرن السادس عشر لحكم عبدالله جماع على أساس ما يجوز إعتباره نسباً قبلياً غير مكتمل للعبدلاب . انظر هامش رقم ٢٢ فيما يلي .
- ١٨- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 :
- حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١١) p. 134 .
- ١٩- حسن، المرجع المذكور أنفاً (هامش رقم ١١) p. 134 .
- ٢٠- قارن تريمفهام Islam in the Sudan (London, 1949), p. 85
- ٢١- كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 154 :
- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 22 .
- ٢٢- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 :
- أركيل A History of the Sudan, 2nd ed. (London, 1961), p. 208
- ٢٣- بروس
- Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769, 1770, 1771, 1772, and 1773, 2nd ed. (Edinburgh, 1805), Vol. VI. P. 370.
- ومنذ وقت قريب إستعداد إسبولدتق النظرية القائلة بأن الفونج في الأصل جاءوا من أعالي النيل، ولكنه يعتقد أنهم كانوا أسبق من الشك وجوداً في تلك المنطقة . انظر
- Journal of African History, Vol. XVIII (1972), pp. 39-53.
- ٢٤- أركيل في Sudan Notes and Records, Vol. XXVII (1946), pp. 87-98،
- و أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) 9-206 pp .
- ٢٥- شاتواي في Sudan Notes and Records, Vol. XIII (1930), pp. 247-58؛
- نادلر في Sudan Notes and Records, Col. XIV (1931), pp. 61-6؛
- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢)، 55-143 pp .
- ٢٦- قارن حسن في Sudan Notes and Records, Vol. XLVI (1965), pp. 27-32؛
- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 246 .
- ٢٧- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 154 ؛
- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 75 .
- ٢٨- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، 60-358 pp. Vol. II .
- ٢٩- قارن كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) 7-136 pp .
- ٣٠- ما قبله، 174، 172، pp. 172، 174؛ ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، 3-431 pp. Vol. II .
- ٣١- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) p. 360 Vol. II .
- ٣٢- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 19 :
- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 134 .
- ٣٣- إن ماثور العبدلاب الذي يجعل منه إبناً لعبدالله جماع، مؤسس القبيلة، لابد أنه يعود إلى حذف أجيال عديدة من نسب العبدلاب .
- انظر كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 174 ، و ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠)،
- Vol. I, pp. 245-6.
- ٣٤- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢)، 20-19 pp .
- ٣٥- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 87 .

- ٣٦- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 179 .
- ٣٧- بروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VII, Ch. 9 .
- ٣٨- قارن كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 30 .
- ٣٩- بروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VI, p. 391 .
- هذا الافتراض موضع للتحدي : انظر نيكولس The Shaukiya (Dublin, 1913), pp. 17-18 .
- ٤٠- بروس، مرجع سابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VI, pp. 370, 423, 428-9 .
- ٤١- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 21 .
- ٤٢- مقعد في الحقيقة، ويكاد مستقيماً أن إستلهاهم من غرب إفريقيا .
- انظر أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) p. 211 and Fig. 27 .
- ٤٣- يُعتقد أن تاج الفونج ذا القرون الشهيرة مأخوذ من غطاء رأس الإبارشة النوبة المسيحيين، بالرغم من أن أي علاقة مباشرة لم تثبت أبداً . انظر أركيل، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) : p. 210, Fig. 26, p. 211 .
- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, pp. 248-9 .
- وكراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 325-7 .
- ٤٤- نعيم شفير، تاريخ السودان (القاهرة، ١٩٠٣)، المجلد الثاني pp. 100-101 .
- ٤٥- بروس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣) Vol. VI, pp. 372-3 .
- ٤٦- تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) pp. 86-7 .
- ٤٧- قارن كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 136 .
- حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١١) p. 174 .
- ٤٨- بروس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣)، Vol. VI, pp. 371-2 .
- ٤٩- تريمفهام في لويس (هامش رقم ٢٠) p. 85 . إن هولت، مع ذلك، وضّح أن غزو النوبة من قبل سليم الأول خيال تاريخي : انظر Journal of African History, Vol. VIII (1967), pp. 19-23 .
- ٥٠- قارن تريمفهام في لويس، محرراً، Islam in Tropical Africa (London, 1966), p. 128 .
- ٥١- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, pp. 213-15 .
- ٥٢- وادينغتون و هانيري Journal of A visit to Some Parts of Ethiopia (London, 1822), p. 122 .
- ٥٣- تريمفهام، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) p. 88 .
- ٥٤- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 44 .
- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 7 : و مورهد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) p. 151 .
- ٥٥- مورهد، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 151 .
- ٥٦- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 70-71 .
- ٥٧- وادينغتون و هانيري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) pp. 98-9 .
- ٥٨- قارن هيك، محرراً The Journals of Major-General C. G. Gordon at Khartoum (London, 1885), pp. 30, 68, 78, 130, 166, 185, 208, 241, 259, 266-7, 314, 342, 347, 351 .
- ٥٩- نفسه ، p. 166 .
- ٦٠- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 213 .
- ٦١- آيد كراوفورد هذه النظرة (مرجع سابق، هامش رقم ٢ ، p. 44) ، وفقاً لهارتمان في Zeitschrift für Allgemeine Erdkunde, Vol. XIV (1863), p. 167 .
- وينكر هذه النظرة ماكمايكل (المرجع السابق، هامش ١٠ ، Vol. 1, p. 213, no. 4) و شوينفيرث بناء على البيئة التي قدمها بورخارت (مرجع سابق، هامش ٦ ، p. 70) و شوينفيرث

- ٦٢- قارن كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 193 .
- ٦٣- قارن ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 216 .
- ٦٤- أنظر كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 194 .
- ٦٥- نفسه ، 5-193 pp. .
- ٦٦- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) pp. 88-9 .
- ٦٧- لا يجب أن يُخلط هذا الإسم مع إسم مروي القديمة، بالرغم من أنه يُنطق مثله . فمروي الحديثة قرية تقع بالضبط تحت الشلال الرابع، في مقاطعة نبتة القديمة . وليس مؤكداً ما إذا كان الإسم قد أُطلق عليها من الأوربيين الرحالة الأوائل الذين افترضوا لدى مشاهدتهم آثار الأهرامات البارزة في الناحية (قارن الفصل العاشر) أن هذه هي مروي القديمة، أم أنه بمحض صدفة إسم نو أصل عربي . إن قرب مروي من خرائب نبتة - أكثر من خرائب مروي التي تبعد عنها بمسافة ١٥٠ ميلاً جنوب النهر - تظل إلى اليوم مصدراً لربكةٍ لأحد لها .
- ٦٨- مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 195 .
- ٦٩- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 216 ;
- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠)، p. 89 .
- ٧٠- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 195 .
- ٧١- ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 217 .
- ٧٢- كاليرد Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc (Paris, 1826) Vol. II, pp. 40-41 .
- ٧٣- لأوصاف مفصلة لكثير منها، أنظر كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 43-9 .
- ٧٤- نفسه ، p. 44 . اعتقد هايكوك، مع ذلك، أن أكبر القلاع بُنيت أصلاً في الأزمان المسيحية أنظر Adab : Journal of the Faculty of Arts (Khartoum University), Vol., I (1973), p. 2 .
- ٧٥- نقلاً عن كراوفورد Ethiopian Itineraries, c. 1400-1524 (Cambridge, 1958), pp. 180-81 .
- ٧٦- بروس، المرجع السابق (هامش رقم ٢٢) Vol. VI, p. 418 ;
- قارن أيضاً برواني Travels in Africa, Egypt, and Syria from the Year 1792 to 1798 (London, 1799), p. 182 .
- ٧٧- وادينغتون و هانبري، مرجع سابق (هامش رقم ٥٢) p. 103 .
- ٧٨- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 89 .
- ٧٩- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 22-3 .
- ٨٠- نقلاً من أجزاء مختلفة من بورخارت، المرجع السابق (هامش رقم ٦)، pp. 133-5 .
- مع مراجعة الهجاء وفواصل العبارات .
- ٨١- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٥) Vol. II, p. 207 ;
- كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 171, n. 16 ;
- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) 84 : هيرزوق Die Nubier (Berlin, 1957), p. 74 .
- ٨٢- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 23-4 ، والمرجع المنقول في النص (هامش رقم ٤٩) : إن المؤلف يقترح تاريخاً بعد ١٥٥٠ بعد الإحتلال العثماني ؛ ومن ناحية أخرى، بليلي، الذي حفر قصر إبريم، يعتقد أن الإحتلال العثماني بدأ هناك في عام ١٥٢٨ (تبادل شخصي) .
- ٨٣- قارن بدج، مرجع سابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 207-8 ;
- تريمفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 84 : كراوفورد، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 168-71 ;
- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 24 .
- ٨٤- قارن كراوفورد، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 169-70 ;

- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٤٩) .
- ٨٥- لعرض عن مصر تحت الحكم العثماني أنظر هولت  
Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 (Ithaca, 1966).
- ٨٦- المرجع السابق (هامش رقم ٦) p. 146 .
- ٨٧- نفسه ، p. 135 .
- ٨٨- أنظر هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 24 .
- ٨٩- لمزيد من المعلومات عن الكشف وواجباتهم أنظر فانسلب  
The Present State of Egypt (London, 1678), pp. 16-19;
- ماكمايكل، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. II, p. 331 :  
و هيل On the Frontiers of Islam (Oxford, 1970), p. xvii.
- ٩٠- هيرزوك، مرجع سابق (هامش رقم ٨١) p. 76 .
- ٩١- نفسه ، pp. 76-7 : فيلد  
Contributions to the Anthropology of the Faiyum, Sinai, Sudan, Kenya (Berkeley and Los Angeles, 1952), p. 165.
- ٩٢- قارين ماكمايكل، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) Vol. I, p. 166, n. 1 .
- ٩٣- تريمنفهام، مرجع سابق (هامش رقم ٢٠) p. 84 .
- ٩٤- ميليه في Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. III (1964), p. 11.
- ٩٥- فانتييني  
The Excavations at Faras, a Contribution to the History of Christian Nubia (Bologna, 1970), p. 262
- ٩٦- آدمز في دنكلر، محرراً،  
Kunst und Geschichte Nubiens in Chrislicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 144-5.
- ٩٧- أنظر حول سرد نوردن الخاص مؤلفه  
Travels in Egypt and Nubia, trans. Tempelmann (London, 1757).
- ولموجز له أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 13-17 .
- ٩٨- بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 15 .
- ٩٩- نفسه ، p. 18 .
- ١٠٠- أنظر براوني، المرجع السابق (هامش رقم ٧٦) لسرده الخاص ولموجز لخط رحلاته أنظر بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. I, pp. 22-5 .
- ١٠١- قارين شوفي Sudan Notes and Records, Vol. XII (1929), Part I, p. 64.
- ١٠٢- نفسه .
- ١٠٣- نفسه .
- ١٠٤- قارين تير  
Egyptian Guilds in Modern Times, Israel Oriental Society, Oriental Notes and Studies, No. 8 (1964), pp. 2-15;
- فرنيا، محرراً  
Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966), Vol. I, pp. 8-9.
- ١٠٥- بورخارت، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ٦) p. 147 .
- ١٠٦- تير، مرجع سابق (هامش رقم ١٠٤) p. 135 .
- ١٠٧- لمذكورة عن السيرة الحياتية للثلاثة أفراد موضع الحديث أنظر جنغفليس في  
Sudan Notes and Records, Vol. XXVII (1946), pp. 239-40.

١٠٨- بورخارت، مرجع سابق (هامش رقم ٦) pp. 135-9 . نقلاً عن أماكن مختلفة، مع مراجعة طليعة للهجات وفواصل العبارات .

١٠٩- انظر نتينقي The Arabs (New York, 1964), p. 212.

١١٠- انظر مورفيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 47-132 ،  
لوصفر أخاذ، وقراءة جيدة للبيئة الفرنسية لمصر .

١١١- يجادل ديتشارد هيل في نسبة محمد علي ذائعة الصيت إلى أصل الباني (قارن 13، p. 85، op. cit. (Holz) : انظر

A Biographical Dictionary of the Sudan, 2nd ed. (London, 1967), p. 249 and Egypt in the Sudan, 2nd ed. (London, 1967), p. 249 and Egypt in the Sudan (London, 1959), p. 4.

١١٢- السرد الماضي مأخوذ في الأساس من مورفيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 133-40 : انظر أيضاً هيل، مرجع سابق (هامش رقم ٨٥) pp. 176-80 .

١١٣- انظر هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 36 .

١١٤- مورفيد، مرجع سابق (هامش رقم ٦) p. 135 .

١١٥- قارن هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 37 .

١١٦- لمناقشة أبعد مدى في هذه النقطة، انظر هولت،

المرجع السابق (هامش رقم 7-35 pp. : وهيل

Egypt in the Sudan 1820-1881 (London, 1959), pp. 1-4.

١١٧- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 37, 39 .

١١٨- إنقراض أركيل القاضي بأن امتلاك الأسلحة النارية لعب دوراً هاماً في نهوض سلطنات الفونج و دارفور (المرجع السابق، هامش ٢٢ pp. 203-16) غير مثبت بالتينة التاريخية .

١١٩- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 38 .

١٢٠- لعرض عن الفترة العابرة لإقامة الممالك في السودان انظر روينسون في

Sudan Notes and Records, Vol. V (1922), pp. 88-94.

١٢١- اخذ المرجع الماضي عن حملة إسماعيل من هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) pp. 39-41 .

ولوصفر متعدد وأكثر تفصيلاً انظر مورفيد، المرجع السابق (هامش رقم ٦) pp. 166-86 . أما السرد الميدانية للحملة فتعود إلى وادينغتون و هانبري (مرجع سابق، هامش رقم ٥٢) و كاليد (المرجع السابق، هامش رقم ٧٢) .

١٢٢- قارن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 42 .

١٢٣- نفسه 4-43 pp. .

١٢٤- نفسه (هامش رقم ٦) p. 186 .

١٢٥- نفسه .

١٢٦- أخذ هذا الوصف للإدارة الإستعمارية في غالبيه من هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) . p. 43 : انظر كذلك هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) pp. 22-4 . ومما تجدر الإشارة إليه، مع ذلك، انه كانت هنالك إعادات تنظيمية متعددة خلال الحكم التركي . المصري . ولقترق قصيرة أُلغيت الحكومة المركزية مرة واحدة وجُعل حكام المحافظات مسئولين مباشرة للقاهرة .

١٢٧- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) p. 46 .

١٢٨- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) p. 25 .

١٢٩- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) p. 43 .

١٣٠- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) pp. 46-7 .

١٣١- نفسه ، 8-27 pp. .

- ١٢٢- نفسه ، I . p.
- ١٢٣- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) pp. xvii, 48-51 .
- ١٢٤- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) p. 43 . ولمناقشة عن قانون الشرع الإسلامي ومكانه في النظام القانوني السوداني أنظر أكولاوين في حسن، محرراً، Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 279-301.
- ١٢٥- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦) pp. 43-5 .
- ١٢٦- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) pp. 43-50 .
- ١٢٧- بدج، المرجع السابق (هامش رقم ٥) Vol. II, p. 223 .
- ١٢٨- بيكر The Albert N'yunza and the Great Basin of the Nile (London, 1866), Vol. I, p. 11.
- ١٢٩- قارين هيل، المرجع السابق (هامش رقم ٨٩) p. xv .
- ١٤٠- نفسه ، xviii-xix . pp.
- ١٤١- أنظر هيل، مرجع سابق (هامش رقم ١١٦) pp. 70-72 .
- ١٤٢- أنظر خاصة ما قبله، pp. 134-42 . هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 62-71 .
- ١٤٣- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 58-69 .
- ١٤٤- نفسه ، 33 . p.
- ١٤٥- أنظر على وجه الخصوص، المرجع السابق (هامش رقم ١١٦)، pp. 62-4 .
- ١٤٦- نفسه ، 101-2 . pp.
- ١٤٧- نفسه ، 73-4, 78-9 . pp.
- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 61 .
- ١٤٨- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 63-4 .
- ١٤٩- نفسه ، 64-6 . pp.
- ١٥٠- ما قبله ، 68 . p.
- ١٥١- قارين ما قبله ، 66-71 . p.
- ١٥٢- قارين ما قبله ، 75-9 . pp.
- ١٥٣- قارين بيتر، المرجع السابق (هامش رقم ١٠٤) pp. 135 .
- ١٥٤- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 79 .
- ١٥٥- نفسه ، 78 . p.
- ١٥٦- أنظر لويس، محرراً، Islam in Tropical Africa (London, 1966), pp. 38-44 .
- وهوبنكن في حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١٢٤) pp. 109-27 .
- ١٥٧- هنالك ثلاثة عروض تصويرية (وأحياناً جامعة الخيال) مباشرة للمهدية : ونجت Mahdism and the Egyptian Sudan (London, 1891);
- أوهولدر وونجت Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, 1882-1892 (London, 1892);
- وسلاطين Fire and Sword in the Sudan (London, 1896).
- إن معالجات حديثة أكثر إتزاناً ودراسة أخرجها ثيويولد
- The Mahdiya (London, 1951), pp. 27-122
- و هولت The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, 2nd ed. (London, 1970), pp. 45-1132.
- ولعرض شائع أنظر شرشل The River War (London, 1899), pp. 1-34
- و مورهد The White Nile (London, 1960), pp. 207-75.
- ١٥٨- هيل، المرجع السابق (هامش رقم ١١١) p. 247 .

١٥٩- هذا السرد عن بزوغ المهديّة وإسقاط النظام التركي - المصري يتبع هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) . pp. 75-8

و ثيوبولد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 27-122 .

١٦٠- لمزيد من المعلومات عن هذا الفصل وأثره على الأحداث في السودان، أنظر هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٨٥) pp. 211-30 .

١٦١- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٧) p. 82 .

١٦٢- نفسه ، p. 85 .

١٦٣- أنظر المرجع نفسه، p. 89 و مورهد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) p. 228 .

١٦٤- هيك، المرجع السابق (هامش رقم ٥٨) .

١٦٥- المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 35-68 .

١٦٦- المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 233-75 .

١٦٧- ثيوبولد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) p. 140 .

١٦٨- لتحليل عن الصفة القيادية الكارزمية [أي الصفات الكامنة في الشخص - المترجم] للمهدي، أنظر دكميجيان و ويزومرسكي في Comparative Studies in Society and History, Vol. 14 (1972), pp. 193-214 .

١٦٩- هذا العرض عن دولة المهديّة أخذ أساساً من هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 86-9 . ولمزيد من التفاصيل أنظر ثيوبولد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 172-88 : وهولت، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 105-222

١٧٠- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 100 .

١٧١- لمزيد من السرد المفصلة لحملة غزو السودان من جديد، أنظر ثيوبولد، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 189-262:

هولت، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 232-42 : مورهد، المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧) pp. 332-47.

وبخاصة شرشل، مرجع سابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 107-364 .

١٧٢- أنظر Life ، عدد ٤ أبريل ١٩٥٥ ، p. 31 .

ولإطلاع على وصف شرشل الكامل لمعركة أم درمان، أنظر المرجع السابق (هامش رقم ١٥٧)، pp. 257-300 .

١٧٣- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 77 .

## الفصل التاسع عشر

المصادر الأساسية : اعتمدت بالنسبة للتاريخ السوداني في القرن العشرين إعتقاداً مكثفاً على هولت A Modern History of the Sudan (New York, 1961), Parts III-IV.

ولتهجير النوبيين المصريين إرتكزت على مقالة فرنيا و وكنيدي في Current Anthropology, Vol. 7 (1966), pp. 349-54,

وعدة مساهمات في فرنيا، محرراً، Contemporary Egyptian Nubia (New Haven, 1966).

إن تهجير النوبيين السودانيين موصوف في الغالب على أساس معرفة ميدانية مباشرة : وقد تحصل على معلومات قيمة عن التوطين في كل من السودان ومصر من ليل High Dam at Aswan (London, 1965), pp. 134-45 .

١- بمقتضى قرض مقداره ٨٠٠.٠٠٠ جنيه إستراتيجي للحكومة المصرية، وقد تحل مؤخراً إلى منحة تامة . أنظر The Mahdiya (London, 1951), pp. 195-6.

٢- قارن بوجي خاص كرومر Modern Egypt (New York, 1909), Vol. II, pp. 112-15.

- و هولت . A Modern History of the Sudan (New York, 1961), pp. 109-10.
- ٢- قارين هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 109 .
- ٤- كرومر، مرجع سابق (هامش رقم ٢) Vol. II, p. 110 .
- ٥- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 111 .
- ٦- نفسه ، pp. 111-12 .
- ٧- نفسه ، p. 117 .
- ٨- أنظر هولت . The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, 2nd ed. (Oxford, 1970), p. 14.
- ٩- أنظر خاصةً هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 113 .
- ١٠- أنظر على وجه الخصوص ما قبله. p. 127-9 :
- كذلك عبدالرحيم في حسن، محرراً، Sudan in Africa, Sudan Research Unit, Sudan Studies Library, 2 (1971), pp. 232-3.
- ١١- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 129 .
- ١٢- لمناقشة أزيد، أنظر بخت في حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) pp. 256-78 .
- ١٣- نقلاً عن هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 133 .
- ١٤- كوري في Journal of the African Society, Vol. XXXIV (1935), p. 49.
- ١٥- هولت، مرجع سابق (هامش رقم ٢) p. 133 .
- ١٦- نفسه ، pp. 142-3 .
- ١٧- لمزيد من التفصيل عن خلفية الأحزاب السياسية السودانية وتطورها، أنظر المرجع نفسه. pp. 143-6 .
- وعبدالرحيم في حسن، المرجع السابق (هامش رقم ١٠) pp. 232-3 .
- ١٨- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 151-2 .
- ١٩- اتخذ خلفاء محمد على لقب "الملك" بعد عام ١٩٢٢ : أنظر ما قبله، p. 125 .
- ٢٠- نفسه ، p. 162 .
- ٢١- نفسه ، pp. 165-6 .
- ٢٢- نفسه pp. 160, 166 .
- ٢٣- أنظر جمهورية السودان Sudan Almanac 1959 (Khartoum, 1959), pp. 135-7.
- ٢٤- قارين عبدالرحيم في حسن، مرجع سابق (هامش رقم ١٠)، pp. 230-31 .
- ٢٥- بريور The Republic of the Sudan (London, 1961), p. 108.
- ٢٦- بقيت دارفور مستقلة حتى تم غزوها عام ١٩١٦ .
- ٢٧- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 147-50, 153 .
- ٢٨- ليس في دماء السودانيين الجنوبيين خلطة قوقازية، ومن ثم تجددهم أشد حلقة في لونهم من المسلمين الشماليين . إن هذا الفرق الواضح يجعلهم مُعرضين للتفرقة العنصرية إلى حدٍ مقدر في الشمال
- ٢٩- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) p. 146 .
- ٣٠- لتقرير ممتد عن مؤتمر جوبا أنظر سعيد
- The Sudan, Crossroads of Africa (London, 1965), pp. 46-71.
- ٣١- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 152-3 .
- ٣٢- نفسه ، pp. 166-7 .
- ٣٣- لمزيد من المناقشة المفصلة عن سياسة حكومة السودان تجاه البعثات التبشيرية، أنظر سعيد، المرجع السابق، (هامش رقم ٢٠)، pp. 85-114 .
- ٣٤- لأراء السودانيين الشماليين عن مشكلة الجنوب أنظر المرجع السابق، ويشير



- ٥٤- أنظر كنيدي في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٤) Vol. II, pp. 356-7 .
- ٥٥- أنظر خاصة إسكندر في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٤) Vol. I, p. 125 .
- ٥٦- قارن تريقر، المرجع السابق (هامش رقم ٥٢) p. 19 .
- ٥٧- أنظر على وجه الخصوص إسكندر في فرنيا، المرجع السابق (هامش رقم ٤٤) Vol. I, p. 125 .
- ٥٨- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) pp. 349-50 .
- ٥٩- ليتل High Dam at Aswan (London, 1965), pp. 140-42 .
- ٦٠- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) p. 352 .
- ٦١- لمزيد من التفاصيل أنظر ما قبله ، pp. 350-51 ، وليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩)، pp. 142-4 .
- ٦٢- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) p. 351 .
- ٦٣- قارن كالندار و الجندى
- Life Crisis Rituals among the Kenuz, Case Western Reserve University Studies in Anthropology, No. 3 (1971).
- ٦٤- فرنيا و كنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) p. 352 .
- ٦٥- نفسه ، pp. 352-3 .
- ٦٦- نفسه ، p. 354 .
- ٦٧- نفسه ، pp. 351-2 .
- ٦٨- ما قبله ، p. 353 .
- ٦٩- نفسه ، p. 354 . ولمذكر عن الدراسات الأنثروبولوجية المتواصلة وسط النوبة المصرية التي أُعيد توطينها
- أنظر فهم في Current Anthropology, Vol. 14 (1973), pp. 483-5 .
- ٧٠- قارن جمهورية السودان
- Population Census in Wadi Halfa Rural Area and Town (Khartoum, 1960), pp. 36, 85.
- ٧١- قارن ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 135-6 .
- ٧٢- هولت، المرجع السابق (هامش رقم ٢) pp. 176, 187 .
- ٧٣- نفسه ، p. 130 .
- ٧٤- نفسه 187 p. .
- ٧٥- ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 134-5 . ولموجز تفصيلي للتعقيدات السياسية والمناورات التي أدت إلى إتخاذ القرار الخاص بخشم القرية، أنظر عبدالله في
- Sudan Notes and Records, Vol. II (1970), pp. 56-74.
- ولسرد مؤثر عن برنامج التوطين بأكمله في السودان أنظر دفع الله The Nubian Exodus (London, 1975).
- ٧٦- ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 135-6 .
- ٧٧- كان هذا التفاضل شائعاً بهذه السذاجة لدرجة أن زوجتي وشخصي، عشنا بصفتنا مستمررة في وادي حلفا من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤ ، فنعنا إلى نفس الاعتقاد الخاطئ أنه لن نُجبر أبداً على مفارقة دارنا المريحة . وظللنا على هذا الاعتقاد حتى عام ١٩٦٤ عندما تقبلنا في النهاية على مضض حتمية الرحيل .
- ٧٨- قارن ليتل، المرجع السابق (هامش رقم ٥٩) pp. 136-7 .
- ٧٩- نفسه ، p. 139 .
- ٨٠- نفسه ، p. 140 .
- ٨١- نقلاً عن وينزل House Decoration in Nubia (London, 1972), p. 1 .
- ولصورة فوتوغرافية عن النقش أنظر الصفحة المقابلة .
- ٨٢- للمزيد عن المساكن النوبية في خشم القرية، أنظر لي في Landscape, Vol. 18 (1969), pp. 38-9 .

٨٣- ليتل، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) p. 137 .

٨٤- نفسه .

٨٥- أنظر سيد أحمد في Sudan Notes and Records, Vol. XLVIII (1967), p. 161.

٨٦- نفسه ، p. 162 .

٨٧- نفسه ، p. 161 .

٨٨- قارن ليتل، مرجع سابق (هامش رقم ٥٩) p. 137 .

٨٩- بصفة أساسية قبائل العرب من جماعة الشكرية، والبجا من قبيلة الهندوة .

٩٠- لتقرير موجز للغاية عن وضع النوبيين في خسم القرية من بعد خمس سنوات أنظر فهم Nubian Resettlement in the Sudan, Field Research Projects, Miami (1972).

٩١- قارن فرنيا وكنيدي، المرجع السابق (هامش رقم ٤٣)، p. 354 .

٩٢- جيسر، المرجع السابق (هامش رقم ٤٢) p. 189 .

ويعتقد جيسر أن الخزانات ما أعطت سوى حافز لعملية الهجرة إلى الخارج والتي كانت جارية آنفا . وفي رأيه أن أسطورة الخزائن سمحت للنوبيين للتمسك بأسطورة التشبث بأرض الأجداد في الوقت الذي خلصتهم فيه من الإلزام بالحياة فيها .

## الفصل العشرون

١- المادة الرئيسة لهذا الفصل فُرنيت كورقة للمساهمة في ندوة متعددة الاختصاص عن وادي النيل تحت رعاية برنامج جامعة كولورادو في الدراسات الإفريقية والشرق أوسطية، ٢٩ أبريل - ١ مايو ١٩٧١ .

٢- بركلي ولوس أنجلس، ١٩٧٠ .

٣- ما قبله ، p. xii .

٤- نيويورك، ١٩٦٨ .

٥- للمزيد من المناقشة المطولة في هذا الشأن، أنظر آدمز في Antiquity, Vol. XLII (1968), pp. 194-215.

٦- أصلاً في

Archaeological Survey of Nubia, Bulletin No. 3 (Cairo, 1909), pp. 5-6.

٧- قارن المرجع نفسه ، pp. 21-52 .

٨- لندن، ١٩٦٥ . وتشمل تواريخ النوبة التي استمرت في تكرار نظريات رايزنر في الهجرة، أركيل A History of the Sudan , 2nd ed. (London, 1961),

وفيريسيرفس The Ancient Kingdoms of the Nile (New York, 1962).

٩- لمناقشة ومراجع إضافية أنظر الفصل الأول .

١٠- أنظر بصفة خاصة A Study of History (New York, 1962) Vols. 1-2

١١- على نحو ما هو مرسوم كخطوط عريضة في Oriental Despotism (New Haven, 1957).

١٢- أنظر على وجه الخصوص The Science of Culture (New York, 1949), pp. 363-98.

١٣- أنظر خصوصاً هاريس The Rise of Anthropological Theory (New York, 1968), pp. 643-87.

١٤- من بين أولئك الذين يبدو لي أنهم عبروا عن هذه النظرة هنري سمير مِتْن، أ. ب. تايلور، أميل دوركهايم ولوسن ليفي - بريل في

Äncient Law (London, 1861), E. B. Taylor in Primitive Culture (London, 1871), Emile Durkheim in Les Formes Élémentaires de la Vie Religieuse (Paris, 1912), Lucien Lévy-Bruhl in Les Fonctions mentales dans les Sociétés Inferieures (Paris, 1910) and la Mentalité Primitive (Paris,

1912).

١٥- لمناقشة رأى الأشخاص أقل حضارة في الأزمان القديمة والعصور الوسيطة أنظر جونز و ثابار في  
Comparative Studies in Society and History, Vol. 13 (1971), pp. 376-436.

١٦- للأهمية البالغة المتعلقة بهذا المصطلح، أنظر على وجه الخصوص رديفيلد  
The Little Community and Peasant Society and Culture (Chicago, 1960), pp. 40-59.

١٧- قارن توينبي، مرجع سابق (هامش رقم ١٠) Vol. 8, pp. 1-72 .

١٨- هاريس، المرجع المذكور أنفا (هامش رقم ١٣) pp. 377-8 .

١٩- أنظر خاصة فرانبر، Methods der Ethnologie (Heidelberg, 1911),

وشميدت The Culture Historical Method of Ethnology, trans. Sieber (New York, 1939).

٢٠- أنظر كلوكهولن في American Anthropologist, Vol. 38 (1936), pp. 157-96.

٢١- لتطور أكثر لهذه الرسالة، أنظر كروير The Nature of Culture (Chicago, 1952), pp. 379-95.

٢٢- لشرح حول 'عدوى' الثقافة، أنظر كلوكهولن، المرجع السابق (هامش رقم ٢٠) p. 165 .

٢٣- قارن على وجه الخصوص رديفيلد، لينتون و هيرسكوفيتش في

American Anthropologist, Vol. 38 (1936), pp. 149-52;

و لينتون، محرراً، Acculturation in Severn American Indian Tribes (New York, 1940), pp. 463-520;

بارنت Innovation: The Basis of Cultural Change (New York, 1953);

و بارنت وآخرين في American Anthropologist, Vol. 56 (1954), pp. 973-1002.

٢٤- بارنت وآخرين، المرجع السابق (هامش رقم ٢٣) p. 980 .

٢٥- على النحو الذي يمثل الدفن بالسرير الذي وجد منذ وقت قريب في كولبارتي : أنظر آدمز في دنكلر، محرراً  
Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), p. 149.

٢٦- أنظر خاصة كيرنز Philosophies of History (New York, 1962), pp. 204-30.

٢٧- قارن ما قبله، pp. 256-76, 322-36 ومهدي

Ibn Khaldun's Philosophy of History (Chicago, 1964), pp. 255-7.

٢٨- في The New Science, trans. Bergin and Fisch (New York, 1961), esp. Books Four and Five. (First published 1725.)

٢٩- في The Philosophy of History, trans. Sibree (New York, 1944). (First published 1837.)

٣٠- The Decline of the West, trans. Atkinson (2 vols., New York, 1932). (First published 1918).

٣١- Social and Cultural Dynamics (4 vols. New York, 1937); The Crisis of our Age (New York, 1941).

٣٢- A Study of History (12 vols. New York, 1962-1963). (Vols. 1-3 first published 1934; Vol. 4-6 first published 1939; Vols. 7-11 first published 1954; Vol. 12 first published 1961.)

٣٣- لمناقشة عن بعض هذه النقاط، أنظر كارنز، المرجع السابق (هامش رقم ٢٦)، pp. 35-195, 299-319 .

٣٤- لمناقشة في هذا الموضوع، أنظر نيسبه على وجه الخصوص

Social Change and History (New York, 1969).

٣٥- Social and Cultural Dynamics (New York, 1937), esp. Vol. IV.

٣٦- لمناقشة إضافية أنظر آدمز في دنكلر، محرراً

Kunst und Geschichte Nubiens in Christlicher Zeit (Recklinghausen, 1970), pp. 111-28.

٣٧- أي، المعاهدة التي مهرها الجنرال الروماني فلورس في أسوان : أنظر الفصل الثالث عشر .

٣٨- معاهدة البق : أنظر الفصل الرابع عشر .

The Philosophy of Symbolic Forms, trans. Manheim (New Haven, 1953), Vol. II (first published 1925);

The Idea of History (New York, 1956); كراينفيلد

فرانكفورت وآخرين Before Philosophy (Harmondsworth, 1949)

ويخاصةً p. 11-38, 237-63.

٤٠- مرجع سابق (هامش رقم ١٤).

٤١- مقالاً على ذلك. Primitive Society (New York, 1920), p. 441.

٤٢- أوضح ما يكون في Zur Kritik der Politischen Ökonomie (Berlin, 1859)

Ithaca, 1953 ٤٣-

٤٤- أنظر الهامش رقم ١٦.

٤٥- قارن فيرث و ميلز From Max Weber: Essays in Sociology (New York, 1946), pp. 51-5.

٤٦- في كراينفيلد و آدمز، محررين City Inevitable (Chicago, 1960), pp. 391-404.

٤٧- لمناقشة عن مفهوم " الأساليب الأفاقية " أنظر ويلى في تينيت، محرراً

A Reappraisal of Peruvian Archaeology, Memoirs of the Society for American Archaeology No. 4 (1948), pp. 8-19.

٤٨- أوضح ما هو عليه في Patterns of Culture (New York, 1946), pp. 41-51.

٤٩- قارن

Configurations of Culture Growth (Berkeley and Los Angeles, 1944), and the Nature of Culture (Chicago, 1952), pp. 358-72.

٥٠- قارن ميد في ليرنر و هاسول، محررين، The Policy Sciences (Stanford, 1951), pp. 70-85,

وفي كروير، محرراً Anthropology Today (Chicago, 1953), pp. 358-72.

٥١- بنديكت The Chrysanthemum and the Sword (Boston 1946).

٥٢- قارن مئرو Métraux في

Themes in French Culture (Stanford University Hoover Institute Studies, Series D, No. 1, 1954).

٥٣- لمراجعة لهذه الجهود أنظر سوروكين Social Philosophies in an Age of Crisis (Boston, 1950);

كروير Style and Civilizations (Berkeley and Los Angeles, 1963), pp. 83-160;

ميلكى The Nature of Civilizations (Boston, 1969)

و ويسكوت The Enumeration of Civilizations (MS).

٥٤- للمناقشة، قارن على وجه الأخص كروير، المرجع السابق (هامش رقم ٥٣) وميلكى، مرجع سابق (هامش رقم ٥٣).

٥٥- طُورت هذه الفكرة على وجه التمام في سوروكين، المرجع السابق (هامش رقم ٣٥). أنظر كذلك كروير في Current Anthropology, Vol. 3 (1962), pp. 79-97.

٥٦- أنظر في شأن خلفية العلوم الطبيعية في علم أصول الأجناس بنيمان على الخصوص

A Hundred Years of Anthropology, 3rd. ed. (London, 1965), pp. 49-180.

٥٧- قارن بالذات كروير، المرجع السابق (هامش رقم ٢١) pp. 379-95.

٥٨- أشد ملاحظةً في

Configurations of Culture Growth (Berkeley and Los Angeles, 1944); An Anthropologist Looks at History (Berkeley and Los Angeles, 1963);

- المرجع السابق (هامش رقم ٥٣) : والمرجع السابق (هامش رقم ٥٥) .
- ٥٩- المرجع السابق (هامش رقم ١٦) و . (The primitive World and its transformations (Ithaca, 1953).
- ٦٠- خصوصاً في المقالات المتنوعة المجموعة في Theory of Culture Change (Urbana, 1955).
- ٦١- مثلاً على ذلك هيربرت مولي (The Uses of the Past; New York, 1952, and Freedom in the Ancient World; New York, 1961);
- روستون كولبورن (The Origin of Civilized Societies, Princeton, 1959);
- كارول كويكلى (The Evolution of Civilizations; New York, 1961);
- فيليب باقبي (Culture and History; Berkeley and Los Angeles, 1963);
- و ماثيو ميلكو (مرجع سابق، هامش رقم ٥٣) .
- ٦٢- لمناقشة المنهج المقارن أنظر، بين مصادر عديدة أخرى، أكيركنشت في سبنسر، محرراً Method and Perspectives in Anthropology (Minneapolis, 1954), pp. 117-25;
- إيقان في إسبيرو، محرراً Context and Meaning in cultural Anthropology (New York, 1965), pp. 357-72;
- و هاريس، مرجع سابق (هامش رقم ١٣) pp. 150-62.
- ٦٣- لتثمين لأعمالهم أنظر على الخصوص لوي The History of Ethnological Theory (New York, 1937), pp. 39-67;
- هيس From Ape to Angel (New York, 1964), pp. 32-49;
- وهاريس، المرجع السابق (هامش رقم ١٣)، pp. 180-200 .





## محجوب التجاني محمود

- أستاذ علم الاجتماع في جامعة ولاية تنسي بالولايات المتحدة ، وأحد المختارين ضمن أبرز معلمى أمريكا عام ٢٠٠٢ من هيئة Who is who's America's Teachers
- وُلد في أم درمان ، درس بالسودان ، وحصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة بروان بولاية رود آيلند ، ١٩٨٣ .
- رئيس الأبحاث في المركز الإفريقى للديمقراطية وحقوق الإنسان في جمهورية القامبيا ، ٩٢ - ١٩٩٤ .
- رئيس المنظمة السودانية لحقوق الإنسان - القاهرة .
- مستشار الشؤون الاجتماعية في حكومة السودان المنتخبة ديمقراطيا (٨٦ - ١٩٨٨) .
- عميد كلية السجون - الخرطوم ، ٨٤ - ١٩٨٦ .
- رئيس إتحاد الإخصائيين الاجتماعيين ، المقرر الثقافى لجمعية تنظيم الأسرة ، أحد مؤسسى إتحاد الكتاب السودانيين ، ورئيس تحرير دورية حقوق الإنسان السودانى .
- من مؤلفاته بالإنجليزية قوانين السودان والقانون الدولى لحقوق الإنسان ، مفكرون سودانيون ، حقوق الإنسان في إفريقيا ، والبيروقراطية والتغيير الاجتماعى : وشارك في مؤلف الأمم المتحدة عن نماذج التنمية الإفريقية ومؤلفات أخرى .
- من مؤلفاته بالعربية حقوق المرأة الإفريقية ، الدين والدولة في السودان ، إدارة ما الديكتاتورية ، ومجموعة كتبه العقاب ومعاملة الجانحين في دولة المهدية ، تط الجريمة والعقاب في السودان ، انحراف الأحداث ، وقضايا معاصرة للعدالة الجنائى في موسوعة سودانية .
- من تراجمه الأصول الفكرية للوطنية المصرية للكاتب السودانى جمال محمد أحمد الشرع الإسلامى والمجتمع في السودان للباحثة الأمريكية كارولين فلوهر - لوبان سجين الخليفة للألمانى شارلس نيوفلد ، والصحراء والقصر ، قصة عن المهدية ، للكاتب البولندى هنريك شنكافتش الحائز على جائزة نوبل في الآداب .
- يعمل على إصدار موسوعة للعدل الجنائى الإسلامى .
- النوبة أكبر تراجمه المنشورة .